عدد خاص

المجلس الأعلى للغة العربية

العربية الراهن والمأمول

- راهن اللغة العربية ومستقبلها في أوطانها.
- وضع اللغة العربية خارج أوطانها.
- اللغة العربية: الترجمة، المصطلحية، المعجمية، التعليميات.
- دور المؤسسات ذات الاختصاص في النهوض بالعربية.
- سبل توطين التقانات باللغة العربية.
- مستقبل اللغة العربية ورهانات العصر.

منشورات المجلس

2009

اللغة العربية في أوطانها بين التحديات والآ فاق

أ.د. محمد اليونبوعي

كلية الآداب سايس- فاس- المغرب

مقدمة

لا يخفى على عاقل اليوم، الدور الكبير الذي تضطلع به اللغة في حياة الأمم والشعوب؛ فهي الوسيلة الفعالة للتواصل والترابط والتوحد بين أجيال الأمة الواحدة المتباعدين في الأمصار والأعصار، وهي وسيلة الإبداع المتميز في الجانب العلمي والأدبي والحضاري، وهي الناقلة لأفكار الناس ورؤاهم من عصر إلى عصر، وهي، فضلا عن كل ما ذكر، سمة من أهم السمات الحضارية التي تميز أمة عن أخرى. يقول الدكتور عبد العلي الود غيري في هذا الصدد :"واللغة بحكم أنها

لا يمكن تصور وجودها إلا وهي مرتبطة بالمجتمع الذي يستخدمها اشد الارتباط، يكون من خصائصها ووظائفها بجانب كونها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته من مجتمع لآخر، أنها تعد اصدق مؤرخ لحياة هذا المجتمع وحياة ثقافته وحضارته، وذاكرته التي تختزن عنه كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وسلوكه، وإيمانه وكفره، وغناه وفقره، وتعلمه وجهله وأدبه ومهارته وفنه، بل إنها ذاكرة تحتفظ أيضا بأدق الصور والمعلومات عن حياته اليومية، وعن بيئته ومناخه وطبيعته الحية والميتة. وباختصار كل ما يريد المرء أن يعرف عن هذا المجتمع من تفاصيل قد

لا نجد أحيانا من الأدلة على وجودها في وثائق التاريخ ولكننا نجدها في تضاعيف كلمة من كلمات القاموس اللغوي؛ فأنت بمراجعة اللسان العربي في قواميسه القديمة، وتقليبه على وجوهه، تعرف من أحوال العرب القدامى وعقائدهم الجاهلية وأوصاف حياتهم وتفكيرهم ومعيشتهم وبيئتهم في جفافها وقسوتها ما يغنيك عن قراءة ابن خلدون أو ابن الأثير أو غيرهما من مؤرخي العرب الكبار."[1]

ولعل المتتبع لشأن العربية في القرون السالفة ، خاصة قرون الشهود الحضاري، حينما كانت للأمة العربية الإسلامية السيادة والريادة، يلاحظ أن هذه اللغة قد قامت بأدوارها على أحسن ما يرام ،لكنها اليوم وللأسف الشديد، نراها قد تولت الأدبار، وتراجعت القهقرى، ونالت حظا وافرا من الوهن والضعف بسبب

---

[1]- في الثقافة والهوية ص11

التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها كل يوم .ولذلك فقد ارتأيت أن يكون موضوع حديثي في هذا العدد الخاص من مجلتكم- الذي خصصتموه مشكورين للحديث عن قضايا اللغة العربية: راهنا ومستقبلا هـو الحـديث عن التحديات المختلفة التي تواجه هذه اللغة في الوطن العربي، وسبل النهوض بها.وسأنظم أفكارها ضمن المحـاور التالية :

***مقدمة عن أهمية اللغة**

1-التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

*تحديات في مجال الإعلام

*تحديات في مجال التربية والتعليم

*تحديات في مجال الإدارة والمؤسسات العمومية

*تحديات في مجال الاستعمال اليومي

2 - مقترحات لتجاوز التحديات:

* تعريب المحيط العام:
* دعوة المجامع اللغوية للقيام بواجبها
* مقترحات أخرى

1-التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

1-1تحديات في مجال الإعلام:

يعتبر هذا المجال من المجالات الحيوية، في الوطن العربي، التي يدخل من بابها الخير والشر.ولعل المتتبـع لهـذا الشأن يلاحظ أن العربية الفصحى قد دخلها شر كبير من هذا الجانب؛ وذلك ناجم عـن الإفـراط في اسـتعمال اللغات الأجنبية والد وارج واللغات المحلية، في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية.وهذا الأمر يكاد ينطبق على كل بلدان الوطن العربي سواء المغاربية منها أم المشرقية. ففي مجال الإذاعات المسموعة نجد المحطات التي تبث برامجها صباح مساء بالفرنسية أو الاسبانية أو الا نجليزية أو العامية.يقول أحد الصحفيين المغاربة مصورا هـذا المشهد المأسوي:

"باتت الإذاعات الخاصة بالمغرب تطرح مشكلا في غاية الخطورة، لا يدري المرء معه ما إذا كان حله يدخل ضمن اختصاصات الهيئة العليا للسمعي البصري أم يتعداها ليدخل ضمن صلاحيات الحكومة والبرلمان، وإن كان مؤكدا، مع ذلك، أنه يندرج ضمن اهتمامات الهيئات الثقافية والسياسية المغربية التي يتعين عليها أن تتصدى له بحزم في أفق حله وتجاوزه.

يتعلق الأمر، تحديدا، بما يمكن أن نسميه «فتح المجال لإعادة استعمار المغرب من جديد»، حيث إن هذه الإذاعات الخاصة التي تحمل نعت وصفة «مغربية» صارت تفتخر بإعلان تبعيتها للغة والثقافة الفرنسيتين انطلاقا من لغة الحديث والحوار والاختيارات الغنائية، ومرورا بـ «نقل» عدد من البرامج مباشرة من إذاعات فرنسية، وانتهاء بتغطية الحياة الفنية والثقافية والإعلامية بفرنسا دون ذكر اسم هذا البلد، وكأن المستمع المتابع لبرامج هذه الإذاعات يقطن بإحدى المدن أو القرى الفرنسية وليس بمدن المغرب وقراه.

بل، أكثر من ذلك، صارت بعض هذه الإذاعات «تحرض» على استعمال اللغة الفرنسية كبديل للغة البلاد الرسمية (كما هي في نص الدستور، الذي لم يتم تغييره بعد فيما نعلم) وهي اللغة العربية

أما في مجال القنوات الفضائية فالأمر أسوأ وأفدح.ومن أمثلته القريبة البرنامج الذي كان يقدمه صحفي عربي كبير وكاتب قومي شهير على قناة الجزيرة. وقد كان حريصا ألا يتحدث فيه إلا بالعامية، وكأنما يتحدث فقط إلى أصدقائه وأقاربه في مصر وليس إلى كل العرب، في مختلف ربوع المعمور وفي ذلك خسارة إعلامية كبيرة للمتحدث وللقناة ذات الطابع العربي الدولي." [1]

إن هذا التقرير الذي قدمه صاحبه عن حالة العربية الفصحى في مختلف مجالات الإعلام المسموعة والمرئية في المغرب الأقصى، يمكن تعميمه على عدد كبير من الدول العربية التي سبق لها أن ابتليت بالاستعمار الأجنبي و لم تتخذ بعد قرارا حاسما لصالح التعريب. وهذا يعكس الحالة المزرية التي تعيشها هذه اللغة في أوطانها

2-1 تحديات في مجال التربية والتعليم

إن حال اللغة العربية الفصحى في هذا المجال، لا يقل سوءا عن المجال السالف الذكر؛ إذ حالها هنا تدمي له القلوب، وتفجع من اجله الثكلى نظرا للاهتمام الكبير الذي أصبح يعطى للغات الأجنبية واللهجات المحلية على

1- - مصطفى المسناوي- جريدة المساء المغربية عدد :515

حسابها. ولعل اكبر دليل على ما نقول هو هذا الإقبال الكبير على مدارس البعثات الأجنبية؛ وكمثال على ذلك فان نسبة التلاميذ المغاربة المسجلين في مدارس البعثة الفرنسية قد وصل هذه السنة54 % مقابل41 % للتلاميذ الفرنسيين المقيمين في المغرب.وذلك ناجم

عن عدة أسباب أذكر منها ما يلي:

* ترويج الكتاب والمفكرين الأجانب، ومن تأثر بهم من أبناء جلدتنا لعدة مقولات تحط من شأن العربية، ومن خريجي مدارسها. فهي في زعم هؤلاء صالحة لأن تكون لغة قصة وأدب وشعر، وغير صالحة لأن تكون لغة طب أو علم أو تجارة أو صناعة ...الخ. وقد أدى هذا الأمر إلى عزلها عزلا تاما أثناء تدريس العلوم الحديثة والنظر إليها بأنها لغة متخلفة ، رغم توفرها على كل ما تتوفر عليه كل اللغات الحية من وضوح العبارة ،وسلامة البنيان اللغوي، والقدرة على التطور ومواكبة المستجدات ، وغيرها من السمات الرائعة والدقيقة التي يعرفها أهل الاختصاص.وان كان ثمة من عيب فهو لا يرجع إليها، وإنما يرجع إلى متكلميها؛ فمن الحقائق المقررة عند علماء اللغة الاجتماعيين أن اللغات تتأثر سلبا وإيجابا بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها أصحابها؛ فتطورها مرتبط بتطورهم ،وضعفها مرتبط بضعفهم .يقول الدكتور عبد العلي الود غيري مقررا هذه الحقيقة :(إن التجربة والعلم والتاريخ كل ذلك يعلمنا أن اللغة – أية لغة- تضعف بضعف أصحابها وإهمالهم لها وتقوى بقوتهم.

كل لغة يمكن أن تموت بالإهمال وان تزدهر بالاستعمال. وما أصاب مسيرة التعريب من نكسات في السابق لم يكن إلا بسبب أن القرار السياسي لم يتخذ لصالح التعريب. ويوم يتخذ القرار الثوري والضروري الذي يومن بالفكرة ويعمل على تطبيقها مهما كانت التضحيات، ستبطل كل المزاعم والترهات التي تلصق ظلما بالعربية والتعريب.)[1] ورحم الله شاعر العربية حافظ إبراهيم القائل في قصيدته

أنا البحر في أحشائه الدر كامن: *** فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

* عدم فقه القائمين على أمرها بالأدوار الكبيرة والوظائف المتنوعة التي تقوم بها اللغة في حياة الأمم والشعوب؛ إذ أن معظمهم لا يعرف للغة إلا وظيفة واحدة، وهي وظيفة التواصل والتعبير عن أغراض الناس وحوائجهم.وهذا مخالف تماما لما تقره الدراسات اللغوية الحديثة ،التي تؤكد أن للغة عدة وظائف ،تعتبر الوظيفة المذكورة من قبل واحدة منها فقط ،فاللغة عند هؤلاء العلماء ليست مجرد أداة يتخاطب بها الناس ، ولا مجرد تعبير عن الفكر. بل هي إلى جانب ذلك ذات خصائص ووظائف أخرى أهم وأعمق، من أهمها: أنها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وصياغته الصياغة التي تجعله في هذا المجتمع مختلفا عنه في مجتمع آخر يقول الفيلسوف لألماني

[1]-في الثقافة والهوية ص145-146 عبد العلي الودغيري

هردر موضحا هذا الأمر:" لا يمكن أن نشك في أنها-يقصد اللغة-....هي التي تخلق العقل ،أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا ، وتسدده وتوجهه اتجاها خاصا."[1]

ويقول اللغوي المشهور ادوارد سابير مؤكدا الآمر نفسه بعبارة أخرى:

" إن اللغة هي التي تجعل مجتمعا يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها، وان ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وان تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محددة في ذاتها ومحددة لنظرة المجتمع المتكلم فيها للعالم والحياة."[2]

* إضعاف معاملها في مختلف الأسلاك المدرسية وعدم العناية بخريجي مدارسها ، إذ تعطى كل الامتيازات لخريجي المدارس الأجنبية على مستوى المنح والتوظيف ...الخ فأعداء العربية نسبوا إليها كل شر ورسموا لخريجها آفاقا مسدودة ومظلمة في حين نسبوا لضرائرها وعلى رأسهن الفرنسية كل مزية وفضل، ووعدوا خريجي مدارسها بكل أسباب الرزق والسعادة "فطريقها، أي الفرنسية، طريق كل خير ومنحها سخية وجوائزها مريحة وسنية وخبزها نظيف والعمل بها شريف وهي مفتاح الرزق وباب العرفان وهي لغة الماضي والمستقبل ولغة الدين والآخرة إلى آخر الكلام المعسول."[3]

* الضغوط التي تفرض على الأمة من قبل التيار الفرانكفوني وصناديق النقد الدولي التي تقدم المعونات والقروض لهذه الدول .

* مزاحمتها بالعديد من اللغات واللهجات، منها الداخلي ومنها الأجنبي، حتى أصبح هذا الخليط اللغوي بمثابة ضرائر لهذه اللغة.

3-1 تحديات في مجال الإدارة:

من التحديات الخطيرة التي تواجهها العربية الفصحى في الوقت الراهن هو عدم إعمالها في المراسلات الإدارية والرسمية عند كثير من الدول الناطقة بها، رغم صدور عدة مراسيم حكومية، وعدة توصيات من المجامع اللغوية العربية التي توصي بضرورة إعمالها بدل اللغات الأجنبية الأخرى إلا في الحالات القصوى. فإذا نظرنا في الإدارة المغربية مثلا فسنجد أن معظم مراسلاتها باللغة الفرنسية، وهذا ما صرح به الأستاذ موسى الشامي رئيس

---

[1]-حصاد الفكر العربي الحديث في اللغة العربية ص : 123 إعداد جماعة من الأساتذة

[2] اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص220: نايف خرما (كتاب سلسلة عالم المعرفة التي تصدر بالكويت) اصدار 1978

[3]- في الثقافة والهوية ص145

الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لجريدة التجديد المغربية حيث قال: إن 90 % من وثـائق الإدارات العموميـة المغربية ما تزال تصدر بالفرنسية وهذا رقم مخجل ومخيف ناطق واضح الدلالة لا يحتاج إلى تعليق.

4-1 تحديات العزلة عن الحياة العامة:

لقد ذكرنا، قبل جملة من التحديات التي تواجهها العربية، ويبدو لي أن أخطر هذه التحـديات هـو إبعادها عن الإعمال في الحياة العامة والخاصة لمتكلميها، لان ذلك يعني الحكم عليها بالفناء.

فقد حلت اللهجات العامية محلها، وأخذت مكانها في ألسنة الناطقين العرب. ونتج عن ذلك نشـوء مجموعة اللهجات المحلية، التي تختلف من بلد لآخر داخل القطر الواحد، فإذا كان عدد البلدان العربية اثنتين وعشرين دولة، هي مجموع الأعضاء في جامعة الدول العربية، فإن لدينا اثنتين وعشرين لهجة عامة، تتفـرع عنها لهجات بلدية تتميز كل منها عن الأخرى ببعض الخواص الصوتية، ففي مصر ـــ مثلاً ـــ نجد لهجـة مشتركة بين جميع المواطنين، ولكن صعيد مصر (الوجه القبلي) له لهجته الخاصة المتميزة، كمـا أن للـدلتا لهجتها المتميزة.

وقد يكون لمواطني الإسكندرية خواصهم اللهجية التي لا تجري على غير ألسنتهم.

غير أن مجموع المواطنين في مصر يتفاهمون بالعامية المشتركة التي تتبناها أجهـزة الإعـلام، وتنشـر بها رسالتها، سواء في ذلك الإذاعة والتلفزيون وأفلام السينما.

وهكذا الحال في كل قطر عربي، غير أنهم يقتربون من اللغة الفصحى عند مستوى ثقافي معين، فيخلطون مستوى الفصحى بمستوى العامية، وتنشأ عن ذلك لغة (فصعمية)، أي : خليط من الفصحى والعامية، وهـذا الخليط يختلف نسبياً من دولة إلى دولة. وإن كانت كمية الاختلافات قليلة، نظراً إلى انتشار وسائل الإعلام التي تستخدم في أحيان كثيرة المستوى (الفصعمي).

ولسنا نستطيع أن نتجاهل عاملاً خطيراً من بين عوامل عزل الفصحى، وهـو اسـتعمال المشـتغلين بالتدريس في المدارس العامة (حتى نهاية المرحلة الثانوية) للهجات، أو لمستوى رديء من الفصعمية.

وأخطر من ذلك تأثيراً استخدام أساتذة الجامعات في الآداب للعامية (اللهجات المحلية)، وليس ذلك من باب المبالغة أو التجني، فنحن لا ننكر وجود أساتذة يحترمون اللغة الفصـحى، ويلتزمـون بأدائهـا في محاضراتهم. وفي مقابل هؤلاء نجد بعض من يدرسون مادة (النحو العربي) ويستخدمون اللهجات العامية في مخاطبة الطلاب بقواعد النحو وسائر علوم العربية.

فإذا كانت هذه هي الحال في كليات الآداب، وبخاصة في علوم العربية، فإن الحال أسوأ في سائر الكليات التي تتخصص في الفنون والعلوم المختلفة، بحيث لا يسمح للعربية أن تدلف إلى قاعات المحاضرات والبحوث. وربما جاز لنا أن نقول: إن جماهير الأساتذة في علوم الهندسة والطب والحقوق والعلوم والزراعة والفنون التشكيلية، والمواد التربوية... الخ هؤلاء جميعاً لا يعرفون شيئاً من قواعد العربية الفصحى، وممارسة الحديث بها.

هذا تصوير غير مخل للوضع الذي تواجهه الفصحى في أوطانها العربية، فهي لا تجد لخطواتها مكاناً يسعها، اللهم إلا في بعض خطب الجمعة ــــ على قلتها ــــ فأما مجالات الخطاب الجماهيري، كمجالس النواب والشورى والمجالس القومية المتخصصة فقد أخلصت ولاءها للعامية، وخاصمت الفصحى"[1].

2-مقترحات للنهوض بأمر العربية

إن المتأمل فيما ذكر من قبل يلاحظ أن هذه اللغة تعيش وضعا معكوسا منكوسا؛ إذ ينطبق عليها قول العرب:" لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس." وعليه فإنه يتعين على الغيورين عليها وعلى الكتاب الذي نزل بها من أهل العلم والمال، والقرار السياسي على السواء البحث عن السبل التي تمكنها من استرجاع عافيتها قبل فوات الأوان . وفى السطور التالية عرض لبعض المقترحات في هذا الباب :

2-1 تعريب المحيط العام:

لقد جرت العادة حينما نتحدث عن التعريب، أن ينصب حديثنا عن تعريب التعليم والإدارة والإعلام، وننسى أن تعريب هذه المجالات لا يحقق أهدافه إلا إذا كان مرفقا بتعريب المحيط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ..الخ ؛وهذ ا ما اقره عدد من الخبراء العارفين بمهالك ومسالك اللغة العربية. يقول الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في هذا الصدد:(هناك رهان ثان يتعلق بتعريب المحيط، في علاقته بتعريب التعليم العالي،خاصة،والتعليم عامة. فما فهمنا ولاحظنا هو أن المحيط الاقتصادي وقطاعات الشغل تفضل توظيف من يتقن اللغة الأجنبية أو الفرنسية على الخصوص.وهذا التفضيل لا يرجع لكون التكوين باللغة العربية لا يمكن من المعارف، ولكن" لكون المكون باللغة الأجنبية له قدرة تواصلية أكبر من المكون بالعربية" فيما يبدو.ثم إن التنافسية تفرض على هذا المحيط أن يستعمل اللغة الأجنبية، مما يجعلها لغة الفرص والشغل. فالمكون باللغة العربية يجد نفسه أمام عائق، وتقفل أمامه أبواب الشغل. وإذا استمر هذا العائق، فان نهج سياسة تعددية يضعف حظوظ اللغة العربية، مادام هناك موقف مسبق منها.بل إن تعريب التعليم العالي يصبح ضارا بمصلحة التلميذ، وفرصه في الشغل، الخ وهذا المنطق خطير لأنه

---

[1] - اللغة العربية إلى أين ص163-164 عبد الصبور شاهين

قد يعمم على الثانوي والتقني بل حتى الأساسي. إن التقليص من وظائف اللغة الوطنية بدعوى التنافسية منطق مغلوط. فأصغر الدول مثل هولندا وفنلندا والسويد وغيرها تعلم بلغتها من الروض إلى الجامعة، وتشتغل بهذه اللغة. وليس الانفتاح على اللغات الأجنبية مدعاة لتفردها بوظائف لغة العمل في الاقتصاد والاتصال الخ. فلابد من تدخل الدولة، والتشريع اللساني، لحماية اللغة الوطنية، وفرز خطة لغوية ناجعة ومعقولة، لا تقضي على اللغة الوطنية تدريجيا.)[1]

2- 2 دعوة المجامع اللغوية للقيام بواجبها:

إن المجامع اللغوية العربية تقوم بجهود جبارة من اجل ترجمة المصطلح وتوحيده لكن الواجب الملقى على عاتقها يفوق ذلك بكثير فالمفروض في كل مجمع -كما يقول الدكتور هيثم الخياط-:(أن يقود ركب التوعية والتنبيه.. وان يلفت النظر إلى كل مكر خفي يهدف إلى قطع صلة هذه الأمة بلغتها وثقافتها الأصلية. وان يبذل جهده الصادق الواعي الفاهم ليجعل من الفصحى لغة التخاطب العامة، وان بقيت للعامية آثار قليلة متفرقة في طبقات الناس بعد ذلك.. وان يقول كلمته واضحة صريحة لا يتلجلج ولا يجمجم: في لغة التعليم، ولغة التوجيه، ولغة التثقيف...وان يعرف أبناء هذه الأمة بتراثهم،لا من اجل أن ينتفجوا بهذا التراث، ولكن من اجل أن ينطلقوا منه انطلاقا مبدعا، ويتعلموا من سلفهم كيف يكون الإخلاص للعلم، وكيف يكون المنهج العلمي الصحيح، وكيف ينطلق الفكر المكبل، من كل إسار يجعله يخلد إلى الأرض.. وانه لواجب-لو تعلمون-عظيم!)

3 – مقترحات أخرى:

– مطالبة وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي بتقوية حصص العربية في مختلف أسلاك التعليم بنوعيه العام والخاص.أسوة بكل الدول المتقدمة التي تعطي الحيز الكافي في برنامجها التعليمي للغتها الأم.

– مطالبة الدول العربية بتفعيل القرارات الصادرة عن اتحاد المجامع اللغوية التي توصي بتعميم العربية واتخاذها لغة رسمية داخل الإدارة والإعلام والتعليم

– تفعيل كل القرارات الداعية إلى دعم هذه اللغة ، ومن جملتها تلك الدعوة الصادرة في ميثاق التربية والتكوين المغربي التي تدعو إلى تأسيس أكاديمية تعنى بأمر هذه اللغة كتابة وقراءة

– تقوية حصص العربية في المعاهد العليا للصحافة لتخريج إعلاميين متمكنين من هذه اللغة

– تخصيص برامج إذاعية وتلفزية لتقويم اللسان العربي.

---

[1] –أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، ص22

– تعريف الخاصة والعامة بالبعد العالمي لهذه اللغة وتمتيع خريجيها بنفس الامتيازات التي يتمتع بها خريجو المدارس الأجنبية.

– فرض رقابة لغوية على كل الملصقات واللافتات التي تعلق في الشوارع وأمام المحلات التجارية أسوة ببعض الدول الرائدة في هذا المجال.وعلى رأسها دولة العراق.

– إعمال المصطلح العربي ووضع جمارك صارمة أمام مرور المصطلحات الأجنبية إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة علمية ما.

– إنتاج العلم والمعرفة إذ لا حياة لهذه اللغة بدون حياة أصحابها.

– التخفيف من وطأة اللهجات واللغات المزاحمة لها وإقناع الناس بأن الدفاع عن العربية هو دفاع عن الأمة ككل ودفاع عن هويتها وليس دفاعا عن جنس بعينه.إذ العربية ليست سمة لعرق مخصوص دون غيره وإنما هي سمة لكل من تكلم بها وقد جاء في الأثر" من تكلم العربية فهو عربي"

– تطوير طرق تدريسها كتابة ونطقا.

– الحرص على التكلم بها في جميع الملتقيات والمنتديات الوطنية والدولية أسوة بالأجانب المعتزين بلغتهم. وقد أصبحت الأمم المتحدة اليوم تهدد بحذفها من اللغات الرسمية لأن أهلها لا يتكلمون بها في اللقاءات والمؤتمرات.

– رفع ملتمس إلى النواب والوزراء والفاعلين السياسيين، وكل الجهات المسئولة في كل الدول العربية يطلب منهم الاهتمام بهذا الأمر وجعله من أولى أولوياتهم السياسي[1]

***خاتمة**

إن اللغة العربية بالنسبة للعرب وكل الدول الإسلامية الناطقة بها شرط بقاء ووجود، فهي مصيرهم وقدرهم بوجودها يكتب لهم الوجود والبقاء وبدونها لا يكون لهم وجود ، وحتى وإن كان هذا الوجود، فلن يكون له شأن يذكر بين باقي الأمم التي تعنى بلغتها القومية . ولا غرابة في ذلك إذ اللغة – كما تقر بذلك الأبحاث اللسانية المعاصرة – هي محضن ثقافتها ووعاء مقوماتها الحضارية والعلمية والثقافية. ونظرا لكل هذه الأدوار التي تقوم بها فهي مستهدفة من قبل الذين لا يريدون للعرب والمسلمين رفعة ولا شهودا حضاريا. ولذلك وبناء على كل ما ذكر فإن الاهتمام بالعربية يعتبر اليوم من أولى الأولويات وأؤكد الواجبات على كل محب لوطنه ومعتز بهويته؛ لأن الاهتمام بأمرها أصبح فريضة شرعية وضرورة حضارية وحتمية تاريخية . ألا وإن الناس يتساءلون متى يكون النصر

[1]–في سبيل العربية:ص10–11

لهذه اللغة ومتى يتم التمكين لها من جديد. قل عسى أن يكون ذلك قريبا وما ذلك على أهل العزم والحزم من أبناء العروبة والإسلام بعزيز.

مراجع البحث

أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس سنة1999م

-ندوة التعريب في التعليم العالي: إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التابع لوزارة التعليم العالي السورية المطبوعة بتاريخ2007م

-التعريب: مؤسساته ووسائله: ممدوح خسارة،مؤسسة الرسالة1999م

-في سبيل العربية: محمد هيثم الخياط، مكتبة وهبة2004م

– اللغة العربية إلى أين: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية، الرباط المغرب 2005م

-اللغة والبيئة: عبد القادر الفاسي الفهري، منشورات الزمن الكتاب رقم38/ 2003م

-ثمانون عاما من الحرب الفرانكفونية ضد الإسلام واللغة العربية: إدريس الكتاني، منشورات نادي الفكر الإسلامي بالرباط المغرب2000م

– في الثقافة والهوية: د. عبد العلي الود غيري،دار البوكيلي القنيطرة المغرب1995م

– في العربية والقران: د.عبد الصبور شاهين ،مكتبة الشباب مصر 1998م

عدد خاص

العَــرَبيّــة

الرّاهن و المأْمول

- راهن ومستقبل اللغة العربية في أوطانها .
- وضع اللغة العربية خارج أوطانها .
- اللغة العربية : الترجمة ، المصطلحية – المعجمية ، التعليمات .
- دور المؤسسات ذات الاختصاص في النهوض بالعربية .
- سبل توطين التقانات باللغة العربية .
- مستقبل اللغة العربية ورهانات العصر .

منشورات الـمجلس الأعلى للغة العربية

المجلس الأعلى للغة العربية

06 شارع امحمد بوقرة الأبيار – الجزائر

الهاتف: 25 / 23.07.24 021 **الفاكس**: 021.23.07.07

ص.ب 575 الجزائر – ديدوش مراد

الطبعة الأولى

1430 هـ – 2009 م

الإيداع القانوني : 189 / 2009

ردمك : 978-9961-67-270-9



رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

عبد العزيز بوتفليقة

فقرات من خطب فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة

. . . إننا نريد أن ننهل من الحداثة كل ما يخدم شعبنا ، ويساعد على تقدمنا ورقينا ، لكننا نصرُّ على البقاء على وفائنا لقيمنا الوطنية، ولثوابت ديننا الحنيف، وثقافتنا العريقة.

. . . إننا بتمكننا من لغتنا وتعلمنا لغات الآخرين يمكن أن نكشف لهم عن سحر وجمال لغتنا . . .

. . . وإنا على ثقة بأن النخب العربية والعقول المبدعة ستساهم في تجديد الوعي بالمستقبل، وبتوصيل الفكر المستنير دون انقطاع عن الأصالة والهوية العربية الإسلامية.

محتويات العدد

*** المحور الثاني : وضع اللغة العربية خارج أوطانها

*** المحور الثالث : اللغة العربية : الترجمة المصطلحية والمعجمية، التعليميات

*** المحور الرابع : دور المؤسسات ذات الاختصاص في النهوض بالعربية

*** المحور الخامس : سبل توطين التقانات باللغة العربية

*** المحور السادس : مستقبل اللغة العربية ورهانات العصر

تقديم

يقدّم المجلس هذا العدد الخاص من دوريته نصف السنوية « اللغة العربية » لتكون واحدة من المحطات لاستحضار مسيرة عشر سنوات من الجهود والاجتهادات، في خدمة العربية لسانا وتراثا وثقافة.

نقول محطة لأن خدمة العربية لم تبدأ اليوم، ولن تنتهي غدا، وفي الجزائر بالذات ناضل الشعب ونخبه للمحافظة عليها عندما قرر الاحتلال الاستيطاني الكولونيالي إقصاءها والتضييق عليها وجعلها بالقانون لغة أجنبية في عقر دارها (1832 – 1962) وهي حالة فريدة من نوعها في المنطقة العربية كلها.

لا يتسع المقام في هذا التقديم لتفصيل القول عن وضعية اللغة العربية في حقبة المقاومة والثورة وبعد التحرير، فقد اقترنت استعادة السيادة الوطنية باستعادة العربية لمكانتها، وخاصة في نظام التربية والتكوين، وهي اليوم لغة التعليم في كل مراحله ومواده الدراسية، ولا تزال أمامها مسافة لتتبوأ مكانها الطبيعي في قطاعات أخرى.

عمل المجلس في القسم الأكبر من عشريته وفق مسعى ومنهجية تتمثل في النقاط التالية:

- لا توجد لغة متقدمة أو متخلفة لذاتها، إن التقدم والتخلف من صفات الناطقين بها.
- اللغة العربية هي أساسا ثقافة وحضارة وليست عرقا أو سلالة
- اللغة العربية ليست خصما يقصي اللغات الأصلية وفي حاجة للاستفادة من اللغات الأجنبية الناقلة للعلم والتقانة والإبداع
- العربية الفصحى واحدة وموحدة داخل كل قطر وبين الأقطار العربية[1]

المجلس هيئة استشارية لدى فخامة رئيس الجمهورية، تحظى برعايته وهو يشجع مشاريعها، ويشرف أحيانا شخصيا على نشاطاتها الوطنية والعربية والدولية.

بعد انتهاء عهدة الأعضاء المعينين في المجلس وذلك سنة 2003، وهم الذين أسسوا المجلس في سبتمبر من سنة 1998، استعان المجلس بمجموعة كبيرة من الخبراء، ومن بينهم أساتذة جامعيون ومختصون من الذين جمعوا بين العلم والتجربة الميدانية في مختلف المجالات المتصلة

1– أنظر الدراسة بعنوان: لغتنا العربية: الوظيفة والأداء على ضوء صراع النخب حول مطلب الحداثة ورفض التغريب.

بعمل المجلس ومشاريعه، وقد ساهموا بجهد كبير وبتطوع، ويرجع إليهم الفضل في كثير من إنجازاته ابتداءً من سنة 2003.

إن لمسعى ومنهجية المجلس أهداف ذات أولوية، تتمثل في رفع أداء اللغة العربية ووظائفها في الوسط المجتمعي وفي مؤسسات الدولة، والعناية بإنتاجها المعرفي وتشجيعه ماديا ومعنويا، والاهتمام بالترجمة إليها، بهدف توطين المعرفة والتقانة بالعربية، وبناء مجتمع تقوم اقتصادياته على المعرفة ومستجدات الثورة المعلوماتية.

تمثل تلك الأهداف أولويات عمل المجلس، وهناك هيئات ومؤسسات في الأقطار العربية الشقيقة تشاركه في مسعاه، ونحن نثمن التعاون والتنسيق معها، فاللغة العربية وتراثها القديم ومنتوجها الحديث من أهم، لكي لا نقول من آخر المشتركات الجامعة لشعوب الأمة العربية وهي كذلك الرابطة الموحّدة – وليست الأحادية– داخل القطر الواحد.

وصف العربية بالموحّدة، لا يعني إقصاء لغة أو لغات أخرى أصلية، إي غير مفروضة بحد السيف، ولأغراض الاحتواء السياسي والثقافي والاقتصادي، ولا يعني كذلك استبعاد تعلم، وإتقان اللغات الأجنبية، لأن ذلك يؤدي حتما إلى ضرب من الانكفاء ومزيد من التخلف، وزيادة اتّساع الفجوة التي تفصلنا عن العصر ومن المهم وضع سياسات لتعلم اللغات الأجنبية تخدم مصالح بلداننا في الأمدين المتوسط والبعيد.

وينبغي كذلك أن نوضح العلاقة بين العربية والفصحى وعامياتها الكثيرة، فليس هناك لغة في العالم ليس لها عاميات منطوقة ومستعملة في الحياة اليومية للناس، وهي تبتعد أو تقترب من الفصحى أو اللغة المعيارية، وكلما انتشر التعليم باللغة الموحّدة وارتقى المستوى الثقافي للجمهور كلما اقترب الناس من اللغة الوسطى وهي الأكثر استعمالا اليوم في وسائط الإعلام ومنها الفضائيات.

إن بقاء نسبة عالية من الأمية في كل المنطقة العربية وضآلة منتوج البحث العلمي في علوم اللغة والنقائص التي تعاني منها المدارس والجامعات وضعف وسائط التثقيف العام هي من بين الأسباب لانتشار ظاهرة التهجين وفقر قاموسنا في مجال ألفاظ الحضارة، والحديث منها بوجه خاص، ومن الواضح أن التهجين يختلف عن استعارة ألفاظ من لغات أخرى، فلا توجد لغة نقية وتخلو من الدخيل في كل العصور.

يقدم المجلس **العدد الخاص** الذي يحمل ستة وأربعين (46) دراسة علمية متخصصّة في قضايا اللغة العربية والتي توزعت على ستة محاور كبرى، حيث يطلعنا المحور الأول على: **راهن ومستقبل اللغة العربية في أوطانها**، فنجد مقالاته تهتم بتشخيص راهن اللغة في البلاد العربية بين التحديات والآفاق، وتطرح مختلف الرهانات التي تعمل على بقائها وصيرورتها،

وأما المحور الثاني الموسوم: **وضع اللغة العربية خارج أوطانها**، فإنه يؤكد عالمية اللغة العربية من خلال استعراض مقالاته لوضع اللغة العربية في أمريكا على وجه الخصوص، ومقام اللغة العربية خارج أوطانها، وأما المحور الثالث **اللغة العربية: الترجمة المصطلحية والمعجمية والتعليميات**، فنجد فيه زخما من المقاربات التي تتحدث عن الترجمة الشخصية، والترجمة الآلية والحديث عن المصطلح والمصطلحية، وحال اللغة العربية في ميدان التعليميات، وتابع المحور الرابع مشكلات المحور السالف بتخصيصه الحديث عن **دور المؤسسات ذات الاختصاص بالعربية**، فنقرأ فيه مقالات تتحدّث عن منهجيات النهوض باللغة العربية وتدعو إلى عدم تجاهل تلك النماذج الناجحة التي قامت بها بعض البلدان الأجنبية لعلاج المشكلات، وعلاج لغات كانت مهدّدة بالانقراض، ثم تعافت وأصبحت لغات العلم والتقانة والإبداع الفكري والأدبي، أما المحور الخامس فقد اهتم **بسبل توطين التقانات باللغة العربية**، وهي من النقائص والمعيقات التي تعاني منها اللغة العربية راهنا، فكيف السبيل إلى الاهتمام بالجانب العلمي ودخول عالم التقنيات؟ وأما المحور السادس فاختص **بمستقبل اللغة العربية ورهانات العصر**، فنجد فيه رؤًى مستقبلية، وأفكارا جديدة عما يجب أن تكون عليه أوضاع اللغة العربية من حيث تعليمها وتحديث طرائق تلقينها، والبحث عن السبل الكفيلة للعيش مع الراهن الحالي الذي لا يقبل إلا اللغات المنتجة للعلم والتقنيات وعالم الشفرة، ودخول صناعة البرمجيات.

يسبق هذا العدد الخاص إقامة ندوة دولية يستضيف فيها المجلس ضيوف شرف ممن خدموا العربية، ونخبة من العلماء وخاصة الذين ساهموا في هذا العدد، وهي تحت محور عام مؤداه: (تحديث العربية ومستقبلها في سوق لغات العالم)، ويراد لها أن تكون مساهمة مع غيرها على امتلاك المعرفة العلمية باللغة العربية، والطريق الذي يمكن أن تسلكه اللغة لتأسيس مجتمع المعرفة، فالمجتمع يترقى بلغته، وينمو اقتصاده بلغته، فلا بديل عن لغته أبدا.

إن هذا المنتوج الجديد غرسة إضافة من فسائل المجلس الكثيرة، يضعها في خدمة المهتمين بقضايا اللغة العربية في مختلف اختصاصاتها ووظائفها.

إليك أيها القارئ هذا **العدد الخاص** الذي نرجو أن ينال اهتمامك بما يزخر به من دراسات تراثية وثقافية وعلمية حديثة ومعاصرة فالشكر والامتنان لكل من ساهموا بأفكارهم وأقلامهم، ولمن سهروا على إخراجه في أحسن صورة ممكنة، والشكر موصول للذين استجابوا لدعوتنا إن بالكتابة أو والمشاركة في الندوة.

عن الهيئة الاستشارية

د. محمد العربي ولد خليفة

رئيس المجلس

المحور الأول

راهن ومستقبل اللغة العربية

في أوطانها

لغتنا العربية : الوظيفة والأداء على ضوء صراع النخب حول مطلب الحداثة ورفض التغريب

د . محمد العربي ولد خليفة (جامعي)

المحاور

أولا : تمهيد

ثانيا : الظاهرة اللسانية في المجتمع والثقافة

ثالثا : كيف تمّ تلقين الفرنسيّة في مدرسة الفصل العنصري التحقيرية ؟

رابعا : الصراع المفتعل بين العربيّة والأمازيغيّة صفقة رابحة للغة غازية .

خامسا : للحداثة بداية ولها مسار بلا نهاية .

سادسا : المصالحة الثقافية هل هناك بديل آخر؟

سابعا :الكنيسة . . .التجديد والأعداء من الداخل .

ثامنا : تجارب للحداثة بلا توطين .

خلاصة : مجتمع الحداثة وحداثة المجتمع .

إحالات

ملحق رقم –1– منهجية عمل المجلس ولمحة عن أدائه .

ملحق رقم –2– عينة من إصدارات المجلس 2000–2008 .

أولا : تـمهيد

تبدو المسألة اللغوية في الجزائر أكثر تعقيدا مما هي عليه في الجوار المغاربي والجناح المشرقي من الوطن العربي، بسبب محنة الاحتلال الاستيطاني الطويل وسياسات التخريب المعنوي لثقافتنا وتراثنا بهدف الاستيلاء على أرض بلا شعب أو بشعب في حال أبورجين أستراليا الذين اعتذرت لهم حكومة سيدني وتنوي تعويضهم عن معاناة أجدادهم (تمّ القضاء على لسانهم وثقافتهم، ولا وجود لتراثهم خارج المتاحف) .

1– إذا قاربنا تلك المسألة ونحن في صميمها أي يصعب علينا إدعاء الموضوعية الصارمة، وكأننا ندرسها من خارجها، وهذه إحدى المعضلات المنهجية في كل علوم المجتمع التي هي علم الإنسان بالانسان، فإننا نرى أن اختلاط المفاهيم والانشطار الحاد داخل النخب الجزائرية يرجع إلى ما يلي:

1–1– ابتعاد كثير من المقاربات الصادرة بالعربية (وقد أوردنا نماذج منها في مؤلف المسألة الثقافية :2007) ، ابتعادها عن توصيف وتحليل الواقع اللساني في الجزائر كما هو عليه في الواقع قبل الانتقال إلى ما ينبغي أن يكون عليه، فلا علاج قبل التشخيص.

1–2– إغفال العديد من الكتاب الجامعيين والإعلاميين لتاريخية الوضعية اللغوية في الجزائر خلال حقبة الاحتلال الإجرامية التي وحدت منذ نهاية الثلث الأول من القرن 19 بين العقيدة واللسان وجعلت منهما معا آلية دفاعية وقلعة للمقاومة وربما يكون شعبنا في كل مناطق البلاد الأكثر تقديسا للحرف العربي أثناء تلك الحقبة ومازالت تلك المسلكية تشاهد في بعض القرى والبوادي، وقد خصص الطبيب المناضل فرانتز فانون (F. Fanon) قسما من دراسته عن سوسيولوجيا الجزائر أو العام الخامس لثورة التحرير لتفسير ظاهرة التقديس باعتبارها الجدار الفاصل بين أهل البلاد الحقيقيين والطغمة المستوطنة من الأروبيين.

1–3– اعتقاد البعض ببقاء تلك الوظيفة الدفاعية بعد تعاقب جيلين ما بين 1962 و2008، وقد أدى سوء الفهم وقلة منابر الحوار إلى فصام وتجاهل وأحكام قيمية وتعميمات ارتجالية وإقصاء متبادل وكأن بين نخبة شعب واحد ستارًا حديديًا نفسيًا ذهنيًا يحمل كل طرف للآخر مجموعة من الصفات المنفرة تتراوح بين الأركائكية والأصولية وتصل إلى «الحركة» أو الطابور الخامس والسؤال الأهم هو كيف نكسر هذا الستار الحديدي؟ وهل نأمل ذلك على يد جيل المدرسة الجزائرية؟ أي نعفي النخب الراهنة ونلقى بالمسؤولية على كاهل جيل قادم لكن ماذا علينا أن نفعل نحن اليوم لتتخلص أجيال الغد من مراهقة مرضية (باتولوجية) ولا تطرح السؤال المخجل ومؤداه من أنا؟ من نحن؟ وما هي هويتنا الجماعية؟ في تعددية ثقافية (تيارات ومدارس فكريّة) لا تطمس المشتركات الوطنية وتغلّب عليها الخصوصيات المحلية والجهوية إن ذلك المطلب يعتبر في رأينا هدفا حيويا فلا بقاء للشعب والأمة إذا فقد المجتمع تجانسه وانسجامه.

2– تظهر أحكام القيمة غير المؤسسة عند كاتب يعيش في المهجر (فرنسا) يحاكم الواقع اللغوي في الجزائر بطريقة تشبه انطباعات سائح يحكم على شعب وثقافته من خلال التجول بضعة أيام في شوارعه وأسواقه، يقول السيد سليمان بن عيسى: اللغتان المكتوبتان هما العربية الفصحى بعد انتشار الإسلام والفرنسية بعد الاستعمار، الأولى (العربية) لغة مقدسة والثانية دنيوية.

2-1- لو قارنا بين الموقف والمنتوج الإبداعي للسيد بن عيسى وبين كل من إيليا أبي ماضي وجبران خليل جبران، لتبينت لنا أهمية إدراك وظيفة اللغة في البناء الفكري والأداء التواصلي، لقد أبدع جبران وأبو ماضي باللغتين العربية والانكليزية وهما في المهجر بينما ضاع بن عيسى في دهاليز التاريخ الكولونيالي وشرب من مياهه الملوثة فأصيب بفقدان الذاكرة (الأمنيزيا) كما يقول « ميمي » (A.memmi) عن أدب الضفتين (1999) .

2-2- هناك أدباء ومفكرون من أعلى طراز أتقنوا لغتين أو أكثر لهم قدم راسخة في لغة الضاد ولغة الأجداد واستئناس بلغة موليير أو شكسبير وغيرها أضافوا إلى أدبياتنا روائع من الإبداع نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر الكاتب مرزاق بقطاش، ومنهم من قدم إلى العربية إبداعا مثل طاهر وطار وبوجدرة لا تساويه ألاف الخطابات الانفعالية والمرثيات التي تندب حظ العربية على حائط مبكى لا يجيب.

3- سبقت وعاصرت أولئك المبدعين قائمة طويلة من العلماء والأدباء والباحثين في الجامعات والجمعيات الثقافية وقد سمحت ندوة « البرمجيات بالعربية : الطريق نحو الإدارة الإلكترونية » وندوة « الطريق نحو مجتمع المعرفة وتوطينها بالعربيّة » اللتان عقدهما المجلس في نهاية السنة الماضية 2007 وحضرهما رئيس الحكومة في تلك السنة، لقد كشفت تلكما الندوتان عن كفاءات شابة على مستوى عال من التحكم في علوم الحاسوب والبرمجيات والإدارة والتجارة الإلكترونية باللغة العربية.

فتيان وفتيات يعملون في صمت ولا تراودهم أوهام الهروب إلى الشمال وموقفهم الثابت « هنا يحيى قاسي » . ويرفضون أن تبتلعهم أمواج المتوسط أو يتسوّلون الحساء أو الشوربة الشعبية على نواصي الشوارع الأوربية، وبيع الذمم في أسواق النخاسة وبأي ثمن.

ينبغي التأكيد على أن التحكم في لغة أخرى فرنسيّة أو غيرها، لا يعني أن مستعملها أجنبي أو غير وطني، وعلى الرغم من أن اللغة ليست أداة محايدة بالنظر إلى ما تحمله من ثقافة وفلسفة في الحياة، فإن استعمال لغة أخرى للتواصل والتبليغ يعني القيام بخطوة نحو الآخر، لتسهيل التفاهم والتعايش السّلمي بين الأمم، مع الاحتفاظ بالحق في الاختلاف الثقافي والانتماء الحضاري.

خصوصية واختلاف تدافع عنه فرنسا بقوّة منذ دورة الأورغواي Urgway round سنة 1986 تحت اسم الاستثناء الثقافي، ولكنها لا تتقبل الاستثناء والخصوصية إذا تعلق الأمر بمستعمراتها السابقة، وخاصة الجزائر التي يتباهى البعض بأنها في المرتبة الثانية بعد المتروبول فرانكوفونيا، ماذا كسبنا نحن من هذه المرتبة؟ أم هو غفلة واستهواء أوشك أن يحقق لقوّة الاحتلال مشروعها الأصلي ابتلاع ثمّ إدماج انتقائي (Annexion assimilation) .

1– نحن لا نقسو على أنفسنا في الحرص على هويتنا ولغتنا الجامعة (ملحق 1 و2) ولا نتحرش بأي طرف آخر عندما نرفض وصايته علينا، لقد استخلص شعبنا هويته بتضحيات جسيمة، ولم تكن الهوية مجرّد ميراث، ولكن يتبقى أن وضع العربية عندنا وخاصة النظام المدرسي حتى نهاية الثانوي، ليس أسوأ مما هو عليه في البلاد العربية الأخرى، بما فيها منطلقها الأول التي يغزوها التعجيم لسانا وثقافة، وتتراجع منظوماتها التربوية إلى تعميم اللغات الأجنبية من مدارس الحضانة إلى الجامعات إلى لافتات الشوارع وبعض نوادي ما يعرف بالمجتمع المخملي (J.Set)، ولولا التأشيرة لتشكك الزائر في إسم البلد الذي يزوره.

2– لقد تصاعدت هذه النكسة بعد 1967 (R.Naba 2006) وما تلاها من هزائم وتفريط أدى إلى تصفية مكاسب حركة التحرر الثقافي السياسي وتأسيس واقعية الحضيض والخضوع بلا قيد ولا شرط للطغيان الأمريكي وحليفه الإسرائيلي، وتم وضع المنطقة كلها في قفص الاتهام بالإرهاب بعد 11 / 9 / 2001 وانشغال الساسة والنخب بالتبرؤ من التهمة وإظهار التسامح والدعوة لحوار الديانات والثقافات، ولكنها دعوة تصدر من الأضعف ليتلذذ بها الأقوى ويطالب بمزيد من الخضوع والتنازلات.

3– تشهد بلادنا سلسلة من التحولات المتلاحقة، تزايدت سرعتها في العشرية الأولى من هذا القرن، تتداخل مع تغيرات أخرى كونية، أشبه بالأمواج العارمة تشمل العالم كله، وتقودها عولمة فوقية تنزل من دول المركز « Coore states » (شمال أمريكا – غرب أروبا – جنوب شرق آسيا) وتتساقط على الأطراف، أي العالم الثالث، تضع بلادنا في سباق لا يَرْحم، الحَكَم فيه هو الاكتشافات والاختراعات المذهلة في مجالات الهندسة الجينية والمعلوماتية والذكاء الاصطناعي.

نقدّم في هذه الورقة المخصّصة لعشريّة المجلس عددا من القضايا المتصلة باللّسان وثقافة المجتمع وتاريخيّة اقتحام الفرنسيّة للساحة الوطنيّة والأهمية العلميّة والسّياسيّة للعناية بالأمازيغيّة وأسباب ومضاعفات انشطار النخبة الجزائريّة والصّراع الدّائر حول الإسلام عقيدة ومعاملات والموروث الثقافي المشترك (حتى تأسيس الدولة الوطنيّة) والقطري في علاقاته بالمعطى السابق وبمطلب الحداثة والتحديث أو العصرنة والجدل المتواصل فيما هو تعريب وما هو تغريب.

ثانيا : الظاهرة اللّسانية في المجتمع والثقافة

نبدأ هذه الدراسة بمتابعة المسألة اللغوية باعتبارها ظاهرة اجتماعية(1) فلا وجود لمجتمع بشري بدون لغة منطوقة فقط أو منطوقة ومكتوبة، ومن البديهي أنه لا وجود للغة بدون مجتمع يستعملها للتعبير عن ثقافة، فاللّغة وضع وسماع واستعمال وقد لاحظ هردر (**J.Herder**) (1993) أكبر فلاسفة ألمانيا في منتصف القرن **18** أن تعدّد الثقافات يرجع في الحقيقة إلى تعدّد اللغات.

(1) الإحالات بتاريخ النشر في نهاية الدراسة.

كما اجتهد «إدوارد سابير» (**E.Sapir**) في وضع نظرية عن العلاقة بين اللغة والثقافة من مدخل علم الإناسة وهو من مؤسّسية الأوائل، وقد أشرنا في دراسة عن المسألة الثقافية إلى مساهماته الهامة عند مناقشة الحقول المعرفية لمفهوم الثقافة (2007)، تقوم فكرة «سابير» على فرضية، عُرفت باسم «سابير –وُورْف» (**Sapir-Whorf**) ومؤداها أن اللغة ظاهرة ثقافية بل إن الثقافة نفسها هي في النهاية لغة، وهو يعرف اللغة بأنها نظام للاتصال ووسيلة لتنظيم وتصنيف التجربة الحسّية، وقد خفّف الباحث من التعميم السابق وعبّر عنه بوجود ارتباط مباشر بين النموذج الثقافي والبنية اللغوية، وأبرز في بحث بعنوان «اللغة» (القاسمي 1993) أهمية التأثير الذي تمارسه اللغة على نظام التمثُّلات لأي شعب؟، فاللغة موصل للثقافة، وتتأثّر بدورها بالثقافة، وبالتالي فإن هناك تداخلا بين بنية اللغة وتراكيبها وبين نمط الثقافة، ومن الواضح أن نظرية «سابير» تُبطل مقولة أن اللغة هي مجرد أداة حياديّة أشبه بأنبوب يعبر من خلاله أيّ مضمون نريد توصيله إلى الآخر، وهي المغالطة التي يروج لها البعض عندنا لإبعاد اللغة عن جوهر الوطنية والخصوصية الثقافية.

وقد توصّل «ك.ليفي شتراوس» في دراسة عن الأنثروبولوجيا البنيويّة (**Anthropologie structurale**) نشرها سنة **1958** إلى جملة من النتائج من أهمها:

- إن هناك علاقة وطيدة ومعقّدة جدا بين اللغة والثقافة.
- يمكن النظر للّغة باعتبارها منتوجا ثقافيا.
- إن اللّغة هي الشرط الأول لنشأة الثقافة.
- تتوقف التنشئة والتطبيع، أي نقل الموروث الثقافي، على اللغة فلا يمكن أن يكتسب الشخص آليات السلوك والتوافق إذا كان في جماعة لا تتخاطب بلغة مثل حالة الصمّ-البُكْم العاجزين عن ترميز الجمل والمفردات وتحويلها إلى إشارات.
- لكل ثقافة بنية مُماثلة تماما للّغة، ويتبيّن من هذه النتيجة التي استخلصها «شتراوس» المصاعب التي يعانيها المترجمون الذين ينقلون أدبيات الإبداع نثرا وشعرا من لغة إلى أخرى، مهما كان تمكّنهم من اللغة التي ينقلون منها وينقلون إليها.

ليس من اهتمامنا في هذا المبحث الخوض في الأطروحات الواسعة والمتراكمة في علم اللسانيات وفقه اللغة والصوتيات القديمة والمعاصرة وأدبياتها عند العرب ومن سبقهم وجاء بعدهم، إن الذي يهمنا في هذا السياق هو العلاقات بين اللغة واللسان من جهة والمجتمع من جهة أخرى، وبتعبير أوضح مدى تأثير الواقع الاجتماعي على الواقع اللساني والعكس.

أخذ هذا المجال من البحث عدة مسميات نذكر منها: اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistique) – اللسانيات السوسيولوجية (Sociologie linguistique) – والأنثروبولوجيا

اللسانيـــة (Anthropolinguistique) – الأثنولوجيــا اللسانيـــة (Ethnolinguistique) الجغرافيــا اللسانيـــة (Linguistique géographique) أو الانتشـــار المـكاني للألسُـــن – علـــم اللهجات (Dialectologie) إلخ . . .

هل أن تلك التسميات عبارة عن عناوين لمجالات مختلفة من البحث في الظاهرة اللغوية في علاقتها بالظاهرة الإجتماعية؟ أم هي مداخل متنوعة لنفس المجال تسخر مناهج ونظريات العلوم المجاورة؟ يرى بعض نقاد هذه المباحث أن اختلاف التسميات يرجع في حقيقة الأمر إلى اختلاف المدارس، وأهمها ثلاثة أولاها المدرسة الألمانية ومن أشهر علمائها « ولهيلم فون هامبولت » (W. Von. Humbolt) في منتصف القرن 19، من أشهر مقولاته أن بنية أية لغة تتضمن حتما تحليلا ومنظورا لمجمل العالم الخارجي، وقد طور اللساني الأمريكي « ب .لي . وورف » (B. Lee. Whorf) هذه الفكرة وارتأى أن الحدود الحقيقية بين الأمم وبين الحضارات هي حدود لغوية وليست جيوسياسية ولا عرقية، إن اللغة في رأيه هي التي تقود الحضارة .

أما المدرسة الثانية فهي أنغلو–أمريكية، وهي من أكثر المدارس عناية بالمدخل السوسيولوجي والأنثروبولوجي لعلم اللسانيات على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية أو على حد تعبير « لوبوف » 1962 (**W. Labov**) في قراءاته عن سوسيولوجيا اللغة (**Bock in reading on the sociology of langage**) هي دراسة فعل ظواهر المجتمع في اللسان وتأثير العوامل الاجتماعية في تشكلات اللغة أي العلاقة العلّية بين اللغة مفردات ونحوا وصرفا وسياقا وبين الجماعة والمجتمع الكلي، وقد كان لمدرسة « فرانز بويز » (**F. Boas**) تأثير كبير على مباحث الانثروبولوجيا اللسانية في الولايات المتحدة، بسبب اهتمام « بويز » وتلاميذه بإتقان لغات الجماعات البدائية باعتبارها مدخلا لا مناص منه لفهم أنماط الثقافة أو منوالاتها (**Patterns**) المتميزة والتعدد اللساني في مجتمع واحد (**Multilinguisme**) وما يسميه « ج .فيشمان » (**J. Fishman**) الوطنية اللسانية أي شدّة تعلق الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة بلغاتها الأصلية (الإيطاليون المكسيكيون اليابانيون الصينيون إلخ. . . .) .

كما ساهمت دراسات علم النفس الاجتماعي المتقدمة جدا في الولايات المتحدة (Cuche 1996) في تطوير مناهج البحث في اللسانيات الاجتماعية، عن طريق تطبيق استبيانات ومسوح ميدانية واسعة النطاق مثل تلك التي أجراها « لوبوف » (**1966W. Lobov**) في مدينة نيويورك وديتْرُويْت ونُورْويتْش متبوعة أحيانا باستجوابات من تصميم علماء الاجتماع مثل تلك التي أجريت على عيّنات كبيرة من أحياء الجانب الشرقي من نيويورك للتحقق من فرضيّة العلاقة بين اللهجة والمتغيرات الصوتيّة والشرائح الاجتماعيّة في الطبقة الاجتماعية نفسها وبين الطبقات .

وقد وقع الاختيار في اللغة الانكليزية الأمريكية على حرفي « الراء» (R) و« الذال » (**The**)، وقد افتتح « لوبوف » بهذا التحقيق الواسع مجالا ثريا للبحث لتطبيق مناهج علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) في لَهَجيّة المدينة وعلى الرغم من أن السلوك اللغوي في وضعية الاختبار لا يكون طبق الأصل أي تلقائيا **100 / 100**، وتكييمه (**Quantification**) بالمعادلات الإحصائية لا يعطي صورة مطابقة للكلام العفوي بين الناس فإن استخدام مناهج علم النفس الاجتماعي وفرعها المعروف بعلم النفس اللغوي قد طورت المباحث التقليدية التي تركها د « بياجية » (**Piaget**) وتلاميذه.

أسفرت المنهجيات الجديدة عن نتيجة هامة مؤداها: أن وظيفة اللغات لا تقتصر على الاتصال فقط، بل لها علاقة قابلة للتحقيق بالملاحظة والتجريب، هي التمييز بين الطبقات وإظهار ما بينها من صراعات وفروق في نمط الحياة، وقد قدّم « ب.برنشتاين » (**B.Bernestein**) الأخصائي في علم النفس الاجتماعي نظرية سماها النظام الاجتماعي اللساني للطبقة العليا (**Upper class**) يقابله نظام آخر للطبقة الدنيا (**Lower class**)، وفي رأيه فإن الانتماء لإحدى الطبقتين يحدد الفروق المعرفية وقدرات الإدراك وأشكال التفكير والتعبير.

هناك مدرسة فرنسية تمتدّ جذورها إلى الدوركايمية ومقارباتها الوضعية وإلى البنيوية السسيولوجية، فقد اهتم « أ.مييي » (**A.Meillet**)بالتنقيب عن الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء الوقائع اللسانية وذهب إلى أن المتغير الوحيد الذي يسمح بفهم التحولات اللسانية هو التغيّر الاجتماعي، بل إن تلك التحولات اللسانية ليست أكثر من واحدة من نتائجها.

وقد ساهم « أ.مييي » مع « جول موجان » (**J.Mougin**) في إجراء التحقيقات الأولى عن « نطق الفرنسيّة المعاصرة» وقاموس « نطق الفرنسية في استعمالها اليومي » **1941** بهدف استعمال اللّغة في وضعية مجتمعية عادية، أي خارج المخبر والتجريد النظري الذي يطمح إليه علم اللسانيات، سبقت تلك التحقيقات دراسة ميدانية قام بها « أ.غوشات »(A.Gauchat) وقد توصل إلى نتائج لم تتضمنّها أي من فرضياته، من أهمها، أنه لا وجود لوحدة صوتية داخلية للعاميّة على مستوى المجتمع المحلّي وأن التباينات تتوزّع على الأفراد حسب السّن والجنس (ذكور–إناث)، وأن القيام بالتحقيق مرّة ثانية يؤدّي إلى نتائج مختلفة، وقد خصّص عالم الاجتماع المعاصر ب.بورديو (P.Bourdieu) 1980 دراسة تحت عنوان: الحس العملي (Le sens Pratique) أكّد فيها أهميّة العلاقة والسياق المجتمعي.

من بين النتائج النظرية لهذه التحقيقات الميدانية أن التباينات اللسانية داخل لغة واحدة لا ترجع كلها للأفراد وخصائصهم المورفولوجية والصوتية، بل إنها أيضا من فعل المؤسسة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد، وهي النتيجة التي توصّل إليها في نفس الفترة تقريبا « فرديناند دوسوسير» (F.De Saussure) انطلاقا من أن اللغة في كل مستوياتها هي مؤسسة

اجتماعية قسم منها يتصف بالوحدة هو اللسان (Langue) وقسم منها متغير نسبيا هو الكلام (Parole)الذي يخضع للمتغيرات التي أشرنا إليها سابقا، وقد اعتمد واحد من أعمق الباحثين في فقه اللغة وهو « ن.تشومسكي » 1965((N.Chomsky) على ذلك التمييز لوضع نظريته في علم النحو ونظرية البنيات التركيبية في اللغة (Syntatic structures) وارتأى أن اللسان هو في النهاية مجموعة من الوقائع تجري بين متحدث وسامع، أي أن التراكيب هي نتيجة وضعيّة علائقيّة (Relationnelle).

ثالثا: كيف تمّ تلقين الفرنسية في مدرسة الفصل العنصري التحقيرية؟

في الوضعية العلائقية غير المتكافئة، بل القهرية نلاحظ أن استخدام اللغة الفرنسية لدى بعض قادة ومناضلي الحركة الوطنية والثورة بما في ذلك تحرير أهم النصوص (بيان أول نوفمبر 1954 والصومام 1956) يرجع إلى عدّة عوامل من بينها:

أ- أن الحركة الوطنية كان لها قاعدة رئيسية في فرنسا بسبب القمع والتضييق في الجزائر.

ب- أن قادتها كان أغلبهم من المدن التي توفرت على قلة من المتعلمين بالعربية ومن المعروف أن أغلب المدن وخاصة في الشمال والهضاب العليا كانت تحت الهيمنة الثقافية الفرنسية ولازال عمرانها يشهد على ذلك (كنائس - أسواق - ساحات الرقص...) ولا ننسى كذلك أن عددا من العائلات الميسورة أرسلت أبناءها للتعليم في فرنسا ويمكن التعرف على الأصول العائلية من تشكيلة اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين (UGEMA) (Gu Perville: 1984).

ج- استجابة جناح من السياسيين إلى خدعة الاندماج ومن علاماته الأولى استعمال لغة المحتل التي أوصلت بعض قادة ذلك الجناح إلى إنكار وجود شعب أو أمّة (!) قبل أن يراجعوا موقفهم وينظموا إلى الثورة سنة 1956، وقد يكون الدافع تعجيز الإدارة الفرنسية التي تلوح بالحقوق بعد الاندماج، وقد ثبت أن ذلك كان مجرد أكذوبة مثل أسطورة مروحة الداي حسين.

د- إن الريف الجزائري كان ضحية الأمية والقلة زاولوا تعليما بالعربية في مدارس جمعية العلماء وتنظيمات حزب الشعب، ومن المهم أن تجرى دراسات استقصائية بعيدا عن الجدليات الإيديولوجية للإجابة على السؤال التالي كيف؟ ولماذا استعمل الوطنيون الجزائريون اللغة الفرنسية للدفاع عن القضية الوطنية؟ وهل أن مرافعاتهم بها في الجمعية الوطنية الفرنسية عن حق الشعب الجزائري في المساواة والحرية قد أوصل إلى أية نتيجة؟

1- للإجابة عن السؤال الأول كيف تمّ تلقين الفرنسيّة؟ لنتسائل عن فضائل المدرسة الكولونيالية في الجزائر؟

مدرسة يحن البعض من أجيال ما قبل التحرير وحتى بعده إلى عصريتها وتفوقها ومحصولها المعرفي والتنظيمي، لنرى حقيقتها من الداخل كما يعرضها السيد علي براهيمي 2008.

طبقت المدرسة الكولونيالية في الجزائر قانون الأنديجينا نصا وروحا، ولم تكن شعارات الحرية والإخاء والمساواة سوى خدعة وتضليلا مقيتا للممارسة الفعلية للميز العنصري والإذلال يحكم مسبقا على النتائج المدرسية وعلى مستقبل التلاميذ، وذلك على الرغم من وجود قلة من المعلمين من ذوي النوايا الحسنة الذين لم يكن لهم أي تأثير.

نادرا ما يتجاوز الأطفال من الأهالي المرحلة الابتدائية ساعد على ذلك الإيحاء المستمر بأنهم على درجة كبيرة من العجز والبلادة، إذ يجبر التلميذ صباحا ومساء على تكرار جملة واحدة هي «يذهب عمر إلى المدرسة» وكأنه يتوجه إلى القمر (!) أو أن يكتب أكثر من مائة مرة كعقاب جملة أخرى «أنا حمار» بالإضافة إلى جمل تحقيرية أخرى.

على الرغم من أن هذه المدرسة التحقيرية كونت بعض المحامين والأطباء والقضاة والعسكريين من أبناء القياد (famille caidale) وحراس حقول الكولون ومن الواضح أن الهدف الحقيقي كان تدريب الجميع على الطاعة العمياء.

أنتجت هذه المدرسة على وجه الخصوص العديد من «المتخلفين» الذين تقرر مصيرهم رغما عنهم وكانوا موجهين في الحقيقة لتشكيل جماعات موجهة للعمل في الحقول الزراعية في بعض مناطق البلاد- ولتدعيم ساحات معارك فرنسا في الحربين العالميتين كأجساد تقدم قربانا للمدافع، وقد عاد الباقون منهم على قيد الحياة للدفاع عن قضيتهم الحقيفية أثناء حرب التحرير.

وبعد عدّة تعديلات في برامج المدرسة المسماة بالأهليّة وخاصّة في إطار مخطط قسنطينة للجنرال ديغول (1958-1962)، فقد وجدت الدولة الجزائرية الوليدة نفسها أمام دايلاما شديدة التعقيد فقد أحدثت تلك المدرسة تشوهات غرسها مخطط المدرسة الأهليّة في أذهان وسلوكات أطفال أبرياء مازالت مضاعفاتها إلى اليوم لدى العديد من الإطارات والموظفين وفي جميع القطاعات.

تمثلت نتائج تلك العملية في رؤيتين مختلفتين للغة والثقافة تتصارعان منذ عدة عقود: تعتبر الأولى اللغة الفرنسية مكسبا من مكاسب الاحتلال - مثل الأديب الراحل «كاتب ياسين» - بينما تتمسك الرؤية الثانية باللغة العربيّة التي سادت على أرض الجزائر منذ أكثر من 12 قرنا والتي كانت تشكل أحد دعائم الشخصية الجزائرية التي طالبت بها ثورة الأول من نوفمبر 1954.

والحقيقة أن الثورة هي في جوهرها تحرير من كل آثار النظام الكولونيالي حتى ولو كان ذلك مؤلما، وخاصة الثقافية منها، تلك كانت الغاية التي استمدت مشروعيتها من التجربة الإنسانية المكتسبة خلال حرب التحرير، وتلك التي من المفترض استعادتها من تراثنا الحيّ لإقامة جمهورية متفتحة على عصرها منطلقة من قيم نقية من الآثار السلبية للعهد الكولونيالي البائد، ومن الشعوذة التي مارستها بعض الزوايا بمساندة من الإدارة الفرنسية.

لقد كانت اللغة العربية مرجعية أساسية في الهوية الوطنية، لا علاقة لها بالتعصب والعرقيـة، فقد كان المستوطنـون يسمون كل الجزائريين «العرب» أو «جنس البرنوس» (La race du Burnous)، وينادونهم باسم محمد وفاطمة بشيء من السخرية وبكثير من التحقير، وقد جعل «جاك بيرك» هذه المعاملة من أسباب الكراهية المتبادلة بين المستوطنين الفرنسيين والأهالي الجزائريين.

3- ظهرت معطيات أخرى مغايرة خلال العقود التي أعقبت الاستقلال، وإعادة تأسيس الجمهورية وبناء الدولة الوطنية، ولم يعد الإعلام والاتصال والثقافة نضالا للخلاص من كابوس الكولونيالية، فقد أصبحت الأولويات تنحصر في إصلاح الخراب والتدمير الذي خلفه الاحتلال وجيوشه، وتدارك التخلف المتراكم بكل الوسائل والكفاءات الوطنية المتوفّرة، ولذلك طغت على الإعلام ثنائية لغوية عكست الانشطار المبكر للنخبة الجزائرية الذي ظهرت بوادره منذ فجر الحركة الوطنية، مهدت لصراعات بين ما يسمى معرّبا ومفرنسا ومن المعروف أن مصطلح معرب Arabisant اقتصر قبل الاستقلال على الفرنسيين المتخصصين في الدراسات العربية مثل علماء الاستشراق والمترجمين، وقد تحاشينا في مجمل كتاباتنا هذه التصنيفات الملغمة واقترحنا بدلها كاتب بالعربية Arabographe وكاتب بالفرنسية Francographe.

رابعا: الصراع المفتعل بين العربيّة والأمازيغيّة صفقة رابحة للغة ثالثة غازية

تعمل بعض التيارات على اصطناع الصراع بين العربيّة والأمازيغية أحيانا لأهداف سياسية، ساعدها خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي غفلة طال أمدها للتكفل باللسان والتراث الأمازيغي، وأخطاء في الطرح، مما سمح لخبراء سياسات فرّق تسد من احتضان ما سموه لغات الأقليات (Les langues minorisées).

أقامت تلك الأوساط معاهد وأكاديميّة ونجحت في استقطاب الباحثين الجزائريين وقطاع من الشباب الأبرياء وآخرين من الاحتجاجيين وإقناعهم بأن ترقية العربيّة وتعميم استعمالها خطر على الأمازيغية أو جسر لما يسمونه الإسلاموية (L'islamisme) والظلاميّة المتخلّفة والإرهاب الدموي وبدأت حملة للتنفير من العربيّة وإبعادها حتى من علامات الطريق وواجهات المحلات (Désarabisation) (صادق هجرس) 1998 وحملة أخرى موازية للانسلاخ من الإسلام أي التنصير، على ما فيها من تهويل تساعد فيه بعض الصحف بإظهار اضطهاد «المرتدين» وكأنه غيرة على الإسلام وبطولة وفي ذلك التهويل غفلة وانفعالية استفادت منها المنظمات التي تدافع عن حريّة العقيدة في البلاد الإسلامية ولا تقول شيئا عما يحدث في أروبا والولايات المتحدة التي تبرأ فيها المرشح للرئاسيات (أوباما) من الانتساب إلى اسم أبيه وجدّته المسلمة،

وتحتفي فرنسا اللائكية بأعيادها الدينية أكثر من أيامها الوطنيّة وتحمل أغلب أيام السنة أسماء القديسين وتبدأ الاجتماعات الرسميّة في البيت الأبيض الأمريكي بالقدّاس وتحمل اللافتات مع العلم الأمريكي شعار اللهم أحفظ أمريكا (God bless America)، وبلد الاله (God's country) (إدوارد سعيد 2002) .

لقد كانت الغفلة والاستقطاب صفقة مربحة للفرنسية المرشحة لأن تكون اللغة الجامعة بين مجموعتين في وطن واحد لا يتفاهمان إلا بالفرنسيّة كما حدث في أمريكا اللاتينية (الإسبانية) وكل غرب إفريقيا (الفرنسية) وجنوبها (الانكليزية) .

نجد بين النخبة الجزائرية من هم على وعي بمخاطر الصراع المفتعل بين اللغتين الشقيقتين على الوحدة الوطنيّة وتجانس المجتمع، فإذا كانت العربيّة ثقافة وحضارة لا يحتكرها أحد وليست عرقا أو سلالة فإن الأمازيغيّة هي أيضا لسان وتراث ملك لكلّ الجزائريين في حاجة إلى عناية الدولة بحمايتها وتطويرها وعصرنتها .

وفي هذا السياق يعرض الأستاذ سعيد شورار (2008) تشخيصا نقديا للمقاربات الراهنة التي أضرّت في رأيه بالمسألة الأمازيغية وبالوطن يقول :

. . . كثير من التصرفات الهدامة تأتينا من التأصلية (Atavisme) الأمازيغية التي تقودنا إلى الأنانية العالمية في حين أننا يجب أن نتحلى بالتواضع في كل شيء . وليحكم القارئ! عزيزي القارئ القبائلي، قل لي كم من مرّة سمعت هذه الادعاءات الحمقاء : « القبائليون هم من حرروا الوطن »، « القبائلي هو الأكثر ذكاء »، « القبائلي هو من يسير وزاراتنا »، « الذكاء القبائلي صنع حاسي مسعود »، « القبائلي هو الوحيد الذي بقي متمردا على الدولة » . وماذا لم تسمعه بعد، عزيزي القارئ؟ »

. . . بوتفليقة تمكن من التعامل بحكمة مع طرفي هذه المشكلة الإسلام والأمازيغية وأرجعهما إلى الشعب الجزائري بأكمله بفضل بعد نظره، بينما فشل من سبقوه في ذلك حيث كانت هذه المسألة من أسباب عدم الاستقرار . وبما أن الأمازيغية أصبحت الآن لغة وطنية، يتعين على علماء هذه اللغة أن يتقربوا من مؤسسات الدولة (رئاسة الجمهورية؟ وزارة التربية؟) للعمل على ترقيتها بعيدا عن توظيفها لأغراض سياسية . لا يصنع المصير القبائلي خارج الوحدة الوطنية أو بمعارضته للإسلام أو اللغة العربية » .

« لقد عزم فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، على تعويض المحافظة السامية للأمازيغية بأكاديمية للغة الأمازيغية وسيكون الفضل لسيادته إذا ما قدم لكل العلماء الجزائريين المتخصصين في هذه اللغة أداة تقضي على هذا الترقيع الذي يقوم به اللسانيون الوهميون الذين يقرعون الطبول في جامعاتنا . سينكشف زارعو الحقد الذين يريدون استغلالها كذريعة لرفض الآخر وفرض أنفسهم . »

الدولة الجزائرية وحدها كفيلة بالرد مباشرة على محاولات هؤلاء المغامرين في كل واد، بحماية قيمنا المشتركة: العربية والإسلام والأمازيغية عبر إنشاء أدوات لترقيتها. إن من يريد استغلال هذه القيم ينتظر دوما أدنى شرارة للتعبير بعنف. ولأن الدولة غالبا ما تتنكر لتعهداتها، فنحن نخشى على وحدتنا الوطنية. ومدعيي الورع في الإسلام، شأنهم شأن العربية والأمازيغية لا ينتظرون إلا الخطوة الخاطئة لتعريض مصير شعب برمته للخطر (مقتطف من النص).

إنّ اللغة الفرنسيّة أداة مفيدة، مثل أيّة لغة أخرى ناقلة للفكر والإبداع والتكنولوجيا، إذا خدمت أهدافنا الوطنيّة في توطين العلم والتكنولوجيا، والاتصال بالعالم الخارجي، ولم نقبل نحن بخدمتها إعلاميا وثقافيا بلا مقابل، وهو ما يحدث اليوم.

إذا تعلق الأمر بالعربية والأمازيغية ولهجاتهما المتداولة فقد يكون من المفيد تقديم لمحة عن وضع اللغات واللهجات في ما يسمى الاكساغون، فلا مفر من الحديث عن النموذج الأوحد في نظر البعض، ولذلك نقتبس صورة عن الوضعية اللسانية هناك من تقرير المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية الفرنسي (INED) لسنة 2002، وجاء في ذلك التقرير أن لغة الدوك (Langue d'oc) ولهجاته مثل الأوكستان والبروفانسال والليموسان، وهي لغة ولهجات مستعملة في مرحلة الطفولة لـ 610.000 أسرة بصفة دائمة و 1.06000 بصفة ثانوية، وبالنسبة لمنطقة الألزاس فبعد نصف قرن من إدماجها في ألمانيا، فإن ٪75 من سكانها يتحدثون الألزاسية، بينما يتمسك أهل الكورس بلغتهم التي لا تعترف بها الدولة الفرنسية كلغة رسمية وأما البروطونية فهي تقاوم الاضمحلال ويكاد يقتصر استعمالها على الفولكلور الشعبي، وقد رفض مجلس الوزراء والبرلمان بكل أحزابه في شهر جويلية الماضي 2008 اعتماد لغات محلية غير الفرنسية، وقد عبر الأديب البروطويي ب.ج هيلياس في كتابه حصان الكبرياء P-J Helias: le cheval d'orgueil (1975) عمّا علق بذاكرته من مرارة عندما كان يرى في طفولته على باب المدرسة: « ممنوع البصاق والحديث بالبروطونية.

يؤكد التقرير في خلاصته أن فرنسا بلد أحادي اللغة (monolangue) ونبه إلى خطر زحف الانكليزية التي يستخدمها 2.700.000 من الفرنسيين في العمل وحتى داخل الأسرة.

ويرجع توحيد اللسان في فرنسا إلى عاملين أولهما جهود علماء وأدباء عصر الأنوار وخاصة جهود دنيس ديدرو (D.Diderot) في وضع الموسوعة الفرنسية الأولى للغة والمعارف والآداب التي أشرف عليها لسنوات عديدة مع نخبة من الأكاديميين أخرجت الفرنسية من اللغة المحكية والتراث الشفوي (Oralité) إلى لغة العلم والثقافة أما العامل الثاني فهو إجرائي وقام به وزير التعليم جول فيري (J. Ferry) الذي فرض توحيد لغة المدرسة وهي الفرنسية المعيارية (أصبحت هي لغة باريس) واعتبارها المؤهل الأول للنجاح في مختلف مراحل منظومة التربية والتكوين.

خامسا : للحداثة بداية ولها مسار بلا نهاية

يكشف توالي المساجلات التي تطالعنا بها الصحافة دوريا عن نماذج حول الإسلام واللغة ومنتوجها الثقافي مقارنة بما ينشر بلغات أخرى (الفرنسية مغاربيا والانكليزية مشرقيا) التي تظهر في كثير من الخطابات الثقافية والسياسية في بلادنا وفي المنطقة التي أشرنا إلى جانب منها فيما سبق، تكشف عن انشطار قديم العهد بين فصائل النخبة حول مطلب الحداثة أي كيف تصل مجتمعاتنا إلى المرحلة التي وصلها الغرب كما هو عليه اليوم؟

هناك اجتهادات كثيرة للإجابة على السؤال السابق سبقت الصدمة الحضارية (الغزو الكولونيالي) ولا زالت تقدم الفرضيات وتقوم بجرد عوامل التقهقر والجمود والتخلف وتقترح البدائل والحلول، وقد أشرنا إلى جانب منها في دراسة سابقة (م.ع.ولد خليفة)، ونميز هنا مع الأستاذ علي الكنز 2008 بين التحديث وهو التأسيس المادي للحداثة كما تبدو في الهياكل القاعدية ومنتجات التكنولوجيا والاكتساب التدريجي للقدرة على استعمالها.

أما الحداثة فتعني المنتوج المعرفي والتكنولوجي الذي ينتج الحداثة وتنتج عنه الحداثة نفسها، وتعرف بلدان المنطقة الغنية والأقل ثروة، أن استيراد مصنع جاهز أو طائرة أو مرصد فلكي أو حاسوب لا تعني امتلاك التقانة والخبرة التي صممتها في البداية وطورتها فيما بعد، ولا حتى إصلاح ما يطرأ من خلل على مكوّناتها الدقيقة.

ولذلك تطرح في كل البلاد العربية مسألة التأهيل التقني والتكوين وإعادة التكوين المستمر (Recyclage) في الخارج والسنة السباعية (Année sabatique) للجامعيين والخبراء، فالتقدم حداثة وكلاهما يكون كليا أو لا يكون، أي يشمل الفرد والجماعة والعلاقة بالمادة والنظر للحياة وما بعد الحياة.

يقدم التوضيح السابق أحد عوامل الانقسام التي تحدد المسافة الفاصلة بين فصيلين من النخبة سواء أكانت في مواقع حزبية أم إعلامية أم في تنظيمات المجتمع المدني، يتخذ الصراع من قضية اللغة والإسلام أداة للصراع المشبع بأحكام القيمة، ويصل إلى حد اللعان وشيطنة الأخر لإبعاده عن مواقع التأثير السياسي والاجتماعي.

يوصف الفصيل الأول بالتقليدي وهو يعتبر نفسه أصالي، يتمسك بالهوية الحضارية العربية الإسلامية للمجتمع ويدعو الدولة للتمسك بها وحمايتها ويدافع عن اللغة العربية ويذكّر بماضيها المجيد ويحتج على حاضرها ويعقد المقارنات مع واقع اللغة في بلدان أخرى (فيتنام–اسرائيل).

هناك أيضا ضمن هذا الفصيل ما يسمى بالسلفيين –(وهو لا يتفق مع الاتجاه السابق في كل توجهاته الفكرية والسياسية) – وفيه من يرى بأن حاضر الأمة لا يصلح إلاّ بما صلح به أولها،

ولا بد لمرحلة الازدهار والتفوق العربي الإسلامي أن تعيد نفسها إن عاجلا أو آجلا، وتسترجع الأمّة العربية والإسلاميّة سيرتها الأولى.

لا يقتصر هذا الفصيل على الأصاليين والسلفيين، فهو يتفرع إلى كثير من المذاهب والتيارات التي لها حضور متفاوت على الساحة العربية والإسلامية ويتزايد الاهتمام بها في الغرب، وخاصة بعد حادث البرجين في 11 سبتمبر2001، ليس لأهداف علميّة فحسب، بل لغرض اختراقها من طرف الأجهزة المختصّة لحماية بلدانها من خطر الإرهاب الذي أصبح عابرا للحدود ومبررا لما يسمى الحروب الوقائية باعتبار الزحف الأخضر هو الخطر البديل عن الزحف الأحمر الذي مثل في نظر الغرب التهديد الأقوى حتى بداية التسعينيات من القرن الماضي وبرّر الكثير من الانقلابات والحروب التي دارت على ساحة العالم الثالث الواسعة.

أما الفصيل الثاني فيمثله من يسمون أنفسهم الحداثيين الذين يطالبون بالانتفاض على الأوضاع القائمة في الدولة والمجتمع، ونقل الحداثة أو الانتقال إليها، كما هي في صورتها الأروبية –(عندنا النموذج الفرنسي بسبب تأثيره المباشر وما خلفه من تناقض وجداني «Ambivalence» أي جاذبية ونفور)– وصورتها الأمريكية المعولمة.

وترى أغلب التيارات الحداثية أن اللغة مجرّد أداة للتواصل واكتساب المعرفة، والفرنسية بالذات مكسب ينبغي المحافظة عليه وتنمية تحصيله وإتقانه، مهما كانت الظروف التاريخية التي أحاطت به في حقبة الاحتلال، وهو ما عبّر عنه كاتب ياسين بجملته المأثورة: الفرنسية غنيمة حرب، وما سعى إليه بعض أقطاب النخبة في مواقع المسؤولية مثل المرحوم مصطفى الأشرف ورضا مالك ووصلت لدى سياسين من جيل ما بعد الاستقلال مثل سعيد سعدي إلى الغضب على المجتمع كله، والتأسف على الخطأ في فهمه على حقيقته.

ويجد كلا الفصيلين منابر في أركان الرأي في الصحافة المنشورة بالعربية وتلك المنشورة بالفرنسية، حيث يلصق كل فريق بالأخر تصنيفات إديولوجية وينسبه إلى الملّة والنحلة الممثلة للوطنية أو المعادية لها.

وليس في النيّة الخوض في الآراء والمواقف التي تتضمّنها مؤلفات السيرة الذاتية لقيادات ومسؤولين عن حقبة ما قبل 1962 وما بعدها، وخاصة حول ما حدث في 5 أكتوبر 1988، فذلك يحتاج إلى أنطولوجيا تتجاوز المناظرات الشخصيّة بين الأحياء، وتتطلّب توثيقا يطمئن إلى العقل والقلب لأفعال ومسؤوليات من توفوا إلى رحمة الله، فقد يكون ذلك التجاوز مقدمة للاهتمام بفلسفة التاريخ، وهي المنجم الذي لا ينضب لتأصيل الثقافة والتجاوز المستمر لراهنها الانشطاري.

يسمح لنا التنويه السابق بالإشارة إلى أن اللغة وحدها ليست الحاجز أو جدار برلين الوحيد الفاصل بين الفصيلين المتقابلين وما يدور في فلكهما من تيارات، فقد يحدث الاشتباك بين

باحثين وكتاب بنفس اللغة (عربية أو فرنسيّة) بسبب الموقف السياسي والتجربة السابقة والتموقع الإيديولوجي من نظام الحكم في الجزائر.

هناك أمثلة كثيرة على تلك الاشتباكات المتكرّرة في مصنفات ومقالات تنشرها الصحافة في بلادنا، نذكر منها كعيّنة قريبة العهد وليس للجرد أو الحصر:

– مقال الروائي الكبير الطاهر وطار بعنوان: براغيث الصحافة وصئبان الثقافة (صوت الأحرار– 28 / 09 / 2008).

– دراسة مطوّلة للأستاذ الهواري عدي بعنوان: Misère de l'intellectualisme (يومية وهران 11–12–13–14 سبتمبر 2008).

– مقال للدكتور أ.سعد الله: أتيناك طائعين (الشروق اليومي بتاريخ 23 / 09 / 2008).

– مقال للأستاذ عبد العالي رزاقي بعنوان: الاستبداد اللغوي (في نفس الصحيفة السابقة بتاريخ 09 / 10 / 2008).

– عدّة مقالات للأستاذ عثمان سعدي من آخرها: اللوبي الفرانكوفوني يشنّ حملة على اللغة العربية وعلى ابن باديس.

– وردّ من السيد يزيد هدار بعنوان: العربوفيليا أو العروبية (Arabophilie ou arabisme) يومية وهران بتاريخ 09 / 10 / 2008.

ومن المؤسف حقا أن اتحاد الكتاب الجزائريين الذي ولد في أحضان جبهة التحرير، ولم يؤدّ بعد فطامه القسري رسالته المتمثلة في بناء جسور اللقاء والتفاهم بين المبدعين باللغتين على أساس أن الأصل والمطلوب هو الإبداع والنشر بالعربية، والاستثناء يكون بالفرنسية أو غيرها من اللغات، وليس في هذا الطرح شوفينية أو انغلاق، فهو الوضع الطبيعي لاستحقاق النبوغ والعالمية، كما بينا ذلك في جزء سابق من هذه المقاربة.

وفي هذا السياق لا ينبغي التسرّع في الحكم على قيمة الفكر والإبداع الأدبي المنشور بالفرنسية وغالبا وراء البحر لمفكرين وكتاب مثل محمد أركون وآسيا جبار (عضو الأكاديميّة الفرنسّة) ومولسهول (ياسمينة خضرة) وآخرين، ولكن يمكن التساؤل عن مدى تأثير أفكارهم وإبداعهم في الوسط الفكري والتثاقفي في وطنهم الأصلي؟

قد يكون الجواب في دراسات نقدية للأفكار والمضامين الأدبيّة بمنأى عن إعادة شرح المسلمات المتعلّقة بتعريف الوطنيّة الجزائريّة، غير أن هناك فرضيّة لا مفر من طرحها من خلال السؤالين التاليين:

1– ماهي قيمة الأبحاث والإبداع المنشور في فرنسا وبالفرنسيّة على الساحة الثقافيّة في فرنسا نفسها، أي ما هو موقعه في خريطة النخب الفرنسيّة المنتجة للأدبيات الفكريّة والأدبيّة هناك.

2– ماهي القيمة المضافة (ثقافيا واجتماعيا) للأدب المنشور بالفرنسيّة على مسار التأصيل والتغيير والتجديد في الجزائر، أم هو فقط جزء من المنتوج الإبداعي الذي يصنف ضمن المجال الفرانكوفوني مثل أدب ليوبولد سنغور وإيمي سيزار.. وللأخير نفس تحرري يُقرّ به من المناضل فرانتز فانون.

لقد دخل اتحاد الكتاب حالة بيات (Hibernation) تشبه حالة أهل الكهف، وأصابه ما أصاب جمعيات وتنظيمات أخرى فتحول من اتحاد إلى فرقة أو « سيبة »، أي مثل الأرض التي يملكها الجميع ولا يملكها أحد بعينه، ولا يتذكر سوى القليل مقولة أحد مؤسسيه الأوائل المبدع والمناضل المرحوم مالك حداد: « الفرنسية هي منفاي ».

تجد أدبيات الفصيل الأول، وخاصة بعض تياراته السلفية الموصوفة بالجهادية والتكفيرية، تجد طريقها للتداول في بعض الأوساط عن طريق وسائط الاتصال والتبليغ الحديثة، وخاصة شبكات الأنترنيت والفضائيات، ومن الصعب مراقبتها أو تقديم اجتهادات مغايرة لها في المنهجية والموضوع في نفس الساحة الدينية والفكرية التي تختارها هي.

لا يكفي للإقناع أن يردد أهل الذكر أن الإسلام دين الوسطية، وأن كل بدعة ضلالة، فقد يتساءل شبابنا ببراءة أين يوجد الوسط؟ وهل هو متحرك أم ثابت؟ وبالتالي هل أن وسطية الأمس هي وسطية اليوم؟ وماذا تعني البدعة بعد كل التحولات التي حدثت في مجتمعنا وفي العالم من حولنا بعد نحو خمسين عاما من الاستقلال، ومن يحكم على البدعة بالضلالة في دين عظيم أحدث ثورة كبرى في تاريخ الإنسانية بإلغاء الإكليركية وصكوك الغفران، فلا يمكن أن يكون الإسلام أقل تطويرا للإنسانية، وقد جاء بعد الميسيحية بحوالي ستة قرون وكيف يتفهم شباب بداية هذا القرن أن تجيز بعض البلدان الإسلامية للنساء ركوب الطائرة وتعتبر قيادة المرأة للسيارة بدعة وضربا من الفحش والفسوق؟!

من المحتمل أن تجد التساؤلات السابقة مداخل للجواب إذا وجدنا في عالمنا العربي والإسلامي فقهاء في الدين وأصول الشريعة وهم في نفس الوقت من علماء الفيزياء والفلك وعلوم الأحياء وفلسفة التاريخ والإقتصاد وعلوم اللسان إلخ ...

يمكن لأولئك العلماء الراسخين في علوم الدنيا والدين أن يعيدوا اكتشاف مكنونات المنقول والمعقول (مثال المهندس في الكهرباء وفيلسوف الحضارة المرحوم مالك بن نبي) ويقترحون منظومة معرفية وقيمية بديلة، ولا تبحث عن المثال من خارجها، كما كان حال الأمّة الإسلامية

في القرن الرابع الهجري كما أعاد اكتشاف تفوقها وحداثتها العالمية المستشرق السويسري آدم ميتز (A.Metz) في القرن الثالث الهجري أي دولة القوة والحداثة والتقدم، وهو ما يتفرد به الغرب المهيمن منذ انطلاق عصر النهضة والتصنيع وإلى اليوم.

سادسا : المصالحة الثقافية : هل هناك بديل آخر ؟

1– تتبعنا في دراسة سابقة (1998) قسما من مصفوفة المفاهيم في محاولة للتعرف على مدلولها في الأذهان ومدى تعبيرها عن الواقع الثقافي السياسي في بلادنا خلال الأزمة التي عصفت بالجزائر في حقبة التسعينيات، ولا زالت مضاعفاتها تطفو على السطح بنفس التخندق والخوف والتخويف لدى الفصلين اللذين أشرنا إليهما سابقا.

وعلى الرغم من أنه بعد حوالي عقد لم يقدم أي تيار فكري أو سياسي بديلا عن المصالحة الوطنية مع ذاتنا الحضارية دينا ودنيا ومع ماضينا قبل الثورة وبعدها ومع العالم من حولنا، باستثناء الاعتراض على المصالحة نفسها والدعوة للعودة لنقطة الصفر المأساوية أو المطالبة بالمكاشفة والمحاكمة على منوال جنوب إفريقيا (أبارتايد طبّقة المستوطنين البيض على الأهالي السود).

2– لقد تصالحت بلادنا مع فرنسا بحكم بنود **اتفاقيات إيفيان** وهي منذ 1962 شريك الجزائر الأول على الصعيد الدولي دون أن تنسى الأغلبية من شعبنا ما اقترفه الغزاة من جرائم وما خلفته جيوشهم من دمار، أليس من الحكمة أن لا نرفض تضميد الجراح وتوبة المضللين وهم في نهاية المطاف يعيشون على هذه الأرض أبا عن جد؟ والعمل بكل الوسائل على تضييق الخناق في نفس الوقت على المصرّين على الخراب والفتنة، وإبطال مفعول ما يروجونه عن إعادة أسلمة الجزائر التي اعتنق شعبها كلّه الإسلام منذ 1300 عام وكان حصنه المنيع أثناء حقبة الاحتلال الصليبي الانتقامي من جزائر جهاد البحر الذي واجه أثناءه أبطال الأسطول الجزائري لحوالي 300 عام في المتوسط وبحر الشمال والأدرياتيك الغزو البرتغالي والإسباني بل التكتل المسيحي العالمي.

3– لا شك أن هناك من يخدم مصالحه ورغباته في الزعامة الإقليمية بقاء الوضع على ما كان عليه قبل عشر سنوات، وهناك أيضا من يبحث عن قواعد لجيوشه وأساطيله في حربه العالمية ضد الإرهاب الدولي وإظهار الإسلام على أنه خطر على البشرية كلها، لأنه ضد الحرية ونقيض للديمقراطية ومرادف للتخلف واضطهاد المرأة كما يدعي ذلك منظرون من أمثال المستشرق الأمريكي برنارد لوس الذي أصيب بهستيريا الحقد على الإسلام في نهاية حياته وآخرين من زعماء اليمين المتطرف في الغرب وتلاميذهم في العالم الإسلامي والناطقين بأسمهم في وسائط الإعلام الذين يوهمون رأيهم العام بأن نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم هو مؤسس الإرهاب والتعصب (الصور الكاريكاتورية في هولنده وغيرها ...)، من الذين يواصلون حربهم الصليبية من طرف واحد وطلبا للشهرة والنجومية السهلة..

كان من الممكن في نظرنا أن يكون **الردّ الأوّل** على ذلك التجريح الاستفزازي بطريقة تجعل المتخفين وراء حرية التعبير وحرية الصحافة يشعرون بعقدة الذنب، وذلك بالتقليل أولا من شأن ذلك التجريح على خاتم الأنبياء الذي مجّده منصفون في الغرب مثل غوته (Goete) 1832 أكبر أدباء ألمانيا الذي اعتبر في كتابه (Mahomet) رسول الإسلام أعظم شخصية أنجبتها البشرية وتوماس مور (Th. Moore) 1852 من أشهر شعراء إيرلنده وبريطانيا في العصر الحديث الذي قال بعد قراءته لترجمة القرآن : « آه . . أغفرلي يا إلاهي لو أن الجنّة كما يصفها محمد فإني سأعبد الله » .

وأن يتركز **الاهتمام ثانيا** على تعريف الرأي العام في العالم المسيحي بالتمجيد الذي خص به القرآن الكريم عيسى عليه السلام، كلما ورد ذكره في آي الذكر الحكيم، وأن لا أحد من المسلمين يذكر المسيح وأمه العذراء بسوء، وعامة المسلمين يميزون بوضوح بين المسيحية السمحاء وبين أولئك الذين يُحرّفون تعاليمها لأغراض الغزو والقهر والاستغلال وادعاء التمدين منذ كنيسة روما وبيزنطة حتى قساوسة أمريكا وبعض ساستها الحاليين .

قد يكون هذا المسعى بمدخليه الأول والثاني أكثر جدوى ومردودية من الاحتجاجات العاطفية ومحاصرة السفارات الأجنبية والمسيرات الغاضبة التي تعني كلها أن الاستفزاز قد حقق هدفه الأصلي، وهو أن العرب والمسلمين دولا ومجتمعات، وقسما كبيرا من النخب وعامة الناس عاجزون عن الفعل بل هم موضوع للفعل (أي مفعول بهم) وقانعون بردّ الفعل وأحيانا بعفوية ساذجة وبعد فوات الأوان .

لنتساءل وبلادنا تقف على أبواب مخبر النظام العالمي التسلّطي ومجهره الكشّاف مركّز على ما فيها من ساكن ومتحرّك ما هو مردود حملة الاستنكار غير المنظّم من طرف بعض المؤسسات والمتابعة الإعلاميّة (المباركة للحملة والمندّدة بها) ؟ وهل أنّ موجة التنصير في منطقة معيّنة أو في كلّ الوطن قد تنجح فيما فشل فيه الاحتلال بعدّته وعتاده كما اعترف بذلك الكاردينال لافيجري؟ ماذا جنته بلادنا من قضيّة المرأة التي اعتنقت المسيحيّة في تيارت؟

إن تعامل بعض المؤسسات ووسائل الإعلام مع موجة التنصير التي فشلت أثناء الاحتلال بعدّته وعتاده كما اعترف بذلك الكاردينال لافيجري نفسه، وتبدو معالجة « حالة » امرأة تيارت المتمسحة مثال على ذلك، فقد أتاحت للجمعيات « غير الحكومية » في أروبا وأمريكا الفرصة لشن حملة على الجزائر وتصنيف بلادنا في تقاريرها (بما فيها كتابة الدولة للخارجية الأمريكية) من بين الدول التي تضطهد حرية المعتقد .

تساعد التوضيحات الأولية السابقة على التعرف على الخريطة المجتمعية الثقافية السياسية التي يدور فيها الصراع بين النخب في الجزائر أساسا وعلى الساحة العربية الإسلامية بوجه عام، قد يتخذ ذلك الصراع كما أسلفنا من الجدل حول اللغة وحمولتها من التراث مدخلا للسخط على

الذات والهرب إلى الآخر وقد يكون الإسلام كما ينتسب إليه بعض المسلمين، وليس كما هو في روحانيته وإشعاعه الحضاري، هو مصدر النقمة واليأس من أي مستقبل للأمة والحكم عليها بأن قدرها المحتوم هو التخلف والتبعية.

وإذا تعلق الأمر بالإسلام عقيدة ومسلكية ومشروعا متجددا للمستقبل فإننا نبدي الملاحظتين التاليتين:

أولاهما: أن الإنسان في حاجة إلى ملجإٍ روحي يضمن له السكينة والطمأنينة فقبل الرسالات السماوية وبعدها عند القبائل المعزولة في أدغال إفريقيا وأقاصي الكراييب، وجد علماء التحليل النفسي (فرويد –يونغ – أدلر) في الطواطم وما يلازمه من طقوس وتابو تقديسي، الحاجة الأولية لحماية قوة غائبة عن الأنظار ومجسدة على الأرض تقدم بواسطتها القرابين إلى أنّه الخير خوفا من شيطان الشر.

وقد قامت على هذا التفسير فرضيات الأنثروبولوجيين الذين عايشوا البدائيين في حياتهم اليومية وثقافاتهم في حالتها الخام، إذن فالتدين ظاهرة تاريخية مجتمعية وحتى الملاحدة والغنوصيين إنما يرفضون ديانة ويصنعون أخرى مختلفة (إيديولوجية).

ثانيتهما: هناك مؤشرات تلوح في الأفق تبشر بمعالم حداثة لدى بعض شعوب آسيا الإسلامية مثل ماليزيا وتركيا وإلى حد ما – أندونيسيا وهي تنعثر في باكستان التي تتمتع بنخبة عالية المستوى كثير منها في المهجر (شمال أمريكا وبريطانيا) ولكن مدينة الإسلام (إسلام أباد) المجاورة للعملاقين الهند والصين التي أنقذها الإسلام من اضطهاد الهندوس، وقد يفككها الصراع الحالي حول الإسلام والخلفيّة العرقية والطائفية ويدفع بها إلى حرب أهلية تسلبها إنجازها النووي أو تضعه تحت الحراسة الدولية وهو ما تنتظره جارتها الهند وإسرائيل والحليف الميكيافيلي الولايات المتحدة.

تلك أمثلة لتعاملنا غير العقلاني مع قضايا عصرنا، ويبقى أن نعيد طرح إشكاليّة الحداثة في صيغة السؤالين التاليين:

كيف انطلق مشروع الحداثة؟ وما هي منزلتنا نحن فيه بعد قرن أو يزيد من الغزل العذري ببريقه أحيانا، والتنديد أحيانا أخرى بمساوئه وسرابه؟

نمهد للجواب بعينة من المفاهيم التي تتكرر في الخطاب الثقافي السياسي فالسياسي ينتمي في شعوره أولا شعوره (Subconscience) إلى ثقافة قبولا أو رفضا، والمثقف أيضا حتى في حالة الإعلاء (Transcendantal) ليس مجرد شاشة أو كاميرا خالية من الميول والاتجاهات ولذلك يمكن أن يعتبر المثقف سياسيا غير محترف.

نذكر الآن من بين المفاهيم التي راجت منذ حقبة التسعينيات ما يلي:

- التراجع الخصب la régression féconde .
- الاستقوار (من قاوري) .
- المجتمع المفيد .
- المجتمع المستفيد .
- يجوز . . لا يجوز : فتاوي ارتجالية على قارعة الطريق وفي المجالس والفضائيات والانترنت .
- الماضوية (Le passerisme) .
- الظلامية والقرون أوسطية .
- العلمانية أو اللائكية الإلحادية .
- الثوابت الوطنية .

سابعا : الكنيسة . . . التجديد والأعداء من الداخل

أشرنا إلى مصفوفة المصطلحات والمفاهيم ومن السهل التعرف على الفصيل الذي وضعها ويستعملها في منابره الخاصة لنلقي نظرة سريعة على تطور مفهوم الحداثة في الغرب ومشتقاته لدى النخب في البلاد العربية والإسلامية .

بدأ استعمال مفهوم الحداثة (Modernisme) باعتباره مصطلحا إبستمولوجيا في إيطاليا سنة 1904 ، للإشارة إلى التيار المجدد في اللاهوت الكنسي الكاثوليكي ، وقد اعتبر الكرسي البابوي المناهج الجديدة للبحث في علوم الدين تمردا على التوجه التقليدي للفاتيكان وتعاليمه المدرسية (Scolastiques) المتوارثة منذ تأسيس الكنيسة على أيدي القديسين الأوائل .

إذن ، بالتوازي مع مفهوم الانتقرية والانتقرالية (integrisme- integralisme) الشائع عندنا فإن التحديثية هي أيضا مقولة تخصّ المناهضين للمدرسية أو (السكولاستيه) ، أو من سمتهم الكنيسة « الأعداء من الداخل » ويرى بولا (E. Poulat) في كتابه عن التاريخ والاعتقاد والنقد في أزمة الحداثة[1] ، إن فهم إشكالية الحداثة ينبغي أن يندرج في ثلاث مستويات :

1-1- المستوى الكرونولوجي للصراع بين العلم والإيمان وخاصة بعد المجمع الكنسي الثاني في بداية هذا القرن .

1-2- تحليل المناظرات المذهبية والإيديولوجية داخل الكنيسة بفروعها المختلفة ، وبين المسيحية بوجه عام ومحيطها الاجتماعي والثقافي بوحه خاص .

1-3- فهم وتحليل الظواهر الاجتماعية-الثقافية التي حركتها الكنيسة ، أو التي كانت ردا عليها ، أو امتدادا لنفوذها .

ولكن إشكالية الحداثة انتقلت بسرعة من الجدل داخل الكنيسة وحولها، إلى إنتاج تلك الحداثة عن طريق التزامن بين الثورة التي حدثت في ميدان العلوم والفنون والآداب المتواصلة في غرب أوروبا إلى اليوم، وبين الثورة الصناعية التي انطلقت في إيطاليا وبريطانيا ثم عمت أوربا وشمال أمريكا.

وهكذا تضاعف حجم المعرفة بالإنسان والطبيعة وتزايدت الثقة في العقل والآلة، وقد قدر ماك لوهان 1965 (Mc.Luhun) التطور المذهل للعلوم والفنون بواسطة الوحدة الزمنية على النحو التالي:

إن حجم ما أنتجه الإنسان من المعرفة والتكنولوجيا في ثلاث سنوات من العشرية (70-60)، وحدها يساوي ثلاثين سنة من بداية هذا القرن، وثلاثمائة سنة من عصر نيوتن، وثلاثة آلاف سنة من عصر الكهوف!.

نقول إن إشكالية الحداثة أو التحديث انتقلت من نطاق الكنيسة إلى ميدان الثورة العلمية والصناعية وفي هذا المجال أيضا لم يتوقّف تدفّق الأفكار والمذاهب والفعاليات فليست المذاهب الوجودية (Existentislistes) والحركات الدينية والطوائف (Sectes) مثل حركة «مون» الكورية الأصل والبودية والتراجع المقنع في فرنسا مثلا عن اللائكية بوصفها باللائكية بالإيجابية (Positive) وحركات «الخضر» من دعاة حماية الطبيعة إلا طرحا جديدا لإشكالية الحداثة، ولكن بتعقيدات أشد من سابقتها تظهر في عشرات التيارات التي ظهرت في النصف الأخير من القرن الماضي في صورة التجريدية والتكعيبيّة في الفن والشخصانية والبنيوية والظاهراتية.

كما ظهر اجتماعيا وسياسيا في صورة العودة إلى الريف وأهمية الجمع بين الديمقراطية والمسيحية في أحزاب تحمل هذا الإسم فقد حكم الحزب الديمقراطي المسيحي إيطاليا وأغلب البلدان الاسكندنافية وألمانيا ويحكم اليوم الولايات المتحدة التي يصفها المفكر والأديب الأمريكي من أصل فلسطيني إدوارد سعيد بأنها بلد بنظام ظاهره جمهوري علماني في مجتمع شديد التدين بل تعتقد بعض الدوائر القوية التأثير في السلطة هناك أنها مكلفة بحمل رسالة المسيح إلى العالم بأسره.

والملاحظ أن نفوذ هذه الأحزاب قد تزايد بعد الحرب العالمية الثانية للرد عن تنامي الأحزاب الشيوعية في أوروبا وظهور الاتحاد السوفياتي كقوة سياسية ايديولوجية على الساحة الدولية، وقد اضطرت الديمقراطيات المسيحية لعقد وفاقات «تاريخية» مع الأحزاب الشيوعية القوية مثلما حدث في إيطاليا في مستهل السبعينيات، قبل أن تظهر بوادر الضعف والانهيار في المعسكر الاشتراكي في الثمانينيات من القرن الماضي وتصبح كنيسة روما بقيادة البابا السابق (من أصل بولندي) قوّة ضاربة لتأجيج التمرد والمساهمة في الإجهاز على الاتحاد السوفياتي.

ثامنا : تجارب للحداثة بلا توطين

أما في الجزائر وباقي المنطقة العربية فليس للحداثة سوى معاني مجازية، بسبب ضعف وتيرة الإنتاج المحلي للحداثة، وتستخدم النخب الثقافية والسياسية هذا المفهوم للإشارة إلى مدلولين هما :

1– التراكم الإبداعي للفكر العربي الإسلامي وهو تراكم على درجة كبيرة من الأهمية في سياقه الحضاري والتاريخي، ولكنه الآن أصبح جزءا من الحركة المستمرة للتاريخ، وينبغي القول بأنه لا يعتبر الآن إبداعا على الإطلاق، أي أنه ليس في موقع قيادي في الفكر الإنساني، وتأسيسه الحقيقي يتمثل في إخضاعه لنقد صارم (لا علاقة له بالتفاخر العنتري والرثاء) من طرف المعاصرين يُسهّل إثراءه من الداخل وتسريع حركته في ضوء المنجزات العلمية والتكنولوجية، وهذا هو الطريق الصحيح والشاق في نفس الوقت لزرع الحداثة والتقدم الذي اتبعه بلد مثل الصين الشعبية التي فرضت طب « الإبر »، على جامعة هارفارد وتقطع في نفس الوقت أشواطا كثيرة لاستيعاب تكنولوجيا الفضاء والتحكم في التيكات الخمسة (Les cinq Tiques) وهي الانفورماتيك، والتليماتيك، والبيوتكنيك، والإلكترونيك، والبيروتيك، وبعد تخلف مزمن وعزلة جعلتها سوقا للعفيون ومجزأة إلى كانوتات للنفوذ البرتغالي والبريطاني ثم الفرنسي والأمريكي استفاقت الصين في منتصف القرن الماضي وأصبحت منذ نهاية القرن الماضي تسمى القوة الهادئة (Soft power) وتتطلع الصين لأن تكون قبل منتصف هذا القرن قوة عالمية (Global power) وقد أعلنت قيادتها في افتتاح الألعاب الأولمبية بأن العالم كان يطالب الصين بأن تنفتح على العالم والآن فإن الصين تطالب العالم بأن ينفتح عليها، وهي تخوض السباق نحو الفضاء الخارجي بنجاح.

2– التراكم الإبداعي الغربي وهو المدلول الأكثر شيوعا بين النخب التي تبنت في مستهل هذا القرن المعيار الأوروبي لتحديد مضمون الحداثة ومسعاها وهكذا أصبحت الحداثة هي المنقولة شكلا لأن النخب المحلية لا تساهم فيها محليا بشيء يذكر، وتعني في محصلتها مجرد التشبه بالأقوى وتقليده في محاسنه ومساوئه.

ولهذا السبب فشلت تجارب على درجة كبيرة من الأهمية التاريخية مثل تجربة محمد علي في مصر وكمال أتاتورك في تركيا والشاه رضا بهلوي في إيران، ويتمثل الفشل في العجز عن زرع الحداثة في المجتمع، وقد اقتصر استهلاك منتجاتها والانبهار بمصادرها في أوروبا وأمريكا على حلقات ضيقة من طبقة النبلاء من ذوي الجاه والثروة تتميز عن « الغاشي »، بالسلوك القشري في مستوى الذهنيات و« الخدمة » التابعة في مستوى الصناعة والتكنولوجيا وفن الحياة، وقد وصلت الخدمة التابعة في السنوات الأخيرة في عدد من بلدان المنطقة إلى الافتخار بأنها مجرد قواعد لخدمة استرتيجية العظمة والطغيان للقوى الأجنبيّة كما حدث في حروب الشرق الأوسط والخليج المتكررة.

إن الدولة التي حملت لواء التحديث في نصف القرن الماضي، لم تضمن لخطابها الثوري أو الليبرالي أي محتوى معرفي يؤسس للتحديث داخل المجتمع وينشر أثاره في العمق، فقد كان (ومازال)، التشبه الشكلي بالغرب هو المقياس الأهم للحداثة.

لم يكن بالإمكان وضع أساس معرفي (ابستمولوجي)، سلوكي للحداثة بسبب الحرب الشعواء التي شنتها قيادات غير مستنيرة على حرية الفكر، والفكر الحر بالمعنى الذي وضعه كانط (E.kant) في كتابه الشهير « نقد العقل الخالص » (critique de la raison pure).

لذلك واجهت الأمة واقعها كما هو وبلا مساحيق التجميل وعندما انهزمت الأنظمة العربية في مجابهاتها غير الجادة مع إسرئيل، وخاصة سنة 1967، انطلق النقد اللاذغ من عنانه واعتبر الكثير من المثقفين أن الديكتاتورية هي أم التخلف وأبوه، فقد أدى كبت الحريات وتدجين الفكر وسيادة ثقافة البلاط، إلى التشرد (Vagabandage) الحضاري للأمة وهزائمها المتلاحقة وتبعيتها المتزايدة للنظام الدولي وخضوعها لضغوطاته بلا مقاومة، أدى هذا الإقرار بالإخفاق والعجز عن تقديم البدائل وخاصة في ميدان التنمية إلى موجة من رثاء الذات أو جلدها كما يقول شعراء مسلسل النكبات (بالجمع)، ولم يبق أمام شرائح واسعة من الشعب ومن بعض النخب سوى التفتيش في مواقف وأوراق السلف عن إكسير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أي أن خيبة الأنظمة هو أيضا إخفاق لحداثتها القشورية والمغشوشة.

وجد الكثير من الشباب التائه والمحبط الملجأ في المساجد وأوراق القدماء لتجاوز الحاضر غير المقنع وتحدي الآخر الأكثر قوة ورفاهية.

إنّ التدين (Religiosité) في حد ذاته ليس ظاهرة سلبية فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والاقتداء برسولنا الأكرم محمد (ص) وهو المثل الأعلى في شؤون الدين والدنيا، ولكن الإسلام ليس رهبانية وعبادات آلية (ميكانيكية) تمحوها المعاملات السيئة مثل الغش والكسل والفساد في الأرض بدل إصلاحها.

وبعد أن تشكك جيل السبعينيات والثمانينيات في الأطروحات الليبيرالية لمفكرين سيطروا على الساحة مثل زكي نجيب محمود وقسطنطين زريق وعبد الله عبد الدائم...، فإنه لا يرى بوضوح البدائل التي يقدمها فكر آخر يتردد بين الليبرالية واليسارية كما هو الحال عند عبد الله العروي، وأدونيس، والجابري، وأنور عبد المالك ومصطفى الأشرف، وعبد الله شريط وعبد المجيد مزيان، ومحمد أركون.. ولا يقدم له اليسار الماركسي من خلال أطروحاته التاريخية أو الاجتماعية كما تظهر عند محمد حربي والطيب تيزيني ومحمود أمين العالم وسمير أمين وغيرهم لا يقدم تصورا يتجاوز عقبات الحاضر ويلقي بسلم نحو المستقبل.

وأيا كان المدخل نحو الحداثة فإن التراث الثقافي الذي امتزج إلى حد بعيد بالمرجعية الإسلامية في جانبيها العقائدي والقيمي (القيم الموجهة للسلوك)، لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار فبدل أن يكون

الصراع بين عصرانيين وسلفيين أو تقليديين لا يملك أي منهما القدرة الفعلية للتأثير على المستقبل، ينبغي أن يكون التجاوز(ونعني به هنا النقد ونقد النقد والإبداع)، حول طريقة تطويع الموروث العربي الإسلامي لمقتضيات العصر وتمثل (Assimilation) التراكم الهائل للمعرفة والتكنولوجيا برؤيتنا الخاصة ووفق تجربتنا التاريخية، فالمعاصرة والحداثة هي إلى حد كبير إسقاط (Projection) للذات التاريخية على المستقبل فهل تلد ذاتنا التاريخية المعاصرة في القرن الواحد والعشرين؟

ولتأييد هذا الطرح، يمكن النظر بسرعة إلى ما علق بأذهان النخب في بلادنا وفي المنطقة العربية من معالم الحداثة الأروأمريكية المهيمنة على العالم وخاصة منذ الفترة ما بين الحربين وإنطلاق المشروع الجديد (New deal)، في الولايات المتحدة أولا، ثم غرب أوروبا ثانيا، وهو المشروع الذي أدى إلى الثورة التكنولوجية المعاصرة، وسط تغيرات اجتماعية متسارعة، تنطلق من مراكز جذب ودفع متعددة أهمها الذات المفكرة (Cogito ergo sum)، التي تحاور نفسها وتتحاور مع من حولها، جدل بين العقل والإيمان، يسمح كل منهما للآخر بأن يذهب إلى أبعد مدى، وينسى البعض عندنا عند الحديث عن اللائكية والعقلانية أن ديكارت الذي وضع قواعد التفكير في كتابه المشهور «قواعد المنهج» Discours de la méthode، يصل في تأملاته الروحانية Méditations إلى حد التصوف والرهبنة، وأن باسكال الرياضي هو كاهن غارق في ميتافيزيقيا الكون والإنسان، ما بين غاليليو واينشتاين جسر دعائمه عقل وإيمان قد يكون أحدهما هو نقطة البداية ولكنهما في النهاية يلتقيان أمام بوابة المعرفة الكلية، التي يرى بيرغسون (H. Bergson) أن مفتاحها هو الحدس (Intuition)، أي ومضة تقع في منزلة–ما– بين العقل والروح.

خلاصة : مجتمع الحداثة وحداثة المجتمع

إن الذي يجذب الاهتمام ويستقطب جزءا كبيرا من الجدل والصراع الدائر اليوم بين القيادات والنخب هو الآثار المرتبطة بالحداثة كما صنعها الغرب وتتمثل فيما يلي :

1– تقلص الريف وتضخم المدينة (L'urbanisation).

2– تفكك الولاء الجمعي العائلي والقبلي والقروي.

3– التوزيع الذري للعلاقات (Atomisation)، والفردية المطلقة (individualisme).

4– الاستهلاكية وتشخيص المستهلكات بواسطة الإشهار الذي يفرض نوع وشكل السلع.

5– تحرير المرأة من وصاية العائلة وضغوط الضمير الجمعي.

6– كسر الحدود بين المقبول والمرفوض في العلاقات بين الجنسين.

7– اعتبار الجسم والمظهر قيمة عليا فالرشاقة بالنسبة للرجل والمرأة هي الشرط الأول للنجاح بحيث يصبح الجسم قيمة مطلقة فيما يخص المرأة حيث تقوم صناعات كاملة لتخفيف الوزن والمساحيق لغرض بيع الرشاقة والمتاجرة بالجنس ومثيراته (قلما يخلو إشهار من إغراء أنثوي).

8- الانتقال من الحرية والديمقراطية إلى براغماتية نفعية تفرض على الرأي العام نموذج الحياة والاتجاهات السياسية والثقافية الاجتماعية وتلعب أجهزة الإعلام القوية ومؤسسات قياس الرأي العام دورا هاما في نمذجة (Modelling)، المجتمع وتوهمه بأنه حر في اختياراته ونمط حياته.

وهذه النقطة بالذات هي التي عبر عنها المفكر اليساري الأمريكي أريك فروم (E. Fromm) بقوله أن مشكلة العصر ينبغي أن تعاد صياغتها على النحو التالي: كيف تكون لا ماذا تملك (How to be not what you have).

هذه بعض الانعكاسات السسيولوجية للحداثة لا ينبغي الحكم عليها من الموقع الحضاري التي ننتمي إليه، بل من خلال السياق التاريخي الاجتماعي للبلدان التي أنتجت الحداثة في صورتها الراهنة، ولو سمحنا لخيالنا أن يحلق ويستحضر الصورة التالية وهي أن ينقل التلفزيون صورة وثائقية عن الحياة في بغداد أو بجاية أو القاهرة أو دمشق، أو فاس، أو تونس، في القرن الثالث أو الرابع الهجري، لمشاهدين أوروبيين في الحقبة نفسها ونستمع لاستجاباتهم لحداثة مجتمعاتنا في ذلك العهد وهي حداثة كانت بدون شك في مرتبة قيادية، يوجد الجواب في عنوان هذه الورقة: للحداثة بداية لها مسار بلا نهاية!

من هذا المنظور، ينبغي أن لا تخدعنا لفظيات الحداثة وغزلياتها القشورية التي تتوهم أن استهلاك الفائض من منتجاتها، ومدح ما عند الغير هو الحداثة، بينما المطلوب هو توطين العلم والتكنولوجيا بالعربية انطلاقا من تراثنا الصالح والجهد المتواصل لتحقيق تراكم الخبرات في مجالات البحث الأساسي التنظيري وتطبيقاته العملية، وأن يصحب ذلك إرادة وتصميم لدى النخب القيادية في الدولة وهيئات المجتمع المدني، لا تخضع للتقلبات الانفعالية والأمزجة الشخصية، إن الجزائر لم تبدأ اليوم ولن تتوقف غدا، ولا ينبغي أن يكون ماضي الأمة بانتصاراته وانجازاته وأخطائه وكبواته سجن لنا فالأمة التي ترى أن أمسها خير من يومها، ولا تستطيع أن تنمي رصيدها المعنوي وثرواتها المادية بعقول أبنائها وسواعدهم هي أمة لن يسمح لها في المستقبل القريب حتى التفرج من بعيد على السباق والمباراة التي قد تدور أشواطها القادمة خارج كوكب الأرض.

ليس من أحلام اليقظة الجزم بأن مؤهلات الجزائر المادية والمعنوية ترشحها لاعتلاء مكانة أسمى إذا خلصت النوايا وتضافرت الإرادات، وتجربة ثورة التحرير (1954-1962) تبرهن على أن انتصار الجزائر على ضعفها ممكن، ولا شك أن المصالحة الوطنية هي بداية الطريق للخروج من الحيرة والتردد، فلا تنمية ولا ازدهار بدون أمن واستقرار يمنع الآخرين من فرض قواعد

اللعبة كما حدث سنة 1994 (الوصاية المالية السياسية على الجزائر) هل نتذكر؟ وهل تنفع الذكرى لأولى الألباب؟!.

لا نزعم في كل ما سبق أية مزايدة على الوطنية، ولا الوكالة عن أي فصيل من فصائلها الناشطة في إطار قوانين الجمهورية، سواء أكانت في السلطة أم المعارضة، وأيا كانت مقولاتها وخطاباتها المعلنة.

إن ما سبق لا يزيد عن كونه وجهة نظر لا توزع التهم والبراءات على أحد، إن أكثر ما يشغلنا هو تسريع نهضة بلادنا، وتوطين المعرفة باللسان العربي، وتحقيق تراكم فيها، والوصول إلى تأهيل (mis a niveau) يقلل من التبعية للغير وفاء بوعد الثورة التحريرية وحلمها الجميل، وتحقيق مقولة الماوردي (القرن الرابع الهجري) الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش.

تلوح في الأفق دلائل على تحرر نخبنا في كثير من المواقع من الاغتراب بمعناه النفسي الحضاري ومن التخندق والتأدلج المغلق، وعندئذ تكون العربيّة لغة السيادة حقا، كما هي في دستورنا الجمهوري، والأمازيغية لغتنا الوطنيّة وخزان قسم كبير من تراث الأجداد، والفرنسية أو غيرها من اللغات من مصادر نقل العلوم والتكنولوجيات والإبداع العالمي إلينا، كما هو حال اللغات الأجنبية في البلدان الحريصة على انسجامها وتجانسها الاجتماعي الثقافي، فلا نكون نحن غنائم لها وخدما مجانيا في استراتيجياتها القديمة والجديدة.

ملحق I : منهجية عمل المجلس ولمحة عن أدائه

عمل المجلس خلال عهدته الأولى 1998–2003 بفريق يتكون من أعضاء يمثلون الإدارات والهيئات العمومية ومؤسسات البحث العلمي التابعة للجامعات والمعاهد العليا الوطنية، وكوّن في نهاية 2003 أفواجا من الخبراء وأساتذة الجامعات المتخصصين في المعجمية والترجمة والمصطلحية وأشرك في التخطيط والتنفيذ العديد من الوزراء ووكلاء الوزارات والمديرين العاملين في مختلف القطاعات التي لها علاقة بالجمهور، وأقام مع تلك القطاعات علاقات تشاور وحوار متواصلة لتعزيز مواقع العربية في الهياكل والمؤسّسات التي دخلتها في السنوات الماضية وعمل على تقديم الوسائل المشجعة على استعمالها في هيئات أخرى. كما عقد المجلس عدة لقاءات مع **منظمات المجتمع المدني** والجمعيات الأهلية عبر القطر للتعرف على العوائق التي تعترض عمليّة تعميم استعمال العربية في الحياة العملية وفي الإشهار والمحيط بوجه عام، واجتهد خبراؤه في تقديم الحلول في صورة أدلة أو قواميس ميسرة؛ مرفقة بنماذج للاستمارات والوثائق الإدارية الخاصة بالإدارات المركزية والمحليّة على مستوى القطر الجزائري.

يعتمد المجلس في مسعاه طريقة عملية تنأى باللسان العربي في الجزائر عن **التجاذبات الإيديولوجية والأحكام المسبقة عند البعض عن العربية والعروبة كما تبدو اليوم**، من خلال أوضاع الوطن العربي السياسية، وما يعانيه من تخلف بسبب الفجوة العلمية والتكنولوجية التي تمنعه من المشاركة في صنع حداثة العصر، مما أدى إلى انبهار البعض بما عند الآخر، وكراهية الذات، وانسحاب البعض الآخر إلى الماضي والعيش عالة على أمجاده، والاستغناء عن الجهد والاجتهاد.

يعمل المجلس على ضوء **معاناة جيل ما بعد التحرير من جرح الذاكرة** بسبب إنكار شخصيته الوطنية، وتحقير اللسان العربي طيلة حقبة الاحتلال الاستيطاني الفرنسي الإجرامي الذي دّمر الدولة ومؤسساتها ومارس إلى جانب الإبادة المادية إبادة معنوية لا زالت مضاعفاتها النفسية والثقافية ظاهرة إلى اليوم.

وتبيّن دراسة **الواقع اللغوي في الجزائر** وصيرورته التاريخية: أن الخريطة اللسانية تقدم المعطيات التالية:

– **فصحى اقترنت بالقرآن الكريم** وأدت إلى تقديس الحرف العربي وأصبحت آلية دفاعية ضد الأجنبي تستهدف التميز عنه، وإثبات الهوية العربية الإسلامية للجزائر في كل مدنها وأريافها؛

– **عامية** تمتزج في المدن بمفردات فرنسية يتم نطقها وفق مخارج الحروف العربية أو نطقها كما تنطق باللغة الفرنسية؛

– **لغة أمازيغية بعدة لهجات** فيها الكثير من المفردات العربية، كتبت حتى أواخر القرن 19 بالحرف العربي وهناك اليوم خلاف حول أي حرف تكتب به هل هو الحرف العربي أو اللاتيني أو التيفينارغ؟ وقد

نصّ تعديل دستوري سنة 2002 بمبادرة تاريخية من فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة على اعتبارها لغة وطنية ولها محافظة سامية ومركز أبحاث تابع لوزارة التربية، كما تقرّر أن يكون لها مجلس أعلى وأكاديميّة للأبحاث العلمية.

– **لغة فرنسية** مستعملة في مستويات مختلفة بين فئات من النخبة والجيل الثاني من المغتربين في فرنسا، وقد تزايد انتشارها لأسباب أشرنا إلى بعضها في المحاور السابقة ويكاد ينشطر المجتمع الجزائري إلى ثلاثة أصناف:

– صنف أحادي اللغة (فرنسية).
– صنف يتقن اللغتين أو على الأقل يحسن إحداهما.
– صنف أحادي اللغة (عربية).

وقد ارتأى المجلس بالنظر إلى المعطيات السابقة الاعتماد في عمله الميداني على الأفكار التالية:

1– لا توجد لغة متقدمة أو متخلفة بذاتها، إن التقدم والتخلف من صفات الناطقين بها، والعربية تقدمت وأصبحت لغة الإبداع في العلوم والفنون والآداب في عصرها الزاهر، وتراجع منتوجها في تلك المجالات المعرفية عندما أصيب العالم العربي والإسلامي بالركود والفتن والتسلط الأجنبي؛

2– اللغة العربية **هي أساسا ثقافة وحضارة وليست عرقا أو سلالة**؛

3– العربية الفصحى لغة واحدة وموحّدة لأقطار الوطن العربي وجامعة بين نخبه وشعوبه ومن دواعي التجانس والانسجام في القطر الواحد وبين الأقطار العربية؛

4– العربيّة ليست **خصما للأمازيغية** فقد تعايشتا معا في وئام لأكثر من ألف عام، وقد ساهم الأمازيغ في الفضاء المغاربي كله في علومها وثقافتها وإلى اليوم، ومنهم الكثيرون من منطقة زواوة (القبائل) بالذات.

إنّ اللّغة العربيّة التي أُقصيت لأكثر من قرن في الجزائر لا تقصي اللّغات الأخرى ومنها الفرنسيّة؛ بهدف الاستفادة من ذخائرها العلميّة والإبداعيّة، وليس للتحول إلى خدمة تلك اللّغات والهروب إليها.

وقد أسس المجلس منذ 2003 منبرين لمناقشة الأفكار السابقة بين مختلف فصائل النخبة وضيوف الجزائر من البلاد العربية الشقيقة ومن أوربا يحمل الأول عنوان: **حوار الأفكار**، والثاني: منبر **فرسان البيان**، كما أنشأ هذه السنة (2008) منبرًا آخر تحت عنوان **شخصيّة ومسار** للتعريف بجهود السّلف والخلف في خدمة الثّقافة العربيّة وعلومها وآدابها في العصور الحديثة. كما تُوّجت جلسات الاستماع والتشاور مع مختلف دوائر الدولة بمجموعة من معاجم المصطلحات والأدلّة العمليّة لقيت اهتمام المعنيين من مسؤولين وموظفين نذكر من تلك الأدلّة:

– **دليل الإدارة**، للمصطلحات المعتمدة والتعابير المتداولة في مؤسسات الدولة؛

– المبرق قاموس **موسوعي للإعلام** والاتصال (مفاهيم ومصطلحات) نال جائزة اللغة العربية سنة 2001؛

– دليل وظيفي في التسيير **المالي والمحاسبي**؛

– دليل وظيفي في تسيير **الموارد البشرية**؛

– دليل **المحادثة الطبية**؛

– دليل **الوسائل العامة**؛

– دليل **المكتبية** Bureautique (تحت الطبع).

وقد تم التحضير لتلك الأدلة بعدة ندوات وملتقيات تجمع بين الخبراء والمستعملين، وتقدم مشاريعها قبل اعتمادها للإثراء والتعديل من قبل القطاعات المعنية، وتستمدّ تلك الأدلّة والقواميس المصطلحات مما اختارته مجامع اللّغة العربيّة ومكتب تنسيق التعريب في الرباط، وتضع أمام كل مصطلح مقابله بالإنكليزية والفرنسية.

كما عقد المجلس عدّة ندوات وطنيّة وعربيّة ودوليّة وموائد مستديرة حول المسائل السابقة تمّ تدوين خلاصاتها ونشرها وتوزيعها بالمجان داخل الجزائر وخارجها، بعضها في صورة دفاتر الجيب، وبعضها الآخر دراسات فازت في المسابقات التي يعقدها المجلس كل سنتين في عدة موضوعات من بينها علوم العربيّة والطب والصيدلة والاقتصاد والاستشراف والترجمة المجموع يصل إلى 80 إصدارا خلال السنوات الخمس الماضية بما فيه مجلته الدوريّة النصف سنوية (انظر الجدول الملحق).

خلاصة:

إن العناية بلغتنا الجميلة لا يعني الاكتفاء بتمجيد الماضي أو الهروب فكرا أو لسانا إلى الآخر، بل يحتاج إلى إرادة سياسية تثمّن جهود العلماء والأدباء في الجامعات والمخابر، ومراكز البحث العلمي، وإلى تحديث مناهج ومضامين التربية والتكوين، وتوفير الشروط لاستعادة (الكفاءات) المتواجدة في المهجر، ووضع إستراتيجية بعيدة المدى لا تخضع للأمزجة الشخصية لتدارك الفجوة التي تفصلنا عن العالم المتقدم وتوطين المعرفة تمهيدًا لإنتاجها بلغتنا العربية الجميلة، واعتبار ذلك من متطلبات الأمن الوطني، ولا شك أنّ من أهم شروطه دعم الانسجام والتجانس الثقافي اللساني بين كل فئاته، واحترام الخصوصيات المحلية من ثقافات وألسنة فرعية تنهل من تاريخ مشترك، وهوية جامعة يعتز الجميع بالانتماء إليها وجوهرها مثلث الإسلام والعربية والأمازيغية المتمازجة في ضمير الإنسان الجزائري ماضيا وحاضرا. ويبقى اللسان العربي على مستوى المنطقة مغربا ومشرقا آخر المعالم الجامعة للعالم العربي قبل وبعد التمايزات الإيديولوجية والسياسية والمذهبية القديمة والحديثة في منطقتنا.

ولعـل من الشجاعـة الفكرية والأخلاقية أن نشير إلى أن الكثير من الدراسـات الميدانيـة تنبه إلى ما تعانيه اللغة العربية في معظـم البلدان العربية من تقهقر وتهميش ومزاحمة العاميات القطرية حتى بين المختصين في لسانها وآدابها وتفضيل اللغة الأولى للعولمة أي الإنكليزية والمعاقل القديمة للغة الفرنسية.

لقد صمدت العربية في مواجهة المدّ الكولونيالي في أحلك المراحل التاريخية عن طريق النضال الشعبي والمؤسسات التقليدية، وهي اليوم في حاجة إلى النهوض بواسطة حماية الدولة والمجتمع لها، وبقدرتها على المنافسة في عالم القرن 21 بما تنتجه نخبها العالمة والمبدعة في مجالات العلم والتقانة والفنـون الجميلـة والآداب باللسان العربي، وبما ينقل إليه عن طريق الترجمـة، وهي تعتبر في كل اللغات والثقافات، بمثابة الأكسجين الذي ينمي الرصيد المعجمي وينعش الخيال الإبداعي ويزيد من التراكم العلمي.

ملحق II : عينة من إصدارات المجلس 2000 ـ 2008

1- (الكتب)

الرقم	العنوان	المؤلف	تاريخ الإصدار	ملاحظات
01	معجم المصطلحات الإدارية	جماعي	2002	مجموعة عمل « المصطلح الإداري »
02	إتقان اللغة العربية في التعليم	جماعي	2002	أعمال ندوة
03	أعمال الموسم الثقافي	جماعي	2002	مدونة المحاضرات الملقاة عام 2000
04	مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية	جماعي	2001	أعمال ندوة
05	تيسير النحو	جماعي	2001	أعمال ندوة
06	مساهمة اللغة العربية في التضامن والتواصل	جماعي	2003	أعمال ندوة
07	تأملات في الخطاب الجامعي	واحد	2004	جائزة «**اللغة العربية**»
08	أهمية الترجمة وشروط إحيائها	جماعي	2007/2002	أعمال ندوة، أعيد طبعها سنة2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية
09	سوائح وارتسامات عابر سبيل	واحد	2004	أ.محمد الصالح رمضان
10	دور وسائل الإعلام	جماعي	2004	أعمال يوم دراسي
11	قاموس المبرق	واحد	2007/2004	جائزة اللغة العربية، أعيد طبعها سنة 2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية
12	دراسات حول اللغة العربية في الجزائر	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»
13	فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»
14	الفهم اللغوي القرائي	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»
15	حب التميز عند الطلبة	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»
16	ظاهرة التسيب الإداري في الجزائر	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»

17	اللغة العربية في تكنولوجيات المعلوميات	جماعي	2007/2005	أعمال ندوة، أعيد طبعها سنة 2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية
18	الكهرومغناطيسية	واحد	2005	جائزة «**اللغة العربية**»
19	الكهرباء الساكنة والمتحركة	واحد	2005	د.رضا أوهايبية
20	الدارة الكهربائية	واحد	2005	د.رضا أوهايبية
21	الدليل الوظيفي في إدارة الموارد البشرية	جماعي	2006	مجموعة عمل مكونة من خبراء
22	الدليل الوظيفي في التسيير المالي والمحاسبة	جماعي	2006	مجموعة عمل مكونة من خبراء
23	دليل المحادثة الطبية	جماعي	2006	مجموعة عمل مكونة من خبراء
24	مظاهر وحدة المجتمع الجزائري	جماعي	2007/2006	أعمال ندوة، أعيد طبعها سنة2007 في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية
25	الطب الشرعي	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
26	وطن إزيس	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
27	الثورة التكنولوجية العلمية	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
28	البعد اللامرئي	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
29	علامات الحياة والممات	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
30	أنوار التحلي ج1	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
31	أنوار التحلي ج2	واحد	2006	جائزة «**اللغة العربية**»
32	المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية.	جماعي	2007	أعمال يوم دراسي
33	الفصحى وعاميتها.	جماعي	2008	أعمال ندوة، تحت الطبع
34	الطريق إلى مجتمع المعرفة: وأهمية نشرها باللغة العربية.	جماعي	2008	أعمال ندوة، تحت الطبع
35	تطوير البرمجيات التطبيقية باللغة العربية: خطوات نحو الإدارة الإلكترونية.	جماعي	2008	أعمال ندوة، تحت الطبع

2- المجلات : مجلة نصف سنوية، والموسومة بـ: اللغة العربية.

من العدد 1 إلى العدد 19

3- الدفاتر : وهي خلاصات للمحاضرات والموائد المستديرة.

الرقم	العنوان	المؤلف	التاريخ
01	اللغة العربية في الهيئات الدستورية	د/ عبد الوهاب دربال	2005
02	العلاقة بين الفصحى والعامية	جماعي (مائدة مستديرة)	2005
03	وضعية التعليم في الجزائر	أ. محمد الطاهر زرهوني	2005
04	تكوين الإطارات الجزائرية أثناء حرب التحرير	جماعي (مائدة مستديرة)	2005
05	ملامح خريج الجامعة	د/ محمد سعيد الحفار	2005
06	منهج النحو عند ابن رشد	د. عمار طالبي	2005
07	جمعية العلماء المسلمين	جماعي (مائدة مستديرة)	2005
08	ثقافة الطفل	جماعي (مائدة مستديرة)	2005
09	استعمال اللغة العربية في الإدارة	جماعي(يوم دراسي)	2005
10	دور الاتحاد العام للطلبة الجزائريين	جماعي (مائدة مستديرة)	2005
11	الفقيه والسياسة في الغرب الإسلامي	جائزة «**اللغة العربية**»	2005
12	دور الأدب الشعبي في المقاومة الوطنية	الأستاذ: عبد القادر خليفي	2005
13	الصلح في المجتمع الجزائري	الأستاذ: محمد أرزقي فراد	2005
14	الطب ولغة والمريض	جماعي (مائدة مستديرة)	2006
15	ثقافة الطفل خارج المدرسة	جماعي (مائدة مستديرة)	2006
16	توطين المعرفة العلمية والتكنولوجية	د/محمد علي بوغازي	2006
17	اللغة والهوية والتعددية اللسانية	جماعي (مائدة مستديرة)	2006
18	أمسية شعرية للشاعر: إبراهيم صديقي	جماعي	2006
19	اللغة العربية في المهجر: الفرص والعوائق	جماعي (مائدة مستديرة)	2006
20	الإصلاح والنهضة عند الإمامين: عبد الحميد بن باديس، و محمد عبده.	جماعي (مائدة مستديرة)	2006

21	أمسية للشعراء الشباب : إحياء اليوم الوطني للطالب	جماعي	2007
22	جهود أمازيغية في خدمة اللغة العربية	جماعي (مائدة مستديرة)	2007
23	مكانة العربية في الوطنية الجزائرية	جماعي (مائدة مستديرة)	2007
24	أمسية شعرية للشاعرين: عفاف فنوح، مراد بوشحيط	جماعي	2007
25	مكانة المرآة في المجتمع التارقي	السيد : لحسن مرموري	2007
26	أهمية وضع سياسة وطنية للغات	الأستاذ. عبد الحميد مهري	2007
27	ثقافة الطفل في الأسرة	جماعي (مائدة مستديرة)	2008
28	لغة المسرح في الجزائر: الإبداع، الترجمة، الاقتباس.	جماعي (مائدة مستديرة)	2008
29	أهمية الشعر الغنائي في نشر اللغة العربيّة وفي إذكاء الروح الوطنيّة	جماعي (مائدة مستديرة)	2008
30	شخصيّة ومسار	د. عبد الله شريط	2008

الإحالات

المراجع باللغة العربية :

1– الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1982 .

2– أدونيس، علي أحمد سعيد : الثابت والمتحول، 3 أجزاء، بيروت، دار العودة، 1978–1974 .

3– محمد العربي ولد خليفة، ما هو الجديد وأين نحن من مستجداته؟، المطبوعات الجامعية 1998 .

4– محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، (ثالة)، الجزائر 2008 .

5– محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية .

6– د.اليحياوي يحي، العولمة والرأسمالية الإدلالية والتوزيع العالمي الجديد للمعرفة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية 2008 .

7– بلقزيز عبد الإله، الفرانكفونية استراتيجية للاستعمار الجديد، صحيفة الخليج، 01 / 04 / 2008 .

8– تيزيني الطيب، من التراث إلى الثورة، دار ابن خلدون، بيروت 1978 .

9– د.حنفي حسن، ثورة المعلومات بين الواقع والأسطورة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية 2008 .

10–رزاقي عبد العالي، الاستبداد اللغوي، صحيفة الشروق، 09 / 10 / 2008 .

11– زريق قسطنطين، نحن والمستقبل، دار العلم للملايين، بيروت 1977 .

12– سابير.أ، مدخل للتعريف باللغة، ترجمة سعد القاسمي 1993 .

13– د.سعد الله أبو القاسم، أتيناك طائعين، صحيفة الشروق، 23 / 09 / 2008 .

14– نجيب محمود زكي، ثقافتنا في مواجهة العصر، القاهرة 1976 .

المراجع باللغة الأجنبية :

1–Addi Louhouari; Misère de l'Intellectualisme, El–Watan 11–12–13.14/2008.

2–Addi Louhouari; Misère de l'Intellectualisme, op.cit.

3–Allen R.L.; Political Efficacity and Political Ideology: The Role of Communication in a Media–rich, Underdeveloped country, Kluwer Publisher, Neth 1991.

4–Appadurai. A; Modernity at Large, pub, university of Minus 1997.

5–Berque J.; Le Coran, p. 721 et s, ed. Sindbed, Paris 1990.

6–Berques J.; Les Arabes, p. 721 et s, ed. Sindbed, Paris 1990.

7–Bourdieu P.; Le Sens Pratique, ed. Minuit, Paris 1980

8–Brahimi A.; Omar Sera–t–il Toujours un Cancre Quotidien d'Oran, 11/09/2008.

9–Chourar S.; Tamazight entre Gesticulation et Création, El–Watan 01/07/2008.

10-Cuche D.; La Notion de Culture dans les Sciences Sociales, cole. repere, Paris 1996.

11-El-Kenz A.; Le Monde Arabo-musulman entre Modernité et Modernisation, conférence débat à la B.N., El-Watan 24/09/2008.

12-Hadjres S.; La Crise du PPA de 1949 (chevaliers de l'antiarabisme) El-Watan 29-30-31/08/1998.

13-Harbi M.; La Révolution a-t-elle été trahie, numéro Spécial, nov. obs 1984.

14-Helias, P.J.; Le Cheval de l'Orgueil, Mémoire d'un Breton du Pays Bigourdin Leon, Paris 1975.

15-Herder J.; Une Autre Philosophie de l'Histoire, A. Montaigne, Paris 1964.

16-Hudson M.; The Arab Future, critical issues, Washington, D.C and G.T. univ. 1979.

17-I.N.E.D; Rapport, Langues et Dialectes en France, Paris 2002.

18-LAI/SI TSVI; The Use of New Communication Technologies in Third World countries: A Comparison of Perspectives, mathesis publisher Nath 1993

19-Laroui A.; Islam et Modernité: la Découverte, Paris, 1987.

20-Mac-Luhan; Pour Comprendre les Médias, p.82, Ed. Seuil, 1965.

21-Memmi A.; La Patrie Littéraire du Colonisé, Le Monde Diplomatique, Sept 1999.

22-Naba R.; Aux Origine de la Tragédie Arabe, ed. Bachari, Paris 2006.

23-Poulat; Histoire, Dogme et Critique dans la Crise Moderniste, pp. 37-41, Casterman, Paris 1962.

24-Perville Gu.; Les Etudiants Algériens de L'Université Française 1880-1962 CNRS, Paris 1986.

25-Said E.; Impossibles Histoires, Harp's 07/2002.

26-Seddiki M., Muslim Media: Present Status and Future Directions, Gazette 47, Western Illinois University.

27-Strauss L., Anthropologie Structurale, Plan, Paris 1958.

راهن اللغة العربية في أوطانها

د. محي الدين عميمور
(وزير سابق – الجزائر)

«حكاية غنيمة الحرب»

يتردد في بلادنا، عند الحديث عن اللغة الفرنسية، تعبير يصفها بأنها «غنيمة حرب»، والمقصود هو (Butin de guerre، وليس Putain de guerre ، لطفاً) وهو ما يعيد إلى الذاكرة أياما، أو على الأصح قرونا خلت، كان المُقاتل فيها يخوض غمار حرب شرسة، فإذا ظفر فإنه يعود بغنائم ربما كان من بينها سبيّةً يجعل منها محظيّة أو خليلة إذا كانت شابة وجميلة ومتألقة، أو يكلفها بمهام الخادمة أو ما دون ذلك، إذا كانت غير ذلك.

عندنا نعيش العجب العُجاب، فالسبيّة، التي لم تكن «بريجيت باردو» أمس ولا «نانسي عجرم» اليوم، استولت على عقل مالكها وخلبت لبّه، فسلمها لحيته وأسلم لها قيادَه، ولأنها لم تكن تؤمن بالتعددية وكانت ترفض المساواة فقد طردت زوجه وأبناءه، وجاءت بأهلها فأسكنتهم المنزل وسلمتهم مفاتيحه، وأرغمت بعلها «الجايح» على أن يكتب كل أملاكه باسمها، وعطفت عليه في نهاية الأمر فخصصت له غرفة مهجورة يلفظ فيها أنفاسهُ الأخيرة، وراحت تقضي نهارها هائمة ومساءها راقصة وليلها عاشقة لأي عابر سرير.

وهكذا سادت في بلادنا لغة «سانت أرنو وبجارولاكوست»، التي كان مولود قاسم رحمه الله يردد بأنها أصبحت لغة متخلفة، مقارنة باللغات الأخرى كالإنغليزية، وهي اليوم لغة العلم وأداة العلماء، والإسبانية التي تتحدث بها نحو ثلاث قارات، والصينية التي يتعامل بها خمس سكان العالم، والألمانية التي تشق طريقها نحو العالمية.

وبأموال الدولة، التي استعادت استقلالها بدماء ملايين الشهداء واسترجعت ثرواتها بتضحيات أجيال وأجيال، ازدهرت لغة الخادمات (femmes de ménage) والكونسييرجات (concierges) وازدادت صفاقة من تحولوا من الفرانكفونية إلى الفرانكوفيلية ثم إلى «الفرانكومانيا» الممتزجة بالأرابوفوبيا والحساسية المرضية من كل ما تفوح منه رائحة العروبة والإسلام.

ونتيجة للتراخي المُعيب لمن يعنيهم الأمر أو يجب أن يعنيهم الأمر استطاع «التسونامي» الفرنسي إغراق معظم المجالات، خصوصا مجالات الإعلام والثقافة، وأصاب المُحيط الاجتماعي والاقتصادي ومعالم العمران ومجالات البيئة بأسوأ مظاهر الاستلاب.

وأصبحت بلادنا فريسة للفرنسية السوقية (Registre familier, argotique et grossier) وأبعدها عن المستوى الرفيع (Registre soutenu) وحتى عن اللهجة العادية (Registre courant) لِلُغةٍ لعلها من أجمل لغات العالم، وسيطرت على التعاملات الاجتماعية فاحشة لغوية هجينة أفسدت اللغتين، ونددت بها القيادة العليا علنا، ثم نسي الأمر كله في اليوم التالي.

هذه هي وضعية «راهن اللغة العربية» في واحد من أهم بلدان الوطن العربي، وقد يكون هذا واقعها في سنوات قادمة في بلدان أخرى عندما يشتد عود المهاجرين إليها، فتسود الأوردو ولغات البنغال والباشتون والهازارا, وتكون الكلمة الأخيرة لكل من يكتب من اليسار إلى اليمين وربما أيضا من أعلى إلى أسفل.

ولقد شهدت بلادنا في السنوات الأخيرة تراجعا رهيبا في الوجود المُؤثر للّغة العربية، يكفي للتأكد منه متابعة الحصص القديمة التي تقدمها التلفزة الجزائرية من حين لآخر وتبرز بوضوح تقهقر اللغة العربية اليوم، وجودا ونوعية وانتشارا، مقارنة بالستينيات والسبعينيات وحتى بعض الثمانينيات، وتكفي للدلالة عليه أيضا جولة في الشوارع الرئيسية للعاصمة الجزائرية، حيث توسع استعمال اللغة الأجنبية على واجهات المحلات العامة وأصبح نوعا من الفجور اللغوي، حتى تندّر البعض بأن محيط بعض الأحياء في بعض مدن بريطانيا وفرنسا قد يكون أكثر تعريبا منه في العديد من أحياء عاصمتنا العربية.

وأعترف أنني، عندما تقدمت في بداية الألفية إلى مجلس وزراء الثقافة العرب باقتراح أن تكون الجزائر عاصمة للثقافة العربية عام 2007، كنت أتصور أن الاحتفالية، التي ستدوم سنة كاملة، ستكون فرصة سانحة للقيام بتعريب المحيط تعريبا كاملا، وحاولت قبل انطلاقة السنة بشهور طويلة أن ألفت النظر إلى التقصير الملحوظ في هذا المجال ، ولكن صيحاتي ذهبت أدراج الرياح، وعشنا فضائح يندى لها الجبين، حتى بالنسبة لقوائم الطعام في معظم الفنادق التي تستقبل الضيوف في عاصمة الثقافة العربية.

ثم لاحظت طوال السنة، بكل مرارة، قلة عدد المسؤولين، صغارا وكبارا وكبارا جدا، الذين اهتموا بمتابعة الحفلات الرسمية لتظاهرة ثقافية وطنية لا يعيشها جيل واحد غالبا أكثر من مرة واحدة طوال حياته المُثمرة, وبرغم أن الدعوات كانت توزع بانتظام على جل القيادات وقصر الثقافة كان مفتوح الأبواب على مصراعيها.

وطاشت آمال تعريب المُحيط، وأعطى أصحاب القرار في المواقع التنفيذية ظهرهم للقوانين المتعلقة بتعميم اللغة العربية، ولعلهم تصوروا أنهم بذلك ينسجمون مع إرادة مواقع عُلا، تملك لهم نفعا كثيرا وضُرّا أكثر.

وأتذكر هنا أن مسؤولا ساميا، كنت أحاول دعوته للمساهمة في مجال تعريب المحيط، قال لي، باستعلاء واضح، أن هذا كله قشور خارجية وبأن علينا أن نهتم بالجوهر والمضمون، مما جعلني أسأله متهكما، بوضوح لم أحاول إخفاءه، عمّن منعه من الاهتمام بالجوهر والمضمون، ومجال نشاطه المهني يعرف العجز الواضح في جل الممارسات.

ولم تتحرك الأحزاب والهيئات والمؤسسات المعنية لتفرض كلمتها التي تجسد إرادة جماهير تدعي أنها تمثلها، ولم نعرف مظاهرات مليونية هدد بها البعض يوما لكي تفرض إرادة الشارع في استرجاع عنصر رئيسي من عناصر الهوية الوطنية، والقاعدة الرئيسية لأمن البلاد القومي، ولم يخرج بعض مثقفينا، ممن جعلوا العربية بضاعتهم، عن اجترار الكتابات الروتينية التي كانت، في معظمها، استعراضا للعضلات اللغوية ومحاولة للاستفادة الشخصية، ولم تتحرك معظم صحفنا التي تكتب من اليمين إلى اليسار لتقرع أجراس التنبيه بشكل مؤثر ومتواصل ومُستنفر بل وُمستفز، أما مُعظم الصحف الخصوصية المكتوبة من اليسار إلى اليمين فقد عتمت على جل عناصر التظاهرة، وأكّدت بذلك أن الأمر يتجاوز التراخي واللامبالاة والإهمال ليكون اختيارا عقائديا وفكريا وسياسيا.

من المسؤول؟

إذا كنت توقفت طويلا عند تلك التفاصيل فلكي يتضح أن المسؤول هو غياب الإرادة السياسية الجماعية ونقص الوعي القومي في جل المستويات، فالطبقة السياسية، سلطة ومعارضة، لم تدرك، كما لم يُدرك المجتمع المدني والنخبة المُثقفة، أن اللغة الوطنية، وبالإضافة إلى أنها هي خط الدفاع الأول في ميدان الأمن القومي لأي بلد كان، هي اسمنت الوحدة الوطنية التي تعطي لأي بلد قوته الحقيقية في مواجهة الآخر والتعامل معه بمنطق الندّية، والتمسك بها هو، في حد ذاته، تجسيد لهيبة الأمة وتعبير عن كرامتها ورمز لمكانتها ودعم لإرادتها عندما تتصارع الإرادات الدولية.

ولم يتوقف من بيدهم القرار التنفيذي عند الصور التي يقدمها دائما وزراء العالم المتقدم، بل وغالبا المُتخلف، ومسؤولوه في التعامل مع لغاتهم الوطنية، والذي وصل أحيانا إلى تجاوزات قد تكون محل مؤاخذة ديبلوماسية، ولكن نتائجها كانت دائما تقديرا متزايدا لمن يحرص على التعامل بلغته الوطنية ولا يتشدق بغيرها، خصوصا إذا لم يكن يتقنها.

ولا أنكر أن مأساة اللغة العربية، كلغة وطنية ورسمية، ليست احتكارا للجزائر وحدها، بل إن أقطارا عربية متعددة تعاني صورا مختلفة من الاستهانة باللغة الوطنية، ويمكن القول بأن العديد من عواصمنا تعيش تلوثا لغويا يأخذ أشكالا متعددة، فقد يكون خليطا هجينا يشبه «الشكشوكة» اللغوية التي تجترها جموعنا، ويستعملها، بكل أسف، أساتذة جامعيون

بل وسياسيون عبر البرامج المُتلفزة، وقد يكون تلوثا شبه كامل بلغة أجنبية يفرضه الخدم الوافدون على أطفال البلاد الذين يُكلفون برعايتهم في غياب الأم، وربما مع أشكال أخرى من التلوث الأخلاقي، وقد يكون غزوا واضحا يتعرض له أبناؤنا في المدارس الأجنبية التي تسربت إلى العديد من الأقطار، وغالبا نتيجة لنشوء رأسماليات طفيلية، عبّر عنها توفيق الحكيم بأنها تمثل «انتفاخ الجيوب وفراغ العقول»، وهي فئات مُترفة إلى حد السفه، استغلت ثغرات التنمية الوطنية والكفاءة المحدودة للقائمين عليها كما استفادت من وضعية الإرهاب الإجرامي، ولا أعرف على وجه التحديد دورها في اندلاع ناره، وتحالفت مع مراكز نفوذ مستفيدة من المستنقع السياسي الذي ألقينا فيه أو انزلقنا إليه، لكي تفرض، بجهلها وجاهليتها، الثقافة التي تتناسب مع مستواها الفكري، حتى في مجال الفنون بكل أنواعها، وهي التي تشجع النضال العقائريّ لأمثال الشابة «الشهوانية»، وتروج للأغاني «الفِراشية» من أمثال «بُوس الواوا» أو «قول لي وين ترقد»!!.

ولكي لا يبدو حديثي تلذذا بالبكاء على الأطلال، سأتوقف عند الأسباب التي وصلت بنا إلى هذا الوضع، لأن تقرير الواقع الذي يتلوه التشخيص الصحيح هو الطريق نحو العلاج الناجع.

وأتصور أن المرض الرئيسي الذي يعاني منه الوضع الثقافي العربي، فكرا ولغة وممارسة سيادية، هو تعدد مناهج التعليم في الوطن العربي بتأثيرات إقليمية مَرَضيّة تطلِق على العملية ألقاب مملكة في غير موضعها، فهي جزارة وسعوده ولبننه وتونسة وما إلى ذلك.

وكان من المتوقع، على ضوء ما أفاء الله به على الوطن العربي من ثروات هائلة، أن ينعكس هذا على واقع التعليم والتكوين، فنجد تطورا في الكتب والبرامج الموجهة للكبار وللصغار على حد سواء، لتتمكن من اجتذاب القارئ بكل الوسائل التقنية التي وفرها التطور العلمي، ولكن المؤسف أن ما حدث هو تصاعد النزعة الشوفينية التي هيّجها الدخل المالي المُرتفع، ومتاجرة بعض رجال التعليم بالمعرفة، وبغض النظر عن نوعية المادة المُقدمة للمتمدرس وشكلها وأسلوبها، مقارنة بما تقدمه اللغات الأخرى للباحثين عن التفوق فيها.

وأصبح لكل بلد كتبُه التعليمية الخاصة به، وكان معظمها، خصوصا في البلدان ذات الكثافة السكانية المرتفعة، إنجازات متخلفة لا تشجع الطالب على الدراسة ولا تحبب المواطن في القراءة، وإلى هذا يعود حجم كبير من السقوط الرهيب للتعليم، ثم للتربية.

ولتوضيح أبعاد الأمر أدعو لإلقاء نظرة سريعة على واقع الثقافة الفرنسية، لنجد أن المتمدرس الفرنسي يتلقى نفس المنهج في نفس المدرسة ومن نفس الكتاب وبنفس الأسلوب، سواء كان ذلك في باريس أم واغادوغو أم مونتريال أم سيدني أم نجامينا، وهكذا تنتج المدرسة الفرنسية مثقفين يتمتعون بالانسجام الكامل الذي يحقق وحدة الفكر، مع تعدد التفكير، وتوافق الرؤية

بغض النظر عن اختلاف المنطلقات، كما يضمن النظرة الإستراتيجية الواحدة بدون تناقض مع الممارسات التاكتيكية المتغيرة، ليصبح الجميع جنودا في جبهة «الفرانكفونية».

فعندما يرتبط الإنسان بلغة ما تصبح هذه جزءا من حياته، لأنها تحدد الصحيفة التي يقرأها وبرنامج التلفزة السياسي أو الثقافي الذي يُتابعه، وربما الفيلم السينيمائي أو حتى الاستعراض الغنائي الذي ينسجم معه، وشيئا فشيئا تدفعه، بدون أن يشعر، إلى تبني نظرة معينة تقدم بتلك اللغة، قد تكون اجتماعية أو اقتصادية، وقد تصبح اتجاها سياسيا يحمل خلفيات نجحت مخابر مختصة في إعدادها ليشربها مُستهلك حسن النية خالي الذهن.

والقوم هناك لا يلعبون، وابتسامتهم يجب أن تذكرنا ببيت الشعر المشهور عن ابتسامة الليث، ومن هنا أشرت إلى أن اللغة هي من أهم عناصر الأمن القومي لأي شعب ولأي أمة.

وسنفترض، جدلا، حدوث تناقض سياسي بين الجزائر وفرنسا، فإن من المنطقي أن من يرتبطون بالمصادر الإعلامية الفرنسية، سيكونون بعيدين، إلى حد كبير، عن تفهم المنطق الجزائري في التعامل مع الأمر، خصوصا في غياب مؤسسات وطنية تمدهم بالأساسي من المعلومات، وفي سيطرة إعلام وطني يخلط بين الخبر والتعليق، ولا يتابعه إلا العاجز عن متابعة القنوات الأجنبية أو الباحث عن أمر مُعين قد يكون ما ارتكبه هو من تحركات.

وهكذا تتحـدد صياغة مواقف أولئـك تجاه بلادهم أو تتأثر بعض جوانبها.

وهنا يأتي سبب آخر في حدوث الخلل الذي أصاب وضعية اللغة العربية، وهو ما ابتليت به مسيرة الفكر القومي العربي نتيجة لسلسلة الأخطاء والعثرات التي أصابت المشروع القومي العربي، والذي تأثر في بداياته بما سُمي ثورة عربية كبرى، وهي عملية مخابراتية بريطانية كلف بها «لورنس» في مطلع القرن الماضي للإجهاز على الإمبراطورية العثمانية، وفتح الطريق أمام الجنرال «ألِنبي» لدخول القدس، واستكمال تحقيق وعد «بالفور».

وهكذا أخذ تعبير الفكر القومي مع نهايات القرن الماضي معنى قدحيا، أو أعطيَ ذلك، وهو ما أحسنت استغلاله مؤامرات الاستعمار القديم المتواصلة وأطماع الاحتكارات الدولية المتنامية، بالإضافة إلى قنابل موقوتة جسدتها شرائح القوة الثالثة التي كان المستعمر السابق قد أعدها لتضمن وجوده المستقبلي، وكنت أطلقتُ عليهم في الثمانينيات صفة «الطلقاء»، بكل ما تعنيه وتدل عليه.

وفي ظروف لا أريد أن أتوقف عندها حدث الشرخ بين الفكر القومي والتيار الديني، والإسلامي على وجه الخصوص، حيث أن المسيحيين في شمال المشرق كانوا جزءا من الحركة القومية التي رأوها علمانية تنسجم مع شعار: «الدين لله والوطن للجميع» الذي رُفع في مصر آنذاك.

وراح كلّ يُحمّل الآخر مسؤولية الانهيار الشامل لحال الأمة، ولم يُدرك أيّ من الذين يجسدون الفكر القومي والذين يرفعون اللواء الإسلامي أنهما جناحان لطائر واحد، وأن الوطنية الحقة لها، كالعملة المعدنية، وجهان، واحد قومي وآخرَ ديني، وأن الممارسة الدينية التي لا ترتبط بأرضها وقومها وتاريخها هي سباحة في الهواء، والمولى عز وجل يقول لنبيه الكريم: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها»، لأنه تعالى كان يعرف حب سيد المرسلين، لبلده، لأم القرى.

ومن جهة أخرى فإن الفكر القومي بدون انتماء روحاني يضمنه الدين وطاقة روحية يُوفرها الإيمان بالله واليوم الآخر هو إبحار بلا بوصلة في بحر لُجّيْ تتشنج أمواجه، وتحت سماء غائمة لا تظهر فيها نجوم وعبْر ضباب يحجب كل الآفاق.

والفكر القومي بدون لغة قومية هو كائن يفتقد كل الحواس، وبالتالي فإنه يفقد صفة الفكر.

النظرة المُستقبلية

يبدو هنا أن طريقنا نحو التألق الحضاري العالمي المنطلق من نهضة ثقافية وطنية شاملة مرهون بأمرين، أولهما توحيد مناهج التعليم في الوطن العربي كله، بحيث تكون لغة العلم القاعدية هي العربية، ومن هنا أشرت إلى منهج تعليم الفرنسية، وثانيهما أن ندرك بأن الإسلام يضم قوميات متعددة يزداد تألقها يوما بعد يوم، بينما لا تجد أهم القوميات طريقها نحو موقف موحد يضمن لها مكانها ويكفل لها مكانتها، لأنها لم تفهم ضرورة التكامل بين القومية والدين، وما زالت أسيرة أحقاد الجمال الجرباء ورهينة الخلفيات الظلامية وحسابات أشباه الزعماء.

وأنا أعرف أن هناك من يزعمون بأن كلاما كهذا هو من قبيل «لغة الخشب»، لكن الحقائق عنيدة، والدراسة المتأملة للواقع تثبت بأن من يرددون هذه المزاعم هم جزء من أسباب نكبتنا، لأنهم جزء رئيسي من جموع «الطلقاء»، الذين سرقوا الإسلام بالأمس ويسرقون اليوم أوطانا تهاونت في الحفاظ على مقومات وجودها.

والخروج من هذه الوضعية التي تختلط فيها المأساة بالمهزلة، بحيث لا يعرف الإنسان هل يضحك أم يبكي، منوط أولا بالطبقة السياسية، سلطة ومعارضة، وبجمعيات المجتمع المدني التي تدرك دورها في خلق الانسجام الاجتماعي العام, ويتلخص الأمر هنا بكل بساطة في أن يجعل كلّ من الانتماء الحضاري العربي الإسلامي جزءا أساسيا من برنامج عمله ونظام حياته، يسهر على رعايته ويراقب فعاليته ويحاسب كل من هم تحت سلطته على أدائهم لمستلزماته.

وربما كان أهم الأدوار هنا ذلك المنوط بالتجمعات الوطنية، أحزابا أو جمعيات، التي تنادي باللغات أو اللهجات الجهوية، والتي يتحتم عليها أن تدرك أن اللغة الوطنية والرسمية هي تلك التي تجسد تواصلا حضاريا يمتد من الأمس إلى الغد، وجسرا وجدانيا يربط بين كل أبناء الأمة، وساحة فكرية تلتقي فيها جموعهم، وقاعدة لبناء مشروع المجتمع الذي يعكس الإجماع الوطني الواعي، ويترجم الإرادة الوطنية في المجالات الداخلية والخارجية.

ولغة التواصل بالتالي ليست مجرد موروث صوتي، تجاوزه الزمن والعلم والتطور ويتعصب له البعض بحكم انغلاق مفتعل، ولا هي مجرد حنين لوجودٍ سكاني قديم، ينطبق عليه قوله تعالى « تلك أمة قد خلت »، أو توقف عند لحظة تاريخية، كانت جنينا نما وتطور فتغيرت معالمه، يتجاوز الاعتزاز المشروع بالطفولة إلى تشبث ببعض صورها، والنتيجة شروخ وطنية تفتت الأمة وتعرقل بناء المجتمع الواحد.

وهنا لا بد أن نسترشد بتعامل بلدان العالم المتقدم مع تاريخها وثقافتها وحضارتها وتطور لغاتها، ونقتدي ببرامجها المستقبلية التي تحقق ديناميكيتها المتواصلة، حتى لا نكون شيئا مثل الهنود الحمر في المُحتشدات الأمريكية.

وهذا يفرض أن يكون التعامل مع اللغات المحلية ولهجاتها المختلفة كجزء من كل، يُهتدى في ممارساته بتجارب الأمم التي تملك شعوبها جذورا مشتركة وثقافات متعددة وتاريخا واحدا ومستقبلا متكاملا، ولست أرى في بلادنا مجالا للخلط بين الاعتزاز بالأمازيغية كعمق تاريخي وكلغة وطنية وبين الانزلاق إلى اعتبارها عرقا مستقلا عن عرق باقي الأمة.

ومن جانب آخر فإن وطنية اللهجات في بلادنا يجب ألا تنطلق من الكره المرضيّ للعربية (ARABOPHOBIE) والذي زرع الاستعمار بذوره في بعض مناطقنا ويتأكد دور المخابرات الأجنبية في محاولة استغلاله، ومن معالمه قصر الثنائية اللغوية على اللهجة المعنية واللغة الفرنسية دون غيرها، ثم يأخذ الأمر طابعا مستفزا هدفه مجرد إثبات الوجود وتسجيل المواقف بما يُحوّل اللهجة أو اللغة المستعملة إلى « غيطو » ينغلق حول نفسه ويستثير عداء لا مبرر له.

والواقع أن قضية اللهجات تحتاج ألى دراسة واعية.

وأنا لست خبيرا في اللسانيات لكنني أتصورُ أن ما يُقصد به، غالبا، من تعبير اللهجة (Dialecte) هو في واقع الأمر لكنة (Accent) وهي اختلاف في نطق كلمة لا يُغيّر من كتابتها، فكلمة : « مشينا » تنطق في الجزائر بجزم البداية، بينما تفتح الميم في النطق المشرقي، ولا اختلاف جوهريا عن الفصحى في الحالتين.

ويُمكن أن تحرّف بعض الكلمات نطقا وكتابة، كأن تقول « فيروز » ... « نطرتك » في الصيف، وتقصد ... »انتظرتك » في الصيف، ومثلها كلمة « المسيد » في الجزائر والدالة على

المدرسة والتي هي تحريف لكلمة «المسجد» بتحويل الجيم ياء، ومثلها كلمة «الحيّة» في الغرب الجزائري والتي يقصد بها «الحاجة»، ولكن تغير الكلمة الدالة على معنى مُعيّن هو الذي يُحول اللكنة إلى لهجة، ففي لبنان مثلا نجد كلمة «العجقة» التي تعني «الزحام» أو كلمة «بلّشنا» وتعني «ابتدأنا»، وهو ما يُضاف إلى طريقة النطق لتكون اللكنة لهجة.

ورغم أن العامية، بلكناتها ولهجاتها، يمكن أن تكون مصدر إثراء للغة الفصحى، فإن الفصحى هي دعامة الوحدة اللغوية، وهي التي تجعل من الشعوب أمّة، ومن هنا فإن المطلوب هو الالتزام في الحياة العامة بلغة تقترب من الفصحى، اكتفاء بتسكين الأواخر وابتعادا عن استعمال الكلمات المُغرقة في إقليميتها، خصوصا في المواد الإعلامية التي تسوق عبر التلفزة والإذاعة والأفلام السينمائية.

وأذكر من جديد، ونحن نعيش أمطار الشمال الثقافية والإعلامية، بأن اللغة الوطنية هي جزء أساسي في إستراتيجية الأمن القومي (Sécurité Nationale) وهو ليس أمرا يحتكره رئيس أو وزير أو مؤسسة سيادية بل هو مهمة الجميع لأنه مسؤولية الجميع، والمثقفون الوطنيون هم النخبة المنوط بها السهر على نقاء اللغة وانتشارها عبر التعامل اليومي، خصوصا عندما يكون بجانبهم قانون يدعم نشاطهم ويحمي حركتهم من كل اتجاهات التلوث اللغوي، وتكون وراءهم طبقة سياسية واعية، بالمعنى الحقيقي لكلمتي الطبقة والوعي.

الشيطان الكامن في التفاصيل

يبقى أمر قد يعتبره البعض تفصيليا مما جعلني أتركه لآخر هذا الاستعراض، وهو نقائص بعض الجهود المبذولة لتعريب المحيط، والتي تعاني أحيانا من تجاوزات لا يُمكن تبريرها، ولست أقصد هنا ما حدث يوما من تشويه للكلمات المكتوبة باللغة الأجنبية على لافتات المرور باستعمال طلاء بشع وساذج، وهو ما نسب القيام به لأعضاء لجنة التعريب التي كان يرأسها أخونا عبد القادر حجار، وثبت أنها كانت عملية دبرتها عناصر استعملت الأساليب الإسرائيلية في تشويه الخصم، وأضافت يومها لذلك تكسير شواهد القبور المكتوبة بالفرنسية ثم تصوير حطامها وإرسال الصور إلى الرئيس هواري بو مدين لاستعدائه على دعاة التعريب، ومن حُسن الحظ أن الرئيس رحمه الله لم يكن ممن تنطلي عليه هذه الممارسات.

وما أقصده هنا أمران، أولهما التحذير من الاستجابة لمن لا يملكون ناصية التحكم في اللغة العربية ويقدمون اقتراحات سطحية يدعون أنها تبسط اللغة العربية وتسهل استعمالها وبالتالي تحبب الناس فيها، ومنها اقتراح تقدم به صحفي مصري مؤخرا بإلغاء صيغة المُثنّى، وكأنه لا يعرف أن القرءان الكريم هو المرجع الرئيسي للغة العربية، وإلغاء صيغة المثني، والتي لا تعرفها فعلا

لغات أجنبية، يعني ببساطة إلغاء عشرات الآيات القرءانية، أي المساس بقاعدة الدين واللغة في آن واحد، «فبأي آلاء ربكما تكذبان».

وفي الوقت نفسه فإن المُقارنة بين العربية واللغات الحية الأخرى تثبت بأن لغتنا ليست أصعب اللغات، خصوصا في التعامل اليومي.

والأمر الثاني هو إثراء العربية آليّا بتعريب المصطلحات الأجنبية أو ترجمتها، وهو ما لفتت نظري إليه الرسالة التي تلقيتها من الدكتور محمد العربي ولد خليفة، حيث ترجمت كلمة «فاكس» (Fax) لتكون «الناسوخ»، فسارت على درب كلمة «الحاسوب»، ولعلي كنت أفضل كلمة «الناسخ»، رغم أنني لست مرجعا.

لكنني أذكر هنا من يرفضون ذلك بأن الفرنسيين لا يستعملون كلمة «الفاكس» لأنها رجس من عمل الشيطان الأمريكي، وهم يترجمونها إلى «تيلي كوبي» (Télécopie) كما فعلوا بكلمة «بايب لاين»، التي جعلوها «أوليودوك»، وكلمة «كاميرا مان»، التي جعلوها «كادرور» (Cadreur)

غير أنه من الضروري أن يكون من يتصدون لترجمة الكلمات الأجنبية ممن يتحكمون في اللغتين، وربما قبلت كلمة «شطيرة» لترجمة كلمة «ساندويتش»، وهي اسم مخترع الأكلة السريعة المشهورة، بدلا من الترجمة الفكاهية :» شاطر ومشطور وبينهما كامخ»، لكنني لا أجد ضرورة لترجمة كلمة «باشاميل»، وهي اسم طاه روسي اخترع الصلصة التي تستعمل في العجائن، ولا أجد مبررا لترجمة كلمة «تلفزة»، ليحل محلها، كما يرى العقيد القذافي، تعبير «الإذاعة المرئية»، وأرفض أن استعمل عبارة «شهية طيبة»، التي يستعملها البعض كترجمة لتعبير (Bon appétit)، لمجرد أن التعبير العربي: «هنيئا»، هو أجملُ وأصحّ، وأثق في أن الترجمة الصالحة تفرض نفسها على الاستعمال، تماما كما فرضت كلمة «الهاتف» نفسها وحلت محل كلمة «المسرة» في الدلالة على «التيليفون»، لأنه لا أسرار في الهاتف اليوم.

ولعلي أنتهز الفرصة لكي أسجل التقصير الرهيب في برامج «الحاسوب» العربية، والتي يبدو أن من يُعدّونها هم تقنيون غير أكفاء، لا يفهمون من اللغة العربية وفنونها ونحوها وصرفها أكثر بكثير مما يفهمه بعض «النُّدل» في فنادقنا، وهو ما يعاني منه المثقف العربي، مقارنة بزميله في الثقافات الأخرى، وهذه مهمة مشتركة يجب أن تسهر عليها الحكومات، وكان من المفروض أن تتولاها الأقسام الثقافية في جامعة الدول العربية، لولا أنها مجرد تكايا للمتقاعدين ومصدر دخل لبعض العاطلين من أقارب هذا المسؤول أو ذاك.

ونظرة إلى الموسوعات العالمية التي تصدر تباعا على شكل أقراص مضغوطة ومدعمة بالرسوم المتحركة والصور الملونة والموسيقى الجميلة ستجعلنا نحس بأننا ما زلنا في العصر الحجري، ويكفي

لتأكيد ذلك أن نحاول فتح « لسان العرب » الذي يُباع على شكل قرص مضغوط، بمقدمة موسيقية بائسة وبأسلوب عرض يكفي لإصابة الباحث بالقرف والإحباط.

ويدفعني هذا إلى القول بأن دور المجتمع المدني وجمعياته قد يكون أحيانا أكثر فعالية، ولأن الفرنسيين هم قدوتنا وتاج رأسنا وقرة أعيننا، وبالإضافة إلى ما سبق أن أشرت له، فإنني أذكر بأن مواطنين فرنسيين رفعوا قضية على شركة « سيتا » للدخان لأنها استعملت في كتابة كلمة « مُرشِّح » على علب السجائر الكتابةَ الإنغليزية للكلمة، أي (Filter) وليس الفرنسية (Filtre) وخسرت الشركة القضية، وعُدلت الكلمة بعد إتلاف كل الأغلفة التي كانت تحمل الكتابة القديمة، وانتصر عشاق الفرنسية.

وأذكر بأن الرئيس جاك شيراك خرج غاضبا من لقاء اقتصادي لأن متعاملا فرنسيا ألقى خطابه بالإنغليزية.

مقارنات

اللغة الوطنية الواحدة والمُوحِّدة هي عصارة الثقافة الوطنية في البلد المعني وعنوانها، بل إنها اختزال لصفة الوطنية، وهي صورة لوحدة الأمة أيا كانت أصولها وأعراقها، وتجسيد لهيبتها وتأكيد لعزتها وتعبير عن كرامتها، ومن هنا كنت أرفض دائما مفهوم « الازدواجية » اللغوية الذي يجعل من الفرنسية آليّا الطرف الآخر من الثنائية المُستعملة، فتخلق للّغة الوطنية « ضُرة » تقوم بدور السبية سالفة الذكر، وكنت وما زلت أفضل الحديث عن « التعددية » اللغوية، التي تكون العربية قاعدتها الرئيسية، ولن أضيع وقتا طويلا في اجترار ما سبق أن تناولته، والذي أكدته المشاكل الأخيرة في بلجيكا، وأكتفي بالقول بأن وحدة اللغة الوطنية هي ضمان وحدة الوجدان الوطني، وهو ما لا يتناقض مع الاستفادة بأي فنون شعبية أو ثقافات محلية، لا تتجاهل الرمز المُوحّد والموحِّد للأمة، وما لا يمنع من الانفتاح الواعي على ثقافة العالم وفنونه.

والجماهير في جل بلاد العالم تلتف حول رمز واحد تجمع عليه بدون أن يعني ذلك سحق رموز أخرى، جهوية أو مزاجية، أو تجاهل رموز أخرى عالمية، وهكذا نجد « إديث بياف » في فرنسا و« أم كلثوم » في مصر و« فيروز » في لبنان و« إلفيس بريسلي » في أميريكا و« البيتلز » (وليس الخنافس) في بريطانيا، وكلها رموز تمثل مرجعية فنية لكل مواطن، لا تحول بينه وبين أن يحب « عبد الوهاب » ويعجب « بعبد الحليم » ويعشق « بيتهوفن » ويسهر مع « فردي » وينسجم مع « تشايكوفسكي » ويرقص مع « كوستاغوفيتش » ويُغني مع « آزنافور » ويطرب « لدحمان الحراشي ».

وتبدو أهمية هذا المثال عندما نسجل أننا لا نجد عندنا مطربا واحد يجمع عليه كل المواطنين، من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وربما كان الاستثناء الجدير بالانتباه هو بعض الأناشيد الوطنية، ربما لمجرد أنها تجسد الوحدة الوطنية.

لكن المثير للأسى هو أن بلادنا لم تعرف أغنية وطنية واحدة جديرة بهذه الصفة منذ أنشودة «عيد الكرامة» في منتصف الثمانينيات، ولعل المسؤول الأول عن هذا هو خلل وحدة الوجدان الوطني بفعل الشروخ اللغوية التي تفاقم أثرها وتأثيرها.

أما في المجال الأدبي فإننا سنجد أن روسو وفيكتور هيغو وبلزاك وديماس، الكبير والصغير، عند الناطقين بالفرنسية هم رموز للإعتزاز بالوطن مثل شيكسبير وألدوس هكسلي وإدغار ألان بو وتينسي وليامز وغيرهم عند الناطقين بالإنغليزية، كما أننا نجد كل مصري يحرص، مهما كان اتجاهه السياسي، على قراءة «الأهرام» حرص الفرنسي على قراءة «لو موند» والبريطاني على قراءة «التايمس» والأمريكي المُسيّس على قراءة «لواشنطون بست» واللبناني الماروني على قراءة «النهار» وزميله السني على قراءة «الأنوار»، وهي هنا ثنائية تستحق التوقف عندها عندما نعرف أن «الفلامان» في بلجيكا لا يقرؤون صحيفة «لو سوار».

وفي بلد يُصدر أكثر من ستين صحيفة، بعضها لا علاقة له بالهدف الحقيقي لوجود الصحافة، لعلي أتساءل عن خريطة توزيع القراء على الصحف، وأقصد أساسا القراء الذين يشترون الصحف، وبالتالي عن نسبة مقروئية كل صحيفة وكل مجلة، وعن الكتاب الذين يتابعهم جل المواطنين ويتأثرون بما يكتبون، وأتساءل هل عندنا أمثال «غسان تويني» في لبنان و«حسنين هيكل» في مصر «وفونتين» في فرنسا «وروبرت فيسك» في بريطانيا و«سالزبيرغر» في بلاد الأمريكان وغيرهم من خلق الله في بلاد الله؟.

وربما دفعت السكين في الجرح أكثر فأكثر لأتساءل عن عدد الناطقين بالفرنسية الذين يتابعون ما يُكتب بالعربية ويتتبعون كُتابا بعينهم في مجال الثقافة العربية، وهو أمر لا يُطرح كثيرا بالنسبة لعدد من قراء العربية يحاولون، بانتظام يكاد يكون رتيبا، الاطلاع على ما يُكتب بالفرنسية، استزادة للمعرفة، أو فضولا يبحث عن جديد، أو تقربا من أهل «السبية» الجائرة.

لكنني لا أدري لماذا يريد البعض عندنا أن يكون كاتب ياسين، وله قدره واحترامه في مجال تخصصه، مرادفا وحيدا لاسم الجزائر، في حين يجري تجاهل رموز وطنية لمجرد أنها تكتب بالعربية، ويراها الوطن العربي تجسيدا للجزائر وتعبيرا عنها، بينما يجهلها ويتجاهلها بضعة آلاف تعطى لهم الصدارة لأنهم اخترعوا أسطورة «غنيمة الحرب» ثم صدقوها ويريدون منا أن نسلم لهم بالريادة، ونهمل رموزا من أمثال عبد الله شريط ومزيان وخرفي و وطار وركيبي وزهور وولد خليفة وسعيدي، وقبلهم ابن باديس والميلي ثم عبد الرحمن الجيلالي، ومعهم دودو وبو

عزيز والعربي الزبيري، ثم بو عقبة والعقاب ورزاقي وبو القرون ورحايلية أو البرناوي وخمار وعشرات آخرين. بل ويريدنا البعض أن نتجاهل كتابا وطنيين عبروا بالفرنسية مثل مالك بن نبي ومالك حداد ولكن التزامهم بحضارتهم جعلهم رموزا تاريخية.

ولا أعرف كيف لا يتوقف أحد عند مأساة المسرح الوطني الذي أدت انعكاسات الشرخ اللغوي إلى تدمير دوره، فلم يعد هناك مسرح وطني يكون تجسيدا لمشاعر أمة وتعبيرا عن إرادتها السياسية وانسجاما مع ذوقها الفني وترجمة لوجهتها الاجتماعية.

ولن أتوقف عند الأغاني فقد تكفلت الأعراس بتلويث الواجهة الغنائية للبلاد، ولم تنتج الجزائر منذ الاستقلال، ودائما نتيجة للشرخ اللغوي، مطربا يُمكن أن يُجسد الوطن كله، وهكذا ظللنا عالة على ميراث ما قبل الثورة، وفيه ما يُمكن أن يُقال، وتصدرت الساحة صور من الغناء المُبتذل الذي تمكنت الآلات النحاسية من جعله أداة صاخبة لإلهاء الجمهور بالرقص المتشنج.

أما الفنون التشكيلية فقد تحولت غالبا إلى مجرد مصدر رزق يعتمد التقليد تلبية لرغبة أثرياء جدد يريدون «تزويق» منازلهم بما يتصورون أنه لوحات فنية أو لتوفير سلعة فولكلورية رخيصة يأخذها السياح معهم وهم يعودون إلى بلادهم.

ذلك كله أمر يثير التساؤل حول المنطلقات ويستثير الشكوك حول الخلفيات، وبحيث أن السؤال الذي يفرض نفسه اليوم على خلفية قضايا الثقافة والفكر واللغة الوطنية وعند الحديث عن النخبة وموقعها ودورها: من يمثلُ من، ومن يُعبّرُ عن من نشلت (سُرقت) منه بطاقة تعريفه فأصبح شبحا بغير وجود، ومن ينتحل دورا مزيفا وينتزع مكانة غير مشروعة ببطاقة مزورة؟

ومن الذي يتآمر على تزوير الإرادة التاريخية للأمة وعلى تشويه دورها الحضاري؟

الصورة الثقافية إذن قاتمة، ولعلها أكثر ظلاما مما قدمته باقتضاب، والوضعية اللغوية كارثة وطنية، وهذا كله يهدد بتحول الشعب إلى مجرد سكان (Population).

وأنا أعرف أن كثيرين كانوا ينتظرون مني أن أكتفي بأن أصب جام غضبي على تقصير الحكام وتقاعس القيادات السياسية، لكنني أكرر بأن المسؤولية هي مسؤولية الجميع، وهو ما يجعلني أسجل تقديري للقلة التي ثبتت على المبدأ، أفرادا أو مؤسسات، والتي تحاول أن تحافظ على ضوء شمعة يخترق الظلام ويحافظ على الأمل، ولهم أقول: فليكثر الله من أمثالكم.

إعادة الاعتبار للغة العربية في المجتمع العربي

أ. د. عبد الرحمن الحاج صالح
(رئيس المجمع الجزائري للغة العربية – الجزائر)

لقد كنا في الخمسينيات وما بعدها نسمّى العولمة الثقافية بالغزو الثقافي وكان الوطنيون المخلصون يدعون إلى مواجهة هذا الغزو ومحاربته فيما صدر منه من السطو الاعتداء. واعتمدوا في ذلك على تنظيم الحملات الإعلامية بنشر المقالات في الصحف وإلقاء المحاضرات العمومية إلا أن هذا لم يتم ربطه بسياسة الحكومات وكان يمكن أن تقيمها وتسندها وكان أثر كل ذلك وتأثيره ضئيلا جدا.

وكانت أنشئت قبل ذلك الهيئات الثقافية كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وكان من أهدافها تنمية الثقافة العربية والحفاظ عليها. وعلى الرغم من الجهود المبذولة من كل الجهات فإن هذا الغزو لم ينقطع في يوم من الأيام ولم تخف وطأته أبدا حتى صار الكثير منا يميل إلى تبني كل ما جاءنا من الغرب هكذا جزافا وصاروا يحتقرون كل ما لم يأتهم من تلك الجهة وخاصة لغتهم العربية عماد ثقافتهم، ولذلك أسباب كثيرة.

وأول هذه الأسباب لا يخص العرب وحدهم فالغزو الثقافي وتسلط اللغات الغربية –وأهمها الإنكليزية– **على العالم بأسره** نجح إلى الآن بتفوق الأمم الغربية في الميدان العلمي والتكنولوجي تفوقا كبيرا جدا. فلغة الأقوى منهم علميا واقتصاديا هي التي تسود بل لغة الأقوى (أيا كان) هي التي ستفضّل على غيرها ولغة الأضعف هي المحتقرة من قبل أصحابها أنفسهم. وذلك لأنها تحمل وتنقل من المفاهيم العلمية الجديدة الناجعة ما لا يوجد مثله فيما تنقله اللغات الأخرى. وكذلك هي المهارات التقنية وهي أهم شيء في عصرنا هذا.

فاللغة هي دائما مرآة للوضع الحضاري والمستوى العلمي والتكنولوجي للأمم ولغتنا لا تنقل في عصرنا الحاضر الأفكار والنظريات العلمية الطلائعية إلا بقسط ضئيل. فالوضع الاقتصادي والعلمي للعرب حاليا المتصف بالقليل جدا من الإبداع والخلق لا يؤتي أي فرصة للغتهم لكي تكون لغة إشعاع علمي حضاري. فالعجز ليس من اللغة أبدا فأية لغة في الدنيا يمكن أن تبلغ ما بلغته اللغة الإنكليزية بتفوق أصحابها علميا وحضاريا. ولولا أن العربية لغة الإسلام ولولا أنها تحمل من المفاهيم الحضارية والدينية السابقة الوجود والكثير من المفاهيم العلمية التي كانت أساسا لانطلاق الحضارة الغربية لاندثرت منذ زمان أو انزوت إلى لغة تخاطب كبقايا اللهجات. وهذا يفسر التمسك الشديد بالتراث وقد قوي في العشرينيات الأخيرة وهو شيء إيجابي فيما يخص التراث اللغوي والعلمي إلا أنه ليس إلا مجرد دفاع من النوع السلبي فهو غير كاف.

أما الأسباب الخاصة باللغة العربية فهي متصلة بكيفية تعاملنا بلغتنا وتراثنا .منها تعاملنا بلغة الثقافة في زماننا وسائر اللهجات العامية . فالقرون الطوال من الجمود الفكري وعدم الإبداع في العلوم والفنون وتقلص التجديد في أساليب التسيير في جميع الميادين وبالتالي ضآلة كل إنتاج فكري وصناعي وحضاري مع الغزو الاستعماري الشرس الذي نشر في الشعوب العربية– وسائر الأمم غير العربية– الفقر والجهل جعل كذلك الأمية تسود وتعمّ كل الشعوب العربية فنتج عن ذلك **ابتعاد الفصحى لغة الثقافة عن لغة التخاطب ابتعادا ملموسا جدا** .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للغات الغربية **فلغة التخاطب في البلدان الغربية** –إن لم تكن لهجة محلية– **قريبة من لغة الثقافة** إلا في المصطلحات العلمية الدقيقة. والمعروف عند علماء اللسان أن لغة التخاطب هي أخفّ بكثير من اللغة المحررة لأنها تستعمل يوميا وفي كل وقت وخاصة في وقت الاستئناس وعدم الانقباض كما يقول الجاحظ. والواقع أن لكل لغة في الدنيا، قديما وحديثا، مستويين في الأداء الشفوي: المستخفف منه والمنقبض. فالأول هو الخاص بالتخاطب اليومي العادي ويكثر فيه التخفيف كاختزال الحركات (وسمي بالاختلاس والإخفاء عند النحاة) والمحذوف للحروف والكلم والإدغام بين أواخر حروف الكلمة والكلمة التالية وغير ذلك من أنواع التخفيف. وأما الثاني فهو الأداء الذي يتمسك به في الخطب والمحاضرات في المحافل وكل مقام ذي حرمة. وهذا يخص اللغات التي يكون لأصحابها كتابة تنقل ثقافتهم وتحفظها. وكل الأمم التي لها حضارة كتابية تحافظ على هذا الأداء الثاني لأنه **هو الذي يجمعها ويحفظ لها تراثها** وهو أبطأ تغيّرا عبر الزمان من الأداء العفوي فقد يتغير في الزمان كما يتغير في المكان (ولا يكون بالضرورة لهجة) . إلا أنه من أسرار التفوق الحضاري والاقتصادي ألا يكون هذا الأداء المنقبض هو الوحيد الذي ينقل الثقافة. **فللكلام المنطوق أهمية مماثلة للكلام المكتوب وخاصة في عصرنا هذا** بل قد يفوقه بتطور وسائل الاتصال ألشفاهي ويتجاوز كل ما هو مقروء فلا يمكن أن ينطق بالفصحى المرتّلة الباحث والأستاذ وأي ناطق بالفصحى في جميع المناسبات وخاصة في أحوال الخطاب التي تستلزم التخفيف والاسترسال. فليس كل خطاب خطبة وقد يظن الظان أننا نعني بذلك العامية– لكثرة ما رسخ في الأذهان أن التخفيف هو لحن– فالذي نعنيه هو الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في حياتهم اليومية ولم تكن لهجات بالضرورة والقراءة القرآنية المسماة بالحَدْر، ورويت من الأئمة، دليل قاطع على أنها أداء فصيح. وسنرى كيف يمكن إحياء هذا الأداء الفصيح من جديد .

ومهما كان فانعزال الفصحى – وهي لغة الثقافة– عن الحالات الخطابية النابضة بالحياة أي الحياة اليومية هو خطير جدا لأنه تبدو بذلك العربية كأنها لغة مصطنعة غير طبيعية. وقد اقتنع بعضهم بسبب احتقاره للفصحى بضرورة إقامة العاميات في كل بلد عربي مقام الفصحى

للنقص الفظيع الذي تتصف به بالنسبة إلى « حضارة المشافهة » الحديثة. فهذا موقف خطير لأنه يتناسى هؤلاء أن لجميع اللغات في الدنيا مستويين على الأقل في التعبير: المأنوس والمنقبض كما قلنا إلا أن المجتمع الذي تكثر فيه الأمية **يبتعد فيه الأداء ألترتيلي عن الأداء العفوي**. والطامة الكبرى في ذلك هو أن يصير التخفيف الخاص بالتخاطب لحنا في اعتقاد أكثر الناس وهذا يجب تقويمه عند الخاصة والعامة وبالخصوص عند المعلمين.

فيكون عندئذ المعلم الذي يمنع كل تخفيف – قد نطق به العرب وقرئ به القرآن– جهلا منه[1] يساهم في إقصاء الفصحى من هذه الحالات الخطابية الحية.وهي حية لأن التخاطب العفوي يعمّ الحياة اليومية. وأخطر من هذا هو أن المسموع من الكلام **صار يغطي جزءا كبيرا جدا من ميادين الثقافة والعلوم** ولا يمكن أن يقوم فيه الأداء ألترتيلي مقام الأداء المستخف. وهذا من القوانين الطبيعية ولهذا ينفر أكثر الناس اليوم من استعمال الفصحى لأنهم لا يعرفون منها إلا الترتيل **فكأن الناطق بها يقرأ من كتاب وهذا بعيد** عن العفوية.

وقلنا بأن الأداء المستخف ليس لحنا ولا علاقة له بما تتصف به العامية وهو اللحن ولا تتصف العامية بالخفة في الأداء إلا لأنها تستعمل دوما في التبادل الشفهي لا المحرّر.

هذا وسبب آخر في انعزال الفصحى عن حركة التقدم العلمي العالمي هو التقصير الفظيع بل والإهمال لجانب هام من النشاط اللغوي وهو من جهة: الترجمة لما يصدر يوميا من البحوث ومن جهة أخرى العجز عن تغطية حاجاتنا في ميدان المصطلحات **وتوحيد ما هو موجود منها**. وقد يستغرب القارئ والسامع مما نقول مع وجود حركة للترجمة للكتب العلمية العربية ووجود القوائم من المصطلحات التي تضعها المجامع وغيرها ومع وجود المؤسسات المخصصة لهذا الغرض. وسنرى أن هذا الذي يصدر غير كاف أبدا وغير مناسب ولا يستجيب لما تتطلبه المواكبة الجدية للتقدم العلمي العالمي.

وأما تعليم اللغة العربية في مختلف المستويات فله سهم أيضا في تأخر العربية وعدم نجاحها في منافستها للغات الأجنبية. وأكبر عيب فيه أنه لا يتجدد كما يتجدّد تعليم اللغات الغربية في مضمونه وطرائقه إلا قليلا وعلى الرغم من وجود كليات التربية وما يجرى في بعضها من البحوث في تعليم العربية فإن التحسن الملاحظ في تعليم أكثر اللغات لا نحس بوجود ما يماثله في تعليم العربية إلا ما شذ من ذلك في البلدان العربية.

أما البحث العلمي في اللغة العربية وما يتعلق بذلك فعلى الرغم مما يجري هنا وهناك في الجامعات العربية ومراكز البحوث فالمردود فيه ضئيل إلا ما شذ هنا أيضا. ويعرف كل مثقّف أن

---

(1) والذي قد يتجاهله المعلمون هو ان العربية الفصحى التي كان يتخاطب بها العرب في زمان الفصاحة السابقة كانت بنفس الخفة التي تعرفها العامية اليوم والدليل على ذلك أوصاف النحاة الأولين لها كسيبويه وأهل الأداء (علماء القراءات)

العلوم اللسانية في زماننا قد ارتقت ارتقاء عاليا في البحوث العلمية الأساسية منها والتطبيقية وأن كل ما يتعلّق باللغة من تنمية ومردود في التعليم وتكيُّف مع ما يتطلّبه العصر قد حصل فيه تقدُّم رائع فلا بد أن ينظر في هذه العلوم وكم من قسم خاص باللغة العربية تجاهل كل هذا إلى اليوم ولم يُعِر لهذه العلوم الحديثة ما تستحقُّه من أهمية إلا القليل. ونرجو أن يتم التعاون بين اللغويين العرب فهذا من أخطر ما يكون لمستقبل اللغة العربية .وقد لاحظ الجميع وجود اهتمام كبير جدا في الأيام الأخيرة باللسانيات وهذا شئ إيجابي جدا.

وسبب آخر يزيد العربية عُزلةً –زيادة على ما ذكرناه– وهو عدم إمكانية التواصل بينها وبين غيرها من اللغات الذائعة في العالم ومن ثم انقطاع العربية من مناهل العرفان وسبل الترقي العلمي والتكنولوجي. وهذا يحصل عندما يعجز المثقف العربي عن الاغتراف من هذه المناهل مباشرة لمعرفته الضعيفة للغات الأجنبية أو لجهله لها تماما. فالعالم الباحث الذي ليس له إلا لغة واحدة لا يستطيع أن يثري، في زماننا هذا،ما قد حصل عليه من المعلومات في الجامعة. فعجزنا عن ترجمة كل ما يصدر بهذه اللغات من البحوث الطلائعية التي لا يليق بالأمة العربية أن تتجاهلها، فعجزنا هذا –وهو حقيقة ملموسة– يضطرنا أن نتقن اللغة الإنكليزية أو الفرنسية اضطرارا لا مزيد عليه. ولا يكفي في نظرنا أن نضاعف ساعات اللغات في التعليم ما قبل الجامعي بل لابد من اتخاذ التدابير الحازمة في ذلك لنجعل كل طالب في البلدان العربية يستطيع في أي وقت أن يرجع إلى المراجع العلمية وأحدث البحوث المحررة بإحدى هاتين اللغتين. وسنقترح بهذا الصدد بعض الاقتراحات التي ستساعد على تحقيق هذه الغاية.

اقتراح جملة من الحلول والتدابير

فيما يخص استعمال الفصحى في الحياة اليومية فلا نتصور أن يمكن اللجوء إلى الأداء الوحيد الذي تعَلّمَهُ كل واحد منا في المدرسة لأنه أداء لما يُقرأ لا لما يُنطق عفويا فهو ترتيل وتحقيق ولا يكون مستساغا إلا في « موضع الانقباض » أي في ترتيل القرآن وإلقاء الخطب والمحاضرات. فالمدرسة لا تعلم الأداء المنطوق المسترسل بل ولا يعرفه المعلمون لأنهم أيقنوا أن للعربية نوعًا واحدًا من الأداء وهو الذي يعلمونه لتلاميذهم. واستمرّ ذلك منذ قرون فقد كان المعلم يبالغ في بيان الإعراب فيمدّ ما كان يجب قصره في التخاطب العادي ويمطط أصوات الحركات ويبيّن ولا يدغم أبدا ما يجوز فيه الإدغام وغير ذلك من المبالغات. والمعلم معذور في ذلك لأنه غيور على العربية ويخشى دائما أن تشبه الفصحى العامية من جميع الجوانب حتى ليمنعُ أن يستعمل التلميذ الكلمات الفصيحة المبتذلة في العامية. وبدأ ذلك منذ زمن بعيد فقد حكى الجاحظ في كتابه البيان أنهم « كانوا يروّون صبيانهم الأرجاز **ويعلمونهم المتناقلات** ويأمرونهم برفع الصوت **وتحقيق الإعراب** »(1 / 272).

ويروي الجاحظ ما كان تعوّد عليه بعض الناطقين بالفصحى من المولّدين ويسميهم بالمتشدقين وأصحاب التقعّر وهم يمثلون طبقة من معاصريه من الذين اكتسبوا العربية بالتعليم فكان أداؤهم للفصحى في الغالب ينقصه في المشافهة ما كانت تتصف به من الخفة لغة الفصحاء السليقيين. وقد وصف العلماء هذه الخفة. جاء في كتاب «نثر الدرّ» للوزير أبي سعيد الآبي :« قال أبو العيناء: ما رأيت مثل الأصمعي، أنشد بيتا من الشعر فاختلس الإعراب. ثم قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: كلام العرب الدَّرْج وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال: العرب تجتاز بالإعراب اجتيازًا. وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال: العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفيهق فيه. وسمعت يونس يقول :العرب تشامّ الإعراب ولا تحققه وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول: إعراب العرب الخطف والحذف» (ص 7/154–155) ولم يكنْ هذا خاصا بالإعراب فقد وصف سيبويه ما يُسمى بالاختلاس للحركات ويحصل في صلب الكلمة (الكتاب، 2/297). فهذه الخاصية التي امتاز بها الأداء العفوي العربي هو الذي تناساه المعلمون –وحتى العلماء في زماننا. ولم يكن التقعُّر خاصا بالمتكلمين العاديين فقد أصاب أيضا بعض القراء. فقد قال ابن مجاهد: »قال محمد بن الهيثم: واحتجّ من عاب قراءه حمزة بعبد الله بن إدريس أنه طعن فيها. وإنما سبب هذا أن رجلا ممن قرأ على سليم حضر مجلس ابن إدريس فقرأ فسمع ابن إدريس ألفاظا فيها إفراط في المدّ والهمز وغير ذلك من التكلف المكروه. فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه »(كتاب السبعة،77). ويمكن أن نذكر هاهنا بعض الأمثلة لهذا التخفيف. ففيما يخص اختلاس الحركات فإن العرب، كما مرّ بنا، كانوا يكثرون من الاختلاس للمصوتات وأصح الأمثلة لذلك هي أمثلة سيبويه: يضربها »[1] ومن مأمنك «وإلى بارئكم» (1/297) وكذلك: اسم موسى وابن نوح. وأما الهمزة فلها ثلاثة أنواع من التخفيف كما هو معروف: الحذف مثل بيرومومن وجعلها بين بين مثل سال وقلبها. وأما الإدغام بين كلمتين فمثل :أكرم به >أكربّه –انعت طالبا > انعطّالبا ابعث ذلك > ابعذّلك – مذ زمان > مُزَّمان وغير ذلك. وقلب الحروف كثير أيضا مثل أشدق > اجْدق – أصدق> اصدق. وأما الوقف فهو يشمل جميع المستويات وعدم الوقف هو لحن في الآدائين معا.

هذا والذي نقترحه للاستجابة لما يتطلبه العصر من التواصل الشفاهي الشامل **فهو إعادة الاعتبار في التعليم** لهذا الأداء المسمّى بالدَّرْج أو الإدراج (وسميت العامية بالدارجة بسبب التأدية المستخفة ويسمى عند القراء بالحدْر) مع إبقاء الأداء الآخر على ما هو عليه (بشرط تنقيحه والاعتداد بالوقف فيه). وهذا يحتاج أن يصدر بشأنه قرار في المستوى العربي الدولي

(1) قال أبو عمرو الداني في المحكم: »فلتجعل علامة الحركة المختلسة إن كانت فتحة نقطة فوق الحرف وإن كانت كسرة نقطة تحته وإن كانت ضمة نقطة فيه أو أمامه» (ص 44–45).

ويُعدّ له العُدّة في القطاع المعنى بالتعليم. فمن الضروري أن تخصص له حِصَص في دروس اللّغة العربية في المستويات الأولى ويُستعان في ذلك بالوسائل السمعية البصرية وكذلك في مستوى تكوين المعلمين مع التنبيه الدائم أن هذا الأداء هو فصيح ويختص به التخاطب ألشفاهي العفوي غير المحررّ ويليق مثلا للمسرحيات والأفلام والموائد المستديرة والأحاديث وكل مقام أنس ولا يحل أبدا محل الأداء الآخر الذي يقتضيه المقام المناسب له.

ولابـد أن يدّعـم هذا التجديـد التعليمي بالنسبة للغة ذاتها بتجديـد جذري لطرائق تعليم العربية وهذا يرتبط أشد الارتباط بالبحث العلمي في تعليم العربية وهو متوقف عليه. وسنعود إلى ذلك فيما يلي.

أما محاولة تفصيح العامية فقد يقوم المجمع المصري بمثل هذه المحاولات إلا أن الهدف يختلف: فالتعليم العادي للغة العربية يجب في نظرنا أن يعتدّ بالأدائيين المسترسل والمنقبض اللذين عرفهما السليقيون ممن أخذت منهم اللغة (وهما موجودان في جميع اللغات) وكلاهما ينتمي إلى العربية الفصحى وغياب الأداء المسترسل الفصيح يؤدي إلى تعميم العامية في جميع المقامات واستبدادها بها من تلك التي يسود فيها الاسترسال حتى في تدريس العربية الفصحى نفسها: يستريح المعلم بلجوئه من الأداء المنقبض إلى العامية وهو أمر جد طبيعي وينبغي أن نلوم أنفسنا ولا نلومه هو لأننا لم نعلِّمه كيف يحدّث غيرّه بالفصحى المسترسلة في المقامات التي تستلزم ذلك.

أما فيما يخص نقل العلوم والتكنولوجيا إلى العربية فهو من أهم الوسائل وأخطرها لرفع المستوى الثقافي للمواطن العربي وبالتالي لترقية لغته العربية. وقد قلنا أن حركة الترجمة ضعيفة جدا في الوطن العربي لأسباب كثيرة منها عدم التدعيم المادي والتقني لهذه الحركة على الإطلاق (إلا في بعض المؤسسات القليلة) وفقدان التكوين في الترجمة في أكثر البلدان العربية (ومدرسة واحدة في البلد الواحد غير كافٍ أبدا)ولأنه لم تجعل السلطة عندنا دور الترجمة في أعلى مرتبة من الضروريات التي لا مناص منها ونعني بذلك الترجمة للعلوم. فالاطلاع على أحدث ما يتوصّل إليه العلماء من الأفكار والنظريات والتحقيقات والإنجازات هو أمر حيوي في زماننا ولا أتصور باحثا لا يرجع إلى ما جدّ من جديد في تخصصه باستعمال شبكة الانترنت وغيرها من الوسائل الحديثة. ثم لماذا يحاول بعض إخواننا أن يترجم هو وحده كتابا في الفيزياء أو الكيمياء فيطول عمله إلى عدة سنوات أحيانا فيصير محتوى الكتاب قد تجاوزته الاكتشافات وما جدّ من النظريات.

فالذي نقترحه هو أن ينشأ في **كل مؤسسة علمية في الوطن العربي** –كالجامعات والمعاهد ومراكز البحوث– قسم خاص لترجمة لا الكتب فقط بل أهم **وأخطر البحوث والمقالات العلمية**

الصادرة في كل وقت على المستوى العالمي وذلك في إطار منسق تتكفل بتنسيق العمل فيه هيئة عليا من العلماء على مستوى اتحاد الجامعات وغيرها ويتعاون في ذلك مع المركز للترجمة التابع للأليكسو. ولابد من اختيار **ما لابد من ترجمته على الفور** بالاعتماد على مقاييس موضوعية وبتخطيط مناسب.

وفيما يخص توحيد المصطلحات فلئن كانت المؤسسات المهيأة لذلك قد بذلت مشكورة جهودا طيبة في ذلك إلا أنه لابد أن يرجع الإِقرار النهائي للمصطلحات إلى اتحاد المجامع اللغوية فهذا لا يمكن أن يتكفل به إلا اتحاد المجامع اللغوية العربية فهو يمثل كل المجامع العربية وكل مجمع لغوى في كل بلد يعتبر أعلى هيئة علمية يحق لها أن تقر المصطلحات. والذي نقترحه زيادة على ذلك، هو أن يُطوّر الاتحاد طريقة التوحيد بالاعتماد على الاستعمال الحقيقي للغة العربية وباللجوء **إلى الاستفتاء الواسع** بالنسبة إلى أهل الاختصاص المعنيين بالأمر. وإقرار ما تختاره الأغلبية منهم وبالرجوع إلى الذخيرة العربية للتثبت من مدى استعمال الألفاظ المختلفة للمصطلح الواحد في الوطن العربي من جهة والبحث في الذخيرة عما استعمله العرب مما هو قريب من المصطلح الأجنبي الذي لا يوجد له مقابل عربي من جهة أخرى..

أما فيما يخص البحث العلمي في اللغة العربية فهذا أيضا له خطورته والذي نتصوره كأنجع نموذج لهذا هو **البحث الجماعي المتعدّد الاختصاصات** أو الجوانب. فالبحث في العربية التقليدي هو بحث فردي وحِرَفي الوسائل وجُزئي غير شامل للمادة أو الميدان الذي يجري فيه. أما ما نقترحه للغة العربية فهو أن يتعاون على إنجاز البرنامج الواحد في المؤسسات العلمية المعينة عدد كافٍ من الباحثين ينتظمون على فرق لكل فريق منها تخصص وجانب من البحث. ومجموعة الفرق تتعاون على تحقيق هدف أو مجموعة أهداف لا يمكن أن تحقق إلا بمساهمة الجميع. فهذا هو البحث الناجع الذي يتجاوز بحوث الأفراد المنقطعين بعضهم عن بعض. أما الوسائل فقلما رأينا باحثًا يلجأ إلى المسح الشامل للمعطيات القديمة أو الحديثةبالاعتماد على الوسائل التكنولوجية الحديثة. فقد دخل الحاسوب اليوم في كل مكان إلا في بيت الباحث اللغوي عندنا إلا القليل منهم. وقد سمعنا أعضاء الاتجاهات العلمية المختلفة يذكرون ضرورة استعمال الحاسوب ولا يذكرون بالضبط الأهداف من استعماله والمناهج العلمية –لا أقول التقنية– التي يحتاج إليها الباحث في اللغة العربية للاستفادة من الحاسوب وقد لا يعرف كيف يستفيد بالحاسوب لا كمهندس بل كلغوي.

ثم أخطر من هذا هو أن يقوم ببحث يحتاج فيه إلى آلاف النصوص كالبحث في تطور معاني المصطلحات وسائر الألفاظ الأساسية في ميدان معين. ولا يفكر في إيجاد ما لا بد منه علميا ومنهجيا في هذه الحالة **وهي مدوّنة كبيرة** من النصوص. والذي نعرفه هو أنه لم يؤلف

اليوم معجم في العالم غير الوطن العربي بالطريقة العلمية (غير التجارية فقط) إلا بالاعتماد على مدونة فهي المرجع العلمي لكل ما يوجد في المعجم. وحتى معاجم المصطلحات التي يقترحها واضعها أو واضعو المعجم فلا بد لها من نصوص كمرجع موضوعي لها.

وقد اقترحنا قديما إنشاء مدونة للاستعمال الحقيقي للغة العربية سميناه بالذخيرة العربية ويكون لها موقع على شبكة الانترنيت ليستفيد منه كل المواطنين العرب. وقد وفق المسعى لتحقيقه وهو الآن على وشك الإنجاز والذي نتمناه هو أن يتعاون جميع العلماء في إنجازه بدون استثناء إن شاء الله.

والبحث العلمي في اللغة العربية لا ينحصر في البحث عن تطور معاني الكلمات لان للغة جوانب شتى: فهي أصوات وهذه الأصوات أدلة متواضع عليها للدلالة على المعاني ولها نظام خاص واللغة أداة للتبليغ فاستعمالها يستحق أيضا النظر فيه علميا إذ له قوانين وهي غير القوانين الباطنية التي يخضع لها نظامها وللكلام اضطرابات مرضية أيضا

وهو ميدان هام جدّا لأنه يمكّن للباحث أن يكتشف من الظواهر وأسرارها ما لم يجده في المتكلم السويّ . ولتعليم اللغة مشاكل عويصة تحتاج أن ينظر فيها النظر العلمي. وكل هذا يحتاج إلى أن تشترك في البحث فيه الاختصاصات المتنوعة من اللساني إلى الإلكتروني إلى الرياضي إلى الفيزيولوجي و الطبيب وعالم النفس وعالم الاجتماع والمربي[1].

ولا يمكن أن يعمل هؤلاء معا ويتعاونوا على إنجاز شئ ملموس ومفيد إلا إذا كان كل واحد منهم على علم بما تثبته علوم اللسان من الحقائق العلمية وما تكتشفه من أسرار في الظواهر اللسانية كما يجب أن يكون أيضا كل واحد منهم قادرًا على استعمال الطرق الحديثة في جمع المعطيات و ترتيبها و رصدها باللجوء إلى الحاسوب وغير ذلك مما صار الآن ضروريا في البحث العلمي.

أما البحث الخاص بمضاعفة مردود تعليم العربية فقد يقتصر بعض الإخوان على المحاولات التي صدرت من بعض العلماء في القرن الماضي كالرجوع، كما يقولون، إلى الطريقة الاستقرائية وترك غيرها. والحق أن الطريقة التي نريدها ناجعة لايكتفي فيها بنهج واحد كما تبينه التجارب التي أجريت في تعليم عدة لغات غير العربية. والذي نقترحه هاهنا هو البحث المعتمد على تجربة منتظمة للطرائق والنزول في ذلك إلى الميدان وبفرق من الباحثين المتخصصين في تعليم اللغات(وأصبح الآن علما قائما بذاته وهو ما يسمى الديداكتيك بالفرنسية). وأنجع منهج في ذلك هو **التجربة المقارنة لأكثر من طريقة ولأكثر من لغة**. ويجب في نظرنا الاعتداد بالنظرية

(1) ويمكن أن تفتح لذلك أقسام في بعض الجامعات أو مراكز تجمع هذه التخصصات حول هدف واحد وهو ترقية اللغة العربية.

اللسانية التي اعتمد عليها في وضع الطريقة التعليمية إذ لا بد من نظرية لسانية توجّه الباحث في بحوثه عن أنجع طريقة من جهة ونظرية تعليمية (ونفسانية اجتماعية) من جهة أخرى. وأحسن النظريات العلمية هي أقدرها على تفسير الظواهر الكثيرة وأكثرها استجابة لما تتطلبه الصياغة المنطقية الرياضية ومن ثم ما يتطلبه الحاسوب في ميدان العلاج الآلي للمعلومات.

ومن هذه النظريات اللسانية التي يمكن أن تستجيب لمتطلبات الصياغة المنطقية الرياضية ومن ثم لما يتطلبه العلاج الآلي نذكر القراءة الجديدة لما تركه الخليل بن أحمد وسيبويه وكل النحاة الذين تتكون منهم المدرسية الخليلية القديمة. وهذه القراءة الجديدة تكوّن الآن نظرية متكاملة سموها بالنظرية الخليلية الحديثة. والذي نقترحه هو أن يطلع على هذه النظرية وكيفية استثمارها كل من يرغب في ذلك من الطلاب والباحثين وذلك في إطار التعاون بين المؤسسات العلمية العربية.

أما إثراء العربية بالمعلومات الحديثة في أحدث صورها فالمبدأ عندنا في ذلك هو ألا تبقى العربية مقطوعة الصلة عن غيرها من اللغات بجهل أهلها من العلماء بهذه اللغات أو عجزهم بكيفية أو بأخرى عن استغلالها كوسيلة لاقتناء المعرفة من جهة ومن جهة أخرى ألا يقوم أي تعليم جامعي في العلوم والتكنولوجيا في المؤسسات التي لم تُعرّب تعليمها على اللغة الأجنبية وحدها بل أن تكون العربية موجودة في كل تعليم للعلوم أيا كان وذلك إن لم يمكن التعريب لكل المواد لسبب من الأسباب. فالخطر كل الخطر أن يتم التعليم للعلوم بلغة واحدة وأن تكون هذه اللغة غير العربية.

ومهما كان فالتواصل الوثيق بين العربية واللغات الأجنبية هو جدّ ضروري ومفيد في عصرنا هذا. والواقع أنه لا يوجد من يتقن اللغة الأجنبية إلا من درس على الأقل مادة واحدة بهذه اللغة فمعرفة اللغات الناجعة مرتبطة بالدراسة ولو مادة واحدة بهذه اللغة. وقد بينت التجربة أن ما يتعلمه الطالب في الثانوي من اللغة الأجنبية لا يكفي أبدا ليتمكن من الرجوع إلى المراجع الأجنبية بكيفية ناجعة.

فالنقص في نظرنا هو في التكوين العلمي الذي يعتمد كله في جميع أشكاله على لغة واحدة. فالباحث الذي لا يستطيع أن يتابع محاضرة باللغة الأجنبية ولا يستطيع أن يرجع إلى مرجع أجنبي ولا يستطيع أن يرجع إلى شبكة الانترنت قد أغلق على نفسه في عصرنا هذا جميع أبواب الترقي العلمي والتكنولوجي وحقق التقوقع الذي ما يزال يتضرّر منه المثقف. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى اللغة العربية فإن منعت من أن تكون لغة التعليم للعلوم والتكنولوجيا وأُقصيت عن هذا الميدان فستنزوي بل وستزول كلغة حية. ونعوذ بالله من هذا المصير الذي سيؤدي إلى تلاشي الرباط الوحيد الذي يربطنا معشر العرب، والذي يحلم به الاتحاد الأوربي على الرغم من قوته وسؤدده.

ونختم مقالنا بالإشارة ثانيا إلى مشروع عربي حضاري كبير كان مجرد اقتراح وأصبح والحمد لله مشروعا عربيًا إقليميًا وهو بصدد الانجاز وهو مشروع « الذخيرة العربية » أو« الانترنيت العربي » . وهو قاعدة معطيات (محوسبة) أو بنك آلي من النصوص سوف يجمع الإنتاج الفكري العربي القديم (التراث) والحديث وما يتميز من الإنتاج العلمي العالمي منقولا إلى العربية ويكون كل هذا في متناول أي مواطن عربي في أي مكان وأي وقت وبأقصر الطرق فيلجأ إليه التلميذ الصغير أو المراهق لعدم فهمه لدرسه الذي تلقاه في مدرسته أو يكون عليه عمل كلّف به ويحتاج إلى معلومات خاصة فيحصل عليها في الحين ويلجأ إليه العالم البحاثة لأنه يحتاج أن يلمّ في كل وقت على أحدث ما توصل إليه الباحثون من اختصاصه وقد لا يصل إليه هذا إلا بعد مرور زمن طويل . ويكون التراث العربي في متناول كل من يسأل عن معلومة تخص إنتاج علماؤنا القدامى . والفرق بين هذه الذخيرة وغيرها من مصادر العلم هي في كون العلاقة بينها وبين طالب معلومة مخصوصة هي علاقة تفاعل : يسأل السائل ويُجيب بعد بحثها عن الجواب . وكل ذلك بالعربية . ولا شك أن العربية تستفيد من ذلك بترقية المستوى الثقافي للشعوب العربية عامة .

«اللغة العربية: واقع وآفاق»

د. محمد خرماش
أستاذ النقد الأدبي الحديث والمعاصر (المغرب)

تـمهيد

اللغة ظاهرة إنسانية عجيبة، وهي عبارة عن منظومة متكاملة من العلامات الدالة منطوقة أو مكتوبة أو إشارية أو رمزية أو غيرها...(1) وهي وسيلة التخاطب بين الناس والتعبير عن حاجاتهم وأفكارهم ومشاعرهم ومعتقداتهم،كما أنها وسيلة التفكير والتواصل والإبداع،وهي الحافظ لذاكرة الأمة وضامن وحدتها وهويتها،ومستودع العلوم والمعلومات والتعاليم والقيم والإحساسات والطموحات...وهناك جدلية قائمة بين ثالوث اللغة والفكر والواقع، من حيث هي عناصر متماسكة ومتفاعلة في دينامية التعبير وإنتاج الخطاب، وقد شكلت هذه الجدلية موضوع دراسات ومناقشات مستفيضة ومتعاقبة قصد معرفة «إمكانية تحويل الواقع إلى مفاهيم عن طريق اللغة التي تربط بين العلامة وما تدل عليه من أجل إقامة تصور ذهني للمرجع الذي هو الواقع الخارجي ،وذلك بمساعدة أو بتأثير التربية اللسانية أو ما يعرف باللاّشعور اللغوي..»(2) وعليه فكل مستعمل للغة مّا واقع لا محالة تحت سلطتها من حيث هي الأداة الوظيفية ومن حيث هي المخزون المعرفي الذي يتحكم في تصوراته وقيمه وتقديراته، ولذلك يرى بعضهم أن «القوم يتكلمون كما يفكرون ويفكرون كما يتكلمون»(3)

اللغة العربية ماضيا:

وقد سجلت اللغة العربية عبر تاريخها الحافل الطويل صفحات مشرقة في سائر الميادين وكانت الوسيلة الفعالة والمساعدة على التقدم والإبداع في جميع الميادين، ولا يعدم الباحث أمثلة ساطعة على كل ذلك ، سواء في الشرق العربي الإسلامي حيث ازدهرت حركة التأليف والترجمة والتدوين، أم في الغرب وبلاد الأندلس حيث أسست المدارس والجوامع والجامعات ونشطت البحوث والانتاجات والمخترعات، واستطاعت العربية أن تثرى باللغات والحضارات المجاورة والمستقطبة، فكانت لغة الدولة والشعب ولغة العلم والعمل؛ وتعامل معها وبها أهلها بثقة كبيرة، وعلى أنها الأداة الناجعة التي تسعفهم في التعليم والتعلم وفي البحث والاختراع والإبداع وتسيير الشؤون العامة والخاصة، وتطوير الحضارة والإدارة، والتعبير عن مقتضيات الحياة كلها؛ و قد نتج عن ذلك كله تراكمات معرفية كثيرة ربما لم توف حقها من الدرس والفهم والاستيعاب إلى يومنا هذا.

واللغة كما هو معروف مثل العضلة إن استعملت وتمرنت قويت ونمت وان لم تستعمل ضمرت وجفت وتعطلت...وهذا ما كان من شأن اللغة العربية في العصور اللاحقة أو فيما يسمى بعصر الانحطاط، حيث قل الاهتمام بها حينما انهارت مظاهر الحضارة العظيمة وأصاب الركود سائر القطاعات ، فلم يستطع مستعملوها إلا أن يجتروا بها ما تركه الأسلاف، فاقتصروا- الا في النادر القليل-على الشروح والحواشي والتلخيصات، وابتعدت الفصحى عن الحياة العملية والعامة، وداخلتها شوائب وتغيرات كثيرة في مبانيها وفي معانيها، وخاصة في الأصقاع المترامية حيث احتكت باللغات المنافسة وباللهجات المؤثرة، وقد قال ابن خلدون في ذلك: « فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان (العربي) الأصلي أبعد... » وأشار إلى ما وقع للعربية من تحريفات في « أمصار افريقية والمغرب والأندلس والمشرق »(4) ولمّا آل الأمر إلى الأعاجم « تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم... »(5)

عصر الانبعاث وتحديات الحضارة الغربية:

ومع مطالع العصر الحديث وتعرض العالم العربي والإسلامي لهجمات غربية، وجد العرب أن من مظاهر تخلفهم ضعف لغتهم وقصورها عن مواجهة ثقافة الغرب وعلومه ومخترعاته،وقد ظهر ذلك في تاريخ الجبرتي مثلا (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) حينما أراد وصف أشياء لم يألفها فلم يجد لها تسميات مثل الكهرباء وغيرها، وفي كتابات رفاعة الطهطاوي حينما أراد نقل ما رآه في باريس فلم يجد المفردات الكافية والمصطلحات الجاهزة للتعبير بدقة واختصار عن مشاهداته... وقد استشعر الكتاب والمثقفون والعلماء من يومها ضرورة النهضة بلغتهم وإصلاحها كي تستجيب لتحديات العصر وتسعفهم في حل التناقضات البادية بينهم وبين معطيات الحضارة الجديدة، لكن الوقت لم يمهلهم ولم يكن في صالحهم، ورغم الجهود التي بذلت في إحياء القاموس العربي العتيد، فإن كثيرا من مفردات العربية الأصيلة ومصطلحاتها وتعابيرها قد تم القفز عليها وإغفالها وتهميشها بدعوى أن اللغة الموروثة مثقلة أو ثقيلة أو مستعصية، وأن الوقت والإمكانيات والكفاءات غير متوفرة آنيا لتمحيصها وغربلتها واستخلاص الصالح والمناسب من تراكماتها، ولذلك فالأجدى مرحليا اعتماد التجديد والاشتقاق والترجمة واستقطاب الصيغ السهلة والعبارات المطاوعة والتسميات الحديثة وما إلى ذلك، فخفت موازين العربية واستحدث فيها الشيء الكثير من حيث التراكيب والأساليب والتعابير، وصارت اللغة الحديثة المناسبة في قاموسها ودلالاتها وصورها ومصطلحاتها، حتى اعتبرها البعض عربية غير العربية القديمة ولو أنها تتغذى من نسغها وتنهل من معينها، وخاصة أن العرب والمسلمين يقرأون بها القرآن الذي هو مرجعها وحافظها وآية الإعجاز بها، ثم إن الإبداعات الأدبية والدراسات الشرعية والإنسانية بصفة عامة قد بقيت مرتبطة إلى حد كبير بزخم العربية كله وعاملة على استثماره في كثير من الأحيان، ويمكن القول بأن اللغة العربية

تمثل في الحقيقة رصيدا زاخرا ومتحفزا بثروة معجمية كبيرة تسمح بحرية التصرف والاختيار بين ما هو متداول وما هو أقل تداولا وما يمكن تداوله من القديم والحديث، ومما هو خاص أو مشترك من الحقول المختلفة، إضافة إلى أن مفردات العربية وتراكيبها، ولطول ما مرت به من تجارب وتراكمات، قد أصبحت مشحونة بحمولات تراثية وثقافية وشعبية تكاد تجعل من توظيفاتها واستعمالاتها عملية تناص كبيرة ودائمة . . .(6) ومن ثمّ فقد وجد الشعر العربي الحديث مثلا روافد لغوية كثيفة جدّا وقوية جدا ومعبرة جدا، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا. . .

اللغة العربية حاضرا :

1 ـ **المجامع اللغوية :** وتجدر الإشارة في مقام الحديث عن واقع اللغة العربية ووقائعها بعد عصر الانبعاث أو ما يسمى بعصر النهضة إلى ظهور المجامع اللغوية والمؤسسات المماثلة في عدد من الدول العربية وما حاولت وتحاول القيام به للمحافظة على اللغة العربية والعمل على استعمالها في القطاعات المختلفة وخاصة بعد الاحتكاك بحضارات العالم الحديث واستشعار الحاجة لنقل العلوم والمعارف الغربية؛ ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال، مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أسس سنة 1892م ومن الأهداف التي رسمت له جعل اللغة العربية وافية بمتطلبات العصر وملائمة لمظاهر الحياة المتطورة، وقد حقق بعض الإنجازات في هذا الاتجاه؛ والمجمع العلمي العراقي الذي أنشئ سنة 1947م للاهتمام بتنمية اللغة العربية ومواكبة التقدم العلمي والأدبي وتشجيع حركة الترجمة والتأليف، وقد تكونت لديه مكتبة ضخمة تعرضت للنهب بعد الاحتلال الأمريكي،كما نهبت المخطوطات الموجودة بها؛ والمجمع العلمي العربي الذي استحدث بدمشق سنة 1919م وقد عهد إليه بأمور إصلاح اللغة العربية وإعادة تأهيل الموظفين وتنشيط التأليف والإشراف على المكتبات والآثار، وأصدر مجلة للبحوث والمقالات والترجمات والفهارس ما زالت تصدر تباعا وتطبع كل عقد فهرسا لمحتوياتها، ومنذ سنة 1967م عدلت تسميته إلى مجمع اللغة العربية تأسيا ببقية المجامع العربية. ومجمع اللغة العربية الأردني الذي أسس سنة 1976م وهو يهتم أيضا بترجمة الكتب العلمية الجامعية ويصدر مجلة دورية كما يطبع في كل عام كتاب «الموسم الثقافي السنوي لمجمع اللغة العربية الأردني». وأنشئ المجمع الجزائري للغة العربية سنة 1986م لخدمتها والسهر على مواكبتها للعصر، وخاصة في مجالات الاختراع العلمي والتكنولوجي، ويضم ثلاث لجان دائمة هي :

– لجنة المعاجم والمصطلحات
– لجنة التأليف والترجمة والنشر
– لجنة التوثيق والتنشيط والاتصال

وله مجلة دورية لنشر البحوث المتعلقة باللغة العربية وآدابها وفنونها وتراثها ومستجداتها . . . وهناك مجامع أخرى مماثلة في أكثر البلدان العربية . وعلى العموم فقد كان المقصود من إيجادها المحافظة على سلامة اللغة العربية وإثرائها وتطويرها وتقويتها والعمل على توظيفها في مختلف المجالات . . . وقد ظهرت الحاجة إلى توحيد جهود المجامع العربية وتنسيق أعمالها، فأنشئ الاتحاد العلمي العربي سنة 1953 لتحقيق النهضة العلمية ، وأنشئ اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية سنة 1971م لتنظيم الاتصالات بينها، كما تم تأسيس مكتب تنسيق التعريب بالرباط سنة 1961م تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو) وهو يُصدر منذ سنة 1964 مجلة « اللسان العربي » التي تُعنى بالدراسات اللغوية والمعجمية وتوحيد المصطلحات، كما ينظم مؤتمرات للتعريب وينشر أعمالها .(7)

وعلى أي فهي مؤسسات كثيرة من حيث العدد ولا شك أن أموالا طائلة تخصص لها، ويمكن أن يكون للكثير منها أثر بالغ ومحسوس في نصرة اللغة العربية وتحديثها، لكن الملاحظ رأي العين مع كامل الأسف أن النتائج ليست في مستوى المطلوب الأمثل، لأن واقع اللغة العربية الواقعي ينم عن تهميش ومعاناة إن لم نقل عن تخلف وإهمال؛ إذ رغم الشعارات البراقة المرفوعة، فدواليب الإدارة والتعليم والاقتصاد والتجارة والسياسة وغيرها تسير وتُسيّر بغير اللغة العربية في معظم البلدان العربية، ومن المواقف المضحكة المبكية مثلا والدالة على وجود نفاق إداري واضح أن مذكرة صدرت عن دوائر عليا تنص على وجوب استعمال اللغة العربية في العمل والمراسلات وغيرها، فلمّا وصلت إلى المسؤول عن التنفيذ كتب لمرؤوسه في الهامش بالفرنسية عبارة « m'en parler » التقليدية،أي للتحدث معي فيه .!

وإذن هي حركات وتحركات من قبل ذر الرماد في عيون العرب الذين ضحوا ويضحون بالنفس والنفيس من أجل ترسيخ لغتهم وتثبيت جذورها والمحافظة عليها، والذي ينقص حقّاً وحقيقة هو الإرادة السياسية الصادقة في نصرة العربية وإخراجها من عنق الزجاجة وإطلاق تداولها الفعلي الشامل، والعائق في ذلك صراحة هو أن من بيدهم الحل والعقد في الدول العربية إمّا مكونين بلغة أجنبية يفضلونها على العربية وبها يحفظون مناصبهم وسلطتهم وامتيازاتهم، فالعربية بالنسبة إليهم مصدر قلق وتهديد فهم يعادونها من حيث يظهرون تعاطفا معها، وإما توابع وأذناب لجهات ليس من مصلحتها أن يستقل العرب لغويا فيستقلون فكريا وحضاريا وبعدها اقتصاديا وتجاريا وهلم جرا؛ فهم عرب بعقود ازديادهم واستفادتهم من خيرات البلاد التي يمرحون فيها طولا وعرضا وعمقا،وهم غير عرب بسلوكهم وخطابهم وقناعاتهم، ويا للاستلاب .! وقد شاهدت مرة موظفا ساميا يصرخ في مجموعة مواطنين سذج يريد تصنيفهم بحسب أعمارهم ، فيرطن بفرنسية سمجة : « les âgés ici et les moins âgés la » وفيهم عجائز وعجزة أميون يحملقون فيه مذعورين وهو يتبختر مزهوا بفرنسيته الحمقاء .! فهل لهذا، وأمثاله

كثيرون في مراكز القرارات الحاسمة، أن يخلص إخلاصا حقيقيا لاستعمال اللغة العربية وتداولها عمليا وعلى نطاق واسع في الحياة العامة والخاصة؟ والجميع يتحجج أمام الرأي العام الضاغط بحجج غير مقنعة من مثل أن العربية غير مستعدة الاستعداد الكافي لتسلم مفاتيح الكيانات الحيوية والحساسة مثل الإدارة والاقتصاد والتجارة والتكنولوجية والعلاقات الخارجية، أو أن تغيير اللغة المعتادة سيربك الأنظمة المسطرة والمستقرة، وما إلى ذلك.

وقصارى القول أن جهود المجامع اللغوية وتكاليفها الباهظة لم تفلح كما ينبغي في جعل اللغة العربية لغة وطنية بالمعنى العملي والواقعي،وإن سجلت بعض الإنجازات في البحث وفي النشر وفي تنظيم المؤتمرات والندوات وصناعة المعاجم وإحياء التراث، لكن الذين يضعون العصا في العجلة من أبناء العربية ومن غيرهم، لم يسمحوا لتلك المنجزات بأن تُنَفَّذ على أرض الواقع العملي، فبقي أكثرها قيد الرفوف حبرا على ورق.

2 ـ اللغة العربية ومحنة الاستعمار:

وهـذا الواقع اللغوي المستعصي ليس طارئـا أو وليـد المصادفة، وإنما هو واقع تاريخي مرتبط بالمراحل العصيبة التي مرت بها البلدان العربية، وخاصة في فترات الاستعمار وما تركه من آثار على الجنان واللسان والوجدان...

فقد تفاعلت اللغة العربية قديما مع اللغات القديمة مثل الفارسية والهندية والسريانية والآرامية وغيرها، ثم تفاعلت مع اللغة التركية حينما أصبحت الدولة العثمانية مسيطرة على كثير من البلدان العربية والإسلامية، وكان لها تأثير بين تلك اللغات كما ازداد قاموسها اتساعا بذلك التفاعل، لكن محنتها الحقيقية كانت مع الاستعمار الغربي الذي ما تزال ندوبه معلمة في جسدها، وغير خاف في تاريخه البغيض ما قام به من تدابير جهنمية لإضعاف اللغة العربية والفصل بينها وبين أبنائها وإحلال لغته أو لغاته محلها، علما منه أن اللغة من أوكد عناصر الهوية الوطنية والحافظ لها، ومن أهداف الاستعمار المعروفة طمس هويات الشعوب المغلوبة على أمرها وتحويلها إلى أقليات تابعة مهجنة ومدجنة، ولذلك عمد إلى إبطال التعامل باللغة العربية في جميع المرافق ومنها التعليم الذي لم يبق لها فيه، وكلغة ثانية أو ثالثة، إلا حصة زهيدة مقابل كل الوقت للغته السائدة التي شجع على تعلمها وأفرد لها امتيازات كثيرة لمستعمليها وخاصة في المدارس الأجنبية التي أنشأها لأبنائه وأبناء الأغنياء و«النبلاء» من أتباعه بهدف تكوين طبقة مستغربة وغريبة، علما منه أن اللغة أساس الهوية وروح الأمة وأداة التفكير والتعبير والتدبير،وقد أراد للأمة العربية أن تنسلخ عن لغتها فتنسلخ عن كيانها وكينونتها، وبحسب ما نراه عيانا في واقع العرب والعربية، فإن السموم التي زرعها الاستعمار والتشوهات التي أحدثها في اللسان وفي الإنسان العربيين، ما تزال ذات أثر وتأثير بالغين، والأمثلة على ذلك بادية للعيان كما سنرى...

3 ـ واقع اللغة العربية بعد الاستقلال :

لم تنته محنة اللغة العربية مع ذهاب الاستعمار السياسي وبقاء الاستعمار الثقافي الذي هو أنكى وأدهى وأمر؛ فقد كان من أولى الشعارات المرفوعة أيام الكفاح الوطني العربي وحركات التحرر من الاستعمار، استعادة مكانة اللغة العربية وإزالة هيمنة اللغة الأجنبية، وقد كان المتوقع والمفروض بعد الاستقلال وامتلاك زمام الأمور أن تُتَّخذ قرارات حاسمة في الموضوع، لكن شيئا من ذلك لم يكن مع كامل الأسف، واستمرت محنة اللغة العربية مع الاستقلال بأشد مما كانت عليه مع الاستعمار؛ وأول مظاهر العسف في حق اللغة العربية في بلدانها وبين أبنائها أنها ما زالت تعاني في أوساط كثيرة من التحقير والتهميش والإهمال، وأحيانا كثيرة من بعض العطف الكاذب المهين، والنفاق المزيف المقيت، وما زالت اللغة أو اللغات الأجنبية تحتل الصدارة في جميع المواقع والمعاملات، وقد كتب محمد الباهلي أن «ما يحدث اليوم للغة العربية هو نفس المخطط بل أخطر مما حدث أيام الاستعمار» وأن «أجيالنا الجديدة أصبحت لا تتحدث أو تكتب أو تفكر أو تقرا باللغة العربية» وروى قصة شاب يدرس بالمدارس الأجنبية، عاد فرحا إلى أمه، وهما في كندا، ليخبرها بأنه لأول مرة يفهم خطبة الجمعة لأنها كانت «بالأنجليزي»، واعتبر المسألة خطيرة، ومن قبل تدمير النسيج اللغوي في المجتمع العربي، ولذلك أطلقت تحذيرات كثيرة منها ما صدر عن مؤتمر: «لغة الطفل العربي في عصر العولمة» الذي أقامته اليونسكو بالقاهرة وشارك فيه 500 خبير لغوي أجمعوا على أن «عولمة الثقافة وسيادة اللغة الإنجليزية أخطر على اللغة العربية والهوية الوطنية من الاستعمار، وأن استمرار هذا الوضع الذي نعيشه منذ 50 عاما سيؤدي إلى موت اللغة العربية»(8)

ويمكن القول إذن بأن اللغة العربية اليوم تعيش صراعا مريرا مع اللغات الأجنبية وخاصة مع الفرنسية والانجليزية المفضلتين علما وعملا وتعليما في البلدان العربية والعاملتين تحت غطاء الاستعمار الثقافي الجديد على زحزحتها وربما القضاء عليها إن وجدتا إلى ذلك سبيلا، ويمكن أن نمثل لهذا بالجهود المكثفة والمتواصلة التي تبذلها «الفرنكوفونية» المتعصبة للبقاء والازدهار والسيادة في البلدان الناطقة بالفرنسية كليا أو جزئيا ومنها بعض الدول العربية. . .

والفرنكوفونية أو الدفاع عن استعمال اللغة الفرنسية في المستعمرات الفرنسية القديمة وفي غيرها، موقف إيديولوجي قبل أن يكون موقفا ثقافيا أو لغويا بريئا، ذلك أن فرنسا ومن يلف لفها تريد فرض اللغة الفرنسية أولا ودائما، وعن طريقها تفرض وجودها اقتصاديا وثقافيا وعلميا واجتماعيا وما إلى ذلك، بحيث يصعب أو يستحيل على «الفرنكوفونيين» أو المتفرنسين فك الارتباط معها أو التخلص من التبعية لها، وقد أكد الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي الذي له إبداعات بالفرنسية أن: «الفرنكوفونية نقطة ارتكاز للإستراتيجية الاستعمارية الجديدة»(9) ولذلك تغدق على كل

إنتاج باللغة الفرنسية وتشهره، وتجعل جميع المشاريع مرهونة باستعمالها أو بالاقتصار عليها؛ وذكرت الدكتورة زينب عبد العزيز في بحث لها عن « الفرنكفونية والمسألة الحضارية » أن « مصطلح الفرنكوفونية أصبح يتضمن معنى الآلة الحربية التي تساعد على الحفاظ على المستعمرات السابقة » وهو يدخل فيما يسمى في علم الأجناس الاجتماعي بـ« الغرس الثقافي » الذي يعمل على « اقتلاع ثقافة الحضارات الأم لإحلال ثقافة المستعمر وحضارته » من خلال تبديل القيم والمفاهيم والعادات التراثية حتى يمكن تعديل المؤسسات والبنيات والسلوكات البشرية .(10) والفرنكوفونية كفيلة بذلك لأنها تقدم نفسها بمثابة مشروع ثقافي وحضاري وسياسي في مقابل المشروع الأنكلوفوني والأمريكي العولمي الزاحف هو الآخر، وبذلك تحاول بسط نفوذها على مستوى اللغة بالذات وفي سائر المراكز والأنظمة، كي تصبح الفرنسية، إن لم تكن قد أصبحت، البديل العملي وربما الشرعي للعربية بحكم الضرورة وبحكم الأمر الواقع، كما هو الشأن في الأقطار المغاربية حيث تساعدها ظروف ذاتية وموضوعية متعددة، الأمر الذي لا يؤثر على العربية فحسب وإنما على الهوية والقومية والانتماء الحضاري والعقدي، وربما تكون له انعكاسات سياسية وتاريخية ومستقبلية لا يعلمها إلا الله.

وهذا من الابتلاء العظيم الذي ابتليت به اللغة العربية في هذا الزمن الغشيم، ولا ندري متى ولا كيف سيكون الخلاص منه؛ ولا بد من الاعتراف بأن أبناء العربية يعينون عليه ويحملون أوزاره، لأنهم متقاعسون ومتخاذلون ومنهم من يستمرئ الوضع فهو يحبذه ويساعد على بقائه وترسيخه.

4 ـ مسألة التعريب بين الأمل والعمل :

وقد كان المفروض والمتوقع أن تستعيد اللغة العربية مكانها ومكانتها بعيد الاستقلال، لكن التردد في التعريب و تَلَكُّأَ المسؤولين في العمل به، جعل المسألة تتعقد وتتشعب وتأخذ أبعادا كثيرة حتى اعتبره البعض « أم المعارك الثقافية » وتعجب من استمرار هذا الإشكال بعد مرور أكثر من نصف قرن على الاستقلال في أغلب الدول العربية ، وحتى تحول إلى قضية استراتيجية مفتوحة ليس بين القوى الوطنية فقط، وإنما بينها وبين جهات أجنبية مغرضة ، وقد وصف أحد الفرنسيين الذين في قلوبهم مرض، قانون التعريب في الجزائر مثلا بـ: « التطهير اللغوي الذي يمكن أن يدفع بالنخب الجزائرية إمّا إلى البؤس أو الهجرة. . »(هكذا) واعتبره « نابعا من كراهية فرنسا التي تعطي الجزائر عشرات المليارات كل سنة، وتستقبل الملايين من أبنائها. . »(11) وسواء صحت المعلومات أم بولغ فيها، فهذا نوع من الاصطياد في الماء العكر والتحريض على الفتنة وتأليب الفرقاء، بدعوى الغيرة على حقوق الإنسان(المشجب المقلوب)، والدفاع عن الأقليات التي لاوجود لها. . .وقد نسي هؤلاء أو تناسوا بأن أصل المشكل كله هو الاستعمار الذي أحدث شروخا عميقة في البنية

الاجتماعية والوطنية، بتكوينه لهذه «النخب» التي يتباكى عليها ويحتج بها، و بخلقه ازدواجية مقيتة في جميع القطاعات بين ما هو طارئ وما هو أصيل ما زالت جدليتها المستعصية قائمة وبحدة فائقة في الواقع والوقائع، وفي الفكر والأفكار التي أصبحت منمطة ومنمذجة في بنيات متصلبة ومتنافرة من مثل إشكالية الأصالة والمعاصرة ، والقدامة والحداثة وما إلى ذلك، وقد وجد من المثقفين ومن السياسيين ومن القادة من هو مفتتن بالغرب ولغاته وحضارته ونمط العيش فيه، فلا يرى في العربية والتعريب ولا حتى في المعتقدات والتراث سوى خطوة أو خطوات إلى الوراء، ولا بد من التصدي لها ومحاربتها، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك اعتقاد أو ادعاء البعض مثلا أن التحول إلى تدريس مادة الفلسفة في الثانويات والجامعات بالعربية، قد كان بسبب التخوف من العقلانية الغربية المشجعة على الاحتجاج والتمرد، وقد أدى إلى «الفكر الخرافي» وظهور الحركات المتطرفة. . .ومما يؤسف له أيضا أن إشكالية التعريب قد عومت في بحر المصطرعات ، فلم تعد إشكالية لغوية محدودة وإنما أصبحت إشكالية بنائية وقطاعية واستراتيجية تتعلق بموازين القوى في الداخل والخارج، علما بأنها إشكالية دستورية قبل كل شيء وبعد كل شيء، وسائر الدول العربية محرجة دستوريا وقانونيا أمام التناقض الموجود بين ما تنص عليه دساتيرها من كون اللغة العربية هي اللغة الرسمية وبين ما يجري على أرض الواقع من تهميش لها واستعمال للغات أجنبية عوضا عنها .ا إن استعمال اللغة الأجنبية في الإدارات مثلا وفي المرافق العمومية يخلق توترا دائما وشنآنا بينها وبين المواطنين عموما، واستعمال اللغة العربية فيها ما يزال متراوحا بين الأمل والعمل وكلما جد جد حكومة في أمره إلا وأنبتت لها ألف عرقلة وعرقلة، مرة بدعوى ضرورة التأني وعدم التسرع والارتجال،ومرة بدعوى ضرورة تجنب إثارة غضب الآخر والمحافظة على الهدوء الداخلي وعلى الصداقات الخارجية والمصالح المتبادلة، وهلم جرا. . . ويمكن القول بأن العربية والتعريب يعيشان فقط بين النوايا الحسنة والمواقف المبيتة، إذ هناك من هو مع التعريب لكن لا حول له ولا طول،وهناك من يُظهر تأييدا للعربية والتعريب مداهنة وتملقا ونفاقا،لكنه يبيت ما يبيت من أجل ترسيخ اللغة الأجنبية لغته التي «تؤكله الشهد»؛ ومثل هؤلاءِ أيضا هم دعاة العربية «الحديثة» أو العربية «المبسطة» المختزلة في بعض الخطاطات التي هي على سمت اللغة التي تشبعوا بها أو الترجمات الحرفية الرديئة التي يستأنسون بها، وبذلك تُتَناسى مقتضيات العربية العريقة وبنياتها الأصيلة الرصينة، فتخرب من داخلها ويدب الضعف في جسدها وتتآكل من نفسها، وذلك هو الطرف الثاني لخيط المؤامرة؛ وقد أصبحنا بالفعل نرى كتابات عربية وما هي بعربية ، من إنتاجات شذرية متشرذمة ومفككة لا تمت للأسلوب العربي بصلة، ومع ذلك يدّعي أصحابها أنهم مجددون ومجربون ومطورون وهم أخطر على العربية من أعدى أعدائها؛ وممّا يزيد في الطين بلة وجود لهجات عامية كثيرة ومتباينة في الأقطار العربية، الشيء الذي يعرقل أيضا استعمال الفصحى ، ويوسع المسافة بين المكتوب والمنطوق من آثار العربية الحديثة والمعاصرة، ومن

الجديد بالإشارة وبالمناقشة أيضا تأثر اللهجات المغاربية بالأمازيغية وتأثر اللهجات المشرقية بالآرامية والفارسية والتركية وما سواها ، إضافة إلى اختلاف لهجات البدو عن لهجات الحضر في النطق وفي التركيب، والى امتدادها الجغرافي من تخوم آسيا الوسطى إلى حوض البحر الأبيض المتوسط والى ما وراء الصحراء الكبرى؛ ومن ثَمَّ التعدد والتنوع في مزاحمتها للفصحى وتأثيرها على الوضع الحالي وربما المستقبلي كذلك. وبالطبع فإن رواسب الاستعمار ومحاولاته الكثيرة لخلق الشقاق بين العربية الفصحى وبين بناتها العاميات، أو بينها وبين اللهجات المحلية مثلما وقع في الظهير البربري المشؤوم بالمغرب سنة 1930م ، ما زالت ماثلة تدعمها الفرنكوفونية الغاشمة وجهود التغريب المتواصلة... والأدهى والأمر أن اللغة العربية في يومها وليلها الطويلين ليست محاربة من الخارج فقط، وإنما يوجد من أبنائها وأبناء أبنائها من يكن لها العداء المستحكم بسبب تغلغل التوجه الاستعماري في تكوينه وثقافته وقناعاته أو بسبب تخوفه على وضعيته المتميزة ومكتسباته الطائلة، أو بسبب نزعته الشوفينية أو العنصرية التي تغذيها طموحاته الوصولية ورغباته الانتهازية؛ وبالطبع فالأنظمة الوصية سادرة في استسلامها وتبعيتها تاركة الحبل على الغارب للمنافسات المشروعة وغير المشروعة والمتكافئة وغير المتكافئة... وكل هذا وغيره مما يضعف مكانة اللغة العربية، ويجعلها تعيش حالة ضيق في السياق العام وخاصة في مجالات العلم والعمل والمعاملات السائدة.

وضعية اللغة العربية في الأفق:

وإذا كانت هذه بعض السمات المستخلصة من واقع العربية اليوم في كفاحها المرير، فإن آفاق الغد لا يمكن أن تنم إلا عن تحدّ كبير وصمود فائق، لأن تاريخ العربية حافل بالمواجهات والمكابدات، وفي كل مرة كانت تخرج من معاركها بأصح وأسلم وربما بأثرى وأغنى مما كانت عليه؛ ولا نريد أن نذكر بما هو معروف من ارتباطها بكتاب الله الذي وسعته لفظا وغاية، يُتلى بها فتُحفظ بحفظه ، وإنما تجدر الإشارة إلى معالم ثابتة في الطريق على وعورته، ولعل أهمها تمسك الأمة العربية بلغتها الضامنة لشخصيتها والضامة لتراثها وتاريخها وحضارتها وهويتها، وتحفز العرب الأقحاح للذود عن حياضها، وما الذي نحن بصدده من البحث والدرس والتمحيص واكتشاف مواطن الضعف لمعالجتها ومواطن القوة لاستثمارها، إلا قُلّ من كثير مما يبذله غيرنا من أفراد ومؤسسات وجمعيات وجامعات في سبيل نصرة اللغة العربية الفصيحة الصحيحة المليحة، وهذه التظاهرات الموفقة التي يقيمها المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر مثلا خير دليل على ما نقدمه، كما أننا نشهد في كل يوم مناظرة أو محاضرة أو ندوة أو رابطة لبحث أحوال اللغة العربية وطرح قضاياها ومعرفة متطلباتها، وهي ظاهرة صحية تؤكد حياة العرب وحيويتهم وعدم استسلامهم للمؤامرات والمناورات ، وتصديهم لكل ما يحاك لهم ولعربيتهم. والملاحظ أيضا –ورغم كل شيء– أن العربية تحتل مواقع متقدمة في المحافل الدولية كما تثبت الإحصائيات

المؤكدة، وكثير من الإذاعات والفضائيات والقنوات الأجنبية تبث برامج باللغة العربية وتحرص على الفصاحة والسلاسة والأسلوب المستقيم، وآخر من التحق بالركب قناة «الأرونيوز» التي أصبحت تقدم نشرات بالعربية رغم أنها في الأصل قناة أوروبية وللأوربيين...

وللغة العربية إمكانيات زاخرة تساعدها على مسايرة ركب العلوم والإعلام والمعلوميات واستيعاب ثقافة الصورة وثقافة الرقميات، ولذلك فهي في تطور سريع ومواكبة حذو النعل بالنعل لجميع المخترعات والمبتكرات، ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى تفوق اللغة العربية في مجال الأدب وفي الدراسات اللغوية والعلوم الإنسانية قاطبة ، ونحن نعرف أن الشعر العربي مثلا قديمه وحديثه يحظى بتقدير عالمي، وقد ترجمت منه دواوين كثيرة إلى لغات متعددة، بينما الإقبال كبير على ما أنجز وينجز من أبحاث ودراسات باللغة العربية في الفكر والسياسة والقانون والاجتماع والتاريخ، بله الكتابات الدينية والعقدية وغيرها...

ورغم الحاصل وما قد يحصل فاللغة العربية صامدة صمود الأبطال وتستطيع بإمكانياتها المتميزة وتراثها الزاخر أن تتطور وتتجدد ، وكثير من الأعناق مشرئبة إليها، وبمزيد من الدعم والاهتمام ستحقق المزيد ويتحقق بواسطتها المزيد...

هوامش:

1 ـ ينظر، ادوارد سابير : مدخل للتعريف باللغة، ترجمة سعيد الغانمي، في «اللغة والخطاب الأدبي» المركز الثقافي العربي 1993 .

2 ـ محمد خرماش؛ جدلية اللغة والواقع في الخطاب الروائي، مجلة علامات ع 1997/8 ص66.

3 ـ Adam schaff; langage et connaissance;-anthropos69 p36.

4 ـ مقدمة ابن خلدون تحقيق عبد الواحد وافي ج 3 ص 1284-1285

5 ـ نفسه ص 1292ـ1295.

6 ـ محمد خرماش ؛ مكانة اللغة العربية في الإبداع الأدبي ، حوليات كلية اللغة العربية بمراكش ع 1995/5 ص 197 وبعدها.

7 ـ للمزيد انظر محمد حسن يوسف؛ المجامع اللغوية العربية، موقع إسلام أون لاين، الترجمة ومعاني الكلمات.

8 ـ الجزيرة نيت 13 أبريل 2007 نقلا عن صحيفة «الاتحاد الاماراتي».

9 ـ موقع اسلام اون لاين بحث لفظة «فرنكوفونية».

10 ـ موقع اسلام ويب و كوكل زينب عبد العزيز.

11 ـ موقع اسلام اون لاين نيت (ثقافة وفن) التعريب أم المعارك الثقافية في المغرب العربي.

مكانة اللغة العربية في الجزائر

اللواء / محمد علاق – الجزائر

اللغة عنصر حيوي يضمن التفاهم والترابط بين أفراد المجتمع، وهي وسيلة لضمان توحيد كلمة الأمة في أبعادها الثقافية وعند الدفاع عن كرامتها وهويتها. وبتلك الوحدة استطاع الشعب الجزائري أن يناضل ويحافظ على شخصيته الوطنية وانتمائه العربي الإسلامي، ويكافح الاستعمار بالغالي والنفيس من أجل تحرير وطنه ومعتقداته ولغته وبفضل مجهودات أبناء الجزائر وإخلاصهم في الدفاع عن الوطن واللغة العربية واستطاعوا أن يثبتوا بقاءها سليمة، وكذلك بتعليمها في المساجد والزوايا ومدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين طوال فترة الاحتلال الفرنسي الذي فرضت سلطاته مضايقات على معنويا ت المعلمين وحضرا على تعليمهم للغة الوطنية.

ورغم ما عانته البلاد من ويلات خلال التسلط الاستعماري الفرنسي الذي اغتال السيادة الوطنية وكان يريد طمس اللغة في دارها ونشر اللغة الفرنسية بدلها لكن كفاح الشعب الجزائري لم يتوقف إلى أن توج بالاستقلال وعادت اللغة العربية إلى عزتها.

كما كانت قبل الاحتلال وتبوأت مكانتها الدستورية وأصبحت اللغة الرسمية للدولة قانونيا وأصبحت من الجزائر تساهم في ضمان التواصل الثقافي والترابط بين الأقطار العربية وتسعى إلى أخذ مكانتها بين اللغات المتطورة ليس في الجانب الأدبي شعرا، و نثرا فقط يل في مبادين شتى العلوم الأخرى وذلك بفضل مجهودات المعلمين والأساتذة حماتها الساهرين على ترقيتها وتطويرها وتعميم استعمالها في جميع الهيئات العمومية والإدارية، ومؤسسات البلاد وفي مقدمة الساهرين على تعبئة المتتبعين لتعميمها رئيس وأساتذة المجلس الأعلى للغة العربية الطين ينشطون في لجانه الدائمة لتوجيه عمل المؤسسات.

فالمجلس الأعلى للغة العربية الذي يحيي الذكرى العاشرة لتأسيسه فيشهر سبتمبر 2008، يستحق التحية والتقدير على نشاطه المتواصل في تنظيم الندوات والملتقيات العلمية وتوجيه القطاعات والمؤسسات الثقافية والاقتصادية في تطبيق استعمال اللغة العربية، وإقامة ندوات وملتقيات علمية حضرها ضيوف من البلدان الشقيقة والصديقة كما أثرى المكتبة الوطنية بعدة كتب وعناوين تعالج مواضيع لغوية ولسانية معاصرة تزيد في تدعيم وتثبيت مكانة اللغة العربية وتلفت الانتباه إلى خطورة الألفاظ الأجنبية الفرنسية وغيرها التي أجذت مكانها في اللغة الفصحى وفي العامية و أصبحت تسيء إلى سلامتهما.

ولقد كانت اللغة العربية لغة القرآن متأصلة لدى الشعب في الجزائر منذ الحقبة التاريخية التي وصل فيها الفاتحون إلى بلاد القبائل البربرية في ربوع المغرب في منتصف القرن الهجري الأول، وكانت الجموع المرافقة لعقبة بن نافع الفهري وحسان بن نعمان وموسى بن نصير وغيرهم، قد جاءوا مبلغين الدعوة الإسلامية مبشرين وناشرين لتعاليم الدين الإسلامي ومن بينهم فقهاء كانت غايتهم تعليم أهالي البلاد المغربية القرآن الكريم واللغة العربية ليتمكنوا من فهم أمور دينهم .

فمن ذلك الحين بدأت القبائل البربرية المعروفة بالبتر والبرانس وفروعهما المتعددة ومنها: كتامة، صنهاجة، هوارة، نفوسة، زناته، ومكناسة، وهم السكان الأصليون في الجزائر، وينسب المؤرخون هؤلاء البربر إلى أصول عربية من الكنعانيين جاءوا قديما إلى شمال إفريقيا عبر طرق التجارة وانقطعت بهم السبل فأقاموا بإفريقيا والكنعانيون من الشعوب السامية مثل الأموريين والكلدانيين وأيضا القبط الرعاة الذين استوطنوا مصر.

فبدأ البربر يتعرفون على القادمين من المشرق وعلى ثقافة الدين الإسلامي وكيفية التعامل بأخلاقه وبهرتهم العدالة الاجتماعية التي جاء بها فلانت نفوسهم للإسلام، واستساغوا اللغة العربية التي زادتها المعاني القرآنية رونقا وجمالا في التعبير، فأقبلوا يتعلمونها قراءة وكتابة وبعد فترة قصيرة أصبحوا يتخاطبون ويدونون بها شؤونهم وكل شيء جديد يتعلمونه وأبقوا على تداول لهجاتهم البربرية بالسماع واللفظ الشفوي ولكل جهة من مناطق الوطن أسلوب لهجتها الإقليمي .

وبعد أن خبروا لغة الشرقيين وتقاليدهم وجدوا تقاربا معهم في اللغات وخاصة عند القبائل الرحل وتبين لهم أن القادمين من المشرق ليس لهم طمع لا في الأرض ولا في الأرزاق، بل هدفهم نشر الدعوة الإسلامية حيثما نزلوا وعلموا أن عقبة بن نافع الفهري المتوفى سنة 64 هجرية، قد شق بجيشه طريقه نحو الغرب رغم المقاومة التي واجهته بها القبائل البربرية إلى أن بلغ المحيط الأطلسي ووقف بجواده في ماء شاطئه وقال والله لو علمت أن وراء هذا البحر أرضا يشرك فيها بالله لخضت إليها البحر حتى أنشر بها دينه وقد وجدوا أن عادات العرب مخالفة تماما لتلك التي عند الرومان والبيزنطيين الذين كانوا معهم في معارك مستمرة، فحبذوا التقارب من القادمين من المشرق واستكانوا إليهم كأنما استشعروا فيهم رائحة أجدادهم الأولين فقبلوا التعايش السلمي معهم والتحقوا تطوعا في صفوف المجاهدين وشاركوا في نشر الدعوة الإسلامية في ربوع المغرب وفي الأندلس.

وأصبحوا من حماة اللغة العربية حتى أن أحد شيوخهم ويعرف **بالزواوي بن المعطي**، قد وضع ألفية في النحو والصرف للحفاظ على سلامة التلفظ بها وجاء بعده **ابن مالك** ووضع ألفية في نفس المادة وقال فيها فائقة ألفية بن المعطي، وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائي الجميل.

ومما زاد ازدهار اللغة العربية في المجتمعات البربرية هو حفظهم للقرآن الكريم وكثرة الاستعمال والممارسة والمخاطبة بالألفاظ السليمة في مراسلاتهم والوثائق المدونة .

فاللغة العربية التي نعتز بها ونأمل أن يصل بها علماؤنا، وكتابنا غالى درجة الإبداع تتطلب السهر على سلامتها من الخلط في الكلام وإدخال الألفاظ الفرنسية وغيرها في المحادثات بالفصحى لأن ذلك ينقص من مستوى موضوع المحادثة، وإذا كان الموضوع يحتاج إلى كلمات تقنية مترجمة من لغة ثقافة أجنبية فلا حرج في ذلك لأن تعامل اللغة العربية مع الثقافات الأخرى في نقل الخبرة والمعرفة أخذا وعطاء أصبح من ضروريات عصر العولمة

وبما أن اللغة العربية هي القاسم المشترك الأعظم مع كل الأقطار العربية، فالجدير بمجامعنا اللغوية في المشرق والمغرب بدءا من مجمع اللغة في دمشق والقاهرة والزيتونة والمجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر والقزويين في المغرب وكل المؤسسات التي تعنى باللغة العربية جدير بهم أن يمتنوا روابط التعاون والاجتهاد فيما بينهم في انتقاء الألفاظ التقنية وإصدارها في مجلة أومعجم تكون مرجعا للجميع على غرار الأدلة والمعاجم التي أصدرها المجلس الأعلى للغة العربية كمعجم المصطلحات الإدارية والدليل الوظيفي في إدارة الموارد البشرية ودليل المحادثة الطبية ومصطلحات التسيير المالي والمحاسبة ودليل المصطلحات المكتبية وهناك أيضا المجلة التي يصدرها الاتحاد العربي للحديد والصلب الذي تأسس في الجزائر سنة 1971 ومقره في الشراقة وله فروع إقليمية في دمشق والقاهرة ويعمل على تنشيط وتدعيم التعاون والتعارف والمبادلات بين أعضائه في جميع المجالات ومجلته أطلق عليها الصلب العربي تصدر بالعربية والانجليزية الوحيدة في الصحافة العربية التي تعالج صناعة الصلب ولها موقع في الانترنيت باللغة العربية .

فعلى المؤسسات التي تعنى باللغة العربية أن تتفق على انتقاء الألفاظ التقنية وإعطائها مسميات عصرية عربية وتعميمها عند قراء العربية أينما وجدوا ليتمكن الناطقون بلغة الضاد من استعمال ألفاظ تقنية تساير وتواكب المستوى الثقافي حسب متطلبات العصر وبلغة واحدة وموحدة لجميع العرب.

اللغة العربية في أوطانها بين التحديات والآفاق

أ. د. محمد الينبُعي
كلية الآداب سايس -فاس- المغرب

مقدمة

لا يخفى على عاقل اليوم، الدور الكبير الذي تضطلع به اللغة في حياة الأمم والشعوب؛ فهي الوسيلة الفعالة للتواصل والترابط والتوحد بين أجيال الأمة الواحدة المتباعدين في الأمصار والأعصار، وهي وسيلة الإبداع المتميز في الجانب العلمي والأدبي والحضاري، وهي الناقلة لأفكار الناس ورؤاهم من عصر إلى عصر، وهي، فضلا عن كل ما ذكر، سمة من أهم السمات الحضارية التي تميز أمة عن أخرى. يقول الدكتور عبد العلي الودغيري في هذا الصدد:

« واللغة بحكم أنها لا يمكن تصور وجودها إلا وهي مرتبطة بالمجتمع الذي يستخدمها أشد الارتباط، يكون من خصائصها ووظائفها بجانب كونها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته من مجتمع لآخر، أنها تعد أصدق مؤرخ لحياة هذا المجتمع وحياة ثقافته وحضارته، وذاكرته التي تختزن عنه كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وسلوكه، وإيمانه وكفره، وغناه وفقره، وتعلمه وجهله، وأدبه ومهارته وفنه، بل إنها ذاكرة تحتفظ أيضا بأدق الصور والمعلومات عن حياته اليومية، وعن بيئته ومناخه وطبيعته الحية والميتة. وباختصار كل ما يريد المرء أن يعرف عن هذا المجتمع من تفاصيل قد لا نجد أحيانا من الأدلة على وجودها في وثائق التاريخ ولكننا نجدها في تضاعيف كلمة من كلمات القاموس اللغوي؛ فأنت بمراجعة اللسان العربي في قواميسه القديمة، وتقليبه على وجوهه، تعرف من أحوال العرب القدامى وعقائدهم الجاهلية وأوصاف حياتهم وتفكيرهم ومعيشتهم وبيئتهم في جفافها وقسوتها ما يغنيك عن قراءة ابن خلدون أو ابن الأثير أو غيرهما من مؤرخي العرب الكبار »(1).

ولعل المتتبع لشأن العربية في القرون السالفة، خاصة قرون الشهود الحضاري، حينما كانت للأمة العربية الإسلامية السيادة والريادة، يلاحظ أن هذه اللغة قد قامت بأدوارها على أحسن ما يرام، لكنها اليوم وللأسف الشديد، نراها قد تولت الأدبار، وتراجعت القهقرى، ونالت حظا وافرا من الوهن والضعف بسبب التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها كل يوم. ولذلك فقد ارتأيت أن يكون موضوع حديثي في هذا العدد الخاص من مجلتكم -الذي خصصتموه مشكورين للحديث عن قضايا اللغة العربية: راهنا ومستقبلا هو الحديث عن التحديات المختلفة التي تواجه هذه اللغة في الوطن العربي، وسبل النهوض بها. وسأنظم أفكارها ضمن المحاور التالية:

---

(1) في الثقافة والهوية، ص 11.

مقدمة عن أهمية اللغة

1- التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

- تحديات في مجال الإعلام
- تحديات في مجال التربية والتعليم
- تحديات في مجال الإدارة المؤسسات العمومية
- تحديات في مجال الاستعمار اليومي

2- مقترحات لتجاوز التحديات:

- تعريب المحيط العام
- دعوة المجامع اللغوية للقيام بواجبها
- مقترحات أخرى
- الخاتـمـة

1- التحديات المختلفة التي تواجه العربية في الوطن العربي

1-1 تحديات في مجال الإعلام:

يعتبر هذا المجال من المجالات الحيوية، في الوطن العربي، التي يدخل من بابها الخير والشر. ولعل المتتبع لهذا الشأن يلاحظ أن العربية الفصحى قد دخلها شر كبير من هذا الجانب؛ وذلك ناجم عن الإفراط في استعمال اللغات الأجنبية والد وارج واللغات المحلية، في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية. وهذا الأمر يكاد ينطبق على كل بلدان الوطن العربي سواء المغاربية منها أم المشرقية.

ففي مجال الإذاعات المسموعة نجد المحطات التي تبث برامجها صباح مساء بالفرنسية أو الإسبانية أو الأنجليزية أو العامية. يقول أحد الصحافيين المغاربة مصورا هذا المشهد المأسوي:

«باتت الإذاعات الخاصة بالمغرب تطرح مشكلا في غاية الخطورة، لا يدري المرء معه ما إذا كان حله يدخل ضمن اختصاصات الهيئة العليا للسمعي البصري أم يتعداها ليدخل ضمن صلاحيات الحكومة والبرلمان، وإن كان مؤكدا، مع ذلك، أنه يندرج ضمن اهتمامات الهيئات الثقافية والسياسية المغربية التي يتعين عليها أن تتصدى له بحزم في أفق حله وتجاوزه.

يتعلق الأمر، تحديدا، بما يمكن أن نسميه «فتح المجال لإعادة استعمار المغرب من جديد» حيث إن هذه الإذاعات الخاصة التي تحمل نعت وصفة «مغربية» صارت تفتخر بإعلان تبعيتها للغة والثقافة الفرنسيتين انطلاقا من لغة الحديث والحوار والاختيارات الغنائية، ومرورا بـ «نقل» عدد من البرامج مباشرة من إذاعات فرنسية، وانتهاء بتغطية الحياة الفنية والثقافية والإعلامية بفرنسا دون ذكر اسم هذا البلد، وكأن المستمع المتابع لبرامج هذه الإذاعات يقطن بإحدى المدن أو القرى الفرنسية وليس بمدن المغرب وقراه.

بل، أكثر من ذلك، صارت بعض هذه الإذاعات «تحرض» على استعمال اللغة الفرنسية كبديل للغة البلاد الرسمية (كما هي في نص الدستور، الذي لم يتم تغييره بعد في ما نعلم) وهي اللغة العربية.

أما في مجال القنوات الفضائية فالأمر أسوأ وأفدح. ومن أمثلته القريبة البرنامج الذي كان يقدمه صحفي عربي كبير وكاتب قومي شهير على قناة الجزيرة. وقد كان حريصا ألا يتحدث فيه إلا بالعامية، وكأنما يتحدث فقط إلى أصدقائه وأقاربه في مصر وليس إلى كل العرب، في مختلف ربوع المعمورة، وفي ذلك خسارة إعلامية كبيرة للمتحدث وللقناة ذات الطابع العربي الدولي»(1).

إن هذا التقرير الذي قدمه صاحبه عن حالة العربية الفصحى في مختلف مجالات الإعلام المسموعة والمرئية في المغرب الأقصى، يمكن تعميمه على عدد كبير من الدول العربية التي سبق لها أن ابتليت بالاستعمار الأجنبي ولم تتخذ بعد قرارا حاسما لصالح التعريب. وهذا يعكس الحالة المزرية التي تعيشها هذه اللغة في أوطانها.

1-2 تحديات في مجال التربية والتعليم:

إن حال اللغة العربية الفصحى في هذا المجال، لا يقل سوءا عن المجال السالف الذكر؛ إذ حالها هنا تدمي له القلوب، وتفجع من أجله الثكلى نظرا للاهتمام الكبير الذي أصبح يعطى للغات الأجنبية اللهجات المحلية على حسابها. ولعل أكبر دليل على ما نقول هو هذا الإقبال الكبير على مدارس البعثات الأجنبية؛ وكمثال على ذلك فإن نسبة التلاميذ المغاربة المسجلين في مدارس البعثة الفرنسية قد وصل هذه السنة 54٪ مقابل 41٪ للتلاميذ الفرنسيين المقيمين في المغرب. وذلك ناجم عن عدة أسباب أذكر منها ما يلي:

* ترويج الكتّاب والمفكرين الأجانب، ومن تأثر بهم من أبناء جلدتنا لعدة مقولات تحط من شأن العربية، ومن خريجي مدارسها. فهي في زعم هؤلاء صالحة لأن تكون لغة قصة وأدب وشعر، وغير صالحة لأن تكون لغة طب أو علم أو تجارة أو صناعة... إلخ. وقد أدى هذا الأمر إلى عزلها عزلا تاما أثناء تدريس العلوم الحديثة والنظر إليها بأنها لغة متخلفة، رغم توفرها على كل ما تتوفر عليه كل اللغات الحية من وضوح العبارة، وسلامة البنيان اللغوي، والقدرة على التطور ومواكبة المستجدات، وغيرها من السمات الرائعة والدقيقة التي يعرفها أهل الاختصاص. وإن كان ثمة من عيب فهو لا يرجع إليها، وإنما يرجع إلى متكلميها؛ فمن الحقائق المقررة عند علماء اللغة الاجتماعيين أن اللغات تتأثر سلبا وإيجابا بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها أصحابها؛ فتطورها مرتبط بتطورهم، وضعفها مرتبط بضعفهم. يقول الدكتور عبد العلي الودغيري مقررا هذه الحقيقة: «إن التجربة والعلم والتاريخ كل ذلك يعلمنا أن اللغة –أية لغة– تضعف بضعف أصحابها وإهمالهم لها وتقوى بقوتهم».

---

(1) مصطفى المسناوي – جريدة المساء المغربية، عدد: 515.

كل لغة يمكن أن تموت بالإهمال وأن تزدهر بالاستعمال. وما أصاب مسيرة التعريب من نكسات في السابق لم يكن إلا بسبب أن القرار السياسي لم يتخذ لصالح التعريب. ويوم يتخذ القرار الثوري والضروري الذي يؤمن بالفكرة ويعمل على تطبيقها مهما كانت التضحيات، ستبطل كل المزاعم والترّهات التي تلصق ظلما بالعربية والتعريب »(1). ورحم الله شاعر العربية حافظ إبراهيم القائل في قصيدته:

أنا البحر في أحشائه الدُّرُّ كامن فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي

* عدم فقه القائمين على أمرها بالأدوار الكبيرة والوظائف المتنوعة التي تقوم بها اللغة في حياة الأمة والشعوب؛ إذ أن معظمهم لا يعرف للغة إلا وظيفة واحدة، وهي وظيفة التواصل والتعبير عن أغراض الناس وحوائجهم. وهذا مخالف تماما لما تقره الدراسات اللغوية الحديثة، التي تؤكد أن للغة عدة وظائف، تعتبر الوظيفة المذكورة من قبل واحدة منها فقط، فاللغة عند هؤلاء العلماء ليست مجرد أداة يتخاطب بها الناس، ولا مجرد تعبير عن الفكر. بل هي إلى جانب ذلك ذات خصائص ووظائف أخرى أهم وأعمق، من أهمها: أنها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وصياغته الصياغة التي تجعله في هذا المجتمع مختلفا عنه في مجتمع آخر يقول الفيلسوف الألماني هردر موضحا هذا الأمر: « لا يمكن أن نشك في أنها –يقصد اللغة–... هي التي تخلق العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا، وتسدده وتوجهه اتجاها خاصا »(2).

ويقول اللغوي الشهير إدوارد سابير مؤكدا الأمر نفسه بعبارة أخرى:

« إن اللغة هي التي تجعل مجتمعا يتصرف ويفكّر بالطريقة التي يتصرف ويفكّر بها، وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته، وأن تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محددة في ذاتها لنظرة المجتمع المتكلم فيها للعالم والحياة »(3).

* إضعاف معاملها في مختلف الأسلاك المدرسية وعدم العناية بخريجي مدارسها، إذ تعطى كل الامتيازات لخريجي المدارس الأجنبية على مستوى المنح والتوظيف... إلخ فأعداء العربية نسبوا إليها كل شر ورسموا لخريجيها آفاقا مسدودة ومظلمة، في حين نسبوا لضرائرها وعلى رأسهن الفرنسية كل مزية وفضل، ووعدوا خريجي مدارسها بكل أسباب الرزق والسعادة « فطريقها، أي الفرنسية، طريق كل خير ومنحها سخية وجوائزها مريحة وسنية وخبزها نظيف والعمل بها شريف وهي مفتاح الرزق وباب العرفان وهي لغة الماضي والمستقبل ولغة الدين والآخرة إلى آخر الكلام المعسول »(4).

---

(1) في الثقافة والهوية، ص 145–146، عبد العلي الودغيري.

(2) حصاد الفكر العربي الحديث في اللغة العربية، ص: 123، إعداد جماعة من الأساتذة.

(3) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 220: نايف خرما (كتاب سلسلة عالم المعرفة التي تصدر بالكويت) إصدار 1978.

(4) في الثقافة والهوية، ص 145.

* الضغوط التي تفرض على الأمة من قبل التيار الفرانكفوني وصناديق النقد الدولي التي تقدم المعونات والقروض لهذه الدول.

* مزاحمتها بالعديد من اللغات واللهجات، منها الداخلي ومنها الأجنبي، حتى أصبح هذا الخليط اللغوي بمثابة ضرائر لهذه اللغة.

1-3 تحديات في مجال الإدارة:

من التحديات الخطيرة التي تواجهها العربية الفصحى في الوقت الراهن هو عدم إعمالها في المراسلات الإدارية والرسمية عند كثير من الدول الناطقة بها، رغم صدور عدة مراسيم حكومية، وعدة توصيات من المجامع اللغوية العربية التي توصي بضرورة إعمالها بدل اللغات الأجنبية الأخرى إلا في الحالات القصوى. فإذا نظرنا في الإدارة المغربية مثلا فسنجد أن معظم مراسلاتها باللغة الفرنسية، هذا ما صرح به الأستاذ موسى الشامي رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية لجريدة التجديد المغربية، حيث قال: إن 90٪ من وثائق الإدارات العمومية المغربية ما تزال تصدر بالفرنسية وهذا رقم مخجل ومخيف ناطق واضح الدلالة لا يحتاج إلى تعليق.

1-4 تحديات العزلة عن الحياة العامة:

لقد ذكرنا، قبل جملة من التحديات التي تواجهها العربية، ويبدو لي أن أخطر هذه التحديات هو إبعادها عن الإعمال في الحياة العامة والخاصة لمتكلميها، لأن ذلك يعني الحكم عليها بالفناء.

فقد حلّت اللهجات العامية محلها، وأخذت مكانها في ألسنة الناطقين العرب. ونتج عن ذلك نشوء مجموعة اللهجات المحلية، التي تختلف من بلد لآخر داخل القطر الواحد، فإذا كان عدد البلدان العربية اثنتين وعشرين دولة، هي مجموع الأعضاء في جامعة الدول العربية، فإن لدينا اثنتين وعشرين لهجة عامة، تتفرع عنها لهجات بلدية تتميز كل منها عن الأخرى ببعض الخواص الصوتية، ففي مصر –مثلا– نجد لهجة مشتركة بين جميع المواطنين، ولكن صعيد مصر (الوجه القبلي) له لهجته الخاصة المتميزة، كما أن للدلتا لهجتها المتميزة.

وقد يكون لمواطني الإسكندرية خواصهم اللهجية التي لا تجري على غير ألسنتهم.

غير أن مجموع المواطنين في مصر يتفاهمون بالعامية المشتركة التي تتبناها أجهزة الإعلام، وتنشر بها رسالتها، سواء في ذلك الإذاعة والتلفزيون وأفلام السينما.

وهكذا الحال في كل قطر عربي، غير أنهم يقتربون من اللغة الفصحى عند مستوى ثقافي معين، فيخلطون مستوى الفصحى بمستوى العامية، وتنشأ عن ذلك لغة (فصعمية)، أي: خليط من الفصحى والعامية، وهذا الخليط يختلف نسبيًا من دولة إلى أخرى. وإن

كانت كمية الاختلافات قليلة، نظرًا إلى انتشار وسائل الإعلام التي تستخدم في أحيان كثيرة المستوى (الفصعمي) .

ولسنا نستطيع أن نتجاهل عاملاً خطيرًا من بين عوامل عزل الفصحى، وهو استعمال المشتغلين بالتدريس في مدارس العامة (حتى نهاية المرحلة الثانوية) للهجات، أو لمستوى رديء من الفصعمية .

وأخطر من ذلك تأثيرًا استخدام أساتذة الجامعات في الآداب للعامية (اللهجات المحلية)، وليس ذلك من باب المبالغة أو التجني، فنحن لا ننكر وجود أساتذة يحترمون اللغة الفصحى، ويلتزمون بأدائها في محاضراتهم . وفي مقابل هؤلاء نجد بعض من يدرسون مادة (النحو العربي) ويستخدمون اللهجات العامية في مخاطبة الطلاب بقواعد النحو وسائر علوم العربية .

فإذا كانت هذه هي الحال في كليات الآداب، وبخاصة في علوم العربية، فإن الحال أسوأ في سائر الكليات التي تتخصص في الفنون والعلوم المختلفة، بحيث لا يسمح للعربية أن تدلف إلى قاعات المحاضرات والبحوث . وربما جاز لنا أن نقول : إن جماهير الأساتذة في علوم الهندسة والطب والحقوق والعلوم والزراعة والفنون التشكيلية، والمواد التربوية . . . إلخ هؤلاء جميعًا لا يعرفون شيئا من قواعد العربية الفصحى، وممارسة الحديث بها .

هذا تصوير غير مخل للوضع الذي تواجهه الفصحى في أوطانها العربية، فهي لا تجد لخطواتها مكانًا يسعها، اللهم إلا في بعض خطب الجمعة –على قلتها– فأما مجالات الخطاب الجماهيري، كمجالس النواب والشورى والمجالس القومية المتخصصة فقد أخلصت ولاءها للعامية، وخاصمت الفصحى (1) .

2– مقترحات للنهوض بأمر العربية :

إن المتأمل فيما ذكر من قبل يلاحظ أن هذه اللغة تعيش وضعا معكوسا منكوسا؛ إذ ينطبق عليها قول العرب : « لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس » . وعليه فإنه يتعين على الغيورين عليها وعلى الكتاب الذي نزل بها من أهل العلم والمال، والقرار السياسي على السواء البحث عن السبل التي تمكنها من استرجاع عافيتها قبل فوات الأوان . وفي السطور التالية عرض لبعض المقترحات في هذا الباب :

2–1 تعريب المحيط العام :

لقد جرت العادة حينما نتحدث عن التعريب، أن حديثنا عن تعريب التعليم والإدارة والإعلام، وننسى أن تعريب هذه المجالات لا يحقق أهدافه إلا إذا كان مرفقا بتعريب المحيط

(1) اللغة العربية إلى أين؟ ص 163–164، عبد الصبور شاهين.

الاجتماعي والثقافي والاقتصادي... إلخ؛ وهذا ما أقرَّه عدد من الخبراء العارفين بمهالك ومسالك اللغة العربية. يقول الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في هذا الصدد: «هناك رهان ثان يتعلق بتعريب المحيط، في علاقته بتعريب التعليم العالي، خاصة، والتعليم عامة. فما فهمنا ولاحظنا هو أن المحيط الاقتصادي وقطاعات الشغل تفضل توظيف من يتقن اللغة الأجنبية أو الفرنسية على الخصوص. وهذا التفضيل لا يرجع لكون التكوين باللغة العربية لا يمكن من المعارف، ولكن «لكون المكوَّن باللغة الأجنبية له قدرة تواصلية أكبر من المكوَّن بالعربية» فيما يبدو. ثم إن التنافسية تفرض على هذا المحيط أن يستعمل اللغة الأجنبية، مما يجعلها لغة الفرص والشغل. فالمكون باللغة العربية يجد نفسه أمام عائق، وتقفل أمامه أبواب الشغل. وإذا استمر هذا العائق، فإن نهج سياسة تعددية يضعف حظوظ اللغة العربية، ما دام هناك موقف مسبق منها. بل إن تعريب التعليم العالي يصبح ضارا بمصلحة التلميذ، وفرصه في الشغل، إلخ وهذا المنطق خطير لأنه قد يعمم على الثانوي والتقني بل حتى الأساسي. إن التقليص من وظائف اللغة الوطنية بدعوى التنافسية منطق مغلوط. فأصغر الدول مثل هولندا وفنلندا والسويد وغيرها تعلم بلغتها من الروض إلى الجامعة، وتشتغل بهذه اللغة. وليس الانفتاح على اللغات الأجنبية مدعاة لتفردها بوظائف لغة العمل في الاقتصاد والاتصال... إلخ. فلا بد من تدخل الدولة، والتشريع اللساني، لحماية اللغة الوطنية، وفرز خطة لغوية ناجعة ومعقولة، لا تقضي على اللغة الوطنية تدريجيا»(1).

2-2 دعوة المجامع اللغوية للقيام بواجبها:

إن المجامع اللغوية العربية تقوم بجهود جبارة من أجل ترجمة المصطلح وتوحيده، لكن الواجب الملقى على عاتقها يفوق ذلك بكثير فالمفروض في كل مجمع -كما يقول الدكتور هيثم الخياط-: «أن يقود ركب التوعية والتنبيه.. وأن يلفت النظر إلى كل مكر خفي يهدف إلى قطع صلة هذه الأمة بلغتها وثقافتها الأصلية.. وأن يبذل جهده الصادق الواعي الفاهم ليجعل من الفصحى لغة التخاطب العامة، وإن بقيت للعامية آثار قليلة متفرقة في طبقات الناس بعد ذلك.. وأن يقول كلمته واضحة صريحة لا يتلجلج ولا يجمجم: في لغة التعليم، ولغة التوجيه، ولغة التثقيف... وأن يعرف أبناء هذه الأمة بتراثهم، لا من أجل أن ينتفجوا بهذا التراث، ولكن من أجل أن ينطلقوا منه انطلاقا مبدعا، ويتعلموا من سلفهم كيف يكون الإخلاص للعلم، وكيف يكون المنهج العلمي الصحيح، وكيف ينطلق الفكر المكبل، من كل إسار يجعله يخلد إلى الأرض.. وإنه لواجب -لو تعلمون- عظيم!».

(1) أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، ص 22.

3- مقترحات أخرى:

- مطالبة وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي بتقوية حصص العربية في مختلف أسلاك التعليم بنوعيه العام والخاص. أسوة بكل الدول المتقدمة التي تعطي الحيز الكافي في برنامجها التعليمي للغتها الأم.
- مطالبة الدول العربية بتفعيل القرارات الصادرة عن اتحاد المجامع اللغوية التي توصي بتعميم العربية واتخاذها لغة رسمية داخل الإدارة والإعلام والتعليم.
- تفعيل كل القرارات الداعية إلى دعم هذه اللغة، ومن جملتها تلك الدعوة الصادرة في ميثاق التربية والتكوين المغربي التي تدعو إلى تأسيس أكاديمية تعنى بأمر هذه اللغة كتابة وقراءة.
- تقوية حصص العربية في المعاهد العليا للصحافة لتخريج إعلاميين متمكنين من هذه اللغة.
- تخصيص برامج إذاعية وتلفزية لتقويم اللسان العربي.
- تعريف الخاصة والعامة بالبعد العالمي لهذه اللغة وتمتيع خرّيجيها بنفس الامتيازات التي يتمتع بها خريجو المدارس الأجنبية.
- فرض رقابة لغوية على كل الملصقات واللافتات التي تعلق في الشوارع وأمام المحلات التجارية أسوة ببعض الدول الرائدة في هذا المجال. وعلى رأسها دولة العراق.
- إعمال المصطلح العربي ووضع جمارك صارمة أمام مرور المصطلحات الأجنبية إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة علمية ما.
- إنتاج العلم والمعرفة، إذ لا حياة لهذه اللغة بدون حياة أصحابها.
- التخفيف من وطأة اللهجات واللغات المزاحمة لها وإقناع الناس بأن الدفاع عن العربية هو دفاع عن الأمة ككل ودفاع عن هويتها وليس دفاعا عن جنس بعينه. إذ العربية ليست سمة لعرق مخصوص دون غيره وإنما هي سمة لكل من تكلم بها وقد جاء في الأثر: «من تكلم العربية فهو عربي».
- تطوير طرق تدريسها كتابة ونطقا.
- الحرص على التكلم بها في جميع الملتقيات والمنتديات الوطنية والدولية أسوة بالأجانب المعتزين بلغتهم. وقد أصبحت الأمم المتحدة اليوم تهدد بحذفها من اللغات الرسمية لأن أهلها لا يتكلمون بها في اللقاءات والمؤتمرات.
- رفع ملتمس إلى النواب والوزراء والفاعلين السياسيين، وكل الجهات المسئولة في كل الدول العربية يطلب منهم الاهتمام بهذا الأمر وجعله من أولى أولوياتهم السياسي (1).

(1) في سبيل العربية: ص 10-11.

خاتمة

إن اللغة العربية بالنسبة للعرب وكل الدول الإسلامية الناطقة بها شرط بقاء ووجود، فهي مصيرهم وقدرهم بوجودها يكتب لهم الوجود والبقاء بدونها لا يكون لهم وجود، وحتى وإن كان هذا الوجود، فلن يكون له شأن يذكر بين باقي الأمم التي تعنى بلغتها القومية. ولا غرابة في ذلك إذ اللغة –كما تقر بذلك الأبحاث اللسانية المعاصرة –وهي محضن ثقافتها ووعاء مقوماتها الحضارية والعلمية والثقافية.

ونظرا لكل هذه الأدوار التي تقوم بها فهي مستهدفة من قبل الذين لا يريدون للعرب والمسلمين رفعة ولا شهودا حضاريا. ولذلك وبناء على كل ما ذكر فإن الاهتمام بالعربية يعتبر اليوم من أولى الأولويات وأوكد الواجبات على على كل محب لوطنه ومعتز بهويته؛ لأن الاهتمام بأمرها أصبح فريضة شرعية وضرورة حضارية وحتمية تاريخية. ألا وإن الناس يتساءلون متى يكون النصر لهذه اللغة ومتى يتم التمكين لها من جديد. قل عسى أن يكون ذلك قريبا وما ذلك على أهل العزم والحزم من أبناء العروبة والإسلام بعزيز.

مراجع البحث :

– أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، سنة 1999م.
– ندوة التعريب في التعليم العالي : إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية التابع لوزارة التعليم العالي السورية المطبوعة بتاريخ 2007م.
– التعريب : مؤسساته ووسائله : ممدوح خسارة، مؤسسة الرسالة 1999م.
– في سبيل العربية : محمد هيثم الخياط، مكتبة وهبة 2004م.
– اللغة العربية إلى أين؟ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية، الرباط المغرب 2005م.
– اللغة والبيئة : عبد القادر الفاسي الفهري، منشورات الزمن الكتاب رقم 38 / 2003م.
– ثمانون عاما من الحرب الفرانكفونية ضد الإسلام واللغة العربية : إدريس الكتاني، منشورات نادي الفكر الإسلامي بالرباط المغرب 2000م.
– في الثقافة والهوية : د. عبد العلي الودغيري، دار البوكيلي القنيطرة المغرب 1995م.
– في العربية والقرآن : د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب مصر 1998م.

مستقبل اللغة العربية

بين مراهنات الأعداء ومقومات البقاء

بقلم الدكتور أحمد بن نعمان

كاتب، وباحث ـــ الجزائر

إن اللغة من الناحية الشعورية والوجدانية تمثل روح الأمة وأساس وحدتها، الثقافية والحضارية، كما تمثل الوعاء والوسيلة الناقلة للأفكار والتقاليد والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة في الزمان على تاريخ الأ مم والشعوب، كما تعتبر من الناحية السياسية هي معا لم الحدود الحقيقية للرقعة الجغرافية الوطنية والقومية، وتعتبر من الناحية السياسية والسيادية هي أهم أسس الهوية ومكونات الشخصية والوحدة الوطنية لأية مجموعة بشرية، تعيش في انسجام على وجه الكرة الأرضية، على اعتبار ألا وحدة وطنية وقومية بدون وحدة لغوية ودينية . . .

إذا كانت اللغة كذلك، فلانها تعتبر أيضا، وبدون منازع، هي أفضل وسيلة للتفاهم بين الأفراد، والتعبير عن أفكارهم، وهي وإن لم تعتبر الأداة الوحيدة للاتصال بين الأشخاص، إلا أنها أداة لا غنى عنها لبني البشر لبناء الحضارات وتشكيل الأمم وتوحيد الأوطان، كما أن للغة أهمية كبرى لكونها أداة فعالة لشحن الذاكرة ونقل المعرفة والتعبير عن المفاهيم المعقدة، وفي ذلك يقول الباحث العربي نور الدين حاطوم: ((لقد أصبحت اللغة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر من أهم المقومات المحددة لجنسية أي شعب أو **أمة**))[1] وهوما يؤكد ما قرره الفيلسوف الألماني (فيختة) قبله منذ أكثر من قرن بقوله : ((أينما توجد لغة مستقلة توجد أمة مستقلة، لها الحق في تسيير شؤونها وإدارة حكمها))[2] .

ولقد تأكد ذلك خلال القرن العشرين حينما لجأت الدول المنتصرة عقب الحرب العالمية الأولى في اجتماعها ((بفرساي)) إلى تعيين الحدود بين الدول على أساس المناطق اللغوية، وحتى عندما تتشابك الثقافات في المناطق الواقعة بين أمتين كبيرتين تكون اللغة عادة هي المعيار الذي يحدد شخصية الإقليم المتنازع عليه. وأن أحداث أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية المتنازع حولهما هذه الأيام في جورجيا، وهما المقاطعتان المتحدثتان بغير اللغة الجورجية، وقبلهما بشهور قليلة ـــ كما هو معلوم ـــ كانت كوسوفو في صربيا، لأبرز وأحدث الأمثلة على ذلك**!!**

وهكذا ظلت اللغة (وستظل كذلك) هي المفجر أو الصاعق الكامن وراء جل الصراعات العرقية والسياسية القائمة بين شعوب الدولة الواحدة، داخل حدود التراب الواحد، أو على الحدود الإقليمية والسيادية للأقطار المتجاورة في المكان، والمتغايرة في الولاء والشعور والوجدان، الناتج عن اختلاف استعمال اللسان، بصفته مرة للسياسة ووعاء للثقافة وعنوانا للسيادة في جميع البلدان كما أسلفنا ... وقد استعمل (موسوليني) هذه الحجة نفسها في مطالبته بضم جنوب ((تيرول)) إلى الدولة الإيطالية في عهده، بعد أن شجع الإيطاليين على الهجرة إلى تلك المنطقة ليصبح سكانها ناطقين باللغة الإيطالية . . .[3]

والمثال نفسه ينسحب على سكان مقاطعة الكبيك بكندا اليوم، حيث يتجاذبون، ويتميزون عن بقية المقاطعات الكندية الأخرى باللغة الفرنسية التي يعتمدونها لسانا قوميا لهم، وأساسا لهويتهم، ومبررا من ثم إلى مطالبتهم بالاستقلال والانفصال عن الوطن الكندي، كما حدث في الاستفتاء الذي نظم حول هذا الموضوع سنة 1995 ...

ولما كانت اللغة على هذه الدرجة من الأهمية، فإننا نجد صفاتها الوطنية والرسمية محددة عادة في مقدمة المواد الدستورية لأية دولة مستقلة ذات سيادة في العالم، مع إدراج المواد المتعلقة باللغة (الوطنية والرسمية) في الغالب، ضمن المواد الدستورية التي لا تقبل المراجعة والتغيير، لكون المساس بكنهها يعني المساس بقداسة الوجود المرتبط بها كدولة وكأمة ذات هوية متميزة بخصائصها في الوجود!.

فإن ذلك هو ما شاهد العالم وقوعه في الماضي، ويشهد وقوعه اليوم بين كوريا والصين واليابان، والصرب والألبان والفرنسيين والانجليز والألمان، والباسك في اسبانيا والكتلان، والفالون في بلجيكا والغلامان، والأكراد في العراق وسوريا وتركيا وإيران، والأ وزبك والباشطون والطاجيك والهزارة في أفغانستان، والبلوش والسنهال والتاميل في سيلان والهند وبنغلادش وباكستان (...).

وكانت اللغة المستضعفة والمستهدفة من هذه الوجهة وبدون منازع، هي بيت الداء الذي ينخر الكيانات القومية الضعيفة لإزالتها من الوجود ... وكانت وحدة اللغة وقوتها في مقدمة كل دواء، لوقاية كيان الدولة ووحدة الشعب والأمة من التشتت والتمزق والتفرق، إلى كيانات مجهرية لا حصر لها، داخل الرقعة الجغرافية الواحدة، كما يتجلى ذلك على خريطة العالم المعاصر، المبسوطة كالحصيرة أمام كل ذي بصر وبصيرة...! وأبرز مثال على ذلك الدول الأفريقية (الفرنكوفونية والأنجلوفونية) المتصارعة ثقافيا وسياسيا وسياديا فيما بينها على مائدتي فولتير وشيكسبير، منذ أن تبنت ورسمت بعض دولها لغة جلادها السابق في الإدارة والسياسة والسيادة والتعبير!!

ولذلك فإن الذي يلفت نظر القارئ الكريم في عنوان هذه الدراسة، هي ثلاث عبارات أساسية تتمثل في: ((المستقبل)) و((مراهنات الأعداء)) و((مقومات البقاء))... وهي لا شك تستفزه وتثير فضوله لتدفعه إلى الاطلاع على مضامينها، خاصة في ضوء الحاضر الذي لا يوحي بأي مستقبل لهذه اللغة في واقع أبنائها بين من يريدون لها السؤدد ولا يقدرون، ومن يقدرون أن يرفعوا لها شأنا ولا يريدون، بل وقد يعمل بعضهم مع الأعداء على عكس ما يريده الأبناء الأصلاء من أصحاب العيون البصيرة والأيدي القصيرة، مثلنا معشر أصحاب ((أوسط)) الأيمان، في غياب استمساك الشعب بعصمة الطلاق والتطليق للحكام القادرين على التعيير بين يديه، وهو خلاف ما هم عليه(...)

ونظرا لأن كل معطيات الحاضر ومؤشراته في الظاهر لا تبعث على التفاؤل، بالنسبة لما يريده الأوفياء من الأبناء، فضلا عن أن الحديث عن موضوع اللغة الذي هو بامتياز (كما أسلفنا) من صميم الظواهر الاجتماعية المتصلة بحياة الأنسان وخصائصه، يكون من المثير جدا التجرؤ على التنبؤ بمصير سفينة تخوض عباب بحر لجي ذي أمواج عاتية يقودها ربان وسنان أو سكران من أصحابها، أو قرصان غاصب من غير أهلها، مما يجعل الحديث عن مصير السفينة ونجاتها إلى بر الأمان نوعا من المجازفة والرهان الذي لا يعضده برهان واضح للعيان يبرر ويقرب معنى ((مقومات البقاء)) في العنوان ! ؟

والعبارة الثانية هي ((الأعداء)) التي تتطلب هي الأخرى كذلك توضيحا للقراء، لمساعدتهم على الأدراك والفهم لمطابقة العنوان على المقال في المكان والزمان . .

فالأعداء المقصودون هنا بالدرجة الأولى هم أولئك الذين يحملون اسم هذه اللغة وأسماءها، وينتسبون، دينيا في غالبيتهم، وحضاريا في مجموعهم إلى الإسلام رغما عنهم وباعتراف النزهاء والأصلاء منهم، ونخص هنا بالذكر (كمثال فقط) المفكر السوري (المسيحي سابقا) ميشال عفلق، الذي يقول : ((لا يوجد عربي غير مسلم ! فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولتنا وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . . . إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم . . . وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذا كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان مجردا من الأهواء، ومتجردا من المصالح الذاتية. . . ولئن كان عجبي شديدا للمسلم الذي لا يحب العربية، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام[4] .

ويؤكد ذلك مفكر مسيحي آخر من لبنان هو فكتور سحاب بقوله : ((إن النصراني لا يمكنه أن يكون عربيا إذا لم ينتم إلى حضارة الإسلام . فكيف يكون عربيا ذلك النصراني الذي لا يتكلم لغة القرآن، ولا يطرب للموسيقى العربية المتحدرة من التجويد القرآني، ولا يهتز قلبه للشعر العربي . . . إن النصراني العربي ابن الحضارة الإسلامية وليس أجنبيا عن التراث الإسلامي ... فنحن أبناء حضارة واحدة وهى حضارة متفتحة، بل لعلها أكثر

الحضارات انفتاحا على التأثرات الخارجية في العالم . . .))[5] . وهو ما يدعم مقولة الزعيم المصري المعروف (مكرم عبيد)، القائل: ((أنا مسيحي الديانة مسلم الوطن)).

ومع ذلك فإننا نجد أن من أعدى الناس في العالم للغتهم القومية هم العرب (مسلمون وغير مسلمين) ، وبصفة خاصة هم الحكام العرب (من حيث يريدون ويشعرون أو لا يريدون ولا يشعرون) باستثناء واحد منهم حسب علمنا إلى حد الأن مما جعل اللغة العربة تعاني من الإهانة والحرب من أعدائها الأجانب مثلما تعاني من بعض أبنائها الأقارب المتمثلين في هؤلاء الحكام المنتحلين ((للشخصية)) الذين يحملون أسماءها ولا يمثلون شرفها وقدرها، ولا يدافعون عن عنتها وكرامتها كما يفعل كل الحكام الحقيقيين للغاتهم الوطنية والقومية في العالمين!!

ذلك أن عداء الأجانب لهذه اللغة أمر طبيعي، ولا يتوقع غيره منهم، أما العداوة من هؤلاء الحكام الضرار فهم الذين حق عليهم القول ووجب التنبيه هنا إلى أن عبارة ((الأعداء)) في العنوان لها مدلول مزدوج، حيث تعني هؤلاء الغرماء الأغراب، كما تعني في الوقت ذاته أولئك العرب والأعراب بالأسماء والألقاب، الذين يعدون أنفسهم مستقلين وحكام دول ذات سيادة، وسياسة، وعضوية في منظمة الأمم المتحدة، وجامعة تحمل أسماء دولهم واسم لغتهم على الورق، لأن مبدأ السيادة الحضارية والقومية مفقودة، أو منقوصة على الأقل في الوطن العربي الذي هو في وضع يشن بشكل عجيب ومريب عن وضع كل بلدان العالم، من أصغر دولة إلى أكبر إمبراطورية، ومن أضعف لغة وأقلها استعمالا إلى أقوى لغة وأوسعها انتشارا على الكرة الأرضية . . . فوضع اللغة العربة لا مثيل له بين الأثنين، مقارنة بما تتوفر عليه هذه اللغة الفريدة من نوعها، التي لها من الخصائص الذاتية والموضوعية والتاريخية والحضارية والجغرافية والثقافية والدينية ...ما لا تضارعها فيه أية لغة أخرى في الوجود على الأطلاق، بشهادة بعض العلماء النزهاء من الأجانب والأبناء على حد سواء، وسنورد العديد من الأمثلة على ذلك في سياقه من هذه الدراسة.

وهذا هو مبرر وجود العبارة الثالثة في العنوان، الا وهي ((مقومات البقاء)) ، لان العربية في ذلك كله تمثل غاية ووسيلة في الحين ذاته للعرب جميعا، حكاما ومحكومين، بوصفها عنوان السيادة ومرآة السياسة، وصلة وصل، ووسيلة نقل للمنجزات الحضارية البشرية والقومية لأبناء الأمة الناطقة بها ، (سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين)، كما سبقت الإشارة . . . وتزيد عن ذلك كله، بل وتختص به، أنها الوسيلة المثلى والفضلى التي لا غنى عنها لنقل خطاب السماء ومنهجه الكامل والشامل، النهائي والخاتم إلى أهل الأرض، ومن ثم فلا بد لهذه العبادة من منهج تكليف، ولا بد لهذا البيان من لسان وأداة تعريف

((**الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان**)) (الرحمن/ 1، 4)، و((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم / 4) . وسنعود إلى تفصيل الحديث حول هذا الموضوع في سياقه لاحقا.

وبعد هذا المدخل الضروري لوصف بعض ما هو كائن، قصد تلمس معالم الطريق، والتشخيص الدقيق، لما سيكون عليه وضع اللغة العربية في المستقبل، حسب رهانات المراهنين من كلا الطرفين..

ونبدأ بتلك الأطروحات والمراهنات، التي يرددها أعداء اللغة العربية، والتي مفادها أن اللغات كالكائنات الحية: تولد وتشب وتكتهل، وتشيخ وتموت لترثها لغات أخرى تولد بحكم الظروف المستجدة، ودوران عجلة التاريخ التي لا ترجع إلى الوراء حسب اعتقادهم الذي بنوا عليه رهانهم، والأمثلة التي ينكرونها على هذه اللغات التي عاشت وأنجبت ثم ماتت كثيرة في التاريخ القديم والحديث، ويضعون اللغة العربية في مقدمة هذه اللغات السائرة في طريق الانقراض والزوال، لتحل محلها اللهجات العامية العربية والبربرية المصطنعة في بعض المخابر الأجنبية، على غرار ما وقع للغة اللاتينية في أوروبا والعديد من اللغات السامية العروبية القديمة، التي أصبح يطلق عليها اسم ((اللغات السامية)) منذ قرنين لأسباب تدخل هي ذاتها في إطار ((مناورات الأعداء)) .

وللرد على هذه الأطروحة الرهانية ابتداء نقول: إنه كما وجدت العوامل التاريخية التي أدت في الأصل إلى تضع اللغات . . . توجد عوامل أخرى (ظهرت بشكل أقوى في عصرنا الحاضر) تساعد على التوحيد اللغوي، وتؤدي إلى ظهور اللغات العامة من جديد . . وهذه العوامل تختلف من مجتمع إلى آخر بحسب الظروف، وقد تكون سياسية أو اقتصادية أو قومية أو أدبية أو دينية، وسنحاول أن نوجز أهم هذه العوامل دون أن يعني ذلك أن جميعها يجب أن يتوفر في أية لغة كي تنتشر وتصبح عامة وبالتالي تبتلع اللغات الضعيفة التي تعترض طريقها. .

العامل الأول:

الاتصال والاختلاط بين أقوام مختلفي اللغات أو اللهجات، فيحدث تبادل تأثير بين الأطراف وتكون الغلبة للغة القوية، فتبتلع اللغة الضعيفة، أو يحدث أن تتعادل اللغتان في القوة فينتج احتكاكهما الطويل والمتواصل ظهور لغة جديدة مركبة من خليط من اللغتين... مثل اللهجة العامية لسكان المدن الساحلية الجزائرية، حيث وقع الاحتكاك الطويل بين اللغة الإسبانية والفرنسية واللغة العربية فتولدت جراء ذلك لهجة مزيجة بالألفاظ الدخيلة مزجا غريبا!!

ولو تطاوع الدولة الجزائرية في الوقت الحاضر دعاة تفصيح العامية الجزائرية لتصبح لغة كتابة وقراءة لوجد العرب أنفسهم أمام لغة أقرب إلى المالطية والإسبانية والفرنسية منها إلى اللغة العربية الفصحى !

العامل الثاني:

انتشار عقيدة دينية معينة، وما تحمله هذه العقيدة من لغة تنتشر بكيفية تلقائية في أوساط المؤمنين بتعاليم الدين الجديد ويختلف انتشارها قوة وضعفا وسرعة وبطئا، باختلاف المقاومة التي تبديها اللغة المحلية في وجه اللغة الدينية الجديدة، وأبرز مثال لهذه الحالة: انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام، واحتواؤها للغات المحلية في الأقطار العربية الحالية. . . إلى أن أصبحت اللغة العربية لسان أكثر من ثلاثمئة مليون عربي في الوقت الحاضر، ضمن أكثر من مليار ونصف المليار من المسلمين الذين يتعاملون بالعربية بكيفيات متفاوتة بعد أن كانت هذه اللغة خامدة في شبه الجزيرة العربية لعدة قرون قبل ظهور الإسلام الذي نشرها وقواها وحافظ عليها، مثلما نزلت في كتابه بألفاظها وقواعدها من اللوح المحفوظ! !

العامل الثالث :

الهيمنة السياسية، وما تفرضه من لغة مشتركة بحد السيف، على كل من يقع تحت سلطانها، والأمثلة الحية في عالمنا المعاصر تتمثل في محاولة الاحتلال الفرنسي الصليبي فرنسة بعض أقطار المغرب العربي. . . وما جرى في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا من فرض للغة الروسية المشتركة على جميع الألسن . . . وما تم في الولايات المتحدة الأمريكية من نشر للغة الانجليزية في الولايات التي دخلت في الاتحاد بمقتضى الدستور الأمريكي الذي تبنى هذه اللغة بدل الألمانية نتيجة استفتاء حول هذا الموضوع (...)

العامل الرابع:

الآداب والفنون، من سينما ومسرح، ووسائل الأعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة مكتوبة . فكل هذه الوسائل توحد اللغة لدى أفراد المجتمع وتعمل من أجل القضاء على الفوارق الموجودة في اللهجات المحلية لتوحدها في لهجة واحدة أو لغة واحدة، ولقد ساعد على ذلك في عصرا الحاضر ظهور المدن الكبيرة التي تضم الملايين من البشر الذين تؤدي معيشتهم الجماعية إلى تكوين لغة مشتركة تؤثر عموما في لهجات النواحي الأخرى من البلاد على اعتبار أن الحواضر ظلت دائما مراكز جنب للسكان، من أقاليم متباعدة في الأرياف (كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون) فضلا عمن يؤمها مؤقتا من سكان الضواحي لقضاء مصالحهم. . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض، وعن اختلاطهم بالسكان المستقرين .. أن تصقل لغة الجميع وأن ينتهي الأ مر إلى تكوين لغة عامة، كما قد تتغير اللهجات جراء التجمع السكاني الذي يجعل هذه اللهجات تنصهر لتعطي لغة عامة توافق كل السكان في المدينة الواحدة، ثم تتعدى بدورها إلى سكان البلاد كلها، وفي هذا المعنى

يقول ستيوارت ضود : ((نعرف جيدا أن الشعب الذي ينطق بلغة واحدة، إذا ما فصلته حواجز كالبحار والصحاري، وسلاسل الجبال أو غيرها، واستمر هذا الفصل قرونا تنقسم لغته إلى لهجات مختلفة، قد تكون كتابتهم

واحدة، ولكن التلفظ يكون مختلفا، بيد أن هذه اللهجات قد تمتزج، وتكون لغة واحدة مرة ثانية إذا ما تم الاتصال بين الأقطار التي تسود فيها، وبالفعل، فإننا نجد اليوم أن لهجات إنجلترا آخذة في الزوال كما أن الراديو يعد قوة جديدة وفعالة في توحيد اللهجات، والخلاصة أنه كلما ازداد الاتصال بين أجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة، كالسفر والراديو والسينما والتلفزيون والأنترنت توقعنا أن تزول اللهجات، وتتوحد اللغات تدريجيا))[6] ونجد لكلام هذا العالم اللغوي عن عوامل التوحد اللغوي سندا قويا من تاريخ اللغات قديما وحديثا، ومن ذلك ـــ مثلاـــانتشار اللهجة المصرية (نتيجة الأفلام والمسلسلات التلفزيونية) في معظم أقطار الوطن العربي في الوقت الحاضر.

فاللغة الإغريقية :

كانت في الأساس: هي اللهجة الأتيكية التي ظلت حتى القرن الخامس الميلادي لغة محلية للإقليم منعزل، ثم تطورت بعد قيام الإمبراطورية المقدونية لتطغى على باقي اللهجات المحلية، وتصبح أداة التفكير واللغة المشتركة لجميع الإغريقيين الذين كانوا قبل توحدهم يتكلمون لهجات مختلفة. . .

اللغة الفرنسية:

اللغة الحالية هي في الأصل تطوير للهجة (الأيل دي فرانس) ويعود هذا التطوير إلى أهمية العاصمة ((الباريسية)) السياسية والاقتصادية والحضارية (كما سنفصل بعد حين)

اللغة الإسبانية :

خرجت من اللهجة القشتالية التي أصبحت اللغة الأدبية في القرن الثالث عشر بفضل (الفونس العاشر) الذي كان يحتل بالنسبة الى إسبانيا مركز (دانتي) بالنسبة لإيطاليا، فضلا عن المركز السياسي والحضاري المؤثر الذي كانت تحتله قشتالة في ذلك الوقت.

اللغة الإنجليزية:

هي الأخرى ظهرت في لندن التي كانت ملتقى لمختلف اللهجات، وقد لعبت العاصمة دور الموحد لتلك اللهجات لتصبح لغة واحدة في العصر الحاضر، باستثناء منطقة ويلز التي ما تزال لغتها متداولة محليا .

اللغة الألمانية:

هي عبارة عن توحد لعدد كبير من اللهجات المحلية التي أخذت تزول شيئا فشيئا مع انتشار اللغة الألمانية المشتركة، ويعود الفضل الكبير في ذلك للمصلح (مارتن لوثر) الذي دعا الى هذا التوحيد وساعد على تحقيقه بترجمة الأناجيل الى اللغة الألمانية [7].

اللغة الروسية :

هي تطور توحيدي للهجات السلافية الجنوبية وقد تم هذا التوحد بشكله الأكمل في عهد بطرس الأكبر الذي فعل ما يشبه عمل (مارتن لوثر) بالنسبة للغة الألمانية [8].

فبهذه الأمثلة التاريخية الحية والشواهد الدقيقة يتبين لنا أن اللغات لا تسير نحو الانقسام في حتمية مطلقة، وإنما تتجه أيضا نحو التوحد إذا توفرت لها أسباب وظروف خاصة، ونعتقد أن هذه الظروف والإمكانيات المساعدة على التوحد هي في عصرنا الحاضر أوفر منه في العصور الماضية، مما يبعث على الارتياح، بأن توحد اللهجات العربية في اللغة المشتركة الواحدة هو أقرب إلى التحقق من استقلالها عن الفصحى لتصبح لغات عامة قائمة بذاتها، كما يذهب المعارضون والمخططون لهذا الهدف الاستعماري الجديد في البلاد العربية مشرقا ومغربا كما هو و اقع! !

لا شك أن القول بحتمية تفرع اللغة العربية الفصحى إلى لغات مستقلة بذاتها على غرار اللغات الأوربية المتفرعة عن اللاتينية ... هو كلام بقدر ما يستند إلى حجج تاريخية اقتنع بها بعض مرددي الصدى الغربي. . . وأصبحوا يبشرون بها كمسلمات قطعية في العالم العربي، بقدر ما هو ادعاء مغرض وتخمين باطل، ولا أدل على ارتباط هذه الدعوة بالاستعمار القديم المتجدد من أن أول من أوحى بها إلى هؤلاء المرددين و((المناولين)) العرب هم المستشرقون الإنجليز والألمان والفرنسيون الذين قسموا العربية إلى (لغة حية) و(لغة ميتة) واللغة العربية الحية —في زعمهم— هي (اللهجة العامية) في كل بلد عربي، وأما اللغة العربية الميتة فهي (اللغة الفصحى المشتركة) وأخذوا ينشطون في القيام بالأبحاث ((العلمية!)) المختلفة في المجال اللغوي ليوهموا العرب أنهم لن يتقدموا الا إذا تبنوا تلك اللهجات كلغات للتعليم والادارة بعد تطويرها وتقعيدها (أي اصطناع قواعد لها) ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه الإنجليز في مصر في أواخر القرن التاسع عشر من إنشاء مجلة تسمى (الأزهر) كانت تحرر كل موضوعاتها ((العلمية)) باللهجة العامية المصرية من طرف دهاقنة المستشرقين، وقد فشلت التجربة فشلا ذريعا حيث توقفت المجلة عن الصدور بعد أن لم تجد من يقرأها، فضلا عمن يشتريها !

ونورد هنا ثلاثة ردود على هذه الأطروحة المغالطة، ونبدأ بالكاتب النصراني العربي الأصيل الأستاذ جرجي زيدان، الذي يجيب دعاة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، واستبدال اللهجات العامية باللغة العربية العدنانية، فيكشف خفايا شيخ ((المغول)) الجدد الإنجليزي الصليبي (وليام ولكوكس) ، ويفضح نواياه بالرد عليه قائلا: ((قرأنا لجناب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها في نادي الأزبكية ونشرتها جريدة الأزهر الغراء في عددها الأخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك الخطبة ((لمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الأن)) وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الأسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على نكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى أجداها. وليس من غرضنا الخوض في شيء من تلك الخطبة الا فيما يتعلق باللغة العربية.

فقد قال حضرته أن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى، وذكر منها بنوع خاص الأمة الإنجليزية وقال أنها استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة .

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الإنجليزية لا يصدق على لغتنا العربية لأسباب كثيرة نذكر منها :

أولا : إن الإنكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الإنكليزية قد استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحالة في اللغة العربية . فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة المتكلم عندنا ليس بالشيء الكبير، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة.

ثانيا : إن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية إذا أنقذنا من شر، فإنه يوقعنا في شر أعظم منه لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع، والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية وكذلك بين لغة أحد هذين البرين ولغة المغرب والحجاز أو غيرها من البلاد العربية، ولا يخفى ما بين هذه الأقطار العربية من العلائق الأدبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلا نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لما استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية وإذا لم نخسر لذلك الا الجماعة العربية فكفى بها خسارة ! !

ثالثا : إن اللغة في كل أين وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطا، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولاسيما العربية، لأنها أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله. فإذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما أرتأى حضرة الخطيب(...) فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب، ومن أين تأتي بالألفاظ التي نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها(...) فإذا قال أننا ندخل إليها تلك الاصطلاحات نقول إن الاصطلاحات المشار إليها ليست بالشيء القليل، وإنما هي قسم عظيم من اللغة الفصحى، كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية العالية المكتوبة بالإنكليزية الأن، لا يستطيع عامة الإنكليز فهمها ولو مهما بولغ في إيضاحها وبسطها، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجابا لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فأسدلته!!

رابعا : إن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذ لولا القرن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا، لتشتت شمل الشعب العربي وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلا عن الأخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلما، كما حصل بالأمم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد

أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الأمة الأخرى مثال ذلك فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها والفضل الأكبر في حفظ الجامعة العربية الى الأن هو القرن الشريف، والمحافظة عليها من أهلها .

خامسا : إن إغفال اللغة الفصحى استوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمئة سنة وهي خسارة لا تعوض)) [9]. .

ويضيف الكاتب قوله: ((يتضح مما تقدم أن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأي إغفاله أولى بنا ليس فقط لكونه عقيما، بل لا نه مضر باللغة والناطقين بها علميا ودينيا، وأدبيا[10]

وفي السياق ذاته من كشف لأعداء ونوايا الخصوم الحضاريين المراهنين على زوال جوهر هوية الأمة ولسان دينها المبين وإحباط كيد الرهان على زوالها بالحجة والبرهان، يقول إبراهيم اليازجي ردا على ((مراهن)) آخر هو المستر ولمور المخطط الإنكليزي الكبير، قبل مؤامرة ((سايكس بيكو)) ووعد بلفور الشهير والخطير حيث يقول :

((نشر بعضهم من سنوات رسائل متتابعة يدعو فيها علماء العربية وكتابها إلى استبدال اللغة العامية من الفصحى واعتمادها في الكتب والجرائد وغيرها، ورسم لها حروفا جديدة تكتب بها هي الحروف اللاتينية ،وقد وضع لبعضها علامات خاصة للدلالة على المقاطع التي لا صور لها في اللغات الأنفرنجية . وقد انتهى إلينا بعض ما نشره من تلك الرسائل، وفيه أمثلة من حكايات وغيرها باللغة العامية المصرية كتبها بالحروف المذكورة فكانت نوعا من الكرشوني * . الا أنه متفرنج كأكثر أهل الشرق في هذه الأيام، وإذا قرئت جاء لفظها أشبه بلفظ رجل إفرنجي يتعلم العربية، ولاسيما في أمر الحركات التي عبر عنها بأحرف المد، فإذا نطق بها العربي توهم سامعه أنه يقلد كلام أحد الأفرنج المقيمين في هذه الديار))[11] .

ويضيف قوله: ((ولا يخفى أن الحجة الكبرى في ذلك كله هو الفرق الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى حتى صارتا في نظر الأجنبي كأنهما لغتان متباينتان، بحيث يتعذر على العامي فهم اللغة المكتوبة. ولكن ذلك وهم دسه على أولئك القوم الجهل بلغة البلاد، لا نهم لو كانوا يعرفون العربية كما يعرفها أهلها لعلموا أن معظم الفرق بين اللغتين مقصور في الغالب على إهمال علامات الأعراب من لسان العامي بحيث أصبح مسموع اللفظين متباينا على الجملة . إلا أن هذا إنما تتنكر به اللغة في سماع الأجنبي لا في سماع أهلها، ألا ترى أن العامي منا لو سمع قائلا يقول رأيت زيدا، وجاء الرجلان، والمؤمنون يذهبون، لم يلتبس عليه لفظ زيد بسبب ما اتصل به من التنوين ولم يجد فرقا بين الرجلان والرجلين ولا بين المؤمنون والمؤمنين وينهبون وينهبوا، وإنما هذا كله مما يشكل على الأجنبي الذي لم يتعلم الا اللغة العامية . ومن أعظم الشواهد على ذلك أن العامة منا يقرأون ويسمعون الجرائد وكتب الروايات والأقاصيص الحديثة والقديمة من مثل سيرة بنى هلال وعنترة وأحاديث ألف ليلة وليلة، وغيرها ويفهمونها ويروونها مع أن جميعها مكتوبة باللغة الفصيحة))[12] .

ونختم هذا الموضوع برد قاطع للدكتور طه حسين (وهو عميد الأدب العربي المتقن لعدة لغات أجنبية غربية، ورئيس مجمع اللغة العربية) ، يقول فيه: ((أحب أن ألفت نطر أدباءنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية، إلى شيء خطر ما أرى أنهم قد فكروا فأحسنوا التفكير فيه، وهو أن العالم العربي الأن وكثير من أهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه، والتواصل الصحيح، فيمعن كل قطر في لهجته، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون من ترجمة للكتب المصرية إلى لهجاتهم كما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين، ونسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خيرا أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تتألف منها وأن يترجم بعض العرب لبعضهم كما يترجم بعض الأوربيين عن بعضهم .. . أما أنا فأوثر وحدة اللغة، وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر، ورأيي غير متردد، أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون))[13].

وكمثال على توحد اللهجات العامية المختلفة في لغة فصحى واحدة نأخذ تاريخ اللغة الفرنسية ذاتها، حيث تقسم اللهجات الرومانية التي كانت متداولة شعبيا في المجتمع الفرنسي في عهد السيادة الرسمية للغة اللاتينية في فرنسا (قبل أن تصبح لفرنسا الحالية لغة قومية مشتركة) تقسم هذه اللهجات إلى قسمين رئيسيين هما :

اللهجات الشمالية، واللهجات الجنوبية، ويطلق على المجموعة الأولى اسم (لهجات الأويل) ويطلق على المجموعة الثانية اسم (لهجات الأوك) واللغة الفرنسية الحالية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأويل) الشمالية، والبروفانسية الجنوبية، تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأوك) الجنوبية .

فاللهجة العامية التي انحدرت منها اللغة الفرنسية الحالية كانت بادئ الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تمثل ضواحي العاصمة الفرنسية في الوقت الحاضر، (والتي تعرف باسم جزيرة فرنسا) (Ile de france) وقد تطورت وانتشرت فيما بعد نتيجة عوامل عديدة (تدخل في إطار ما ذكرناه قبل حين من عوامل التوحد) . ومن جملة هذه الأسباب والعوامل أن المنطقة المذكورة كانت مهدا للأسرة التي أسست المملكة الفرنسية، ولذلك اكتسبت لهجاتها مكانة سياسية خاصة مكنتها من التغلب شيئا فشيئا على اللهجات الأخرى تبعا لتوسع نطاق حكم الأسرة المذكورة.

فكلما دخلت مقاطعة من المقاطعات تحت حكم المملكة الفرنسية كانت تدخل في الوقت ذاته تحت تأثير اللغة الفرنسية، وكانت بهذه الكيفية تتغلب على اللهجات المحلية أولا في المدن ثم باقي المناطق الريفية تدريجيا . .

إلا أن ما يجدر ذكره هنا على الخصوص هو أن تلك اللهجات الفرنسية المختلفة لم تنقرض نهائيا من الواقع الفرنسي نتيجة الحركة الفكرية والأدبية المذكورة .. . بل ظلت مخلفاتها محصورة في بعض المناطق الريفية إلى اليوم،

وذلك ما استدعى اهتمام رجال الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لإيجاد الحلول الجذرية لها، صيانة لوحدة الأمة الفرنسية السياسية والثقافية، والاجتماعية(...)

غير أن اللهجات لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها بقرارات تتخذها الحكومة، أو بيانات تصدرها المجالس التمثيلية، بل أن زوال اللهجات يتطلب عملا متواصلا وتخطيطا دقيقا محكما ينفذ بصرامة وقد يستمر عدة أجيال بحسب الظروف والإمكانات، ولذلك دعا مجلس الثورة الفرنسية جميع المواطنين الى الاهتمام بهذا الأمر، أي الاعتناء باللغة القومية المشتركة والتخلي عن اللهجات المحلية الضيقة . .))[14] .

وهكذا أخذت الثورة تستحث الشعب، ومختلف الدوائر الحكومية والتعليمية، والهيئات العلمية على بذل الجهود المكثفة والجادة، لنشر اللغة الفرنسية الفصيحة وتحقيق الفرنسة الكاملة لأبناء الأمة الفرنسية، وفي هذا المعنى يقول الباحث العربي الأستاذ ساطع الحصري : ((عندما أقرت الثورة الفرنسية (مبدأ التعليم الإلزامي العام) رأى رجال الفكر أن تكون مكافحة اللهجات المحلية والعامية من جملة الأهداف التي يرمي اليها التعليم بوجه عام))[15].

والآن فكيف يراهن هؤلاء المخططون المعاصرون على أن تاريخ انقسام اللغة اللاتينية واندثارها سيعيد نفسه مع اللغة العربية على الرغم من اختلاف المكان والزمان، والأهم من ذلك كله هو اختلاف اللغتين في مقوماتهما الجوهرية . . فما هي هذه الاختلافات الجوهرية التي تميز اللغة العربية عن اللغة اللاتينية المشبهة بها والمقارنة معها من طرف بعض من ذكرنا، ومن لم نذكر من الأعداء العارفين والجاهلين والواهمين ...؟

الاختلاف الأول:

من المؤكد تاريخيا أن اللغة العربية لم تتعرض —بعد استقرارها في الوطن العربي الحالي— إلى غزوات أقوام غير عرب، فالغزوات التي تعرضت لها فرنسا —مثلا— جراء انسياح القبائل الجرمانية عليها، فاستيطانها استيطانا كاملا، حمل معه كل تناقضاته اللغوية ليؤثر في اللهجات المحلية المتفرعة عن اللاتينية، والتي أدت بها إلى تعميق هوة الاختلاف بينها وبين اللغة الفصحى الأم.

ولئن تعرضت البلاد العربية في بعض الفترات إلى الوقوع تحت حكم بعض الأسر الإسلامية غير الناطقة بالعربية، فإن هذه الأسر كانت تتعرب وتذوب في المجتمع المحلي، باستثناء الأتراك الذين قاوموا في أواخر عهدهم عملية التمثل داخل المجتمع المحلي، ولكن لم يتمكنوا من القضاء على اللغة العربية لأنها كانت لغة العقيدة التي كانوا يحكمون باسمها، كما أن بني عثمان على الرغم من عدم تعريبهم لبقاء عاصمة حكمهم خارج الوطن العربي، فقد تأثرت لغتهم باللغة الفصحى، أكثر مما أثرت لغتهم في لهجاتها المحلية[16] .

ولعل فشل الأتراك في احتواء اللغة العربية هو الذي جعل أمير الشعراء أحمد شوقي ينصحهم مثل جمال الدين الأفغاني قبل ذلك، بتعلم اللغة العربية واتخاذها لغة قومية لهم لتتم اللحمة بينهم وبيننا كأمة واحدة، ويكتمل انسجام الوضع القائم الذي ظل مختلا بسبب الاختلاف اللغوي[17] ، فقال شوقي سنة 1901 ذلك في بيتين معبرين:

شمل اللغات في الأقوام ملتئم   والضاد فيها بشمل غير ملتئم

فقربوا بيننا فيها وبينكم   فإنها أوثق الأسباب والذمم

والحقيقة أن شوقي لم يكن خياليا في دعوته الأتراك إلى أن يتعلموا اللغة العربية.. فقد كانوا في عهدهم الأول يتعلمونها ويتكلمون بها، ويضعون مؤلفات فيها مثل الفيروزابادي، وأبي السعود، وملاخسرو، والجامي، وحجي خليفة، وابن كمال باشا، فضلا عن التأثر الكبير للغة التركية باللغة العربية في الحروف ذاتها وفي العديد من المجالات العلمية والدينية والحضارية لعدة قرون، حتى إلغاء الخلافة في العشرينيات من القرن الماضي، لأسباب لا تخرج في حقيقتها عن مخططات الأعداء للقضاء على وجود الأمة في ذاتها، فضلا عن وحدة خلافتها ولغتها!!.

الاختلاف الثاني:

إن الإسلام ظل متلازما مع العربية تلازما كليا طوال تاريخه المديد في الوطن العربي ولم يتخل عنها كما لم تتخل هي عنه إلى اللهجات العامية، مثلما فعلت المسيحية (بمختلف كنائسها) مع اللاتينية في البلاد الأوربية، كما أشرنا آنفا .

فالإسلام لم يعهد بمهمة تلاوة القران الكريم إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم (كما فعلت المسيحية في العالم الروماني) بل فرض حفظ القرآن وسماعه وتلاوته بلغته المنزلة على كل مسلم ومسلمة، (كما سنفصل ذلك بعد حين) .

وحتى في الصلوات الجماعية ـــ كما هو معلوم ـــ يتعين على المسلمين أن ينصتوا إلى ما يتلوه الأمام جهرا، ثم يقرأون في سرهم في الركعات التي لا تتطلب الجهر. . ولقد أدت هذه الواجبات التعبدية الجوهرية في الإسلام إلى إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن، وقد ظلت هذه المدارس والكتاتيب قائمة ولم تزده حتى في أحلك فترات السيطرة الاستعمارية الصليبية على أقطار الوطن العربي وخاصة الجزائر[18]. وكان من نتيجة ذلك كله أن أدى بكيفية مباشرة إلى عدم انقطاع المسلمين عامة والعرب منهم على وجه الخصوص عن اللغة العربية،

بل ظل ينفرهم بها ويشدهم إليها شدا مقدسا . . وذلك مالا نجده أبدا في اللغة اللاتينية بالنسبة للمجتمع المسيحي. ولا أدل على ذلك من أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية قد تخلت عن اللاتينية إلى اللغة العربية الفصحى، حيث أصبحت الكنائس الشرقية منذ قرون عديدة تعتمد اللغة العربية في الصلوات والمواعظ، كما اعتمدت ترجمة الأناجيل إلى اللغة العربية الفصحى بعد تخلصها من ربقة اليونانية، ولهذه الأسباب كلها ظل اتصال العرب بلغتهم الفصحى اتصالا قويا لم يترك مجالا لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعدا شبيها بذلك الذي حصل للغة اللاتينية مع ربيباتها الأوروبيات . . وظلت الفروق بين الفصحى واللهجات العامية ضعيفة، لا تتعدى الفروق القائمة بين اللهجات بعضها عن بعض لدى العرب المتعلمين، وحتى العرب غير المتعلمين الذين لا يتكلمون الفصحى،

يجدون سهولة في فهم الفصحى أكثر مما يجدونها في فهم اللهجات العامية الأخرى(! ؟) وإذا علمنا أن اللغة العربية الفصحى في الوقت الحاضر في طور النهوض والانتشار والازدهار

وهي تغزو اللهجات العامية أكثر مما تتأثر بها، (رغم ما قد يبدو للبعض من واقع بعض ما تبثه الفضائيات العربية المقاولة لحساب رهان الأعداء) نتأكد أن اللغة العربية تسير في طريق التوحد وليس في طريق الإندثار كما حصل للاتينية، بدليل أن اللهجات العامية العربية إن انتشرت، فلا تخرج عن نطاق بعض دول الجامعة العربية!

وهذا ما نلاحظه لدى كل المسلمين الذين يتحدثون اللغة العربية في العالم (من غير العرب)، فهم لا يعرفون إلا الفصحى، ونحن العرب نضطر أن نتحدث معهم بالفصحى وحدها، وهم الأكثرية بالنسبة لأقطار الجامعة العربية الذين لا يزيد عددهم في الوقت الحاضر عن خمس المسلمين في العالم!! خاصة وأن ذلك يتم بدون تخطيط ينكر من الدول العربية لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة فعالة (على غرار ما فعل قادة فرنسا بعد الثورة كما أسلفنا).

فاللغة الفصحى الأن هي لغة القراءة والكتابة والتعليم في المدارس والمعاهد العربية التي تعد بالألاف، يؤمها طلبة عرب ومسلمون يعدون بالملايين، فضلا عن المدارس والمعاهد التي تؤسس كل يوم في البلدان الإسلامية شرقا وغربا . . إلى جانب الصحافة المنطوقة والمكتوبة التي توزع الملايين من النسخ يوميا باللغة الفصحى في كل الأقطار العربية، يقرأها ملايين العرب، وغير العرب في عصر الأقمار الاصطناعية المتطورة ٠ك (عربسات والنيل وغيرهما..) وحوالى 450 قناة فضائية عربية أخرى (حتى الأن) وصوت العرب، وصوت الوطن العربي، وأجهزة الحاسوب العجيبة بحروفها العربية البديعة، التي حلت مشكل صعوبة الكتابة العربية، وكذلك الشبكة العنكبوتية، وغيرها مما سيبعث على التوحيد الحتمي للغة العربية في الألسن الناطقة بها، عبر كل قارات العالم على امتداد سماع الأنان، ولسان القران(...)

كما نجد أيضا في معظم الدول العربية (المستقلة) وزارات خاصة بالثقافة والأعلام والتعليم والتربية.. تعمل في مجموعها من أجل تحقيق نهضة اللغة العربية الفصحى.. وإرجاعها إلى سابق عهدها قوة وانتشارا، وخاصة بعد

انتشار هذه الفضائيات العجيبة التي قربت الشعوب العربية (أميين ومثقفين) بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وهي لصالح اللغة العربية بكل المقاييس، وليست لصالح العاميات بأي حال من الأحوال، بدليل أن كل الفضائيات التي أسستها الدول الاستعمارية الكبرى المناوئة للإسلام والعربية، كأمريكا (قناة الحرة)، إنكلترا (قناة بي بي سي)، فرنا (قناة 24)، ألمانيا (قناة أوتشيفيلي)، إيطاليا (قناة الحياة)، فضلا عن قناة (أحبار أروبا) و(روسيا اليوم) وحتى شبكة بهند أصبحت عندها ترجمة عربية لبرامجها؟!.

وأخيرا يمكن القول، وبدون أية مبالغة إن اللغة العربية في طور النهوض التلقائي، وهي إذا لم تفقد نفسها في أحلك ظروف الاستعمار والانحطاط التي مرت بها خلال القرون المتتالية الماضية، فلا يمكن أن تزول بعد أن أصبحت هي اللغة الرسمية في أكثر من ثلاث وعشرين دولة عربية، ولغة معتبرة لدى العشرات من الدول الإسلامية.. وعلى رأسها باكستان وإيران اللتان جعلتاها اللغة الثانية، وأخينا انضمت إليهما تشاد، والبقية في الطريق حتما، كالسنغال ومعظم الدول الأفريقية الإسلامية (الأنجلوونية والفرنكفونية الحالية) .

ولقد شاهدت ذلك بنفسي هذه السنة (2008) في مكة المكرمة أثناء انعقاد المؤتمر العالمي الأول للحوار الإسلامي، حيث كان يتفاهم كل مسلمي العالم (الممثلين لمليار ونصف مليار من المؤمنين) باللغة العربية الفصحى وحدها، لأنها هي اللغة الوحيدة التي تجمع هؤلاء المسلمين، (كما تجمعهم القبلة الواحدة) على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم المحلية أو الرسمية والوطنية في كل القارات.

ونؤكد هنا أن اللغة العربية هي التي ستسود في كل الدول الإسلامية الأفريقية في المستقبل بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها بعد استقلالها الحقيقي عن السيطرة الأجنبية بالحرية والديمقراطية الحقيقية الغائبة والمغيبة عن إرادة الشعوب في الوقت الحاضر.

وهو ما يمثل أفضل رد على هؤلاء المراهنين من ((المقاولين)) العرب، وأسيادهم المستشرقين أن يراهنوا على زوال اللغة العربية لتدول دولة العاميات العربيات كلغات رسمية وتتقوقع الفصحى في المصاحف والمساجد، ثم المتاحف بعدها، مثلما وقع للاتينية قبلها؟؟

إن أية لغة مشتركة (والعربية هي كذلك بامتياز) ترجع في وجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة، أو إلى تأثر طبقة اجتماعية غالبة، أو إلى تفوق أحد الأداب . وهي مدينة في بقائها كلغة مشتركة أيضا إلى أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية . وهذه العوامل كلها متوفرة في اللغة العربية منذ ظهور الإسلام، مما جعلها ويبقيها اللغة المشتركة التي لا تتفكك ولا تتفتت الا إذا زالت العوامل التي أوجدتها أو تراخت العرى التي

كانت تمسكها، وهذا لم يحصل ولن يحصل للغة العربية الفصحى أبدا لارتباطها بأرواح الناس ما داموا أحياء متعلقين بالسماء! !

وفي ذلك يقول الباحث العربي الدكتور علي الغزيوي : ((حين نتحدث عن العربية الفصحى لا نقصد تبني الاتجاه القومي، ولا التركيز على الجنس العربي، بقدر ما نريد عربية اللسان، وهي اللغة التي سادت بين أبناء الأمة الإسلامية، أتقنها العرب الذين عرفوا بفصاحتهم، كما أتقنها الأعاجم الذين تعلموها وألفوا بها وخدموها، ولذلك فلا مجال هنا لأي عصبية عرقية أو جنسية أو قومية أو إقليمية، ولا ميزة للجنس العربي على غيره أبدا في هذا المقام، لأن الأمر ينصرف إلى اللسان العربي الذي اختاره الله عز وجل لقرآنه الكريم .

والواقع أنه يصعب حصر فضائل لغة القرآن الكريم أو تحديد مزاياها، لأنها كثيرة ومتنوعة، ولذلك سنقف عند مجموعة من النماذج التي تبرز فضائلها الكبرى،

ومنها أنها:

1— **لغة تعبد** : إن العربية الفصحى لغة تعبد، لا تجوز الصلاة بدونها، إذ لا تقبل صلاة بغير العربية، وهذا يجعل العبادة في حد ذاتها وثيقة الصلة بحياة الإنسان وواقعه اليومي المعيش، وليست طقوسا تؤدى في يوم معلوم، بطريقة محددة، في مكان خاص، بأي لغة ولو كانت لا علاقة لها بقضايا الناس وهمومهم وثقافتهم، كما هو الشأن بالنسبة للمسيحيين الذين يتعبدون باللاتينية التي تغلل معرفتها محصورة في فئات محدودة من الناس، ويضل النص المتعبد به بواسطة تلك اللغة جامدا لا علاقة تربطه بالمتعبد، لا من الناحية الروحية ولا من الناحية المادية أو الفكرية.

ودعاة التغريب يدركون هذه الحقيقة، ويعرفون مكانة العربية الفصحى من الإسلام، ويفهمون أبعاد هذا الارتباط العضوي، ولكنهم يستكثرون انعكاساته الإيجابية الكثيرة على نفوس المسلمين وهم يستعملون هذه الفصحى ويتعبدون بها في الوقت ذاته، ولذلك يسعون إلى إبعاد العربية الفصحى من صدارة اهتمامات أبناء الأمة .

2 — وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها:

إن العربية الفصحى وسيلة رئيسية لربط ماضي الأمة بحاضرها، عن طريقها تتمكن الأجيال المتعاقبة من فهم تراث أسلافها، وبها تستطيع أن تتواصل مع إنتاجهم وإنجازاتهم الحضارية، ماديا وفكريا، وبواسطتها تستوعب نظرياتهم، وتغوص في أسرار تاريخهم، وتصل إلى خلاصات مصنفاتهم، وتستوحي القيم الفكرية الإنسانية النبيلة التي بنوا عليها صرح الحضارة الإسلامية الشامخة المتميزة...))

ثم عن سيادة اللغة العربية وصمودها لعدة قرون بما تتميز به من مقومات ذاتية حباها بها خالقها تحضيرا لاستيعاب كلامه والوفاء بمعانيه السامية، بما يثبت أن العجز في الناطقين بها وليس فيها، يقول الدكتور لغزيوي: ((لقد سادت العربية الفصحى خلال عصور متوالية في مختلف البيئات الإسلامية سيادة مطلقة دون أن يرميها أحد بأي تهمة تقلل من شأنها بين اللغات، ولم يثبت أن اشتكى أحد من عيب أو قصور أو عجز فيها، بل كان التنويه كبيرا بإمكاناتها المتعددة، وخصائصها المميزة لها عن غيرها من اللغات بالنظر إلى مكوناتها وقابليتها للاشتقاق، وتعدد مجالات إغنائها، وقدرتها على استيعاب مختلف الحمولات والمعارف، فضلا عن جمالية إيقاعها وموسيقيتها المتميزة...

... والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها، مع أن القصور الذي ترمى به ليس راجعا إليها، بقدر ما هو كامن في أبنائها، ولا سيما والأجماع حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الاطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لاروس، أو معجم لالاند للوقوف على هذه الشهادات.))[19].

وما قيل في اللغة يقال في الخط العربي أيضا، حيث أنه من الغبن والعبث أن يحاول أحد أن يقنع الأقوام الناطقة بالضاد بأن تستعيض عن خطها العربي بالخط اللاتيني الأوروبي. فإن حرفا تكتب به العربية والفارسية والتركية والأردية وغيرها لحقيق أن تستعمله الحروف الناطقة بالضاد، ولا يستطع الأنسان اختراع حرف قادر على مجاراة التغيرات اللفظية الناتجة عن تفير الزمان والمحيط، وقد أثبتنا استحالة هذا التعيير في مكان آخر، لعدم قدرة الحروف اللاتينية وغيرها، على التعبير عن مخارج الحروف القرنية الحالية والأبدية، ما بقي مؤمن واحد يدين بالدين الخاتم والظاهر على الدين كله فوق الكرة الأرضية!!

وهذا ما يخلد هذه اللغة، كما قال المستشرق الأمريكي رتشارد كوتهيل: ((كان للعربية ماض مجيد، وفي مذهبي أنها سيكون لها مستقبل باهر، ولأرباب العلم في مصر وسوريا فضل في إبقاء نورها ساطعا، أما الأن وقد خولوا حرية لم تكن لهم من قبل وأزيح النير التركي الظالم عن رقابهم، ففي استطاعتهم اتباع الخطة التي رسموها لأنفسهم والطريقة

الوحيدة التي يجب استعمالها هي طريقة التهذيب، وليس من وسيلة لإشعال النور الذي سطع في الأيام الغابرة وجعل الشعوب الناطقة بالضاد خلقا صالحا لأسلافهم العظام أفضل من درس تاريخ الآباء وآداب الأجداد))[20] .

وقال المستشرق اليسوعى الأب لامنس : ((إني أثق بمستقبل حسن للغة العربية على شرط أن يتولى الحكم في البلاد العربية رجال ذوو نظر بعيد وأفكار واسعة ووطنية رحبة))[21] .

وهو ما يؤكده أيضا المستشرق الأمريكي وليم وارلي في جواب عن سؤال وجه له حول هذا الموضوع، فقال: ((أما سؤالكم عن مستقبل اللغة العربية، فالجواب عليه أن هذه اللغة لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي . ولا ريب أن الأحتكاك بالمدنية الغربية سيكون له شأن متزايد في تطور اللغة العربية.

أما عن سؤالكم حول بقاء اللغة العربية واحدة أو تحولها إلى عدة لغات، فالجواب عليه أن اللغة العربية الفصحى ليست حية في أفواه الشعوب العربية . ومع ذلك لو استطاع أحد أن يجعلها جميعا تتكلم بها، فإنه يأتي بذلك أمرا ليس له مثيل في تاريخ العا لم))[22] .

ويعضد ذلك الأستاذ محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق)

بقوله: ((فإن التركية في الماضي القريب كادت تقضي عليها (يقصد اللغة العربية)، في دمشق وبغداد، بل في مكة والمدينة، وها هي الأن تنشط من عقالها والنفوس ترغب في تحصيلها والمتعلمون يفاخرون بإتقانها، وستدرس بها جميع العلوم العالية، فتحسن دراستها وتزيد مرونة لقبول الأوضاع الجديدة لأنها لم تتعاص على ذلك، وهي في إبان بعثتها فكيف بها تتعاصى في هذا القرن وهي ترى العلوم تزيد والألفاظ والمسميات تكثر، ولعله لا يمضي قرن أو قران حتى تتوحد اللهجات العامية لأن الفصحى آخذة بالتغلب عليها))[23] .

وعن مستقبل اللغة العربية، على ضوء ماضيها الذي مرت فيه على مراحل كبرى، لم تزدها الأيام والمحن فيها الا قوة وصلابة، كما قال الأستاذ محمد كرد علي، يقول رتشارد كوتهيل أيضا : ((ومما لا ريب فيه أن الانقلابات الناجمة عن الحرب الكبرى سيكون لها شأن في تقريب البلاد العربية وأبنائها على اختلاف مللهم ونحلهم وتكوين ما نسميه نحن الأوروبيين (مدنية) ، وسوف يتيسر للمدنية الأوروبية إحداث تغيير شديد في اللسان العربي

على أن اللسان العربي والآداب العربية ستحتفظ بكيانها في المستقبل كما احتفظت به في الماضي. فهذه هي المرة الثالثة التي احتكت فيها بمدنية أخرى وعادت سالمة. ففي صدر الإسلام احتك الدين الجديد والنهضة الجديدة ودابها بحفارة العصر اليوناني اللاتيني الذابلة، واستفادت فائدة جليلة، الا أنها لم تغلب على أمرها، ولما اجتاز العرب بوغاز جبل طارق وحلوا بإسبانيا وجنوب فرنسا تم التلامس للمرة الثانية وذلك مع المدنية الغوتية، ولكن العرب لم

يقهروا بل تقهقروا إلى إفريقيا تاركين في إسبانيا أكثر مما أخذوا منها، فمن الواضح أن الينابيع التي استمدت الآداب العربية وحيها وإلهامها منها لم تكن ناضبة .

وفي مذهبي أن نتيجة الاحتكاك الثالث الذي نحن بصدده الأن ستكون مثل نتيجته في المرتين الأخريين مهما تكن التغييرات السياسية . فربما بسطت فرنسا حمايتها على سوريا وبريطانيا العظمى تولت المحافظة على مستقبل جنوبي ما بين النهرين، غير أنه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الإنجليزية محل اللغة العربية !

وإن شعبا له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية، ولغة مرنة لثنة ذات مادة تكاد لا تفنى، لا يخون ماضيه، ولا ينبذ إرثا اتصل إليه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده .)) [24] .

وعن قدرة اللغة العربية على التكيف مع مستجدات المستقبل، يقول مصطفى صادق الرافعي : ((إن تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية في هذه اللغة، لن يكون الأعلى السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرهم، ولا ضرر منه على اللغة العربية، فهي قوية متينة تحمل ذلك، وتستلحقه وتأتينا به مستعرا، وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءت بمثله من قبل . وما دام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا ضرورة من الضرورات، لان في كل تاريخ حي ممرا لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة وتنتهي منه في جهة[25]

ولكون اللغة العربية لغة مشتركة ولغة أمة، لتب لعلة وجودها وحافظ لسانها الخلود في الوجود[26]، فإنها تحافظ على بنور بقائها في ذاتها بما يضمن مستقبلها، كما يقول الدكتور بشير فارس: ((. . .غير أن أحوال الجماعة وذهنيتهم وأساليب نطقهم ما تنفك تتحول عن مواضعها على مر القرون، فتتحول اللغة معها جميعا، والسبب في ذلك التحول يرجع إلى عوامل كثيرة، منها لغوية فيدخل تحتها القياس، ومنها تاريخية فيندرج فيها علاقات الجماعات بعضهم ببعض بين فتح وجلاء ومتاجره، ومنها سياسية بين تقدم لهجة على اخواتها واتحاد الأمة أو تفرقها، ومنها حضرية بين انبساط مناهب العمران واتساع ألوان الترف وانتشار العلوم والصناعات ونشوء المدارس والصحف، فضلا عن الأسباب المقصورة على النطق وأجلها شأنا ميلنا إلى إرسال الكلام في أقل جهد باجتناب ما يثقل على اللسان)) [27] .

ومهما يكن من أمر فإن إيماننا لا يتزعزع بأن اللغة العربية ستبقى شامخة وعزيزة في قلوب أبناء هذه الأمة ما داموا وطنيين مسلمين، وستزداد انتشارا ورسوخا مع كتابها المقدس حتى ولو زالت بلادهم من الخريطة الجغرافية على غرار ما يفعل الروس في الشيشان اليوم، أو ما تفعله جورجيا بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، وعادت بلاد المغرب والمشرق بمخططات الأعداء (وتواطؤ الوكلاء والعملاء) مرة أخرى إلى الخريطة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، فإن لغة السماء ستظل باقية وخالدة بفضل مقومات النقاء والبقاء رغم كل مراهنات الأعداء!

ولا سيطرة للفرنسية والإنجليزية على اللغة العربية عالميا، لا ن رقعة انتشارها في العالم ليست محصورة —— فقط—— في هذه البلاد العربية المذكورة في عداد البلاد الفرنكفونية المقهورة (إداريا وسياسيا كما هو واح!)، وذلك لكون هذه اللغة موجودة قبل وجود هذه الدول وباقية بالتالي بها وبدونها، لارتباطها بكلام الله الخالد وبإرادته الحافظة وليست مرتبطة (لحسن تدبير الخالق القدير) بإرادة أي مخلوق على وجه الأرض، كما أنها لغة 350 مليون ناطق بها رسميا على الأ قل في العالم العربي وما ينيف عن المليار ونصف المليار من المسلمين عبر كافة قارات المعمورة، يتعبدون بها روحيا، ويقدسونها دينيا، ويحبونها كالصلاة ويتنوقونها كالشعر والحياة، من تومبكتو وكانوا ونجامينا ونواقشط وداكار... إلى طهران وإسطنبول وكابول وإسلام أباد وجاكرتا ولاهور وكوالألمبور... (كما ذكرنا في مثال مؤتمر مكة الأخير حول الحوار الإسلامي) .

وإذا نحن عرفنا الله وعبدناه بالإسلام((**إن الدين عند الله الإسلام**)) (آل عمران / 19) ((**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**)) (آل عمران – 85) فمن البديهي القول أن لا إسلام بدون قران ولا قران بدون اللغة العربية التي تمثل الوسيلة الأولى لفهمه وغاية لعبادته في الوقت ذاته. . . فلا فهم للإسلام بدون معرفة اللغة العربية و لا حتى الدخول فيه إلا باللغة العربية كما هو محدد شرعا بالنسبة للنطق بالشهادتين، وما لا يتم الواجب إلا به يعتبر واجبا (كما تقول القاعدة الأصولية) ويمكن أن نقيس على ذلك فنقول بأن ما لا يتم إرضاء المحبوب إلا به يصبح حبه أكثر من ضرورة، وإذا كان من الممكن أن نعرف شيئا دون أن نحبه، فإنه بإمكاننا أن نحب شيئا ونؤمن بوجوده دون أن نراه أو نلمسه. . .

فنحن نحب الله دون أن نراه ونؤمن أنه يرانا، ونحب النبي محمدا (ص)ا دون أن نكون من أصحابه أو معاصريه! ومن المعلوم أن أعلى درجات الإحسان هي أن تحب الله كأنك تراه (...)

وإذا كان حب الله من الأيمان بوجوده فإن حب العربية هي بالضرورة من حب الله، لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن من معرفة كلامه وبالتالي إلى إرضائه بعبادته، وهذا بنص كلامه الذي أمر به وحدده في كتابه بأفصح

عباراته: ((فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)) (القيامة / 18) ((ورتل القرآن ترتيلا)) (المزمل / 4) وكما ورد في الحديث الشريف أيضا عن النبي (ص) قوله: ((خير الذكر تلاوة القرآن)) و ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) وهذا من جوهر العقيدة، لأن كلام الله مجسد ومحدد في عبارات بعينها، فلا دخول في الإسلام بدون النطق بشهادة أن " لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ولا تصح هذه الشهادة شرعا بدون نطقها بنصها العربي، دون سواه، والقول نفسه ينطبق على تلاوة القرآن نصا في الصلاة (...)

وهنا تنتقل العربية من لغة للعرب وخدهم (كشعب وقوم كما يدعي بعض العلمانيين والقوميين العرب)... إلى لغة للأمة الإسلامية قاطبة: ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)) (المؤمنون / 52) فالعربية من هذه الناحية هي مع دينها فوق جميع القوميات والأوطان والأجناس في العالم، والكرة عند المسلمين العجم، وليس عند المسلمين العرب الحقيقيين

فمثلما أن الإسلام دين عالمي، فالعربية لغة عالمية لكل انسان مسلم على وجه الأرض، دون أي تناقض أو تعارض بين التعايش اللغوي (الوطني والرسمي بين مواطني أية دولة في العالم) والتعايش اللغوي التعددي والتعبدي الديني باللغة العربية، لأي مسلم في العالم ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) (سبأ / 28).

إن اللغة مثل العملة، ومثلما يمكن تعايش عملة محلية مع عملة عالمية أو دولية، يمكن أن تتعايش لغة محلية أو لغة وطنية مع لغة عالمية مثل الدين السماوي (العالمي) المرتبط بها والمرتبطة به ارتباطا عضويا كما هو مبين بالنص القرآني، واليقين الإيماني

فمثلما ينص القرآن على أن لا إسلام بدون التلفظ بالشهادتين، ينص كذلك على أن لا صاعة لله بدون صلاة (وهي الركن الأساسي في الدين) ولا صلاة بدون قرآن، أي بدون تلاوة النص العربي حرفيا (بالفهم أو بدون فهم)، وهذا مصداقا لقوله تعالي ((**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر**)) (القمر 17) وهو ما نلمسه كمعجزة من معجزات هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حيث أن أي شخص في العالم يمكن أن يحفظ القرآن ويتلوه دون أن يفهم أي معنى من معاني عباراته، رغم فهم معنى الكلمات هن طريق الترجمة، وهذا من أسرار هذا الكتاب الرباني والبياني المعجز إلى يوم الدين، كما سنبين بعد حين وهذا من فضل الله على عباده، والدليل على ذلك أن هناك من الأطفال من يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب، ويحصل على جوائز دولية، دون أن يعرف تكوين جملة واحدة سليمة باللغة العربية وهذه التجربة، كما يعرف الملايين من المسلمين تتكرر مل سنة في المسابقات الدولية للقرآن الكريم في كل أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهرها وأهمها جائزة دبي السنوية للقرآن

الكريم في رمضان من كل عام(...).

ونعتقد أن الله عز وجل قد أوجب على المسلم الصلاة باللغة العربية وحدها دون أن تقبل إقامتها بأية ترجمة أخرى، لأن معاني القرآن الكريم لا يدركها بشر، وإذا كنا نعرف ما حدثنا الله به عنه وعن الأنسان وغيره كما يتبين من حواراته مع إبليس ومع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين... فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يترجم عن الله إلى أية لغة بشرية، لأن في القرآن آيات: ((**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و آخر متشبهات فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءء الفتنة، وابتغاء تأويله**)) (آل عمران/ 7) فالمحكمات للعبادة، والمتشابهات للإعجاز، وإعمال العقل من المهد إلى ما بعد اللحد ! ولقد برهن العلم في هذا القرن بالذات على أن القرآن بالفعل هو منجم لا تنقضي عجائبه في كل جزئية من جزئيات هذا الكون بما فيه جسم الأنسان ذاته، مصداقا لقوله تعالى: ((**سنريهم [في المستقبل؛ آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يبين لهم أنه الحق**)) (فصلت ا 53) .

ولذلك يصرح الله حول هذا الموضوع بقوله عن المتشابه في الآية ذاتها: ((**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب**)) (آل عمران/ 7).

وإن الترجمة تفرض التأويل، وما دام التأويل مستحيلا بنص الآية ذاتها ((وما يعلم تأويله إلا الله)) فالترجمة مستحيلة أيضا . ومن ثم فلا يبقى الا تلاوة كلام الله بلغة التنزيل التي اختارها المنزل لكتابه ما دون (6700) لغة في العالم، والتي يعتبر اختلافها ذاته أية من آيات الله في الكون كما قال: ((**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم**)) (الروم/22) .

والخطاب الإلهي هنا موجه للناس كافة، وليس للمسلمين والعرب خاصة، بحكم كونهم من قوم محمد العربي العدناني الذي جمع في أم القرى من آل بيته بين الأفريقي (بلال) ، والروماني (صهيب) والإيراني (سلمان) .

وما دام كلام الله كله متعبدا به، فإن الترجمة إن أمكنت بالنسبة للآيات المحكمات، وهي قليلة في القرآن، فإن المتشابهات لا يمكن ترجمتها على الأطلاق، بحكم قوله في الآية 7 من سورة آل عمران الأنفة الذكر والآية 23 من سورة الزمر، حيث يقول: ((الله نزل أحسن الحديث كتبا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))،

حيث تبين نوعا من هذا الأعجاز الأبدي للقرآن الكريم من حيث كونها نطقا ثم لفظا ثم كلاما ثم حديثا ثم قولا . فلماذا هو أحسن الحديث ؟ لأنه كتاب متشابه أولا ومثاني ثانيا . وكل ما يشكل تفسيره لكونه يحتمل عدة معاني فهو متشابه، وكل ما يحتمل معنى واحد فقط فهو المحكم وهو المفسر. أما المتشابه فباب التأويل فيه يظل مفتوحا إلى يوم القيامة، وما من كتاب على وجه الأرض تجد في عبارته أو جمله أو آياته من المعاني المتعددة كخزين لا ينفد عطاؤه في الزمان والمكان إلا القرآن . ولقد أراد الله تعالى أن يجعل المعاني متواصلة إلى أن تقوم الساعة، ونحن نعلم أن البشرية تترقى كل يوم في علومها ومعارفها و اكتشافاتها، ولو قارنا بين عصر الرسالة وعصر اليوم لوجدنا الفرق شاسعا من حيث المعرفة والمعلومات . فالآية الواحدة يجب أن تعطي معاني بنسبة أقل أو أكثر على اختلاف مستويات السامع واختصاصه ومعارفه . فالمسلمون في عصر الرسالة حيث كانت الأمية متفشية فهموا من الآيات ما ناسب علمهم ورأوا إعجاز القرآن وفصاحته وعظمته وآمن المشركون لقوة بيانه وبلاغته لا نهم كانوا أهل لغة وفصاحة وبيان . ثم جاءت الأجيال بعدهم فاكتشف كل جيل معاني مختلفة تضاف إلى ما اكتشفه السابقون في العصر الأول .

وفي القرآن الكريم تشابه لفظي ومعنوي وإعجازي ومعرفي وعلمي جعل عجائبه لا تنقضي إلى يوم القيامة وجعله لا يخلق عن كثرة الرد، بحيث سيكتشف كل عصر في آياته ما يناسب علومه وهكذا إلى قيام الساعة، وهو ما يحتم بقاء اللغة العربية إلى يوم الدين، لأن كتابها لا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه أبدا !

إن العبادة هي علة وجود البشر، بنص قوله تعالى: ((**وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون**))، وخاصية النطق والبيان، عن مكنون الأذهان، هي سمة جوهرية فارقة ومميزة للإنسان عن الحيوان، كخاصية الاعتقاد والأيمان بالغيب، والقدرة على تجريد المعاني الكلية من المحسوسات والتعبير عنها بالكلمات، التي يعجز عن القيام بها كل ما دونه من المخلوقات . . . فإن أول رسالة للبشرية بدأت بالخطاب، بدليل أن أول إنسان علم البيان ولقن الأسماء ووهب اللسان، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى : ((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم/4).

وفي ذلك دليل على أهمية تبليغ الرسالات، ومنهج السماء الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، ودور اللسان الذي يمثل الأداة الأولى في الخطاب، والمقصود باللسان في القرن هو اللغة وحاسة الذوق في الوقت ذاته، كما تعبر عنه الآية: ((**ولسانا وشفتين**)) (البلد/ 9) .

علما أن لفط ((اللغة)) لم يرد ذكره في القرآن أبدا، وقد أتى ذكرها دائما متضمنا في لفظة ((اللسان)) كما هو واضح في الآيتين المذكورتين ((ولسانا وشفتين)) و((و ما أرسلنا من رسول إلى بلسان قومه))

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يهدف من وراء إرسال الرسل بألسنة أقوامهم إلى التأكيد على أهمية الخطاب، ودور اللسان في الجدل بالحجة العقلية والبرهان والأقناع بالمنطق، والأفهام والشرح من باب ((خاطب الناس بما يفهمون)) عن طريق الرسول الذي يبعث من بينهم وبلسانهم. . . حتى لا يقولوا لم نسمع الكلام، أو لم نفهم لغة الخطاب، ولذلك جعل الله الرسل من البشر وجعل العنصر الإنساني والعنصر اللساني أو الخطابي، هما جوهر الرسالة الربانية في ضبط وتبليغ التكليف للبشرية، لأداء المهمة التي خلقوا من أجلها، وهي العبادة والاستخلاف .

كما أن كل ما أنزل في القرآن وما أرسل من رسل كان مبنيا على التبليغ بالكلام، بدليل أنه لم يبعث رسولا فاقدا لحاسة السمع والنطق، لكون رسالة الرسول الأساسية هي البلاغ، بنص قوله تعالى: ((**وما على الرسول إلا البلاغ**)) (العنكبوت/ 18) و((إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)) (الغاشية /22) وقوله ((**وما ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى**)) (النجم / 3.4) .

وهل يوجد بلاغ للشعوب والأمم بغير الوسيلة الأولى للتبليغ، وهو الخطاب الشفاهي أولا، ثم المقروء بعد تقدم البشرية واختراع الحروف، مثلما هو معمول به في القرآن الكريم .

وعن حتمية بقاء اللغة العربية وصمودها الأبدي لارتباطها بالدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده، يقول الأستاذ سعيد العرفي: ((إن هذه اللغة العربية القيمة، بسبب المزايا التي ذكرناها سابقا، قد جعلها الله اللسان العام للذين يدينون بالشرع الاسلامي، ويتبعون محمدا (ص) ، لذلك أوجب تعلم جزء منها على جميع المسلمين.

وهذا يدلك على أن لها مكانة سامية عند الشارع، ولقد بلغ من اهتمامه بها أن افترض لأجلها قراءة القرآن في الصلوات، الفرائض والمندوبات. ومن المعلوم أن القرآن لا يصح أن يقرأ بغير اللغة العربة، كما أن مما لا يجهله أحد ، أن كل مسلم عاقل بالغ، تجب عليه الصلاة، لا فرق بين ذكر وبين أنثى، وسواء أكان حرا أم عبدا .

فإذا تعلم المسلم مقدارا من القرآن، فإن ذلك يسوقه إلى تعلم القرآن كله. فمعرفته اللغة العربة، تعلمه الأحكام الألهية وخطاب الله تعالى له بالأوامر والنواهي، لأن هذا هو المقصود من قراءة القرآن. ولذلك عاب الله على من أغفل تدبر آياته، فقال: ((**أفلم يدبروا القول أم جائهم ما لم يأت به آبائهم الأولين**)) (المؤمنون / 68)، بل حث الله على التدبر الذي جعله سببا لنزول القرآن، قال تعالى: ((**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا أياته وليتذكر أول الألباب**)) [ص / 29]، ومما لا نزاع فيه، أن تدبر قوله أو فهمه يقتضي معرفة تلك اللغة التي صدر فيها. فلذا يستفاد من هذه الآية الكريمة صراحة وجوب تعلم اللغة العربية نطقا وفهما وما ذلك إلا لأن لغة القرآن هي اللغة الجامعة للشعوب الإسلامية، والمقربة بينهم في التفاهم والتخاطب، كما أسلفنا.

إن الدين الإسلامي جاء لدعوة جميع الخلق، لا فرق بين شعب وآخر، ولا بين عنصر وغيره. وإن في الدعوة إليه والدخول فيه الاستعادة من مزاياه السامية، يتساوى فيها الأبيض والأسود، كما يتساوى في أحكامه العادلة أبناؤه وأعداؤه . لذلك ألزم الداخلين فيه، المؤمنين به، والقائمين بأحكامه، تعلم اللغة العربية و التعلق بها في أعز الأماكن وأشرفها، وهو الوقوف بين يدي الله تعالى، لأداء العبودية، ولم يتقبل عبادتهم (ما داموا قادرين على النطق والتعلم) الا بقراءة كلامه تعالى، الذي كان برهانا ساطعا على شرف اللغة العربية التي اتسعت له))[28] .

ولهذا السبب وغيره في اعتقادنا، يتكالب كل الأعداء على هذه الأمة، فأوجدوا لها زعماء يراهنون على التعريب (من داخلها) قصد ضرب الإسلام باللائكية، وعملاء للتنويب والترهيب (الفرنكفوني والأنجلو فوني) ، قصد ضرب العربية في أعماقها، إدراكا منهم بأن العلاقة بين الإسلام والعربية هي علاقة عضوية ربانية مثل علاقة الروح بالجسد، وعلاقة الأسمنت بالماء.

فضرب الإسلام يضعف العربية، وضرب العربية يضعف الإسلام، ومثلما لا يمكن فصل الروح عن الجسد دون وفاة الشخص، فلا يمكن أيضا فصل الحروف العربية عن ألفاظها دون ضياع المعاني القرآنية السامية، هذه هي الحقيقة التي لا نمل تكرارها والتأكيد عليها مدى الحياة، لأنها هي الحياة !!

للغة العربية علاقة بالذات والشخصية والهوية الثقافية بالنسبة لجميع المسلمين فضلا عن العرب بدليل أن كتابة ((حلال)) في كل المطاعم والقصابات في العالم الإسلامي باللغة العربية هي موجهة للمسلمين أساسا وليس للعرب وحدهم الذين ليسوا كلهم من أتباع الدين الخاتم، بنص القرآن ذاته ((**لا إكراه في الدين**)) (البقرة ا 256)، وهذا هو الحاصل مع العرب من الباقين على دين موسى وعيسى عليهما السلام ((**ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا**)) (المائدة / 48) ، لكن مع ذلك تكون العربية لهؤلاء غاية مثل الهوية والسيادة الوطنية والقومية، أما المسلمون من غير العرب، فتمثل لهم اللغة العربية وسيلة نات طابع مقدس، بدليل أن المسلم لا يرتاح للحلال إلا إذا كان مكتوبا بلغة الحلال، في كل مكان من هذا العالم! من طوكيو وبكين وموسكو إلى باريس ولندن وروما ومدريد وواشنطن وميلبورن ...!

وذلك لا ن محمدا العربي (ص) بعث للناس كافة وليس للعرب وحدهم كما قلنا، بدليل أن عمه أبا لهب ظل كافرا خارج الأمة، ودخل صهيب (الأوروبي) وسلمان (الأسيوي) وبلال (الأفريقي) في أمة الإسلام وشهد وأذن وصلى بلغة القرآن ! .

فإذا كان حب الوطن من الأيمان (كما ورد في الأثر) فإن هوية الإنسان المسلم هي وطنه الحقيقي حيث أين ما حل وارتحل واستقر فوق هذه الأرض بدولها وجنسياتها المختلفة، والجنسية الوطنية أو السياسية هي غير الهوية الثقافية بطبيعة الحال[29] ! .

فدين الإنسان هو هويته الحقيقية ووطنه الثابت والمستقر في قلبه، ومن ثم فإن اللغة العربية هي إحدى مقومات الإسلام ووسيلة فعالة من وسائل التفاهم بين المسلمين وصلة المسلمين بالله عن طريق الصلاة (...) وصلتهم بهويتهم الدينية والثقافية، وليس بجنسيتهم السياسية، التي قد تختلف من بلد إلى آخر (كاختلاف الأعلام والأسماء والعملات) ذلك أن الثقافة لا علاقة لها بالعرق واللون ومكان الميلاد الجغرافي، وإنما علاقتها فقط بالأشياء المكتسبة وحدها كالدين واللغة والعادات والتقاليد التي تعطي لكل أمة هويتها التي تميزها بين سائر الأمم كما يتميز الفرد ببصماته الخاصة، أو بشفرته الوراثية بين جميع الأفراد في هذا الكون ماضيا وحاضرا ومستقبلا**!!**[30] .

وبما أن هوية الشخص هي وطنه الحقيقي، وبما أن الهوية في جوهرها ذات محتوى ثقافي، والثقافة في أهم عناصرها ومكوناتها الأساسية هي دين ولسان وسلوك مرتبط عضويا بهذين العنصرين الأساسيين[31]، ونظرا لأن لسان الإسلام هي لغة القرن كما أثبتنا ، فإن حب لغة القرن، الذي هو أساس هوية المسلمين، هي من الأيمان بالضرورة، مثل حب الوطن المادي تماما دون أن يتعارض الأثنان في قلب الفرد المسلم، أيا كانت إقامته على هذه الأرض ...!!

فهنا وطن مادي جغرافي، وهناك وطن معنوي شخصاني ثقافي، وحيثما يكون دين الإنسان وييسر له الله رزقه وعبادة ربه، كما أمر في كتابه، فثمة وطنه...

إن المحافظة على اللغة العربية جزء متفرع من حبها، والمحافظة عليها جزء من المحافظة على دينها، والمحافظة على دينها من المحافظة عليها، لأنه هو الذي يحفظها، ونعتقد أن من دلالات الأمر الإلهي في أول كلمة من الوحي المنزل على النبي الأمي في غار حراء ((**اقرأ باسم ربك**)) (العلق/ 1) بعضا من هذا المعنى، حيث أن من أسرار حفظ القرآن، وحث الله على تلاوته كما أسلفنا هو ضرورة الانطلاقة إلى القراءة، بعد الأمية والرواية السماعية ، هذه الأمية التي تتطلب الرواية الشفهية، وخاصة بالنسبة للمسلمين من غير الناطقين بالعربية ثم تأتي بعدها القراءة التي تتطلب الكتابة والتدوين لتشييد الحضارة. .. ربما كانت هذه النقلة الثنائية المزدوجة بين النقلي والعقلي، وبين السمعي والبصري، وبين الشفاهي والكتابي، هي في اعتقادنا من بين الأسرار التي حفظ بها العزيز الحكيم وحافظ على كلامه الكريم من الضياع والنسيان والتحريف والتزييف، لأنه ثبت بالتجربة أن أي إنقاص أو خطأ أو تغيير متعمد من أعداء الله لكتاب الله، يكتشف في الحال، ويكمل الناقص أو يصحح الخاطئ أو المحرف بفضل الحافظين، الأميين منهم والمتعلمين على حد سواء، ويبقى هذا الحفظ المعجز في الصدور قبل السطور، هو السر القائم، والحكم الدائم، في هذه النقطة إلى يوم الدين، لأنه هو الأساس بمقتضى نص قوله تعالى : ((**لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر**)) (القمر/ 17) وقوله أيضا ((**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)) (الحجر / 9) بالرواية والتذكير، وبالكتابة والقراءة والتفسير الذي يحقق التكامل في حفظه على حاله بين الأصم والضرير، والأمي والنحرير**!!**.

وإننا نعتقد أن تزويد القرن الكريم بهذه الأجهزة والأدوات العجيبة من صمامات الأمان ضد الزوال والنسيان، هي التي حالت دون تمكين الأعداء من تحريفه في الكتابة للأجيال القادمة، بعد سحب كل النسخ الصحيحة من

التداول في السوق . . . كما حاول أن يفعل ذلك مرارا بعض المغضوب عليهم من أعداء الله، كلما أحسوا بضعف المسلمين أو غفلتهم عن كتابهم في أي حين!!...

غير أن كل هذه المحاولات الماكرة كانت تبوء بالفشل الذريع ((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)) (الأنفال/ 30)، وتكتشف في حينها بسبب حفظ المسلمين للقرآن في الصدور قبل السطور، سواء من أجل التعبد به في الصلاة، أم حتى قراءته على الأموات... وتتمثل مصداقية الحفاظ على اللغة العربية، والمحافظة على القرآن باللغة العربية، في ما يسخره الله لهذه اللغة وكتابها من أسباب ووسائل الانتشار في كل الأقطار، بفضل الاختراعات المتطورة جدا في مجال الاتصال والأرسال الفضائي (السمعي ـــ البصري) الذي صير العالم بأسره مسجدا واحدا (بالنسبة للمسلمين) ووفر على العلماء والدعاة والقراء والمجودين. . . مشقة الضرب في الأرض، إلى أقاصي الدنيا، من أجل إسماع كلام الله لعباد الله، وأصبح بإمكان أي مقرء أو مجود للقرآن في أي مكان من العالم أن يسمع كل عباد الله أنغام لغة الجنة الا من أبى منهم!

وهو ما يؤكد مصداقية ما أراده الله أن يكون ويدل على أن نبي الإسلام، وآخر المرسلين محمد (ص) قد بعث إلى الناس أجمعين، كما ورد في التنزيل الحكيم: ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) (سبأ / 28) و((**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**)) (الأعراف/ 158) ويوحي بأوضح وأفصح بيان إلى تلك الإرادة الربانية التي لا راد لحكمها ولا حدود لطلاقة قدرتها. . . والمتمثل في قوله تعالى المذكور آنفا: ((**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**)) (الرحمن/ 1، 4) ، و((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم ا4) . ولذلك كتب الله للسان خطابه وبيانه هذا الصمود رغم كل الأعداء، من الأغراب والأبناء، ومن أهل الدار وذوي القربى والجوار، بما يضمن لهذه الوسيلة حتمية البقاء ومقاومة الغناء، لتأدية وظيفتها السماوية والأرضية التي خلقت من أجلها، وهو التلفظ بشهادة التوحيد لآخر آدمي مؤمن بالدين الظاهر على كل الأديان، وعلة نزول القرآن الذي يحمل إعجازه في ذاته، وتجدد معجزته في نصه، حيث يخاطب كل العقول والأذهان مع مسايرة التطور والتدرج في الخطاب حسب الزمان والمكان، تمشيا مع تطور عقل الأنسان في كل ميدان دون تناقض أو زيادة أو نقصان ((**ما فرطنا في الكتاب من شيء**)) (الأنعام 38) ، مما يثبت اكتمال الرسالة الخاتمة المستوعبة في القرآن الكريم التي كانت كلها خطابا معجزا ووعدا منجزا بالحق نابضا بالصدق موضحا لمعناه، محصنا لمبناه بالحفظ المؤكد في النص ذاته القائل: ((**إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون**)) (الحجر/9) .

وعن قيمة اللغة العربية ودورها في ثقافة الأمة ووحدتها، فضلا عن علاقتها بكتاب الله الخالد والمخلد لها والحافظ، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي " العربية إحدى اللغات الحية، وهذا يقتضينا أن نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة وهي إحدى اللغات السامية التي إندثرت معالمها كلها وانمحت أصولها فلم تبق منها الا هذه اللغة القديمة، ولابد من الاستطراد قليلا فأقول أنها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت

على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات، سيقول قائل أن العبرانية لغة قائمة وأنا أقول أن هذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة أعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم. . .

ولا بد لي أن أدع هذا الاستطراد الموجز فأعود إلى العربية لا قرر أنها اللغة الحية وأنها ثبتت إزاء العصور، وأنها كانت خير وسيلة للإعراب عن حضارات مزدهرة وآية ذلك أن العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر ألوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين أقرر أنها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي، ومن أجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا أن لا سبيل إلى الأعراب عن الفكر الفلسفي مثلا الا بهذه العربية. . .

ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من أسباب الحياة ما أعان على استمرارها بهيئة معلومة ذلك أننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة، ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب الله_ جل وعلا_ لآل أمر هذه اللغة إلى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت إلى الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

لم يكن شيء من هذا في العربية، وذلك أن العربية مازالت لغة أمة بأسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية، ولو عمل أهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم أن يوسعوا من هذه الرقعة فتعمم لغتهم في بقاع إفريقيا وغير إفريقيا ممن فطروا على الإسلام دينا وأمنوا به فكرا وسلوكا)) [32] .

وإذا كانت هذه الأحكام السابقة حول علاقة القرن باللغة العربية الصادرة عن المسلمين المؤمنين الذين قد يقال بأن حديثهم صادر عن عاطفة إيمانية قد تتغلب على صرامة العقل، فإننا نورد هذا الحكم الواضح الصادر عن بعفر أعلام الأمة من غير المسلمين، وهو يؤكد كلام الدكتور السامرائي السالف الذكر، ففي هذا تقول الأديبة اللبنانية النصرانية مي زيادة عن العربية وكتابها المنزل ما نصه : ((ومن ذا الذي لا يوافق المعتدلين من المحافظين على مفاخرتهم بهذه اللغة العربية التي تقبل علينا من أقاصي التاريخ وقد اندثرت جميع أخواتها السامية من آرامية وكنعانية وكلدانية وسريانية وسورية وعبرانية قديمة وغيرها، في حين هي، على رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود ، ما فتئت تفيض قوة وحياة ؟

من ذا الذي لا يعرف للكتاب الكريم فضله في بقاء هذه اللغة حية ومن ذا الذي يجهل أن اللغة العربية باقية ما بقي الإسلام حيا؟

من ذا الذي لا يعرف ما أدته هذه اللغة من الخدم إلى العالم وبأنها كانت في حين ما الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم[33]؟،.

ثم تضيف قولها : ((وعلى كل، فاللغة الفصحى يجب أن تبقى دائما الحصن المنيع الذي نحتمي فيه جميعا، والرابطة النفسية الغالية التي تجمع بين أهل الأقطار المتباعدة، والصيغة الجميلة الحية التي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل حتى انتهاء الدهور)).

ليست اللغة أداة تعبير وكفى كما يزعمون. بل هي فكرة وعاطفة وعلم وشوق ومطمح وفن وأمل وألم. هي صورة لكل شخصية كما هي صورة لكل زمن. هي ملك الجميع وهي ملك كل فرد ورثها فورث معها الحق في استعمالها للتعبير عن حياته الخاصة. وإذ يتصرف الفرد بحقه هذا يكون في نفس الوقت قائما بواجبه نحو ماضي اللغة ومهيئا لها مستقبلا لا يكون محض صدى وتقليد وترجيع بل يكون صوت حياة وإبداع وتوقيع[34].

ويشهد بهذا الخلود الرباني أيضا، الباحث المسيحي ستيوارت ضود بقوله: ((وجدير بنا أن نتذكر أن لغة القرآن، وهي عربية فصحى، تدرس حتى الأن في أنحاء العالم الإسلامي كافة، مما جعل اللغة العربية من الناحية الدينية والثقافية في مركز فريد لا تتمتع به بقية اللغات الحية. وهذا ما جعل إدخال أية تغيرات هامة فيها مستحيلا. ومن جهة ثانية فإنه يشك إذا كان هنالك من يقبل أن تحل اللغة الدارجة محل اللغة الفصحى، لأن الأولى قد اتخذت لهجات مختلفة في النطق بين الشعوب العربية في مصر والعراق ولبنان والشام وشمال إفريقيا وغيرها . زد على ذلك أن العربي الذي يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم ويفهمه، لا يكاد يستطيع أن يفهم كلمة من اللغة الدارجة المستعملة هنا وهناك في أنحاء الشرق العربي)) [35].

ويضيف هذا العالم العربي النصراني الأصيل قوله أيضا: ((فيما مضى من تاريخ العرب والمسلمين انتشرت العربية في جميع أصقاع الأرض ولم توازها في الانتشار لغة أخرى لا في الماضي ولا في الحاضر، ولن توازيها حتى في المستقبل. ويكفي أن نلقي نظرة على المساحات السكانية على هذا الكوكب الذي انتشرت فيه هذه اللغة سواء بنطقها أم استعمال حروفها فهي ما زالت لغة المسلمين جميعا إلى جانب لغاتهم المحلية ومازالت الحروف العربية أيضا معتمدة في الكثير من هذه اللغات .

وبالرغم من الوهن السياسي الذي اعترض الأمة العربية فقد أخذت اللغة العربية مكانها بين اللغات الأساسية في هيئه الأمم المتحدة ومؤسساتها .

وإذا فتحنا معجم الأعلام لفردناند توتل الملحق بالمنجد لويس معلوف وطالعنا كلمة (جامعة) نجد أنه لا توجد جامعة في الشرق أو الغرب أو قارة من القارات إلا وقد خصصت فيها كرسيا لتدريس اللغة العربة أو الأدب العربي أو العلوم الإسلامية))[36].

وفي الختام نقول : إن كل ما ترجوه أمة الضاد من أبنائها المخلصين اليوم هو العمل على جميع الأصعدة والمجالات والمستويات من أجل تحقيق الكيف بعد الكم المضمون لضمان المستقبل النوعي المأمول لها ولهم في عالم لا يرحم الضعفاء والصغار ولا يحترم الا الأقوياء والكبار!!.

ونؤكد هنا أن الجغرافيا في الكون مثل الجسد في الأنسان . . . فهي جماد يتحرك خارج إرادة المخلوق في غالب الأحيان، لكن التاريخ وعي وعقيدة وإنجاز إرادي لا إكراه فيه. . . وكما أن الروح هي التي تحرك الجسد في الأنسان، فكذلك التاريخ هو الذي يتحكم في جغرافية المكان . وأبرز مثال على ذلك تاريخ وجغرافية الإسلام في الأندلس مع الاسبان في غرناطة اثم في بجاية وفي تونس وفي وهران (...)

فإذا كان الجسد يخضع للمرض والاعتقال، والجغرافيا تخضع لقانون الزلازل والبراكين وتحرك طبقات الأرض رغم إرادة الإنسان . . . فإن التاريخ كله إرادة وفعل وإنجاز في المكان والزمان . . .

ولئن كان العالم يعرف تاريخ الزلازل. . فإنه لم يعرف ولن يعرف زلازل التاريخ، لأن هذا الأخير ذو طبيعة سامية فوق المادة الجامدة، ويتم دائما بوعي وإرادة من صانعيه، وليس مغروضا عليهم من فوق أو من تحت!! وأن أي فعل يفرض على الأنسان بالقوة والإكراه، هو أشبه بالاعتقاد أو الزلزال... لا يلوم التاريخ من يكره عليه، بل هو يجرم ويحاكم ويعاقب فقط من يخير ويختار فيه!!

ورغم ذلك، ستسود العربية بفضل الله وسيفرح المؤمنون بنصر الله، لأنه هو القائل عزت قدرته : ((**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**)) (الصف /8.9) ،

وظهور الإسلام هو ظهور بالقطع للغة الإسلام في كل أقطار العالم، مصداقا لقول نبيه الكريم: ((إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض)) (رواه مسلم حديث 2289) . ومن ينظر إلى الإحصائية الرسمية لوزارة الحج للعام الهجري (1428) يجد أن عدد حجاج بيت الله الحرام، قد باغ 3,5 مليون حاج، قدموا إلى الأراضي المقدسة من 189 دولة، علما أن عدد الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة، في الوقت الحاضر هو 192 عضوا، ولهذا الرقم دلالة ناطقة تفنينا عن أي تعليق!

ونختم حديثنا عن هذه الحتمية في ظهور دين الله ولسان كتابه على العالمين، كما هو مقرر في الآليتين السالفتين، فنقول: إن كل رسول له معجزة مرافقة ومدعمة للرسالة التي تضمنت منهجه (في إفعل ولا تفعل)، الا النبي الخاتم (ص) الذي ليس بعده نبي جديد أو منهج جديد... فجاءت معجزته في نص خطاب منهجه، وما دام هو آخر الأنبياء والمرسلين، فلا بد أن تظل معجزته حية دائمة، خالدة، ناطقة، ظاهرة، ولا يمكن أن تبقى كذلك الا بالاهتمام بهذا الجانب الإعجازي في القرآن الذي سيظل مجهود كل العلماء والدعاة منصبا عليه لفهم محتواه

ونقله لكل العقول المتفتحة والمتعطشة إلى معرفة الحق، وهذا جزء من الدعوة التي يقوم بها علماء الإسلام الذين قال عنهم النبي ((إن علماء أمتي مثل أنبياء بني إسرائيل)) . فالعالم هنا هو خليفة النبي إلى الأمة المحمدية، وبالتالي إلى البشرية، لأن الإسلام هو دين العالمين جميعا بنص الآيتين: ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) **(سبأ / 28)** ((**قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**)) (الأعراف/ 158)، وقوله تعالى أيضا: ((ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين، وإن يكذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون)) (يونس ا 40، 41)، إشارة إلى توضيح حدود هذا الدين الخاتم، ذي المعجزة القائمة المتجددة مع الأيام، وتبدل الأحوال على الدوام، حيث أن كل معجزاته كلام وخطاب، ولا يطلب من مؤمن أن يؤمن بأية معجزة مادية سوى كلام الله، الذي تتجسد فيه الثلاث آيات مجتمعة. ففيه آيات القرآن المعجزة بالبيان، والآيات المتعلقة بعجائب الكون ونواميسه التي تحدث عنها القرآن بصفة علمية دقيقة وقطعية، قبل حدوثها واكتشافها بقرون، ثم وقعت بعد ذلك مثلما وصفها بإعجاز ودقة لا نظير لها، وبهذا تتحقق المعجزة المادية وتخرج من المعجزة الخطابية البيانية ذاتها، بحكم تحققها في السنن الكونية، مصداقا لقوله تعالى: ((**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**)) (فصلت / 53) ، وهي كما نرى آيات نزلت خطابية، ثم أصبحت مع تقدم العلم، وتطور وسائل البحث في مختلف مجالات الكون معجزات مادية ملموسة، مثل معجزات الأنبياء التي حدثت لا قوامهم من أجل تصديقهم. . . فهي آيات مادية إذن، أثبتتها آيات قرآنية أو بالعكس، أي أنها آيات قرنية تجسدت في آيات مادية، مما جعل القرآن بهذا المعنى حجة مضاعفة متكاملة في مسألة الأعجاز والأقناع، وجعل القرآن حيا ناطقا بالحق، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد وتفسيره متروك للسان الزمن ولسان العرب ! !

ولهذا كان القرآن هو الخطاب الوحيد الذي خص الله نفسه بحفظه من التحريف والتزييف، ليبقى نبيا مرسلا، يتحرك وينطق ويخاطب الناس بالحق والصدق في كل حين، ويتحدى كل العلوم والآلات والعقول . . . بينما كل الكتب الأخرى المنزلة على الأنبياء والمرسلين، قد عهد الله بمهمة حفظها للمؤمنين من أهلها كما قال : ((**إن أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**)) (المائدة ا 44)، فلم يحفظوها، وقد حرفها المنحرفون منهم كما هو معلوم، بنص القرآن ذاته في قوله تعالى : ((**فبما نقضهم ميثاقهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به**)) (المائدة /13)، وقوله أيضا: ((**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين**)) (النساء / 46) ، وهنا تكمن الإرادة الربانية التي تعهدت بحفظ اللغة العربية، بحفظ النص المقدس له بها ولها به إلى يوم القيامة كما قلنا!! وأكرر هنا في هذا السياق ما قلته منن عشر سنوات[37] ((بأن هناك أربع لغات لها البقاء والخلود في الوجود وتسود العالم في المستقبل أكثر من غيرها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي الصينية (بحكم الديموغرافيا) ، والإنجليزية (بحكم السياسة

والتجارة والتكنولوجيا) ، والإسبانية (بحكم الجغرافيا) ، والعربية (بحكم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وشريعة السماء)) .

وإذا تحقق الاستقلال الحضاري والشخصاني الذي تطمح إليه كل الشعوب الإسلامية وتجاهد طلائعها من أجله، فستصبح العربية لغة علوم وتقنية وحضارة راقية مثلما كانت لعدة قرون (من دمشق وبغداد وقرطبة وبجاية وتلمسان والمهدية والقيروان إلى القاهرة وطاشقند وسامرقند ...)، زيادة عن كونها لغة عقيدة ورسالة سماوية خالدة مرتبطة بالعالم العلوي، الذي لا دخل للمخلوق في شأنه، ينيف معتنقوها في الوقت الحاضر عن عدد سكان الصين١ذ تها!! ومنتشرة جغرافيا مع الإسلام في جميع قارات الكرة الأرضية بكيفية تفوق انتشار اللغة الإسبانية أيضا بأضعاف مضاعفة!، حيث تبلغ مساحة العالم الإسلامي أكثر من 32 مليون كيلومتر مرح!!

وإن هذا الكلام الذي أثبتناه بنصه هذا لأول مرة، في كتابنا "اشهدي يا جزائر " قد أكدته دراسة مستقبلية حول خريطة اللغات في العالم، قامت بها العالمة الأمريكية (كوليت غرينفالد) العضوة بمنظمة اليونيسكو جاء فيه (أكدت العالمة اللغوية كوليت غرينفالد العضوة بمنظمة اليونيسكو في حوار نشر بجريدة "لوموند" يوم 31 ديسمبر 2005 على أنه في العام 2050، عشر لغات هي الأكثر انتشارا في العالم، وهي: الصينية ثم الهند وأوردية والعربية، والانجليزية، والاسبانية، والبنغالية، والروسية، واليابانية، والمالية.) [38]

هذه هي إرادة السماء في حفظ البقاء للغة البيان والوضوح والنقاء... لكن المهمة الملقاة على عاتق المسلمين (عربا وعجما) والعرب غير المسلمين على حد سواء، هو مطابقة لغة العبادة بلغة الحياة في كل مجالاتها، مثلما كانت لعدة قرون، قبل تخلي العباد عن مواصلة الحضارة، واستغلال عطاء الربوبية مثل الأجداد، حتى يظلوا دائما في الموعد، ولا يتخلون عن الترتيب الذي احتلوه في التاريخ، وتقدم الحضارة الإنسانية، علما وقولا وعملا بكيفية متساوية ومتوازية... وفي هذه الحالة تظل المسؤولية ملقاة كلها على عاتق الناطقين بالعربية (مسلمين وغير مسلمين)، وليس على اللغة العربية في ذاتها بأي حال من الأحوال، لأن اللغة هي ظل لأهلها، وهي ويلة وغاية في ذاتها، ولا يستقيم الظل والعود أعوج، بقطع النظر عن سبب هذا الاعوجاج والانبعاج، فهل هو من الأعداء الغرباء في الخارج، أو من الأعداء " الوكلاء" والعملاء من الداخل.

إن الله لم ولن يخلف وعده بحفظ كتابه فيما يتعلق بعطاء الألوهية، لمن المسؤولية تظل ملقاة على عاتق أهل هذه الأمة لتكون على الأقل مثل جميع الأمم الحية الواعية، التي استغلت عطاء الربوبية (الشمس، المياه، والثروات الباطنية...) والتي تبقى فيها القاعدة الذهبية الربانية التي تنطبق على واقع أمتنا هي: ((إن الله لا يغير ما بقوم حت يغيروا ما بأنفسهم)).

فالله دائما عند وعده، فهل أبناء هذه الأمة المعاصرين، يكونون في مستوى أمتهم التي يحملون اسمها واسماءها، والتي شرفهم الله بقرآن فيه ذكرها وذكرهم إلى يوم الدين، وهو الصادق الوعد الأمين والغالب على أمره في جميع الأحوال، ولذلك فإن اللوم الأول والأخير يكون على الخوالف وحدهم الجامدين أو المتهاونين والخاذلين لأمتهم ولسان دينهم ما دون كل الأمم الحية في العالمين، وإن القانون الحضاري لا يحمي المغفلين والمتخلفين أو المتواطئين مع الأعداء المراهنين على زوال لسان القرآن الذي كتب له الخلود في الوجود إلى يوم الدين كما أثبتنا، والتاريخ يبقى دائما هو الشاهد الأمين والحكم النزيه بين المراهنين من كلا الطرفين.

الجزائر في الأول من رمضان 1429 هـ

الهوامش

[1]- نور الدين حاطوم، تاريخ القوميات في أوروبا، الجزء الثالث، دار الفكر، دمشق، الطبعة.2، 1979، من ص؛ 2.13 —— .2.53

[2]ساطع الحصري، ما هي القومية؟، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص؛ 56 ——60.

[3]د. صلاح العقاد، دراسة مقارنة للحركات القومية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1967، ص 10.

[4]في سبيل البعث، ج3، طبعة بغداد، 1987، ص 68.

[5]جريدة النهار، 1982./06/06م.

(*) أقصد هنا الرئيس السوري، وكأنه العربي الوحيد الذي يعرف معنى السيادة اللغوية في هذا العالم المسمى عربيا بجامعته العربية (السياسية)!!

[6]العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي، ترجمة فريد النجار، دار الكتاب، بيروت 1974، ص 2.95.

[7]د. محمود السعران، اللغة والمجتمع، المطبعة الأهلية، بن غازي 1958، ص 105.

[8]د. كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت 1956، ص 34..

(*) هذا خطأ شائع حتى لدى بعض الكتاب الكبار، والأصوب هو قوله استبدال الأنكليزية بها (أي بالعربية)، لأن الباء تنهب مع المتروك، مثل قوله تعالى على بني إسرائيل؛ ١٦ءتسسدذودأ ١لذي هو ١ذف بالذي هو خير) (البقرة/ 61).

[9]اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية 2.004، القسم الثاني، ص 3–5.

[10]نفس المرجع السابق، ص 5.

(*) هذه العبارة تعني الكلام العربي المكتوب بالحرف السرياني.

[11]نفس المرجع السابق، ص 7.

[12]اللغة العربية، نفس المرجع السابق، ص 9.

[13]من كتابه ((مستقبل الثقافة في مصر)، ج.2، ص 32.6.

[14]عن مجلة ((المجمع العلمي العربي))، دمشق، نيسان، 1957.

[15]ساطع الحصري،((آراء وأحاديث في اللغة والأدب))، دار العلم للملايين بيروت 1958، ص 72، 73.

[16]انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا((التعريب بين المبدأ والتطبيق))، الطبعة الثانية، دار الأمة، الجزائر 1995.

[17]انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا((هل نحن أمة؟))، دار الأمة، الجزائر 1997.

[18]راجع كتابنا((مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء؟؟)) دار الأمة الجزائر 2.005.

[19]بحث للدكتور علي لغزيوي في ندوة الرباط، حول اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1—3 نوفمبر.2.002.

[20]اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق نكره، ص 155.

[21]نفس المرجع، ص156.

(*) يقصد أن اللغة المكتوبة غير اللغة المتداولة شفهيا في إطار الثنائية الواقعة بين العامية والفصحى. وحول ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي؛ (ءبيد أن العربية لا يأتي لها بحال من الأحوال أن تغلب على كل اللهجات العامية وتستغرقها وتأخذها بدين التوحيد، فما ذلك في طبيعتها، ولا هو في طبيعة الناس)).

[22] اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق نكره، ص 158.

[23]نفس المرجع، ص 163.

[24]اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 153.

[25]اللغة العربية، نفس المرجع السابق، ص 17

[26]. راجع العلاقة العضوية بين الإسلام والعربية في كتابنا((كيف صارت الجزائر مسلمة عربية))، دار الأمة، الجزائر 1996.

[27]اللغة العربية، القسم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص 134.

[28]اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 2.57.

[29]راجع كتابنا((الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات))، دار الأمة الجزائر 1996.

[30]نفس المرجع المذكور.

[31]انظر كتابنا((هذي هي الثقافة))، دار الأمة، الجزائر 1997. (.32) ((مقدمة في تاريخ العربية))، بغداد 1979، ص 175.

[32] مقدمة في تاريخ العربية بغداد 1979 ص: 247

[33]نفس المرجع السابق.

[34]اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق نكره، ص 2.47.

[35]نفس المرجع، ص.2.52.

[36]العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي دار الكتاب — بيروت — 1947، ص 165.

[37]انظر مقدمة كتابنا((اشهدي يا جزائر))، دار الأمة الجزائر 2.001.

[38]نقلا عن جريدة ((الشروق اليومي)) الجزائرية في 2.006/01/15.

التعريب والتنمية البشريَة

أ. د. علي القاسمي (العراق)

تطوَّرَ مفهوم التنمية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فلم يعُد منصبّاً، من حيث الأساس، على نموِّ الاقتصاد الذي يُقاس بمعدَّل الدخل القوميّ؛ وإنَّما تحوَّل هذا المفهوم إلى تنمية الإنسان ذاته، بحيث أصبح الإنسان غاية التنمية ووسيلتها في آنٍ واحد. وفي سنة 1990، أطلق البرنامجُ الإنمائيُّ للأُمم المتّحدة سلسلة تقاريره السنويّة عن التنمية البشريّة. وتستخدم هذه التقارير دليلاً خاصّاً لقياس هذا النوع من التنمية في كلِّ دولة عضو في المنظَّمة الأُممية يُسمى «دليل التنمية البشرية»، ومقياسه من 0 إلى 1. ويقابل هذا الدليل «دليل الفقر البشري». ويتضمَّن كلُّ تقرير سنويّ مقترحات نظريّة وعمليّة لتحقيق التنمية، وحلولاً للمشاكل التي تواجه الدول في سبيل ذلك.

ويعتمد «دليل التنمية البشرية» في تقارير البرنامج الإنمائيّ للأُمم المتحدة على ثلاثة مؤشِّرات أساسيّة، وهي:

1- **تمتُّع المواطنين بصحّة جيِّدة** وحياة مديدة، ويُقاس هذا المؤشِّر بمعدّل العمر المتوقَّع للفرد عند الولادة؛

2- **انتشار المعرفة** الذي يُقاس بمستوى التعليم بين الراشدين ومعدلات الالتحاق في التعليم الابتدائيّ والثانويّ والعالي؛

3- **مستوى المعيشة اللائق** بالكرامة البشريّة، ويُقاس بمعدل الدخل الفرديّ وقوّته الشرائيّة التي تؤمِّن احتياجات الإنسان.(1)

فالتنمية البشريّة لا تتوقّف عند الناحية الاقتصاديّة، وإنما تمتد كذلك إلى النواحي السياسيّة والاجتماعيّة. فإذا توافرت في البلاد المؤشِّرات الثلاثة المذكورة، بحيث يتمكّن الإنسان فيها من سدّ حاجاته الأساسيّة من سكن وطعام وتعليم وخدمات صحيّة وثقافية وترفيهيّة، يُقال عنها إنها حقّقت نوعًا من الرفاه الاجتماعيّ، وإلا فتوصَم بالحرمان والفقر والتخلّف. ومظاهر التخلّف كثيرة أهمّها انخفاض معدل الدخل الفرديّ، والتفاوت الحادّ في توزيع الثروة، وضعف البنيات التحتيّة، ونقص الخدمات الاجتماعيّة والصحيّة والطبيّة والثقافيّة، وضعف الأداء المهنيّ، وتفشِّي الفساد في الإدارة، وانفصامٌ بين القوانين وتطبيقها العمليّ.

وينتهي كلُّ تقرير سنويّ من تقارير التنمية البشريّة الأُمميّة بقائمة تُرتِّب الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة طبقًا لقيمة دليل التنمية البشرية في كل منها، بحيث تحظى أكثر الدول

تنميةً بالرقم 1 وتليها الأقل تنمية. وتُقسَّم الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة حسب هذا السلم إلى ثلاث مجموعات:

(أ) **مجموعة البلدان ذات التنمية البشريّة العالية،** وتبلغ قيمة دليل التنمية البشريّة فيها 0,800 أو أكثر.

(ب) **مجموعة البلدان ذات التنمية البشرية المتوسطة،** ويتراوح دليل التنمية البشرية فيها بين 0,500 و 0,800 .

(ج) **البلدان ذات التنمية البشرية المتدنية،** ويكون دليل التنمية البشرية فيها أقل من 0,500 .

وكما هو متوقَّع، فإنَّ معظم الدول العربية تحتلّ رُتباً متأخِّرة في السُّلَّم. فمن مجموع 177 دولة تمّ تصنيفها في تقرير التنمية البشرية 2008 / 2007، نجد على سبيل المثال ما يلي: اليمن (153)، السودان (147)، موريتانيا (137)، جزر القمر (129)، المغرب (112)، مصر (112)، سوريا (108)، الجزائر (104) . وهكذا يمكن القول باطمئنان إنَّ معظم الدول العربية تلتحق بكلِّ جدارة في حظيرة الدول المتخلفة(2).

وأثناء عملي مُراجعاً للترجمة العربية لتقرير التنمية البشريّة للأمم المتّحدة، لفتَ نظري أنّ عدداً من الأقطار التي كانت أفقر من البلاد العربيّة في الخمسينيّات والستينيّات من القرن الماضي، استطاعت أن تحقِّق التنمية البشريّة خلال جيل أو جيلَين فقط (أي خلال خمس وعشرين أو خمسين سنة). ومن هذه الدول اليابان، وفنلندة، وسنغافورة، وماليزيا، وكوريا، وتايوان. والآن هناك دول آسيويّة أُخرى في طريقها لتحقيق التنمية البشريّة مثل الصين والهند وتركيا وإيران. وقد قمتُ بزيارة اثنين من هذه الأقطار، وهما فنلندة وكوريا، وبدراسة وسائل تحقيق التنمية البشرية فيهما.(3)

لقد كانت كوريا تُصنَّف في أوائل الستينيّات بوصفها واحدة من ثلاث أفقر دول آسيويّة. أمّا اليوم فتُعدّ كوريا تاسع أغنى دولة في العالم، مع العلم أنّها لا تمتلك أية ثروات طبيعية يعتدّ بها اقتصادياً، وأنها تعاني كثافة سكانيّة مُعيقة. أمّا فنلندة فقد كانت مستعمرة روسية بائسة حتى سنة 1917، وكانت في الخمسينيات بلداً زراعيّاً فقيراً لا يمتلك حتّى الأراضي اللازمة للزراعة، لأنّ معظم مساحة البلاد مغطّاة بالغابات والبحيرات؛ فصارت، خلال السنوات الأخيرة، تحتلُّ أحياناً الرتبة الأولى في تقارير التنمية البشريّة الأمميّة.

أخذتُ أبحث عن سرِّ تقدُّم هذه الدول. وعند زيارتي إلى فنلندة عام 1992، عثرتُ على مقالٍ كتبه السيد كويفستو رئيس الجمهوريّة الفنلنديّة آنذاك يتحدَّث فيه عن أسرار نجاح بلاده في تحقيق التنمية والتقدّم، بحيث تحوّلت من دولة فقيرة جداً في الخمسينيّات من القرن الماضي إلى دولة ما بعد صناعية في الثمانينيّات. لقد حصر السيد رئيس الجمهوريّة الفنلنديّة أسرار

النجاح الذي نالته بلاده في ثلاثة هي: «**مستوىً رفيعٌ من التربية والتعليم، استخدام التكنولوجيا المتطورة في العمل والإنتاج، والالتزام بالديمقراطيّة منهجاً وسلوكاً.**»

أما بالنسبة لكوريا، فأودّ أن أروي الطرفة التالية:

في أثناء اجتماع اللجنة الدائمة للعلوم والتكنولوجيا التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلاميّ، الذي انعقد في إسلام آباد عام 1985، كنّا ثمانية مدعوِّين على مائدة الرئيس الباكستانيّ الراحل ضياء الحقّ، ومن بيننا الفيزيائيّ الباكستانيّ الأستاذ عبد السلام الحائز على جائزة نوبل، ودار حديثنا على التنمية. فروى لنا الرئيس الباكستانيّ طُرفةً مفادها أنّه أثناء زيارته الرسميّة إلى سيئول سنة 1984، سألَ رئيسَ جمهورية كوريا عن سرّ نجاح التنمية في كوريا. فأجاب الرئيس الكوريّ مازحاً: لقد أخذنا خطط التنمية الخماسية التي وضعتموها في باكستان وطبقناها في كوريا. وبعد أن ضحك الرئيسان، قال الرئيس الكوريّ بإخلاص وبساطة:

إنّ لوصفة التنمية ثلاث متطلَّبات:

1) ديمقراطيّة حقيقيّة تُطلِق طاقات الشعب الخلاقة،

2) نظام تعليميّ حديث جيّد شامل،» لقد جمعنا المناهج الدراسيّة القديمة ورميناها في البحر».

3) الأخذ بآخر مُعطَيات العلم والتكنولوجيا في الإنتاج والخدمات.

(ومن المفارقات الطريفة أنَّ الرئيس الكوريّ يُخبِر الجنرال ضياء الحق عن ضرورة الديمقراطيّة في التنمية، مع أنّ الجنرال قام بانقلابٍ عسكريّ سنة 1976 ضد حكومة رئيس الوزراء الباكستاني السيد ذو الفقار علي بوتو المُنتخَب وحزبه ديمقراطياً، وأودعه السجن ثم أعدمه بتهمة «الابتعاد عن الديمقراطية»، وأنّ الجنرال ينقل إلينا الشروط بما فيها الشرط الديمقراطيّ بكلِّ أمانة).

بَيْد أنّي أرى أنّ مغزى مزاح الرئيس الكوريّ هو الأساس في التنمية. فمغزى كلامه هو ضرورة توفُّر الإرادة المُخلصة الحقيقيّة لدى النخبة الحاكمة في إيجاد مجتمع المعرفة القادر على إحداث التغيير، والتطوير، وتمثُّل الحداثة.

ولكن البلاد العربيّة ـ مع الأسف ـ غير مستعدةّ لتقبّل الحداثة التي تتمخّض عنها دولة المؤسَّسات وحقوق الإنسان؛ وعاجزة عن إيجاد مجتمع المعرفة؛ وذلك لأنَّ الحداثة لم تستوفِ شروطها ولم تستكمل مراحلها المنطقيّة. فالحداثة ومجتمع المعرفة تتطلبان إشاعة التعليم وتعميمه، وإطلاق الحريات خاصّة حرّيّة الرأي وحرية التعبير للدخول في عصر التنوير الذي يُعدّ شرطاً من شروط الحداثة. والمجتمع العربيّ ما زال جاهلاً إذ يتوافر فيه مائة مليون أمي ويُحرَم من الدخول إلى المدرسة ربع الأطفال الذين هم في سنّ التمدرُس(4). وما زال رجل السلطة العربيّ يضع خطوطاً حمراء على الكلام عن أي موضوعٍ بحرِّية، وعلى الكلام عن الحرِّيّة ذاتها. كما أنَّ

رجل السلطة العربيّ ينظر إلى المواطنة بمنظار الانتماء العرقيّ أو الدينيّ أو المذهبيّ أو العشائري، ويفهم الإخلاص على أنَّه إخلاص الفرد للحاكم لا إخلاصه لوطنه أو دولته أو عمله أو أهله. على حين أنّ الحداثة تنظر إلى المواطنة بوصفها انتماءً فكرياً وقانونياً للدولة، وأنّ إخلاص الفرد وولاءه ينبغي أن يكونا أوّلاً وأخيراً للدولة التي يعيش فيها، والأُمّة التي ينتمي إليها؛ وأنّ الدولة الحداثيّة العصريّة ترى في المواطنين أعضاء متساويين، يتمتّعون جميعاً بحقوق الإنسان بما في ذلك الحقوق الطبيعيّة والمدنيّة والسياسيّة والاقتصاديّة؛ التي يجب أن تضمنها الدولة لهم.

ويتساءل الباحثون في قضايا التنمية: أي عنصر من عناصر الوصفة الثلاثية للتنمية البشرية ينبغي البدء به: الديمقراطيّة، أم التعليم، أم الأخذ بآخر معطيات العلم والتكنولوجيا في الإنتاج والخدمات؟

يميل كثير من الباحثين إلى أنّ الديمقراطيّة هي الخطوة الأساسيّة نحو التنمية البشريّة، لأنّ الأخذ بالديمقراطيّة يقود إلى تعميم التعليم لفائدة جميع أبناء الشعب، وتحقيق المساواة بين المواطنين سواء أكانوا في المُدن أم القرى، وإلى التناوب في الحكم ما يسمح بتجديد الدماء والأفكار والتصوُّرات...إلخ. أما موقف تقارير التنمية البشريّة للأمم المتحدة، فيُستشَفّ منها إمكان تفعيل العناصر الثلاثة معاً في آنٍ واحد.

ويبدو لي ، بوصفي مُعلِّماً من حيث المهنة، أنّ التعليم هو المفتاح الأساس في العملية التنمويّة، وهو البنية التحتيّة اللازمة لجميع البنيات التحتيّة الأخرى مهما كان نوعها؛ لأنّ التعليم المطلوب للعمليّة التنمويّة يُشترَط فيه صفتان:

أولاً، **الشموليّة التامّة**،

ثانياً، **النوعيّة الرفيعة**.

وتعني **الشمولية التامّة** أنّ التعليم يجب أن يكون إلزاميّاً لجميع أبناء الشعب وعلى نفقة الدولة. وبهذا يتحقّق جانب من جوانب الديمقراطيّة المتمثِّل في تساوي الفرص التربويّة أمام المواطنين، كما يحقّق جانباً من جوانب حقوق الإنسان الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، إذ تقوم الدولة بواجبها تجاه الأفراد في توفير المدارس لهم وما يتطلّب ذلك من خدمات صحيّة للتلاميذ الذين يتعلَّمون جميعاً على نفقتها، بل تقدِّم لهم، عند اللزوم، وجبات الطعام الضروريّة لتمكِّنهم من الدرس والتعلُّم. وتشير الإحصاءات التربويّة الحقيقيّة، لا المزيفة، في كلتا الدولتين، فنلندة وكوريا، أن نسبة الأطفال الملتحقين في **التعليم الأساسيّ الإلزامي الذي يشمل السنوات التسع الأولى** من السُّلّم التعليميّ هي أكثر بقليل من 100 ٪ من الأطفال الذين هم في سن التمدرُس (وهذه الزيادة الطفيفة في النسبة المئويّة ناتجة عن تأخر بعض التلاميذ في

إنهاء التعليم الأساسيّ في الفترة المقررة له). وبعبارة أخرى، إنّ التعليم الأساسي يشمل جميع الأطفال بلا استثناء.

أما النوعيّة الرفيعة، فتعني أنّ التعليم متطوّر في أهدافه ومناهجه وطرائقه، بحيث يتعلّم التلاميذ آخر معطيات العِلم والتكنولوجيا، بأحدث الطرائق التدريسيّة الفعّالة، ويكون التعليم مرتبطاً بمحيطه الاجتماعيّ والاقتصاديّ، بحيث يستطيع التلاميذ تطبيق ما يتعلَّمون في قطاعات الإنتاج والخدمات التي يعملون فيها. وغنيٌّ عن القول، إنَّ هذا التعليم الحداثيّ الرفيع يغرس في نفوس الطلاب حبَّ الحرِّيّة والمساواة وحقوق الإنسان وقيم الصدق والجد والإخلاص والإبداع. وهذه القيم الأربع الأخيرة هي شعار التعليم في كوريا (لعدم وجود دين تعتمده الدولة في هذه البلاد، على حين أن أديان العرب السماويّة جاءت بهذه القيم وغيرها). ومعروفٌ أنَّ الحرّيّة والمساواة هما أساس الديمقراطيّة. وهكذا يسهم التعليم في إرساء أُسس الديمقراطية لدى المواطنين عقيدةً وسلوكاً.

ولكي يكون التعليم شمولياً وفعالاً، ينبغي أن يجري باللغة الوطنية المتساوقة مع المنظومة المفهوميّة للمواطنين، بحيث يمكنهم استيعاب المعلومات بشكل أفضل وتمثّلها وإضافتها إلى منظومتهم المفهوميّة، والإبداع فيها.

التعريب:

كلمة «**التعريب**» مشترك لفظيّ باللغة العربية يدلّ على أربعة معانٍ هي:

- **اتّخاذ شعب بأكمله اللغة العربية** لغةَ تواصل، كما في تعريب القبائل،
- **نقل لفظ أجنبيّ إلى اللغة العربية** مع ما يقتضيه ذلك من تعديل وتحوير، كما في قولنا: كلمة « فلسفة « كلمة معرَّبة من اليونانية.
- **ترجمة نصٍّ كامل** من لغة أجنبيّة إلى اللغة العربية، كما في قولنا: هذا الكتاب من تعريب فلان.
- **اتّخاذ العربيّة لغةَ التعليم والإدارة والحياة العامّة** بدلاً من لغة المُستعمِر القديم، كما في تعريب الدواوين في زمن الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان (تولى الخلافة من 65ـ86هـ/685ـ705م)، وكما في التعريب الذي ما زال يطالب به المثقّفون العرب منذ استقلال بلدانهم العربيّة خلال القرن الميلادي العشرين حتّى اليوم.

والتعريب الذي هو موضوعنا اليوم هو التعريب بمعناه الأخير، وهو تعريب لم يتحقّق بصورة تامة في أيّ بلدٍ عربيّ حتى يؤمنا هذا. ولا يعني التعريب، في نظر الذين يطالبون به، عدم تعلّم اللغات الأجنبية، ولكنّه يعني عدم تعليم أبناء العرب باللغات الأجنبية، وضرورة

التعليم باللغة العربية، واستعمال العربية في الإِدارة والحياة العامّة. فالتعليم العالي، خاصّة في الأقسام العلميّة والتقنيّة ما زال يتمّ بلغة المُستعمِر القديم. والمؤسَّسات التجارية في معظم المدن العربيّة الكبرى تستعمل لغة أجنبية كليّاً أو جزئيّاً، وشوارعنا ملوَّثة لغوياً، والإدارة في بلدان المغرب العربيّ تصرّ على الاستمرار في استخدام اللغة الفرنسية في أعمالها ومخاطبة المواطنين بالفرنسية التي لا يجيدها معظمهم، وهكذا..

وعلى الرغم من أنّ جميع المجامع والأكاديميّات اللغويّة والعلميّة في الأقطار العربيّة وجميع النقابات والجمعيّات المهنيّة، كنقابات المهندسين والأطباء والمعلِّمين وغيرها، تطالب في مؤتمراتها السنويّة، منذ أكثر من نصف قرن، بالتعريب الشامل(5)، فإِنَّ النخب السياسيّة الحاكمة لا تأبه بتلك التوصيات أو تعارضها صراحة، بحجة عدم وجود مصطلحات علميّة عربيّة كافية، أو ندرة المعاجم العربيّة المتخصِّصة، أو قلة المصادر العلميّة باللغة العربيّة، أو أنّ التقدُّم العلميّ يقتضي استخدام لغة عالميّة كالإِنكليزيّة والفرنسيّة. وهي حجج واهية ثبت بطلانها بآلاف الدراسات والبحوث العلميّة.

والتعريب ليس شاملاً في البلاد العربية حتّى في مراحل التعليم الابتدائيّ أو أقسام الدراسات الإِنسانيّة في التعليم العالي التي من المفترض أن تكون معرّبة؛ لأنّ الحكومات العربيّة تسمح للمدارس والجامعات الأجنبية وللمدارس والجامعات الخاصّة باستعمال لغة أجنبيةٍ وسيلةً للتعليم. ولا تُعلَّم اللغة العربية في هذه المدارس والجامعات الأجنبيّة أو الخاصّة إلا بوصفها لغةً أجنبيّة تُخصص لها ثلاث أو خمس ساعات أسبوعياً في المنهج المدرسيّ!! وهذه المدارس والجامعات الأجنبية والخاصّة تتقاضى أجوراً دراسيّة عالية من التلاميذ لا يقدر على أدائها إلا أولاد النخب السياسيّة والاجتماعيّة في البلاد. وخريجو هذه المدارس هم الذين سيتولون المناصب الحكوميّة العليا أو يهاجرون إلى الغرب بوصفهم عقولاً مهاجرة، حيث يشعرون بارتياح أكبر في العيش ببلادٍ تربّوا على ثقافتها وعقليّتها.

التعريب والتنمية البشريّة:

نعتقد أنّ عدم التعريب الشامل يؤدّي إلى عرقلة التنمية البشرية التي تتوخاها بلداننا العربية وذلك للأسباب التالية :

يتّفق الباحثون على أنّ تأصيل العلوم وإشاعتها بين أفراد شعب من الشعوب لا يتمّان إلا بلغة ذلك الشعب. أمّا إذا كانت المعلومات العلميّة متوافرة بلغة أجنبيّة فقط، فإِنّ نخبةً محدودةً من الشعب تتمكّن من الاطلاع عليها، ويبقى الشعب مستهلكاً للمعلومات والمُنتَجات العلميّة والتكنولوجيّة دون أن يتمكن من تمثّلها توطينها وتأصيلها وإنتاجها والإِبداع فيها.

إنّ تأصيل اللغة العلميّة وإشاعتها لا يمكن أن يتمّ إذا اقتصر تعليم العلوم باللغة الوطنيّة على مرحلة تعليميّة محدودة، وإنّما ينبغي أن يعمّ جميع مراحل التعليم من أوّلها إلى آخرها. إنَّ تغيير لغة التلقين من مرحلة تعليميّة إلى أخرى سيؤدّي حتماً إلى ضعف ملحوظ في التحصيل. وقد ثبت بالخبرة والتجربة أنّ الطلبة الذين يتلقّون المادة العلميّة بلغتهم الوطنيّة يستوعبونها بصورة أعمق ويتذكرونها لمدّة أطول من أولئك الذين يتلقّونها بلغة أجنبيّة. فقد أجرى باحثون جامعيون في المغرب تجربةً تشمل اختباراً مكوناً من 10 أسئلة متعلّقة بالفيزياء و12 سؤالاً متعلّقاً بالكيمياء، وصاغوا هذه الأسئلة باللغة العربية وأيضاً باللغة الفرنسية, وأُعطي الاختبار لـ 40 تلميذاً وتلميذة بثلاث ثانويات، وعند فرز النتائج تبيّن ما يأتي:

– الأجوبة الصحيحة باللغة العربية تصل إلى 57.68٪،

– الأجوبة الصحيحة باللغة الفرنسية تصل إلى 48.34 ٪

وقد تمّ التأكُّد من نفس النتيجة بكلِّيّة العلوم في ابن مسيك بالدار البيضاء، حيث تمَّ في نفس الدراسة الاطلاع على نتائج 378 من الطلبة المعرَّبين و549 من الطلبة المزدوجي اللغة بشعبة الفيزياء-الكيمياء. و« عند مقارنة نتائج التلاميذ بالتعليم الثانويّ مع نتائج طلبة التعليم العالي، تأكَّدت نفس النتيجة، التي مفادها أنَّ تعليم المواد العلميّة باللغة العربيّة يؤدّي إلى تفوُّق المتعلِّمين بشكل كبير على أولئك الذين يتعلّمون نفس المواد باللغة الفرنسية. »(6)

وقد أُجريت تجارب مماثلة في الجامعات السعودية والسودانية والمصرية والعراقية وأعطت نتائج مماثلة.(7)

ومن ناحية اقتصاديّة، تتوقّف خطط التنمية الاقتصاديّة على تفهُّم جميع قطاعات الشعب لها وتعاونهم في تنفيذها. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال المؤسَّسات التعليميّة، والإعلاميّة كالصحافة والإذاعة والتفلزة. وهذا يتطلّب أساساً محو الأُمّيّة، أي تعليم جميع أبناء الشعب القراءة والكتابة، وهي عملية تتطلّب جهوداً مركّزة. ومعروف أنّ محو الأُمّيّة الشامل لا يتمُّ باستخدام لغة أجنبيّة، وإنّما باستعمال اللغة الوطنيّة التي يتواصل بها الناس في حياتهم اليوميّة، وتشكّل جزءاً من ثقافتهم، فيسهل عليهم تعلّمها.

إنّ تعليم العلوم والتقنيّات بلغة أجنبيّة يؤدّي حتماً إلى انغلاق المؤسّسة التعليميّة على نفسها وعدم انفتاحها على محيطها الاجتماعيّ والاقتصاديّ، وإلغاء دورها القياديّ في عمليّة التنمية البشريّة الشاملة، وتقليص القيمة العمليّة للبحوث العلميّة التي تُجريها. والسبب في ذلك واضح وبسيط وهو أنّ أغلبيّة أبناء الشعب لا تجيد اللغة الأجنبيّة، فإتقان لغة أجنبيّة يحتاج إلى استعداد خاصّ وسنوات طويلة من التعلّم والتدريب، وهو ما لا يتوافر للأغلبيّة الساحقة من الشعب التي لا تواصل تعليمها حتّى آخر الشوط.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الجامعيّ الذي تلقّى تعليمه باللغة الأجنبيّة يكون تأثيره في محيطه محدوداً، وتفاعله مع العاملين معه قاصراً. فالطبيب لا يستطيع أن ينقل معلوماته الطبّيّة إلى العاملين معه من ممرضين ومساعدين وعمال، ولا يستطيع أن يتواصل مع مرضاه ويشرح لهم أسباب مرضهم وأعراضه وعلاجه ووسائل الوقاية منه ، ولا يستطيع أن يكتب لهم تقريراً يفهمونه عن حالتهم الصحّيّة ومرضهم، ولا يتمكّن من كسب ثقتهم لأنّه لا يستطيع التواصل معهم بسهولة. والمهندس هو الآخر لا يستطيع رفع كفاءة العاملين معه من تقنيّين وفنيّين وعمال مهرة بسبب الحاجز اللغويّ. وكذلك المهندس الزراعيّ الذي لا يتمكن من التواصل بفاعلية مع الفلاحين والمرشدين الزراعيّين وموظّفي الخدمة الاجتماعيّة، وهكذا دواليك.

دور اللغة في فنلندة وكوريا:

في دراستنا للتنمية البشريّة في فنلندة وكوريا، وجدنا أنّ اللغتَين الفنلنديّة والكوريّة تُستخدمان أداةً للنفاذ إلى مصادر المعلومات وإشاعة المعرفة العلميّة والتكنولوجيّة، على الرغم من أنّهما ليستا في عداد اللغات العالميّة أو اللغات ذات التاريخ الحضاريّ العريق. في كوريا، مثلاً، يتمّ استعمال اللغة الكوريّة لغة للتعليم في جميع مراحله، ومتباين مستوياته، ومختلف تخصُّصاته (طبعاً باستثناء تخصُّصات الترجمة واللغات والآداب الأجنبيّة). وتستعمل اللغة الكورية في البحث العلميّ كلّه كذلك، وهو بحث قطع شوطاً بعيداً وبلغ شأواً عالياً، بحيث يمكّن كوريا التي لا تملك ثروات طبيعيّة، من استيراد ما مقداره 256 مليار/بليون دولار سنويّاً من المعادن والطاقة، ثمَّ تحوّيلها، بالعلم والتكنولوجيا ومستجدات البحث العلمي، إلى معدّات إلكترونية وثلاجات وتلفزيونات وسيّارات، ثمَّ تصدّيرها بمبلغ 288 مليار/بليون دولار. وهكذا يكون معدل الدخل الفردي أكثر من 20 ألف دولار سنوياً، ما يمكِّن المواطن الكوريّ من العيش بصورة تليق بالكرامة الإنسانية.

وفي شوارع العاصمة سيول والمدن الكوريّة الأخرى، لم نسمع غير اللغة الكوريّة، ولم نرَ غير الحرف الكوريّ، إلا حينما تقضي الضرورة بكتابة أسماء بعض الأماكن باللغة الإنجليزية أو بالحرف اللاتيني، كما في المطارات والسفارات والشركات الأجنبية، فإنّ الاسم يُكتَب أوّلاً بالكوريّة وتحته بالإنجليزيّة أو بالحرف اللاتيني بخط أصغر. وتوجد في كوريا أكثر من مائة محطّة إذاعة وتلفزة كلّها خاصّة ما عدا واحدة حكوميّة، وجميع هذه المحطّات تستخدم الكوريّة الفصيحة، لا اللهجات الكورية، في برامجها، من أجل تعزيز اللغة الكورية لدى التلاميذ وغيرهم من المتعلمين. (8)

خاتـمة:

ثمة سؤال يطرح نفسه بإلحاح مفاده: إذا كان التعريب شرطاً لتعميم التعليم ونشر المعرفة العلميّة والتكنولوجية وأداةً لتحقيق التنمية البشريّة، كما تدّعي النخب المثقفة والعلمية، وفي طليعتها مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، فلماذا تعارض النخبُ السياسيةُ التعريبَ ولا تفرضه بقرار ملزم، علماً بأنّها تعلن رغبتها في إيجاد مجتمع المعرفة وإحداث التغيير والتطوير والتقدُّم؟

قبل الإجابة على هذا السؤال، لا بدّ من الإشارة إلى واقعة تاريخيّة باختصار.

في غضون الألف الثاني قبل الميلاد، كان ملوك المدن السومريّة يدّعون أنساباً تصلهم بآلهة أسطوريين متخصّصين كإله الشمس وإله الريح وإله الرعي وإلهة الجمال والحُبّ، إلخ.، ما يخوّل أولئك الملوك الحقَّ في استعباد أبناء الشعب، وتسخيرهم لمصالحهم، ومصادرة أموالهم أحياناً. وكان يدعم سلطة أولئك الملوك مؤسّساتٌ دينيّة تقيم المعابد التي تحمل أسماء الآلهة الأسطوريّين، مثل معبد عشتار، ومعبد ننسون ومعبد مردوخ. وكانت المؤسَّستان الحاكمة والدينيّة تتمتعان بامتيازات الثروة والجاه، والتعليم لأبنائها، والبغاء المقدس لمتعها. وعلى الرغم من ظهور بعض الملوك المُصلِحين الذين أصدروا القوانين وأسَّسوا محاكم تحفظ بعض حقوق المواطنين، فإن الغُنم، بشكل إجماليّ، كان من نصيب الحكّام وأعوانهم، وكان الغرم يقع على الشعب الذي كان يتوجّب عليه تقديم التضحيات المعنويّة والماديّة وأحياناً الأضاحي البشريّة من أبنائه، إرضاءً للآلهة أو تمكيناً لسحر الكهنة.

في تلك الظروف اللاإنسانيّة، جاءت دعوة التوحيد لسيدنا إبراهيم الخليل (ع)، بمثابة رفض للأوضاع القائمة والمطالبة بالمساواة بين البشر. وخلاصة دعوته –بإيجازٍ مخلٍ– هي أن لا إله إلا الله الواحد الأحد، الذي يلغي وجود أولئك الإلهة الأسطوريّين وسلطة الحكّام المنتسبين إليهم. وأننا جميعاً مخلوقات الله وعبيده، ومساواتنا في العبودية لله تلغي عبودية الإنسان للإنسان ولا تجوز العبودية لغير الله؛ ولأنّ الأرض والمعرفة هما ملكٌ لله، فلا يحقّ لأحد أن يستأثر بهما، بل هما لجميع مخلوقاته وعبيده ليعمروا الأرض ويستخدموا المعرفة فيما ينفع الناس؛ وينبغي أن يُتاح الاستثمار والتعلّم لجميع البشر ويُحرَّم الاحتكار من كل نوع، ثروةً كان أم علماً. ولا يمكن أن يُضحّى بطفل، وإنّما يجب أن يُضحى من أجل الأطفال بكبشٍ يأكل لحمه الجياع. وبسبب هذه الدعوة الإلهيّة التوحيديّة، استحق سيدنا إبراهيم الخليل (ع) من حكّام مدينة أور السومريّة الكلدانيّة الحكمَ عليه بالموت حرقاً، وبعد نجاته تمّ نفيه من البلاد (9).

واليوم، يرى بعض الباحثين العرب المعاصرين أنَّ رفض التعريب وإبقاء نوع أو مستوى من التعليم بلغة أجنبيّة لا تجيدها الجماهير، عبارة عن حصر للتعليم والمعرفة العلمية في نسبة محدودة من الناس، وأنَّ بعض النخب الحاكمة في البلاد العربيّة، التي كوّنها المستعمر القديم لا

تجيد العربية، وأنّ مصالحها ومصالح أبنائها الذين يتلقّون التعليم بمدارس أجنبية وبلغة أجنبية، ترتبط ببقاء هذه اللغة مهيمنة في الإدارة والتجارة. أو على حدّ تعبير أحد هؤلاء الباحثين، الأستاذ مصطفى صبري، في دراسة عنوانها «**تعريب التعليم العالي والمحيط حق ديمقراطي وضرورة تنمويّة، والتزام حضاريّ**» :

« ... **إن الإجماع الوطني على تعريب التعليم العالي كان كاملاً وأنه أمر لا مناص منه. ولكنّ القوى المناوئة لخيارات الشعب المغربيّ ما فتئت تنشط لعرقلة المسيرة مسخِّرة مواقعها الاجتماعيّة والإداريّة، وإمساكها بدواليب مراكز القرار أو على الأقل اقترابها الشديد منها، ومستغلة كذلك الديمقراطيّة المعاقة لتمرح ضد الأهداف الوطنيّة مفضلةً مصالحها الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، ومستقوية بوشائجها العضوية المتينة بالدوائر الفرانكفونية...**»(10)

إنَّ حصر التعليم، والتعليم العالي بوجه خاص، في نسبة محدودة من الناس، وجعل التعليم الابتدائيّ والثانوي الجيّد مقتصراً على المدارس الخاصة، وبلغة أجنبية لا تتقنها عامّة الناس، يؤدي، في المحصلة، إلى عرقلة التنمية البشريّة واستئثار نخبة محدودة بالحكم والسلطة. ولعلّ هذا يفسّر تلكؤ النخب الحاكمة في البلاد العربيّة في إتمام التعريب وتعميم التعليم.

ولكن يمكننا أن نؤكد بكلّ ثقة واطمئنان أن التنمية البشرية هي في مصلحة الجميع بمن فيهم النخب الحاكمة، إذ سيستتب السِّلم الاجتماعيّ، ويتمتّع الجميع بخيرات البلاد، فلا يضطر بعضهم إلى السفر إلى الخارج للعلاج، ولا يفقد الأبناء عن طريق هجرة الأدمغة، لأنهم تعلموا في مدارس أجنبية خاصة، أو لأنهم لا يجدون عملاً يدرّ عليهم دخلاً يمكّنهم من الحياة بطريقة مناسبة للكرامة البشرية.

الهوامش

(1)UNDP, Human Development Report 2007/2008. Fighting Climate Change : Human Solidarity in a Divided Word New York: UNDP, 2007

وللتقرير ترجمة عربية بعنوان :

تقرير التنمية البشرية 2007 / 2008 : محاربة تغيّر المناخ : التضامن الإنساني في عالم منقسم .

(2) المرجع السابق

(3) تناولت التجربة الفنلندية في التنمية في كتابي :

–علي القاسمي، **الجامعة والتنمية** (الرباط : المعرفة للجميع، 2002) .

وهناك دراسات عن أسباب نجاح التنمية في البلدان الأخرى، مثل :

– مسعود ضاهر، **النهضة اليابانية المعاصرة، الدروس المستفادة عربياً** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2004) .

– محمود فهمي حجازي، **أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي** (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، 1974)

(4) الإحصاءات مقتبسة من بيان للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم يوم 8 / 1 / 2008 بمناسبة « اليوم العربي لمحو الأمية » . ويلاحظ أن بيان المنظمة ذاتها سنة 2006 أشار إلى وجود 70 مليون أُمي فقط، وهذا يعني أن الأميّة في ازدياد .

(5) توجد خلاصة بمطالبة هذه المؤتمرات بالتعريب في كتاب : علي القاسمي، **الجامعة والتنمية**، ص 201ـ210 .

(6) عبد الكريم غريب، « إشكالية التعريب بين التعليم الثانوي والعالي : دراسة ميدانية » في مجلة « **عالم التربية** » المغربية، العدد الرابع، خريف 1996، ص133ـ160 .

(7) انظر بعض تلك التجارب في : علي القاسمي، **الجامعة والتنمية**، في الفصل الحادي عشر .

(8) يوسف عبد الفتاح ، « التجربة الكورية في التخطيط اللغوي » دراسة قُدّمت في مؤتمر « لغة الطفل العربي في زمن العولمة » الذي عقده المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة، 17ـ19 / 2 / 2007 .

(9) للتفاصيل انظر: علي القاسمي، **العراق في القلب: دراسات في حضارة العراق** (بيروت/الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004) خاصّة الفصل الأول، «السومريون قوم نوح»، والفصل الثاني «هو الذي رأى: ملحمة كلكامش»، والفصل الثالث، « عشتار إلهة الحب والخصب والجمال».

وتناولتِ المؤسَّسات السياسيّة والدينيّة في سومر مؤلّفات كثيرة منها:

– نوح كريمر، **السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم**، ترجمة فيصل الوائلي (الكويت: وكالة المطبوعات، 1973)

– بهاء الدين الوردي، **قوم نوح حسب المستندات العلمية** (مراكش: دار وليلي، 1996)

(10) مصطفى صبري، «تعريب التعليم العالي والمحيط حقٌّ ديمقراطيّ، وضرورة تنمويّة، والتزام حضاري» في مجلّة «**عالم التربية**» المغربيّة، العدد الرابع، خريف 1996، ص 82.

اللغة الوطنية عماد التنمية الشاملة

العميد / الهاشمي حجرس – الجزائر

تعتبر اللغة من المقومات الأساسية التي ترقى بها الأمة، وتبني عليها حضارتها وتاريخها، وتحافظ بها على ذاكرتها.

والشعوب التي حققت تطورا كبيرا ونموا مطردا في مختلف مجال الحياة، تمكنت من ذلك بفضل رصيدها العلمي والثقافي والمعرفي عموما.

كما أن الدول بمختلف نظمها الاقتصادية والاجتماعية وتوجهاتها السياسية تعمل جاهدة لمسايرة التقدم العلمي والتقني العالمي، حتى لا تبقى في مؤخرة الركب في كسب المعارف والتقنيات الجديدة.

وإلى عهد قريب كان السباق بين ما يسمى بالدول العظمى في سباق التسلح هدفا أساسيا لكسب سيطرتها وبسط نفوذها العسكري.

والآن، والسباق بين المعسكرات لم يعد بنفس الحدة كما كان في الماضي يتزايد الاهتمام بصفة خاصة بالمجال الاقتصادي الذي تتنافس فيه الدول والشعوب، سلاحها في ذلك البحث العلمي والتقدم التقني ودقة الابتكار وتنوعه في مختلف مجالات الحياة.

وهكذا، تحولت المنافسة بين الدول لفرض الهيمنة والسيطرة على الغير «المتخلفين» بقوة السلاح والتدخل المباشر في الشؤون الداخلية، إلى السعي والعمل للتحكم في الاقتصاد العالمي بقوة الثقافة والعلوم والمعرفة الدقيقة، وبقي الضعفاء والمتخلفون عن الركب المتقدم باستمرار يراوحون مكانهم، فكانت الغلبة للأقوياء ثقافيا، علميا واقتصاديا.

والأمثلة على هذه الحقيقة كثيرة

فهذه اليابان التي دمرت مناطق شاسعة منها عن آخرها في الحرب العالمية الثانية بالسلاح النووي إذ جربت فيها القنبلة الذرية الأمريكية على مدينتين منها، أحدثت خسائر بشرية مادية وعمرانية وإنسانية رهيبة لا تعد ولا تحصى.

لكن اليابانيين قيادة وحكاما وشعبا رغم ضخامة المأساة واتساع الدمار عرفوا كيف يعيدون بناء الوطن المدمر ورفع معنويات الأمة المهزومة، وإحياء الحضارة العريقة والثقافة الوطنية والعلوم حتى أنهم الآن يضايقون ويسابقون خصومهم وأعداءهم بالأمس في المجالات الاقتصادية والعلمية والتجارية والصناعية،

فمن كسب العلم كسب القوة .

وهذه ألمانيا التي دمرت هي الأخرى كاليابان في نفس الحرب أصبحت في المقدمة في النمو الاقتصادي والتقدم العلمي في أوربا .

وتسعى كل الدول إلى تطوير لغاتها الوطنية، وجعلها تساير التقنيات العلمية وما ظهر منها من اكتشافات واختراعات وابتكارات .

وأهم تقدم علمي ما تم باللغة الوطنية .

وفي بلادنا المستعمرة الفرنسية مدة مائة وثلاثين سنة أو تزيد فقد حاول المحتل الأجنبي بكل م أوتي من قوة – وما أكثرها – أن يقضي نهائيا على اللغة العربية وما يتصل بها من دين وأخلاق وتقاليد اجتماعية وحضارية، لكنه لم ينجح فحاربها ومنعها في التعليم والمعاملات.

وتلك سياسة التجهيل والتضليل والحرمان التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري الذي ساهم بقوة وإصرار في تشييد مدارس التعليم الحر التي أنشأتها الحركة الوطنية وجمعية العلماء في مختلف جهات الوطن

وللزوايا التي عنيت بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم قواعد اللغة العربية وأصول الدين، دور هام في بقاء اللغة الوطنية وانتشارها وتطويرها.

وباستعادة السيادة الوطنية والحرية بفضل ثورة أول نوفمبر المسلحة انتشر التعليم في كل المستويات والمواد وأصبحت مختلف مؤسسات التعليم والتكوين تخرج آلاف الطلبة سنويا في مختلف الفروع ومكنت الشباب من اكتساب المعرفة والعلوم –حتى الدقيقة منها – في الجامعات التي يكاد عددها يوازي عدد ولايات الوطن.

والتحدي الآن هو في العمل الجاد والمجهود المتواصل لتحقيق التنمية الشاملة لفائدة الشعب بجميع فئاته وبخاصة الضعيفة منها.

ويعمل المجلس الأعلى للغة العربية مشكورا منذ انتشائه لتمكين اللغة العربية من التطور والتقدم باستمرار لتؤدي مهامها على أكمل وجه .

نحو مصالحات لغوية ومصارحات

د. ممدوح محمد خسارة – سورية

الاختلاف في النظرة إلى الأمور والقضايا تحليلاً وتعليلاً من طبائع الأشياء ومن سنن الحياة، ولكن الاختلاف – وهو شيءٌ مشروع وطبيعي- يمكن أن يهدَّأ فيفضي إلى تعايش وتوافق، كما يمكن له أن يَصعَّد إلى نزاع فصراع، إلا أن ذينك الأمرين: التهدئة والتَّصعيد ليسا عفويَّيْن، بل هما غالباً ثمرة جهد ثقافيٍ تمارسه الأطراف المعنية بالأمر. ويؤمل أن يصبَّ هذا البحث في إطار جهود التَّهْدئة والتوافق لا التَّصعيد والتصارع بين أبناء العربية أو متكلميها. ولم يدر في خلدنا أن أي جهد توفيقي، مهما علا كعبه من العقلانية والموضوعية والتَّسمُّح، قادرٌ على إزالة الخلاف، لأنه –كما قدمنا- سُنَّةٌ، وقصاراه أن يُلْجمه عن أن يتطور إلى تناحر. وإذا كنا نلحُّ على نهج المصالحة فذلك لأننا نؤمن بأنه إذا كان النزاع عرقلة للتقدم نحو الأفضل فإن الصِّراع مَقْتَلَة له.

كان من الطبيعي أن تخضع اللغة العربية – وهي مع العقيدة ركنا الأمة وجناحا حضارتها- لناموس الحياة في الخلاف والاختلاف، لاسيما أن اللغة العربية أمٌّ لجميع العرب، وهم شركاء في ميراثها، فكما لا يجوز لنفر من الأبناء ادعاء الإرث المادي دون فريق آخر، كذا لا يجوز لنفر من أبناء اللغة أو متكلِّميها ادِّعاء ملكيَّتها والحجر على الآخرين في حقهم في المشاركة والنظر فيما يرونه من صلاح شأنها أو صلاح شأن المتلاغبين بها.

ولكن ليس من الطبيعيّ أن يصل الخلاف بين أبناء العربية أو متكلِّميها إلى مواقف وآراء تبلغ حدَّ القَتْل على الحرف، كما القتل على الهوية أيام الفتن، وأن تدخل إلى اللغة مصطلحات السياسة من نحو الخيانة والتآمر والعمالة التي نرفضها حتى في السياسة بله اللغة والثقافة، ذلك أن الغالبية العظمى من المتنازعين تنطلق من مبدإ الحرص على وجود الأمة وتقدمها، نقول الغالبية، لأننا لا نعدم من أبنائها من يحاول الانسلاخ عنها. ومع ذلك فلن نيأس من دعوتهم إلى كلمة سواء، ومن يدري فقد ينقلب العدوُّ الألدُّ – بالكلمة الطيبة- إلى وليٍّ حميم.

إن هذه المصالحات تندرج في إطار ما يُسَمَّى التوعية اللغوية، إذ ليست التوعية مقتصرة على إدراك أهمية اللغة وحتمية التمسُّك بها، سبيلاً للبقاء الحضاري والثقافي، بل هي أيضاً سَدُّ الفُرْجة وردم الهوَّة ما أمكن بين التيارات المختلفة من أهل هذه اللغة.

وبعد، فإن المصالحات التي ندعو إليها – وصيغة الجمع للمشاركة ليس إلا- تشتمل على ثلاثة محاور هي:

- المصالحة بين دعاة الفصحى والعاميَّة.
- المصالحة بين المتشدِّدين والمتساهلين من اللغويين.
- المصالحة بين دعاة التعريب ودعاة التغريب في التعليم.

الأولى: المصالحة بين دعاة الفصحى والعاميَّة:

لعل من المفيد التذكير بأن العامية تعني – إجمالاً– ماأدخله العامة على الفصيحة من لَحْنٍ في الإعراب أو تغيير في بنية الكلمة الصرفية أو الصوتية[1] – ويزيد بعضهم الدلالية– أو في بناء الجملة تركيباً وترتيباً.

ومن الضروري التقديم لهذه المصالحة بمجموعة من المصارحات:

1) لابد من الاعتراف بأن الفصحى والعامية هما مستويان للخطاب اللغوي العربي، وهما مستويان عريقان في ثقافتنا العربية ولغتنا.

لقد عاشت العامية منذ الجاهلية إلى جانب الفصحى، وكان العرب يفهمون المستويين من الخطاب اللغوي. فما الحروف التي عدَّها سيبويه زيادة على الحروف الخمسة والثلاثين والتي وصفها بأنها (غير مستحبَّة) إلا بدايات تغيير في البنية الصوتية، وهذا التغيير شكل من أشكال اللهجة العامية، قال: «فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً.. وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين، يؤخذ بها وتُسْتَحْسَنُ في قراءة القرآن والأشعار.. وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرْتَضى عربيَّتهُ ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف.. والباء التي كالفاء.»[2].

وما الأغلاط التي كان يقع فيها بعض العرب في صدر الإسلام إلا مظهرٌ من مظاهر العاميَّة المبكرة، كذلك الذي لحن في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضَلَّ»[3]. أو ذلك الذي جاء إلى زياد والي البصرة يشكو أخاه قائلاً: «أصلح الله الأمير. توفي أبانا وترك بنونا... فقال زياد: توفي أبانا وترك بنونا!! ادعُ لي أبا الأسود، فقال ضع للناس الذي كنت قد نهيتك عنه»[4]، وكان زياد قد نهى أبا الأسود – في بعض الروايات– أن يضع علم النحو. بل وزعم أن بعض علماء اللغة كانوا يتوكَّؤُون على العامية في بعض عباراتهم حتى العلمية منها، مثال ذلك ما ورد في تهذيب اللغة: «قال أبو العباس [عن كتاب العين للخليل]:

1– نظر: السيوطي – المزهر في علوم اللغة 1: 311.
2– سيبويه – الكتاب 4: 431 – 432.
3– ابن جني – الخصائص: 2: 8 و 3: 246.
4– ابن قتيبة – عيون الأخبار: 2: 159.

(ذلك كتابٌ مَلاَ غُدَد)، وحقه عند النحويين (مَلان غُدَداً) ويعني بذلك أنه فيه فساداً « كفسادِ الغدد وضَرِّ آكليها . »[1] . بل قد لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن كثيراً مما ورد من كلام الجاهليين خارج القياس اللغوي إنما هو مستوى عاميّ من الخطاب، اصطلح اللغويون على تسميته : (شذوذاً أو لغة رديئة أو لغة قبيلة بعينها) . لقد كانت لغات بعض القبائل نوعاً من عامية ذلك العصر لأن مفهوم العامي عند معظم اللغويين القدامى هو التغيير[2] . أليست لغة قيس في (يا أبي : يا أبَ ويابَ ويابةَ) هي مما نعدُّه اليوم عاميًّاً؟ وكذا ما ذكره الأزهري، قال : « سمعْتُ بعض بني سليم يقول : (كما أَنْتَني) أي انتظرني في مكانك » [3]. وذكر صاحب اللسان نحو سبع وثمانين كلمة نسبها إلى العامية، من نحو قولهم « خُطَّة والعامة تقول (خُطْيَة) . . وعصا مُعْوَجّة والعامة تقول (مِعْوَجَّة) . . . والقارس : البارد، والعامة تقول (قارص) » [4] .

ولكن الملاحظ أن كثيراً مما كان يُعَدُّ عاميًّاً في ذلك العصر هو اليوم فصيحٌ لا يُستغنى عنه، نحو (المرايا) جمع مرآة وقياس جمعها (مَراءٍ)، و(البَقَّال) وفصيحها البَدَّال، و(الكُزاز) [مرض] وفصيحها عندهم الكُزَّاز [5] . مما حدا بي إلى القول بشيء من العمومية (عامية القدماء فصيحة المعاصرين)، ذلك أن الشيوع من عوامل الفصاحة . ولكن يجب التنبُّه إلى أن مانعنيه بالفصيحة هو الكَلِمُ المنقاد لأنظمة اللغة النحوية والصرفية والصوتية، أما الفصحى بصيغة التفضيل فيقصد بها عربية عصر الاحتجاج .

لذا لا يجوز التبرُّؤ من العامية وكأنْ لا قرابة بينها وبين الفصيحة، كما لا يجوز التبرُّم من الفصيحة وكأنها لغة محنَّطة عَفَّى عليها الزمن، فهما مستويان للخطاب اللغوي العربي يتجاذبان مساحة اللغة العربية زيادة ونقصاناً بحسب انتشار العلم والتعليم، تضيق الفجوة أحياناً وتتَّسع أحياناً أخرى، ولكن يبقى المستويان عربيَّيْن .

2) الإقرار بأن كلاًّ من المستويين : الفصيح والعامي أصيلٌ وثابت في العربية وهو عصيٌّ على الزَّوال، لا العامية استطاعت أن تزيح الفصيحة حتى في أحلك عصور الرُّكود الثقافي التي مرت بها الأمة أي في العصرين المملوكي والعثماني، ففي تلك العصور التي طغت فيها العامية صُنِّفت أهم الموسوعات اللغوية كلسان العرب والقاموس المحيط، والموسوعات الأدبية كصبح الأعشى والكتب الطبية لابن النفيس . كما لم تستطع العربية الفصحى في أزهى عصورها الثقافية وهو العصر العباسي، إقصاء العاميَّة، وبلغت من التأثير ما جعل أكبر أدبائنا

1– الأزهري – تهذيب اللغة 1 : 29 .

2– ينظر : المزهر في علوم اللغة 1 : 310 – 311 .

3– ابن منظور – لسان العرب : عند

4– الأزهري – تهذيب اللغة 1 : 29 .

5– ينظر : المزهر في علوم اللغة 1 : 310 – 311 .

لذلك العصر وهو الجاحظ يدعو لالتزامها في بعض السَّرْد الأدبي إذ يقول: «إذا سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحة من مُلَح الحشوة والطَّغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تَتَخَيَّرَ لها لفظاً حسناً، أو تجعل من فيك مخرجاً سريّاً، فإن ذلك يفسد الإمتاع ويخرجها عن صورتها ومِن الذي أريدت له»[1].

ابتدأ التأليف في لحن العامة وأغلاطها منذ منتصف القرن الهجري الثاني وبلغت تلك الكتب العشرات منها: (ما تلحن فيه العوام) للكسائي (189هـ). ومنها (لحن العوام) للزبيدي (379هـ)، وتكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي (539هـ)[2]. ولكن هل استطاعت عشرات الكتب المصنَّفة لغرض إصلاح اللحن في لغة العامة أن تقضي على العامية؟

بل إن حركة التأليف في لحن العوام والعامية إجمالاً، قابلها حركة تأليف في إنصاف بعض الكلم العاميّ الذي خُطِّئَ في مصنفات أصحاب التثقيف اللغوي، ولعل أولها كتاب (بحر العَوَّام فيما أصحاب فيه العوامّ) لابن الحنبلي (971هـ)[3] ولا تبعد معاجم فصاح العامية أو تفصيح العامي أو ردِّ العامي إلى الفصيح التي يُصَنِّفها المحدثون عن ذلك الغرض، وهو رَدُّ الاعتبار إلى بعض الكلمات التي وُصِمَتْ بالعامية أو اللحن وهي ليست كذلك. ونذكر منها على سبيل المثال (معجم فصاح العامية) لهشام النحاس، ومعجم (رد العامي إلى الفصيح) للشيخ أحمد رضا، و(معجم فصيح العامية) لأحمد أبو سعد. و(معجم تهذيب الألفاظ العامية) للشيخ محمد علي الدسوقي، و(معجم فصاح العامية من لسان العرب) لكاتب هذه السطور وهو قيد الطبع.

إن قدر هذين المستويين اللغويين أن يتعايشا؛ لم يستطع أحمد لطفي السيد ولا عبد العزيز فهمي في مصر بوزنهما السياسي والثقافي أن يزعزعا الفصيحة عن مكانتها رغم دغدغة عواطف الناس بدعوتهما إلى تمصير اللغة العربية، وكان الناس في عصرهم أشدَّ التفافاً حول رموز الفصاحة كالرافعي والزيَّات والعقاد والجارم. وقصَّر عن ذلك في لبنان أمين الشمِّيل ماردن غصن الذي تنبَّأ عام (1925) بموت العربية الفصحى[4] مستضيئاً بتاريخ اللغتين اليونانية واللاتينية وداعياً للعامية السورية، فكان إلى جانبهما دعاة الفصحى وأدباؤها كالشدياق واليازجي وجبران الذين أثروا العربية لغة وإبداعاً عزَّ نظيره. لم تصدق أحلام أنصار العامية بزوال الفصيحة، ولم تتحقَّق أمنية أنصار الفصحى بزوال العامية، بقيت الفصيحة لغة أدب وصحافة وإدارة وعلوم، وبقيت العامية لغة حياة يومية، تتعايشان تحت سقف واحد، وبقي حتى أصلب المنافحين عن الفصيحة يخاطب

1- الجاحظ – البيان والتبيين: 111.

2- د. أحمد قدور – مصنفات التثقيف اللغوي: 55- 56.

3- المصدر السابق نفسه.

4- د. نسيم خوري – الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية: 158، 162.

صغاره ويتحبَّب إليهم بالعامية، وبقي أعند المدافعين عن العامية يعبر عن أفكاره وأبسط ملاحظاته باللغة الفصيحة، وحتى عندما يدعو إلى العامية ويروِّج لها فإنه يلجأ إلى الفصيحة.

3) إن الاتجاه اللغوي العام هو التقارب بين مستويَي العاميّ والفصيح، إذ ليس بمقدور أي من الفريقين الاستغناء بالمطلق عن أسلوب الفريق الآخر. فقد أدت ثورة الاتصالات والإعلاميات إلى إنشاء القنوات الفضائية العربية العامة والخاصة، وصارت هذه الفضائيات تتسابق في جذب المشاهدين إليها بما تقدمه من برامج حوارية وأنشطة تشاركيَّة، وبما أن الإعلام موجه للجمهور العريض في الوطن العربي وبكل مستوياته الخاصة والعامة، فقد أصبح المشارك حريصاً على النفاذ إلى أوسع شريحة من العرب، وبما أنه ليس للعرب عاميَّة واحدة بل عاميَّات قطرية، غدا لزاماً على المتحدث أو المحاور من العامّة ألا يتقوقع في زاوية عاميَّته إذا أراد الوصول إلى أصحاب العاميات الأخرى، والسبيل إليهم ليس عاميتهم لأنه لا يعرفها، بل هو التَّوسُّل بلغة عربية سليمة وبسيطة يفهمها معظم العامة في الوطن العربي. كما غدا إلزاماً على المتحدث أو المحاور من الخاصة وللغاية نفسها أن يتبَسَّط في الفصيحة، بل يحاول أن يتملَّح ويتقرَّب إلى المشاهدين – وغالبيتهم من العامة– بالأمثال الشعبية والعبارات العاميَّة، لاسيما بعض الدعاة الدينيين.

وفي سياق متابعتي للغة الإعلام أحرص على مشاهدة البرامج التي يشترك فيها عامَّة من مختلف أقطار الوطن العربي، ومنها برنامج كانت المذيعة تقدمه بالفصيحة الميسَّرة وكانت المشاركات تجيب كلٌّ بلهجتها العامية المحسَّنة وقد لاحظت أن التفاهم كان واضحاً وأن التواصل لم يتعثَّر، فلم تحاول المتحدثة المغربية أن تستوضح من زميلتها المصرية، ولا تلك من نظيرتها الخليجية فكان الحوار سلساً ومقبولاً مع أنه كان يجري بثلاث لهجات عامية محليَّة، وكان وراء هذا التفاهم والتواصل أن كل واحدة منهن كانت تختار الكلمة أو العبارة الأقرب إلى السلامة اللغوية لكي تكون مفهومة ومتقبَّلة لدى الأخريات ولدى المشاهدين.

* فإذا اقتنع كل من الفريقين بالمصارحات السابقة تعيَّن عليهما المصالحة على هدف لغوي أكثر واقعية مما يتخيَّل كل منهما، هدف هو وسَطٌ بين المستويَيْن، يحاول فيه أنصار العامية تحسين أدائهم اللغوي بتطعيم خطابهم بما سَهُل ولانَ من الفصيحة، ويحاول أنصارُ الفصحى تيسير خطابهم بما صَحَّ وفَصُحَ من العاميَّة.

لقد قمنا بدراسة للغة الإعلام المقروء في الوطن العربي اشتملت على جمع (485000) كلمة من صحف ومجلات من المشرق العربي ومغربه وخليجه، فتبيَّن أن نسبة الكلمات العامية فيها لا يتجاوز 0.13٪ أي ثلاث عشرة كلمة من كل عشرة آلاف كلمة، وهي نسبة تؤكد أن العامية لا تشكل خطراً ذابال على الفصحى في الإعلام المقروء[1].

1– د. ممدوح محمد خسارة – اللهجة العامية في الإعلام المقروء – من بحوث المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، تشرين، 2004.

وهذا الهدف الوسط الذي أشرنا إليه هو مايُسمَّى اللغة الثالثة أو لغة المثقفين، التي لا هي بالعامية تماماً ولا هي بالفصحى المتقعِّرة. والطريق إلى هذه اللغة الوسطى هو التعليم، إن نشر التعليم بالعربية هو الذي يجعل المتكلم يحاول مقاربة الفصيحة وإن لم يوفق إليها دائماً. ليس الطريق إلى تحسين الأداء اللغوي هو الدعوة إليه والحرص عليه، بل التعليم، لأن المتعلِّم سوف يتأثر بدرجة أو بأخرى بالأداء اللغوي السليم، وآية ذلك أن المتلاغين من العامة يطعِّمون كلامهم وأحاديثهم بعبارات سليمة وكلمات فصيحة، وإذا لم يكن ذلك للتدليل على إيمانهم بها، فذلك للاستعانة بها في التعبير أو للتدليل على أنهم ليسوا جاهلين بها. التعليم هو المفتاح إلى المقبوليَّة اللغوية، ونحن نرى أن عامية اليوم –بسبب التعليم– لا تختلف كثيراً عن فصيحة بدايات عصر النهضة في مطلع القرن التاسع عشر حيث كان التعليم مَحْدوداً. ولعلَّ النصَّ الآتي للشيخ رفاعة الطهطاوي (1873) يظهر مدى التقارب بين المستويين: قال في وصف أفراد البعثة وهم في باريس وقد اجتمعوا حول الطعام: «ثم مدُّوا السفرة للفطور، ثم جاؤوا بطبليَّات عالية (أي موائد) ثم رَصُّوها من الصحون البيضاء، وجعلوا قُدَّام كل صحن قدحاً من القزاز وسكينة وشوكة وملعقة، وفي كل طبليّة نحو قزازتين من الماء.. ثم رَصُّوا حوالي الطبلية كراسي لكل واحد كرسي، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً أو صحنين ليغرف منه أحد الطلبة ويقسِّم على الجميع، فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكينة التي قدامه، ثم يوصله إلى فَمه بالشوكة لا بيده...». والمقارنة بين هذا الأسلوب وأسلوب صحافة اليوم يظهر أن أسلوب الصحافة المعاصرة ليس على تلك الدرجة من السُّوء الذي تُرْمَى به.

ومن المعروف «أن الازدواجية اللغوية ظاهرة طبيعية، وهي موجودة في جميع اللغات وليس هناك لغة واحدة في العالم يكتب بها ناطقوها كما يتكلمون... وإن الهوَّة السحيقة بين الفصحى ولهجاتها المحكيَّة في عصرنا الراهن بدأت تتقلَّص تدريجيًّا بتأثير التعليم وتراجع الأميَّة والدورِ المتنامي لوسائل الإعلام»[1].

ولكن يجب التَّنبه – لكيلا يساء فهمنا– على نقطة هامة، وهي أنه إذا كُنَّا ندعو إلى تلك اللغة الوسطى في الخطاب أو الحديث اليومي فنحن لا ندعو إلى إلغاء المستوى البياني الأفصح، بل أن يبقى للبيان والأدب مستوى عالٍ ورفيع يظل مطمحاً لكل عربي، وأن يبقى للحديث اليومي مستوى ينأى عن الرَّكاكة، كما أننا لا ندعو إلى إعدام أو تسفيه ما جاء به الإبداع الشعبي من زَجَل وشعر ملحون يهزُّ الأعماق، أو أمثال تختزن تجارب مجتمعاتنا.

1– د. ظافر يوسف – اللغة العربية وتحديات العولمة – المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق – تشرين، 2006، ص11– 12.

الثانية: المصالحة بين المتشدِّدين والمتساهلين من اللغويين:

إذا كانت الجبهة الأولى للمصالحة بين دعاة الفصحى وأنصار العامية، فإن الجبهة الثانية هذه، هي بين دُعاة الفصحى أنفسهم، أعني بين المتشدِّدين والمتسمِّحين من اللغويين.

وأنا أقدم لهذه المصالحة بمجموعة من المصارحات لعلها تسهم في الوصول إلى ما نرغب فيه من التوافق:

1) إن هذا الخلاف بين الفريقين من اللغويين قديمٌ قِدَمَ تراثنا. فقد حفلت كتب القدماء بالآراء المتعارضة حول الموقف من الظواهر اللغوية المستجدة وأساليب الأداء اللغوي وكلمه، فَثَمَّة فريق يميل إلى التشدُّد التَّصَعُّب، ولا يقبل من الكلَم أو التراكيب إلا ما سُمِع ونقل عن العرب، ووفق شروط السَّماع التي يرتضيها. وثمة فريق آخر يميل إلى قبول قياسِ مالم يُسْمَع على ما سُمِع من العرب.

وبالنظر لاختلاف منهج كل فريق عن الآخر، فكثيراً ماكنا نرى نفراً من اللغويين يضعِّف نفراً آخر ويجهله، ومن ذلك:

أ-«قال الليث: سمعَتْ أذنيَّ زيداً يفعل كذا، أي أَبْصَرْتُه بعيني يفعل كذا.. وقال الأزهري [صاحب تهذيب اللغة]: لا أدري من أين جاء الليث بهذا الحرف، وهو عندي كلامٌ فاسد، ولا آمَنُ أن يكون وَلَّدَهُ أهلُ البِدَع والأهواء»[1].

ب-«قال الأزهري: وممَّن ألف الكتب في زماننا فَرُمِيَ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد [صاحب الجمهرة]، وقد سألت عنه إبراهيم بن محمد بن عرفة يعنى نفطويه، فلم يعبأ به ولم يُوَثِّقْه في روايته». ثم يَتَصدَّى السيوطي للأزهري فيعدل ابن دريد فيقول: «قلت: معاذ الله، هو بريءٌ مما رُمِيَ به، ومن طَالَعَ الجَمْهرة رأى تحرِّيَهُ في روايته، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يُعْرَف منه ذلك ولا يَقبَلُ طعن نفطويه»[2].

ج-«قال ابن سيده: وأي شَيْءٍ أدل على ضَعْف المُنَّة وسخافة الجُنَّة من قول أبي عبيد [القاسم بن سلام] في كتابه المُصَنَّف من قوله: العِفْرِيَة مثال (فِعْللة) فجعل الياء أصلاً...»[3].

د-وكان لابن قتيبة، وهو من رواد التصحيح اللغوي حظٌ وافر من التَّخْطئة والتَّجهيل. «قال الأزهري: أغفل القتبيُّ موضع الصواب [في تفسير عَشَوْتُ]، واعترض مع غَفْلَته على الفرَّاء يَرُدُّ عليه، فذكرت قولَهُ لأبيِّن عُواره فلا يغترَّ به الناظرُ في كتابه [أي أدب الكاتب]»[4].

1- ابن منظور - لسان العرب: سمع.

2 السيوطي - المزهر 1: 93.

3- ابن منظور - لسان العرب: عفر.

4 المصدر السابق: عشا.

ولَوْ صدقنا أقوال كل اللغويين ببعضهم لما وثَّقْنا واحداً منهم، وهذا محال، لذا نميل إلى ما ذهب إليه علماء الحديث من أن أقوال الأقران ببعضهم لا يقدح.

2) إن الدافع لدى كلا الفريقين الحرص على اللغة والحفاظ عليها:

– فدافع المتشدِّدين كان الخوف على الحقيقة اللغوية من الضياع بما يدخل عليها، والمحافظة على النقاء والصفاء في التعبير العربي، وهم غالباً من أصحاب السَّماع والنَّقل الذين يمثلهم إلى حدٍّ كبير قول ابن فارس (295هـ): «ليس لنا أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه... لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها»[1].

ويرى الأصوليون أن لا مجال للعقل في اللغات... ولا قياس في اللغات»[2].

ومن عجب أن بعض اللغويين كابن الأنباري كان قياسياً في النحو، سماعيًّا في اللغة إذ يقول: «فوَجَبَ أن يوضع النحو وضعاً قياسياً عقليًّا لا نقليًّا، بخلاف اللغة فإنها وُضِعَتْ نقليًّا لا عقليًّا، فلا يجوز القياس فيها، بل يقتصر على ما ورد به النقل»[3]. مع أن العقلانية منهج في البحث والدرس يتسم بها باحثٌ، فليس بِمكْنَته أن يكون نقليًّا في موضع وعقلياً في موضع آخر. ويمكن أن يضاف إلى قائمة السماعيِّين المتشدِّدين ابن قتيبة وأحمد بن يحيى ثعلب وابن الأعرابي والزبيدي وغيرهم...

– أما دافع المتسمِّحين من اللغويين، ومنهم الكسائي وابن السِّيد والبغدادي والخفاجي.. فكان دافعهم الحرصَ على نماء اللغة وإغنائها، والإقرار بحتمية التطور اللغوي، لاسيما في إطار الاشتقاق والدلالة، وهم غالباً أصحاب النزعة العقلية في البحث، وهم تيار العَقْل في مقابل تيار النَّقْل الذي سبقت الإشارة إليه. فهم يرون «أن اللغة أصواتٌ يعبُّر بها كل قوم عن أغراضهم»[4]، وبما أن المقاصد والأغراض متغيرة ومتجدِّدة، وضرورات كل عصر تختلف عن ضرورات عصر آخر، وجب فتح باب القياس في اللغة ومنهج العقل في معالجة ظواهرها. وحجتهم في ذلك: أن اللغة لم تصل إلينا كاملة، يقول السيوطي: «وذهب علماؤنا أو أكثرهم أن الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثيرٌ وكلامٌ كثير، وأحْرِ بهذا القول أن يكون صحيحاً»[5]. وينسب بعضهم هذا القول لأبي عمرو ابن العلاء أو الكسائي.

1– ابن فارس – الصاحبي في فقه اللغة: 33.

2 د. طاهر سليمان حمودة – القياس في الدرس النحوي: 147.

3– السيوطي: الاقتراح: 39.

4 ابن جني – الخصائص 1/33.

5– السيوطي – المزهر في علوم اللغة 1: 66.

فإذا كانت اللغة كذلك فيجب على الخَلَف استدراك مالم يصل إليهم من السِّلف قياساً على ما سُمع منهم. وعلى سبيل المثال فإن كل مصطلحات علم العروض كالبَحْر والخَبْن والتَّرفيل، لم تنقل عن العرب لهذه الدلالات فهل يمكن الاستغناء عنها، بل إن العرب –بحسب بعض الروايات– لم تكن تعرف أسماء الحروف فهل من البدعة تسميتها، ذكر لسان العرب أن «العرب لا تعرف الحروف. قال ابن سيدة: أخبرني من أثق به أنهم قالوا لعربي فصيح: أنشدنا قصيدة على الذال، فقال: وما الذال؟... وسئل بعض العرب عن الذال ونحوها من الحروف، فإذا هم لا يعرفون الحروف»[1]. وهل من الممكن تصور بحث لغوي يستغني عن أسماء الحروف؟

3) إن العربية كغيرها من اللغات تطوّرت ومالت إلى الأسهل والأخفّ، وليس صحيحاً أن عرب عصر الاحتجاج كانت تتكلم مستوى لغوياً واحداً، بل نكاد نجزم أن العربية تطوَّرت من الجاهلية إلى نهاية القرن الهجري الأول أكثر مما تطوَّرت من العصر الإسلامي الأول إلى يومنا هذا. ودليلنا على ذلك أمران:

أ–أن الحديث النبوي الشريف وكلام المسلمين الأوائل أفصح وأسهل من كلام من سبَقَهم من الجاهليين، بل إن معظم الحديث النبوي الشريف –على عُلُوِّ بلاغته وفصاحته– أوضح وأقرب فهماً من فصيحة اليوم على يسرها والتصاقنا بها وأُلْفتنا إياها.

ب– ما أورده اللغويون من كلام القدماء مما لم يفهموه هم أنفسهم. مثال ذلك: «قال أبو الهيثم: اعتلَّت أم الهيثم الأعرابية فزارها أبو عبيدة [وهو ممن اشتغل بالغريب]، وقال لها: عمَّ كانت علَّتُك؟ فقالت: كنت وَحْمَى سَدِكةً، فأكلت جُبْجُبَةً من صَفيف هُلَّعة، فاعْتَرَتْني زُلَّخةٌ. قال لها: ما تقولين يا أم الهيثم؟ فقالت: أو للناس كلامان؟»[2]. والذي لم يفهم هذا الكلام ليس من معاصرينا بل هو من كبار لغويِّي ذلك العصر. إن مقارنة أمثال هذه العبارات مع ما كَتَبَه الجاحظ أو التوحيدي أو ابن المقفع يظهر الميل المُطَّرد إلى اليسر والسُّهولة في التعبير والتركيب، وهو ما يستنكره بعض المحدثين ويرمون أهله بالرَّكاكة.

والواقع أن التَّصَعُّب والإغراب أسلوبٌ قديم في الأداء اللغوي عَسُرَ على بعض كبار اللغويين. «قال أبو حاتم: سألت الأصمعيّ عن قوله (لم تَأبَّق) في قول الشاعر:

ألا قالت بهانِ ولم تأبَّق   كَبِرت ولا يليق بك النَّعيم

فقال: لا أعرفه»[3] «وقال أبو عمرو [بن العلاء] سألتُ رجلاً من هذيل عن حرف غريبٍ فقال: هذا كلام عُقْميّ، يعنى أنه من كلام أهل الجاهلية ولا يعرف اليوم»[4]. فهل نحتاج إلى

1– ابن منظور – لسان العرب: قفا.

2– ابن منظور – لسان العرب: زلخ.

3– المصدر السابق: أبق.

4– المصدر السابق: عقم.

مزيد من الأدلة بأن اللغة تسير بخطًى حثيثة نحو اليسر والسهولة ولكن دون أن تنقطع عن الأصول والجذور؟

4) إن كل جهود التّصحيح أو التَّصْويب اللغوي [وبعضهم لا يجيز التصويب] لم تَحُلْ دون استمرار استعمال كلمات وعبارات اتهم قائلوها بالغلط، ووصفت بالفساد.

ففي القديم نشطت حركة تصحيح لغوي أنتجت نحو ستين كتاباً في هذا الباب، أبرزها إصلاح المنطق لابن السِّكيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الفصيح لثعلب ودرة الغواص للحريري[1]. وفي الحديث انبعثت كذلك حركة مشابهة ومن تجلياتها: معجم الأغلاط الشائعة لمحمد العدناني، ومعجم الخطأ والصواب لأميل يعقوب، وقل ولا تقل لمصطفى جواد، وأخطاؤنا في الصُّحف والدواوين لصلاح الدين الزعبلاوي وغيرهم[2]. ولكن كل تلك الجهود لم تؤدِّ إلى النتيجة التي كان يتوخاها مصنفو تلك الكتب، ليس لضعف فيهم وإنما لأمرين:

أ- أن اللغة واسعة وتحتمل من الوجوه مايُسَوِّغ كثيراً مما يُخطِّئه بعض المتشدِّدين؛ « قال الخليل بن أحمد: لغة العرب أكثر من أن يلحن فيها متكلم »[3]. والناظر في المعاجم العربية واجدٌ من الجوازات وتعدُّد اللغات ما يدفع عنه الكثير مما قد يُخَطَّأ به.

ب- أن تلك الأقوال والأحكام التي أطلقت في التَّخْطئة والتَّصحيح تَتَخارَجُ، فينفي بعضُها بعضها الآخر، فما خطأهُ لغويٌّ أجازه آخر، والعكس صحيح. ومن أمثلة ذلك عند القدماء:

- « كان ابن الأعرابي يُنْكر مَجيءَ (فَعيل) بمعنى (مُفْعَل)، فينكر السَّليم بمعنى المُسْلَم... وقد جاء ذلك كثيراً، مثل (سَخين ومُسْخَن وعَتيق ومُعْتَق...)»[4].

- قال أهل اللغة: « وقع المطرُ على الأرض، ولا يقال سَقَطَ... وقد حكاه سيبويه فقال: سقط المطر مكان كذا. »[5].

- قال الحريري في درة الغواص: « يقولون للقائم (اجْلس)، والاختيار على ما حكاه الخليل بن أحمد أن يقال لمن كان قائماً (اقْعُد)، ولمن كان نائماً أو ساجداً (اجْلِس)[6]، وأجاز البغدادي قول الناس للقائم إذا قعد (جَلَسَ)، ويوافقه في هذا التجويز ابن الحنبليّ[7].

1- د. رمضان عبد التواب – لحن العامة والتطور اللغوي: 97- 100 (نقلاً عن د. محمد ضاري حمادي – حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، ص16 وما بعدها).

2- د. محمد قاسم الزوكاني – مقاييس التصحيح اللغوي في القديم والحديث – رسالة دكتوراه: 506.

3- ابن هشام اللخمي: المدخل إلى تقويم اللسان: 10 (نقلاً عن د. عبد الرحمن إسماعيل – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج58- ع4 ص786 – 794).

4- ابن منظور – لسان العرب: سخن.

5- المصدر السابق: وقع.

6- الحريري – درة الغواص في أوهام الخواص: 88.

7- ابن الحنبلي – بحر العَوَّام فيما أصاب فيه العوامّ: 195.

– ومن ذلك ما ذكره الحريري من أن أهل اللغة فرّقوا بين القيمة والثمن فقالوا: «القيمة ما يوافق مقدار الشَّيْء ويعادله. والثمن ما يقع التراضي به ممَّا يكون وفْقاً له أو أزيد أو أنقص»[1]. ولكن الخفاجي شارح كتاب الحريري أجازه[2]. وقال الفيومي في المصباح المنير «ووقوعهما بمعنى لا يَضُرّ»[3].

– وفرق الجواليقي صاحب كتاب التكملة فيما تلحن فيه العامة، بين (العام والسَّنة)، فردَّ عليه ابن بري مُجَوِّزاً، قال: «العام والسنة والحَوْل والحجة عند العرب بمعنى»[4].

ومن أمثلة تَخَارُج الأحكام عند المحدثين:

– أجاز الشيخ مصطفى الغلاييني الأفعال المزيدة (احتار، اختشى، افتهم، اقْتَبل)، وأنكر عليه صلاح الدين الزعبلاوي ذلك[5].

– منع إبراهيم اليازجي الأفعال (أساق بمعنى ساق، وألام بمعنى لام)، وقال الزعبلاوي: وكلاهما صحيح[6]. مع أن منهج الزعبلاوي قريب إلى منهج اليازجي في التشدُّد.

– خطَّأ مصطفى جواد قولهم (رَجُلٌ رَجْعيّ) بفتح الراء، أي متمسِّك بالأمور القديمة التي لا تساير روح العصر، فقال: هذه النسبة خطأ والصَّواب (رُجوعيٌّ أو رُجْعيّ) بضم الراء، ولكن مؤلفي المعجم الوسيط جوَّزوها[7].

– خطَّأ أسعد داغر من يقول: (انكدرَ عَيْشُه)، بحجة أن الفعل (انكدر) لم يسمع قط، ولكن د. أميل يعقوب صوَّب هذا الفعل[8].

وما ذكرناه وَشَلٌ مما تضمُّه كتب التصحيح اللغوي، ولو أراد القارئ مزيداً لعددنا من الأمثلة مالا يعجزنا وما يُمِلله. وعلى أي حال فكتب التصحيح اللغوي مبذولة لمن أراد وهي بضاعة مزجاة. ولكن الواضح أن تلك الكتب على كثرتها لم يكن لها أثر يذكر في تحسين الأداء اللغوي لما ذكرنا من الأسباب، حتى إن بعض المصحِّحين كان يقع في الخطأ الذي سبق أن نبَّه عليه، من ذلك أن اليازجي كان يخطِّئ جمع (مجد) على أمجاد، لأنه مصدر، والمصدر لا يجمع إلا إذا سمع[9]، ومع ذلك فقد جمع (غَلَط) على أغلاط وهي كذلك مصدر لم يسمع جمعه!!

1– الحريري – درة الغواص: 55 (طبعة توريكية).

2– الخفاجي – شرح درة الغواص: 89.

3– الفيومي – المصباح المنير 2: 520.

4– عن د. أحمد قدور – مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي: 147.

5– صلاح الدين الزعبلاوي – أخطاؤنا في الصحف والدواوين: 24.

6– المصدر السابق: 7.

7– محمد العدناني – معجم الأخطاء الشائعة: 108 وينظر المعجم الوسيط: رجع.

8– د. اميل يعقوب – معجم الخطأ والصواب في اللغة: 145.

9– إبراهيم اليازجي – لغة الجرائد: 37.

والعلة في ذلك واضحة إذ سار اليازجي في تخطئة (أمجاد) على قواعد بعض النحويين، وسار في استعماله (أغلاط) على سلائق اللغويين.

ولا نكاد نجد القوم متفقين على ما خطأ بعضهم، فما من كلمة أو عبارة خلافية حُسِمتْ لصالح فريق، والأصل في هذا كما قدمنا أن ثمة فريقاً يتشدد فلا يقبل إلا ما صح عنده بالسماع والنَّقْل ولو كان سماعه واستقراؤه ناقصاً، وفريقاً آخر يتسمَّحُ، إما لأنه وصل إليه مالم يصل إلى غيره، أو لأنه يُحَكِّم مع السَّماع والنقل قوانين التطور اللغوي كالمجاز والتضمين والشياع، وهي أبوابٌ واسعة في العربية لا يدرك شأوها.

ومما زاد في الطين بلَّه دخول بعض الهواة على التَّصْنيف في التصحيح اللغوي، علماً بأن مثل هذه المهمة لا يجوز أن يتصدَّى لها إلا من قد تضلَّع من علوم اللغة العربية وصار بمنزلة الحكم خبرةً وجَيْدَةً. كما دخل الحَلَبَةَ بعض المتفقهِّين الذين تجاوزوا التخطئة والإجازة إلى التحريم والتحليل، فالله المستعان! ولم يعد سبب الخلاف بين المحدثين هو السَّماع بعد أن بعد عهدهم به، بل صار سببُه اختلافَ مرجعياتهم، فبعضهم يُعَوِّل على أقوال النحاة، وثان على أقوال اللغويين، وثالث على لغة الأدباء، ورابع على آراء الأصوليين، وخامس على المعاجم..

5) وأيا كان موقفنا من شروط الصواب ومسوِّغات التجويز، فلابُدَّ أن يضاف إلى تلك الشروط والمسوِّغات شرط الشيوع والاستعمال. لا نريد بهذا أن يكون الشيوع هو الأساس في الحكم على إجازة كلمة، ولكن تجاهله مخالفٌ لمنطق اللغة التي نعرف أن لها منطقاً خاصَّاً لا هو بالقياسي دائماً ولا هو بالسَّماعي مطلقاً، ومن ذلك:

أ- الأصل في كل صفة مشتركة بين المذكر والمؤنث جواز تأنيثها أو تذكيرها فيقال: طويلٌ وطويلة، وأسمر وسمراء... ولكن العرب استعملت صفات بالتأنيث دون التذكير، فقالت (نَكْراء) ولم تقل (أنكر)، وقالت (فتاة عذراء) ولم تقل (فتى أعذر)، وبالمقابل فقد قالت (رجل أشأم ولم تقل امرأة شأماء)، وقالوا (ضَرَّاء) ولم يقولوا (أَضرّ)[1].

ب- الأصل أن الصفة إذا أطلقت دلت على من اتصف بها ذكراً كان أم أنثى ولكن العرب قالت: « العَوْكل: المَرْأَة الحمقاءُ.. والرَّجُل القصير الأفجح »[2]، وقالت: « العُلُطُ: الطِّوال من النوق والقِصار من الحمير!! »[3].

1- ابن منظور – لسان العرب: سوا، شأى.

2- بن منظور – لسان العرب: عكل.

3- المصدر السابق: علط.

ج- من دلالة بناء (تَفَعَّل) الاتصاف بالشَّيْءِ واكتسابه نحو (تعبَّد وتعلَّم)، ولكن هذا البناء جاء في كلمات بعكس دلالتها القياسيَّة المعروفة : فالتَّأَثُّم هو الابتعاد عن الإِثم، والتحرُّج : الابتعاد عن الحَرَج، مما جعل الأزهري صاحب تهذيب اللغة يقول : « وهذه حروف جاءت معانيها مخالفة لألفاظها »[1] .

د- القياس في تصغير أزهر: (أزيهر)، ولكن العرب قالت معه، وشاع أكثر: (زُهَيْر) . والقياس في التفضيل من الخير والشر (أخير وأشرّ)، ولكن العرب قالت معها، وشاع أكثر: (خَيْرٌ وشَرٌّ) .

هـ- قد تشيع الصيغة المفضولة لكلمة ويقصر حظ الفُضْلى :

- شاعت كلمة (الشَّعْر) بسكون العين وهي مرجوحة (بالشَّعَر) بفتحها .
- شاعت كلمة (الفَرْع) للقِسْم، بسكون الراء وهي مرجوحة (بالفَرَع)، بفتحها .
- شاعت كلمة (الوَحْل) للطين، بسكون الحاء وهي مرجوحة (بالوَحَل) بفتحها مما جعل الأزهري يقول عنها : « هي لغة رديئة »[2] .

ومن الجدير ذكره أن كل تجويزات مجمع القاهرة كان من مسوغاتها القياس أو الشيوع، فقد أقرَّ المجمع المذكور (من سنة 1934 إلى سنة 1987) مايزيد على ثلاث مئة وعشرين كلمة كان غلبة الشيوع وراء معظمها من مثل : (القُنْبلة) للقذيفة المتفجرة دون أن يكون لها أي صلة بدلالتها التراثية[3]، وكلمة (التأميم) بمعنى جعل الشَّيْء مُلْكاً للأمَّة[4]، و(المقاول) بمعنى متعهِّد العمل[5] . وما أقرت تلك الكلمات عن عبثٍ، وإنما عن بحث وتقصٍّ وموازنة بين أحكام القواعد الأصولية وضرورات الاستعمال ودواعي الشيوع . فهل نضرب بكل تلك الجهود عرض الحائط لأن هذه الكلمة لم ترق للغويّ، وأن تلك اعترض عليها لغويٌّ آخر؟ لا يعني كلامنا هذا تعظيم شأنِ من جَوَّز، ولا الحطَّ من عِلْم من اعترض، فهما تياران قديمان في لغويِّينا . أما أن يُزْرَى بجهود مؤسسات لغوية عريقة وجادَّة وأن يَحْمل عليها حتى بعض من لم يقرأ قراراتها لا لشيْءٍ إلا لأن فلاناً من المتشددين لا يجيز ما أجازت، فليس هذا مما يخدم اللغة وتطورها ونماءها .

6) لا يختلف كلا الفريقين أن متطلبات الحياة المعاصرة تُلْجِئنا إلى إدخال دلالات جديدة لمفردات قديمة أو إدخال مفردات جديدة لها . ومن ذلك على سبيل المثال[6] :

1- المصدر السابق : حرج .

2- المصدر السابق : وحل .

3- مجمع القاهرة - القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب : 23 .

4- المصدر السابق : 33 .

5- المصدر السابق : 43 .

6- اينظر : ابن منظور - لسان العرب : سجل، دفع، قشش - حضر .

– ليس في معاجم العربية (سَجَّل) بمعنى (كتب وقيَّد)، إنما فيها: «السِّجلُّ: الصَّكُّ والتسجيل الاستيثاق.» فهل نستطيع اليوم الاستغناء عن الفعل (سجَّل) وسائر تصريفاته في استعمالاتنا الإدارية والتجارية؟

– ليس في د لالة الفعل (دَفَع) ما يدل على تسديد ثمن البضاعة أو الأجر، وهي الآن طاغية على الاستعمال، ويندر اليوم من يتعاطى بدائلها: (نَقَد وسَدَّد وأدَّى)؛ فهل بإمكان المصطلحات الحالية الاستغناء عنها؟

– ليس في اللسان (القَشَّة) بمعنى العُوَيْد الصغير من جذوع القمح أو الشعير، والمثل الشائع بين الخاصة عن السبب المباشر للأمر يقول: (هو القشَّة التي قصمت ظهر البعير). فهل يمكن الاستغناء عنها في حقل الزراعة والنبات والبيئة؟

– ليس لكلمة (المحاضرة) في العربية التراثية ما نطلقها عليها اليوم من معنى (الدرس أو مجلس العلم)، فهل بإمكاننا الاستغناء عنها أو إقفال معاجمنا الحديثة دونها، وهل في فتح الأبواب لها ما يَشين؟

ونستطيع أن نعدِّد المئين من الكلمات التي تحتاج إلى إقرار دلالات جديدة لها، والمئين من الدلالات التي تحتاج إلى مفردات وكلمات جديدة لها، وهي كلمات أو دلالات فرضتها ضرورة الاستعمال ودواعي الاتصال وعَمَّمها الشُّيوع والسَّيرورة.

* إننا بعد ما قدمنا من مصارحات ندعو إلى مصالحة بين المتشددين والمتسمِّحين، جوهرها أن يخفِّف المتشدِّدون من تشدُّدهم، فلا يخطِّئون كل مالا يروقهم أو لا يجدون له وجهاً عندهم، بل يَعَدُّونه جوازاً ورخصة لمن أرادَ. وألا يَشْتطَّ المتسمِّحون في تجويزهم ما يخالف خصائص اللغة ومقتضيات التطوير والتنمية اللغوية. «يجب التفريق بين ما هو خطأ وانحرافٌ، وما هو توليد وتجديد وتطوُّر، فكلاهما حدث جديد في اللغة وتبديلٌ في بعض ظواهرها، ولكن الخطأ تبديلٌ يخالف خصائص اللغة والتطور وسنن نموِّها وقاموس حياتها وقواعد فطرتها ويخلُّ بنظامها. أما التجديد والتطور فهو تبديل وإحداثٌ يجري وفقاً لسننها، وينساق مع فطرتها، وينقاد لقواعدها ويوافق روحها وخصائصها.. إن إحياء اللغة منوط بتحريرها من الجمود والعقم من جهة ومن الفَوْضى والخروج على قواعد اللغة من جهة أخرى.»[1].

نحن لا نريد وليس بمكنتنا تذويب هذه الخلافات، ففي التَّنَوُّع والتعددية غنى للغة عامة، وللبحث اللغوي خاصة، ولكن نريد أن يَتَقَبَّل كل طرف آراء الطرف الآخر على أنها جائزة وإن كانت مرجوحة في نظره، وأن يكون موقف اللغويين كموقف الشافعي في مقولته المشهورة: قولي

1– محمد المبارك – خصائص العربية ومنهجها في التجديد والتوليد (محاضرات ألقاها المؤلف بمعهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية، سنة 1960).

– في أحسن أحواله– صوابٌ يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب. فإذا كان اختلاف الفقهاء رحمة للمسلمين فليكن اختلاف اللغويين كذلك، فيشفع لنا بعضهم فيما يخطئنا به آخرون، وليكن شعارنا «ألاَّ نُخَطِّئ أو نحكم بالشذوذ على ماله وجه من القياس. ما نريده ألا ينتقل الخلاف إلى اختلاف فنزاع فصراع – يُجهِّل فيه بعضُنا بعضنا الآخر ويُسَفِّه فريق منا الفريق المقابل، بل نكتفي من الخلاف بتبيين وجهة النظر التي يؤدي إليها بحثنا على أنها لغة راجحة وفُضْلى، وأن غيرها مفضولٌ وليس أكثر «لأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم»[1]، ولعلَّ من هذا الأفق كان يطل الكسائي عندما قال: «على ما سمعْتُ من كلام العرب ليس أحدٌ يَلْحنُ إلا القليل»[2].

أليس من المضحك – وشر البليّة ما يضحك– أن نظل مختلفين حول (هاتف ومهتاف) حتى هرب الناس إلى (التلفون) الأعجمية؟.

أليس من المؤسف أن نتخاصم حول صوابيّة (حاسوب وحاسب وكبتار ونظّامة) حتى فرَّ الناس إلى كمبيوتر؟

أليس من السُّخف أن نتراشق التَّجهيل حول ضبط (كُلُّ عام وأنتم بخير، وكُلَّ عام وأنتم بخير، وأنتم بخير كل عام...) حتى إننا لنكاد ندفع بعضهم دفعاً إلى أن يقولوا: (هابي نيويير... وبون فيت)! وأخيراً أليس صحيحاً ما يقال من أن من أسباب انتشار العامية تشدُّد اللغويين؟[3]

وبعد فنرى أننا في كل ما ذكرنا في هذا الباب لم نأت بجديد، وآيةُ ذلك ما رُوي من أن رجلاً قال للخليل: «أخبرني عما وَضَعْتَ مما سَمَّيْتَه عربيَّة أيَدْخُل فيه كلام العرب كله؟ فقال لا، فقال: كيف تصْنَعُ فيما خالفَتْك العربُ فيه وهم حُجَّةٌ؟ فقال: أحملُ على الأكثر، وأسمِّي ما خالفني لغات»[4]. كما أن القاعدة اللغوية الأصولية «أن لغاتِ العرب كلها حُجَّة»[5]، فلنجوز ما نراه مرجوحاً مادام له وجه في لغة من لغاتهم.

الثالثة: المصالحة بين دعاة التعريب وأنصار التغريب:

ما نعنيه بالتعريب –هنا– التعليم بالعربية في المراحل الدراسية كافة، ولا نعني به ما قد يتبادر إلى أذهان بعضهم من معنى سياسيٍّ تُشْتَمُّ منه رائحة تعصُّب قومي. كما نعني بالتغريب جعل اللغة الأجنبية لغة تعليم في مدارسنا وجامعاتنا، لا ما قد يتبادر إلى أذهان بعضهم من

1– ابن جني – الخصائص 1: 357. والعبارة لأبي عثمان المازني.

2– ابن هشام – المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان: 4، (عن د. أحمد قدور – مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي: 66).

3– عبد الله العلايلي – مقدمة لدرس لغة العرب: 60.

4– المصدر السابق: 197 وسعيد الأفغاني – في أصول النحو: 73.

5– السيوطي – المزهر في علوم اللغة 1: 257 – 258.

معنى سياسي تُشْتَمُّ منه رائحة التبعية واللاقومية. لأن بحث المسألة بغير هذين المفهومين اللذين ذكرنا يدخل في إطار السياسة، ونحن نصر هنا على البقاء في إطار اللغة، وعلى الرغم من التداخل بين ماهو سياسي وماهو ثقافيّ ولغويّ، فإننا نحاول أن ننأى بأنفسنا في هذا المقام عن ذلك التداخل ما أمكننا النأي. ولسوف يأخذ البحث في هذه المسألة منحىً فكرياً ثقافياً أكثر منه لغوياً صرفاً كما في المسألتين السابقتين.

وهذه المسألة الإشكالية من أبرز القضايا الثقافية المعاصرة، وطالما احتدم النزاع بين دعاة التعريب وأنصار التغريب مما جعل الإشكالية مزمنة تراوح في مكانها لا تريم.

وأنا مقدِّم بين يدي هذه المصالحة المصارحات التالية:

1) اللغة العربية –بالنسبة إلى العرب– هويَّةٌ ووجود ثقافي وحضاري. ولا معنى لأي تقدُّم علمي أو تقاني إذا خسرنا وجودنا الحضاري المتمثل أولاً باللغة. فلم يبق لنا نحن العرب من جامع يجمعنا – بعد ضروب الاختلافات حول كل شيء– إلا اللغة العربية. إنها الحصن الأخير للدفاع عن وجودنا كأمة. أما الذين يربطون الهويَّة بعناصر أخرى فهم يحيلون إلى خواء. والمعروف أنه لا ينسب إلى الأمة من حضارة أو ثقافة إلا ما كتب بلغتها، إن علوم ابن سينا من مكونات الحضارة العربية الإسلامية، ليس لأن الشيخ الرئيس كان عربياً –ولا يضيره ألاَّ يكون كذلك، فهو مفخرة لقومه ولنا– بل لأنها كتبت بالعربية. في حين يُعَدُّ كتاب (النبيّ) لجبران خليل جبران من مكونات الحضارة الانكليزية، ليس لأن مؤلفه انكليزي، بل لأنه كتبه باللغة الانكليزية أصلاً، بينما تعد كتبه الأخرى التي كتبها بالعربية من الثقافة العربية. الحضارة لغة، والثقافة لغة. ترى لو لم ينقل أجدادنا العلوم إلى العربية، هل كان بإمكاننا أن نجد في كتاب سارتون الشهير (مقدمة في تاريخ العلم) نحو خمسين عَلَماً من رواد الحضارة الإنسانية يُحْسَبون للحضارة العربية، وأن يطلق على النصف الأول من القرن الثالث عشر عصر الترجمة من العربية إلى الأوربية[1].

ويندر أن نجد أمة كان لها حضارة بغير لغتها، وإذا كان لها ذلك فسوف تحسب إنجازاتها لصالح حضارة الأمة التي كُتِبَتْ بلغتها.

إن الحفاظ على وجود الأمة مقدَّم على أي مطلب آخر وهو فَرْض، إذا خسرنا التقدم العلميّ فقد نستدركه ولو بعد حين، ولكن إذا خسرنا وجودنا كأمة فلن تعود لنا أبداً، إذا خسرنا لغتنا وهويتنا فمن نكون؟ لن يبقى لنا اسم إلا (شعوب الشرق الأوسط، أو شعوب شمالي إفريقيا) وهو ما يسعى إليه من لا يريد لهذه الأمة البقاء.

2) إن التقدُّم العلمي والتقاني لهذه الأمة هو هدف كُلٍّ من الفريقين ومطمحهما. إذ الحفاظ على الأمة وتلبية احتياجاتها واجبٌ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ. ولكن دعاة

1– عن: مجلة علوم وتكنولوجيا –الكويت – العدد 29: 18.

التعريب يرون أن توطين العلم بلغة المجتمع هو الطريق الأمثل لبلوغ تلك الغاية في حين يرى الفريق الآخر تَلَقُّفَ العلم بلغته هو الطريق الأسرع لذلك. إننا نبغي من هذا أن نرفع الإِصْرَ عن الفريقين، فلا يجوز التشكيك في عقلانية وعلميَّة وتقدميَّة من يدعو إلى التعريب، كما لا يجوز التشكيك في قوميَّة أو وطنيَّة من يدعو إلى التعليم بالأجنبية، فكلاهما يهدف إلى التقدم العلمي والحضاري لهذه الأمة ولكن بوسيلة يراها أقرب إلى الصواب وطالما تراشق الطرفان هاتين التهمتين في تنازعاتهما.

3) إن الحل النهائي لإشكاليَّة التعريب أو إشكاليَّاته هو أن نصبح منتجين للعلم والتقانة، إذ المعروف أن الأمم المتقدمة – غربيَّةً وشرقيَّةً – قد سبقتنا وفرضت علومها وإنجازاتها ومصطلحاتها، ونحن بحاجة إليها وإلى لغاتها، وسوف نظل مستوردين للغات تلك الأمم ومصطلحاتها مادمنا نستورد منها العلم والتقانة، ولن تحل إشكالية التبعيَّة الثقافية عندنا إلا بحل إشكالية العلم العربي والتقانة العربية، فالاستقلال اللغوي يتطلب الاستقلال العلمي، ليس بمعنى الانعزال عن علوم الآخرين بل أن يكون لنا علماؤنا الذين يفكّرون بالعربية ويصطلحون بالعربية ويكتشفون بالعربية. ولكن إذا كنا لا نرضى أن يُضَحَّى بالعلم على مذبح اللغة فإننا لا نرضى أن يُضَحَّى باللغة على مذبح العلم، لا يجوز أن نجعل الأمرين متناقضَيْن، بل نجعلهما متكاملَيْن.

4) ليست لغة العلم هي التي تصنع التقدم أو تعرقله، فالقائلون بربط التقدم العلمي والمعرفي باللغات الأجنبية واهمون، والقائلون بربط التقدم العلمي باللغة الوطنية وحدها واهمون أيضاً، ومصداق قولنا أن في الوطن العربي أقطاراً تدرس باللغة الأجنبية من المرحلة الابتدائية وحتى الدراسات العليا، وأقطاراً تدرس العلوم بالعربية في مراحل التعليم كافة، فما وجدنا المتعلمين باللغة الأجنبية يبزُّون أقرانهم من المتعلمين بالعربية ولا العكس، ذلك أن التقدم العلمي والتقاني حصيلة بيئة علمية متكاملة من أهم عناصرها العقلانية والموضوعية والحرية، وقيم الإبداع والتجديد والفرادة..

5) إذا كانت حُجَّةُ أنصار التعليم باللغة الأجنبية التسهيلَ على الطلبة في متابعة الدراسات العليا باللغة الأجنبية، وهو ما رآه 58٪ من أساتذة كلية العلوم في جامعة الكويت بحسب دراسة ميدانية[1]، فإن حُجَّةَ أنصار التعليم بالعربية التسهيل على الطلبة في استيعاب المادة العلمية، وهي حجة أقرَّتْها الجامعة الأمريكية في بيروت، فقد بيَّنت دراسة ميدانية فيها أن طلابها الذين درسوا مقرّراً بالعربية استوعبوا 76٪ من المادة العلمية، في حين استوعب الذين درسوا المقرَّر نفسه باللغة الأجنبية 60٪ منها[2]. وأكدَّ هذه النتيجة دراسة في جامعة الإمارات العربية المتحدة إذ إنَّ 83٪ من الأساتذة فيها يرون أن الطلاب أقدر على استيعاب المادة المدروسة باللغة العربية.

1– د. نجاة المطوع – التعريب ومشكلة استخدام الانكليزية بجامعة الكويت – المجلة التربوية بجامعة الكويت ع15: 77.

2– شحادة الخوري – دراسات في التعريب والترجمة والمصطلح: 198.

أما عن متابعة الدراسات العليا في الجامعات الغربية، فقد ذكرت دراسة أنه تقدم عام (1997) إلى امتحان دخول الجامعات الأمريكية (1052) طالباً من كل البلاد العربية ومعظم هؤلاء ممن درسوا باللغة الانكليزية في جامعاتهم العربية، فكانت نسبة الناجحين هي 15٪ من المتقدمين. ولكن تبيَّن في الدراسة نفسها أن الدرجات التي نالها الطلبة المعرَّبون الذين تخرجوا من الجامعات السورية أعلى من درجات زملائهم العرب، مع أن المعرَّبين قدَّموا الامتحان باللغة الانكليزية[1].

وإذا كانت حجة أنصار التعليم بالأجنبية أن التعليم بالعربية يُبْعِد الباحثين والأساتذة عن المشاركة في البحث العلمي، فإن دعاة التعريب يميلون إلى إحصائيات البنك الدولي – بما لها وما عليها– والتي تبيِّن « أن الباحثين والعلماء في البلدان العربية في مجموعها قد نشروا (3416) بحثاً أو مقالاً علمياً في عام (1999) مقابل قيام العلماء والباحثين الاسرائيلين بنشر (5052) مقالاً أو بحثاً علمياً في العام نفسه »[2]. مع أن الاسرائيليين درسوا العلوم بلغتهم العبرية، وأن معظم العرب درسوا باللغات الأجنبية، ناهيك عن الفارق العددي الضخم بين الطرفين. وبالطبع فإن للبحث العلمي شروطاً أخرى أهمها التمويل والبيئة العلمية، ولكن هذا الرقم ينزع ورقةً من يدِ مَن يريد أن يربط البحث العلمي باللغات الأجنبية.

ويجدر التنبُّه إلى نقطة هامة يتداولها بعضهم من أن التعلُّم باللغة الأجنبية ذو فائدة ومردودٍ لصاحبه، وهو قول لا يخلو من الصحَّة، ولكن الأمَّة ككل هي التي تخسر. ومما لاشكَّ فيه أنه إذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة، فإن مصلحة الجماعة هي الخيار الأفضل.

6) لابد من الإقرار بأن التعريب ما يزال مسألة خلافية عميقة في المؤسسات التعليمية العربية وأن فريقاً من أساتذة الجامعات ومن المثقفين لسبب أو لآخر تعارض التعريب وإن بدرجات متفاوتة[3]. ففي دراسة أجريت في جامعة الإمارات العربية تبيَّن أن 41.2٪ من الأساتذة يرون أنه ليس ثمة قناعة لدى مؤسسات التعليم العالي بالتعريب[4]. وفي جامعة الكويت دلت دراسة أخرى أن 55٪ من أساتذة كلية العلوم فيها هم مع التعريب[5]، ولا تختلف هذه النسب كثيراً عن مثيلتها بين الطلبة أنفسهم. لا نريد الخوض في العلل والأسباب، ولكن الواضح أن المسألة لم تحسم بعد ثلاثين سنة من قرار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية بأن يكون عام (2000) هو عام التعريب الكامل في الجامعات، وبعد أكثر من عشرين سنة على

1– د. أحمد محمد سليمان – تعريب التعليم العالي ضرورة علمية – مجلة كلية الطب بالرياض ع2 : 130.

2– د. صالح بلعيد – البحث العلمي في الدول العربية والحلقات المفقودة – مجلة التعريب ع32 : 174.

3– لمزيد من التفصيل حول حجج كل من الفريقين؛ ينظر: د. ممدوح خسارة – التعريب والتنمية اللغوية : 39– 91.

4– د. سعيد عبد الله حارب – تعريب التعليم العالي وأثره في مستقبل العربية – المجلة العربية للثقافة ع22 : 37– 46.

5– د. نجاة المطوع – التعريب ومشكلة استخدام الانكليزية بجامعة الكويت – المجلة التربوية بجامعة الكويت. ع15 : 77.

قرار المجلس الأعلى لدول مجلس التعاون الخليجي بتعريب التعليم الجامعي. وإذا كانت الحال كذلك في جامعات لم تحسم فيها مسألة التعريب بَعدُ، فإننا لا نعدم في الجامعات المعرَّبة –كما في السورية والسودانية– أصواتاً ترتفع بين الفينة والأخرى تنعى تدنِّي المستوى العلمي فيها وانقطاعها عن التواصل العلمي العالمي.

* وبعد... فإذا كان لا غنى لنا عن اللغة العربية لحفظ هويتنا ووجودنا، ولا غنى لنا عن اللغات الأجنبية لتحصيل علوم العصر والتواصل مع منتجيها، وإذا كانت حُجَجُ كُلٍّ من فريقي دعاة التعريب وأنصار التغريب تَتَخارَجُ فينفي بعضها بعضها الآخر، وإذا كان لا أحد يعارض تدريس العلوم الإنسانية بالعربية، فلنتصالح على طريقة وسطى تقوم على التعليم بالعربية في كل المراحل ماقبل الجامعية وأن يكون التعليم الجامعي في الكليات العلمية مزدوجاً، لا نعني بالازدواج أن يكون ثمة شعب معرَّبة وأخرى مغرَّبة بل أن تكون العربية لغة التعليم الأساسية فيها، على أن يدرس الطلاب 30٪ من المقررات العلمية باللغة الأجنبية بصورة تامَّة ويقدم الامتحان بها كذلك، وبذلك يجمع الطالب بين إتقانه العلوم بالعربية والأجنبية. أما في الكليات الإنسانية فيدرس الطالب 15٪ من المقررات باللغة الأجنبية كذلك. وبذلك نكون قد جمعنا بين الحسنين وتقتضي مثل هذه الطريقة أن يُدَعَّم تدريس اللغات الأجنبية في المدارس الثانوية تأسيساً لتمكين الطالب من متابعة مقررات جامعية بها.

راهن اللَغة العربية في أوطانها
ومسؤولية أبنائها نحوها

د . محمد بن قاسم ناصر بوحجام – الجزائر–

تمهيد

كلّ أمّة تريد أن تثبت وجودها، وتحمي نفسها من الاستلاب والذّوبان، وتروم التّطوّر والتّفاعل مع بقية الأمم في العالم؛ لتبقى حيّة، يُعترف بها، ويُحفظ مكانها ومقامها في الوجود... تجتهد وتجاهد في المحافظة على مقوّماتها، التي تكشف عن حقيقتها، وتبرز قيمتها ومكانتها.

من هذه المقوّمات التي ترتكز عليها هذه القيمة وهذه الحقيقة «اللّغة» إلى جانب الدّين. يقول الأستاذ أحمد الرّيسوني: «اللّغة والدّين هما المحدّدان الأساسيان لهوية أيّة أمّة من الأمم وانتماءاتها على مرّ التّاريخ، ويزداد هذان المحدّدان قوّة في ذلك إذا الْتَحَمَا في بوتقة واحدة، بحيث تكون اللّغة القومية لجماعة بشرية ما، هي نفسها لغتها الدّينية.

ورغم المحاولات الحديثة والحثيثة لإعادة تشكيل الأمم والشّعوب وانتماءاتها والانتماء إليها، على أسس جغرافية وسياسية وقانونية، فإنّ ذلك لَمْ يُلْغِ ولَمْ يُضعف قوّة الانتماء الدّيني والانتماء اللّغوي، فما زال الولاءُ القومي واللّغوي والانتماء الدّيني يعلوان فوق الانتماء الوطني السّياسي، في حالة ما إذا كانا مختلفين.»(1)

تأتي اللّغة في صدارة ما يُعتمد في تشكيل بنية الأمّة، فهي مادة للفكر، ورموز لحالات نفسيّة. يقول الدّكتور شكري فيصل: «الحضارة في نوع من التّعريف الموجز، هي لغة. وعن طريق اللّغة يكون التّفكير كلّه، ويكون التّواصل كلّه، ويكون التّفاعل بين العقول والأفكار. .اللّغة هي أضخم عملية حضارية تنشئ الحضارة، وتتمثّلها وتعبّر عنها، وهي ذات رصيد حضاري، لا حدود له؛ ولهذا فإنّ نموّ لغتنا وازدهارها وقيامها بدورها الفكري هو معلم بارز من معالم حياتنا الحاضرة، وطريق أساسي من طرق بناء المستقبل.» (2)

يعني هذا أنّ للّغة أدوارًا ووظائفَ نفسية عاطفية، وتربوية تثقيفية، تعمل على ربط الأفراد بالفكر الذي تحمله اللّغة، وتحمل على تأصيل الانتماء، وعلى توطيد العلاقة بالأصول،

---

(1) أحمد الرّيسوني «نداء من أجل العربية»، مجلّة إسلامية المعرفة، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، السنة الثالثة عشرة، عدد: 49، صيف 1428م / 2007م، ص: 5.

(2) الدّكتور شكري فيصل، «قضايا اللغة العربية المعاصرة، بحث في الإطار العام للموضوع»، ينظر كتاب: من قضايا اللغة العربية المعاصرة (المنظّمة العربية للتّربية والثقافة والعلوم)، تونس، سنة 1990م، ص: 32.

وتغرس روح الحماسة والعاطفة إلى المنابع والجذور في النّفوس... ولأنّ اللّغة كما يقول الدّكتور شكري فيصل: «تحمل ضمير الأمّة وروحها، وتحمل طرائق تفكيرها وتعبيرها، وتؤلّف شرايينها وأوردتها وأعصابها، التي تنقل أحاسيسها وانفعالاتها.. ولذلك يجب أن تسلم لها دائمًا أصولها، حتّى لا تداخلها الهجنة، ولا يتسرّب إليها ما يفقدها خصائصها عن طريق البحوث النّظرية المجرّدة»(1).

فاللّغة هي الفكر والوجدان والذّاكرة الجماعية...؛ إذ هي التي تترجم عن الخواطر، وتنقل الأفكار والمشاعر، وتسجّل حقيقة ما تتميّز به الأمّة، وما تملكه من فكر وثقافة...يقول الدّكتور جميل عيسى الملائكة: «اللّغة كما يقرّر أكثر علمائها لا تقتصر وظيفتها على التّفاهم بين الأفراد، وإنّما تتجاوز ذلك إلى أنّها الأداة التي يتعلّم ويفكّر بها الإنسان، فهي تقود عقله وتوجّهه، وبها يستدلّ على السّلوك القويم مع الآخرين، وهي فضلاً عن ذلك تحفظ التّراث الثّقافي للمجتمعات، فهي إذن منظّمة للعلاقات الاجتماعية، ووسيلة التّعامل والتّعاون بين أفراد المجتمع، وأهمّ أدوات الحفاظ على كيانه, ويتبع ذلك أنّها العامل الأوّل في انتشار الثّقافة وتداولها في المجتمعات المتحضّرة، وأنّها من أهمّ مقوّمات الحضارة الإنسانية»(2).

بمعنى دقيق: إنّ اللّغة هي عنوان الشّخصية التي تميّز أمّة عن غيرها. إلى جانب كونها وسيلة للتّفاهم والتّعليم والتّطوّر، التي تعين أيّ أمّة على الاحتكاك والامتزاج والتّحاور مع الثّقافات والحضارات المختلفة. ومن خلال ما تتميّز به لغتها تظهر أصالتها وقوّة تأثيرها، أو هشاشتها وضعفها ووهنها...

يقول أحمد الرّيسوني: «وتشكّل اللّغةُ الأمُّ، لُغَةُ التّنشئةِ والتّعامل حضنًا وغذاءً نفسيًا وعاطفيًا لشخصية الإنسان. فالمفهوم الأَوَّلِي والبسيط السّائد عن وظيفة اللّغة، بأنّها أداةٌ للتّواصل والتّفاهم بين النّاس فحسب، هو جزء من الحقيقة، وليس كلَّ الحقيقة. ووصف اللّغة بعبارة (اللّغة الأمّ) هو التّعبير الحقيقي الصّادق عن دور اللّغة ووظائفها. فاللّغة (الأمّ) تعني أنّ للّغة وظائف كوظائف الأمّ.» (3).

فإذا كانت الأمّ تقوم بمهمّة تنشئة الوليد على النّموذج الذي يطلبه المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد الصّغير؛ ليكبر على الأصول والمبادئ التي تشكّل شخصيته الحقيقية، فعدّت مدرسةً، يتخرّج فيها أفراد المجتمع، فإنّ للّغة الوظيفة نفسها في تخريج الأفراد على الفكر الذي ينتمون إليه. يعني هذا أنّ الهوية مرتبطة كلّ الارتباط باللّغة قبل كلّ شيء كالعرق والوطن والدّين

(1) ينظر المصدر السابق، ص: 38.

(2) الدّكتور جميل عيسى الملائكة، «اللغة العربية ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية»، ينظر المصدر السابق، ص: 123.

(3) مجلّة إسلامية المعرفة، عدد: 49، ص: 5.

والأرض. من هنا كانت مهمّة اللّغة خطيرة. فلابدّ أن توفّر لها الشّروط الضّرورية كي تقوم بدورها أحسن قيام.

لأهميّة اللّغة ودورها الأساس في تشكيل الشّخصية، والبناء الحضاري، كانت مسألة اللّغة مرافقة لبداية الوجود البشري على الأرض. يقول أحمد الرّيسوني: «ولحكمة ما أرادها الله تعالى كانت المسألة اللّغوية حاضرةً منذ اللّحظة الأولى لخلق الإنسانِ، فكان أوّل تعليم ربّاني تلقّاه الجنس البشري هو اللّغة والبيان، حتّى قبل أن يتعلّم آدم كسب قوته، أو عبادة ربّه، أو ستر عورته. {وعَلّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها} (البقرة، الآية: 31). {الرّحمن عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الانْسَانَ عَلَّمَهُ البَيانَ} (الرّحمن، الآيات: 1-4). وأقلّ درس يستفاد من هذا، هو أنّ للّغة وظيفة أساسية وعاجلة في حياة الإنسان» (1).

اللّغة العربية لن تخرج عن هذا المفهوم والتّقدير للّغة، فقد أثبتت أنّها في درجة القوّة التي تحمل فكرًا كبيرًا قويًّا أصيلاً، وأنّها في مستوى المسؤولية التي أنيطت بها في الكشف عن هذا الفكر الذي تحتضنه، وأنّها وفية للأصول التي تنتمي إليها: تعبيرًا عنها، ونقلاً لما تفرزه هذه الأصول، ونشرًا له، ومحافظة على الإرث الذي أبدعته. وقد أثبتت إيفاءها بما علّق عليها من مسؤولية في توثيق الصّلة بهويّة الأمّة الإسلامية. يقول جميل عيسى الملائكة: «وقد كانت اللّغة العربية، وما زالت وثيقة الأواصر بهوية هذه الأمّة ووجودها وشخصيتها وخصائصها, فقد وعت منذ أمد بعيد تكوين الأمّة الحضاري، وواكبت تطوّر تراثها الثّقافي في العلوم والآداب والفنون والتّشريع والفلسفة، وتعهّدت نقله من جيل إلى جيل، عبر العصور. فهي قلب الأمّة النّابض وجهازها المحرّك.»(2).

في المعنى نفسه يقول الدّكتور عبد المجيد حنون: «ومن هذا المنطلق كانت اللّغة العربية الرّباط الذي جمع قديمًا قبائل متعدّدة، وهي اليوم الرّباط الذي يجمع شعوبًا مختلفة العراق، متنوّعة الأنظمة السّياسية، ومتباعدة جغرافيًا في هوية واحدة، أساسها اللّغة العربية، تسمّى الأمّة العربية، بما في ذلك بلدنا الجزائر.»(3).

اللّغة العربية تشكّل عنصر الارتكاز في الكيان العربي والإسلامي، وبؤرة انصهار عناصر تكوين الأمّة العربية والإسلامية، ومحور انبعاث أشعّة الوجود العربي والإسلامي من دونها لا تكون لهما حياة ولا حسّ. ومن هذه الأشعّة يتحرّك الوجود كلّه. من هنا كانت الأمّة العربية

---

(1) المصدر السابق، ص: 6.

(2) ينظر المصدر السابق، ص: 123.

(3) الدّكتور عبد المجيد حنون، ينظر كتاب: «اللغة والهوية والتعدّدية اللسانية»، نشر المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر)، نوفمبر 2006م، ص: 88.

الإسلامية تلتفّ حول اللّغة العربية، جاهدة في المحافظة على وحدتها. يقول الدّكتور محمّد خليفة الدّناع: «وأهمّ ما يميّز هذه الأمّة أنّها تتعامل بلغة واحدة: عقيدة وسلوكًا وبحثًا وتدريسًا. فلغة التّراث، ولغة القرآن، ولغة الدّرس، ولغة الحديث واحدة، أو يجب أن تكون واحدة؛ رغم اختلاف البقاع وتشتّت الأقطار بعوامل سياسية استدمارية عبر حقب التّاريخ، إلاّ أنّ رابطها اللّغة العربية التي حاول الاستدمار أن يطمسها ويمحو معالمها» (1).

إذا كان للّغة العربية هذا الدّور المهمّ، في وضع القاعدة الأولى في بناء الصّرح الحضاري للأمّة العربية والإسلامية، فإنّ الالتفاف حولها وحمايتها وتطويرها مسؤولية كبيرة، يتوقّف عليها البقاء وفرض الوجود، ومقاومة الاستلاب، وضمان مكان في حلبات الصّراع والقراع، والنّزال والنّضال، التي هي سمة من سمات العلاقة بين الثّقافات والحضارات. لا يفوز ولا ينتصر في هذه المعارك إلاّ من تشبّع بمقوّماته وتشرّبها، وتسلّح بها وتحمّس لها، وانطلق في حياته وبناء فكره منها. يقول الدّكتور صالح الخرفي: «إنّ فوز الأمّة العربية في معركة الهوية الثّقافية متوقّف على الاعتماد على المنطلقات القومية في السّعي لإثبات وتأكيد الهوية. وفي طليعة تلك المنطلقات اللّغة العربية، فهي الطّليعة المتقدّمة والصّفّ الأمامي، ورأس الرّمح في معركة الهوية» (2).

كيف هي حال اللّغة العربية في الوقت الرّاهن؟ ما علاقة أبنائها بها؟ كيف هو حضورها في حياتهم اليومية؟ في حياتهم العلمية؟ في أجهزة إعلامهم؟ كيف يقدّمها المنتمون إليها للعالم؟ هل يرون لها مستقبلاً؟ هل لهم ثقة بها أن ترتفع بهم إلى مدارج الكمال؟ هل يطمئنّون إليها أن توفّرت لهم فرص الإبداع والابتكار، كما يرون ذلك في اللّغات الأخرى؟ كيف ينظرون إليها؟ هل يرونها عاجزة عن حمل المعارف؟ هل يعتقدون أنّها تقف عائقًا أمام اقتحام عالم المعرفة والمعلوماتية؟ ثمّ أين الخلل في عدم إتقان بعض أبنائها (ربّما أغلبهم) بعامّة، ومتعلّموها ومثقّفوها لها؟...ما هو مكانها في قلوب السّاسة؟ ما حظّها في مراسيم تنظيم شؤون البلدان العربية؟ هل يمكن النّهوض باللّغة العربية في مختلف المستويات والمجالات والأصعدة؟ هل يمكن التّرغيب فيها وتحبيبها للنّاشئة – بخاصة – ؟ هل يمكن وضع مخطّطات ومشروعات في التّعريف باللّغة العربية، والكشف عن جمالياتها وخصائصها؛ حتّى يرفع عنها الغبن واللّبس والتّهم التي ألصقت بها؟ هل في نيّة أبنائها إفادة غير النّاطقين بها، وإتباع سياسة محكمة لتلبية شغفهم في إتقان هذه اللّغة؟ بالجملة هل يمكن تغيير الواقع، وتبديل حال اللّغة العربية الرّاهن، وإصلاح الخلل ورأب الصّدع؟ وردم الفجوة بين الأفراد واللّغة الأمّ؟ فترجع إلى سابق عهدها وإبداعها، كما كانت في الحقب الماضية؟(3).

(1) الدّكتور محمد خليفة الدّناع، «العربية الفصحى رباط قومي»، ينظر كتاب: من قضايا اللغة العربية المعاصرة، ص: 158.

(2) الدّكتور صالح خرفي، «اللغة العربية هويتنا القومية»، ينظر المصدر السابق، ص: 24.

(3) عرض الدّكتور محمد العربي ولد خليفة مجموعة من الأسئلة في هذا السّياق. ينظر كتاب: اللّغة والهوية والتّعدّدية اللّسانية، نشر المجلس الأعلى للّغة العربية (الجزائر)، نوفمبر 2006م، ص: 8، 9.

قوة اللّغة العربية ومكانتها

يقوا صالح الخرفي: « . . .فاللّغة العربية قوام الشّخصية في الوطن العربي عموديًا، وبعدها أفقيًا في الشّعوب الإسلامية، التي تربطنا بها رابطة الدّين، فإذا تعزّز الشّعورُ الدّيني بالأداة المعبّرة عنه تعانقت العروبة والإسلامُ في أروع مظاهرهما وأكمل صورهما وأوسع آفاقهما؛ لما فيه خير البشرية جمعاء. »(1).

اللّغة العربية هي المقوّم الأساس في تكوين شخصية الفرد المسلم، هي السند الذي يسند كيان الأمّة، هي الرّمز الذي يبرز حقيقة الفرد العربي، هي الوعاء الذي يختزن الثّقافة العربية والإسلامية، هي الأداة التي تعمل وتحمل ابن هذه اللّغة على الإبداع وإنتاج المعرفة. . .إلى جانب كونها العنصر الذي يوحّد المسلمين بمختلف أوطانهم وجنسياتهم.

إنّ اللّغة العربية هي الحياة العربية الإسلامية، والوجود العربي والإسلامي، ففيها تُقْرَأُ هذه الحياة، وهذا الوجود في كلّ جوانبهما: الفكرية والفنّية والاجتماعية والنّفسية. . .التأمّل فيها والبحث فيها يقدّم الوجه الحقيقي لهما. ينتج عن هذا أنّ طريقة التّعامل معها، وصلة أهلها بها هما اللّذان يعطيان القيمة الصّحيحة لها. ويقدّمان الدّليل المحسوس أو الواقعي لما يمكن أن تفرزه من نتائج حسنة أو سيّئة، وما تمنحه من قوّة أو ضعف، تضعها في خانة معيّنة، ينظر إليها النّاس من خلالها. يقول الدّكتور محمد سويسي: «إنّ اللّغة العربية هي مستودع الثّقافة العربية، وهي صلة الأمّة بالأجيال السّابقة، وصلتهم بعضهم ببعض في الحاضر، وصلتهم بالأجيال القادمة. . . »(2).

للأسف الشّديد إن هذه اللّغة لم تعد تحمل تلك القيمة، ولم تصبح لها تلك المكانة، ولم يعد أبناؤها يحتفون بها، أو يقيمون لها وزنًا. فهي في أرضها غريبة، وبين أهلها مهينة، ومن القائمين عليها مهمّشة، ومن أقامها وضعها على أرض هشّة. وربّما انطبق على الفرد العربي في البلدان العربية قول المتنبّي:

ولكـن الفتى العربي فيهـــا غريب الوجه واليد واللّســان

إنّها لم تعد تجد من بنيها اهتمامًا ولا تقديرًا. بل هم يصمُونَها بالعقم، ويصفونَها بالتّخلّف، وَيَسَمُونَها بالغريبة عن زمانها، وغير المنسجمة مع العصر. وتَبِعَ ذلك ازدراء غيرهم لها، وتزهيد أبنائها فيها، وإقصائها من المحافل العامّة، والمنتديات العالمية. يقول الدّكتور شكري فيصل: «اللّغة العربية إذن ليست في وضع أمني سليم، يساعدها على التّطوّر الحقيقي في ملاحقة الحضارة واحتوائها. إنّها في حالة حربٍ. الدّفاعُ عن الذّات يشغلها: دفاعها أمام الغزاة من

(1) من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 22.

(2) المصدر السابق، ص: 154.

الخارج، وأمام الضّعفاء من الدّاخل. وهي حالة من حالات الاستنزاف، يجب أن تتجاوزها؛ حتّى تلتقي قدراتنا اللّغوية كاملة على العمل لنصرة العربية، بعيدًا عن كلّ جدلٍ نظري، أو نقاش لا مردود له، بعد أن استقرّ في الذّهن اللّغوي البشري أنّ لغة الشّعوب ذاتها هي أقصر الطّرق إلى تقبّل المعرفة والعلم والحضارة.»(1).

إنّ اللّغة العربية هي أحد مظاهر السّيادة الثّقافية، الاعتزاز والتحصين بها، يحفظ الشّخصية، ويدفع إلى الإبداع والابتكار، واكتساب المعرفة وبناء الحضارة. لذا يجب أن تنأى عن المشاكل التي تعيقها عن امتلاك هذه المميّزات. لكن واحسرتاه، إنّ اللّغة العربية تتخبطّ في مشاكل كثيرة سبّبت لها إعاقات، حبستها عن الانطلاق والإبداع. فما هي هذه المشاكل التي تعاني منها في الوقت الرّاهن؟ أو ما هي مظاهر هذه المعاناة؟

المشاكل التي تعاني منها اللّغة العربية

هي كثيرة نشير إلى بعضها، على سبيل التّمثيل، بغيةَ الحسيس والتّذكير بالواجب نحو هذه اللّغة(2). هذه المشاكل، أو المعاناة إذا استمرّت، تتضاعف وتقوى، فتعرّض العربية للخطر، وبعدها تصاب الأمّة الإسلامية في الصّميم(3).

1 – اتّهام اللّغة العربية بالعجز عن الإبداع ومواكبة العصر

هذه الفرية وهذه التّهمة تعدّ أخطر دعوى ترفع ضدّ اللّغة العربية؛ بغية النّيل منها أوّلاً، وبالفكر الذي تحمله بالتبع، وقصدَ صدّ أهلها عنها، وتحويل قبلتهم وجهتهم نحو فكرٍ غير فكرهم. يقتنع السّذّج والمغفّلون وأصحاب الضّمائر الرّخوة، والنّفوس الواهنة بحقيقة ما يمليه عليه أولئك القاسطون؛ فينصرفون عن لغتهم (الأمّ)، وعاء فكرهم الحقيقي، وحاملة رسالتهم الصّحيحة، ومستودع ثقافتهم الأصيلة...فيزدرونها ويحتقرونها. فيكنّون لها العداء، ممّا يؤدّي إلى فتح واجهات الصّراع داخل المجتمع العربي والإسلامي، حول المقوّمات والأصول والمبادئ، فتُعْرَضُ مشروعات محاكمة الانتماء، أو المزايدة عليه، أو التّشكيك فيه. إلى غير ذلك من المشاكل والملهيات التي تصدّ عن التّوجيه الصّحيح للطّاقات والقدرات. تقول الدّكتورة مها خير بك ناصر: «...تثير هذه الإشكالية جدلاً دائمًا بين الطّلاب وأساتذتهم، وبين المثقّفين أنفسهم، وتظهر النّتيجة شكلاً من الهروب من واجب المحافظة على الذّات القومية، والتّخلّي عن العمل

(1) المصدر السابق، ص: 33.

(2) ذكر بعضها الدّكتور محمّد بوغازي، ينظر كتاب توطين المعرفة العلمية والتّكنولوجية وأهميّة نشرها بالعربية، نشر المجلس الأعلى للّغة العربية، الجزائر، نوفمبر 2006م، ص: 23.

(3) ينظر الدّكتور عدنان علي رضا النّحوي، وكتابه: لماذا اللّغة العربية، ط1، دار النّحوي للنّشر والتّوزيع، الرّياض، 1418هـ/ 1998م. فيه فصل، عنوانه: «حقيقة الخطر الذي يهدّد الأمّة المسلمة حين تضعف اللّغة العربية» ص: 51 – 60.

على تعزيز الانتماء، فتلقى التّهم على اللّغة العربية؛ لأنّها في رأي معظم المتعلّمين غيرَ قادرة على مواكبة التّطوّر العلمي والحضاري، ولا تستوعبُ المصطلحات العلمية الحديثة، ولا تساعد على فهم النّظريات العلمية المتطوّرة، وهي في رأي بعض دارسي العلوم الإنسانية عاجزة عن التّفاعل مع النّظريات الألسنية الحديثة»(1).

أمام هذا السّيل العارم من التّهم الباطلة لا ألبث أن أردّد قائلا لهؤلاء الضّعفاء الواهنين:

نعيب لساننــا والعيّ فينــا   ومـا للساننـــا عيٌّ سوانـا

عجزنا عن مواكبــة المســار   فقمنـا حاملين لها سِنانـــا

2 – ضعف العصبيّة القومية عند بعض أبناء العربية

تشكو اللّغة العربية وهنًا في العلاقة الحميمية بينها وبين بعض أبنائها، ممّا نتج عنه فتورٌ في الحماسة لها، أدّى إلى عدم الاعتراف بها؛ مقوّمًا يبني الشّخصية، وأداة فعّالة تساعد على الإبداع، وعنصرًا يعين على مواكبة التّطوّر العلمي والتّكنولوجي...لذا نُفِثَ في روعهم، ورسخ في أذهانهم أنّه: لا مجال للتّعامل بها، أو الاحتفاظ بها. إنّها ليست في شيء من الأهميّة والجدوي. النتيجة والمحصّلة من ذلك اللّجوء إلى اللّغات الأخرى والاهتمام والاحتفاء بها بديلا عن اللّغة العربية. تقول مها خيربك ناصر: «جسّد الاعتزاز بالمنطوق الأجنبي حالة تغريب عن اللّغة القومية، فعكس العجز عن إتقان لغة العصر شعورًا بالنّقص، وإحساسًا بالعجز عن مواكبة التّطوّر العلمي والتّكنولوجي، وبلغت سيطرة اللّغات الأجنبية في بعض البلدان العربية درجة يعجز معها المتعلّم معرفة اللّفظ العلمي أو الأدبي، أو التّداول اليومي في اللّغة العربية، وصارت المعرفة باللّغة العربية عند بعضهم مرادفة للجهل والأميّة»(2).

إنّ هدا الشّعور، أو هذه النّظرة هي من أكبر الأدواء التي تصيب العربية في الصّميم. إنّها دعوى باطلة، وفكرة خاطئة. تسبّب ظلمًا وإجحافًا كبيرين، ينالان اللّغة من أبنائها، وظلم ذوي القربى أشدّ وأفتك سلاح يفضي إلى الهلاك. ثمّ إنّ هذا الاعتقاد يصرف فلذات الأكباد إلى وجهات أخرى، وترك الأمّ تشكو الغربة والبعد ونكران الجميل، بِضربِها بضرّات لها، تتربّص بها الدّوائر لتنقضّ عليها، ودفع الأبناء لينفضوا أيديهم منها، بعد أن ينفضّوا من حولها، ويهجروا حجرها، وينأوا عن حضنها.

إذن إنّ اللّغة العربية تواجه معوّقات داخلية، أكثر من المعوّقات الخارجية، في طريق صيرورتها وتطوّرها، أو لِنَقُل ضمان حياة طبيعة، كما تعيش اللّغات الأخرى التي تجد سندًا ودعمًا وخدمة

(1) الدّكتورة مها خير بك ناصر، «إشكالية اللّغة العربية والعولمة في ضوء البنية اللّغوية وكيميائية التّحوّل»، مجلّة اللّغة العربية، المجلس الأعلى للّغة العربية، (الجزائر)، العدد السّادس عشر، خريف 2006م، ص: 284.

(2) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 283.

من بنيها. هنا مكمن الخطر؛ لأنّ هذا لا يدلّ إلاّ على شيء واحدٍ، هو التّخلّي عن هذه اللّغة، وعدم الاعتراف بها مقوّمًا في البناء والتّقدّم، والارتماء في أحضان لغات أخرى دخيلة، بعيدة عن طبيعة الفكر الذي ينتمي إليه العربي المسلم، الذي ينقلب بذلك فأسًا يجتثّ شجرة أصالته من الجذور. تقول مها خير بك ناصر: « ... لأنّ الخطر الحقيقي يكمن في ضمير الشّعوب العربية. وهو متجسّد في عدم الثّقة بالنّفس، وفي ضعف الانتماء الوطني أوّلاً، والقومي ثانيًا، وفي شدّة الإعجاب بكلّ دخيلٍ، ولو كان مشبوهًا؛ لأنّ الانبهار بما لدى الآخر من دون ملامسة جوهره، ومعرفة شيءٍ من حقيقته، سبَبٌ أساس في تشويه الفكر العربي وتخلّيه عن هويته. وهذا من الأسباب التي تقود البعض إلى حالة من الانبطاح أمام أصحاب السّلطة بأسلوب يتنافى وإنسانية الإنسان، وكرامة الفرد؛ ممّا ينذر بضياع أبسط مقوّمات الاعتزاز بالنّفس، وبخسارة الاعتزاز بالانتماء الفكري، والتّعويض عنه بانتماء نفعي إلى مجموعة لا تعترف بالقدرات، ليتحوّل إلى رقم في صناديق النّفعية »(1).

هذه الأدواء النّفسية أكثر الأخطار على اللّغة العربية والانتماء؛ لأنّها توجد فجوة أو هوّة كبيرة في العلاقة بين اللّغة وأبنائها، فيزدادان ابتعادًا أو تباعدًا بمرور الزّمن، وينهدّ بذلك الكيان، وتفقد السّيادة. وامتلاك السّيادة الفكرية أو الثّقافية، أو الاحتفاظ بها، منطلقه امتلاك سيادة اللّغة (الأمّ) في وطنها وبين أهلها قبل كلّ شيء.

يقول صالح الخرفي: «عندما يكون العطاء الخارجي على حساب الأصالة الذّاتية تفقد اللّغة وظيفتها في بناء الذّات؛ لتتحوّل إلى معول في هدمها. ولن يكون ذلك إلاّ بانقطاع الصّلة بين اللّغة منطوقةً على طرف اللّسان، وبين اللّغة مغروسةً في العمقِ العقائدي، والبعد الحضاري، وهو انفصام رفضته اللّغة العربية في أوج سيادتها، فاستعصت بذلك على المتربّصين بها، وعانت منه في عهود الانحطاط والتّبعية، فهان أمرها على النّاطقين بها، والكائدين لها »(2).

يعرض جميل عيسى الملائكة همًّا آخر يصيب العربية، مصدره المتعلّمون، غير المحصّنين بلغتهم، غير العارفين لحقيقتها، الذين ينبهرون بحضارة البلدان التي يقيمون فيها، وهم في ريعان الشّباب: « غير أنّ ممّا يؤسف له أنّ نفرًا من الذين يبتعدون عن هذه البلاد ردحًا من الزّمن للدّراسة، وهم ما زالوا في نضارة الشّباب، تبهرهم حضارة البلاد التي يزورنها، ويتعلّمون لغاتها ويأخذون من علومها، في حين لم تكن تهيّأت لهم قبل ذلك فرصة إتقان العربية، وممارستها في العمل العلمي المتخصّص، وإذا بهم يعتقدون بقصور العربية عن مجاراة العلوم. وما القصور إلاّ

(1) المصدر السّابق، ع: 16، ص: 304.

(2) من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 18.

فيهم، فما أحوج أمثال هؤلاء إلى هدايتهم بصقل معرفتهم بالعربية في دورات وحلقات دراسية مركّزة لإعادة ثقتهم بها» (1).

إنّ القصور في هؤلاء الطّلبة الدّارسين في البلدان الأجنبية، وليس في لغتهم الأمّ. إنّ هؤلاء هم خطر على اللّغة العربية؛ لأنّهم الطّبقة التي قد يراهم بعض النّاس حجّة فيما يقولون، إذ هم يتحدّثون عن دراية علمية متخصّصة، وتجربة واقعية مُمارسَة، وبدافع الحاجة إلى ما يعينهم على بناء صرحهم العلمي. لذا لابدّ من أخذ تصرّفاتهم بعين الاعتبار، وعدّ ما يقولون أحسن الأفكار. هذا ما قد يعتقده بسطاء النّاس، وغير الملقّحين بلقاح الأصول والقواعد الصّحيحة، فيكون ذلك وبالا ووباء على اللّغة العربية.

مع ذلك يجب البحث عن الأسباب التي أدّت بأولئك المتعلّمين إلى اتّخاذ تلك المواقف السّلبية من لغتهم الأصلية. وعلى القائمين على التّوجيه والتّربية تحمّل مسؤولية عدم توفير القواعد التي ينطلقون منها في إتقان اللّغة العربية في أثناء دراستهم قبل التّخصص، بل تعليمهم اللّغة العربية العلمية، التي تخدم تخصّصاتهم. ثمّ مواصلة رعايتهم بالتّقرّب إليهم، وإحاطتهم بسياج من الحماية الفكرية والثّقافية والنّفسية، ومنع الاستلاب والتّبعية عن حياتهم العلمية.

يقول صالح الخرفي: «إنّ الاعتراف الدّولي باللّغة العربية لغة رسمية في منظّماته ومحافله محلّ عبرة واعتبار، عندما تضعف العصبية القومية عند بعض أبناء هذه اللّغة، فيطلبون بديلاً لها في لغات أجنبية. وأنّ هذا الفتور إزاء أحد المقوّمات الأساسية للذّاتية ناتج عن استلاب ثقافي وفراغ حضاري، مردّهما ضعف التّكوين الشّخصي في التّربية العربية الحديثة. الأمر الذي ينتج عنه سرعة الانبهار بالحضارة الغربية الحديثة، التي غالبًا ما تحتضن طلاّب الدّراسات العليا من أبناء العروبة والإسلام»(2).

هناك خطر آخر يهدّد العربية في عقر دارها، ومن أبنائها المنهزمين نفسيًا، القاصرين عن فهم لغتهم واستيعاب مضمونها، وتشرّب جمالياتها وفنّياتها، والوقوف على مكانتها وقيمتها ودورها في الحياة الفكرية العالمية. هذه الهواجس وهذه الأفكار وهذه التّصرّفات سكينتهم وداخلنهم؛ نتيجة الخوف من العولمة التي غزت ديارهم وأهليهم، ومسّت قلوبهم الواجفة، وعقولهم الممسوسة. . .فصدّقوا ما قيل لهم، وطبّقوا ما أُملِي عليهم، ونفّذوا ما أُمروا به، فقالوا وردّدوا وروّجوا ولوّحوا أنّ اللّغة العربية عاجزة عن استيعاب العلوم المعاصرة، وغير قادرة على مواكبة تطوّرات العصر المتساوقة المتلاحقة، فنبذوا لغتهم ظهريًا، وقلبوا لها ظهر المجنّ، وسافروا وغرّبوا وشرّقوا وغرّدوا خارج سربهم، وتغنّوا بغير ألحانهم، فكانت اللّغة العربية (الأمّ) هي

(1) المصدر السّابق، ص: 131.

(2) المصدر السّابق، ص: 21.

الضّحية، إذ أصبحت عندهم من سقط المتاع الذي لا يصلح لشيء. تقول مها خيربك ناصر: «بعث الخوف من العولمة في الذّات العربية المعاصرة شعورًا بالإحباط؛ نتيجة تنحّي المفكّر العربي عن حلبة الصّراع، وقبوله حالة التّلقّي، وتعليل عجزه باتّهام اللّغة بالقصور عن استيعاب ماهية العلوم المعاصرة، فتظهرنا العولمة بخوفنا منها عاجزين، ونبرّر عجزنا العلمي بقصور اللّغة العربية عن استيعاب العلوم، وعن أنماط الثّقافة الحضارية المعاصرة، ونجرّد اللّغة من قدرتها على تدوين المعارف، ومن سماتها التّوليدية التّخصيبية، بسبب عدم ثقتنا بانتمائنا، ونصوّرها قاصرة عن استيعاب المنتج العلمي والثّقافي والحضاري»(1).

هذه النّظرة إلى اللّغة العربية، وهذا الشّعور السّلبي نحوها، يدفع بهؤلاء المهزوزين في شخصيتهم إلى البحث عن وسائل للتّقدّم والتّطوّر بعيدًا عن لغتهم؛ إذ الوقوف في نقطة معيّنة، أو محطّة محدّدة، ترفضها الحياةُ، وتأباها الفطرة. فلا يجد هؤلاء إلاّ اللّغات الأجنبية ملاذًا وموئلاً لهم للخروج من حالة الجمود والهمود، فيركبون متونها وصهواتها لتنقلهم إلى عوالم فكرية غير التي تتّصل بهم، وتقيم كيانهم الحقيقي، وتحطّ بهم في محطّات، لا تتّصل إليهم بسبب. يقول الدّكتور علي الشّابي: «لقد علّمنا التّاريخ والواقع أنّ تقدّم الأمّة العربية بالنّظر إلى بنيتها اللّغوية والرّوحية والتّراثية هو رهين اعتمادها على لغتها التي هي حسب تعبير «Louis Massignon» عامل أساسي لنشر السّلام في العالم، وأداة مصالحة لنقل اكتشافات الفكر بين الدول(2). كما علّمنا تاريخنا المعاصر أنّ السّعي إلى التّقدّم باعتماد اللّغات الأجنبية، بدل اللّغة العربية، لا يعدو أن يكون ركضًا وراء السّراب، وترسيخًا لقيمة الاستهلاك والاستلاب الفكري، وتكريسًا للتّبعية الثّقافية والسّياسية والاقتصادية»(3).

إنّ الاستمرار في هذا النّهج، بهذا التّفكير، سيعجّل بموت اللّغة العربية، وبموتها تذوب الهوية العربية والإسلامية، وتلك هي البليّة العظمى، بل الطّامّة الكبرى التي تنزل صاعقة على الأمّة الإسلامية. إذن لابدّ من أخذ هذه القضية بالجدّية الكاملة، لإنقاذ الأصالة، والإفادة من العصرنة، والمحافظة على الأصول، والتّفاعل مع الثّقافات الأخرى. تقول مها خير بك ناصر: «ستفرض العولمة انتشار اللّغة الإنكليزية، حتّى بين الطّبقات الشّعبية، ولكن الخوف ليس من انتشار هذه اللّغة بين الخاصّة والعامّة، وإنّما المشكلة تكمن في ازدراء أبناء العربية للغتهم؛ لأنّهم بذلك يعملون على موتها، وبموت اللّغة القومية تتلاشى الهوية الوطنية. فكم من شعوب

---

(1) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 311.

(2) يراجع تقويم (لوي ماسينيون)، كتاب: «ماكس فانتاجو (المعجزة العربية)»، تعريب «رمضان لاوند»، بيروت، 1951م، ص: 6.

(3) الدّكتور علي الشّابي، «اللّغة العربية لغة القرآن ورسالة الإسلام»، ينظر كتاب من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 65.

انقرضت بانقراض لغتهم. ولا أبالغ إذا قلت: إنّ معظم الشّعوب اليهودية لا تتخلّى عن لغتها العبرية، التي تشكّل الجامع المشترك لهم في أصقاع الأرض جميعها. والشّعب الأرميني حافظ على خصائصه القومية باحترامه للغته القومية، واتّخاذها أداةَ تواصل فكري، ووجداني وقومي؛ لأنّ اللّغة توحّد المجموعات المتباعدة جغرافيًا، وتشعر الفرد بانتمائه الفكري والوجداني إلى بني قومه، وتعزّز الرّوابط»(1).

هناك عمل كبير منوطٌ على القابعين في سدّات المسؤولية، مهما تكن هذه المسؤولية، وعلى القائمين على وضع خطط توجيه الأمّة، وعلى الماسكين بزمام إدارة شؤونها...على هؤلاء عبء ثقيل، وجهد جهيد في توفير ما يساعد على الحفاظ على الهوية؛ بواسطة ربط النّاس بمقوّمات شخصيتهم، وعلى رأسها اللّغة العربية، وجعلهم يتعلّقون بها، ويمارسون بها حياتهم، فتبقى حيّة، تتحرّك في الفضاءات وتتطوّر. يقول شكري فيصل: «إنّ العمل على اكتساب العربية في مواطنها وبين أبنائها هو أبرز ميادين العمل لخدمتها، واستمرارها وتحدّيها. وحين يؤمن قومٌ بلغتهم إيمانًا صادقًا علميًا، وحين يمارسونها ممارسة سليمة، فإنّ ذلك أوّل مراحل الحفاظ عليها من جهة، وتمهيد الطّريق أمام تطوّرها من جهة أخرى، تطوّرًا ينبع من ثنايا الاستعمال والتّطبيق، لا من خلال التّهويمات النّظريّة»(2).

إنّ إتقان اللّغة العربية، وممارستها في الأعمال العلمية المتخصّصة، مطلب فطري، وضرورة حضارية، لخدمتها وصيانتها وحمايتها، والارتقاء بها في ميادين التّفاعل الثّقافي. كما أنّ ردّ الاعتبار للعربية، المقوّم الأساس للشّخصية العربية الإسلامية كفيل بفتح المجال أمامها للإبداع، وردّ الاعتبار للشّخصية نفسها.

3 – إهانة المحيط للّغة العربية

البيئة التي تَدْرُجُ فيها اللّغة العربية تهينها أكبر الإهانة، فمن يعتزّ بلغته العربية يعيش فيها غريبًا، إذ يصطدم بتصرّفات غريبة وهو يتعامل مع أبناء جلدته وبني أرومته. ويُواجَهُ بأنواع من السّلوك التي يحارُ فيها العقل، ولا تقبلها الفطرة. فالشّارع لا يحسن اللّغة العربية، والإدارة لا تتقنها، والمؤسّسات الثّقافية لا تعتني بها كما ينبغي، ومراكز التّكوين لا تعلّمها كما يجب. والإعلام يقترف في حقّها جرائم لا تغتفر. والأسرة لا تولي لها اهتمامًا.

---

(1) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16. عن التّحدّيات التي تواجه الثّقافة والقومية والمقوّمات والسّيادة عن طريق شبح العولمة أو غول العولمة، يراجع على سبيل المثال، كتاب العولمة والتّحدّي الثّقافي، للدّكتور باسم عليّ خريسان، نشر دار الفكر العربي، 2001م، بيروت. وكتاب عولمة السّيادة حال الأمّة العربية، للدّكتور حسن البزّاز، نشر المؤسّسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، 1422هـ/ 2002م، بيروت.

(2) من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 45.

لنأخذ مثالاً على هذا التّفريط في اللّغة العربية، بل تحقيرها، تصرّفات التّجار معها. إنّ منهم من يفضّل اللّغة الأجنبية في كتابة واجهة محلّه، ولا يعترف باللّغة العربية، فهي تصغر في عينيه، وتبدو له حروفها أشكالاً ذميمة، ولا أقول قبيحة، هي لا تجذب له الزّبائن، ولا توفّر له ربحًا وفيرًا. ومنهم من يميل أو يحلو له أن يزيّن اسم متجره بكلمات أجنبية مكتوبة بحروف عربية، أو يروّج بها بضاعته، من أمثال: «سوبر ماركت»، «كايرو شوز»، «بوتيك»، «فابريكا»، «فِي بير vie pure»...، في هذا تقع المسؤولية على الجهات المختصّة، التي تسمح بهذه التّصرّفات، وترخّص لأصحابِها بذبح الأصالة، ونحر الكرامة، والدّوس على الهوية.

بل إنّ هذه الجهات ترتكب ما يجعلها قدوة وحجّة لهؤلاء التّجار، فهي تتصرّف التّصرّف ذاته. مثلا نقرأ في بعض المدن العربية الجمل الآتية: «هاوس آند جاردن»، سانتر سيتي»، «سانتر فيل»...

بعض المشتغلين بأمور الرّياضة لا يحلو لهم إلاّ أن يتحدّثوا باللّغة الأجنبية، أو أن ينطقوا الكلمات الأجنبية بأصوات عربية. من أمثال: (قول، سْتَاد، فَاوْلْ، كُرْنَرْ، أَوْتْسَايْدْ، كَابْتَن، أُنْتْرِينُور، كُونْتْرُول، ..). وقمصان اللاّعبين تكتب باللّغات الأجنبية، وإلاّ لا تكون مقبولة ومتناسبة مع جماليات الكرة وفنّياتها. والشّعارات والإعلانات التي تملأُ الملاعب، تكون معظمها باللّغات الدّخيلة والدّائسة على الكرامة العربية. وهكذا نصطدم بهذه الأشكال من الإهانة للّغة العربية في بقية جوانب الحياة اليومية للعربي في أرضه.

هل هناك خيانة أكبر من هذا؟ هل هناك غمّ وكرب أعظم من هذا؟ إنّ هذا يكشف بوضوح وصراحة عن احتقار اللّغة العربية(1). هذه الظّاهرة تنبئ عن كارثة حقيقية، وهي التّخلي عن الانتماء. حين يحصل هذا نترقّب فقدان الهوية، ثمّ الذّوبان والتّلاشي بعد ذلك. تقول مها خير بك ناصر: «...ولكنّ احتقار اللّغة الأمّ ينذر بكارثة ضياع، وفقدان الهوية؛ لأنّ التّخلّي عن الانتماء القومي، والتّنكّر للأصل يهدّد بخسارة الذّاكرة الثّقافية للأمّة، وغيابها عن مستويات الفاعلية الحضارية، ومن ثمّ عجز أفراد الأمّة عن مواكبة الحركات الفكرية الفاعلة على مسرح الوجود، وتكون النّتيجة فقدان الكيان الذّاتي والمعنوي للقومية العربية»(2).

---

(1) كتب الشّيخ إبراهيم أبو اليقظان مقالا، عنوانه: «اللّغة العربية غريبة في دارها»، نشره في جريدته «وادي ميزاب»، ع: 55، الصّادر يوم: 3 من نوفمبر 1927م. تناول فيه الوضعية الغريبة للّغة العربية في موطنها، ذكر المظاهر والأسباب والأخطار النّاجمة عن ذلك، ومستقبل الهوية والشّخصية القومية. للقارئ أن يتأمّل في المقال الذي كتب سنة 1927م، في ظلّ الاحتلال العسكري، وفقدان الحريّة. والحالة التي تعيشها العربية اليوم في الألفية الثّالثة، في رحمة الاستقلال واسترجاع السّيادة. ولينظر وليفكّر وليعتبر وليقدّر ما شاء له التّقدير...

(2) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 284.

4 – التّباهي بتطعيم الكلام العربي بالألفاظ الأجنبية

هذه الظّاهرة تشمل عامّة النّاس وخاصّتهم، حتّى أصبحت تقليعة، قلعت العربية من بعض عقول المغرورين والمغفّلين ومن حياتهم. وإنّك لترى الشّخص لا يحسن تلك اللّغة الأجنبية التي ينطق بها، لكنّه يقحم نفسه مع من يريد أن يكون من المتقدّمين المتطوّرين؛ فيتكلّم اللّغة الأجنبية. هذه الظّاهرة يسمّيها الدّكتور عبد القادر فضيل: (التّسيّب اللّغوي)(1). من مثل العبارة الآتية، التي ملأت الآفاق: (عِيشْ la vie).

أراد أحدهم أن يخبر عن شخص داسته سيّارة فقتلته. أي أن يقول: «**داسته سيارة، فجمعناه قطعة قطعةً**» فقال: «**كْرَزَتُو اَتُّومُوبِيلْ أُو رَمَرْسِينَاهْ مُرْسُو مُرْسُو**». وآخر قال: «**أنا طَالَعْ فَلْبِيسْ أُو رَايَحْ أَلْبِينَاكْ أَنْقابَلْ لَبْرُوفْ أُنْجِيبْ لَبُو**» أي أنا صاعد إلى الحافلة، في اتّجاه حيّ ابن عكنون، لأُقابلَ الأستاذ، وآتِيَ بالمنحة»

ما هذا النّشاز؟ ما هذا الدوق؟ ما هذا العقل الذي لا يميّز بين المتنافر والمنسجم من الألفاظ والعبارات؟ هل فقد النّاس الإحساس؟ هل استوى عندهم التُّرب والتِّربُ؟؟؟

وبعضهم يتحدّث صراحة ووقاحة باللّغة الأجنبية، ولا يرضى أبدًا أن ينبس بلفظة عربية؛ تكبّرًا واحتقارًا للغته (الأمّ). وأحسن هؤلاء حالاً من يعتذر لمخاطَبيه أن يسمحوا له، فيحدّثهم بلغة أجنبية، لأنّه لا يحسن اللّغة العربية، فيكون العذر في مستوى الجرم الذي ارتكبه في أحد مقوّمات شخصيته.

زار عالم ألماني بلدًا عربيًا في مهمّة علمية، فقصد مركزًا ثقافيًا، فطافت به موظّفة بهذا المركز، وبدأت تقدّم له شروحًا باللّغة الفرنسية، فاعتذر لها، أنّه لا يحسن هذه اللّغة، فاستغربت منه: كيف لا يحسن اللّغة الفرنسية، فقال لها: هل يفرض عليّ أن أحسن الفرنسية، وأنا الألماني، أنا أتقن الألمانية، وأعرف العربية. فالمفروض أن تشرحي لي باللّغة العربية، فأنا في بلد عربي.

هذا العالم قال لأحد الإخوة في هذا البلد: على من يقصد بلدكم أن يصطحب معه قاموسًا متعدّد اللّغات؛ لينجد به نفسه حين يخاطب فردًا منكم، فأنا لم أتبيّن اللّغة التي تتحدّثون بها، فهي خليط من الفرنسية والإنكليزية والإسبانية ولغات أخرى. كأنّه يقول: أين لغتكم القومية الرّسمية.

ما هذا التّقريع من العالم غير العربي؟ ما هذه الذّلة من الفرد العربي؟ ما هذا العار الذي نرتكبه نحو لغتنا (الأمّ)، التي أرضعتنا لبانها، وحضنتنا؟ فهي لا تطلب منّا سوى أن نرعى لها حقّها، ونبرّها بإحلالها في قلوبنا المحلّ اللائق، وأن نفسح لها مجالاتٍ في حياتنا.

---

(1) ينظر كتاب اللّغة والهوية والتّعدّدية اللّسانية، ص: 83.

موقف العالم الألماني يذكّرني بما قاله أحمد الرّيسوني عن بعض الدّول العربية: « لا يستطيع الملاحظ أن يستنتج أنّ اللّغة العربية هي اللّغة (الرّسمية) للبلد. فاللّغات الأجنبية تواصل اكتساحها واحتلالها لموقع السّيادة والرّيادة على الخريطة العربية، في مجالات التّعليم والإعلام والإدارات والمعاملات الحكومية، والمرافق الاقتصادية والتّجارية والخدماتية. وهي لذلك معزّزة بجهود ومخطّطات ومؤسّسات وتمويلات. وهكذا تستولي اللّغة الإنكليزية على المشرق العربي، وتستولي اللّغة الفرنسية على المغرب العربي »(1).

إنّ هذا السّلوك ليس حضاريًا، ولا مسئولا، بل فيه تجنٍّ واعتداءٌ على الحقوق؛ إذ فيه حرمان اللّغة العربية من مكانتها بين اللّغات الفاعلة في العالم، وإقصاؤها من مكانها في المحافل الدّولية. يقول أحمد الرّيسوني: « لقد أصبح الكثيرون من النّخب العربية، ومن المسئولين العرب يجيدون ويمجّدون اللّغات الأجنبية، أكثر بكثير ممّا يفعلونه مع لغتهم، حتّى إنّ بعض المنظّمات التّابعة للأمم المتّحدة قد بدأت تتداول قرار حذف اللّغة العربية من اللّغات الرّسمية المعتمدة لديها، وذلك لسببين:

الأوّل: هو أنّ ممثّلي العربية أنفسهم لا يستعملون لغتهم العربية داخل هذه المنظّمات؛ حرصًا منهم على إظهار معرفتهم باللّغة الأجنبية.

الثّاني: هو أنّ الدّول العربية غير ملتزمة بتعهّداتها المالية والبشرية, في دعم متطلّبات استعمال العربية في أجهزة الأمم المتّحدة وفروعها.

على أنّ التّفريط الرّسمي العربي في اللّغة القومية الرّسمية، على صعيد الأمم المتّحدة، وعلى الصّعيد الدّولي بصفة عامّة، ليس إلاّ فرعًا ونتيجة للتّفريط الأصلي على الصّعيد الدّاخلي... »(2).

أين الوفاء بالعهود والمواثيق؟ أين الالتزام بشروط التّمثيل؟ أين المسؤولية في تقديم الوجه الحقيقي للأمّة؟ فَدَاؤُنا منّا، وكان الواجب أن نكون فِدَاءً لِلغتنا. إنّ ضررنا يأتينا من داخلنا، ومصيبتنا تلحقنا من ساحلنا. هل يصدق على لغتنا وعلينا قول الشّاعر:

ما حيلة الرّيح، إذا من داخـل هبّت، وسفن أوتيت من ساحلِ

ليتذكّر أولئك أنّ الهوية والكيان والوجود هي اللّغة. ومسايرة الحركات الفكرية الفاعلة في العالم، تكون بلغة (الأمّ) الأصيلة القويّة. والذّاكرة الثّقافية التي تواكب الفاعلية الحضارة مردّها إلى اللّغة...فلنع تلك الخسارة الكبيرة المهلكة التي تلحق بالأمّة، حين تكون اللّغة العربية في الدّرك الأسفل من الاهتمام، وقد ينعدم الاهتمام أصلاً، أو يكون اهتمامًا فاقدًا للهمّة والحماسة،

(1) مجلّة إسلامية المعرفة، ع: 49، ص: 8.

(2) المصدر السّابق، ص: 9.

والإرادة التي توفّر الأجواء المساعدة على تعلّمها وإتقانها؛ بما يرتقي بها إلى مكانتها، وإلى ما يرفع التّحدّي.

كما نبيّن لهؤلاء المتنطّعين، والغافلين أو المغفّلين، أنّ المبالغة في تطعيم اللّغة العربية بالألفاظ الأجنبية الغريبة عن الأذن، يمسخها ويشوّهها، ويسلخها من أصالتها، ويصمها بالعجمة، التي تنفُرُ منها الأذواق السّليمة، والنّفوس الكريمة، فضلا عن كون ذلك يعدّ من أبرز مظاهر التّبعية الثّقافية، والتّسيّب الفكري.

للاستعمار دور كبير في مناهضة الثّقافة الإسلامية بالتّشجيع على تبنّي هذه الفكرة، وتطبيق هذه الخطّة، وسلوك أيّ سبيل للنّيل من الثّقافة العربية: «قال «بينو» الوزير السّابق في الحكومة الفرنسية: لقد خسرت فرنسا إمبراطورية استعمارية، وعليها أن تعوّضها بإمبراطورية ثقافية. فالمدخل الحقيقي إلى الاستعمار الجديد هو الهيمنة اللّغوية والثّقافية»(1).

5 – إهانة اللّغة العربية في ميادين التّدريس(2).

مظاهر هذا التّقصير أو الإهانة كثيرة، منها:

أ – عدم إعطائها القدر الكافي أو المناسب: في مناهج التّعليم بمختلف مراحله: وضعَ مناهج، وشموليةَ فروعها، والحجمَ السّاعي المناسب، وإعدادَ الوسائل الكفيلة بتدريسها، وتنفيذ المنهجية السّليمة، التي تساير التّطوّر والتّجديد.

ب – عدم التّقيّد بالتّدريس باللّغة العربية الخالصة، فالمدرّسون في مختلف المراحل يخلطون اللّغة العربية بالعامية واللّغات الأجنبية. ممّا يؤثّر سلبًا على العربية نفسها والمتلقّين معًا.

ج – سلب اللّغة العربية حقّ تلقين العلوم بها – بخاصّة في الجامعة – وتفضيل اللّغات الأجنبية عليها؛ اقتناعًا من المخطّطين والمدرّسين بأنّ الجدوى والنّتائج الجيّدة لا تكون إلاّ باللّغة الأجنبية، التي تضمن إعداد شباب مثقّف متكوّن أحسن تكوّن، وبهم تتقدّم البلدان العربية. منطوق تصرّفهم يشي بأنّ العربية قاصرة عن هذا الدّور. مع أنّ العلماء يؤكّدون أنّ التّقدّم الحقيقي لا يكون إلاّ باللّغة (الأمّ).

يقول أحمد الرّيسوني: «كما أنّ (اللّغة الأمّ) تشكّل وسيلة لا بديل عنها لأيّ إبداع، أدبي أو علمي، مستقلّ ومتميّز. ودونها لا تكون إلاّ التّبعية والذّيلية والهامشية. فليس هناك أمّة أبدعت وتميّزت: حضاريًا أو علميًا أو أدبيًا، بغير لغتها القومية الرّاسخة فيها. وها هي التّجربة

(1) من قضايا اللّغة العربية، ص: 23، 24.

(2) عن مظاهر وضع اللّغة العربية المتدنّي المتردّي في المدارس والجامعات الجزائرية، ينظر ما سجّله الدّكتور عبد القادر فضيل، كتاب: اللّغة والهوية والتّعدّدية اللّسانية، ص: 83.

اليابانية على – سبيل المثال – حيّة وقريبة؛ إذ كان الاعتماد الأساسي والكبير للنّهضة اليابانية على اللّغة القومية، وليس على اللّغة الإنكليزية، كما يظنّ الكثيرون. وإلى الآن فإنّ الشّعب الياباني يُعدُّ متأخّرًا في سلّم المعرفة باللّغة الإنكليزية، ضمن شعوب العالم. فقد جاء اليابانيون في المرتبة الثّامنة عشرة في امتحانات خاصّة، أُجريت على الصّعيد الآسيوي. ولو كان الامتحان على الصّعيد العالمي لتدحرج ترتيبهم إلى الوراء أكثر، ولسبقهم كثير من العرب »(1).

هذه الملاحظة، وهذه الحقيقية تُسِرّ وتهمس في أبناء اللّغة العربية إلى الحرص على إقحامها: « مجالات العمل، تَمكينها من ممارسة دورها الحضاري في ميادين الحياة المختلفة، وبدفعها لخوض معركة الإنتاج المعرفي والإبداع الحضاري. مثلها مثل اللّغات الأجنبية، التي لا يتردّد أهلها في جعلها أداة السّيادة في وطنها، والتي بها يدخلون عالم المعرفة »(2).

يضيف محمد سويسي :إنّ لسان حال اللّغة العربية يقول: (أعطوني العلماء أعبّر لكم عمّا لم تنطق به الألسن من قبل). وفي المعنى يقول ريفارول: (ما كانت قطّ اللّغة الثّرية لتكون لغة شعبٍ جاهل معوز »(3). واللّغة العربية أثبت عبر تاريخها أنّها لغة ثرية، تتوفّر على إمكانات هائلة للإبداع وإنتاج المعرفة، وقد فعلت. لذا فتنبيه الدّكتور محمد سويسي ينعى على أبناء العربية أن يجرّوا الأميّة والجهل للغتهم؛ بكسلهم وتخاذلهم وخمودهم. فالعربية لست كذلك ولن تكون. يقول الدّكتور محمد علي بوغازي: « لقد أثبتت اللّغة العربية قدرة فائقة على حمل أرقى المعارف العلمية والتّكنولوجية.

والواقع إنّ اللّغة العربية هي من ثراء المبنى وغنى الإمكانات، بحيث تقدّم هي ذاتها فرصًا نادرة لولوج عصر المعلوماتية، وكثافة المعرفة باقتدار »(4).

في هذا السّياق يؤرّقني قول الدّكتور تمام حسان، وهو يوجّه عتابه المرّ، وتقريعه اللاّذع إلى المقصّرين في حق اللّغة العربية، ولا يجد آذانًا مصغية، ولا قلوبًا واعية. فيستمرّ الحال على ما هو عليه في سحب الثّقة في اللّغة العربية، بل يزداد سوءًا؛ حين يتغلغل هذا الإحساس في الأجيال المتعاقبة، وترسخ عقيدة فيهم: أَلاّ مكان للّغة العربية في ميادين العلوم، ولا معوّل عليها في كسب المعرفة. يقول الأستاذ: « ...فما عذر جامعاتنا التي ما تزال تصرّ على تعليم العلوم الطّبيعية والرّياضية بلغات الغرب؟ إنّ هذا الموقف من جامعاتنا يكشف عن اتّهامٍ للّغة

(1) مجلّة إسلامية المعرفة، ع: 49، ص: 7.

(2) اللّغة والهوية والتّعدّدية اللّسانية، ص: 82.

(3) من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 144.

(4) توطين المعرفة العلمية والتّكنولوجية وأهمية نشرها بالعربية، ص: 22.

العربية بالقصور عن الوفاء بمطالب العلم الحديث. وهو اتّهام ظالم من قوم أولى بهم أن يتّهموا أنفسهم بالعجز عن ترجمة علومهم؛ لقصور منهم عن إتقان لغتهم القومية، وعن القدرة على الانتفاع بمرونتها...»(1).

د – نقص فادح في نشر المعرفة باللّغة العربية تأليفًا وترجمةً. وعدم توفير مراجع باللّغة العربية للكتابة بها.

هـ – ضعف في التّرجمة إلى اللّغة العربية، وبخاصّة العلوم المعاصرة. يتجلّى ذلك في ترجمة الغثّ والسّمين من الموضوعات، من دون دراسة دقيقة، وخطّة محكمة، ويبرز أيضًا في ركاكة الأسلوب، وتعقيد المعنى، وافتقاد الرّوح الدّينية والوطنية في بعض الأحيان في المحتوى اللّغوي؛ نتيجة ضعف في اللّغة العربية، وهشاشة في التّشبّع بالدّين...كلّ هذا يعود على العربية بالويل والثّبور.

6 – حرمان النّاشئة من سماع اللّغة العربية في أوساطهم

النّاشئة لا تسمع اللّغة العربية كثيرًا في الأوساط التي تتحرّك فيها وتعيش وتدرج: في المنزل والشّارع والنّادي، والإدارة والملعب والمكتب.. في الاجتماعات واللّقاءات والمحاورات والمكالمات...ومن سَمعها سمَعها مشوّهة محرّفة، ومن يلقّنها لا يتحمّس لها. ومنهم من يتناقض مع نفسه معها، مرّة يتحدّث بها، ويحثّ على ذلك، ومرّات ينطق بما يخالف دعوته. مع العلم أنّ تعليم أيّة لغة، إنّما يتمُّ بِمهارات أربع: أوّلها الاستماع، ثمّ القراءة فالمحادثة فالكتابة. فإذا كان النّشء وغيره لا يسمع اللّغة العربية، أو يلتقطها محرّفة، وتقرع آذانه الكلمات الأجنبية بكثرة، فإنّ النّتيجة يكون الوهن الحاصل في موطنها وأوطانها.

7 – صمت المثقّف عمّا يحدث للّغة العربية

ممّا تعاني منه اللّغة العربية عدم تحمّل المثقّف العربي مسؤوليتَه في حماية لغته من الانحدار والانكسار والاندحار، والتّدنّي والتّردّي والتّجنّي. وهو ما أنتج نتائج وخيمة على اللّغة أوّلا، ثمّ على الأمّة التي تنتمي إليها ثانيًا. هذه السّلبية لا تفسّر إلاّ بالتّخلّي عن الواجب، أو الانهزامية والاستسلام للقوّات الضّاغطة على النّفوس؛ كي تبتعد عن ميادين القراع والصّراع، ولا تُقرَأُ إلاّ على أنّها ضربٌ من اليأس في استرجاع اللّغة (الأمّ) مكانتها ودورها في خضمّ صيرورة الحياة، وتطوّر الأحداث، وتفاعل الثّقافات...

يقول الدّكتور عبد السّلام المسدّي: «اللّغة العربية بما هي حامل للهوية الثّقافية، وضامن لصيرورة الذّات الحضارية، لا يتهدّدها شيء مثلما يتهدّدها صمت المثقّف، وهو ينظر إلى الزّحفِ

(1) الدّكتور تمام حسان، «اللّغة العربية والشّعوب الإسلامية»، ينظر كتاب من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 78. عن مظاهر وضع اللّغة العربية في الجزائر، ينظر ما كتبه الدّكتور عبد القادر فضيل، كتاب اللّغة والهوية والتّعدّدية اللّسانية، ص: 69 – 86.

اللّهجي يكتسح مجالاتها الحيوية، ولا سيما في الإبداع الثّقافي، وفي الحديث عن كلّ شأنٍ ثقافي، مهما تقلّصت أبعاده، أو انكمشت أحجامه، أو ضؤلت أوزانه، وليس من حقّ العرب في أن يواجهوا مخاطر الكونية الزّاحفة المستشرية إلاّ بجبهة داخلية متينة، تستمدّ قوّتها من التّماسك اللّغوي المطّرد في أنساقه، والمنسجم بين أطرافه. فالثّقافة معرفة وفنّ. والعرب الآن يفصّحون المعرفة ما وسعهم الإفصاحُ، ولكنّهم يلهّجون الفنّ، إلاّ من رجم ربّنا، وفي هذا يكمن نذير الانفصام »(1).

إنّ الممارسات السّيّئة مع اللّغة العربية مضرّة بها، والسّكوت عنها أشدّ ضررًا، بخاصّة إذا صدر هذا ممّن يفترض أن يكونوا سدنتها وحماتها، وهم المثّقفون، الذين حباهم الله وأكرمهم بنعمة الثّقافة والعلم والوعي؛ لكي يسخّروه في خدمة من هو بحاجة إلى خدماتهم. إنّهم مطالبون بالنّهوض بأعبائهم -أكثر- حين تمسّ المقوّمات، وتداس الحرمات، وتنتهك المقدّساتُ، كاللّغة العربية التي هي الحياة بالنّسبة للمنتمين إليها.

إنّ اللّغة العربية تشكو هؤلاء إلى الضّمير الحيّ، والمروءة المتيقّظة، والشّهامة المتّقدة. يقول حماية اللّغة العربية: « ...فهم أولى النّاس بالمبادرة بوضع الحدود للهوية اللّغوية، التي الدّكتور صالح بلعيد وهو يتحدّث عن المثقّفين بعامّة والإعلاميين بخاصّة وواجبهم في يتهدّدها وضع لغوي خطيرٌ، وإن وقع تحجيم هذا الأمر قد يؤدّي إلى فراغ ثقافي ولغوي يوصلاننا إلى حالات وهمية لا مرجع لها، ويفتح الباب لانفصال لغوي جديد »(2).

8 – الاستعمال المشوّه والغريب للّغة العربية

من المشاكل التي تعاني منها اللّغة العربية الاستعمال المشوّه لها، وارتكاب الأخطاء الكثيرة في حقّها، أخطاء في النّطق بها، في كتابتها، في إقحام صيغ ليست لها أيّة صلة بها، بل أحيانًا تظهرها ممجوجة، مذمومة، مملولة، ناشزًا...تنفّرها من أذواق أصحاب الحسّ الجمالي، ويجعلها سخرية عند الكائدين لها.

ما دامت قبلة كثير منّا هي فرنسا، فليسألوا أنفسهم: هل يمكن أن يتسامح الفرنسي مع من يهشّم لغته، أو يستهزئ بها.. يقول صالح بلعيد: « ... ولن يرضى الفرنسي أن يسمع مستهزئًا بلغته، يظهر في الشّاشة، أو يكتب في الصّحف الفرنسية، مهما كانت درجته العلمية أو السّياسية. وقد حصل هذا قديمًا عند العرب، بأنّ اللاّحنَ في اللّغة العربية يستبعدُ إلى بلاد العجم. وهناك من يجري عليه العقابُ شديدًا. وهذا كلّه من باب التّحرّز الذي كان يضعه النّحاةُ للّغة العربية، ويتمثّل ذلك في المحافظة على صفائها، إلى درجة المغالاة »(3).

(1) الدّكتور صالح بلعيد، « اللّغة العربية والصّحافة »، مجلّلة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 142.

(2) المصدر السّابق نفسه.

(3) مجلّة اللّغة العربية، : 16، ص: 160.

9 – الانهزام النّفسي وسحب الثّقة في اللّغة العربية

تضافرت عوامل كثيرة(1) في زرع داء الانهزام النّفسي في قلوب أبناء اللّغة العربية، فراحوا يبعدونها من حياتهم ومعاملاتهم، ومن تفكيرهم ومشروعاتهم، التي يضعونها للرّفع من مستوياتهم وأقدارهم، حتّى يوجدوا لهم مكانًا مع الأقوياء – حسب زعمهم – فلم يقووا على صدّ الهجمات التي توجّه نحو لغتهم (الأمّ)، ولم يفعلوا ما يفرض حضورها في الحياة العامّة، ولم ينهضوا ليثبتوا أصالتها وقدرتها على ريادة المجالات العلمية والتّكنولوجية، والتّحكّم في ميادين المعرفة. ونسوا تاريخ اللّغة العربية الحافل بعظائم المنجزات؛ حين كان أبناؤها أبطالاً وفرسانًا في تخصّصاتهم العلمية، يطوّرون بها المعارف والعلوم، ويطوّعون العالم لهم. كما أنّ هذا الانهزام أنساهم أحقاد الأعداء على لغتهم، والعمل على طمسها(2). كما أدّى بهم ذلك إلى الاستكانة والكسل والخمول والخمود، وعدم الاجتهاد في تطوير لغتهم، فركنوا إلى الاستعانة بالخبرات الأجنبية، واتّجهوا إل التّرجمة وحدها في كسب العلوم، وتطوير أدائهم المعرفي. علمًا أنّ الاعتماد على التّرجمة كثيرًا ما يفقد النّشء الثّقة في لغتهم.

10– مزاحمة اللّهجات المحلية للّغة العربية

من الأدواء الفتّاكة بالهوية الإسلامية، والقاتلة لمقوّمات الشّخصية العربية، مزاحمة اللّهجات المحليّة للّغة العربية، بخاصّة حين يكون شعار من يشّجع على هذا النّهج هو إحياء اللّغة الوطنية، واللّغة الرّسمية، والمحافظة على الهوية.. .هنا تصبح هذه الدّعوات معيقات حقيقية لتطوّر اللّغة العربية، بل تكون خطرًا على وجودها، ففي أهون الشّرور هزالها وضعفها، وفقدان قوّتها، وقوّة التّأثير فيمن يحسبون في أبنائها. ويكون نتيجة ذلك فقدان الحماسة نحوها، وقد يتطوّر الأمر إلى نصب العداء لها، وتركها نهائيًا... ولئن كان هذا السّلوك قد صاحب اللّغة العربية منذ القديم، لكنّه في الوقت الحاضر استشرى، وارتدى ألبسة واتّخذ أقنعة، لها سموم مبيدة للّغة العربية أكثر: «...وصولاً إلى العصر الحاضر، حيث استفحل الدّاءُ وعمّ البلاءُ، وأصبح الموتورون من العروبة والعرب ولغتهم يجاهرون بتكريس اللّهجات الإقليمية الانفصالية على حساب اللّغة العربية الفصحى، خزّان علوم العرب وآدابهم وتراثهم المشرق، العروة الوثقى بين العروبة والإسلام»(3).

(1) من هذه العوامل سياسة الاستعمار معها ومع أبناء اللّغة العربية، وهجوم الصّهيونية على كلّ ما هو عربي أو إسلامي، وضعف الحماسة لها مِنْ بعض مَنْ ينتسبون إليها، وعدم اهتمام القائمين على التّكوين والإعداد والبناء بواجبهم الكامل في تلقين اللّغة العربية للنّاشئة بخاصّة...

(2) ينظر ما كتبه الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي في الموضوع، عيون البصائر، ط2، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2003م، ص: 221 – 223.

(3) ماجد الصّائغ، الأخطاء الشّائعة وأثرها في تطوّر اللّغة العربية، ص: 5.

يقول أحمد الرّيسوني: « . . . انبعثت بعد فشلٍ قديم دعواتٌ متحمّسة ومبادرات فعلية، لمحاولة ترسيم اللّهجات العامية واتّخاذها بدائل عن الفُصحى. وهكذا ظهرت في المغرب العربي على سبيل المثال صحف وإذاعات وقنوات مكتوبة وناطقة بالعامية. ولحسن الحظّ فإنّ أصحابها يشتكون من إعراض الجمهور عنهم واستهجانه لعملهم. ذلك أنّ عامّة النّاس، بمن فيهم الأميّون وأشباه الأميّين يفضّلون لغة فصيحة ميسّرة، على العامية المغرقة في محلّيتها وخصوصيتها وقلّة جدواها، فهم يريدون خطابًا يرتقي بهم، لا خطابًا يحطّ بهم »(1).

عادة ما تصحب هذه الدّعوات مشروعات تنال من اللّغة العربية، ويتمّ ذلك بالتّنسيق مع الجهات التي تكنّ عداء للّغة العربية. وغالبًا ما تقصد الفئات الشّبانية التي لا تكون محصّنة بالثّوابت والمقوّمات الحقيقية لشخصيتها. من أسلحة هؤلاء تقديم معلومات خاطئة، عن تاريخية هذه اللّغة ودخولها إلى أوطانها، وكثيرًا ما توصف بأنّها جاءت مستعمرة ومزحزحة للّهجات التي كانت سائدة قبل مجيئها. ومنها تزويد المغرّر بهم بمعلومات مشوّهة لطبيعة اللّغة العربية، وهي عدم صلاحيتها لمواكبة التّطوّر والتّقدّم، بل هي من أسباب تأخّر الشّعوب التي تتمسّك بها. . .إلى غير ذلك من الادّعاءات الباطلة الغادرة، والهجمات السّافرة، التي تسبّب مشاكل للّغة العربية كثيرة.

11- غياب سياسة حقيقية ورغبة جدّية لتقوية اللّغة العربية

غياب التّخطيط المدروس لمستقبل اللّغة العربية على مستوى الحكومات والهيئات والأفراد، أثّر كثيرًا على مردود اللّغة العربية في العطاء، وسبّب جحود أبنائها لها.

إنّ اللّغة العربية تشكو عدم وجود مشروعات جادّة ومحكمة، للقيام على شؤونها: تعليمًا، وتطويرًا، وصيانة وحماية، ونشرًا، ومدافعة الأخطار المحدقة بها، والمخطّطات الكائدة لها. فالمسئولون لا يقومون بما ينبئ عن اهتمامهم الجدّي والكبير والمسئول عن اللّغة (الأمّ) الحاملة للفكر، والحامية للهوية والحانية على أبنائها. والهيئات والمؤسّسات التي تعنى بجانب التّخطيط لخدمة اللّغة العربية قليلة جدًّا، وبعضها الذي ينشط تنقصه الإمكانات، وقد ينحسر مجال نشاطها: زمنًا ومكانًا وبشرًا: أفرادًا يعملون وآخرون يُخاطَبون ويوجَّهون. وقليل من الباحثين من يعمل على تطوير اللّغة وتطويعها لمسايرة التّجدّد والتّغيّر؛ لظروف وعوامل قد تكون موضوعية، وقد تكون أعذارًا غير مقبولة.

إذن هناك تقصير كبير في حقّ اللّغة العربية، وربّما تَجَنٍّ سافرٌ نحوها في زاوية التّخطيط والبرمجة والإستراتيجية. وهو ممّا تعانيه أشدّ المعاناة، فلابدّ من الانتباه لهذا، والإفاقة من الغفلة،

(1) إسلامية المعرفة، ع: 49، ص: 9.

والاستيقاظ من الغفوة، والتّخلّي عن الجحود والتّنصّل من المسؤولية، لابدّ من صحوة ووثبة عملاقة نحو الأمام. يقول أحمد الرّيسوني: «إنّ المسألة اللّغوية عمومًا، ومسألة اللّغة العربية تحديدًا، تستدعي وتستحقّ جهودًا أكبر بكثير ممّا تأخذه الآن. ولا أُراني مبالغًا إذا قلت: إنّ قضية اللّغة العربية تحتاج إلى صحوة وحركة، على غرار الحركة الإسلامية والصّحوة الإسلامية. فهل نطمح إلى أن نشهد انتفاضة لغوية عربية، تبشّر بمستقبل قريب للّغة العربية في عصر العولمة.

...إنّ قضية اللّغة العربية يجب أن ترفع إلى مرتبة القضايا الكبرى للأمّة، قضايا الوجود، والسّياسة والتّخطيط (الاستراتيجي) للحاضر والمستقبل. ويجب أن تعدَّ قضية حكومات وشعوب، لا قضية مهتمّين ومتخصّصين. نحن نرى أنّ مجامع اللّغة العربية، على جهودها وعطاءاتها الجليلة، تجد نفسها مشلولة أمام الواقع المتدهور لهذه اللّغة، ذلك أنّها دون أنصار، ودون تجاوبٍ رسمي، ولا سند شعبي، ولا يكاد يعلم بقضيتها أحد»(1).

12- تعجيم اللّغة العربية

بعض الدّول العربية تقيم فيها أعداد هائلة من الوافدين والمقيمين غير العرب، يتوزّعون على مختلف ميادين العمل. وبعض المراكز يمثّلون فيها الأغلبية، هؤلاء لا يحسنون اللّغة العربية، فيضطرّون إلى التّحدّث بها، لكنّها تكون مكسّرة، مهشّمة، ممسوخة، والأهالي يتعاملون معهم بتلك الطّريقة. وقد تمكّن هؤلاء الوافدون أن يدخلوا في قاموس لغة السّكان العرب الأصليين مفردات، لا أصل لها ولا فصل، ولا مبنى لها ولا معنى واضح، فتزحزحت بعض الألفاظ العربية عن يوميات العربي، لتحتلّ مكانها ألفاظ أعجمية غريبة، تبعث على الضّحك والبكاء في آن واحد.

حصل هذا نتيجة تنازل العربي عن لغته؛ لمصالح يريد أن يقضيها مع هذا الأعجمي الوافد على بلده، والذي ملأ حياته، واحتلّ مكانه في النّشاط. بدل أن يغتنم العربي الفرصة ليعلّمه اللّغة العربية، ويكون بذلك قد أسهم في نشرها في الأوساط غير العربية. ليكون هذا رسولَ العربية إلى أهله ووطنه. كما يكون – دائمًا – العربي رسول اللّغة الأجنبية إلى بلده، بعد أن يتشبّع باللّغة التي كان يتحدّث بها في البلد الذي يقيم فيه، ويتشرّبها أحسن ما يكون التّشرّب، فَيَنْقُلَ إلى عقر داره فكر هذه اللّغة، ويضربَ به فكره الحقيقي، بعد أن يضرب بلغته (الأمّ) عرض الحائط.

هذا الأعجمي لو عاش أو أقام في بلد غير عربي، مَا تعامل مع أهله إلاّ بلغتهم، بل قد يتقنها، ولا يمكن له أن يتحدّث معهم بلغته (الأمّ)، أو يهجّن لغتهم. لماذا يكون العربي دائمًا هو المستهدف، وهو المهجّن، من القويّ والضّعيف؟؟ هذه مصيبة أخرى تتعرّض لها اللّغة العربية، ومعول آخر تحطّم بها، ومسمار آخر يضرب في نعشها(2).

---

(1) مجلّة إسلامية المعرفة، ع: 49، ص: 10، 11. ينظرُ: 11، 12 المقترحات التي قدّمها الأستاذ أحمد الرّيسوني لتحريك القضيّة.

(2) ينظر المصدر السّابق، ص: 9. ما كتبه أحمد الرّيسوني في الموضوع.

13– تقلّص فرص الشّغل في أسواق العمل العربية للمتكوّنين باللّغة العربية.

هذا عائق كبير للإقبال على اللّغة العربية، وحاجز سميك يمنع أبناءها من التّقرّب إليها، ما دامت النّفوس تتحكّم فيها الأغراض الدّنيوية، وتسيّرها المصالح الخاصّة. على المخطّطين وأصحاب القرار، وعلى القيادات أن تراعي هذا الجانب، فتضع من ضمن اهتماماتها ومسؤولياتها، توفير فرص العمل للمتكوّنين باللّغة العربية. وإلاّ فقدت العربية كلّ حقبة أعدادًا كبيرة، تفرّ إلى لغات أخرى. والأخطر من هذا أن يكون هناك سوء تدبير أو تخطيط، أو...حين يهيّأ منهاج، فيه مواد يدرسها الطّالب في مراحل ما قبل الجامعة باللّغة العربية، فإذا ما تخطّى عتبة الثّانوية العامّة، أو عقبة الباكالوريا، وفرح بولوج أبواب الجامعة، ركبه همّ، وتملّكته حسرة، حين يقال له: عليك أن تكمل مشوارك العلمي باللّغة الأجنبية؛ لأن تخصّصك منصوص عليه ومحكوم أن يدرس باللّغة الأجنبية. فينعى المسكين، ويلعن السّنوات التي كان يضيّع فيها أوقاته مع اللّغة العربية، التي تسبّب له شقاءً وبلاء وضياعًا. فما عليه إلاّ أن يقدّم نصيحة غالية لإخوانه: أن لا يهتموا بهذه اللّغة الميّتة، ويصرفوا عنها اهتمامهم، وينصرفوا إلى اللّغات الحيّة الضّامنة لسوق العمل.

14 – خطر الفضائيات

الإدمان على تتبّع الفضائيات، ومتابعة ما تبثّه من دون فرز واختيار الأنسب لفطرة الإنسان، ومن دون الاقتصاد في ذلك، وتقبّل كلّ ما تقدّمه، بأيّ مضمون كان، أو أسلوب يُعرض خطأٌ وخطلٌ وخطرٌ. يفسد النّفوس، ويخرّب العقول، ويصيب القلوب. فإذا ما قدّم بلغة فاسدة، أو مشوّهة ممسوحة، كان الخطر أكبر؛ لأنّ ذلك يؤثّر على الفكر والمعتقد والوعي والعلاقة مع اللّغة (الأمّ).

إنّ كثيرًا من الذين يظهرون على شاشاتنا العربية يرتكبون جنايات كبيرة في حقّ اللّغة العربية، يستحقّون عليها أقسى العقوبات، تغريمًا أو تعزيزا أو نفيًا أو سجنًا ، وربّما قتلا. لأنّ سلوكهم يصيب الأمّة الإسلامية والعربية في المقاتل، فيرديها صريعة، والقاتل يقتل.

برامج باللّغة العربية المحطّمة المشوّهة تقدّم، وأخرى تململ سيبويه في قبره تعرض، وغيرها بلهجات محليّة مطعّمة بلغة عربية محتشمة تبثّ، وبرامج تمزج فيها اللّغة العربية باللّغات الأجنبية، يُستنجَد بها للتّعبير عن المقصود؛ لأنّ المتكلّم لا يحسن اللّغة العربية، أو قد يظنّ أنّ المشاهد لا يفهم الخطاب الموجّه إليه باللّفظة العربية الفصيحة السّليمة...

مهما تكن المظاهر، ومهما تكن التّصرّفات، ومهما تكن النّوايا، فإنّ النّتيجة واحدة هي المساس باللّغة العربية، والنّيل من قدرها ومكانتها. يقول الدّكتور صالح بلعيد: «وأعتبر ما يأتي من هذه المحطّات المخلّة بالوجه اللّغوي الصّحيح لدرجة الفساد، من المنتج الرّخيص السّهل المنال؛ لأنّ هذه

المحطّات تنزع إلى إرضاء جمهورها، وتنزل إلى مستواهم البسيط، وتخاطبهم بما يريدون، ولا تحاول أن تعمل على ترقية لغتهم بدعوى الإثارة والدّعاية والتّشهير والتّمنشير، ويستدعي هذا النّوع من التّكسير اللّغوي ما يستدعي. بل هي طريقة جديدة في الحداثة والعمق؛ بحكم السّرعة. وفي نظرهم من يقف في وجه هؤلاء فهو رجعي سلفي أصولي، لا يريد للّغة التّطوّر. وعلى العموم فإنّ بضاعة أمثال هذه القنوات نافقة هشّة، لا تذهب بعيدًا»(1).

15- أخطاء الإعلام وجناياته

كم هي الأخطاء الكبيرة والجنايات العظيمة، التي يرتكبها الإعلام في حقّ اللّغة العربية، والتي تركت آثارها السّلبية على حقيقة هذه اللّغة، وحاضرها ومستقبلها. فمن كسر قواعدها، والانحراف بإعرابها، إلى تهشيم بنية كلماتها، أي عدم التّقيّد بقواعد الصّرف في النّطق والكتابة بها؛ لجهل وأميّة في هذه القواعد، إلى اختراع صيغ وأوزان ما أنزل الله بها من سلطان، واختراق السّنن العربي، إلى تهجين أساليب اللّغة بأساليب دخيلة عليها وعلى البيان العربي. بمعنى استفحل داء تأثّر الإعلاميين (والكتّاب) بأساليب اللّغات الأجنبية، فأكثروا من الاقتباس والتّرجمة للمفردات والأساليب والصّيغ، من دون ضابط ولا أصول ولا مراعاة لخصوصية اللّغة العربية، وما يجني عليها.

هذه المظاهر الجديدة في اللّغة الصحفية التي تزاحم المناول الصّحيحة لها، هي منكرات تقترف في حقّ اللّغة، التي يراد لها أن تهجر أصولها ومنابعها لتسير في غير دربها؛ ريثما تلتحق بصفّ الموءودين والهالكين إلى غير رجعة، وبذلك تتعرّض الهوية والأصالة للخطر، ما دامت هذه اللّغة هي وعاء القرآن، وضامن الهوية، وحامل الفكر، وحامي الشّخصية...فعدم احتفاظها بخصائصها ومميّزاتها يدفع بها إلى حافة القبر(2).

هذه بعض المشاكل التي تعاني منها اللّغة العربية، والمعيقات التي تعيقها عن السّير الحسن، وعن التّحرّك المطّرد، وعن استثمار طاقاتها ومخزونها الثّرّ في خدمة الفكر العالمي، وفي تطوير الحياة، والإسهام في النّهضات المختلفة. هذه المشاكل تأتيها من داخل الدّار، ومن خارج الحمى. من هنا نعرض على أنفسنا – كما فعل كثير من المهتمّين بشؤون اللّغة العربية – الأسئلة الآتية: 1 – ممّن ننقذ اللّغة العربية في الوقت الرّاهن؟ 2 – من الجاني عليها في هذا العصر بخاصّة؟ 3 – هل تموت هذه اللّغة، وتتلاشى الهوية التي تحملها؟ 4– ما هو السّبيل إلى الخروج بها من الأنفاق المظلمة، إلى الفضاءات المضيئة، والرّجوع بها إلى سالف عهدها المزدهر المنتج المثمر؟

(1) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 155، 156.

(2) عن العوامل التي تؤدّي بالصّحافيين إلى ارتكاب أخطاء في اللّغة، ينظر ما سجّله الدّكتور صالح بلعيد، مجلّة اللّغة العربية،ع: 16، ص: 181 – 183.

كثير من المشاكل التي تعاني منها اللّغة العربية في عقر دارها، كان للاستعمار دور كبير فيها، إلى جانب قابلية أبناء هذه اللّغة في استقبالها، أو تقبّلها طوعًا أو كرهًا. يعلّق الأستاذ محمد عبد السّلام آزادي عن مفاجأة الاستعمار للصّحوة التي أتت بها النّهضة العربية، وما قدّمته للّغة العربية، فرأى فيها صحوة إسلامية قائمة، لا تكون معها للغرب المتربّص بالإسلام قائمة، فعمد إلى ضرب اللّغة العربية، صمّام الأمان، ومقوّم الشّخصية، ومحرّك النّخوة العربية الإسلامية. فاقترف ما يذكره الأستاذ: «ولكن فور ما تنبّه الاستعمار الثّقافي إلى أنّ نهضة اللّغة العربية بهذه السرعة المذهلة، نهضة للإسلام، فأخذوا يتآمرون ضدّ اللّغة العربية على نحوٍ تالٍ:

1 – صرفوا عنايتهم باللّهجات العربية الإقليمية، وحاولوا وضعَ القواعد المعياريةِ لهذه اللّهجات لتكون بديلاً للفصحى.

2– وخوّفوا النّاس من الفصحى بأنّها صعبة، وليس سهلاً التّمكّن من ناصيتها، ولا طائل في ممارستها؛ لأنّه لا علاقة بينها وبين الحياة المعاصرة.

3 – ونادوا لكتابة العربية بالحروف اللاّتينية، واختاروا لها أنصارًا وأعوانًا من بني العرب.

4 – وقاموا بمطالبة خلق اللّغة العربية الفصحى الوسيطة؛ لتكون سهلةً ووسطًا بين العامية والفصحى.

5 – ودعوا إلى استخدام اللّغة العامية»(1).

هذا بعض ما تعانيه اللّغة العربية في أوطانها، فما هو الواجب الذي ينتظر من له غيرة عليها؟

الواجب نحو اللّغة العربية

إنّ اللّغة العربية قادرة أن تسترجع مكانتها وهيبتها ودورها في خضمّ الحياة الحاضرة العامّة، التي تتّسم بالسّرعة والتّجدّد المطّرد، وبإمكانها أن تندمج في المسيرة الفكرية العالمية، وأن تقود القافلة، متى جدّد أبناؤها النّية في العمل الجاد، ومتى حسّنوا علاقتهم بلغتهم، ومتى رموا عن أنفسهم خلال الخوف والانهزام والاستسلام، ودفعوا عنهم آفات الكسل والخمول والتّبعية، ومتى وعوا رسالتهم في الوجود نحو لغتهم، وفقهوا خصائصها، واعترفوا لها بقوتّها وقدرتها على استيعاب أسباب الحضارة، وعوامل التّطوّر...

بهذا الوجه الجديد، ستغدو من جديد معلمًا بارزًا من معالم حياتنا الرّاهنة، يقدرها غيرنا قدرها؛ لأنّها ستؤسّس لمستقبل واعد، يكون مبنيًا على عمد صحيحة متينة، توفّره لنا لغتنا، التي أنكرنا قوّتها، وجحدنا فضلها ودورها، ورميناها بالقصور، في حين كان مكانها القصور

(1) التّأصيل الإسلامي للّغة العربية وآدابها في جهود الشّيخ أبي الحسن النّدوي، ص: 57.

الشّامخة في القدر والعلوّ والسّؤدد. يقول صالح الخرفي: « ولو قدّر للّغة العربية، بفضل التّربية العربية الإسلامية السّليمة أن تحتلّ في النّفوس مكانة من الاعتزاز، لا تقبل التّشكيك، وإيمانًا بقدرة العطاء، وطاقة الإبداع. لكان يومها أفضل من أمسها، وغدها خير الاثنين معًا: بناءً ذاتيًا، وعطاءً حضاريًا، وإبداعًا علميًا. وهي كذلك عندما تتوفّر لها هذه العصبية القومية، كما هي متوفّرة لكلّ لغات العالم. إنّ الإنجاز الحضاري الذي تحقّقه اللّغة العربية في بعض مواقعها، في الوطن العربي، والإبداع العلمي الذي تبرهن عنه بين الفينة والأخرى، إنّما هو بمقدار الإيمان بهذه اللّغة، والثّقة في قدرتها... »(1).

لكي نرتقي باللّغة العربية إلى المستوى المطلوب، ونصل بها إلى الغاية القصوى، يجب إتباع خطوات مدروسة، وتخطيط منهج محكم، يعمل على استرجاع هذه اللّغة مكانتها في نفوس أبنائها أوّلا، بعدها يعمدون إلى حمايتها من الاعتداء عليها، وصونها من التّزييف والتّشويش. وليتأكّد أبناؤها أنّ مسيرتها وعطاءها التّاريخيين يعطيانهم كلّ الأمل والدّعم للتّشمير عن ساعد الجدّ للعمل على خدمة لغتهم لتنهض كي تقوم بدورها في مسيرة الفكر العالمي. فهي لغة لها القابلية لتتفاعل نع اللّغات الأخرى، ولها القدرة على التّطوّر والنّماء. من هذه الخطوات:

1- الالتفاف حول اللّغة العربية

التّجمّع حول اللّغة (الأمّ) روحًا وعملاً، للظّفر بالوحدة، التي توثّق الصّلة باللّغة، وتمتّن العلاقة بين أبنائها، وهو ما يعين على توفير روح الحماسة لها، وتدفع تلك الحماسة إلى التّقرّب منها أكثر لمعرفة خصائصها، والنّتيجة تكون زرع حسّ تذوّقها والانجذاب إليها. يقول الدّكتور إبراهيم أنيس: « لا تتمّ الوَحدة السّياسية وتستقيم النّظم الاجتماعية في شعب من الشّعوب، إلاّ على أساس الوحدة اللّغوية، التي تصبح للشّعب بمثابة رباط سحري، يجذب أفراده بعضهم إلى بعض، وليوثّقوا الصّلة بينهم؛ فيفكّرون بعقل واحد، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحّدة، ويتعاونون على ما فيه خيرهم، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرّخاء »(2).

هذه الملاحظة مهمّة، وهذا التّنبيه مفيد، يكشفان عن الخطوة الأولى في العمل على خدمة اللّغة، وتضعان الأساس لبناء شامخ شاهق عظيم،. عناصره: الوَحدة السّياسية والفكرية والشّعورية، والرّباط الوثيق، والصّلة القويّة، ثمّ الالتفاف والانجذاب إلى عنصر اللّغة، نقطة الانطلاق السّليم في الحياة أو الممارسة، الذي يوفّر الحياة الحقيقية، المبنية على الأمن والاستقرار والرّخاء. هذه الدّعوة تحتاج إلى خطوات عملية ومخطّطات واقعية لتجسيدها في الواقع. كلّ هذا يمكن القيام به، بعد الحصول على هذا العنصر: الالتفاف حول اللّغة العربية والحماسة لها.

(1) من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 21.

(2) ينظر المصدر السّابق، ص: 158.

2- حماية اللّغة

اللّغة العربية تحتاج – بعد التحمّس لها – إلى الحماية من كلّ أشكال الترهّل والاعتداء والاستلاب والتّهميش، بهذه الخطوة يبدأ الخروج من أنفاق المشاكل والتّخلّف، وينطلق التّطوّر. يقول صالح الخرفي: « والتماس التّطوّر مبدؤه في الاحتماء باللّغة القومية، وليس في الهروب منها. والحماية مسؤولية متبادلة بين المواطن ولغته. والحماية لا تعني التّقوقع، الذي يكتم أنفاس اللّغة، ولكنّه التّفتّح الأصيل، الذي يجدّد دورتها الدّموية »(1).

وممّا يدخل في هذا العنصر إحاطة اللّغة العربية بجملة من القوانين والمراسيم، التي تضمن صيانتها وحمايتها من المعتدين عليها وعلى حرمتها. على غرار ما تفعل الأمم التي تعتزّ بلغتها، وترعى حرمتها وتغار عليها: « ...فإنّ الفرنسيين يتّبعون في المحافظة على منزلة اللّغة الفرنسية في العالم، وعلى عالميتها سياسة حمائية، تتمثّل خاصّة في إصدار القوانين والقرارات الرّسمية عن مجلس الوزراء، ونشرها بالجريدة الرّسمية للحكومة الفرنسية، وهي – في معظمها – قوانين وقرارات خاصّة باستعمال اللّغة الفرنسية، والتّصدّي للدّخيل فيها من اللّغة الإنكليزية، يضاف إلى ذلك أنّهم قد خصّوا اللّغة الفرنسية وظاهرة الفرنكوفونية المرتبطة بها بكتابة دولة، تعنى بهما، وتعمل على دعمهما »(2).

هذا ما يجب أن يقوم به الغيورون على لغتهم لحمايتها. فلقد وقف نائب في البرلمان الفرنسي، وجهر قائلا: إنّنا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين، والذين يسرقون ويقتلون، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يفسدون اللّغة(3).

إنّ هذا النّائب، وعى مسؤوليته، وأنّه أُجلِس على المقعد؛ ليقوم بواجبه نحو إخوانه الذين أعطوا فيه الثّقة، فَيحمي شخصيتهم. وعلم علم اليقين أنّ في إفساد اللّغة قتلاً للأمّة، وهذا الجرم أفظع وأنكى من قتل النّفوس وسرقة الفلوس.

3- تفعيل مقوّمات اللّغة العربية

إنّ التّفعيل والتّطوير يكونان بالاستعمال والتطبيق. مع تحديث اللّغة على أسس منهجية تراعى فيها شروط التّطوير، بمعنى أوضح وأصرح: تكون تنمية الألفاظ بطريقة مدروسة، تبتعد عن الاعتباطية والعشوائية، وتكون مصحوبة بوعي تام للعملية التّطويرية، ومقرونة بمعرفة صحيحة بطرقها ومضاعفاتها، مع توخّي الحذر من الانزلاق والسّقوط في نقيض نتائج التّحديث. يجب أن يتمَّ تحديث اللّغة العربية بناءً على قواعد مؤسّسة وأصيلة وثابتة، تنبع من خصائص اللّغة العربية نفسها، وصادرة من الفكر الذي يحكم هذه اللّغة.

---

(1) المصدر السّابق، ص: 28.

(2) الدّكتور إبراهيم بن مراد، « مكانة اللّغة العربية بين لغات العالم الواسعة الانتشار »، ينظر المصدر السّابق، ص: 224.

(3) ينظر مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 198.

مثل ذلك يقال عن الأساليب الغريبة التي زاحمت نظيراتها في اللّغة العربية، فأقالتها عن موطنها وموضعها، فتشوّه البيان العربي، وفسدت أذواق النّاس، واختلط عليهم الأصيل الباني من الدّخيل الهادم.

4- إشاعة التّعبير والنّطق الصّحيحين السّليمين باللّغة العربية

يجب العمل على إسماع النّاس الكلام العربي الفصيح، في مختلف المستويات والأصعدة والمناسبات والمجالات. لتلتقط الأذن الأصوات الصّحيحة التي تتلاءم مع النّسق العربي. ويطلب الحرص على تعميم ذلك والإكثار منه. والالتزام في الكتابة بالأسلوب العربي السّليم المبين. وتحاشي الأخطاء الإملائية في الكتابات التي تظهر في المحيط الذي يتحرّك فيه ابن اللّغة العربية. وتجنّب الصّيغ التي لا تتوافق مع السّنن العربي في الكتابة. وفي ميدان التّعليم، على المدرّسين أن يدرّسوا باللّغة العربية مهما تكن المادة التي يدرّسونها، وأن يتحرّوا النّطق السّليم لها. وعلى المسئولين والقادة والسّاسة إتقان اللّغة العربية؛ لينطقوا بها سليمة صحيحة، فهم يمثّلون الواجهة والقدوة لمن يسوسونهم.

على المذيعين وهم يستقطبون جمهورًا عريضًا يستمع إليهم، ويشاهدهم ويتأثّر بهم ويقلّدهم أن يراعوا الذّمّة والوفاء والحرمة في اللّغة العربية، فلا يَتَجنّوا عليها بالنطّق السيئ بها، و بتهجين أسالبها، وتكسير صيغها...

بهذا يمكن أن يشيع التّحدّث والتّعبير باللّغة العربية، فتتعوّد الآذان سماع هذه اللّغة فتألفها، وتسارع الألسن إلى النّطق بها بدل اللّغات الأجنبية الدّخيلة. يقول عبد الإله نبهان: «إنّ العربية من أبرز عناصر هويتنا، وأقوى مقوّمات وحدتنا، لذلك يجب بذل الغالي والنّفيس في سبيل تدعيمها وترسيخها. ومثل هذا لا يقوم به كتيّب ننشره، ولا جدول نصنع عنوانه: قل ولا تقل. إنّ ما ينهض باللّغة هو إشاعة التّعبير الصّحيح السّليم على ألسنة المتعلّمين والمذيعين والممثّلين، وعلى صفحات الجرائد والمجلاّت والكتب العامّة وكتب التّعليم.. وإنّ الإلحاح على تقديم المتعة باللّغة الفصيحة، عن طريق الأغنية والتّمثيل، ليقدّم للّغة خدمة جلا، قد تعجز عنها عشرات المؤلّفات، في عصر انصرف فيه كثير من النّاس إلى المشاهدة والاستماع»(1).

إصابة هذا الهدف، أو تنفيذ هذا المطلب يتطلّب استعدادًا كبيرًا وإعدادًا جادًّا؛ بمعرفة اللّغة العربية وإتقانها: مفردة وتركيبًا وصيغًا وأساليب... وإلاّ عسر تحقيق هذا المطلوب. يضيف محمد سويسي: « إنّما اللّغة أداة يكون لها من الصّلاحية والنّجاعة بقدر ما يكون لمستعمليها من الكفاءة والبراعة، وبقدر ما يكون زادهم العلمي أوفر ومستواهم الثّقافي أعلى وأشمل»(2).

(1) مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 194.

(2) ينظر كتاب من قضايا اللّغة المعاصرة، ص: 153.

5- إعداد العلماء الرّاسخين في العلم

بعد وجود من يجيد النّطق بالعربية سليمة، نطلب العلماء الرّاسخين الذين يستثمرون إمكانات اللّغة العربية، ويفجّرون طاقاتها؛ لتنتج العلوم، وتوفّر المعارف. هؤلاء هم الذين يطّورون البحث بها، ومن خلالها، وبذلك يثبتون جدارة هذه اللّغة في السّير في ركاب الإبداع والتّطوير يقول محمد سويسي: « فلا يمكن للعربية إذن أن تتقدّم، وأن تتجدّد في الميدان العلمي والفلسفي والاقتصادي والفنّي، ما لم يتكوّن من أبناء العربية في العلوم سائرها، والفنون كافّة، ينتجون في جملة فروعها، ويكشفون اللّثامَ عن مفاهيم جديدة، ويستنبطون طرقًا مستحدثة، ويقفون على معلومات طريفة، فيعبّرون عنها، بما يرونه لائقًا بها، موافقًا لمدلولها ومضمونها »(1).

هذا الدّور تقوم به مراكز التّكوين، ومؤسّسات التّربية والإعداد. ومناهج التّعليم...فهذه مسؤوليتها كبيرة في بناء القاعدة الصّلبة في اللّغة العربية، وتكوين الذّوق والحماسة نحوها... لنا أن نتساءل: ماذا تعدّ مدارسنا وجامعاتنا ومراكز التّكوين، والمؤسّسات الثّقافية من النّاطقين باللّغة العربية، ومن دعائم لها، والمتحمّسين والحماة لها، وكيف تعدّهم؟؟ « إنّ تطوّر لسان عربي علمي، ليس شرطًا من شروط الوحدة الثّقافية والتّقدّم العلمي وحسب، ولكنّه شرط لازم من شروط القوّة والمنعة، وسبيل إلى تحقيق الوحدة العربية الشّاملة(2).

6- استنفار الجميع

تطلب اللغة العربية من جميع أبنائها الالتفاف حولها، والتّحمّس لها، ومناصرتها وحمايتها، والذّود عن حوضها. تطلب منهم الشعور بالمسؤولية الكاملة نحوها. وذلك يفسح المجال لها في حياتهم بكلّ جوانبها؛ حتّى تغدو جزءًا من وجودهم.

7- الدّعم الحكومي والقرار السّياسي

نجاعة الخطوات السّابقة تتوقّف أساسًا على ما توليه الحكومات العربية من اهتمام، وتتحمّله من مسؤولية نحو لغة الهوية والفكر والثّقافة، وما توفّره من إمكانات مادية ومعنوية؛ لتستعيد اللّغة العربية مكانتها ودورها، ولتقوم بما قامت به في القديم: من تنمية الفكر، وتطوير الحياة، بالإبداع والابتكار والتّخصيب، والتّفاعل مع اللّغات والثّقافات الأخرى.

كما أنّ القرار السّياسي الذي تتّخذه السّلطة، التي بيدها الحلّ والعقد والرّبط، والأمر والنّهي. وفي قبضتها الزّجر والرّدع...من شأنه ترشيد النّاس إلى احترام لغتهم، وتوجيه النّاشئة إلى تعلّم لسانهم العربي، منذ بداية مشوارهم الدّراسي، ومتابعة رعايتهم إلى آخر مراحل

---

(1) المصدر السّابق، ص: 144.

(2) المصدر السّابق، ص: 13.

التّكفّل بهم. واحتضان الشّباب في نوادٍ وجمعيات وتنظيمات ومؤسّسات، وهيئات فكرية وثقافية وسياسية وفنّية ورياضية... تكون من برامجها الاحتفاء باللّغة العربية، واستعمالها في المحادثات والمكاتبات والمناقشات...

ومن واجبها سنّ قوانين، وإصدار قرارات، وفرض عقوبات على كلّ من يدوس على اللّغة العربية، أو يتهجّم عليها، أو يهمّشها، أو يتطاول عليها، أو يتنكّر لها...وضمن ذلك يمكن للسّلطة أن توجد في بعض المؤسّسات مدقّقين لغويّين، أو مراقبين لغويّين، مهمّتهم حماية اللّغة العربية. بداية من عرض ما يُقَدَّم لعامّة النّاس من إعلانات أو إشهارات أو دعوات باللّغة العربية عليها، قبل إخراجها إلى الفضاء الخارجي، وانتهاء بمراقبة المحيط والتّبليغ عن كلّ خطأ يرتكب في حقّ اللّغة العربية، فيما بتداوله النّاس في حياتهم اليومية، بخاصّة ما يكون في واجهات المحلاّت التّجارية، والملصقات التي تكون في بعض الأماكن العامة. فتختفي من الشّارع – مثلا – كلمة (حذاري)، التي أقلقت أصحاب الأذواق السّليمة، وتعود إلى أصلها (حذارِ). وتنتقل الألف التي وضعت قسرًا على (السّاعادة) إلى (اتّصلت)، التي سلبت منها جورًا وعدوانًا، فتصبح (اتّصالات)...

يقول إبراهيم بن مراد: لا يمكن للّغة العربية « أن تستعيد دورها بين لغات العالم الواسعة الانتشار، إلاّ إذا اتّخذت الدّول العربية سياسات لغوية واضحة، علمية الغايات والأهداف، خالية من الدّعاية الظّرفية. على أنّ تلك السّياسات لا يمكن لها أن تثمر، وأن تكون ناجحة ما لم تتوحّد في سياسة واحدة، يُتّفَق عليها، وتُتَّخذ جماعيًا. فإنّ اللّغة العربية ليست لغة دولة دون أخرى، بل هي قاسم مشترك بين الدّول العربية جميعًا، ولذلك فإنّ المشاريع التي تحقّق للرّقيّ بها وإلحاقها باللّغات العالمية الواسعة الانتشار، ينبغي أن تكون مشاريع جماعية، وأن تكون الميزانيات المرصودة لها مشتركة. »(1).

قال الشّاعر:

لكلّ قوم لسانٌ يعرفــون بــه ... إن لم يصونوه، لم يعرف لهم نسبُ
لن يدركَ المجدَ شعبٌ، ما له لغةٌ ... تَحوطهــا دولــةٌ، أسيافهــا قُضــبُ

بعد هذا العرض المقتضب نتساءل ماذا تطلب اللّغة العربية؟

مطالب اللّغة العربية

مطالبها كثيرة؛ لكثرة ما اقترف في حقّها، وطول الزّمن الذي جرحت فيها كرامتها، وديست حرمتها، وهضم حقّها، وسلّطت عليها ألوان من الظّلم والضّيم. نذكر بعضها:

(1) ينظر كتاب من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 224.

1 – أن تستعيد دورها في الحياة العامّة، وفي مسيرة الفكر الإنساني. بإخراجها إلى فضاءات رحبة، غير قاعات الدّراسات، والمجالس الضّيّقة المتخصّصة، والمجالات البحثية الخاصّة.. .إذ كما يقول الشّيخ أبو الحسن النّدوي: « لابدّ من إخراج اللّغة العربية من داخل حيطان الأماكن المقدّسة إلى مواقف الحياة، مع الصّيغة الإسلامية، فتجد اللّغة العربية لونها وسمتها الأصيلة المغصوبة »(1).

2 – أن يحميها أبناؤها من الاعتداءات المتكرّرة عليها من الدّاخل والخارج، وأن يتحمّلوا المسؤولية الكاملة في ذلك، فلا يجوز أن يغفلوا عن ذلك لحظة واحدة، أو أن يتأخّروا عن هذا الواجب قيد أنملة.

3 – أن يسترجع أبناؤها الثّقة بها، فإنّ ذلك مصدر العطاء؛ فإنّ هذا سيمنحها المجال كي تنطلق في الآفاق الرّحبة بأبنائها المتحمّسين لها، الآخذين بزمامها، الملتفّين حولها، فتنتج وتبدع.

4 – تتوسّل من أبنائها أن يحسّوا بجمالياتها، ويدركوا خصائصها، ويعرفوا أسرارها... فينشطوا ليداولوها فيما بينهم، ويتعاملوا بها؛ بما تستحقّه من برّ وتقدير وتكريم.

5 – العمل على تبسيط تعليمها، وانتقاء الأساليب النّاجعة، واستعمال أحدث الوسائل في تدريس قواعدها.

6 – القيام بدفع التّهم عنها، وتصحيح التّشويهات والتظليلات، وردّ الشبهات.

7 – الاهتمام بإعداد المكوّن فيها، وتوفير الجوّ الملائم والبيئة الصّالحة لعمل المعلّم في هذا الفضاء.

8– المران عليها وكثرة الاستماع إليها، والتّحدّث بها.

9– حضور اللّغة العربية الصّحيحة في المدارس والجامعات، وأن تكون هي لغة التّدريس، فيما يُدرَّسُ بالعربية. أي على المعلّم والأستاذ أن ينطق باللّغة العربية السّليمة، أيًّا كانت المادة التي يدرّسها.

10 – تفريغ التّلاميذ لدراسة اللّغة العربية، في المراحل الأولى من التّعليم، ولا يشغلون عن إتقانها بلغة أجنبية، تشوّش عليهم سبيل تعلّمها بشكل سليم. فإنّ هذا يساعدهم على التّركيز عليها: استماعًا وقراءة ومحادثة وكتابة. فإنّ تلقين الطّفل – بخاصّة – أكثر من لغة في سنواته الدّراسية الأولى خطرٌ على اللّغة (الأمّ).

11– إتقان المسؤولين والمرشدين والوعّاظ وسراة القوم، وأصحاب الصّدارة للّغة العربية.

---

(1) الدّكتور محمد عبد السّلام آزادي، التّأصيل الإسلامي للّغة العربية وآدابها في جهود الشّيخ أبي الحسن النّدوي، ط1، 1427هـ/ 2006م، دار المنارة للنّشر والتّوزيع والتّرجمة، المنصورة، مصر، ص: 66. ينظر أيضًا السّيد رزق، «اللّسان العربي والإسلام» / مجلّة مجمع اللّغة العربية المصري، (1958)، 10/ 143.

12– سحب عذر الفرد العربي الذي يقول لمخاطبيه من العرب: اعذروني، أنا لا أحسن العربية. فأنا لا أستطيع أن أحدّثكم بها؛ لأنّني لا أتقنها. فليعلم هذا أنّه بذلك يزجّ بنفسه في منفى، كما قال الشّاب سليم، مخاطبًا باللّغة الفرنسية إخوانه الجزائريّين المجتمعين في حفلة تأسيس النّادي العربي بباريس، والحزن بادٍ على وجهه: « كم يحزنني، ويمزّق نياط قلبي أن أكون عربي الأصل، عربي النّزعة، فلا أستطيع أن أخطبكم إلاّ بلغة الأجنبي، وأن أستمع لخطبكم، فلا أفهم منها إلاّ نبراتكم، التي تهزّ جوانحي، وأرى حماسكم، فأكاد أطير جنونًا بكم... »(1).

وقد كان حال الكاتب الجزائري مالك حدّاد مأساة حقيقية، تبعث على الشّفقة والرّثاء، وفي الوقت نفسه تدعو إلى التّقدير والاحترام، لأنّ في مواقفه وفاء للّغة (الأمّ)، وفيها عبرة ودرس كبيران لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيدٌ. عاش الرّجل حزينًا كئيبًا؛ لأنّه لا يحسن مخاطبة بني قومه بلغته الأصلية، فكان يناجيهم ويتحدّث إليهم بلغة المستعمر، المدمّر للغته. كان يردّد: (اللّغة الفرنسية هي منفاي.)

يقول الدّكتور عبد الله ركيبي عن مالك حدّاد: « ...وعرفت فيه تلك الغيرة الشّديدة على العروبة، والمرارة التي عاشت تملأ نفسه، من أنّه سجين لغة أجنبية، من أنّه معقود اللّسان، يتيم التّعبير، لا يقوى على الغناء؛ لأنّه محروم من شدوه الطّبيعي، بلغة آبائه وأجداده. وهذا ما عبّر عنه في قوله لصديقه الشّاعر الفرنسي :(بلى يا أراجون، لو كنت أعرف الغناء لتكلّمت العربية). وحين يصحب معه ولده إلى الاتّحاد (اتّحاد الكتّاب الجزائريّين) يشير إليه قائلاً له: هذا هو انتقامي. لأنّ ابنه يدرس العربية مع أبناء جيله من الأطفال الجزائريّين.

إن هذا الخطّ القويّ الشّفاف الذي يربطه باللّغة –الأمّ)، هو سرّ مأساته، التي عبّر عنها فنًّا مبدعًا، شعرًا ورواية. وهو شيء يميّزه ويطبع أدبه بطابع خاصّ، يدلّك عليه، حتّى ولو لم يوقعه. يقول في مقدّمة روايته: « سأهبك غزالة: «اللّغة الفرنسية حاجز بيني وبين وطني، أشدّ وأقوى من حاجز البحر الأبيض المتوسّط، وأنا عاجز عن أن أعبّر بالعربية عمّا أشعر به بالعربية: إنّ الفرنسية لمنفاي »(2).

13– المراسلات بين المصالح الإدارية، وبينها وبين المواطنين تكون باللّغة العربية.

14– العمل على نشرها، على نطاق واسع، داخل مواطنها وخارجها، والاهتمام بتعليمها لغير النّاطقين بها، ما داموا راغبين في تعلّمها، مهما يكن دافعهم إلى ذلك. إنّ إقبال غير العرب على تعلّم العربية يزداد يومًا بعد يوم، ومنهم من يحرص على تعلّمها، أو التّعامل معها بطرق

---

(1) أبو اليقظان إبراهيم/«اللّغة العربية غريبة في دارها»، جريدة وادي ميزاب، ع: 55، (03/11/ 1927م). ينظر أيضًا اللّغة العربية غريبة في دارها، ط2، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ص: 28م.

(2) الدّكتور عبد الله ركيبي، عروبة الفكر والثّقافة أوّلاً، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص: 121، 122.

علمية. التقيت سنة 1996م في بغداد بدكتورة من كوريا الجنوبية، منحتها جامعتها، التي تدرّس فيها- وفي قسم اللّغة العربية بها – تفرّغًا لمدّة سنتين، التحقت بالجامعة الأردنية؛ لتعدّ قاموسا كوريًا عربيًا، فتعين أهل بلدها على فهم اللّغة العربية، والتّعامل بها. وغير هذه التّجربة كثير.

ننقل ما سجّله الدّكتور خالد حسين أبوعمشة، معلّقًا على المؤتمر الدّولي لتعليم اللّغة العربية للنّاطقين بغيرها(1): «وما لفت الانتباه في تداولات المؤتمر كثرة الإقبال على تعلّم اللّغة العربية وتعليمها للناطقين بغيرها؛ إذ برز كثير من المهتمّين والمعنيّين في البلاد الغربية بذلك، تحقيقًا لأغراض سياسية واقتصادية ودبلوماسية، فضلا عن السّياحية, خاصّة بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م. كما تزايد اهتمام قطاعات كبيرة من أبناء الشّعوب الإسلامية غير العربية بتعليم اللّغة العربية؛ لأسباب تتعلّق بالرّغبة في فهم القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، والتّواصل مع الشّعوب العربية من جهة، فضلا عن الأسباب الاقتصادية والسّياحية من جهة أخرى. كما لوحظ كثرة المراكز اللّغوية التي أخذت على عاتقها مهمّة تعليم اللّغة العربية للنّاطقين بغيرها، وتنافسها في ذلك، سواء في البلاد العربية أم الأجنبية, الأمر الذي يبشّر بكلّ خير في الاهتمام بلغة القرآن، والقيام على نشرها، وتيسير تعليمها»(2).

إنّ هذا الملاحظة أو الانطباع يضاعف من مسؤولية أبناء العربية، في القيام بالواجب خارج ديارهم، فلا يقبل لهم أيّ عذر في التّخلّي عنه. بل إنّ الظروف مشجّعة على الإقدام بكلّ حماسة وقوّة، وبتخطيط ودراسة محكمة في السّير قدمًا في هذا السّبيل. وفي الوقت نفسه يقدّم درسًا لا ينسى، ويعطي تحذيرًا مبكتًا لكل من يهين لغته العربية في أوطانها.

لماذا لا يكون لتجارنا – مثلا الذين يجوبون ربوع العالم للتجارة – ذلك الحسّ الدّيني، والمسؤولية الكاملة على مقوّماتهم، فيرحّلون لغتهم معهم إلى حيث يسافرون؛ لينشروها كما كان يفعل أجدادهم في القديم. الذين كانوا يحملون إلى جانب البضاعة تعاليم الإسلام ومقوّماته، فينشرونها أين يحلّون، وبذلك انتشر الإسلام، وتعلّم أهالي تلك الأوطان اللّغة العربية، وأبدعوا بها وأفادوا. فالصّين اليوم من البلدان التي يمكن القيام فيها بهذا العمل؛ نظرًا لكثرة تردّد إخواننا التّجار عليها، وبأعداد هائلة، ولكون أهل هذه الدّولة ممّن لوحظ عليهم الرّغبة في تعلّم العربية؛ لدوافع مختلفة، وفي بعض جامعاتها أقسام للّغة العربية. فلماذا لا تستغلّ هذه الظّروف لتوسيع رقعة وجود اللّغة العربية؟

تطلب وترجو اللّغة العربية ألاّ تكون حبيسة الدّيار العربية. وعلى العرب أن يقوموا بالمبادرات العلمية الجادّة، في تعليمها لغير العرب، بطرق عصرية، مصبوغة بالطّابع الإسلامي(3).

---

(1) انعقد بمركز اللّغات بالجامعة الأردنية، عمّان/ الأردن، في الفترة: 1-3 من جمادى الأولى 1429هـ الموافق 6 – 8 من أيّار 2008م.

(2) مجلّة إسلامية المعرفة، ع 53، صيف 1429هـ/ 2008م، ص: 203، 204.

(3) نظر كتاب: لماذا اللّغة العربية؟ فصل: «اللّغة العربية ومسؤولية الدّعاة المسلمين في البلاد النّاطقة بغير العربية»، ص: 71 – 87.

الخلاصة

إنّ اللّغة العربية مقوّم أساس في الهوية الإسلامية، وعنصر البقاء للقومية، وأداة تحريك الفكر. . .العناية بها والمحافظة عليها وتطويرها، وفسح المجال لها في الحياة العامّة، يحفظ للمنتمين إليها حقّهم في العيش بأمن وسلام وراحة، ويضمن لهم احترام غيرهم لهم. في التّفريط في ذلك ضياع وتيه وهلاك بعد ذلك.

للأسف إنّ هذه اللّغة تعاني مشكلات كثيرة، وشقاؤها آتيها من أبنائها، ووأدها قد يكون من المنتسبين إليها؛ عن عمد للتّخلّي عنها، وربّما محاربتها. أو عن تقصير في القيام بها وبشؤونها، وفي العمل على تطويرها. أو عن سذاجة وغفلة عمّا يخطّط لها، ويدبّر في الخفاء والعلن.

هذه المشكلات كثيرة وخطيرة، وهي في تزايد سريع، ممّا ينذر بكارثة كبيرة تلحق باللّغة، ثمّ الهوية بعدها. فبات لزامًا النّهوض والتّحرّك والإسراع في تدارك الأمر، وإصلاح الوضع، ورأب الصّدع. فالمسؤولية دينية أوّلا؛ لأنّ اللّغة العربية ناقلة الرّسالة، ومبلّغة الوحي الإلهي. فبقاء القرآن مرهون ببقائها. وتاريخية ثانيًا؛ لأنّ الأجيال المتعاقبة ستحاسب المفرّطين في حقّ مقوّم هويتّهم ومُقيمِها. وهي مسؤولية حضارية ثالثًا؛ لأنّ هذه اللّغة حاملة فكر كبير راق، هو حقّ للبشرية كلّها، بحكم أنّها حاوية وحاملة للرّسالة الخاتمة الخالدة، التي أرسلت للعالمين كلّهم، وللنّاس كافّة. خذلانها أو وأدُها يصيب الحضارة الإنسانية بانتكاسة وتخلّف. فالواجب إذن تغيير راهن اللّغة العربية المتردّي إلى رهان على الرّقيّ بها إلى مستوى القوّة والعزّة التي تتمتّع بهما. فهذه بعض المقترحات والتّوصيات، نقدّمها في ختام هذا العمل المتواضع، عسانا نسهم مع المساهمين الجادّين في خدمة لغتنا، وتسهيل السّبيل لها لتقوم بما وجدت من أجله.

مقترحات و توصيات(1)

1 – الاعتناء بتلقين النّشء اللّغة العربية بالطّرق السّليمة، منذ الصّغر، كتعليمهم قراءة القرآن وحفظه في سنّ مبكّرة، وتحفيظهم نصوصًا عربية فصيحة: أحاديث نبوية وأشعارًا، وتوفير نصوص نثرية فصيحة أمامهم. هذا ما يفيدهم في تقوية ملكتهم اللّغوية، ويربطهم منذ البداية بأصولهم الحقيقية. فتلقين الطّفل لغة سليمة خالية من الأخطاء، وعلى أصول صحيحة، تُكوِّن فيه القاعدة اللّغوية الصّلبة التي يبني عليها صرحه العلمي. الإغفال عن هذه الملاحظة ينتج لنا هذا الفرد الضّعيف الذي نُعايِنُه ونُعايشُه اليوم.

2 – في اختيار نصوص القراءة في المرحلة الابتدائية – بخاصّة – يجب مراعاة توزيعها: بين ما يعنى بالجانب المعرفي، وما يعنى بما يعين على تكوين ملكة الإبداع والتمرّن على الكتابة

(1) هناك توصيات مهمّة في كتاب: من قضايا اللّغة العربية المعاصرة فلتراجع. الكتاب هو مجموعة بحوث ودراسات قيّمة، نشرتها المنظّمة العربية للتّربية والثّقافة والعلوم، بعد المؤتمر السّابع للوزراء المسئولين عن الشّؤون الثّقافية في الوطن العربي. الذي انعقد بالرّباط بالمملكة المغربية: 9 – 12 ربيع الأوّل/ 10 – 13 أكتوبر 1989م. وكان كلّ بحث يختم بتوصيات.

الفنّية الأدبية، كالموضوعات التي تهتمّ بالوصف، لأنّ الوصف يوسّع دائرة الخيال في التّلميذ، ويدفعه إلى إعمال عقله، فتتكوّن فيه حاسّة تذوّق الأدب، فيقبل على اللّغة العربية. شرط أن تكون النّصوص المقترحة منتقاة بعناية ودراسة معمّقة، تخدم الغرض من تدريس الأدب، وتعين على التّمرس على اللّغة العربية (1).

3 – « تدريس (خصائص اللّغة العربية) على مستوى التّعليم الثّانوي، يتناول نبذة عن تاريخ العربية، وتميّزها بقدمها واستمرار تطوّرها ونموّها مع محافظتها على ملامحها الأصيلة، وعن حقبة ازدهارها وثبوتها في زمن تداعي البلاد وضعفها، وخصائصها المميّزة بشمولية حروفها وأصواتها، ووفرة مفرداتها وثرائها بالمترادفات، وكثرة أبنيتها الاشتقاقية، ممّا يوفّر طواعيتها للاصطلاح العلمي، وعمّا شرّفها به تعالى من إعلاء شأنها في كتابه العزيز، وأقوال العرب والمسلمين والأجانب فيها، ليتعرّف الطّلبة أهمّيتها ومكانتها؛ فيعتزّوا ويتمسّكوا بها » (2).

هذه التّوصية توجّه الأنظار إلى ربط الطّلبة بالتّراث، والتّعمّق في معرفة أسرار اللّغة العربية؛ للتمكّن من اللّغة، وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة نحوها. فمن شأن هذا أن يحكم الرّباط بين الأجيال المتعاقبة وتراثهم، كما يرجع ثقتهم به وبلغتهم، فيتمسّكون بها، ويتحمّسون لها.

4 – تأسيس نوادٍ، وتكوين جمعيات على مستوى المدارس المتوسّطة والثّانوية والجامعات، تعنى بالتّدريب والتّطبيق على موضوعات اللّغة العربية وآدابها، تكون فيها الخطابة والمناظرة والمحاورات اللّغوية والأدبية، وكتابة المقالة، والتّمرّس على المسرح، والتّدرّب على نظم الشّعر. والتزام اللّغة الفصيحة فيها، أو الاجتهاد في استعمالها، في مرحلة التّدريب؛ لتتكوّن في الطّلبة الملكة.

5 – إقامة مسابقة سنوية في المناظرة باللّغة العربية بين الطّلاب المتخصّصين في اللّغة العربية وآدابها في الجامعات ومراكز اللّغات؛ تقويةً للأداء الإلقائي في اللّغة العربية، وتكون هذه المسابقات بين مستويات مختلفة للنّاطقين بالعربية وللنّاطقين بغيرها.

6 – تنظيم دورات مستمرّة للمعلّمين والأساتذة عامّة، ومدرّسي اللّغة العربية خاصّة، لتطوير معارفهم اللّغوية، وتحسين أدائهم المهني، حتّى يؤدّوا عملهم على أحسن ما يكون. ويكون الأمر أكثر إلحاحًا مع الذين درسوا في الدّول الغربية، ولم تتوفّر لهم الفرص الكاملة لتعلّم

---

(1) ينظر كتاب من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 133. فيها توصيات مهمّة للاعتناء باللّغة العربية في التّربية والتّعليم ، بخاصة في المراحل الأولى.

(2) الدّكتور جميل عيسى الملائكة، ينظر كتاب: من قضايا اللّغة العربية المعاصرة، ص: 134. وعن خاصية التّواصل مع التّراث العربي واعتماده، وكونه ضرورة وفرضًا على كلّ مستعمل للّغة العربية، ينظر ما ذكره الدّكتور صالح بلعيد، مجلّة اللّغة العربية، ع: 16، ص: 187، 188.

اللّغة العربية، التي يحتاجون إليها، ونحن ندعو إلى التّوجّه إلى تدريس العلوم في جامعاتنا – بخاصّة – باللّغة العربية.

7 – إشاعة اللّغة العربية في المحيط الذي يتحرّك فيه العربي. إذ لا ينبغي أن يُحسّ أنّ اللّغة العربية غريبة عنه في البيئة التي يعيش فيها. فلا تكون لغته (الأمّ) لغة المناسبات والمقامات المحدّدة، ولغة أداء الفرائض الدّينية فحسب، أو لغة خاصّة بفئة دون فئة...يجب أن يشعر كلّ عربي أنّها جزء من كيانه، وبعض منه، وأنّها بمكانة الدّم الذي يسري في جسده، فقدانه لها يعرّض نفسه للهلاك والفناء.

8 – إلى جانب أساليب التّرغيب والتّحبيب والإغراء، يجب توخّي وسائل الزّجر والرّدع والتّعزير؛ فالإنسان جبل على الامتثال طوعًا أحيانًا، وكرْهًا أخرى. هذه إرادة الله، وسنّة الحياة. فالعطف والرّحمة تنطلق أحيانًا من القسوة والشّدّة، اللّتين توفّران عواقب، هي خيور وفوائد، كما قال الشّاعر:

فقسَا ليزدجروا، ومن يكُ راحمًا فَلْيَقْسُ أحيانًا على من يرحـــمُ

فرحمة بمن لا يعرف مصلحته، أو من يتعنّت ويصرّ على البقاء في الضّلال المبين، أن يؤخذ بالشّدّة، حتّى يفهم ويعي، ويستبين الحقّ، فيُجنَّبَ المزالق والعواقب الخيمة. لذا على المسئولين وأصحاب مراكز القرار، سنّ قوانين تلزم أبناء اللّغة العربية باستعمالها سليمة، على الأقلّ في مجالات معيّنة. وإصدار قوانين ردعية زجرية عقابية لمن يتعدّى على اللّغة العربية: استهانةً بها، وتهميشًا لها، وإبعادَها عن الميادين التي يجب أن تكون فيها، وتكسيرها وتشويهها...

في السّياق ذاته يجبُ تشديد النّكير، بل الغلظة على من لا يحترم السّيادة، ويدوس على الشّخصية، ولا يتقيّد بالتّحدّث باللّغة العربية في المحافل الدّولية، بخاصّة التي تكون اللّغة العربية من بين اللّغات الرّسمية فيها. بل يفترض أن يسعى كلّ من يتبوّأ مقعدًا في تلك المحافل والمنتديات أن يفرض لغته فيها.

راهن اللغة العربية في أوطانها

د . طلعت الرفاعي –سوريا–*

إيمانا بما للغة العربية من نزعة النضال والتحرر المؤمن بقدرة الشعب على الانعتاق والحفاظ على ملامح الخصائص العربية إزاءِ التحديات والأحداث الراهنة التي تستهدف أمتنا وحضارتها

فقد نص الإعلان الذي صدر عن مؤتمر القمة العشرين لمجلس جامعة الدول العربية الذي انعقد بدمشق في شهر آذار عام 2008، على التوصية التالية :

«إبلاء اللغة العربية اهتماماً ورعاية خاصة باعتبارها مواكبة للتطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة والمعلومات ولتصبح أداة تحديث في وجه محاولات التغريب والتشويه التي تتعرض لها ثقافتنا العربية» .

ولا شك في أن هذه التوصية صدرت بعد نقاش طويل في جلسات المؤتمر، تم فيها دراسة راهن اللغة العربية وما أصابها من جحود لدى أبنائها وما تتعرض له من تيارات العولمة وسيلها الجارف في نسف هوية الشعوب وجوهر ثقافتها وسماتها .

وإذا كان لم يعد خافياً ما أصاب لغتنا من علل فإن الواجب يحتم علينا اليوم بذل كل غال ورخيص في إيقاف النزيف وإيجاد العلاج الناجع قبل استفحال المرض وسريانه في جسد المنطقة وأمام هذا الواقع المتردي الذي تكابده لغتنا لابد لنا من التشخيص الدقيق في سبر غورها ومعرفة خصائصها وأسرارها وهذا يقودنا إلى إمعان النظر في الأمور التالية :

1– اللغة العربية كائن حي :

وهذه العبارة ليست على سبيل المجاز بل هي حقيقة نابضة نحسها بكامل كياننا ونبرهن عنها ، فمن المعلوم أن للكائن الحي شرطان هما الروح والجسد يؤثر كلاهما في الآخر ويتحد به ، فإذا كنا نريد القوة والسلامة لهذا الكائن الحي علينا العناية بالروح والجسد مما هو في أمس الحاجة إليه ، وإذا كانت النفس البشرية بكل ما تزخر به من مدارك ومشاعر ، هي الكيان الحي فإن كل ما يصدر عنه الكيان الحي إنما هو حي تسري فيه الحياة بأجلى ومضها ونبضها .

وإن الفكر أو المعنى الذي ينبثق من الروح لابد أن يكون هو بعض هذه الروح التي تتجلى في الحرف وتتوحد به وتلك هي اللغة في أدق ملامحها.

(*) رئيس مجلس إدارة رابطة الحكمة عضو اتحادي الكتّاب والصحافيين العرب والأكاديمية العالمية للثقافة والعلوم وحقوق الإنسان.

2- اللغة العربية لغة التفجير والخيال المجنح :

لما كانت اللغة هي الجسد الحي الذي تتألق فيه الروح ، فإن المعني يكون بمثابة الروح التي تختار جسدها الخاص بها ، وإذا عزّ عليها العثور عليه فيما هو كائن في عالم الكلمة قامت بعملية التفجير ابتغاء الحصول على كائن لغوي جديد لم يكن مولوداً من قبل ، وبذلك تكون العلاقة بين المعنى والحرف أشبه بعلاقة الكائن الحي مع نصفه الآخر المختار اللاسواه في رحلة التوحد الحياتية المتجددة الخلاّقة !..

يقول شاعر الثورة الجزائرية :

من حومة الميدان حتى المربعا الضاد والرشاش قد نطقا معا

قمـــم موطّـــأة الـمتــون لثائر روّى صنوبرها دماً فتضرّعـا

وإنه لمن الصعب بل أقول من المحال استبدال أي كلمة بأخرى تفي بنفس الغرض على أية لغة ، أو تفيض بمثل هذا الخيال المجنح الرفيع فتسمع فيها (الضاد والرشاش) وقد نطقا معاً وتشعر بأنك تهتز وأنت ترى متون الجبال وقد توطّأت أمام هيبة وجبروت ذاك المناضل البطل الذي روّى أشجار صنوبرها من دمه فتحركت فروعها وراحت تمتد إلى العلاء متضرعة لعظمة هذا الثائر الفذ المارد ! .

وما تلك الروح التي انبعثت من كلمات الضاد والرشاش ومن تضرع فروع الصنوبر إلا هي نفسها التي انبعثت من روح الشاعر وبثت فيها الحياة بأنضر ما تفيض به من عبق عبقريتها وبريق عنفوانها الآخاذة الآسرة، مما لا يمكن العثور على نفس التأثير فيما لو نقل هذا النص إلى لغة أخرى.

وما دمنا في مجال التفجير والخيال لنستشهد بالأبيات التالية لشاعرة عربية تخاطب البحر فتقول :

يا بحر هات على زنديك أغنيتي فإنني أنا عشق البحـــر والقبـــل

«أنسننه» يوم هذا البحر «بحرّني» وجن حين بموجبي راح يغتســـل

حبي هو الموج نبض البحر يعزفه ومن سوى البحر للأمواج يحتمل

وهنـــا نرى أن كلمتي « أنسنتــه و بحرهـا » لم تكونا موجودتين من قبل.

اللغة العربية لغة الإعجاز والإيجاز..

إن نظرة خاطفة نتأمل بها خلود اللغة العربية على مر الحقب ورسوخها لدى ملايين البشر على ظهر الأرض تؤكد روعة هذه اللغة وقدسيتّها فما من آية في القرآن الكريم إلا وتحمل المرء إلى عالم من الإعجاز العلوي المهيمن أمام ما تكشف له من ألغاز هذا الكون العجيب المطلق وعظمة الخالق الأعلى الذي وسع كرسيه السماوات والأرض) فبفضل القرآن الكريم تمّ الحفاظ على لغتنا من الضياع والاندثار رغم الهجمات التي ابتليت بها عبر مختلف العصور.

يقول «غلاد ستون» رئيس وزراء بريطانيا منذ أكثر من قرن :

«ما دام هذا القرآن لدى العرب فلن تتمكنوا منهم».

ويقول المستشرق الألماني بيكر: «لا سبيل للوصول إلى الشرق، ما دام هذا القرآن موجوداً».

هذا علاوة عما تزخر به كنوز الأدب العربي من شعر ونثر مما تضيق الإحاطة به في هذا المجال ويكفي التلميح إليه لنحس بدقة الإيجاز فيما تحمله إلينا لغتنا العربية من عبقريات وروائع خالدة في مختلف آفاق الخلق والإبداع .

العربية لغة الحب والحق والسيف :

ما من لغة تفردت بالمقدرة في تصوير ألق المعاني وأبلغها في نفوذها إلى الأذهان والأفئدة مثل اللغة العربية .

يقول المتبني في دفاعه عن الحق وهو يصف قاضياً عادلاً :

قاضٍ إذا التبس الأمران عنَّ لـــه ... رأي يفـــــرق بين الـماء واللبن

ويقول شاعر الجبل :

الحق والسيف من طبع ومن نسب ... كلاهما يتحدى الخطب عريانـا

وتقول الشاعرة العربية :

الحق شمس لكل الناس.. إن أفلت ... في الغاب هب نذير البوم محتجبا

مــذ فارق الحق بين النـــاس واحته ... صرح الحياة غدا في أيكه خرِبـا

يا أيهــا النـــاس دين الحب قبلتكم ... ولا حيـــاة إذا دين الحيـــاة كبـا

كل الديانـــات دين الحب وحدّهـا ... لا دين إلا لدين الحب مُنتسِبـــا

العربية : لغة الوحدة والقومية العربية المقاومة :

لقد وحدت اللغة العربية بين سائر العرب والمسلمين منذ أقدم العصور، بصفتها لغة القرآن الكريم العربي فهي اللغة الأم التي تأثرت بإعجاز القرآن الكريم فأكسبها الجزالة في النطق والثروة في المعاني، والبلاغة في البيان، وما سرى فيها من روحه الأمين، مما ظهر أثره فيما سجله العباقرة العرب من روائع وإبداعات، ومن هنا كان أول هدف للغزاة المستعمرين فصل هذه اللغة عن التعامل الحياتي، لأنها الرابطة القوية التي توحد بين أبناء الأمة الواحدة وراحوا ينعتونها بالتخلف والعجز عن مواكبة علوم العصر خلافاً لكل علم ومنطق، ويبذلون الجهود لاعتماد اللغة العامية وكتابتها بالأحرف اللاتينية بهدف تفريق العرب وتغريبهم وضرب وحدتهم وحضارتهم. وما نزال نرى اليوم هذا الأثر يستشري فيما تشنه العولمة من حملات وإقامة الحواجز بين الأمة العربية

وتراثها الخالد وما تتعرض له لغتنا من طوفان العامية واللغات الأجنبية التي تستهدف اقتلاعها والحلول مكانها، بدلاً من العمل على الإثراء اللغوي جنبا إلى جنب مع اللغة الأم ، والترجمة منها وإليها .

ولكن العربية ما تزال تصمد وتنتصر على أعدائها بما تمتلكه من أسرار القوة والبقاء ، مهما يكن لهؤلاء المغرضين من سطوة وجبروت . ويعرف أبناء أمتنا كيف كان الخطاب الثوري خلال المعارك يقود الملايين إلى « الزحف المقدس » بما تفجره الكلمة في النفوس من روح المقاومة والاستبسال دفاعاً عن عزة الوطن وكرامته .

تقول الشاعرة في بعض المواقف

ما « بور سعيد » ما الجزائر — ما فلسطين السليبة
ما القدس . ما بغداد . ما لبنان — ما اليمن الخصيبة
هي كلها وطني الصمود — وإن تنوعت المصيبة
هي كلها وطني الكبير — بوحدة كبرى قريبة

وتقول مخاطبة الوطن الكبير . .

أنا كل شبر من رحابك ساهر — وعلى ثراك أنا النخيل مُخيّم
أنا صخرك العاتي الصمود كبره — وأنا عليه الجدول المترنم
وأنا أنا (أُوراس) يقذف اللظى — حممًا أنا الأرز الشموخ يحوم
أنا كل شبر في إهابك ثائر — عطش إلى ثاراته لا يفطم
أنا في سمائك عاصف متمرد — وعلى ثراك أنا اللهيب أنا الدم

العربية لغة الموسيقى والحكمة :

كثيرون من غير الناطقين بالعربية يقولون أنهم يحسون بالموسيقى لدى سماعهم التكلم باللغة العربية حتى وإن لم تكن شعراً .

وكثيراً ما نُحسّ ونحن نصغي إلى متحدث بارع محب للعربية ، وكأنه يعزف على آلة موسيقية ، بنطقه الجمل وترتيب إيقاعها ، ولعل هذه الخاصية الموسيقية في العربية هي التي ألهمت العديد من الملحنين أن يبدعوا فيما لحنوه وغنوه من روائع مما يدعونا لوضع خطة لتعليم إتقان النطق بالعربية كما تفعل معظم دول العالم بلغتها الأم .

وإذا كانت الحكمة هي القنديل الوهاج الذي يضيء الشعاب المدلهمّة يسلكه الإنسان في دروب الحياة ، مما جعلها (ضالة المؤمن) فإن لغتنا تزخر بتلك الينابيع الثرة التي لا ينضب لها معين ، ولا أدل على مكانتها مما ورد في القرآن الكريم حين قال : «**يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** »

يقول : زهير بن أبي سلمى :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

يقول المتنبي :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

وتقول الشاعرة العربية :

يا زمانًـــا بضـــنّ الناس مهـــلا ويلتي من ينبّـه النـــاس ويـــلا

أين من يلهب الحمـاس ويذكـــي في النفــوس الحيـاة حبًا وبــذلا

أين من لا يكـــلّ في العـــزم حتى يظهــــر الحــق ساطعًــا يتجــلى

لا تقل لي أمية الحـرف خطـــب شر خطـــب أميـــة تتـــولى

أفدح الخطــب أن تسلــم سيفًــا لغبيّ يصـــول بالسيـف جهـلا

ومهما نورد من الأمثلة في هذا المجال فإن الحديث لا ينتهي والنهر لا يتوقف وجرار الرحيق لا تفرغ أبدا .

وكم من رياضٍ قطرة العطر بوحها وكم من كروم في لمى الراح تختصر

العربية لغة التطوير والتجديد :

إن اللغة العربية كغيرها من اللغات إنما وجدت لتفي بحاجات أبنائها في كل زمان ومكان بصفتها فعالية اجتماعية تصدر عن الأحياء وتتسم بسماتهم ومثلهم تتميز بالقدرة على التطور والتجدد وفق ما تقتضيه الحاجة ومواكبة العصر .

وإذا كان العقل المفكر هو الذي ينتج اللغة ويبدعها فإن الطاقة الفكرية بدورها في اللغة تعود من جديد للتفاعل مع العقل المفكر في عملية التجانس والتوليد ، طبقاً للغرض المتوخى والحاجة الملحة إليه وبذلك تستمر عملية التعامل والتوليد الفكري لدى الإنسان طبقاً لطبيعته ورصيده الفكري والمعرفي مما يمتلكه في خزان العقل والوجدان .

فإذا أردنا لإنساننا العربي لغة فكر سليم منظم متوازن قابلاً للفهم في الاقناع والاقتناع علينا أن نعنى بالعقل العربي المولد الأول لهذه اللغة ولا يكون هذا الفكر سليماً وقوياً ومبدعاً

إلا إذا تغذى بالعلم والمعرفة وبالقيم الأصلية التي عرفت بها أمتنا في مواكبة معطيات العصر في شتى ميادين العلم والإبداع .

ولا يمكن التوصل إلى خلق مثل هذا الفكر العربي السليم المبدع إلا إذا أتقن صاحبه اللغة العربية السليمة التي تعبد له مسالك الفهم والإدراك، فيسري نسغها في عقله ووجدانه وتتوقد في ذاته جذوة التوق المضيئة التي تقوده إلى الخلق والإبداع .

إن الإسراع في تنقية اللغة اليوم والسير بها في طريق الإصلاح من أهم ما تدعو إليه الحاجة أمام ما يتهدد لغتنا من أخطار وأول ما ينبغي التفكير به على الساحة العربية هو إذكاء روح الإحساس بالانتماء القومي والثقة بالذات في القدرة على تحمل المسؤولية دون أي تمهل أو تأجيل.

عندما أعلن عبد الكريم الخطابي ثورته قال له بعض رفاقه « لننتظر حتى يكون لدينا أسلحة » فرد عليهم قائلاً : « تحولوا إلى مجاهدين تأتكم الأسلحة ، والسلاح الأول هو أن تؤمنوا بالواجب وضرورة القيام به » ومن الأهمية بمكان اليوم تحميل الشباب العربي هذا الواجب في دعم لغتهم وانقاذها من براثن الذوبان والضياع .

فما من لغة سلمت وسمت إلا وارتقى معها الإنسان وعم الحوار والتفاهم بين الناس .

سئل الفيلسوف الصيني (كونفوشيوس) : (إذا أتيح لك أن تحكم البلاد فما هو أول عمل تقوم به؟) فقال : « أصلح فيها لغة القوم » فقيل له : (إذا كانت لغة الناس غير سليمة فإن ما يقال لهم غير الذي يفهمونه، وإذا كان ما يقال غير الذي يفهم تبلبلت العقول وفسدت الأحكام وانعدم الأمان وسادت شريعة الغاب! . .)

فالإنسان هو اللغة، وإذا سلم تفكيره سلمت لغته وإن معيار شخصيته وحجمها إنما يرتبط بلغته زيادة أو نقصاناً .

يقول زهير بن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادتـــه أو نقصه في التكلم

واللغة العربية التي حملت بالأمس مشعل الحضارة والإنسانية لقادرة أن تكون اليوم لغة العلم والمعرفة وأن تضاهي لغات العالم في مختلف الأنشطة والمجالات ولكي نصل إلى هذه النتائج نورد هذه الاقتراحات.

1- العودة باللغة العربية إلى مكانتها التاريخية باعتبارها القادرة على استيعاب مجمل العلوم في كل عصر ونقلها إليها فقد استطاع فلاسفة العرب في القرن التاسع أن ينقلوا إلى لغتهم رسائل (أرسطو طالين) كما نقلوا مختلف العلوم في عهد الغزالي وابن رشد وابن سينا دون أي اختلاف بين اللغة العربية وسائر لغات العالم .

2– التطبيق العملي لدساتير الدول العربية التي تنص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة .

3– تنفيذ توصيات مؤتمرات الجامعة العربية ووزراء التعليم العالي والصحة والاقتصاد وسواها من الوزارات .

4– دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومجامع اللغة العربية ورابطة الحكمة ومختلف الهيئات الناشطة في هذا المجال لوضع خطة لتمكين اللغة العربية وفق إستراتيجية علمية والعمل على متابعة توصياتها وتنفيذها .

5– خلق تيار علمي تكنولوجي معاصر بين الشباب العربي يؤدي إلى الاختراع والابتكار وعرض المنتج العربي في سوق الإنتاج العالمي المعاصر بأسماء عربية بدلاً من الأسماء الأجنبية .

6– دعوة كبار الأدباء والشعراء العرب لنشر مخطوطاتهم الابداعية وايصالها إلى الناشئة بدلاً من تركها في السراديب المظلمة دون الاستفادة منها فالكتاب الجيد هو القادر على تشويق القارئ وبث حب اللغة لديه وكشف مواطن الجمال فيها .

7– إعداد المعلمين والمربيين من ذوي المرونة والخبرة للقيام بهذه المهمة.

8– الحض على إبراز دور الإعلام المثقف المسؤول باعتباره المرآة التي تعكس للعالم حضارة الأمة وتنقيته مما يصيب اللغة من أخطاء على ألسنة المذيعين والمذيعات وفي المسرحيات والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية .

9– العمل على حفظ الآيات القرآنية واتقان النطق السليم لدى تلاوتها .

10– العمل على حفظ المختارات الشعرية القيمة من الشعر القديم والحديث.

11– تعليم اللغات الأجنبية الحية للأطفال بدءا من رياض الأطفال لاكتشاف المهارات اللغوية فكل لغة سلاح يثري العقل ويمكن من الاطلاع على التراث العالمي والإنساني .

12– مقاومة حصار العامية واللغات الأجنبية للفصحى من وسائل الإعلام وفي شتى مجالات التعامل من فنادق ومطاعم ومقاهي وشركات ونوادي حيث تزحف اللهجات السوقية والأغاني الهابطة .

13– العمل على الاعتزاز باللغة الأم وترسيخ محبتها في نفوس الناشئة وحمايتها.

يقول : (الثعالبي) في « فقه اللغة وسر العربية » :

من أحب الله أحبَّ رسوله ومن أحب النبي العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب اللغة العربية وأتقنها .

ويقول الشاعر العربي :

إني أحبك كي أبقى على صلـــة   بالله والأرض والتاريـــخ والزمـن

أنت البلاد التي تعطي هويتهـــا   من لا يحبـــك يبقى دونـما وطن

14 – تعليم اللغات الأجنبية مع إتقان اللغة الأم . يقول الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثـــر علمـــه   وتلك له عند الشدائد أعـــوان

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعًـا   فكل لسان في الحقيقـــة إنسـان

وفي الواقع إن تمكين اللغة العربية هو تمكين لهويتنا وثقافتنا وقيمنا النبيلة ، وإن دعمها والارتقاء بها إنما هو مسؤولية المجتمع بكامله .

واليوم وثقافتنا تتعرض لأعتى التحديات لابد من استنهاض الضمائر لنعيد للغة العربية عزتها ومكانتها ، ولا يكون ذلك إلا بغرس الثقة بالذات وإعلاء شأن المفكرين والمبدعين وتعزيز سلاح العلم والمعرفة ، ولاسيما في هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا ، وما تتعرض له من استهداف طاقاتها وإشاعة الإحباط واللامبالاة بين صفوفها في التباس المفاهيم وسلبية التفكير والعمل مما يحث على بعث الهمم للتمسك بلغتنا حفاظاً على ملامح الأمة الواحدة والإيمان بالمصير الواحد إزاء الأحداث الراهنة التي تستهدف كيان أمتنا ووجودها وأقدس مقدساتها .

بعض مقتضيات تمكين اللغة العربية
في مجتمع اقتصاد المعرفة

محمد غاليم
معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط

نتناول في ما يلي جملة من المقتضيات المترابطة التي تهم تمكين اللغة العربية وتطويرها وضمان مستقبلها في مجتمع اقتصاد المعرفة الذي يميز عالمنا الحالي، وذلك في مستويات مختلفة اجتماعية وتعليمية وعلمية، ومن خلال محورين. فنورد في المحور الأول جوانب مما تقتضيه خدمة هذه اللغة وتمكينها باعتبارها أداة لازمة لرفع تحديات العولمة ومجتمع اقتصاد المعرفة، سواء في ما يخص بنياتها من حيث هي لغة أم في ما يخص نوعية المعارف التي تنقلها. ونورد في المحور الثاني بعض العناصر التي يمكن استخلاصها من البحث اللساني العربي الحديث الذي اتخذها موضوعا للدرس، وبعض التوجهات العامة للبرنامج العلمي الذي نراه كفيلا بتوسيع آفاق هذا البحث وتطويره، وذلك على اعتبار أن الرقي بمستوى البحث العلمي في اللغة يعتبر في حد ذاته رقيا بها.

1 اللغة ومجتمع اقتصاد المعرفة

يرتبط تحقيق التنمية في عالم اليوم بالارتقاء نحو مجتمع المعرفة الذي يقوم أساسا على نشر المعرفة وإنتاجها وتوظيفها في جميع مجالات النشاط المجتمعي: في الاقتصاد والمجتمع المدني والسياسة والحياة الخاصة. وهو مجتمع يخلق ما يسمى « ثقافة المعرفة » التي تشمل قيم التحفيز على اكتساب المعرفة وتوظيفها ونشرها وإنتاجها(1).

أما المعرفة (knowledge) فالمقصود بها، في هذا السياق، كل المعطيات والمعلومات والتوجيهات والأفكار، أو مجمل البنى الرمزية التي يحملها الإنسان أو يمتلكها المجتمع، في سياق دلالي وتاريخي محدد، وتوجه السلوك البشري، على مستوى الفرد والمؤسسة، في مجالات النشاط الإنساني كافة، في إنتاج السلع والخدمات، وفي نشاط المجتمع المدني والسياسة وفي الحياة الخاصة.

ومن المداخل الأساسية لتمكين المجتمع في عالم التنمية والمعلومات والمعرفة، مدخل اللغة باعتبارها أداة لإدراك هذه المعلومات والمعارف ونقلها والتفاعل معها. فاللغة، من هذا المنظور،

(1) انظر تقرير التنمية الإنسانية 2003، صص. 39–40؛ وص. 36.

وسيلة لربط الإنسان بالواقع، على العموم، وبتدفق المعارف والمعلومات فيه، على الخصوص. ومن ثمة فهي بعيدة كل البعد عن الحياد لاعتبارين متلازمين: اعتبار **لغة المعرفة**، إذ اللغة أداة مؤثرة في المعارف المنقولة بها، واعتبار **معرفة اللغة**، إذ نوعية المعرفة المنقولة مؤثرة في أداة نقلها.

1.1 لغة المعرفة

إن للغة تأثيرا بالغا في ما ينقل من معارف عبرها، بغض النظر عن قيمة هذه المعارف أو نوعيتها في مصادرها الأصلية، وذلك على مستويات من أهمها مستويان:

1.1.1 مستوى العبارة

ويتعلق بالقدرة على دقة صياغة المعلومات والمعارف وسلامة التعبير عنها. ومن ثمة الحاجة إلى تنمية متن اللغة وقدراتها التعبيرية من جوانب متعددة منها:

أ. تطوير البحث العلمي في اللغة وبناء الأوصاف النحوية العصرية وكتب القواعد بشقيها النظري والتعليمي، وتوفير المداخل والمرجعيات العلمية، إذ بدون ذلك لا يمكن إنتاج لوازم التعليم والتكوين والتثقيف المستجدة.

ب. بلورة الوسائل والمواد اللغوية التعليمية الضامنة لحياة اللغة في عالم اليوم. ومنها:

- الأدوات المعجمية العصرية الكافية المتعلقة بالمعاجم الورقية والإلكترونية سواء العامة المتعددة المستويات والأهداف التربوية أم القطاعية الخاصة. فقد بلغت الصناعة المعجمية في اللغات المتقدمة درجات عليا من النضج النظري والمنهجي مقارنة بما نلحظه من تعثر المعجم العربي الذي مازال يعاني قصورا كبيرا من كافة الجوانب. منها الحفاظ على مادة معجمية قديمة يعاد اجترارها من مصادرها السالفة دون تجديدها بإدخال المواد المستحدثة الواردة من مجالات العلوم والصنائع والممارسات الاجتماعية والحضارية العامة، ودون تنظيمها على مستوى التحقيب التاريخي والأصول اللغوية، مع إخضاعها في الغالب الأعم للترتيب حسب الجذور الذي يفترض لدى المستعمل معرفة مسبقة بالتاريخ الاشتقاقي للكلمات. ومنها إهمال تنظيم المعطيات الواردة في المدخل الواحد، وإهمال الوسائل التوضيحية من صور وأشكال، وندرة الاستشهادات والسياقات وعدم تجديد ما ورد منها في المعاجم القديمة، وهو كثير، باستخدام مواد حية واستعمالها استعمالا نسقيا عصريا. ومنها اضطراب التعاريف وعدم التدقيق فيها وقصورها عن إيصال المستعمل إلى المعنى المراد سواء بالمرادف أم الضد أم الصيغة، الخ. ويصدق ذكر جوانب القصور هذه على المعاجم الإلكترونية أيضا في ما يتعلق بنوعية المواد وطرق معالجتها وتنظيمها وترتيبها والتمثيل لها وتعريفها. وهو قصور يحتاج لتجاوزه إلى مستوى متقدم في البحث المعجمي والهندسة المعلوماتية على حد سواء.

– الأدوات المعلوماتية اللازمة والمتعددة الوسائط كقواعد المعطيات والبرمجيات والمحللات، والوسائل السمعية البصرية، الخ.

2.1.1. مستوى المعنى

ويتعلق بما توفره اللغة من بنيات تصورية وما تقتضيه من ظلال للمعاني وشبكات استلزامية وإيحاءات وقيم فكرية وثقافية وحضارية. ومن ثمة الحاجة إلى الإغناء المطرد لنسق اللغة المفاهيمي والعمل الدائم على «تثقيفها» أو «تكوينها المستمر» وتوسيع أفقها ومقتضياتها التصورية. ومن السبل اللازمة لذلك:

– تمتين صلات اللغة باللغات الأخرى وبما تحمله من تجارب إنسانية وحضارية مثرية، وخاصة اللغات العالمية المتقدمة. وذلك من خلال وسائل من أخطرها شأنا الترجمة ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة في ضمان التحديث والتطويع المستمرين للغة وامتلاكها إمكانات معرفية متجددة والحفاظ على حيوية معجمها وتنشيط حركية حقوله الدلالية ومجالاته التصورية وتوسيع قدرته على التوليد والابتكار وعلى الاتصال والتفاعل الحضاريين. فالترجمة التماس للمعرفة وتفاعل حضاري عن طريق النقل البشري أو الآلي من لغة إلى أخرى بهدف معرفي علمي وثقافي. وهي رصيد استثماري وإبداع بما تضيفه من فرص لتجديد البنية الذهنية للفرد والمجتمع، ومن قيم وأفكار وطاقات متنامية. ومما يعكس هذه الأهمية أن العالم يصدر سنويا أكثر من مائة ألف عنوان مترجم، وتترجم اليابان ثلاثين مليون صفحة كل عام.

أما في العالم العربي فتعرف الترجمة ركودا وفوضى بينين. ومن مظاهر ذلك أنه رغم ازدياد عدد الكتب المترجمة من حوالي مائة وخمسة وسبعين عنوانا في السنة، خلال الفترة الممتدة من 1970 إلى 1975، إلى ما يقرب من ثلاث مائة وثلاثين كتابا، وهو خمس ما تترجمه اليونان مثلا، فإن الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يقدر بحوالي عشرة آلاف كتاب؛ وهو ما يوازي ما تترجمه إسبانيا في عام واحد. ويتأكد هذا التفاوت في بيانات النصف الأول من الثمانينيات حيث كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون من السكان في الوطن العربي 4,4 من الكتب، أي أقل من كتاب واحد في السنة لكل مليون من السكان؛ بينما بلغ خمس مائة وتسعة عشر كتابا في المجر وتسع مائة وثلاثين كتابا في إسبانيا لكل مليون من السكان.

أما من حيث نوعية هذه الترجمات ومستواها العلمي في البلاد العربية، فمن المؤكد وجود نقص بين في ترجمة كتب أساسية في الفلسفة والأدب وعلم الاجتماع وعلوم أخرى، مع توافر عناوين قليلة القيمة ولا يؤسس عليها علم نافع. ويبقى أن العنصر الأهم الذي يتحكم مباشرة في جدوى الكتب المترجمة هو غياب سياسات واضحة وخطط مدروسة تنظم عملية اختيار الكتب تبعا لما تلبيه من حاجات البحث العلمي ومتطلبات التنمية والتقدم المعرفي الشامل.

– تطوير آليات تدبير المعرفة. وتتعلق بالعمليات النسقية لإيجاد المعلومات وانتقائها وتنظيمها وتقديمها في صورة تمكن من الاستجابة لحاجات المستعمل المعرفية وتدقيق فهمه في مجال معين. ومن ذلك المساعدة على اكتساب معارف بعينها وتخزينها واستعمالها لأغراض محددة كحل المشاكل الذي يشكل جزء من آليات التفكير عموما ويرتبط على الخصوص بالسياقات التي لا تعرف فيها الذات كيف تنتقل من وضع معين أولي إلى وضع الهدف المرغوب فيه، وكالتعليم، والتخطيط الاستراتيجي، واتخاذ القرارات. ومن شأن آليات تدبير المعرفة أن تحفظ الموارد المعرفية والثقافية من التقادم – وهو ما يحصل عادة أمام التدفق الهائل السريع للمعلومات – وترفع من جودتها ومرونتها.

ويمكن التمثيل لبعض أهم مجالات تدبير المعرفة بما يلي:

تدبير المعرفة

هندسة المعلومات | إنتاج المعرفة اكتشاف المعرفة تدفق المعرفة | تمثيل المعرفة | استرجاع المعرفة

تصميم المعلومات، حل المشاكل... برمجيات التحليل، أسواق المعرفة.. الشبكات الدلالية.. التصنيف، تدبير

تصميم مواقع الأنترنيت، الاختصار.... الوثائق... بناء المكانز...

إن من شأن تطوير مثل هذه الآليات العصرية لهندسة اللغة وتدبير التدفق الهائل للمعلومات، والطرق الآلية الذكية لمعالجة المضامين واستخلاصها وتلخيصها وفهرستها، وتحليل التصورات وتفكيكها، وما يستتبع ذلك من بناء قواعد المعارف والمعطيات العامة والاصطلاحية، ومسارد المفاهيم، والشبكات الدلالية، الخ.، أن يضمن إغناء اللغة بالوسائل العصرية الضرورية للرفع من جودتها ومردوديتها وإقدارها على ولوج ميادين بلورة برامج الترجمة الآلية، وتوصيف اللغة، وتوفير أدوات التحليل اللغوي الصوري والتقاني عموما.

2.1 معرفة اللغة

إن لنوعية المعرفة تأثيرا بالغا في اللغة التي تحملها أو تعبر عنها. وذلك من جوانب عدة منها أن المعارف الغنية ذات الجودة العالية تخدم اللغة على المستوى النسقي بإثراء متنها عبارة ودلالة. كما تخدمها على المستوى الوظيفي بتوسيع وظائفها المعرفية، بإقدارها على ولوج أرقى المعارف وأشدها تنوعا، ووظائفها الاجتماعية والحضارية بالرفع من وضعها الاعتباري وقدرتها التنافسية

وبتمكينها في محيطها المحلي والدولي والاستجابة لحاجاته المتجددة وبكسب المواقف الاجتماعية اللغوية الإيجابية لصالحها. بهذا المعنى تزداد قيمة اللغة أو تنقص تبعا لقيمة ما تحمله من معارف.

لذلك كان ما يلقن باللغة العربية من معارف متنوعة وثيق الصلة بدعمها وإغنائها وتأهيل متكلميها وتسهيل إشراكهم في التنمية الحضارية، أو على العكس من ذلك بالتنفير منها وتقليص رصيد وظائفها وأدوارها الحضارية والثقافية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، وتهميش متكلميها وإضعاف قدراتهم والحد من فرص نمائهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

ومما يمكن أن نلحظ فيه ضعف المعلومات والمعارف التي يعبر عنها باللغة العربية كثير من المظاهر المرتبطة، من جهة، بالبحث العلمي والثقافي، كحجم الإنتاج والتمويل، وبالمضامين والوسائل الإبلاغية والمعرفية في مجال الأسلاك التعليمية العربية من جهة أخرى.

1.2.1 بعض مؤشرات ضعف البحث العلمي

إن مردود البحث العلمي الذي يسعى إلى اتخاذ اللغة العربية أداة له مردود ضعيف في مختلف المجالات. مثال ذلك أن حجم المنشورات في مجال كالطبيعيات والتقانة ارتفع، في البلاد العربية، من 11 نشرة لكل مليون مواطن سنة 1981 إلى 26 نشرة سنة 1995، أي أن المنشورات لم تتضاعف سوى بنسبة 2,4؛ بينما بلغت هذه النسبة في الصين أحد عشر ضعفا مما كانت عليه في سنة 1981، وبلغت في كوريا الجنوبية أربعة وعشرين ضعفا. ومعظم هذه المنشورات لا يهم العلوم الأساسية، بل يتعلق بالميادين التطبيقية كالطب والصحة والزراعة. كما أن قضايا الإنفاق والتمويل من المؤشرات الدالة كذلك على ضعف المردود المشار إليه. فمن المعلوم أن تحفيز البحث العلمي يحتاج إلى رغبة وإرادة سياسيتين جادتين في توطين العلم وإقامة بنياته التحتية اللازمة والعمل على تطويرها باستمرار؛ وهو أمر يحتاج إلى مخصصات مالية تفوق بكثير ما تنفقه البلاد العربية في هذا الباب والذي لا يتجاوز 0,2% من الناتج القومي، بينما يبلغ في الولايات المتحدة الأمريكية 3,1%، و2,4% في ألمانيا وفرنسا. وتأتي 89% من الإنفاق على البحث في البلاد العربية من مصادر الدولة، ولا تساهم القطاعات الإنتاجية والخدماتية إلا بنحو 3% فقط، بينما تزيد هذه النسبة في الدول المتقدمة عن 50%. وهذا مع اعتبار أن تمويل الدولة المذكور في البلاد العربية، أي 89%، يستهلك معظمه في تغطية رواتب العاملين(1).

2.2.1 سمات بعض الأدوات المعرفية العربية في التعليم

تعرف وسائل التدريس والإبلاغ التعليمية على العموم، مستوى معرفيا دون المطلوب لا يرقى إلى المعايير العلمية والتربوية الحديثة ولا يضمن تكوينا وتأهيلا عصريين.

---

(1) نفسه، صص. 66–67، و صص. 70–73.

ومن ذلك الكتاب المدرسي العربي الذي مازال، في غياب التصور الاستراتيجي الواعي الطويل الأمد النابع من مشروع حضاري واضح ومؤسس، يغلب عليه اعتماد معارف لا تناسب المستويات التعليمية، وتقديم مادة تكاد تكون جامدة غير طيعة ولا جذابة لا تخدم تنمية المهارات اللغوية الإبداعية وتطوير القدرات المعرفية والتواصلية المرتبطة بمواجهة السياقات الحية؛ إلى جانب التداخل العشوائي الملحوظ، مثلا، في كثير من مقررات الدرس اللغوي التأهيلي، خاصة، بين معلومات نحوية قديمة غير منتقاة تقدم إلى التلميذ في صورة « خام » مستعصية، ومعلومات لسانية حديثة تعرض بكيفية يطبعها الاعتباط وغموض الأهداف التربوية وعدم النضج المنهجي والمعرفي. وهو تداخل يمثل، كما سنرى، صورة « مصغرة » لما ينتظر الطالب من تداخلات أكبر وأخطر في مستويات تلقين المواد اللغوية العربية في التعليم العالي.

وبخصوص الأطر العلاقية التعليمية التي يندرج فيها الكتاب المدرسي، فمن أبرز سماتها التلقين واللاتواصل وغياب الوسائل المعلوماتية والتوضيحية المتعددة الوسائط، واعتماد نصوص غير قابلة للنقاش تشيأت فيها المعرفة وبدت حقائق مطلقة، وامتحانات لا تقيس إلا الحفظ والتذكر(1).

أما المضامين المعرفية التي تحملها المواد اللغوية العربية في التعليم العالي (أي كل المواد اللغوية التي يتضمنها الدرس اللغوي المعروض على الطالب، كالنحو، وما يعرف بالمدخل، والصرف، واللسانيات، والبلاغة، والعروض)، فإن تفحص بعض خصائصها يكشف، باختصار، عن أنها تقوم على بنية معرفية تقليدية من حيث الجوهر. فالتصورات والممارسات العامة المشتركة المهيمنة في الوعي العام يغلب عليها تصور النحو القديم باعتباره معرفة معيارية موروثة تقدم في أطر تلقينية تعطل حوافز الإبداع والتفكير وتسيء إلى اللغة ومتعلميها أو متكلميها.

إن تصورَ اللغة وتصور علمها، في الدرس اللغوي العربي في التعليم العالي، لم يدخلا بعدُ إلى أنموذج الأنساق النحوية الصورية العصرية بقواعدها الواضحة ومبادئها التأليفية، وحساب التمثيلات الذهنية، وقالبية البنية اللغوية التي تعكس بنية الدماغ، وتُتَّخَذُ طريقا إلى فهم طبيعته وطبيعة البشر، إلى غير ذلك من مقوِّمات وعناوين الأنموذج الذي يحكم تصورَ اللغة في الدرس اللساني اليوم، وعلاقتها بكل مظاهر حياة الإنسان بما في ذلك الاجتماعية والاقتصادية والحضارية.

إن من سمات الدرس اللساني في الجامعة المغربية أنه درس معزول، يكاد يكون مقطوع الجذور، وليس له امتدادات. فالدرس، أي درس، يشكل، في مرحلة معينة من تطور المعارف

---

(1) نفسه، ص. 53.

في مجتمع معين، وتبعا لتصنيف هذه المعارف أو العلوم(1)، بنيةً دنيا من المعطيات التربوية-العلمية المشتركة. وهي جملة من المعارف والمناهج والرؤى المتفق عليها ضمنا أو صراحة وتشكل معايير دنيا تضبط الممارسة التربوية-العلمية لمادة معرفية معينة. فكل درس، لغوي أو أدبي أو طبي..الخ، تبعا لطبيعة المعارف الرائجة في المجتمع وتصنيفها، يقوم على بنيةٍ من هذا النوع، وليس مجرد محتوى يقدَّم في الفصل. إن له امتدادا في المرجعيات والوسائل والمواد التعليمية والتربوية والمعرفية (من كتب مدرسية، ومداخل، وإحالات ومصادر، الخ)، بل في التصورات الاجتماعية العامة كذلك. أي كل ما يجعل المعرفةَ شرعية ومشروعة ومألوفة ومعروفة وجزء من المؤسسة الثقافية المعيار ومن نظمها المعرفية المعترَف بها. ليس الدرس اللساني، إذن، بالنظر إلى الوعي الثقافي المعيار، معروفا ولا مألوفا. فما زالت المعرفة اللغوية، على هذا المستوى، هي النحو أساسا وتقويمُ اللسان(2). أما اللسانيات فتُرْبَط في الأذهان بمعرفة أو تعليم اللغات، الأجنبية خاصة. وغالبا ما لا تعتبر علما لما هو أكثر من ذلك. بل هناك ما يدعو إلى الحديث عن « مشكل اجتماعي » يواجهه اللسانيون في هذا السياق.

فقد لاحظ العالم اللساني الأمريكي راي جاكندوف أن اللسانيين غالبا ما يجدون أنفسهم وهم يحاولون إقناع غير المختصين بموضوع علمهم وطابعه التقني. وهذا لا يُطلَب من الرياضيين، كما لا يطلب من علماء البيولوجيا وعلماءِ الأعصاب تفسيرُ التفاصيل الكيمائية والفيزيولوجية لعملهم.

لكن القصة مع اللغة مختلفة. عند ما يَشرع اللساني في وصف طبيعة موضوع عمله، قد يبادره المخاطَب بجواب من قبيل: «آه ! نعم، أعرف صعوبة اللغة، فقد حاولت تعلم الروسية مرة». وعندما يحاول اللساني شرح الموضوع أكثر، يفقد اهتمام مخاطَبه. وردود أفعال كهذه مفهومة، إذ من ذا الذي يريد، باستثناء اللساني، أن يتحادث، خلال حفل استقبال، عن إسناد النبر، أو دور الإلزام في تحديد جهة الجملة..؟

وتختلف اللغة عن البيولوجيا هنا بصورة تدعو إلى الاهتمام. فالناس ينتظرون (ويقبلون) أن ينزعجوا أو يُضَلَّلُوا بسماع تفاصيل تحول الخلايا، مثلا، فلا يسألون عن ذلك. وما يهمهم بصدد البيولوجيا هو التاريخ الطبيعي، كالوقائع الغريبة عن سلوك الحيوان مثلا. لكنهم يتفهمون كون أغلب البيولوجيين لا يدرسون ذلك. ومثل هذا أن ما يهم الناس بصدد اللغة هو « التاريخ الطبيعي »، مثل: الأصل التأثيلي للكلمات، وأصل اللغة... الخ. لكن الاختلاف الأساس هنا يكمن في أنهم لا يتفهمون أن تكون اللغة أكثرَ من ذلك(3).

---

(1) انظر غاليم (1999).

(2) وهي تصورات تدخل في ما يسميه جاكندوف (2003) « اللغويات الشعبية » أو « العامية »، ص9.

(3) انظر جاكندوف (2002)، صص. 3-4.

هذا ما لاحظه عالم لساني في أكثر البلدان تقدما في هذا المجال، فما القول في بلد كبلدنا؟ على أنه لا بد من الإشارة إلى أن مثل هذه القضايا تدرج عادة في باب من أبواب الابستمولوجيا هو باب دراسة العلاقة بين المعرفة العلمية ومعرفة الحس المشترك.

فرغم التطور الذي طرأ على وضع الدرس اللساني منذ فترة السبعينيات يوم كانت اللسانيات محصورة أو تكاد في بعض جوانب كتابات مارتيني وكريماس، فإن هذا الدرس مازال مرتبطا باجتهادات قلة من الأساتذة بذواتهم، ومازال متسيب المرجعيات فوضوي المعايير بسبب افتقاد بنيات حقيقية للبحث تمكن، كما سبقت الإشارة، من إعداد كتب القواعد والمداخل العصرية والمراجع الورقية والإلكترونية التي تمكن من مسايرة المعارف اللغوية والمناهج التعليمية المتجددة، وتيسر تثبيت مقاييسَ علمية شبهِ قارة ومشتركةٍ للتقويم المستنِد إلى الجدية والمردودية.

أما الالتباس الذي أشرت إليه سابقا بخصوص علاقة النحو واللسانيات بالمعرفة اللغوية، وبخصوص التداخل السلبي بين المعلومات اللغوية القديمة والحديثة في التعليم التأهيلي، فيعكسه إلى حد كبير الوضع القانوني للمادتين في الجامعة. وهو وضع ذو أثر سلبي كبير في التكوين وتنظيم المعرفة ليس أقله تكريس غموض العلاقة والتباسها بين نظرية العلم وتاريخ العلم، وفي حالتنا هذه: بين نظرية اللغة (ومجالها المفترض هو اللسانيات) وتاريخ الفكر اللغوي (ومجاله المفترض هو النحو القديم وكذلك البلاغة والعروض القديمان).

هكذا توضع مادة النحو إلى جانب مادة اللسانيات بصورة اعتباطية ملتبسة، دون تفكير في العلاقات الممكن قيامها بينهما. كأن اللسانيات ليست نحوا! ؟ كأن اللسانيات لا علاقة لها باللغة العربية وإنما باللغات الأجنبية ! ؟ ويبدو أنها في الوعي العام، منفصلة بالفعل عن اللغة العربية بنفس القدر الذي نجد به النحو متصلا بهذه اللغة، بل إن النحو يشكل واللغة العربية شيئا واحدا (إلى حد قد لا يتصور الناس معه افتراض استعمال قواعده لوصف لغة أخرى).

إن وضعا كهذا يكرس فصلا ضمنيا، غير محسوب العواقب، بين اللغة العربية، ومجالُ الاهتمام بها النحوُ، وبين القضايا والأفكار المتعلقة باللغات الأخرى، ومجالُ الاهتمام بها اللسانيات. إضافة إلى مجموعة من التصورات والمواقف والممارسات يخلقها هذا الالتباس ليس أقلها غموض الأهداف المتوخاة من الطريقة التي توضع بها مثل هذه المواد: هل يتعلق الأمر، مثلا، بتكوين في اللغة وملكتها، أم بتكوين في البحث اللغوي وآلياته ومناهجه وتاريخه، أم بهما معا؟ وكيف؟

ويصدق هذا الالتباس وأثره، بالطبع، على وضع العروض القديم في علاقته بالصواتة الحديثة، وعلى البلاغة القديمة في علاقتها بالمباحث الحديثة في الدلالة والذريعيات (أو تحليل الخطاب) والسيميائيات.

ومن أمثلة ذلك ما يمكن أن نلحظه في نموذج من نماذج مسالك الدراسات العربية. ويتعلق الأمر بمسلك الدراسات العربية بكلية الآداب التابعة لجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، كما أورده «دليل الدراسات 2005-2004» الصادر عن الجامعة المذكورة، وذلك من حيث كم المواد ومضمونها.

فنجد من حيث عدد الساعات المخصصة أن المواد اللغوية في الفصل الثالث تستغرق كل واحدة منها بالتساوي 32 ساعة؛ بينما نجد للمدخل في الفصل الأول 48 ساعة، وللنحو والصرف في الفصل الثاني 24 ساعة. ويصعب تعليل ذلك.

أما مضمون هذه المواد فهو إجمالا، وكما أشرنا، عرض تلقيني للقواعد القديمة في النحو والصرف والبلاغة والعروض، أو لقضايا قديمة في المدخل وفقه اللغة، أو تأريخ لأفكار مجردة مفصولة عن أسسها التجريبية في «اللسانيات» وعن معطياتها اللغوية الفعلية القديمة والحديثة.

ومن الخلاصات التي تبرز من استقراء هذه المضامين عموما أن الآية تبدو معكوسة، إذ «توصف» اللغة بما هو تاريخ، أي بقواعد تقليدية، في النحو والصرف والبلاغة والعروض، بينما يعامل الوصف اللساني الحديث، في اللسانيات وتحليل الخطاب، معاملة تاريخ أفكار مفككة مفصولة عن المعطيات التي تشكل عمادها التجريبي.

إن لبناء درس لغوي عصري شروطا من أولها وجود بنيات حقيقية للبحث المنظم الهادف، ترسم سبل إنتاج الأدوات الضرورية لتمكين المادة اللغوية العربية من مسايرة التطور المعرفي والمنهجي الراهن المتجدد باستمرار، بما في ذلك المداخل اللسانية العصرية وترجمة الأصول العلمية الرائدة إلى اللغة العربية، وبناء الأوصاف النحوية المتقدمة للغة العربية الحديثة، وبناء تواريخ علمية ممنهجة للأفكار اللغوية التراثية ولمراحل تطور اللغة العربية، إلى غير ذلك من الأدوات المرجعية اللازمة التي تيسر للباحث ربح الوقت وتمكن الأستاذ من إعداد مادة تستجيب لمعايير الجودة المعرفية والوعي المنهجي وإبلاغها في أطر تربوية ملائمة، لما في ذلك من ضمان داخلي لتعزيز فرص اللغة العربية في التطور والنماء، وتكوين أجيال قادرة على مواجهة تحديات التحضر الحديث.

إن الخطر الذي يهدد اللغة العربية من الذين «يدافعون» عنها بممارسات علمية متجاوزة وبنقل معارف عقيمة بصددها، لا يقل عن الخطر الآتي من الذين يعادون العربية ويعملون على نبذها وإحلال لغات أجنبية محلها بصورة مطردة وشاملة (1).

---

(1) انظر جاكندوف (2005)، وانظر دليل الدراسات 2004-2005، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة، المغرب، ص. 16.

2 بعض عناصر حصيلة البحث اللساني العربي الحديث

حقق البحث اللساني العربي الحديث منذ سبعينيات القرن العشرين حتى الآن بعض التراكم المعرفي الذي كان له أثر نسبي ملحوظ في تصور الموضوع اللغوي ومناهج دراسته في الجامعة العربية. ويحتاج التفصيل في توجهات هذا البحث وخصائصه وتقييم نتائجه والوقوف على سياقاته الثقافية والاجتماعية إلى دراسات مستقلة دقيقة تعتمد مناهج تاريخ العلوم وعلم اجتماع الثقافة. ولن نورد في ما يلي سوى بعض الملاحظات المتعلقة ببعض محاور البحث المذكور (من خلال التجربة المغربية على الخصوص) وأطره التصورية العامة، وبعض العوائق التي مازالت تحول دون أن يأخذ مكانته في البنيات الجامعية بالصورة اللائقة التي تضمن جودته ومردوديته العلمية والتربوية.

لقد قام هذا البحث على تناول ظواهر اللغة العربية في إطار لسانيات مقارنة، وكان من أبرز أهدافه إقامة أنحاء عصرية لوصف اللغة العربية في بنيتها الحالية وبنيتها القديمة ووصف لهجاتها؛ والإفادة من نتائج هذه الأبحاث الأساسية في تطوير مجالات أساسية أخرى عديدة تهم خدمة اللغة العربية منها مجالات المعالجة الآلية والصناعة القاموسية وأدوات تعليم اللغة ومناهج دراستها.

وشكلت هذه الأهداف وما يتفرع عنها من قضايا نظرية وتطبيقية المجال التصوري الذي اندرج فيه البحث اللساني العربي الحديث؛ وهو مجال ارتبط في بعده العام بالمرتكزات الإبستمولوجية للثورة العلمية والمعرفية الحديثة، وسعى إلى تطوير الفكر اللغوي العربي الذي ظل تقليديا في جوهره والانتقال به إلى ممارسة معرفية جديدة من حيث النوع؛ إطارها أنموذج علمي يعتبر اللغة قدرة معرفية بشرية، من جهة، ونسقا توليديا، من جهة أخرى؛ ومنهجها الاستدلال الواضح ذو الطبيعة الرياضية؛ وهدفها التفسير.

ومكن ذلك، من ضمن ما مكن منه، من الدفاع، في مؤلفات اللسانيين العرب المحدثين (في المغرب خاصة)، عن عدد من المواقف النظرية والمنهجية الأساسية المرتبطة بإعادة النظر في نسق القيم الفكرية التي يقوم عليها الخطاب اللغوي العربي السائد، بما في ذلك تصور اللغة العربية وتصور وصفها ومعطياتها وتراثها النحوي. ومن أبرز هذه المواقف:

– الاستدلال على أن اللغة العربية لغة طبيعية كباقي اللغات وظواهرها تماثل ظواهر اللغات الأخرى، عوض اعتبارها لغة تتفرد بخصائص لا توجد في اللغات ولا يمكن وصفها بالاعتماد على النظريات الحديثة «الغربية» التي «بنيت لوصف لغات أوربية».

– الدعوة إلى توسيع متن المعطيات القديمة والحديثة وتنويعه؛ عوض الاكتفاء في الوصف اللغوي بنفس المواد التي شكلت معطيات اللغويين القدماء.

– الدفاع عن تمييز نسق الأفكار والمفاهيم الوصفية في التراث اللغوي من معطيات اللغة الموصوفة، وعن تحديد مجال دراسة هذا النسق في ميدان التأريخ للفكر، دون أن يعتبر توظيفه ضرورة حتمية في بناء أنحاء عصرية تصف اللغة العربية. وذلك عوض الوقوف عند مناهج اللغويين القدماء وأصولهم في النظر في معطيات اللغة العربية، وخلط تلك المناهج والأصول بالمعطيات.

وانسجاما مع هذه المواقف اهتمت أعمال اللسانيين ببناء أجزاء من أنحاء جديدة للغة العربية تواكب المكتسبات النظرية والتحليلية في البحث اللساني الدولي المعاصر، وتبرز مظاهر الائتلاف والاختلاف بين خصائص هذه اللغة وخصائص اللغات الطبيعية الأخرى.

وقد تمت العناية خاصة ببعض ركائز النسق النحوي العربي وأولياته ومبادئ تأليفها في مجالات التركيب والدلالة والذريعيات والمعجم والصواتة والصرف، كقواعد انتظام المقولات الكبرى داخل الجملة، وبنية المركبات بأنواعها وخصائصها، ونسق الوظائف التركيبية والدلالية والذريعية، وبنية المعجم العربي وخصائص مداخله التركيبية والصرفية والدلالية وعلاقة هذه المداخل ببعضها. ونسق الحقول الدلالية، والترابطات الممكنة بينها، في إطار ربط الظواهر الدلالية بخصائص الأوصاف الصورية وإعادة تبويب معطيات المعنى، إلى غير ذلك من الظواهر والمحاور التي عالجتها المؤلفات اللسانية داخل أطر نظرية حديثة مختلفة، والتي يحتاج تفحص قيمة نتائجها، كما أشرنا، إلى دراسات مفصلة مستقلة.

إلا أن ما يبدو من النظر في وضع الدرس اللساني العربي في الجامعة اليوم يكشف عن أن أثر البحث اللساني الحديث بمبادئه وأبعاده التصورية بقي أثرا نسبيا غير كاف لإحداث تغير جوهري في تصور الموضوع اللغوي ومناهج دراسته يطبع الممارسة العلمية والتربوية في المجال بطابعه الغالب. ويعود ذلك إلى عدة اعتبارات مترابطة ذكرنا بعضها آنفا، ونؤكد هنا ما يلي:

– غياب بنيات حقيقية للبحث العلمي تضمن ممارسة مطردة للبحث اللساني تحقق تراكما كميا وكيفيا يمكن المعرفة اللسانية الحديثة بمختلف فروعها وتخصصاتها من أن تصبح مكونا طبيعيا وفاعلا في مكونات نسق القيم الثقافية والعلمية، وأداة لازمة لتلبية حاجات حضارية ملحة في إطار مشروع تنمية مجتمعي واضح.

– حضور الفكر النحوي التراثي العربي بمعطياته وأصوله وتحكم قيمه في تصور اللغة ودراستها. وهو فكر يشكل في البنية الثقافية العامة قيما ذات قدر كبير من الاتساق والاستقرار تجعل منها مؤسسة وإطارا مرجعيا ضاغطا بحكم الواقع والتاريخ. فمن المعلوم أن المادة اللغوية ظلت طويلا مجرد مادة تدرس داخل شعب اللغة العربية وآدابها إلى جانب باقي المواد الأدبية. وبقيت إلى عهد قريب محصورة، أو تكاد، في مواد تقليدية تماما. ولم يكن ظهور حصص اللسانيات الحديثة

بطابعها التاريخي المجرد الغالب إلى جانب المواد التقليدية، وإقرارُ تخصص لساني محدد في سنتين من سنوات الإجازة، كافيين لإحداث تغيير جوهري في هذا الوضع.

– ضعف الرصيد المرجعي اللازم لدعم المعرفة اللسانية ومدها بوسائل التطور والانتشار الواسع والجودة.

ومن المظاهر البارزة لهذا الضعف، ضعف التأليف اللساني بأنواعه مقارنة بما ينشر في مجالات أخرى منها الدراسات الأدبية مثلا. فإلى جانب ندرة المداخل في بعض التخصصات وانعدامها في تخصصات أخرى، هناك قلة في الدراسات التي تعنى، على مستوى البحث الأساسي، بمحاور الفكر اللساني أو بالظواهر اللغوية المختلفة؛ وقلة أوضح في ميادين كعلم الاجتماع اللغوي وعلم النفس اللغوي، أو اللسانيات الحاسوبية التي اتخذ الاهتمام بها مؤخرا منحى أقرب إلى نوع من «المودا» يغلب عليه التهافت والسطحية وغياب الاختصاص وقلة الوعي بالحاجات الحقيقية وعدم الاستناد إلى تراكم كاف في مجال البحث الأساسي يشكل قاعدة لازمة لأي معالجة حاسوبية ذات مضمون حقيقي وليست عبارة عن هياكل شكلية فارغة. والملاحظ أيضا بخصوص جزء من التأليف اللساني القليل المشار إليه أنه تقليدي في مادته وروحه ومنحاه وإن كان أصحابه يلبسونه صفة «لساني» أو «يزينونه» ببعض الاستشهادات أو الإحالات أو المفاهيم اللسانية الحديثة.

ومن مظاهر الضعف كذلك، ضعف ترجمة الفكر والمعرفة اللسانيين، وهو ضعف يندرج في ضعف تعريب مصادر الفكر الحديث عموما. فقد اتخذ هذا التعريب «اتجاها بئيسا يجعل الطلبة لا يستطيعون التعرف المباشر على الفكر الحديث، لا في العلوم الدقيقة وحسب بل حتى في العلوم الاجتماعية، وهذا هو الأخطر. نجد الأستاذ الجامعي نفسه قد تعرف على المناهج الحديثة، في أي تخصص كان، عبر ملخصات ومقتطفات ومقالات موسوعية. ومعلوم أن الملخص يوحي بأن المسألة قد درست دراسة كافية شافية فيظن القارئ أنه لم يعد مجال للمزيد. فلا يشعر بأي حافز لمواصلة البحث والتنقيب. ثم يأتي دور الطالب فيتلقى «العلم» ملخصا عن ملخص. لا يعود إلى النص (بالمعنى الدقيق) لأنه عاجز عن قراءته ولأنه لا يرى ضرورة ذلك. يعود أحيانا إلى الأصول لكن في العلوم «الأصيلة» أي المكتوبة أصلا بالعربية. فلا عجب إذا حصل، مع مر الأعوام، «تعريب فكري» في جل التخصصات، في التاريخ واللغة والاجتماع والسياسة [...] يحصل التعريب الفكري آليا لانعدام أصول معربة يمكن أن يقارن بها الباحث ما لديه من أصول أصيلة. أرى في ذلك سر تعميم الحركة التأصيلية في جل البلاد العربية. واجب الأساتذة أن يدقوا ناقوس الخطر إذ الجيل الذي يتقن اللغات الأجنبية، وهو بذلك على اتصال مباشر بالعلوم الحديثة، يتناقص كل يوم تاركا الساحة لجيل الملخصات. دور الأساتذة هو التعريف بالأصول

الحقيقية لا الاتجار بتلخيصها »(1). إذا كان هذا « البؤس » في مجال نقل مختلف العلوم الأخرى إلى العربية شديدا فإنه في المجال اللساني أشد. وهي شدة تؤدي، في ارتباط بما سبق، إلى تضييق مصادر المعرفة وحصرها أحيانا في أشخاص معينين لا يمكنهم بأي حال، مهما اغتنى زادهم، أن يسدوا الحاجة. بل إن وضعا كهذا يحول بعض هؤلاء الأشخاص إلى وسطاء من نوع خاص يوزعون « العلم » بمقادير معلومة، مثلهم في ذلك مثل الشيوخ الأقطاب الربانيين يجودون ببعض البركات والمكرمات على جمع المريدين الساعين العطاشى (2).

3 في آفاق اللسانيات العربية

إن التطور الهائل الذي تحققه اليوم بكيفية مطردة مختلف مكونات العلوم المعرفية، كعلم النفس البشري والحيواني بفروعهما، والذكاء الاصطناعي وفلسفة الذهن وفلسفة اللغة والإناسة المعرفية والأحياء، الخ.، أصبح يفرض على اللسانيات، باعتبارها علما معرفيا، أخذ نتائج هذا التطور بعين الاعتبار والاندماج بصورة طبيعية في البحث الساعي إلى بلورة ما أصبح يسمى اليوم نظرية صورية للمعرفة.

ومما يعنيه هذا الاندماج ربط دراسة اللغة بدراسة كل ملكات الذهن / الدماغ (لدى الإنسان والحيوان) وعلى كافة المستويات، بما في ذلك البنيات الذهنية غير اللغوية التي قطع البحث في خصائصها أشواطا هامة كالبنيات البصرية والموسيقية وبنيات العمل والمعرفة الاجتماعية.

ومن القضايا الأساسية المتصلة بالاندماج هنا ما يتعلق بتعيين مظاهر التمثيل اللغوي التي تشترك فيها قدرات أخرى، كالبنية السُّلّمية والتكرار اللامحدود والتمثيل للمتغيرات، والمكونات المرؤوسة، الخ. وذلك مثلما هو الحال بخصوص البنية السّلّمية والتكرار اللذين ثبت حضورهما في القدرات المعرفية البشرية العليا، وربما لدى بعض الحيوانات أيضا، خلافا لما دافع عنه هاوزر وشومسكي وفيتش (2002) (3). فاللغة تتفرد ليس بخاصية التكرار في حد ذاتها ولكن بكونها نسق التواصل الطبيعي الوحيد الذي تملك إشاراته بنية سلّمية تكرارية تعكس إلى حد معين البنية السلّمية التكرارية في الإرسالية المراد إرسالها.

ومن القضايا الهامة أيضا المتصلة بالاندماج ما يتعلق بالوِجاهات (interfaces) التي تصل اللغة بقدرات أخرى، فتمكننا من استخدام أنساقنا السمعية والحركية لاستقبال الكلام وإرساله، ومن استخدام اللغة للتعبير عن إدراكاتنا وأفكارنا، كما هو الحال في الأعمال

---

(1) العروي (2005)، صص. 199–200.

(2) انظر غاليم (2006)؛ (2007 ب).

(3) انظر بنكر وجاكندوف (2005)؛ وانظر الفصل الرابع في غاليم (2007 أ).

التي تدرس الوِجاه الواصل بين المعنى اللغوي والنسق البصري (والفضائي)، والأعمال التي تنظر في تأثير اللغة في عملية التفكير ومضمونه (1).

إن دمج اللسانيات في العلوم المعرفية لا يمكن أن يتم، إذن، إلا بوضع دراسة الملكة اللغوية ضمن مجال دراسة باقي الملكات المعرفية الأخرى؛ وذلك على طريق بلورة نظرية صورية للمعرفة، كما سبق، تنسجم فيها الهندسة النحوية اللغوية مع الخصائص الهندسية الملاحظة في باقي الأنساق غير اللغوية داخل بيئة الذهن/الدماغ المعرفية العامة. ويبدو أن هذا بدوره لا يمكن أن يتم إلا بالتخلي عن بعض أهم الافتراضات التي بني عليها التيار الرئيس في النحو التوليدي (لدى شومسكي)، وبعده أعمال اللسانيين المغاربة، وأبرزها التقانة الاشتقاقية (وهي القاسم المشترك في عموم أعمال اللسانيين المغاربة بما في ذلك أعمال الاتجاه الوظيفي) ومركزية التركيب (في أعمال المتبنين لهذا الافتراض). فإلقاء نظرة على المجالات المعرفية التي تمت دراستها حتى الآن يبدو أنه يكشف عن نتيجة هامة مفادها عدم وجود قدرة معرفية أخرى تقبل أن توصف على أساس اشتقاقات خوارزمية، بل يظهر أن الأمر يتعلق عموما بأنساق من القيود المتفاعلة(2)، وبتصميم نحوي ذي هندسة متوازية أساسها أنساق نحوية مستقلة، من جهة، لامتلاكها أولياتها ومبادئها التأليفية وقدرتها التوليدية الخاصة، ومتفاعلة، من جهة أخرى، عبر الوِجاهات التي تقيم بينها توافقات جزئية، كما سنرى. على أن هذا التصور الذي نتبناه في إطار نظرية الدلالة التصورية، إذ يعيد النظر في الافتراضات السابقة، لا يتخلى عن أهم الأسس التي قام عليها النحو التوليدي وأبرزها الموقف الذهني والتأليفية (3).

هكذا يكون من الأهداف الرئيسة التي تتوخى تحقيقها نظرية الدلالة التصورية **إعادة إدماج** النحو التوليدي، بما في ذلك نظرية الدلالة، في العلوم العصبية والمعرفية بكيفية تجعله يتلاءم بصورة طبيعية مع الهندسة الواسعة للذهن/الدماغ. على أن هذا الهدف ليس وليد اليوم وإنما يرتبط بوعد قطعته اللسانيات التوليدية على نفسها منذ كتاب شومسكي مظاهر النظرية التركيبية سنة 1965 الذي جاء فيه: «لنلاحظ أننا لا نقصد، طبعا، أن وظائف اكتساب اللغة تنجزها مكونات منفصلة تماما في الذهن المجرد أو الدماغ الفيزيائي [...] وبالفعل، فمن مشاكل علم النفس الهامة أن نحدد إلى أي حد تقتسم مظاهر أخرى للمعرفة خصائص اكتساب اللغة واستعمالها، وأن نحاول، في هذا الاتجاه، تطوير نظرية للذهن أغنى وأوسع» (4).

(1) انظر جاكندوف (قيد النشر).

(2) انظر كوليكوفر وجاكندوف (2005)؛ وجاكندوف (2007 أ) ص. 258.

(3) انظر جاكندوف (2002)؛ و(2007 ب) انظر الفصل الأول في غاليم (2007).

(4) انظر شومسكي (1965)؛ ص. 207 من الهوامش.

وقد كان السؤال ملحا في السنوات التي سبقت كتاب المظاهر حول كيفية ربط البنية التركيبية بالمعنى. وتبعا لافتراض تقدم به أولا كاتز وبوسطل (1964)، بلور شومسكي (1965) الافتراض المثير القائل إن المستوى التركيبي الوارد في تحديد المعنى هو البنية العميقة. وهو افتراض يعني، في صيغته الضعيفة، أن اطرادات المعنى تكاد تكون مرمزة مباشرة في البنية العميقة. فعقدت آمال كبيرة على هذا الجزء من النحو التوليدي لدى الباحثين في مجالات العلوم المعرفية خاصة، على اعتبار أن آليات النحو التوليدي إذا قادتنا إلى المعنى، أمكنها أن تقودنا إلى الكشف عن خصائص الفكر والطبيعة البشريين.

لكن المسار الذي سار فيه بعد ذلك التيار الرئيس في النحو التوليدي بقيادة شومسكي لم يساعد على بناء نظرية للمعنى في الإطار التوليدي النفسي، ولا على تثبيت منزلة اللسانيات التوليدية ضمن العلوم المعرفية المهتمة بمختلف خصائص الذهن/الدماغ البشري. ومرد ذلك أساسا إلى حصر الخاصية التوليدية الإبداعية للغة في المكون التركيبي، واعتبار الصواتة والدلالة مكونين «تأويليين»، أي أن خصائصهما التأليفية مشتقة من تأليفية التركيب. لكن تقدم البحث وتراكم النتائج في الصواتة والدلالة سيكشفان تدريجيا عن ضرورة إعادة النظر في هذه «المركزية التركيبية».

1.3 في هندسة التوازي

فقد طرأ تحول في تصور موضوع الصواتة في أواخر السبعينيات مع ظهور الأعمال الرائدة عند ليبرمان وبرينس (1977) وكولدسميث (1979)، لتتطور الصواتة بسرعة إلى مكون يمتلك بنيته التوليدية السّلّمية المستقلة عن التركيب، والقائمة على بنيات فرعية متوازية أو صفوف (tiers). ومثال السّلّمية الصواتية التنظيم السّلّمي الذي تقوم عليه البنية المقطعية. فنواة المقطع تأتلف مع الذيل لتشكيل القافية؛ وتأتلف القافية بدورها مع الاستئناف لتشكيل تمام المقطع؛ وتأتلف المقاطع في وحدات أوسع كالقدم والكلمات الصواتية؛ وتأتلف الكلمات الصواتية كذلك في وحدات أكبر كالمركبات الصواتية. والأساس هنا أن هذه البنيات السُّلَّمية ليست مكوّنة من أوليات تركيبية كالأسماء والأفعال والحدود، وإنما من عناصر ملازمة للصواتة كالسمات الصواتية المميزة والقطع والمقاطع والمحيط التنغيمي، ومن مبادئ كالبنية المقطعية وقواعد النبر والانسجام الحركي. كما أن هذه البنيات، وإن كانت سُلَّمِيَّة، فهي ليست تكرارية، بالمعنى الحصري الملحوظ في التركيب والظاهر مثلا في ورود مكون داخل مكون آخر من نفس النمط، إذ المقطع مثلا لا يرد داخل مقطع آخر. ومن ثمة فإن المبادئ التي تحكم البنيات الصواتية ليست مشتقة من التركيب وإنما تشكل نسقا مستقلا من القواعد التوليدية.

وبالإضافة إلى المبادئ التوليدية التي تصف هذه البنيات المتوازية، هناك مجموعة من القواعد الوجاهية (أو قواعد التوافق) التي تضبط الكيفية التي تتوافق بها البنيات المتوازية المستقلة داخل النسق. وهي قواعد من أهم خصائصها أنها لا تقيم بين البنيات سوى تشاكلات جزئية، أي أنها لا «ترى» كل مظاهر البنيات التي تربط بينها. ومثال ذلك داخل النسق الصواتي أن القواعد الوجاهية التي تربط بين المحتوى المقطعي والشبكات العروضية (metrical grids) لا «ترى» تماما استئناف المقطع، فلا تهتم (قواعد النبر) إلا بما يجري في القافية.

ومثلما تظهر خصائص الربط الجزئي في القواعد الوجاهية داخل النسق الصواتي، تظهر كذلك في القواعد الوجاهية الرابطة بين النسق الصواتي برمته والنسق التركيبي. ومثال ذلك أن الصواتة قد «ترى» بعض الحدود التركيبية لكنها لا «ترى» عمق الإدماج التركيبي، إذ تشكل أداة التعريف والاسم في المعطى: القط، مثلا، كلمة صواتية واحدة، لكن هذا المعطى في التركيب مقولتان اثنتان: الحد والاسم. كما أن التركيب لا «يرى» المحتوى القطعي للكلمات الصواتية، ولذلك ليس هناك قاعدة تركيبية لا تنطبق إلا على الكلمات المبتدئة بباء مثلا.

إن ما ذكر بخصوص تطور الصواتة وقع كذلك في المجال الدلالي. فخلال السبعينيات والثمانينيات تطورت عدة نظريات دلالية مختلفة جذريا عما سبق. منها، مثلا، الدلالة الصورية (بارتي 1976)، والنحو المعرفي (ليكوف 1987، وفوكونييه 1984، ولينكيكر 1987، وتالمي 2000)، والدلالة التصورية (جاكندوف 1983، 1990، وبنكر 1989، وبوستيوفسكي 1995)؛ إضافة إلى أعمال هامة تمت في إطار اللسانيات الحاسوبية وعلم النفس المعرفي. وهي أطر مهما كانت الاختلافات بينها، تتفق كلها في أن الدلالة نسق توليدي مستقل بخصائصه التأليفية، ولا يقوم على وحدات تركيبية كالمركبات الاسمية والفعلية، وإنما يمتلك أولياته الدلالية ومبادئه الذاتية الخاصة(1).

وتخصص نظرية الدلالة التصورية المعنى باعتباره تمثيلات ذهنية مبنية في صورة تنظيم معرفي هو البنية التصورية. والبنية التصورية ليست جزءا من اللغة في حد ذاتها، وإنما هي جزء من الفكر. إنها المحل الذي يتم فيه فهم الأقوال اللغوية في سياقاتها، بما في ذلك الاعتبارات الذريعية والمعرفة الموسوعية، إنها البنية المعرفية التي ينبني عليها التفكير والتخطيط. فيعتبر هذا المستوى المفترض للبنية التصورية المقابل النظري لما يسميه الحس المشترك «معنى». وهو نسق تأليفي مستقل عن البنية التركيبية وأغنى منها إلى حد بعيد، أولياته كيانات تصورية مثل الأفراد والأحداث والمحمولات والمتغيرات والأسوار. وبخلاف علاقات العلو والترتيب الخطي التي نجدها

---

(1) نفسه، صص. 38–43. وانظر الفصل الأول في غاليم (2007 أ)

في التركيب، فإن البنية الدلالية تقوم على مبادئ تأليفية ذاتية كالروابط المنطقية وعلاقات الدالات بموضوعاتها، والأسوار بالمتغيرات المربوطة، والعلاقات النعتية، وعلاقة الأقوال بالتضمنات(1) . وتنتظم هذه الأوليات والمبادئ، كما هو الحال في الصواتة، في صفوف دلالية / تصورية؛ كالصف الوصفي والصف الإحالي وصف بنية المعلومة.

ومثلما هو الحال في الوِجاه بين التركيب والصواتة فإن الوجاه بين التركيب والدلالة لا ينبني على التشاكل التام. فبعض مظاهر التركيب لا تمس الدلالة. مثال ذلك أن البنية الدلالية في لغة معينة تبقى كما هي سواء وسم التركيب تطابق الفعل والفاعل، أم تطابق الفعل والمفعول، أم إعراب الرفع والنصب. ولا يهم البنية الدلالية أن يضع التركيب الفعل بعد الفاعل (كما في الأنجليزية) أم في آخر الجملة (كما في اليابانية) . فبما أن هذه المظاهر التركيبية لا تربطها صلة بالدلالة، فإن المكون الوجاهي لا يلتفت إليها.

كما أن بعض مظاهر الدلالة لا تأثير لها في التركيب. ومن الأمثلة المعروفة في هذا الباب أن صورة الاستفهام التركيبية يمكن أن تستخدم لدلالات مختلفة، كطلب الحصول على المعلومة، أو لامتحان شخص ما، أو للتعبير عن السخرية. ومن الأمثلة كذلك الحالات المسماة «تحويل الإحالة» منذ نونبرك (1979)؛ ومثال «التأليف المغنى» المرتبط بحالات لا يكون فيها لبعض أجزاء المحتوى الدلالي ما يوافقها بتاتا في البنية التركيبية والصواتية.

ومن أمثلة الربط الوجاهي الجزئي بين الدلالة والصواتة العلاقة التي يقيمها الوجاه الصواتي– الدلالي بين النبر والتنغيم في النسق الصواتي والبؤرة في النسق الدلالي.

2.3 هندسة التوازي وبنية الذهن / الدماغ

يتبين مما سبق أن هندسة النحو المتوازية في نظرية الدلالة التصورية تقوم على ثلاثة مكونات توليدية من قواعد التكوين الصواتية والتركيبية والدلالية، يحدد كل مكون منها نمطه الخاص من البنيات المترابطة والمتفاعلة في ما بينها عبر مكونات وجاهية. فتخصص سلامة تكوين الجملة، في هذا الإطار، بسلامة تكوين بنياتها الثلاث الصواتية والتركيبية والدلالية، بكيفية مستقلة، وبسلامة التوافق بينها عبر الوجاهات. ومن القواعد الوجاهية الأولية بين الصواتة والتركيب أن الترتيب الخطي للوحدات في الصواتة يوافق الترتيب الخطي للوحدات الموافقة في التركيب. ومن القواعد الوجاهية الأولية بين التركيب والدلالة أن الرأس التركيبي (سواء أكان فعلا أم اسما أم صفة أم حرفا) يوافق دالة دلالية، وأن موضوعات الرأس التركيبية (كالفاعل والمفعول) توافق موضوعات الدالة الدلالية. وما ينتج عن هذين المبدأين الوجاهيين الأوليين، أن التركيب يملك، إلى حد كبير، ترتيب الصواتة الخطي، لكنه يملك البنية الإدماجية للدلالة.

(1) انظر جاكندوف (2002)، صص. 123 –124.

تمكن هذه الهندسة النحوية، أولا، من ربط بساطة التصميم النحوي بالكفاية التجريبية. فإذا كانت هندسة التوازي تمكن، مثلا، من رصد أفضل للمحيط النغمي أو لعلاقة البؤرة بالنبر، فإن ذلك يحسب لصالحها. كما تمكن من ربط علاقة التركيب بالدلالة بميزان القوى بين مكونات النحو. والنتيجة ألا نجد أنفسنا دائما، كما هو الأمر في نظرية المركزية الركيبية، أمام السؤال: ماذا يجب أن نضيف إلى التركيب حتى نتمكن من رصد هذه الظاهرة أو تلك؟ بل يصبح السؤال: إلى أي مكون تنتمي الظاهرة؟ إلى التركيب أم الدلالة أم الوجاهات؟

وتمكن هندسة التوازي، ثانيا، من إعادة دمج نظرية القدرة اللغوية، أو اللسانيات بكيفية شاملة، في بيئة الذهن/الدماغ المعرفية إلى جانب العلوم المعرفية والعصبية الأخرى، كما كان هذا مطلب اللسانيات التوليدية منذ الستينيات ومثلنا له بما عبر عنه شومسكي (1965) في النص الذي أوردناه في الفقرة 1. ذلك أن النظر إلى نظرية البنية اللغوية في علاقتها بنظرية الذهن/الدماغ وإقامة ربط طبيعي بين النظريتين أضحى اليوم من معايير التقويم ومستلزماته التي تساعد على ترجيح نظرية على أخرى. وتسمح نظرية التوازي، كما سبق، وخلافا لنموذج المركزية التركيبية، بدمج فعلي للسانيات في العلوم العصبية المعرفية الأخرى، نظرا إلى التوافق القائم بين الهندسة اللغوية التي تفترضها هذه النظرية وهندسة الذهن/الدماغ العامة التي تتصف بها باقي الأنساق المعرفية والإدراكية، إذ تقوم هذه الأخيرة كذلك على أنساق تأليفية متوازية مستقلة تربط بينها مبادئ وجاهية تقيم تشاكلات جزئية. ونمثل لذلك بمثالين يهمان الكيفية التي ترتبط بها البنية اللغوية بباقي الذهن/الدماغ، هما العلاقة بين الصواتة والنسق السمعي لإدراك الكلام والنسق الحركي لإنتاجه، والعلاقة بين النسق البصري والدلالة.

أ. الصواتة ونسقا إدراك الكلام وإنتاجه

عند الربط بين تحليل التردد في الإشارة الكلامية والبنية الصواتية للقول، نجد أن بعض مظاهر الإشارة الكلامية لا تلعب أي دور في البنية الصواتية ويجب أن تحلل خارجها. وذلك كالطابع الفردي لصوت المتكلم، ونبرته الشخصية، ودرجة تدفق الكلام عنده، الخ. فمثل هذه المظاهر في الإشارة الكلامية تستعمل لأغراض معرفية أخرى، ولكن ليس لأغراض الكلام. ومن ثمة نرى أن الربط بين النسق السمعي والصواتي يتسم بنفس السمات العامة التي تتسم بها الوجاهات داخل اللغة، أي إقامة توافقات جزئية بين مظاهر بنيات ذهنية منفصلة.

وتصدق نفس الملاحظات في حالة إنتاج الكلام. فمظاهر البنية الصواتية لا توافق كلها مظاهر التحكم الحركي عند تشغيل القناة الصوتية. من ذلك أن حدود الكلمات لا توافق تماما الوقفات عند إنتاج الكلام. كما أن مظاهر التحكم الحركي لا تراقبها كلَّها البنية الصواتية، إذ يمكن للمتكلم أن يتكلم ويبين وغليونه في فمه، فلا يغير تأثر التحكم الحركي بذلك من البنية

الصواتية شيئا. زد على هذا أن نفس عضلات القناة الصوتية تستخدم للمضغ والاحتساء وما شابه ذلك. فيتضح أن نفس المبادئ الوجاهية تنطبق في مثل هذه الحالة أيضا.

ب. النسق البصري والدلالة

تقدم العلوم العصبية المتعلقة بالنسق البصري نفس الصورة الهندسية. فهناك عدد من المناطق الدماغية المستقلة، كل واحدة تختص بمظهر بصري معين، كالحجم والحركة واللون والعلاقات الفضائية، وتتفاعل في ما بينها عبر وجاهات محددة؛ ولا توجد منطقة يتشكل فيها دفعة واحدة التمثيل التام للحقل البصري.

وهذا يوافق هندسة التوازي في اللغة حيث تتوزع «الجملة» أو «المركب» بين عدد من البنيات تتواصل في ما بينها عن طريق مكونات وجاهية. ومقارنة بهذا، لا نجد ما يشبه هندسة المركزية التركيبية في بقية الذهن. فليس «للنسق الحاسوبي» (في برنامج الحد الأدنى القائم على المركزية التركيبية)(1) الذي يولد البنيات التركيبية ويحدد البنيات الصواتية والدلالية، أيُّ نسق يوازيه في الذهن/الدماغ.

وحتى يمكن لنسق دلالي معين أن يتأثر بالإدراك، يجب أن يكون هناك وجاه يربط بين البنية التصورية/الدلالية والأنساق الإدراكية، حيث «العالم» (أي البناء التصوري الذي يملكه المدرك عن العالم الفيزيائي) منظم في صورة أشياء ثلاثية الأبعاد تملأ الفضاء.

ويملك هذا الوجاه البصري- التصوري الذي يمكننا من أن نتحدث عما نراه، نفس الخصائص المشار إليها سابقا، أي أنه تشاكل جزئي بين بنيات شبه جبرية (algebraic) ترمز المعاني اللغوية، وبنيات شبه هندسية/موضعية (topological) ترمز المعرفة الفضائية،(1) فلا يرى، مثلا، خصائص البنية الدلالية كأحياز الأسوار والقوة الإنجازية وخصائص التأليف الدالّي، بخلاف خصائص الأشياء وحركتها وتفاعلها الفضائي. ومثال ذلك أن كثيرا من المعلومات المتعلقة بخصائص الأشياء أو الأحداث التي تدرجها الأدبيات الدلالية في التمثيل الدلالي عن طريق السمات التعريفية، تنتمي في الواقع إلى هذا الوجاه. إن تخصيص مدخلي كلمتين مثل: بطة وإوزة يتضمن سمات مثل: [حي]، [طائر]. لكن فهمهما يقتضي كذلك معلومات عن الفروق بين مظهريهما. فيبدو رصد هذه المعلومات عن طريق سمات دلالية لغوية مثل: [± عنق طويل] مشكلا بل عبثيا. وكذلك الأمر في سمة مثل [± ذو متكأ] للفرق بين مظهر الكرسي ومظهر المقعد المستدير. فسمات كهذه بعيدة عن أن تكون أوليات، كما أن إخضاعها لمزيد من التفكيك يبدو غير مضمون الجدوى.

---

(1) انظر مثلا شومسكي (1995) و (2005) وانظر دراسة مفصلة لبعض جوانب تراكيب اللغة العربية في إطار برنامج الحد الأدنى في الرحالي (2003).

ويسمح إطار هندسة التوازي برد المشكل الذي يعترض التعامل مع مثل هذه السمات إلى ارتباط الخصائص المظهرية للأشياء بمعلومات بصرية أساسا، أي بنسق إدراكي غير لغوي يوفر صورة للتمثيل البصري ترمز الخصائص الهندسية والموضعية للأشياء ويمكن الذات من تعيينها ومقوَلتها. فتكون المسألة مرتبطة، كما سبق، بالوجاه البصري-الدلالي اللغوي الذي يسمح بترجمة المعلومات البصرية إلى صور لغوية ويمكننا من الكلام عما نراه(1).

(1) انظر جاكندوف (1992)، صص. 43-45، وغاليم (2007 أ)، صص. 120-121.

المراجع

– تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2003 : نحو إقامة مجتمع المعرفة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، المكتب الإقليمي للدول العربية، نيويورك (2003) .

– دليل الدراسات 2004–2005، جامعة ابن طفيل بالقنيطرة،المغرب، منشورات الجامعة (2005) .

– العروي، عبدالله (2005)، خواطر الصباح، حجرة في العنق، يوميات (1982–1999)، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء.

– غاليم، محمد (1999)، « ملاحظات عن تصنيف العلوم في الجامعة المغربية »، ضمن كتاب : الجامعة والشراكة أي دور للعلوم الإنسانية والاجتماعية؟ منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة الندوات، رقم 8.

– غاليم، محمد (2005)، « لغة المعرفة ومعرفة اللغة »، بحث قدم في ندوة: اللغة العربية: استراتيجية التواصل والتنمية ونقل العلوم والثقافة »، كلية اللغة العربية بمراكش، قيد الطبع.

– غاليم، محمد (2006)، «عن مضمون المادة اللغوية العربية في التعليم العالي »، ضمن كتاب : قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، الحلقة الثانية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

– غاليم، محمد (2007أ)، النظرية اللسانية والدلالة العربية المقارنة، مبادئ وتحاليل جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

– غاليم، محمد (2007ب)، «عن البحث اللساني العربي الحديث في المغرب »، بحث قدم في ندوة: اللغة العربية والنظريات اللسانية، الحصيلة والآفاق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس–فاس، قيد الطبع.

–الرحالي، محمد، (2003)، تركيب اللغة العربية، مقاربة جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.

* Bierwisch, M. (1967), Some Semantic Universals of German Adjectivals. Foundations of Language 3
* Bierwisch, M. (1969),On Certain Problems of Semantic Representation, Foundations of Language 5
* Chomsky, N. (1965), Aspect of the Theory of Syntax, Cambridge, Mass.: MIT Press
* Chomsky, N. (1995), the Minimalist Program, Cambridge, Mass.: MIT Press
* Chomsky, N. (2005), Three Factors in Language Design, Linguistic Inquiry, V.36, N.1
* Culicover, P.W. and Jackendoff, R. (2005), Simpler Syntax, Oxford University Press
* Fauconnier, G. (1984), Espaces mentaux, Minuit
* Goldsmith, John. (1979), Autosegmental Phonology, New York: Garland Press
* Hauser, M., Chomsky, N. and Fitch, T. (2002), The Faculty of Language: What is it, who has it, and how did it evolve? Science 298
* Jackendoff, R. (1983), Semantics and Cognition, MIT Press
* Jackendoff, R. (1990), Semantics Structures, MIT Press
* Jackendoff, R. (1992), Languages of the Mind, MIT Press
* Jackendoff, R. (2002), Foundations of Language, Brain, Meaning, Grammar, Evalution, Oxford University Press
* Jackendoff, R. (2003), «The structure of Language: Why it Matters To Education», people. brandeis.edu/ jackendo/StrucureofLanguage 1
* Jackendoff, R. (2007 a), A whole Lot of Challenges for Linguistics, Journal of English Linguistics, V.35, N°.3
* Jackendoff, R. (2007 b), Language, Consciousness, Culture, Essays on Mental Structure, MIT Press
* Jackendoff, R. Forthcoming. The role of Linguistics in cognitive science: The state art, The Linguistic Review
* Katz, J. and Fodor, J.A. (1963), The Structure of a Semantic Theory, Language, 39
* Katz, J. and Postal .P. (1964), Théorie globale des descriptions linguistiques, traduction française de Pollock, J.Y., Mame 1973
* Lakoff, George (1987), Women, Fire and Dangerous Things, University of Chicago Press
* Langacker, R. (1987), Foundations of Cognitive Grammar, vol. i, Stanford University Press
* Liberman, M. and Prince, A. (1977), On Stressand Linguistic Rhythm, Linguistic Inquiry 8
* Nunberg, Geoffrey, (1979), The Non-Uniqueness of Semantic Solutions: Polysemy, Linguistics and Philosophy 3
* Partee, B. (ed.), (1976), Montague Grammar, New York: Academic Press
* Pinker, S. (1989), Learnability and Cognition: The Acquisition of Argument Structure, MIT Press
* Pinker, S. and Jackendoff, R. (2005), The faculty of language: What's special about it? Cognition 95
* Pustejovsky, J. (1995), The Generative Lexicon, MIT Press
* Talmy, L. (2000), Toward a Cognitive Semantics, MIT Press
* Weinreich, U. (1966), Exploration in Semantic Theory, in: Steinberg, D. and Jakobovits, L. (eds.), Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, Linguistics an Psychology, Cambridge University Press

تناوبات التشكَل واللاتشكَل في اللغة العربية

د. سالم المعوش (لبنان)

التشكل اللغوي والمجتمع:

لا تزال ظاهرة التشكل اللغوي إشكالية رئيسة في تاريخ اللغات: نشوئها وتكوّنها وانطلاقها وتفرّعها وتطوّرها، وهي ظاهرة تعاني منها اللغات الإنسانية قاطبة، خصوصاً في العودة إلى الجذور، ومن ثمّ التشكّل وما يضاف إليها من مفردات وصيغ ومصطلحات وتعابير، قد تعدّ دخيلة، وتستعصي على الأصالة إذا ما حاولت الاندماج كلياً في خصوصيات شعب من الشعوب.

ولقد اكتسبت اللغة إنسانيتها بالتصاقها الوثيق بالإنسان، بحيث لا يمكن الحديث عنها خارج النطاق البشري، وإذا تمّ الحديث فلا يعدو أن يكون مجازاً مضللاً[1]. وهي خاصية جنسية، أي من مميزات الجنس الذي يتداول بها، وهو الإنسان الذي صارت له لغات بشرية بأنظمة محكمة تستدلّ إلى وجودها من الظواهر الاجتماعية المعتمدة على أنماط معينة، لا تتخذ شكل الوجود الفيزيائي وحسب، وإنما تتم انعكاساً للأفعال والسلوكات والمناسبات في خلق لغوي ملائم، يستمد قوّته من الفعل والممارسة، لتتلقاه الملكات الإنسانية، فتنظّمه وتعطي له حياة قوامها الفكر والإدراك والإحساس والعقل والنفس والانتباه وقدرة التخيّل والتصوّر، وإمكانية النطق المتدرّج الذي يصل إلى حدّ الكمال في إيجاد الروابط بين الظواهر والأشياء الخارجية والمكوّنات النفسية التي تعجنه في مختبرها لتخرجه تراكماً لغوياً يدخل إلى التراث والخصوصية والمحلّية والشخصية والوجود الإنساني عموماً، حتى يصير له بنية لغوية قادرة على التعبير، تُشكّل عبر الزمن، لتكون جزءاً من الذات والواقع وتكتسب صفة الانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.

هذا التشكّل الذي يدخل إلى الصراع بين الموجودات، يشتق نمطاً لغوياً لحياة الجماعة، ويقوم على الاعتباطية في تواجده الذي يصمد عبر الزمن، وعلى التمايز الذي يقيم الاختلاف أو الائتلاف بين تشكيل الكلمة ومعناها، وعلى الإزداوجية التي تجعل الكلام قواعد من جهة ووظائف صوتية ودلالية من جهة ثانية، وعلى الإبداعية التي تعكس القدرة على تكوين وفهم عدد غير محدود من التراكيب الجديدة[2].

وغالباً ما يرتبط هذا التشكّل اللغويّ بالمجتمع والسلوك الإنساني، تلك هي نظرية علماء اللغة الاجتماعيين الذين يؤكدون على اجتماعيتها، ويرون أن الكلام نشاط اجتماعي لا فردي، وينظرون إلى هذه العلاقة ببساطة عندما يعرّفون علم اللغة الاجتماعي بأنّه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع[3]، ويذهبون إلى أن علم اللغة قادر على إيضاح طبيعة اللغة، بصفة عامة، وإيضاح خصائص محدّدة للغة بعينها، وهي التي تمكنهم من فهم المجتمع، ويؤكدون على أنّ الكلام سلوك اجتماعي، وله وظيفة اجتماعية اتصالية وتمييزيّة بين المجموعات الاجتماعية المختلفة التي بوساطتها يفسّر الكلام وبناه وصيغه ومعانيه[4]، وقد أدّى ذلك العلم إلى اكتشاف حقيقة التشكّل الاجتماعي ونسيجه العام، حيث بدا واقعياً وخيالياً في آن واحد، لكنهما مألوفان لدى الجماعة يفرضان نوعاً من الالتزام للفرد والمجموع، ويحدّدان طرق النموّ للمجالات المختلفة، ابتداء بالإنسان منذ طفولته، بحيث تظهر الجماعات الكلامية للغة الواحدة، وحيث يمكن أن تتفرّع هذه اللغة إلى لغات أو لهجات، تتأثر بالمكان والزمان والبيئة والمناخ والعادات والتقاليد وكل جديد، ويمكن أن تبتعد من المركز، المكان الأم، وتؤسس دوائر خاصة بها وتكتسب من الجديد ما يجعلها قادرة عبر الزمن على التميّز من سواها.

وأمّا أن تتشكّل لغة ما في مكان ما، فهذا يعني تواجدها وتراكمها وتركيبها وتبادلها والتفاهم بها والتنسيق والانسجام فيها والاتفاق حولها والعمل الجمعي الذي تصنعه الأمّة في تاريخها الطويل، هو من نتاجها، وهو ما يرافقها وتنسجم معه، وهو جميع عملها وخصوصيتها في المجالات المختلفة، ومرجعها وجامعة عاداتها وتقاليدها وكلامها وقيمها ونظمها وحضارتها وأديانها وفولكلورها، وبكلمة تراثها، هو الهويّة والأكثر بروزاً فيها اللغة.

لذلك اهتم علم اللغة الاجتماعي بشجرة اللغة الأسرية وأوضح مركز بثّها وانطلاقها وتاريخيتها وتباين أنواعها وعلاقتها التدرّجية القائمة بين سلّم تطورها والكشف عن فصائلها وأنواعها وتراتبية لهجاتها، وإمكانية تقاطعها وتبادلها وانتقالها بين مسارب تحدّرها ومواقع انتشارها والمآل الذي آلت إليه وازدواج التخاطب بها وخلط أنواع لهجاتها أو تفرّعاتها.

إشكالية البحث:

نقول هذا الكلام ونحن نتمثّل في ذهننا ماضي اللغة العربية وتطورها وحاضرها وعلاقتها باللغات الإنسانية الأخرى، وهو الموضوع الذي يغري دائماً بالعودة إلى البحث فيه: ضمن نطاق اللغات السامية أولاً وفي نطاق تكوّن اللغات الإنسانية ثانياً، ذلك أنّ زمن تشكّل اللغة العربية لقي الكثير من الدراسة وكثيراً من الاختلاف وقليلاً من الائتلاف في الآراء والمواقف، وهو ليس مجال بحثنا الآن.

إنّ ما يتطلع إليه هذا البحث هو التعرّف إلى ظاهرتي التشكّل واللاتشكّل التي واكبت اللغة العربية منذ زمن طويل إلى زمننا الراهن.. حيث تناوب هذان الأمران على اللغة العربية وأصبحا ظاهرتين تتطلبان حلاً.

توضيح مفاهيم الإشكالية:

أ- زمنية المصطلحين:

ولعلّ القارئ يتساءل: ماذا نعني بمصطلحيّ التشكّل واللاتشكّل، أما التشكّل فقد أوضحناه آنفاً، في حديثنا حول اجتماعية اللغة وكيفية تشكّلها من الجماعة، ونضيف باختصار: هو زمن ظهور اللغة العربية والتعاطي بها من أهلها وتراكمها واستعمالها حتى أصبحت لغة القوم، لغة العرب أجمعين، في زمن وجودهم الأوّل الذي يرجّح الباحثون أنّه كان في شبه الجزيرة العربية قبل آلاف السنين.

بينما اللاتشكل، هو ضدّ التشكّل، أو العبث به، أو الإضافات إليه، أو نشوء ظواهر جديدة في نطاقه أحدثت فيه إشكاليات عديدة، وهي تمضي في عدّة اتجاهات أكثرها بروزاً إثنان: مضي اللغة العربية في التفرّع إلى أن بَعُدت المسافة بين الأصل والفرع أولاً، واستقبال هذه اللغة الكثير من الإضافات والمصطلحات والاسقاطات التي تعايشت معها ولم تندمج فيها لكنها بقيت في نطاق استعمال العرب لها..

ب- استعارة مفاهيم المصطلحين:

وربما يفضي الكشف عن مصادر استخدام هذين المصطلحين إلى مزيد من الوضوح للفكرة التي نتتبعها، وهما مستعاران من علم الاقتصاد، وقد استعمل ب. هوغون P.Hugon و ج. بورسه G.Pourcet عبارة «القطاع اللامتشكل» في بحثهما حول تنظيم النقابات غير الميكانيكية (المركبات والعربات التي يجرّها أشخاص). هؤلاء الأشخاص يستأجرون عرباتهم من مالكين، وعائداتهم تزيد خمس مرات عن متوسط الحدّ الأدنى للأجور، ومعظمهم من الريف، كانوا من غير عمل، يقصدون المدن للبحث عنه، وينشطون في زمن الأزمات الاقتصادية في المدن. وهم غير منظمين في نقابات، ولا ينتمون إلى أي مؤسسة للدولة، أحرار في انتقاء عملهم وممارسته متفلتون من القيود. نجدهم، ليس فقط في قطاع النقل، بل في قطاعات أخرى مختلفة، لا يكونون في داخلها، بل هم هامشيّون، ينمون تلقائياً خارج اقتصاد الدولة وتخطيطها. وبهذا يصبح «القطاع اللامتشكل» هو مجموعة النشاطات التي يقوم بها أفراد يرون من واجبهم تأمين بقاء أفراد عائلتهم على قيد الحياة (العمل في المنازل مثلاً)، يتطوّرون تلقائياً تبعاً لوظيفتهم،

إنّما دون عقلية التراكم التي تميّز الرأسمالية الحديثة ». ومعايير الإنتساب إلى هذا القطاع مختلفة ومتغيّرة ومن غير ضوابط أو قواعد[5]، وهو بديل للقوانين والأنظمة المعيقة لنموّ الاقتصاد، يعتمد على المبادرة الفردية ويسدّ العجز الحاصل في المؤسسات، ويعتمد طريق الاحتيال على التشريعات المالية والاجتماعية للحفاظ على المردود المطلوب مالياً[6].

أسبقية التشكل اللغوي العربي القديم:

في ضوء هذا التوضيح للمصطلح، تبدو الاستعارة دليلاً إلى البحث عن الإشكالية المطلوبة المتركّزة في وضع اللغة العربية عموماً..

قد يتوافر للباحث الكثير من المصادر والمراجع التي بحثت في الوضع التاريخي للغة العربية، وهي تحاول أن تجيب عن السؤال العام: هل صحيح أنّ اللغة العربية هي أمّ اللغات في العالم؟ منها انطلقت عبر الهجرات المتتالية من شبه الجزيرة العربية وتموضعت في المناطق المحيطة بها وشكّلت المنطلق الأساس لحضارات عريقة مثل بلاد ما بين النهرين والحضارة الفرعونية والفينيقية، ثم انتقلت لتستوطن اليونان والعالم بأسره. هذا الرأي تبنّاه الكثيرون، وهو الذي يؤمن به المسلمون انطلاقاً من أنّ لغة آدام (لغة الجنّة) هي عربية، وهو ما يحاول الباحث السوري الدكتور أحمد داود أن يثبته في كتابه « تاريخ سوريا الحضاري القديم »[7].

والسؤال الآخر: هل اللغة العربية هي أم اللغات السامية؟ وما موطن تشكّلها؟ وهي مسائل شائكة لن ندخل إلى تفصيلاتها، لكنّنا سوف نؤكد على قضية التشكّل التي شهدتها العصور الأولى من تكوّن العرب. على ذلك فإن الباحث يجد نفسه معنياً بالبحث في الداخل أولاً والخارج ثانياً.

ولعلّ حديث النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من تراب » يشير إلى جوهر الإشكالية التي تؤكد على الإنسان الرمز الذي هو آدم أو إلى كل من ينتمي إلى جنسه من المخلوقات العديدة المتواجدة في الكون.

أين وجد أول آدم – إنسان؟ جاء في تاريخ الطبري أنّ أول آدم وجد كان على جبل كور، وقد ضلّ وأخرج من عالم الخلود إلى عالم الموت والفناء[8]. ودعي جبل « بد »، ولما كانت العربية القديمة « تكتب بدون أحرف صوتية، فقد كان الإسم يلفظ « بودي »[9].

ولفظة « الكور » هي عربية، وفي القاموس العربي السرياني تعني: نار السموم تسموم، ريح حادة، النار والدخان. وجبل الكور هو الجبل البركاني الذي ظهر من المحيط البدئي الذي شهد نشوء الحياة لأول مرّة على ظهر الأرض، وقد ألصقت به تسميات كثيرة، لكنها حملت معنى واحداً هو « الجبل البركاني » الأول[10]. وهو الموطن الأول للإنسان ومنه بدأت حركة التشكّل

التكويني ولاسيما اللغوي. وهو ما يقرّره د. أحمد داود في بحثه الطويل حول ظاهرة النشوء الأول للإنسان في شبه الجزيرة العربية وحول اللغة الأولى في العالم، فهو يقرّر، بعد سلسلة طويلة من الإثباتات الجغرافية والطبيعية والآثار والنقوش والمناخ وتعاقب الأدوار الجيولوجية والعصور الجليدية، على أن «الكتابة الأولى كشفت لنا هوّية اللغة التي ظلت يتناقلها الناس شفوياً عبر عدة آلاف من السنين، وأنّ الدراسة العلمية الموضوعية تبيّن أن اللغة العربية هي لغة الإنسان الأول في تجمعاته الأولى، لكن ذلك لا يمكن إيضاحه والكشف عنه إلاّ في ضوء علم اللغات الذي يتيح لنا مجال التعرّف إلى حقيقة بنية اللغة ومفرداتها وتاريخها والإبدالات اللفظية التي طرأت على بعض أصواتها عبر مراحل تاريخية متعاقبة ومن مكان إلى آخر، الأمر الذي يكشف لنا الطريق أو الطرق التي سلكتها هذه اللغة خلال عملية انتشارها من المركز إلى شتى الجهات الأخرى...»[11].

وهو يستعين على ذلك بمجموعة كبيرة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي أثبتت بالأدلة صحة النظرية التي يذهب إليها.

والجدير بالذكر أنّ هذه اللغة بدأت محكيّة قبل أن تكون مكتوبة، والأمر الملفت أنّ العرب، وبحسب الأصوات الطبيعية، هم أول من وضع أبجدية في التاريخ وهي: أبجد، هوّز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، أي إثنان وعشرون حرفاً واثنتان وعشرون علامة، وذلك في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، وهو تاريخ يرقى إلى ما قبل وجود «سام بن نوح»، بعدّة مئات من السنين، وهي لغة صوّرتها الكتابة وكانت محكيّة بلهجاتها المختلفة.

ثم يأتي التطور بعد ذلك ليقوم بدوره في عملية التغيير والانتقال إلى أشكال حياتية جديدة في المكان والزمان وممارسة الحياة. ويكاد المؤرخون يجمعون على أنّ هجرات كثيرة خرجت من شبه الجزيرة واستوطنت في محيطها أو بعيداً منها في كل من الشرق والغرب، تحت تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والحربية والمناخية[12]، فكان أن نشأ ما يسمّى بشعوب بلاد ما بين النهرين ووادي النيل والفينيقيين والكنعانيين... إلخ[13].

أما العرب الذين آثروا البقاء في بلادهم بعدما أصابها من كوارث وجفاف، كما يقول د. حسن ظاظا، «فقد احتفظوا بلغتهم الأولى. وهذا ما يفسّر لنا قدسية اللغة العربية بين عرب الجاهلية، كما يفسّر لنا إجماع علماء النحو المقارن للغات السامية من أمثال «بروكلمان» و«وليم رايت» وإدوارد دوروم و «دافيد يملين»، على أنّ اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حيّة من اللغات السامية الأم»[14].

وإذا بحثنا عن هذه اللغة السامية الأم لنصل إلى تعيينها، كما يقول الدكتور علي العناني، فلا بدّ لنا من البحث عنها في مجموعة اللغات السامية المأثورة لنا، والمعروفة بوثائقها التاريخية

ونقوشها القديمة، حتى إذا وصلنا إلى دليل قاطع على أقدمية إحداها، كانت هذه اللغة التي يثبت بذلك الدليل قدمها وتقدمها في العهد على بقية اللغات السامية القديمة الأخرى، هي اللغة السامية الأولى، وكانت هي الأم التي تفرّعت منها اللهجات السامية كلّها: قديمها وحديثها»[15].. وهو ما يؤكده الدكتور أحمد داود في دراسته الآنفة الذكر، حول خصائص هذه اللغة العربية القديمة ومن ثم تطورها وخروجها من شبه الجزيرة وطوافها في العالم، وهي دراسة متأنية تفصيلية تلمّ شتات الموضوع وتبرز هذا التشكّل الواضح للغة العربية: أولاً في موطنها الأصلي، وثانياً في مواطن هجراتها العديدة.

في المركز إذاً، موطن الإنسان الأول في شبه الجزيرة، تتم أول عملية تشكّل للغة الأم، العربية. وفي هذا الموطن يتناسل الناس ويتكلمون لغة واحدة، هي اللغة العربية القديمة التي تشكّلت عبر الزمن، وصار هناك أبجدية حرفية، كما توسّع القوم في جغرافيتهم وصار لهم أجداد وآباء، تباعدوا قليلاً في السكن، وصارت لهم لهجات واستعمالات لغوية خاصة. وكان لهم أن يجروا التعديلات في تركيب الكلام واستحداثه، واستعمال الإبدال والقلب والحذف... ولم يمض زمن حتى انبثق السريان والآراميون والعبريون والفينيقيون والأكاديون الذين أنسلوا السومرية والبابلية والآشورية والكلدانية... إلخ.

اللاتشكل الأول للغة العربية القديمة:

ومن المركز الأول تنتقل اللغة العربية القديمة إلى طور اللاتشكّل الأول، وهو الذي واكب الهجرات العربية إلى كل ناحية من نواحي الأرض.. «لا تشكّل» يحمل في رحمه الخصائص الأولى للتشكّل الأول.. يمضي إلى مواطن جديدة تتأثر ببيئاتها وتكوّن لهجاتها بتمايز متأثر بالحياة الطارئة بكل ما فيها.. «لا تشكّل» للعربية القديمة يفضي إلى لهجات سرعان ما تحوّلت إلى لغات شبه مستقلّة، تحتفظ بالأشكال والأصوات الأولى.. ويبدأ التمايز بالدلالات والاشتقاقات والاستحداث والنموّ الجديد للغة ضمن ظروفها الجديدة، وبالتالي تطوير الصوت.

وهو ما أشار إليه ابن حزم الأندلسي حينما حدّد الصلة بين العربية والعبرية والسريانية حيث يقول: «ومن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أنّ اختلافها، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم، وأنّها لغة واحدة في الأصل»[16]. وقد خيّل للبعض أنه أصبح من الصعب الكشف عن حقيقة هذه اللغة الجديدة وعلاقتها بالموطن الأصلي مع مرور الزمن، الأمر الذي دفع المستشرق كارل بروكلمان إلى القول: «كما أنّه من غير المؤكد حتى الآن ما إذا كانت الشعوب السامية المعروفة لنا هي كل الشعوب التي يمكن أن يطلق عليها هذا الإسم، أم أنّه لا تزال هناك شعوب أخرى مجهولة»[17]، وإن كان المستشرق

أولسهوزن Olshausen يجعل اللغة العربية هي أقدم اللغات السامية[18]، فإنّه يبقيها ضمن هذه السامية ولا يجعلها قبل سام بن نوح الذي تشكّلت العربية قبله بقرون طويلة[19].. وهو ما أكده الدكتور علي العناتي أيضاً بقوله: إن «الساميين جميعاً من الأصل العربي، ولغاتهم بناء على ذلك ترجع إلى لغة عربية قديمة هي اللغة الأم»[20]. وهو ما يعمد علماء العرب القدماء إلى تأكيده انطلاقاً من الموروث الإسلامي، فيذهب السيوطي إلى ذلك قائلاً: «كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً، إلى أن بَعُدَ العهد وطال، فحرّف وصار سريانياً، وهو يشاكل اللسان العربي إلاّ أنه محرّف»[21]، وفي سفر التكوين أيضاً يرد هذا الرأي لكنّه لا يحدّد العربية: «وكانت الأرض كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة»[22].

من التشكّل إلى اللاتشكّل إذاً.. ومن اللاتشكّل إلى تشكّل آخر:

مضت اللغة العربية في انتشارها.. وشيئاً فشيئاً تشكّلت من هذا الانتشار مجموعات بشرية في مختلف أصقاع الأرض وصولاً إلى الغرب، يصوّر المؤرّخ الألماني جيمس هنري بريستد هذا الوصول بقوله: «ولم تكن الملابس وفنّ الزخرفة والتزويق والأساليب الصناعية العملية الأشياء الوحيدة التي جاء بها الفينيقيون إلى بلاد اليونان، بل كان هناك شيء أثمن من كل مصنوعات الشرق أخذه اليونان عن الفينيقيين وهو حروف الهجاء، وهي أهمّ ما وصل إلى أوروبا من خارجها، وكان الفينيقيون قد هجروا منذ زمن بعيد استعمال آجرّ بابل في الكتابة لأنهم كانوا (في الألف الثاني قبل الميلاد) قد استوردوا كميات كبيرة من ورق البردى المصري، واخترعوا أسلوباً للكتابة خاصّاً بهم، استعملوا فيه اثنين وعشرين حرفاً، ولم يكن في هذا الأسلوب علامات للمقاطع، بل كانت كل علامة تمثّل حرفاً واحداً صامتاً. فكان الفينيقيون أول شعب ابتكر أسلوباً للكتابة ليس فيه إلا العلامات الهجائية أي حروفاً حقيقية، ورتبوا حروفهم على أسلوب موافق، بحيث تألّف من الإثنين والعشرين حرفاً مجموعة حروف خالدة، سهلة التعلّم، ولو لم يسمّ كلّ حرف منها باسمه لما كان حفظها ممكناً، وكما حمل الآراميون (وهم السريان) الحروف الآرامية شرقاً إلى آسيا حتى الهند كذلك حملها الفينيقيون عبر البحر المتوسط إلى أوروبا، ولم يبدأ الأوروبيون بتعلم الكتابة إلا بعد 700 عام قبل الميلاد»[23].

ومن الفينيقين أخذ اليونان نظام تدرج الحروف الهجائية: ألف، بيتا (ألفا – بيتا) التي منها جاءت لفظة Alphabet الأوروبية، ولا زلنا نستعمل في الترقيم الألفاظ (ألفا، بيتا: α– β: Beta, Alfa)، ولا يزال اليونانيون يطلقون عليها لفظة بيبلوس على إسم المدينة التي جاء منها الفينيقيون وسمّوا ما كتبوه عليها بيبليا Biblea ومنها أخذت أوروبا لفظة بابيل Bibli: الكتاب، كما أخذت لفظة بابيرو (اسم الورق الذي يكتبون عليه في مصر)[24].. وهي التي

عرفت في العربية القديمة بـ (ففرو) : القرطاس، ولما كان العرب الأقدمون يلفظون الفاء مثل p، فأصبحت بذلك ففرو : ببرو Papero ومنها جاءت الكلمة paper (ورق) بالإنكليزية و Papier (ورق) بالفرنسية[25] .

ومعلوم أنّه قد تشكّلت في اللغة العربية القديمة ثلاث لهجات رئيسة هي : السريانية في الشرق، والأمورية (وهي الفينيقية) في الغرب، والعرباء (أي العربية الخالصة) في شبه الجزيرة العربية، وهي التي أضافت إلى الإثنين والعشرين حرفاً أو صوتاً ستة أخرى هي : التاء والخاء والذال والضاض والظاء والغاء . . فأصبحت الحروف ثمانية وعشرين، وأضيفت على النظام الألف باتي، بعد قرشت لفظتين : « ثخذ »، « ضظغ » .

وهكذا أصبح معلوماً لدى المؤرّخين أن اللغة العربية القديمة بلهجتها الشرقية (السريانية)، هي التي يطلق عليها الباحثون اليوم اسم الأكادية، ويطلق عليها التوراتيون اسم الآرامية . والأكادية هي السريانية التي تشمل السومرية والأكادية والبابلية والآشورية وما دعي بالكلدانية »[26] .

يتبيّن مما تقدّم أنّ تشكّل اللغة العربية القديمة قد أفضى إلى إيجاد اللغة العربية في شكلها الأول . . ومنه تفرّعت لغات انتشرت حول شبه الجزيرة العربية في المنطقة التي تسمّى اليوم العالم العربي، في هذا الانتشار تموضعت هذه اللغات، وهي أول ظاهرة « لا تشكلية » أفرزتها العربية القديمة . . اتجهت فيما بعد نحو التشكّل .

اللاتشكل داخل الجزيرة وفيما حولها :

« لا تشكّلها » هذا الذي كان على صورة إفراز اشتقاقي وجد سبيله إلى « التشكّل » من جديد في المواطن التي هاجرت إليها وسكنت فيها، وأصبحت بدورها ظاهرة تشكّلية عاشت حياتها ونموّها وتطوّرها حتى أصبحت لها هيئتها التي ظنّ البعض أنّها مستقلّة عن اللغة الأم : العربية القديمة، لكنّها في الحقيقة أعيد تشكّلها على أساسها عبر الزمن . وتجد الكثير من الأشياء المشتركة بين هذه اللغات الجديدة وأصولها . . ومن هذا المشترك اللفظي أسماء الإنسان وأحواله مثل (أناس، ذكر، أنثى، أب، أم، ابن، بنت، بكر، أخ، بعل، أمّة، ضرّة)، وأسماء الحيوان مثل (نمر، ذئب، كلب، خنزير، إبل، ثور، حمار، نسر، عقرب، ذباب . .)، وأسماء النباتات مثل (عنب، ثوم، قثاء، كمون، زرع، سنبلة . . .)، وأعضاء البدن مثل (رأس، عين، أذن، أنف، فم، لسان، سن، شعر، يد، حفنة، ظفر، ركبة، كتف، ذنب، قرن، عظم، لب، كرش، كبد، كلية، نفس، دم، مثانة . . .)، والأسماء والأوصاف مثل (سمع، طعم، شيب، يمين، قبر)، وأجزاء الطبيعة مثل : (سماء، كوكب، شمس، أرض، حقل، ماء، منبع، بئر، أثر . . .)، ومن الأفعال والحوادث مثل : (ظل، يوم، ليلة، برق، لهب . . .) وأسماء البيت : (بيت، عمود، عرش،

قوس، حبل، إناء. . .)، والمأكولات والمشروبات مثل: (قمح، دبس، حمة، سكر. . .) والأسماء والأفعال مثل: (علا، قدم، قرب، صرخ، أخذ، ذكر، سأل، بشر، رحم، لبس، رعى، سقى، ركب، رأى، بارك، ذبح، فتح، اسم، كل، أسماء العدد. . .)[27]، يضاف إلى ذلك ضمائر الرفع المنفصلة وأسماء الإشارة. .

اللاتشكل داخل العربية القديمة:

حتى أن هذه اللغة العربية القديمة، داخل شبه الجزيرة العربية، لم تسلم من تلك الظاهرة، عنيت الإنتقال من التشكل الأولي إلى «لا تشكل» آخر ومن ثم إلى تشكّل شبه مستقلّ له هيئته الخاصة التي منحته حياة كان لها نحو خاص بها، وقد تمثّل ذلك في اللهجات الكثيرة التي استوطنت داخل شبه الجزيرة، وسمّيت أيضاً لغات، حيث يجد دارس تلك اللهجات كيف أنّها إحتفظت بألفاظ وتراكيب وطرق نطق عمّا عداها، كل لهجة اختلفت عن الأخرى حتى في قواعد نحوها وصرفها، إلى أن جاء الإسلام فوحد هذه القبائل وكانت لهجة قريش التي أنزل الله بها القرآن الكريم هي أشدّ هذه اللهجات بروزاً من بين اللهجات التي أُنسِلت من اللغة الأم: القحطانية والحميرية والمعينية والسبئية، ثم اللهجات العدنانية وما تفرّع منها من لهجة مضر القرشية المعروفة الآن بالفصحى وبلغة القرآن[28]، فأعيد تشكّل اللغة العربية من جديد على أساسها، وخرجت من ذلك اللاتشكل، الواهن إلى التوحد في اللغة التي لازالت حيّة ونابضة وزاخرة بأسرار القوّة والقدرة على التعبير والوجود. .

مقدمات اللاتشكل خارج بلاد العرب:

هذا في داخل شبه الجزيرة العربية وفي العالم العربي، أمّا في خارج نطاقه فقد كتب لهذه العربية القديمة أن تمخر عباب البحار والمحيطات وتجوب اليابسة وتحلّق في الفضاءات الكونية كلّها. .

قد لا نستطيع في هذه العجالة تبيان هذا الانتقال مفصّلاً إلى أرجاء الكون، لكنّ الإشارة تقتضي بأن توضع الحقائق في أماكنها حتى ولو كانت سريعة. . وفي التقدير أن اللغة العربية كانت بالنسبة لشعوب كثيرة في حوض البحر المتوسط وفي أوروبا بمثابة المعلّم الأوّل في مضمار تشكّل اللغات التي تلقفت مع الأصوات العربية الكثير من المفردات والتراكيب والأجواء لا يزال قسم كبير منها موجوداً حتى الآن. . وهذا يعني أن «لا تشكّلاً» جديداً بدأ للغة العربية في تلك البلاد القصيّة، ويصبح من الجائز القول: «أما العربية الفينيقية فهي لغة اليونان وإيطاليا القديمة، إذ إن العرب الأوائل هم أول من استوطنها وشاد فيها المدن ونقل إليها أسباب الحضارة. .

إن هذه اللغة العربية القديمة بلهجتيها السريانية والفينيقية هي التي كانوا يتكلمونها بالفطرة في مناطق انتشارهم كلها، سواء أكانوا أميين أم متعلمين، لاسيّما في بلاد اليونان. وهي التي دعيت «الكيني».. وكلمة كيني هي عربية قديمة، تعني في القاموس السرياني: الكيان.. وكانت «أتيكا» أي عتيقة من أولى البقاع التي نزلها الفينيقيون..»[29]. ويؤكد د. أحمد داود كلامه باستشهاد لأندرية إيمار الذي يقول: «إن اللغة الأتيكية لم تكن سوى أعظم انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد.. لا بدّ من القول: إن لغة التوراة السبعينية ولغة الأناجيل عملياً هما الـ «كيني» نفسها..»[30].

اللاتشكل اللغوي العربي خارج بلاد العرب:

إنّ الدخول إلى موضوع اللاتشكل اللغوي في أوروبا شائك وطويل، لكنّ الباحث فيه لا بدّ له من الوقوف على جملة من الملاحظات التي تؤكد على ذلك التواصل بين الشرق والغرب وبالتحديد بين اللغة العربية واللغات الأوروبية منذ زمن بعيد.. وذلك ليس لهدف عصبويّ بقدر ما هو علمي.. ولقد جهد الباحث السوري د. أحمد داود لإثبات ذلك من خلال الأدلّة والبراهين ومصادر الألفاظ وتتبعها في رحلتها الطويلة إلى أن استقرّت في إحدى اللغات الأوروبية أو جميعها، لاسيّما اليونانية التي شكّلت جسر العبور إلى ذلك العالم الذي لم يعد مجهولاً أمام الهجرات العربية المتتالية، خصوصاً الفينيقين.. وقد درسها الدكتور داود وحققها وأعادها إلى الأصول اللغوية العربية القديمة ومرورها على اللهجات المختلفة المتطوّرة عنها، لاسيّما السريانية والفينيقية والبابلية والآشورية والآرامية والكنعانية والفرعونية والمسمارية والسومرية..إلخ، وقد ساعده على ذلك إلمامه باللغات السامية ولغات بلاد ما بين النهر ووادي النيل والفينيقية والآرامية وغيرها من اللغات العربية القديمة، إضافة إلى معرفته باللغة اليونانية والإيطالية ولغات أوروبية أخرى كالإنكليزية والفرنسية. وكانت دراسته تتمحور حول عدّة عنوانات منها[31]:

- المركز واللغة العربية القديمة: حيث يثبت بالوثائق والأدلّة التشكّل الأول للغة العربية القديمة حتى فيما ما قبل الطوفان أي قبل سام بن نوح.
- اللغة العربية والأبجدية الحرفية: حيث يتتبّع عملية ظهور الأصوات الرئيسة للغة العربية، وهي اثنان وعشرون حرفاً، وقد زيد إليها فيما بعد ستة أصوات.
- اللغة العربية القديمة واللهجات: وهو بحث طويل عن تفرّع اللغة العربية القديمة إلى اللهجات– اللغات في طورين: إلى اللغات التي عرفت بالسامية الثلاث، وإلى العربية التي تفرّعت إلى لهجات في شبه الجزيرة العربية إلى ما قبل الإسلام.

- اللغة العربية القديمة والإبدالات: بما فيه الأصوات الستّة التي أضافتها العرباء على الإثنين والعشرين القديمة، وهي كما أسلفنا «ثخذ» و»ضظغ»، وبما فيها الإبدالات بين اللغات الثلاث: العربية والسريانية والعبرية، في صورة الحرف ولفظه وإبداله بحرف آخر، وهو يشمل:
  - o الإبدال بين السين والشين وبالعكس.
  - o الإبدال بين الهمزة والعين.
  - o الإبدال بين الهمزة والهاء بين القديمة والحديثة وبالعكس...
- التحوّلات الصوتية من اللغة العربية القديمة إلى اليونان وإيطاليا، فاللغات الأوروبية الحديثة، وإبدال حرف الفاء بالـ P.
- الأساطير العربية السورية في بلاد اليونان وعلماء اللغات.
- اللغة العربية القديمة والمصطلحات الحديثة.

أما العودة إلى التفاصيل فهي تعطي صورة واضحة عن وقائع التشكّلات واللاتشكلات المختلفة التي تعاقبت وتناوبت على اللغة العربية منذ ظهورها الأول وحتى الزمن الحديث.. وعلى ذلك كلّه نبدي الملاحظات التلخيصية التالية:

1- أقومية اللغة العربية:

إن اللغة العربية هي أقدم لغة تشكّلت في الزمن القديم، وكان مركزها الأول شبه الجزيرة العربية، وبالتحديد جبل السراة، المنطقة التي لا تزال آثارها بكراً حتى الآن.. وهناك جبل «الكور»، أو جبل النار (وهو اليوم مجمرة الحدّاد)، وقد وردت في القرآن الكريم في سورة «التكوير» التي ابتدأت بالآية: «إذا الشمس كوّرت»، ومنه خلق الله الجنّ (النار)، وهو جبل فيه بركان يقذف الحمم وهو مكوّن منها، وسمي جبل السماء والأرض، وصوّر على شاكلة ثقب هائل ما بين سطح الأرض وبين البحر الأول[32].. وأطلقوا عليه اسم «الهوة» أو «الهاوية» أو «الجحيم»، وقد وردت لفظتا الهاوية والجحيم في القرآن الكريم، وتدلان إلى جهنم[33].. وظلّ هذا البركان أو التنّين (كما سمي في الآثار الغربية) إلى أن أطفئ وأورث أرضاً غنية بكل شيء.. وسبب إطفائه أن المياه الهائلة المحبوسة قد نفذت إليه[34]..

ولذلك دعي جبل كور، وهي في الفينيقية «كورا» المرادفة للجبل، وهو الذي سمي أيضاً التلّ المزدهر الذي ظهر في أول العصور[35].. وجبل الأرباب (الآلهة)، وهو عبارة عن بضعة جبال.. وسمّاها العرب: «قرونو»، وهي التي أصبحت عند اليونان «كرونوس»: وهو الأقرن المتصل وفي السومرية سمي شرو**بك** التي تعني «سرّة الخصب» أو «مركز **بك**» التي تعني العظمة والخصب وهي «بكة».. وبالتالي **مكة**.

وقد سمّاه السومريون أيضاً « شدا » أو « شدّ » أي السدّة، وهو العرش أو السيّد. وفي القاموس السرياني من الفعل « شدا » : أي رمى ورشق.. وشدّت تعني السدّة أو العرش، وقد انتقلت هذه اللفظة إلى اللغات الأوروبية فصارت Sit في الإنكليزية والروسية Sidet : جلس..

وفي الخلاصة: شدا هو الجبل الذي لا يزال في بلاد غامد من جبال السراة في شبه الجزيرة العربية، محتفظاً باسمه حتى اليوم، وهو يحمل المواصفات التي جاءت في كتب التراث والأساطير، والذي هو الخصب والمغاور والأرض الجنّة والرياحين والآمن.. « وهو جبل عظيم » غنيّ بالمزروعات من الأنواع كلّها، « وبأعلى قمة هذا الجبل من جهته الشرقية، وتسمّى « قمّة المصلّى »، حجر مثلث الشكل تحمله ثلاثة أحجار كبيرة كالآثافي وهو باتجاه القبلة، ويتسع لإمام ومأمومين اثنين فقط، يسمّونه « مصلّى إبراهيم »، وقد كان يقصده العرب من اليمن والشمال ليصلوا فيه[36].. وقد أطلق عليه اسم « جبل القاف » وتحته تقع المحلة الآمنة التي خلق الله فيها آدم، ثم سكنتها الملائكة الموكلة بأمر الأرض والسماء، واقترن اسمه بسورة القاف « ق » في القرآن الكريم، كما ورد اسمه بلفظ « الفلق » في كتاب الله العزيز في سورة « الفلق ».. والفلق والفالق، والفلقان هو البركان الذي انتقل إلى اللغات الأوروبية قديماً وصار Volcon أو Vulkan.. وهو الذي حبسه الله في الجبل وصار يسمى « أنجي » أو ange (الملاك) حيث مكان الملائكة، وحيث « جدّه » المدينة السعودية اليوم، في تلك المنطقة منذ القديم، وهي « جودا » أو جودي وتعني البركان، وهي في القاموس السرياني من الفعل « جد » أي « اتقد » « واشتعل »، وذكره القرآن بلفظة « الجودي » في سورة هود[37]، والمتتبع الأسماء العائدة للأماكن والرموز الدينية يجدها هي نفسها التي تقوم عليها شبه الجزيرة العربية، الأمر الذي يحسم مسألة التشكّل الأول للغة العربية وبالتالي رحلتها إلى ما يحيط بها وإلى العالم..

2- العربية القديمة وتشكل الساميات :

ينبغي التدقيق ملياً في تشكّل اللغات التي أطلق عليها اسم « سامية »، إنّ ما ورد آنفاً يدل إلى أن العربية القديمة وجدت قبل سام بن نوح بآلاف السنين، وأنّ سام هذا كان لسانه عربياً قديماً، وأنّ اللغات أو اللهجات التي تحدّث بها أبناؤه هي العربية نفسها ولكن بعدّة لهجات وفاق أماكن السكن والانتشار، فإذا بها تصبح العربية والسريانية والعبرية الشديدة التقارب والاشتراك في أمور كثيرة: تأتي الأصوات في طليعتها والمشترك اللفظي ثانيها والإبدال والقلب ثالثها وابتكار الألفاظ والمعاني رابعها والتشكّل اللغوي في الأساس خامسها.

وإذا كانت هذه اللغات- اللهجات القديمة قد سارعت إلى إحياء نفسها بوضع معاجم كانت لمنطلقها القديم فبرزت وكأنّها تمتلك الأهمية في ذلك الماضي السحيق، فإنّ اللغة العربية أكثر هذه اللغات حياة وانتشاراً وفاعلية وقداسة وتأثيراً، إلاّ أنّ معجمها القديم الذي يعود

إلى ما قبل الساميات الواسع والخصب لم ينجز تماماً إلى الآن.. لذلك تضيع بعض الحقائق والإثباتات على تلك المرحلة الأولى التشكّلية للغة العربية.. وهو من مهمات المجامع اللغوية العربية والدارسين واللغويين الذين تنتظرهم لإنجازها.. على أن القرآن الكريم هو خير وثيقة يمكن العودة إليها في هذا المضمار.

وبديهي القول: إنّ هذه اللغات–اللهجات في ذلك الطور قد شهدت «لا تشكّلاً» ناتجاً عن انتشار السريانية والعبرية على حساب العربية الأم، «لا تشكّلاً» تحوّل فيما بعد إلى نمط لغوي تعيشه وتقول به جماعات بشرية تصنع حياتها من خلاله، حتى غدا بدوره تشكّلاً، لا أقول مغايراً عن التشكّل الأول، بل هو استمرار له في وجوه كثيرة، وهو ما أفضى إلى «لا تشكلات» أخرى أنسلت لهجات–لغات مشتقة منها.. ولكنّها كانت عاجزة فيما بعد عن الاستمرار والبقاء لفقدانها الشرط الأساسي: الأرض والشعب اللذين يشكّلان الأساس لحياة كلّ لغة..

بينما استمرت اللغة العربية تنسل من تشكّلها الأول، وفي رقعتها الجغرافية التي عاش الناس عليها، «لا تشكّلات» جديدة تركزت في تلك اللغات–اللهجات التي تعاظم عددها فيما قبل الإسلام، وأخذت كلّ منها طوابع خاصة لكنّها تمحورت حول أساسيات اللغة العربية القديمة التي بقيت بشكل أو بآخر في تلك اللهجات. وكانت أكثر بروزاً في لغة أو لهجة قريش، لغة القرآن الكريم، لغة الكلام المبين.. التي ظلّ العرب يتحدثون بها ويضعون إبداعهم فيها.. وهكذا كانت مضر وتغلب وتهامة ونجد واليمن وتميم والحجاز.. على لسنٍ متقاربة لكنّها متمايزة، وهو ما عنيت به اللاتشكل الأول للغة العربية بين العربية نفسها، ويمكن أن نلمح آثاره حتى يومنا هذا في بعض اللهجات المنتشرة في العالم العربي، خصوصاً في شبه الجزيرة، على الرغم من توحد اللغة العربية وتوحد العرب حول النطق بها، لاسيّما فصحاها. ويمكن العودة في هذا المجال إلى كتاب «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية» لمؤلفه ت.م. جونستون، حيث نجد بعض الفروقات في تلك اللهجات، مع العلم أنّها تتداول في مهد اللغة العربية الأم، فهناك لهجات الساحل الشرقي، لهجات الشمال مثلاً حيث نلاحظ أنّها لغة مشتركة، كما نلاحظ التباين في نطق بعض الحروف وتأثير أصوات الحلق في تركيب المقطع ونطق الجيم والاختلاف في التركيب الصوتي[38].. وبالتالي تميّز اللهجات: بالتشكيل الصوتي والصرفي والنحوي[39].. لكلٍّ من دبي وقطر والكويت والبحرين وأبي ظبي.

3– التشكّل الأكبر:

مع نزول القرآن الكريم، وقبله بقليل، تتوجّه اللغة العربية إلى التشكّل الأكبر، حيث تتوحد العربية في سياق واحد أراده سبحانه وتعالى: «إنّا أنزلناه قرآناً عربياً»، ليلتفّ الناس

حوله، وتصبح اللهجات السائدة مطلّة من حين إلى آخر في بعض الألفاظ والتراكيب والقرارات والقواعد النحوية، ولتقام حول القرآن الدراسات اللغوية المستفيضة وتكتب القواعد في الصرف والنحو البلاغة ويضبط الفنّ الشعري وتتركّز اللهجات كلّها في نطاق واحد.

4- العربية القديمة ونطاقات اللاتشكل والتشكل اللغويين في العالم:

لقد دُعيت البلاد التي كان فيها الإنسان الأول في جبال السراة بالسريانية. وهي ليست إلا الأراضي التي أقيمت عليها البلاد السورية التي أصبح لفظها واحداً Syrian أو سيريان Syrian.. وكانت لغة آدم السريانية أو السورية نسبة إلى الأرض، وهي ليست إلاّ اللغة العربية.

وأنّ لفظة آدم هي في أصلها «دم» وفي السريانية «دمو» وتعني: الدم، الأصل، الشخص، المثال، المثيل، النظير والشبيه، وقد خلقته القوّة الإلهية على شاكلتها فدعي بالمثيل أو الشبيه.. ومنها لفظة «دميتا» المؤنث، أو دمية في العربية الحديثة وتعني الشبيه أيضاً.. وهو الذي أراده الله خليفة له في الأرض، الأمر الذي أغاظ إبليس فاندفع في ايذائه والحطّ من قدره حتى هبط من الجنّة الإلهية إلى الأرض.. إلى جبل السراة (نسبة إلى سر: السيد): واللفظة تعني السيد والعالي والمرتفع، وسراة القوم سادتهم، ومؤنث «سر» أي السيد: «سرت»، ومنها سارة. «وسرأ» تعني: خصب وسرأت المرأة كثر أولادها. وسرن (بإضافة النون علامة الجمع) ومن ثمّ الياء (إحدى اللهجات)، فتصبح سريان أو سوريا.. وهي اللغة الرسمية في الدولة التي أنشئت في الألف الرابع قبل الميلاد (أول دولة بالمعنى الدلالي للكلمة)، وهي لغة آدم الذي يعود تاريخ وجوده إلى الألف السادس قبل الميلاد، وذريته من بعده: هابيل وقابيل وشيث ومهلائيل ويارد وقينان وإدريس ونوح وسام وآرام.. .إلخ[40].

وبعد ذلك انتشر السوريون أو السريان في سكناهم. ولقد ذكر هيرودوت في تاريخه الكثير من أماكن الانتشار هذه.. ومنها أفريقيا التي كان يسميها «ليبيا»، وقد حدّد سوريا في امتدادها من البحر الأسود إلى وادي النيل وبحر العرب والبحر الأحمر ومناطق أيونيا وأعالي الأناضول والمضائق وصيدا[41].

وكان الفينيقيون قد وصلوا إلى عرش روما، وكان بعضهم لا يرضى إلاّ أن يطلق عليه لقب «العربي»[42].. وأن لفظة فينيقيين مشتقة من فعل: فنِق ومعناه «نعّم» ورفّه.. و«فونيقو»: منعّم. هذا في السريانية والفينيقية أو العربية القديمة. وفي «محيط المحيط» فنق وفنق: نعّم. وعيش مفانق: ناعم ورغيد.. أمّا اسم فينيق فهو أحد أولاد ملك صور أجينور وأخو قدموس وكيليك وأوروبا، وقدموس أول من بنى مدينة في بلاد اليونان (المورة) وهي مدينة طيبة[43].. ونسبة إليه أنه أطلق اسم فينيق على قسم من الساحل السوري القديم وكيليكيا على الشمال

السوري، نسبة إلى أخيه كيليك، وأوروبا على القارة المعروفة، نسبة إلى أخته أوروبا. وأنّ أدريانو الخطيب الصوري عندما هاجر إلى اليونان أعلن في خطبته الأولى: «للمرة الثانية تأتي الآداب من فينيقيا». وغير خاف على الدارسين ذلك الدور الذي لعبه الفينيقيون في تعليم اللغة العربية الفينيقية لشعوب اليونان، هؤلاء الذين يثبت الدارسون أنّهم عشيرة عربية سورية أو سريانية وأنّهم أصبحوا عشائر أخوات(44)، أصبحت لدى المؤرخين الغربيين تعرف باليونان، وهم خليط من عشائر(45):

- الفلاجيين: وهي لفظة عربية فينيقية أو سريانية من «فلجو» وتعني الفالج: القاسم.
- هيلان: أو هيلا (النون للجمع في العربية القديمة)، هو حيلان أو حيلا أي القوي (وهي من الحيل والحول أي القوة).
- أيوليو: في القاموس السرياني: «أيولو» وتعني: المعين أو المغيث.
- الإخائيين: أي الاتحاد والأخوّة، وفي القاموس السرياني من «أحو»: أخ و «أحينوا»: حليف أو نسيب.
- الدورو: في القاموس السرياني: المقاتل، المصارع، البطل. ومنه لفظة Heros.
- يونان: في القاموس السرياني تعني حمام، وهي جمع يونو، وقد أطلقت على عشيرة يونا، ابن حيلا، الذي هو من ابن يافث بن نوح، والنون في يونان هي للجمع في العربية القديمة والسريانية فيما بعد(46).
- أما لفظة إغريق فهي عربية سواء أكانت من الغرق، أم من اللفظ العربي القديم «أجر»، حيث كان العرب يلفظون «ج» كما يلفظها المصريون «غ»، وهي تعني: أجر: زنا. وإغريقا هو اللفظ الذي أطلق على هؤلاء (أو «أجريقا»)، و»يقا» هي نهاية بعض الكلمات العربية القديمة التي انتلقت إلى اللغات الأوروبية، فمثلاً لفظة درزيقا هي من فعل درز في العربية القديمة وفي القاموس السرياني درز: خاط، ودرزيقا: خياط، ودريزقوتا: خياطة.. أما لماذا الزنى؟ فإنّ المصادر تشير إلى أنّ الوافدين القدماء إلى بلاد اليونان كانوا مميّزين عن سواهم من الأهالي في تحضرهم وعلومهم وتفوقهم في مجالات كثيرة على السكان المتواجدين هناك، فكانوا، هؤلاء السكان، ينظرون إليهم وكأنّهم آلهة.. ولما كانت نساء هؤلاء تسكن المغاور، أي «حيرا» في العربية القديمة وكنّ على شيء من الجمال، فكان هؤلاء الأمراء السوريون العرب الوافدون من البلاد الشرقية يتتبعونهنّ في أماكن سكناهن ويضاجعونهن وينجبن منهنّ نسلاً عرف بأولاد الزنى أو الإغريق (اجريقا)(47)..

نورد هذه التفصيلات لنؤكد على هذا اللاتشكّل اللغوي الذي ساد تلك البلاد اليونانية في مرحلة من مراحل التاريخ، حيث حملت اللغة العربية معجمها الذي تشكّلت على أساسه

اللغة اليونانية وبالتالي اللغات الأوروبية، ولعلّ الأمثلة التي سنوردها الآن دلالة إلى انتقال ألفاظ عربية كثيرة إلى بلاد الإغريق أو اليونان، تكون قد أسهمت في إيضاح فكرة اللاتشكّل التي قامت عليها عملية دخول العربية إلى تلك البلاد، وبالتالي التشكّل الجديد للغة العربية نفسها والتي ظهرت بحلّة جديدة خالها كثيرون أنّها مغايرة عن اللغة الأم العربية، على الرغم من اختلاف التصوير للأصوات والحروف والألفاظ التي شكّلت اللغة اليونانية . .

اللفظ اليوناني	العربي القديم	المعاني
زيو	أوزيوس	السنّي – الشعاع
حيرا (الإله)	أور	حورا، حوراء، حورية
لوجو	لجا: لغا، لغة	نطق الجيم (تلفظ في العربية القديمة غ: Logique, Logos
ديمو قراطي:	ديمو: شخص، إنسان، آدم قراطي: جمع قراطو: مكتوب ديموقراطي: الإنسان المسجل (أي الذي ثبت أن أبويه نبيلان) وقد فسّرها الأوروبيون بالشعب الحاكم أو حكم الشعب وهو معنى متحوّل	الفعل: قرط: رقم، حفر، نقش مسجّل
الفلق، الفلقان	البركان	Volcan
أبولو	أفو إيلو (الفاء كانت في العربية القديمة تلفظ P).	أفو: وجه، إيلو: إيل: الرب، وجه الرب (إله الجمال والشمس)
مات (مستودع الخلق)	ماء، مامي، مايا، ما، مت، الرحم، أم (عرفت الأم في العربية القديمة بهذه الألفاظ)	Mat, Matka, Mother, Mater, Maman, Mame
أنجي	ينجي	Ange الملاك
أردن	رديا ويردا: حوض رديو: الماء الينبوع أردن: جمع رديا: أحواض ماء	

سفهو	سافون (الصابون، الرغوة) : زبد البحر، (الفاء تلفظ بـباء أو P)	Savon
نيروز : ني روزا	ني : ربّة، روزا : الزهر (الفعل روز : أزهر)	ربة الزهر (عيد النيروز : عيد أزهر)
ني لوفر	ني : ربّة، لفر : الخصب، الوفر	ربة الوفر أو الخصب
ني لوطس	ني : ربة، لوطس : الفتنة والإغراء	زهرة اللوطس : زهرة الفتنة
نيفريتيتي	نيفري : نافورة، تيتي : الخصب	نافورة الخصب
أليسّا	حليصا : أليسّا	Elissa, Eliza, Elisée
جوليا	المتجلية	julia , Jolie
فستا	بصحتا، فصحتا : المقدس	Paque, Pskha , pask
إستر، استرايا	عشتر، عشتار : الخصب	عشيرة، زوجة Austeria (أستراليا اليوم)
عناة	حنت، حنّة، مخرج الحلق واحد : « ح » و« ع ».	الزوجة، السيدة، حنّة، هناء Hanna
مارس	مار : السيد، الرب (مؤنثها : ماري : مريم ماريت ومرت)	Mars (السين يونانية)
دوموزي	تموز (يوليو في المصرية القديمة)	يوليوس July
إيزيس	حيزيث : النبيّة، الرائية، العرافة الفعل حزا : رأى، تنبأ حزيو، حزوي : نبي، رائى حزويث (مؤنث)	بالإنكليزية Wise بالفرنسية Vision Visionneur
أثينا	–أثينا (المركز) : السيد، الرب – أثون (المؤنث) : السيدة، الربة	Athène
فينوس	أفني : الخصب	إلهة الخصب
منوت	جزء من الساعة	minute
دراما	فعل : درا : صارع، قاتل ما (في العربية القديمة تنوين)	الصراع Drama
دثرامبو	د : أداة تعريف أثرا : مكان، موطن أمبو : العرش	مكان العرش، نشيد رب العرش
ساتيرا	الستر، ستر	أخفى (الممثلون كانوا يخفون أنفسهم بجلود التيوس والماعز . .) sutire
تيوس	بقيت على حالها (وأدونيس هو التيس في الدستورامبوس) thoous	

تراجيديا	تراجي: جمع تراجو: التيس جديا: الجدي	Tragedie تيوس الجدي، الذين كانوا يرقصون أمام رمز أدونيس ويقدّمون تيسًا صغيرًا أو جديًا أضحية للتخفيف من آلامه.
كوميديا	قوموثا وقوموتا: القيامة تحوّلت الثاء إلى d كوموتا: كومودا	Comédie
أوركسترا	الفعل: أور، حر: نظر، شاهد حورو: مشهد، مسرح، ساحة قسطرا: المصطبة، المذبح	ساحة المذبح: حيث كان يتجمع المغنون والراقصون Orchest
الكورس	حورو: المشهد، المنظر، المرسح تحوّل الحاء إلى كاف في الإيطالية: حورو: كورو كورس: زيادة السين في اليونانية	الراقصون المغنون
أتيكا	عتيقا	Antique
ثياترو	الفعل: تئر: رأى، شهد تأوديو: تئيرو: ناظر، ملاحظ تئثرون: مشهد، مرسح التاء للتعريف	Theatre: theorie
مراثون	مرهطون الفعل: رهط: ركض راهوط: راكض	عداؤون: السباق Marathon
كريزيتوي	كرز: وعظ، بشّر كريزتو: بشارة كريزتيانو: المبشر كريزت: المسيح	باللاتينية: Kresto بالفرنسية Christ
إنجيل (إنجيل)	الوحي: الرؤيا انجين: الكشف الفعل جلي: كشف، أوحى أجلي: أجليون: أنجيليون	اليونانية: angelion الفرنسية: Evangile
حواريين	نسبة إلى حورا	المغارة
فينيسيا	فينيقيا	البندقية Venise

اسبرطة	اسبر: رجاء، أمل، صبر	Sparte
	سيبر: احتمل، سبيرتا: صبر، احتمال	
الأثنوغرافيا	اتنو: حتنو: أقارب	الوصف السلالي الأمومي
	الفعل: حتن: حاتن: قرن	(أم) علم السلالات (اليوم)
	جرافك أصلها: جلف: نحت: خرط	
	تحوير: «ج» إلى «غ»، في اليونانية	
	جلو فو: نحات، مصوّر	
	جليفو: منحوت، مصوّر، منقوش	
	اتنوغرافيا: قرن الأقارب	
أرين	عربن	Arabian
سر	السيد	Sire, Syrian
	سرن (إضافة النون للجمع)،	
	سوريون: سريان	
جوبيتر	جوفبيتر (أصل الباء فاء	نسر الخصب، إله
	في العربية القديمة)	الخصب Jupiter
	جوف: النسر، الجناح	
	فاتر: باتر، المخصب	
هيلينيون	نسبة إلى حيلان (بالعربية)	الأقوياء، الأبطال
	حيلان: القوي، الشجاع	Hilènne
	حيل: قوة	
	حيلان، هيلان: هيلينيون	
بولي	أمير: بوليس	Bouli دولة، Police (إضافة سين)
حنتريا	حن وحنو: حانة: حانة الشاطئ	الفرنسية Kin
	خمر	الإنكليزية Win
	تر: البر، اليابسة، أرض	الروسية Vino
	حنتريا: حانة الأرض، حانة الشاطئ	Terre
لوبا	الذئبة (التي تحب صغارها)	Loupe Love الحب بالإنكليزية
قونويا (قونيا)	خنزيرة	بحر الخنزير
	يمو قونوي: بحر الخنازير	

5- المثاقفة والترجمة والتشكّل واللاتشكّل:

يسمّي الباحثون العلاقات التي تنشأ بين الشعوب بالمثاقفة، وربّما كان المصطلح يعبّر عن حالات من التفاعلات التي سادت الروابط والتبادل بين الحضارات واللغات والثقافات. لكنّ التشكلات الأولى للمجتمعات تحتمل تفسيرات أبعد من موضوع المثاقفة. في حالة اللغة العربية، ومنذ القديم كان ثمّة تشكيل للتموضعات البشرية، لاسيّما على الصعيد اللغوي، وما سقناه آنفاً من تأثير العربية في التشكّل اللغوي لبعض المجتمعات يتعدّى القول بالمثاقفة إلى التشكّل.. صحيح أنّ اللغة العربية، كما يشير المؤرخون، من أقدم اللغات، إن لم تكن أقدمها، لكنّها في المراحل التي نتحدث عنها كانت ذات تأثير قوي، لاسيّما في اغناء اللغات أو اللهجات المحيطة بها أولاً، وفي اللغات البعيدة منها، كما أظهرنا، حيث كان التلاحم وتبادل القوى والصراعات قائمة على أشدّها، وحيث لم تتشكل بعض الحضارات الإنسانية منذ فجر التاريخ، مروراً بإقامة الإمبراطوريات القديمة كاليونانية والرومانية، ثانياً.

إذ إننا في مطلق الأحوال، ينبغي الاعتراف بأنّ ظاهرة التدخل في شؤون الغير، جعلت من المتدخّل مستعمراً يفرض شروطه على المستعمر، وهكذا تتم المثاقفة في ظروف اللاتكافؤ في القوى والمعطيات الحضارية.. وهذا ما أشارت إليه القواميس في تعريفها المثاقفة من أنّها تبحث عن العلاقة بين مستعمِر ومستعمَر، حيث تظهر قابلية الثاني على الأخذ من الأول، إلى الحدّ الذي يجعله مقتفياً آثاره في كل شيء، خصوصاً الأدب. لكنّ ما ينطبق على اللغة العربية في الزمن القديم يتخذ شكلاً متميزاً، في وقت كانت الشعوب بحدّ ذاتها تهاجر مجتمعة وتستقرّ في أرض معينة مجتمعة أيضاً وتختلط بالشعوب الأصلية وتسهم في تكوين مجتمعاتها وتصبح متوحدة. من أجل هذا كان قاموس المورد الإنكليزي العربي يشرح التثاقف بأنّه «تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة، وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة لاحتكاكها بمجتمع أكثر تقدّماً»[48]، وهذا ما ينطبق على العرب في تلك المراحل المتقدّمة من التاريخ.. حيث مرّت المثاقفة العربية في غير مفصل: من جهة أسهمت في تشكّل ثقافة المجتمع اليوناني مثلاً، ومن جهة ثانية عادت المؤثّرات اليونانية لتسهم في التشكّل الثقافي العربي لاسيّما في العصر العباسي، ومن جهة ثالثة، عاد موضوع المثقافة ليتخذ أبعاداً أخرى في العصر الحديث.. أكثرها بروزاً العامل الإستعماري.. الذي أراد طمس اللغات وإحلال لغته محلّها (الجزائر، المغرب العربي مثلاً...).

أ- الجهة الأولى: تغني الصفحات السابقة عن إضاءة هذه الجهة في تشكّل اللغة العربية وانتقالها إلى اللاتشكّل، في هجراتها المختلفة، في هذه المواطن التي استقرّت فيها: المحيطة والبعيدة.

ب– الجهة الثانية : ونقصد بها ذلك الجديد الذي طرأ على اللغة العربية وعلى المجتمع العربي بظهور الإسلام، الأمر الذي قدّم معطيات كثيرة وجديدة استطاعت أن توحد العرب وتخلق هذا الإتساع في جوانب الحياة كلّها . . لكنّ ذلك لم يشعر العرب بأنّهم استطاعوا أن يستوعبوا حركة الحياة الثقافية والعلمية والحضارية التي رسمها القرآن الكريم . . لذلك كان التطلّع بارزاً إلى هذا الاستيعاب وتغذيته بروافد معرفية توضح الكثير من الجوانب التي أشار إليها القرآن وفصلتها آياته . لذلك كان يقتضي الإنفتاح واستكمال التشكّل الجديد، فعادوا إلى التراث الإنساني، لاسيّما اليوناني الذي لم يكن إلاّ مما أعطوه له سابقاً، فدخلوا إلى عملية تشكّلية جديدة ضمن التشكّل الأعظم الذي جاء به الإسلام .

أتحدث في هذه الجهة عن زمن محدد بنهايات العصر الأموي ومعظم العصور العباسية، كما أتحدّث عن عقل عربي منفتح على الشعوب وحضاراتها، ذلك ما يمكن تسميته بالتشكّل الإنساني للحضارة العربية وبالتالي للغة العربية . . حيث كان امتداد رقعة الخلافة الإسلامية جغرافياً يشمل قسماً كبيراً من مناطق آسيا وأفريقيا وأوروبا، فكان هذا التشكّل المطلوب بغية استيعاب هذا الإتساع الذي تجلّى في أمرين أساسيين: الإلهي والزمني، وهما كونيّا التطلّع التشكّلي الثقافي الذي جمع امتدادات كثيرة في شكل واحد هو نسيج مما لدى الشعوب، مصاغ بلغة واحدة، اقتضت انفتاحاً واسعاً على اللغات كلّها، وتشكّلاً لغوياً جديداً، لاسيّما في دنيا المصطلحات الجديدة، حيث عكست اللغة قدرتها على الاتجاه في كلّ ما هو معرفي . . ولقد قام هذا التشكّل الجديد على جملة أسس تعدّ من أساسيات نجاحها :

1– اللغة القوية القادرة والموحدة والإيمان القوي الواحد والقرار الموحد القاضي بإنجاز مهمة التشكّل المعرفي الواسع .

2– التقاء العلماء في المجتمع الواحد . .علماء متعدّدو الاختصاصات وثنائيو اللغة ومتعدّدوها، ومن الأديان جميعها ومن شعوب كثيرة .

3– اتساع حركة الترجمة إلى العربية بما حملته من معلومات ومصطلحات لم تكن متداولة .

4– اتساع البنية المعرفية التي شملت كل شيء وشكّلت حافزاً لإعادة تشكيل المجتمع العربي الجديد وبالتالي خلقت أجواء من التقارب بين الأعراق والثقافات واللغات والأقوام . .

5– الجرأة والحرية وعدم التردد في الإقبال على نقل المصطلحات والترجمة إلى العربية .

6– ولقد بدا الأثر اليوناني واضحاً في هذا التشكّل المعرفي، لاسيّما اللغوي الذي لجأ إلى مصطلحات صارت غريبة عن العرب أنفسهم، وهي في أصولها المعجمية من تحدّرات اشتقاقية للغة العربية القديمة ولهجتها السريانية . . والملاحظ أنّ بعض التغييرات الصوتية قد طرأت عليها

مثل: الريطوريقا والطراغوذيات والرفسوديات والقوميديات والدراماطا، وأكثرها وضع مقابل عربي له في ذلك الوقت[49]:

مثل : التغيير: ميتافورا Metaphora

والمثال: الصورة Eidos

والمحاكاة: أو الحكاية mimesis

والمديح أو التراجيديا Tragedie

والهجاء أو الكوميديا Comedie

والمنافقون أو الممثلون Acteurs

والإدارة أو التحوّل Direction

ولقد سبقت الإشارة إلى أنّ بعض هذه المصطلحات أصله عربي قديم.. إلاّ أنّ العرب لم يدركوا في ذلك الزمن هذا الأثر، أو أنّ الذين قاموا بحركة الترجمة لم يكونوا عرباً عالمين بهذه الجذور البعيدة العمق للغة العربية. لذلك كانت بعض المصطلحات تعكس من وجهات كثيرة «لا تشكلية» اللفظة وغوصها في العمق الوجداني العربي، فكانت سطحية أحياناً ومترجمة لحياة ثانية أحياناً أخرى، من أجل هذا كان تعريب لفظة الإدارة بمعنى التحوّل غريباً والممثلين بالمنافقين كذلك، علاوة على أنّ ألفاظاً عديدة حُملت من محمولها الدلالي في لغتها الأصلية إلى محمول آخر في العربية.. الأمر الذي أحدث خللاً في المعنى التشكّلي الجديد.. وأعطاها أجواء مبتكرة لم تكن لها في الأصل. وذلك يتجلّى في ألفاظ كثيرة مثلما أسلفنا حول التراجيديا والكوميديا والمحاكاة والميتافورا. لكنّ هذه الترجمة كانت بحدّ ذاتها نوعاً من الإبداع في المحيط الذي أوجدت فيه حتى صارت جزءاً منه يتشكّل منها.. ولقد كان أبو حيان التوحيدي علامة فارقة في نقل المفاهيم المختلفة إلى العربية عن كوكبة من العلماء الأجلاء.. وكان تعريبه يقف على الخصائص الاجتماعية والثقافية واللغوية والحضارية.. .إلخ التي أنتجها الإسلام جميعاً[50]..

لكنّ ذلك لم يمنع من الشعور بغرابة المترجَم، وأنّ القارئ أدرك أنّه يقرأ لغة داخل لغة، وقد عبّر التوحيدي عن ذلك بحادثة أوردها عن إعرابي حضر في مجلس الأخفش واستمع إلى ما يقال حول النحو، فعلّق قائلاً: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»[51].. وإن دلّ هذا على شيء فعلى أنّ التشكّل الجديد للمصطلح كان لايزال في طور «اللاتشكّل» وأنّه كان ينمو هامشياً من دون أن يدخل في جوهر الحياة وبنيتها وخصوصيتها ومحلّيتها، وذلك عائد إلى محدودية الأجواء الدلالية التي أحدثتها بعض المترجمات، وبالتالي التأثير في بنية اللغة، لذلك قلنا إنها ظاهرة «لا تشكلية»، وأنّ ألفاظاً مثل «الجوهر» و«العرض» و«الهو» و«الهويّة» والماهية[52]... كان يلزمها بعد مكاني وزماني ومعرفي حتى تمتصّها الأرض وتهضمها..

ولو أنّ الكاتب ابن وهب قد بذل جهداً أكبر للتعرّف إلى المصطلحات وأصولها، لكان استراح هو وزملاؤه ممّن قاموا بعملية الترجمة مثل: الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من مترجمي المصطلحات الفلسفية والعلمية والأدبية والنقدية، ذلك أنّ ابن وهب عندما يتحدث عن «الاختراع» للمصطلحات والألفاظ والمعاني، يورد بعض الألفاظ التي في أصولها تعود إلى العربية القديمة، فهو يقول: «وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه، فمنه ما سمّوه باسم من عندهم، كتسميتهم الباب في المساحة بابا والجريب جريباً والعشير عشيراً»(53).. وهي ألفاظ أتينا على ذكر بعضها عند الكلام على تشكّل اللغة العربية القديمة والسريانية عند غير العرب.

6- إشكالية «التشكّل واللاتشكّل»:

وإذا كنّا ننصح بالعودة إلى اللغة العربية الموغلة في القدم، ليس من أجل تبيان فضلها ولكن من أجل حلّ الإشكاليات التي نشأت وقد تنشأ عن تعريب المصطلحات.. إنّ العجز ينبغي ألاّ يسوّغ دائماً بمقولات إلقاء التبعة على الخارج أو على القصور الآني لأبناء اللغة.. بل ينبغي النظر في العجز نفسه ومسبباته والحالات التي يولّدها عبر الزمن من تراكم أعجاز يتضامّ بعضها إلى بعض.. إن الإشكالية التي حصلت في الزمن العباسي هي هذا الإنفتاح التثاقفي المبني على تبصّر من أركان الخلافة وتجمّع العلماء.. إلاّ أنّه لم يكن كافياً لإحداث الامتزاج بين الطارف والتليد.. فأمام هذه الكوكبة من جهود العلماء في حقل الترجمة قامت كوكبة أخرى تحتجّ على محصّلة الأولى.. الأمر الذي تجسّد في مواجهات كلامية تذهب إلى أنّ ما هو طارف لم يلائم الواقع، وظلّ هامشياً دون انصهار فيه وفي التليد.. وهو الدعوى التي أقامها المحافظون القدماء على المترجمين في العصور العباسية.. حيث بقيت ترجمات المصطلحات وصفاً «لا تشكلياً» يلقى من المعارضين ما يلقاه من رفض وصل حتى الممانعة من قبولها، ولقد تمثّل ذلك في حملة ثلّة من العلماء مثل ابن قتيبة والسيرافي وابن الأثير... فحسبه ابن قتيبة: «له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم»(54)، وخاطب السيرافي أصحاب الترجمة بقوله: «وإنما بودّكم أن تشغلوا جاهلاً، وتستذلّوا عزيزاً»(55)، ونفى ابن الأثير أن تكون له فائدة تذكر للعربية «وكل الذي ذكره (ابن سينا) لغوٌ لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً»(56). وهو كلام بحاجة إلى مناقشة، إذ لا يعقل أن يكون هذا الجهد الكبير الذي صنع حضارة عظيمة من غير فائدة، خصوصاً أنّه يمثل خلاصة الفكر الإنساني، لكنّ القول يبقى، إنّ هذه المحاولات والمعارضات قد تمّت في زمن «اللاتشكّل» حيث صارت فيما بعد في قلب العملية الحضارية العربية في العصر العباسي، وحيث استمرّ النقاش حول بعض المصطلحات مثل «تغيير» (ميتافورا في كتابي «الخطابة» و«الشعر» لأرسطو). التي احتفى بها النقاد العرب القدماء واستعملوها عشرات المرات في كتبهم النقدية حتى أخذت شكلها الحالي: الإستعارة أو المجاز..

7- التشكّل في النهضة والتحديث:

بعد انكفاء العرب أمام المغول في العام 1258م دخلت اللغة العربية في طور جديد حمّلها وزر تضعضع الأمّة وتراجعها، ومنذ ذلك التاريخ، وفي مدة تقارب ستمائة سنة، شعر العرب بأنّهم يهبطون من الأعالي وينحدرون إلى فوضى الأمّية، حيث «كان الشعب أميّاً والعالم كان في ذلك الزمن إمّا كاهناً أو شيخ دين»[57]، حتى أنّ هذه الأمّية كانت مستحكمة في بعض المدن العربية وأن تجارها كانوا يعتمدون في كتابة رسائلهم وتسجيل حساباتهم على نفر قليل قدّر لهم أن يقرأوا ويكتبوا»[58]..

وكان ذلك نتيجة لعدّة عوامل[59] تتركز في إبعاد اللغة العربية عن الدواوين ومجال الحياة الرسمية، لأنّ التركية قد حلّت محلّها إبّان السيطرة العثمانية على البلاد، وقد سيطرت العامية على الأقلام والألسنة وكتّاب الدواوين والتاريخ.. وليس أدلّ على المحسّنات اللفظية يطغى استعمالها على كل شيء.. والفنّ الغالب هو المقامة أو الترسّل والموضوعات المكررّة كالتهنئة والتعزية، الأمر الذي أبعد الكاتب من خصوصية معينة يمتاز بها، وأغرقه في دوّأمة الركاكة وإفراغ المضامين من أي معالجة لقضية من القضايا.. حيث فقد الكاتب والقارئ لذة التعبير عن الذات والواقع وطلب الثقافة..

جعلت هذه التطورات من النهوض مبعثاً جديداً إلى التشكل اللغوي من جديد. وكان يتمثّل في الالتفات إلى الصحافة التي كانت عاملاً رئيساً في هذا التشكّل بإخراجها الكتابة العربية من جمودها، حيث اتخذت من إحياء التراث والظروف السياسية عاملين رئيسين للانبعاث، تراوح صوغهما بين الاختيارات الصعبة المتأرجحة بين العامي المرفوض والفصحى المتقعّرة، المرفوضة أيضاً، اختياران لا يستجيبان لعوامل التعبير العصري النهضوي.. وكان الاختيار يمضي في استحداث أسلوب عصري مليء بالحيوية والعصرية ينسجم مع الطموح النهضوي العربي.. فدخل التشكّل الجديد بنثره الملائم إلى ميدان الحياة من بابها الواسع، لكن هذا التشكّل لم يكن يتم من غير صراع بين المجدّدين والمحافظين[60].. ومن غير اختيار بين نمطين للكتابة: تقليد صحافة الغرب وأفكاره وطرق صوغه الكلامي، والانتقال من التصنيع إلى الجدّة والموضوعية والأخذ بأسباب الحضارة للتشكّل الجديد..

ولا يتسع المجال هنا للتفصيل في ذلك، إلاّ أنّ الراصد حركة التشكّل هذه يلمح أنها تمت بشكل تدرجي ومنطقي وملائم للتطور الجديد لدى العرب.. وكان ناصيف اليازجي يعلن في ممارسته الكتابة عن مضمون هذا التشكّل اللغوي ابتداء من المقامة الوريثة الشرعية للأسلوب العربي الذي انتهت إليه عهود الكتابة العربية القديمة، وصولاً إلى تنبهه إلى حاجة العصر إلى تقديم قواعد اللغة العربية بحلّة عصرية جديدة ومفهومة، ومروراً بكتابته الشعر وبالتالي تطوير التشكّل الكتابي إلى شكل جديد تمثّل في كتابه «فاكهة الندماء»[61].

وفي الوقت نفسه، وفي تزامن عمري ساقته الأقدار بين ناصيف اليازجي ورفاعة الطهطاوي.. يقوم هذا التشكّل اللغوي ليقدّم صفحة أخرى من عناصر تشكّله، فيلجأ الطهطاوي إلى الترجمة، كعنصر أساس في هذا التشكّل، لا ليترجم المصطلح وحسب بل ليترجم أساليب الحياة الغربية أيضاً، ولتشغله في هذا التشكّل مسألة وقف عندها العلماء في العصر العباسي وهي ترجمة المصطلح.. مرّة جديدة لا أريد التفصيل، مع أنّه مغر في هذا المجال، لكنّني سأقتصر على ذكر الطريقة التي اعتمدها الرجل لتقديم المعارف والإسهام في هذا التشكّل الجديد للغة والأمة على حدّ سواء.. فقد امتاز أسلوبه بالموضوعية والعلمية وصل إلى حدّ التقريرية واعتمد المراسلة والاقتراب من السرد والسهولة والموسوعية والمنطق.. لكنّه واجه مشكلة التعبير عن المعطيات الحضارية الجديدة، وكان عمله هنا ضرباً جديداً من ضروب الكتابة العربية.. فهو أمام مشكلة المصطلحات الحديثة وأمام كلمات لم يعتد العرب عليها، لذلك فإنّه قد عرّب بعض الكلمات وترك بعضها الآخر دون تعريب لأنّه لم يجد ما يقابلها في العربية، من ذلك[62]:

		الترجمة الصحيحة
إليكتور	Electeur	منتخِب
سبكتاكل	Spectacl	مشهد
التياتر	Theatre	مسرح
شفالييه	Chevalier	فارس

وأحياناً يحاول أن يعرّب بعض الكلمات، وإن كان تعريبها اليوم قد توقف استعماله واستعيض عنه بآخر:

الكلمة	ترجمة الطهطاوي	الترجمة الجديدة
Lamassée	خزانة المستغربات	المتحف
Théatre	خيالي	المسرح
Constitution	الشرطة	الدستور

على أنه ترك الكثير من الكلمات في لفظها العامّي لأنّه لم يجد ما يناسبها في الفصحى:

- اللخبطة: التشويش
- التنبلة: الكسل.
- قومبانيات: شركات
- فاميلييه: العائلة.
- القزاز: الزجاج
- الصرماتية: الحذّاؤون

وكان الطهطاوي بذلك يخطو بالترجمة خطواتها الأولى باتجاه الحقول الأوسع والأكثر دقة، فاتحاً أمام التشكّل اللغوي النهضوي أبواباً واسعة، ليس في حقل المصطلح وحسب بل في حقل الحياة..

ولم يقتصر هذا التشكّل اللغوي على الطهطاوي بل تعدّاه إلى ثلّة كبيرة من الدارسين والباحثين واللغويين أمثال: علي مبارك وإبراهيم اليازجي والثعالبي وسليمان البستاني وجرجي زيدان... وغيرهم كثير.. حتى استطعنا القول: إن ما جرى على هذا الصعيد قد أدّى إلى إعادة الحياة إلى اللغة العربية وصنع تشكّلها العصري الذي لازالت تعيش في كنفه في ظواهرها الصراعية المختلفة فكراً وعلماً وأدباً... وأثمرت المثاقفة في عصر النهضة والعصر الحديث عن روافد كبيرة صبّت في هذا التشكّل، ومنحته ألواناً جديدة من الانفتاح والتفاعل مع الظواهر الكونية التي كان عليه أن يعيشها ويحافظ على هويّته وبخاصة لغته فيها..

8- الحداثة أو لعبة «اللاتشكّل المقنّعة»:

ظلّ التحديث حلماً يراود العرب منذ مطلع النهضة العربية، وربما استمرّ بأشكال مختلفة إلى يومنا هذا، والتحديث يشمل الحياة كلّها بما فيها اللغة والأدب.. ولم يتجاوز المجتمع العربي كلاسيكيته في كثير من الوجوه الواقعية نظراً للمشكلات الحادّة التي عصفت به، فاضطر إلى القول بالتحديث ومن ثم الحداثة، وها هو ذا الآن ينتقل إلى ما بعد الحداثة أي إلى المرحلة الكونية التي سمّيت بالعولمة..

والجدير ذكره أنّ هذه المصطلحات الثلاث: التحديث والحداثة والعولمة ظلّت هامشية ولم تأت أكلها على غير صعيد إلا فيما ندر.. يعني أنّها بقيت في طور اللاتشكّل الذي هو حالة قائمة في جميع الميادين، ويصحّ هذا الحديث على الأمّة والسياسة... وهناك استعارات متفرّقة لكل مجال، لاسيّما في النظم السياسية والاقتصادية والثقافية، وحتى الاجتماعية باتت في خطر من التفتت والشرذمة، الأمر الذي يدخلها في «لا تشكّل» قاتل يفقد الأمّة هويّتها وبالتالي لغتها وخصوصيتها.. ولهذه الشؤون كلّها همومها في الوطن العربي.. لكنّ الناحية التي تهمّنا في هذه العجالة وضع اللغة العربية في هذه الدوّامة من المشكلات الحادة.

فعلى الرغم مما يجري ظلّت اللغة العربية محافظة على سرّ قوتها أداة للتعبير والتخاطب، سليمة من الركاكة والابتذال، عظيمة في المكانة عند أبنائها، على الرغم من محاولات الافتئات عليها في جوانب عديدة..

وقد انتاب العاملين في هذه اللغة هذا «اللاتشكّل» في غير مجال، وإذا كان التجديد في الشعر العربي الحديث، منذ خليل الخوري[63] وخليل مطران... قد حاول أن يقول كلمته في الأشكال والتعابير والمعاني، فإنّه قد نقل اللفظة من كلاسيكيتها، أي أنّها لم تكن إبداعية وأنّها

هي غالباً لفظة اتباعية.. وأنّها لم تحمل على معناها اشتقاقاً نفسياً يحيلها عن واقعها المباشر وينفخ فيها من النفس حالات وذكريات وأبعاداً أخرى.. أي أنّها واقعية في الوصف، بل إنّها مغرقة في الواقعية حتى في جلبة حروفها واربدادها وتجهمها.. وهي لفظة فكرية ذهنية في تعبيرها عن العواطف والأفكار[64].. إذا كان التجديد إذاً قد حاول أن ينقل هذه الكلمة من كلاسيكيتها إلى الواقع فأصبحت رومنسية في ظلالها وأبعادها وتعبيرها عن تلوينات النفس، فإن ذلك لم يمنع من استمرار الكلاسيكية، كما لم يمنع من قيام حركة الحداثة الشعرية التي حملت الألفاظ من واقع ذي دلالات محدودة إلى أخر مليء بالإيحاءات والدلالات والتصورات. لكنّ ذلك كلّه بقي جزراً «لا تشكّلية»، لم تحمل مشروعاً كبيراً يجعل الحياة في جميع المجالات حداثية، فبقيت في طور «اللاتشكّل» غير معمّمة، وبالتالي شهدت توجهاً نحو قصيدة النثر ونحو الشعر المتفلّت نهائياً من الضوابط، وهو الأمر الذي جعل بعض شعراء الحداثة يعيدون النظر في حركة الحداثة الشعرية غير مرّة، لكنّ اللغة العربية بقيت على الرغم من ذلك أداة طيّعة في التعبير، ولم يؤثّر هذا «اللاتشكّل» فيها، بل كانت تستجيب لكلّ دواعي الإبداع.

ولقد امتدّ هذا «اللاتشكّل» نفسه إلى ميدان النقد فدخلت إلى مضمار الأدب نظريات كثيرة أدبية ولغوية، كانت نوعاً من الإسقاط في بعض الأحيان، ومنهجاً مقيد الاستعمال في أحيان كثيرة..

وبالطبع إنّ الأدب فرع من فروع الثقافة وبالتالي الحياة.. ومن الطبيعي تأثره بما يحيط به، لاسيّما الثورة المعرفية الخطيرة التي أفرزتها الحداثة وبالتالي العولمة في شتى فروع المعرفة العصرية، خصوصاً التكنولوجية والحيوية والطبيعية والهندسة الوراثية وعموم ما أطلق عليه الثورة الصناعية الثانية.. وقد ظلّت العلوم في بلادنا «لا تشكّلية».. تعتمد نتفاً من هنا وهناك، ولم تستعمل على أكمل وجه. أضف إلى ذلك أن الأدب في ظلّ العولمة لا يزال يتخلّق ولم تكتمل نظرياته إلى الآن، وفي حين: «أنّ شعراء ومثقفي المناطق المتخلفة اقتصادياً يؤلفون أناشيد وطنية، يتغنّى شعراء ومثقفو دول الموجة الثالثة (موجة العولمة) بفضل عالم بلا حدود»[65].. والأبرز في التحوّلات التي طرأت على العالم يتركز في المعلوماتية وهي الصورة الأفضل للتعبير عن الانتقال من «القوّة الفظّة إلى القوّة الذهنية»[66]، وهو العالم الذي تشكّله المعلوماتية، ولا تزال عناصره تتجمّع لتلقي أمام الإنسانية نمطاً جديداً من التفكير والسلوك والأسلوب والصوغ[67]..

ومنذ سبعينات القرن الماضي، والتكنولوجيا تتدخل في حياة البشر وتحوّل مجرى حياتهم وتؤثر فيهم، كما تضفي أجواء جديدة من التعبير عن وجود الإنسان في هذه التطورات الخطيرة من تاريخ وجوده.. وهو ما أطلقت عليه العالمة الأميركية مارجريت ميد Margret Mead عبارة المأساة الجديدة للإنسانية في استسلام الإنسان للآلة من أجل الحياة[68].. لذلك انخفضت قيمة كل عضو

من الطبقة المثقفة، لم يعد أكثر من قطعة شطرنج أو ترس في نظام صناعي من نظم اليوم، ولقد انتقل الناس من القراءة إلى المشاهدة والصورة، وغدت الروايات التفاعلية هي التي تشدّ الإنسان إلى وسائل الإعلام وتقنياته.. إضمحلّ تأثير اللغة واقتصر الإبداع على مجالاته أمام انشغال الأجيال بألعاب تعرض على شاشات التلفاز والحاسوب والإنترنت، وأصبح الفرد لاعباً بدل أن يكون منشئاً أو يربّي ذوقه وملكاته على إنشاء يقوّي لغته وإمكاناته الكتابية، وأصبح السؤال: هل ننتج أدباً أم معلوماتية؟ مشروعاً في ظلّ التبدّل السريع في التقنيات الإعلامية ووسائل الاتصال الحديثة..

في الروايـــة التي كتبهـا الأديبان الفرنسيان فيركور وكورنيل Cornel et Vercors وعنوانها «كوتا» Quota نجد هذه التأثيرات لتكنولوجيا المعلومات تقتحم الإنسان في ملكاته وأدوات تفكيره وميوله ومشاعره، وهي تدور حول شاب اسمه «كوتا» طموح إلى جمع المال عن طريق التجارة همّه أن يحوّل الناس إلى أرقام مستهلكة، يخاطب إحدى شخصيات الرواية بقوله: «ليست هناك جدوى من التفكير»، وأنّ «الرأس هو دمارنا جميعاً»، وفي «اللحظة الراهنة ميكانيكية أمخاخنا لازالت بشرية تماماً، إنّنا لم نفلح بعد في إخماد نور العقل»، ويتبيّن من الرواية أنّ كوتا لم يفقد الأمل بتحويل المخّ البشري إلى آلة(69)..

تبدو صورة التقدّم الهائل للمعلوماتية مرعبة ومريحة في آن.. فهي مرعبة لأنّها تحاول أن تجعل من الإنسان مجرّد رقم أو آلة.. أو أن تستخدم أحد أعضائه وحسب في إدارة الآلات وبالتالي الحياة.. في هذا الواقع يصبح العالم في وسط تعديل لمجمل عطاءاته الفكرية والعلمية والإبداعية بداعي التقدّم..

أما في وطننا العربي فتبدو تقديمات المعلوماتية متراجعة عمّا هي عليه في العالم، حتى أنّنا لا زلنا نتحدّث عن حاسوب المراحل الأولى.. لقد شاخ عندنا هذا الحاسوب، ونتعامل معه على هذا الأساس.. بينما خطا في العالم خطوات أخرى لم نسمع بها حتى الآن.. إنّ المعلوماتية تدخل بلادنا ببطء شديد، هي مثال واضح «للا تشكّل» في مضمار المعلوماتية، نتفٌ هنا وأخرى هناك، لازالت غير معتمدة كليّاً ونقف أمامها حيارى.. ينتابنا الرعب منها ولا نتخذ القرار المناسب من أجلها..

في ضوء ذلك، نعيد سيرة المذاهب النقدية والنظريات اللغوية التي دخلت إلى بلادنا أو أسقطت عليها.. فقبيل التبشير بالمعلوماتية عرف العالم مزيداً من المصطلحات الأدبية التي انتقلت بدورها إلى مواطن الأدب العربي، وتناقلتها الأقلام النقدية.. بتنا أمام كمّ هائل من هذه المصطلحات، وقد أطلقت على مناهج النقد الحديث، وبات أمر البنيوية والتفكيكية والتركيبية وعلم الدلالة (السيميائية) والأسلوبية والألسنية عموماً منتشراً في مرحلة ما سمّي بالحداثة وحتى فيما بعدها.. وكان ذلك يعدّ مقدّمات منهجية، سواء عن تصميم أم غير تصميم لمصطلح المعلوماتية التي تعني في أحد تفسيراتها الاتصال.. وهو مختلف من علم إلى آخر،

ومن فن إلى آخر ونصّ إلى آخر.. والأكثر أهمية هنا أنّ الاتصال أخذ يستخدم التقنية الرقمية الإلكترونية في نقله المعلومات التي تعني أي نوع من أنواع الاتصال.. وهذا يشمل البيانات والصوت والصورة واللون مثل الكلام والأرقام والكلمات والرسوم البيانية والموسيقى والشرائط (الأفلام) والألوان والروائح[70]..

والأكثر بروزاً في استعمال اللغة هو ما عرف بالأسلوب التفاعلي، أي اعتماد التفاعل بين طرفين أو طرف وأطراف أخرى.. أو الاتصال بينهما بوساطة وسائل خاصة كالحاسوب والأجهزة الخليوية والإنترنت والإذاعة المرئية والمسموعة والسينما والفيديو والجريدة، اتصال يتم عن طريق مراكز المعلومات ليحصل على استجابة فورية من المصدر نفسه.. وبهذا يستطيع المتصل أن يتفاعل مع المعلومات ويخزنها ويغيّرها أو يضيف إليها أو يتحاور معها كما هو الأمر في الإنترنت والآلات العارضة، حتى أن الهاتف المحمول يمكن أن يصبح أداة لتصفح جريدة أو قراءة كتاب أو مشاهدة برنامج تلفزيوني، أو قراءة قصة أو قصيدة، وذلك كله مقابل بديل مالي، وهو ما يربط عملية الاتصال والثقافة والمعلوماتية عموماً بسوق التجارة والمال..

إنّ الأجواء النصّية في هذا المجال تقتضي وجود عالم افتراضي أو تشبيهي يقوم على خلق تواصل نظري (نص أو صورة ثابتة) وتحويلها إلى تواصل شعوري يخوض في فضاء ثلاثي الأبعاد من المكوّنات الثابتة والأشخاص والحالات الجديدة، بحيث نجد في الجهاز التواصلي المستعمل لوحات تعرض فيها الأعمال الفنية من رسم ونصوص أدبية أو سواهما، يتم فيها التبادل الشعوري بين المرسل والمتلقي.. وتضاف للنص أيضاً مكملات أخرى لتزويده بالروائح العطرة المتنوّعة أو الإيحاء بشعور ملمسي لدى مشاهدة الحاسوب[71].. ذلك كلّه يتم في نطاق ما يسمّى بالثورة الحسية في شبكات الاتصال.. بالإضافة إلى لغات خاصة أبرزتها المعلوماتية، لاسيّما في الهواتف الخليوية، وتبقى هذه اللغة نصيّة، لكنها غير مكتملة لناحيتيّ: ضبط تقنيات الصوت والتخصيص للغة معينة، بالإضافة إلى جفافها ومحدوديتها وعمليتها ورقميتها وعدم التفريق بين متلق وأخر.. وحضور المؤثرات المختلفة البصرية والسمعية والشمّية واللمسية..

من هذا كلّه ولد النصّ الممنهل المكتوب بطريقة مبتكرة على أساس الاتصال التفاعلي بين المتلقي والمرسل (المفترض أن يكون كاتباً).. وهذا النص محاولة لإيجاد فضاء حضاري ممنهل للمعرفة بدل فضاء الأرض[72].. وهو يقوم على الترابط المتحقق داخل وسيلة الاتصال الإلكترونية التي تسمح للمتلقي بأن يتحرك بحرية بين عناصر مختلفة.. وهو نص ينطوي على شكل من الكتابة التعدّدية التتابعية والسطرية.. واللغة هي الأداة التواصلية الأولى منطوقة ومكتوبة.. ولكن أية لغة وأي تواصل؟

إن الإجابة تحمل همّاً من هموم اللغة في البلاد العربية، ذلك أنّ اللغات المستعملة هي غير عربية إلاّ فيما ندر، وأنّ هذه الآلة لم تنتشر في بلادنا إلى الآن بمواصفاتها الأعلى تطوراً.. علاوة على عدم إتقان اللغات الأجنبية من كثير من الأفراد..

أما في المناهج النقدية والأدبية فقد كانت الأسلوبية في استقلالها مصاحبة لفورة اللسانيات، وارتبط تطوّرها بتطور هذا العلم وتشعب منهجياته، واعتمدت على قاعدة نظرية لسانية أو سيميائية أو برغماتية، فوجدت طريقها إلى نظرية الاتصال..

وإذا كان الدكتور نبيل علي يرى أن هناك إمكانية كبيرة لاستفادة الأدب من التكنولوجيا، إلاّ أنّه لا يخفي القول بالحاجة إلى تنظير أدبي جديد يعكس ما فعلته تكنولوجيا المعلومات في النص الأدبي من تشظّ وتشعّب وتناص.. إنّ تنظير أدب عصر المعلومات في انتظار نقلة نوعية تمكّنه من التعامل مع اللاخطية ومع تعدد أشكال بنية النص وفقاً لتركيبة شظاياه، ومع تغيّرها دينامياً وفقاً لما يراه القارئ في تناول نصّه(73)..

بالعودة إلى الموضوع الرئيس، يجد الباحث نفسه أمام تغيير جذري في المفاهيم وطرق الكتابة وتجلّيات الإبداع.. وفي العالم العربي لا تزال هذه المعطيات تحبو في مدارجها الأولى، وهي تعيش حالة من الهامشية ولم تدخل إلى صميم الأدب واللغة، وإن شهدت إطلالات متعددة ومبعثرة، وهي لا تزال في طور اللاتشكل، تنمو بعيداً عن أجواء تفاعلها الشعبي وبالتالي العقلي والنفسي. واللغة العربية في ذلك كله تشهد هذا اللاتشكل نفسه، لم تجد تشكّلها النهائي بعد، في ضوء الجديد، سواء فيما عرف من مذاهب نقدية أم في الصوغ الأدبي وطريقة التعامل مع النصوص. لم تتشكل بعد كنظرية كاملة، لا تزال تحدث الدهشة لدى الباحث والقارئ عل حدّ سواء، ولا تزال تنتظر القرار الرسمي كي تكون الأساس في التعاطي النقدي والتحليلي وفي البداية الكتابي، فهي شائكة للقارئ والمبدع في آن، وربما تحلّ الأجيال الناشئة هذه المعضلة، لكننا نؤكد على عدم تشكّل هذه الظاهرة اللغوية التي ترتسم تحدياً للغة العربية وقبلها للمجتمع العربي برمّته..

وعلى ذلك تغدو المرحلة الجديدة مرحلة «لا تشكل» للغة العربية تتساقط عليها الاقتراحات من كل حدب وصوب، على شكل إسقاطات أو ترجمات أو أمر واقع.. دون أن تنمو كظواهر تحمل سمة المجتمع وحركة الناس فيه.. وهي تسهم في تشرذم التكوّن اللغوي، لاسيّما في جانبه المصطلحي والنظري، في ظلّ غياب المجمع اللغوي العربي الموحد الضابط لكلّ طارف والملائم إيّاه مع التليد..

إن هذه الأمة تمتلك إمكانات واسعة في الحقول المختلفة، في عصر تسعى فيه الأمم إلى لمّ شتاتها والتمحور حول ذاتها والتنسيق مع الذوات الأخرى المشابهة.. إنّ خطر العودة إلى مرحلة ما قبل التشكّل الأكبر للغة العربية، أي قبيل الإسلام، محتمل.. تُهيأ له الظروف لتمضي في تفتيته.. إنّ المطلوب هو عدم السير بعكس الزمن.. واللغة العربية قادرة وقويّة على منع التفتت العربي.. إنّ العودة إلى هذه اللغة هو الحصن الحصين للأمة، بعيداً عن التقوّل غير النافع وقريباً من القول المفضي إلى الإستفادة من الطاقات من أجل التجميع والمضي مع الشعوب المحبة للغاتها باتجاه خير الأمة..

الهوامش

1– اللغة ومشكلات المعرفة، نوام تشومسكي، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني، ص145، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1990.

2– محاضرات في اللسانيات، د. فوزي حسن الشايب، ص23–24، منشورات وزارة الثقافة، عمّان، 1999.

3– علم اللغة الاجتماعي، تأليف د. هدسون، ترجمة د. محمود عياد، ص12، عالم الكتب، القاهرة، 1990.

4– المرجع نفسه، ص: 15–16.

5 – على أبواب القرن الواحد والعشرين: أين أصبح العالم الثالث؟، توماس كوترو وميشال هوسّون، تعريب نخلفة فريفز، ص222 و226، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، 1999.

6 – المرجع نفسه، ص228.

7 – انظر كتاب: تاريخ سوريا الحضاري القديم: 1– المركز، الدكتور أحمد داود، دار المستقبل، دمشق 1994.

8 – تاريخ الطبري، الجزء الأول، ص81–85، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

9 – بودي: ويكتب «بد» والكلمة في القاموس السرياني تعني: الضلال، الفناء، الهلاك، الموت، وفي العربية القديمة من فعل «بد» وفي العربية الحديثة من فعل باد.

10– تاريخ سوريا الحضاري، د. أحمد داود، ص92 (وهناك تفصيلات كثيرة حول نشوئه وتطوره).

11– المرجع نفسه، ص55–56.

12– دراسات في تاريخ الشرق القديم، د. أحمد فخري، ص40.

13– تاريخ العرب المطوّل، د. فيليب حتي، الجزء الأول، ص11.

14– الساميون ولغاتهم، د. حسن ظاظا، ص13–15.

15– الأساس في الأمم السامية ولغاتها، د. علي العناتي، المقدمة، ص37.

16– الإِحكام في اصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي، 1/30، وراجع في هذا المجال «فقه اللغات السامية»، كارل بروكلمان، ترجمة رمضان عبد التواب، ص6، وكتاب «اللسان والإِنسان» للدكتور حسن ظاظا، ص158–159.

17– فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان، ترجمة د. رمضان عبد التواب، ص13، جامعة الرياض، 1977.
18–تاريخ اللغات السامية، أ. ولفنسون، ص7.
19–تاريخ سوريا الحضاري، د. أحمد داود، ص 56.
20–الأساس في السامية ولغاتها، د. علي العناتي، المقدمة، ص38.
21– المزهر، السيوطي، 20/1، تحقيق محمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمود إبراهيم.
22– سفر التكوين، 1/11.
23– العصور القديمة، جيمس هنري بريستد، ترجمة داود قربان، ص294، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1983.
24– المرجع نفسه، ص295، عن تاريخ سوريا الحضاري، ص58.
25– المرجع نفسه، ص59.
26– تاريخ سوريا، د. فيليب حتي، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، الجزء الأول، ص182، دار الثقافة، بيروت، 1982.
27 – يراجع في هذا المجال كتاب: «التطور النحوي للغة العربية»، جوتلف برجشتراسر، أخرجه وصححه رمضان عبد التواب، ص 140–141، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض، 1982.
28– الأساس في الأمم السامية ولغاتها، د. على العناتي، المقدمة، ص39.
29– تاريخ سوريا الحضاري، د. داود، ص63–64.
30– المرجع نفسه، ص64.
31– ابتداء من صفحة 53.
32– من ألواح سومر، صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، ص261، مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخارنجي بالقاهرة، عن تاريخ سوريا الحضاري، ص193.
33– المرجع نفسه، ص282.
34– المرجع نفسه، ص286–287.
35– المرجع نفسه، ص183.
36– المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران، علي بن صالح السلوك الزهراني.
37– تاريخ سوريا الحضاري، 105–106–107.
38– دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية، ت.م. جونستون T.M. Johnstone ترجمة د. أحمد محمد الطّيب، ص: 51 إلى 97، الدار العربية للموسوعات، ط2، بيروت، 1983.

39– المرجع نفسه، الأبواب الثاني والثالث والرابع.
40– تاريخ سوريا الحضاري، ص645-648.
41– هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة محمد صقر خفاجة، ص83، دار القلم، القاهرة، 1966.
42– تاريخ سوريا، فيليب حتي، ج1، ص337، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1982.
43– تاريخ اليونان، محمود فهمي، ص11-15، مطبعة الواعظ، ط1، مصر 1910.
44– تاريخ اليونان، محمود فهمي، ص15.
45– تاريخ سوريا الحضاري، أحمد داود، ص691.
46– تاريخ سوريا الحضاري، أحمد داود، ص691.
47– المرجع نفسه، ص698.
48– قاموس المورد، انكليزي عربي، مادة تقف.
49– من الصفر إلى السيفرة: المثاقفة وتحولات المصطلح النقدي، د. زياد الزعبي، مجلة «عالم المعرفة»، مجلد 36، عدد 1، المجلد الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2007.
50– النظر في كتاب «المقابسات»، أبو حيان التوحيدي، حققه وقدّمه محمد توفيق حسين، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989.
51– الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، الجزء الثاني، ص139، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، بيروت، د. ت.ط.
52– أنظر كتاب «الحرون»، الفارابي، تحقيق محسن مهدي، بيروت، 1970.
53– نقد الشعر، ابن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ص73-74، د.ت.ط.
54– أدب الكاتب، ابن قتيبة، تحقيق محي الدين عبد المجيد، ص3، القاهرة 1963.
55– الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي، 1/123.
56– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة 1973.
57– صقر لبنان، مارون عبود، ص52، لبنان، 1950.
58– الحلقة المفقودة، محمد جميل بيهم، ص192، بيروت، 1950.
59– الأدب العربي الحديث، نماذج ونصوص، د. سالم المعوش، ص 126، دار المواسم، بيروت، 1999.

60– المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام (1840–1940)، أنور الجندي، ص2، مطبعة الرسالة، 1961 .

61– الفنون الأدبية وأعلامها، أنيس المقدسي، ص58، دار العلم للملايين، ط4، بيروت 1984 .

62– الأدب العربي الحديث، د . سالم المعوش، ص155 .

63– شاعر من القرن التاسع عشر، من مواليد العام 1836 في لبنان، له ديوان شعر بعنوان « العصر الجديد » .

64– الكلاسيكية في الأدب الغربي والعربي، إيليا حاوي، ص167 .

65– أشكال الصراعات المقبلة : حضارة المعلوماتية وما قبلها، ألفين وهايدي توفلر، تعريب صلاح عبد الله، ص41، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، 1998 .

66– المرجع نفسه، ص18 .

67– أنظر بحثنا بعنوان : المعلوماتية والأدب، قدّمه كاتب هذه السطور إلى مؤتمر « المعلوماتية وتحدّي الأمة الحضاري » الذي عقدته جامعة الزرقاء في الأردن

68– الثورة التكنولوجية والأدب، فالنتينا إيفاشيفا، ترجمة عبد الحميد سليم، ص208، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985 .

69– المرجع نفسه، ص211 .

70– تكنولوجيا الاتصال الجماهيري وآفاق الحرية والإبداع، بحث للدكتور صالح أبو إصبع، ألقي في مؤتمر « الحرية والإبداع » الذي عقد في جامعة فيلادلفيا في عمان في المدة من 15–2001/5/17 .

71– الروائح الرقمية في حواسبنا الشخصية، حسن يوسف، مجلة » بي سي » نيسان 2001، ص48 .

72 –Levery Pierre, L’inllectuel collectif, page 137, édition la découverte, paris, 1994

72– الثقافة العربية وعصر المعلومات، د . نبيل علي، سلسلة كتب عالم المعرفة، عدد 265، الكويت، أيار 2001، ص517 .

اللّغة العربيَة اليوم بين العاميَات واللّغات الأجنبيَة، واقع وتحدّي.

أ. جميلة راجا – جامعة تيزي وزو– الجزائر

كانت اللّغة العربيّة في ماضي أمّتنا لغة رقيّ وحضارة عظيمة، تخطّت حدود رقعة البلاد العربيّة الإسلاميّة إلى أوربا غربًا وأقاصي الصّين والهند شرقًا، ممّا دفعها إلى الاحتكاك بلغات شعوب الأمم الّتي اعتنقت الإسلام والتّأثير عليها؛ لكونها اللّغة الّتي نزل بها القرآن الكريم؛ فقد اختارها الله عزّ وجلّ لتكون آخر كتبه لغة هذا القرآن ﴿ إنّا جعلناه **قرآنًا عربيًّا لعلّكم تعقلون** ﴾ (سورة الزّخرف الآية 3)، فهي الوعاء الّذي حمل رسالة الإسلام بكلّ ما ضمنته من عبادات ومعتقدات وأخلاقيّات إلى العالم أسره. وهذا الاختيار من الله عزّ وجلّ للّغة العربيّة لم يكنْ من باب الصّدفة؛ إنّما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة واتّساع، وقدرة على الاشتقاق والنّحت والتّصريف وثراء في المفردات والصّيغ والتّراكيب وغير ذلك؛ فهذه الخصائص المُميّزة هي الّتي رشّحتها لأنْ تكون لغة القرآن الكريم؛ فشرّفت بهذا الاختيّار، وازدادت سموًّا ورفعةً؛ ممّا جعلها لغةً عالميّةً حظيت بعناية خاصّة.

واللّغة العربيّة لم تكنْ وسيلة للتّفاهم والتّواصل فحسب؛ بل كانت إلى جانب ذلك المُعبّر الصّادق عن قيم الأمّة العربيّة وحضارتها، والحافظ على تراثها وكيانها، ممّا جعلها تسمو إلى أعلى المراتب وتخرج من محلّيتها الضيّقة إلى عالميّة واسعة، وبذلك لم تكن تُعاني الإهمال والقصور من أبنائها ومن غير أبنائها ممّن دخلوا في الإسلام وأرادوا فهم تعاليمه. وبقيت العربيّة الفُصحى تعيش على هذه الحال لعهد طويل إلى أنْ وجدت نفسها اليوم أمام تحدّيات وعوامل جديدة؛ تُحاول طمسها والنّيل منها أو بالأحرى محو أيّ أثر لها في حياة النّاطقين بها وغيرهم ممّن ينضوون تحت إمرة الإسلام، وبذلك أصبحت لغة غريبة في أوطانها ومُضطهدة في ديارها، حين أخذ لها أهلها بديلاً وهو العاميّات واللّغات الأجنبيّة كالفرنسيّة والإنجليزيّة. ويكفي لهذا السّبب ولأسباب كثيرة لا تُحصى ولا تُعد لأنْ نتأسّف ونتحسّر على الوضع الّذي آلت إليه لغة ديننا ونقول وقتها قبل فوات الأوان لمُحبّيها ومُخلصيها هلمّ إلى العمل وبذل الجهد من أجل حمايتها والنّهوض بها وإبقائها صامدة – إنْ صح القول – حتّى تنتصر في المعركة اللّغويّة، وتُواجه تيّار العولمة. فكلّ هذا دفعنا إلى طرح الإشكاليّات الآتيّة:

ما الموقع الّذي تحتلّه اللّغة العربيّة الفُصحى اليوم مقارنة بموقع اللّغات الأجنبيّة العالميّة؟ وبموقع العاميّات أيضًا؟ وما هو راهن العربيّة الفصحى في أوطانها؟ وهل يجدر بالعربيّة الفُصحى لأنْ تكون كغيرها من اللّغات العالميّة لغةً قادرةً على مواجهة كلّ ما يشهده عالم اليوم من تطوّرات تكنولوجيّة وعولمة فكريّة وثقافيّة؟ وما مصير العربيّة الفُصحى في ظلّ التّرجمة الآليّة المعتمدة بنسبة عاليّة جدًّا في مختلف اللّغات الأجنبيّة؟ وما المطلوب من المؤسّسات والمجامع اللّغويّة والعلميّة ومن المجلس الأعلى للّغة العربيّة في حدّ ذاته عمله من أجل النهوض بهذه اللّغة وحمايتها من المصطلح الدّخيل والعامي؟

1)- واقع اللّغة العربيّة والعامّيات :

إنّ اللّغة العربيّة الفُصحى كما هو واقعها لغة نموذج؛ يتميّز بين اللّغات القديمة ذات الرّسالات الدّينيّة والحضاريّة كالعبريّة أو السّريانيّة، وهي لغة متميّزة أيضًا عن اللّغات الحديثة الّتي تعيش على أمل الانتشار الواسع في المُستقبل وهي لغة الوحدة والانتماء الواضح الّذي تنشده كلّ أمّة تفتخر وتعتزّ بلغتها وكيانها. والعربيّة الفُصحى اليوم تُواجه صراعًا حادًّا بسبب اللّهجات العاميّة الّتي بدأ نطاق استعمالها يتوسّع بشكل مثير للخوف ويحدث هذا بشكل خاصّ في المؤسّسات التّعليميّة والإعلاميّة والثّقافيّة؛ فقد لاحظنا في الآونة الأخيرة أنّ اللّهجات تتبوّأ منزلةً خاصّة لدى مستعمليها، وأخذت حيّزًا واسعًا من حياتهم، حيث يعتبرونها أداة لغويّة ضروريّة تقضي لهم حاجياتهم اللّغويّة والتواصليّة في مختلف المواقف الخطابيّة وغيرها. ونتيجة لذلك أصبحت العاميّة العدوّ اللّدود للفُصحى، إذْ إنّ حالها حال الشّجرة الوارفة الّتي تنتشر أغصانها هنا وهناك، وتتهدّل حولها وتتّسع بجوارها، وإذا لم تُقطع هذه الأغصان تحوّلت إلى أحراش ونباتات ضعيفة، تعيش في كنف الشّجرة الأمّ؛ حيث تمصّ من الماء الّذي ينساق في أصلها وتحرمها الظلّ والشّمس؛ فيضعف قوامها كلّما قويت الأعشاب المُحيطة بها، وامتدّت فروعها بعيدًا عن أصلها، وأخذت مسارًا آخر يختلف عن مسار الشّجرة الأصل. فهذه المُقارنة نجدها أقرب تمثيل للعربيّة الفُصحى وأصدق؛ لأنّ العاميّات نشأت بجانب لغتها الأمّ الفُصحى ونمت في كنفها(1)، وبعدها أخذت بالانحراف عنها والإحاطة بها والانتشار حولها والتغلّب عليها بسهولة. فالواقع يُبيّن مدى توسّع استعمال العاميّات في الدّول العربيّة، ولهذا فإنّ المُتأملّ في حال العربيّة الفُصحى يشعر بالألم العميق والحسرة الشديدة، لأنّها ليست عند أبنائها بالمكان المُناسب، ولا بالموضع اللائق لها، ولم تعدْ تحظى بذلك الاحترام الّذي حظيت به في الوقت الّذي

---

(1) مرزوق بن صنيتان بن تنباك، **اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسّسات التّعليميّة، الواقع والتّحديّات واستشراف المستقبل،** http//:www.faculty.ksu.edu.sa

يخشى فيه المُتكلّم من أنْ يقع في اللّحن خوفًا من التهكّم عليه واعتباره عبرة الخطأ الشّائع؛ كونه لا يُتقن لغة قومه ولا يُمثّلها أحسن تمثيل، فالعربيّ الأصيل والفذّ هو الّذي يتميّز بفصاحة اللّسان وسلامته. وإنْ كان سلفنا الصّالح قد أولى للغته الرّعاية والاحترام إلى درجة الاستخفاف بمن يُخطئ في حقّها؛ إذْ يقولون في هذا الأمر « ليس للاحن حرمة أو اللّحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه»(1)، وهذا سيبويه الّذي أخطأ في كلمة فعوتب في ذلك، فقال لا جرم، سأطلب علمًا لا تلحنني فيه فلزم الخليل ليأخذ عنه فبرع(2)، فإنّ أبناء العربيّة اليوم ينعتونها بالكلاسيكيّة؛ فهم يُوجّهون لها العقوق والتّنكّر والتّجاهل وعدم المُبالاة، لأنّها في نظرهم ليست باللّغة الّتي يفتخر بها المُتكلّم في خطابه أو المُتحدّث في الشّارع أو المستجوَب في الإذاعة أو التّلفاز وغير ذلك، وهذا ما جعل الفُصحى تتعرّض لمُختلف أنواع الهجر والتّشويه من أبنائها والتّشكيك فيها؛ ومع أنّها اللّغة الّتي حافظت على أواصر الوحدة العربيّة منذ آلاف السّنين، وراحوا يفتخرون بالعاميّات ويُطالبون بضرورة تعميم استعمالها في مُختلف الميادين؛ قائلين إنّها الأسهل والأكثر حيويّة لأنّها، جاءت كخليط من العربيّة واللّغات الأجنبيّة. وتقوم دعوة هؤلاء إلى استبدال اللّغة الفصحى بالعاميّة على أساس أنّها لغة الوضع والاستعمال(3)، فهي في نظرهم الوسيلة المعبّرة عمّا هو مستعمل ومناسب في الوقت الحاضر.

والحقّ إنّ هذا الهجر واللامبالاة للفُصحى يعود لأسباب كثيرة، فلعلّ الأمر الأوّل والهامّ الّذي يستوقفنا عند تعرّضنا لهذه النّقطة، وأثار غيظنا على الحال الّذي تؤول إليه العربيّة الفُصحى هو ذلك القول المسموع عن الحاقدين عليها إنّها لغة ميّتة لا تتماشى مع روح العصر فتراهم يزعمون أنّ العاميّة هي الحلّ لضعفهم وعدم قدرتهم على أداء لغتهم بكيفيّة سليمة وصحيحة؛ فإذا تبادلت معهم الحديث تجدهم يأخذون من هنا وهناك دون إدراك أو وعي منهم أنّ الكلمات الّتي وظّفوها بعضها منبثق في الأصل من الفُصحى والبعض الآخر مأخوذ من اللّغة الفرنسيّة أو غيرها. ومن هنا تصبح الفُصحى لغة مهجورة وغريبة عن أهلها ويقلّ الاهتمام بها، لأنّ رفضها يدفع الكثيرين إلى الاحتفاء بالآداب الشّعبيّة والأشعار العاميّة، ممّا يدفع وسائل الإعلام إلى خدمة هذا النّوع من الأدب ونشره، وتسعى جاهدة لنشره والتّشجيع عليه(4)، وفي هذا التّشجيع لكتابة هذا النّوع من الشّعر صرف للنّاشئة عن كتابة الشّعر العربيّ الأصيل.

---

(1) صالح بلعيد، **في قضايا فقه اللّغة العربيّة**، د- ط. الجزائر: 1995م، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ص 28.

(2) سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، **الكتاب**، تح: عبد السّلام هارون، ط2. القاهرة: 1977م الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج1، ص7.

(3) صالح بلعيد، **اللّغة العربيّة العلميّة**، د- ط. الجزائر: 2002م، دار هومة، ص 13.

(4) مرزوق بن صنيتان بن تنباك، **اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين في المؤسّسات التّعليميّة، الواقع والتّحديّات واستشراف المستقبل**، http//:www.faculty.ksu.edu.sa

وبخصوص ذكرنا لوسائل الإعلام ثمّة نقطة هامّة لا يجب أنْ نتغافل عنها وهي أنّه إنْ كان لهذه الوسائل دور كبير في نشر اللّغة العربيّة وترقيّتها؛ حيث لا ننسى تلك الجهود الّتي يبذلها العديد من الصّحافيّين يوميًا من أجل خدمة هذه اللّغة وإثرائها، وذلك بإخراج الكلمات الحضارية الجديدة من مخازن المجامع ورفوفها إلى الأماكن العامّة والشّوارع والمقاهي؛ من خلال ما يكتبونه للمُستمعين والقرّاء من أخبار وأحداث، وما يُسجلونه من وقائع عن الحياة العصريّة(1)، فإنّها في المُقابل تُشجّع على استعمال العاميّة، وذلك بالعمل على تقديم البرامج باللّهجة العاميّة، إذْ ترى الصّحافيّ أو المُنشّط للبرنامج يُكلّم ضيفه بالعاميّة دون مراعاة للحديث بالعربيّة الفُصحى الّتي يجب أنْ يسهر هو أيضًا على ترقيّتها ونشرها بكيفيّة سليمة؛ ممّا يُعين المُستمع على تعلّم لغته وفهمها، والتعوّد على سماعها، فالصّحافيّ تجده مهتمًّا أكثر بنشر المعلومات والأخبار وليس بنشر اللّغة، ولذلك لا ينظر في أهميّة استعمال العربيّة الفُصحى عند مُخاطبة الجمهور وإيصاله الخبر اليقين، وهو بذلك يفتح مجالاً واسعًا للعاميّة، وتكون هي من يستغلّ السّلاح الرّابع أفضل استغلال(2). وعلى هذا تكون الوسائل الإعلاميّة قد تحمّلت قسطًا كبيرًا في تدهور وضع العربيّة الفُصحى، فهي بصفة عامّة « لم تعمل على التطوّر اللّغويّ المفيد لما لها من تأثير على الجمهور، فراحت تدعو أو تُوظّف العاميّات بلا خجل، وفتحت المجال أمام الحصص الثّقافيّة المذاعة بالعاميّة، والحديث بالدّارج في الأخبار واللّقاءات العلميّة والحصص التّرفيهيّة، فهل تساءلنا عن نسبة المُسلسلات العاميّة من الفصيحة، ونسبة الحصص الثّقافيّة المُذاعة بالفصحى، ونسبة الحديث بالدّراجة عن الحديث بالفصحى في الأخبار واللّقاءات العلميّة والحصص التّرفيهيّة »(3). فالأمر الواضح هنا هو أنّ العاميّة تحتلّ المكانة الأولى عند تقديم البرامج سواء في الإذاعة أم في التّلفاز، وتستأثر بأطول الأوقات. ولو أخذنا على سبيل المثال « **حصّة صباح الخير** » الّتي تُقدّم يوميًا في قناة التّلفاز الجزائريّ؛ نجد أنّ العاميّة تطغى على الحصّة بشكل جليّ؛ فالمُنشّط نادرًا ما تسمعه ينطق بالعربيّة الفُصحى خلال المُدّة الزّمنيّة المُحدّدة للحصّة. وللأسف نجد أنّ مثل هذا الوضع ينطبق على مختلف الوسائل الإعلاميّة العربيّة من مسموعة ومرئيّة(4)، وعلاوة على أنّ العاميّة استولت على الشّارع والبيت، ونزلت إلى ميدان الفصحى بقوّة. هذا وإضافة إلى أنّ

---

(1) أحمد بن نعمان، **التّعريب بين المبدأ والتّطبيق**، د – ط. الجزائر: 1981م، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ص419.

(2) يُنظر: صالح بلعيد، **اللّغة العربيّة العلميّة**، ص27.

(3) صالح بلعيد « **دفاعًا عن لغة الإعلام** »، يوم دراسي حول دور وسائل الإعلام في نشر اللّغة العربيّة وترقيّتها. الجزائر: 2004م، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، ص121.

(4) عبد الكريم خليفة « **العربيّة الفصحى والعاميّة في الإذاعة والتّلفاز** »، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة. القاهرة: أبريل 2000م، ص80. بتصرّف

العاميّات انتشرت في البلاد العربيّة نتيجة الجهل والأميّة الّتي سادت فيها، فالمُتعلّم عند مخاطبته لغير المتعلّم تجده مضطرًّا إلى استعمال العاميّة حتّى يتحقّق بينهما التّواصل.

وإنْ كان للإعلام يدٌ في توسيع فكرة التّقليل من استعمال العربيّة الفُصحى عند مخاطبة الجمهور وإحلال العاميّة مكانها؛ فإنّ لمؤسّسات التّعليم يدًا في ذلك أيضًا، وذلك عن طريق المُدرّس أو الأستاذ الّذي تُلاحظه في أكثر الأحيان لا يحرص على الالتزام بالعربيّة الفُصحى أثناء تقديمه للدّروس، فهو يتهرّب من الفُصحى لعدم إلمامه بالقواعد النّحويّة والصّرفيّة الّتي تحتكم إليها مُستعينًا بالعاميّة. والمدرّس الّذي يتهاون في حقّ اللّغة الّتي يُعلّمها سيُؤثّر تأثيرًا جسيمًا في إفقاد تلك اللّغة قيمتها العلميّة لدى المتعلّمين وبالتّالي تصبح العاميّة هي أداة تعبيرهم وتواصلهم مع الغير، وهنا يصلح ذكر المثل المشهور « **العلم في الصّغر كالنّقش في الحجر** »، فبعد أنْ يتعلّم التّلميذ اللّهجة العاميّة في صغره ويتعوّد على سماعها والتحدّث بها؛ فلا داعي للبحث عن سبُل تعليمه العربيّة الفُصحى، لأنّه « إذا كانت العاميّة تأخذ على المدرّس وعلى الطّالب منافذ الطّريق ويكون الحوار والكلام بها، فإنّه من غير الممكن أنْ تولد معجزة تجعل هؤلاء الأطفال بعد إكمال التّعليم العامّ أو حتّى بعد التخرّج من الجامعة ومن أقسام اللّغة العربيّة يُقلعون عمّا عهدوه في كلّ سنين دراستهم وتلقوه في مناهج تعليمهم»(1)، فالطّالب عند تخرّجه تجده عاجزًا عجزًا كبيرًا عن كتابة خطاب بسيط بلغة عربيّة فصيحة وسليمة. وأضف إلى أنّه من المؤلم حقًّا أنْ ترى بعض الأساتذة في بعض الأقسام الجامعيّة والمعاهد المُتخصّصة لا يُخاطبون طلبتهم، ولا يُناقشون الرّسائل العلميّة إلاّ بالعاميّة وهذا لا محالة سيؤثّر تأثيرًا كبيرًا في إضعاف المُستوى اللّغويّ للطّلبة. وما يُثير انتباهنا في كثير من الأحيان ما نسمعه من بعض أساتذة التّاريخ أو الرّياضيّات مثلاً عند مساءلتهم عن سبب عدم استعمالهم للعربيّة الفصحى في تقديم الدّروس وشرحها ومُخاطبة الطّلبة بها؛ إذْ يُصرّحون بالقول إنّ تخصّصهم لا يجبرهم على استعمال الفصحى، وأنّ ذلك يكون من مهام أستاذ اللّغة العربيّة.

ثمّ إنّ الوسط الاجتماعي والبيئة عامل حاسم في علاقة النّاس بالفصحى وعلاقتها باللّهجات المحليّة في الوطن العربي، فالعاميّة تنتشر انتشارًا واسعًا؛ يتكلّم بها الخاصّة قبل العامّة والمُتعلّمون قبل غيرهم، فلا يجد أحدهم حرجًا في استعمال العاميّة، لأنّهم لا يتعرّضون للاستخفاف والاستهزاء مثلما يحدث الأمر مع العربيّة الفُصحى؛ إذْ «كلّ من يلجأ إلى استعمال الفصحى – كما تعلّمها في المدرسة وكما يُعبّر بها المذيع والخطيب في بيته مع ذويه – وفي غير ظروف التّعليم والتّلقين– ومع أصدقائه في مكان عمله أو غيره– وأيّ واحد في الشّارع – فيتعرّض بذلك للاستهزاء والسّخريّة ومثله في ذلك كمثل الّذي يخطب في النّاس وهو يريد

---

(1) موقع الأنترنيت http//:www.faculty.ksu.edu.sa

مُخاطبتهم في أغراض بسيطة؛ فهو يُخاطبهم وكأنّه يقرأ من كتاب وقد رسّخ في أذهان المعلّمين أنّ اللّغة العربيّة ليس لها إلاّ كيفيّة واحدة في التّعبير؛ وهو المستوى الّذي سميناه بالإجلالي أو التّرتيلي»(1). فالعربيّة الفُصحى إذن؛ تبقى في دوّامة القول إنّها اللّغة الّتي يجب أنْ يتعلّمها الطّفل في المدرسة، والّتي تُعتمد في ترتيل القرآن الكريم لا غير، حيث لا يمكن استعمالها إلاّ في المكاتب الرّسميّة ومؤسّسات التّعليم. وكما أنّ العربيّة الفُصحى في نظر بعضهم لا تتعدّى لغة القراءة والكتابة في المنظومة التّربويّة؛ فهي لغة المتاحف، ولذلك أضحت لغة منعزلة عن معظم مجالات الحياة، ولم تبلغ بعد درجة لغة العمل.

ومهما يكن من أمر؛ فنحن نؤكّد على أنّ العاميّة صحيح أنّها أخذت نصيبها من الاستعمال في الواقع الفعليّ، ولكن في نهاية المطاف تبقى العربيّة الفُصحى الّتي تعيش اليوم في خضم متلاطم من أحراش اللّهجات المحليّة متحدّية كل ما هو مسيء إليها؛ فهي تتحدّى جميع الآراء التعسّفيّة والوهميّة الّتي تُنادي بفكرة إحلال العاميّة محلّها، علمًا أنّ العاميّة لن تُلبي حاجة مستعمليها أفضل من الفُصحى بسبب فقرها وعجزها، فهي ينبغي أنْ تتخّذ على حدّ قول «**عبد السّلام المسدي**» « لا كأداة تعبير حيّ تلقائي، وإنّما كوسيط ثقافي فإنّها شقيق طبيعيّ يتحوّل على أيدينا إلى عدوّ إيديولوجي بكلّ قيمه السّلبيّة النّاسفة»(2). هذا ولابدّ من الإقرار بأنّ العربيّة الفُصحى ليست اللّغة الوحيدة في العالم الّتي تُواجه صراع اللّهجات العاميّة؛ بل هي ظاهرة مشتركة بين جميع اللّغات. فالمهمّ في الأمر أنْ يحرص المُتحدّث أو الخطيب على استعمال هذه اللّغة في المقام الّذي يتوجّب عليه ذلك؛ فالمُدرّس عليه دائمًا أنْ يستعمل العربيّة الفُصحى في قاعات الدّرس، وعلى الإعلامي أيضًا أنْ يكتب ويُخاطب جمهوره العريض بعربيّة بسيطة وسليمة؛ ليس ضروريًا أنْ تكون بلغة الجرجاني.

2)- واقع اللّغة العربيّة واللّغات الأجنبيّة:

إلى جانب التيّار الجارف الّذي تتحدّاه اللّغة العربيّة نتيجة العاميّة؛ فهي تُواجه تيارًا آخر أكثر خطرًا عليها وتهديدًا على بقائها وهو تيّار اللّغات الأجنبيّة وخاصّة منها الإنجليزيّة. والحديث عن الواقع الّذي تحتلّه العربيّة الفُصحى في أوطانها يدفعنا إلى تناول قضيّة جدّ هامّة وهي اعتماد اللّغات الأجنبيّة لغة التّعليم الجامعي في الأقسام العلميّة في كثير من الجامعات العربيّة، فالطّب والهندسة والعلوم التّكنولوجيّة جميعها لا تُدرّس إلاّ باللّغة الأجنبيّة، فالجامعة الجزائريّة مثلاً

---

(1) الحاج صالح «**اللّغة العربيّة بين المُشافهة والتّحرير**»، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة. الجزائر: 2007م منشورات المجمع الجزائريّ للّغة العربيّة، ص74- 75.

(2) عبد السّلام المسدي، **العولمة والعولمة المضادة**، ط 1. مصر: 2000م، كتاب سطور، ص409.

يُدرّس فيها الطبّ باللّغة الفرنسيّة؛ باعتبارها اللّغة الأجنبيّة الأولى في الجزائر، وفي بعض دول المشرق العربيّ يُدرّس باللّغة الإنجليزيّة. ومن المؤسف أنْ تحتلّ اللّغة الأجنبيّة المرتبة الأولى في المراكز الصحيّة والمُستشفيات والفنادق وغيرها. **ومن هنا نتساءل هل العربيّة عاجزة عن أداء متطلّبات أبنائها، ولذلك يلزم علينا أنْ نستعمل اللّغات الأجنبيّة أينما أردنا ذلك؟** وأنْ نطرح هذا التساؤل لا يعني أنّنا ضدّ أهميّة تعليم اللّغات الأجنبيّة؛ فتعلّمها نعتبره أكثر من ضرورة في عصرنا هذا؛ بل الأمر يصل إلى مرحلة الوجوب. فالخطأ هو أنْ تعمل الدّول على تدريس العلوم في المدارس والجامعات باللّغة الأجنبيّة على حساب اللّغة القوميّة، وإنْ كان هناك الكثير من الدّول العربيّة الّتي تعتمد اللّغة الفرنسيّة أو الإنجليزيّة في تدريس الطّب؛ فهذه اليابان الّتي تدرّس العلوم كلّها بلغتها مع ما في اللّغة اليابانيّة من صعوبة وبعد عن الحسّ الغربيّ، وإسرائيل أيضًا الّتي أحيت العبريّة وجعلتها لغة التّعليم والحياة رغم قربها – إسرائيل– من ثقافة الغرب ولغته وحضارته واتّصالها به، ومع ذلك لم تختر لغة من اللّغات الغربيّة للتّدريس في المؤسّسات والجامعات مع صلتها بهذه اللّغات وأهميّتها لها، فهي تُدرّس الطبّ بلغتها العبريّة الّتي انتهت من الاستعمال المعاصر منذ آلاف السّنين، ولم تقل إنّ لغتها غير قادرة على أداء مهمّة تدريس الطّب وغيره من العلوم؛ عكس ما يُقال اليوم عن اللّغة العربيّة، فهي في نظر البعض تبقى لغة الشّعر والأدب وفقط، ومن ثمّ تنحصر أهميّتها في التّعبير عن المشاعر والأحاسيس، وفي حين تقوم اللّغات الأجنبيّة هي بمهمّة البحث العلميّ والتكنولوجي. وكأنّ العربيّة تعجز عن أداء هذه المهمّة ولذلك أصبحت عالة اقتصاديّة على اللّغات الّتي لا ماضي لها ولا تاريخ(1)؛ تكوّنت بفعل السّرعة والتقدّم العلمي. والأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ فقط؛ إنّما هناك من دعا إلى إطلاق رصاص الرّحمة على جسد العربيّة الفُصحى – كما يقول – حتّى تستريح وتُريح لأنْ تحلّ العاميّات محلّها، ويصفها بأنّها أصل معطوب، وأنّها انقطعت عن الحياة وانقطعت الحياة عنها.

وما يُزيد الطّين بلّة هو ما نُشاهده من أخطاء جسيمة ومخالفات لغويّة ونحويّة واضحة في اللافتات الإشهاريّة أو اللّوحات المعلّقة على واجهات المحلاّت التّجاريّة. وما نراه أيضًا من كثرة المسميّات الدّخيلة الّتي تتسلّل إلى لغتنا العربيّة بسبب غفلة من أبنائها، فحين تستمع إلى متحدّث بالعربيّة تجد في ثنايا حديثه كلمات أجنبيّة، وربّما السّبب الرّئيس في ذلك يعود إلى الوصول المتأخر للمصطلحات الّتي تُترجم من اللّغة الأجنبيّة إلى العربيّة؛ **فهل هناك من يسمع زميلاً له أو قريبًا يقول كلمة المحمول أو النّقال بدلاً من كلمة «البورتابل»؟** ومع أنّ لغتنا العربيّة كانت لغة متّسعة مستوعبة أكثر من معظم لغات العالم، إذْ كما أعطت أبناءها في عهد الحضارة

(1) صالح بلعيد، **اللّغة العربيّة العلميّة**، ص136. بتصرّف

الإسلاميّة المزدهرة القدرة على التّأليف والابتكار والإبداع في مختلف مجالات العلم والمعرفة؛ فإنّ بإمكانها اليوم أنْ تمدّهم بكلّ ما يحتاجون إليه من مفردات لاستيعاب كلّ ما يشهده العصر من مستجدّات علميّة ووسائل تقنية متطوّرة(1). والّذي تجدر الإشارة في هذا المقام؛ أنّ بطء المُؤسّسات اللّغويّة وتأخّرها في إعطاء المصطلح المقابل للمصطلح الأجنبي يجعل المتحدّث بالعربيّة يقول إنّ لغته عاجزة عن أداء متطلّباته، بيد أنّ لغته باختصار؛ «تشكو تخمة مصطلحيّة لكنّها تحتاج إلى غربلة لجعلها موحّدة، ووضع خطّة جديدة للعمل المصطلحي، لتفادي ذلك البطء الكبير»(2). وعليه؛ نُدرك أنّ حلّ مشكلة المصطلح العلمي أو التقني يتطلّب تخطيطًا محكمًا تتّفق عليه جميع المؤسّسات اللّغويّة والعلميّة المختّصة في المجال. وعلاوة على أنّ الأمم لا ترضى بالدّخيل اللّغوي الّذي يُهدّد مكانة لغتها القوميّة؛ ومثال ذلك المجمع الفرنسيّ العلمي الّذي يُنادي بإبطال كلمة إنجليزيّة تسلّلت إلى الفرنسيّة من أثر الحرب العالميّة، حيث اعتبرها بمثابة جنديّ في دولة أجنبيّة في أرض دولة مستقلّة(3). وليس من الغرابة أنّ المجمع ما فعل ذلك إلاّ لأنّ الغفلة تستدعي مزيدًا من التّداخل والاختلاط اللّغوي. ولعلّ السّؤال الّذي وجب طرحه في ضوء هذا السياق هو **هل نحن على علم بعدد الكلمات الدّخيلة الّتي تسلّلت إلى لغتنا العربيّة أو بتعبير المجمع بعدد الجنود في بلادنا؟** وممّا لا شك فيه أنّ عدد الكلمات الدّخيلة الّتي تسلّلت إلى العربيّة يفوق التصوّرات. وعلى هذا؛ لابدّ أنْ نُصرّ على القول إنّ لمجامع اللّغة العربيّة ومؤسّسات التّعريب والتّرجمة مسؤوليّة كبيرة في مواجهة هذا السّيل الجارف من الكلمات الأجنبيّة الّتي تلقى التّرحيب لدى أبناء العربيّة قبل أنْ تصير في وقت قصير كلمات محليّة مستأنسة؛ تستقرّ في أذهانهم ويستعملونها دون أيّ حرج.

وما لا خلاف عليه أنّ اللّغة الأجنبيّة الّتي تُزاحم لغتنا العربيّة على مكانتها في عصر العولمة والإنترنيت هي اللّغة الإنجليزيّة الّتي أصبحت الوعاء الثّقافي الّذي تصبّ فيه المعلومات العصريّة، فهي تُسيطر على شبكة الإنترنيت بنسبة كبيرة جدًّا. ومثل هذا الوضع ينطبق على جميع اللّغات؛ فهذه فرنسا الّتي تعتبر من أقوى الدّول تأثيرًا في الوقت الحالي إلاّ أنّ نصيبها اللّغوي وحتّى الثّقافي في ظلّ العولمة لن يكون بمثل نصيب الدّول النّاطقة باللّغة الإنجليزيّة. والمكانة الّتي تتبوّأها الإنجليزيّة كانت نتيجة لقوّة أمريكا السيّاسيّة والاقتصاديّة، فهي اللّغة المهيمنة على شبكة الإنترنيت بنسبة

(1) عبد اللّطيف الصّوفي، **مصادر اللّغة في المكتبة العربيّة**، د – ط. الجزائر: د– ت، دار الهدى ص31.

(2) صالح بلعيد «**تحدّيات اللّغة العربيّة في الألفية الثّالثة**»، ندوة دوليّة حول مكانة اللّغة العربيّة بين اللّغات العالميّة. الجزائر: 2001م، منشورات المجلس العلى للّغة العربيّة، ص320. ص31.

(3) موقع الأنترنيت http//:zahra 1.com

88 ٪، والنّسبة الباقية يتوزّع 9٪ منها على الألمانية و2٪ على الفرنسيّة و1٪ على بقيّة اللّغات الغربيّة(1)، وعلاوة على أنّه نتيجة لسيطرة الإنجليزيّة العظمى على هذه الشّبكة فالكلّ يرغب في أنْ يتعلّمها وخصوصًا أبناء العربيّة؛ لأنّ تعلّمها في غاية الأهميّة، حيث يُساعدنا ذلك على التطلّع والتفتّح على العالم والتعامل مع الغير بإيجابيّة. هذا ولا ننسى هنا أنّ البعض قد اعتبر اللّغة الإنجليزيّة مفتاح علوم العصر؛ معتقدين أنّ مستقبل الّذين يُجيدون هذه اللّغة هو الأفضل، وأنّها تُحقّق لخرّيجيها مهارات وكفاءات لا تتحقّق في غيرها من اللّغات. ولكن مثل هذا الوضع يدفعنا إلى أنْ نتساءل مرّة أخرى **أين موقع اللّغة العربيّة في الشّبكة المعلوماتيّة؟** وما لا يجب أنْ نتجاهله أنّ للعربيّة موقعًا خاصًا بين اللّغات العالميّة؛ خاصّة بعد أنْ أضيفت إلى اللّغات الخمس الرّسميّة المعتمدة في الهيئات الدوليّة وهي الإنجليزيّة والفرنسيّة والإسبانيّة والرّوسيّة والصّينيّة. وإضافة إلى أنّ نسبة إقبال الأجانب على تعلّمها في تزايد مستمرّ بدافع العمل والتّجارة؛ ممّا يعني أنّها ستؤكّد عالميتها أكثر فأكثر في المستقبل القريب. وزيادة على أنّها تُدرّس على مستوى الجامعات والمعاهد العليا كلغة اختصاص وكلغة انفتاح ثقافيّ وحضاري أيضًا.

وإضافة إلى ذلك، أدّى التطوّر السّريع في ميدان الحواسيب وبرمجياتها إلى انتشار ما يُسمّى بالتّرجمة الآليّة؛ الّتي تتمّ بواسطة برمجيّات حاسوبيّة تُترجم من لغة إلى أخرى. وهذا النّوع من التّرجمة حقّق قفزةً نوعيّةً بين اللّغات الأوربيّة؛ فقد وصلت دقّة التّرجمة فيما بينها إلى أكثر من 90٪. وفي الوقت نفسه؛ نجد أنّ محاولات إخضاع اللّغة العربيّة لهذه التّرجمة قد قطعت مراحل جيّدة تصل إلى 50٪ (2). وكلّ هذا من شأنه أنْ يضع العربيّة في موقع هامّ يُساعدها على تحدّي كلّ الصّعوبات والمعيقات الّتي تقف في وجهها للوصول إلى العالميّة، ومُسايرة تيّار العولمة بكلّ ثقة وكفاءة.

ولأجل كلّ ما تقدّم؛ تبيّن لنا أنّ تعميم اللّغة العربيّة متوقّف على مدى استعمالها من النّاطقين وغير النّاطقين بها في مختلف المجالات. فمن الحري أنْ يُطالب المدرّس بعدم التّسامح في استعمال العاميّة في التّدريس، وعدم اتّخاذها وسيلة للتخاطب حتّى لا تفقد العربيّة الفصحى مكانتها في نفوس طلابها. والإعلامي أيضًا عند مخاطبته للجمهور باستعمال لغة عربيّة بسيطة وسليمة، وبالابتعاد قدر الإمكان عن استعمال المصطلحات الدّخيلة؛ لتحلّ محلّها المصطلحات العربيّة. ومن رؤساء تحرير الصّحف والمجلات باحترام هذه اللّغة ووضعها في المستوى الّذي

---

(1) عبد الهادي بوطالب «**لابدّ من تكامل العولمة والهويّة ليكون العالم واحدًا ومتعدّدًا**»، مطبوعات الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة. الرّباط: 1997، عدد العولمة والهويّة، ص125.

(2) تهامي كريمة «**اللّغة العربيّة قادرة على احتواء التّكنولوجيا**»، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة. الجزائر: 2005م، عدد خاصّ، ص316.

يليق بها؛ فلابدّ من مراعاتهم للجانب النّحويّ والصّرفيّ لها وغير ذلك. ومن الضّرورة تقديم الإعلانات في وسائل الإعلام السّمعيّة والبصريّة ونشرها بالعربيّة الفُصحى، ونشر اللافتات أيضًا على واجهات المحلاّت التّجاريّة والطّرق بالخطّ العربيّ الجميل؛ بشكل جذّاب لافت للنّظر؛ لِما لذلك من تأثير عميق في نفوس القُرّاء.

وكما لا نتغافل عن دور العمل المعجمي في تطوير اللّغة العربيّة وحلّ مشكلاتها، فإذا استطاع المعجم العربي في الماضي أنْ يستوعب رصيد هذه اللّغة كمعجم «**لسان العرب**» **لابن منظور** (ت**711هـ**) الّذي صان للعربيّة كيانها في عصر الانحطاط والضّعف؛ فلِم لا تقدر على استيعاب الانفجار المعرفي الّذي يشهده عالم اليوم. وينبغي أنْ نُشير بصدد هذا إلى أنّ مكتب تنسيق التّعريب يُساهم في توحيد آلاف المصطلحات العلميّة ونشرها في معاجم، ومع ذلك تبقى جهوده أقلّ استيعابًا لما يتسّلل إلى اللّغة العربيّة من مفردات أجنبيّة. وعلى هذا الأساس؛ مطلوب من جميع المؤسّسات اللّغويّة والمجامع المختصّة في ميدان التّرجمة والتّعريب أنْ تتوحّد أعمالها وإنجازاتها أكثر فأكثر من أجل تحقيق الاكتفاء الذّاتي فيما يتعلّق بمشكلة المعاجم المتخصّصة من علميّة وتقنية وغيرها، وذلك أنْ تحرص على إحلال المصطلحات العربيّة محلّ المصطلحات الأجنبيّة في الصّيدلة والطّب ومختلف العلوم الرّياضيّة والهندسيّة والتّكنولوجيّة.

وفي الختام؛ نصل إلى القول إنّ هدفنا من دراسة موضوع واقع اللّغة العربيّة بين العاميّات واللّغات الأجنبيّة ليس العمل على حفاظ هذه اللّغة من الاندثار، لأنّ الله عزّ وجل يتعهّد بحفظها وبقائها؛ إذْ يقول ﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا لـه لحافظون** ﴾ (سورة الحِجر الآية 9)؛ فهي رغم كلّ شيء تبقى لسان الإسلام وترجمان القرآن، وإنّما نسعى لحمايتها من الجانب الّذي يُسيء إليها نتيجة لسلبيّات العاميّة واللّغات الأجنبيّة، والسّهر على أنْ يكون لها النّصيب الأوفر في الشّبكة المعلوماتيّة وفي ميدان الترجمة الآليّة أيضًا. وعلاوة على أنّ لغتنا العربيّة في سبيل النّهوض المُتجدّد؛ فهي اليوم تحتلّ موقعًا مشرّفًا لها ولأبنائها؛ ومع ذلك يبقى الحرص عليها أمرًا ضروريًّا، والدّفاع عنها ضرب من ضروب العبادة.

* **الهوامش :**

– القرآن الكريم (**رواية حفص**) .

1 – الكتب :

– أحمد بن نعمان، **التّعريب بين المبدأ والتّطبيق**، د – ط . الجزائر : 1981م، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع .

– سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، **الكتاب**، تح : عبد السّلام هارون، ط2 . القاهرة : 1977م، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج1 .

– صالح بلعيد، **في قضايا فقه اللّغة العربيّة**، د– ط . الجزائر : 1995م، ديوان المطبوعات الجامعيّة .

– عبد السّلام المسدي، **العولمة والعولمة المضادة**، ط1 . مصر : 2000م، كتاب سطور .

– عبد اللّطيف الصّوفي، **مصادر اللّغة في المكتبة العربيّة**، د– ط . الجزائر : د– ت، دار الهدى .

2 – المجلات :

– الحاج صالح « **اللّغة العربيّة بين المُشافهة والتّحرير** »، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة . الجزائر : 2007م، منشورات المجمع الجزائريّ للّغة العربيّة .

– تهامي كريمة « **اللّغة العربيّة قادرة على احتواء التّكنولوجيا** »، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربيّة . الجزائر : 2005م، عدد خاصّ .

– ـــــــ ، **اللّغة العربيّة العلميّة**، د–ط . الجزائر : 2002م، دار هومه .

– ـــــــ ، « **دفاعًا عن لغة الإعلام** »، يوم دراسي حول دور وسائل الإعلام في نشر اللّغة العربيّة وترقيّتها . الجزائر : 2004م، المجلس الأعلى للّغة العربيّة .

– ـــــــ ، « **تحدّيات اللّغة العربيّة في الألفية الثّالثة** »، ندوة دوليّة حول مكانة اللّغة العربيّة بين اللّغات العالميّة . الجزائر : 2001م، منشورات المجلس العلى للّغة العربيّة .

– عبد الكريم خليفة « **العربيّة الفصحى والعاميّة في الإذاعة والتّلفاز** »، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة. القاهرة: أبريل 2000م.

– عبد الهادي بوطالب «**لابدّ من تكامل العولمة والهويّة ليكون العالم واحدًا ومتعدّدًا**» مطبوعات الأكاديميّة الملكيّة المغربيّة. الرّباط: 1997.

3 – مواقع الأنترنت:

– مرزوق بن صنيتان بن تنباك، **اللّغة العربيّة في القرن الحادي والعشرين في المؤسّسات التّعليميّة**، الواقع والتحديّات واستشراف المستقبل، http//:www.faculty.ksu.edu.sa

– http://zahra1.com.

المحور الثاني

وضع اللغة العربية خارج أوطانها

عالمية اللغة العربية : الرؤية والأداة

أ.د. بكري عبد الكريم – ج. وهران

الـملخص :

لقد إرتأينا أن ندخل لموضوع عالمية اللغة العربية من الأبواب التي يمكن أن تفتح أمام مسيرتها الطبيعية التاريخية إذا تهيأت لها أسباب التطور والارتقاء ولقد اقتضت منهجية هذه الرؤية أن تكون محاولة لصياغة إجابة على بعض الأسئلة التي وصعناها في مقدمة هذا البحث والتي يمكن إجمالها في :

1– ماهي مظاهر القوة والثراء، والعطاء التي تتمتع بها اللغة العربية وكيف استطاعت أن تصمد وتقاوم كل عوامل الإزالة والتشويه والتمييع التي تعرضت لها عبر تاريخها المديد ؟

2– ماهي السبل والقنوات الواجب اتّباعها لمد الجسور وربط الصلات بينها وبين الثقافات واللغات الحية العالمية؟

3– كيـف يـمكن أن نـجاوز بين أرصدتنـــا اللغوية وبين عالـم الفكر والعلم؟

4– ماهي الطريقة التي تمكننا من وضع المستجدات والمستحدثات العلمية في أوعيتها، وقوالبها لنجعل من لغتنا ذخيرة لفظية تلاحق حركة التجديد والتطور، وتواصل انتشارها في الأوساط الإجتماعية والعلمية في مختلف أنحاء العالم؟

وهي أسئلة تفضي إلى استفسارات أخرى تتعلق بأهمية تعليم هذه اللغة للجاليات العربية والإسلامية والأجنبية في آسيا، وأوروبا وأميريكا ومراعاة المناهج والنظريات التربوية اللازمة لذلك.

نحاول إذن في هذه الدراسة أن نجيب على هذه الأسئلة من خلال تلمس السبل ورسم الخطط التي تقربنا من المحطات العلمية العملية التي ينطلق منها عالمنا اليوم في مجال التأصيل والتطوير والبناء.

لقد أصبح طريق الباحث في مستقبل اللغة العربية ومكانتها بين اللغات العالمية مختلفا (في المنهج وطريقة التناول) عما كانت عليه نظرات ودراسات السابقين لمواطن، وأوضاع لغتنا العربية الجميلة، حيث إن التحديات والرهانات العلمية والثقافية، والإعلامية التي أصبحت تمثل العمل الفاصل الذي ينبغي أن تقاس في ضوئه مدى تصدّينا لهذه الهجمة العارمة، وهذه

الحشود الإعلامية من صحف، وقنوات فضائية تلفزيونية وانترنيت، ومدى قدرتنا على الدخول في منافسة دولية على جميع الأصعدة تتطلب منا بالخصوص المحافظة على خصوصية لغتنا، وأوعيتنا الثقافية في عالم يتغير من حولنا بسرعة مذهلة، ويشهد طفرة هائلة في تكنولوجيا الاتصال، والمعلومات.

ووفاء لما ألزمنا به هذا البحث من حيث وجوب إتباع سبل تقّربنا من المحطات العلمية والأكاديمية التي ينطلق منها عالمنا اليوم في هذا المجال فإننا نود أن نربط مسار وجهتنا البحثية بأسئلة موضوعية تمكننا من رسم المعالم، والضوابط التي ينبغي الالتزام بها لصياغة رؤية متكاملة وشاملة لما نريده لهذه اللغة من تطور، وانتشار، وازدهار، وهذا انطلاقا من موقعنا الزمني ومفهومنا لمواقع العربية في دوائرها القومية الداخلية المتداخلة من جهة، وللدوائر المحيطة التي يتكون منها العالم بأشيائه التي تغمر حياتنا اليومية من جهة أخرى.

اقتضت منهجية هذه الرؤية إذن أن تكون محاولة لصياغة إجابة على بعض الأسئلة التي وضعناها في مقدمة هذا البحث والتي يمكن إجمالها فيما سنعرضه في الفقرات القادمة.

1- ما هي مظاهر القوة والثراء والعطاء التي تتمتع بها اللغة العربية وكيف استطاعت أن تصمد، وتقاوم كل عوامل الإزالة والتشويه والتمييع التي تعرضت لها عبر تاريخها الطويل؟

2- ما هي السبل والقنوات الواجب إتباعها لمد الجسور وربط الصلات بينها وبين الثقافات واللغات الحية العالمية؟

3- كيف يمكن أن نجاوز بين أرصدتنا اللغوية الضخمة، وبين عالم الفكر والعلم؟

4- ما هي الطريقة التي تمكننا من وضع المستجدات والمستحدثات العلمية في أوعيتها وقوالبها اللغوية لنجعل من لغتنا ذخيرة لفظية تلاحق حركة التجديد والتطور التي يعرفها العالم وتواصل انتشارها في الأوساط العلمية والاجتماعية؟

5- كيف يمكن أن نستخلص من أفكار غيرنا ما يمكننا من إلقاء أضواء جديدة على هذه اللغة لاستيعاب كنوز المعرفة من ينابيعها الأصلية واستقصاء طرائق النظر العلمي الحديث.

تلك أسئلة نراها وجيهة من حيث إنها تعكس رؤانا للغة الضاد من جهة مكانتها، وطاقاتها ومجالات إبداعها، تتولد عنها أسئلة أخرى تتعلق بأهمية تدريس العربية للجاليات العربية، والأجانب المسلمين، وغير المسلمين في أوروبا وآسيا وأمريكا وإفريقيا، وكيف يمكن أن ينبني هذا المشروع على مبدأ مراعاة مراكز اهتمام المتعلمين ومواقع تمركزهم.

فلنحاول إذن الاهتداء إلى صياغة مدخل جامع يوصلنا إلى المشارف والأهداف المسطرة لهذا البحث.

وأول ما يستوقف أي باحث منصف متأمل في حياة هذه اللغة ومسيرتها التاريخية. هي قدرتها على البقاء، ونموها السليم القائم على أصول ثابتة في الأرض، وفروع يانعة مرنة تسري فيها الحياة في تناغم مع المتغيرات الزمنية والمكانية إذ هي اللغة الوحيدة إلى عاشت أكثر من ألف وسبعمائة عام وظلت ومازالت لسان الأجيال المتعاقبة تتجاوب مع متطلبات الأزمنة والعصور وتساير الحضارات، وتلبي مطالب العلم والعلماء من صيغ وتراكيب وأقيسة وأدلة وتقاوم في إصرار عجيب عوامل الضعف والانحلال والزوال حتى في أحلك الظروف إذ أنها اللغة التي كان لها الشرف أن تسع كتاب الله لفظا وغاية فتصبح قناة اتصال بين السماء والأرض ورابطة بين القلوب والأرواح في كل زمان ومكان، لذلك لم يكن غريبا أن تستهوي أبناء شعوب كثيرة في هذا العالم فيجعلوها اللغة الأثيرة لديهم لمرونتها ودقتها وتعدّد دلالاتها وتكوّن أساليبها ولأنّها كذلك لغة الدين، ولغة العلم ولغة السياسة، ولغة التجارة، ولغة الآداب والفنون.

يقول حسين نصار: «إن أكبر تحدّ واجهته العربية كان عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنيّة كلّ الغنى في الإبداع الأدبي، فقيرة كل الفقر، إلى حد الإملاق في الإنتاج العلمي، ثم ألقى بها في بحر وافر من الحضارات، والعلوم، والفلسفات والفنون، وكل صنوف المعرفة التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية، ويسجل المؤرخون كيف انبثقت حركة فكرية منذ أواخر القرن الهجري الأول. وكيف انفردت الشعوب الناطقة بالعربية (من بين الشعوب الناطقة بالسريانية، والفارسية واليونانية) بالريادة العلمية والحضارية في مجال البحث العلمي والترجمة والتعريب وفي ذلك يقول غوستاف لوبون: «لقد أصبحت اللغة العربية لغة عالمية في جميع الأقطار التي احتكت مع الشعوب العربية حيث تراجعت أمامها حتى اللغة اللاتينية في شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس)[1] ولقد أدرك أولوا العلم في تلك الفترة أن اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لنقل العلوم والفنون والآداب، بل لقد اضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الإسبانية [2].

وهكذا بلغت اللغة العربية مبلغا أجبر علماء أوروبا وطلابها على تعلمها من موقع التلمذة والاكتشاف، وبلغ إعجابهم وتحمّسهم للغة العربية حدّا أنساهم لغتهم الأصلية وهذا نص نلتقطه من قرطبة وبلسان أحد رجال الدين في القرن التاسع الميلادي ولسان الحال يقول: «أين نحن من هذا المقام الرفيع الذي بلغته لغة الضاد، يقول هذا الرجل: «إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين، والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين نجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت عن الأناجيل المقدسة، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتاب الحواريين وآثار الأنبياء والرسل؟ إن الموهوبين من

شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها، ويقبلون عليها في نهم وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها، ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب خليقة بالإعجاب. وإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم . .يا للألم، لقد نسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف واحدا منهم يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة في لغة العرب، فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها في أسلوب منمق، بل هم ينظمون في الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا(3).

وهذا نص آخر من أوروبا يعكس كيف فرضت اللغة نفسها على الطبقات العليا من علماء، ومتقفى أوروبا حتى أصبحت لغزا، وظاهرة غير مسبوقة عجزوا عن تفسيرها، يقول أحد شعراء إيطاليا:

ماذا؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبا بعد ديموستن واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرا بعد هوميروس، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتابة؟ لقد جارينا اليونان غالبا، وتجاوزناهم أحيانا، وبذلك جارينا وتجاوزنا جميع الأمم، وتقولون إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب، يا للجنون! ويا للخبال بل يا لعبقرية ايطاليا المنطفئة (4).

ونود أن يستقرّ في أذهان الغيورين على لغتهم أن ما وصله اللّسان العربي من تفّوق، وتميّز، وانتشار لم يأت من فراغ أو جاء هبة منزلة من السماء على قوم تائهين ذاهلين مستسلمين لتقلبات التاريخ. فلقد آمن أولو الأمر منهم أن هذا العلم الذي أمرنا الله أن نستزيد منه وننظر به ما في هذا الكون من خيرات ومنافع سيبقى عصيا علينا ما لم ننقله إلى ديارنا بالتعريب، والتقريب والتأصيل، حيث لا يمكن أن ننقل أمتنا أو أية أمة إلى عوالم العلم والمعرفة بأية وسيلة كانت، ولكن من اليسير أن ننقل العلم والمعرفة، والمهارات إلى كل ركن أو زاوية في تلك الأمة أو ذلك الوطن، أي أن ما وصلت إليه لغة هذه الحضارة كان نتيجة تفكير وتخطيط، وثمرة سياسة محكمة طويلة الأمد.

ولقد أجمع الدارسون المهتمون بالاتصال الثقافي العلمي بين العربية والأمم الأخرى أن بيت الحكمة الذي بلغ قمة مجده وذروة عطائه في عصر المأمون، يمثل نقلة علمية، وبداية للخطوات العملاقة إلى خطتها العربية في مجال احتضان العلوم والثقافات المختلفة حيث أصبح أكبر مركز ثقافي علمي عرفه ذلك العصر، ولقد أعطى المأمون لهذه الخزانة العلمية كل ما يملك من وقت وجهد ومال، ومما يروى في هذا الصدد أن شيخ المترجمين إسحاق بن حنين كان يتقاضى من الخليفة وزن ما يترجمه ذهبا (5)، ولا غرابة في تلك الروايات إذا نظرنا إليها في ضوء ما عرف عن المأمون من غزارة علم وسعة إطلاع، وتعطش لجمع الكتب ونقلها من لغاتها الأصلية إلى اللغة

العربية وفي ذلك يقول صاعد الأندلسي: «ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم عبد الله بن المأمون بن الرشيد، تمّم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه نفصل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وإقليدس وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فاختار لهم مهرة الترجمة وكلفهم إحكام ترجمتها...ثم حضّ الناس على قراءتها ورغبتهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم ...فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية...فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في زمانه كثيرا من أجزاء الفلسفة، وسنّوا لمن بعدهم مناهج الطلب ومهدوا أصول الأدب.[6]

هذا الانفتاح على العلوم والثقافات الأخرى الذي عرفته الإمبراطورية الإسلامية في عهد المأمون، والذي أدّى إلى انتعاش حركة الترجمة وتمديد وتوسيع الأبنية اللغوية المستقبلة لهذه الثقافات والعلوم، قلت إن هذه السياسة المستنيرة التي انتهجها المأمون جعلت أحد الكتّاب والشعراء المعاصرين، ينظر إليها بمنظار مناهج العصر ومقاييسه يقول الكاتب الروسي غوغول الشهير وهو يتحدث عن المأمون «لقد كان راعيا فذا للعلوم، خلّد اسمه التاريخ، وكان واحدا من أنبل رجالات الجنس البشري سعى لأن يحوّل دولة السياسة إلى دولة الأدب، فقد كان متعطشا إلى التنوير فبذل كل ما في وسعه لأن يعرف دولته بالعالم اليوناني الذي كان غريبا عنها حتى ذلك الحين، وفتحت بغداد أبوابها للعلماء من كافة الأقطار -وتحولت إلى جمهورية لمختلف ميادين المعرفة والمهارة»[7]

ولنا أن نقول بعد تلك الشهادات من أهل هذه اللغات ومن غير أهلها: لمثل هذا فليعمل العاملون على تطوير هذه اللغة وانتشارها ولن يتأتى ذلك كما رأينا إلا بتوسيع مشاريع الترجمة والتعريب والتفاعل الجدي المدروس مع الفكر الإنساني ومع كل المستجدات المعرفية التي تحدث في الغرب في مجالات العلوم، والتكنولوجيا والإعلام وكل التطورات المعرفية في مجال العلوم الإنسانية بمختلف حقولها المعرفية حيث يلاحظ أن اللغة العربية مازالت تنتظر من يصنع من مفرداتها عشرات آلاف المصطلحات والمسميات المستحدثة في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية.

ونحن إذ ندعو إلى كل ذلك إنما ننطلق مما حققته دول كثيرة من مثل هذه المشاريع وأمامنا اليابان والصين، وكوريا وغيرها من الدول التي لم تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم علمي وتكنولوجي إلا بفضل سياسة مدروسة تقوم على نقل النظريات والاكتشافات والمنجزات العلمية إلى لغاتها عن طريق الترجمة والنقل والتأصيل والاستيعاب.

وعسى أن تنهض المنظمة العربية للثقافة والعلوم بهذه المهمة الجليلة باعتبارها واحدة من أمهات القضايا المصيرية إلى تجعلنا أمة قائمة بما تسهم به– في هذا العالم المتغير – من معارف وابتكارات تعيد لهذه اللغة مجدها الحقيقي.

فاللغة العربية إنما تكون لغة العالم ولغة العلم عندما تكون هي حاضنة لمختلف أنواع العلوم، وتكون حاجة الناس إليها كحاجتهم لتعلم هذه العلوم نفسها.

أما التجربة الثانية التي مرت بها اللغة العربية في مجال الانتشار والانتصار على اللغات الأخرى في مواطن مختلفة فتتجسد في هذا الزمن القياسي الذي استطاعت أن تصبح فيه لسان قطاع عريض من البشر من مختلف الأجناس والأعراق، وأن يدرك الواحد منهم في تلك الفترة المبكرة أن تعلّم هذه اللغة أمر واجب لأنها لغة القرآن ودلالة على سعي الفرد للجمع بين الدين والدنيا، يقول البيروني الفارسي: « ديننا والدولة عربيان توأمان ترفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية...وكم احتشد طوائف من التوابع، وخاصة الجبل والديلم في إلباس الدولة جلابيب العجمة، فلم ينفق لهم في المراد سوق وما دام الآذان يقرع أذانهم كل يوم خمسا، فتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفا صفا ويخطب لهم في الجوامع بالإصلاح...فازدانت وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة وإن كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآدبها والهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية [8] ويقول الزمخشري في مقدمة كتابه لمفصل:

«الحمد لله على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم، وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز» [9]

ومن شأن مثل هذه النصوص أن تبين لنا كيف انساق الناس إلى تعلم هذه اللغة بدافع الدين وبدافع الدنيا تارة لما كانوا يرجونه من تقرب من الله، أو جاه، أو تميز في العلم أو مكانة لدى أولي الأمر يقول حسن الباقوري رحمة الله وهو يقارن –في حسرة – بين حاضر هذه اللغة وأمسها: «والذي يرى استباق الشرقيين إلى تعلم لغات الإنجليز والفرنسيين وآدابهم لأن في معرفتهم كذلك خيرا يرجونه أو جاها يأملونه يدركه في يسر كيف كانت الأمم تتسابق إلى تعلم اللغة العربية [10]

إذا كان ذلك هو حال اللغة العربية من حيث الانتشار والازدهار في تلك الفترة الذهبية من تاريخنا فإننا نود أن نعاين مسارها في عصرنا الحاضر من خلال خريطة لغوية تبين مواقعها ومكانتها وكيفية انتشارها في مختلف أنحاء العالم ،فالدراسات والإحصائيات الرسمية تقول: إن العربية أكبر لغات المجموعة السامية من حيث عدد المتحدثين بها ،وإحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم يتحدث بها أكثر من 450 مليون فرد داخل الوطن العربي وخارجه وهي لغة

رسمية في كل الدول العربية بالإضافة إلى أريتيريا وتشاد والسنغال وفلسطين المحتلة وهي كذلك لغة رسمية معترف بها لدى هيئات ومنظمات دولية :في الأمم المتحدة في منظمة المؤتمر الإسلامي والإتحاد الإفريقي . . .وغيرها (11)

وللغّة العربية مكانة رفيعة متميزة –باعتبارها لغة القرآن في كافة أنحاء العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا وأجزاء من أوروبا .

حيث أنشأت جامعات ومراكز لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية في كل من الهند وباكستان وماليزيا وإيران وتركيا وأوزبكستان واندونيسيا وغيرها هذا بالإضافة إلى دروس تعليم اللغة العربية إلى تشرف عليها المساجد والجمعيات الإسلامية .

أما في أوروبا فلقد بدأ الاهتمام، بل الحرص على تعليم اللغة العربية منذ القرون الوسطى لما كانت تتميز به من قيم علمية وفكرية وثقافية، فأحدثت كراسي لذلك في كبريات الجامعات الأوروبية، ولقد أنشأ فرانسوا الأول منذ سنة 1530 أول مدرسة لتعليم اللغة العربية وأصبحت منذ ذلك التاريخ لغة تدرس في الجامعات والمدارس ويشرف على تدرسيها أساتذة تابعون للوظيف العمومي حيث أنشأت شهادة التبريز l'agrégation الخاصة باللغة العربية سنة 1905 .

وفي الوقت الحاضر فإن اللغة العربية تدرس في فرنسا في حوالي 300 ثانوية ومتوسطة هذا بالإضافة إلى المراكز التعليمية والمساجد التي تشرف عليها الجمعيات الإسلامية والتي تحرص على تعليم أبنائها اللغة العربية في معظم المدن الفرنسية .

كما أن هناك أقساما وكراسي لدراسة الآداب والحضارة العربية الإسلامية في معظم الجامعات الفرنسية(12) .

ولا يكاد يختلف كثيرا حال اللغة العربية في فرنسا عن حالها في معظم الدول الأخرى في أوروبا، كايطاليا واسبانيا وألمانيا وغيرها .

ونحسب أن هذا المتابعة لواقع اللغة العربية في العالم لن تكتمل دون قراءة الإحصائيات التي تبين الأهمية الجغرافية والبشرية للعالم الإسلامي والجاليات الإسلامية عبر العالم . ودون ربط هذه المعطيات بعدد الناطقين باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولغة العبادة، تقول الدراسات السكانية أن عدد السكان المسلمين في آسيا يقدر بحوالي 68% من أعداد المسلمين في العالم المستقبلية وهو عدد يشكل 20 % تقريبا من عدد سكان قارة آسيا وأن عدد سكان المسلمين في إفريقيا يمثل 58 % .

وتقول الدراسات المستقبلية أن عدد المسلمين في العالم سيتضاعف خمس مرات على الأقل في نهاية القرن الواحد والعشرين، وأن عدد هؤلاء سيشكل 40 % من سكان العالم (13) .

وما يمكن استنتاجه وتصوره في ضوء المعطيات العددية والجغرافية أن عدد الناطقين في الدول العربية والراغبين في تعلمها سيتضاعف بالضرورة لو أحكمنا مناهجنا وسياساتنا في تعليم اللغة العربية للشعوب الإسلامية ولغير الناطقين بها عموما.

وقبل أن نتعرض للجهود والإنجازات التي قامت بها الهيئات العربية المهتمة بموضوع العربية على النحو الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة قلت قبل ذلك نود أن نعرف الدوافع والحوافز التي تجلب أو تغري الواحد منهم، أي من الأجانب إلى تعلم العربية.

ومن العوامل الدافعة إلى إقبال غير العرب على تعلم اللغة العربية كما تشير الدراسات:

1- رغبة المسلمين من غير العرب في دراسة الإسلام من مصادره الأصلية وحرصهم على قراءة القرآن باللغة التي نزل بها.

2- الثورة النفطية التي تفجرت في كثير من البلاد العربية جعلت عشرات الآلاف من الأجانب يتوافدون على تلك البلاد ويسعون إلى توثيق صلاتهم بهذه البلاد بما في ذلك تعلم اللغة العربية.

3- المكانة السياسية والعلمية التي أصبحت تتمتع بها اللغة العربية في المؤسسات الثقافية والعلمية والهيئات السياسية كمنظمة الأمم المتحدة، واليونسكو ومنظمة الأغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة العمل الدولية.

4- اهتمام الجامعات الأجنبية بالحضارة العربية والثقافة الإسلامية مما يمكن اعتباره استمرارا متطورا للحركات الإستشراقية التي عرفها الغرب في القرون الأخيرة والتي كانت تحرص على معرفة الثقافة الإسلامية في لغتها الأصلية.

بهذه الأهمية الإستراتيجية التي تكتسبها نشر اللغة العربية، وانطلاقا من المعطيات والاستنتاجات التي أشرنا إليها آنفا، جاءت دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (سنة 1981) إلى عقد اجتماع للتخطيط لسياسة عربية موحدة لنشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية خارج الوطن العربي، ولقد انتهى الاجتماع إلى إقرار إنشاء جهاز متخصص تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وسمي «جهاز التعاون الدولي لتنمية العربية الإسلام»، يمول من صندوق أطلق عليه اسم «صندوق التعاون الدولي لتنمية الثقافة العربية الإسلامية» ولقد رسم المجتمعون لهذا الجهاز أهدافا مستقبلية نقتبس منها ما يندرج في سياق موضوع عالمية اللغة العربية الذي هو مدار بحثنا:

1- تعليم اللغة العربية لأبناء الجاليات العربية في الخارج وخاصة في الدول الغربية والأمريكيتين.

2- نشـر اللغة العربيـة والثقافـة العربية الإسلامية في الدول ذات الكثافة السكانية الإسلامية العالية.

3- نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في المناطق الأخرى من العالم.

4- إنشاء المدارس والمعاهد والفصول الخاصة بتدريس اللغة وآدابها لأبناء الجاليات العربية والإسلامية في الخارج.

5- إنشاء المدارس والمعاهد العربية العالمية في البلاد الأجنبية.

6- تقديم المنح الدراسية والتسهيلات المختلفة للطلبة الأجانب، وخاصة من أبناء إفريقيا، وآسيا الذين يدرسون اللغة العربية، أو يتلقون علومهم في الجامعات العربية باللغة العربية في أي مادة من المواد.

7- إعداد المناهج المناسبة للطلبة الأجانب لتعليم اللغة العربية، والثقافة العربية الإسلامية بالتعاون مع البلاد العربية التي تقام فيها الدورات الصيفية، والملتقيات على أن يخصص الجهاز لهم منحا تغطي نفقات سفرهم ودراستهم.

8- إنشـاء شبكـة من الاتحادات القطرية والإقليمية، والدولية للمؤسسات العاملة في مجال نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية يضمها اتحاد عالمي للغة العربية، والحضارة العربية الإسلامية.

9- إنشاء دار عربية للتأليف، والترجمة، والنشر لنقل أمهات الكتب العربية إلى اللغات الأجنبية، ونشرها بالتعاون مع الهيئات العلمية، ودور النشر، وإصدار كتب باللغات الأجنبية تعرّف باللغة العربية والثقافة والحضارة العربية الإسلامية.[(14)]

وفي انتظار ما تجنيه لنا هذه التوصيات من ثمار ونتائج طيبة إن شاء الله، حيث إن معظم هذه المشاريع لم تر النور بعد، في انتظار كل ذلك فإننا نطلب من القائمين على هذه المشاريع ومن كل الهيئات العلمية والجامعية في العالم العربي، العمل على بعث هذه العملية وفق منهج ومخطط يراعى فيهما ما يلي:

1- القيام بمسح شامل للدراسات والأبحاث التي تم إنجازها في مجال تعليم اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية.

2- رصد العراقيل والصعوبات التي تواجه المعلم والمتعلم على السواء عند تعليم، أو تعلّم هذه اللغة والعمل على إيجاد الحلول والطرائق التي تمكننا من تبسيط قواعد اللغة وتسهيل النطق بحروفها وأصواتها المختلفة.

3– القيام باستبيانات واستعلامات تمكننا من معرفة الأسباب والدوافع التي تحمل الناس على تعلم اللغة العربية ثم دراسة نتائج هذه الاستقصاءات، وتقديم الحلول والاقتراحات ووسائل العلاج.

4– وضع الأسس والخطط لتأليف عدد من المعاجم الثنائية التي يحتاجها المتعلم الأجنبي مثل معجم إنجليزي/عربي وعربي انجليزي وفرنسي /عربي. وعربي فرنسي وأن تنوع هذه المعاجم حسب حاجة المتعلمين وأغراضهم كأن توضع مع معجمات للتعبير باللغة العربية ومعجمات أخرى تركز على الفهم، معجمات للاستعمال العام ومعجمات أخرى (ثنائية) تتوزع على الحقول الدلالية المختلفة مثل المعجمات الاقتصادية، القانونية، الرياضية.

5– وأخيرا فإننا ندعو أن تتهيأ للغة العربية هيأة رسمية تتمتع بقوة مالية وسياسية (مدعومة من الدول العربية) ومزودة بعدد من المستشارين في مختلف أنواع المعرفة لكي تتمكن من التخطيط ووضع المقاييس اللازمة لنشر اللغة العربية وتعليمها لغير الناطقين بها ولقد أثبت التاريخ والتجارب العملية ما لمثل هذه السياسة من فوائد ونتائج ملموسة ويكفينا عبرة ما تجنيه المؤسسة الفرنكوفونية التابعة للدولة الفرنسية من ثمار وما تتركه علينا من آثار كذلك.

ونحسب أننا مهما بذلنا من مال، وجهد، ووقت في سبيل هذه الغاية فإن التكلفة لن تكون باهظة إذا قيست بما ستعرفه العربية من تطور وتكاثر، وتداول بين الناس.

الهوامش:

1- أنظر دراسات فنية في الأدب العربي، عبد الكريم اليافي، ص 19 وما بعدها ط: 1 دار الحياة 1972 دمشق وحضارة العرب: غوستاف لربون ترجمة عادل زعيتر، ص 439 ط: دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1956.

2- ينظر مقال الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في هذا الموضوع، ص 48 وما بعدها، مجلة المنهل السعودية، فبراير 1994.

3- ينظر النص في فلسفة الإستشراف وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفيتش، ص 67-68 دار المعارف مصر 1980.

4- ينظر النص في دراسات فنية في الأدب العربي، ص 20.

5- ينظر: ابن أبي صبيعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء جـ2/ص 143 دار الثقافة بيروت 1987.

6- صاعد الأندلسي كتاب طبقات الأمم ص 47 (عن مجلة سبأ)، مجلة تاريخية تصدر عن جامعة عدة العدد 14-15، 2007.

7- ألكسندر أغنانتكو: بحثنا عن السعادة، دار التقدم موسكو 1990، ص 26-27.

8- ينظر النص في مقدمة كتاب حركة التعريب في العراق د/أحمد مطلوب معهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1983.

9- المفصل في علم العربية للزمخشري، نشر محمود توفيق مطبعة حجازي، القاهرة.

10- ينظر في هذا الموضوع: أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، محمد حسن الباقوري ص 45، دار المعارف القاهرة 1983.

وينظر بحث لنا في هذا الموضوع تحت عنوان: القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية، مجلة الجامعة الإسلامية العدد الأول، لندن 1994.

11- ينظر هذه الإحصاءات في منشورات المنظمة العربية للثقافة والعلوم وفي مواقع الإنترنت التي تهتم بواقع اللغة العربية.

12– ينظر دراسة مخطوطة أعدها الزميل الأستاذ حسين رايس وهو أستاذ مشارك في بعض الجامعات الفرنسية وشارك في تعليم اللغة العربية للجاليات الجزائرية والعربية منذ سنة 1975.

13– جغرافية العالم الإسلامي د. صلاح الدين علي الشامي ود/ زين الدين عبد المقصود ص 314–318 منشأة دار المعارف مصر، وينظر دراسة لـ. د. مهدي المنجرة نشرتها جريدة الخبر يوم 4 سبتمبر 1993.

14– يراجع كتاب صادر عن المنظمة العربية للثقافة والعلوم عنوانه: تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ص 125، وما بعدها تونس 1992.

اللغة العربية في أمريكا
من الثقافي إلى الأمني

د. وليد العناتي
ج. البترا (الأردن)

مقدمة

تقصد هذه الدراسة إلى تقديم صورة عامة لـِ« اللغة العربية في أمريكا »؛ وأحترس منذ البدء بالقول إن هذه الدراسة دراسة تمثيلية حسب؛ إذ تقتصر على تقديم الملامح العامة لقضايا اللغة العربية هناك، وليست الغاية أن نرصد رصداً توثيقيا دقيقاً أحوال العربية، وإنما نجتزئ المعطيات العامة بأدلة نوعية ممثلة ودالة على مقصد الدراسة؛ ذلك أن الاستيعاب أمر متعذر؛ فليس ممكناً الإحاطة بأحوال العربية في قارة مترامية الأطراف تتوالد فيها المعلومات بتسارع هائل كل يوم!

ولكنني مطمئن إلى أن المحاور التي انتظمتما الدراسة هنا تمثل تمثيلاً أمينا وصادقاً مجمل أحوال العربية في أمريكا، ومنطلق هذه الاطمئنان أنني تتبعت واقع العربية في أهم المجالات التي يمكن أن تتواجد فيها أي لغة أجنبية في غير بلدها، ولاسيما إن اقترنت هذه اللغة بالسياسات العليا السياسية والعسكرية والتربوية لتلك البلاد. لقد كان طبيعياً أن ينظر باعتبار كبير للعوامل السياسية التي جعلت العربية في قلب اللغات المصيرية؛ تلك اللغات التي يرتبط مصير الأمن القومي الأمريكي بها لأسباب مختلفة.

ولاشك أن هذه العوامل السياسية وما أفرزته من توجهات تربوية وعلمية تتناول تعليم العربية في جميع مراحل التعليم الأمريكي تقتضي أن يكون لها نصيب مقرر في هذه الدراسة، وقد كان ذلك.

إن هذه الدراسة التمثيلية تطمح مستقبلاً أن تتوسع لتكون دليلاً واسعاً وشاملاً لأحوال العربية في أمريكا، ولعل هذه الطموح يجتذب باحثين آخرين ليرصدوا واقع العربية في أنحاء العالم المختلفة. ولعل هذا يكون مبعثاً للمجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر وغيره من هيئات العناية بالعربية لإنشاء مجلة علمية محترمة تعتني بـِ« قضايا اللغة العربية في العالم ».

العربية في أمريكا – مظاهر الاعتناء بها –

لاشك أن هجرة أعداد كبيرة من العرب منذ مطلع القرن الماضي إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة واستقرارهم فيها قد كان إيذاناً بدخول العربية إلى الولايات المتحدة بوصفها لغة أقلية كبيرة تفرض عليها كثيرٌ من الظروف الاستقرار هناك. ومع مَرِّ الزمن كانت هذه الأقلية تتكاثر بفعل

استجلاب العائلات والأقارب من البلاد العربية وتشجيعهم على الاستقرار في أمريكا لأسباب أهمها أسباب اقتصادية وعلمية .ولما كانت العربية لغة هذه الأقليات فإنه كان طبيعياً أن تتأثر بالمتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تمر بها الولايات المتحدة الأمريكية .ويظهر أن اللغة العربية لم تكن محل عناية الحكومة الأمريكية لفترة طويلة من الزمن إلى أن وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول فانقلبت الأمور رأساً على عقب ،وصارت العربية في قمة أولويات الإدارة الأمريكية؛ إذ عُدَّت العربية أهم اللغات المصيرية(1) والحاسمة في الأمن القومي الأمريكي. ومن هنا انقلبت أحوال العربية انقلاباً هائلاً على المستويات كلها. ويمكن لنا أن نوجز مظاهر العناية بالعربية في المجتمع الأمريكي، في المظاهر التالية(2):

1- **إرسال الطلبة الأمريكيين إلى الجامعات العربية**. فقد أظهرت أعداد الطلبة المسجلين في الجامعات العربية من الأمريكيين الموفدين لتعلم العربية ازدياداً لافتاً للأنظار. فقد ازدادت أعداد الطلبة الأمريكيين في مركز اللغات بالجامعة الأردنية، مثلاً، ازدياداً ظاهراً يمثله الجدول التالي(3).

السنة الدراسية	عدد الطلبة
2001 / 2000	21
2004 / 2003	85
2006 / 2005	120

ويقتصر هذا العدد على طلبة الجامعات فحسب؛ أي أن هذه الأعداد لا تشمل طلبة البعثات الدبلوماسية والعسكرية والشركات؛ ذلك أن هؤلاء غالباً ما يتلقون تعليماً مستقلاً على هيئة دورات متخصصة لأغراض خاصة.

ويقترن بهذا المظهر مظهر أكاديمي آخر يتمثل في إقامة علاقات التبادل الثقافي وبرامج تعلم العربية في ما وراء البحار؛ فقد عقدت كثير من الجامعات الأمريكية برامج الدورات اللغوية في البيئة العربية ،حيث يمضي فيها طلبة البرنامج مدة معينة في إحدى الدول العربية وغالباً

(1) مصطلحا «اللغات المصيرية» و«اللغات الملحة» ترجمة لمصطلح :languages Critical ، وتفاوتت الترجمة بين هذين المصطلحين حسب السياق.

(2) ليست هذه المظاهر طارئة كلها؛ فبعضها كان موجوداً من قبل ولكن مدى الاهتمام هو الذي اختلف.

(3) Justin Martin, The promising rush to learn Arabic, http://www.sfgate.com/cgi_bin/article.cgi?f=/c/a/2006/01/23/EDGUIGQOOA1.DTL

ما تكون في الصيف. وظاهر أن الغرض الرئيسي من هذه الدورات اكتساب كفاية تواصلية مناسبة بالعربية، واكتساب قدر مناسب من الثقافة العربية والإسلامية، إضافة إلى تحصيل قدر من العامية .ومن هذه البرامج اللغوية المشتركة:

- افتتاح جامعة جورج تاون فرعًا لتعليم العربية لها في الدوحة.
- عقد جامعة فرجينيا اتفاقية لتعليم العربية للطلبة الأمريكيين في جامعة اليرموك الأردنية.
- إدارة جامعة إيموري (أتلانتا) مدرسة لتعليم العربية في القاهرة.
- توقيع جامعة (دي بول) في شيكاغو اتفاقية توأمة في الأردن عام 2006.
- ثمة اتفاقية تعليم العربية في المغرب بين جامعة (بنغامتون) وجامعة الأخوين.
- برنامج (إس. آي. تي.) الذي تديره جامعة «فيرمونت» في عَمَّان.

2- التوسع في برامج اللغة العربية

لعل تصفحاً بسيطاً في الشابكة (الإنترنت) يظهر مدى التوسع في برامج اللغة العربية في الولايات المتحدة، ويتخذ هذا التوسع ثلاثة مظاهر هي:

الأول: توسيع البرامج الموجودة وزيادة المقررات الدراسية، وتقديم دورات جديدة تركز على المستويات المتقدمة، وتركز على العاميات العربية.

الثاني: افتتاح أقسام مستقلة للغة العربية تقدم برامج دراسية وعلمية تستنفد منظومة اللغة العربية؛ أي أنها برامج في «لسانيات العربية»، كما هو الحال في جامعة جورج تاون.

الثالث: افتتاح برامج تعليم العربية في المدارس الأمريكية المختلفة (من الروضة حتى الصف الثاني عشر)، وذلك استجابة للمبادرة اللغوية؛ حيث جُعِلَت اللغة العربية واحدة من اللغات الأجنبية التي يمكن للطلبة تعلمها.

ويمثل الجدول التالي عدداً من الجامعات الأمريكية التي تقدم برامج في اللغة العربية ودراساتها:

Emory University	Abilene Christian University
Florida International University	American University
Florida State University	Arizona State University
George Washington University	Barnard College
George town University	Baylor University
Hamilton College	Boston College
Hartford Seminary	Boston University
Hobart & William Smith College	Brigham Young University
Hofstra University	Brown University

College of Charleston
College of William & Mary
Carleton University
Catholic University
Colorado State University
Columbia University
Concordia University
Cornell University
CUNY, Brooklyn
CUNY, Queens
Davidson College
DePaul University
Duke University
Duquesne University
Portland State University
Princeton University
Purdue University
Rice University
Rutgers University
Sanford University
Stanford University
Temple University
Tufts University
University of California, Berkeley
UC, Los Angeles
UC, Santa Barbara
University of Chicago
University of Cincinnati
University of Denver
University of Florida
University of Georgia, Athens
University of Illinois, Chicago
University of Illinois, Urbana
University of Kansas
University of Maryland
University of Michigan, Ann Arbor
University of Miami
Howard University
Indiana University of Pennsylvania
Johns Hopkins University
Kent State University
Louisiana State University
Loyola University, Chicago
Mesa Community College
Middlebury College
Morgan State University
Mount Holyoke College
NYS, Buffalo
Northwestern University
New York University
Penn State University
University of Minnesota Twin Cities
University of Minnesota Kansas City
University of North Carolina
University of New Orleans
University of Notre Dame
University of Pennsylvania
University of Rochester
University of South Carolina
University of South Florida
University of Southern California
University of Texas Austin
University of Utah
University of Virginia
University of Washington
University of Wisconsin Madison
University of Wisconsin Milwaukee
Utah State University
Vanderbilt University
Vassar College
Villanova University
Washington University, St Louis
Wayne State University
Weber University

3- ازدهار تأليف كتب تعليم العربية للناطقين بغيرها

يظهر تصفح مواقع بيع الكتب على الشابكة «الإنترنت» أن ثمة زيادةً مطردةً على تأليف كتب تعليم العربية في نظمها المختلفة. وتتفاوت هذه الكتب التعليمية في مجال عنايتها ومداه والفئة المستهدفة؛ فبعضها تقدم نظم العربية: الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي والأسلوبي والمعجمي والكتابي تقديماً علمياً غايته تعريف المعلمين والباحثين بنظام العربية ليسهل عليهم تعليمها. وبعض هذه الكتب تعليمية مباشرة موجهة للراغبين في تعلم العربية على مستوياتها المختلفة، ويغلب على هذه الكتب التعليمية أن تراوح بين العربية الفصحى والعاميَّات العربية المتعددة.

ثم إن هذه الكتب تتراوح في طريقة تقديمها؛ فقد يقتصر الكتاب على نسخة ورقية حسب، وقد يقتصر على نسخة إلكترونية حسب توظيف التقنيات الحاسوبية ولاسيما الوسائط المتعددة.

ولعل سلسلة كتاب «الكتاب» لمحمود البطل وكتاب «العربية الفصحى المعاصرة» لبيتر عبود وزملائه تكون أشهر الكتب التعليمية المتداولة ورقياً في أمريكا. أما الكتب الإلكترونية فلعل أهمها يكون(1):

اسم البرنامج بالعربية	اسم البرنامج بالإنجليزية
حجر رشيد (العربية)	Rosetta Stone (Arabic)
العربية الميسرة	Arabic Made Easy
علمني المزيد (من العربية)	Tell Me More (Arabic)
تكلم العربية خطوة خطوة	Speak Arabic: Step by Step

ولعل النظر في الملحقين الأول والثاني يكون دالاً على ذلك؛ إذ فيهما نماذج من كتب تعليم العربية الورقية والإلكترونية.

(1) تفاصيل وافية عن هذه البرامج في بحث ممدوح نور الدين: دراسة وصفية تقويمية لبعض برامج الحاسوب في تعليم العربية، بحث منشور في «**وقائع ندوة تقنية المعلومات والعلوم الشرعية واللغوية**»، المنعقدة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أيام 6-7/3/2007، الجزء الثاني، ص:639-667. وانظر أيضاً:

- www.arabicteacher.com.
- www.arabic2000.com/products

4- حوسبة العربية والاستثمار في إنتاج برمجياتها

وتمثل حوسبة العربية وجهاً مهماً من وجوه تسريع «معرفة العربية وتعليمها»؛ وبيان ذلك، مثلاً، أن إعداد برامج تعليمية محوسبة يوفر فرصَ تعلم ممتازة لجميع فئات الشعب الأمريكي؛ إذ يمكن الإفادة من التعلم الذاتي واستعمال هذه البرامج بشكل شخصي. و يمكن لنا أن نقول باطمئنان: إن جهود حوسبة العربية ومعالجتها في أمريكا تسير في أحد اتجاهين:

الأول: اتجاه حكومي عسكري أمني. وهو يقصد على نحو مباشر إلى تطوير برامج معالجة العربية وغيرها من اللغات المصيرية لاستثمار هذه البرمجيات في تحليل النصوص وتبين مدلولاتها ومضامينها واستثمار ذلك كله في قضايا «مكافحة الإرهاب»! ومن هنا تخصص الحكومة الفيدرالية والأجهزة الأمنية الاتحادية ميزانيات هائلة للبحث العلمي في تطوير معالجة العربية وغيرها من اللغات. وتتركز هذه الجهود في: تحليل الأصوات المنطوقة وتبين مدى أصالتها ومطابقتها للبصمات الصوتية لناطق معين، وتحليل النصوص وصولاً إلى أخطار محتملة قد تتضمنها تلك النصوص، و تحليل أصوات اللهجات العربية والتركيب على مقتضاها إن اقتضى الأمر، والترجمة الآلية والفورية، والمعاجم الإلكترونية، وغيرها من تطبيقات اللسانيات الحاسوبية.

الثاني: اتجاه اقتصادي استثماري، وغاية قصده إتاحة التطبيقات الحاسوبية المتطورة للمستخدمين العرب لأغراض تعليمية مثل كتب تعليم العربية إلكترونياً، أو لأغراض بحثية خالصة كمعالجة النصوص العربية، وتحويل المكتوب إلى منطوق. وقد تكون هذه التطبيقات لأغراض التطبيقات اللغوية المساندة للأعمال الإدارية المختلفة كالتدقيق الإملائي والنحوي والصرفي.

وهذه أمثلة دالة:

- **شركة النشر العربي الإلكتروني**(1). وهي شركة أمريكية في ولاية بوسطن تعمل على توفير البرمجيات والتكنولوجيا العربية المتقدمة للمستخدم العربي ومتحدثي العربية ودارسيها في جميع أنحاء العالم. وتقوم الشركة كذلك بتعريب البرمجيات من اللغات المختلفة لتجعلها متاحة لجميع العرب. كما تعمل الشركة على ترجمة النصوص ومواقع الإنترنت من مختلف اللغات إلى العربية. و يضاف إلى ذلك عدد كبير من التطبيقات الحاسوبية في التدقيق اللغوي وتحليل النصوص.... الخ.

- **تطوير برنامج لقراءة العربية آلياً (تعرُّف الكتابة العربية)**. فقد نشرت إحدى المجلات التقنية والحاسوب خبراً مفاده تمكن مهندسي الحاسوب في جامعة «بوفالو» من تطوير أول برنامج رقمي لتعرف الكتابة العربية اليدوية والطباعية (2005)(2)، ويسمح هذا

---

(1) http://www.araictext.com/

(2) http://www.machinedesign.com: 32 feb. 17.2.2005

البرنامج بمسح الوثائق العربية رقمياً للبحث عن معلومات محددة بالاعتماد على تطبيقات الذكاء الاصطناعي المختلفة.

- نجحت إحدى الشركات الأمريكية بتطوير محلل صرفي جديد للعربية، وقد استخدم هذا المحلل في برامج الترجمة الآلية والمعاجم الإلكترونية المتنوعة(1).

5- إنشاء وسائل إعلام تستعمل العربية لغة لها (صحف ومجلات، و قنوات فضائية)

وتمثل ذلك في السماح لعدد من القنوات الفضائية العربية بإيصال بثها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهي قنوات متنوعة بعضها إخباري وبعضها فنيّ (العربية، وأبو ظبي، وروتانا... الخ). ولعل قناة (الحرة) تكون أدل مثال على عناية الإدارة الأمريكية بتحسين صورتها في البلاد العربية؛ إذ تبث باللغة العربية.

6- عقد الندوات والمؤتمرات المتخصصة باللغة العربية

ويمثل هذا المظهر الجانب العلمي الخالص في قضايا اللغة العربية تعلماً وتعليماً ونشراً؛ إذ يكون القصد منها أن تعرض آخر مستجدات قضايا اللغة العربية في الولايات المتحدة ،ومنها:

-كيفية مواجهة ضعف كفاءات معلمي العربية في أمريكا.

-كيفية استدراك نقص أعداد معلمي العربية الأصليين.

-كيفية الانتقال بالمتعلمين من المستوى المبتدئ ،وهو المستوى الغالب ،إلى المستويين المتوسط والمتقدم.

-كيفية تشجيع الطلبة والموظفين الحكوميين على الالتحاق ببرامج تعليم العربية في أمريكا وخارجها.

-كيفية إعداد كتب تعليمية عصرية متطورة تواكب حاجات المتعلمين والدولة ،ولاسيما ما تعلق بالأمن القومي وتأهيل موظفي الدوائر الحكومية الرسمية.

ولعل مثالاً واحداً على هذه المؤتمرات يكون كافياً؛ فقد عقدت جامعة) دي بول (في شيكاغو (http://condor.depaul.edu/~mol/anc/ مؤتمراً وطنياً حول قضايا تعليم اللغة العربية)

وذلك أيام 13-15/6/ 2008وقد نوقش فيه أكثر من خمسين بحثاً ودراسة انضوت تحت المحاور التالية(2):

---

(1) Jeffrey Micher, Clare R. Voss, Buckwalter-based Lookup Tool as Language Resource for Arabic Language Learners Software Engineering, Testing, and Quality Assurance for Natural Language Processing, pages 66–67, Columbus, Ohio, USA, June 2008. c2008 Association for Computational Linguistics

(2) www.condor.depaul.edu/.com/anc

- أصول تعليم العربية كلغة أجنبية.
- معايير تعليم العربية كلغة أجنبية.
- معايير تعلم العربية.
- المعايير المهنية لتعليم العربية.
- إنشاء برامج ناجحة.
- تعليم العربية على المستوى ما قبل الجامعي.
- تعليم العربية على المستوى الجامعي (وصولاً إلى المستوى المتميز).
- تعليم العربية للمنحدرين من أصول عربية.
- وضع المواد.
- وضع المناهج.
- الاختبار والتقييم.
- استخدام التقنية الحديثة وتطبيقاتها.
- تدريب المدرسين.
- تأليف الكتب المدرسية ونشرها.
- محاور مقترحة.

أما **أهداف هذا المؤتمر** فقد تمثلت في:

- تشجيع التواصل بين معلمي اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية في جميع المراحل التعليمية؛ وذلك لتطوير المجال وتعزيزه.
- تبادل الأفكار والخبرات والآراء والأبحاث والمصادر.
- مناقشة الاحتياجات الآنية والمستقبلية لبرامج تعليم العربية في أمريكا.

ومن الأبحاث التي عرضت في المؤتمر:

- وضع تعليم اللغة العربية في أمريكا، مهدي علوش.
- التكنولوجيا واللغة الأجنبية، مصطفى خضراوي.
- تطوير مواد اللغة العربية للمدارس الثانوية، ندى شعث.
- تجربة شخصية في تعلم العربية....من المبادئ إلى الترجمة، أَلِن سولْتَر.
- تعليم العربية لذوي الأصول العربية...رحلة من البحث والاكتساب، إيمان حازم.

7- إنشاء رابطات وجمعيات لمعلمي العربية وباحثيها

ولعل أهم هذه الروابط تكون «**الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية**»، وكذلك جمعية اللسانيات العربية التي تأسست عام 1988. ولعل أحدث هذه الروابط تكون «**رابطة معلمي العربية روضة–12**» وهي تابعة للمركز الوطني لموارد اللغات(1) الذي تديره جامعة جورج واشنطن وجامعة جورج تاون ومركز اللسانيات التطبيقية، وتمولها وزارة التربية والتعليم الأمريكية تمويلاً مباشراً. ويظهر النظر في موقع هذه الرابطة أنها تعمل في ستة مجالات هي(2):

- شبكة معلمي اللغة العربية من الروضة إلى الصف الثاني عشر في أمريكا.
- معايير تعليم العربية وتعلمها.
- نشرة المعلمين الإخبارية.
- موقع للمعلمين يتضمن كتباً تعليمية وموادّ علمية، وإعلانات، وتوجيهات، ودروساً تطبيقية.... الخ.
- أرشيف مواد اللغة العربية.
- معاهد المعلمين الصيفية.

ولا شك أن مثل هذه الروابط والجمعيات تنظم شؤون اللغة العربية في أمريكا، وتسهم في تطوير نشرها تعليماً وتعلماً وتأليفاً ونشراً.

تعلُّم العربية في أمريكا – الأهداف والبواعث –

تشير أكثر الدراسات والأبحاث إلى أن اللغة العربية في الولايات المتحدة لم تكن تحظى بعناية حكومية أو أهلية لافتة؛ إذ لم يكن ينظر إليها إلا على أنها لغة إحدى الأقليات المهاجرة، ومن ثَمَّ فإن العناية بها لا تتجاوز أفراد هذه الأقليات الراغبين في استبقاء لغتهم والحفاظ على تراثهم الثقافي والديني باللغة العربية، ولعل ما كان يعزز ذلك الدعواتُ الكثيرة المنادية بالتوحيد اللغوي وجعل الإنجليزية لغةً رسميةً وحيدةً، ومنح الأقليات حريات محدودة في التعليم بلغاتهم الأم. ولعل هؤلاء كانوا يَصدرون عن رؤية واقعية مفادها أن اندماج هؤلاء المهاجرين، ومنهم العرب، بالمجتمع الأمريكي رهين بمعرفتهم باللغة الإنجليزية، وهي لغة التداول الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والإعلامي، ثم إن أفراد هذه الأقليات سيدركون أن حياتهم ومعاشهم مرتهن باللغة الإنجليزية؛ إذ هي وسيلتهم إلى العمل.

(1) National Capital Languae Resource center: (NCLRC)

(2) www.nclrc.org

على أن الأمور لم تبقَ على حالها! فقد اختلت الموازين كلها وانقلبت الدنيا رأساً على عقب؛ فسبحان مغير الأحوال! فقد كانت أحداث الحادي عشر من أيلول 2001م مفصلاً هاماً في تاريخ تعليم العربية والثقافة الإسلامية في الولايات المتحدة، إذ اختلفت الأحوال قبل الأحداث عما بعدها اختلافاً هائلاً جداً.

وتشير الإحصاءات المتوافرة إلى أن إقبال الأمريكيين على تعلم العربية يتزايد باطراد حتى قدرت نسبة الزيادة في أعداد الدارسين بـ 90 ٪ من الطلبة المنتظمين في دروس اللغات. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نشطت الجامعات الكبرى في إنشاء أقسام ووحدات للغة العربية، كجامعة جورج تاون التي افتتحت برنامجاً للغة العربية ولسانياتها. وسأعرض هنا بحثين استطلاعيين، قصد الباحثان منهما تبين اتجاهات الطلبة الأمريكيين نحو اللغة العربية. وهاتان الدراستان هما:

– دراسة (كارولين سيمور–يورن)، **(تعليم العربية بين المهاجرين العرب في مِلْ ووكي وِسْكِنْسون...دراسة في الاتجاهات والدوافع)** (1).

– دراسة ت.أ.طه، **العربية لغةَ أجنبيةً لحاجة ملحة بعد الحادي عشر من أيلول....دراسة في اتجاهات الطلبة ودوافعهم.**

وفيما يلي بيان تفصيلي عنهما

أولاً: دراسة (كارولين سيمور–يورن)

(تعليم العربية بين المهاجرين العرب في ملووكي وسكنسون...دراسة في الاتجاهات والدوافع)(2).

حاولت الباحثة تلمس اتجاهات أبناء المهاجرين العرب نحو اللغة العربية، والحوافز والبواعث التي تدفعهم إلى تعلمها، ولعل ملاحظتها الأولى تتمثل في أنّ ثمة إقبالاً كبيراً لدى الطلبة العرب الأمريكيين ولاسيما المسلمين على تعلم اللغة العربية.

وأما الأسباب الغالبة على إقبالهم على تعلمها فتتمثل في:

1– قراءة القرآن الكريم وإنتاج فهم خاص بالعربية لا يعتمد على الترجمة.

2– تحمل المسؤولية تجاه العرب الأمريكيين في المحافل الرسمية؛ أي معرفة العربية للتخاطب مع العرب، مِنْ ثَمَّ نقل وجهات نظرهم إلى المجتمع الأمريكي.

(1) Charoline Seymour-jorn, Arabic language Learning among Arab Immigrants in Milwaukee,Wisconsin: A study of Attitudes and Motivations,

(2) Journal of Muslim Affairs, Vol, 24, No, 1,April 2004, pp: 109-122.

3- الحفاظ على التراث الثقافي والهوية الثقافية، والهوية اللغوية شطر مهم منها، والتواصل معه.

4- التواصل مع الأقرباء العرب في البلدان العربية، وإدامة الروابط العائلية وما يستتبع من روابط دينية وثقافية.

وقد قامت الدراسة على الأسئلة التالية[1]:

- ما دور تعليم اللغة العربية وتعلمها في مساعدة أعضاء هذه العائلات ليشعروا أنهم ينقلون ثقافتهم وتراثهم؟
- هل كان التأكيد على تعلم اللغة العربية ذا أبعادٍ دينية وثقافية؟
- هل يساعد تعلمُ العربية العربَ الأمريكيين للتأقلم مع التعدد الثقافي العالمي أو للتفاعل مع عائلاتهم وغيرهم في العالم العربي؟

وتشير الباحثة في سياق عرضها لخلفية بحثها إلى أنها تُتابع تزايد أعداد الطلبة المنتظمين في صفوف تعلم العربية، ولاسيما من العرب المسلمين، وتسترجع مسحاً أجرته عام 1995م حول خلفيات الطلبة ودوافعهم من تعلم العربية؛ وكان أبرز تلك الدوافع[2]:

1- الظن بأن اللغة العربية مادة سهلة!

2- أنهم انتظموا في صفوف العربية بأثر من إلحاح الوالدين.

3- رغبةً في تطوير مهارات التخاطب والتحادث مع أقاربهم العرب عندما يزورون بلدانهم.

4- قراءة القرآن بلغته المصدر، وصولاً إلى فهمه دون وساطة.

أما في هذه الدراسة فقد تناصفت إجاباتُ الطلبة عن السؤال: **لماذا اخترتَ دراسة اللغة العربية؟** فقد كانت النسبة موزعة على هدفين رئيسيين هما:

1- 50 ٪ لقراءة القرآن وبناء فهم وتفسير خاص.

2- 50 ٪ لتطوير مهارات القراءة والكتابة.

وعندما تحسنت مهارات هؤلاء الطلبة في اللغة العربية أبدوا أسباباً إضافية منها(3):

- تعزيز الهوية الثقافية واللغوية.
- لأن العربية هي اللغة الأم.

وقد كشفت الدراسة عن اتجاه عام لدى الطلبة باعتبار العربية رمزاً للانتماء الثقافي والديني.

(1) Ibid, p112.

(2)Ibid, p112.

(3) Ibid, p114.

وقد ضمنت الباحثة دراستها سؤالاً مهما مفاده: **هل أثرت أحداث 11/9/2001 في اتخاذ قرارك تعلمَ العربية؟**

وقد أشارت غالبية الطلبة إلى عدم تأثر قرارهم بهذه الأحداث. أما الذين تأثر قرارهم بالأحداث فمنهم:

- مَنْ شعر بأنه مهدد ولذلك كان عليه أن يثبت أنه عربي أمريكي وتأكيد عروبته؛ وما ذلك إلا بتعلم العربية.
- مَنْ رأى التمييز في المجتمع الأمريكي والنظر إليه على أنه عربي خالص وإن وُلِد في أمريكا!

وعلى الرغم من أن هذه الأحداث لم تؤثر تأثيراً مباشراً في الاتجاه نحو العربية إلا أن آثارها السياسية والاجتماعية حفزت بعض الطلبة لتعلم العربية؛ ذلك أن المضايقات وحملات التمييز والإساءة التي تعرض لها المسلمون ولاسيما العرب جعلت ضرورياً امتلاك العربية للتحدث مع العرب ومخاطبتهم بالعربية، من ثَمَّ التعبير عن آرائهم في المحافل الرسمية، ونقل وجهات نظرهم للمجتمع الأمريكي الرسميّ والشعبيّ.

وثمة دوافع وحوافز أخرى جعلت العرب الأمريكيين في (مِلْ ووكي) يقبلون على تعلم العربية؛ فمنهم من حَرَّكته حوافزُ اجتماعية خاصة تمثلت في محاولة التخلص من النظرة الاستهجانية التي كان يُواجَه بها عندما يعجز عن التواصل مع أقربائه العرب؛ إذ غالباً ما كان يوصف بأنه «**أمريكي خالص/قُحّ**». ومن هذه الدوافع الاجتماعية تأميلُ أن يختار الشاب أو الفتاة قريناً له من بلده الأصلي.

ومن أَطْرف البواعث التي وقفت عليها(كارولين) الحَرَج الذي وقع فيه متعلم العربية ذلك أن بعضهم كان يعجز عن قراءة قائمة الطعام بالعربية عندما كان في إجازة مع أهله في فلسطين(1)!

ثانياً: دراسة ت.أ.طه، العربية لغةَ أجنبيةً لحاجة ملحة بعد الحادي عشر من أيلول....دراسة في اتجاهات الطلبة ودوافعهم(2).

أما غاية البحث الرئيسية فهي استكشاف اتجاهات الطلبة (أمريكيين وغير أمريكيين) نحو تعلم العربية بوصفها إحدى اللغات المصيرية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول.

يبدأ الباحث مسوغات الأهمية القصوى للغات التي شملتها المبادرة اللغوية، وهو يُرْجِع هذه المسوغات إلى:

---

(1) Ibid, p118.

(2) T. A. Taha, Arabic as " a critical- need' Foreign Language in Post- 9/11 Era : A study of Students' Attitudes and Motivation, Journal of Instructional Psychology, Vol, 34, No, 3, pp 150- 160.

1– أن الولاياتِ المتحدةَ لا ينبغي لها أن تنتظر مأساة أخرى؛ إذ أظهرت أحداث الحادي عشر من أيلول أن ثمة ضعفاً كبيراً لدى الأمريكيين ثنائيي اللغة (العربية والإنجليزية).

2– أن المنافسةَ الاقتصاديةَ العالميةَ ولاسيما المنافسة اليابانية ومنافسة الاتحاد الأوروبي قد جعلت مكانة أمريكا التجارية في قلب اهتمامات الأمن القومي.

3– أن النظرَ في منظومة المجتمع الدولي يظهر أن ثلاث لغات من اللغات التي شملتها المبادرة تعد لغاتٍ رسميةً عاملة في الأمم المتحدة.

4– أن خَمْسَ لغاتٍ من اللغات التي شملتها المبادرة لغاتٌ مهمة في الأعمال والتجارة والاقتصاد والدبلوماسية العالمية، إضافة إلى أنها تمثل اللغات الرسمية في بلادها.

5– أن إتقان هذه اللغات تعلماً وتعليماً وتداولاً ينتهي إلى تعزيز التفاهم العالمي والحوار لإشاعة السلام والانتعاش الاقتصادي العالمي.

ويضاف إلى تلك العوامل عوامل تنفرد بها العربية؛ فهي لغة القرآن والدين الإسلامي، وهي من ناحية أخرى، حسب رأي كثيرين من الساسة الأمريكيين، لغة «الإرهاب»، ومن ناحية ثالثة هي «لغة العدو في العراق».

وقد تفاوتت آراء الطلبة حول برامج اللغة العربية في الجامعات الأمريكية بين رأيين(1):

– الإبقاء على برامج تعليم العربية كما هي؛ إذ ليس ثمة حاجة لتوسيعها. وقد مثل أصحاب هذا الرأي 66.6 ٪ من الأمريكيين، أما الطلبة غير الأمريكيين فقد بلغت نسبتهم 58.8 ٪.

– توسيع هذه البرامج وتطويرها؛ وقد مثل أصحاب هذا الرأي 32.4 ٪ من الأمريكيين، أما الطلبة غير الأمريكيين فقد بلغت نسبتهم 41.1 ٪.

ولعل أهم النتائج الإحصائية التي انتهى إليها البحث ما يلي:

– يعتقد 38.8 ٪ أن العربية ستزيد فرصهم في العمل، ولاسيما في البلاد العربية.

– يرى 62.9 ٪ من الأمريكيين أن العربية مهمة للسياحة والسفر، في حين يرى 55.9 ٪ من الأجانب أنها مهمة للسياحة والسفر.

– يرى 84.5 ٪ أن العربية مصدر قوة لغوياً وثقافياً.

– يرى 66.6 ٪ من الطلبة الأمريكيين أن انتشار اللغة الإنجليزية وتوسعها لا يقلل من أهمية اللغة العربية عندهم، أما الطلبة الأجانب فقد رأى 61.7 ٪ ذلك.

ولا تتوقف أهداف متعلمي العربية عند هذا الحد بل تتجاوزه إلى أهداف أخرى، وكان مما رصدته بعض الدراسات الأهداف التالية(2):

---

(1) Ibid, pp. 153–154.

(2) http://www.taqrir.org/showarticle.cfm?id=154

– تحصيل دخول اقتصادية مرتفعة بالعمل في إحدى المؤسسات الأمنية أو الدبلوماسية الأمريكية، ولاسيما أن الحكومة الأمريكية تمضي قدماً في دعم برامج اللغة العربية.
– أن طبيعة وظائف بعض المتعلمين تفرض عليهم ذلك؛ فالعاملون في الجيش الأمريكي ولاسيما الذين يحتلون العراق أو يقيمون في القواعد العسكرية الأمريكية في الخليج يتعلمون العربية لأسباب أمنية تتعلق بحياتهم الشخصية أو بأمن المناطق التي يحتلونها، أو بأمن الولايات المتحدة نفسها.
– الرغبة في الإسهام في حركات نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان في البلاد العربية.
– تحصيل فرص عمل ذات دخل مرتفع ولاسيما في الخليج العربي.
– الرغبة في الإسهام في تقريب وجهات النظر بين العرب والمسلمين والولايات المتحدة الأمريكية.

العربية في السياق الأمريكي

يمكن لمن يقصد الوقوف على واقع اللغة العربية في الولايات المتحدة أن يعاينها في السياقات التالية:

1– السياق الاجتماعي.
2– السياق العلمي و الأكاديمي.
3– السياق العسكري/ الأمني.
4– السياق التربوي/التعليمي.

أولاً: العربية في السياق الاجتماعي

وإنما نقصد بذلك أن العربية تمثل إحدى الظواهر اللغوية الاجتماعية التي ينتظمها المجتمع الأمريكي؛ ذلك أن كثيراً من المهاجرين العرب الأمريكيين ما يزالون يتداولون بالعربية فيما بينهم ويسعون سعياً دؤوباً إلى تعليمها لأبنائهم؛ حفاظاً على هويتهم الثقافية وأصولهم العرقية؛ إذ إن معرفة العربية تمثل أدلَّ العلامات على الأصول العربية لهؤلاء المهاجرين. وليس غريباً القول إن الجاليات العربية، كغيرها من الجاليات، تميل إلى التجمع في مناطق معينة قد تعود في أصلها إلى تواجد الأقارب أو ظروف العمل أو الدراسة. وهكذا فإن النظر في التركيبة الاجتماعية والثقافية لبعض الولايات الأمريكية يكشف عن تجمعات عربية وإسلامية قد يصل تعداد أفرادها إلى عشرات الآلاف، كما هو الحال في ديترويت؛ ولذلك كان طبيعياً أن تجد عدداً من الدراسات الاجتماعية والثقافية التي تتناول التجمعات العربية في الولايات المتحدة، ومن أبرزها كتاب «باربرا أسود» الذي يتضمن عدداً من الدراسات الاجتماعية والثقافية لهذه التجمعات(1).

(1) Arabic Speaking Communities in American Cities, edited by BARBARA ASWAD. New York: Center for Migration Studies, 1974.

وفي الإطار الاجتماعي الثقافي نفسه نجد أن العربية تحضر حضوراً لافتاً بوصفها وسيلة تواصل وتفاهم بين العرب وغيرهم من المسلمين؛ إذ تمثل لغة مشتركة يستعملها العرب وإخوانهم المسلمون في أداء العبادات والشعائر الإسلامية، وما يتبعها من مناسبات وطقوس دينية مختلفة.

ولعل أظهر الأدلة على منزلة العربية في التداول اليومي أنها صارت مجال دراسة علمية بحثية؛ إذ تناولتها كثير من البحوث بالتحليل والدراسة؛ ولعل كتاب «**اللغة العربية في أمريكا**»(1) يكون دليلاً كافياً.

فقد أشارت محررة الكتاب « عَلِيَّة رشدي » إلى أن غرض هذا الكتاب رغبتها في أن تلقي مزيداً من الضوء على اللغة العربيةَ التي يمثل الناطقون بها أكبر الأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية؛ ذلك أن البحث اللساني لم يعتنِ كثيراً بالظاهرة اللغوية العربية وامتداداتها في المجتمع الأمريكي. ومن هنا فإن رغبتها الشخصية العلمية تجسدت في جمع عدد من البحوث العلمية التي تتناول العربية وحدها في السياق الأمريكي. ويمثل الجدول التالي بياناً وافياً عن موضوعات الكتاب.

القسم وعنوانه	عنوان البحث	المؤلِّف
الأول: الاحتكاك والتغير اللغوي	1– اللهجة اللبنانية في كليف لاند	نزيه ظاهر
	2– الاقتراض في كلام العرب الأمريكيين	علية رشدي
	3– اتجاه التناوب اللغوي (من العربية إلى الإنجليزية)	مشيرة عيد
	4– وظائف التناوب اللغوي: اللهجة السعودية في الولايات المتحدة الأمريكية	صباح صافي
القسم الثاني: استعمال العربية...وجوهه والاتجاهات نحوه	5– اللغة العربية والتحديات...هل تحتفظ بالبقاء	محمد سواعي
	6– المسيحيون اللبنانيون في «بوفالو»..... استبقاء اللغة والتحول عنها	بدر الدويك
	7– تعلُّم العرب الأمريكيين العربيةَ....الدوافع والاتجاهات	دَلاس كيني
	8– الإعلام العربيّ الأمريكيّ....الماضي والحاضر	فهد عبد الله وكينيث قحطان الأيوبي
	9– اللغة العربية في مساجد «ديربورن»	ليندا وُلْبرِج
القسم الثالثُ: التعليم والتعلُّم	10– تاريخ الدراسات العربية في الولايات المتحدة	إرْنست مكّاريوس
	11– تعليم العربية في الولايات المتحدة..... الماضي والحاضر والمستقبل	روجر ألِن
	12– تصميمُ منهجِ كفايةٍ للعربية المعاصرة لغةً أجنبية	مهدي علوش
	13– كفاية الازدواجية.... الحاجة إلى منهج بديل للتعليم	محمود البطل
	الحاسوب في تعليم العربية.... التأميل والواقع	دلْوورث باركنسون

(1) Aleya Rousdy,The Arabic Language in America: Al–Lughah Al–Arabīyah Fī Amrīkā

ولما كانت العربية لغة حية متداولة في المجتمع الأمريكي كان طبيعياً أن تؤثر، ولو تأثيراً بسيطاً، في اللغة الإنجليزية، في بنيتها وبعض قواعدها؛ فقد أدت طبيعة الأسماء العربية وبنيتها التركيبية إلى اقتحام الإنجليزية، فصار طبيعياً أن تجد الاسم الأول يتقدم اسم العائلة، وصار مقبولاً أن تجد (ال) التعريف حاضرة في الاسم العربي المثبت بالإنجليزية، وكذا القول في الأسماء التي يلتزم أصحابها، وخاصة أهل الخليج، بكلمة (ابن)، و يضاف إلى ذلك كله أن الأعلام العربية صارت مكوناً ثابتاً من مكونات الثقافة الأمريكية، ولاسيما الأسماء العربية الخالصة التي لم تُحَرِّفْها الكتابةُ أو النطق الإنجليزي.

ثم إن الإنجليزية بدأت تستوعب مفرداتٍ عربيةً وتستعملها في معجمها، بصرف النظر عن طبيعة هذه المفردات أو منطوياتها السياسية، ومن ذلك مفردات الدين الإسلامي في الحياة العامة: الصلاة والزكاة والحج وعيد الفطر، وعيد الأضحى، والسلام عليكم....، بل إن بعض المفردات العربية صارت علامة تجارية واضحة؛ كلمة «حلال»!

ثانياً: العربية في السياق العلمي والأكاديمي

والمقصود بذلك اتخاذ العربية منزلة لها في سياق الدراسات اللسانية الأمريكية على مستويين، أولهما مستوى حضور العربية في التأليف اللساني العام، وثانيهما مستوى الأطروحات الجامعية التي أنجزت في الجامعات الأمريكية، سواء تلك التي أنجزها الطلبة العرب أم تلك التي أنجزها الطلبة الأمريكيون و غيرهم. ويهدينا في هذا السياق أربعة أعمال بحثية هي:

- **كتاب نهاد الموسى: اللُّغَةُ العربيَّةُ في مِرآة الآخر... مَثَلٌ من صورة العربية في اللسانيات الأمريكية[1].**
- **بحث حمزة المزيني: مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة[2].**
- **دراسة «دونا ستريلي»: ببليوغرافيا مشروحة لرسائل الماجستير والدكتوراة في اللغة العربية وآدابها والثقافة العربية 1967–1987. [3]**
- **دراسة محمود البطل (محرر): تعليم اللغة العربية لغة أجنبية... قضايا واتجاهات[4].**

1 – منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005.

2– نشر هذا البحث أولاً في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد53، السنة الحادية والعشرون وأعيد نشره في كتاب «التحيز اللغوي وقضايا أخرى»، سلسلة كتاب الرياض، العدد125، 2004.

3 – موقع «الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية».

4 – Al–Batal, Mahmoud (ed.). The Teaching of Arabic as a Foreign Language: Issues and Directions. Provo, UT: American Association of Teachers of Arabic, 1995..

ويعتني هذا الكتاب بالتحديات التي تواجه تعليم اللغة العربية وتعلمها بالتحديد في المستوى الجامعي، ويجمع الكتاب خمس عشرة ورقة بحثية قدمت في ملتقى للغاية نفسها في كلية (ميدل بيري) صيف عام 1992. ويوثق هذا الكتاب النجاحات التربوية التطبيقية التي أنجزها الباحثون المشاركون، وهم أصلاً من أساتذة العربية المنشغلين بها تعليماً وتنظيراً في الجامعات الأمريكية، ومنهم: بيتر عبود، وروجر ألِن، ومهدي علوش، ومحمود البطل، وراجي رموني. . .إلخ. وقد تضمن الكتاب محاور مختلفة منها: الثقافة العربية في دروس تعليم العربية، وقضية الازدواجية وأثرها في تنوع العربية والإشكالات التربوية التي تثيرها، وإعداد المواد التعليمية في المهارات اللغوية العربية. . .الخ.

أما **نهاد الموسى** فقد جعل غايته من الكتاب أن يجيب عن سؤال عريض مفاده: ما صورة العربية في اللسانيات الأمريكية؟

وهو سؤال كبير يتشعب إلى أسئلة فرعية هي:

- ما ملامح «العربية» في «مرآة» علماء اللسانيات في أمريكا؟
- ما موارد العربية في مؤلفاتهم اللسانية الأصول بمناهجها المتعاقبة؟
- ما مقدار «اطلاعهم» على «أنظار» علماء العربية؟
- ما مقدار الانتفاع بأنظارهم هم في مقاربة العربية برؤية «إضافية»؟
- ما موقفهم من العربية من حيث هي ظاهرة لغوية؟
- ما موقفهم من العربية من حيث هي وعاء لمحمول ثقافيّ حضاريّ؟

وقد تناول نهاد الموسى موارد العربية عند اللسانيين الأمريكيين، حسب، في مستويين:

الأول: مستوى الرواد من اللسانيين (الأفراد)؛ إذ تناول وجوه ورود العربية عند:

- بلومفيلد في كتابه: اللغة.
- سابير في كتابه: اللغة.
- هياكاوا في كتابه: اللغة في الفكر والفعل.
- زليج هاريس في كتابه: اللسانيات البنيوية.

الثاني: **العربية في المدارس اللسانية**، وهو يتناول صورة العربية في المدارس والاتجاهات التالية:

1- اللسانيات الوصفية، ومثالها كتاب «غليسن»: مقدمة في اللسانيات الوصفية.

2- اللسانيات التاريخية، ومثالها كتاب «وينفريد ليمان»: اللسانيات التاريخية (مقدمة).

3- اللسانيات الكلاسيكية_ الاستشراقية، ومثالها مقالة «ألن كاي» في كتابه: لغات العالم الرئيسة. .

4– اللسانيات الأنثروبولوجية، ومثالها كتاب « وليام فولي » : اللسانيات الأنثروبولوجية.

5– اللسانيات الاجتماعية والتخطيط اللغوي، ومثالها كتاب « روبنز بيرلنغ » : تعدد أصوات الإنسان : اللغة في سياقها الثقافي.

6– اللسانيات التوليدية التحويلية أو نظرية تشومسكي، ومثالها رسالة « مايكل بريم » : التشكيل الصوتي للعربية.

7– اللسانيات الحاسوبية، ومثالها كتاب « جون لولير » و« هيلن أرِستر » : استخدام الحاسوب في اللسانيات.

8– اللسانيات العامة، ومثالها كتاب « أدريان أكمجيان ورتشارد ديميز » : مقدمة في اللغة والاتصال.

أما دراسة المزيني فإنها تفترق عن دراسة نهاد الموسى من وجوه متعددة[1]؛ أجلاها أن غاية قصد نهاد الموسى تَبَيُّن صورة العربية في اللسانيات الأمريكية واستبطان الخطاب الفكري الذي أنتج هذه الصورة، أما المزيني فإن غايته أن يدل على منزلة العربية في الدراسات اللسانية الحديثة، الأمريكية وغيرها، من حيث هي لغة حية متداولة تخضع لقوانين النظرية اللسانية العامة.

لقد أورد المزيني عدداً كبيراً من الدراسات اللسانية التي أُنْجِزَت في الولايات المتحدة، سواء أكان مُنْجِزها عربياً أم غير عربي؛ فقد أُنْجِزَت بالإنجليزية. وقد جعل المزينيُّ دراسته المستقصية في ثلاثة أقسام:

أولاً : الاهتمام بالعربية نموذجاً للتحليل اللساني[2]

وذلك أن كثيراً من الدراسات والأطروحات الجامعية اتخذت العربية نموذجاً لغوياً لاختبار بعض الفرضيات والنظريات اللسانية؛ انطلاقاً من أنها لغة حية متداولة، وأن اختبار النظريات اللسانية وفقاً لها يمثل رؤية علمية لمفهوم الكليات اللغوية. والظاهر أن عدداً من هذه الأطروحات العلمية قد أنجزت في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا أرقى معاهد البحث العلمي هناك.

وانطلاقاً من ذلك يورد المزيني عدداً وافراً من الدراسات التي تختبر أنظاراً لسانية متباينة انطلاقاً من بنية العربية ومنظومتها الداخلية، والأمثلة التالية مبينة:

1– الدراسات التي تختبر العربية اختباراً بنيوياً (في إطار المدرسة البنيوية)، ومنها دراسة هاريس على اللهجة المغربية لاكتشاف «إجراءات الاكتشاف في الدراسة اللسانية البنيوية في أمريكا.

1– تَحْسُنُ الإشارة إلى أن بحث المزيني أسبق تاريخياً من بحث نهاد الموسى؛ إلا أن مضمون معالجة كتاب الموسى أسبق من مضمون بحث المزيني؛ لذا اقتضى التنويه بذلك.

2– التحيز اللغوي وقضايا أخرى، ص: 118–103.

2– دراسة مايكل بريم التي طبق فيها الصوتيات التوليدية التي اقترحها تشومسكي وهاله على الأصوات العربية.

3– دراسة جون مكارثي «قضايا شكلية في الصواتة والصرف الساميين»، وانتهت هذه الرسالة إلى نظرية جديدة في التحليل الصواتي طورها فيما بعد وسماها «الصواتة الوزنية».

4– التداول بالعربية في المجتمع العربي، من منظور اللسانيات الاجتماعية والثقافية، وأبرز أعمال هذا الاتجاه عمل فيرغسون « فأتوا بسورة من مثله: اللغة العربية مقياساً للمجتمع العربي»، وفيها يستعرض استعمال العربية في العالم العربي مستدركاً على بعض آرائه التي أوردها في مقالته الشهيرة «الازدواجية».

5– اللسانيات النفسية والمرضية، حيث أورد بعض الدراسات التي تناولت الأداء اللغوي لبعض العرب المصابين بأمراض لغوية كالحبسة.

6– اللسانيات الحاسوبية، ومن أمثلتها دراسة «كينيث بيزلي» عن التحليل الصرفي الحاسوبي للعربية.

ثانياً: الدراسات الغربية الحديثة التي اهتمت بإنجازات النحو العربي[1]

يستعرض المزيني في هذا القسم عدداً كبيراً من الدراسات التي تناولت النحو العربي دراسةً وتحليلاً ونقداً. ويلفت النظرَ في هذه الدراسات، وقد أَنْجَزَ معظمَها أمريكيون، أنها تعمقت في النحو العربي تعمقاً لافتاً؛ إذ تجاوزت الظاهرةَ النحويةَ في العربية إلى بنية نظريتها وأسسها الفكرية التي انطلقت منها؛ فقد تناول بعض الباحثين نظرية العامل، والسماع والقياس، والتعليل، والأصل والفرع، وهذه المقولات هي المقولات المعرفية الأساسية في النحو العربي. ولم يقف جهد هؤلاء عند ذلك بل تجاوزه إلى تعدد الوجوه في العربية والخلافات النحوية! ثم إنهم تناولوا أعلام النحو العربي؛ فدرسوا مناهجهم وآراءهم و أمثلتهم وعلقوا عليها تعليقات ضافية، حتى إن احدهم تخصص في«سيبويه»[2]. وكان من صميم أعمالهم مضاهاة النظريات اللسانية الحديثة (البنيوية، والتحويلية، والاجتماعية، والتداولية) بنظرية النحو العربي. ومن أبرز الدراسات التي أوردها المزيني في هذا السياق البحثي:

1– دراسات مايكل كارتر: «عشرون درهماً في كتاب سيبويه»، و «أصول النحو العربي»، و »نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي».

2– دراسات جوناثان أوينز: «مقدمة للنظرية العربية النحوية في القرون الوسطى»، و«النظرية العربية النحوية المبكرة... التنوع والتعدد».

1– المرجع نفسه، ص: 118–103.

2– هو: مايكل كارتر.

ثالثاً: دراسة الأعمال التي تردُّ على من يقولون بقصور العربية ونقائصها ووجوه تخلفها[1].

وقد ركز فيه على كتاب « ديفد جَسْتِس » « **دلالة الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية** »[2]، وفيه يدحض المؤلف كثيراً من الأزعومات والأحكام المتجنية على اللغة العربية.

ولعله كان يحسن بالمزيني في هذا السياق العلمي إضافة قسم آخر، وهو دراسات بالترجمة والأدب المقارن.

لقد انعكست هذه العناية الأكاديمية والبحثية باللغة العربية في عدد من المظاهر العلمية التوثيقية، كتأسيس المجلات والجمعيات والحلقات العلمية الدورية، ومن أهم المجلات « اللسانيات العربية ». كما خصصت بعض الدوريات أعداداً خاصة عن اللغة العربية. وتأسست في الولايات المتحدة أيضاً جمعية اللسانيات العربية عام 1988. وكذلك الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية.

– **الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية**

لم أقف على نص صريح يشير إلى تاريخ تأسيس هذه الرابطة، ولكن موقعها الرسمي يقدم جرداً بأسماء رؤساء الرابطة، ويشير تاريخ أول رئاسة إلى عام 1965، ولعل هذه العام يكون فعلاً هو عام انطلاقها.

تضم هذه الرابطة عدداً من المتخصصين في اللغة العربية من الأمريكيين والعرب الأمريكيين، ومن أبرزهم: بيتر عبود، ومحمود البطل، وراجي رموني..إلخ. وتصدر الرابطة مجلة دورية سنوية هي « **العربية** » تختص باللغة العربية وقضاياها دراسة وتدريساً. ويشير موقع الرابطة إلى العدد الثالث والثلاثين.

يعد موقع الرابطة على الشابكة موقعاً غنياً جداً ومصدراً مهماً لمتابعة أخبار العربية في الولايات المتحدة؛ إذ تستطيع أن تجد فيه:

– معلومات لغوية عن اللغة العربية.
– بعض مصادر العربية كالقرآن الكريم.
– نشرة المحرر التي تتضمن عدداً كبيراً من الفعاليات عن اللغة العربية (مؤتمرات، وندوات، ومنح، ودورات.....إلخ).
– أهم برامج اللغة العربية في أمريكا: الدورات القصيرة، ودرجة البكالوريوس، والدراسات العليا، و الدورات الصيفية، والبرامج الحكومية الخاصة، و المعاهد الخاصة.

1 – حمزة المزيني، التحيز اللغوي وقضايا أخرى، ص 145-139.

2– وقد ترجمه المزيني نفسه إلى اللغة العربية، ونشره مركز الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية.

- برمجيات تعليم اللغة العربية، أكانت برمجيات جاهزة أم برامج تعليمية على الشابكة، أم كتباً إلكترونية. وكذلك الشركات المعتنية بحوسبة العربية وبرمجياتها التعليمية.
- المنح الدراسية التي تقدمها الجامعات الأمريكية لدراسة اللغة العربية العالم العربي.
- إعلانات التوظيف للمتخصصين في اللغة العربية.
- ....إلخ.

3- السياق العسكري / الأمني

في عام 2000 أصدر معهد اللغات الأجنبية الوطني في جامعة ميرلاند تقريراً يربط اللغات الأجنبية بالأمن القومي الأمريكي[1]، وخلاصة هذا التقرير أن ثمة نقصاً كبيراً في مهارات التواصل باللغات الأجنبية في مؤسسات الولايات المتحدة الأمريكية الرسمية ولا سيما المؤسسات الاستخبارية والعسكرية، ومما جاء في التقرير أن حوالي أربعين ألف جندي أمريكي ينتشرون في العالم، وهم لا يعرفون لغات تلك البلدان، لذلك ثمة حاجة ملحة لتعليم هؤلاء الجنود لغات تلك البلدان للقيام بمهمتهم في نشر السلام على الوجه الأكمل. كان ذلك قبل أحداث أيلول بقليل.

ثم قدم عضو الكونغرس الأمريكي (هولت) تصوراً لسياسة وطنية لتعليم اللغات الأجنبية، ولاسيما تلك اللغات المصيرية يوم 3 / 9 / 2003، وكان مما جاء في مسوغات تقريره « أنه لم يعد ممكنا الاستمرار في ترك الأمن الوطني عرضة للمخاطر؛ ذلك أن كثيراً من القوات الأمريكية العاملة في المناطق الساخنة من العالم لا يمتلكون الكفايات اللغوية المناسبة التي تؤهلهم للتواصل مع الناس هناك، ودرء المخاطر عن أنفسهم وعن الولايات المتحدة الأمريكية[2].

وبناء على هذه التقرير أنشئت مبادرة (فلاغ شِب)[3] وكان من ضمن أهم أهدافها ترقية برامج تعليم اللغات المصيرية والملحة للأمن القومي وفي مقدمتها العربية، حيث تضمنت المبادرة بنداً خاصةً بالعربية عنوانه : « **العربية للتواصل الفاعل** » ويتضمن إعداد عدد كبير من الطلبة الأمريكيين وتزويدهم بمستويات متقدمة من الكفايات التواصلية باللغة العربية، ثمة عدد من هؤلاء المتعلمين ممن يعملون في الوكالات الحكومية الأمريكية. وتنفيذا لذلك افتتح برنامج لتعليم العربية خارج الولايات المتحدة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وبرامج أخرى في دمشق.

1 – www.nflc.org/security/language–terror.htm
2– http://www.holt.house.gov/display2.cfm?id=9104&type=Home–
3– http://www.actfl.org/i4a/pages/Index.cfm?pageID=4249–

ولا شك أن أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 تمثل مفصلاً هاماً في تاريخ تعلم العربية والثقافة الإسلامية في الولايات المتحدة، إذ اختلفت الأحوال قبل الأحداث عما بعدها اختلافاً هائلاً جداً.

وتشير الإحصاءات المتوافرة إلى أن إقبال الأمريكيين على تعلم العربية يتزايد باطراد حتى قدرت نسبة الزيادة في أعداد الدارسين ب٪90 من الطلبة المنتظمين في دروس اللغات. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نشطت الجامعات الكبرى في إنشاء أقسام ووحدات للغة العربية، كجامعة جورج تاون التي افتتحت برنامجاً للغة العربية ولسانياتها. ولعل الدوافع الثقافية للأفراد في بادئ الأمر هي التي حفزتهم على تعلم اللغة العربية رغبة في فهم الثقافة العربية الإسلامية ودراستها بلغتها لا بلغة وسيطة.

ويظهر أن الاهتمام الرسمي الأمريكي باللغة العربية بدأ يتزايد منذ بدأ التفكير الأمريكي بإسقاط النظام العراقي بقيادة صدام حسين، إذ كانت مدخلاً مهماً للتجسس على الاتصالات العراقية العسكرية والمدنية، إضافة إلى التواصل مع العملاء من الداخل للمساهمة في إسقاط النظام.

ثم ارتفعت أسهم العربية ارتفاعاً كبيراً في الولايات المتحدة بعد احتلال العراق، و صار إتقانها مطلباً ضرورياً لاحتلال البلاد، فقلَّ العَرْضُ وازداد الطلب وارتفعت أسهم العربية ارتفاعاً قياسياً هائلاً. وزاد طلب الاستخبارات الأمريكية على دورات تعليم العربية، وصاروا ينشرون إعلانات متتابعة تغري من يعرفون العربية(ولا سيما العرب) بمبالغ هائلة للعمل معهم[1] .

ثم كان خطاب الرئيس جورج بوش في تدشين مبادرة تطوير المهارات اللغوية علامة فارقة ومهمة في تاريخ تعليم العربية في الولايات المتحدة[2]؛ إذ كانت أشبه ما يكون بمرسوم جمهوري يدعو إلى تعليم العربية وغيرها من اللغات المصيرية الحاسمة؛ وإنما كان ذلك لأنه ربط تعلمها بالأمن القومي للولايات المتحدة، وهو يصرح تصريحاً مباشراً بأن خير وسيلة للوصول إلى الإرهابيين في بلادهم وضربهم ضرباتٍ استباقية هي تعلم لغتهم.

ولعل خلاصة التصريح تتمثل في قوله[3]: كيف نربح معركتنا مع الإرهابيين؟ وماذا نفعل تحقيقاً لهدفنا هذا؟ إن إستراتيجيتنا تتمثل في الوصول إلى أعدائنا في بلدانهم؛ لذلك ينبغي على جنودنا في الصفوف الأمامية أن يكونوا قادرين على التكلم بلغتهم، وأن يكونوا قادرين على الاستماع لهم في مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ليتمكنوا من معرفة لغة هؤلاء

1– انظر مقالة «العرب الأمريكيون وسي. آي. ايه» في جريدة الغد، الأردن، عدد يوم 2006/8/4، مترجمة عن «وول ستريت جورنال».

2– www.whitehouse.gov/new/releases/2006/01/20060105_1

3– www.whitehouse.gov/new/releases/2006/01/20060105_1

الأعداء القتلة في مدنهم وقراهم لحماية الشعب الأمريكي. إننا محتاجون إلى ضباط أذكياء يستطيعون أن يفهموا ما الذي يريده متحدث ما عندما يتكلم العربية أو الفارسية أو الأردية. ونحتاج دبلوماسيين يقنعون الحكوماتِ بمشاركتنا جهودنا في مكافحة الإرهاب بلغتهم هم. إن شعبنا يتوقع منا النجاح وأن نكون حكيمين في استثمار مصادرنا، والاستثمار الجيد لمصادرنا الآن يتمثل في تعليم هذه اللغات (وأهمها العربية) من الروضة إلى نهاية الصف الثاني عشر وفي جامعاتنا. علينا أن نشجع متكلمي هذه اللغات للقدوم إلى بلادنا وتعليمنا كيف يتكلمون لغتهم.

إن من أهم أهداف أمريكا نشر الحرية والديمقراطية و لن ننجح في ذلك إلا إذا تحدثنا إلى الشعوب بلغاتها، إنَّ تكلم لغة شعب ما هي خير وسيلة لإقناعه بالديمقراطية. و خير وسيلة لإظهار اهتمامك بالآخر هي تعلم لغته، وعندما يتعلم الأمريكيون التحدث باللغة العربية سيقول العرب إنهم مهتمون بنا، إنهم قلقون إلى حد جعلهم يتعلمون لغتنا!

حقاً لقد كان هذا الخطاب انعطافة في تاريخ تعليم اللغة العربية في أمريكا؛ إذ صارت العربية أهم لغة بعد الإنجليزية، وعقدت حولها ندوات ومؤتمرات عديدة غايتها وضع إستراتيجيات تعليمية حكومية لتطوير تعليم اللغة العربية وتسهيل تكوين موظفين حكوميين قادرين على التواصل بالعربية في مستوى متقدم من الكفاية.

فقد عقدت جامعة كاليفورنيا حلقة دراسية على مدى يومين (أكتوبر 2005) تناولت موضوع « **السياسة الوطنية لتعليم اللغات** »[1]. وقد قُدِّمت فيها عدد من الأوراق التي تعاين واقع « **اللغات المصيرية** » في الأمن القومي الأمريكي، ومن بينها قضايا تمس اللغة العربية. فقد قدم « روجر ألِن » ورقة تناول فيها الازدياد المطّرد في الإقبال على تعلم العربية بعد أحداث الحادي عشر من أيلول[2]، وهي الزيادة التي لم تكن الولايات المتحدة مهيأة لها من حيث البرامج أو المدرسين الأكفياء، أو المواد التعليمية المناسبة، وتتمثل أهم شكوى في الحاجة الماسة إلى برامج تقدم مستوى متوسطاً ومتقدماً من الكفاية اللغوية بالعربية، وهذا ما دفع إلى إنشاء برنامجين؛ أحدهما في جامعة جورج تاون، والثاني في جامعة ميرلاند.

وقدَّم محمود البطل بحثاً عنوانه « **العربية والسياسة الوطنية لتعليم اللغات** »[3]. وقد شخَّص فيه واقع اللغة العربية في ظل الطلب الكبير على تعلمها، ولا سيما بعد تضمينها في « **مبادرة تطوير المهارات اللغوية** » وعدِّها إحدى « **اللغات المصيرية** » في الولايات المتحدة الأمريكية.

1- The Modern Language Journal 91 (2007).

2- Roger Allen, **Arabic- Flavor of the Moment: Whence, Why, and How?** The Modern Language Journal 91 (2007). pp: 258-263

3- MAHMOUD Al-BATAL, **Arabic and National Language Educational Policy,** The Modern Language Journal 91 (2007). pp: 268-271

لخص البطل أهم التحديات التي تواجه تعليم العربية في الولايات المتحدة بأنها:

– الزيادة المطردة في افتتاح برامج تعليم العربية، على اختلاف أنواعها.

– ازدياد أعداد الطلبة، والتوسع في مستويات التعليم (المتوسط والمتقدم)، أكان ذلك داخل البلاد أم خارجها.

وأمام هذه التحديات الحقيقية ظهرت الحاجة الماسة إلى معلمين مؤهلين أكفاء للقيام بالمهمة؛ إذ كان معظمهم من الناطقين بالعربية دون امتلاك الكفايات التعليمية والمنهجية اللازمة. ويعزز ذلك افتقار الولايات المتحدة إلى برامج في أساليب تعليم العربية لغةً أجنبية (تافْل)؛ إذ يذكر البطل أنه لم يكن هناك إلا برنامج واحد في مدينة متشيغان.

ويردُ «البطل» تفاقمَ أزمة تعليم اللغة العربية في أمريكا إلى سنوات طويلة من إهمال العربية وتجاهلها، إضافة إلى غياب سياسة وطنية رشيدة لتعليم اللغات الأجنبية، ومنها العربية.

ويقترح البطل إستراتيجية لتطوير تعليم العربية، ويرى أنها ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار ثلاثة جوانب مهمة، وهي:

1– التطويرات المبرمجة. وتتمثل في: زيادة الدعم الحكومي لبرامج تعليم العربية، وعقد اتفاقات التبادل العلمي والثقافي مع الجامعات العربية، وتحديد مستوى الكفاية المطلوب إنجازه في كل مستوى تعليمي . . .إلخ.

2– حَرْفَنة المجال؛ مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها. ويتمثل في تطوير كفايات معلمي اللغة العربية اللغوية والتربوية وطرائق التدريس المختلفة . . . . .إلخ.

3– الاحتياجات المنهجية/ الاستلزامات المنهجية. وتتمثل في الحاجة إلى تدريب المعلمين وتزويدهم بالتأطير النظري لنظريات اكتساب اللغة الثانية وتعلمها، والتركيز على خصوصيات اللغة العربية، وتطوير المحتوى التعليمي في المستويين المتوسط والمتقدم، وتطوير اختبارات الكفاية اللغوية في العربية . . . .إلخ.

4- العربية في السياق التعليمي/ التربوي

ولعل إفراد هذا السياق في باب خاص لا يعدو أن يكون تجوزاً حسب؛ ذلك أن الجانب التربوي والتعليمي هو الركيزة التي تنعقد عليها الجوانب الأخرى؛ فالتعليم هو السياق الأساسي في تعليم اللغات بصرف النظر عن أهداف التعليم ومحتواه.

ولا شك أن العامل السياسي الأمني والعسكري هو المسؤول عن التحولات الهائلة في برامج تعليم اللغة العربية؛ ذلك أن ما حملته أحداث الحادي عشر من أيلول أرجعت أسبابها المباشرة إلى أسباب استخبارية محمولة على أسباب لغوية خالصة مفادها تقصير منتسبي الأجهزة الأمنية

والدوائر الرسمية عن تحصيل الحدود الدنيا من الكفاية اللغوية في عدد من اللغات ومنها العربية.

ويؤكد هذا تلك الإحصاءات التي أصدرها مركز اللسانيات التطبيقية وأهم ما جاء فيها أن[1]:

- 31 % من المدارس الابتدائية الأمريكية و24 % من المدارس الحكومية (العامة) تقدم لغاتٍ أجنبية، وأن 79 % من هذه المدارس تركز على تعرض بسيط (مستوى مبتدئ) لتلك اللغات أكثر من تركيزها على الكفاية اللغوية الشاملة.
- 44 % من طلاب المدارس العليا منتظمون في برامج تعليم اللغات في عام 2004.
- أقل من 1 % من طلاب المدارس العليا الأمريكية يدرسون العربية والصينية والفارسية واليابانية والروسية والأوردية!

ولذلك كان طبيعيا أن تكون هذه اللغات، وأولها العربية، في مقدمة اللغات التي تضمنتها مبادرة تطوير المهارات اللغوية باللغة الأجنبية التي أطلقها الرئيس جورج بوش مطلع عام 2006.

وقـــد لُخِّصت الأهداف النهائية لهذه المبادرة فيما يلي:

– زيادة أعداد الأمريكيين المتمكنين من اللغات المصيرية، ولاسيما من يبدأون في سن مبكرة.

– زيادة أعداد ذوي المستويات المتقدمة الناطقين باللغات الأجنبية الملحَّة.

– زيادة أعداد مدرسي هذه اللغات ومصادرها.

وتحقيقاً لهذه الأهداف شكلت وزارة التربية الأمريكية عدداً كبيراً من اللجان بالتعاون مع مراكز اللسانيات التطبيقية ومراكز اللغات الأجنبية ووزارة الدفاع والأكاديميات العسكرية لتنفيذ هذه المبادرة مدعومة بميزانية هائلة وزعت على عدد من المجالات أهمها:

(K–12)– تدريس اللغات المصيرية، ومنها العربية، من الروضة إلى الصف الثاني عشر وذلك بافتتاح برامج هذه اللغات في المدارس العامة.

– المنح الدراسية للطلبة الراغبين في تعلم هذه اللغات.

– مصادر التعلم(الكتب الورقية والإلكترونية، والمختبرات... إلخ).

– مراكز دراسات وتطوير تعليم هذه اللغات.

– تدريب المعلمين وتطوير أدائهم.

1– arabic usa\Teaching Language for National Security and Global Competitiveness U_S_ Department of Education Fact Sheet. htm

وقد انعكست التوجهات الحكومية نحو اللغة العربية في عدد كبير من المدارس التي بدأت بافتتاح برامج اللغة العربية على مدار العام، ولاسيما الدورات الصيفية المكثفة، وصارت هذه المدارس تتنافس تنافساً كبيراً في استقطاب الطلبة وفي التصريح المباشر بتعليم العربية، كحال المدارس العربية التي تجتذب الطلبة بإعلان صريح مفاده «التدريس باللغة الإنجليزية».

ومن البرامج اللافتة برنامج اللغة العربية في مدرسة تشارلسطون وهي إحدى فروع مدرسة بوسطن الحكومية[1]؛ فقد اعتنت هذه المدرسة بالترويج لبرنامجها الصيفي ترويجاً جاذباً، وكان من محاور حملتها الترويجية ما يلي:

- بيان مزايا الدراسة في هذه المدرسة على التعيين؛ ذلك أنها المدرسة الحكومية الوحيدة في ماساتوستس التي تعلم العربية.
- بيان مزايا دراسة الدورة الصيفية في المدرسة، وهي مزايا مقترنة بالسياسة الوطنية لتعليم اللغات التي تدعمها الحكومة الأمريكية. ومن هذه المزايا:
- أن تعلم العربية يهيئ فرصة مناسبة للدخول في الكلية من حيث امتلاك العربية يمثل امتيازاً للطالب المتقدم للكلية.
- أن هذه الدورة ستقدم للطالب منحة دراسية جامعية مقدارها خمسمائة دولار.
- أن تعلم العربية ستوفر للطالب فرص عمل ممتازة؛ لأن اللغة العربية إحدى اللغات المصيرية والملحة للأمن القومي الأمريكي.

وفي السياق نفسه بدأت الحكومة الأمريكية بإنشاء برامج تعليمية مع الدول العربية عبر الإنترنت؛ حيث يتعلم الأمريكيون اللغة مباشرة عبر الإنترنت. ومن أمثلة ذلك ما أورده موقع الشؤون الخارجية الأمريكية؛ فقد أورد خبراً مفاده أن شباناً فلسطينيين يُعلِّمون العربية مباشرة بالإنترنت.

خاتمة

أما خاتمة القول فإن هذه مسحية لاستعراض أحوال العربية في الولايات المتحدة في سياقاتها الاجتماعية والعلمية والأمنية والتربوية. وهي دراسة، كما أسلفت، تمثيلية ترسم صورة عامة غير تفصيلية للعربية في أمريكا.

وتأمل هذه الدراسة أن تفتح باباً، ولو ضيقاً، لدراسات تعاين واقع العربية في بلاد المهجر، كما تؤمِّل أن يكون للمجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر إسهام وعناية بهذه القضية.

1- http://boston.k-12.ma.us/charlestown/arabic/

وضع اللغة العربية
في الولايات المتحدة الأمريكية

د.سرير إلهام م. مرتاض
أستاذة محاضرة قسم اللغة الانجليزية
جامعة تلمسان (الجزائر)

تنبع فكرة هذا المقال من التغييرات الطارئة التي تجريها السياسة الأمريكية بخصوص الحرص على الأمريكان على تعلم أي لغة مثيرة للجدل كالفارسية والروسية والهندية والصينية وأيضا اللغة العربية التي تتضمن مشروع الرئيس بوش تحت شعار «المبادرة اللغوية للأمن الوطني» في جانفي 2006، خاصة وأن العالم بأكمله يشهد تداعيات العولمة والتواصل عن بعد الذي تصبح فيه اللغة التي تمثل عرفا ثقافيا ثريا لأمة ما نقطة حساسة جديرة يالاهتمام الكبير.

إن موضوعنا يرتكز على المحاور التالية:

- دراسة ميدانية لنسب الاهتمام باللغة العربية في أمريكا
- علاقة اللغة العربية بالاسلام عند الأمريكان
- اللغة العربية عنصر أساسي لتطور العولمة
- تفاعل الأمريكان مع جدية تعلم اللغة العربية

ولعل أسئلة كثيرة تتضارب في ذهننا حول هذا الاهتمام الأمريكي باللغة العربية منها:

- هل تعلم اللغة العربية حافز أم عائق؟
- هل ينبع هذا الاهتمام من اعتراف، قد يكون صريحا أو خفيا، بثراء اللغة العربية؟
- هل يهدف هذا الاهتمام لمعرفة اللغة العربية إلى تعلم الجوهر اللساني الذي تتمتع به العربية أم هو وسيلة تقريب العالم الأمريكي من العالم العربي؟

غير أن الخوف الذي يتربص بنا هو أن غيرنا اكتشف كنه وكنز لغتنا فحافظ عليه ونحن الذي خلق هذا الكنز بين أيدينا لا نبالي به. كيف ولماذا؟

لا يسهل على متكلم ما في أمريكا استعمال أية لغة غير الانجليزية لأن لا شيء من علم أو وظيفة يمكن تحصيله وأنت تجهل الانجليزية فيصبح القادم الحالم بها مضطرا إلى تعلمها من أجل العيش الهني وعندما تشكل الجالية العربية نسبة صغيرة أمام الكم الهائل من المهاجرين بمختلف اللغات يعود نشر اللغة العربية عن طريق سبل أخرى منها وسائل اعلامية مختلفة كالتلفاز والاذاعة والجريدة وكانت أول صحيفة نشرت باللغة العربية في أمريكا بعنوان كوكب أمريكا Star

America of من مؤسسيهاالسوريين ابراهيم ونجيب أربيل وهما يعتبران أول عائلة عربية تدخل أمريكا في 1878 ثم تم نشر الأيام Days 1897، ثم الهدى Guidance 1898، ومرآة الغرب 1899 Mirror of the West.

يزيد على هذه الجرائد وجود مجلات أسبوعية عريقة وحديثة كما يوضح الجدول 1:

مجلات عريقة	مجلات حديثة
المهاجـر Immigrant	عين اليقين Ain al Yakeen
الجامـعة League	آخـــر خبر Akher Khabar
الفنون Art	الاعتــــــدال Al itidal
المهجـر Host أو Land	الوطـــــــن Al itidal
Country Immigrants	بيروت تايمز Beirut Times

جدول رقم 1 : مجلات عريقة وحديثة صادرة باللغة العربية بأمريكا

يظهر الاختلاف بين جديد وحديث هذه المجلات جليا في أسماء عناوينهاإذ تأخذ المجلات القديمة أسماء عربية مترجمة المعنى إلى اللغة الانجليزية بينما تأخذ أسماء المجلات الحديثة شكل اللغة العربية مترجما أبجديا إلى الانجليزية والعكس صحيح فيما يخص التايمز–مما يوحي بتطور اللغة العربية في أمريكا مع مرور الزمن.

لا يشارك في تعلم اللغة العربية الامريكان فقط بل الجالية العربية هناك تحرص على نشر قواعد اللغة العربية السليمة منها جمعية العربية لكل أمريكا Arabic 4all USA وتنشط بكثافة مدارس لتعليم العربية مع مساهمة جادة من المساجد خاصة منها مسجد عمر بشيكاچو Chicago والمسجد الباكستاني والآخر بميشچان Michigan إلى جانب المركز الاسلامي الشهير بديطروا Detroit القريب من ميشچان والمركز الثقافي في ديربون Dearborn لتكثيف تعليم التراث الاسلامي والعربي، غير أن تعلم اللغة العربية لا يتساوى نسبيا في كل الولايات المتحدة بل تبدو اللغة العربية غائبة تماما من بعض الولايات وحاضرة بقوة في جهات أخرى كما يلخصه الجدول2 [1]:

1– هذه الاحصائيات (1982/ 1981) قام بها محمد ساواي M.Sawaie أستاذ بجامعة فيرجينيا في مقاله المعنون العربية في خليط : هل تستطيع البقاء؟ Arabic in the Melting Pot": Will it Survive في كتاب معنون ب : اللغة العربية في أمريكا: The Arabic Language in America ، الموجود على الموقع الالكتروني www.books.google.com

الولاية	الدوريات	تلفاز / راديو	المؤسسات الدينية	المدارس
California	–	1	4	1
Delware	–	–	1	1
Columbia	–	–	2	1
Florida	1	–	1	1
Illinois	–	–	1	1
Indiana	–	–	2	1
Maryland	–	–	1	1
Michigan	**7**	**10**	**21**	**3**
New Jersey	–	–	1	1
New York	3	–	1	–
Ohio	–	–	1	1
Pennsylvania	1	–	–	–
Tennessee	–	–	1	–
Virginia	–	–	1	–

جدول رقم 2 : اللغة العربية في ولايات مختلفة من أمريكا

تظهر أعلى نسبة لنشر اللغة العربية بمختلف الوسائل الاعلامية كبيرة في ولاية ميشـچان التي يزيد عدد الأمريكان العرب بها عن 250 إلى300 ألف شخص مما يميز اللغة العربية أن تكون اللغة الاجنبية الأولى المُدرّسة في الثانويات بجانب الانجليزية طبعا .

تعود أغلب هذه المعطيات إلى فترة زمنية تسبق أحداث 11سبتمبر 2001 التي اختلفت بعدها وجهات النظر فيما يخص اللغة العربية والاسلام والمعروف أن الديانة الغالبة في الولايات المتحدة هي المسيحية البروتاستنت Protestant بنسبة 52٪ والرومانية الكاثولكيةRoman Catholic 24 ٪ والمورمونMormon 2٪ واليهودية Jewish 1 ٪ والاسلامIslam 1٪[1] .

واختلفت هذه النسب بعد9/11 كما يبين البحث الذي أجرته قنصلية خاصة بالكنائس Research Council[2] Pew بعد استطلاع للرأي في مارس2002 وكانت النتائج كما جاء في الجدول3:

1– هذه النسب مأخوذة من الموقع الالكتروني www.cia.gov/library/publication

2– www.adherents.com the Pew Research Council on March 2002

الديانة	جوان 1996	مارس 2001	مارس 2007
المسيحية	84	82	82
اليهودية	1	1	1
الإسلام	*	1	*
دين غير المسيحي	3	2	1
الإلحاد	*	1	1

جدول رقم 3 : الميولات الدينية عند الأمريكان

حسب هذه المعطيات فإن الأمريكان أصبحوا أقل اعتناقا للاسلام وأميل للالحاد بعد أحداث 11 سبتمبر.

ولكن كنه الحقيقة حول الاسلام في أمريكا يبقى جدليا وخفيا في معظم الأحيان لأسباب تحكمها الظروف السياسية وليس الانسانية أو الاعتقادية فقط، أما عن علاقة الاسلام بالعربية فيوجد حرص شديد من مختلف الأوساط الاسلامية على نشر تعاليم الدين والقيام بالفرائض بلغة عربية سليمة القواعد والنطق كون اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والأدعية والابتهالات، ولكن الأمر ليس هينا مع المسلمين الأجانب غير العرب الذين يحاولون تطبيق تعليمات الدين الاسلامي بصعوبة شديدة في استعمال أو تكلم العربية وتعلمها يقتضي منهم التسجيل في مدارس رسمية لتعلم اللغة على وجه صحيح وفصيح لأن العربية التي يصادفونها خارج الأقسام والمدارس هي في معظم الأحيان عامية وتختلف كثيرا عن اللغة العربية الكلاسيكية المتداولة رسميا. ولعل هذه الوضعية اللسانية المزدوجة معروفة في معظم البلاد العربية المعروفة ب Diglossic بمعنى أن العربية تأخذ شكل اللهجة أو العامي في مستوى ما من التواصل البسيط بين فئات بسيطة من المجتمع أو في سياق لساني غير رسمي كالسوق أو الشارع أو البيت، وتأخذ شكل الفصيح في مستوى أعلى من التواصل خاصة في سياق رسمي كالمدرسة. علاوة على هذا ليس كل الأمريكان المسلمون عربا وتبلغ نسبة العرب 12٪ من السكان المسلمين بالاضافة إلى 42٪ أمريكان أفارقة و 24٪ مسلم من جنوب آسيا وفي حدود 80000 من غرب أوروبا كما جاء مؤخرا في احصائيات أوت 2006 ٪[1].

1- source August 2006 by Camille Jackson using information from the American-Arab Anti Discrimination Committee (www.adc.org) and the Arab American Institute (www.aa-usa.org)

ولكن لايفوتنا أن الاسلام ليست الوسيلة الوحيدة لنشر العربية بل يوجد تكثيف كبير من الأمريكان العرب المسيحيين على تكلم وتعليم اللغة العربية وتطبيقها في الكنائس أيضا إلى جانب نشاطات أخرى مثل ما تقوم به الرابطة الأمريكية لأساتذة العربية American Association of Teachers of Arabic [1] التي تسعى إلى تعليم الأدب العربي واللسانيات والنقد .

والملفت للانتباه أن جهات مختلفة تولي اهتماما كبيرا باللغة العربية من ساسة ولغويين واكادميين ولسانيين ويعود السبب في ذلك لعوامل خارجية نذكر منها :

1- نشاط حركات تساند حقوق الأقليات في العالم منذ 1950 / 1960

2- توتر الأحداث الساسية في العالم العربي تزيد من نسبة المهاجرين وبالتالي تزايد المتكلمين للغة عربية .

3- تزايد المؤسسات الاسلامية التي تدعو الأمريكان المسلمين لأداء الفرائض باللغة العربية .

أما العوامل الداخلية فيرأسها الحدث الرهيب 9 / 11 الذي تفطنت فيه الأوساط الدولية والعالمية إلى ضرورة تقريب وجهات النظر لاستتاب الأمن والرخاء في عالم لا يعدو أن يكون قرية صغيرة تشكل هندستها وسائل اعلامية وفضائية وتقنية متطورة يقترب فيها البعيد من الآخرخاصة ظاهرة العولمة والتواصل الحضاري، ولأجل ذلك قمت بمراسلة البروفسور تشيا روزينا Chia Rosina المثلة الأمريكية للقسم الافتراضي GVC الذي يتم من خلاله حوار حضاري بين طلبة قسم اللغة الانجليزية بجامعة تلمسان وطلبة من مختلف أنحاء العالم وأولها جامعة نورث كارولاينا North Carolina بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تدرس البروفسور تشيا التي زارت الجزائر ولاتزال تحلم بإعادة زيارتها، وعندما سألتها عن رأيها الشخصي عن العربية كلغة وككائن حي حاضر بقوة في أرضها الأمريكية أجابت في رسالة إلكترونبية من موقعها الالكتروني chiaro@ecu.edu فقالت :

«أعتقد أن العربية لغة مهمة جدا لوجود الكثير ممن يستعملها وأنا شخصيا أعرف كلمة واحدة وهي :سلام، حاولت الكثير من أجل توفير تعليم اللغة العربية عن طريق التواصل عن بعد ولكن قسم اللغات الاجنبية هنا بأمريكا رفض ذلك . أعرف الكثير من طلبتي ممن يرغب في تعلم اللغة العربية ولكن المقياس غير موجود في جامعتنا هنا بنورث كارولاينا»[2] .

1- www.aataweb.org

2- Pr Chia Rosina to ilhem Serir": mamoudham@yahoo.com "I believe Arabic language is an important language, since there are many who speak it. Personally I only know one word: salam, I had tried to arrange for teaching Arabic using our video conference technology, but our own foreign languages department is against that idea. Personally I know of students who have expressed an interest in learning Arabic, but we do not teach that at ECU."

وبعـد تشجيـع السياسـة الأمريكيـة على تعلم لغـات أجنبيـة غير الاوروبيـة تم إجراء استطـلاع للرأي اجتماعي عام General Social Survey (GSS) في 2000 تم من خلاله تسجيل 10٪ فقـط من المجيبين إيجابيـا على معرفة جيـدة للغات أجنبيـة غيـر الانجليزيـة language other than english (LOE)[1] وهي الاسبانية والفرنسية والالمانية، ويبدو أن الدراسات الميدانية في 1980 أوضحت اهتمام الأمريكان باللغات الاجنبية غير الانجليزية والاوروبية لا يتعدى 1.5٪ وحتى 1990 لم تتغير هذه النسبة إلا قليلا[2].

فبدأ الاهتمام بالتحفيز على تعلم لغة أخرى غير الانجليزية من خلال ازدواجية التعليم Bilingual Education وأبدى عدد كبير من الأمريكان قبولهم لتعلم لغات أجنبية في المدارس الثانوية والجامعات[3].

وتكثفت طموحات السياسة الأمريكية في تعلم لغات خاصة منها العربية في جانفي 2006 حين أمضى الرئيس بوش قرارا يوضح فيه علاقة اللغة بالأمن National Security Language Initiative [4] لأسباب منها:

1– أدت أحداث 11/9 إلى ضرورة تعلم اللغة العربية لتوفير مترجمين أكفاء تثق بهم الحكومة الأمريكية.

2– الوقائع الاقتصادية العالمية التي تشجع التنافس المتزايد بين اليابان والسوق الاوروبية الموحدة عام 1992 الذي جذب إليه السوق الامريكية[5].

1- J.P.Robindson, W.P. Rivers, R.D.Brecht, Speaking Foreign Languages in the US: Correlates, Trends, a,d Possible Consequences, the Modern Language Journal, Vol.90, Issue 4, P457–472, Published online: 20Nov.2006

2–Eddy, P.A. 1980 Foreign languages in the USA": A National Survey of American Attitudes and Experience. Modern Language Journal , P58

3–"these groups were supportive of taking FL courses in high schools" in Demographic and Sociopolitical Predictors of American Attitudes towards Foreign Language policy. Revue Language policy, edited by springer Netherlands. ISSN 1568–4555, Vol.5, Nr 4, Nov.2006. p421–442 by J.P. Robinson, W.P. Rivers, R.D. Brecht.

4–In January 2006, president Bush introduced the National Security Language Initiative aimed at increasing the number of Americans /students learning foreign languages such as Arabic, Rusian, Farsi, Hindi, and Chinese. Source: Arabic as "a critical need" foreign language in post 9/11 era: a study of students' attitudes and motivation report, survey: 1/7/07 in Journal of Instructional Psychology: online, by Taha,T.A.

5–" Global economic events such as increased competition from Japan and the development of a unified European market by 1992m have connected America's trade position to the interests of national security" by Grosse and Voght, 1990, Foreign Languages for Business and the Profession at US Colleges and Universities, Modern Language Journal P45

3- أصبحت كل من الصينية والهندية والعربية والروسية من اللغات المهمة في العالم لارتباطها بالسوق التجارية والاقتصاد العالمي[1].

وفي مقارنة للغة العربية مع الانجليزية جاء على لسان الذهبي في مقال له بعنوان الانجليزية والعربية ما بعد9/11 في صحيفة الجريدة اللغوية الحديثة 2004: «العربية، مثل الانجليزية، ظاهرة عالمية كونها لغة البلدان العربية ولكن أيضا كونها لغة الاسلام وهذا سبب مهم وهي أيضا ظاهرة عالمية تغطي معظم أرجاء العالم بينما كانت في حقب زمنية ماضية غائبة تماما[2]».

وبدأت الأبحاث العلمية تتسابق لمعرفة مدى ميول الأمريكان لتعلم اللغة العربية منها استطلاع الرأي الذي قام به طه Taha الصادر بصحيفة علم النفس الارشادي Journal of Instructional Psychology[3] وأجرى من خلاله مساءلة 142 طالب، وتنوعت الأسئلة حول مدى تحمس الأمريكان على تعلم/تعليم العربية كلغة أساسية بعد أحداث 9/11 وتنوع الطلبة بين 34 وافد من خارج أمريكا و108 أمريكي وكانت النتائج كما يلي:

1- أوضح معظم الطلبة القادمين من مختلف أرجاء العالم للدراسة في أمريكا معرفتهم لأكثر من لغة أجنبية غير الانجليزية

2- يعرف 66 طالب أمريكي لغة واحدة غير الانجليزية

3- يعرف 10طلاب أمريكان أكثر من لغة أجنبية غير الانجليزية

4- يعترف أكثر من 42 طالب بعدم معرفة أي لغة خلاف الانجليزية

وتتضح هذه الآراء أكثر في الجدول4:

1- "four of the five languages (Chinese, Hindi, Arabic and Russian) are among the top languages of the world" Comoire, Matthews, Polinsky, 1997, the Atlas of Languages, London: Quarto publishing PIc.

2- « Lke English, Arabic is very much a global phenomenon today not only because it is the language of Arab countries (..) but also, and more importantly, because it is the language of Islam, another global phenomenon that covers a much larger part of the world and that seems to be making headway in regions where it was completely absent a few decades ago" p630 in M. Dahbi 2004, English and Arabic After 9/11, Modern Language Journal, 88 (4).

3- Taha, T. A opcit

طلبة من العالم بأمريكا	طلبة من أمريكا	اللغة
7	42	الإسبانية
7	19	الفرنسية
4	–	الألمانية
4	–	العربية
4	–	أوردو
3	–	البرتغالية
3	–	الهندية
1	–	الإيطالية
1	–	التركية
1	–	اليابانية
1	1	الكورية
1	–	كسيواحيلي الإفريقية
1	–	سندهي الباكيستانية
1	–	حوصا الإفريقية
1	–	فولا الإفريقية
1	–	الأندونيسية
–	1	تشي الغانية
–	1	الفيتنامية
–	1	الهولندية

جدول رقم 4 ميول الأمريكان لتعلم لغات أجنبية في 2007

وعند مساءلتهم حول تعلم اللغة العربية ما بعد11/9 في أمريكا لم يبدي الطلبة الامريكان أي اهتمام بذلك كما تشير إليه النسب:

1– نسبة 60.5٪ تؤيد عدم تغيير البرامج المخصصة لتعلم العربية والتي كانت موجودة قبل أحداث 11/9

2– نسبة 38.7٪ لا تتفق مع الفوج السابق وتؤيد توطيد تعليم اللغة العربية بعد أحداث11/9 ومن بينهم طلبة البحث العلمي من مختلف أنحاء العالم الذين أبدوا شغفهم لتعلم اللغة العربية مما يؤيد رأي الذهبي الذي يرى بأن الضرورة لتعلم العربية في ازدياد مستمر في كل أنحاء العالم[1] .

1–« the demand for Arabic language is on the rise in many parts of the world"» Dahbi opcit P630

يبدو الاهتمام الامريكي من الساسة كبيرا لتعلم اللغة العربية وكأن مصائب قوم عند قوم فوائد فمن كان يبالي يوما بلغة البدوي القاطن بالصحراء والراكب على الجمال والذي لا يغتني إلا بالبترول كما تتهكم منه أفلام هوليود الشهيرة.

هي اللغة العربية التي يتسع معجمها الرباني البديع الذي أخذت منه لغات مختلفة من العالم من بينها اللغة الانجليزية في كلمات شهيرة مثل القبة alcove ، الجبر algebra، المناخ almanac، الكنديcandy، القهوة coffee، القطنcotton صفر zero . فكيف لا زلنا نلاقي عربا يخجلون من خطإٍ لغوي في حديثهم الفرنسي أو الانجليزي ويتباهون تهكما عند خطإٍ لغوي في اللغة العربية؟ هل أدرك هؤلاء أنه لا تطور يكتب له الضوء لأية أمة مهما كثر علماؤها وإن كان في العلوم الدقيقة والطب إذا أهملوا اللغة العربية لأنها الراية التي تفتخر بها الجزائر وإن كانت لا تأخذ اللون الأخضر ولا الأحمر ولا الأبيض ولا ترتسم في قماش حريري.

المحور الثالث

الترجمة المصطلحية والمعجمية، التعليميات

إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي
في الدراسات النقدية العربية المعاصرة

أ.د رشيد بن مالك
مدير مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية – الجزائر

1) مقدمة منهجية

سيقتصر بحثنا الموسوم بـ إشكالية ترجمة المصطلح السيميائي في الدراسات النقدية العربية المعاصرة على بعض العيّنات المأخوذة من الجزائر والمغرب وتونس وسورية. ولئن لاحظ القارئ افتقاد البحث إلى الطابع التمثيلي، فإن لهذه المشكلة اعتبارات عديدة.

أولها: انقطاع التواصل العلمي بين الباحثين العرب وفي أغلب الأحيان داخل البلد الواحد. وكان لهذا الوضع انعكاسات سلبية، فكثرت البحوث الفردية التي تعددت معها الخطابات النقدية واختلفت في مقاصدها العلمية . وأضحينا إزاء ترسانة من المصطلحات تعبرها سيميائيات لا يتبيّن القارئ حدودها ولا معالمها، وهي في جميع الحالات لا ترقى لأن تمثل تراكمات تقرأ كأحسن ما تكون القراءة. ومع ذلك، استطاعت بعض البحوث في مختلف البلدان العربية أن ترقى بالبحث إلى أعلى درجة من التفكير والتمثّل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلة لا شك في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلا. إنّ اقتصارنا على بعض العيّنات لا يقلّل من شأن بحوث عربية أخرى ظهرت في مجلاّت مهمّة (الفكر العربي المعاصر، فصول، علم النص، علامات، بحوث سيميائية...). إن هذا البحث المختصر لا يتحمل الإحاطة الشاملة لكل ما كتب في الحقل السيميائي. اقتصرنا فقط على العينة الموضوعة قيد الدرس لأن أصحابها يلتقون نظريا وتطبيقيا في التوجّهات المنهجية العامة للنظرية السيميائية مع تفاوت في المصطلحيّة المعتمدة وفي الأولوية التي يعطيها كل واحد منهم لهذا المستوى أو ذاك من النظرية. ويمكن أن نلاحظ أيضا أن هذه الدراسات بقيت وفيّة للسيميائية الكلاسيكية ولم تأخذ في الحسبان التطوّرات الجذرية التي تشتمل على الاعتراضات المنهجية التي سجّلها تلامذة غريماس بخصوص المربّع السيميائي والمسار التوليدي والسرديّة والصيرورة. وهذا لا ينقص من الجهود التي بذلها الباحثون العرب في وسط رافض لهذا التوجّه. و قبل أن نبدأ بقراءة هذه البحوث، ينبغي أن نشير إلى الدراسة الموسومة بـ مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب /محاولة تركيبية للباحث محسن أعمار[1] الذي حاول أن يقدم فكرة عن البحوث السيميائية في المغرب وعن

الإنجازات العلمية الراهنة في الكتب المنشورة والدراسات الأكاديمية، غير أنه لم يقتف أثر كل دراسة بل اكتفى بتقديمها تقديما مختصرا لا يلقى فيه القارئ الفروق الجوهرية بين باحث وآخر، والتحوّلات العميقة التي يمكن أن نلمسها مثلا من خلال قراءتنا لكتابات الأستاذ بن كراد سعيد من أول كتاب له: مدخل إلى السيميائيات السردية إلى آخر دراسة لم ينشرها بعد والموسومة بـ ممكنات النص ومحدودية النموذج؛ والتي يعرض فيها قراءة نقدية في الطروحات المؤسّسة لنظرية غريماس. وتكمن أهمية دراسة الباحث محسن أعمار في توجيه القارئ إلى الدراسات السيميائية الأساسية في المغرب وقواسمها المشتركة المتمثلة في:

– محاولة تقليص المسافة بين مفاهيم ومصطلحات مستمدة من سياقات ثقافية مغايرة للثقافة العربية، وبين معطيات النصوص الأدبية بحمولتها اللغوية والثقافية.

– ضبط المفاهيم، وتدقيق المصطلحات، وطرح النظرية قبل وضعها على محك التطبيق.

– نزوع الباحثين إلى اختيارات منهجية وطروحات نظريّة تضع القارئ أمام ترسانة هائلة من المفاهيم والإجراءات، غير المتداولة في لغته وفي سياقه الثقافي(2).

ويمكن أن تنسحب هذه القواسم على الدراسات السيميائيّة العربية عموما.

ثانيها: سبق وأن أشرنا في بحوثنا إلى أن الدراسات السيميائية شهدت إعادة نظر جذرية بدأت في بداية التسعينيات ثم لم تلبث أن توسّعت. فما كان من البديهيات بالأمس أضحى في الحقبة الأخيرة موضع تساؤل وجدل؛ ولكنه جدل يهدف إلى صياغة حلول جديدة على نحو ما رأينا ذلك عند كورتيس الذي تراجع عن إنجازات اعتبرناها من الثوابت في وقت مضى، ولم نتوقع أبدا أنه سيعيد فيها النظر فحصلت عملية قلب أعطت الصدارة في التحليل لمسألة التلفظ بوصفها فعلا محدثا وصانعا للموضوع السيميائي. وإزاء هذه الهزّات العنيفة التي حدثت على الصعيدين النظري والتطبيقي، وأفضت إلى ظهور سيميائيّة جديدة لجيل جديد، فإن الباحث العربي يشتغل في ظروف خاصة ووفقا لقيود تسيّجه في إطار له خصوصيّاته. فهو مطالب بالتفكير على جبهات عديدة وينبغي أن ينجز في الوقت ذاته بحوثا نفترض أنها تغطّي قراءة وتمثّلا، وترجمة، وتفكيرا في كل ما أنجز من بحوث سيميائية قديمها وحديثها حول مختلف الممارسات الاجتماعية الدالّة باللسان وغير اللسان مع مراعاة الخصوصيّات المحليّة في أثناء التطبيق على النصوص العربية. وهناك قناعات راسخة في الأذهان مازالت تغذّي الممارسة النقدية في كثير من المؤسّسات التعليميّة العربية، وعليه ينبغي أن تعرض الدراسة لحياة الشاعر وظروفه وأسلوبه الجزل وعاطفته الفيّاضة والجيّاشة، ليصدر بعد كل ذلك حكم على عاطفته. هل هو صادق في تعبيره أم غير صادق. نضيف إلى هذا الوضع المتردّي للاختيارات التي ينبغي أن يحسم فيها

الباحث. في الوقت الذي خطا فيه البحث في الفكر الأوروبي خطوات عملاقة، لازلنا ضائعين في متاهات المصطلح كل باحث يترجم حسب ما يحلو له و في حالات خاصة ولم تتوصل البحوث السيميائية إلى بلورة خطاب علمي لا يلقى فيه أصحابه مشقّة في تمرير المعارف السيميائية. نستثني من ذلك بعض الدراسات العربية الرائدة في هذا المجال التي حاول أصحابها تبسيط خطابهم إلى أدنى درجة ممكنة همهم الوحيد في التعامل مع النظرية السيميائية أن يفهموا ما فيها من المعقّد أحسن الفهم ويتمثّلوه جيدا ليتسنّى لهم بعد ذلك تبليغ ما فهموه وما تمثّلوه في خطاب علمي يحكم سيطرته على المسائل المعقدة، يروّضها ويبلّغها أحسن تبليغ للقارئ.

ثالثها: إذا كانت الساحة النقدية قد عرفت تخلفا كبيرا في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة يتعلق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها. هل نولي أهمية إلى النصوص الخاصة بتاريخ البحث السيميائي أم نجنح إلى ترجمة البحوث النظرية والتطبيقية التي ظهرت قبل وفاة أ.ج.غريماس. وإذا احتفظنا بهذه الفرضية، فإننا لا نشك في أن هذا الاختيار سيفرز حركة نشيطة في الترجمة وسيرافقها جدل كبير وقراءات نقدية في مضمون هذه النصوص. وهي قراءات ستتم في جميع الحالات بمنأى عن المستجدّات البحثيّة التي ظهرت بعد وفاة غريماس وعن الاعتراضات على المسائل النظرية المنظور إليها على أنها حقائق في سيميائية الجيل الأول. وإذا افترضنا أن الاعتراضات العربية على طروحات غريماس مؤسسة ولا يتسرب إليها الشك، فإنها ستشيد أيضا بمنأى عن اعتراضات السيميائيين أنفسهم على طروحاتهم على نحو ما حصل ذلك لغريماس وكورتيس. إن إثارتنا لهذه المسائل صادرة أساسا عن قناعتنا بأننا وصلنا إلى طريق مسدود. ولحل هذه الإشكاليات وحتى نأخذ فكرة جليّة عن الوضع الذي سيؤول إليه البحث السيميائي، ينبغي أن نفكر مليّا فيما كتب من بحوث وفي الجهود التي بذلت ومازالت تبذل وفي الحلول التي يمكن من خلالها سد الثغرات ونعاين و بكلّ موضوعية نقاط القوة في هذه البحوث التي يمكن أن تشكل قاعدة أساسية لجمع شمل الباحثين من جهة واستشراف المستقبل من جهة ثانية. من منطلقات هذه القناعة، حاولنا أن نقف عند عيّنات محدودة من بعض الدراسات السيميائية العربية لتقديم قراءة جزئية نعتبرها محاولة متواضعة لا تهدف بأيّة حال من الأحوال إلى صياغة حلول نهائية للإشكاليات المطروحة على الصعيدين النظري والتطبيقي. رغبنا فقط في إثارة بعض الأسئلة بخصوص القضايا التي بدت لنا أنها جديرة بالطرح والمساءلة وصياغة، كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وفي شكل اقتراحات متواضعة، بعض عناصر الإجابة بخصوص هذه القضية أو تلك.

2. إشكالية ترجمة المصطلح

إن استشراف مستقبل الدراسات السيميائية العربية المعاصرة يمر حتما عبر إدامة النظر في المصطلحية المعتمدة في الخطاب العلمي و معاينة الوضع بدقة من خلال تأصيل المصطلح بالرجوع إلى المفهوم في اللغة الأصل الذي يحدّده ويتحدد عبره. وفضّلنا أن نأخذ كعيّنة في هذا المبحث الترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لكتابLes enjeux de la sémiotique لـ آن إينو الذي ظهرت ترجمته في سنة 1980 [3]. وأوّل ملاحظة يمكن أن نقيّدها على هذا البحث الذي ظهر في وقت مبكر جدا تتمثل في افتقاده إلى الإحالة على النصوص اللسانية التي سبقته. وتكاد تنسحب هذه الملاحظة على نسبة غير قليلة من النصوص الراهنة التي جاءت ترجمتها في غياب الاستفادة من الجهود المبذولة في هذا النوع من البحوث. في هذا السياق، يصرّح محمد الناصر العجيمي أنه « واجه قدرا كبيرا من المصطلحات بمجهود فردي أساسا »[4]. من هذه المنطلقات، ستؤدي هذه الجهود الفردية إلى تضارب الخطابات النقدية وتضليل القارئ في كثير من القضايا المتصلة بالأطر المفهومية للمصطلح في علاقاتها بالأسيقة التي ترد فيها. ولتوضيح هذه القضايا نبدأ بالترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لعنوان Les enjeux de la sémiotique و الذي جاء نقله على النحو الآتي: مراهنات دراسات الدلالات اللغوية. وإذا دقّقنا النظر في المفاهيم الممررة عبر هذه العبارة، فإننا نلاحظ أنها تغطي فقط جانبا من الجوانب التي تعنى بها السيميائية[الدلالات اللغوية] .يكفي أن ننقل هذا العنوان وكما جاءت ترجمته في اللغة الهدف لنتأكد من أنه ينزاح عن التعريف الذي وضع أصلا للسيميائية، ويمكن أن يتوزع على النحو الآتي:

مراهنات ← Enjeux

دراسات ← études

الدلالات ← significations

اللغوية ← linguistiques

ويقودنا هذا التوزيع الذي أردنا أن نتحقق من تطابقه مع المفاهيم التي يمكن أن يجسدها العنوان في اللغة الهدف إلى صياغة العبارة الآتية: Les enjeux des études des significations linguistiques. إن الترجمة بهذا الشكل تقصي الدلالات المتجليّة في غير اللسان من الاعتبارات السيميائية وهذا التحديد يتضارب مع التعريف الذي وضع للسيميائية ومجال اهتمامها. وهو مجال لا يتجاوز البحث في الدلالة من خلال تمظهرها في الأشكال اللسانية وغير اللسانية التي تنتجها المجتمعات البشرية.

وتعد هذه الأشكال الدالة بامتياز ممارسات اجتماعية[5]. من منطلقات هذا الحد، نقترح الترجمة الآتية: «مراهنات السيميائية». ويظل الإشكال قائما بخصوص ترجمة مصطلح carré sémiotique بـ مربع دلالي. ذلك أن الصفة دلالي توضع عموما كمقابل لـ sémantique. وقد قيّدنا هذا التضارب أيضا في كتاب **المصطلحات الأدبية المعاصرة**[6]الذي جاءت فيه الترجمات مضطربة في كثير من المواضع ومفصولة عن سياقاتها وغامضة في مفاهيمها لا يدرك القارئ قوّتها الإجرائية ولا يفهم علّة وجودها ولا الغاية من الحديث عنها [انظر على سبيل المثال لا الحصر المواد التالية: السيميائية (ص. 69)، المربع السيميائي (ص.70)، البنيات السردية (ص.65)، القيمة (ص.105)]. و قد لمسنا من خلال قراءتنا لهذا المعجم تضاربا كبيرا في الترجمات نذكر منها بعض العيّنات:

أ. **السيميائية** ← <u>sémiotique</u>

ب. **السيميوتيكية** ص.71 ← <u>sémiotique</u>

ج. التحليل **السيمي** ← analyse <u>sémiotique</u>

إن قراءة سريعة في هذه العيّنة تقودنا إلى الإقرار بوجود ترجمات مختلفة [أ(ترجمة)– ب(تعريب) –ج (ترجمة)] للمصطلح الواحد. وإذا دقّقنا النظر في ج، فإن التحليل السيمي يحيل على مجموعة من الإجراءات التي تمس الحدود المعنوية للوحدات المعجمية. نلمس هذا الاقتراب المنهجي في التعريف الذي بناه غريماس على الحدود المفهومية للسيم[7] انطلاقا من مبدإ الاختلاف الذي أرسى قواعده ف.دي سوسير واستعمله للدلالة على أنّ المفاهيم المتباينة تكون معرّفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام .وقد تمثل غريماس هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى، دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى. ويرتكز هذا التمثيل أساسا على فرضية هيالمسلاف والتي بمقتضاها يمكن فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. وعليه، فإن تمفصل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغرى (السيمات) يناظر الفيمات المميّزة لصعيد التعبير.إن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقق وجوده إلا في علاقته بعنصر آخر. ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية.

تأسيسا على ما سبق، تنبني الترجمة أساسا على تمثل وفهم المصطلح في اللغة الأصل وإدراك سياقاته والنظر في النصوص النظرية التي تغذيه وضبطه بما يتوافق والإطار العام الذي يندرج ضمنه البحث. ويؤدي الابتعاد عن التوجهات الأساسية في العمل الترجمي إلى اضطراب في

الفهم ينعكس سلبا في عملية تلقي الرسالة على نحو ما نلحظ ذلك في ترجمة النص الآتي :

« Le savoir n'a de sens dans une vie que s'il est un vouloir – savoir ou un faire – savoir , s'il fonde l'activité de l'homme en tant que quête »(8)

و قد ترجم خليل أحمد وأوديت بيتيت هذا المقطع على النحو التالي : « إن المعرفة لا معنى لها في الحياة إلا إذا كانت إرادة معرفة أو إعطاء معرفة، تأسيس فعالية الإنسان كاستجداء »

أما الأستاذ أحمد علي، فإنه يقترح في تقديمه كتاب المراهنات الترجمة الآتية :

«**لا معنى للحياة، بل معرفة تتصف بإرادة الإنسان للمعرفة، أو بصناعة لها، لأن حيوية الإنسان : تتحقق بطلب المعرفة واكتسابها، ثم بمنحها لغيره**» إن القارئ لهذه الترجمة لا يلقى نفسه في لغتها؛ وهي ترجمة حرفية لا تحيل على مضمون النص ولا تراعي الشروط الأساسية في الصياغة العربية التي جاءت مهزوزة وغامضة. حتى المصطلحات اقتفت الصياغة الفرنسية وأسقطت إسقاطا على البنية العربية مما جعلها تفتقد إلى التماسك التركيبي والدلالي. إنّ غريماس في هذا المقطع لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى صياغة المعرفة أو إعطاء المعرفة. فهو يميز تمييزا واضحا بين المعرفة من جهة والرغبة في تبليغها من جهة ثانية. وإذا دققنا النظر في عمق هذه الترجمة، فإننا نلاحظ أنها حولت المعنى عن مجراه الطبيعي. وإذا رجعنا إلى النص الأصلي يتبين لنا أن غريماس حدد في هذا المقطع الشروط الأساسية لوجود المعرفة، وهو وجود يرتهن إلى برنامجين أساسيين :

– يتحقق البرنامج الأول بتأسيس فاعل ممتلك للرغبة في إقامة وصلة بالمعرفة، ومن ثم، فإنّ فعله [نشاطه] ينضوي داخل عملية التحري المسخّرة لسد الافتقار réparation du manque .

– يتحقق البرنامج الثاني عبر فاعل مالك لرغبة في تبليغ المعرفة .ولئن كان غريماس لا يشير إلى الإرادة، فإننا نفترض وجودها؛ إذ لولاها لما امتلك الفاعل الكفاءة لتحقيق الأداء. بالإضافة إلى هذا، فإن الباحث ترجم النص ترجمة حرفية دون أن يكترث في ذلك للجوانب النظرية للمصطلح. إنّ وضع الاستجداء كمقابل لـ quête بعيد كل البعد عن السياق الدلالي الذي سخّره غريماس لوضع الشروط الضرورية المؤدية إلى امتلاك أو تبليغ المعرفة. ذلك أن الاستجداء في الاصطلاح اللغوي مشتق من :

جدا فلانا وعليه جدوا : أعطاه،

جداه جديا : سأله الجدوى ،

اجتداه، استجداه : طلب منه الجدوى(9) .

ولئن كان الاستجداء، في بعده الدلالي، يفتقد إلى الفاعلية، فإن المستجدي يحتل دائما وضع فاعل حالة فاقد لموضوع القيمة. من هنا وجب أن نفكر في مصطلح آخر يحقق الفاعلية

في منظورها السيميائي. من خلال معاينتنا للمصطلحيّة المعتمدة في بعض البحوث السيميائية العربية، فإننا نرجّح استعمال التحرّي كمقابل لـ quête . فهو، من جهة، يتوافق مع ما ينسب عادة من فاعلية للفاعل المنفّذ sujet opérateur، وينسجم، من جهة أخرى، مع الوحدات المعنوية التي يحملها التحرّي على نحو ما نلحظ ذلك في اصطلاحه اللغوي:

حرى الشيء، تحرّاه و تحرّى عنه: اتجه نحوه[10]. إن المسار الدلالي المحقق في /التحرّي/ يناظر تماما التعريف الذي وضعه غريماس لمصطلح quête والمستعمل للدلالة على **تنقّل الفاعل في اتجاه موضوع القيمة** [la quête est le <u>déplacement du sujet vers l'objet</u>][11]. من هذه المنطلقات يمكن أن يترجم المقطع السابق الذكر على النحو التالي: «إن المعرفة لا معنى لها في الحياة إلا إذا جسّدت الرغبة في تلقي أو تبليغ المعرفة، وأسّست نشاط الإنسان بوصفه تحرٍّ...».

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر من هذا الكتاب، فإنه سيتبيّن للقارئ أن الباحثين لم يوليا أهمية إلى الجهود العربية المبذولة في مجال ترجمة المصطلح. ولئن كنا مدركين عمق الاختلافات القائمة بين الباحثين العرب بخصوص هذه المسألة، فإنه لا ينبغي أن يتذرع بهذه الحجة لإقصاء هذه الجهود. إنّ المتتبع للترجمات العربية في مجال اللسانيات السيميائيات، يدرك لا محالة أن نسبة متواضعة منها تكاد تكون مشتركة بين الباحثين. لا يهم إن كان هذا الإجماع صادرا بشكل عفوي. إنّ المهم في كل هذا وذاك هو أن نتجاوز الاختلافات ونستثيق بما يجمع الباحثين ويعبئ طاقاتهم لتوحيد المصطلح. إن مستقبل السيميائية العربية يظل مرهونا في بعض جوانبه بهذه الرغبة في درك جوهر الاختلافات والقيام بمسح شامل لما أنجز والوقوف عند القواسم المشتركة في البحوث العربيّة الراهنة. حتى نوضح هذه المسألة، سنقدّم النص الوارد في الكتاب باللغة الفرنسية، ونعمل على تقطيعه حتى يستقيم فهمنا لمقاصده العلمية ونقدم بعد ذلك ترجمة خليل أحمد وأوديت بيتيت بالعربية، لنناقش بعد ذلك الترجمة المعتمدة في النص على أن نختمها بمجموعة من الاقتراحات.

«[Quoi qu'il en soit ,chacun des niveaux que nous avons ici postulés conduit à poser des unités de nature différente].[Au niveau discursif ,on parlera des figures et configurations discursives],[au niveau narratif ,on parlera d'actants et de fonctions],
[au niveau profond enfin,on parlera d'unités minimales ou sèmes[12]»].

يترجم الباحثان هذا المقطع على النحو الآتي:

«ومهما يكن من أمر، فإن كلا من المستويات التي سلمنا بها هنا يقود إلى وضع وحدات من طبيعة مختلفة. على المستوى الاستدلالي، سنتحدث عن أشكال وتشكّلات استدلالية على المستوى القصصي سنتحدث عن عوامل وأعمال، وعلى المستوى العميق سنتحدث عن الوحدات الصغرى»[13]

سنستخـرج من هــذا النـص الترجمــات التي وضعـت للمصطلحات الأساسية :

المستويات : niveaux

الوحدات : unités

المستوى الاستدلالي : niveau discursif

الأشكال : figures

التشكلات الاستدلالية : configurations discursives

المستوى القصصي : niveau narratif .

العوامل :actants ويترجم هذا المصطلح في الصفحة 118 من الكتاب بـ الفواعل .

الأعمال :fonctions وتترجم في موضع آخر من الكتاب، ص.115، بـ الوظائف، وتترجم أيضا séquence بالوظيفة .

المستوى العميق : niveau profond .

الوحـدات الصغـرى : تترجم في الصفحة 59 بالدنيا (ويخص الترجمة نفسها لمصطلح sème) .

من الواضح أن بعض الترجمات الموضوعة على هذا النحو[اكتفينا في هذا السياق بعيّنة فقط لنستدل بها على ما افترضناه] ودون مراعاة للجهود العربية، تشكّل خرقا لما هو جاري استعماله في الخطاب النقدي، وعليه فإننا نثبت الترجمات الآتية :

خطابي : discursif .

صورة : figure .

وظيفة : fonction .

بالإضافة إلى هذا، فإن ترجمة الباحثين لا تتقيد بالنص من حيث تقطيعه وفقا لعلامات الوقف مما أدّى إلى تداخل واضطراب مستويات النص[**على المستوى الاستدلالي**، سنتحدث عن أشكال وتشكّلات استدلالية **على المستوى القصصي سنتحدث عن عوامل وأعمال**] . كما أن الترجمة جاءت ناقصة بحذف عنصر أساسي من الجملة الأخيرة : sèmes .

تأسيسا على هذا، نقترح الترجمة الآتية : « ومهما يكن من أمر، فإن كلا من المستويات التي سلمنا بوجودها هنا يقود إلى وضع وحدات من طبيعة مختلفة . على المستوى الخطابي، سنتحدث عن الصور والتشكّلات الخطابية، على المستوى السردي، سنتحدث عن العوامل والوظائف، وعلى المستوى العميق، سنتحدث عن الوحدات الدنيا أو السيمات » .

و قد لاحظنا اضطرابا كبيرا في الترجمة وتضاربا مثيرا في نقل المصطلح، وليس من الغرابة أن يعرض الباحثان ترجمة في موضع ويلغيانها في موضع آخر دون أن يقدما تبريرا لذلك ودون أن يراعيا الفروق المفهومية بين هذا المصطلح أو ذاك :

« Ces trois séquences requièrent l'intervention d'un certain nombre de"«forces» toujours les mêmes. Telle nomenclature en recense six": sujet, objet , destinateur, adjuvant, opposant"; telle autre ne proposera plus vraiment que les quatre premières. Ce sont les «ACTANTS» qui sont définis par leur rôles précis dans chacune de ces séquences :

1) le destinataire manque d'un certain objet.

2) le destinateur passe un contrat avec le sujet afin qu'il répare ce manque;

3) le sujet avec ou sans adjuvant accomplit l'acte impliqué par le contrat, et obtient l'objet.

Cet acte peut prendre la forme d'un combat contre un opposant/ou anti–sujet .C'est l'épreuve (14)».

و قد جاءت ترجمة هذا النص على النحو الآتي :

« هذه الوظائف الثلاث تتطلب تدخل عدد من « القوى » هي دائما ذاتها .جدول ما يذكر منها ستا :فاعل، مفعول، مرسل، مرسل إليه، مساعد، معارض .

وجدول آخر لا يقدم منها، في الحقيقة، إلا الأربع الأولى، وهي : « العوامل المعرفة من خلال دورها المعين في كل من هذه الوظائف :

1) المرسل إليه نقص لمفعول معروف .

2) المرسل يقيم عقدا مع الفاعل لكي يعوض هذا النقص .

3) الفاعل مع أو بدون مساعد يقوم بالحدث المتضمن في العقد و يحصل على المفعول .

هذا الحدث يأخذ شكل معركة ضد– معارض أو ضد– فاعل . هذا هو الامتحان » (15) .

لم تول هذه الترجمة أهمية للرموز الدالة الموجودة في اللغة الأصل واكتفت بتوسيم المصطلحات الأساسية بخط أسود بارز هو بمثابة السمة المميزة عن الخط العادي، وبالتالي، فإنها جديرة بالاهتمام . وإذا دققنا النظر في النص الأصل، سندرك أن الباحثة آن إينو تميّز، من جهة، بين الوظائف الأساسية وهي الافتقار والعقد والمهمة، فتضعها في مربّعات لأهميتها، ومن جهة أخرى، بين مختلف العوامل التي تسند لها أدوار في المقطوعة .

وحتى تستقيم معرفتنا للآليات التي احتكمت إليها الترجمة، سنعمد إلى ضبط المصطلحات الأساسية في النص الأصلي والترجمات التي وضعت لها في اللغة الهدف . وتكون هذه العملية متبوعة بمناقشة .

وظائف :	séquences
مفعول :	objet
نقص :	manque

إن مصطلح séquence يترجم عموما بالمقطوعة التي تستعمل عادة للدلالة على الوحدة النصية التي تفرزها عملية التقطيع. وهي من هذه الزاوية تختلف اختلافا جذريا عن الوظيفة.

أما النقص الذي وضع كمقابل لـ manque، فإن ترجمته بهذا الشكل تخلّ بالمفهوم الذي وضع له أصلا ولا تعبّر عنه بدقة. إذا استندنا إلى المعجم الوسيط، نلاحظ أن النقص يتضمن مسارين دلاليين مركزيين:

أ) نقص الشيء فلانا : أعوزه،

ب) أعوز الشيء فلانا: قلّ عنده مع احتياجه إليه.

من الواضح أن النقص يدل في الوقت نفسه على وجود الشيء (الموضوع) وقلّته والاحتياج إليه.

ولئن كان الموضوع موجودا أصلا وجودا يتحقق بالزيادة أو النقصان، فإن المفهوم الذي يتضمنه **النقص** في الاصطلاح اللغوي لا يعبّر عن المضمون الدلالي لـ manque الذي يحيل على غياب الموضوع في الوضع الأولي situation initiale وذلك بقطع النظر عن **الزيادة** أو **النقصان**. من هنا يتضح لنا أن **المسألة الكميّة** للموضوع غير واردة البتّة في التعريف السيميائي لـ manque الذي يستعمل للدلالة على: «التعبير الصوري عن الفصلة الأوليّة بين الفاعل وموضوع التحرّي. إنّ التحويل الذي يعمل على تجسيد الوصلة (انتقال من حالة افتقار إلى سدّه) يتوافق مع المهمة الحاسمة. تأسيسا على هذا، فإن الافتقار ليس وظيفة بالمعنى البروبي بل حالة»(16).

ومن ثم وجب التفكير في مصطلح آخر يحمل مفهوم الاحتياج إلى شيء **لا نملكه ونرغب في الحصول عليه**. على هذا الأساس فإننا سنحتفظ بمصطلح الافتقار الذي يدل، من جهة، على فكرة الاحتياج إلى الشيء[المعجم الوسيط]، ويحيل، من جهة ثانية، على التعبير الصوري عن الفصلة الأولية بين الفاعل وموضوع التحرّي. وإذا دقّقنا النظر في الترجمة التي اقترحها خليل أحمد وأوديت بيتيت، فإننا ندرك أنها مرتكزة أساسا على النقل الحرفي دون الاكتراث إلى المفاهيم التي يحملها النص على نحو ما نلحظ ذلك في الترجمة الآتية:

manque d'un certain objet le destinataire :المرسل إليه نقص لمفعول معروف

يمكن أن نلاحظ على الصعيد الشكلي أن المترجم لم يراع الجوانب الشكلية في اللغة الأصل، والمتميزة بالإطار الذي وضعه لفعل manque. يأخذ هذا الفعل دلالة خاصة في الجملة ويشكّل القاعدة المركزية التي تنبني عليها المقطوعة. لقد تصرف في الجملة وأظهر النقص والمفعول بخطوط بارزة .كما نلاحظ أن الترجمة المقترحة مضطربة اضطرابا يجعل القارئ يتساءل عن موقع وحداتها المعجمية من الإعراب.

أما مصطلح objet، الذي يحيل في النظرية السيميائية على «الحيّز الذي تستثمر فيه القيم» فإنه عادة ما يوضع له **الموضوع** كمقابل.

انطلاقا من هذه الملاحظات، يمكن أن نقترح الترجمة الآتية للفقرة السابقة:

«إن هذه المقطوعات الثلاث تقتضي تدخل عدد من القوى تظل قارة باستمرار. وتحصي هذه المدونة منها ستًّا: الفاعل والموضوع والمرسل والمرسل إليه والمساعد والمعارض. ولا تقترح مدونّة أخرى سوى الأربعة الأوائل. إنها العوامل المعرّفة بأدوارها المحدّدة في كل واحدة من هذه المقطوعات:

1) يفتقر المرسل إليه إلى موضوع معين.

2) يبرم المرسل عقدا مع الفاعل في سبيل تعويض هذا الافتقار.

3) ينفّذ الفاعل، سواء في حضور المساعد أم غيابه، الفعل المتضمن في العقد ويحصل على الموضوع.

ويأخذ هذا الفعل شكل معركة موجّهة ضد المعارض أو الفاعل المضاد. يتعلق الأمر في هذه الحالة بالمهمة». وإذا دقّقنا النظر في المصطلحية المعتمدة في الكتاب، فإننا نلاحظ أنها غير قارة في كثير من المواضع و غالبا ما تتعدد الترجمات للمصطلح الواحد:

«الفاعل (sujet) مع أو بدون مساعد يقوم بالحدث المتضمّن في العقد ويحصل على المفعول»(ص.118).

«إن الفواعل (actants) ليست معرفة إلا بطريقة تجريدية» (ص.118).

إن مصطلح الفاعل الذي وضع كمقابل لـ sujet يحيل في الوقت نفسه على actant:

sujet

الفاعل ã

actant å

ينبغي أن تؤدي الترجمة، في تقديرنا الخاص، وظيفتها التواصلية انطلاقا من قراءة النص الأصل وتمثله وفهم مصطلحاته الأساسيّة في ضوء الإحاطة بأسيقتها النظرية والنظر إليها من زاوية تتيح الوقوف عليها في علاقتها بالمصطلحية المعتمدة في التوجه السيميائي. بهذه الرؤية يكون المترجم قد حقّق نسبة عالية من الفهم والتأويل ولا يسعه في المرحلة الثانية سوى نقل هذه الحمولة المعرفية إلى اللغة الهدف. وفي هذا الموضع بالذات تبدأ الصعوبة ويطرح السؤال بخصوص الأولوية التي ينبغي أن تعقد في اختيار هذا المصطلح أو ذاك. إنّ اختيار المصطلح المناسب يتوقف على معاينة المصطلحية المعتمدة في البحوث والقواميس العربية، وضرورة الاستناد إلى ما هو شائع منها، والاعتماد، في حالة حدوث الاختلافات، على جهود الباحثين القدامى في المجالات اللغوية والفلسفية، والارتكاز على الإمكانات الاشتقاقية التي تزخر بها اللغة العربية.

الإحالات

(1) علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 20 مكناس / المغرب، 2003، ص .99–109 .

(2) نفسه، ص .106 .

(3) آن إينو، **مراهنات دراسات الدلالات اللغوية**، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980 .

(4) محمد الناصر العجيمي، **في الخطاب السردي، نظرية قريماس** (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993 .

(5) Jean – Marie Floch, Sémiotique, Marketing et communication, sous les signes, les stratégies, PUF, Paris, 2002, p. 4.

(6) سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984 .

(7) A. J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979, p. 346.

(8) A. J. Greimas in Anne Hénault , Les enjeux de la sémiotique, PUF , Paris, 1993 , p. 5.

(9) إبراهيم مصطفى ،أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، استانبول، تركية،1989، مادة جدا .

(10) **المرجع السابق**، مادة حرى .

(11) A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979, p. 305.

(12) Anne Hénault, op. cit., p. 47.

(13) آن إينو، **مراهنات دراسات الدلالات اللغوية**، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980، ص .64 .

(14) Anne Hénault, op. cit., p. 145 / 146

(15) آن إينو، **المرجع السابق**، ص .118 / 117 .

(16) A. J. Greimas, J. Courtés, op. cit., p. 305.

البيبليوغرافيا

1. المراجع العربية

- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، استانبول، تركية، 1989 .
- آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980 .
- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، نظرية قريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993 .
- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984 .
- علامات، مجلة ثقافيّة محكمة، العدد 20 كناس / المغرب، 2003 .

2. المراجع الأجنبية

Floch, Sémiotique, Marketing et communication, sous les signes, les – Jean – Marie stratégies, PUF, Paris, 2002

– A. J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979

– A. J. Greimas in Anne Hénault , Les enjeux de la sémiotique ,
PUF, Paris, 1993

توحيد المصطلحا ت

د محمد العناسوة مجمع اللغة العربية (الأردن)

ملخص :

مضى قرن من الزمان، وما زلنا نبحث الموضوع ذاته « منهجية وضع المصطلح العربي وتوحيده وسبل نشره » ونقف منه موقف الحيرة، ونحن نرى أساتذة كباراً يستعملون ألفاظاً وأوضاعاً لم تنص عليها معاجم اللغة أو هي تخالف ما استعمله القدماء، وحري بنا أن نتساءل: هل يعتبر توسع المحدثين في ذلك خطأً يجب تجنبه، أو تطوراً مفيداً لا غنى عنه؟ هل يعتبر عدم شيوع المصطلح العربي أو توحيده ظاهرة صحية، أم مسألة طارئة تحتاج إلى دراسة وحلول؟ هل كان القرن الماضي بكل ما فيه من جهود وإمكانات لا يكفي لاقفال باب البحث في هذا الموضوع؟ أم أن المؤسسات العلمية العربية ومجامع اللغة العربية قصرت في وضع الحلول المناسبة لقضية المصطلح العربي؟ وهل يعني ذلك أننا بحاجة إلى قرن آخر من الزمان ليزيل حيرتنا ويفتح أمامنا سبل الهداية والصواب؟!

عصر المعلومات :

نحن نعيش عصر المتغيرات، ونعاصر زمن المعلومات، نتعامل مع الأرقام والرموز بأنواعها ومع النص والصوت والصورة، ومع المكتوب والمنطوق، ومع المحسوس واللامحسوس، نتعامل مع العقل ومع الفرد، مع العناصر المادية الظاهرة، والأسرار البيولوجية والسيكولوجية الدفينة، مع المحدد، والقاطع والواقعي، مع المستحيل والمحتمل والممكن. وكل هذه التكنولوجيا بقدراتها العجيبة وخصائصها، تنتشر تطبيقاتها في كل اتجاه بمعدلات متسارعة من غرف العمليات إلى غرف المعيشة، ومن المفاعلات الذرية إلى أدوات المطبخ ومن المكتب والمصنع والمدرسة إلى العالم كله على اتساعه، فأين هو موقعنا في وضع المصطلح العربي المقابل لهذا الشلال الهادر من المعلومات وما هي سبل توحيده ونحن لم نتوحد بعد؟ لم نتفق بعد؟ ألم نختلف بعد؟

لقد أضاع العرب فرصاً كثيرة في القرن الماضي لكي يحققوا نمواً مطرداً في مجالات كثيرة، إلا أنهم نتيجة عوامل كثيرة لا مجال لتعدادها الآن، تخلفوا عن الركب الحضاري وأصبحوا تابعين أو مستهلكين لنظم المعلومات والتكنولوجيا بجميع أشكاله، وهذا ما أشار إليه المفكر البريطاني (بول جونسون) حين قال: لقد ضيع العالم العربي فرصته الكبيرة التي سنحت له مع طفرة الازدهار النفطي، لقد كان بوسع العرب أن يطوروا أنفسهم وكان بمقدرتهم أن ينتقلوا

بفكرهم إلى العصر الحديث، وكان بأمكانهم أن يستحدثوا نظاماً اقتصادياً وصناعياً خاصاً بهم، ولكنهم لم ينجزوا هذه المهام، وأنا أتوقع أن يدخل العالم العربي القرن الواحد والعشرين وهم أقل أهمية مما كانوا عليه في السابق. ولا شك أن هذا كلام قاسٍ على الأسماع، لكننا لم نكون كالنعامة التي تضع رأسها في الرمال، ظانة أنها في منأى عن أَنظار الآخرين، فالآخرون يعرفون أحوالنا أكثر منا، وعوامل التجزئة التي فتكت في الجسم العربي في العقد الأخير من القرن العشرين بعد حرب الخليج الأولى والثانية أثرت تأثيراً كبيراً في تخلف الوطن العربي عن الركب الحضاري العالمي، ووضعته في إشكالات ومأزق شديدة الحرج.

هموم كبيرة:

ولا يغيب عن البال، أن عالمنا العربي الكبير همومه كبيرة بحجم مساحته، فأجيال الشباب تعاني من الروتين القاتل للإبداع، ويتفرع من هذا الروتين أزمات في الفكر، في التربية والاقتصاد، حيث نجد المعلومة الثقافية العربية شبه غائبة أو مغيبة وإذا وجدت فهي من مصادر غربية أو استشراقية لا تفي بالغرض المطلوب، وما زالت كمية المعلومات العربية ونوعيتها على شبكة الانترنت ضئيلة جداً بالقياس إلى الكمية والنوعية التي تحتلها الأمم الأخرى على هذه الشبكة.

أما الإعلام فهو السلاح الجديد المتجدد، وهو الذي يثبت الحقائق أو يغيرها، ويقرب المسافات أو يبعدها، ولكم خطر في بالي أن اسأل الجمهور الكريم عن مصطلح عربي موحد اقرته المجامع العربية قبل نصف قرن من الزمان. يعرفه الناس أكثر مما يعرفون عن الأرهاب الذي ظهرت صورته وذاع صيته قبل سنوات فقط؟ إنه الإعلام وحده الذي ينشر المصطلح ويعممه ويوحده، أو يلغيه من ذاكرة الأجيال؟ ومما يؤسف له، أن عالمنا العربي يكاد يكون أقل أمم الأرض اهتماماً بالأعلام، لأن النظم السياسية تحتكره لنفسها وتعتبره ركيزة الأستقرار للأستقرار السياسي في الدولة. وهذه نظرة تنقصها الدقة.

التعليم العالي:

وبكل أسف ما زال التعليم عاجزاً عن أيجاد الأنسان المبدع القادر على مواكبة المتغيرات السريعة التي يشهدها أو سيشهدها القرن الجديد، وما زال استخدام الحاسوب ونظم المعلومات بعيداً عن مدارسنا وجامعتنا إلا في بعض الأقطار العربية التي جعلت مادة المعلوماتية مادة رئيسية في المدارس والجامعات وهذا أمر لا بد منه للأرتقاء بالوعي المعرفي والعلمي ولا سيما في الجانب المعلوماتي [1].

1 – مجلة اللسان العربي، العدد 29 سنة 1987، دور مؤسسات التعليم العالي في توحيد المصطلح وإشاعته،محمد مجيد السعيد، ص149.

الألفاظ الأجنبية:

ويتساءل جيل الشباب من المبدعين عن أسباب استخدام بعض الألفاظ الأجنبية في كتاباتنا وفي الكتب المدرسية والجامعية، وكيف يسمح العلماء بها مثل الميكروسكوب والتلسكوب، والبروستاتة، الفسيولوجيا، البيولوجيا، البكتريولوجيا، البارومیتر، الفيروس، الهرمون، الميكروب، إلى غير ذلك من الكلمات الدخيلة على اللغة العربية، وهم يتشددون في منع استخدامها ويعتبرون ذلك جريمة لا تغتفر للعلماء العرب[1].

المصطلح في القرآن:

ولست أظن أحداً منكم، مهما يكن دينه أو مهما بلغ حظه من الثقافة، يستطع أن يماري في كون القرآن الكريم كما قال الله تعالى فيه « قرآناً عربياً غير ذى عوج »(الإسراء: 88) وأنه « كتاب مصدق لساناً عربياً » وكذلك « أنزلناه قرآناً عربياً »(يوسف: 2) كما لا يستطيع أحد أن يماري في أن القرآن هو معجزة الأعجاز في الفصاحة والبيان، لا في عصره فحسب بل في كل عصر وزمان، حتى لقد تحدى الله به الأنس والجن « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الزمر: 28). ومع ذلك لم يخل القرآن الكريم، العربي المبين من أكثر من مائة لفظ من الألفاظ الأعجمية، ما بين حبشية وفارسية وهندية ونبطية وسريانية وعبرانية ورومية وغيرها لماذا؟[2] هي عجز القرآن عن أن يجد لتلك الكلمات الأعجمية بديلاً عربياً، رغم أن العربية من أغنى لغات العالم بالمشتقات، فعمد إلى اللغات الأجنبية يستجديها بعض الفاظها، فيهدم ركن أعجازه المنقطع النظير؟![3]

والحق أن اللغة العربية على وفرة غناها بالألفاظ والمصطلحات، كانت قد تسللت إليها قبل نزول القرآن عشرات ومئات من الألفاظ الأجنبية، بسبب اختلاط العرب في ذلك الزمان بالأحباش والفرس والروم والأنباط والهنود وغيرهم، ممن كانت تربطهم بهم رابطة التجارة أو الجوار، وهي ألفاظ جرى استعمالها على ألسنة العرب وكثر شيوعها وتداولها بينهم، حتى أصبحت وكأنها من مفردات العربية ومشتقاتها الأصيلة، مثل: فردوس، قرطاس، فسطاس، تنور، صراط، متكأ، سجل، ياقوت، مرجان، إلى غير ذلك.[4]

---

1 – انظر: غرائب اللغة العربية، ص284.

2– المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ص295–298.

3– مجلة اللسان العربي، ع39، سنة 1995، تطوير منهجية وضع المصطلح العربي وبحث سبل نشر المصطلح، ص320–321.

4– المزهر في علوم اللغة، ج1ن ص286.

وقد أنزل القرآن على النبي العربي باللسان العربي، أي بما كان العرب الذين بعث فيهم هذا الرسول يخاطبونه به فتنطق به ألسنتهم من ألفاظ متداولة بينهم حتى ولو كانت غريبة عن لغتهم دون أن يطعن ذلك في القرآن أو ينقص من اعجازه وبلاغته، وقد يكون من الخير أن نقتطف فيما يلي بعض الألفاظ الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم والتي جمعها في كتابه العلامة « جلال الدين السيوطي » أحد أئمة التفسير في العصر العباسي وسنرى أن منها ما تشترك فيه أكثر من لغة وأن منها ما لا يتطرق الشك إلى أحد في أصالة عروبته[1] .

ألفاظاً فارسية: سندس، استبرق، ديباج، اباريق، بيع، كنائس، تنور، جهنم، سجين، سقر، قرطاس، سلسبيل، اقفال، كافور، ياقوت، مرجان، كنز، سرادق، رس، روم.

ألفاظاً رومية: الفردوس، قنطار، القسطاس، الصراط، طفقا، فصرهن، الرقيم، القسط، القرطاس.

ألفاظاً سريانية: اليهم، صلوات، القمل، هيت لك، ولات، جنات، عدن، الاسفارن طه، سريا، رهوا، سجدا.

ألفاظاً عبرانية: الرمز، الفوم، طوى، اليهم، الاواه، مرقوم، كفر، اخلد، هدنا، الاسباط، القسيسين، راعنا، حطه...

ألفاظاً نبطية: الفردوس، السفرة، اسفاراً الحواريون، الطور، فصرهن، الملكوت، رهواً، هيت، سريا، كفلين، المقاليد، لاوزز، اليهم، اصرا.

ألفاظاً قبطية: المتكأ، مزجاة، بطائنها، مناص.

فإذا كان هذا هو واقع القرآن الكريم، فماذا يضيرنا أننا ابقينا على بعض الألفاظ العلمية والمصطلحات الفنية المتداولة في عصرنا تداولاً يكاد يكون عالمياً، حتى تكاد تكون أقرب إلى أسماء الأعلام، أو قصرنا محاولاتنا عن تعديلها تعديلاً بسيطاً يقربها إلى الجرس العربي بما يناسب المقام؟ ثم ألا يجب أن نسأل أنفسنا إذا لم نقبل بهذا الواقع المفروض علينا[2] ، فما هو موقفنا من المصطلحات التي لم نجد لها ألفاظاً تقابلها؟ هل نقبل بها إلى حين تعريبها؟! ثم نعود لتصويب كتاباتنا وتقويم ألسنتنا؟! أم أننا نتحدث بها أجنبية ويتحدث بها أولادنا العربة؟! هل سيأتي يوم نحمل في جيوبنا قوائم المصطلحات المعربة وغير العربية لنكسر حاجز المصطلحات غير العربية؟!![3]

1– السيوطي، المرجع السابق، ص301.

2– أنيس المقدسي، التحديث والتعريب في مواجهة الغزو الثقافي (مجلة الوحدةن ع3، ك1 1984) ص12–13.

3– المهذب فيما وقع في القرآن من العرب، جلال الدين السيوطي ، ص65.

واقع المصطلح العربي وتطوره :-

الواقع أن هذا الأمر لن يتحقق أبداً، ولن يأتي اليوم الذي تكون فيه كل المصطلحات قد عربت ووجدت مقابلات لها في العربية، إلا إذا توقف الزمن؟!

إن اللغات كالناطقين بها تنمو وتزدهر، أو تذوى وتضمحل، تبعاً لناموس عام يشمل جميع الكائنات الحية، ويحدث النمو في اللغة بتأثير عاملين رئيسيين، أحدهما خارجي وهو ما يتسرب إليها من لغات أخرى، ثم يتأصل فيها مع الزمن حتى يصبح جزءاً منها، وقلما نجد لغة لم تتأثر كثيراً أو قليلاً بسواها.

فلا بد أن يكون في لغتنا ألفاظ وأوضاع دخيلة استقرت فيها على توالي العهود قد صارت تعد من فصيحها. وها نحن نستعملها في نثرنا وشعرنا فنقول المسك والبلور والترياق والأستاذ والبطاقة، والإبريق ومئات أمثالها دون أن نضعها بغرابة الأصل. وقس عليها ما لا يحصى مما اقتبسناه حديثاً من ألفاظ العلوم والفنون والحضارة والحياة العامة. أما العامل الثاني فهو ما نشأ وما لا يزال ينشأ في داخل اللغة من ألفاظ استحدثت لأغراض ومعان جديدة. وهذا التولد الذاتي مستمر في اللغة منذ أقدم عهودها وهو يحدث عن طريق التحول المعنوى أي باكتساب لفظ لمعنى غير معناه الأصلي ومن ذلك استعمالنا مثلاً للفظة التوقيع: لأثبات الأسم في آخر الكتاب ونحوه والتوقيع في الأصل معناه التأثير فقط.

المقامة: لهذا النوع من القصص المسجع وهي في الأصل للمكان أو المجلس.

الدولة: للحكومة أو المملكة وأصل معناها انقلاب الزمن أو الحال.

الحضارة: للمدنية والعمران الاجتماعي وهي أصلاً ضد البداوة.

المضيفة: للفتاة التي تعني بركاب الطائرة وأصلاً من تستقبل الضيوف في بيتها.

وقد ألبسوا بعد الإسلام كثيراً من الألفاظ القديمة معاني جديدة فأصبحت أوضاعاً لغوية كالنحو والعروض والمجاز، أو فقهية، كالايلاء، والعدة، والحضانة، أو إدارية، كالخليفة، والكاتب والوزير، أو طبية كالصداع والتشريح والخانوق وذات الرئة وما إلى ذلك من أوضاع فلسفية وفلكية وطبيعية.[1]

توليد المصطلحات :-

وقد يكون توليد الألفاظ عن طريق الوضع اللفظي كقولنا المذياع والدراجة والهاتف والجمهورية والتمدن والمصرف وأمثالها. أو عن طريق الوضع المجازي كالقوة الضاربة أي السلاح الكافي لضرب العدو. غسل يديه من المسألة: أي تبرأ منها. وضرب الرقم القياسي: أي تجاوزه

1- السيوطي، المصدر نفسه، ص72-74.

إلى حدٍ أبعد. السوق السوداء: السوق التي يتعامل بها خفية تهرباً من التسعير القانوني. صاحبُ الكرسي: رئيس الجلسة المتولى إدارتها، ناطحات السحاب: الأبنية الشاهقة ذات الأدوار العديدة. صوت في المجلس: أي أبدى رأيه مؤيداً شخصاً ما أو قضية وغيرها. وهناك التوليد بالاشتقاق. كقولنا: قنن (من القانون) ومول (من المال) وتطور (من التطور) وقيم (من القيمة) واستجواب (من الجواب) لا من الفعل أ جاب.

غير أن القدماء عموماً وقفوا من المولدات وقفة الانكار، أو عدم الاستحسان فأبقوها خارج حرم الفصاحة حتى أننا قلما نجد لها ذكراً في معاجمهمم بل كانوا إذا ذكروها قالوا أنها غير عربية أصيلة فلا يحتج بها. وظل هذا نظرهم إليها حتى كانت النهضة الحديثة في القرن الماضي. فلما شرع بطرس البستاني[1] بوضع معجمه محيط المحيط معتمداً على القاموس المحيط للفيروزآبادي رأى أن يضيف إليه كثيراً من المولدات التي نشأت مع الزمن وعبرت في الأستعمال. إلا انه لم يجرؤ على الجزم بفصاحتها فوقف عند نهاية حرف الراء في محيط المحيط ليقول معتذراً: وقد أضفت إلى أصول الأركان (أي مواد الفيروزآبادي) فروعاً كثيرة وتفاصيل شتى وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل والقواعد والشوارد مما لا يتعلق بمتن اللغة. وذلك لكي يكون هذا الكتاب شاملاً يجد فيه كل طالب مطلوبه من هذا القبيل. وبهذا الاعتبار تنازلت إلى ذكر كثير من كلام المولدين وألفاظ العامة، منبهاً في أماكنها عن أنها خارجة عن أصل اللغة وعسى بذلك يتمهد لي العذر في هذا التساهل الذي ارتكبته[2].

ومهما يكن من أمر فإن أهل العصر الحديث يعتبرون هذه الألفاظ ضرورة لا غنى عنها وقد أصبحت المعاجم الحديثة تقرها، ففي المعجم الوسيط مثلاً وهو الذي صدر سنة 1960 بإشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة مئات منها ومما ورد في مقدمته وصف صريح لمنهج المجمع بقلم أمينه العام إذ قال[3]: – ونوسع في المصطلحات العلمية الشائعة ودعا إلى الأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة، وخطا في سبيل التجديد اللغوي خطوات فسيحة ففتح باب الوضع للمحدثين، شأنهم في ذلك شأن القدامي سواء بسواء وعمم القياس فيما لم يقس من قبل وأقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة وشذ في هجر الحوش والغريب» وفي هذا التصريح الصادر عن ثقة في هذا الموضوع دلالة بينة على موقف العصريين من الكلام المولد ولا نبالغ إذا قلنا أن تفصيح المولد الجاري على أساليب اللغة قد أصبح شائعاً في الأوساط العلمية والأدبية لا ينكره إلا فئة قليلة جداً لا تزال تحصر نفسها في الماضي ولا تريد أن تخرج من عنق الزجاجة.

1– البستاني، محيط المحيط.

2– الفيروزآبادي، أبو طاهرن القاموس المحيط.

3– مجمع القاهرة، المعجم الوسيط، المقدمة، ص 8–9 .

ومعلوم أن التجديد لا يُقصد به الخروج عن قواعد اللغة المقررة في علوم الصرف والنحو والبيان، فالخروج عنها خطأ لا جدال فيه، وإنما يراد به إنشاء أو أقتباس صيغ صحيحة لم ينص عليها قبلاً، تملك ما لا يملك سواها من أكساب المعاني قوة أو روعة أو حسن بيان. ومما يهدينا إلى هذه الصيغ ويوطدها سليقة لغوية يؤديها الزمن، وكثيراً ما تصطدم هذه السليقة بالنصوص التقليدية فيحدث تنازع بينهما قد يستمر دهراً طويلاً ثم لا يلبث هذا النزاع أن ينتهي غالباً بانتصار السليقة وهي ما يعرف عنه الجماعة بالذوق العام[1] .

والواقع أن الذوق العام قوة لا يستهان بها، إذ عليه تتوقف حياة كثير منها أو ضياعها أو موتها، وشدة الغيرة حفاظاً على الأصول اللغوية المنقولة عن السلف قد تضيق مجال النظر عن بعض اللغويين فينحصر أهتمامهم في الأصح نقلاً عن الألفاظ في الأصلح للمعنى أو لأكثر أستعمالاً ورواجاً عند الجمهور، وهكذا يسمحون لأنفسهم بوضع أمر إقرار ما لا يستسيغه الذوق العام فلا يلبث أن يموت أو يدرج في غياهب الأهمال فينساه الناس.

وهذا يعني أنه لا ضير في أستخدام بعض المصطلحات الأجنبية في شتى العلوم والاستمرار في وضع المصطلحات وتشجيع التعريب في أنحاء الوطن العربي لتكون لغة التعليم هي اللغة العربية، وإذا ما رافق عملية التعليم لهذا المصطلح العربي بصورة أساسية أو المعرب عند الضرورة في العلوم كلها، فإن ذلك يكون هو السبيل الصحيح للتعليم وهو البداية الصحيحة لسلوك طريق التفوق والقوة واسترداد الثقة بالذات.

وهنا أوكد على أن في استخدام المصطلحات الأجنبية في شتى العلوم والمعارف، بل إن المصطلح سلعة يتطلب رواجها والأقبال عليها حاجة حقيقية لاستهلاكها وحرية دخولها جميع الأسواق، وقدرة المستهلكين على الانتقال في تلك الأسواق واختيارها بحرية بحيث يقبل الجميع في نهاية الأمر على استعمال المصطلح الجيد وإهمال منافسة الرديء فيصبح المصطلح الجيد موحداً تلقائياً.

وقد وجدنا أن أمر توليد المصطلحات لم يعد مسألة تخص أهل اللغة وحدهم وإنما أصبحت شأناً لصيقاً بالتنمية الأقتصادية والاجتماعية الشاملة التي لا تتحقق إلا باستعمال مصطلحات علمية وتقنية موحدة متداولة في جميع أطراف الدولة لتيسر نقل المفاهيم العلمية والتقنية بدقة وأمانة[2] .

1- المصدر نفسه، ص 9 .

2- فوزين محمد، أزمة التعريب، القاهرة، مركز الاهرام 2004م، ص63-64.

ولا بد من التذكير بأن مظاهر التقدم والتطور في المجتمعات الإنسانية أصبحت اليوم تقاس بمدى قدرة هذه المجتمعات على استعياب الكم المتسارع من المصطلحات وتداولها، سواء وجدت مقابلات لها أم لا تجد، إذ لا يعقل أن ينتظر العاملون في المصارف العربية قرارت مجامع اللغة التي تزودهم بمصطلحات التجارة والنقد والمصارف ومثل ذلك بالنسبة إلى الأقتصاد والتجارة والإعلام والسياحة وغيرها. ولا أحسب أن مجامع اللغة العربية بإمكاناتها المادية والعلمية قادرة على تعريب المصطلحات العلمية الجديدة المتجددة في كل حقول العلم والمعرفة، والرأي عندي الاستمرار في تشجيع عملية التعريب في الوطن العربي لتكون لغة التعليم هي اللغة العربية.

وإذا كنا نقدر بكل إجلال الجهود التي بذلتها وما زالت تبذلها المنظمات الثقافية والمؤسسات التربوية التي ما فتئت تعمل بجد وأهتمام من أجل توفير الوسائل العلمية التي تعين على إيجاد المصطلحات والرموز العلمية وتوحيد دلالتها ونشر استعمالها، وهي جهود مشكورة ومباركة، إلا أننا مازلنا نرى الناس مختلفين حول المصطلح العربي أو المعرب، فهل نأخذ بالمصطلح الأجنبي كما هو أم نهذبه بالتعريب؟.[1]

دور المؤسسات العلمية والثقافية في نشر المصطلح:

وإذا كان بإمكان هذه المؤسسات الثقافية وهذه المجامع اللغوية حل مشكلة وضع المصطلحات فإن تعدد هذه المجامع أسهم في زيادة حدة إزدواجية المصطلحات العربية على مستوى الوطن العربي حيث صدر عن هذه المجامع أحياناً مصطلحات عربية مختلفة للتعبير عن المفهوم الواحد إضافة أن بطء الإجراءات المعجمية أدى إلى وضع عدد ضئيل فقط من المصطلحات العلمية والتقنية المطلوبة بالقياس إلى الكم الهائل المتدفق من المفاهيم العلمية والمخترعات التقنية والحضارية الوافدة بحيث اضطرت المؤسسات المستهلكة للمصطلحات في البلاد العربية مثل المصارف ووسائل الإعلام وطرق التجارة إلى الاستمرار في توليد المصطلحات وعدم إنتظار المجامع اللغوية[2]. وهذا أخذ بعضهم يعزو إزدواجية المصطلح العربي إلى تعدد المجامع اللغوية العربية ولقيت الدعوة إلى إنشاء مكتب تنسيق جهود هذه المجامع قبولاً أدى في نهاية المطاف إلى إنشاء مكتب تنسيق التعريب. وقد لاحظ المسؤولون في مكتب تنسيق التعريب أن أحد أسباب إزدواجية المصطلح العربي هو إنطلاق واضعيه في المشرق العربي من المصطلح الإنجليزي في حين أن واضعيه في المغرب العربي ينطلقون من المصطلح الفرنسي، وبادر مكتب تنسيق التعريب إلى

1– عبد الحليم منتصر، مشكلة المصطلحات العلمية والطريقة العملية لحلها، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج13، 1971.

2– مجلة اللسان العربي، ع29 سنة 1987، دور مؤسسات التعليم العالي، ص147.

طرح توصيته على مرور مؤتمرات التعريب تقضي بأن تكون اللغة الإنجليزية هي المصدر الذي ينطلق منه وضع المصطلحات العلمية العربية. ويمكن الاستعانة بالفرنسية كمصدر قانوني. إلا أن اعتماد لغة واحدة مصدراً لتوليد المصطلحات العلمية لم يحل دون إزدواجية مفهوم المصطلح العلمي الواحد[1]. فظهرت الدعوة إلى وضع منهجية موحدة لتوليد المصطلحات العربية ومع ذلك ظلت علة إزدواجية المصطلح العربي قائمة رغم الجهود الطويلة لتوحيده إبتداء من الستينات في القرن الماضي إلى أيامنا هذه.

إمكانية توحيد المصطلح العلمي العربي لو توفر له شرطان:

الشرط الأول: تعريب التعليم والإدارة تعريباً كاملاً ناجزاً وعدم استخدام لغات أخرى في التعليم العالي أو الإدارة أو التجارة أو الإعلام أو غيرها من المجالات داخل الوطن العربي وهذا يتطلب قرارا سياسيا ملزم التطبق.

والشرط الثاني: فتح الأسواق العربية أمام المصطلح العربي ليسهل تداوله وأنتشاره، وهذا يعني أنتقال المطبوع العربي من كتاب ورواية بحرية تامة في الأسواق العربية دون حدود مصطنعة بين الأقطار ودون قيود جمركية وصعوبات تتعلق بتحويل العملة. كما يعني ذلك حرية المواطن العربي في الإستماع إلى الإذاعة العربية وحريته في مشاهدة محطات التلفزة وحرية المؤسسات التعليمية في أختيار كتبها المدرسية ومصادرها ومراجعها مهما كان أنتماء هذه الكتب أو هوية تلك المراجع.

ولا بد من النظر إلى وسائل نشر المصطلح بجدية أكثر وواقعية تحقق للمصطلح الموحد ذيوعاً وقبولاً لدى مستخدميه. فالصحافة اليومية مثلاً لها قدرة أكثر من غيرها في نشر المصطلح لدى قطاعات واسعة من الجماهير بينما تلعب المجلات الأسبوعية دوراً أكثر خصوصية من الجرائد إذ أن طبيعة جمهورها يرتبط إلى حد ما بنوعية قرائها واهتماماتهم ومستوياتهم الثقافية. وإذا انتقلت إلى الدوريات المتخصصة فإن لها الدور الأكبر في توحيد المصطلح ونشر المصطلح الموحد بين المتخصيصين[2].

ويعتبر الكتاب أهم الوسائل الأتصالية التي تعزز نشر المصطلح ويمكننا الإشارة إلى ثلاثة أنواع من الكتب، وهي الكتاب التعليمي والكتاب العلمي والكتاب الثقافي العام. ولا ننسى ما للإذاعة والتلفاز من دور في نشر المصطلح فهما وسيلتان اتصاليتان تحاصران المرء كل يوم ومن خلال برامج الإذاعة و التلفاز تصل إلى أذن السامع مصطلحات جديدة علمية أو سياسية أو اقتصادية.

1- مجلة اللسان العربي، ع39 سنة 1995، دور مؤسسات التعليم العالي، ص49 - 52.

2- مجلة اللسان العربين ع39، 1995، دور وسائل الاعلام في نشر المصطلح الموحد وإشاعته، ص203 - 204.

وإذا كان لنا من كلمة في نهاية هذه الإضاءة، فتحية كبيرة نزجّيها للمواقف الجريئة التي تسلح بها أساتذة الفكر ورواد النهضة العربية حينما كسروا حاجز المصطلح العربي واستعانوا بالمصطلحات والألفاظ المولدة. ولأسباب كثيرة لا حصر لها ندعو إلى الأقتداء بهم وعدم انتظار ما تنجزه المجامع والهيئات العلمية والعاكفة الآن على تعريب المصطلحات العملية مظهرة عجزها الكامل عن القدرة في تعريب هذا الكلم الهائل من المصطلحات الذي تفرزه الحضارة الإنسانية في شتى ضروب الفكر ومناحي الحياة، ولا يعتبر ذلك انتقاصاً من قيمة اللغة العربية ولا طعناً في قدراتها الواسعة وإنما هي تقلبات الزمان وتغير الأحوال، وتعاقب الليل والنهار.

المقترحات:

ولا بد من الإشارة إلى أن المصطلح العربي لم يكن موحداً في يوم من الأيام لا قبل الإسلام ولا بعد الإسلام وهذا أيضاً لا يشكل طعناً في قوميتنا العربية ولا انتقاصاً من أمة الإسلام ووحدتها الدينية غير أننا نستطيع أن نقلل من آثار هذين العنصرين الهامين في مجال توحيد المصطلح العربي ونشره، بالإنتاج الإعلامي والسماح بتدخل المطبوعات بين الأقطار العربية دون قيد أو شرط، وليتنا نتوصل إلى توحيد المنهاج الدراسي في كل الأقطار العربية فهذا وحده كفيلٌ بإتخاذ خطوات جريئة نحو توحيد المصطلح العلمي العربي، بالنسبة للأجيال القادمة، ولا بد من إيلاء التعليم العلمي الجامعي أهمية خاصة، بالتنسيق بين الجامعات العربية من أجل توفير برامج علمية موحدة للكليات العلمية، فهذه درجة رئيسية في سلم توحيد المصطلح العلمي العربي. فلماذا لا تكون هناك لجان منتخبة في الكليات العلمية في الجامعات العربية تحدد في كل سنة ما تحتاج إليه من مراجع علمية باللغة العربية ثم يعهد بهذه المراجع إلى لجان الترجمة والبحث لإنجازها في الزمن المحدد ويتم توزيعها ودفع نفقات طباعتها بين الجامعات العربية. وأحسب أن تكلفة سعر الكتاب يكون أقل وفي متناول جميع الطلاب العرب.

كما لا يفوتنا التذكير بضرورة عدم اقحام اللهجات العربية باللغة السليمةن فنحن لا نفهم على المتكلم في المغرب العربي إلا إذا تحدث باللغة العربية السليمة كما هو الحال في نشرات الأخبار أوالخطابات الرسمية. ولا يجد اهل المشرق متعة في متابعة المحطات الفضائية المغربية إذا كانت باللهجات المحكية، فمهما عربنا من مصطلحات ووحدناها فإن اللسان وحده القادر على تثبيتها وإشاعتها ويضمن لها الاستمرارية والبقاء. فهذه دعوة أخرى إلى تحجيم اللهجات العامية وإيلاء اللغة السليمة أهمية خاصة بين الناس وبخاصة في بلاد المغرب العربي. ولا أحسب في ذلك صعوبة ما دام المواطن العربي يستطيع أن يتحدث الفرنسية بطلاقة رغم ما تحتاج إليه من دقة في اللفظ والتفريق في الدلالة.

الخاتـمة:

إن من واجبنا أن نحاسب أنفسنا ما الذي قدمناه للعلم والحضارة الإنسانية العلمية؟ ما هي المخترعات والمكتشفات؟ وللأسف الشديد فإننا ما زلنا ندّعي بأن كل ما توصل إليه العالم وما سيتوصل إليه في المستقبل موجود عندنا في القرآن الكريم ونكتفي بهذا القول كمساهمة منا في صنع الحضارة. فهل هذا دورنا فقط؟ وهل كتب علينا الأحتماء بذكريات الماضي البهيج والتغني بإمجاد ليست من صنعنا نحن؟ إن المؤلفات القديمة بكل ما فيها من جمال وروعة وبيان لم تغن شيئاً. ولم تدفع بنا إلى عصر العلم والإبداع والتطور، وهي تشير إلى ماضينا وتذكرنا بإمجادنا مقتصرة على تعديد الأسماء وسرد المؤلفات الإنسانية، في الوقت الذي يطلق فيه على هذا العصر «عصر العلم والتكنولوجيا».

ويبدو أن وقوفنا عند حواجز تعريب المصطلح وانتظار ما يقابله في لغتنا العربية الجميلة أخرجنا من الحياة العصرية ووضعنا في دائرة الجمود والتمنيات المريرة، فركنا إلى الماضي بنوع من الاستسلام والنوم على الحلم البعيد دون أن نعير كثيراً بالالتفات إلى الحاضر والمستقبل فكان العالم يتحدث عن العلم والتقدم ويزيد في إنجازاته العلمية والحضارية بينما انشغل أساتذتنا في الجامعات طوال قرن من الزمان بالبحث في أهمية التعريب وعدم التعريب ولا أدري متى سينتهون؟.

وقد أجد من يختلف معي في الرأي، وهذا أمر طبيعي في الفكر الإنساني، وأتمنى أن يكون هذا الاختلاف في حدود المنطق وأن لا يصل إلى درجة التناقض والعداء، وانبه هنا إلى أن الأختلاف في الرأي اصبح عندنا اليوم يعبر عن نفسه بأسلوب جديد وهو اختلاف يظهر في عدم بذل أي جهد حقيقي من أجل الاتفاق، كما أن الاختلاف في الرأي لا يعني أن أحد المختلفين على صواب كامل وأن الآخر على خطأ كامل، فالحقيقة المطلقة لا يستطيع أحد أن يدعي أنه وحده الذي يلم بها ويملكها وأن غيره محروم منها تماماً. ولا أزعم بأن هذه الورقة على قدر ما طرح فيها من أفكار تحتل الكلمة الأخيرة بالنسبة إلى ما يقدم من قضايا وموضوعات في هذا العدد.

الهوامش ومراجع البحث

1- محمد مجيد السعيد، مجلة اللسان العربي، ع29 سنة 1987.

2- رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1969.

3- المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، بيروت: دار الفكر، 1964.

4- عودة أبو عودة، مجلة اللسان العربي، ع39، 1995.

5- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (-19).

6- المصدر نفسه، ص301.

7- المقدسي، أنيس، التحديث والتعريب في مواجهة الغزو الثقافي (مجلة الوحدة، ع3- ك1 1984).

8- السيوطي، جلال الدين، المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، تحقيق التهامي الراجي الهاشمي، المغرب: صندوق إحياء التراث الإسلامي مع دولة الإمارات العربية، (- 197).

9- المصدر نفسه، ص 72- 74.

10- بطرس البستاني، محيط المحيط.

11- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، المتوفي (817هـ-1415م)، القاموس المحيط، القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية، 1330هـ.

12- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة: المجمع، 1960.

13- المصدر نفسه، ص9.

14- فوزي، محمد، أزمة التعريب، القاهرة: مركز الأهرام، 2004م.

15- منتصر، عبد الحليم، مشكلة المصطلحات العلمية والطريقة العملية لحلها، القاهرة: مجلة المجمع، ج13، 1971.

16- محمد مجيد السعيد، مجلة اللسان العربي، ع29، سنة 1987.

17- شحلان، أحمد، مجلة اللسان العربي، ع39 سنة 1995.

18- أبو أصبع، صالح، مجلة اللسان العربي، ع39 سنة 1995.

تجليات الثقافة العربية في الصناعة المعجمية

قراءة تحليلية لـ«**معجم الاستشهادات**» للدكتور علي القاسمي[1]

محمد اليملاحي

باحث من المغرب

معلوم أن المعجم كتاب يعرض مادته على نحو مخصوص يخالف باقي الكتب؛ فهو لا يتضمن أبواباً ولا فصولاً، ومن ثم يصعب على قارئه أن ينقل فحواه إلى قارئ آخر لأنه ليس أمام أفكار أو آراء قابلة للنقل والتلخيص. ولهذا سأركّز قراءتي لهذا المعجم على بعض المبادئ المنهجية التالية:

1– بيان موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب

2– بيان موقع معجم الاستشهادات من الحركة المعجمية العربية في القديم والحديث

3– الأسس النظرية لمعجم الاستشهادات

4– الأبعاد التجريبية لمعجم الاستشهادات

5– ملاحظات واستنتاجات .

أولا، موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب:

عندما نتتبع مسار أي كاتب من خلال ما كتب من مؤلفات، فإن أي مؤلف من مؤلفاته ليس مجرد رقم يضاف إلى عددها، بل إنه يمثل مرحلة من المراحل التي تدخل مع غيرها من المؤلفات السابقة في علاقة نمو وتطور أو إقصاء وتجاوز. ومن هنا علينا ونحن نقرأ المؤلف الجديد أن نبحث عن صلته بالمؤلفات القديمة.

للدكتور القاسمي، كما هو معلوم، اهتمامات متعددة. فله مؤلفات في اللغة والنقد والترجمة والقصة، فما هو موقع معجم الاستشهادات من هذه المؤلفات؟ وهل هناك صلة بين المعجم وباقي مصنفات الكاتب بمختلف أنواعها؟

للإجابة عن هذين التساؤلين سأنظر إلى علاقة هذا المعجم بغيره من مؤلفات الكاتب من خلال مستويين، أولهما ظاهري وثانيهما باطني.

1. على المستوى الظاهري، يمكن اعتبار معجم الاستشهادات امتداداً للتأليف اللغوي لدى الكاتب وخاصة الجانب المتعلّق بالمعجم، إذ سبق له أن أصدر كتاب «**مختبر اللغة**»[2] سنة 1970، و«**علم اللغة وصناعة المعجم**»[3] سنة 1975، وساهم في تأليف «**معجم مصطلحات علم اللغة**

الحديث»[4] سنة 1981، كما كان منسّق «**المعجم العربي الأساسي**»[5] سنة 1989. وصدر له مؤخراً كتاب «**المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق**»[6] سنة 2003. وعلى هذا الأساس، فإن معجم الاستشهادات تطبيق لبعض المبادئ المعجمية وبلورتها في شكل مصنَّف له مواصفات المعجم وخاصة من حيث ترتيب مداخله.

2. أما على المستوى الباطني، فأرى أن معجم الاستشهادات استثمار للمعرفة الأدبية ببعديها النظري والتطبيقي، إذ لا يمكن أن يُقدم على هذا النوع من التأليف إلا من أكثر مطالعة الكتابة الأدبية وخبر أساليبها ومقامات استعمالها. ولعل هذا ما يفسر «أن معاجم الاستشهادات يضطلع بتأليفها عادة أدباء ونُقّاد وباحثون في الآداب. ففريق الأخصائيين الذي أشرف على معجم أكسفورد للاستشهادات، مثلاً، يضم خبراء في شكسبير وميلتن وبوب وتتيسون ودرا يدن»[7].

وقد اقترنت المعرفة الأدبية لدى القاسمي بشقيها الإبداعي والنقدي بالمعرفة اللغوية التي تقوم على التنظيم والتبويب؛ ذلك أن اختيار استشهادات بعينها من بين الركام الهائل من الإنتاج الإبداعي والفكري له أهميته في الدلالة على وجهة نظر من يقوم بهذا الاختيار وعلى طبيعة الزاوية التي ينظر منها إلى قيمة النصوص التي يختار منها وطبيعة المواضيع المطروحة فيها. وقد أشار الكاتب إلى هذا في التمهيد إلى المعجم قائلاً:

«**منذ أربع سنوات ونيّف وأنا أطوف في حقول الفكر العربي، وأتجول في بساتين آدابه، وأتنزه في حدائق أشعاره، وأمعن النظر في منثور أزهاره، ثم أقطف أروعها منظراً وأزكاها أريجاً، فأجمع الورود التي فاح عبيرها حتى تناقلته النسيمات العليلة إلى الوديان المجاورة والسهول المتاخمة، ليسرّ به الأصحاب ويرتاح له الخلان؛ وألتقط الزنابق النادرة الألوان، التي يبحث عنها أهل الفن السامي وذوو الذوق الرفيع، ويتبارى في مضاهاتها عباقرة المصوِّرين ويتنافس في رسمها جهابذة الرسّامين.**

«**منذ أربعة أعوام ونيف وأنا أغوص في بحار الأدب العربي، شعره ونثره، أجتبي اللآلي الثمينة النادرة... وبعد هذا وذاك، أنظم تلك الأزاهير وأرتب تلك الجواهر في معجم فريد من نوعه، رائد في ميدانه، يقوم على الاستشهاد والتمثيل والاقتباس، لأضعه بكل عناية وأناة، وبكل فخر واعتزاز على رفوف مكتبتنا العربية الزاهرة، هدية محبة ورمز ولاء للغتنا المجيدة**»[8].

ويهمنا من هذا الكلام الشاعري الذي يلخّص بلغة بيانية المجهود الذي بذله الكاتب في تأليف هذا المعجم.. أقول: يهمنا منه ثلاث كلمات هي: أجمع، أنظّم، أرتّب.

أجل، إن الجمع والتنظيم والترتيب هي الأسس التي يقوم عليها معجم الاستشهادات، وبالرغم من طابعها التقني الذي يوهم القارئ بسهولة إنجازها فهي ليست كذلك بالنظر إلى

اتساع المدى الجغرافي الذي يغطيه هذا المعجم، إذ يشمل أغلب البلدان العربية، وبالنظر كذلك إلى اتساع المدى التاريخي، إذ يشمل كافة عصور الثقافة العربية، هكذا تنعدم الحدود على المستوى الجغرافي والثقافي وكأن هذا المعجم ينجز في صمت ما فشلت السياسة في تحقيقه، ولو توحد العلم والسياسة لتحول يأس الأمة العربية إلى أمل، ولكن هيهات.

يقع معجم الاستشهادات في 684 صفحة من الحجم الكبير. وتنقسم كل صفحة إلى عمودين. ويضم المعجم 1456 مدخلاً رُتبت ترتيباً ألف بائيا، كما أن المعجم مزود بفهرسين: أحدهما للموضوعات والثاني للمؤلفين، بحيث يسهل على القارئ الوصول إلى المادة المطلوبة، كما تجعل الدارس على بينة من المتن الموظَّف بالمعجم.

يُلاحظ أن عنوان المعجم عبارة عن مركَّب إضافي: «معجم الاستشهادات». وتثير إضافة الاستشهادات إلى كلمة «معجم» في ذهن القارئ عدةَ أسئلة منها على الخصوص: هل يشمل تعريف المعجم معاجم الاستشهادات؟ إذا كان الجواب بالنفي، فلماذا تستبعد تعاريف المعجم معاجم الاستشهادات؟ أما إذا كان الجواب بالإثبات، فما هو معجم الاستشهادات وما هي وجوه الائتلاف والاختلاف بينه وبين معجم اللغة؟ وما طبيعة الاستشهادات وما الفرق بينها وبين الأمثال؟ وما هي مصادرها وما هي معايير انتقائها وما طولها؟ وما هي وظيفتها؟

مع أن المؤلِّف لم يجب عن جميع هذه الأسئلة في مقدمة المعجم كما كان يتوقع القارئ منه ذلك، فقد أفرد لها موضوعاً خاصاً ضمن كتابه الصادر مؤخراً بعنوان «المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق» الذي مرّ ذكره. ولذلك سأكتفي هنا بتلخيص الإجابة عن الأسئلة المذكورة انطلاقاً من الموضوع المشار إليه.

يُلاحظ المؤلف منذ البداية أن تعريف كلمة «معجم» في عدد من اللغات الحيّة بما فيها اللغة العربية لا يشمل معاجم الاستشهادات. ويرجع ذلك إلى سببين:

الأول، ارتباط كلمة «معجم» في أذهان عامة الناس القاموس، ويرسّخ هذا الارتباط توجّه معاجم الاستشهادات لجمهور متخصص محدود.

الثاني، أن معاجم الاستشهادات ليست معاجم بالمعنى الحقيقي للكلمة.

ثم يخلص في النهاية إلى «أن كلمة معجم خضعت لنوع من التوسّع الدلالي، وتبعاً لذلك فإن المعجم لم يعد مقتصراً على مفردات محدودة ومعلومات ذات صلة بها، وإنما قد يشتمل على موضوعات أو مواد مختارة من موضوع أو نشاط معين، ومرتبة ترتيباً ألف بائيا أو ما شاكله. وبعبارة أخرى أن الخصيصة المميزة الرئيسة للمعجم انتقلت من المضمون إلى الشكل ولم تعد الخصيصة متمثلة في المعلومات التي يقدّمها المصنِّف، وإنما في النظام التي ترتب به تلك المعلومات لمساعدة القارئ على الوصول إليها بيسر وبأقصر وقت»(9).

وتأسيساً على ذلك يقترح المؤلف التعريف التالي لمعجم الاستشهادات: «**هو كتاب مرجعي يضم شواهد نثرية وشعرية مرتبة بطريقة ملائمة، عادة ألف بائيا، حسب الموضوعات أو أسماء المؤلفين**»(10).

ويقف المؤلِّف عند مكوِّنات هذا التعريف بالشرح والتحليل وضرب الأمثلة، فيعرّف الاستشهاد بأنه «نص يُقتبس من مؤلِّف آخر يمكن اعتباره مرجعاً»(11)، مبيّناً أن الاقتباس يخضع لمعيارين: أولهما الشيوع أي أن يكون الاستشهاد شائعاً مشهوراً، ثانيهما تحول الاقتباس إلى مقولات ثابتة «كالأمثال والأقوال السائرة والحِكَم والقواعد الفقهية والقانونية»(12). ولعل هذا ما يفسّر أن الاستشهادات عادة ما تتألف من جمل قصيرة لاذعة حكيمة، غير أن هذا لا يعتبر قاعدة عامة، إذ إن مداخل معجم أكسفورد للاستشهادات يتراوح طويلها بين كلمة واحدة وكلمتين واثنين وأربعين بيتاً من الشعر تشكّل قصيدة كاملة.

ويتكامل هذا الموضوع مع المقدمة الطويلة التي خص بها المؤلف معجم الاستشهادات ولذلك لن أعرض لها لأني أفترض أنكم اطلعتم عليها.

ويلاحظ أن الشعر هو الذي يهيمن على متن المعجم، وليس هذا الأمر جديدا بالنظر إلى أن أغلب الشواهد النحوية والبلاغية من الشعر، لأنه ديوان العرب، فهو مستودع لسلوكهم اللغوي والعاطفي والاجتماعي، وقد سبق للجاحظ أن انتبه قديما للتوظيف المتعدد للشعر عندما قال:

«ولم أرَ غاية النحويين إلا كلّ شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل»(13).

من هنا يتضح أن الشعر يمثّل سلطة حجاجية في كثير من المجالات المعرفية العربية القديمة. وترجع حجاجية الشعر في معجم الاستشهادات إلى ثلاثة مصادر:

- **الأول**، جنس الشعر نفسه باعتباره كلاما من نوع خاص لا يتأتى لسائر الناس، ومن ثم فإن الاستشهاد به مردودية على مستوى الإقناع.

- **الثاني**، أقدميته، فأغلب الاستشهادات الشعرية بالمعجم من الشعر القديم. ونحن نعلم أن عامة القراء يميلون إلى الشعر القديم لأنه جزء من التراث.

- **الثالث**، قائله، إذ إن أغلب الاستشهادات لشعراء كبار مما يمنحها قوة حجاجية تستمدها من مكانة قائلها داخل الشعر العربي القديم، ولعل هذا ما يفسر الحضور القوي للمتنبي (225 مرة)، وأبي تمام (80 مرة)، وأبي نواس (78 مرة).

ثانياً، موقع معجم الاستشهادات من الحركة المعجمية في القديم والحديث:

من المفارقات العجيبة أن يلاحظ القارئ عدم وجود لهذا المعجم على كثرة ما صنف من معاجم باللغة العربية في العصر الحديث. ولهذا يعتبر أول معجم من هذا النوع يصدر باللغة العربية إلى يومنا هذا. ولنا أن نتصور، من جهة، حجم الفراغ الذي يسده إصدار هذا المعجم، ومن جهة ثانية حجم فقر المعجمية العربية الحديثة في هذا المضمار في وقت تعددت فيه معاجم الاستشهادات الأجنبية شكلا ومضمونا لتستجيب للأهداف المتوخاة من موضعها ولتلبي مختلف حاجات الفئات المستهدفة على تباين مستوياتها الدراسية.

وفي مقابل هذا الفراغ المعجمي العربي الحديث، نجد المعجمية العربية القديمة ذات أهمية خاصة بالنظر إلى تنوعها منهجا ومادة وتأليفا وحجما وكثافة. ولهدا فليس من الغريب أن نجد لمعجم الاستشهادات أصولا في التراث المعجمي العربي القديم. وقد أشار الكاتب إلى هذه الأصول في مقدمة المعجم وكذلك في كتاب «المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق» فلا حاجة إذن لإعادة ذكرها هنا.

ثالثاً، الأسس النظرية لمعجم الاستشهادات:

تقوم الصناعة المعجمية التي تختلف أنواعها على أسس نظرية قد لا يصرح بها صانع المعجم، ومع ذلك فقد نلتمس تلك الأسس أو بعضها على الأقل بدءا بطبيعة متن المعجم (قديم، حديث، معاصر، فصيح، عامي...)، ونوعية الفئة المستهدفة، مرورا بترتيب مواده وانتهاء بطرق عرضها.

وسأركز هنا على أحد الأسس النظرية الهامة التي يقوم عليها معجم الاستشهادات حيث أشار إليها المؤلف عرضا في النقطة الرابعة الواردة ضمن عنوان: «إرشادات استعمال المعجم» حيث قال:

«**رُتبت الاستشهادات ألف بائيا حسب تسلسل حرفها الأول فحروفها الأخرى، تحت كل موضوع. ورُتِّبت الموضوعات ألف بائيا حسب جذرها...**»[14].

ثم عاد في الصفحة 50 لهذا الأساس في معرض حديثه عن ترتيب مواد معجم الاستشهادات حيث بيّن أن الترتيب الموضوعي إحدى الطرق المعتمدة في الترتيب، إذ «**يسعى المصنِّف في هذه الحال إلى ترتيب شواهده طبقاً لموضوعات الشواهد مرتبةً ترتيباً ألف بائيا مثل: الإخلاص، البِر، التوبة، الثواب، الجمال، الحب.. ثم توضع الشواهد التي تتعلق بموضوع واحد تحت ذلك الموضوع**»[15].

يتعلق الأمر إذن بالترتيب الموضوعي لمعجم الاستشهادات ويقوم هذا الترتيب على أساس نظري يتلخّص في أن اللغة تنتظم في موضوعات، أو بعبارة أدق في حقول دلالية. ويترتب على هذا الأساس النظري جملة مبادئ منها على الخصوص:

– كل وحدة معجمية تنتمي إلى حقل معين
– لاوجود لوحدة معجمية تنتمي إلى أكثر من حقل دلالي واحد،
– لا يمكن معرفة دلالة الكلمة بمعزل عن السياق الذي ترد فيه،
– لا يمكن دراسة الكلمات بمعزل عن تركيبها النحوي.

غير أن هذا الأساس النظري المعقد لا يعني أننا أمام معجم للحقول الدلالية، وإلا لكان عنوانه كذلك، بل إننا أمام معجم يستوحي هذه النظرية في ترتيب مادته وطرق عرضها، ولكي يتضح لنا هذا بجلاء سنقف في عجالة عند موضوع الحب والموت في المعجم، على سبيل التمثيل لا الحصر.

يلاحظ أن المؤلف خصّ الموضوع الأول بعدة مداخل هي: الحب، الحبيبة، المحبة، الود، العشق، الغرام، الهوى، الهيام، الوجد..، فلماذا فصل بين هذه المداخل مع أنها تنتمي إلى حقل دلالي واحد؟ إن سبب الفصل يعود أساساً إلى الترتيب الألفبائي الذي اختاره المؤلف لموضوعات المعجم لكنه كان على وعي تام بالتداخل الدلالي الحاصل بين الألفاظ المكونة لحقل الحب. ولهدا كان يحيل في نهاية كل مدخل على باقي المداخل المنتمية لنفس الحقل (ص: 142، 143، 375، 420، 588–589، 59&). وينطبق هذا أيضاً على الألفاظ الدلالية المنتمية لحقل الموت، كما ينطبق أيضاً على باقي الحقول. وهناك سبب آخر هو الفرق بين المعالجة المعجمية والمعالجة الموسوعية للمعلومات. فالموسوعة تجمع المعلومات تحت موضوعات كبيرة، في حين يفتتها المعجم تحت مفردات كثيرة.

رابعاً، الأبعاد التجريبية لمعجم الاستشهادات:

إن التأليف المعجمي بحكم طبيعته عمل تطبيقي يهدف إلى تحقيق حاجات عملية عادة ما تتخذ طابع الآنية والاستعجال.

وإذا كان المعجم اللغوي العام يستجيب لحاجات المتعلمين بمختلف مستوياتهم، فإن معجم الاستشهادات يعتبر من المعاجم الخاصة بحكم الفئة التي يستهدفها، إذ تتكون «من جميع الذين يمارسون صنعة الكتاب أو الكتابة (إذ) أصبح من الضروري لكل خطيب أو كاتب أن يعود لمصدر محدد يزوده بالاستشهادات التي يحتاج إلى تضمينها في كلامه أو لضبط شاهد كان يحفظه أو استكماله أو معرفة قائله»[16]. وأقرب شاهد إلينا في هذا المجال كتابة علي القاسمي نفسه إذ عادة ما يضمن مقالاته الأدبية عدداً من الاستشهادات الشعرية والنثرية على

السواء لتعزيز آرائه ومواقفه، كما هو الحال مثلاً في كتابه «من روائع الأدب المغربي»، إذ تحتوي مواضيعه على عدد كبير من الشواهد وخاصة مواضيع: «مفهوم الموت في الثقافة العربية: قراءة في رواية **وعاد الزورق إلى النبع** لعبد الكريم غلاب»، و«الشيخوخة في الأدب العالمي: قراءة في رواية **الشيخوخة الظالمة** لنفس المؤلف»، و«مفهوم المرأة في العقل العربي: قراءة في رواية **فتنة الرؤوس والنسوة** لابن سالم حميش»، و«مفهوم الصداقة لدى محمد أبو طالب».

ومن المناسب أن أشير هنا إلى أن كثيراً من الشواهد الواردة بالمقالات المذكورة توجد في «**معجم الاستشهادات**»، مما يجعلها في نظري نواة لهذا المعجم بحكم أقدميه نشرها، كما يجعل منها دليلاً عملياً لكيفية استخدام الشواهد التي لخصها لاحقاً في معجم الاستشهادات في ضرورة الالتزام بشرطين أساسيين: أحدهما الاقتصاد في استعمال الشواهد، وثانيهما الدقة في توقيت الاستعمال.

وإلى جانب تلبية هذا النوع من الحاجيات، فإن المعجم يفتح أمام القارئ آفاقاً للتأمل في جملة من المفاهيم والرؤى والقيم الجمالية الأخلاقية التي تشكّل مع غيرها منظومة مرجعية للعقلية العربية، ذلك أن ترتيب الشواهد طبقاً للمعلومات التي تتناولها يسمح للقارئ بتكوين فكرة عن صورة بعض الموضوعات في الثقافة العربية مثل موضوعات الحب، الأخلاق، الموت... صحيح أنها صورة ناقصة لقلة الشواهد المخصصة لها،ولكنها تحتوي مع ذلك على ملامح قابلة لمقارنتها بمثيلاتها من الصور في الثقافات الأخرى. ويعنى هذا أن معجم الاستشهادات يعكس من هذه الناحية صورة ولو جزئية للثقافة العربية متمثلة في هذه الأقوال التي تنطوي على رؤى ومواقف وتصورات من بعض القضايا المتعلقة بحياة الشخصية العربية.

وبالرغم من أن أغلب الاستشهادات تفصلها الآن عدة قرون، فإن تجميعها في هذا المعجم دليل على تخطيها لتلك القرون ومعايشتها لنا، بل إننا نعيد إنتاجها عندما نوظّفها في كتاباتنا. ومن هنا تتسرب تلك القيم والمواقف إلى الأجيال اللاحقة وتصبح أطراً مرجعية لمتكلمي العربية توحّد رؤاهم وتُشعرهم بالانتماء إلى ثقافة واحدة.

قد يبدو هذا الأمر بعيداً بالنسبة لتأليف معجمي يجمع استشهادات متداولة بين متكلمي العربية ويصنّفها على نحو مخصوص، ولكنه يتجاوز ذلك إلى نقل حضارة وثقافة اللغة الموصوفة، لأن لغة الأمة تعكس منطقها وفكرها. ومن هنا يتضح أن المعجم ليس مجرد كتاب لشرح معاني الكلمات أو تجميع الشواهد، بل هو التعبير البليغ عن الثقافة والانعكاس الصادق لها.

كما يصلح هذا المعجم قاعدة لصناعة معاجم لموضوعات الشعر العربي في اللغة العربية وهي غير متوفرة في التأليف المعجمي العربي الحديث. وهكذا يمكن الانطلاق من بعض موضوعات معجم الاستشهادات ثم إدراج جميع الأبيات الشعرية التي تتعلق بكل موضوع على حدة.

ومن الممكن البدء بصناعة معاجم جزئية تخص شاعراً بعينه أو مجموعة من الشعراء الذين درج النقد على تصنفيهم ضمن هذه المدرسة أو تلك كشعراء مدرسة عبيد الشعر أو شعراء المعلقات والأصمعيات والمفضليات. وأعتقد أن صناعة مثل هذه المعاجم جزئية كانت أم شاملة ستضعنا أمام معطيات منظمة ودقيقة قد تفيد الدراسات الأسلوبية التي تهتم بدراسة النصوص انطلاقاً من مكوناتها اللغوية. ومن الممكن الاستعانة بالحاسوب لأجل تخزين مادة هذا المعجم واستعادتها عند الحاجة، إذ يمكن عن طريق الجذر اللغوي الواحد استدعاء جميع الأبيات الشعرية التي وردت فيها الكلمات المنتمية لذلك الجذر عند الشعراء الآخرين.

خامساً، ملاحظات واستنتاجات:

سبقت الإشارة إلى أن هذا المعجم يعتبر أول معجم من نوعه في اللغة العربية ومن هنا تأتي صعوبة تقييمه، إذ لا وجود لمثيل له يمكن للدارس أن يعتمده في الموازنة بينهما وبيان استجابة كل منهما لحاجيات القارئ.

وأمام هذه الوضعية ارتأيت النظر إلى هذا المعجم من خلال ثلاثة جوانب أساسية هي: الهدف ، المضمون، الشكل.

1 – وحدة الهدف: أشرت سابقاً إلى أن المعجم يستهدف جمهوراً محدوداً يتمثل في جميع الممارسين لصناعة الكلام أو الكتابة من أجل تلبية أحد الأغراض التالية:

أ ـ تزويده بالاستشهادات التي يحتاج إلى تضمينها في كلامه،

ب ـ ضبط شاهد كان يحفظه،

ج ـ استكمال الشاهد أو معرفة قائله.

فإلى أي حد يحقق معجم الاستشهادات هذه الأهداف؟

إن حجم المعجم وطريقة ترتيب مداخله لا يدعان مجالاً للشك في تحقيق الهدف الأول، إذ يكفي أن يحدد مستخدم المعجم الموضوع الذي يرغب في معرفة الاستشهادات التي قيلت فيه ليصل إلى ذلك مباشرة، سواء عن طريق فهرس الموضوعات أم الترتيب الألفبائي.

أما تحقيق الهدفين الثاني والثالث، فلا أعتقد أن معجم الاستشهادات يحققهما بالكامل، ذلك أنه لا يضبط بالشكل التام سوى الآيات القرآنية، كما أنه لا يعين في بعض الأحيان قائلي بعض الأبيات الشعرية، إذ يكتفي بعبارة: «ينسب إلى فلان» أو يذيِّل البيت الشعري بكلمة «شاعر» فقط.

ومن المرجح أن المراجع التي نقل منها المؤلف هذه الأبيات لا تنسبها إلى قائليها، فانتقل ذلك إلى المعجم خاصة وأن العناية تتجه في الاستشهاد إلى القول لا القائل، وكأني بالمؤلف قد فطن إلى هذا وصدر مقدمة المعجم بقول الإمام علي بن أبي طالب: «لا تنظر إلى مَن قال، وانظر ما قال».

2 - المضمون:

سأنظر إلى مضمون المعجم من جانبين: الأول، مقدمة المعجم؛ والثاني، صلب المعجم نفسه.

مقدمة المعجم: عادة ما يراد من مقدمات المعاجم بيان المعلومات التالية: الهدف من المعجم، مصادره، المنهج المتبع في تصنيفه، النظرية اللغوية التي يرتكز عليها، دليل استعمال المعجم..

وقد غطّت المقدمة المطولة لمعجم الاستشهادات جميع هذه المسائل مع أنها لم تعرب بوضوح عن النظرية اللغوية التي يستوحيها المؤلف في بناء معجمه الأمر الذي دفعني إلى تأويل بعض الإشارات الواردة في مقدمة المعجم من أجل الكشف عن الأساس النظري الذي ينطلق منه المعجم.

وبالرغم من الطابع الشمولي للمقدمة المذكورة، فإن قارئ موضوع: «هل يعد معجم الاستشهادات معجماً؟» الوارد ضمن كتاب «المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق»، يشعر بأهمية إدماجه بمقدمة المعجم بحكم عمق الصلة بينهما.

صلب المعجم: إن إلقاء نظرة متفحصة على فهرس الموضوعات يبين الطابع الشمولي لمعجم الاستشهادات، إذ يُلم بجميع المواضع التي تتبادر إلى ذهن القارئ، ولذلك من المستبعد ألا يجد القارئ ضالته في هذا المعجم؛ ويرجع ذلك إلى الترتيب الألفبائي الذي ارتضاه الكاتب لمعجمه، إذ مكّنه من وضع قائمة مطولة للموضوعات تبعاً للطاقة التوليدية التي يسمح بها الترتيب المذكور، ثم أدرج تحت كل موضوع مجموعة من الاستشهادات يتراوح عددها بين شاهد واحد إلى أربعة عشر شاهداً من مختلف فنون القول. كما يتراوح طول الاستشهاد الواحد ـ بالنسبة للشعر ـ من بيت شعر واحد إلى ستة أبيات. أما في النثر، فمن جملة واحدة إلى فقرة كاملة، مع العلم أن موضع الشاهد كثيراً ما يوجد في بيت شعري واحد أو جملة واحدة، ولكن حرص المؤلِّف على نقل الدلالة الكاملة للاستشهاد جعله يورد السياق الذي جاء فيه الاستشهاد، كما أنه يربط بين الشواهد المنتمية لموضوع واحد بالرغم من اختلاف مداخلها وذلك حرصاً على الاطراد الدلالي. أما حينما تتعدد مواضيع الشاهد الواحد، فإن المؤلِّف يدرج المعنى الذي تحيل عليه الكلمة الأولى من الشاهد ويحيل على باقي المعاني، في حين يضطر إلى إدراج بعض الاستشهادات التي يتعذر معرفة معناها من دلالتها الحرفية ضمن الموضوع الذي تشير إليه دلالتها المجازية، كما هو الحال مثلاً في التعابير المسكوكة.

إلا أنه يُلاحظ، مع ذلك، إدراج بعض الاستشهادات في مواضيع بعيدة عنها، مثل قول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر». (ص 478–479). فقد أدرجه المؤلف ضمن موضوع «الكتابة»، في حين أنه أقرب في رأيي إلى موضوع «الكمال أو النقصان». ويمكن التأكد من هذا من خلال الاطلاع على الشواهد الواردة بالمواضيع الثلاثة. ويبدو أن الترتيب الألفبائي هو الذي دفع المؤلِّف إلى إدراج قول العماد الأصفهاني ضمن موضوع «الكتابة»، سيما أن قول العمال مصدَّر بعبارة: «لا يكتب الإنسان كتاباً».

كما كان لهذا الترتيب أيضاً أثرٌ واضح على نوعية بعض الاستشهادات بحيث يشعر القارئ كأنه أمام شواهد معجمية لا يدري في أي سياق سيستخدمها، كما هو الحال في قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك». (ص 286)؛ وقول الشاعر(289):

شعب الجزائر مسلـــم وإلى العروبـة ينتســـب

مَن قال: حاد عن أصلـــه أو قال: مات، فقد كـذب

وقول طه حسين (ص 511): «إن مشكلة الامتحان في مصر أصبح خطراً على التعليم وعلى الأخلاق وعلى السياسة، وعلى أشياء أخرى».

ومرد ذلك إلى أن هذه القوال ظلت مرتبطة بسياقاتها الأصلية التي قيلت فيها أول مرة، ومن ثم فقد يصعب على القارئ أن يوظفها في سياقات مماثلة. وينبغي الإشارة إلى أن هذا النوع من الاستشهادات قليل جداً بالمعجم.

وفي إطار صلب المعجم نفسه، يلاحظ القارئ وجود عدد من الاستشهادات لأدباء ومفكرين معاصرين أحياء، مثل: محمد ألحلوي (ص 59)، ونجيب محفوظ (62)، وعبد الكريم غلاب (ص152) ومحمد العربي الخطابي (ص 152)، وعبد الهادي بوطالب(ص 599) وسميح القاسم (ص 368) ومحمود درويش (ص 605) وغيرهم من الأدباء والمفكرين الذين ما زالوا على قيد الحياة.

وبالرغم من أن هؤلاء قلة قليلة بالقياس إلى الأعلام الذين اعتمدت نصوصهم، فإن القارئ يتساءل عن سبب تراجع المؤلِّف عما سطّره في ص 52 من مقدمة المعجم في كون المعجم لم يشتمل «على استشهادات من الكتاب والشعراء الذين هم على قيد الحياة، لأن طبيعة الاستشهاد وتمكنه من الشيوع والانتشار تتطلب مرور فترة زمنية كافية، لذلك، وهذا ما لا يتأتى عادة لأقوال الأدباء الأحياء».

سبقت الإشارة إلى أن المعجم يشتمل على فهرسين: أحدهما للموضوعات والثاني للمؤلفين. وقد رتبا معاً ترتيباً ألف بائيا ووضعت أمام كل موضوع ومؤلف أرقام الصفحات التي وردت في الاستشهادات الخاصة بكل منهما على حدة ليسهل على القارئ الرجوع إليهما عند الحاجة.

ويلاحظ في فهرس المؤلفين الإحالة مرتين على الاسم الواحد بالنسبة لبعض الأعلام بحيث يتوهم القارئ أنه أمام مؤلفين اثنين مع أن الأمر يتعلق بمؤلف واحد ذّكر تارة بالاسم وأخرى مقترناً بالنسب.

وهذا فصل فهرس المؤلفين بين ابن حزم وابن حزم الأندلسي، وبين ابن خفاجة وابن خفاجة الأندلسي، وابن شهيد وابن شهيد الأندلسي، وابن طباطبا وابن طباطبا العلوي، وابن القيم وابن القيم الجوزية، وأبي تمام وأبي تمام الطائي، وغيرهم من بعض المؤلفين. ويبدو أن استشهادات هؤلاء المؤلفين نُقلت أثناء جمع مادة المعجم تارة باسم وأخرى باسم آخر. إلا أن من قام بفهرسة المعجم لم ينتبه إلى المطابقة بين الاسمين.

3 - **الشكل**: يمتاز إخراج هذا المعجم بالجودة، فأوراقه جيدة وصفحاته كبيرة، كما أن مواده مرتبة بشكل مريح للنظر، إذ نضدت المواد بحروف بارزة تمكن القارئ من العثور عليها بسهولة، ومع ذلك فإنه لا يخلو من بعض الأخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارئ.

خاتمة وخلاصة

حاولت من خلال هذا العرض أن أبين موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب ومن الحركة المعجمية العربية قديماً وحديثاً، فانتهيت إلى أن المعجم يشكل من حيث الجمع والتنظيم والترتيب امتداداً للتأليف اللغوي والمعجمي لدى الكاتب، ومن حيث طبيعة المتن فهو امتداد لمؤلفات الكاتب الإبداعية والنقدية.

كما سجلت، من جهة ثانية، أن الكتاب يعتبر أول معجم يصدر حديثاً باللغة العربية في هذا الموضوع، علماً بأن هناك أصولا له في الحركة المعجمية العربية القديمة،الآمر الذي يشجع على القول إنه امتداد أيضاً لتلك الأصول مع اختلاف في الرؤية والمنهج.

كما حاول العرض أيضاً أن يكشف عن بعض المبادئ النظرية التي يستوحيها المؤلف في بناء المعجم، فبيّن حضوراً ضمنياً لنظرية الحقول الدلالية سواء على مستوى تقسيم المعجم إلى موضوعات أم الحرص على الربط، داخل المتن، بين الموضوعات المنتمية لحقول دلالية واحدة.

وبين العرض أيضاً هيمنة المتن الشعري على الاستشهادات، وأرجع ذلك إلى مكانة الشعر في الثقافة العربية. كما بين أيضاً الأبعاد التجريبية لهذا المعجم، وركّز على اثنين: أولهما، إمكان استثمار استشهادات المعجم، بحسب المواضيع، في الكشف عن بعض ملامح المنظومة الثقافية

العربية القديمة التي يعكسها الشعر العربي. ثانيهما، إمكان تأسيس معجم للموضوعات في الشعر العربي قد تُستثمر في الدراسات الأسلوبية للنصوص الشعرية.

كما انتهى العرض بتقديم بعض الملاحظات انطلاقاً من ثلاثة جوانب هي: الهدف، والمضمون، والشكل. وبالرغم من الملاحظات التي أبداها بهذا الخصوص، فإن المعجم يظل، مع ذلك، إضافة هامة للمعجمية العربية الحديثة.

واعتقد أنه قد تكوّنت لدى المؤلِّف، انطلاقاً من اللقاءات الدراسية العديدة التي نُظّمت لدراسة أبعاد هذا المعجم، ملامح الصورة التي ستظهر بها الطبعة الثانية الموسعة من هذا المعجم والتي تناهى إلى سمعنا أن «مكتبة لبنان ناشرون» قد شرعت بإنجازها.

الهوامش

(1) علي القاسمي، **معجم الاستشهادات** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2001)

(2) علي القاسمي، **مختبر اللغة** (الكويت: دار القلم، 1970)

(3) علي القاسمي، **علم اللغة وصناعة المعجم** (الرياض: جامعة الرياض، 1975) ط 3 (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2004)

(4) محمد حسن باكلا وآخرون، **معجم مصطلحات علم اللغة الحديث** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1983)

(5) علي القاسمي ـ المنسِّق ـ وآخرون، **المعجم العربي الأساسي** (باريس: الألكسو/لاروس، 1989)

(6) علي القاسمي، **المعحمية العربية بين النظرية والتطبيق** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2003)

(7) The Oxford Dictionary of Quotations (London: Oxford University press,1941) p.v.

(8) علي القاسمي، **معجم الاستشهادات**، ص 15.

(9) علي القاسمي، **المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق**، ص 143.

(10) المرجع السابق، ص 143.

(11) المرجع السابق، ص 134.

(12) المرجع السابق، ص 144.

(13) أبو عثمان الجاحظ، **البيان والتبيين** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ب ت) ج4، ص 24.

(14) علي القاسمي، معجم الاستشهادات، ص 13.

(15) المرجع السابق، ص 50

(16) المرجع السابق، ص 46

التجربة القاموسية العربيَة

د.عبد اللطيف عبيد
أستاذ المعجمية والقاموسية والمصطلحية – المعهد العالي للغات بتونس

1. المعجم والمعجميّة والقاموس والقاموسيّة

«المعجم» في اللغة العربية مصطلح لساني (لغويّ) يسمّي المفهومين التاليين :

1) مجموع ألفاظ اللغة مفردة كانت أو مركّبة ؛

2) الكتاب (المؤلّف / المصنّف) الذي تجمع فيه ألفاظ اللغة جلّها أو بعضها، وترتّب ترتيبا ألفبائيا أو غير ألفبائي، وتكون مصحوبة ببيانات ـ تسمّى بيانات قاموسيّة ـ أخصّها الشرح أو التعريف.

وقد درج عدد من الدارسين، في السنوات الأخيرة، على تسمية هذا المفهوم الثاني بـ«القاموس»، تخلّصا من الاشتراك الحاصل من استعمال لفظ «المعجم» للدلالة على كلا المفهومين. وفي ورقتنا هذه نتبنّى هذا الاختيار، ونميّز بين «المعجم» و«القاموس» تبعا لما بين المفهومين المذكورين آنفا من اختلاف.

ويطلق على العلم اللغوي الذي يدرس ألفاظ اللغة (أي معجمها) من حيث تاريخها وحركيتها واشتقاقها وصيغها وأنواع العلاقات بين اللفظ والمعنى داخل الكلمة: «المعجميّة» Lexicology. وهذا المصطلح،الذي هو مصدر صناعيّ دالّ على العلم المومأ إليه، قد يكون الأنسب والأصلح من بين مرادفاته العديدة الأخرى التي منها : علم المفردات، دراسة المفردات، علم متن اللغة، علم المعاجم النظري، علم المعجم، علم دراسة الألفاظ، المفرداتيّة...إلخ.

أمّا العلم ـ أو بالأحرى الفنّ / التقنية ـ الذي يهتمّ بالقواميس من حيث تأليفُها (صناعتها) عامّة واختيار ألفاظها (مداخلها) وترتيب تلك الألفاظ وتحرير مختلف البيانات المتصلة بها خاصّة، فقد أصبح العديد من الدارسين في أقطارنا العربية يتجهون أكثر فأكثر إلى تسميته بـ«القاموسيّة» Lexicography، متخليّن شيئا فشيئا عن مرادفات أخرى عديدة منها: صناعة المعاجم، المعجميّة، المعاجمية، المعجميّات، علم المعاجم، علم المعاجم التطبيقي، فنّ صناعة المعاجم، علم الصناعة القاموسيّة...إلخ[1]. وإنّ العلاقة بين هذين العلميْن، أو على الأصحّ بين

---

1) انظر بعض التفاصيل حول هذه المسألة المصطلحية في :

أ. الدكتور أحمد مختار عمر: صناعة المعجم الحديث، ط1، عالم الكتب، القاهرة 1998 (213 ص)، ص 20–22.

ب. الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل صالح : دراسات المعجمية والمصطلحية ـ« قائمة ببليوجرافيّة» ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض 1420 هـ/1999م (207 ص) ، ص 11–15.

ج.د. سعيد جبر أبو خضير : « في إشكاليّة تعريف مصطلح المعجميّات « ، المجلة الأردنيّة في اللغة العربية وآدابها، م3، ع1، ذو الحجة 1427 هـ/ كانون الثاني 2007 م، ص 55–71.

ذاك العلم : المعجميّة Lexicolgy وهذا الفنّ العملي : القاموسيّة Lexicograhy، هي علاقة النظري بالتطبيقي. فالمعجمية أساس للقاموسية، ومعرفة قضايا المفردات من تأصيل (تأثيل) واشتقاق وترادف واشتراك وتجانس وتضادّ وحقيقة ومجاز، إضافة إلى قضايا التغيّر والتطوّر اللغويين، والمسائل المتصلة بالفصحى والعامية والعلاقات بينهما زمانيّا وآنيا، وقضايا المعرّب والدخيل والمولّد، ومستويات اللغة والمعيار اللغوي... الخ، هي من مسائل المعجمية التي لا يستغني عنها إطلاقا القاموسيّون. وإنّ تأليف أي قاموس لغوي، مهما كان حجمه ومهما كان جمهوره المستهدف، يعدّ تأليفا ناقصا أو ضعيفا إن لم يكن مبْنيّا على دراية كافية ومعرفة ضافية بهذه المسائل المعجمية الجوهرية التي تجد في القاموس تطبيقا عمليّا لها.

2. القاموسية العربية : الإنجاز والريادة

للقاموس العربي عامّة واللغوي منه خاصّة تاريخٌ طويل ساير تاريخ العرب منذ أن نشطت حركة التدوين لديهم على أثر نزول القرآن الكريم الذي أقبلوا على حفظه وشرح غامضه وتفسير مبهمه مستعينين بسنّة نبيّه الأمين ورصيدهم اللغوي وتراثهم الأدبي. ولا تزال جهود وضع القاموس العربي المثالي أو الأقرب إلى المثالية جهودا حثيثة متواصلة إلى يومنا هذا.

لقد أحصى الباحث المغربي الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال في كتابه القيّم : « معجم المعاجم »[1] ألفا وأربعمائة وسبعة قواميس. وقد قصر ببليوغرافيته المهمّة هذه « على المعاجم التراثية دون سواها مما مسّته الحداثة بأثر قليل أو كثير »[2]. ويتّصف هذا التراث القاموسي بتعدّد موضوعاته، وغزارة مادته، وتنوّع أساليب عرضها، وسعيه المتواصل إلى الاستقصاء والاستيعاب، وهو ما دعا المستشرق الألماني الشهير أوغست فيشر صاحب مشروع « المعجم اللغوي التاريخي » إلى القول بأنه « إذا ما استثنينا الصين، فلا يوجد شعب آخر يحقّ له الفخار بوفرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكّر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها، بحسب أصول وقواعد، غير العرب... »[3]. كما شهد للعرب بالسبق والتميّز في وضع القواميس اللغوية وغير اللغوية جون أ.هيوود Haywood.

---

1) أحمد الشرقاوي إقبال : معجم المعاجم ـ تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، 391ص.

ومن أهم الببليوغرافيات القاموسية العربية التي اهتمت بالقواميس العربية اللغوية والمتخصّصة، التراثية منها والحديثة، نذكر ما يلي :

أ. سمير عبد الرحيم الجلبي : ببليوغرافيا الترجمة والمعاجم للوطن العربي، دار الجاحظ، بغداد 1977، 130ص.

ب.مسفر سعيد الثبيتي ود. محمود اسماعيل صيني (صالح) : المراجع المعجمية العربية ـ أحادية اللغة وثنائية اللغة ومتعدّدة اللغات، مكتبة لبنان، بيروت 1989، 332 ص.

ج. وجدي رزق غالي : معجم المعجمات العربية ـ رصد حصري شارح للمعجم العربي المطبوع، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1993، 285ص.

2) أحمد الشرقاوي إقبال : المرجع نفسه، المقدمة، ص : ي.

3) أ.فيشر : المعجم اللغوي التاريخي، القسم الأوّل، من أوّل « حرف الهمزة » إلى « أبد »، ط1، مجمع اللغة العربية، القاهرة 1967 (53ص)، ص4.

John A في كتابه « القاموسيّة العربيّة » ، فهو يرى « أنّ العرب في مجال المعجم يحتلون مكان المركز، سواء في الزمان أو المكان، بالنسبة إلى العالم القديم أو الحديث، وبالنسبة إلى الشرق أو الغرب »[1] . ويضيف هيوود أنه « كان للعرب معجم شامل هو « لسان العرب » كانت دونه دقّة وشمولا معاجم سائر اللغات قبل القرن التاسع عشر » [2] .

وقد تمكّن القاموسيون العرب، من خلال الإنتاج الغزير الذي ساعد على تراكم التجربة القاموسيّة، من أن يطوّروا شيئا فشيئا فنّ وضع القواميس أو ما سميناه بـ»القاموسيّة »، وهو فنّ استحدثوه ولا شيء يدلّ إطلاقا على أنّهم استقوه من أمم أو لغات أخرى. ونحن لا نغالي عندما نقول إنّ العرب هم روّاد « القاموسيّة » العالميّة، وإنّ إنجازهم في الشّقّ المنهجي والنظري للقاموس لا يقلّ أهمية عمّا أنجزوه في الشق العملي التطبيقي.

ومن أهمّ مبادئ القاموسية في التراث العربي مبدآ « الجمع » و« الوضع »، وهما مبدآن توصّل إليهما ابن منظور (ت 711 هـ/ 1311 م) وحلّلهما في مقدّمة قاموسه الشهير : « لسان العرب »، واعتمدهما في نقد قواميس السابقين وفي تأليف قاموسه الجامع الذي لا يزال، إلى يومنا هذا، أحد المصادر الأساسية للقاموس العربي. يقول ابن منظور في سياق حديثة عن القواميس التي ألّفت قبله إنه رأى « علماءها بين رجليْن: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأمّا من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع »[3] . وواضح من كلام مؤلّف « لسان العرب » أنّ القاموس يقوم على ركنين : ركن أوّل هو الألفاظ التي ينبغي أن تستقى من مصادرها وتختار بناء على مبادئ أو معايير تكون واضحة، في ذهن القاموسي، وذاك هو الجمع ؛ وركن ثان يتمثل في معالجة الموادّ اللغوية ترتيبا وشرحا واستشهادا وتمثيلا وإيرادا لمختلف البيانات التي ينتظرها المستعمل أو المستفيد، وهذا هو الوضع. وتكوّن مختلف جوانب الجمع والوضع ما يعرف في القاموسية الحديثة بـ»عناصر القاموس » اللغوي[4] .

---

1) نقلا عن د. أحمد مختار عمر : المرجع المذكور سابقا (الهامش 1–أ) ، ص 27.

2) نقلا عن د. عدنان الخطيب : المعجم العربي بين الماضي والحاضر، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 1994 (92 ص) ، ص 5.

وعنوان كتاب هيوود هو :

Arabic lexicographye": It's History, and"It's Place in the General History of Lexicography, Leiden, E.J.Brill,19665.

ويبدو أنّ للكتاب ترجمة عربية طبقا لما ورد في بحث د. سعيد جبر أبو خضير(المرجع المذكور سابقا الحاشية 1.ج) هي التالية :

– جون أ. هيوود : المعجمية العربية : نشأتها ومكانتها في تاريخ المعجميات العامّ، المجمع العلمي، بغداد 2004.

3) ابن منظور : لسان العرب المحيط، إعداد وتصيف يوسف خيّاط، دار لسان العرب، بيروت (د.ت)، ج1، المقدّمة، ص :خ.

4) انظر حول عناصر القاموس اللغوي ما يلي على سبيل المثال :

.p 278 ,1968 Paris ,Larousse,français dictionnaires des Histoire : Matoré Georges

د. محمّد رشاد الحمزاوي : المعجم العربي -إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة، تونس 1991، 442ص.

د.علي القاسمي : علم اللغة وصناعة المعجم، ط3، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت 2004، 223ص.

وبإمكاننا استخدام هذين المبدأين القاموسيين الأساسيين ـ الجمع والوضع ـ لدراسة التجربة القاموسية العربية في ماضيها وحاضرها، واستخلاص عدد من العبر والدروس التي قد تساعد في تأليف القاموس العربي اللغوي الحاسوبي الذي نأمله.

لقد مرّت التجربة القاموسية العربية بمرحلتين كبيرتين تضمّنت كلّ منهما مراحل فرعية ، وهاتان المرحلتان هما المرحلة القديمة التي تبدأ بنشأة القاموس العربي في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأوّل من القرن الثالث للهجرة (إلى أواسط القرن 9 م)، وتنتهي مع « تاج العروس » للزبيدي في نهاية القرن الثاني عشر للهجرة (أواخر القرن 18 م).

أمّا المرحلة الثانية فهي التي نعيشها إلى يومنا هذا مع تنوّع كبير في مراحلها الفرعيّة، وتبدأ بظهور المطبعة ونشر المعاجم التراثية ثم تأليف المعاجم الحديثة في لبنان ومصر وغيرهما وذلك سواء على أيدي اللغويّين العرب أو من قبل المستشرقين الهولنديين والإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم.

3. التجربة القاموسية العربية القديمة

1.3 مرحلة النشأة والتأسيس: الرسائل اللغوية، وكتاب العين

1.1.3 الرسائل اللغوية

كان لظهور الدين الإسلامي الحنيف واهتمام المسلمين منذ وقت مبكّر بجمع القرآن وتفسيره وتوضيح غامضه دور أساسي في نشأة الدراسات اللغوية بمختلف أنواعها ومنها تدوين اللغة. وخلال فترة قد تزيد قليلا على قرن من الزمان (أواسط القرن الثاني ـ أواسط القرن الثالث للهجرة) ظهر لغويّون كبار رأوا أنّ «العربية الفصحى، هي العربية النقية من الشوائب، التي لم تخالطها لغة أخرى»[1] و »أن أفصح اللغات هي لغات البدو، البعيدين عن الاختلاط في أواسط البيداء، وإذن فالطريق إلى الحكم على سلامة اللغة وفصاحتها ونقائها هو قياسها على لغة هؤلاء البدو، والطريق إلى تعلّم الفصحى هو معاشرتهم، وهذا هو ما حدث فعلا »[2]. وقد كان للغة هؤلاء البدو دور أساسي في تفسير ما عرف باسم « غريب القرآن » و « غريب الحديث »، إضافة إلى أنها كانت ضرورية لفهم أشعار العرب مثلما إنّ أشعار العرب قد ساعدت على شرحها وفهمها.

---

1) د. حسين نصّار : المعجم العربي ـ نشأته وتطوّره، (جزآن)، ج1 ،ط2، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1968، ص 27.

2) الموضع نفسه.

وانظر أيضا :

د. عبدالحميد الشلقاني : رواية اللغة، دارالمعارف، القاهرة 1975، 399ص.

وكانت نتيجة هذه الحركة اللغوية العظيمة ـ وهي بحقّ حركة تأسيسيّة ـ تأليف عشرات بل مئات من الكتب اللغوية الصغيرة ـ وتسمّى « الرسائل اللغويّة » أو « الكتب المفردة » ـ في مختلف الموضوعات ذات الصلة ببيئة الإنسان العربي الطبيعية والثقافية والروحية. وقد قسم الدكتور حسين نصّار هذه « الرسائل اللغوية على الموضوعات « إلى تسعة أبواب هي « كتب الغريبين والفقه، وكتب اللغات والعامي والمعرّب، وكتب الهمز، وكتب الحيوان، وكتب النوادر، وكتب البلدان والمواضع، وكتب الإفراد والتثنية والجمع، وكتب الأبنية، وكتب الصفات. وتعدّ الرسائل المندرجة ضمن هذه الأبواب أو المجموعات ما قد يزيد على تسعمائة رسالة (كتاب) طبقا للإحصاء الذي أجراه الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال[1].

وقد ارتحل هؤلاء اللغويون إلى البادية، وأخذوا اللغة مشافهة عن العرب الفصحاء الأقحاح، واشترطوا في من أخذوا عنهم شروطا عديدة حفلت بها كتب اللغة، وتقيّدوا في جمعهم للغة بقيود زمانية ومكانية. وفي الجملة فإنهم لم يأخذوا عن الحضر،وجعلوا القبائل درجات في الفصاحة، واعتبروا أن عصر الاحتجاج بلغة هؤلاء الذين رووا عنهم ينتهي إجمالا بنهاية القرن الثالث[2] قبل أن يعمّ اللحن ويفشو الخطأ لفساد السليقة بمخالطة الأعاجم وسكنى الحواضر.

ولم يتقيّد مؤلفو هذه الرسائل بمنهج دقيق في ترتيب الألفاظ التي جمعوها، وإن كانوا قد قسّموها عموما إلى موضوعات جزئية تتفرّع من الموضوع العامّ. ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل اللغوية علي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ/805م) الذي ينسب إليه « معاني القرآن » و« المصادر » و« الحروف » و« ما تلحن فيه العامّة »، وأبو عمرو الشيباني (ت206هـ/821م) الذي ينسب إليه « الحروف » و« غريب الحديث » و« النحلة »، و« الإبل » و« الخيل » و« النوادر » و« خلق الإنسان »، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت 209هـ/824 م) الذي ينسب إليه « ما تلحن فيه العامّة » و« الإنسان » و« الزرع » و« الشوارد » و« معاني القرآن » و« غريب الحديث »، والأصمعي (ت 216هـ 831م) الذي ينسب إليه « غريب الحديث » و« الإبل « و« الأضداد » و« النحل » و« الإنسان » و« المترادف » و« النبات » و« الخيل »... الخ.

وإنّ أهمية الرسائل اللغوية تتمثل أساسا في أنها كانت الخطوة الأولى التي مهّدت لظهور القواميس بل كانت المادة الأساسية التي اعتمدها القاموسيون العرب الكبار في القرن الرابع الهجري وما بعده. وإذا عرفنا أنّ القواميس اللغوية العربية الحديثة التي بدأ تأليفها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتواصل إلى ستينات القرن العشرين مع « المعجم الوسيط » لمجمع

1) أحمد الشرقاوي إقبال : المرجع المذكور سابقا،المقدّمة، ص : ز– ح.

2) انظر مثلا :

كامل محمد أبو سنينة : « لغة الاحتجاج » ، أطلس للدراسات اللغوية (مجلّة)، مركز أطلس العالمي للدراسات والأبحاث بعمّان (الأردن)، المجلد الثاني، العدد الثاني، حزيران 2001، ص44.

اللغة العربية بالقاهرة، بل إنه لا يزال متواصلا إلى يومنا هذا، قد اعتمدت اعتمادا يكاد يكون كليا على معاجمنا التراثية ـ مثل لسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي (ت 817 هـ/ 1415 م) ـ أدركنا سرّ غلبة نزعة البداوة والمحافظة والتقليد على قاموسنا اللغوي العربي الحديث ولاتاريخيّته، ممّا جعل تأليف قاموس عربي عصري جمعا (مادة) ووضعا (عرضا) مطلبا قوميّا ملحّا.

2.1.3. كتاب العين للخليل بن أحمد

لئن كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ/ 786 م) قد ألّف قاموسه المشهور « كتاب العين » أثناء مرحلة تأليف الرسائل اللغوية، فإن قاموسه هذا قد جاء متميّزا عن تلك الرسائل حجما ووضعا. وقد كان الخليل ـ ويصفه البعض بـ « أذكى العرب » ـ رياضيا وعروضيّا وموسيقيا ونحويّا وقاموسيّا في آن واحد، وقد أوتي من النباهة والذكاء ما جعل إنجازه القاموسي إنجازا عظيما فريدا غير مسبوق. وقد أعمل الخليل فكره « في جمع ألفاظ اللغة بطريقة حاصرة، تقوم على الحساب العقلي، حتى لاتشذّ عنه كلمة، أو تندّ عنه لفظة ، فضلا على درء مظنّة تسرّب لفظة غير عربية إلى الألفاظ العربية التي أنشأ كتابه من أجلها، ومن ثمّ فقد ابتكر نظام التقليبات »[1]. كما عمد الخليل إلى التزام نظام آخر محكم لا يتسرّب من خلاله خطأ، ولا يقع معه سهو أو تكرار، وهو تقسيم الكتاب إلى أبواب بحسب كمية اللفظة من الحروف، فبدأ بالثنائي في الألفاظ، ثمّ الثلاثي، ثم الرباعي، ثمّ الخماسي.

والمقصود بـ « التقليب » عند الخليل هو تقديم الحرف في الكلمة مرة وتأخيره أخرى بحيث يحصل من الثنائي على صورتين، ومن الثلاثي على ست، ومن الرباعي على أربع وعشرين صورة أو تقليبا، ومن الخماسي على مائة وعشرين صورة حاصلة من تقاليبه. وقد ذكر الخليل أن مبلغ عدد الأبنية في كلام العرب « اثنا عشر ألفا وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعمائة واثنا عشر » أي ما يزيد على اثني عشر مليون لفظ، على أنّ هذه الألفاظ جلّها « مهمل » وقليلها « مستعمل ».

إنّ الخليل بن أحمد هو رائد التأليف القاموسي العربي بلا منازع، وهو « لم يسبق إلى هذا النوع من التأليف وإنما كان هو الفارس المعلّى في هذا المضمار، واللغويون كلّهم له تبع »[2]. ولا ريب أن منهج الخليل قد كان بمثابة « برمجية حاسوبية » عصرية قادرة على الإحاطة بكلّ ألفاظ اللغة، الموجود منها بالفعل (المستعمل والموجود بالقوة (المهمل).

---

1) د. صلاح راوي : المدارس المعجميّة العربية : نشأتها ـ تطوّرها ـ مناهجها، دار الثقافة العربية، القاهرة 1990، (279 ص) ، ص 72.

2) المرجع نفسه، ص 90.

والخلاصة بالنسبة إلى هذه المرحلة الأولى ـ مرحلة الرسائل اللغوية وكتاب العين ـ أنّها كانت مرحلة التأسيس الفعلي للقاموس العربي . ومن الصعب فهم معضلات القاموس اللغوي العربي إنْ لم ندرك حقيقة هذه المرحلة التي انبنت عليها المراحل اللاحقة بما فيها المرحلة الحالية .

2.3 المدارس القاموسية العربية القديمة

حاول الدارسون إدراج القواميس اللغوية العربية الكثيرة التي ألفها اللغويون العرب والمستعربون منذ « كتاب العين » للخليل في مجموعات رئيسية متشابهة اعتبروها تمثّل « مدارس قاموسيّة » . وإنّ ما يجمع بين القواميس المنتمية إلى « المدرسة » الواحدة هو، أساسا، ما بينها من تماثل أو تشابه في « الوضع » ـ حسب مفهوم ابن منظور ـ لا « الجمع » . فحسين نصّار يميّز بين أربع مدارس أولاها المدرسة التي يسميّها غيره « مدرسة التقليبات »، وتتألف خاصّة من « العين » للخليل و« البارع » لأبي علي القالي (ت 356 هـ/967) و« المحكم » لابن سيده (ت 1066 / 458م) ؛ وثانيتها المدرسة التي تمسكت بالترتيب الألفبائي وأهملت ترتيب الحروف على المخارج لكنها تمسكت بنظام الأبنية الخليلي ، وتضمّ « الجمهرة » لابن دريد (ت 321هـ/ 933م) و« مقاييس اللغة » و« المجمل » لابن فارس (ت 395هـ/1004م) ؛ وثالثتها المدرسة التي يسميها غيره « مدرسة القافية » لأنها ترتب المداخل بحسب الحرف الأخير، وتضمّ « كتاب الصحاح » للجوهري (ت 393 هـ / 1003م) و« العباب » للصاغاني (ت 1252 / 650م) و« لسان العرب » لابن منظور و« القاموس المحيط » للفيروزآبادي؛ والمدرسة الرابعة هي التي سمّاها غيره « مدرسة الأبجدية العربية »،ويمثلها « أساس البلاغة » للزمخشري (ت 538 هـ/1144م)، وقد اعتمدت ترتيب حروف المعجم تبعا لحرف الكلمة الأوّل مع طرح نظام الأبنية والمقلوبات .

وقسّم الدكتور عدنان الخطيب المدارس القاموسيّة إلى خمس، إذ أضاف مدرسة اعتمدت الموضوعات ومعاني الكلمات دون الالتفات إلى حروفها، ويمثلها « الغريب المصنّف »، لابن سلاّم (ت 224هـ/ 838م) و« الألفاظ » لابن السكيت (ت 244هـ / 858م) و «المخصص » لابن سيده[1] . ويلاحظ من استعراض القواميس الكثيرة التي تضمّها هذه المدارس الأربع أو الخمس أن تأليفها ـ وخاصة في القرن الرابع الذي هو بحق قرْن القواميس الكبيرة الجامعة ـ قد كان الغرض منه تحقيق أمرين أساسيْن هما « التزام الصحيح من الألفاظ، وتيسير البحث عن الموادّ »[2] . وهذه الألفاظ الصحيحة هي الألفاظ البدوية الأعرابية في المقام الأوّل والتي كان رواة اللغة قد جمعوها في القرنين الثاني والثالث كما مرّ، ورحلوا إلى البادية بحثا عنها لفصاحتها وبعد متكلميها عن العجمة واللحن. وإنّ ما أضافه اللاحقون إلى ما دوّنه السابقون من القاموسيين يعدّ، في الغالب،

1) د. عدنان الخطيب : المرجع المذكور سابقا، ص 45 .

2) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 486 .

محدودا ؛ لذلك غلبت على المعاجم التقليدية التراثية ظاهرة التقليد والتكرار، وهي ظاهرة تواصلت في قواميس القرنين التاسع عشر والعشرين .وبناء على ذلك فإنّ قواميسنا اللغوية التراثيّة لم تتضمّن من الألفاظ الحضارية التي عرفها العصر العباسي وغيره من عصور الحضارة العربية الإسلامية مشرقا ومغربا وزخرت بها كتب الأدب والتاريخ والجغرافيا والحسبة والفقه والفلسفة والعلوم المادية إلاّ القليل النادر. وقد وضّحت مقدّمة «لسان العرب» لابن منظور منهج القاموسية العربية القديمة القائم على النقل عن السابقين من القاموسيين [1] والاقتصار على مدوّنة محدودة من حيث المصادر والموضوعات والمكان والزمان، ممّا حرم القاموس العربي من ثروة لفظية واقعية حيّة دالّة على حيوية اللغة العربية وتفاعلها مع الواقع الحضاري المتغيّر.

وقد انبرى الدارسون، منذ القديم، لنقد القواميس اللغوية العربية وتتبّع سقطاتها والاستدراك عليها، ومن أشهر هؤلاء في عصر النهضة الحديثة أحمد فارس الشدياق مؤلّف « الجاسوس على القاموس» الذي نقد فيه « القاموس المحيط» للفيروزآبادي خاصّة والقاموس العربي عامّة. وقد تناول هذا النقد ركني القاموس وهما الجمع والوضع كما سبق أن بيّنا. ويرى الدكتور حسين نصّار أنّ « عيوب المعاجم القديمة» [2] تتمثل خاصة في كثرة التصحيف وما يتصل به من وضع وانتحال، وعدم تمثل المؤلّفين للغرض من القاموس إذ أرادوا أن يجمعوا اللغة بواضحها وغريبها ونادرها ولغاتها (لهجاتها) وأن يجمعوا معها معارف العرب وجوانب مختلفة من الثقافة العربية « حتى أصبحت معاجمنا كبرج بابل» حسب عبارته. كما تتمثل هذه العيوب في القصور، إذ رغم ما في القواميس من حشو فإنه ليس منها ما هو جامع لكلّ كلام العرب، وأغلبها يرجع إلى لهجات ويهمل أخرى كما يهمل المولّد. وتتمثل العيوب أيضا في اضطراب الترتيب وتعقّده غالبا، وكذلك في قصور العرض وإبهامه وسوء التفسير وتقليد اللاحقين لشروح السابقين وأمثلتهم وشواهدهم...

1) يقول ابن منظور : «فجمعت منها (أي الأصول الخمسة) في هذاالكتاب ما تفرّق، وقرنت بين ماغرّب منها وبين ما شرّق، فانتظم شمل تلك الأصول كلّها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولائك بمنزلة الفروع (...) وأنا مع ذلك لا أدّعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت، أو فعلت أو صنعت، أو شددت أو رحلت، أو نقلت عن العرب العرباء أو حملت (...) وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها، سوى أني جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم ،وبسطت القول ولم أشبع باليسير ...».
أما الكتب الخمسة التي جمع منها ابن منظور مادة قاموسه فهي تهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده والصحاح لللجوهري وحواشي ابن برّي والنهاية لابن الأثير.

2) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 747-759.
وانظر حول عيوب القواميس العربية وخاصّة على مستوى مادتها المصطلحيّة :
مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية في اللغة العربيّة في القديم والحديث، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، 1988(218ص)، ص 33-40.

4. التجربة القاموسية العربية الحديثة

1.4 الطباعة وإحياء القاموس العربي في القرن التاسع عشر

كانت الطباعة في البلدان العربية من آثار الاتصال بالمدنية الغربية. وقد أدّت الطباعة دورا تنويريا عظيما وأسهمت إسهاما كبيرا في تجديد الثقافة العربية وإحياء تراثها الزاخر ومنه التراث القاموسي. وقد احتاجت النهضة اللغوية والأدبية إلى الاستعانة بالقواميس للتمكن من إحياء اللغة وآدابها، فـ« اعتمد الناس في بادئ الأمر على المعجمات القديمة، وقام البعض بإعادة طبع المعروف منها وبطبع ما كان مخطوطا، لتسيهل تداولها بين الناس »[1]. وهكذا طبع خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر عدد مهمّ من القواميس العربية الكبيرة منها « تاج اللغة وصحاح العربية » للجوهري (1865م) و« مختار الصّحاح » للرّازي (1870) و« القاموس المحيط » للفيروزآبادي (1872 م) و« المصباح المنير » للفيّومي (1876) و« لسان العرب » لابن منظور و« أساس البلاغة » للزمخشري (1882) و« تاج العروس » للزبيدي (1889) إلخ...

وقام بعض اللغويين بإعادة ترتيب بعض القواميس القديمة على حروف هجاء أوائل الكلمات بقصد تسهيل الرجوع إليها، وتشجيع طلاب المدارس على استعمالها. وقد ساعد نشر هذه القواميس على قيام حركة نقد نشيطة للقاموس العربي القديم كان من أعلامها أحمد فارس الشدياق كما أشرنا، وكذلك العلامة أحمد تيمور الذي تتبع أوهام وأغلاط لسان العرب والقاموس المحيط[2].

2.4 الاستشراق الأوربي والقاموس العربي

اهتمت الحركة الاستشراقيّة الأوربية في القرن التاسع عشر بالقاموس العربي اهتماما كبيرا، وكان ذلك على مستوى الكشف والتحقيق والنشر والدراسة والتأليف. وعلى سبيل المثال، نشر ماتيو لمسدن (ت 1835) الإنجليزي « القاموس المحيط » بكلكتا سنة 1817 م في جزئين مع مقدّمة بالإنجليزية وترجمة لصاحبه بالعربية، وألّف الإنجليزي إدوار وليام لين (ت 1876) قاموسا كبيرا عربيا ـ انجليزيا هو « مدّ القاموس » في ثمانية أجزاء، وألف رينهارت دوزي (ت 1883) الهولندي قاموسا لما فات القواميس العربية سمّاه « تكملة القواميس العربية »، وقد طبع في ليدن سنة 1881[3]. ومن أهمّ فوائد الاستشراق القاموسي الكشف عن كلمات عربية كثيرة أهملتها قواميسنا القديمة بحجّة عدم توفّر معايير الفصاحة فيها.

1) د.عدنان الخطيب: المرجع المذكور سابقا، ص 47.

2) المرجع نفسه، ص51.

3) انظر مثلا: أحمد الشرقاوي إقبال: المرجع المذكور سابقا، المقدّمة، ص:ب ـد.

3.4 المدرسة القاموسية اللبنانية إلى مطلع القرن العشرين

كان من نتائج النهضة التي عرفها لبنان في القرن التاسع عشر نشوء « حركة لغوية واسعة، شارك فيها عدد من اللبنانيين فأسهموا إلى حدّ كبير في بعث اللغة العربية وإحيائها من جديد »[1]. وقد اهتمّ روّاد النهضة اللغوية بجوانب ثلاثة رئيسية هي إحياء اللغة والتراث العربيين، ونقد القواميس القديمة، وتأليف القواميس الحديثة.

وفي مجال التأليف، أخرجت المطبعة العربية سنة 1869 قاموسا جديدا في جزئين وضعه المعلّم بطرس البستاني وأسماه « محيط المحيط »، التزم فيه عبارة القاموس المحيط » مع شيء من التصرّف والتهذيب، ورتبه على حروف الهجاء بحسب أوائل الكلمات، ولما وجد قاموسه هذا مطوّلا بالنسبة إلى طلاّب المدارس عمد إلى اختصاره في جزء واحد وأطلق على المختصر اسم « قطر المحيط »[2].

وفي سنة 1889 ألف سعيد الخوري الشرتوني للطلاب أيضا قاموسه المشهور « أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد »، اعتمد فيه على أمهات القواميس وإن كانت عبارة القاموس المحيط فيه أغلب[3]. ويعدّ قاموس الشرتوني أكثر انتظاما من محيط البستاني وأجود وضعا.

وفي سنة 1908 أخرج الأب لويس المعلوف قاموسه « المنجد »، وقد اختصر فيه « محيط المحيط » للبستاني الذي هو نفسه تهذيب لـ« القاموس المحيط ». ويرى بعض الباحثين أنّ « المنجد » يعتبر، إلى اليوم، خير معجم مدرسي للعربية في ترتيبه وإخراجه »[4].

وقد تتالى صدور القواميس التي ألفها اللبنانيون في النصف الأوّل من القرن العشرين، ومن أشهرها « البستان » لعبد الله البستاني (1930 م) و« متن اللغة » لأحمد رضا (1958) وغيرهما... ومن أبرز الخصائص التي تشترك فيها قواميس اللبنانيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أنّ مؤلّفيها قد وضعوها للتلاميذ والطلبة في المقام الأول، في حين أن القواميس قبلهم كانت تؤلّف للعلماء والمتبحرين في اللغة والعلم. ومن تلك الخصائص الانتظام الواضح في ترتيبها، وتخلّصها من كثير من المعلومات غير اللغوية التي كانت تثقل القاموس العربي، واغتناؤها بالمصطلحات العلمية... الخ، إلاّ أن هذا التطوير محدود وخاصة على مستوى الجمع، لأنّ مادّتها لا تزيد كثيرا على ما في « القاموس المحيط » بالخصوص.

---

1) حكمت كشلي : المعجم العربي في لبنان، دار ابن خلدون، بيروت 1982 (344ص)، ص35–36.

2) انظر حول بطرس البستاني وجهوده اللغوية والقاموسيّة :

أ.–حكمت كشلي : المرجع المذكور سابقا، ص 114–123.

ب.د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 711–716.

ج.جمعيّة المعجميّة العربيّة بتونس: في العجميّة العربيّة المعاصرة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، (669ص)، ص 305–357.

3) انظر حول قاموس الشرتوني :

أ.– حكمت كشلي : المرجع المذكور سابقا، ص 130–137.

ب.–د.حسين نصّار المرجع المذكور سابقا، ص 716–722.

ج.أحمد طه حسانين سلطان : نظرات نقدية في محيط المحيط للبستاني، القاهرة 1998، 119ص.

4) د.عدنان الخطيب : المرجع المذكور سابقا، ص 53.

4.4 المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

كان من الأغراض التي أنشىء من أجلها مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932 « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدّمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدّد في معاجم أو تفاسير خاصّة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنّبه من الألفاظ والتراكيب »[1]. وقد حقّق المجمع إنجازات مصطلحية وقاموسية عديدة منها « المعجم الوسيط » الذي أصدره في جزئين سنتي 1960 و 1961 بناء على طلب تقدّمت به وزارة المعارف المصرية في سنة 1936 ويتضمّن أن « يسعف (المجمع) العالم العربي بمعجم على خير نمط حديث، بحيث لا يقلّ في نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية، فيجيء محكم الترتيب، واضح الأسلوب، سهل التناول، مشتملا على صور لكل ما يحتاج شرحه إلى تصوير، وعلى مصطلحات العلوم والفنون، وبذا ينتفع به طلاّب العلم، وييسّر عليهم تحصيل اللغة، وشاءت الوزارة أيضا أن يضاف إليه ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن، وكأنها كانت تصوّب إلى شيء شبيه بالمعجم الفرنسي المعروف باسم « لاروس الصغير » [2]. وقد أصدر المجمع في دورته الثالثة قراره بـ « وضع معجم لغوي وسيط » هو التالي : « نظرا إلى حاجة طلاب التعليم الثانوي، ومن في مرتبتهم، وجمهرة المثقفين من أبناء اللغة العربية إلى معجم وسيط، سهل التناول، ميسّر الترتيب، مصوّر، بحيث يتناول من المصطلحات العلمية الصحيحة ما يتعلق بالأسباب الدائرة بين الناس، يقرّر المجمع الشروع في اتخاذ الأسباب للقيام بهذا العمل . . . »[3].

وهكذا فإننا نلاحظ أن المجمع، منذ البداية، لم يتقيّد بالهدف الذي حدّدته وزارة المعارف في طلبها المذكور سابقا، إذ أراد « ألا يقصر المعجم الوسيط على طلاّب التعليم الثانوي ومن في مرتبتهم من المثقفين فرأى أن يسمو به حتى يجعله « مرجعا وافيا للكاتب والدارس المثقّف » فيكون المجمع « قد خرج على هدفه الأول المؤلّف له »[4] حسب تعبير حسين نصّار، إذ الوسيط معجم كبير قد يفوق القاموس المحيط للفيروزآبادي، وهو من أشمل معاجمنا فليس هو إذن للطلبة أو من في مستواهم »[5]. وقد نال « المعجم الوسيط » من الشهرة والانتشار ما لم تنله القواميس الأخرى باستثناء « المنجد » للويس المعلوف. ولاشك أنّ لصدوره عن مؤسّسة لغوية

---

1) مجمع اللغة العربيّة : « مرسوم بإنشاء مجمع ملكي للغة العربيّة »، مجلّة المجمع، ج1، أكتوبر 1934، ص6.

2) مجمع اللغة العربيّة : المعجم الوسيط، ط3، القاهرة 1985، تصدير الطبعة الأولى، ص 10.

3) مجمع اللغة العربيّة : مجموعة القرارات العلميّة في خمسين عاما، القاهرة 1984، (326ص)، ص 222.

4) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 742.

5) الموضع نفسه.

وعلمية ذات بعد وإشعاع عربيين دورا كبيرا في ذلك. أما عن هذا القاموس في حد ذاته فإنّه، على مستوى الوضع وبالذات الترتيب، قد جاء» على قسط كبير من التنظيم والتيسير يفوق فيهما مدرسة اليسوعيّين التي تأثّر بمنهجها»[1]. وأمّا على مستوى الجمع فإنّ ملاحظاتنا على هذا القاموس كثيرة جدّا، ونوجزها في نقطتين اثنتين هما : الإفراط في تضمين القاموس الألفاظ العربية التراثية البدوية الأعرابية، من النوع الذي نجده في الرسائل اللغوية في القرنين الثاني والثالث للهجرة وفي القواميس القديمة، وكذلك الإفراط في إيراد البدائل الصرفية واللهجية للصيغة الواحدة دونما سعي إلى التنميط والتقييس والتفريط في الكثير من الألفاظ والمعاني المستحدثة التي ظهرت في القرن العشرين وحتى قبله سواء في عصر نهضتنا العربية الحديثة في القرن التاسع عشر أو إبّان عصور ازدهار الحضارة العربيّة الإسلامية في المشرق والمغرب. وإنّ كثيرا مما كتب عن «المعجم الوسيط» تمجيدا له وإشادة بما فيه من تجديد وما يتّصف به من حداثة، لم يعتمد متن هذا القاموس ولم ينقده من داخله، وإنّما صدّق ـ عن حسن نيّة ـ ما حفلت به مقدّماته العديدة من إطراء مبالغ فيه ورضًى عن الذات قد يكون ضرره أكبر من نفعه. ويكفي أن نعود إلى أي صفحة من صفحات هذا القاموس لنتبين مدى ما حشي به من ألفاظ حوشية بدوية غريبة متروكة[2] وخلوّه من ألفاظ حديثة ومعان جديدة استقرّت في الاستعمال الصحيح والمكتوب منذ عقود وأصبحت جزءا لا يتجزأ من لغتنا الضادية[3]، ممّا يقتضي تضمينها القاموس ليعكس تطوّر اللغة وحيويتها.

والخلاصة أنّ «المعجم الوسيط» على الرغم من بعض التجديد الذي يتّصف به على مستويي الجمع والوضع، ينطبق عليه ما قاله الأمير مصطفى الشهابي من «أنّ المعاجم العربية الحديثة (كمحيط المحيط وأقرب الموارد والبستان والمنجد وغيرها) ليست إلا صورة صغيرة مشذّبة للمعاجم القديمة (...) وتكاد سهولة المراجعة فيها تكوّن أهمّ ما لها من فائدة»[4].

---

1) د.حسين نصّار : المرجع المذكور سابقا، ص 741.

2) نقترح استعراض محتوى الصفحة 44 من الجزء الأول من الطبعة الثالثة (القاهرة 1985)، وفي هذه الصفحة نجد مداخل أصلية وفرعية كثيرة حوشيّة غريبة لا علاقة لها بلغة العصر وقد لا تهمّ إلاّ بعض الأدباء والباحثين. ومثال ذلك: بَدَحَ ،بَدَّ، أَبَدَّ، بادَّ، ابتدَّ، تبادَّ ،الأبدُّـ بَدادِ، البِدادُ، البُداد، البدُّ، البِدُّ ، البَدَّة، البُدَّة، البِدَّة، البَديد، البدَرى، البَدْرَة، البُدرَة...

3) من البحوث الجيّدة التي أبرزت خلوّ «المعجم الوسيط» وغيره من قواميسنا الحديثة من الألفاظ العصريّة والمعاني المستحدثة نشير إلى ما يلي على سبيل المثال :

أ. أحمد شفيق الخطيب : «من قضايا المعجميّة العربيّة المعاصرة»، في : جمعية المعجميّة العربيّة بتونس : المرجع المذكور سابقا، ص 597–636.

ب .–د.وفاء فايد كامل : «بعض مظاهر تغيّر الصيغ الصرفيّة في العربية المعاصرة»، في بحوث الندوة الدولية للمعاجم اللغوية والمختصّة (الكويت 14–17 مارس 1999)، الكويت 2000(250ص+95ص) ص181–235.

4) مصطفى الشهابي : المرجع المذكور سابقا، ص 40.

5.4 القاموس اللغوي العربي ما بعد الوسيط

صدرت من « المعجم الوسيط » ، خلال حوالي نصف قرن، أربع طبعات جاءت الطبعة الأخيرة منها (عام 2003) دون تنقيح أو إضافة، إذ « هي نفسها الطبعة الثالثة للمعجم في ثوبها الجديد، وبدون ريب زوّدته لجانه في الطبعات الثلاث السابقة بزاد لغوي وافر، مما جعله يخطو إلى الكمال خطوات مهمّة »!! على حدّ تعبير المرحوم الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع[1]. وإنّ صدور طبعة جديدة بعد حوالي العشرين سنة من سابقتها دون أي تجديد يدخل عليها، دليل على ما تعانيه القاموسية العربية الحديثة من تقليد وجمود. وعلى الرغم من المآخذ العديدة التي وجهت إلى « المعجم الوسيط » وخاصّة على مستوى الجمع[2]، فإنّه لا مناص من الإقرار بما حظي به من استحسان وترحيب من المثقفين وبأثره الكبير في جلّ القواميس التي ألّفت بعده مشرقا ومغربا، بل إنّ هذه القواميس الجديدة تكاد تكون كلّها عالة عليه وصورة منه، وهو ما تثبته المقارنة الدقيقة.

ومن أهمّ القواميس اللغوية التي ظهرت بالوطن العربي بعد « المعجم الوسيط » القاموس الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1989 وعنوانه « المعجم العربي الأساسي »[3]. ومن مميّزاته عنايته بالألفاظ والمعاني المستحدثة والتعابير الاصطلاحية وألفاظ الحضارة والمصطلحات العلمية.

ومن أهم هذه القواميس أيضا، بل لعلّه أهمّها إلى حد الآن، « المنجد في اللغة العربية المعاصرة »[4] الذي صدر عن دار المشرق سنة 2000. ويعدّ هذا القاموس تطويرا لـ « المنجد » الذي ألّفه الأب لويس معلوف اليسوعي منذ قرن والذي نال من الشهرة ما جعل اسمه مرادفا لمصطلح « معجم » أو « قاموس ». ومن أهم مميّزات هذا القاموس تفتحه على اللغة العربية الحيّة المعاصرة، وشرحه لمداخله شرحا عصريّا كمثل الذي نجده في القواميس الفرنسية والانجليزية.

ومن الجهود الجديرة بالتنويه والتقدير ما ألّفه الأشقاء السعوديون وفي مقدّمتهم الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل صالح وزملاؤه. ونشير هنا إلى « معجم الطلاب ـ معجم سياقي للكلمات الشائعة » لمحمود إسماعيل صيني وحيمور حسن يوسف، وهو أوّل قاموس يعتمد السياق في تحديد معاني الألفاظ، ويتدرّج في عرضه لتلك المعاني من المحسوس إلى المجرّد، كما أنّه

---

1) مجمع اللغة العربيّة : المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدوليّة، القاهرة 2003(1067ص)، ص8.

2) انظر مثلا : د.عدنان الخطيب، المرجع المذكور سابقا، ص 56.

3) المنظمّة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم : المعجم العربيّ الأساسي، تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العربي، لاروس، باريس 1989، 1347ص.

وانظر حول ما كتب عنه في :

أ. –د.عبد العزيز مطر: في نقد المعاجم والموسوعات، دار المعارف، القاهرة 1992 (141ص)، ص51–90.

ب. – د.مصطفى الغماري : ملاحظات على المعجم العربي الأساسي، الجزائر 2000، 176ص.

4) أنطوان نعمه وآخرون (محرّرون) : المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط2، دار المشرق، بيروت 2001، 1641ص.

يعدّ أوّل محاولة قاموسية تهدف إلى خدمة دارسي العربية من غير العرب. وقد تمّ اختيار مفرداته بناء على دراسات إحصائية[1].

ومن أهمّ الإنجازات القاموسية العربية في الفترة المدروسة « الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي »[2] الذي ألّفته « اللجنة الدائمة للرصيد اللغوي » لدول المغرب العربي ونشرته سنة 1976. وهذا العمل القاموسي قد انبنى على بحوث لغوية ميدانية، وتضمّن الألفاظ المستعملة المتواترة المكوّنة للرصيد المعجمي الحيّ.

وقد كان لمستعربي القرن العشرين إسهام مهمّ في تطوير القاموسية العربية والقاموسية الثنائية اللغة: العربية - الأجنبية، وذلك بفضل اعتمادهم في بعض ما ألفوه من قواميس على مدوّنات نصيّة حديثة، وبذلك ساروا في النهج الذي كان قد اختطه مستشرقو القرن التاسع عشر مثل لين مؤلّف « مدّ القاموس » ودوزي مؤلّف « تكملة القواميس ». وفي هذا السياق أشير بالذات إلى « معجم اللغة العربية المعاصرة » العربي - الانجليزي لهانزفير[3].

وفي العقود الثلاثة الأخيرة صدرت قواميس عديدة متوسّطة ووجيزة وأخرى للأطفال في مختلف البلدان العربية، وأصبح القاموس من الاهتمامات الكبيرة لدور النشر، إلاّ أنّ الجيّد من هذه القواميس قليل نادر، ولا يندر أن نعثر في كل صفحة منها بل في كلّ سطر أحيانا على تصحيف أو خطأ لغوي فادح أو قصور في الشرح والتعريف والاستشهاد[4]، إضافة إلى أنّها غالبا ما تكون صورا مستنسخة مصغرة من « المعجم الوسيط ».

6.4 القاموس اللغوي العربي والمعلوماتية

كان من نتائج ازدهار اللسانيات وظهور المعلوماتية في العقود الأخيرة وحصول التفاعل بين هذين العلمين أن نشط الاهتمام بحثا وإنجازا بالمعالجة الآلية للغة عامّة ولمعجمها خاصّة. وقد أثمر هذا التفاعل في الغرب قواميس لغوية عديدة اعتمد مؤلّفوها مدوّنة نصيّة واسعة تقدّر بملايين الصفحات أحيانا، مثلما يتضح من التجربة الفرنسية والتجربة الانجليزية. وهذه المدوّنة تختار بناء على معايير تأخذ في الاعتبار الأبعاد الزمانية والمكانية والموضوعاتية وغيرها لتكون ممثلة للغة المعنيّة.

---

1) محمود إسماعيل صيني وحيمور حسن يوسف : معجم الطلاب - معجم سياقي للكلمات الشائعة، مكتبة لبنان، بيروت 1991، 280ص.

2) اللجنة الدائمة للرّصيد اللغوي : الرصيد اللغوي الوظيفي للمرحلة الأولى من التعليم الابتدائي، تونس 1976،171+167ص.

3) هانز فير : معجم اللغة العربية المعاصرة، عربي - أنكليزي، وضع ج، ميلتون كوان، ط3، مكتبة لبنان، بيروت 1980، 1110ص وكانت الطبعة الأولى لهذا القاموس قد صدرت بألمانيا سنة 1961.

4) من القواميس العربيّة الرائحة في بعض أقطار المغرب العربي بالخصوص والمحشوّة أخطاء من جميع الأصناف القاموس التالي :
الجيلاني بن الحاج يحيى وزميلاه : القاموس الجديد الألفبائي، الطبعة العاشرة، الأطلسيّة للنشر بتونس والأهليّة للنشر والتوزيع ببيروت، 1977، 1062ص +32ص.
وانظر في هذا القاموس الصفحة 17 على سبيل المثال حيث تعترض المراجع كلّ أصناف الأخطاء.

وفي الوطن العربي لا تزال المنجزات قليلة وإن كان الاهتمام بالموضوع قد بدأ منذ مطلع سبعينات القرن الماضي وخاصّة في مجال القواميس المتخصّصة في إطار معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط (المغربي) ومدينة الملك عبد العزيز بالرياض (باسم) . . .

وقد حملت لنا السنة الماضية (2007) بشائر مشروع جدي عملي لقاموسين لغويين حاسوبيين شرعت مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية في وضعهما بالتعاون مع بعض دور النشر العربية ذات الخبرة العالية . والقاموس الأوّل هو « المعجم اللغوي للمرحلة الابتدائية » ، أما الثاني فهو » المعجم اللغوي للمرحلة الثانوية » . ويتمّ تأليف هذين القاموسين انطلاقا من مدوّنة نصيّة تتمثل، أساسا، في كلّ الكتب المدرسية المستخدمة في المرحلة الدراسية المعنية (الابتدائية، والثانوية) . وبالنسبة إلى قاموس المرحلة الثانوية، أظهر جرد كلّ الكتب المدرسية 21868 لفظا مفردا ومركّبا هي كلّ الألفاظ المستخدمة فيها والتي ستكون مداخل لهذا القاموس بعد إضافة ما يراه المؤلّفون من ألفاظ أساسية لم ترد في العيّنة. وستشرح المداخل بحسب معانيها في المدوّنة وليس بنقل الشروح من المعاجم السابقة نقلا حرفيا، كما أن الأمثلة والشواهد ستكون مستقاة من المدوّنة نفسها . ولا شكّ أنّ هذا القاموس سيكون ، عند صدوره، قاموسا للغة العربية المعاصرة كما يتعلمها التلاميذ ويتعلمون بها الأدب والعلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم المادية، ولن يكون استنساخا للقواميس السابقة بما فيها « المنجد » و« المعجم الوسيط » وغيرهما .

وإذا كان القاموسان السعوديان اللذان تنهض بهما مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ليسا قاموسين حاسوبين وإنما هما قاموسان ورقيّان ـ على الأقلّ في المرحلة الأولى ـ ألّفا بالاستعانة بالحاسوب ـ وهذا في حدّ ذاته إنجاز عظيم ـ، فإنّ « القاموس الحاسوبي للغة العربية » الذي نأمله هو القاموس الذي يستعين مؤلفوه بالحاسوب لبنائه، لكنّهم لا يقتصرون على ذلك وإنما يبنون برمجيات مساعدة لبناء المعجم ولتمكين المستفيد من استعماله بسهولة وكفاءة ولأغراض متعدّدة تتجاوز أغراض القاموس المدرسي التعليمي . وفي هذا الصدد أكتفي بالإشارة إلى الدراسة المتميّزة التي صدرت للأستاذ مروان البوّاب في العدد 33 من مجلّة « التعريب » الصادرة بدمشق سنة 2007، بعنوان « نحو معجم حاسوبي للغة العربية »، ففيها من الفهم الصحيح لموضوع القاموس الحاسوبي التفاعلي للغة العربية ومن الأسس العلمية اللسانية والحاسوبية والتفاصيل الإجرائية ما يصلح قاعدة سليمة بل ممتازة لوضع القاموس المأمول .

الخاتمة

يعدّ الإِنجاز القاموسي العربي القديم إنجازا عظيما رائدا علىِ مستويي الكم والكيف معا. وقد جعل اللغويون الأوائل من القاموس العربي قاموسا وصفيّا عَكَسَ واقع اللغة العربية وإن كانوا قد تقيّدوا في هذا الوصف بقيود زمانية ومكانية اقتضاها حرصهم على الفصاحة وسعيهم إلى تنقية اللغة من الدخيل. إلاّ أنّ القاموسية العربية في عصور ما بعد عصر الاحتجاج سرعان ما أصبحت نقلا عن السابقين إلا في ما ندر، وأهملت جلّ ما لم يرد في الرسائل اللغوية من مولّدات أنتجها تفاعل اللغة مع المتغيّرات الحضارية، فأصابها الجمود وأصبحت لاتاريخية، ثمّ جاء عصر النهضة الحديثة فأعطى للقاموسية دفعا قويّا بإِحياء القواميس التراثية وتأليف قواميس جديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تكن، في الأغلب، سوى تشذيب لـ «القاموس المحيط» و«لسان العرب». ولم يطوّر القاموسيون المحدثون نظرتهم إلى الفصاحة، لذلك أحجموا مثل السابقين عن لغة المعاصرين، فلم تواكب قواميسنا التطوّر اللغوي الكبير الذي عرفته العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

إنّ معجم اللغة العربية الحديثة والمعاصرة - أي مجموع ألفاظها أو متنها اللغوي - معجم حي متجدّد متطوّر مواكب للحراك الذي يعرفه المجتمع العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر، وذلك على الرغم ممّا تتعرض له اللغة العربيّة من مزاحمة العاميّات وهيمنة اللغات الأجنبية. ويفترض أن يعكس القاموس العربي الحديث تطوّر اللغة العربيّة وتجدّد معجمها، وأن يكون مرآة صادقة لنهضتها وحيويتها ومواكبتها للحضارة المعاصرة في كلّ المجالات وفي كلّ أنحاء الوطن العربي.

ومن المفترض أن تتصف مادة القاموس العربي بالغزارة والشمول، والدقة والوثوقية، وجودة العرض والترتيب، فيودّي وظيفته الأساسية أداة تربوية وعلمية وثقافية لا غنى عنها للمتعلم والباحث والمثقف. إلاّ أنّ واقع القاموس العربي الحديث مخالف لما نفترضه، وذلك بسبب غلبة نزعة التقليد كما أشرنا، وبسبب نظرتنا إلى اللغة نظرة لاتاريخية.

وإذا كانت الاستعانة بالمعلوماتية في العمل القاموسي وفي استرجاع مختلف البيانات القاموسيّة بطرق تفاعلية أمرا متحتّما اليوم، فإِنّ محتوى القاموس اللغوي العربي نفسه يبقى أساس هذا القاموس التفاعلي، وبالتالي ينبغي إيلاؤه كامل العناية واستخلاصه من واقع اللغة العربية الفصيحة المعاصرة ليكون القاموس، عندئذ، آنيا لا زمانيا (تاريخيا)، وليصبح للعرب وللمتعاملين مع العربيّة من غير أهلها قاموس عصري لا في شكله فقط وإنما في محتواه أيضا وأساسا.

تجربة المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية
في الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى العربية
«العلوم الطبية»

د. محمد يعقوب الشراح (الكويت)

فكرة عن مضمون ومعنى الترجمة والتعريب

بدأ في السنوات الأخيرة اهتمام كبير بقضية الترجمة ونشطت الدعوة لعودتها إلى سابق نهضتها وازدهارها وذلك لما لمسه المشتغلون بالعلم والأدب والثقافة من أزمة حادة تحدق بهذا الرافد الحيوي من روافد المعرفة الإنسانية الذي طالما أدى دوراً بارزاً في نشر نور العلم وإعلاء منارة بما يتيحه من اتصال بمختلف الثقافات والتفاعل بينهما.

وبوصفه إطلالة حضاريه منيرة على آفاق رحبة من الفكر العالي الذي تتقافز خطواته في مدارج التقدم والرقي . كما يجب على كل مؤسسات الوطن العربي أن تهتم بالترجمة حتى تتم لغتنا بالحصيلة الجديدة التي تُضاف إلى مدخور تراثها وتصبح أقدر على تأدية رسالتها في عصر العلم والتقدم العلمي والتكنولوجي بفضل عملية التلاحم التي تضطلع بها الترجمة.

ويسعدنا أن نتناول جهود المركز في مجال الترجمة والعلوم الطبية. حيث يقوم المركز بإصدار الكتب الدراسية الطبية باللغة العربية ، وكذلك الأدوات التعليمية المصاحبة لها مثل المعاجم والأطالس الطبية، كما يقوم المركز بإصدار سلسلة من كتب الثقافة الصحية الموجهة لعموم المثقفين العرب، بالإضافة إلى مجلة « تعريب الطب » والتي تعتبر لسان حال المركز ومنبراً للدعوة إلى تعريب الطب، ويكتب فيها نخبة من الأطباء وأساتذة كليات الطب العرب.

– إنشاء المركز وأهدافه:

تم إنشاء مركز تعريب العلوم الصحية تحت اسم « المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية » عام 1980 كمنظمة عربية منبثقة عن مجلس وزراء الصحة العرب – جامعة الدول العربية، ومقرها الدائم دولة الكويت ويهدف المركز إلى:

1. تعريب التعليم الطبي والصحي في الجامعات العربية .
2. توفير الوسائل العلمية والعملية لتعليم الطب في الوطن العربي
3. تبادل الثقافات

4. دعم وتشجيع حركة التأليف والترجمة إلى اللغة العربية في مجالات العلوم الصحية.

– كما يقوم المركز بإصدار الدوريات والمطبوعات والأدوات الأساسية لبنية المعلومات الطبية العربية في الوطن العربي، وأيضاً إصدار الكتب الطبية باللغة العربية للثقافة الصحية.

– لماذا الترجمة؟ وما الهدف من إنشاء مركز التعريب؟

للترجمة أهمية كبرى إذ أنها نافذة فكرية ومدخلاً حضارياً نطل منه على فكر العالم من حولنا، أو يطل علينا ذلك الفكر من خلالها، بما يضمن لهويتنا العربية مزيداً من التواصل وعدم الانغلاق، كما يضمن لها المزيد من الصقل والانفتاح على كل ثقافات الآخر ومناهج فكره، ومواد إبداعه، وكذلك للترجمة أهمية كبرى في التعليم الجامعي كالطب، حيث يدرس طالب الطب الكتب الطبية باللغة العربية؛ وهذا مما يسهل على الطالب عمليتين التعليم والتحصيل، كما أن الهدف من إنشاء المركز أيضاً هو أن يقوم بتخطيط وإنشاء وتنفيذ السياسات العربية في المجالات الطبية المختلفة ورعاية حركة الترجمة والتعريب في هذه المجالات الطبية المختلفة ورعاية حركة الترجمة والتعريب في هذه المجالات، إضافة إلى تنمية ودفع الكفاءات الطبية العربية للتأليف في مجالاتهم بلغتهم القومية وتوفير التقنيات العربية وحصر التراث الطبي العربي ومتابعة جمع وتحديث الإنتاج الفكري العربي في المجالات الطبية، والدعوة إلى تطبيق البرامج التعليمية العربية في مجال الطب في الجامعات والمعاهد وحث الدول العربية على بناء أسس تعليمية عربية ومقررات عربية في مجالات الطب وحصر وجمع الإنتاج الفكري العربي الطبي بمختلف أشكاله وإنشاء قاعدة معلومات طبية عربية متطورة تمثل إطلاله على القرن الحادي والعشرين نظراً لأن نظم المعلومات الطبية برهنت على أن دورها في خدمة قضية التعريب الطبي هو دور أساسي وهام، إن لم يكن حيوي ومصيري كما تمثل مواكبة عربية طموحة للتطورات العلمية والتقنية الحديثة.

– خلاصة إنجازات المركز في مجالي التعريب والتأليف ومشاريع المعلومات:

لقد قام المركز بالعديد من الإنجازات في مجالي التعريب والتأليف ومشاريع المعلومات ومن إنجازات المركز مشروع المناهج الطبية (الكتب المنهجية المعربة) وفي هذا المجال قام المركز بدراسة وافية عن الكتب المنهجية باللغة العربية المطبقة في الجامعات السورية، وكذلك الكتب المنهجية الأجنبية المقُتَرح أن يقوم المركز بترجمتها، ثم اختيار عدد من الكتب المنهجية الأجنبية كما كان للمركز معاييره التي طبقها في اختيار الكتب المنهجية وهذه المعايير هي:

1. أن يكون الكتاب حديثاً

2. أن يكون شاملاً

3. أن يكون مُعتمداً للتدريس في إحدى كليات الطب العربية
4. سهولة عرض المعلومة الطبية
5. أن يكون مُزوداً قدر الإمكان بالصورة والأشكال التوضيحية
6. الاتفاق مع الناشر الأصلي للحصول على حقوق الترجمة إلى اللغة العربية

– كذلك كان للمركز معاييره المطبقة أيضاً في اختيار المترجمين المشاركين في المشروع فهذه المعايير والمقاييس تضمن سلامة الكتب المترجمة ورصانة الترجمة وبُعد المصطلحات عن الغرابة والضعف، وهذه المعايير هي :

1. أن يكون من الأطباء ذوي الخبرة في مجالات التأليف والترجمة.
2. أن يكون على مستوى جيد في اللغتين العربية والإنجليزية.
3. لديه دراية لا بأس بها بالطباعة على الحاسوب.
4. أن توزع الكتب للترجمة حسب الاختصاص بقدر المستطاع.
5. الخبرة السابقة مع المركز أو الجهات ذات العلاقة.
6. سرعة الإنجاز مع دقة العمل من الشروط الأساسية.
7. الالتزام بعقد الترجمة مع المركز، مع الالتزام بتنفيذ العمل خلال المدة المحددة للتعاقد.

وكذلك (سلسلة الموجزات الإرشادية) وقد أنجز المركز عشرين كتاباً تغطي التخصصات ومنها:

1. الأمراض التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي
2. الممارسة الطبية العامة
3. الطب المهني
4. التاريخ المرضي والفحص السريري
5. التخدير
6. الطب الشرعي
7. أمراض العين
8. طب التوليد

– ومن إنجازات المركز أيضاً (سلسلة الثقافة الصحية) وقد أصدر المركز تسعة عشر إصداراً ومن هذه الإصدارات :

1. الأسنان وصحة الأسنان
2. الدليل الموجز في الطب النفسي

3 . أمراض الجهاز الحركي

4 . الإمكانية الجنسية والعقم

5 . الدواء والإدمان

6 . الدليل الموجز في أمراض الصدر

– كذلك من إنجازات المركز (مجلة تعريب الطب) وهي مجلة ثقافية صحية تُعنى بأمور الطب ومن ملفات أعداد المجلة التي نُشِرت منذ عام 2000م :ــ

1 . العدد العاشر (المرأة بعد سن الأربعين)

2 . العدد الحادي عشر (السِّمنة : المشكلة والحل)

3 . العدد الثاني عشر (الجينوم : هذا المجهول)

ومنها أيضاً :– العدد الثامن عشر (أَنفلونزا الطيور)

– ومن إنجازات المركز (مشروع المعاجم الطبية) وهي تضم :

1 . المعاجم الطبية المتخصصة

2 . مشروع المعجم الطبي المفسر

– فمن المعاجم الطبية المتخصصة :

1 . معجم الاختصارات الطبية

2 . معجم مصطلحات الأشعة والأورام

3 . معجم مصطلحات الطب النفسي

4 . معجم مصطلحات أمراض النساء والتوليد

مشروع المعجم الطبي المفسر: وهو يحتوي على أكثر من مئة وخمسين ألف مصطلح وسوف يصدر في الشكل المطبوع وعلى أقراص مدمجة CDS .

وقد تم الانتهاء من حرف (A) كاملاً وتم إصداره على أقراص مدمجة، كما تم نشره على موقع المركز على شبكة الإنترنت وإتاحته للبحث المباشر من قِبَل زوار الموقع.

– كما قام المركز بإصدار عدد من الأطالس الطبية العربية هذه الأطالس هي :–

1 . أطلس أمراض العيون في الدول العربية

2 . أطلس الأمراض الجلدية

3 . أطلس علم الأنسجة (الهستولوجيا)

4 . أطلس أمراض الفم والأسنان

– وكذلك من إنجازات المركز(الشبكة العربية للمعلومات الطبية) .
وقد تـم افتتاح هذه الشبكة من خلال موقع المركز على شبكة الإنترنت www.acmls.org
وتتمثل أهمية الشبكة العربية للمعلومات الطبية فيما يلي :–
1 . تحديث بيانات صفحة إصدارات المركز من الكتب مع إضافة مختصر لكل كتاب
2 . النشر الإلكتروني لجميع أعداد « مجلة تعريب الطب » التي يصدرها المركز
3 . الإطلاع على الكتب الطبية والبحث المباشر في قواعد بيانات المعاجم الطبية
4 . مشـروع « دليـل المؤسسات التعليمية والبحثية الطبية في الوطن العربي »
5 . مشروع « دليل الأطباء المهتمين بالتعريب »
حيث يتم إنتاج إصدارات المركز على أقراص مدمجة CDS .

– لماذا بناء مناهج طبية للكليات ؟

الجامعات هي أهم مؤسسات التعريب ، وأكثرها فاعلية ، لأنها هي المسئولة عند حمل حضارة الأمة ونقلها وتطويرها، والإسهام في الثقافة العالمية وإنجازاتها العلمية والثقافية، لأنها الأقدر على مواجهة مستلزمات التعريب ومتطلباته من مصطلحات ومعاجم ومراجع علمية . إن تعريب التعليم الجامعي غاية ووسيلة في وقت غايةٌ لتعريب التعليم بكل مراحله، ووسيلة لتعريب الفكر والثقافة عامة . كما أن بناء المناهج الطبية للكليات يسهل على الدارسين عملية التعليم كما يسهل على المعلم توصيل المعلومة بالطريقة الصحيحة بسهولة من غير غموض ولا مشقة .

ومن فوائد بناء مناهج طبية ما يلي :–
1 . زيادة قدرة استيعاب طالب الطب للمادة العلمية بلغته الأم التي يجيدها ويفهم أسرارها بعكس اللغة الأجنبية .
2 .تضييق الفجوة بين الخريجين ومجتمعاتهم إذا ما درسوا الطب بالعربية حيث إن اللغة الأجنبية لا تزود الطالب بمعلومات وافية عن خصائص البيئة وأمراض المجتمع العضوية والنفسية وارتباط ذلك بالأخلاقيات والقيم الاجتماعية والدينية ومن ثم ارتفاع مستوى التفاعل بين الطبيب ومريضه والناس من حوله .
3 . التثقيف والإرشاد الصحي على المستوى الوطني والقومي يتحسن أداؤه وينتشر الوعي الصحي الوقائي والاجتماعي والعلاجي . . . إلخ
4 . تتيح للطالب التفاعل مع المادة العلمية في ظل الخلفية الوطنية والبيئة العلمية والسلوكيات والقيم الدينية .

*** ما مشكلات الترجمة الطبية؟**

يجب التمييز بين تعريب التعليم وتعريب المصطلح. اللغة كيان فكري ونفسي والمصطلحات قوالب لفظية وُضِعَت لاستبعاد معانٍ محددة ودقيقة، فهذه المصطلحات والمعاني المترجمة قد يكون لها مشكلات وسلبيات ومن سلبياتها ما يلي:

1. فوضى المصطلح الناتجة من تعدد جهات التعريب
2. عدم معرفة الأُستاذ للغة أجنبية مما يؤدي إلى قوقعته وتحديده.
3. اعتماد طلاب الدراسة العليا على التعليم باللغة العربية وحدها.
4. قصور عملية الترجمة عن شمول مصادر متعددة واقتصارها على الكتاب الجامعي.
5. تعدد أشكال الترجمة والتعريب وترجمة الكتاب الواحد من جانب جهات متعددة.

– وهذه هي الأسباب والمعوقات التي تواجه وتعرقل الترجمة الطبية.

*** ما مشكلات أو معوقات التدريس الطبي باللغة العربية؟**

– يواجه التعليم الطبي باللغة العربية معوقات وعراقيل ومن أهم هذه العراقيل التي تُذكَر في وجه التعليم الطبي باللغة العربية هي الافتقار للكتاب المنهجي، وكذلك الحاجز النفسي لعضو هيئة التدريس وعدم قدرته على التعليم باللغة العربية. وهذه المشكلات والمعوقات هي:

1. عجز واضح في الكتاب الطبي وفي المعلومات عن الكتب والمراجع المتوفرة حالياً.
2. عدم وجود الأساتذة المؤهلين لتعليم الطب باللغة العربية، وكذلك محاربة الأساتذة الحاليين لفكرة تعريب التعليم الطبي، وكذلك لتعارض التعريب مع مصالحهم الاقتصادية التي تتمثل في بيع الكتب والمذكرات المعدة باللغة الأجنبية.

*** كيف يمكن التغلب على هذه المشكلات؟**

– وللتغلب على هذه المشكلات التي تعرقل عملية التدريس الطبي باللغة العربية بالنسبة لعضو هيئة التدريس الذي يجد أمامه العراقيل التي تعيقه أو بالنسبة للكتاب المنهجي فعلياً اتباع الخطوات الآتية:–

أولاً: فيما يخص الكتاب

1. التنسيق في مجال الترجمة حتى لا تتكرر ترجمة الكتاب الواحد ومن الممكن أن يقوم بهذا المركز العربي للتعريب والتأليف والترجمة والنشر (بدمشق)، وتُعطى الأولوية مرحلياً لكتب العلوم الطبية الأساسية. ومن الممكن الاستعانة في هذا المجال بالجمعيات العلمية العربية في مختلف العلوم الطبية خاصة للاتفاق على ما يُترجَم من المؤلفات.

2. تنظيم تأليف الكتب المنهجية متعددة المؤلفين وذلك لاختصار الوقت ولمساهمة المتخصصين كلٌ حسب تخصصه.

3. تقييم الكتب الطبية العربية المتوفرة حالياً (في سوريا مثلاً) واختيار أنسبها ككتب منهجية.

4. وضع خطة متكاملة لترجمة الكتب المنهجية وبعض من الكتب المرجعية والتعاقد مع دور النشر للدوريات العلمية لإصدارها باللغة العربية، على أن تشمل هذه الخطة نوع الكتاب الذي يُترجَم ومحتواه العلمي والموافقة الكاملة من الناشر. ويراعى في طباعة الكتاب العربي المادة العلمية والمراجعة الصحيحة علمياً ولغوياً ونوع الورق والطباعة والصورة على أن يكون في مصاف الكتب المترجم عنها وهو عامل مهم (أي نوع الكتاب) شكلاً ومضموناً ويكون الكتاب جاهزاً قبل البدء في التدريس مرحلة بمرحلة.

5. الاتفاق مع دور النشر العالمية على ترجمة بعض الكتب في فروع الطب المختلفة وكذلك على إصدار ترجمات عربية لدورياتهم.

6. استجلاب منشورات منظمة الصحة العالمية باللغة العربية بأعداد كافية لاستعمالها في المكتبات.

ثانياً: فيما يخص إعداد المدرس حتى لا تكون هناك عراقيل ومعوقات تقف حاجزاً أمام العملية العلمية فعلينا إتباع الآتي :-

1. أن يكون جميع أعضاء هيئة التدريس ممن يتكلمون ويتقنون العربية.
2. تُعقد الندوات العلمية وتلقى المحاضرات بالعربية من أساتذة لهم خبرة في التدريس بالعربية.
3. تُنظَم زيارات دورية لأعضاء هيئة التدريس إلى كليات الطب التي تُدرِس بالعربية (سوريا مثلاً).
4. على الأساتذة إعداد ملخصات عربية وافية لبحوثهم المنشورة باللغة الأجنبية.
5. تشجيع إلقاء بعض المحاضرات الطبية العامة باللغة العربية.
6. إيفاد المعدين لتأهيلهم كأعضاء هيئة تدريس وكذلك تشجيع الدراسات العليا بالداخل.
7. تشجيع هيئة أعضاء التدريس على المشاركة في المؤتمرات العلمية بالخارج لمواكبة التطور في مجال العلوم الطبية والصحية.
8. تؤخذ أنشطة الترجمة والتأليف بالعربية في الاعتبار عند الترقية، والتعيين وتخصيص حوافز مادية وأدبية مجزية لكل إنجازات هذا المجال.

*** ما دور هيئات ومراكز التعريب الطبي في الوطن العربي تجاه سياسات التعليم الطبي باللغات الأجنبية ؟.**

– لقد اتخذت هيئات ومراكز التعريب الطبي في الوطن العربي خطوات جادة وقامت بوضع خطط طموحة من أجل تنفيذ عملية التعريب بشكل دقيق وحاسم، ومن هذه الخطوات ما اتخذه المركز العربي لتعريب العلوم الصحية (والذي مقره دولة الكويت) وتتمثل خطته في الآتي :–

1. وضع خطة شاملة للتأليف باللغة العربية في المجالات الطبية، ويتحدد فيها الموضوعات ومستوى التأليف فيها عن طريق الالتجاء إلى متخصصين عرب لأداء هذه الرسالة العامة.
2. وضع خطة شاملة للتعريب لبعض أمهات الكتب الطبية الأجنبية وخاصة الكتب الدراسية التي ستساهم في إدخال اللغة العربية في هذا المجال.
3. وضع خطة شاملة لتعريب المصطلحات الطبية الأجنبية بالتعاون مع كافة المنظمات والهيئات العربية المهتمة بهذا المجال ونشرها باللغة العربية وتحديد المفاهيم وتعريفاتها الدقيقة ونشر المعاجم والقواميس التي تحتويها.
4. إصدار دار معارف طبية عربية تتصل بتاريخ الطب الإسلامي حتى عصرنا الحاضر وتطورات الطب الإسلامي على مر العصور.
5. وضع خطة للتقنيات التعليمية والنماذج والوسائل التعليمية المختلفة المستعملة في التعليم الطبي، وذلك بهدف الإسراع بإدخال المفاهيم في مجالات التعليم الطبي .
6. توفير المصادر المالية والميزانيات والمساهمات الخاصة بتنفيذ هذه الخطط في شكل برامج تنفيذية واقعية ودقيقة وذلك بمساعدة وزارات الصحة العربية والهيئات والمنظمات الدولية والإقليمية في الوطن العربي لكي تعضد تنفيذ هذه الخطط وتضمن نجاحها المستمر. كما أن التأييد المعنوي من الأطباء العرب المهتمين بالتعريب له أثره في تعضيد المسيرة وفي استمرارها الدافق المتصلب.

– ومن الهيئات والمراكز التي كان لها الاهتمام البالغ والفضل في عملية التعريب .

فريق التعريب بالأمانة العامة لمجلس التعاون:

حيث كانت الانطلاقة الرسمية للتعريب في دول مجلس التعاون الخليجي هي القرار السياسي الذي صدر عن المجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دورته السادسة في (مسقط 1985) والذي نص على « الالتزام بتعريب التعليم العالي والجامعي بكل فروعه وتخصصاته كلّما كان ذلك ممكناً وتنفيذاً لهذا القرار الثقافي التاريخي اتخذ رؤساء ومديرو جامعات ومؤسسات التعليم العالي بدول الخليج في اجتماعاتهم في (الرياض عام 1986) توصيات تتضمن :–

1. تعريب التعليم العالي.
2. الكتاب الجامعي.

حيث تقوم الأمانة بوضع خطة لتنسيق وإنتاج الكتاب الجامعي تأليفاً وترجمة ونشراً وتوزيعاً.

– ويؤدي فريق التعريب من خلال الأمانة العامة لمجلس التعاون دوراً مهماً في عملية التنسيق بين الجامعات، يتمثل في وجود آلية عملية يمكن الاستفادة منها في تكامل الجهود وتضافرها، فهو يقوم حالياً من خلال اجتماعاته بمتابعة نشاطات التعريب في الجامعات والتنسيق بين اللجان وتزويدها بالمعلومات، وخاصة فيما يتعلق بجهود أعضاء هيئة التدريس في مجال الترجمة والتأليف.

وقد تناولت جداول أعماله موضوعات هامة في التعريب مثل :–

1. إنشاء قاعدة معلومات مختصة بالتعريب.
2. حصر الكفاءات المهتمة بالتعريب.
3. وضع خطة لترجمة وتأليف الكتاب الجامعي.
4. متابعة جهود الجامعات في مجال التعريب.

– عقد فريق التعريب ستة اجتماعات حتى الآن : الأول جامعة البحرين (1987) والثاني في مقر الأمانة العامة بالرياض (1988) والسادس في جامعة قطر سنة (1994) .

– ومهمة فريق التعريب الرئيسة تظهر من اسمه فهي ذات شقين متكاملين هما : تعريب التعليم العالي وإنتاج الكتاب العلمي.

وهاتان المهمتان المتكاملتان تمثلان الجانبين الإداري والفني لقضية التعريب.

*** هل بالإمكان إحداث تغيراً في الواقع الحالي للتعليم الطبي الأجنبي في الجامعات العربية، وتطبيق مشروعات المناهج الطبية العربية، والاستفادة من المصادر الطبية المترجمة؟**

– يمكن إحداث هذا التغير في الواقع الحالي للتعليم الطبي الأجنبي في الجامعات العربية، وأيضاً تطبيق مشروعات المناهج الطبية العربية، وهذا التغير يكون بالقرار السياسي المؤيد من أعلى سلطة سياسية، وكذلك بالتخطيط عن طريق المراكز المتخصصة في عمليات التعريب كالمراكز المتوفرة في سوريا والمركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية بتنفيذ خطط عربية طموحة يكفل لها التمويل المناسب والتعضيد المستمر لكي ينفذها بجداره واقتدار.

ومن الحلول الواجب اتخاذها تجاه هذه العملية التعريبية :–

1. اتخاذ خطة القرار السياسي بشأن التعريب
2. وضع خطة متكاملة للتعريب في كل دولة
3. توفير الدعم المادي اللازم لتنفيذ الخطط المرصودة للتعريب
4. التركيز على برامج ومناهج التعليم في المدارس والجامعات وتدريسها باللغة الأم
5. التنسيق بين الجهات العاملة في التعريب ومساندتها مادياً وفنياً
6. نشر الوعي ألتعريبي على كافة المستويات في كل دولة
7. الاستفادة من أجهزة الإعلام في إيضاح أهمية التعليم باللغة الأم

– ولا بد أن يؤخذ التعريب بطريقة جدية تهتم بها الدول المعنية وترصد له الاهتمام السياسي والمالي والإداري إذا أريدَ له أن يتجاوز مرحلة الأماني والأحلام. ولعل أنسب ما يمكن عمله هو أن تنشأ مؤسسة تعاونية بين الدول المعنية يُستقطَب لها المهتمون بالتعريب، وتُدرَس الوسائل الكفيلة بإنجاح المشروع بالطريقة العملية.

وينبغي لهذه المؤسسات أن تكون :–

– **مدعومة بالدول المنشطة ماليًا وسياسيًا**. أما مالياً فبإنشاء صندوق لدعم جهود المؤسسة في مشروعات الترجمة والتأليف في العلوم الطبية، أما سياسياً فبتوجيه الجامعات المختلفة في الدول المعنية بالتعاون مع المؤسسة في تزويدها العلماء المؤلفين والمترجمين وكذلك بالاستفادة من إِنتاج المؤسسة بعد تقييمه العلمي المطلوب، واعتماد الكتب الصادرة من المؤسسة في المناهج الجامعية بعد التأكد من صلاحيتها العلمية.

– **خاضعة لنظام إشراف من الجامعات المستفيدة**. من إنتاج المؤسسة حتى لا تُرفضَ مطبوعات المؤسسة من قِبَل بعض المؤسسات العلمية بدعوى عدم المشاركة في اتخاذ القرارات، أو لوجود تحفظات غير علمية على المؤسسة.

– قادرة على الاستمرار في تمويل نفسها مستقبلاً بالتعامل التجاري مع الجامعات والمؤسسات العلمية المستفيدة من إنتاج المؤسسة.

* ويستحسن أن ينشأ مجلس تنسيق من الجامعات المستفيدة من جهود المؤسسة للأغراض التالية :–

1. جدولة الأولويات في الترجمة والتأليف، حسب احتياجات الجامعة المشتركة أو المتعاونة
2. استقطاب المؤلفين والمترجمين القادرين على الأداء العلمي واللغوي المتميز، وتحفيزهم للعمل حسب برامج المؤسسة المذكورة
3. التحكم في الأعمال العلمية التي يقوم بها المؤلفون بناءً على طلب المؤسسة، والتأكد من صلاحيتها العلمية وسلامتها اللغوية
4. التنسيق مع مجالس الجامعات المعنية للأخذ في الحسبان بجهود العلماء العاملين في هذه الجامعات فيما يخص ترقياتهم بالأعمال المحكمة الَّتي قاموا بنشرها بالتعاون مع المؤسسة.

– ولذا فلا بد أن تتخذ الجامعات العربية القرار الشجاع بإعطاء الأولوية للمواد العلمية المكتوبة بالعربية – بعد استيفائها الشروط العلمية المطلوبة كمواد مقررة على طلابها.

– كذلك لا بُد أن يكون القرار الرسمي هو إِنفاذ سياسات الدول العربية بتدريس الطب باللغة العربية، وأن تُنهى الحالة الاستثنائية باستخدام اللغات الأجنبية بحجة الضرورة العلمية، وذلك بجدول زمني محدد لكل جامعة، بل لكل قسم من أقسام كليات الطب في الجامعات المختلفة بحسب الواقع الفعلي لمقدرات أعضاء هيئة التدريس التعليمية باللغة العربية.

ترجمة الأمثال والحكم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية : الصعوبات والحلول

د / عبد الرزاق عبيد
جامعة الجزائر

عن أبي مسعود قال :قال النبي (صلعم) :
إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى
« إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .
وقال المتنبي : فما تُفهمُ الحدّأثَ إلاّ التَّراجمُ

تولدت فكرة هذا البحث من خلال ممارستنا لترجمة عدد من الروايات الفرنسية إلى اللغة العربية. وإذا كانت « الترجمة » بصفة عامة « خيانة »[1] مهما كان مستواها الفني والمعنوي، فإن ترجمة الأمثال [2] والحكم تعد أكثر صعوبة بالنسبة للمترجم. وتتشابك خيوطها بين يديه للاختلاف الشاسع بين نظام لغة المنطلق ونظام لغة الوصول. وتزداد هذه المسألة تعقيدا عندما ترتبط بالرواية لكونها شكلا أدبيا يتميز بجملة من الخصائص الفنية التي تحتم على المترجم أن يقوم في كل عنصر من عناصرها باختيار لم يخرج الباحثون منه برأي قاطع.

هل يتقفى المترجم آثار لغة الانطلاق ويخلص لها من حيث الأسلوب، والبحث عن الكلمات المتطابقة والمعاني الجزئية والعامة، وترجمة الأمثال والحكم ترجمة وفية؟[1] أو يتقمص شخصية المبدع ويلبس ثيابه وينتج نصا جديدا يكون للمبدع فيه نصيب المعاني الجزئية والعامة، وللمترجم اختيار المفردات والتركيب النحوي والصرفي والمحسنات البلاغية، والأمثال والحكم المحلية لدرجة لا يشعر معها المتلقي في لغة الوصول أنه أمام نص من لغة أخرى؟

1– كما يقول المثل الإيطالي : ..Traduttore, tradutore ويترجم إلى الفرنسية على النحو التالي Traduire c'est trahir :

2– يدخل في نسق الأمثال : الحكم؛ المتلازمات اللفظية، ومداخل القصص الشعبية ونهاياتها، والأيمان، وحتى السباب والشتم. وذلك لأنها جميعا بمثابة الكلمة الواحدة سواء طالت عبارتها أو قصرت، ولا اعتبار فيها لدلالات كلماتها منعزلة، ولا يسمح فيها بتقديم عنصر أو تأخيره.

3– ومعلوم أننا لا نقصد بحال من الأحوال الترجمة الحرفية، ذلك أن الترجمة الحرفية لا مكان لها في الأعمال الأدبية ولا في غيرها من السجلات المكتوبة الأخرى.

إن لكل اتجاه من هذين الاتجاهين مؤيديه ومناصريه.

فأصحاب الاتجاه الأول يرون أن الهدف من كل ترجمة أدبية هو الولوج إلى لغة أخرى ومعرفة طرقها التعبيرية، وأساليبها البلاغية، من جهة. وإشباع الفضول البشري وذلك بالاطلاع على نظرة الشعوب الأخرى للكون عامة وكيفية تحليلها للواقع المادي وللمعتقدات والمخيال وغيرها من جهة أخرى. وينادون بفتح الأبواب على الآخر، ويستندون في ذلك على نتائج علماء الإناسة الذين يقدرون عدد الثقافات ب300، وعدد اللغات ب5000 لغة مختلفة ليبينوا أن عدد الثقافات أقل بكثير من عدد اللغات، وأن الرهان الحقيقي لكل لغة هو أن تثرى، وأن تتدعم بأرصدة الثقافات الأخرى وحتى أساليبها وطرق تعبيرها. وأن كل محاولة في الاتجاه المخالف لهذا سوف تحرمها من رؤية جديدة للكون، وتعزلها عن المحيط العالمي الحي الذي يجب أن تترعرع فيه وتنمو في كنفه.

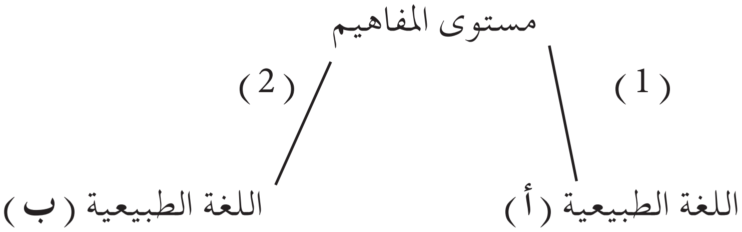
والترجمة وفقا لهذا الاتجاه تصبح ممكنة بسبب اشتراك بني البشر عامة في اتخاذهم لنفس الكيفيات التعبيرية؛ واشتراكهم في قدر من الهويات الكونية. فهم يرون أن جميع اللغات الطبيعية تتخذ الأصوات المسموعة أو الخطوط المرئية في حالة الكتابة وسيلة للتواصل، وتستعمل الرموز النحوية /الصرفية، ولديها قائمة طويلة من المفردات القابلة للزيادة والحذف والتغيير، والتي تحيل مع العناصر السابقة أيضا إلى إدراك المراجع[1] أو الطبيعة المادية والفكرية.

وجميع اللغات الطبيعية أيضا تشترك في المبادئ العامة للكون وتصطنع أسماء تسمي بها الكواكب كالشمس والقمر والنجوم. والفصول كالخريف والشتاء والربيع والصيف. وأيام الأسبوع. والليل والنهار. وتقسم عالم الحيوانات إلى زواحف ومشاة وطيور وأسماك. وتعرف التقسيم الأسري. وتقسيم أعضاء الإنسان وهلم جرا. وكل صنف من هذه الأصناف ينقسم بدوره إلى أصناف فرعية تارة تتوسع وتارة تتقلص بحسب حاجة كل جماعة لسانية على حدة. وبالجملة، ما دامت الأشياء موجودة في كل مكان فإن لكل شيء اسما في اللغة.

إن هذه الرؤية تجعل الترجمة تقتصر على استبدال دوال اللغة (أ) بدوال اللغة (ب) مرورا على المدلولات أو المفاهيم. وإذا صح هذا الافتراض فلأن هناك قواسم مفهومية مشتركة بين جميع البشر. وفي حالة ترجمة الأمثال والحكم، فإن وظيفة المترجم تنحصر حينئذ في القراءة الجيدة القادرة على فهم النص الأصلي فهما صحيحا، وفهم المثل أو الحكمة خارج سياق النص وضمنه، والقادرة في الآن نفسه على تفسيره، وإنتاجه أخيرا في شكل مطابق للشكل الأصلي.

1- نقصد بالمراجع في هذا المقام كل ما يحيل على الموجودات المادية (حيوانات، نباتات، جمادات الخ...) والتصورات الخيالية والمفاهيم المجردة (بما في ذلك العادات والتقاليد والشعائر الدينية وغيرها).

ولعل هذا الشكل المستوحى من برنار بوتيي (Bernard POTTIER) يوضح قليلا هذا المنحى :



حيث يمثل :

السهم رقم (1) : عملية المرور اللاواعية والمباشرة من دوال اللغة الطبيعية (أ) إلى مستوى المفاهيم . إن المترجم ينسى الصور المرئية (المكتوبة) برهة بعد قراءتها، ولا تحتفظ ذاكرته إلا بصورة المعلومات المترتبة عنها[1] .

مستوى المفاهيم : وهو القاسم المشترك بين جميع البشر . وهو أيضا مستوى إدراكي مجرد ينحصر هنا فيما تختزنه الذاكرة، وفي القدرة على استيعاب ما سوف يصلها من مفاهيم . وهذا سبب من الأسباب التي تجعل الأفراد الذين يحسنون أكثر من لغة لا يتذكرون دائما مصدر المعلومة التي تحتفظ بها ذاكرتهم .

السهم رقم (2) : عملية المرور الواعي من مستوى المفاهيم إلى دوال اللغة الطبيعية (ب) . وفيها يجد المترجم نفسه أمام سيل من الاختيارات المختلفة؛ الشكلية منها والمعنوية وعليه أن يختار منها ما يطابق النص الذي بين يديه .

اللغة الطبيعية ب : وهي النص المترجم في صورته النهائية المطابقة لخصائصها؛ أسلوبا ومعنى .

ووجد في هذا المقام أوجين نيدا (Eugène NIDA) من خلال ترجمة الكتاب المقدس (العهد الجديد) من اللغة الإغريقية إلى ألف لغة مختلفة أنها تتضمن جميعا عددا من المفاهيم الكلية . وهذه المفاهيم هي : الهويات، والأحداث، والصفات، والمجردات، والكيفيات، والكميات، والدرجات، والعلاقات .

ووجد ـ وهذا هو المهم ـ أن أربعة منها موجودة في كل اللغات . وتتمثل في اللغة الإنجليزية على النحو التالي : الهويات= الأسماء . والأحداث= الأفعال . والصفات= الحال والتمييز . والمجردات= الروابط . ومعلوم أن هذه الميادين الدلالية قد تتشكل من حقول فرعية مختلفة من لغة إلى أخرى، ومختلفة أحيانا ضمن اللغة الواحدة .

1– لا يذكرها إلا في حالات خاصة مقصودة لذاتها . ومهما يكن فإن نسبة ما ننساه أضعاف أضعاف ما نتذكره حرفيا على امتداد حياتنا .

ومشكلة الترجمة في نظر أمبرتو إيكو (Umberto ECO) تطرح بالدرجة الأولى على لغة الوصول. ولذلك فإن رهان المترجم يتمثل في تقديم نص مطابق للنصوص المحلية. وهذه النظرة يشاركه فيها بكيفية ما بعض السياسيين وبعض المهتمين بالشأن الثقافي لخوفهم من أشكال الغزو الأجنبي والتأثير الكبير الذي قد تلحقه اللغات القوية باللغات الأقل منها. ونجد هذا الشعور خاصة في حالة الدول حديثة الاستقلال مثل أيرلندا أو الجزائر. وهكذا، وجدنا في بلدنا بعد الاستقلال مباشرة نداءات بعض المثقفين المعربين المنادين بضرورة استرجاع اللغة العربية لمكانتها الأصلية، والضغط على السياسيين من أجل إحلال اللغة العربية محل اللغة الفرنسية في الإدارة والتعليم وغيره من المجالات. ولا يزال هذا السجال متواصلا إلى اليوم. ولعل أحسن شاهد على هذا صدور كتاب «قضية التعريب في الجزائر» للأستاذ عثمان سعدي سنة بعد الاستقلال، وصدور كتاب الزميلة الأستاذة الدكتورة خولة طالب الإبراهيم مترجما إلى اللغة العربية بقلم الزميل الأستاذ الدكتور محمد يحياتن سنة (2007)[1]. وهذا لعمري أكبر دليل على حدة الموضوع وتجدده بالرغم من مرور ما يقرب من نصف قرن على استقلال بلادنا[2]. كما لا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى النشاطات العلمية والثقافية التي يقوم بها المجلس الأعلى للغة العربية وغيره من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وكلها تنضوي تحت لواء ترقية اللغة العربية وتنقيتها من الدخيل والمبتذل وكل ما من شأنه أن يؤثر سلبا على اللغة العربية.

وفي الوجه المقابل لهذا الطرح نجدا **اتجاها ثانيا** قويا ينطلق أساسا من التشكيك في عملية الترجمة وقدرتها على النقل بسبب اختلاف الأنظمة، واختلاف الرؤى الثقافية والاجتماعية، والكيفيات الخاصة بكل لغة لتحليل الكون.

ولقد كان لفلاسفة اللغة الألمان قصب السبق في هذا الميدان. ونخص بالذكر منهم الفيلسوف اللغوي وليم فون همبولدت (Wilhelm von HUMBOLT) صاحب الأجوبة الفلسفية اللغوية العميقة على سؤال: ما مدى تعبير اللغة الألمانية عن الجنس الألماني، أو بكيفية أخرى، هل تعبر اللغة الألمانية حقا عن الجنس الألماني؟

ويستمر هذا السؤال حيا أيضا على امتداد قرون طويلة متخذا أثوابا جديدة في كل مرحلة من المراحل التاريخية. تصل حد العنصرية أحيانا مثلما كان الحال إبان الحرب العالمية الثانية وما سبقها من سنوات الحكم النازي. وتكتسي صبغة علمية منهجية تكون لها نتائج إيجابية على علم الترجمة

1- عنوان الكتاب: «الجزائريون والمسألة اللغوية: عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري، خولة طالب الإبراهيمي، تر: محمد يحياتن، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ط: 2.

ويعد هذا الكتاب في الأصل أطروحة جامعية باللغة الفرنسية تقدمت بها الطالبة لنيل شهادة الدكتوراه الدولة من جامعة بواتيي بفرنسا.

2- اقتصرنا هنا على ذكر أول كتاب وآخر كتاب في هذا الموضوع (في علمنا)، ونعتذر لجميع الأساتذة والباحثين الجامعيين الذين كتبوا العديد من الرسائل الجامعية، الأبحاث والدراسات العلمية الجادة.

خاصة. ونشير في هذا الصدد خاصة لجهود علماء اللغة في أوربا أمثال جورج مونان (Georges MOUNIN) بالدراسات النظرية الأكاديمية، وعلماء علم الإناسة واللغة في أمريكا أمثال إدوارد سابير (Edward SAPIR)، وبن يمين وورف (Benjamin Lee WHORF)، المعروفين بالدراسات الميدانية.

يكاد يتفق الجميع على استحالة الترجمة تقريبا، وذلك لعدم وجود مطابقة كاملة بين لغتين مختلفتين مهما تقلصت العلاقة بينهما. وذلك لأن وجوه الاختلاف أكثر من وجوه الائتلاف. اختلاف بين الثقافات وبين الأنظمة اللسانية. واختلاف ضمن اللغة الواحدة، وبين الأنواع، والخطابات. واللهجات، والطبقات الاجتماعية، وحتى التأديات الفردية.

والواقع أن الدراسات الوصفية المباشرة أظهرت منذ أمد طويل أن لكل لغة نظاما شكليا للتعبير خاصا بها. وسأبين في الأسطر القادمة بعض وجوه الاختلاف؛ وبالتالي الصعوبات التي يتعرض لها المترجم من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية.

الإعراب: تعد اللغة العربية الفصحى من اللغات القليلة المعربة[1]. وهذا معناه أن جزءا من دلالة الكلمة يتحدد بالعلامة الإعرابية التي تلحق آخرها. ومن هنا جاءت آيات قرآنية كريمة[2] وأبيات شعرية كثيرة على ترتيب معين أوقع بعض الناس في أخطاء جسيمة لاعتبارهم الرتبة وليس العلامة الإعرابية[3]. ويقوم نظام اللغة الفرنسية بالدرجة الأولى على الرتبة.

اختلاف ضمير المخاطب: تشترك اللغة العربية والفرنسية في تقسيمهما لضمائر الخطاب حيث تقسم كل منهما الضمائر إلى ثلاثة أصناف. 1) صنف للمتكلم، 2) وصنف للمخاطب، 3) وصنف للغائب. وتشتركان في ضمائر المتكلم حيث تخصص كل منهما ضميرا للمتكلم المفرد (أنا – je)، وضميرا لأكثر من واحد من المتكلمين (نحن – nous) سواء كانوا ذكورا أم إناثا. وبعد هذا تختلفان في نظرتيهما للضمائر المخصصة للعدد والجنس. فاللغة العربية تخصص ضميرا للمخاطب المذكر المفرد هو (أنتَ)، وضميرا للمخاطب المفرد المؤنث هو (أنتِ)، وتخصص لهما اللغة الفرنسية ضميرا غير مفرقة بين الذكر والأنثى. وتخصص اللغة العربية ضميرا **للمخاطبين** سواء كانا ذكرين أم أنثيين هو (أنتما)، وتضمه اللغة الفرنسية إلى أكثر من واحد (أي الجمع: أنتم –vous). وتخصص اللغة العربية ضميرا للمخاطبين الذكور هو (أنتم)، وضميرا للمخاطبين الإناث هو (أنتن)، ويقابل هاذين الضميرين ضمير واحد في اللغة

1– يذكر هنري فليش من اللغات القيمة المعربة اللغة اللاتينية، ومن اللغات المعاصرة اللغة الألمانية والسلافية.

2– الآية: 28 ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ من سورة فاطر. والآية 3: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ من سورة: التوبة.

3– كذلك الأعرابي الذي سمع أحدهم يقرأ في المسجد الآية: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بكسر اللام في (رسوله) فقال: وأنا أيضا أبرأ منه.

الفرنسية هو (vous) سواء كانوا ذكورا أم إناثا. وتشترك اللغة العربية مع اللغة الفرنسية في نظرتيهما إلى جماعة الغائبين الذكور فتخصصان لهم الضمير (هم – ils)، وتخصصان الضمير (هنّ – elles) لجماعة الإناث. وفي نفس هذا السياق تخصص اللغة الإنجليزية للمخاطب سواء مفردا أم مثنى أو جمعا، وسواء كانوا ذكورا أم إناثا ضميرا واحدا هو (you).

إن هذه الاختلافات هي التي تكون أحيانا سببا في الفهم الخاطئ وبالتالي؛ قد تحدث خلطا كبيرا في الترجمة إلى اللغة العربية. وما من وسيلة أمام المترجم في هذه الحالات إلا السياق، والسياق اللغوي المكتوب ليس في غنى عن سياق المقام.

اختلاف زمن الفعل: يتحدد زمن الفعل في اللغة العربية إلى حدّ كبير إذا ارتبط بقرينة. أما إذا كان مطلقا فإن صنفا منه يدل على حدث منقطع سواء وقع في الماضي أو الحاضر وهو: (الفعل الماضي). وصنفا يدل على حدث غير منقطع سواء كان هذا الحدث مستمرا من الماضي إلى الحاضر أم من الحاضر إلى المستقبل وهو: (الفعل المضارع). وصنفا من الناحية التداولية قد يتحقق وقد لا يتحقق، ولكن له بنية ترتبط زمنيا في الغالب بالحاضر وهو: (فعل الأمر)[1].

ويقابل هذه الأزمنة العربية الثلاثة تجاوزا في اللغة الفرنسية أزمنة عديدة[2] تحدث كثيرا من الحرج في ترجمتها إلى اللغة العربية كالاضطرار إلى تكرار الفعل: كان، والحرف: قد مثلا في حالة (plus-que-parfait) وهو زمن يبين أن الحدث قد تم مقارنة مع حدث آخر قد أنجز أيضا في الماضي. والحال شبيه بهذا أيضا في حالة التعبير عن تكرار أو تزامن حدث بالنسبة إلى حدث آخر (كنت أذهب ...) (imparfait) وتكرار الفعل (كنت) يجعل الأسلوب غير مستساغ في اللغة العربية. وكذلك الحال بالنسبة للتعبير عن الحدث الذي سوف يجري في المستقبل، واضطرار المترجم إلى تسبيق (سوف) في كل مرة (futur) مما يجعل الأسلوب في اللغة العربية عامة وفي الأمثال والحكم خاصة ثقيلا وأحيانا مستحيلا.

1– يعرف سيبويه الفعل بقوله: «وأما الفعل فأمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع». ويفهم من قوله هذا أن اللغة العربية تولي اهتماما كبيرا لبنية الفعل ومصدره أولا، ثم أنواعه، ثم زمنه. وتنظر إليه من زاوية الاستمرار أو الانقطاع. وليس حصر الزمن في مرحلة معينة دقيقة. ولهذا جاءت الآيتان الكريمتان: «إذا جاء نصر الله والفتح» أو «غلبت الروم» لا لتدلان على أن الحدث وقع في الزمن الماضي حيث بين التاريخ عكس هذه الحقيقة وإنما جاءتا لتبينا أن الحدث في حكم المنقطع الذي سيحدث لا محالة. أما بناء ما هو كائن، فمثل قولنا: يؤدي محمد صلواته منذ كان طفلا. فالفعل يؤدي في هذا الشاهد يدل على الاستمرار ولا يدل على زمن الحاضر ولا المستقبل. وأما بناء: ما يكون ولم يقع، فله بنية مميزة حقيقة، وأما الزمن فقد يتحقق وقد لا يتحقق. ومن هنا فإن تعريف الفعل المتواتر في الكتب المدرسية مغاير لتصور علماء العربية لمفهوم الفعل.

2– تصرف اللغة الفرنسية الأفعال على النحو التالي:

<u>INDICATIF</u>:
présent / / passé composé.
Imparfait / / plus-que-parfait.
Passé simple / /passé antérieur.
Futur / / futur antérieur.

وقريب من هذا الموضوع نجد بعض الكلمات الشائعة في الاستعمال وأحيانا في الأمثال والحكم. وهي كلمات لها صورة كتابية واحدة (المشترك – homographe) ويدل معناها على أكثر من معنى، أو يدل معناها الأول على مؤنث، ومعناها الثاني على مذكر. وتزداد هذه الكلمات غموضا إذا لم تسبق بحرف التأنيث (une أو la)، أو حرف التذكير (un أو le). ونذكر منها على سبيل الشاهد وليس الحصر:

Voile : Une voile et un voile.
TOUR: Une tour et un tour.
POSTE: Une poste et un poste.
PHYSIQUE: La physique et le physique.
MODE: Une mode et un mode.
ŒUVRE: Une œuvre (travail, réalisation) et un œuvre (ensemble des productions d'un artiste.

كما نشير بإيجاز شديد إلى ما هو مذكر في اللغة العربية، وهو مؤنث في اللغة الفرنسية والعكس (مثل: (Le soleil – الشمس)، (القمر – La lune)، (الشاحنة – Le camion)، (الحافلة – Le bus). وهذه الكلمات من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها.

إن هذه العناصر النحوية والصرفية والدلالية التي تنتثر في كل جملة وفي كل فقرة قد تغافل المترجم وتغير المعنى كلية في الأعمال الأدبية عامة والأمثال والحكم خاصة. ذلك أن السياق اللغوي[1] لا يساعد دائما على الاختيار المطلوب، خاصة إذا تعمد الروائي التلاعب بالمثل وإرساله في غير سياقه، فتجتمع حينئذ صعوبتان: الأولى بسبب وضع المثل وخصوصيته في الثقافة الفرنسية، والثانية بسبب وضعه في غير مكانه. وما من وسيلة تبقى بين يدي المترجم سوى الاعتماد على السياق العام.

وإذا كانت العناصر النحوية والصرفية يمكن التغلب عليها لقلتها في كل لغة لوجود ما يشبهها عن طريق الاستبدال ولكونها تخضع إلى منطق اللغة، فإن الأمثال والحكم تعد من أخصّ الأدلة الثقافية توغلا في كل مجتمع، لدرجة قد تصبح متعارضة تماما في ثقافتين مختلفتين؛ بل وحتى في الثقافة الواحدة كما أسلفنا. وهذه الأدلة تحتاج من المترجم أن يفهمها ثم يؤولها التأويل الصحيح الذي يراعي السياق اللغوي المحض ويراعي سياق المقام، والسياق الاجتماعي الذي تستعمل فيه. ولعل الشاهد الذي سنتعرض له في الأسطر القادمة يساعدنا على توضيح هذه المسألة.

1– بمعنى النص المكتوب الذي تعوزه الأصوات وما تحمله من دلالات إضافية ويعوزه المقام والعلاقة المباشرة للمرسل بالمتلقي الخ..

إن إطعام الضيف يعد مكرمة في جميع الثقافات تقريبا . وإحدى طرق إكرامه أن تقدم إليه كمية وافرة منه، لكن، يجب على الضيف أيضا أن يسلك السلوك المناسب للثقافة التي ينتمي إليها وإلا أصبح مخالفا لقواعد آدابها . وهكذا، يعد أكل جميع ما في الصحن وتنظيفه بالخبز من بقايا الطعام سمة حضارية وسلوكا مطابقا للقواعد الأخلاقية في الثقافة الفرنسية . ويعد في الثقافة العربية سمة تدل على ضعة المكانة الاجتماعية ودليل على مجانبة آداب المائدة في بعض الجهات . لذا يجب أن يتعفف الضيف في الأكل مهما بلغ به الجوع، وأن يترك كثيرا أو قليلا من الأكل في الصحن ليكون دليلا على الشبع . وحينئذ كيف يتعامل المترجم مع موقف كهذا؟ هل يعربه بما هو متعارف عليه في الثقافة العربية، أو يقدمه مثلما وجده في لغة الانطلاق؟ وكيف سيكون معنى الخطاب المرسل؟ وكيف سيكون مغزاه؟

وفي نفس هذا السياق نتعرض إلى المتلازمة اللفظية الشائعة في اللغة الفرنسية : « Tu m'as réchauffé le coeur »[1] ومقابلها الدلالي في اللغة العربية : « لقد أثلجت صدري » . ويلاحظ في المتلازمتين السابقتين أن دلالتيهما واحدة حيث تحيل كل منهما إلى الطمأنينة والراحة النفسية التي يشعر بها المتشوق للخبر المنتظَر، وأما السياق اللفظي فهو متعارض تماما . حيث نجد أثر البيئة واضحا في ألفاظ اللغتين . الرغبة والتطلع للحرارة والدفء لرجل البيئة الباردة، وطلب الثلج والبرودة لرجل البيئة الحارة . (الصفات الدلالية للمثل الفرنسي : الحرارة + القلب = الراحة النفسية والطمأنينة .

الصفات الدلالية للمثل العربي : البرودة + القلب = الراحة النفسية والطمأنينة)

يتبين من هذا أن الأمثال والحكم لا يقتصر دورها على تمرير معادل دلالي في خطاب من لغة إلى أخرى وإنما تحمل – وهذا هو المهم – مؤشرات اجتماعية / ثقافية محلية . محلية في صورها، وحيواناتها، ونباتاتها، وجماداتها، ووسائل عيشها، وتجهيزاتها، وكل ما يستعمله الإنسان من مسميات مادية وتصورات مفهومية؛ في أكله وشربه وعمله وأفراحه وأتراحه وبالجملة في كل ما له علاقة ببيئته المادية والمعنوية . وهذه الأسباب هي التي تقف في وجه المترجم والمتلقي معا إذا افتقرا إلى عنصري الفهم والتأويل، وتجعل وجود مثلين في لغتين مختلفتين متطابقين معنى ومغزى وأسلوبا من الصعوبة بمكان . قد تتقاطع الأمثال والحكم في جوانب، وتحافظ على هويتها الثقافية وخصوصيتها المحلية في جوانب أخرى . تتقاطع لكونها تعبر عن تجارب الشعوب وخبراتها في الحياة ولكنها تختلف في التركيب النحوي، والمفردات، والأسلوب البلاغي، والإيقاع، والتلاعب بالألفاظ وهلم جرا .

1– حرفيا : « لقد أدخلت الدفء إلى قلبي »

واعتبارا من أن الأمثال والحكم تقع بين مستوى **اللسان**؛ بحكم أن متكلما ما يستعملها في سياق خاص به، وبين مستوى **الكلام** بمصطلحات سوسور (SAUSSURE)؛ لكونها تأتي في شكل جملة أو شبه جملة فإن مهمة المترجم تصبح ممثلة خاصة في البحث عن المثل المعادل للمثل الأجنبي . والاجتهاد في إدراجه ضمن السياق الذي تجري فيه الأحداث، والأسلوب الذي يراعي خصائص لغة الانطلاق، وخصائص لغة الوصول . وهي أهداف لا تتحقق إلا في عدد قليل منها، أو في الأمثال المترجمة ترجمة قريبة من الحرفية . وأما الأمثال الأصيلة في كل لغة فإنها ستبقى محافظة على خصوصيتها وإن اقتربت دلاليا من بعضها بسبب الجوار الجغرافي، والاحتكاك الثقافي والاجتماعي القديم والحديث .

إن مواجهة لغتين ليست من السهولة بمكان، ومواجهة مثلين في لغتين مختلفتين تعد أكثر تعقيدا وصعوبة لوجوب أن يراعي المترجم في وضعها أربعة عناصر إذا لم يجد معادلا لها في لغة الوصول . وهذه العناصر هي : العنصر الدلالي، والعنصر اللفظي، والعنصر المرجعي، والعنصر الوظيفي .

ونقصد **بالعنصر الدلالي** المعنى العام الذي يحمله المثل، والصورة البيانية التي يرسمها في الذهن خاصة إذا علمنا أن المثل قد يتركب من كلمات قليلة ويتضمن دائما معاني كثيرة .

وأما **العنصر اللفظي** فإننا نعني به التركيب النحوي والمحسنات اللفظية التي غالبا ما تتوفر في المثل . وفي حالة اللغة العربية التي هي لغة معربة، وتقبل مفرداتها التقديم والتأخير بوصفهما أسلوبين جماليين، وتعتمد اعتمادا كبيرا على التشبيه بأنواعه، وعلى الكناية وغيرها فإن لكل حالة من هذه الحالات دورها الذي لا يجب أن يهمله المترجم أثناء بحثه عن المثل المقابل، أو في ترجمة معناه إلى لغة الوصول إن أمكن .

وأما **العنصر المرجعي** فإننا نقصد به الإحالات على المفاهيم الصورية المجردة، والأشياء المادية كالحيوانات والأماكن الجغرافية وأسماء الأعلام وغيرها . وكل عنصر من هذه العناصر يمكن أن يكتسي صبغة جديدة ودلالات إضافية زائدة عن الحدّ اللغوي . بحيث يصبح الحيوان عاقلا مفكرا[1] والجمادات حية ناطقة إلخ .

وأما **العنصر الوظيفي** فإننا نعني به الاستعمال الذي تسنده لغة الانطلاق إلى المثل . وهنا يجب أن نشير أن المثل الواحد قد يوظف بأكثر من طريقة وهو ما يجعل الأمثال تتميز بتعدد الدلالات في بعض المرات، وتحتم على المترجم أن يؤولها التأول الصحيح الذي تستهدفه لغة الانطلاق .

1- تتبع مثلا : « الضب » في : مجمع الأمثال للميداني .

وإذا كانت العناصر الثلاثة الأولى يمكن أن تتحقق خارج السياق، فإن العنصر الرابع لا بد له من سياق يجري فيه كي يتضح استعماله بدقة، وتتضح بالتالي وظيفته في النص. وهي وظيفة قد تكون مخالفة تماما لمعناه المتعارف لدى الجماعة اللسانية مثلما أشرنا. ولهذا طرحناه من دراستنا هذه.

والنتيجة، لقد حاولنا القيام بجمع الأمثال القريبة دلاليا في اللغتين، ثم كتبنا المثل الفرنسي بالحروف اللاتينية، وشرحناه شرحا حرفيا لتتضح بنيته التركيبية والدلالية باللغة العربية، وأتبعناه أخيرا بالمثل العربي أو الأمثال. وهي أمثال من العربية الفصحى، وعربية المولدين، والعربية الجزائرية، إضافة إلى بعض الحكم[1] البليغة. وحاولنا أن نبين بعض الوجوه التي يمكن أن تكون موضوعا لدراسة وافية من حيث عدد الشواهد، ومن حيث المنهجية. وذيلنا بحثنا هذا أخيرا بملحق يتضمن قائمة صغيرة من الأمثال المتقاربة دلاليا ولم نتعرض للأمثال التي لا مقابل لها.

On n'est jamais mieux servi que par soi- même

«لن يخدمك {أحد خدمة} جيدة مثلما تخدم نفسك»

«**ما حكّ جلدك مثل ظفرك**» [2].

يختلف المثلان في العناصر اللفظية، ويشتركان في عنصر الدلالة، وعنصر المرجعية.

العناصر اللفظية [3]: مفردات المثل الفرنسي: النفي + الجودة + الخدمة الذاتية. مفردات المثل العربي: الظفر + الجلد+ الحك.

عنصر الدلالة: يحثّ كل منهما على الاعتماد على النفس، وعدم الاتكال على الآخرين.

عنصر المرجعية: خدمة ذات الإنسان عامة في المثل الفرنسي، وخدمة بدن الإنسان في جزء صغير منه في المثل العربي. لا أثر فيهما للبيئة ولا للحياة الثقافية الخاصة، ويمكن استبدال أحدهما بالآخر دون عناء كبير.

Il faut battre le fer tant qu'il est chaud.

«اطرق الحديد ما دام ساخنا»

«**اخْتِمْ بِالطِّينِ مَادَامَ رَطْبًأ**» [4].

ع ل: م م ف: الوجوب + الطرق + الحال + السخونة. م م ع: الختم + الطين + الحال + الرطوبة.

1- تختلف الحكم عن الأمثال في كونها غالبا ما تكون ذات صبغة فلسفية أو علمية، وبأسلوب رصين وبليغ وذلك خلافا للأمثال التي قد تحتوي على الألفاظ السوقية والمبتذلة والجنسية وغيرها.

2- وفي أمثال عامية الجزائر: (ما يحك لك غير ظفرك، وما يبكيك غير شفرك).

3- سوف نعني بالأحرف: ع ل = العنصر اللفظي. ع د = العنصر الدلالي. ع م = العنصر المرجعي. ونعني بالأحرف: م م ف = مفردات المثل الفرنسي. م م ع = مفردات المثل العربي.

4- وفي أمثال عامية الجزائر: (اضرب الحديد مادامو سْخونْ // اضرب الحديد قبل ما يبرد).

ع د: استغلال الفرصة الحالية والتحذير من تفويتها فقد لا تتحقق في المستقبل.

ع م: كلاهما يحيل إلى تحويل المادة. سهولتها وهي لينة، وصعوبتها وهي متحجرة.

يشترك المثلان في صيغة التركيب حيث يبدأ كل منهما بالوجوب والأمر، ويختلفان في نوع المادة: الحديد/الطين.

La caque sent toujours le hareng

«رائحة الرنكة تند من برميلها»

«**كلُّ إناءٍ يَرْشَحُ بمَا فيه**»[1].

ع ل: م م ف: البرميل + سمك الرنكة + الرائحة = (الخصوصية). م م ع: الإناء + الرشح + (التعميم). ع د: كل شيء لا بد أن يحتفظ بأثر من أصله.

ع م: أصل هذا المثل من اللغة الإسكندنافية، وانتقل إلى اللغة الفرنسية وهو يحيل فيها إلى حقيقة محلية تتمثل في تصبير السمك، وبالتالي التعرف على المواد من خلال رائحتها. ويحيل في اللغة العربية إلى حقيقة عامة غير خاصة تتمثل في التعرف على السوائل من خلال رشحها.

وهذا المثل الإسكندنافي المنتقل إلى الفرنسية بسهولة قد يطرح مشكلة إذا انتقل إلى اللغة العربية في صورته هذه، وذلك لأن اللغة العربية لا تعرف شيئا كثيرا عن تصبير السمك عامة، وسمك الرنكة خاصة. والنتيجة أن أسماء الحيوانات والنباتات وغيرها يمكن أن تشكل صعوبات أثناء نقلها من لغة إلى أخرى. فالمثل العربي يمكن نقله في هذه الحالة لعموميته، ويصعب نقل المثل الفرنسي لخصوصيته.

Charroyer du charbon à New-Castel. [2]

«كناقل الفحم إلى نيو كاستل»

«**كالذي يحمل تمرا إلى البصرة**».

ع ل: م م ف: النقل + الفحم + مدينة نيو كاستل. م م ع: الحمل + التمر = مدينة البصرة.

ع د: لا يصح للقادم أن يأتي بمادة تجارية بغية بيعها في المدينة التي اشتهرت بها.

ع م: أصل هذا المثل إنجليزي وهو غير معروف بصورته هذه في اللغة الفرنسية، وإنما أتينا به لنبين مرة أخرى أن أسماء الأماكن الجغرافية قد تطرح مشكلة في الأمثال، وذلك لجهل المتلقي في لغة الوصول بمكانة تلك المدينة وقيمتها الثقافية أو الاقتصادية وغيرها. إضافة إلى صعوبة نطقها أحيانا وبالتالي استعصاء تمريرها على ألسنة أفراد لغة الوصول. وفي العموم، إن المثلين يشتركان في التشبيه، والنقل (عربة/؟)، ويختلفان في نوع المادة المنقولة (الفحم/التمر)، واسم المدينة (نيوكاستل/البصرة).

1- وفي أمثال عامية الجزائر: (كل عودْ ودُخَّانُ = رائحته).

2- معناه باللغة العربية حرفيا: (كناقل الفحم بالعربات في مدينة نيو كاستل)، واللغة الفرنسية: (Charroyer du charbon à New-Castel). ونيو كاستل مدينة إنجليزية مشهورة باستخراج الفحم.

A Rome faites comme les Romains

« إذا كنت في روما فتشبه بأهلها »

« **إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم** »[1] .

« **إذا دخلت قرية فاحلف بإلـهها** » [2] .

ع ل : م م ف : روما + تشبه + الرومان . م م ع : (1) الدخول + القرية + اليمين + الأهل . (2) فعل الكينونة + القوم + الحلب + الإناء .

ع د : يضرب في الأمر بالموافقة . إذا كنت في قوم فكن مثلهم .

ع م : للتعبير عن الحقيقة السابقة يحيلنا المثل الفرنسي إلى مدينة روما والرومانيين . ويحيل المثل العربي الأول على الحلب في الإناء مهما كانت حالة ذلك الإناء . وأما المثل الثاني فيحيل على إله القرية مهما كان رأيك فيه .

يلاحظ أن المثل الواحد قد يقابله من الناحية الدلالية أكثر من مثل في لغة الوصول أو العكس . كما يلاحظ أن اسم المدينة في هذا المقام لا أهمية له ويمكن استبداله باسم أي مدينة أخرى . والمهم هو الانسياق مع الآخرين وعدم التميز عنهم .

Œil pour œil, dent pour dent

« **العين بالعين ، والسن بالسن** » .

ع ل : م م ف : العين + السن . م م ع : العين = السن .

ع د : (شريعة الذَّحل – Loi du talion) يجب أن يكون العقاب مماثلا للجرم .

ع ل : قد تتقلص المسافة أحيانا بين اللغتين ذات الثقافتين المختلفيتن لدرجة نجد فيها نفس المثل بنفس الصورة ونفس الكلمات أيضا . وهذا ما نلاحظه في الشاهد السابق، والسبب في هذا هو المرجع الديني . وورد هذا المثل في سورة المائدة، الآية 45 على النحو التالي : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ »

Il faut rendre à César ce qui appartient à César et à Dieu ce qui appartient à Dieu

« **ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله** » .

تلعب الترجمة أحيانا دورا مهما في نقل بعض الأمثال، وبالاستعمال والتواتر تشيع وتصبح من نسيج لغة الوصول . وتتميز الأمثال المترجمة بالتطابق التام بين مفردات لغة الانطلاق ومفردات لغة الوصول .وهذا ما نلاحظه في المثال السابق والأمثلة التالية أيضا .

Beaucoup de bruit pour rien

« ضوضاء كثيرة من أجل لا شيء »

1– وقال الشاعر : إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عِدَى لَسْتَ منهمُ فَكُلْ ما عُلِفْتَ مِنْ خَبيثٍ وَطَيِّبِ .

2– وفي أمثال عامية الجزائر : (دِيرْ كِيما جارِكْ، ولاَّ حوَّل باب دارك) .

« **أسمع جعجعة ولا أرى طحينا** »[1].

ع ل: م م ف: ضوضاء + كثرة + لا شيء. م م ع: سماع + جعجعة + رؤية + طحين.

ع د: ويضرب المثل في اللغة العربية لمن يعد ولا يفي، ويضرب في اللغة الإنجليزية والفرنسية للشيء التافه يأخذ أبعادا واسعة.

ع م: يسند هذا المثل في اللغة العربية إلى أبي العلاء المعري، ويسند في اللغة الإنجليزية إلى عنوان عمل من ألعمال الأدبية للكاتب الانجليزي شكسبير. ومن هنا فإن الأمثال تقترب من بعضها دلاليا بالرغم من بعد المسافات الجغرافية، ويتم التعبير عنها بكيفيات مختلفة ولكنها لا تتطابق.

Les chiens aboient, la caravane passe

« **القافلة تمر والكلاب تنبح** ».

« **لا يضر السحاب نباح الكلاب** ».

ع ل: م م ف: الكلاب + النباح + القافلة + المرور. م م ع: القافلة + المرور + الكلاب + النباح.

ع د: من كان متأكدا من مسيرته فلا تشغله الجلبة وإن علا صداها.

ع م: أصل هذا المثل من اللغة العربية وانتقل إلى اللغة الفرنسية بسبب احتكاك الثقافتين غير أن عناصر الثقافة العربية المتمثلة في قافلة الإبل بقيت واضحة في الممثل الفرنسي.

وما تهم الإشارة إليه في هذا المقام هو دور الحيوان في الأمثال والحكم. إن لكل ثقافة حيواناتها المفضلة. ولكل حيوان صفات معينة. فالأسد في الثقافة العربية يتصف بالقوة والجبروت، والثعلب بالمراوغة والدهاء، والذئب بالغدر والحيلة، والضب بالحكمة والحذر، والذبابة بالعناد والجسارة والخطأ، والفراشة بالحمق والخطأ، وهكذا مع كل حيوان.

وموضوع الحيوان في الأمثال العربية والأجنبية يحتاج في حد ذاته إلى دراسة قائمة بذاتها. وإنما أشرنا إليه نظرا لأهميته في ترجمة الأمثال. وما هي الطريقة التي يجب على المترجم اتباعها. هل يتبع صفات الحيوان كما هي في أمثال لغة الانطلاق؟ أو يكيفها بحسب صفات لغة الوصول؟

الخلاصة:

تلعب الأمثال دورا أساسيا في الأعمال الأدبية، وتطرح مشكلة عويصة أحيانا بالنسبة للمترجم. وعلى الرغم من وجود عدد منها يتقاطع في العديد من اللغات كما رأينا إلاّ أن ما هو مختلف يشكل العدد الأكبر في كل لغة. وهو الذي يحتاج من المترجم إلى جهد مضاعف لنقله إلى لغة الوصول. وقد حاولنا في الأمثال التي تعرضنا إليها أن نشير بمنهجية إلى طرق معالجتها، وكيفية التغلب عليها. وإذا كانت الشواهد المحللة تعد قليلة بالنسبة لعدد الأمثال المتشابهة في اللغتين العربية والفرنسية فإن الغرض من هذا البحث هو لفت الانتباه إليها، والتفكير في وضع معاجم مقارنة للأمثال في اللغة العربية على غرار اللغات الأخرى.

1– وفي أمثال عامية الجزائر: (أَلّي يسمع يَفْزَعْ، والّي يطُلْ مايَلْقَاش // المندبة كبيرة والميت فارْ)

الملحق :

L’amour est aveugle

« الحب أعمى »

« حبك الشيء يعمي ويصم » .

« ليس في الحب مشورة » .

« إن الهوى شريك أعمى » .

وعين المحب عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

Après la pluie, le beau temps.

« بعد المطر يعتدل الجو »

« كل هم إلى فرج » .

L’argent est un bon serviteur et un mauvais maître.

« النقود خادم مطيع، وسيد ردئ »

« من أهان ماله أكرم نفسه » .

Avec des « si », on mettrait Paris en bouteille.

« بالتمني نجعل باريس في قنينة »

« أتمنى في الثريا مجلسي والتمني رأس مال المفلس » .

Bonne renommée vaut mieux que ceinture dorée

« صيت ذائع خير من حزام من ذهب »

« لا تقل أصلي وفصلي أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل » .

Les bons comptes font les bons amis

« الحسابات الجيدة تصنع الأصدقاء الجيدين »

« تعاشروا كالإخوان، وتعاملوا كالأجانب »[1] .

Chat échaudé craint l’eau froide

« القط الذي احترق بالماء الحار يخشي الماء البارد »

« مَنْ نَهَشَتْهُ الحْيَةَّ حَذِرَ الرَّسَنَ الأَبْلَقَ »[2] .

Comme on fait son lit, on se couche.

« كما تجهز فراشك تنام عليه »

« دمِّثْ لنفسك قبل النوم مُضْطجعا » .

1– (عاملني كي خوك، وحاسبني كي عدوك) .

2– (اللّي لَدْغُو لَحْنَشْ يِخافْ مَنْ الطّارفة // عَوْدْتِي ماتصُكْ، وانا مانَمَّنْهَا .)

Ce qui guérit l'un tue l'autre

« ما أبرأ الأول قتل الآخر »

« مصائب قوم عند قوم فوائد » .

Charité bien Ordonnée commence par soi-même

« طلب البرّ يبدأ بالفرد نفسه »

« الأقربون أولى بالمعروف »[1] .

C'est en forgeant qu'on devient forgeron

« بالحدادة نصبح حدّادين »

« العلم بالعمل » .

Les cordonniers sont les plus mal chaussés

« الإسكافيون أسوء الخلق أنعالا »

« ابن الإسكافي حاف ، وبيت السقاء بلا ماء »[2] .

Dit-moi qui tu fréquentes, je te dirai qui tu es

« قل لي من تعاشر أقول لك من أنت » .

« الطيور على أمثالها تقع »[3] .

Entre deux maux, il faut choisir le moindre

« من بين ضررين، اختر أدناهما »

« إن في الشرِّ خِيارا » .

« بعض الشرّ أهون من بعض » .

Expérience passe science

« الخبرة تفوق العلم »

« اسأل خبيرا ولا تسأل حكيما »[4] .

Entre l'arbre et l'écorce il ne faut pas mettre le doigt.

« لا يجب وضع الأصبع بين الشجرة ولحائها »

« لا مدخل بين العصا ولحائها » .

La fin justifie les moyens

« الغاية تبرر الوسائل »

« الغاية تبرر الوسيلة »

1– (الْمُومَنْ يَبْدَا بْرُوحَو) .

2– (جزّارْ وُعْشَاهْ لَفْتْ / / طَبَّاخْ وُشَاتِي الْمَرْقَة) .

3– فَرْدَة وُلْقاتْ خْتْهَا)

4– (سَالْ مجرب ولا تْسالْ طبيبْ) .

L’habitude est une seconde nature

« العادة خِلقة ثانية »

« **الطبع يغلب التطبع** » .

Il n’y a pas de fumée sons feu

« **لا دخان بدون نار** » .

Il veut le beurre et l’argent du beurre

« يريد الزبدة ونقود الزبدة »

« **يريد الجمل وما حمل** »[1] .

Il faut tourner sept fois sa langue dans sa bouche avant de parler

La parole est d’argent,le silence est d’or.

« يجب تقليب اللسان سبع مرات في الفم قبل الكلام »

« **إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب** »[2] .

Jeter de l’huile sur le feu

« صبّ الزيت على النار »

زاد الطين بلة .

Les murs ont des oreilles

« **إن للحيطان آذانا** » .

Morte la bête, mort le venin

« اللي تقتلو ما يجيك فازع »

N’éveillez pas le chat qui dort

« لا توقظ الهر النائم »

« **الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها** » .

La nuit tous les chats sont gris

« جميع القطط تصبح رمادية ليلا »

« **الليل يواري حضنا** » [3] .

« **اختلط الحابل بالنابل** »[4] .

1– (عْطَيْتُو الذراع طمع في الكراع / / الطَّمَّاعْ يِبَاتْ سَاري) .

2– الفم المزموم ما تدخلو ذبانة / / احفظ الميم تحفظك {ما شفت / ماعرفت}) .

3– حضن : اسم جبل معروف .

4– (تخلطت معزى وعتروس / / تخلطت وتجلطت / / ما تفرز كعو من بعو) .

Nécessité est mère de l'invention

« **الحاجة أم الاختراع** »[1] .

Nul n'est prophète en son pays

« لا نبي في وطنه »

« **لا نبي في قومه** » .

Nécessité fait loi.

« الضرورة تفرض القانون »

On reconnaît l'arbre à ses fruits

« تعرف الشجرة من ثمارها »

« **الجواب يعرف من عنوانه** » .

Pain dérobé réveille l'appétit

« الخبز المختلس يوقظ الشهية »

« **كل ممنوع مرغوب** » .

« **وكل ممنوع متبوع** » .

« **المرء تواق إلى ما لم ينل** » .

رأيت النفس تكره ما لديها وتطلب كل ممتنع عليهـــا .

La plus belle fille du monde ne peut donner que ce qu'elle a.

« أجمل فتاة في العالم لا يمكن أن تعطي أكثر مما عندها »

« **فاقد الشيء لا يعطيه** » .

Qui sème le vent, récolte la tempête.

« **من يزرع الريح ، يحصد العاصفة** » .

« **كما تزرع تحصُد** »[2] .

Quand le chat est absent, les souris dansent

(عندما يغيب القط ترقص الفئران)

« **غب يا قط ، العب يا فأر** »[3] .

Quand les poules auront des dents

« عندما تصير للدجاج أسنان »

« **حتى يشيب الغراب** »[4] .

1– (الشرّ يعلم السقاطة، والعرى يعلم الخياطة) .

2– اللّي يزرع الريح، يحصد غبارو) .

3– (كي يغيب القط يَشْطحُو الفيران) .

4– (كِي ينور الملح / / كُونْ تعض وذنك) .

Qui va à la chasse perd sa place

« من ذهب إلى الصيد فقد مقعده »

« **من غاب خاب** ».

Qui ne risque rien n'a rien.

« من لم يخاطر بأي شيء لم ينل أي شيء »

«**من راقب النــاس مات غمّــا وفـــاز باللذة الجســـــور**».

« **الضرورات تبيح المحظورات** ».

Qui a bu boira.

« من شرب مرة شرب مرات »

« **من شبَ على شيء شاب عليه** »[1].

Qui ne dit rien consent.

« من لا يقول شيئا فهو راض »

« **السكوت علامة الرضى** ».

Qui se ressemblent s'assemblent

« ما تشابه إلتمّ »

« **إن الطيور على أشكالها تقع** ».

Ras le bol

« امتلأ القدح »

« **طفح الكيل** ».

« **بلغ السيل الزبى** ».

« **إنها القشة التي قصمت ظهر البعير** ».

Renvoyer à la semaine de quatre Jeudis

« مؤجلة للأسبوع ذي الأربعة أخمسة »

« **حتى يرجع الدَّرُّ في الضَّرْع** ».

Si jeunesse savait, si vieillesse pouvait.

« ليت الشباب يعلم، لو الشيخوخة استطاعت »

« **الا ليت الشباب يعود يوما فأخبــره بما فعـــل المشيــب** ».

Un tiens vaut mieux que deux tu l'auras

« خذْ واحدا أثمن كثيرا من ستأخذ اثنين غدا »

« **عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة** ».

« **بيضة اليوم خير من دجاجة الغد** »[2].

1– (اللِّي ذاق البنة ما يتهنى).

2– (احْيِيني اليوم، واقتلني غدوة).

Tous les chemins mènent à Rome.

« **كل الطرق تؤدي إلى روما** » .

Trop de cuisiniers gâtent la sauce

« كثرة الطباخين تفسد المرق »

« **مِنْ كَثْرَةِ المَلَّاحِينَ غرِقَتْ السَّفِينَةُ** » .

Tout est bien qui finit bien

« كل ما هو جيد ينتهي نهاية جيدة »

« **الأمور بخواتمها** » .

Tant va la cruche à l'eau qu'à la fin elle se casse.

« مادامت الجرة تذهب إلى السبالة سوف تنتهي إلى الكسر »

« **ليس في كل مرة تسلم الجرة** » .

Tel père, tel fils.

« هذا الأب، وهذا الإبن »

« **هذا الشبل من ذاك الأسد** »[1] .

« **من شابه أباه فما ظلم** » .

Le temps c'est de l'argent.

« الوقت من نقود »

« **الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك** » .

1– (قالو : منين هذا المْطَيْرَقْ، قالو من ذيك الشجيرة) .

اللغة العربية والترجمة الآلية
المشاكل والحلول

أ ـ د. محمد زكي خضر – الجامعة الأردنية

الخلاصــة

يهدف هذا البحث إلى إعطاء فكرة عن تطور الترجمة الآلية بين اللغات العالمية وآخر ما وصل إليه التقدم في هذا المجال وخاصة في الترجمة الإحصائية. يناقش البحث الوضع بالنسبة للترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها والمشاكل التي تعاني منها ومن ثم تبيان الخطوات التي ينبغي إتباعها للتقدم في هذا المجال. تكون المعاجم والمصطلحات ركيزةً رئيسيةً في الترجمة كما تكون الذخيرة اللغوية حديثًا والعمليات الإحصائية عليها جزءا مهمًا من مرتكزات الترجمة الآلية. لذلك فإن إعداد معجم عربي محوسب وذخيرة لغوية متعددة اللغات تعتبر خطوات هامة في طريق تطوير الترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها. يتطرق البحث أيضا إلى مختلف جوانب الترجمة الآلية كالترجمة الفورية والترجمة متعددة اللغات والبرامج المساعدة للترجمة البشرية والترجمة بمساعدة الحاسوب وإلى وضع الترجمة على شبكة الإنترنيت.

يخلص البحث إلى إيضاح المشاكل التي تعاني منها الترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها اليوم ويشير إلى الحلول التي تؤدي في المستقبل إلى الإفادة من الترجمة الآلية بنطاق واسع.

مقدمــــة

الترجمة هي نقل معاني نص من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الدقة والأسلوب . ويتطلب ذلك فهم النص الأصلي والتعبير عن المحتوى والأسلوب بلغة أخرى. فالمترجم يجب أن يتقن اللغتين االمترجم منها والمترجم إليها.

هناك طريقتان معروفتان في الترجمة. أولاهما تعتمد الترجمة الحرفية والالتزام بمعاني مفردات النص الأصلي ونقلها إلى اللغة الثانية والطريقة الثانية تعتمد على فهم المعنى العام ثم التعبير عنه باللغة الثانية بأسلوب المترجم نفسه.

المترجم يتعرف على الرموز المكتوبة في الترجمة الكتابية والأصوات المنطوقة في الترجمة الشفوية ، أي يقرأ الرموز الكتابية للغة التي يترجم منها إذا كان النص مكتوبًا أو يتعرف على أصوات اللغة التي يستمع إليها إن كانت ترجمة شفوية. وهنا نذكر أن قراءة اللغة العربية المكتوبة بحروف غير مشكولة يستوجب معرفة من القارئ لكي يقوم هو بالتشكيل الصحيح دون أن تبصر عيناه علامات التشكيل. وهو بذلك يستعمل خبراته التي تعلمها وتدرب عليها في ماضي

حياته من قواعد اللغة لكي يستعملها بشكل سريع فينصب المفعول ويرفع الفاعل وربما يفعل ذلك بالسليقة وهو لا يعرف من قواعد إعراب اللغة العربية شيئًأ. أما المترجم للكلام المنطوق فهو يستطيع تمييز الجملة التي يترجمها إن كانت استفهامية أم خبرية أم تعجبية دون وجود علامات استفهام أو تعجب.

بعد ذلك يرجع المترجم إلى الوحدات المعجمية وهي الكلمات والتعبيرات الاصطلاحية ويفهم معانيها في سياقاتها اللغوية والاجتماعية المختلفة، وهنا يجب التأكيد على السياقات المختلفة، لأن الكلمة الواحدة تعني أشياء كثيرة طبقا للسياق الذي ترد فيه. هناك إذن مشكلة معاني الكلمات في السياقات المختلفة (أي تعدد المعاني)، إضافة إلى المشتركات اللفظية (الكلمات التي تتشابه في كتابتها أو نطقها وتختلف في معانيها، مثل عين الإنسان وعين الماء)(1) وهناك التعبيرات الاصطلاحية. وهذه كما سنرى تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للترجمة عامة والترجمة الآلية خاصة.

وهنا ينبغي تحليل المفهوم والوقوف على كنهه وما يتفرع عنه من ظلال في المعنى، وخاصة المجازية منها وغيرها، وذلك حتى تتحدد العلاقة بين هذا المفهوم الأساس وفروعه وبين المفاهيم التي يمكن أن تتصل به بشكل أو بآخر، أي العلاقة بينه وبين مجموعات المفاهيم الأخرى، وذلك للوصول في النهاية إلى الجملة أو شبه الجملة.

فالمفهوم الذي يرتبط بجسم واحد بعينه، أو يدل عليه، هو مفهوم إفرادي، مثل «المريخ.» أما إذا ارتبط المفهوم بعدة أجسام بينها نوع من التجانس الذي يضعها في مجموعة واحدة، فإن المفهوم يكون عاماً (بمعناها الضيق هنا)، مثل «كوكب.» فهذا المفهوم يدل على عدد من الأجسام التي تدور حول الشمس. ولتحديد المقصود يمكن أن يكون التعريف مركّزًا أو موسعًا. وعلى ذلك فإن دقة التعريف تحدد المفهوم. والتعريف قد يكون شاملاً في بعض الأحيان وفي غالب الأحيان لا يخلو من النقص أو أن يكون تعريفًا بالضد أو ما يعرف بالتعريف السلبي أو أن يكون فضفاضًا أو ضيقًا أو يأخذ بمبدأ الإحلال والتعويض إلى غير ذلك من الصفات التي يتصف بها التعريف. وهذا التعريف قد يكون واضحًا في ذهن المترجم وقد يكون مشوشًا فيتصرف في ترجمته لهذا المفهوم وقد يعبر عنه بمفهوم يفهمه هو ويكون قريبًا أو بعيدًا من المفهوم الأصلي

ومن العمليات التي تساعد في التعرف على المفهوم التعرف على الوحدات النحوية وعلى وظائفها: أي تحديد الوحدات (الألفاظ والتعبيرات) ومعرفة دور كل منها في الجملة، مثل المسند والمسند إليه والتكملة. ومن أمثلة التعبيرات المضاف والمضاف إليه، والجار والمجرور والصفة والموصوف وغير ذلك. وكل من هذه التعبيرات له وظيفته النحوية، فبعضها يقوم مقام الفاعل أو المفعول به وبعضها يقوم مقام الصفة أو الظرفية إلى غير ذلك. ومن الوحدات النحوية

الجمل. ولابد للمترجم أن يفهم معنى كل واحد من هذه العناصر ووظيفته اللغوية والنحوية في النص . فصيغة الأمر قد تعبر عن إلزام السامع أو رجاءه أو استعطافه مثلا . كما أن الصيغة الخبرية قد تأتي للإخبار كما تستعمل للطلب غير المباشر (كما في عبارة « أرى أن لديك قلما زائدا ») ، بل وللدعاء كذلك (« رحم الله فلاناً » مثلا) (2) .

ومن الأمور المهمة في الترجمة معرفة حقل النص ومجال تخصصه. مثلا إذا كان النص في علم الكيمياء فإنك تجد أن بعض الكلمات تختلف معانيها في هذا النص مما لو وردت في نص في الفيزياء أو وردت في الالكترونيات. أو أن كلمة وردت في حقل تجارة المواد الغذائية أو في حقل من حقول العلوم الزراعية. وهكذا.

الجانب الثاني وهو التعبير عن محتوى النص باللغة الهدف أي اللغة المترجم إليها. ويتطلب هذا معرفة بإنتاج المقابلات الصوتية أو الكتابية والنحوية والمعجمية والبلاغية . فعلى المترجم أن يعرف أن هذه التعبيرة الإسنادية مثلا تترجم إلى كذا وهو بذلك يجب أن يكون ملمًا بقواعد النطق أو الإملاء وأصول الكتابة : قواعد النطق إن كانت الترجمة شفوية في اللغة المترجم إليها، أو قواعد الإملاء وأصول الكتابة في هذه اللغة، إن كانت الترجمة تحريرية. وهو بذلك يقوم باختيار العبارات المناسبة في اللغة التي يترجم إليها التي توافق المفهوم الذي توصل إليه في الخطوات السابقة.

وهنا تبرز براعة المترجم في اللغتين حيث يجب أن يتقن ما يسمى بالتعادل أو التقابل المعجمي أو الاصطلاحي، فالتعبيرة العربية « رجع بخفي حنين » ليس لها مقابل حرفي بأية لغة ، ولو ترجمت ترجمة حرفية لأصبحت مضحكة . فهو يجب أن يفهم مثل هذه العبارات ويجب أن يعرف العبارات الدارجة التي تقابلها في اللغة الثانية أو على الأقل يكوّن هو تعبيرًا من كلمات تلك اللغة بما يعبر عن المفهوم بدقة كافية مستعملاً القواعد النحوية والصرفية في اللغة التي يترجم إليها. فالترجمة كالكتابة أو التأليف تخضع لقواعد الصحة اللغوية نفسها.

أما القواعد الأسلوبية وهي القاعدة البلاغية المعروفة (لكل مقام مقال) فنجد أن الجملة أو العبارة قد تكون صحيحة نحويًا ومعجميًا ولكنها غير مناسبة من حيث المقام. فالمترجم يجب أن يكون ذا معرفة بالقواعد الأسلوبية للغتين المترجم منها والمترجم إليها (3).

وماذا بعد ذلك ؟ لا يزال هناك مشكلة التعامل مع الجمل الطويلة. فالجمل الطويلة هي من أهم مشاكل الترجمة لأنها تحتاج إلى معالجات ذهنية معقدة وقد تشوش ذهن المتلقي بشكل عام. فقد تحوي الجملة الطويلة على عدة مفاهيم وقد يتجزأ المفهوم الواحد ليتكامل بين بدء الجملة ونهايتها. وقد يتخلل المفهوم الواحد مفاهيم ثانوية. وقد يكون المفهوم المهم مخفيًا بين عدد من المفاهيم الأقل أهمية منه. وهكذا فإن الجملة الطويلة قد تستعصي على الفهم والتحليل وكذلك تستعصي على التركيب في اللغة المترجم إليها.

إن معلوماتنا عن الترجمة محدودة إلى الآن ، ولا نستطيع أن نقول أن المترجم يتبع هذه الخطوات : 1، 2، 3 بل إن كل مترجم له أسلوبه الذي يتبعه في الترجمة ، والأصعب من ذلك تحديد كيفية فهم النص . ماذا نفعل تمامًا حينما نحاول فهم نص ما من النصوص ؟ إن الطريقة التي يتعامل بها دماغ الإنسان مع النصوص لا زالت غير معروفة على وجه الدقة وتخضع لنظريات غير مؤكدة لحد الآن . كما أنه لم تتوفر حتى يومنا هذا أساليب ناجحة للتعامل مع توفير عناصر الحس والخبرة الذاتية والمعلومات وغيرها التي يمكن أن ننقلها بشكل من الأشكال إلى الحاسوب في الترجمة الآلية التي سنتناولها في ما بعد . لذلك يمثل « فهم النص » مشكلة كبرى في الترجمة .

لماذا الترجمة الآلية؟

السبب الأول والأهم هو وجود كمية هائلة مما يجب ترجمته مما لا يكفي المترجمين من البشر القيام بجزء يسير منه خاصة بعد تفجر ثورة المعلومات وتنوع اللغات التي تنتج المعارف اليوم مما ينبغي معرفته ممن لا يتكلمون تلك اللغة . يزيد عدد اللغات الحية اليوم على 4000 لغة في كافة أنحاء العالم . وتأتي اللغة العربية ضمن اللغات العشرة الأولى منها إذا ما أخذنا بعين الإعتبار عدد الناطقين بها . ورغم التأريخ الحافل للغة العربية إلا أنها اليوم ليست المصدر الأهم في العلوم والتقنية الحديثة . لذلك فإن عملية الترجمة من اللغات الإخرى إلى اللغة العربية ذات أهمية بالغة بالنسبة للناطقين بالعربية . فإذا ما أرادوا الإطلاع على آخر ما توصل إليه العلم فإما ان يتعلموا لغة (أو لغات) أخرى بجانب العربية، أو أن يترجم لهم ما يصدر من علوم في اللغات الأخرى . وما نشهده اليوم من إقبال على تعلم اللغة الإنكليزية والتدريس بها في الجامعات والمدارس في العالم العربي ما هو إلاّ نتيجة للتخلف في الترجمة إلى اللغة العربية .

أبرز تقرير التنمية الإنسانية العربية الأول لعام 2002 ضعف حركة الترجمة في الوطن العربي ، بل ضمورها الشديد ، مما يكاد يقضي على دورها المأمول في نقل المعرفة وتوطينها باللغة العربية . وقد كشفت الإحصاءات في هذا الصدد أن ما يترجمه العالم العربي من كتب قد لا يزيد على خمس ما يترجمه بلد أوربي صغير مثل اليونان الذي يقل سكانه عن ٪5 من سكان الوطن العربي . وتتعاظم أهمية الترجمة العلمية يومًا بعد يوم نتيجة الإنفجار المعرفي وتزداد هذه الأهمية بالنسبة لعالمنا العربي لكونه – أساسًا – متلقيًا للمعرفة أكثر منه منتجًا لها . وتعثر الترجمة يعد سببًا رئيسيًا وراء تعثر تعريب التعليم الجامعي (4) .

لمقدم هذا البحث تجربة في ترجمة أحد الكتب العلمية التي تدرس في أقسام الهندسة الكهربائية في كافة أنحاء العالم مثذ السبعينيات في القرن الماضي . فبعد قضاء أكثر من عام في ترجمة الطبعة الثانية من الكتاب ظهرت الطبعة الثالثة فأعيدت الترجمة من البداية وأدى ذلك

إلى تأخر ظهور الترجمة العربية أكثر من عامين آخرين. منذ ذلك الحين ولحد اليوم وصلت طبعات الكتاب الى الطبعة السابعة وهو يحتل مركز الصدارة في الكتب المقررة في الجامعات العالمية لتلك المادة في أقسام الهندسة الكهربائية منذ ما يقرب من أربعة عقود، لكن لم تصدر ترجمة عربية لأي طبعة لاحقة لحد الآن ولم تستعمل الترجمة العربية إلاّ في العراق . ولو قدر لهذا الكتاب وحده أن تستمر ترجمات طبعاته وان تدرس مادته باللغة العربية في الجامعات العربية، لاستعملت منه مئات الآلاف من النسخ على مستوى العالم العربي ولكان أساسا مهمًا لتعريب التعليم في أقسام الهندسة الكهربائية. وهذا يدل على ضرورة العمل المؤسسي المستمر للترجمة بشكل عام وضرورة الترجمة الآلية بشكل خاص ، والحاجة إلى تكامل الجهود بين الجامعات العربية في مجال الترجمة.

والسبب الثاني في أهمية الترجمة الآلية هو أن عملية الترجمة للمترجمين من البشر عملية مملة وبطيئة والمترجم يحاول التغلب على ملله بتغيير أسلوبه تارة وبالراحة تارة وهو كطبيعة البشر ينام ويلهو ويمرض ويغيّر عمله ويتقاعد. كل ذلك يحدد عمل المترجمين ويجعلهم بضاعة نادرة في عصر العولمة. وإذا علمنا أن المترجم غالبًا ما يتقن لغة واحدة مع اللغة الأم التي يترجم منها أو إليها فيعني ذلك ندرة شديدة فيمن يتقن لغة كاللغة الكورية أو اليابانية مع العربية. وهذا يعطي أهمية إضافية للترجمة الآلية فالحاسوب يمكن أن يعمل 24 ساعة في اليوم ولا يأخذ إجازة في نهاية الأسبوع ويمكن استبداله بما هو أفضل منه وتحسين أدائه وسرعته مع التقدم التقني الجاري اليوم. وهناك أسباب أخرى تقف إلى جانب الترجمة الآلية منها حاجة القطاع التجاري إلى ترجمة تعطي فكرة لا بأس بها عن المنتجات الصناعية والتجارية دون أن تكون على درجة عالية من الرصانة مع ازدياد حجم مثل هذه المعلومات المطلوب ترجمتها وتوسعها لتشمل لغات جديدة في عصر العولمة.

أن الحاسوب لديه قدرة جزئية في هذا الجانب لاشك . فكما هو معروف أن الحاسوب يعطيك ما تعطيه أولاً ، حيث إنه إنما يعطيك ما تسجله في ذاكرته أو تعلِّمه على فعله . ومن ثم كلما كان التحليل اللغوي وكانت القواعد اللغوية المقدمة للحاسوب والمخزونة في ذاكرته دقيقة أدى ذلك إلى ترجمات أقرب إلى الصواب (5).

قابلية الحاسوب في خدمة الترجمة

التعادل أو التقابل المعجمي والاصطلاحي يعتمد على ما نخزن في ذاكرة الحاسوب. وكذلك معرفة القواعد النحوية تعتمد على المجهود البشري، كما تعتمد معرفة القواعد الأسلوبية على الجانب البشري، أي على المعلومات والبرامج والإمكانات التي يوفرها مصممو البرنامج الحاسوبي ، فالحاسوب لديه القدرة الجيدة على التعامل مع هذه الأمور بسهولة كبيرة .

وهنا ينبغي أن نناقش إمكانية الآلة على القيام ببعض العمليات التي يقوم بها المترجم من البشر ، وسنعرض في ما يأتي لبعض منها :

1– معرفة الموضوع العام للمادة المطلوب ترجمتها : هناك الكثير من الأبحاث التي أدت إلى تطوير في برامج التعرف على الموضوع العام للمادة المراد ترجمتها أو أخذ فكرة عنها أو اختصارها . فمثلا يمكن للآلة استعمال دلائل تؤدي إلى معرفة إن كانت المادة سياسية أو اقتصادية أو علمية وإن كانت علمية هل هي في موضوع رياضي أو زراعي أو كيميائي مثلاً . إن تحديد موضوع المادة يساعد في تحديد المصطلحات المستعملة في ذلك العلم ومن ثم الوصول إلى ترجمة أكثر دقة وتحديدًا . وبالطبع فإن دقة تعريف موضوع المقال أو البحث أو الفقرة المراد ترجمتها يعتمد على المصطلحات أو ما يسمى بالكلمات المفتاحية التي تحويها، كما يعتمد على كيفية التعامل معها أو ما يسمى بمصطلح الحاسوب الخوارزميات المستعملة في تحديد الموضوع . وعلى ذلك فإن برنامجًا قد يكون أكفأ من برنامج آخر وفق الأسس التي اعتمدها واضعو ذلك البرنامج بالمقارنة مع البرنامج الآخر .

2– استعمال المعاجم اللغوية بمقابلة كلمة مقابل كلمة ضمن الموضوع العام للمادة المطلوب ترجمتها . إن المعاجم قد تكون معاجم بلغة واحدة أو بأكثر من لغة . فالمعاجم بلغة واحدة تحدد معنى الكلمة في نطاق معناها بتلك اللغة وحقول استعمالاتها للوصول الى المفهوم المستعملة فيه تلك الكلمة . أما المعاجم بلغتين أو أكثر فهي تعطي ما يقابل الكلمة من كلمات في اللغة الثانية أو اللغات الأخرى . ويلاحظ هنا كثيرًا من التعقيد حيث هناك الكلمة يقابلها كلمة والكلمة مقابلها كلمتان أو أكثر وقد يكون المفهوم المتكون من أكثر من كلمة يقابله كلمة واحدة في اللغة الأخرى . وهناك الكلمة التي يصعب إيجاد مقابل لها في اللغة الأخرى . كل ذلك يحدد قابليات المعاجم المستعملة في خدمة الترجمة .

3– تفكيك الكلمة إلى مكوناتها فمثلاً للغة العربية يمكن تفكيك الكلمة إلى مكوناتها من سوابق ولواحق كأحرف العطف وحروف الجر وعلامات الإعراب والضمائر المتصلة وغيرها وتطبيق قواعد الصرف على الكلمات ومعرفة وزنها الصرفي وفيما إذا كان مصدرًا أو اسم آلة أو غيرها . ولكن غياب التشكيل يجعل المهمة أصعب ووجود أكثر من احتمال للتفكيك أو التشكيل يجعل المهمة أعقد . ففي بعض الأحيان يصعب التمييز بين أن يكون الحرف في الكلمة حرفًا زائدًا كحرف جر أو حرف عطف أو أن يكون حرفًا أصليًا . فمثلاً كلمة « أهلك » هل هي فعل ماضٍ من الهلاك أم هي للمخاطب من الأهل؟ .

4– تحديدُ المفهوم العام لمعنى الجملة المراد ترجمتها ومحاولة إعادة صياغته لكي يكون مناسبًا للغة المراد الترجمة إليها . فقد أجريت أبحاث كثيرة لتحديد المفاهيم العامة في الحياة

على مجموعات تتشعب منها مجموعات ثانوية وأخرى تتشعب عنها وفق تسلسل منطقي لتصنيف الأشياء الملموسة أو المعنوية. فمثلا التفاحة هي ثمرة والثمرة هي جزء من شجرة والشجرة نوع من النبات. وهكذا تصنف الأشياء تصنيفًا وصفيًا دقيقًا. وقد استعملت مثل هذه المفاهيم في الترجمة بين اللغات بحيث يكون هناك لغة وسيطة تترجم إليها المفاهيم من أية لغة ثم تترجم تلك المفاهيم من اللغة الوسيطة إلى اللغة المراد الترجمة إليها. وقد توسعت هذه الأفكار وخاصة في جامعة الأمم المتحدة في اليابان. إلا أن نجاح هذه الطريقة لا يزال محدودًا لصعوبة تمثيل المفاهيم بشكل دقيق خاصة في الأمور المعنوية والأدبية.

5– تركيب الجملة باللغة المراد الترجمة إليها وفق قواعد تلك اللغة. وهذه العملية تستعمل قوانين النحو والصرف والمعاجم لتركيب الجملة المراد تكوينها وفق المفهوم أو المعنى المستنتج من خطوات سابقة. وتخضع هذه الخطوات لاجتهادات اللغويين وواضعي البرامج الخاصة بذلك.

الحاسوب واستخداماته المختلفة في الترجمة

الحاسوب باستعمالاته اليوم وبالمستوى الذي وصلته عملية الترجمة الآلية لا يعوض عن المترجمين من البشر. وسوف تمضي بضعة عقود قبل أن تصل الترجمة الآلية إلى المستوى الذي يضاهي المترجمين الجيدين. لكن الحاسوب اليوم بإمكانه أن يقدم عونًا لا بأس به للمترجم. ومن هذه المعونة ما يأتي:

أ– الترجمة الآلية مع تحرير لاحق، أي مراجعة بشرية بعد الترجمة الآلية. فالترجمة الآلية البدائية التي تعتمد على ترجمة معاني الكلمات وصياغة الترجمة بلغة ركيكة يمكن أن تكون بداية للمترجم لكي يقوم بإعادة صياغة الجمل وتنقيح المعاني ووضع الترجمة بشكل مقبول ومفهوم. وتجدر الإشارة أنه إذا كانت الترجمة الآلية سيئة جدًا فربما يكون من الأسهل على المترجم أن يقوم بالترجمة بنفسه من جديد بدل تنقيح نص سيئ جدًا.

ب– الترجمة مع التحرير السابق، بمعنى أن الإنسان يحرر النص المراد ترجمته. مثلا يبسط الجمل المعقدة. والكلمات التي لها معانٍ كثيرة يحدد معناها المطلوب وهكذا، أي أننا نعدل النص بحيث يستطيع أن «يفهمه» الحاسوب، وتسمى هذه اللغة المقبولة للآلة Machine Acceptable Language. ويشبه ذلك التحاور مع الحاسوب بلغات البرمجة التي تتضمن كلمات محدودة بصيغ محددة لا يجوز التعدي لها.

جـ– هناك نوع ثالث يسمى بالترجمة التحاورية interactive وهي مثال للتعاون بين الحاسوب وبين المترجم البشري، وذلك بأن يكون برنامج الترجمة ذا إمكانية حوارية بأن يعطي الترجمة جملة جملة ويتوقع من المترجم أن يوافق أو يعدل على بعض أجزائها لكي يصل إلى الترجمة المقبولة.

د- الترجمة البشرية بمعاونة الآلة، أي أن الإنسان يترجم والآلة تعاونه في هذه العملية. وهذا عكس الترجمة التحاورية. هنا نجد أن الإنسان يترجم والآلة تبحث له في المعجم عن الكلمات وتعطيه معاني الكلمات كما تعطيه المرادفات من ذاكرتها .

هـ - الخدمات الحاسوبية الأخرى للترجمة مثل بنوك المصطلحات الآلية بشكل نصوص لمصطلحات متسلسلة أو البحث عن مصطلح فيها أو بإدخال مصطلح لمعرفة مرادفاته أو مقابله بلغة أخرى أو بالحصول على جميع المصطلحات في حقل معين إلى غير ذلك من الخدمات (6).

تأريخ الترجمة الآلية

أول من استخدم الحاسوب في الترجمة بوضوح هو وارن ويفر عام 1947. ومنذ عام 1949 سارت بحوث الترجمة الآلية في الولايات المتحدة قدمًا في جامعات كاليفورنيا ولوس انجلوس وتكساس وغيرها. وفي جورج تاون اجريت بنجاح أول ترجمة من اللغة الروسية إلى الانكليزية عام 1954. وفي عام 1955 أجريت في الاتحاد السوفييتي أول تجربة في الترجمة الآلية من الانكليزية إلى الروسية في الرياضيات (على أساس قاموس يحوي 2300 كلمة) . وقد استمرت الأبحاث في هذه الفترة باستعمال ما يسمى الجيل الأول من برامج الترجمة الآلية حتى عام 1966(6). وقد تبين خلال تلك الفترة حجم الصعوبات الهائلة التي تعترض الترجمة الآلية مما أدى إلى تباطؤ في أبحاث الترجمة الآلية وربما إهمال الموضوع حتى عام 1975.

شهد الاهتمام بالترجمة الآلية في أوربا وكندا بين عامي 1975 و 1985 عودة إلى الأبحاث في هذا الحقل مدة عقد من الزمان تطورت فيه آلية استعمال الأنظمة الخبيرة وتقعيد معالجة اللغات الطبيعية واستحداث ما يمكن اعتباره الجيل الثاني من برامج الترجمة الآلية. وكانت نتيجة ذلك ظهور بعض برامج الترجمة الآلية التجارية في الأسواق التي تستعمل الحواسيب المايكروية. لقد تطور في هذه الفترة البحث العلمي في معالجة اللغات الطبيعية وخاصة اللغات الأوربية واليابانية. وهذا التطور شمل البحوث المعجمية والنحو والصرف والدلالة.

في هذه الفترة تطورت كذلك أساليب الذكاء الاصطناعي الحديثة التي تستند إلى استعمال أنماط رياضية وحاسوبية تحاكي عمل الإنسان أو الكائنات الحية فأساليب الشبكات العصبية والنظم الخبيرة والمنطق المشوش والخوارزميات الجينية كلها تحوي أساليب رياضية تقلد ما يجري في دماغ الإنسان أو تقلد أحياء خلقها الله وعلمها كيف تعيش في مجتمعات وكيف تتصرف كما هو الحال في محاكاة خلايا النمل وأنماط طيران الوزّ. وهذه الأساليب لا زالت في تطور مستمر إلى يومنا هذا.

وفي عام 1989 بدأ عهد جديد في أسس الترجمة الآلية بالاستناد إلى المعلومات الإحصائية حينما قامت شركة أ.ب.م. بمشروع كارديد والذي استند إلى الترجمة بالأمثلة والترجمة المحدودة الموضوع وتعدد اللغات المترجم منها والمترجم إليها. وأعقب ذلك تزايد الاهتمام بالترجمة الآلية لحد لم يسبق له مثيل. وعلى ذلك يمكن اعتبار فترة التسعينيات من القرن العشرين فترة ظهور الجيل الثالث من برامج الترجمة الآلية المستندة إلى الذخيرة اللغوية Corpus Based MT والتي لا تزال في تطور حتى اليوم مع بعض التكامل مع الأساليب الأخرى للترجمة الآلية.

واليوم تأتي الولايات المتحدة واليابان وروسيا والصين في طليعة البلدان التي توظف الترجمة الآلية لخدمة متطلباتها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتقنية.

واقع الترجمة الآلية

هناك الآن ما يقرب من 1000 برنامج ترجمة آلية (خاصة للغات الأوربية) في السوق رغم أن نوعيتها ليست جيدة بشكل عام لكن الطلب عليها عال جدًا. وقد زادت الانترنيت من الحاجة إلى الترجمة الآلية وهي كذلك وسيلة سهلة لتسليم المادة المترجمة إلى من يحتاجها. و سيشهد المستقبل تكاملاً بين عمل المترجمين من البشر والترجمة الآلية حيث تحتاج الترجمة الآلية إلى مترجمين أكفاء لتطويرها ومتابعة عملها وإدخالها في مجالات لم تدخلها بعد (7).

إن استعمال أنظمة الترجمة الآلية قليلة الدقة سيدفع إلى الحاجة إلى تحسين النوعية بشكل مطرد. و سينقلب التوتر السابق بين المترجمين من البشر ومؤيدي الترجمة الآلية إلى تعاون بعد إدراك الجميع أن الترجمة الآلية لن تستطيع إلغاء دور المترجمين من البشر

تبلغ مبيعات برامج الترجمة الآلية في اليابان ملايين النسخ وبكلفة تبلغ عشرات الملايين من الدولارات. ويتوقع أن يتضاعف ذلك مئات المرات خلال العقدين القادمين مع التطور والتحسين المتوقع في الترجمة الآلية مستقبلاً (8).

أساليب الترجمة الآلية–محاكاة الآلة لعملية الترجمة البشرية

يمكن تصنيف برامج الترجمة الآلية بحسب مستوياتها التي تعكس مدى تعقيدها ومدى كفاءتها في الترجمة إلى الأصناف التالية بشكل تقريبي (9):

المستوى الأدنى

وهو باستبدال كلمة محل كلمة مكافئة لها. وهذه تحتاج إلى معجم ثنائي اللغة ضخم. وهنا ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن بعض الكلمات لا مقابل لها وبعضها تحتاج أكثر من كلمة وبعضها لها أكثر من مقابل وهكذا.

المستوى التالي الأعلى من المستوى الأدنى

وهو القيام بعلميات معالجة صرفية للوصول إلى عبارات قياسية لغرض تقليص حجم المعجم المطلوب. وعلى ذلك فهناك حاجة إلى التعامل مع الكلمات بمستوى مخفي بحيث توصف الكلمة بعدة مواصفات صرفية ونحوية. ويقع تحت هذا المستوى طريقة الترجمة بالأمثلة المباشرة حيث يكون هناك ذخيرة لغوية متوازية جملة جملة. وتكون العبارات المتوازية في الذخيرة مكونة من كلمتين فأكثر لكن المشكلة في هذه العبارات هي في مطابقة الجمل المراد ترجمتها مع ما هو موجود في الذخيرة.

المستوى المتوسط الأول

لكي يتم الحصول على الجملة المصدر بشكل صحيح يجب تكوين شجرة إعراب للجملة الأصلية ثم بعد ذلك إسقاط ذلك على اللغة المراد الترجمة إليها. وعلى ذلك فهناك حاجة إلى محلل نحوي بالإضافة إلى المعجم ثنائي اللغة.

المستوى المتوسط الثاني

هناك الكثير من الظواهر اللغوية التي لا يمكن نقلها من لغة إلى لغة بمجرد التحليل النحوي والصرفي. ففي العربية إذا قلنا « إن رأسي يؤلمني » فترجمتها بالانكليزية هي « لدي صداع ». وعلى هذا فمن الضروري فهم المعنى وتمثيل المعنى بشكل سليم لكي يمكن إيجاد المرادف له في اللغة الأخرى. وعلى هذا يجب تطوير المعجم لكي يحوي ترجمة لمثل هذه المعاني المتقابلة. ولهذا فإن معظم برامج الترجمة الآلية اليوم (مثل برنامج سيستران ولوغوس و يوروترا) تحوي محللاً صرفيًا ونحويًا ونوعًا من التمثيل الدلالي لمثل هذه الحالات.

المستوى الأعلى

في هذا المستوى يجب أخذ الأساليب البلاغية العميقة في اللغة المصدر واللغة المترجم إليها ولا زال البحث في هذا المستوى يأخذ أبعادًا مختلفة ويحتاج إلى دراسات لغوية وتمثيل حاسوبي عميق ويمثل قصورًا واضحًا في برامج الترجمة الآلية المتوفرة اليوم.

اللغة الوسيطة

هناك اتجاه باستعمال لغة وسيطة بين اللغات . وقد لاقت فكرة اللغة العالمية الوسيطة صعوبات في أن تحل كل مشاكل الترجمة الآلية. وقد اقترح أن تكون اللغة الانكليزية بوضعها الحالي هي اللغة الوسيطة بين اللغات العالمية جميعًا. وقد يكون من المناسب أن تكون هي اللغة الوسيطة بين اللغات الأوربية الحديثة كوريث للغة اللاتينية التي انبثقت منها معظم اللغات الأوربية. ولكن أليست اللغة العربية جديرة بأن تكون هي اللغة الوسيطة بين اللغات التي يتكلم بها المسلمون

اليوم كالتركية والفارسية والأوردية والسواحيلية والملاوية والبنغالية التي قد اشتقت كثير من كلماتها من العربية؟ هذا سؤال على العرب اليوم أن يجيبوا عليه.

وفي كل الأحوال على برنامج الترجمة الآلية أن يقوم بعمليتين رئيسيتين:

(أ) النقل ، أي عملية إيجاد المقابلات المعجمية والنحوية والأسلوبية لأجزاء النص المترجم، مثل إيجاد الكلمات والتعبيرات المقابلة في المعني والوظيفة للكلمات والتعبيرات الواردة في النص الأصل ، وكذلك إيجاد التراكيب النحوية المقابلة للتراكيب الواردة في النص الأصل

(ب) أما العملية الفرعية الثانية فهي التأليف أو التوليف ، أي صياغة الجمل الناتجة من عملية النقل السابقة صياغة صحيحة صرفيًا ونحويًا وأسلوبيًا، مثل صوغ (رجل +جمع) في صورة (رجال) و(مسلم +جمع+حالة النصب أو الجر) في صورة (مسلمين) ، وكذلك وضع الصفة في العربية بعد الموصوف ومراعاة قواعد المطابقة اللازمة (10).

الترجمة الآلية المستندة إلى الإحصاء

تستند هذه الطريقة الحديثة إلى جمع أكبر ما يمكن من ذخيرة لغوية (corpus) وإعمال أكبر ما يمكن من جهد إحصائي عليها لكي تهيأ للاستخدام في الترجمة الآلية. وهذه الذخيرة المترجمة هي بالأساس مترجمة من قبل مترجمين من البشر فهي تستخلص خبرات البشر للإفادة منها في الترجمة الآلية.

الفلسفة وراء هذه الطريقة هي أن الذخيرة اللغوية إذا كانت كبيرة الحجم بما فيه الكفاية فهي تجمع بين دفاتها معظم الكلمات الشائعة في اللغة ومعظم التعابير اللغوية ومعظم التراكيب النحوية والصرفية فيها. وعلى ذلك فإن أي عملية إحصائية على هذه الذخيرة تعطي نتائج قريبة من واقع اللغة الفعلي.

ويحق لنا أن نتساءل عن مدى صحة هذه الفرضية نظرًا لأهميتها واعتماد نظرية الترجمة الآلية عليها بشكل كبير.

وللإجابة على هذا التساؤل يجب أن نحدد أولاً عن أية ذخيرة لغوية نتحدث؟. ومن أين جمعت؟ وكيف جمعت؟ وأي المواضيع اللغوية تشمل؟ ولأي نوع من الترجمة ستستعمل؟ وهل هي بلغة واحدة أم متعددة اللغات؟ وهل هي جاهزة للتقابل اللغوي؟

ما يحدث اليوم في اللغات العالمية الأخرى غير العربية هو افتراض أن اللغة المتوفر بها كتابات كافية كالصحف والمجلات والكتب المطبوعة والمقالات المنشورة على الانترنيت والإعلانات ونشرات الشركات التجارية تمثل اللغة. ومن ثم استناد الترجمة الآلية لمثل هذه الذخيرة يمثل هذه اللغة أو تلك. ويعتبر حجم الذخيرة الذي يبلغ مئات الملايين من الحروف (مئات الميكابايت) مقدارًا يمثل الحدود الدنيا لحجم الذخيرة التي يمكن الاعتماد عليها للحصول على ترجمة معقولة

ومقبولة. وقد سبق وأن ذكرنا الفقر الشديد الذي تعاني منه الترجمة من العربية وإليها، وعلى ذلك فالذخيرة اللغوية الممكن توفرها باللغة العربية لا تزال محدودة.

ويقع تحت هذا الأسلوب من الترجمة عدة طرائق منها : الترجمة الإحصائية المباشرة والترجمة بالأمثلة والترجمة بالتجاور، ففي الأسلوب المباشر يكون هناك معجم عبارات متقابل بين اللغات المراد الترجمة منها واليها . وفي الأسلوب غير المباشر يتم إجراء تحويلات لغوية متعددة للإفادة من الذخيرة كالتحويلات الصرفية والنحوية والدلالية واستعمال الإحصاء في الأنظمة الخبيرة.

هذه الطريقة تحتاج إلى أعراب الجملة نحويًا بلغتها الأصلية ثم تطبيق جملة من التحويلات على شجرة الإعراب المستحصلة أعلاه وذلك بإعادة تسلسل السلسلة الظاهرية من جهة اللغة الأصلية وذلك للوصول إلى تسلسل أفضل لكلمات الجملة بحيث تكون أقرب إلى اللغة المراد الترجمة إليها وهذه العملية تطبق على الذخيرة المستعملة للتدريب كما تطبق على النصوص المستعملة في الترجمة.

كيف تجرى العملية الإحصائية على الذخيرة:

يقوم الحاسوب أولا باستخراج الكلمات غير المكررة في الذخيرة ليعمل منها قائمة بكلمات الذخيرة. ثم بعد ذلك يقوم بعمل قائمة بكل كلمتين متعاقبتين فيها ليكوّن من ذلك قائمة بالعبارات المكونة من كلمتين فيحدد مرات ورود كل منها، ثم يقوم بعمل قائمة بثلاث كلمات متعاقبة ويعمل منها قائمة تحوي عدد مرات ورود هذه العبارات المكونة من ثلاث كلمات وهكذا يزيد في أعداد الكلمات إلى أن لا يبقى هناك كلمات متعاقبة مكررة أخرى أو يتوقف عند عدد محدد من الكلمات.

هذه العملية الإحصائية هي واحدة من العمليات الإحصائية المهمة التي تستند إليها كثير من أبحاث المعالجة الآلية للغات الطبيعية اليوم. لكن الترجمة الآلية تحتاج إلى نصوص متوفرة بلغتين أو أكثر. فالذخيرة اللغوية يجب أن تكون متوفرة بلغتين ويجب أن تكون مصفوفة بشكل متقابل.

تستند هذه الطريقة إلى عمل جداول بالعبارات المكررة بين اللغتين والمكونة من كلمتين أو أكثر. فترجمة عبارة معينة بأكثر من موقع واحد في الذخيرة بالترجمة نفسها وربما من قبل مترجمين مختلفين يزود برنامج الترجمة الآلية بترجمة مفضلة لتلك العبارة. أما إذا اختلفت الترجمة بين مصدر من مصادر الذخيرة وآخر أو في المصدر نفسه فتتبع الأساليب الإحصائية باختيار الترجمة الأكثر تكرارًا أو التي يقع الموضوع الذي وردت فيه ضمن موضوع النص المراد ترجمته. هذا وإن استخلاص العبارات المحتوية على كلمتين أو أكثر يتم ببرامج حاسوبية متوفرة اليوم.

هذه الطريقة بأسلوبها البسيط تعطي ترجمة غير دقيقة بالتأكيد ، لكن إلحاق معلومات نحوية وصرفية مع المعجم المستخلص من الذخيرة سوف يزيد من دقة الترجمة. وقد استعملت هذه الطريقة على ترجمة محاضر البرلمان الكندي بين اللغتين الفرنسية والانكليزية فوجدت ناجحة لحد كبير وذلك بسبب أن موضوع التحاور في أروقة البرلمان ذو نمط معين وبأساليب متعارف عليها بين المتحاورين. ويعني ذلك أن هناك أسلوبان للإفادة من الذخيرة اللغوية وهما الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر.

الترجمة بالأمثلة

تستند هذه الطريقة إلى إجراء أبحاث على الذخيرة اللغوية لاستخلاص الأمثلة والعبارات الشائعة المتقابلة بين اللغتين المراد الترجمة بينهما. كما أن استخلاص قوالب نحوية بين اللغتين وتعويض الكلمات المقابلة بين اللغتين هو أحد الأساليب التي تقع ضمن هذا الأسلوب. هذه الطريقة عادة فعالة للترجمة بين اللغات التي تعود للعائلة نفسها كالانكليزية والفرنسية أو العربية والسواحيلية بسبب سهولة تكوين قوالب متقابلة بين اللغتين العائدتين للعائلة نفسها لكن الأمر يزداد صعوبة بين اللغات التي تعود إلى عائلات مختلفة

لنأخذ العبارات القرآنية المتشابهة التركيب اللغوي مع اختلاف كلمة فيها(11).

فـ + اعلموا أن الله + ... 3 آيات

و + اعلموا أن الله + ... 12 آية

والله (بصير ، خبير ، عليم) بما (تعملون ، يفعلون ، يصنعون ، يعملون)

والله بما (تـ ، يـ) ـعملون (محيط ، بصير ، خبير ، عليم)

كأنهم أعجاز نخل (خاوية ، منقعر)

مثل هذه العبارات القرآنية يمكن أن تشكل قوالب للترجمة بالأمثلة بحيث إذا تغيرت كلمة فيها فإن القالب يكون نفسه باستبدال ترجمة الكلمة الواحدة فقط.

الترجمة بالتجاور Connectionist

تستند هذه الطريقة إلى استعمال وسائل الذكاء الاصطناعي كالشبكات العصبية وتحليل الجملة إلى شبكة تستعمل كمعلومات لما يرد من جمل لاحقة بحيث يزداد البرنامج خبرة كلما استعمل مرة بعد مرة فهو يخزن خبراته لكي يستعملها مستقبلاً. فإذا ما قام المستخدم بتعديل معنى معين سبق وأن أخطأ فيه البرنامج فإنه يتعلم من أخطائه ولا يكرر الخطأ بل يسلك الأسلوب الجديد بدل ذلك. كما سيأتي ذكره في برنامج جوجل.

المشاكل التي تعاني منها الترجمة الإحصائية

لا تزال الترجمة الإحصائية تعاني من كثير من الصعوبات . من هذه المشاكل أن الدقة في الترجمة الإحصائية تعتمد على نوع ودقة الذخيرة المستعملة وعلى البرمجيات المستعملة فيها.

كما إن تغير اللغة والمفردات المستعملة مع مضي الزمن وضخامة الذخيرة المطلوبة يجعل هناك ضرورة لتحديد الزمن التأريخي للنص. فكلمة «السيارة» حين ترد في نص مكتوب قبل قرون تعني غير «السيارة» المكتوبة في نص مستعمل اليوم. كما أن هناك مشكلة في تحديد الأسماء فكلمة «أحمد» في جملة «أحمد الله على نعمائه» هي ليست اسم علم . ومن الصعوبة بمكان على الآلة تحديد هل الكلمة ذات معنى أم اسم علم. وتحتاج إلى الكثير من الضوابط البرمجية لكي تميز الآلة بين الكلمة كاسم علم أو غيره.

حل الغموض بواسطة المعالجة المتوازية

تتلخص طريقة الترجمة الآلية بالتوازي بأن تستعمل أكثر من طريقة واحدة لترجمة نص معين في وقت واحد، ثم بعد ذلك يجري تقييم هذه الترجمات والمفاضلة بينها لاختيار أفضلها وربما يجري التزاوج بين بعضها للوصول إلى ترجمة تجمع محاسن أكثر من طريقة واحدة بوقت واحد.

بعد إجراء هذه التحليلات نصل إلى احتمالات متعددة للترجمة الوسيطة يجري تقييمها وإسقاط ما هو أقل احتمالا منها ومن ثم الوصول إلى الترجمة الأفضل بحيث يعاد تركيب الجملة في اللغة المراد الترجمة إليها بخطوات معاكسة.

الترجمة الآلية واللغة العربية

تتشابه المشاكل التي تعاني منها الترجمة من اللغة العربية وإليها مع المشاكل التي تعاني منها اللغات الأخرى ، فإذا ما استثنينا الشعر والنثر الأدبي الراقي والمحتوي على دلالات بلاغية عالية فإن هذا ينطبق على اللغة العربية أيضًا. وفيما يأتي بعض خصائص اللغة العربية ذات العلاقة بالترجمة ، فليس المجال هنا للكلام عن خصائص اللغة العربية بشكل عام ولكن هناك بعض الخصائص التي تؤثر على التقدم في حقل الترجمة الآلية بشكل خاص وهو موضوعنا هنا. فمن الخصائص المهمة للغة العربية المستعملة بكثرة اليوم هو غياب التشكيل. ورغم أن هناك محاولات لكتابة برامج للتشكيل الآلي للنص غير المشكول ، إلا أن أقصى دقة قد تصل إليها مثل هذه البرامج اليوم لا يتعدى نسبة ٪95 . ويزيد الخطأ عن ٪5 بكثير بالنسبة لتشكيل أواخر الكلمات. إن غياب التشكيل يجعل القارئ يفترض من عنده تشكيلاً افتراضيًا بما يملكه من ثروة لغوية. وكذلك يقوم المترجم. أما الآلة فيجب تعليمها ذلك(12).

كما أن ندرة استعمال علامات الوقف والفواصل في النصوص العربية يضيف تعقيدًا آخر للنص العربي.

أما من ناحية الصرف والنحو وطريقة الكتابة والعمليات التي تجري على الكلمة من دمج للسوابق واللواحق وإدغام واقلاب وغيرها فهو ما تختص به العربية. ولكل لغة خصوصياتها.

وكثيرًا ما تكون الجملة العربية طويلة ، حيث يبلغ متوسط عدد كلمات الجملة العربية ما يزيد على 35 كلمة (13). وهذا يؤدي إلى بطئ المعالجة الحاسوبية للجملة العربية. ويمكن التغلب على هذا الطول بتقسيم الجملة إلى عبارات... مثلا المضاف والمضاف إليه وأشباه الجمل من جار ومجرور...

لكن هناك بعدًا آخر في اللغة العربية ينبغي الانتباه إليه هو البعد التأريخي. فالنصوص الانكليزية مثلاً التي تتضمنها الذخيرة لا يتعدى تأريخها القرن أو القرنين من الزمان وهي مع هذا قد يلاحظ فيها التغير بين كتابات القرن الماضي والقرن الحالي. وهذا الفرق قد يوازي الفرق بين اللغة العربية في صدر الإسلام (والتي كتبت بها معظم المصادر الدينية والتأريخية ولم تتغير إلا قليلا) واللغة العربية اليوم.

المعالجة الابتدائية للغة العربية قبل الترجمة الإحصائية

تتضمن العمليات التمهيدية للغة العربية قبل الترجمة الآلية إجراء عمليات عديدة منها العمليات الآتية وهذه على سبيل المثال لا الحصر(14).

1- المعالجة الكتابية للنص فيما يتعلق بالهمزات والهاء الآخرية والتاء المربوطة والتشكيل.

2- تجزئة الكلمة إلى سوابق ولواحق وتحديد أجزاء كل منها إن وجدت كألف لام التعريف وحروف العطف وحروف الجر المتصلة والضمائر وعلامات الإعراب وتحديد جذر جذع الكلمة ووزنها الصرفي.

3- الرجوع إلى قواعد تغيير كتابة الكلمة بعد إلحاق بعض الضمائر المتصلة مثل كلمة مكتبة – مكتبتهم وأعلى – أعلاه..

4- تحديد فيما إذا كان العدد المتضمن ضمن الكلمة مفردًا أو مثنى أو جمع وتحديد علامة ذلك كالألف والنون أو الواو والنون وغيرها.

5- حل بعض المشاكل المتوقعة لوجود أكثر من احتمال في تحديد الكلمة المراد ترجمة معناها مثل الكلمات التي تعطي أكثر من معنى باختلاف التشكيل كأن يكون الفعل مبنيًا للمجهول أو للمعلوم أو أن يكون اسمًا أو فعلاً مثل كَتَب كُتِب كُتُب

هذه بعض العلميات التي يجب القيام بها أو ببعضها بحسب البرامج التي تحتاجها الترجمة الآلية والتي يجب القيام بها سواء على الذخيرة اللغوية أو على النص المراد ترجمته من العربية أو

النص المراد توليده باللغة العربية إن كان مترجمًا من لغة أخرى. ولنأخذ العبارات القرآنية الآتية كمثال على العبارات المكونة من كلمتين والواردة في القرآن الكريم بكل أشكالها:

وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ ، يُقيمُونَ الصَّلاَةَ ، لِيُقيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُقيمُوا الصَّلاَةَ، يُقيمُوا الصَّلاَةَ ، أَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ ، وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ، أَقِم الصَّلاَةَ ، أَقِيمُوا الصَّلاَةَ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَأَقِم الصَّلاَةَ ، وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَإِقَامَ الصَّلاَةِ ، وَإِقَام الصَّلاَةِ ، قَائِمٌ يُصَلِّي ، مُقِيمَ الصَّلاَةِ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ ، فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ

فهذه العبارات كل منها يحتوي على كلمة تتعلق بإقام الصلاة مع بعض الإضافات من سوابق أو لواحق أو تغيير في الكلمة الأولى بين الفعل والاسم. فإذا ما حددت الإضافة من ناحية مفعوليتها أمكن ترجمة ذلك إلى اللغة الثانية . فإذا عرفنا من ترجمة معينة ما معنى «إقام الصلاة» بتلك اللغة , أمكن ترجمة كل العبارات السابقة بالاستناد إلى ذلك المعنى بعد الحاقه وتغيير تركيبته وفق قواعد محددة تترجم الإضافات الموجودة في اللغة الأصلية. ويلاحظ أن بين العبارات السابقة العبارة الأخيرة المكونة من ثلاث كلمات: **فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ** حيث أن الكلمتين المعنيتين دخل بينهما جار ومجرور «لهم» ومثل هذه العبارات يجب البحث عنها أيضا لتلحق بمثل هذه المجاميع من العبارات: وكمثال على ثلاث كلمات بينها ضمائر أو ما يقابل تلك الضمائر فتصبح أربع كلمات :

أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم ، أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ، وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ، وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ، وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ

ويلاحظ هنا تغير تسلسل الكلمات بين عبارة وأخرى. وعلى ذلك فإن الترجمة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار ما هو متعارف عليه باللغة المترجم إليها بعد معرفة مفهوم النص وهو «الإنفاق من رزق الله». وكذلك العكس عند الترجمة إلى اللغة العربية.

وصف الكلمة وفق مشروع مداد البيان

من الأمثلة السابقة يتبين أن المعالجة اللغوية للنصوص الأصلية قبل أن تكون جاهزة للترجمة الآلية ضرورية لتمام الإفادة من الذخيرة اللغوية والتي يجب أن تكون بحجم كافٍ لكي تغطي اللغة أو معظم الأساليب الواردة فيها على الأقل. وقد احتوى مشروع مداد البيان الخاص بوصف كلمات القرآن الكريم في قواعد بيانات تفصيلية على معالجات للكلمات القرآنية يمكن أن يخدم اللغة العربية بشكل عام وكمثال على بعض المعالجات التي ينبغي القيام بها في اللغة العربية عند تحليل الأمثلة أو النص المراد ترجمته أو عند توليد نص مترجم المعالجات الآتية ، نورد ما يأتي :

1– الإدغام مثل **مُضَارٍّ وَازَّيَّنَتْ**

2. الإبدال . مثل **وَاصْطَبِرْ**

3. الإعلال بالقلب . مثل: **قِيلَ** أو بالحذف مثل: **قُلْتُ** أو بالنّقل .مثل: **وَيَقُولُونَ** أو بالحذف الصوتي مثل: **نَبْغِ**

4. حذف الهمزة. : مثل: **كُلُوا** و تسهيل الهمزة مثل: **بَادِيَ**

5– حذف ياء المنقوص مثل: **بَاغٍ وَلا عَادٍ**

6. حذف النّون للإضافة مثل: **وَالْمُقِيمِي**

7. حذف حرف العلّة للجزم: **وَلا تَمْشِ**

8. حذف نون الأفعال الخمسة: **وَلا تَقُولُوا**

وعلى ذلك فإن التدريب الذي يجب أن يتم يحتاج إلى كمية كبيرة من الأمثلة التي تحوي مثل هذه الحالات لكي يكون كافيًا للقيام بعملية الترجمة بشكل مقبول.

الذخيرة اللغوية العربية

تعتبر الذخيرة اللغوية لأية لغة مرتكزًا أساسيًا اليوم للباحثين في اللغات الطبيعية. فالخزن على الحواسيب جعل جمع وتصنيف وتحليل الذخيرة اللغوية ميسورًا. وهذه الذخيرة تمكن الباحثين من إطلاق الوصف على خصائص اللغة وعلى النحو فيها ودراستها تأريخيًا وتغيرها مع الزمن (15).

كانت أولى محاولات تكوين ذخيرة لغوية عربية صغيرة في عام 1994. ومن ثم بدأت محاولات متعاقبة لجمع ذخيرة لغوية عربية ذات شأن. ومن هذه المحاولات جمع نصوص جريدة الحياة اللندنية ما بين 1994 و 2000 والتي احتوت على ما يقرب من 76 مليون كلمة منها 666 ألف كلمة غير مكررة. كما حدثت محاولات عديدة أخرى بتكوين ذخيرة لغوية من مستندات الأمم المتحدة متعددة اللغات منها محاولة لعدد من الوثائق بلغ 38 ألف وثيقة تحوي ما يزيد على 50 مليون كلمة.

يزداد استعمال اللغة العربية على شبكة الانترنيت بسرعة هائلة. ففي الوقت الذي ازداد استعمال اللغة الإنكليزية بين عامي 2000 و2008 بنسبة ٪200 ازداد استعمال اللغة العربية خلال الفترة نفسها بنسبة ٪2000 بينما كانت الزيادة في استعمال اللغة الصينية بنسبة ٪600 خلال الفترة نفسها.

يبلغ عدد مستخدمي الانترنيت باللغة العربية اليوم حوالي 60 مليون مستخدم أي بنسبة 4.2٪ من عدد المستخدمين في العالم وهو يقرب من نسبة عدد السكان العرب بالنسبة لمجمل سكان العالم والبالغ حوالي 4.7٪ (16) ويعني ذلك أن نمو استخدام الانترنيت في العالم العربي قد وصل ما يقرب من المعدل العالمي وهو بازدياد. ولكن هذا بالطبع لا يعكس مستوى المحتويات العربية حيث لا تزال أقل من 1٪ من محتوى الانترنيت حسب توزيع اللغات.

بعد اعتماد الرمز الدولي الموحد المعروف باليونيكود في نهاية القرن الماضي ، احتلت الحروف العربية مواقع محددة في جدول الرموز مما يعني أن أي وثيقة على الانترنيت تستعمل هذه الرموز يمكن مباشرة معرفة فيما إذا كانت هذه الوثيقة تستعمل الحروف العربية أم لا. ومن ثم يمكن معرفة لغتها غالبًا.

إن الذخيرة اللغوية يمكن أن تكون مصدرًا مهمًا للمعجم التأريخي وذلك بإدخال معلومات عن تأريخ كتابة النص الذي تتضمنه الذخيرة اللغوية كما ذكرنا أعلاه في معنى كلمة السيارة مثلاً. فترجمة كلمة كهذه يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تأريخ النص المستعمل في الذخيرة اللغوية وما يقابلها من معنى في النص المطلوب ترجمته. لأن اختلاط الأمر قد يؤدي إلى ترجمات غير صحيحة كما هو متوقع.

باستعمال ذخيرة محدودة يمكن توسيع تطبيقها على أمثلة أوسع بكثير منها بتحديد شروط معينة لما يمكن أن يقاس على هذه الذخيرة وإضافة كلمات مركبة بدل الكلمات الواردة في الذخيرة وجداول احتمالية لما يمكن أن يضاف في المستقبل. فمثلا إذا وضعت ذخيرة تشمل كلمات القرآن الكريم فإنه ليس من الصعوبة بمكان تطوير الذخيرة إلى الحديث النبوي مثلاً.

خطوات تكوين ذخيرة لغوية

1- الحصول على نص مكتوب متوفر إلكترونيًا وليس عليه حقوق ملكية فكرية. وتعتبر شبكة الانترنيت أيسر المصادر المتوفرة. يمكن الوصول إلى الصفحة الموضوعة على الانترنيت عن طريق التنقيب باستعمال ما يسمى بالبرامج العنكبوتية بمساعدة رموز HTML. وبعد تنقية النصوص من هذه الرموز يتم الوصول إلى النصوص الخام. و قد تحتاج هذه التنقية في أغلب الأحيان إلى تدخل يدوي . ومن ثم يتم وضع رموز خاصة على هذه النصوص للإشارة إلى مصادرها ومعلومات أخرى عنها. وحيث أن طريقة ترميز النصوص العربية مختلفة بين وثيقة وأخرى بحسب مواصفات الترميز العربية المختلفة لذلك ينبغي أن توحد طريقة ترميزها ليسهل التعامل معها. ويعتبر اليوم الترميز الدولي الموحد (اليونيكود) رغم نقائصه أفضل ترميز لأغراض توحيد النصوص.

بعد إجراء عمليات عديدة لتنقية النصوص من بعض الرموز كالمدة والتشكيل (إن وجد نظرًا لأن الغالبية العظمى من النصوص هي غير مشكولة) وأنواع الهمزة والتاء المربوطة والهاء الآخرية وغيرها مما يكثر اللبس فيها. ويلاحظ أن مثل هذا التوحيد يزيد من الغموض واحتمالات الخطأ كما يخفي في طياته بعض المؤشرات حول مصادر النصوص وأماكن تداولها وغير ذلك من المعلومات.

الذخيرة ما هي إلا خزان ضخم للغة المستعملة. والبرامج الخاصة بالذخيرة هي وسائل لإعادة ترتيب هذا الخزان لكي يكون بالإمكان استخلاص الملاحظات عن اللغة من خلالها. وتشير الأبحاث إلى أن الشبكة العنكبوتية اليوم مؤهلة تمامًا للحصول على ذخيرة لغوية مناسبة للغة العربية من خلال نصوص الصحف اليومية والصفحات التجارية والشخصية والكتب القديمة والحديثة المتوفرة على الشبكة. إلا أن النصوص المترجمة بلغة أخرى توازي اللغة العربية، فيما عدا وثائق الأمم المتحدة، لا تزال قليلة لا تكفي لتكوين أساس لذخيرة لغوية متعددة اللغات يمكن الإعتماد عليها بكفاءة.

2– عملية التوافق بين النصوص في الذخيرة المكونة لأكثر من لغة واحدة. يجب مقابلة النصوص المترجمة مع بعضها البعض بشكل دقيق فقرة فقرة. وإذا أمكن وضعها جملة جملة أو عبارة عبارة فذلك أفضل بالطبع ولكن في العادة لا يمكن ذلك تمامًا. وهنا يجب حل بعض جوانب الغموض. والجدول الآتي يبين مثالاً لذلك:

Narrated ‘Umar bin Al-Khattab: I heard Allah’s Apostle peace be upon him saying,	عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
The reward of deeds depends upon the intentions	إنما الأعمال بالنيات،
and every person will get the reward according to what he has intended.	وإنما لكل امرىء ما نوى،
So whoever emigrated for worldly benefits or for a woman to marry, his emigration was for what he emigrated for.	فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه

3– يلاحظ في أغلب الأحيان أن الكلمات ومعانيها المقابلة لها بشكل منفرد هي الغالب أي أن الغالبية العظمى من كلمات الذخيرة لها مقابل واحد أي كلمة مقابل كلمة. وكذلك عبارة مقابل عبارة حتى ولو كان هناك في بعض الأحيان قلب لتسلسل الكلمات ضمن العبارة الواحدة.

4– بعد ذلك يمكن جمع الإحصائيات عن تكرار الكلمات والعبارات والتركيبات الهيكلية في النصوص وهناك برامج متخصصة لاستخلاص المعلومات الإحصائية عن الذخيرة. ومن هذه الإحصائيات يمكن استخلاص معاني الكلمات والعبارات بحسب أعلى تكرار لها وحل بعض مشاكل الغموض الذي يحدث.

5– يلاحظ في النصوص وجود نقاط ارتكاز لمقابلة التراجم مع بعضها البعض مثل وجود الأرقام في النص والتواريخ وأسماء الأعلام وعناوين الفقرات. ومثل نقاط الارتكاز هذه بالإضافة إلى النقاط والفوارز بين الجمل يمكن استعمالها لترتيب الذخيرة بشكل متوازي . وينتج عن ذلك ثلاثة أنواع من التقابل بين النصوص:

أ – تقابل قوي حينما تحوي النصوص وترجمتها على عدد متساوي من الكلمات المتقابلة وهي حالات نادرة .

ب– تقابل متقارب حينما يكون عدد الكلمات نفسه لكن هناك اختلاف في تسلسل الكلمات.

ج – تقابل ضعيف حينما يكون تسلسل الكلمات وعددها مختلف ولكن المعنى متوافق وفق المعجم، وعلى العموم فإن:

1– هناك علاقة معنى بين فصلين مترجمين متقابلين

2– هناك علاقة معنى بين كل فقرتين مترجمتين متقابلتين

3– هناك علاقة معنى بين كل جملتين مترجمتين متقابلتين

4– هناك علاقة معنى بين كل كلمتين مترجمتين متقابلتين إذا كانت إحدى معاني الكلمات واردة في المعجم.

5– يعتبر ورود الأرقام والتواريخ نقاط ارتكاز للتقابل بين النصوص المترجمة

6– تسعمل نظرية الاحتمالات لحل بعض الغموض الذي يحيط بالتقابل بين النصوص.

الأبحاث الغربية مؤخرًا في الترجمة من اللغة العربية وإليها

بعد الحملة الشرسة على الأمة الإسلامية بحجة أحداث الحادي عشر من أيلول برزت الحاجة لدي الدوائر العسكرية والمخابراتية والإعلامية الغربية للترجمة من اللغة العربية خاصة. فبعد الاحتلال الأمريكي للعراق جُهز بعض الجنود بأجهزة تشبه الهاتف النقال بحيث يتكلم الجندي بكلمات أو عبارات باللغة الانكليزية فتنطق ترجمتها بالعربية لكي يسمعها العراقي وبالعكس. كانت الكلمات والجمل محدودة وقد سجلت باللهجة العامية العراقية. إلا أن كل ذلك توقف خلال أسابيع عند بدء المقاومة العراقية وتوجس

جنود الاحتلال بعد ذلك من التحاور مع السكان المدنيين خوفًا على حياتهم من أن يكون من يقترب منهم هو من أفراد المقاومة (17).

وقد شهدت كثير من الجامعات الأمريكية والأوربية جهودًا حثيثة للبحث عن معالجة اللغة العربية حاسوبيًا والترجمة منها وإليها. وقد شملت هذه الأبحاث البحث في النحو والصرف والدلالة والترجمة وجمع الذخيرة اللغوية وكيفية تكوين المعجم المحوسب والاستفسار باللغة العربية وتكوين الخلاصات وغير ذلك من الأبحاث المتعلقة باللغة العربية.

المعجم العربي المحوسب

يكاد أن يتفق الحاسوبيون العرب المهتمون بمعالجة اللغة العربية على أن من أهم ما تحتاجه اللغة العربية اليوم لدخولها عالم تقنية المعلومات بفاعلية هو تكوين معجم عربي محوسب يتضمن كل مفردات اللغة العربية بشكل يسهّل التعامل مع مفرداتها في كافة التطبيقات ذات العلاقة. إن السبب في عدم تكوّن مثل هذا المعجم لحد الآن هو عدم وجود جهة علمية ذات قدرة مالية على مستوى العالم العربي تأخذ على عاتقها القيام بمثل هذا المشروع الضخم والبالغ الأهمية.

سنحاول هنا أن نبين أهمية المعجم والخطوة الأولى في تكوينه وهي وضع مواصفة له بحيث يبني عليها من يأتي من بعد.

ما المقصود بالمعجم العربي المحوسب؟

تتوفر للغة العربية قواميس تعطي معاني كلماتها للغات أخرى. كما تتوفر قواميس عربية عربية تعطي معاني الكلمات بكلمات أخرى. ويوضع في هذه القواميس عادة تصريف الكلمة وبعض المدخلات الأخرى. وقد تعددت المعاجم العربية وتنوعت خلال العصور السالفة ولكن القصد منها في كل الأحوال كان واحدًا وهو حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم، وحراسة العربية من أن يقتحم حرمها دخيل لا ترضى عنه العربية، وصيانة هذه الثروة من الضياع.

مرت المعاجم العربية بأطوار مختلفة وتعددت مدارسها المعجمية واللغوية، ومن هذه المدارس: مدرسة الخليل ومدرسة أبي عبيد ومدرسة الجوهري. ومن المعاجم المعاصرة التي سارت على نهج الترتيب الألفبائي« المعجم الوسيط » الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

إما المعجم المحوسب فهو معجم خاص يجب أن يحوي رموزًا خاصة لتصريف الكلمة ومعلومات أخرى عنها تدرج فيه مفردات اللغة بالتفصيل بحيث يكون بالإمكان الإفادة منها حاسوبيًا .

أهمية المعجم العربي المحوسب

المعجم المحوسب ذو أهمية بالغة في كافة تطبيقات اللغة حاسوبيًا. فالمعجم أساس للتشكيل الآلي وللترجمة الآلية وللترجمة الفورية آليًا ولتوليد الكلام حاسوبيًا وللإملاء الآلي ولبرامج فهم الكلام آليًا ولتعليم النطق للأطفال وذوي الاحتياجات الخاصة ولتحليل النصوص ولفهم دلالة النص ولتلخيص النصوص آليًا وللاستفسار والإجابة آليًا ولكافة تطبيقات توليد الأصوات آليًا وغير ذلك من التطبيقات التي بدأت بالانتشار بلغات أخرى وما سيظهر في المستقبل منها كثير وكثير جدًا خاصة بعد التوسع في التخاطب مع الآلات بالصوت في مختلف التطبيقات وسيكون لبصمة الصوت مستقبل يشبه بصمة الإصبع والتوقيع.

يقصد بمواصفات المعجم تحديد خصائص الكلمة العربية التي هي وحدة بناء الجملة وينبغي أن توضع لها رموز في المعجم وذلك لكي يمكن للمعجم المساعدة في كل التطبيقات التي ذكرت سابقًا أو المحتمل أن تبرز لها الحاجة مستقبلاً. وينبغي وصف الأسماء من ناحية البناء والإعراب والتذكير والتأنيث وحالة آخره من ناحية المقصور والمنقوص والممدود والتعريف والتنكير ومن ناحية العدد مفردًا أو مثنى أو جمعا وإن كان جمعًا هل هو للمذكر السالم أم المؤنث السالم أم للتكسير وبالنسبة للمجرد أو المزيد هل الجذر ثلاثيًا أم رباعيًا أم خماسيًا وبالنسبة للزيادة هل هي بحرف أم حرفين أم ثلاثة وغير ذلك.

وأمّا الفعل فيأخذ الصّفات الآتية: زمن الفعل ماض أم مضارع أم أمر ومن ناحية الصحة والاعتلال هل هو صحيح سالم أم مهموز الأول أم مهموز الآخر أم معتل ناقص أم غير ذلك ومن ناحية التمام والنقصان هل هو تام أم ناقص ومن ناحية الجمود والتصرف واللزوم والتعدي هل هو متعد بنفسه أم بحرف جر وهل هو مجرد أم مزيد وعدد حروف الزيادة وهل هو مبنٍي للمعلوم أم للمجهول إلى غير ذلك من الصفات التي تلازم الفعل.

وأما الحرف فيؤخذ نوعه إن كان حرف جر أو حرف عطف أو غير ذلك وتفاصيل إعمال الحروف وهل هي متصلة أم منفصلة كتابة إلى غير ذلك من الصفات.

المعاجم المحوسبة في اللغات الأخرى

وبصورة عامة ليس هناك طريقة عالمية موحدة لتركيب المعجم الآلي اليوم . وقد قام بعض الباحثين بمقارنة 55 معجم آلي[18].

تتباين المعاجم في محتوياتها تباينًا كبيرًا. وليس هناك نمط عام واحد تلتزم به المعاجم المحوسبة. فهي تختلف بين لغة وأخرى بل بين الجهات العلمية والتجارية التي قامت بوضع مواصفاتها وتغذيتها بالمعلومات اللغوية.

فهناك المعاجم أحادية اللغة التي تصف مفردات اللغة وتصريفاتها ومعانيها. وهناك المعاجم ثنائية اللغة أو متعددة اللغات. وهذه المعاجم تستند في إعدادها على المعاجم بكل واحدة من اللغات المكونة لها. لذلك فأي معجم يحوي اللغة العربية مع لغة أو لغات أخرى يحتاج إلى المعجم العربي المحوسب أحادي اللغة أساسا.

لقد تأخر ظهور معجم عربي محوسب الآن وإن المزيد من التأخير سيدفع الشركات الأجنبية إلى أن تبني معاجم قاصرة خاصة بها نتيجة حاجاتها التجارية له. ومما لا شك فيه أن الدوافع التجارية لوحدها لن تخدم اللغة العربية كما يجب أن تُخدم. وقد بدأت بعض الشركات فعلاً بجمع الكلام العامي ليكون أساسًا لأجهزة التعرف على الكلام المنطوق مما يقلل من استعمال اللغة الفصحى ويشيع اللهجات العامية وكتابتها مما يؤدي إلى ازدهار هذه اللهجات وتطويرها لتكون لغات مختلفة بحيث لا يفهم المتكلم بإحداها الأخرى.

ومن ناحية أخرى فإن خدمة اللغة العربية من قبل الشركات الأجنبية ينتج عنه كثير من الأخطاء اللغوية الجسيمة التي يمكن أن يقع بها أفراد من العرب ممن يقدم الخدمات لمثل هذه الشركات والمؤسسات الأجنبية وما الخلط بين ترجمة الأربعين النووية والأسلحة النووية عنا ببعيد.

محاولات الترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها

قامت محاولات عديدة للبدء بترجمة آلية من اللغة العربية وإليها. وقد أثمر بعضها بتكوين أنظمة ترجمة آلية بينما أصبح البعض الآخر طي النسيان. وفيما يأتي بعض من هذه المحاولات:

1– محاولة الدكتور بشاي الأستاذ السابق بجامعة هارفارد، وذلك منذ أوائل السبعينيات.

2– برنامج ترجمان التونسي والبرامج الأخرى التي تعمل عليها عدة جهات في مصر والأردن.

3– نظام «المترجم العربي» الذي طورته شركة ATA في لندن، وقد طورت الشركة المذكورة برنامجا مصغرا أسمته «الوافي».

4– نظام «عربترانز»، وقد طورته شركة عربية أيضا في لندن.

5– نظام «الناقل العربي» الذي طورته شركة سيموس العربية في باريس، و لدى الشركة المذكورة أربعة برامج للترجمة بين الإنجليزية والعربية وبين الفرنسية والعربية – برنامج لكل اتجاه.

6– نظام شركة أبتك Apptek

7– نظام سيستران Systran برنامجا للترجمة من الإنجليزية إلى اللغة العربية وهناك موقع www.systranet.com وتقوم عليه واحدة من أشهر وأقوى الشركات في هذا المجال وتم تأسيسها عام 1968م.

8– نظام وايدنر Weidner الذي طور أيضا برنامج للترجمة من الإنجليزية إلى العربية.

9- شركة ألبس Alps التي لا زال لديها برامج للترجمة بين عدد من اللغات ، وتطبق مبدأ الترجمة التحاورية

10- في فرنسا لدى جامعة غرينوبل Grenoble .

11- موقع المسبار وهو موقع يهتم أيضا بالترجمة الالية من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس ويمتاز بالسهولة والمرونة عند استخدامه ويحقق مستوى مقبولاً من الترجمة في مستوياتها البسيطة التي أشرنا لها عند الحديث عن أنماط الترجمة .

12- موقع : www.freetranslation.com

13- موقع : www.itranslatoronline.com .

14- لقد وظفت شركة صخر لبرامج الحاسب محركًا الترجمة الآلية الخاص بها في دعم موقع http://www.tarjim.com/، وهي خدمة ترجمة فورية تقوم بترجمة أي صفحة. وقد كانت أولا ترجمة مجانية بينما الآن يمكن إرسال النص المطلوب ترجمته والحصول على الترجمة بأجور.

15- برنامج شركة جوجل: وهو برنامج مجاني أعلن عنه مؤخرًا ويستند إلى الترجمة الإحصائية من ذخيرة لغوية مأخوذة من الانترنيت. والجدير بالذكر أن هذا البرنامج يتعلم من أخطائه فإذا ما ترجم جملة خاطئة وأخبره المستخدم أن الترجمة خاطئة وأن المفروض أن تكون بشكل آخر فإنه يخزن هذه المعلومات ويستعملها في المستقبل بشكل أصح ولا تزال الذخيرة اللغوية التي يستعملها محدودة لكن مستقبل هذا النظام يتوقع له التقدم حيث أن شركة جوجل من أكبر شركات البحث على الانترنيت اليوم.

ولتبيان القصور الذي تعاني منه المترجمات الآلية المتوفرة فقد أعطيت الجملة التالية إلى مترجمي صخر (غريب) وجوجل فكانت النتائج كالآتي :

الجملة الإنكليزية	Lawyers for the four Iraqis confirmed the first suit was registered at the U.S. District Court in Seattle,Washington
مترجم غريب	المحامون للأربعة عراقيين أكدوا أنّ القضية الأولى سُجّلت في محكمة المقاطعة الأمريكية في سياتل، واشنطن
مترجم جوجل	محامون لأربعة عراقيين وأكدت الدعوى الأولى المسجلة في الولايات المتحدة أمام المحكمة المحلية في سياتل، واشنطن
الترجمة الصحيحة	أكد المحامون عن العراقيين الأربعة أن الدعوى الأولى قد سُجلت في الولايات المتحدة لدى المحكمة المحلية في سياتل بواشنطن

وهكذا يتبين أن الترجمة الآلية بوضعها الحالي لا تزال قاصرة ولكن يمكن أن تساعد المترجم الذي يعرف اللغتين أن يراجع الترجمة لوضعها بالصيغة المناسبة الصحيحة. ويبقى أن تثار استفسارات عن دلالة النص الأصلية التي قد يحار فيها المترجم من البشر هل أن النص يشير إلى أن المحامين الموكلين من قبل العراقيين قد كان تأكيدهم المذكور موجها للعراقيين الأربعة أم هو تأكيد صحفي عام أم غير ذلك. وربما يبرز تساؤل عن دقة ترجمة كلمة confirmed بكلمة «أكِّد» حيث أنها تعني تأييد معلومة معروفة مسبقًا بشكل غير يقيني . ويتبين أن الترجمة الآلية حتى لو وصلت بمستوى الترجمة البشرية فإنها تعاني من غموض تحتويه اللغة بكل حال من الأحوال.

جوانب أخرى ذات علاقة بالترجمة الآلية

تركز بعض الأبحاث على نطاق محدود من فوائد الترجمة الآلية: من هذه المجالات ترجمة عبارات الاستفسار بين اللغات. في هذا المجال تؤدي الترجمة الآلية لعبارة الاستفسار إلى لغات أخرى ومن ثم يبحث عن موضوع الاستفسار بشتى اللغات التي تتم الترجمة إليها. ولغرض تقليل المعاني المحيرة عند الترجمة وزيادة كفاءة الترجمة يجب أن تحوي المعاجم على إشارة لموضوع الكلمة(19).

ترجمة الكلام المنطوق

ليس هناك ترجمة فورية آلية موثوقة لحد الآن لكن ما متوفر لا يتعدى قواميس صوتية أو ترجمة لعبارات بين لغات متعددة . ويمكن أن تجد مثل هذه الأنظمة تطبيقات في حجز الفنادق والحجز على الخطوط الجوية والمشاركة في المؤتمرات وطلب الطعام من المطاعم والاستفسار عن اتجاه السير والحجز لدى العيادات الطبية والمستشفيات واستئجار السيارات وغيرها.

إن مشاكل ترجمة الكلام المنطوق تفوق مشاكل النص المكتوب نظرًا لأن هناك عادة الكثير من الكلام المتداول الذي يحوي أخطاء نحوية أو جملاً ناقصة. هذه المشاكل يمكن حل بعضها بالتحليل التركيبي المحدد. فمثلا يمكن إهمال ترتيب الكلمات في الجملة أو إهمال مفعول الكلمات المساعدة في الجملة. ويعني ذلك وضع قواعد لغوية مطاطة للترجمة الفورية الآلية.

وهذا يحدد نطاق الكلمات التي يستعملها المتكلم وطريقة نطقها وسرعة النطق وطول الجملة وصيغ التوقف بين الجمل...

هناك محاولة لاستعمال الرسائل القصيرة على الهاتف النقال للترجمة وتمتاز بأنها قصيرة ومحدودة المعجم وبأنها قابلة للتطور والتوسع(20).

المشاكل والحلول

مما سبق يتبين أن هناك الكثير من المشاكل التي تعاني منها الترجمة الآلية بشكل عام وما يخص اللغة العربية بشكل خاص، ونوجزها فيما يأتي:

1- عدم وجود معجم عربي محوسب

2- قلة النصوص المترجمة بين اللغة العربية واللغات الأخرى التي يمكن الإفادة منها في تكوين ذخيرة لغوية مفيدة للترجمة الآلية التي تستند إلى أسس إحصائية

3- قلة الأبحاث اللغوية المتعلقة بالترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها وعدم وجود دعم كافٍ للبحث في هذا المجال ومن ذلك البحث في التحليل الإحصائي والتعرف على الأصوات ومشكلة الكلمات متعددة المعاني ومشكلة التحليل الصرفي المشترك لفظيًا ومشكلة فهم المعنى من السياق ومشكلة الإعراب والنحو ومشكلة التشكيل.

4- عدم وجود تعاون مشترك بين الباحثين في المعالجة الآلية للغة العربية والباحثين في اللغات الشرقية الأخرى كالتركية والفارسية والأوردية والبنغالية والماليزية والسواحيلية.

إن الحلول لهذه المشاكل تتلخص بما يأتي:

1- القيام بحملة توعية للقيادات السياسية والعلمية والجهات الداعمة للبحث العلمي على أهمية البحث العلمي في حوسبة اللغة العربية على نطاق المجامع اللغوية العربية وأقسام الحاسوب واللغة العربية واللسانيات في الجامعات العربية وتوجيه الأبحاث نحو التطبيق العملي.

2- تكوين قيادات بحثية في أقسام اللغة العربية ذات خلفية حاسوبية جيدة وفي أقسام الحاسوب ذات خلفيات جيدة باللغة العربية لكي يكون التواصل والبحث العلمي على أتم وجه.

3- السعي لجعل اللغة العربية لغة وسيطة للترجمة الآلية بين اللغات الشرقية كالتركية والفارسية والأوردية والبنغالية والماليزية والسواحيلية والكردية، والتواصل مع الجهات البحثية في هذه اللغات والإفادة من نتائج أبحاثها دون الإقلال من أهمية البحث العلمي في الترجمة الآلية من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية أيضا.

الخلاصة

اللغة العربية أمانة اليوم في أعناق هذا الجيل. فالتحديات التي تواجهها الأمة في النواحي الثقافية والفكرية والتقنية كلها ذات علاقة باللغة. لذلك فإن التقاعس عن خدمة اللغة العربية اليوم يؤثر على مستقبل الأجيال القادمة وعلى نهضة الأمة وتقدمها.

الترجمة علم تطبيقي يخدم الأمة وعلى اللغويين أخذ موقف عملي للحفاظ على اللغة من جهة وتقديم الخدمة لمن يتكلم باللغة بأفضل وجه. لأن الخيار الآخر هو عزوف العامة عن اللغة واستبدالها باللغات الأخرى أو اللهجات المحلية. وعلى اللغويين إعمال جهدهم في البحث التطبيقي للغة بما ييسر تعامل اللغة العربية مع الترجمة الآلية وقد يحتاج ذلك إلى سلوك مسالك جديدة في أبحاث اللغة العربية، فإن التضحية ببعض جوانب اللغة أهون من التضحية باللغة كلها.

حين سئل الزعيم الصيني ماوتسي تونج عن رأيه بالثورة الفرنسية بعد مضي 200 عام عليها قال : من المبكر الحكم عليها الآن. ولذلك فمن المبكر الحكم على الترجمة الآلية اليوم بعد مضي حوالي 50 سنة على بدء البحث العلمي فيها (21).

عند بدء البحث في الترجمة الآلية كان الهدف هو الوصول إلى ترجمة آلية لكل أنواع ومحتويات النصوص وبمستوى نوعية جيدة تكافئ المترجم البشري. لكن بعد وقت قصير تبين بأن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه في المدى المنظور لكن كذلك تبين أن كثيرًا من النصوص المترجمة ترجمت بدقة ضعيفة مفيدة للمترجمين لكي يقوموا بتحسينات عليها كما أنها تعطي فكرة عامة عن الموضوع حينما لا تكون الدقة العالية ضرورية. وحينما يصبح بالإمكان استعمال الترجمة الآلية على الانترنيت والراديو والتلفزيون والهاتف ستكون الترجمة الآلية جزءًا من هذه المعدات وسيكون استعمالها من كل البشر (22).

إن الترجمة الآلية اليوم هي بيد الحاسوبيين واللسانيين واللغويين. لكن بعد عقدين أو ثلاثة من الزمن وفي ضوء التطور الحاصل في قدرات الحواسيب يتوقع أن تتوفر حواسيب ذات قدرات تفوق حواسيب اليوم بمئات أو آلاف المرات وعندها يكون بإمكانها القيام بعمليات تسهل عملية الترجمة الآلية كثيرًا. ولكن في ضوء العولمة والحاجة إلى التواصل بين البشر بلغاتهم المختلفة أليس من الأجدى استغلال الإمكانات المتوفرة اليوم؟ وهل استغلت جهود المترجمين من البشر كما يجب لخدمة الترجمة الآلية؟ (23)

نظرًا لعدم الوصول إلى طريقة مثلى للترجمة لحد الآن وقد ينتظر عقدين أو أكثر من الزمن للوصول إلى طريقة عامة دقيقة للترجمة الآلية فإن اعتماد أكثر من طريقة واحدة بالتوازي هو ما يحبذ الآن. وهناك أبحاث عديدة تستند إلى اعتماد طرائق متعددة بوقت واحد لترجمة النص نفسه ومن ثم يتم الاختيار بينها بعد ذلك. وتعتمد طريقة الترجمة الآلية على نوعية الترجمة المطلوبة من ناحية الدقة والرصانة اللغوية وعلى الكلفة المرصودة وعلى الزمن المستغرق وفيما إذا كان النظام قابلاً للتحسين في المستقبل أم لا. (24)

المصادر باللغة العربية

(1) د.محمود اسماعيل صالح (الصيني) – أستاذ اللغويات التطبيقية – مدير مركز الترجمة بجامعة الملك سعود (سابقا) الحاسوب في خدمة الترجمة والتعريب/www.emro.who.int ahsn/meetings/sep03/day2/Dr. %20 Mohammed % 20 Saleh. doc

(2) الأستاذ الدكتور محمد الصرايرة – قسم اللغة الإنجليزية– جامعة اليرموك – اللغة العربية والترجمة الآلية – محاضرة في مجمع اللغة العربية الأردني – الموسم الثقافي التاسع عشر 2001م

(3) د. نبيل علي – الفجوة الرقمية – عالم المعرفة 318 أغسطس 2005

(4) أ.د. محمد زكي خضر «الطريقة الإجمالية في ترجمة معاني القرآن الكريم» – المؤتمر الدولي الثاني في اللغة والترجمة – مركز أطلس العالمي للدراسات والأبحاث – عمان – الأردن – 14-15/12/2002.

(4) أ.د. محمد زكي خضر «مداد البيان» – ندوة حول مشروع قاعدة بيانات حاسوبيّة للقرآن الكريم، مجمع اللغة العربية الأردني 20 ذي الحجة 1427 هـ 9 كانون الثاني عمان – الأردن – 2007.

(6) الترجمة الآلية ... تحديات وآمال! مجلة الحرس الوطني

haras. naseej. com/Detail. asp InNewsltemID=6255-33k

المصادر باللغة الفرنسية

(7) John Hutchins, The state of machine translation in Europe and future prospects. aymara. org/biblio/mtranslation. pdf

(8) Setsuo Yamada Syuuji Kodama Taeko Matsuoka, Hiroshi Araki Yoshiaki Murakami Osamu Takano Yoshiyuki Sakamoto A Report on the Machine Translation Market in Japan. www. mt-archive. info/MTS-2005-Yamada. pdf

(9) Thepchai Supnithi, Virach Sornlertlamvanich, Thatsanee Charoenporn, A Cross System Machine Translation COLING-02 on Machine Translation in Asia – Vol 16, Sep. 2002

(10) Moustafa Elshafei1, Husni Al-Muhtaseb2, and Mansour Alghamdi3, Machine Generation of Arabic Diacritical Marks, The 2006 International Conference on Machine Learning; Models, Technologies & Applications (MLMTA'06).

(11) Nizar Habash, Bonnie Dorr, Christof Monz Challenges in Building an Arabic–English GHMT System with SMT Components, Center for Computational Learning Systems, Columbia University. www.nizarhabash.com/publications.html –

(12) Fatiha Sadat, Nizar Habash, Combination of Arabic Preprocessing Schemes for Statistical Machine Translation, Proceedings of the 21st International Conference on Computational Linguistics and 44th Annual Meeting of the ACL, pages 1–8, Sydney, July 2006.

(13) Ahmed Abdelali, Jim Cowie and Hamdy S. Soliman, Building A Modern Standard Arabic Corpus, Workshop on computational Modeling of Lexical acquisition. The split meeting Croatia 25th – 28th of July 2005.

(14) Top Ten Internet Languages – Internet Statistics. http://www.internetworldstats.com/stats7.htm

(15) Chris Callison–Burch Philipp Koehn Miles Osborne, Improved Statistical Machine Translation Using Paraphrases In Proceedings NAACL–2006

(16) Jason Riesa, Behrang Mohit, Kevin Knight, Daniel Marcu, Building an English–Iraqi Arabic Machine Translation System for Spoken Utterances with Limited Resources. www.isi.edu/natural–language/mt/iraqi_interspeech.pdf

(17) Ali Farghaly and Jean Senellart , Intuitive Coding of the Arabic Lexicon, Proceedings of MT Summit IX, ... Jean Senellart, Director of Research and Development, SYSTRAN Software

(18) Mohammed Aljlayl, Ophir Frieder, & David Grossman, On Arabic–English Cross–Language Information Retrieval: A Machine Translation Approach. ieeexplore.ieee.org/iel5/7847/21600/01000351.pdf

(19) Ying Zhang Survey of Current Speech Translation Research, Language Technologies Institute, Carnegie Mellon University. citeseer.ist.psu.edu/752690.htm

(20) Avinash J. Agrawal, Manoj B. Chandak Mobile Interface for Domain Specific Machine Translation Using Short Messaging Service ieeexplore.ieee.org/iel5/4151644/4151645/04151821.pdf?tp=&isnumber=&arnumber=4151821

(21) Nicola Ueffing, Hermann Ney, Word–Level Confidence Estimation for Machine Translation, RWTH Aachen University, portal.acm.org/citation.cfm?id=1220671

(22) Gerd Willée, Bernhard Schröder, Hans–Christian Schmitz (eds.) John Hutchins Computerlinguistik: was geht,was kommt? Computational linguistics: achievements and perspectives. Festschrift für Winfried Lenders (Sankt Augustin: Gardez! Verlag, 2002), p. 159–162] Machine translation today and tomorrow www.hutchinsweb.me.uk/Lenders–2002.pdf

(23) Zhuang Xinglai, The Emerging Role of Translation Experts,in the Coming MT Era , Translation Journal, Volume 6, No. 4"Oct. 2002

(24) Fuji Ren and Hongchi Shi, Parallel Machine Translation: Principles and Practice. doi.ieeecomputersociety.org/10.1109/ICECCS.2001.930184

تفاعل النحو والبلاغة في تحصيل اللغة العربية

الدكتور محمد القاسمي
كليةالآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس المغرب

إن واقع الدرس اللغوي الدي يجسده واقع اللغة العربية في المغرب، لايختلف كثيرا عن المشهد اللغوي في الدول العربية،وربما يعود هامش الاختلاف بين واقع لغوي في قطر عربي معين وآخر إلى بعض الخصوصيات البيئية والظروف التاريخية التي تميز بلدا عربيا عن غيره. ومن هنا فإن الإشكالية الكبرى التي تطرحها هذه الورقة العلمية تحمل في ثنايها هما معرفيا وحسا وطنيا وإحساسا قوميا لدى المهتمين بواقع اللغة العربية في محاولة لتشخيص واقع الدرس اللغوي في جوانبه المتعددة، بعد أن لاحظ الجميع تراجع مستوى اللغة في صفوف الناشئة من المستوى الإعدادي مرورا بالثانوي إلى المستوى الجامعي، ولاشك أن أسباب التراجع لا تعود إلى طبيعة اللغة العربية ذاتها بل تعود إلى أسباب أخرى متعددة ومتنوعة لا علاقة لها باللغة وطبيعتها.

إن اللغة العربية شأنها شأن غيرها من اللغات هي الوسيلة التي يستخدمها أبناؤها في عملية التواصل وفي عملية التعبير عن كل ما يجيش في خواطرهم من أحاسيس ومشاعر، وعن كل ما يدور في أذهانهم من معان وأفكار . ومع ذلك فإن الجميع يشتكي من تدني المستوى التعليمي بوجه عام وتحصيل اللغة وتحصيل اللغة العربية بوجه خاص، ويرجع باللائمة على النحو والنحاة، على الرغم من أننا نتفق جميعا على ضعف التعليم في مختلف مراحله وليس لمادة وضع أحسن حالا من مادة أخرى في نفوس الطلبة .

وهنا تطرح أسئلة كثيرة منها : هل من سبيل لاسترجاع أمجاد اللغة العربية؟ وهل من سبيل للارتقاء بعلوم العربية؟ وما سر الضعف الذي يلازم طلبة شعبة اللغة العربية بله الشعب الأخرى ؟ أيعود الضعف إلى الأستاذ أم إلى الطالب أم إلى المادة نفسها ؟ أهو في طبيعة المادة أم في منهجها؟ أسئلة كثيرة تحتاج إلى حوار جاد ومتواصل ينصب حول تيسير الظروف والأساليب التي ينبغي اتباعها في تدريس العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، بدءا من صياغة المادة وشواهدها إلى توعية الطالب بأهمية لغته وقواعدها في الحفاظ على هويته ولغته الدينية والقومية .

وقبل تقديم مقترحات منهجية لتسهيل عملية تحصيل اللغة العربية، لابد من الإشارة إلى مجموعة من الأمور الموضوعية التي تسهم في عرقلة عملية اكتساب الدرس اللغوي، وفي نفور الطلاب من الساعات المعتمدة لهذه المادة. ولعل أهم تلك الأسباب تعود إلى :

– الكم القليل الذي يدرسه الطلاب في ميدان التخصص بدعوى انفتاحه على مواد دراسيـــة من خـارج التخصص لتوسيع مداركه في علوم معرفية أخرى كالتاريخ والجغرافية والفنون وغيرها

– الفترة الزمنية المخصصة للغة العربية قليلة ولا تكفي لتمكينه من التعرف الحقيقي على المادة المدروسة كما لا تصلح أن تكون أداة فعالة لتحقيق نموه الفكري والعقلي والوجداني .

– يجب الاعتراف أن معظم الطلبة الذين يلتحقون بشعبة اللغة العربية في الجامعات المغربية يحملون معدلات لا ترقى إلى المستوى المطلوب، ومن هنا لابد من إعادة النظر في طرق تدريس علوم العربية في مستوى ما قبل الجامعي . لأن القضية الرئيسية التي يواجهها معلم اللغة العربية ومتعلموها على حد سواء تكمن في تدريس قواعد هذه اللغة، والطريقة التي تقدم بها تلك القواعد في عملية التعلم . فالطريقة التي تقدم من خلالها القواعد العربية لطلابنا في مختلف أسلاك التعليم لا تخلو في أغلب الأحيان من التكلف والصنعة والتلقين الأجوف من جانب المدرس، ومن الحفظ الخالص من جانب المتعلم في غياب تام لتحليل النصوص الفنية، أو محاورتها بهدف تذوقها واستجلاء عناصر الجمال المستكنة فيها . ويضاف إلى ذلك أن المدرسين وخاصة في شعب اللغة العربية في مختلف الجامعات المغربية يعتمدون بشكل مطلق، وفي معظم الحالات، على اجترار التراث اللغوي، كما جاءت في متونه القديمة، وفي غياب تام لمحاورة ذلك التراث وتبسيطه بطرق جديدة ولغة جديدة تتناسب ومتطلبات العصر . فالأمثلة مازالت في دروس النحو تدور حول علاقة زيد بعمر، وفي دروس البلاغة عن الشاهد الشعري كما وقف عنده البلاغيون القدماء.

ومن هنا فإن تقوية مناعة اللغة العربية وتحبيبها إلى نفوس الطلبة في مختلف مراحل التعليم تتطلب جانبين أساسيين : الجانب اللغوي العلمي والجانب الأدبي الفني . ولاشك أن تفاعل المادة العلمية اللغوية بالمادة الأدبية بشكل يرتبط فيه التراث بالحداثة والأصالة بالمعاصرة، ثم تكاملهما في أي عمل تربوي من شأنه أن يمنح الدرس اللغوي نفسا جديدا وإقبالا كبيرا من جانب الطلاب والمتعلمين بشكل عام . وذلك لأن روافد العلوم اللغوية تمكن الطالب من تناول فروع اللغة ومستوياتها المختلفة بالدرس والتحليل وفق منهجية تربوية منظمة كما أن روافد الدراسات الأدبية تمكن الطالب من تناول الجوانب الجمالية للغة وما لها من تأثير فاعل على نفوس الطلبة ووجدانهم . ولن يتحقق ذلك إلا بإعادة النظر في طريقة التدريس منهجا ومضمونا، فإذا كان تراثنا الأدبي شعرا ونثرا يحتوي على كنوز ونفائس غنية في هذا المجال، فإن تحبيب الدرس اللغوي إلى نفوس الناشئة يحتم علينا أن نقوم بالانفتاح على التيارات والثقافات الأدبية والإنسانية التي تشتمل على إرث إنساني أصيل وعطاء حضاري متجدد بدل اجترار أمثلة وشواهد ونصوص لا علاقة لها بواقعه وهمومه.

ومن أجل النهوض بمستوى تحصيل اللغة العربية لابد من إعادة النظر في الطريقة التي تقدم بها كثير من العلوم العربية وخاصة مادتي النحو والبلاغة في مناهجنا الدراسية، حيث يقدم الدرس النحوي في استقلال تام عن الدرس البلاغي رغم إمكانية استثمارهما في آن واحد في تحليل الظواهر اللغوية والنصوص الأدبية . وسنقف لاحقا عند نماذج من تلازم الدرس النحوي للدرس البلاغي في فهم بعض النصوص واستكناه أسرارها اللغوية.

لقد تفطّن القدماء إلى أن الدرس النحوي وحده غير كاف لفهم أسرار الخطاب، إذ إن الدرس البلاغي كان ضروريا أيضا، ولهذا نصت المدرسة البصرية على ضرورة الاهتمام بالدرس البلاغي وهكذا صار النحو والبلاغة يشتركان في خدمة اللغة، فالنحوي يعلم قواعد الإعراب، ودلالة الألفاظ على المعاني، والبلاغي يعلم أسرار اللغة وتميز أساليبها. وفي هذا السياق يقول ابن لأثير: «البلاغي والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة،وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن. وذلك أمر وراء الإعراب»[1] .

وقد جرت العادة في المناهج التربوية في مختلف المستويات التعليمية فصل الدرس النحوي عن الدرس البلاغي وهي عملية لا تخضع لأي مسوغ علمي أو تربوي. فالبلاغي محتاج قبل تحليل النص الفني والكشف عن أسراره الجمالية إلى معرفة اللغة التي يريد أن يخاطب بها من مفرداتها وتركيبها، فإذا لم يعلم ذلك لم يكد كلامه أن يفهم، وهذه المعرفة تحصل له من علم اللغة والنحو والصرف فإن حاول تكلم اللغة من دون هذه المعرفة الضرورية كان كلامه كما قال الحطيئة وهو يتحدث عن الشعر «يريد أن يعربه فيعجمه» ولكنه إذا علم اللغة والنحو والصرف فإنه يستطيع أن يعبر عن حاصل المراد وأصل المعنى.

ولما كان النحو والبلاغة كلاهما يهتم بالكلام، وكان الأول ينظر في استقامة الكلام إعرابا وتركيبا، والثانية تنظر في «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» فإن عمل الثانية لا غنى فيه عن الأول فلا بلاغة لكلام لاحن، إلا أن يكون اللحن مقصودا ومحدودا بحيث يفيد عدولا عن القانون النحوي لإنجاز كلام فني باختراق ذلك بشكل مقصود. ومن ثم فإن العمل النحوي والبلاغي يتم على موضوع واحد، وإن كان لكل واحد منهما منظور مخصوص. ونشير إلى أنه جرى في المناهج التعليمية تقديم تدريس النحو على البلاغة بدعوى عصمة التلاميذ من الخطأ في التركيب وبناء الجملة، وبعد ذلك ينتقل إلى معرفة الوجوه الكلامية للكلام بتدريس جانب

1– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت 1990 ج 1/39.

من جوانب البلاغة وهو علم البيان وبصورة خاصة التشبيه والاستعارة. وبذلك يختزل الدرس البلاغي في هذين البابين، في حين أنه يمكن إعادة النظر في هذه السنة التعليمية التي تقدم النحو بعيدا عن مكونات البلاغة.

ورغم أن النحوكان أسبق في الاكتمال على يد سيبويه فقد أمكن له أن يحدث تأثيرا عميقا فى بعض المباحث البلاغية، لاسيما علم المعاني، وهو العلم الذي يتجلى فيه بوضوح تداخل المستوى النحوي بالمستوى البلاغي على نحو شديد الوضوح، حتى إن بعض الباحثين المحدثين رأى أنه العلم الأعلق بالنحو ولا مندوحة من فصله عن البلاغة.

وقد كان عبد القاهر الجرجاني من النقاد الأوائل الذين أخرجوا البحث النحوي من جموده وحرروه من قيود الصواب والخطأ، وأضاف له مهمة جديدة تحفظ له الديمومة والتجدد،من خلال توسيع أفق النحو وتطويع أدواته حتى يتمكن من تحديد مواطن الحسن والجمال في اللغة، شعرية كانت أوغير شعرية،كما نص على ضرورة دراسة البلاغة في ضوء تصور جديد يقوم على دعامة النحو وأحكامه. وفي هذا المعنى يقول الجرجاني: «فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ في النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه»[1]. ومعنى هذا أن النحو لم يعد يقتصر على معرفة الخطأ والصواب في الجملة بل أصبح مع الجرجاني يتحرك بين مستويين متلازمين:

* مستوى معياري يتولى الحكم على الجملة بالصحة والخطإ بناء على قواعد علمية دقيقة ومضبوطة لا تقبل التغيير.

* مستوى وصفي ينطلق من المستوى السابق ليتجاوزه إلى تحديد مواطن المزية والجمال في الكلام الفني، وإلى تعليل تلك المزية التي تجد نموذجها الأسمى في اللغة الشعرية في دلالتها المجازية المتمثلة أساسا في الاستعارة والكناية والتمثيل، وكذلك في أبواب علم المعاني من أمر ونهي ونداء وتقديم وتأخير وفصل ووصل وغيرها، وبذلك استطاع الجرجاني تقريب المسافة بين النحو والبلاغة وردم الهوة الفاصلة بينهما. يقول عبد القادر حسين عن هذا الاتجاه الجديد الذي سلكه الجرجاني في تقريب النحو من

1 – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمدرشيدرضا 1960 ص67.

البلاغة : «هو منهج النحو الذي لا يقف عند حدود التحكم بالصحة والفساد، بل يمتد في البحث عن العلاقات التي تقيمها اللغة بين الكلمات، وإلى اجتلاء معانيها وكشف غامضها، وبذلك اتسع أفق النحو وغنيت مادته، ودخل فيه ما يراعى في النظم من تقديم وتأخير وما إليه من أسباب الجودة وعدمها، مما استقر عليه العرف فيما بعد بجعلها من علم المعاني، وأن يتجاوز القواعد النحوية إلى الجودة الفنية»[1].

وانطلاقا من هذا التصور ينبغي إعادة النظر في كثير من القضايا النحوية التي اشتغل بها النحاة والتي أرهقت كاهل المتعلمين، وكذلك في طرق تدريس النحو، وذلك عبر الابتعاد ما أمكن عن التوغل في القواعد الجافة والتركيز على وظيفة النحو داخل السلسلة الكلامية. وقد أثبتت اللسانيات المعاصرة ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني على أن الكلمات لا معنى لها،وليس لها إلا وظائفها، وهذا يعني أن تحديد معنى الكلمة ووظيفتها النحوية رهين بعلاقتها مع الكلمات الأخرى. ولا يمكن أن تأخذ أي معنى خارج السياق. وهذا الفهم للنحو هو الذي يضمن الكشف عن المعنى الدلالي والنحوي في الخطاب وعن وظيفة النحو في جميع أنواع الخطاب. إلا أن جل النحاة العرب القدماء ابتعدوا عن هذا الفهم واشتغلوا بكثير من القضايا التي لا تتجاوز أحوال الكلم من إعراب وبناء والمغالاة في الانشغال بالخلافات النحوية والقواعد الجافة، وهكذا حددوا للإعراب محلا فكان ماله محل من الإعراب، وما ليس له محل. .واضطرب المتعلم تبعا لذلك في التمييز بينهما، وكذلك الدعوة إلى الإعراب التقديري والمحلي والتعذر والاستثقال وهي قواعد تجريدية ليس من النجاعة التربوية تعميمها . كما لاحظ النحاة ظهور علامات الإعراب في آخر الكلمات وقاموا بتصنيف الأسماء إلى متمكن الأمكن أو المتصرف، وظهورا جزئيا فقالوا المتمكن أو غير المنصرف. كما أن الحركات الثلاث لا تظهر على الاسم المقصور للتعذر ولا على المضاف إلى ياء المتكلم لاشتغال المحل، ولا تظهر الضمة ولا الكسرة على المنقوص للثقل، وغيرها من القواعد الأخرى .

وهذا الحرص على معرفة دقائق النحو وأسراره يزيد في تعقيد الأمور بالنسبة للمتعلمين لأن ذلك يثقل ألسنتهم بتدريبات تقنية ولا تسهم في تقويم ألسنتهم، وفي استعمال اللغة بطريقة سليمة. ومن هنا بات من الضروري مراجعة المنهجية التي تقدم بها الأبواب النحوية للناشئة، وذلك لتسهيل تعاطيها وتلقيها وذلك بإعادة النظر في توزيع حركات الإعراب فيها بالمقارنة بين الأبواب النحوية، مثل القول إن المنادى لا ينون مثل الممنوع من الصرف كأن يقال جاء علي ويا علي . فالأول نقول عنه فاعل مرفوع، والثاني منادى مبني على الضم وذلك حتى نجنب المتعلمين

1– عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم مجلة الفكر العربي عدد46/ يونيو/ 1987 ص149.

القوالب التجريدية المفترضة التي لا حاجة له بأن يبحث عنها، ولا أن يلزم نفسه بذكرها لأنها لا تقوم لسانه ولا تصوب لغته .

وأعتقد أن أفضل طريقة لتحصيل اللغة وتحصينها هي معرفة القضايا النحوية في تفاعل تام مع القضايا الأخرى البلاغية والصرفية داخل السلسلة الكلامية بعيدا عن القواعد الجافة والتقديرات الافتراضية. وهنا نجد في منهج عبد القاهر الجرجاني الطريقة المثلى في تقريب النحو وأبوابه من ذهن المتعلمين وذلك حين يربطه بمستويات أخرى من اللغة.

وقد تفطّن عدد من المحدثين إلى إمكانية تبني منهج البحث الذي أحدثه الجرجاني في مقاربة مختلف الظواهر اللغوية . وفي هذا الصدد يقول إبراهيم مصطفى: «لقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيى وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر وأن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدراتها على رسم المعاني والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها:[1]

ويوضح أحمد مطلوب منهج الجرجاني أيضا بقوله: «لا يختلف منهجه عن منهج النحاة في بحثه الأساليب النحوية كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه لأساليب اختلافا كبيرا فقد أعطى هذه الموضوعات حياة فقدتها على يد الذين قللوا من قيمة النحو وزهدوا فيه أو نظروا إليه نظرة ضيقة تنحصر في الإعراب»[2] .

إن خصوصية نظرة الجرجاني للنحو وأبوابه تتجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب إلى التأكيد على أن الكلام نظم، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام. وهنا لا يكاد الجرجاني يستغني عن النحو في حديثه عن النظم وعن الأساليب البلاغية . والمقصود بالنحو هنا ليس القوانين الجامدة التي وضعها علماء النحو بل أراد به العلم الذي يكون الأساس في التفريق بين الأساليب اللغوية من فصل ووصل وتقديم وتأخير وذكر وحذف وغيرها «فالفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ عن الكلمات وإنما في معاني هذه العبارات يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق لذا لم يكن هدفه معرفة قوانين النحو وحسب بل فيما تؤدي إليه هذه القوانين»[3] .

ولا يقف الجرجاني عند مستوى الإشادة بالمستوى النحوي ودوره في تحصيل اللغة، بل يجعل من النحو أداة فعالة في الكشف عن شعرية النص الشعري، والنص الفني بصفة عامة. وهنا يؤكد أن القواعد النحوية باعتبارها قوالب جامدة لا قيمة لها في حد ذاتها، وإنما قيمتها

1 – إحياء النحو، إبراهيم مصطفى القاهرة 1959 ص20.

2 – عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوات، الكويت، ط1 1973، ص58.

3– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص 68.

في علاقتها بالقيم التعبيرية داخل السلسلة الكلامية .وهنا يعتبر الجرجاني النحو نسقا لازما للشعرية في تجلياتها المختلفة .فقد جرت العادة الحكم على جودة بعض النصوص الشعرية بناء على ما تضمنته من صور شعرية وأساليب فنية، وهنا يؤكد الجرجاني أن جانبا مهما من جمالية تلك الصور الأسلوبية ترجع إلى مجموعة من التشكلات النحوية .وفي ذلك يقول الجرجاني : « ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى :(واشتعل الرأس شيبا) » سورة مريم :4 » لم يزيدوا على ذكر الاستعارة،ولم ينسبوا الشرف إلا إليها،ولم يروا للمزية موجبا سواها .هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم . وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء »[1] .

ولإبراز أهمية النحو في الكشف عن جمالية اللغة وأسرارها الفنية، يعمد الجرجاني إلى تقديم النحو على البلاغة في الحكم على بعض الصور الأسلوبية،ومن ذلك تعليقه على قول الشاعر (وسالت بأعناق المطي الأباطح) : « وذلك أنه لم يغرب لأن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا الشبه معروف ظاهر،ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها، بأن جعل « سال » فعلا للأباطح، ثم عداه بالباء، بأن أدخل الأعناق في البين، فقال بأعناق المطي، ولم يقل بالمطي،ولو قال « سالت المطي في الأباطح »، لم يكن شيئا . ولايعني هذا ملازمة هذه المزية لكل تشكيل نحوي مشابه، بحيث نحكم بالحسن كلما واجهنا هذا النوع من التشكيل . بل لابد من النظر في البعد التعليقي للألفاظ داخل السلسلة الكلامية،ثم النظر في الناتج الدلالي منه،و في توافق كل ذلك مع حركة الذهن عند المبدع . وبهذه الطريقة التي سنها الجرجاني في تراثنا اللغوي نعيد للنحووللبلاغة قيمتهما الفنية والأسلوبية ومكانتهما العلمية، ونسهم في استرجاع اللغة لمجدها وشموخها .

1– دلائل الإعجاز ،ص100 .

الهوامش :

1– إحياء النحو، إبراهيم مصطفى القاهرة 1959 .

2– دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمدرشيدرضا 1960 .

3– عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم مجلة الفكر العربي عدد46 / يونيو / 1987 .

4– المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير تحقيقمحمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت 1990 .

5– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوات، الكويت، ط1 1973 .

6– عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، .

7– دلائل الإعجاز، ص: 100 .

واقع تدريس اللغة العربية
في مدارسنا وسبل تطويره

د. عبد القادر فضيل (الجزائر)

مقدمة :

إن هذه الكلمة ليست بحثا في اللسانيات، أو في علم اللغة، إنما هي تناول لرؤية بيداغوجية تربوية تستهدف عرض الأفكار التي تشكل أهم الجوانب التي يطرحها علم تعليم اللغة في المراحل الدنيا.

فالموضوع الذي نطرحه اليوم ونناقش قضاياه المختلفة هو واقع تدريس اللغة العربية في التعليم الأساسي وسبل تطويره، أي ما هي حقيقة ما يجري في مجال تعليم اللغة العربية وما هو الإجراء المنهجي الذي يجب أن يوجه جهودنا السياسية نحو تبني منهجية تعليمية جديدة وجادة تعزز الجوانب الإيجابية في تعليم اللغة، تخطيطا وتنفيذا، وتعالج الاختلالات التي ما تزال لصيقة بهذا التعليم ،والتي نتجت عن الأوضاع الانتقالية التي فرضتها السياسة الوطنية الهادفة إلى إحياء مجد اللغة العربية واسترجاع مكانتها من جهة وتأهيلها لمسايرة الحياة المتطورة، من جهة ثانية.

إن معالجة هذه الاختلالات تستدعي طرح القضية اللغوية طرحا شاملا ينسجم مع حقائق المرحلة الحضارية التي تجتازها أمتنا، ويستجيب لتطلعات الأجيال، وانتظارات المجتمع في هذا الصدد.

وتحاول هذه الكلمة أن تتناول الموضوع من زوايا مختلفة :

- الإطار النظري المحدد لتعليم اللغة .
- الممارسات العملية الجارية في المدرسة.
- نوعية النتائج المحققة .
- الإشكالات القائمة .

كما تحاول أن تطرح التصور المستقبلي والحلول التربوية والسياسية المؤهلة لتجاوز إشكالات الواقع ، على أن يشمل التصور:

- النظرة إلى اللغة العربية والوظيفة التي يجب أن تسند إليها
- الأهداف المتوخاة من تعليمها في المرحلة الدنيا .

– الحقائق المتصلة بأساليب تعليم اللغة في هذه المرحلة .
– الأسس والمنطلقات الفكرية التي يجب اعتمادها في التخطيط لتعليم اللغة، وبناء المنهجية، وتأليف المنهاج والكتب وضبط الوسائل .
– استراتيجية تعليم وتعلم المهارات اللغوية في السنوات الأولى.
– المساعي التي يجب أن تبذل لإصلاح الأوضاع المحيطة بتعليم اللغة العربية داخل المدرسة وخارجها .

إن مختلف هذه القضايا التي نحرص على إثارتها هي قضايا تربوية حاسمة تشكل في أساسها مداخل علمية لعملية التطوير الذي ننشده

وبما أن الواقع الذي نتحدث عنه يتجسد في مظهرين :

– مظهر نظري : وهو ما نجده ماثلا أو متضمنا في الإطار المنهجي الذي حددته أدبيات التعليم الأساسي، وسطرته التوجيهات التربوية . مظهر عملي : وهو الأساليب التعليمية الجارية في الميدان، والتي ينفذ بمقتضاها البرنامج المخصص لتعليم مهارات اللغة .

وبالرجوع إلي الواقع العملي نلمس التفاوت الواضح بين الطرح النظري كما رسمته التوجيهات التربوية، ووثائق التعليم الأساسي، وبين الأساليب العملية التي ترتبط بعمل المربين المنفذين .

وهذا وجه من أوجه الإشكال المطروح في مجال تعليم اللغة عندنا، والذي جعل النتائج ليست في المستوى المأمول، لذلك يجوز القول لمن يريد أن يصدر حكما إن الجهود التي ظلت تبذل في مجال تعليم اللغة العربيد والارتقاء بمستوى تعليمها ما تزال جهودا لم تبلغ غايتها رغم المحاولات التجديدية التي عرفها نظام التعليم الأساسي، والجهود الإصلاحية التي عرفهاالتعليم في السنوات الأخيرة، وهذا ما يدعو إلى المزيد من البحث عن جذور الإشكال، وسبل علاجه، ولا تهمنا هنا المقارنة بين المنهاج التخطيطي، والمنهاج التنفيذي، لأن التعرض إلى ذلك يخرجنا عن النطاق المحدد لهذه الكلمة، ويبعدنا عن الهدف المرسوم لهذا الطرح، وهو البحث عن أنجع الأساليب والوسائل التي من شأنها أن تعطي لتعليم اللغة العربية نفسا جديدا، تحقق به المدرسة الأهداف المنتظرة منها، في مجال إتقان المهارات اللغوية، وتكوين شخصيات المتعلمين، والنهوض باللغة، ويجني المجتمع من جراء ذلك ما يتطلع إليه من إزدهار فكري وتطور حضاري، لأن العناية باللغة هي عناية بالفكر، لذلك تحرص الأمم على ترقية لغتها والإعلاء من شأنها وغرس الاعتزاز بها، والاهتمام بتطوير أساليب تعلمها باستمرار، لأنها عقل الأمة ورمز وجودها، ومفتاح تطلعاتها العملية.

قلت :لا تهمنا المقارنة بين الواقع النظري والواقع العملي ، وإنما الذي يهمنا هو الإشارة إلى بعض الأمور التي تفتح أعيننا على أصول الإشكالات القائمة في مجال تعليم اللغة العربية .

الأمر الأول: إن المدرسة بأوضاعها الحالية (ظروفها وإمكاناتها) لم تعد قادرة على التأثير في المحيط، والاستجابة للتغيرات التي تحدث داخل المحيط وخارجه ومن ثم لم تستطع أن تحقق ما كان منتظرا منها، لأنها لم تمكن مما يعينها على السير المنتظم، ويجعلها تشق الطريق الذي يوصلها إلى غايتها .

الأمر الثاني: إن مسؤولية تدني المستوى اللغوي الذي أصبح حديث العام والخاص ليست مسؤولية المدرسة وحدها، وهذا ما يدفعنا إلى القول : إن ترقية الاستعمال اللغوي الصحيح في بلادنا ليست مشكلة مدرسية، بقدر ما هي مشكلة مجتمعية، فطرحها يجب أن يكون من هذه الزاوية، وبهذه النظرة ، فالمدرسة وحدها لا تستطيع النهوض بهذا العبء الكبير إذا لم يدعمها المجتمع بأسره (أجهزته، مؤسساته ، أنظمته ، قراراته إلخ) .

الأمر الثالث: إن نظرتنا إلى اللغة العربية ما تزال نظرة متأثرة بما كانت عليه في عهود الركود، فالاهتمام كثيرا ما ينصب على الشكل بعيدا عن المضمون، وعلى الحفظ بعيدا عن التوظيف، وعلى الفصحى التراثية على حساب الفصحى المعاصرة، وعلى المعرفة من أجل المعرفة.

الأمر الرابع: إن الموقف الرسمي من التعامل مع العربية هو أكبر العوامل التي قللت من فاعلية الجهد التعليمي من قبل المعلم والمتعلم، فالواقع العملي الذي تعيشه اللغة ويعيشه المتعلم بها لا يساير الخطاب الرسمي الشارح لمكانة اللغة وأهميتها في حياتنا ،ولعل هذه الأمور وغيرها هي التي دفعت المجلس الأعلى للغة العربية إلى تحفيز همم الكتاب لمعالجة القضايا المتعلقة براهن اللغة العربية في أوطاننا والتحديات التي تواجهها.

وهي التي دفعتني إلى تناول المسائل المتعلقة بتعليم اللغة في نظامنا التعليمي تلك المسائل التي ظلت هاجسا يحرك فكري وشعوري منذ أن أسندت إلى مهمة الإشراف على تأليف كتب تعليم اللغة العربية وتوجيه العاملين في هذا الحقل في السابق.

إن المتأمل في واقع الطرائق التي يعالج بها موضوع تعليم اللغة يجدها بحاجة إلي مراجعة جذرية تستلزم طرح القضية اللغوية طرحا شاملا يمس التعليم والمجالات المتصلة بالتعليم،بهدف البحث عن حل لجوانب المشكلة اللغوية التي امتد أثرها خارج المدرسة.

والسؤال الذي يثار هنا: ماهي الاستراتيجية التي ينبغي طرحها ومناقشتها؟ لتتبين المنطلقات والأسس التي يجب أن تراعي في تحديد نظرتنا إلى اللغة، وفي تحديد الطرح العلمي البيداغوجي الذي يجب الأخذ به في مجال تنظيم تعليم اللغة العربية، في المراحل الدنيا بالخصوص، سواء في مجال تحديد الأهداف وبناء المناهج واقتراح الطرائق والوسائل، أم في مجال تحديد سياسة إعداد المعلم وإطارات الإشراف وتهيئة البيئة التربوية التي تجري فيها أحداث التعليم وتمارس عمليات التعلم.

أولا : النظرة إلى اللغة :

يجب أن لا نحصر نظرتنا إلى اللغة العربية في الجوانب الأدائية اتي تمثل فقط الوظائف التقليدية للغة وهي وظائف التواصل والتبليغ ونهمل الجوانب الأخرى التي لا تقل أهمية عن الجوانب الأدائية، بل إن هذه الجوانب (الوظائف التقليدية) ليست قيمتها في ذاتها، إنما قيمتها فيما تحققه من غايات فكرية وتربوية .

لأن اللغة ليست وسيلة تراثية تقصد لذاتها، أو غاية معرفية تحصل الاستفادة منها بمجرد إكتسابها، إن اللغة شيء آخر : بناء فكري ومضمون ثقافي، غايته التأثير والتغيير والبناء، فهي وسيلة وغاية، آداة ومضمون والتعليم الناجح هو الذي يدرك هذه العلاقة الجدلية بين اللغة باعتبارها وسيلة، واللغة باعتبارها غاية، وهذا ما يجب أن تتضمنه نظرتنا الجديدة إلى اللغة الوطنية، فالوظيفة الحضارية للغة هي البناء الفكري والنفسي للفرد والمجتمع (هذه غاية المدرسة) لأنها بهذا البناء الذي يتجه من الفكر إلى الفكر ومن ذات الإنسان إلى ذات الإنسان ومن الحاضر إلى المستقبل تحدد ملامح النموذج البشري الذي نريده، ومعالم الشخصية التي نتطلع إليها .

وإن أهم ما ينبغي أن تتضمنه هذه النظرة الجديدة هي :

السير بتعليم اللغة العربية وفق إستراتيجية بيداغوجية وعلمية يكون هدفها الأساسي هو جعل تعليم المهارات اللغوية المختلفة وسائل ومداخل لتحقيق جوانب تربوية وحضارية تشكل الغايات الكبرى التي يستهدفها تعليم اللغة الوطنية وفي مقدمة هذه الغايات :

أ – جعل اللغة العربية الأداة التي تبني الفكر وتربي الوجدان وتهذب الذوق .

ب – غرس الإتجاهات الإيجابية في سلوك المتعلمين تجاه وطنهم وقيم مجتمعهم .

ج – تعميق الشعور بذاتية الأمة من خلال معرفة أمجادها وتراثها وإسهاماتها النضالية والعلمية في مجال المحافظة على هذه الذاتية.

د– إشاعة الاستعمال اللغوي السليم والراقي الذي يجمع بين الفصحى التراثية والفصحى المعاصرة، ويساير مستجدات العصر، ولا يتم هذا إلا إذا حرص التعليم والمحيط الثقافي على جعل المتعلمين يتذوقون اللغة،ويعتزون بها، ويحسون بأهمية الحفاظ على سلامتها.

وحتى هذه الغايات التي نتطلع إليها لم تعد كافية، نظرا لتفجر مجالات المعرفة، وحدوث ثورة عارمة في وسائل الاتصال الحديثة،لأننا نريد من اللغة التي ننتمي إليها أن تصبح، بالإضافة إلى ما ذكر أداة كاملة المؤهلات لا ستيعاب التطورات الحديثة التي تحدث حولنا، وتؤثر في حياتنا، ليستطيع المتعلمون بها أن يتفاعلوا إيجابيا مع متغيرات الحياة، ولا يتحقق هذا إلا إذا كنا حريصين على تمكينها (اللغة) من ممارسة دورها الحضاري في حياة المجتمع بجعلها تضطلع

بكل الوظائف الحية التي تضطلع بها اللغات في أوطانها، هذا هو الطرح الذي يجب أن يحكم نظرتنا إلى اللغة مفهوما وأداء، علما وتعليما.

ولكي نطور تعليم اللغة ونجعله تعليما منتجا وظيفيا يفي بكل الوظائف التي تناط باللغة يجب أن نفرق بين اللغة بصفتها معرفة واللغة بصفتها مهارة، لكن التعليم حتى وإن إنطلق من الصفة المعرفية يجب أن يسعى إلى تحقيق الصفة المهارية، فاللغة مهارة في الأساس، وتتفرع إلى مهارات فرعية وليست مجموعة مواد معرفية قائمة بذاتها .

والذي نعطيه الأولوية في مجال تعليم الصغار أو المبتدئين هو المهارات التي تجعل الفعل اللساني ملكة مقررة في العضو الفاعل لها كما يقول ابن خلدون: لا يتحقق هذا إلا إذا ركز الجهد التعليمي على جعل المتعلم يعي مكونات النظام اللغوي ويحسن توظيفها في مجالات الاستعمال

الأخطاء التي يجب تلافيها :

من خلال تحليل واقع الدروس اللغوية التي تنجز في مدارسنا نلمس عددا من الأخطاء التي ترجع في الأصل إلى النظرة التي بنينا عليها أسلوب تعليم اللغة .

من هذه الأخطاء :

1– أننا كثيرا ما نحصر جهودنا الموجهة لتعليم اللغة الوطنية في الجوانب الأدائية (الكلام والقراءة) ونهمل الجوانب الأخرى المتعلقة بتكوين الفكر وبناء الوجدان وتهذيب الذوق . . إلخ

2– كثيرا ما يتصور المعلمون أن اللغة علم يقصد لذاته ، فكأن معرفة الحقائق والأحكام اللغوية هي الغاية الوحيدة من تعلم اللغة .

3– يعتقد الكثيرون أن امتلاك المهارة اللغوية (التي هي هدف تعليم اللغة) تكفي فيها المعرفة وحدها، ومن ثم يقللون من أهمية الممارسة والتدريب في حين أنهما الأساس في عملية الاكتساب اللغوي.

4 – أننا ننظر إلى المهارات اللغوية (الاستماع، التعبير، القراءة، الكتابة، التذوق الأدبي، القواعد) على أنها فروع وأنشطة قائمة بذاتها، وتحمل غايتها في نفسها .

– إن تصحيح هذه الأخطاء متوقف على تغيير نظرتنا إلى الوظيفة التعليمية للغة، وإلى المنهجية التي بها نحقق هذه الوظيفة، من ذلك:

– أن تعاملنا مع تعليم اللغة يجب أن يكون على أساس أن اللغة نظام مؤلف من أنظمة فرعية ويتطلب ذلك معرفة الحقائق المتصلة بهذا النظام التي لا بد منها لمعرفة مكونات النظام اللغوي وفروعه وخصائص اللغة، ولكن ممارسة هذا النظام يحب أن تتم في ضوء هذه الحقيقة

التربوية التي أصبحت معروفة، وهي أن اكتساب النظام اللغوي (الملكة) يتم حتما عن طريق اكتساب المهارة، واكتساب المهارة يتم عن طريق الممارسة المتكررة والواعية.

ومن ثم فنقطة الانطلاق في بداية التعلم اللغوي المباشر هي النظرة إلى اللغة على أنها مهارة تكتسب بالتعلم والإستعمال، أي يتضافر عاملان هما : الممارسة والمعرفة ولكن الممارسة هي التي تؤدي إلى المهارة وليست المعرفة، فالاعتقاد بأن المعرفة المتعلقة بالحقائق اللغوية تؤدي إلى اكتساب المهارة من غير ممارسة مركزة وواعية اعتقاد خاطيء، يرفضه المنطق وترفضه التجربة كذلك .

إن تغيير نظرتنا إلى اللغة على هذا الأساس يدفعنا إلى مراجعة الاتجاهات التي يؤسس عليها تعليم اللغة، في جميع المراحل.

فالتركيز على تنمية القدرة على الاتصال والتواصل وإهمال الجوانب الأخرى أمر يجب تصحيحه ، لأنه لا يحقق كل انتظاراتنا من تعليم اللغة الوطنية.

وكذلك اعتبار المعرفة اللغوية غاية في حد ذاتها نظرة يجب تصحيحها كذلك، لأننا لا نعلم اللغة من أجل اللغة، إنما نعلمها لغايات أخرى، نعلمها لأبنائنا ليتعلموا بها، وليحسوا بوجودهم من خلالها، نعلمها لهم ليفكروا بها، وليستعينوا بها على فهم واقعهم، واكتشاف محيطهم، ومحاورة ماضيهم، وهذا أمر يتجاوز المعرفة من أجل المعرفة.

ومن هنا فالاقتصار على جعل الهدف التعليمي هو إكساب المتعلم معلومات عن اللغة، يجعلنا نكون إنسانا مستشرقا (مستعربا) يعرف شيئا كثيرا أو قليلا عن اللغة العربية، ولكن ليس لديه ارتباط بأهلها، ولا بقيمها الثقافية والحضارية ولا يملك الوعي بأهمية الإنتماء إليها والاعتزاز بها.

ومن الأمور التي يجب الأخذ بها في عملية التصحيح تحاشي النظرة المجزئة لوحدة اللغة، والتي تعامل النشاطات اللغوية المؤدية إلى إكتساب المهارات كما لو كانت فنونا معرفية قائمة بذاتها، وتعليمنا للغة على هذا الأساس مخالف لطبيعة اللغة ووحدتها، وتكامل عناصرها، لذلك ينبغي أن يأخذ التعليم اللغوي منحى جديدا يتجاوز هذه التجزئة، (بحيث يعتمد المقاربة النصية في الدخول إلى تحليل واقع التعامل مع اللغة).

فالمنهج الصحيح الذي يلائم طبيعة اللغة هو أن يتم تعليم مهارتها من خلال مظهر لغوي متكامل، فإذا كنا نجزئ تعليم اللغة منهجيا بحيث نحدد لكل حصة ممارسة نشاط نطلق عليه إسم النشاط اللغوي والمهارة المستهدفة فإن هذه التجزئة يجب أن يحكمها البناء المتكامل للغة، وأن تتم في حضن وحدة اللغة، ويستوجب هذا أن يكون تعليم أية مهارة هو تعليم للغة بحيث نتحاشى اصطناع الحواجز الفاصلة بين كل فرع وآخر، وبين كل مهارة وأخرى، بحيث يعتمد المنهج الذي يجعل النص مجالا تستخلص منه المفاهيم المختلفة والمهارات التي نسعى إلى تمكين المتعلمين منها.

ثانيا : الحقائق المتصلة بتعليم اللغة في المرحلة الأولى من التعليم

طبيعة المرحلة وخصائصها

تعد المرحلة الأولى من التعليم الأساسي (السنوات الثلاث الأولى من التعليم الإبتدائي) أخطر المراحل وأهمها على الإطلاق، لأنها تشكل قاعدة التعليم كله ، والأساس الذي تبنى عليه كل تربية بعد ذلك .

ففيها يبدأ الأطفال رحلتهم الشاقة والممتعة نحو عالم المعرفة، ومن خلال ما يتلقونه فيها يكتسبون أدوات التعلم ووسائل الاتصال، ويستكملون أسباب النمو النفسي والحركي، ويتشربون قيم المجتمع وأخلاقه، ومن ثم يصبحون مهيئين لإقامة علاقة سوية مع أقرانهم ومع الأوساط التي يتصلون بها .

ومن المعلوم أن اللغة تؤدي دورا بالغ الأهمية في هذه التنشئة، إذ عليها يتوقف نجاح التعليم في هذه المرحلة وفي المراحل التي تليها، لأنها محور الأنشطة المدرسية، والكل الذي يحتويها، والمجال الذي تترابط من خلاله كل المعارف والمفاهيم التي تعلم، فاللغة في هذه المرحلة وبهذا الاعتبار هي الوسيلة والغاية، والآداة والمضمون.

إن زيادة تركيز العناية بالمرحلة الأولى من التعليم الأساسي،أو ما أصبح يسمى بالتعليم القاعدي أو الإلزامي (في مجال تعليم اللغة الوطنية وما يتصل بهذا التعليم) هي الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها نحو تأسيس الانطلاقة الجديدة التي ندعو إليها في مجال تطوير واقع تدريس العربية في التعليم الأساسي (الأولي والإكمالي)، وتحسين الأوضاع المرتبطة بهذا التعليم

ونظرا لكون هذه المرحلة تقع في بداية الهرم التعليمي يجب أن يركزالجهد فيها على وضع الأسس المعرفية والمهارية الثابتة التي تبنى عليها شخصية المتعلم، فالمعلومات التي يتلقاها في هذه المرحلة تشكل الأرضية الصلبة التي تتيح للمربين أن يشيدوا عليها البناء المعرفي والفكري الذي يريدون .

ومن هنا تبرز خطورة التقصير في العناية بهذه المرحلة، وعدم تهيئة الظروف المناسبة لها .

وما يجري في الواقع من مفاضلة بين المرحلة الدنيا والمراحل التي تليها وتمييز معلم المراحل العليا على معلم المرحلة الدنيا في الإعداد والتقدير يعد خطأ تربويا كبيرا، ونتيجة لهذا الخطأ يسند تدريس اللغة العربية (في أخطر مراحل التدريس) إلى من ليس لهم إلمام بخصوصية هذه المرحلة، وبالصعوبات التي تواجه المتعلمين، ظنا من القائمين على التعليم أن العمل في المراحل الدنيا أيسر منه في المراحل العليا .

ونظرا للصعوبات الموضوعية يجب أن لا يسند العمل في هذه المرحلة إلا لمن كان متحمسا للعمل مع الأطفال الصغار، ومستوعبا خصائص الطفولة، وخصوصيات المجتمع، متمكنا من اللغة (قراءة وكتابة حديثا واستماعا) وملما بعلم تعليم اللغة، وله ثقافة تربوية تسمح له بأن يدرك العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين التعليم والحياة، وتمكنه من فهم الأهداف وتحليلها وتصنيفها وفق كل مهارة .

ولكننا مع الأسف لا نجد إلا القليل من المعلمين الذين تتوافر لديهم هذه المؤهلات، وهذا ما يحتم ضبط خطة تكوينية يتم بموجبها فرض برنامج تكويني على كل معلم يعمل في هذه المرحلة، أو يتهيأ للعمل فيها، على أن تختلف الجرعات الموصوفة لكل فئة، بحسب الرصيد المعرفي الذي يملكه كل واحد[1] .

إن تعليم اللغة لأطفال صغار لم يستكملوا نموهم الفكري والنفسي يحتاج إلى جهد كبير، وصبر طويل، وثقافة تربوية مركزة، وهذا الجهد يقع الجزء الأكبر منه على عاتق المعلم، ولكي يستطيع المعلم الاضطلاع بهذا الجهد والنجاح فيه يجب أن يتصف بصفات ضرورية ثلاث كما يرى (روبير دوترانس)[2]:(عليه آن يحب لغته، وأن يعرفها، وأن يجد لذة في تعلمها) .

فالمرحلة هذه ليست مرحلة للتعليم بقدر ما هي مرحلة لتربية حواس المتعلم وتنمية قدراته وتهذيب ميوله واتجاهاته الفكرية ، ولكوْن اللغة هي المدخل لكل ذلك .

التهيئة اللغوية التي تسبق التعليم المباشر :

ونظرا إلى أن معظم أطفال هذه المرحلة (أكثر من 90 ٪) ينتقلون مباشرة من البيت إلى المدرسة من غير تهيئة أصبح من الضروري التفكير الجدي في تخصيص مرحلة تهيئة تسبق الدخول المدرسي أو تكون في بدايته.

فالطفل منذ أن يبدأ الكلام ويشرع في ممارسة التعابير اللغوية الجارية في محيطه تنشأ لديه عادات لغوية تتحول تدريجيا إلى خبرات تكسبه القدرة على التواصل مع أبناء جنسه ودربه على الحديث، ولكنها خبرات ليست متطابقة مع ما يجده في المدرسة، لذا يتحتم أن تسعى المدرسة لتهيئة الأطفال لممارسة التعلم.

---

(1) إن مشكلة إعداد المعلم وتهيئته للمهام التي تناط به وفق خطة مدروسة ظلت مطروحة منذ بداية الإستقلال، لم تحدد المواصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح نفسه لهذه المهمة، ولم تحدد كذلك المواصفات التي تشكل ملمح المتخرج بعد أن يتلقى برنامجا تكوينيا .

(2) روبير دوترانس (وآخرون) التربية والتعليم (ترجمة هشام نشابة وآخرين) مكتبة لبنان ص 86.

وينبغي في هذا الصدد اتباع منهجية تعليمية تحرص على تحاشي الانتقال المفاجئ بالطفل من الاستعمالات اللغوية العامية (التي كان يحتك بها في محيطه الإجتماعي والتي كانت سنده الوحيد في اكتساب مهارة التحدث إلى الناس والاتصال بهم) إلى اللغة العربية الفصحى التي هي لغة المدرسة ولغة الكتاب والمناسبات الرسمية ووسيلة التعلم، ويتطلب الأمر هنا تخصيص فترة تمهيدية تطول أو تقصر بحسب الإمكانات لتهيئة الطفل نفسيا ولغويا للدخول في عمليات التعلم اللغوي المباشر الذي يفرض نوعا من التهيئة والإعداد لتيسير عملية الفطام التي يتعرض لها الطفل حين انتقاله من البيت إلى المدرسة، وهذه الفترة قد تكون أشهرا أو سنة أو سنتين بحسب مستوى الطفل وإمكانات النظام[1].

فالطفل في الفترة السابقة كان خاضعا لتنشئة لغوية كان للمجتمع الدور الكبير في إعطائها لونا معينا، ولكن الأثر الاجتماعي وحده ليس كافيا ما لم تعززه الاستعدادات الفطرية التي تولد مع الإنسان، فخصوبة التعابير وطلاقة اللسان وسرعة الفهم أمور ليست واحدة لدى الجميع، وهذا دليل على اختلاف الإستعدادات التي يرى أصحاب النظريات المعرفية أنها العامل في اكتساب القدرة على الآداء اللغوي .

وحين يبلغ الطفل سن الدخول المدرسي تكون خبراته التي اكتسبها بعفوية من المحيط عن طريق السماع والكلام تكون قد ارتقت، واصبحت وسيلته المثلى في الاتصال والتفاهم، ولكنه حين ينتقل إلى المدرسة يطلب منه أن يتخلى جزئيا أو كليا عما اكتسبه مدة سنوات، ويبذل جهدا في تعلم المهارات اللغوية المختلفة ، وخاصة مهارتي القراءة والكتابة اللتين لا يعرف عنهما شيئا .

لذلك يتحتم (وفق المنظور التربوي الصحيح) تخصيص مرحلة وسط بين التنشئة اللغوية التي عاشها في المنزل وبين مرحلة التعلم المدرسي المباشر الذي يقتضي منه تجنيد كل حواسه وقدراته العقلية ليستطيع التكيف مع ما يطلب منه.

فصعوبة التعامل مع الكلمة المكتوبة التي تواجه الطفل منذ البداية في عملية القراءة والكتابة منشؤها أن الكتابة مستوى ثان من التجريد، لأن إدارك الكلمة المكتوبة التي هي العنصر الجوهري في القراءة يتطلب بالإضافة إلى معرفة الرموز المتواضع عليها ربط المنطوق بالمكتوب، من حيث الآداء وربطهما بالمعنى من حيث الفهم ، ومن المعلوم أن العلاقة بين اللفظ والمعنى (بين الدال والمدلول) علاقة تحكمية (علاقة مواضعة) ليس للمنطق فيها أي دخل .

لذلك يقال :إن الكلمة المكتوبة هي تجريد التجريد فالكلمة المنطوقة مجردة في الأصل فهي ترمز إلى المعنى الموجود في الذهن، والكلمة المكتوبة مجردة عن الصورة المنطوقة، أي هناك

---

(1) ولعل هذا الإشكال سيزول مع تعميم التعليم التحضيري الذي تفكر وزارة التربية في جعله قاعدة التعليم الإبتدائي .

معنى تقابله صورة صوتية مجردة تعبر عنه وحين يجسم هذا المعنى في رموز كتابية يصبح تجريدا ثانيا.

وإذا كانت اللغة تستخدم في الحديث الشفهي بصورة كلية دون حاجة إلى الإلمام بجزئياتها، فإن استخدامها في الكتابة يستلزم وعيا جزئيا وقدرة على التركيب والتحليل وربط الرمز بالصوت، ومن ثم كانت الكتابة تجريد التجريد.

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه إخوان الصفاء وبعض العلماء الأجانب (فيجوتسكي)[1] الذين يقررون أن الصفة التجريدية للكتابة هي العقبة في تعلم اللغة المكتوبة ونموها، والقصد هنا ليس كتابة الرموز وتجميع الأصوات إنما القصد هو تعليم النظام اللغوي المكتوب شكلا ومضمونا، أي ما يتبع في تعليم القراءة والكتابة باعتبارهما وجهين لعملة واحدة.

إن هذه الأمور التي أشرت إليها تستلزم مستوى من الإستعدادا الذي يمكن الطفل المقبل على التعلم المباشر من النجاح في التعلم اللغوي.

وتخصيص فترة تمهيدية كافية لتهيئة الأطفال قبل الدخول في عملية التعلم المباشر هو الحل الأنسب لحل الإشكال المتعلق بتنمية الإستعداد، وقد يكون الاقتراح الأمثل هو تعميم مرحلة تحضيرية لمدة سنة أو أكثر، وإعادة النظر في برامج التعليم التحضيري المنظم في بعض المؤسسات، أو تستثمر المدرسة القرآنية بعد أن تطور برامجها، وقد يستعاض عنها مؤقتا عند التعذر بفترة تهيئة تدوم ثلاثة أشهر على الأقل يتلقى فيها كل الأطفال برنامجا تحضيريا مضبوطا ومعززا بوسائل مدروسة (أي تطوير البرنامج الحالي).

ثالثا: الأسس والمنطلقات التي يقوم عليها تعليم اللغة في هذه المرحلة:

1 - استثمار المكتسبات اللغوية السابقة:

من أهم الأسس التي ينبغي إعتمادها في تعليم اللغة لأطفال المرحلة الأولى عدم الانتقاص من قيمة خبرتهم اللغوية التي اكتسبوها قبل الدخول المدرسي، وهذا يستوجب أن ينطلق التعليم اللغوي من هذه الخبرة التي هي خبرة لا يستهان بها.

وبما أن عناصرها لا تبتعد كلية عن العربية الفصحى التي يطلب من التلميذ أن يتعلمها كان من الضروري أن يتجه الإهتمام إلى جعل هذه الخبرة نقطة إنطلاق في مجال تعليم اللغة الفصيحة التي هي أصل للغة التي جاء بها من البيت.

---

(1) أنظر مجلة التربية (قطر) العدد 104 السنة 22 / 1993 مقولات الاكتساب اللغوي (علي إبراهيم علي).

ويحتم هذا المبدأ إستثمار المكتسبات السابقة واعتمادها منطلقا في تعلم المهارات اللغوية، حتى نجنب الأطفال الانتقال المفاجيء من العامية التي درجوا عليها إلى اللغة الفصحى التي تواجههم منذ اليوم الأول، ويعني هذا أن يقع الاعتماد في البداية على الألفاظ التي لم تبتعد كثيرا عن بنية اللغة الفصيحة، ولم يدخلها التحريف المشوه للبنية، وهذه الألفاظ كثيرة مثل الألفاظ الدالة على الخروج والدخول والقعود والقيام

والأكل والجوع والعطش والشبع والفرح والغضب وغيرها من الألفاظ والصيغ الدالة على التأنيث والتذكير والنفي والإثبات والإفراد والجمع . .إلخ .

فهل يجوز الاستهانة برصيد لغوي قضى الطفل في جمعة ست سنوات؟ وهل يجوز لواضعي المناهج والمعلمين أن يتجاهلوا هذا المكتسبات ويحاولوا أن يهدموها ليبنوا على أنقاضها بناءا لغويا جديدا؟

فالمطلوب إذن هو مراعاة هذه الخبرات والإنطلاق منها بإعادة تنظيمها، إذا كانت في حاجة إلى ذلك، وتصحيحها وإثرائها كل ما ظهرت حاجة التلميذ إلى التصحيح والإثراء، إذ لا يجوز أن نشعر الطفل بأن عباراته التي ينفي بها غير صحيحة، كما لا يجوز أن نشعره بأن كل الألفاظ التي كان يستخدمها ليست ألفاظا عربية، مثل الكاس الفاس البير الفار الليل النهار الصباح العشية ومثل الكلمات التي على وزن فعلان والتي تكثر في الإستعمال اليومي (عطشان، شبعان، عريان، حفيان، سكران، غضبان، فرحان . . .إلخ (وكذلك أسماء الأدوات والحيوانات التي بقيت سليمة ومن هذه الألفاظ أسماء المكان: ملعب مصنع مسجد . . . إلخ) وقد حاولت المنهجية المتبعة في تعليم اللغة منذ بداية الثمانينات أن تعتمد هذا الأساس بمراعاة خبرة الأطفال اللغوية السابقة .

ولكن الأمر الذي ما يزال لم يجد طريقه إلى الحل هو إجراء بحوث ميدانية تضبط بمقتضاها التراكيب الأساسية التي يحتاج إليها الطفل في مجال تعلم الفصحى المعاصرة التي تتعامل بها الصحافة والإذاعة والتلفزة وكتب المطالعة و الخطب التي تلقى في المناسبات والندوات المتخصصة. . إلخ .

2 - اعتبار المتعلم طرفا أساسيا في عملية التعلم :

إن هذا المنطلق يفرض النظر إلى المادة اللغوية من خلال إحتياجات المتعلم وقدراته، والواقع الذي يعيشه، فيترتب عن هذا إتخاذ مواقف تربوية يكون المتعلم محورها:

-محاولة معرفة المكتسبات السابقة ونوع الإحتياجات التي يجب الإنطلاق منها ومسايرتها .

–تحديد المضمون الذي يثري هذه المكتسبات ويستجيب لحاجات المتعلمين (المفاهيم المفردات التراكيب) .

– إشراك المتعلم في عملية التعلم واعتباره طرفا أساسيا في الحوار والمناقشة والاستنتاج .

– ضبط مستوى التناول الذي يلائم قدرات المتعلمين ويراعي الفروق الفردية بينهم (تجزئة الصعوبات تنويع الأساليب، ترتيب المعلومات . .إلخ) .

– اعتبار اللغة مستويات ومعرفة هذه المستويات والتداخل بينها هو الذي ييسر تحديد الموضوعات والأساليب التي تعطى لها الأولوية قبل غيرها .

– مراعاة طبيعة النمو اللغوي عند الطفل وعوامل هذا النمو (الفهم قبل الاستعمال الجملة قبل المفردة ، والمعنى قبل الأسلوب، وجود بيئة لغوية سليمة) .

3– اللغة ممارسة أو هي ممارسة ومعرفة :

إن تعليم اللغة في السنوات الأولى يستوجب توافر عاملين :

–التدريب الواعي والمتكرر .

–التعليم القاصد والمنظم .

فبالممارسة تتحول المعرفة إلى عادة راسخة، وبالتعليم يقف الطفل على الحقائق المتصلة بكل مهارة،وبمكونات النظام، فالاقتصار على جانب واحد لا يحقق النتيجة، وبالجمع بينهما يتحقق التكامل، والتآزر بين التعلم والاكتساب، فالتعلم هو الجهد الذي يبذل من أجل معرفة حقيقةما ، أو إدراك معنى من المعاني، أما الاكتساب فهو النتيجة الحاصلة والمترتبة عن هذا الجهد، والتي يعززها التدريب المتكرر والمستمر .

وما نريده من المعلمين والمكلفين بوضع المناهج وتأليف الكتاب أن يدركوا هذه الحقيقة، ويعملوا على توجيه الجهود التعليمية في ضوئها .

ومما لا شك فيه أن اكتساب أية لغة أمر مرهون باستعمالها. وفهم طريقة الاستعمال، فالشخص الذي لا يستعمل اللغة ولا يفهم الأوضاع المحدثة لها لا يتعلمها، ولا يستوعب نظامها، ومن المعلوم أن الشخص لا يمارس اللغة ممارسة صحيحة وواعية إلا إذا أحس بالحاجة إليها وكان في موقف يدفعه إلى الكلام أو الكتابة ، وفي محيط يوفر له سماع النماذج الصحيحة والراقية، وفرص التدريب على محاكاتها واستعمالها في مختلف المواقف .

شروط الممارسة الناجحة :

ليست كل ممارسة تؤدي إلى إتقان اللغة، وإنما هناك شروط لا بد منها :

أ –الإنطلاق من الأوضاع والأحداث الأكثر إلتصاقا بالمتعلمين .

ب –تخصيص الزمن الكافي للمارسة .

ج –مراعاة واقع التلميذ اللغوي – ملاءمة المحتوى لمدارك التلاميذ واحتياجاتهم .

د –الاهتمام بالمحتوى وليس بالإشكال الأدائية .

هـ –جعل البيئة مصدرا للمعرفة اللغوية من حيث المفاهيم والحقائق وليس من حيث الألفاظ فقط .

و –أن تكون الممارسة قائمة على الفهم .

ز –أن تكون الظروف التي تجري فيها الممارسة أقرب ما تكون إلي الظروف الطبيعية .

م –تجنب الممارسة الصورية التي تفرض الأنماط اللغوية وتبتعد عن الأحداث الحقيقية .

ط –توفر فرص التدريب على إستخدام مختلف الأساليب بحيث يحرص المحيط المدرسي وغير المدرسي على توفير النماذج الصحيحة التي تصلح للإقتداء .

ي –يجب أن تتم الممارسة في سياق إجتماعي حي وليس من خلال قوالب منعزلة عن الحياة الإجتماعية .

ك –أن يتلقي الممارسون تعزيزا وتشجيعا حتى يكون ذلك حافزا لهم على الاستمرار في بذل الجهد .

ل –تخصيص فترات للتدريب الموجه وللتمرين على بعض الاستعمالات والأساليب اللغوية التي ترتقي بخبراتهم .

رابعا : إستراتيجية تعليم المهارات اللغوية :

المهمة الكبرى التي تواجه معلمي المرحلة الأولى هي الأخذ بأيدي التلاميذ برفق وتبصر وتدريبهم على تعلم المهارات اللغوية الأساسية واكتسابها، وتنمية قدراتهم على استخدامها إستخداما جيدا لتصبح أساسا يبنون عليه حياتهم المعرفية والثقافية، فمن غير هذه المهارات لا يمكن للطفل أن يدخل عالم المعرفة، أو ينال حقه من الخدمات التعليمية التي توفرها الدولة، ولا يخفى أن الطفل الذي تضيع منه فرص التعلم في السنوات الأولى، ولم يمكن خلالها من إتقان مهارتي القراءة والكتابة بالخصوص يبقى متعثرا في مسيرته الدراسية، إن لم يفرد بالعناية الخاصة، والتدريب المركز، لذلك نرى ترجمة الطرح النظري المقترح في مجال تعليم اللغة من خلال تبيان الأساسيات التي تبنى عليها المنهجية (تعليم القراءة والكتابة والتعبير والاستماع)

مع الإشارة إلى الخطة التي ينبغي أن تنتهج في إدراج تعلم القواعد في المراحل الدنيا، لأن هذه المهارات هي التي تحقق للتلميذ تقدما تحصيليا، وتيسر له اكتساب الملكة اللغوية بالمستوى الذي تسمح به الظروف الثقافية السائدة في المجتمع، لأن صورة الاكتساب يحددها المنهاج والمضامين التي يعرضها الكتاب، وطريقة الاكتساب تحددها المنهجية والأساليب، ونوع المعلمين الذين يباشرون هذا العمل .

التخطيط لتعليم المهارات :

قبل أن نستعرض بعض الأساليب التي تلائم تعليم المهارات اللغوية تجدر الإشارة إلى نقطة محورية يرتكز عليها التعليم اللغوي ، هذه النقطة هي التخطيط لتعليم اللغة، ويشمل التخطيط النقاط التالية :

- تحديد الأهداف التفصيلية المتوخاة من كل مهارة، وفي كل مستوى، بأسلوب إجرائي يضبط المستوى الذي يجب بلوغه، والذي يمكن التأكد منه .
- ضبط الموضوعات والمجالات المفهومية التي تشكل جانبا من جوانب الحياة، التي يعيشها الأطفال وأهاليهم، تلك المجالات التي تثير فضولهم وتشغل بالهم وتستفز اهتمامهم، وتصلح لجعلها محاور تنطلق منها دروس اللغة.
- برمجة المفاهيم والتراكيب والألفاظ والأدوات والصيغ اللغوية التي تعلم في كل مستوى دراسي، وتستجيب لاحتياجات المتعلمين في مجالات الاستعمال والتلقي، على أن تضبط الكيفية التي بها يوظف هذا الرصيد اللغوي والمعرفي.
- تحديد مستوى التناول لكل جانب من جوانب اللغة، واعتماد منهج التدرج الذي ينبغي أن يتبع في التدريب على تعلم المهارات اللغوية .
- أن تختار النصوص الراقية التي لها طابع أدبي، ويستطيع التلميذ استيعاب معانيها والاستمتاع بها سواء كانت شعرا أم نثرا أم حوارا قصصيا لتقدم في حصص الاستماع وتعزز دروس القراءة.

1 - التدريب على مهارة الاإستماع :

الاستماع شكل من أشكال القراءة ووسيلة من وسائل التعليم اللغوي، لأن اكتساب اللغة قائم في الأساس على سماع العبارات الدالة وطريقة أدائها، والذي لا يملك حاسة السمع ولا يستطيع توظيفها لا يمكنه أن يتعلم اللغة أو يستفيد من الخطاب المتداول في المجتمع، فحصة الاستماع هي الحصة الطبيعية التي تعرض فيها اللغة نفسها على المتعلم، فيتلقاها كما سمعها، ثم يحاول بعد فهمه لها أن يتصرف فيها، وفق المواقف التي تعرض له في حياته، على عكس

الحصص اللغوية الأخرى التي يحاول فيها المتعلم أن يلتقي باللغة، ويعرض نفسه عليها، ويجهد تفكيره في تعرف رموزها من خلال تعلم مكونات مهارات القراءة والكتابة وممارسة التعبير .

وهكذا فالمتعلم في حصة الاستماع لا يذهب إلى اللغة ولا إلى المعلومات ولكن المعلومات هي التي تأتيه، فالمطلوب منه عندئذ أن يرهف سمعه وينصت باهتمام لما يعرض عليه، ويتابع بذهنه الأحداث أو المعاني التي تتوالى في الخطاب المسموع، فكأنه يراها أمامه أو يقرأها .

إن التلميذ في حصة الاستماع يكون في وضعية نفسية مريحة، وفي حالة تركيز أكثر من حصة القراءة العادية (البصرية) التي يضطر فيها إلى إستخدام البصر بكثير من التركيز، وإلى إجهاد النفس في التعرف والنطق والتفسير، الأمر الذي لايطلب منه في قراءة الاستماع، ثم إن هذا النوع من الحصص يهيء التلميذ لفهم اللغة والتأثر بها والاستمتاع بمعانيها، لأن النص الذي يقرأ أو يلقى تصحبه نبرات صوتية معبرة وإشارات وحركات إنفعالية شارحة للمعنى، ودالة عليه وهذا يعين على الفهم، ويدفع إلى التذوق، فاللغة المنطوقة لها مزايا عديدة من أهمها :

-كما يقول كمال بشر (إنها المصدر الحقيقي في الدرس اللغوي الحديث إذ في الكلام المنطوق دفء الحقيقة، وتمثيل الواقع، وفيه كذلك الخواص التي حرمت اللغة المكتوبة من بعضها أو أكثرها)، أما اللغة المكتوبة في نظره فهي : (مستوى من الكلام محروم من عنصر مهم من عناصر النظر في اللغة وهو المسرح اللغوي الحي الذي لا يمكن تصور الكلام بدونه) . [1]

مادة الاستماع هي :

- نصوص القراءة والإملاء
- القصص والحكايات المثيرة .
- المقطوعات الأدبية (الشعرية والنثرية) .
- الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .
- الطرائف والأقوال المأثورة .

في السنوات الأولى وقبل أن يمتلك الأطفال مهارات القراءة يركز على :

- تسميع الأطفال مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .
- تسميعهم قصصا وحكايات ونوادر ومقطوعات أدبية شعرية وتثرية شريطة أن يكون أسلوبها سلسا ومعانيها لطيفة وتراكيبها جميلة لنجعل الهدف هو تربية أذواقهم وتنمية ثروتهم اللغوية، وتدريبهم على حسن الاستماع وترغيبهم فيه .

---

(1) كمال بشر : دراسات في علم اللغة ص 56 .

أما في السنوات العليا (بعد أن يمتلك التلاميذ مهارات القراءة) فينبغي أن تدرج بالإضافة إلي ما ذكر نصوص القراءة ونصوص الإملاء والطرائف والأقوال المأثورة والحكم والنوادر، ليصبح كل ذلك ممهدا للدراسة الأدبية في هذا المستوى.

الأهداف : (أهداف مهارة الإستماع)

ومن المعلوم أن لهذه الحصة مجموعة من أهداف أشرنا إلي بعضها عند تحليل وظيفة الاستماع ونؤكد هنا على :

- تدريب التلاميذ على حسن الاستماع وتتبع الخطاب المنطوق .
- التدريب على فهم الإشارات والقرائن والسياق الذي يعين على الفهم .
- تمكين المتعلمين من هذه المهارات التي تشتد الحاجة إليها في الجامعة وفي الحياة خارج المدرسة .
- تربيةحاسة السمع وتدريبها على التمييز الدقيق بين الأصوات والنغمات .

وهكذا فالتدريب على الإستماع هو تدريب على فهم اللغة، لأن الفهم يسبق الاستخدام ويرافقه، ثم إن الاستماع يرتبط يكل المهارات اللغوية، ويؤثر فيها، فالسمع أبو الملكات كما يقول (ابن خلدون).

ويجب أن نؤكد ونحن نتحدث عن الإستماع أمرا تربويا مهما أصبحنا لا نعطيه الاهتمام المطلوب هو مسألة الحفظ، فالحفظ منهج تربوي لا يمكن رفضه بصفة مطلقة .

2- التدريب على تعلم مهارات التعبير :

التعبير هو الأداة التي تصل الإنسان بغيره، والوسيلة التي بها يشرح أفكاره ويبدي مشاعره واهتماماته، ويحاول التأثير فيمن يحاورهم، لذلك يعد التدريب على التعبير بنوعيه أمرا بالغ الأهمية .

فالمفروض أن تكون مهارة التعبير الشفوي هي المهارة المألوفة والسهلة بالنسبة إلى تلاميذ المرحلة الأولى، لأنها ليست غريبة عنهم، فقد نشأوا معها منذ أن بدأ وا تعلم اللغة، ثم إن المضمون اللغوي الذي تجعل منه المدرسة مادة للتعبير لا يختلف كلية عن العناصر اللغوية التي كانوا يستخدمونها في المنزل، ومع ذلك فالتلميذ المتخرج من التعليم الأساسي (التعليم الإلزامي) لا يملك هذه المهارة ولا يستطيع ممارسة التعبير المسترسل والمنظم، مما يدعو إلى التساؤل عن الأسباب، ولعل الأسباب ترجع إلى ما يلي :

أ -الانتقال المفاجئ بالتلميذ من الاستعمالات اللغوية العامية إلى اللغة الفصيحة الأمر الذي لم تنصح به التوجيهات التربوية، بل تنصح بتجنبه .

ب –إلزام التلاميذ منذ البداية بالكلام المعرب أي تحريك أواخر الجمل مما يجعل التلاميذ يتهيبون من المشاركة في الكلام، خوفا من الوقوع في الخطأ .

ج –إنعدام البيئة اللغوية السليمة التي يحتك بها التلميذ، والتي هي الأصل في إشاعة الاستعمال اللغوي الفصيح، فتلاميذنا اليوم لا يجدون إلا المدرسة التي تحاول أن توفر لهم جانبا من هذه البيئة المفتقدة، وحتى المدرسة التي هي المكان الوحيد لاستخدام الفصحى أصبح عرضة لظاهرة التسيب اللغوي .

د –إن العناية التي أعطيت للتعبير الشفوي في الطور الأول (السنوات الثلاث الأولى) لم تستمر في باقي المراحل بنفس الحجم ونفس الاهتمام، ولم تتسع لتشمل الاهتمام المركز بالتعبير الكتابي، الذي كان المفروض أن يحتل مكانة متميزة في الخطة الدراسية، لذلك آن الأوان أن تخصص مكانة للتعبير الكتابي في جميع المراحل من غير أن نقلل من الاهتمام بالتعبير الشفوي، في المرحلة الأولى والثانية بالخصوص .

وفيما يلي بعض الاتجاهات التي نلح عليها :

1 – ينبغي أن يتجه الاهتمام في حصص التعبير إلى تنظيم الأفكار باعتبارها الأساس الذي يعتمد في تنظيم الكلام .

2– ينبغي تنويع الوسائل المعتمدة في تنظيم حصص التعبير .

3– تنشيط حصص التعبير وإدارة الحديث يتطلب مجموعة من الفنيات البيداغوجية مثل :

– أن لا يستبد المعلم بالكلام .
– أن يشجع المحاولات التي يبديها الأطفال مهما كانت .
– أن لا يطالبهم بالإلتزام بتحريك أواخر الجمل .
– أن يسعى باستمرار لفك عقدة الألسنة بدفع الخجولين إلي التعبير وتشجيعهم على الاستمرار فيه .
– أن تكون لغته التي يدير بها الحديث صالحة للاقتداء ومثيرة للحوار .
– أن يستحضر المعلم جوانب الموضوع المحدد للمناقشة ليكون متهيئا لملء الفراغات التي تظهر في كلام التلاميذ، وتوجيههم لتناول جزئيات الموضوع .
– أن يحسن إثارة التلاميذ وتحفيزهم للكلام .

4– يحب أن تكون حصص الحوار الذي يجريه المعلم من خلال دروس التعبير والقراءة حصصا يشارك فيه جميع التلاميذ على أن يكون الحوار الذي يديره بين التلاميذ حوارا حقيقيا لا تكلف فيه، بحيث ينظم على أساس موضوع حي، يعيشه التلاميذ، ويتفاعلون معه، وتستخدم فيه عبارات وتراكيب تثري قدرتهم، وتكسبهم دربة على

استخدام اللغة في الاتصال بالناس، وفي المواقف المختلفة ، ويتطلب هذا تجنب الأنماط الجافة والمفروضة التي لا يستوعب التلاميذ معناها، ولا يشاركون في بنائها .

5– جعل الحصص الدراسية كلها حصصا للتعبير

6 – ينبغي أن يلتزم المعلم اللغة الفصيحة في كلامه سواء داخل الحجرة الدراسية أم خارجها ليكون كلامه نموذجا صالحا للمحاكاة، ومؤثرا تأثيرا إيجابيا في أدائهم اللغوي، لأنه قدوتهم، ومصدر الخبرة الراقية في نظرهم.

الوسائل

– الصور المعبرة والثرية بالأحداث والوقائع .
– القصص المثيرة ذات الأحداث والمفاجآت .
– النص المقروء أو المسموع .
– الحوار الحي انطلاقا من مناسبة أو حدث .
– تمثيل الدور ... إلخ .

أما وسائل التعبير الكتابي فهي بالإضافة إلي الوسائل المذكورة كما يلي :

– التعبير الحر الذي يحدد التلميذ موضوعه .
– كتابة الرسائل والبطاقات والدعوات .
– تركيب قصة مبعثرة .
– إكمال القصص المفتوحة ذات النهاية المشوقة .
– تبليغ خبر إلى من يجهله .
– تقديم نصائح لزميل أو رفيق .
– تنظيم حوار بين شخصين أو تخيل حوار بين حيوانين .
– التعبير عن أمنية يتمناها الشخص .
– كتابة إجابات عن أسئلة .
– وضع أسئلة لإجابات مطروحة .
– توظيف مفردات وصيغ وقوالب توظيفا حرا .

وفي المستويات العليا يضاف ما يلي :

– تلخيص القصة أو توسيعها .
– إبراز المغزى من النص .

– توجيه رسالة إعتذار لصديق .
– كتابة طلب لمصلحة إدارية يحدد الكاتب موضوعها .
– ملء إستمارة أو مطبوعة إدارية .
– وصف مشهد إلخ .

3– تعليم مهارة القراءة :

لا بد في البداية من تأكيد حقيقة وهي أن القراءة عملية معقدة في الأساس بالنسبة إلي المبتدئ، لأنها ترتبط بالكلمة المكتوبة والكلمة المكتوبة صورة مجردة ومختلفة عن الكلمة المنطوقة كما سبق القول لأن الأولى مؤلفة من رموز خطية متواضع عليها، والثانية مولفة من عناصر صوتية تؤدي وفق تسلسل مكاني وزماني، وتكتسب بالسماع، وليس هناك علاقة بين ما ينطق وما يكتب إلا من حيث المعنى، فالصورتان ترمزان إلى معنى قائم في الذهن، وله صورة مقابلة في الواقع الحياتي، فالانتقال من الرموز الكتابية إلى الرموز الصوتية وإلى المعنى المستقر في الذهن أو المجسد في الواقع ليس أمرا سهلا .

إن التعرف على المعنى الذي هو مدلول الكلمة يتوقف على إدراك العلاقة بين اللفظ والمعنى، وقراءة اللفظ المكتوب قراءة سليمة يتوقف على معرفة الرموز والإشارات الخطية وطريقة النطق بها .

وهكذا تصبح القراءة بالنسبة إلى المبتدئ تعرفا ونطقا وإدراكا، وليس من السهل على من لم يدرب تدريبا كافيا علي الربط بين هذه العناصر الثلاثة أن يتقن القراءة بصفتها أداء متصلا ومعنى مستوعبا، فالتأليف بين الصورة الكتابية والصورة الصوتية والصورة الإدراكية يتطلب مستوى من النضج وقدرا كافيا من الاستعداد، وبرنامجا من التدريب .

ومن غير ذلك يصعب التغلب على العقبات التي تقف أمام متعلم القراءة، سواء في مستوى التعرف (تعرف الأشكال) أم في مستوى النطق(تحويل الأشكال إلى أداء صوتي) أم في مستوى الفهم (تحويل الأداء إلى معنى له دلالة معينة) .

ونظرا لهذه الصعوبة يتعين إختيار منهجية ملائمة لطبيعة القراءة ولمستوى المتعلم، وقادرة على تيسير تعليمها وتعلمها، ومن المعلوم أن تعلم القراءة يقوم على أساسين :

– أساس آلي ميكانيكي يوجه الاهتمام فيه إلي التعرف والنطق وفك الرموز .
–أساس ذهني لغوي يركز فيه على فهم اللغة وإدراك معاني الألفاظ.

فالقراءة ليست تدريبا على اكتساب مهارة الأداء فحسب، بل هذ عملية بنائية تبني فكر الإنسان وتصوغ وجدانه وتهذب ذوقه وتغرس الاتجاهات الإيجابية في سلوكه إذا درب عليها وفق هذا التصور .

ولا يمكن الفصل بين القراءة باعتبارها مهارة أدائية للغة المكتوبة، ونشاطا مكرسا للاستمتاع والتعلم، وبين القراءة باعتبارها أداة مثلى للتدبر والتفكير، وبناء المعرفة ونشر الوعي .

فالقراءة وفق هذا المنظور عملية لا تنتهي الحاجة إليها بمجرد الانتهاء من فترة التعلم، بل هي ملازمة للإنسان طوال حياته، ثم إنها نشاط متعدد الوظائف، متنوع الأشكال، كثير الأغراض، ولا يستطيع الفرد الإلمام بمكونات القراءة واكتساب مهاراتها المختلفة إلا إذا تلقى تعليما مباشرا مركزا وهادفا، وتدريبا عمليا مكثفا، وهذا ما يفرض أن نفرد لها عناية خاصة من شأنها أن تيسر تعلمها وترغب فيها وتوفر ظروف ممارستها.

ونظرا لهذه الأهمية تحرص بعض النظم على توفير تعليم تمهيدي يسبق الدخول المدرسي، بهدف تنمية الاستعداد للقراءة وخلق عوامل النجاح فيها، وقد أشرنا إلى هذا من قبل.

الأمور المتعلقة بالمنهجية (منهجية تعليم القراءة).

- يجب تجنب الأساليب التي تعلم القراءة من أجل القراءة .
- ينبغي أن يبذل جهد متميز في تحضير كتب القراءة والكتب المكملة لثقافة الطفل .
- إستخلاص نصوص القراءة من محاور المحادثة والتعبير .
- الطريقة المفضلة في تعليم القراءة هي التي تجمع بين التحليل والتركيب، وتجعل من مرحلة التركيب الحصة التي يركز فيها الجهد على تدريب التلاميذ على التهجي والقراءة المتصلة على أن تعزز هذه المرحلة بمجموعة من التمارين، تزيد التلاميذ قدرة على معرفة العناصر المكونة للقراءة .
- إن تعليم القراءة يجب أن يكون قائما في البداية على أساس التعامل مع الأصوات والرموز المنطوقة وليس مع الحروف المكتوبة الصامتة لأن هذه الأخيرة أكثر تجريدا، وهذا يحتم أن يكون المنطلق هو التعرف على الأصوات، لأن اللغة في الأساس أصوات، كما يحتم عدم الفصل بين الحرف الذي يرمز إلى الصوت وبين الحركة وبين الحرف الساكن والمتحرك في بداية التعلم .
- وفي مجال الكتابة يجب أن لا نرهق التلاميذ بمعرفة أوضاع الحرف المختلفة كما يفعل الكثير من المعلمين، بل ينبغي الاكتفاء بالوضعين الطبيعيين (في بداية الكلمة وفي نهايتها).

– الإكثار من التمارين التي تثبت صور الأشكال الكتابية والأصوات المرتبطة بها على أن يكون هناك تدرج معقول .

– الربط بين عمليات الكتابة والقراءة والتعبير .

ما ينبغي الحرص عليه في تعليم القراة :

– أن تكون الجمل والنصوص سليمة البناء سلسلة العبارات خالية من التكلف .

– أن تكون الفكرة التي يتناولها النص واضحة وهادفة .

– أن يستوفي الدرس عنصري الإثارة والتشويق .

– أن يستعان بالوسائل المشخصة لمعاني المفردات والتراكيب .

– أن لا نتقيد بترتيب معين في تعليم الأصوات إلا ما تفرضه المبادئ التربوية (السهولة والصعوبة) .

أما الأهداف التي ينبغي أن نعمل من أجل تحقيقها فهي :

– القدرة علي القراءة المتصلة .

– القدرة على استيعاب المعني .

– القدرة على الانتفاع بما يستخلص من النص المقروء .

– الرغبة في القراءة بهدف غرس السلوك الإيجابي نحو الكتاب .

– تنمية العادات القرائية الصحيحة(الابتداء – الوقف – الوصل – الأداء المتصل – النبرة الصوتية الملائمة للمعنى .. إلخ) .

4 – تعليم مهارة الكتابة :

إن تدني المستوى الأدائي في اللغة يظهر أكثر ما يظهر في كتابات التلاميذ، وهذه حقيقة ينبغي أن لا نتهرب منها، فالصعوبة التي تواجه التلاميذ في هذا المجال لم تجد ما يقابلها من جهد يذللها، ولعل العامل الجوهري الذي يرفع الأداء اللغوي الكتابي هو المداومة على الكتابة في المجالات التي تتصل بحاجة الإنسان واهتماماته .

إن الكتابة مهارة حركية ولغوية وفكرية، وتعلمها يتم من خلال ثلاثة أنشطة أساسية :

– **نشاط الخط** : والهدف منه معرفة الشكل المتعارف عليه والتدريب على تنسيق كتابة الحروف

– **نشاط الإملاء** : والهدف منه مراعاة قواعد الكتابة وضوابط رسم الكلمات وفق القاعدة الهجائية والبنية الصرفية والنحوية .

- **نشاط التعبير التحريري** :والهدف منه إكساب التلاميذ مهارة التبليغ باستخدام الكتابة (تبليغ فكرة تسجيل خواطر طلب شيء) وغير ذلك من الأمور التي يحتاج فيها الإنسان إلي تدوينها والتعبير عنها كتابة، ولجعل التلميذ يتقن هذه المهارة يجب أن يمكن من رصيد لغوي يتيح له الإعراب عن أفكاره كما يجب أن يمكن من معرفة كيفية نظم الكلام وبناء العبارات والرسم الإملائي المتعارف عليه، ودروس التعبير الشفوي والقراءة وحديث المعلم اليومي والاستماع إلى المقطوعات الأدبية كل هذا يعين التلميذ على فهم طريقة التعبير الكتابي، يضاف إلى ذلك دروس الإملاء والخط والقواعد التي تعينه على تحري الصواب والسلامة في الأداء وتجنب الأخطاء.

وبهذا يصبح التعبير الكتابي غاية النشاطات اللغوية المختلفة، فكل الفنون اللغوية تصب في نهر التعبير الكتابي، وأهم خطوة عملية يجب الاهتمام بها هو الإكثار من الممارسة الكتابية التي يجب أن يرعاها المعلم بالتصحيح والتوجيه والتدريب المركز، ويستطيع المعلم أن ينجح في خطته إذا هو عرف كيف يختار :

- أنواع التمارين الكتابية الوظيفية .
- الموضوعات التي تصلح للكتابة .
- أساليب التصحيح والتوجيه التي يعتمدها .

ولا بد في النهاية من أن يجعل من حصص التعبير الكتابي تعليما للغة وليس تعليما عن اللغة وفرق كبير بين الأمرين .

هـ - تعليم القواعد :

لا تظهر القواعد (في المرحلة الأولى من التعليم الأساسي) في شكل نشاط لغوي منفصل مثل القراءة والكتابة والتعبير، وإنما تدمج مع النشاطات اللغوية المختلفة وتذوب فيها، لأنها تمارس ضمنيا (من خلال القراءة والتعبير والتمارين) بحيث لا يحس التلميذ بأنه يتعلم مادة أو نشاطا يسمى القواعد، فالقواعد لا ينظر إليها في هذه المرحلة علي أنها قوانين وأحكام تستخلص وتلقن، إنما ينظر إليها على أنها وظائف لغوية تدرك إدراكا حدسيا، وتفهم بواسطة الاستعمال المتكرر والواعي، فهي روح الاستعمال اللغوي في مظهريه الشفهي والكتابي فتعلمها يجب أن يكون على هذا الأساس .

لذا يتجه الاهتمام إلى ممارسة وظيفية للأساليب والتعابير التي تتضمن القواعد النحوية والصرفية الضرورية التي يقوم عليها نظام اللغة، ويحتاج إليها المتكلم، من غير أي شرح أو

تحليل، وتستخلص الأحكام التي تخضع لها، ومن غير أن يتعرض للتعاريف والمصطلحات الإعرابية التي لا تفيد التلميذ في شيء، لأن المهم أن يتمرس بأحوال الخطاب وأشكال البناء اللغوي ويتعامل مع الاستعمالات الوظيفية التي تستجيب لحاجاته، وتعينه على فهم ما يسمعه وما يقرأه .

وينبغي أن لا نتعجل في هذه المرحلة تدريس القواعد بصفة مباشرة، وبكيفية تحليلية مجردة، لأن توجيه إهتمام التلميذ إلى معرفة القاعدة وحفظها، ومعرفة الحكم الإعرابي لا يؤدي بالضرورة إلى اكتساب القدرة على أداء لغوي سليم، وفهم صحيح.

وحتى في المرحلة الثانية (الطور الثاني) ينبغي أن لا نركز كثيرا على النحو التحليلي النظري الذي يتجه الاهتمام فيه إلى تحليل التراكيب اللغوية تحليلا مجردا ودراستها دراسة نحوية معمقة، بهدف إبراز خصائص القاعدة والأحكام المرتبطة بها، لأن تلميذ هذه المرحلة حتى وإن اكتسب أساسيات اللغة المكتوبة عامة ما يزال بحاجة إلى توسيع خبراته في مجال الإستعمال اللغوي الفصيح فهما وأداءا، ويمكن أن ندرس له (بهدف تعميق فهمه للغة وقدرته على ممارستها ممارسة صحيحة) أهم البنيات النحوية والصرفية وحتى البلاغية التي تلتقي معه يوميا تدريسا وظيفيا يجعله يستوعب الوظيفة التركيبية والبنية الصرفية من غير أن نرهقه بالتعاريف والمصطلحات وحفظ الأحكام، فالمهم أن نكسبه الدربة على الفهم والتوظيف، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإكثار من التمارين التي تجعله يعيش مع اللغة وباللغة.

والخلاصة هي أن القواعد يمكن اعتبارها مهارة خامسة، ولكنها ليست منفصلة عن المهارات الأخرى وكما يقول الدكتور محمود كامل الناقة من (مصر): (إنها مهارة مختبئة وراء كل مهارة من مهارات اللغة)، إذ لا يمكن النظر إليها على أنها قائمة بذاتها اللهم إلا إذا كنا نعتبر تعليمها غاية في حد ذاته وهذا لا يقول به أحد له رؤية تربوية ، وفي هذا السياق ينبغي تصحيح بعض المفاهيم التي ارتبطت بتدريس القواعد وأثرت سلبا في نتائج هذا التدريس، من ذلك :

- الخلط بين المفهوم المتعلق بالمعنى والمفهوم المتعلق بالمبنى، فالكثير من المعلمين يتصورون أن النحو مثلا مبنى قبل أن يكون معنى أو هو معنى تابع للمبنى ومن ثم يتجه إهتمامهم عند التدريس إلى المصطلحات والتعاريف والأحكام، ويهملون الوظائف والمعاني التي هي الأساس.
- الخلط بين النحو الأكاديمي التخصصي وبين النحو المدرسي الوظيفي الذي يعين التلاميذ على فهم البناء اللغوي والعلاقة بين التركيب والمعنى .

- ولتصحيح هذه النظرة يجب التأكيد على ضرورة التركيز على المعنى قبل المبنى والوظيفة قبل الحكم، والاستعمال قبل الحفظ.
- لا بد أن تكون الأمثلة النحوية من صنع الواقع وليست من صنع المعلم، إذ لا يجوز أن يكون المثال النحوي صوريا خياليا غير متطابق مع الواقع, ولا مع الأحداث الجارية، ولا مع ما يمكن أن يستوعبه المتعلم.
- إن الوقت الأكبر يصرف في التحليل والدراسة والمناقشة عند محاولة إستنباط القاعدة, ولكن الاستعمال الذي هو الأساس لا يعطى الوقت اللازم وهذا أحد الأسباب التي جعلت التلاميذ لا يملكون المقدرة على توظيف القواعد توظيفا سليما.

5 - إصلاح الأوضاع الخاصة بتعليم اللغة :

إن إصلاح أوضاع تعليم اللغة في داخل المدرسة يعني معالجة مظاهر الخلل التي تعوق الجهد وتقلل من النتائج، ولكن هذا الإصلاح موقوف على الجهود التي تبذل لتغيير الواقع اللغوي المحيط بالمدرسة ويؤثر في جهودها من ذلك:

- تغيير مواقفنا الرسمية وغير الرسمية تجاه اللغة العربية, لتنمية الوعي بالقضية اللغوية وتقوية حاسة الغيرة عليها, لنصونها ونمنع عنها الهوان الذي يلحق بها، وجعل هذه المواقف جزءا من سلوكنا الفكري والثقافي والسياسي كذلك.
- وأول ما يجب البدء به هو الحد من ظاهرة التسيب اللغوي التي نلحظها في محيطنا الثقافي والاجتماعي ومن مظاهر التسيب :
- قلة الاهتمام بسلامة اللغة وجودة التعبير .
- انصراف الكثيرين إلى استعمال لغة ضعيفة مفككة هي أقرب إلى العامية .
- تفشي العامية الركيكة حتى في الأوساط الثقافية .
- التباهي باستعمال اللغة الأجنبية حتى في المواطن التي لا تدعو إلى ذلك .

ومن المعلوم أن اللغة أية لغة لا تنهض إلا باحترام أهلها لها, وتعلقهم بشخصيتها، وحرصهم على خدمتها علميا وتربويا، لتأهيلها لمواكبة كل مستجد في ميدان المعرفة، ووسائل الإتصال، وانطلاقهم منها إلى الاتصال بخبرات الآخرين علما ولغة.

إن خدمة اللغة والعناية بها يجب أن تكون في صميم جهود البناد الوطني، والنضال ضد التخلف الثقافي والحضاري .

فالعناية باللغة كما يرى البعض يجب أن تتجاوز حدود الواجب والضرورة والمصلحة، لتبلغ حد المصير، فترتفع فوق كل جدل، وتستقر في نطاق المثل العليا التي نؤمن بها ونعمل من أجلها .

تعليم اللغة العربية
رأي في واقع الحال ورؤية في أفق الآمال

أ.د. نهاد الموسى -الأردن-

كأن خطة تعليم اللغة العربية في وضعها المدرسي الحاضر، ألا تكون هناك خطّة، وذلك أن تعليم اللغة العربية، بمناهجه، وكتبه المقررة، وممارسات المعلمين في غرفة الصف، ما يزال متروكا لمسار التراكم العفوي.

فليس لمناهج اللغة العربية منطلقات متّسقة منظّمة، فهي مواد وملاحظات متراكمة لا ينتظمها نسق واضح منسجم، وهي لا تنكشف انكشافا ذاتيا يشفّ عن طبيعة متميزة خاصة، إنها أشبه شيء بخليط ائتلافيّ من موادّ تاريخية وجغرافية واجتماعية وعلمية..الخ يصح أن توصف بكل شيء إلا أن تكون مناهج للغة العربية بالمعنى اللغوي الذي يتميز تميزه الخاصّ.

حتى النحو الذي يوهم وضعه الخاص بالانضباط لا تستوي له في المناهج المدرسية ماهية منسجمة محدّدة. وهو – لدى الطلبة – أبواب في الفاعل والمفعول به والتمييز والحال...ركاما مختلطا تائها.

وليس لكتب اللغة العربية، التي توضع بطبيعة الحال في تلك المناهج، بنيان متسلسل محكم متكامل، ولعله قد وقر في نفوس معلمي العربية، على مدة بضعة العقود الماضية في جنوبي بلاد الشام، أن التلاميذ كانوا يبلغون مستوى معينا محسوبا في معرفة القراءة والكتابة بعد الصف الأول الابتدائي مباشرة، ذلك أن بنية كتاب الصف الأول- بفضل ظاهرة الحصر المحكم المستوعب للصور التي تأتي عليها حروف الهجاء في تجربة خليل السكاكيني- كانت بنية ذات خطة متدرجة محسوبة متوافية بإحكام ولكن المعلمين والمؤلفين كانوا بحاجة إلى أن ينتظروا بعد الصف الأول سنتين أو أكثر ليتبينوا معالم مستوى عام مختلف، ذلك أن بنية الكتاب ومحتواها كان يعوم ويضيع. ويظل المعلم ينتظر تقدم الطالب في السن، وارتقاء مستواه بعوامل النمو الخارجية لتسعفه في تطوير مستواه اللغوي، ولم يكن المعلم ولا المؤلف يعرفان حدا ولو تقريبيا بين الصف الثاني والصف الثالث، أو بين الصف الثالث والصف الرابع، على مستوى البنية اللغوية لكتاب كل صف. ولو أن معلما جعل كتاب الصف السادس في موضع كتاب الصف السادس في موضع كتاب الصف الخامس لما تأثر سير خطة التعليم بما يشعر أن قد عرض خلل أو اضطراب.

بل ينتظر المعلمون وأولياء الأمور، في العادة، أن يمر الزمان إلى نهاية المرحلة الإعدادية ليتهيأ للطلاّب، من خلال مواد ونصوص متنوعة قرأوها، ومسائل تدربوا على كتابتها، وقواعد متفرقة درسوها، وعوامل أخرى من التعرض للغة في الحياة العامة، معرفة ما باللغة العربية.

ذلك أن الطالب حين يبلغ هذه المرحلة يصبح، للنظرة العجلى السطحية، قادرا على أن يقرأ قراءة ما، وأن يكتب كتابة ما، وأن يفهم ما يسمع بالفصحى على نحو ما. . .الخ.

ثم يمضي الأمر في المرحلة الثانوية على مثل هذا النحو لا يفترق عنه افتراقا كيفيا بينيا.

وليس لممارسات المعلمين نهج علمي واضح منظم فالذين رسموا للمعلمين أساليب تعليم اللغة العربية (أو الطرق الخاصة في تدريسها على ما يختار بعض الناس أن يعبروا به). قد اعتمدوا في المقام الأول الغالب على ما أتيح لهم من معطيات مستفادة من أصول التربية وعلم النفس.

غير أن عنصرا رئيسيا من عناصر القول في هذه المسالة ظل غائبا، ولم يتوفر أحد فيمن أعرف، على البيان عنه والكشف عما يكون له من أثار في توجيه المؤلفين، مؤلفي الكتب المدرسية ومعلميها. والعنصر الذي أعنيه، هنا هو اللغة نفسها، بطبيعتها الخاصة، ونظامها الذاتي، وأشكال تحققها في مواقف الاستعمال، والمسلمات في طريقة اكتسابها، ونظريات درسها، ذلك أن النظر في طبيعة الموضوع لا يقل أهمية عن النظر في طبيعة المتعلم عند أية محاولة لتشكيل طريقة صالحة في تعلميه.

ولم يكن المعلم، وهو يعالج تعليم اللغة من خلال تلك المناهج والكتب القائمة على الاختلاط والتراكم، ليصدر، على مستوى الموضوع، صدورا لغويا منظما محسوبا، بل أصبحت صورة معلم اللغة العربية صورة معلم غير متخصص، ولعل كثيرا ممن ينتحلون مهنة التعليم لم يكونوا يجدون صعوبة ولا حرجا في أن يتولوا تدريس اللغة العربية، ذلك أن معلم اللغة العربية لا يتميز بأنه يتناول مادة منضبطة بأصول.

من منا – معلمي اللغة العربية – يذهب إلى صفه وهو يعرف على وجه التحديد – المطلق أو شبه المطلق– ما الذي يقصد أن يبينه في لغة التلاميذ؟

من منا – معلمي اللغة العربية– يعرف مثلا، على وجه التحديد شبه المطلق، كم كلمة جديدة يضيف كتاب الصف السادس الابتدائي إلى معجم الطالب؟

من منا يعرف مثلا، في أي صف وفي أي درس من دروس ذلك الصف سيدرب على ترتيب عناصر موضوع إنشائي معين ترتيبا متسلسلا منطقيا؟. . .الخ.

وكأن الذين عملوا في وضع مناهج اللغة العربية، وتأليف كتبها، ورسم طرق تدريسها، كانوا يصدرون عن تصورات وتآليف سبقتهم، ثم يأخذون ببعض المعطيات التربوية والنفسية ولكنهم يغفلون «بنية اللغة» فتضيع ملامحها، ولا تعود عناصرها متعينة معلومة تسير وفق خطة مقدرة محسوبة، ولا يجري تعليمها على أصل متسق.

ويتفاعل هذا الوضع القلق الانطباعي التراكمي ليفرز ظاهرة فاجعة:

أن الطالب العربي المتخرج في المدرسة بل المتخرج في الجامعة لا يقرأ كما ينبغي أن تقرأ، إنما يجمجم بأصوات متعثرة تترجم صورة المكتوب، فلا هو يقرأ قراءة جهرية معبرة، ولا هو يسرع في القراءة الصامتة، ولا هو يحسن استخلاص معاني ما يقرأ، ولا هو يحسن التغلغل فيما وراء السطور، بل إنه، بصورة عامة، لا يحب القراءة.

والطالب العربي المتخرج في المدرسة بل المتخرج في الجامعة لا يكتب كما ينبغي أن يكتب؛ فهو كثير الخطإ في الإملاء، كثير الخطإ في النحو، لا يلاحظ علامات الترقيم، ولا تجري أفكاره على نحو متسلسل، ويستعمل الألفاظ استعمالا قلقا.

وهو كذلك لا يستمع كما ينبغي له أن يستمع؛ ذلك أنه لا يحسن الاستماع ابتداء، فإذا أظهر الاستماع تبين أنه لا يحسن استخلاص مضمون ما يسمع، وقد يستمع إلى محاضرة فلا يتمكن من استصفاء الموضوع الذي تدور عليه في تلخيص آني بارع دال، أو تجده منكبا على نسخ ما يسمع فحسب!

أما هذه الرؤية فتمثل منهاج اللغة العربية، أولا، على مستويات خمسة مؤلفة بانسجام:

* مستوى موضوعي لغوي خالص يبني في التلاميذ معرفة بالعربية في نظامها الصوتي والصرفي والمعجمي والنحوي والبياني والكتابي بناء متدرجا متناميا **متكاملا، ويحتفي في هذا السياق بالخصائص التي تتميز بها العربية في أصواتها المغايرة لأصوات بعض اللغات الأخرى مما يقتضي** عناية خاصة (كما في النطق بحروف الحلق عند الطالب غير العربي) كما يحتفي بالطبيعة الاشتقاقية للعربية على مستوى الصرف بخلاف ما يكون عليه بناء الكلمات باللواصق واللواحق في اللغات الأخرى كالانجليزية.. .إلى آخر ما تكون فيه المقارنة بين هذه المعطيات اللغوية الخالصة في العربية وما يناظرها في اللغات الأخرى سبيلا إلى تفتح الطالب على وعي اللغة وما يدور في محيطه من التداول بلغات أخرى.

وعلى هذا المستوى اللغوي الخالص يكون مدار تعليم هذه العناصر على مفردات وعبارات وتراكيب وأمثلة ونصوص تربط اللغة بالحياة وتنطلق بالتلميذ من بيئته المحلية وخصوصيته الثقافية إلى فضاء البيئات الإنسانية المختلفة، فإذا اتخذنا حرف (الصاد) للتعلم حتى منذ البدء **فستكون مواعيد صلاة الصبح وصلاة العصر وتحيات مثل صباح الخير** حتى عبارة (نفد الرصيد من الجوال) مادة لتعليم هذا الصوت في سياق كلي يأتلف ممّا يعيشه التلميذ ويمارسه على نحو متوازن. وإذا كان الصوت الذي نعلمه هو صوت الضّاد فإننا نتخذ له من مظاهر الحياة الطبيعية في البر والبحر كلمات كالضفدع والضبع، ومن الظواهر الطبيعية الأخرى كالضباب في لندن، والهضاب في الجزيرة العربية.

إنه حتى تعليم الحروف الهجائية بأصواتها في هذه المرحلة بهذا التوجه يحسن أن يعول على المشترك الإنساني الواقع في نطاق خبرات التلاميذ على اختلاف بيئاتهم... إنهم مثلاً يعرفون أسماء البلدان في العالم لذلك فإن اتخاذ أسماء البلدان وعواصمها يمكن أن يكون سبيلاً لتعليم الحروف مع ما ينطوي عليه من انفتاح رؤية المتعلم على العالم من حوله فهو يتعلم النون من (الباكستان) مثلا و(أفغانستان) و(السودان) و(لندن) و(واشنطون) مثلا، ويتعلّم الميم من (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) و(المسجد الحرام) و(المسجد الأقصى) و(ماليزيا) و(المغرب) و(ملبورن) و(موسكو) و(دار السلام) إلى آخره.

* ومستوى وظيفي يبني في التلاميذ مهارات الاستماع والقراءة والمحادثة والتعبير الكتابي بناءً متدرجًا متناميًا متكاملاً (يتجاوز التلقي إلى المشاركة الفاعلة) فيمضي بالاستماع من أدب الاستماع وحسن الاستماع إلى فهم المسموع واستبطان مقاصد المتكلم والاستجابة المناسبة للمسموع، ويمضي بالقراءة من الأداء الصحيح المعبر إلى قراءة ما بين السطور وتمييز الحقائق عن الآراء فيما يقرأ واتخاذ موقف نقدي مستقل، ويمضي بالمحادثة من الأسئلة والإجابات المباشرة إلى استجلاء وجهات نظر الآخرين ورسم استراتيجية الإقناع بحسن الإبانة وسلامة الاستدلال، كما يحسن تنظيم مجالس الحوار وإدارتها بين المشاركين من بيئات مختلفة في موضوعات اجتماعية وثقافية شتى.

لكن هذا المستوى الوظيفي يسترفد إلى جانب هذه المهارات الأربع مهارة المشاهدة التي أصبحت ظاهرة يومية تتغلغل في عالم المتعلم، وتكون الصورة والحركة فيها مصاحبة للنص كما في الإعلان وفي التلفزة وفي الجرائد والمجلات والأفلام والملصقات وبرامج الحاسوب والأنترنت وأشرطة الفيديو. وقد أصبحت هذه الظاهرة تمثل واقعًا يتعين علينا معه أن ندرب المتعلم على تحليله وتفسيره ونقده، كأن يفسر اختيار الصورة عند الإعلان عن الرشاقة باختيار نموذج لفنان أو رياضي جماهيري، وفي اختيار طبيب بلباسه الأبيض عند الإعلان عن معجون للأسنان، أو بإظهار لهفة الأطفال وإقبالهم عند الإعلان عن نوع من الحلوى، مع التفطن إلى أبعاد التقاط الصور كملاحظة النظرات المتبادلة بين الشخوص والحركات التي تصدر عنهم ودلالة ملامح الوجوه على مواقفهم، وهكذا حتى نتجاوز التفسير إلى بناء وعي على مصداقية الصور، ونقد مظاهر العنف كما في كثير من الأفلام، وتشكيل وعي فارق بين الممكن والمتخيل الحقيقي والخيالي.

بل إنه حتى في المهارات الأربع التقليدية يتنقل التدريب على التواصل الشفوي مثلا من آداب التواصل عندنا بالمبادرة بالسلام إلى طرق الاستفتاح ببدء الحوار كما في السؤال عن الطقس عند الإنكليز. كما أنه في حال التعبير الكتابي نراوح بين نماذج الكتابة الوظيفية المتعارفة في ملء

النماذج وتصميم بطاقات الدعوة وإعداد قوائم المشتريات، وتنظيم الوقت، وبرمجة النشاطات اليومية، وتشكيل المقالة، وممارسة الكتابة الإبداعية، إلى بناء رسائل البريد الإلكتروني، وإنشاء رسائل قصيرة بالهاتف الجوال، وتدوين الملحوظات، وتوجيه الأسئلة من خلال شبكة الأنترنت في سياق ندوة يتابعها على التلفزة...

– ومستوى ثقافي يتخذ لتعليم النظام اللغوي وتكوين المهارات اللغوية أمثلة ونصوصا تجسد قيما عربية إسلامية ذات أبعاد إنسانية تبدأ في نفسه (إن لبدنك عليك حقًا) و (العقل السليم في الجسم السليم)، ومع أخيه (أحب لأخيك ما تحب لنفسك) ومع والديه (وبالوالدين إحسانًا) و(أنت ومالك لأبيك) و(الجنة تحت أقدام الأمهات)، وحسن الجوار والحفاظ على البيئة (إماطة الأذى عن الطريق) والاعتدال (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وتقدير العمل (وقل اعملوا) وإتقان العمل (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) والرحمة والرفق بالحيوان، وطلب العلم (وقل ربي زدني علما) و(هل يستوفي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) والانفتاح المعرفي (اطلبوا العلم ولو في الصين) وروح الإخاء (إنّما المؤمنون إخوة) والنزعة الإنسانية (الناس سواسية كأسنان المشط) و(يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) و(النساء شقائق الرجال) والحضّ على الوحدة (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وأدب الدعوة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وأدب الخطاب (واخفض من صوتك) والتواضع (ولا تصعر خدك للناس) و(أقصد في مشيك) والتسامح (لا إكراه في الدين) و(لكم دينكم ولي ديني)، والإيثار...

ولو إني حبيت الخلد فردًا — لما أحببت في الخلد انفرادًا

فلا نزلت علي ولا بأرضي — سحائب ليس تنتظم البلادا

والحرية (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)...

وإنما يراد بهذه الأمثلة أن تكون مادة للتعليم والتدريب في السياق المناسب كأن يكون التدريب على نصب اسم إن إذا جاء مؤخرًا في مثل (إن لبدنك عليك حقًا)، ويكون التدريب على لا النافية للجنس في مثل (لا إكراه في الدين)، ويكون التدريب على كتابة الألف الفارقة في مثل (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا). وهذه أمثلة من جهة المواءمة بين المنطويات الثقافية والمعطيات اللغوية. لكن هذه النصوص بما تحمله من منطويات ثقافية بأبعادها التي تزاوج بين الخصوصية الثقافية والامتداد الإنساني تمثل أفقًا ينفتح به المتعلم من رؤاه الثقافية الخاصة على الآخرين في المشهد الكوني. إن مقالة عمر (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) تناظر ما ورد في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأن قوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) تمثل نداء للتعايش بين الحضارات...

* ومستوى إبداعي يتناول الجانب الجمالي الخالد من التراث ومن عيون الشعر والنثر وفنون الأدب الحديث من الشعر والقصة والرواية والمسرحية والمقالة.. إلخ، ولكنّه يتوخى أن تكون نصوص الشعر القديم خاصّة قصيرة، غير مثقلة بالألفاظ الغريبة. كما يتوخى أن تكون النصوص المختارة مما يجعل فيه الجمالي والإنساني كما في (المصنفات) من الشعر الجاهلي ونزعة الحكمة والدعوة إلى السلم (كما في شعر زهير) والغزل العذري، وشعر الحكمة لدى المتنبي وأبي العلاء، وشعر الطبيعة والتفاؤل بالحياة كما في الشعر الأندلسي وشعر أبي القاسم الشابي، والقصص الرمزي (كما في كليلة ودمنة)، وآداب الرحلات عند العرب ونماذج من أدب الرحلة عند الأمم الأخرى والرواية العربية الحديثة كما في روايات نجيب محفوظ، والأدب العالمي المترجم كما في أدب تشارلز ديكنز وشكسبير والسير الذاتية والغيرية العربية المترجمة لأعلام المبدعين الذين تميزوا بإنجازاتهم العلمية والثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والأدبية أو تميزوا بتجاربهم الإنسانية.

ويتوخى اختيار النماذج المثلى من التراث كما في وصية أبي بكر لجيوش المسلمين، وخطبة عمر عندما ولي الخلافة وموقف النبي (ص) عند فتح مكّة، وتسامح صلاح الدين عند فتح القدس، وانتشار الإسلام على يد التجار في أرخبيل الميلاد وفي إفريقيا بالسلم والاختيار الحرّ والمعاملة الحسنة.

كما يتوخى الانفتاح على ضروب من الخطاب الإسلامي والإنساني من محمد إقبال، ومحاضير محمد، وطاغور، ومبادئ ديدرو وولسون.

إن موقف المتعلم هنا يتمثل في تذوق هذه الأعمال وتفسيرها كما يتمثّل في قراءتها قراءة إضافية يصبح فيها متلقيًا منشئًا في آن معًا، وإذن يصبح المتعلم يمارس نشاطًا إبداعيًا يستثمر فيه ما استدخل من هذه النماذج فيضع بنفسه لنفسه مذكرات أو سيرة ذاتية أو يحاول شعرًا أو كتابة قصيرة أو مشهدا تمثيليًا.

* ومستوى معرفي ينفتح بالدارس على المشهد الكوني في بدائعه من المعارف والفنون والمخترعات والصناعات مما يأتيه بأخباره القنوات الفضائية والشبكة الدولية للمعلومات والصحافة اليومية والصحافة الثقافية والأقراص المدمجة مع اعتناء خاص بأن تكون النصوص التي تتناول هذا المستوى في تجلياته المختلفة مما يربط العربية لدى المتعلم بأسئلة الحاضر والمستقبل ويصل اللغة بالقضايا وموضوعات التعلم الأخرى مثل قضايا البيئة والعلوم والاجتماعيات لتحقيق مفهوم التعلم الشامل.

وهذه المستويات الثلاثة (الثقافية والإبداعية والمعرفية) تمثل مادة التعليم لتحقيق المعرفة اللغوية الخالصة والمهارات اللغوية الأساسية وربط تعليم اللغة بالحياة التي يعيشها التلميذ لتكون صورة تترجم عن مشاهد بيئته وفعاليتها ومظاهر الحياة الإنسانية وأحوالها من حوله ليتيقن من

جدوى اللغة العربية في حياته الإنسانية والمعاصرة في تكوين القدرات النقدية، وتنمية الذائقة الأدبية وإطلاق الطاقات الإبداعية لديه (كم في الكتابة الإبداعية) والمحاورات التي تنبئ عن اجتهاد في الرأي واتخاذ موقف فكري مستقل وخاصة في محاكمة ما تلقيه إلى المتعلم القنوات الفضائية والمشاهد الإعلانية في الانترنت بمرجع ثقافي يمكنه من الفرز وميز الغث والزبد من السمين والنافع.

*** المصادر والمراجع:**

1- اتجاهات مناهج اللغة العربية في المرحلتين الابتدائية والإعدادية، قدّم إلى مؤتمر المنهج المنعقد بمسقط (تشرين الأول 1978) ونشر في جريدة عُمان، السبت 25 ذي القعدة 1398 هـ الموافق 28 أكتوبر (تشرين الأول) 1978، العدد 459.

2- تعليم اللغة العربية بطريقة الوحدة، معهد التربية (اليونسكو)، بيروت 1970.

3- تعليم اللغة العربية في ضوء طبيعة اللغة ونظريّتها، مجلّة أفكار (دائرة الثقافة والفنون)، عمّان، العدد الحادي والثلاثون، نيسان 1976.

4- حُلْم أم عِلم، جريدة الأخبار، عمّان، العدد 881، السنة الثالثة 5 ذي القعدة 1399 هـ- 26 أيلول 1979م.

5- حوار في اللغة مع د. نهاد الموسى، أجراه عبد الله الشحّام، جريدة الرأي، عمان، الرأي الأدبي، الجمعة 10 / 12 / 1976.

6- خطوة حائرة بين العاميّة والفصحى، مجلّة أفكار (دائرة الثقافة والفنون)، عمّان، العدد الثالث والأربعون، كانون الثاني 1979.

7- رأي في رسم منهاج النحو، مجلّة التربية (قطر)، العدد الرابع عشر، صفر 1396 هـ- فبراير (شباط) 1976م.

8- ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة، مجلّة الأبحاث (الجامعة الأمريكية في بيروت) السنة 24، الأجزاء 1-4، كانون الأول 1971.

9- في التطوّر النحوي وموقف النحويين منه، مجلّة كلية الآداب (الجامعة الأردنية)، المجلّد الثالث، العدد الثاني، آب 1972.

10- فيها قولان أو أضواء على مسألة التعدّد في وجوه العربيّة، مجلّة أفكار (دائرة الثقافة والفنون)، العدد الثامن والعشرون، عمّان، تموز 1975.

11– لغة الطالب الجامعي، مشروع بحث قدّم إلى عمادة البحث العلمي والدراسات العليا (الجامعة الأردنيّة) 1972 / 1973 .
12– اللغة وعدم الانحياز، جريدة الأخبار (عمّان)، العدد 5،988 ربيع الأول 1400 هـ–22 كانون الثاني 1980 .
13– لماذا؟ جريدة الرأي، عمّان، السبت 17 نيسان 1976 .
14– اللّهجات العربية والوجوه الصّرفيّة، مجلّة اللّسان العربي، مكتب تنسيق التعريب (الرباط)، المجلّد الثاني، 1395 هـ–1975م .
نهاد الموسى وعلي أبو هلالة :
15– مذكرة في قواعد اللغة العربيّة، للصف الأوّل الثانوي، التربية والتعليم، عمّان، الطبعة التاسعة 1401هـ–1981م .
16– مذكرة في قواعد اللغة العربيّة، للصف الثاني الثانوي، وزارة التربية والتعليم، عمّان، الطبعة السابعة 1401هـ–1981م .
17– مذكرة في قواعد اللغة العربيّة، للصف الثالث الثانوي، وزارة التربية والتعليم، عمّان، الطبعة السادسة 1401هـ–1981م .
* نهاد الموسى :
18– مسكّن جديد لقلق قديم، جريدة الرأي (عمّان) 1976 .
19– مشروع شامل جذري لحل المشكلة اللغوية في العربيّة، ملحق جريدة الأخبار، عمّان، السبت 26 صفر 1398 –4 شباط 1978، السنة الثانية، 32 .
20– معالم خطّة في تطوير تعليم اللغة العربيّة، مجلّة الفيصل (الرياض)، السنة الثالثة، العدد 29، 1 ذو القعدة 1399هـ– أكتوبر 1979م .
* نهاد الموسى وآخرون :
21– منهاج اللغة العربية للمرحلتين: الابتدائيّة والإعداديّة، وزارة التربية والتعليم، (روي) 1978– 1979م .
22– النحو العربي بين النظرية والاستعمال، مجلّة دراسات العلوم الإنسانيّة، المجلّد السادس، العدد الثاني، الجامعة الأردنيّة، كانون الأول 1979 .
23– هوامش على كتابي « إقرأ » و« لغتي » للصف الأوّل الإعدادي، جريدة عُمان، الثلاثاء 21 ذي القعدة 1398هـ– 24 أكتوبر (تشرين الأول) 1978م، العدد 458 .
24– اللغة العربية في العصر الحديث : قيم الثبوت وقوى التحوّل، دار الشروق، عمّان 2007 .

المحور الرابع

دور المؤسسات ذات الاختصاص

في النهوض بالعربية

المعجم التاريخي للغة العربية
إِجراءات منهجية

أ ـ د . صالـح بلعيـد – الجزائر

الـمقدمة :

أبدأ هذه المقالة باقتطاف أربعة أبيات من قصيدة قالها الشاعر محمد البُرعي في حقّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقوله الحقّ والصواب، إذ يقول :

يا مجمعَ الفصحى وحصنَ تراثها — لا زلـتَ ظـلاً للبيــان ظليــلاً

قد كنتَ منذ نشــأتَ قوّةَ عزّهـا — تقضي لاحقاً عليــك نبيـــلاً

واليوم قد هبّــتْ عليها عُجمـــةٌ — كانـــت على لغة البيان وبيـلاً

فانهــضْ وخذْ بيد البيـــان فإنّـه — لم يرضَ غيرُك للبيان كفيــلاً

هذا المجمع اللغوي الذي فكّر وقدّر ثمّ طمح يوم تأسيسه في **إنجاز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية**، ولكنّ ظروفاً حالت دون ذلك، واستبدل المشروع بإنجاز (المعجم الكبير)(1) ويكبر الإجلال في هذه المؤسّسة اللغوية الكبيرة تبنّيها لاتّحاد المجامع اللغوية العربية مقراً ونفقةً ورئاسةً، فأعظمْ به من تبنٍّ. واليوم على عاتق اتّحاد المجامع العربية إنجاز **المشروع العملاق**، مشروع العصر؛ وهو إنجاز **المعجم التاريخي للغة العربية؛** مشروع تقادمت فكرتُه وطالت غربتُه، وتأتي أيادٍ كريمة تبعثه، وهذا من خلال المكرمة السخية لسمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد ألقاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتّحاد، وحاكم الشارقة؛ الذي تبرّع بتمويل بناء مقرّ لاتّحاد المجامع اللغوية العربية بالقاهرة، بالإضافة إلى تمويل إنجاز المعجم التاريخي للغة العربية. ومن هذه المكرمة من يدّ سموه تأسّست **هيأة المعجم التاريخي** بالقاهرة، كما تأسّست هياكل الهيأة، ونُصبت في مقرّ المجمع اللغوي بالقاهرة يوم 2 فبراير 2008م. ومن هنا نقول: إنّ المعجم التاريخي للغة العربية هو مشروع النهضة العربية في كلّ مرافقها وهو المشروع المعاصر الذي يجب أن نوليه ما يستحقه من أهمية، وهذا لعدّة اعتبارات حضارية ودينية وخلقية وفكرية، وله أبعاد عميقة في محيطنا الواقعي، ومن هنا فإنّ :

---

(1) لقد راعى المعجم الكبير إلى حدّ ما بعض الخطوات العلمية التي ينشدها المعجم التاريخي من مثل: أصل الكلمة، استعمالها، ترتيب المادة حسب المعاني، التدرّج في المدلولات من الحسّية إلى المدلولات المعنوية، الاستشهاد من خلال النصوص بالشعر والنثر، مراعاة اختلاف العصور، ترتيب الشواهد تاريخياً . . .

* المعجم التاريخي عمل جبّار، سوف يكشف عن كنوز العربية، وعن معارفها التي ظلّت مجهولة، كما يؤرّخ للعربية على اعتبار أنّه ديوان لتاريخ العرب والمسلمين،

* كلّ من فكّر في هذا المشروع الحضاري مشهود له بسعة الأفق، والنظر إلى المستقبل بعين الحداثة، وإلى اللغة العربية بعين التحديث، عاكساً امتدادها وأصداءها الإنسانية، ويشهد له التاريخ أنّه موسوم بالغيرة والصدق والإخلاص، والأحقّ أن يخلد اسمه،

* من بعث مشروع المعجم التاريخي في الوقت المعاصر –بعد البيات الطويل– لهو شخص حضاري يحتاج إلى تمجيد وتكريم، ويشهد لها بالغيرة والتحدّي، وأنّه رجل أصيل،

*الذين يعملون في هذا المعجم سيكونون جنوداً لخدمة العرب والعربية، فهم قافلة إعادة صياغة البرنامج الإصلاحي للغة العربية، فنِعْم هم، ونِعْم ما يَقْدُمون عليه من تسجيل وتدوين لحضارة عظيمة، ولكشف لغوي هام، ولإصلاح لغوي معاصر،

* نجاح مشروع المعجم التاريخي يعدّ مدخلاً للتشجيع، ودخول حقل الجودة وأسواق المنافسة مع مواجهة التحدّيات من خلال تفتّح علمي ورزانة فكرية ومرونة عقلية،

*اهتمامنا بالمعجم التاريخي؛ يعني أنّنا نحتكم إلى التاريخ الذي يظهر لنا قِدَم العربية، وتتجلّى لنا فيها السيطرة العامة على العلوم وأولوية الترجمات، فيرينا ذلك مساحة العربية من الذيوع في المهجر، وعبر بلدان الشرق الأدنى،

*الاهتمام بالمعجم التاريخي للغة العربية يعني تحليل مقاصد الإصلاح والتحديث على المستوى الثقافي العربي والإسلامي، فالحاجة ملحة لتطوي المساق المنهجي الذي اتّجهت إليه الدول العربية في وقتنا الحاضر إلى تطعيم علمي يلحق بآليات العصر، ووفق ما تقوم به الدول الغربية في مجال الاهتمام بلغاتها،

* العرب سيقومون بهذا الإنجاز، وسيكونون في مستوى لغتهم التي لا تدانيها لغة على وجه الأرض.

إنّ المعجم التاريخي للغة العربية سيكون مرآة للحياة العربية بكلّ جوانبها، وسيربط حاضر العرب بماضيهم، فهل يصبح الحلم حقيقة؟ وهل نعمل بالفعل والقوّة على تجسيد مَعْلَمِنا الحضاري المعاصر؟ وهل يمكن الإلمام بكلّ تراثنا في هذه المَعْلَمَة الجامعة؟ وهل نكون في مستوى التحدّي لترسيخ عربيتنا في شموخها بوضع آليات الانطلاق؟ وهل تفعّل آليات اللغة العربية من خلال المعجم التاريخي؟ وهل نستطيع إنجازه في أقرب الآجال، وفي أقلّ وقت ممّا هو متصوّر؟ وهل يقع استغلال التقانات المعاصرة؟ وهل نطمح لغد أفضل بوجود مدوّنة محوسبة للغة العربية

وفي أشكالها المتنوّعة؟ وهل يمكن أن نستدرك التأخير؟ وهَلْ وهل وهل... وما ذلك بعزيز؛ إذا صدقت النيّات وشُدّت العزائم.

لقد شرّفني رئيس اتّحاد المجامع اللغوية العربية، ومجلس الأمناء للمعجم التاريخي للغة العربية بتعييني عضواً في المجلس العلمي للمعجم التاريخي للغة العربية؛ نظراً للجهود العلمية التي أقدّمها لخدمة اللغة العربية، ولِما أنجزته من أعمال وخِبرات في مجال إشكاليات المصطلح والمصطلحية وصناعة المعاجم، والحلول المقترحة لتنميط المصطلح العربي العلمي منه خاصة، ومن خلال هذا التعيين يعني أنّ مجلس الأمناء فسح لي مكاناً في هذا العمل العلمي الموقّر، تحت مظلة **المشروع العملاق**؛ مشروع القرن المعاصر، وأعبّر بصدق عن هذه الثقة الغالية التي طوّقت عنقي وأرجو أن أكون في مستوى هذا الانتساب. وأعاهد نفسي على بذل جهدي لخدمة أغراض هذه المؤسّسة؛ مرتسّماً خطى السابقين ما لم تكن خطأً، ومواصلاً العمل إلى أن يأتي أكلُه.

لقد حضرت الجلسات العلمية الأولى للمجلس العلمي في مقرّ المجمع اللغوي بالقاهرة بالزمالك أيام 2-8 فبراير 2008م(1). ولما بدأ النقاش حول تعريف المعجم التاريخي، وعن أهدافه، وخصوصياته ومتنه، وكلّ متعلّقاته، رأيت سوء فهم عند بعض الزملاء، كما رأيت تضارب الآراء لدرجة التباين ولقد بدتْ صورة غير مستقرّة عند بعض أعضاء المجلس العلمي، حيث يغفل البعض منهم الآليات العملية لوضع الترتيبات الأولية لهذا المشروع الطموح، كما يفتقر

(1) **إليكم القائمة الاسمية بأعضاء المجلس العلمي**:

- كمال بشر، مديراً عاماً للمؤسّسة،	مصر
- إبراهيم بن مراد، عضواً،	تونس
- أحمد بن محمد الضبيب، عضواً،	السعودية
- أحمد شفيق الخطيب، عضواً،	فلسطين
- بكري محمد الحاج، عضواً،	السودان
- رمزي منير البعلبكي، عضواً،	لبنان
- سمير محمود أحمد الدروبي، عضواً،	الأردن
- صالح بلعيد، عضواً،	**الجزائر**
- عبد الهادي التازي، عضواً،	المغرب
- على الصادق حسنين، عضواً،	ليبيا
- علي القاسمي، عضواً،	العراق
- مازن المبارك، عضواً،	سورية
- محمد حسن عبد العزيز، عضواً،	مصر
- مصطفى حجازي عضواً،	مصر
- ممثل عن المجمع العلمي العراقي،	غائب

بعضهم إلى تمثّل فكرة المعجم التاريخي بقوّة، إضافة إلى غياب المفهوم العلمي لخصائص، ووظائف، وأهداف المعجم التاريخي والفروق المنهجية بين المعجم التاريخي والمعاجم الخاصة أو العامة، والفروق بينه وبين دوائر المعارف، وكذلك الفروق بينه وبين الموسوعات، بَلْهَ الحديث عن الجوانب الأخرى من مثل: عدم وضوح منهج الحيازة، وعدم وجود طريقة البرمجة، وعدم تقدير أهمية المشروع ومدة إنجازه. وقد يكون بعض الأعضاء معذورين لعدم اختصاصهم، وبعضهم لم يكونوا على اطلاع بفكرة المعجم التاريخي بتاتاً. ومن هنا انبريتُ بهذا العمل لتوضيح احتياج اللغة العربية للمعجم التاريخي، وتحديد مفهوم المعجم التاريخي، وخصائصه، وأهدافه، وكيفيات الإنجاز؛ مروراً بالإجراءات التي رأيت ضرورة تبنّيها في المشروع في مبدأ الأمر إلى أن يستجدّ الجديد.

كان في نفسي رغبة في تقديم مقالة (مقاربة) علمية باستقراء الأفكار السابقة والتصوّرات التي قدّمت في مجال المعجم التاريخي؛ بغية التوضيح والمساهمة وإزالة ما كان غامضاً، إلى جانب ضرورة وضع المعجم التاريخي على محكّ الاختبار؛ بالشروع فيه، بعد هذا التأخير الذي مسّه، ولا شكّ أنّ عمليات الشروع سوف تكشف عن ثغرات، وسوف يقع سدّها، كما سيقع استدراك المنسي، وإضافة الجديد الطارئ، والمهمّ الآن أن تحصل الانطلاقة الواثقة. وسوف أركّز القول على الخطوات **الإجرائية والمنهجية** التي تجعل المشروع يدخل المراحل العلمية والعملية بخطى واثقة وقوية، وفي نفسي رغبة صادقة في تقديم ممارسة بسيطة لحِرفة المعاجم، والتي تعمل على تحسين الأداء العلمي للمعجم التاريخي للغة العربية، وهذا عبر الطموح الطافح لتحقيق المشروع القومي المعطّل منذ أمد بعيد وسبق أن دعوت في ملتقيات **الذخيرة العربية** إلى تكاتف جهود الذخيرة العربية –التي تُنجز في الجزائر– مع المعجم التاريخي للغة العربية –الذي بدأت معالمه تظهر– إلى الإفادة من بعضهما البعض، أو دمج المشروعين في مشروع عربي واحد؛ كي لا يتكرّر العمل، وتضيع الجهود والأموال.

لقد رأيت ضرورة الإدلاء بما بصُرت به من دراية متواضعة في أمر المعجم التاريخي للغة العربية فالجهد جبّار، يحتاج إلى سواعد تفلّ الحديد، ويحتاج إلى انطلاقة صارمة في مسألة وضع المنهجية الدقيقة والبرمجة الآلية (الحاسوبية) فهما باب الوقوف على الأرض الصلبة، فإذا اختلّ المنهج أو البرمجة أو الطريقة يبقى العمل ناقصاً، وتحدق به آيات النكران. ولكنّنا الآن نحتاج في هذه المرحلة إلى وجوب الانطلاق في مشروع القرن، أو مشروع الألفية الثالثة، فالانطلاق هو الذي يوضّح بعض المعطيات التي يجب أن تُسلك، كما يُجلي الكثير من الالتباسات، فلا بدّ أن ننطلق في مَعْلَم حضارتنا وسياج هُويتنا في القرن المعاصر.

إنّ عملي هذا مساهمة في إبداء رأيي في كيفيات الإنجاز، وفي المبادرات والأفكار والخطوات التي تتّخذ في عمل المعجم التاريخي وهو في خطواته الأولى إلى المرحلة النهائية، وعسى أن أفيد ببعض الأفكار التي قد تعمل على التصويب أو التوجيه، فما خاب من استشار، ووسّع الفكرة واستنار.

سأقسم العمل إلى جزأين أساسين هما:

- **الجزء النظري**: وفيه أستعمل لغة المرافعات والمنافحات بالحديث عن احتياجنا للتأريخ للغة العربية، وما يلحق ذلك من تعاريف، ومواصفات، ووظائف المعجم التاريخي... وما يتبع ذلك من إستراتيجيات وظيفية تسهّل علمية إنجاز معجمنا التاريخي، وهذا بوعي الأهمية التاريخية والعلمية لهذا المعجم، والنقيصة الكبيرة التي تعاني اللغة العربية من عدم وجوده، دون مقارنة العربية باللغات الأخرى التي تحتكم إلى المعجم التاريخي، والعربية لا تتوفّر عليه، ويضاف إلى ذلك أنّ كلّ تأخير فيه يسبّب نقصاً في المعلومات.

- **الجزء التطبيقي**: سيكون الحديث فيه عن الإجراءات العلمية والعملية والمنهجية العلمية والتطبيقية التي أرى ضرورة تبنّيها في هذا المعجم، وما هي مستلزمات مراحل الإنجاز إلى غاية الإخراج، وسوف أتجاوز ثقافة الكلام، وتقديم التوصيات، إلى ثقافة الفعل والإنجاز، والاتّجاه إلى تحديد المشروع، وصناعة برامجه، وإنتاج تقنياته، وهي الخيار الأمثل لدخول مسارات الفعل بالقوّة.

الجزء النظري: إنّ تدوين تاريخ اللغة العربية يعني تدوين لعبقرية لغة لا مثيل لها في التاريخ، لغة شهد بعظمتها المعاندون، دون الحديث عن المخلصين لها، لغة خدمها بقوّة عرب وكثير من العجم، فبالعرب بقيت وبغير العرب ارتقت، وهذا للخصوصية التي تحملها ولا توجد في اللغات الأخرى؛ لغة خدمها وأنصفها كثير من المستشرقين؛ فهذا جرونباوم يقول في مقدّمة كتابه (تراث الإسلام) «إنّ اللغة العربية هي محور التراث العربي الزاهر، وهي لغة عبقرية لا تدانيها فيها لغة في مرونتها واشتقاقها، وهذه العبقرية في المرونة والاشتقاق اللذين ينبعان من ذات اللغة جعلتها تتّسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من علوم وفنون وآداب، وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة، كما يقول المستشرق الألماني بروكلمان الذي أرّخ للفكر والتأليف العربيين في العصر الجاهلي حتى الآن في سلسلة كتبه الشهيرة وتاريخ الأدب العربي، يقول: إنّه بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتّساع مدًى لا تكاد تعرفه أيّ لغة» (1). فإذا وقع التنويه باللغة العربية من قبل المخلصين الذين يعرفون

(1) ع/ محمود حافظ، كلماتي مع الخالدين. القاهرة: 2006، مطبوعات مجمع اللغة العربية بمصر، ص 37-38.

القيمة العلمية والروحية لهذه اللغة، فيعني ذلك الإنصاف ثمّ الإنصاف، كما لم ينكر المعاندون ذلك، رغم ما يبدونه من أقوال على هذه اللغة التي يرون فيها –في الوقت المعاصر– أنّها لا تلبّي آليات العصر، وأنّها تجاوزها الوقت، ويعني –في نظرهم– التخلّي عنها؛ لأنّها لا تستجيب لآليات المعاصرة، ويقبحون فيها هذا البعد الزمكاني الذي لا يوجد في كلّ اللغات، ومن هنا يرون فجوة كبيرة في صعوبة السيطرة على مدوّنتها الطويلة والضخمة، ويعني ذلك صعوبة التأريخ لها.

يمكن أن نقول: إنّه ليس بالأمر اليسير السيطرة على مدوّنة اللغة العربية في القريب العاجل، فليست المسألة مسألة سنة أو سنوات، فالعمل يحتاج إلى سنوات طوال، وإلى أحقاب متعاقبة؛ حتى تستوي الأمور خلقاً سوياً، ولكن ليس بالمستحيل حصولُ ذلك، وليس صعباً ربط الحلقة القُدمى بالمعاصرة وكلّ ما نحتاجه هو **الجمع المحوسب** الذي يردم هذه الفجوة الطويلة، فمن السهولة أن نتابع أعمال السلف في متابعة الجمع الشامل الذي خضعت له اللغة في البدايات الأولى، وهذا ما يراه الأستاذ صادق عبد الله أبو سليمان؛ والذي يقترح استدراك ذلك عن طريق الحوسبة الآلية، فيقول «ويتمّ بمراجعة جمع القدماء لها، ومتابعة جمعها بعد عصور الاحتجاج حتى اليوم، ومواصلة هذا العمل بعده، وسيوفّر هذا الجمع المحوسب للغة العربية معلومات لم يكن من السهل الحصول عليها بالعمل البشري المحض؛ حيث سيظهر الاستقرحصاء المحوسب للغة العربية تأريخاً شاملاً للغة في المفردات والتراكيب والأساليب، وسيكشف عن قديمها الذي خفّ استعماله أو انقرض أو استمرّ في العصور التالية وسيفصح عمّا جدّ فيها في مراحل العربية المتعدّدة، وليس لها وجود في المعجميات العربية التي تقيّدَ واصفوها بفلسفة اللغويين القدماء في دراسة اللغة، ولاسيّما تقيّدهم بأصول نظرية الاحتجاج، حيث سيعين على الكشف عن ملامح التغيّر في اللغة؛ كظهور ظواهر صوتية أو صرفية أو تركيبية جديدة واختلاف دلالات الألفاظ والتراكيب في العصور أو البيئات العربية المتنوّعة، وسيمكن العلماء بأوامر محوسبة من ترتيب اللغة زمكانياً، وتصنيفها سياقياً وعلمياً. . .الخ.» (1). وهكذا نرى بأنّه لا يوجد المستحيل في تقادم عهد العربية أمام التقنيات المعاصرة، فيمكن استدراك التأخير إذا وقع الاهتمام بتوظيف الآليات الحديثة، أي الرقمنة المعاصرة، وتثوير تشقيق خصائص اللغة العربية، ضمن الفعاليات التي حُوسبت بها اللغات في الوقت المعاصر، وهذا ما نراه على سبيل المثال في معجم الذخيرة الفرنسية أو الموسوعة البريطانية. . .

---

(1) «نحو استثمار أفضل للحاسوب في مجالات خدمة اللغة العربية وعلومها» مجلة المجمع الجزائري. الجزائر: 2007، العدد 6، ص 60 – 61.

إنّ المعجم التاريخي للغة العربية المنتظر، فعلاً سيكون معجزة العرب أجمعين، فيحتاج إلى تناول المسائل عن طريق الجمع والضمّ والعمل الدءوب، والطلب الحثيث من بدايته إلى النهاية: تصنيفاً ونقلاً وتدويناً وتفسيراً وشرحاً وسرداً وإلحاقاً واستقراءً وتخريجاً... كلّ لفظ مهما علا وانحطّ، كان مستعملاً أو مُماتاً مهجوراً أو عقماً أو نادراً أو نادياً... يحتاج المعجم التاريخي المنتظر إلى تتبّع المادة إحصاءً وعداً وشرحاً وتفصيلاً، وتعليلاً، وتأويلاً... كما يحتاج إلى تناول كلّ لفظة بدراسة تطوّر دلالتها ومدلولها وبنائها، واشتقاقها، ووزنها، وتصريفها، وإلحاقها، يحتاج كلّ لفظ إلى مراعاة اعتباطيته وتكييفه، وتصويتهن وتعقيبه، واستدراكه، وتحقيقه، وتمكينه، وتذكيره، وتأنيثه، وإفراده، وتثنيته وجمعه، وتقييده، وإطلاقه. إنّ المعجم التاريخي لا يستثني جنساً أدبياً ولا يغفل علماً من العلوم، ولا فنّاً من الفنون فالمشروع وإن كان لغوياً فهو متعدّد الوجوه «بحسبان أنّ التأريخ للغة هو تأريخ للحياة العامة في تطوّرات مسيرتها منذ أن نطق الناس بهذه اللغة أو تلك» (1) إنّ عمل المعجم التاريخي للغة العربية ليس المقصود منه الفهرسة، بل يستهدف دراسة التطوّرات الدلالية عبر العصور بالتدقيق والتمحيص وإعمال النظر.

1 - احتياج العربية إلى التأريخ للغة العربية: إنّ المعجم التاريخي ضرورة لا غنى عنها، فهو الأداة الوظيفية المتعدّدة الأهداف، وذاكرتنا التي تضبط رصيدنا المعرفي، ومرجعنا الأمين؛ يؤرّخ لقضايانا، ويؤصّلها من خلال ما فيه من شواهد على نمو اللغة العربية الطبيعي والمجتمعي. والتأريخ للعربية يجب أن يأخذ أبعاده **القومية والعلمية والحضارية والتربوية**، بغية الكشف الدقيق عن المراحل التي عرفتها اللغة العربية في غابر أزمانها، والمراحل التي مرّت بها إلى الوقت الحاضر الذي سايرت فيه الوضع الحالي ومعطيات القرن الواحد والعشرين، ومن هنا فإنّ المعجم التاريخي:

* سيؤكّد هُويتنا من خلال دراسة اللغة العربية، والعمل على التأريخ لها، ولا شكّ أنّ هذا له دور في التعبير عن تلك الهُوية، باعتبار رصيد الأمة العربية الفكري وذاكرتها اللغوية والثقافية هي **اللغة العربية**،

*سوف يسدّ المعجم التاريخي فراغاً في قلّة المصادر والمراجع، وسوف يجيب حقيقة عن كلّ خصوصيات اللغة العربية بعمق وبدقّة متناهية، مركّزاً على النواحي التطوّرية، دون أن تخرج عن نظامها اللغوي العام،

*ستُوضع العربية بفضله موضع اللغات العالمية الحيّة التي أنتجت معاجمها التاريخية،

(1) عبد العزيز بن عثمان التويجري «المعجم التاريخي للغة العربية في ضوء متغيّرات الألفية» بحث ألقي في الدورة الثانية والسبعين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 2006.

* سيؤكّد المعجم التاريخي الروابط اللغوية الجامعة بين مستعملي اللغة العربية، ويوضّح مدى ارتباط هذه اللغة بأهلها وحضارتهم، وبالأجناس الذين خدموها عرباً كانوا أم غير عرب،

* سيؤكّد المعجم أصالة اللغة العربية وعمقها السحيق، وسيساعد على دراسة اللغة العربية دراسة علمية ووصفها وصفاً لسانياً دقيقاً، ويجيبنا عن قدمها بين اللغات العروبية،

* سيعرّفنا المعجم التاريخي على العربية القُدمى، وعلاقتها باللغات العروبية (السريانية الثمودية، الصفوية، الحبشية، النبطية، العبرية، الكنعانية...)،

*سيدحضّ المقولة الخاطئة: السامية أمّ اللغات،

* سيكون المعجم التاريخي مرجعاً لكلّ المطالب، وسيلبّي رغبات كلّ باحث في اللغة العربية،

*سوف يجيب كلّ سائل عن أية لفظة، شاهد، مسكوك، مثال، وصف، حيوان، جماد... قيل في اللغة العربية،

* سيمكّن من تدقيق قواعد اللغة العربية، كما يساعد الباحثين في كلّ الاختصاصات من إنجاز أبحاثهم بشكل دقيق،

*سيمكّننا من تدقيق معاجمنا المدرسية، ومن تصحيح شواهد العربية،

* سيمكّننا من الوصول إلى المادة الأصل في اللغة العربية، والوصول إلى كلّ المظان، ويكون مادة لوضع المعاجم المتخصّصة،

*ستدخل العربية عبره ميدان الصناعة المعجمية، وسوف يكبر فيها الاهتمام بما تملكه من زاد معرفي قديم حديث؛ يكشف عن أصالتها وعلميتها.

بإنجازنا لهذا المعجم يمكن أن نقول: إنّنا نستطيع تحرير تاريخ معجم اللغة العربية بصورة متكاملة متّصل الحلقات، مستوعب لكلّ الجوانب، وبه يكتمل وعينا بلساننا المبين، وندرك صراعه من أجل البقاء والازدهار.

إنّ التأريخ للغة العربية لذاتها يستدعي تأريخاً يستتبع مراحل نشأتها في البداية، فنحاول التعرّف على ظروف **نموّها وارتقائها وتغيّرها وتطوّرها**، من خلال ماضيها الطويل بمنعطفاته العديدة وخطوطه المتشابكة المعقّدة، وتحدّياته الكثيرة المتلاحقة، كما يستدعي ذلك الرجوع إلى البلاد التي ساهمت في دراسة وترقية وحفظ تراث العربية؛ والذي يتوزّع على كلّ من مصر وبلاد الشام ـ العراق ـ الجزيرة العربية ـ إيران وآسيا الوسطى ـ المغرب العربي ـ بلاد الأندلس ـ الدولة العثمانية والبلقان ـ شبه القارة الهندية ـ جنوب شرق آسيا ـ شرق إفريقيا وغربها ـ جزر القمر ... ومن خلال كلّ هذا نرى كيف صارعت اللغة العربية من أجل البقاء والازدهار في مختلف البلاد وكيف لا يزال هذا الصراع مستمرّاً في بعض هذه البلاد.

إنّه عندما نؤرّخ للغة العربية لا نقف عند تصوير الوضع الماضي والحاضر، فالعربية غنيّة بمعجمها كلّ الغنى، كما يقول نولدكه «إنّا ليتملّكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم...» بل نذهب إلى ما هو أبعد؛ فنستشرف آفاق مستقبلها، ذلك ما يخطّط لدعم ما يتوقّع في المستقبل، وهذا ما يطرحه الأستاذ محمد سالم الجرح، في بحث له موسوم (التأريخ للعربية أهميته ودراساته ومناهجه) فمن خلال سؤال طرحه: لماذا نحتاج إلى التأريخ للعربية؟ ويردّ ضرورة التأريخ إلى أسباب ثلاثة هي:

1- «الربط بين اللغة العربية المجيدة، والقرآن الكريم، ثمّ التكريم والتقديس اللذان نالتهما العربية جرّاء هذا الربط، وسيبقى القرآن «معلماً تاريخياً بارزاً في تطوّر اللغة العربية، وكان هذا التطوّر نتيجة انتقال العرب من عصر التفرّق القبلي إلى عصر التوحّد في ظلّ الراية الإسلامية. وقد دخلت منذ ذلك الحين في اللغة العربية مئات من الألفاظ الجديدة، ومثلها من ألفاظ قديمة اكتسبت دلالة إسلامية، فلا بدّ من وقفة متأنية عند الألفاظ والاستعمالات القرآنية لتعرّف دلالاتها ومواطن استعمالها» (1)،

2- معرفة تاريخ العربية ييسّر علينا بيانها، وهذا على خلاف دراسة نحو اللغة أو صرفها أو بلاغتها أو عروضها أو معجمها وأدبها،

3- التصوّرات المتاحة عن الظاهرة اللغوية، تحفزنا إلى التأريخ للغة، فتصوّر لنا انتماء اللغات الإنسانية إلى سلالات وأسر وفصائل ومجموعات، وهذا أمر لم يتمثّله الأقدمون على نحو ما نتمثّله الآن(2).

إنّ التأريخ للغة العربية يعمل على:

- تعميق فهمنا لطبيعة اللغة العربية العريقة،
- التعرّف على كلّ ظروفها وأصولها، وما عرفته من تفاعل مع غيرها، والتعرّف على مستوياتها،
- إبراز جوانب تميّزها،
- التمكين الجيّد في تقديم حلول لما يواجهها من صعوبات،
- جعلها لغة علمية تعيش راهنها في مختلف العلوم.

(1) إحسان النص «قضايا التعريف الدلالية في المعجم العربي التاريخي» بحث أُلقي في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثانية والسبعين، سنة 2006.

(2) مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1975، الجزء الخامس والثلاثون، ص 90 -110.

2- **تعريف المعجم التاريخي**: إنّ المعجم في التعريف العام هو: ديوان يجمع بين دفتيه مفردات اللغة مرتّبة وفق نظام معيّن، ومقرونة بضبطها وشرحها والاستشهاد عليها. وإنّ ما أشير إليه في التعريف التقليدي هي الملامح اللغوية، **فالمعجم التاريخي يعني بالتطوّر التاريخي الذي يدور في فلك التتبّع لمدلول الكلمة عبر التاريخ؛ من تطوّر، وتدرّج، وحركة، وتنوّع سياقي، مؤيّداً ذلك بالشواهد على اختلاف أنماطها وبيئاتها**. فالمعجم التاريخي ديوان العربية؛ لأنّه يضمّ ألفاظها وأساليبها، ويبيّن تاريخ استعمالها أو إهمالها، كما يظهر التطوّر الحاصل في معانيها ومبانيها عبر العصور. وهناك تعاريف كثيرة حول هذا المعجم، وإنّ ما يقع عليه التركيز في هذا التعريف مستخلص من خلال أهداف وخصائص المعجم التاريخي، وما أراه من سبيل يخدم غرض المعجم التاريخي، ويعرفه الأستاذ علي القاسمي «... هو نوع من المعاجم يرمي إلى تزويد القارئ بمعلومات عن أصل الألفاظ وتاريخها ومعانيها من خلال تتبّع تطوّرها منذ أقدم ظهور مسجّل لها حتى يومنا هذا، وذلك يعني أمرين:

الأول: أن يضمّ المعجم التاريخي كلّ لفظ استُعمل في اللغة، سواء يُستعمل في الوقت الحاضر أم لا.

الثاني: أن يوثّق المعجم تاريخ كلّ لفظ في شكله ومعناه، واستعماله ممثلاً لهذا اللفظ بعدد من الشواهد (1)». ونرى الأستاذ القاسمي يوضّح المعلم الهام في المعجم التاريخي بأنّه يضمّ كل لفظ استعمل في اللسان العربي، وما عرفه من تطوّر دلالي عبر الزمان، مقروناً ذلك بالشواهد، فهذا جزء أساس في أهداف المعجم التاريخي، وهناك جوانب أخرى يكشفها المعجم التاريخي في تراثنا القديم بغية التأصل الحقيقي للغة العربية التي عرفت زماناً قديماً، وتطوّرات في ألفاظها، واحتكاكها بغيرها من اللغات.

إنّ المعجم التاريخي في دلالته اللغوية يبحث عن الأصول اللغوية، والعلاقة العضوية بالأصول القديمة؛ حيث يسرد المسيرة التاريخية منذ نشأتها، بل ومنذ ولادتها إلى وقتنا الحاضر. ومن هنا يجب أن نتقدّم إلى تراثنا؛ بدءاً من نقيشة رم الثاني الذي كتبت حروفه بعدة رموز، إلى نقش أُسيس، فنقش يُؤطر، وإلى نقيشة النمارة وما والاها من النقوش، وأن نعود إلى اللهجات العروبية القديمة ونقوشها بالعمل على إحصائها والإحاطة به، ودراسة خريطة اللهجات والهجرات، ولا بدّ في هذا المقام من العودة إلى أهل الاختصاص للتعرّف على اللهجات العربية القديمة بالشكل الذي يطرحه المختصّون:

(1) ع/ موقع google بتاريخ 28 فبراير 2008.

* **اللهجتان العربيتان الأكديتان :**

* – 1 – اللهجة العربية الأكادية البابلية

* – اللهجة العربية الأكادية الأشورية .

* **اللهجات العربية الكنعانية :**

* – اللهجة العربية الكنعانية (الفينيقية)

* – اللهجة العربية الكنعانية (البونيقية)

* – اللهجة العربية الموآبية و (الأدومية) .

* **اللهجات العربية الكنعانية العمورية بفرعيها :**

* – اللهجة العربية الكنعانية العمورية الإبلانية

* – اللهجة العربية الكنعانية العمورية الأجارتية .

* **اللهجات العربيات الآرامية بفروعها :**

* – اللهجة العربية الآرامية النبطية

* – اللهجة العربية الآرامية التدمرية

* – اللهجة العربية الآرامية المنعدية

* – اللهجة العربية الآرامية الحضرية

* – اللهجة العربية الآرامية السريانية

* – اللهجة العربية الآرامية لمعلولا وبخعة وجبعدين .

* **اللهجات العربية العدنانية :**

* – اللهجة العربية العدنانية الفصحى

* – اللهجة العربية العدنانية الثمودية

* – اللهجة العربية العدنانية الصفائية

* – اللهجة العربية العدنانية اللحيانية و(الديدانية) .

* **اللهجات العربية القحطانية بفروعها :**
* – اللهجة العربية القحطانية السبئية
* – اللهجة العربية القحطانية المعينية
* – اللهجة العربية القحطانية الحضرمية
* – اللهجة العربية القحطانية الأوسانية
* – اللهجة العربية القحطانية القتبانية
* – اللهجة العربية القحطانية الحميرية
* – اللهجة العربية القحطانية الثمودية
* – اللهجة العربية السينائية .

* **اللهجات القحطانية النقوشية والمحكية حتى الآن :**
* – اللهجة العربية القحطانية المهرية
* – اللهجة العربية القحطانية الشحرية (الجبالية، الاحكيلية، الشحوحية)
* – اللهجة العربية القحطانية السقطرية
* – اللهجة العربية القحطانية الهوبيوتية
* – اللهجة العربية القحطانية البطرحية
* – اللهجة العربية القحطانية الحرسوسية .
* **اللهجات العربيات البربرية :**
* – اللهجة العربية البربرية اللوبية
* – اللهجة العربية البربرية الأمازيغية
* – اللهجة العربية البربرية الطوارقية
* – اللهجة العربية البربرية الشلحية
* – اللهجة العربية البربرية الريفية .

* **اللهجات العربيات المصرية :**
* – اللهجة العربية المصرية الهيروغليفية
* – اللهجة العربية المصرية الديموطيقية
* – اللهجة العربية المصرية الهيراطيقية
* – اللهجة العربية المصرية القبطية .

ويبقى الباب مفتوحاً لكلّ اكتشاف لهجي أو نقشي [1]، أو للهجات المتقارضات مع اللهجات العربية وهذا في حدود ما يمكن الوصول إليه، باعتبار أنّ هذه اللهجات العربيات القديمة تنتمي في جذورها إلى **العربية الأم**، ولكن تنقصنا بعض دقائقها، فيكون احتياجنا لها للاستئناس أثناء دراسة الأصول الأولى للغة العربية. وأما المعجم التاريخي فيتعلق فقط بدراسة اللغة الفصحى، وبدايات تأسيسها، كما لا يمنع هذا من الرجوع إلى ما خُطّ على أوراق البردي[2]، وما كان مكتوباً على الورق، وما حُقّق، وما يزال مخطوطاً، وأن نجلي المادة اللغوية من حروفها إلى جملها، ومن أفعالها إلى أسمائها، ومن جذورها إلى زوائدها ومتمّماتها، ومن أصولها إلى مستحدثاتها، من مرفوعاتها إلى منصوباتها، ومن مجروراتها إلى مسكوناتها...

إنّ المعجم التاريخي هو ديوان لكلّ الأحداث، ولتاريخ اللغة العربية في مختلف التخصّصات وسجل واقعي للمعارف والخبرات، وللحياة عامة بكلّ مظاهرها، فهو رصد دقيق لتوظيف الكلمات العربية في كلّ الكتابات في مختلف القارات، وتصفّح لمعاني الكلمات من خلال نصوصها وسياقاتها عبر الزمان بكلّ استفاضة وشمولية بتغطية كلّ المجالات، وبالرجوع إلى كلّ النصوص المحرّرة باللغة الفصيحة. ولا بدّ أن نقف موقفاً دقيقاً لشرح آليات المعجم التاريخي بكلّ تفصيل، وهاكم ما استطعت حصره:

أولاً: نضع في الاعتبار أنّ المعجم التاريخي للغة العربية ليس معجما عاديا، ولا موسوعة مطوّلة بل هو ديوان لغة العرب؛ باعتبار أنّ اللغة العربية أوسع الألسنة لكثرة انتشارها وشموليتها، وكتب فيه العرب وغير العرب.

ثانيا: مراعاة خصوصية هذا اللسان؛ من حيث قدمه وعلاقته باللغات العروبية القُدمى، إلى جانب أنّه لسان الوحي والناموس،

ثالثا: لسان له سلطان عرب الجنوب عامة، ولسان حمير خاصة، ولسان عرب الشمال الذي أصبح مثالاً يُحتذى بعد القرن السادس الميلادي،

---

(1) محمد علي مادون «النقوش (النقائش) ومدوّنات اللهجات العتيقة وقصة المدوّنة العربية الموحدة لنقوش اللهجات القديمة بين الإهمال والإمهال» مطبوعة وزعت في ندوة (نقوش اللهجات العروبية القديمة ـ ليبيا ـ طرابلس5/10/2005) مجمع اللغة العربية بطرابلس. ليبيا.

(2) يقول محمود فهمي حجازي في بحث له مقدّم إلى الدورة الثانية والسبعين في مجمع القاهرة سنة 2006 «البرديات العربية من أهمّ مصادر المادة إعداد المعجم التاريخي للغة العربية، عددها في مجموعات البرديات في عدد من مكتبات العالم نحو مائة ألف ورقة بردى، ومنها مجموعة في دار الكتب المصرية بالقاهرة، طبع عدد منها في ستّ مجلدات، نشرها العالم النمساوي آدولف جروهمان، وكان إعادة نشرها باكورة عملي في دار الكتب 1994م. هذه المجموعات وغيرها تناولتها دراسات لغوية شتّى، ولكنّها لم تستوعب في معجم لغوي للبرديات العربية التي تمثّل مرحلة مهمّة في تاريخ تعريب مصر، وفيها كلمات أصبحت من رصيد العربية في مصر، ومن حقّ المثقف أن يعرف تاريخها».

رابعا: لسان فيه ألفاظ أُميتت، وألفاظ هُجّرت، وألفاظ تبدّلت وتغيّرت دلالتها، ألفاظ تحتاج إلى قيد شواردها.

ومن هنا فإنّ المعجم التاريخي للغة العربية:

* يسجل كلّ لغات (لحون) العربية المكتوبة، بدءاً من القدامى، فيبدأ من تلك اللغة المدوّنة والتي تمتدّ جذورها من دوحة لغة عاد وطسم وجديس ويعرب وقحطان وجرهم وقطراء، وغيرها من القبائل العربية، فيسجّل لغة عدي بن زيد في الحيرة، ولغة أمية بن أبي الصلت في الطائف، وكلّ من عاشوا في بلاد الحيرة، وفي بلاط الغساسنة في الشام، معجم يسجّل ما توارثناه من عربية الرهبان واليهود والنصارى وأهل الفرس،

* يعمل على تشقيق أثل اللفظ من فصيلة ما من فصائل اللغات المنتشرة على صعيد شبه الجزيرة العربية، ثمّ خارج الجزيرة العربية،

* يولي مسألةَ التعريف الدلالية أهميةً خاصة، ويعالجها من جميع جوانبها، وهو لبّ الأمر في المعجم التاريخي؛ لأنّه يغوص في حمولة اللغة عبر العصور والأزمان، وما عرفته المادة من تحوّلات في المبنى والمعنى،

* معجم شامل كبير موسّع «يتقصّى معاني اللفظ في مختلف العصور والبيئات، ولدى كلّ الطبقات الاجتماعية؛ سواء كان اللفظ عربيا أيلاً فصيحاً، أم كان معرّباً أو دخيلاً، أم مولّداً. تذكر معانيه كلّها دون إهمال معنى منها، مع مقارنة هذه المعاني في لغتها الأصلية في المعرّب والدخيل بمعانيها في العربية(1)»،

* معجم لا يتوخّى الاختصار؛ لأنّ غرضه تسجيل وتصنيف وعدّ وتحليل كلّ لفظ عربي،

* معجم لا يترك الرسائل ولا التصانيف المطوّلة والأسفار الكثيرة، ولا يهمل الغريب،

* معجم لا ينسى تلك التصانيف التي ما زالت رهينة القماطر حبيسة القراطيس؛ الموزّعة في خزائن المكتبات بجميع المخطوطات،

* معجم لا يستثني المنظومات والألفيات، وسائر الصنائع السجعية والمقامات، وما نجده في الأسفار الأدبية والتاريخية والعلمية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية والنفسية، دون أن ننسى السيَر وكتب الطبقات وكتب المعارف،

* معجم لا يترك كتب معاني القرآن، ومجازه، ومشكله، وإعجازه، وغيرها من المصادر، سالكاً التأريخ من القديم، والتدرّج في التأريخ إلى الآن،

(1) عباس الصوري «في المعجم التاريخي» بحث ألقي في الدورة الثانية والسبعين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 2006.

* معجم يتتبع كتابات الأئمة وعلماء العربية السالفين واللاحقين والخالفين حسب التسلسل المنطقي التاريخي،

* معجم لا يترك قول شاعر من الشعراء، فلا يترك لفظة شعراء المعلّقات، وسائر الجاهليين والشعراء الجاهليين المثقفين، والشعراء المقلّين والمخضرمين، وسائر الشعراء القرشيين وشعر المجهولين والشعراء الأكثر احتجاجاً بشعرهم، بدءاً بالأدنى فالأدنى،

* معجم تلعب فيه الشواهد الدور الهام، ومنها تختار المداخل، ومن سياقاتها تخرج معانيها ومنها نستدلّ على تطوّرها عبر العصور،

* معجم لا يترك لفظة من الألفاظ المسماة بالوحشية والمتناهية في الغرابة والندود، قصد التماس الأصالة والفطرة،

* معجم يعود إلى لغة النثّار والشعراء: صعاليكها وشذاذها وخلعائها وعماريطها والشعراء اللصوص،

* معجم يلاحق كلّ صغيرة وكبيرة مهما تلاحقت الأعصار، وتواردت الأدهار.

وأتدلف من جانب آخر للقول: إنّ المعجم التاريخي للغة العربية رصيد كبير وعظيم جمّ وهام يحتاج إلى تدوين يضع حداً للخلافات الدلالية واضطرابها وخبالها، ومن حيث وزنها وإفرادها وجمعها.

1/2- خصائصه: يتناول المعجم التاريخي التحديد الدقيق للكلمات واستمرارها أو اختفائها، كما يعمل على تحليل لغة كاتب/ شاعر/ قاص/روائي/ عالم/خطيب/ طبيب/ جرّاح/ طيّار/ مهني... وإحصاء مفرداته بكيفية آلية، ويعرّف عبد المنعم عبد الله محمد المعجم التاريخي قائلاً «ديوان يجمع مفردات اللغة مرتّبة وفق نظام معيّن، ومشروحة مع مراعاة التطوّر الدلالي للفظ، بدءاً بالمعنى الحسّي، وتدرّجاً معه عبر التاريخ في ضوء الشواهد المتنوّعة مع الإشارة إلى مظهر التطوّر قدر الإمكان(1)».

إنّ المعجم التاريخي المنشود يستفيد من مثالب المعاجم القديمة، رغم اختلافه عنهم، فلا يقف عند عصر، ولا يدرس الكلمة مجرّدة عن نصوصها، ولا يضيق متنه بكلّ ما دوّن في العربية، فيضّم القديم كلّه، ويستوعب الجديد المتوالي، ويبقى مفتوحاً لتعاقب الأجيال، يعمل على دراسة المستوى الدلالي للغة في ضوء مباحث وقضايا **علم اللغة التاريخي**؛ بالرجوع إلى كلّ النصوص العربية والإشارة إلى مصادرها، ويدلّنا على الاستعمال الأول، ومن مستعمله، وأين، ومتى، ومدلول اللفظ، وشيوعه أو عدم الشيوع. وإنّ المعجم المنشود كذلك لا يقف عند

(1) «المعجم العربي التاريخي (مفهمه ـ وظيفته ـ محتواه)» مجلة المعجمية. تونس: 1990، العدد 5-6، ص 160.

حدود جمع التراث، بل أن يستجيب للمعاصرة، ويكون شاملاً وسهلاً ومجيباً لكلّ المرغوب، باستغلال التقنيات المعاصرة «وممّا لا شكّ فيه أنّ التطوّر العلمي والحضاري والمعرفي الذي وصل إليه العالم اليوم، والتقدّم الهائل في وسائل البحث وأدواته، يضاف إلى ذلك الحاجة الشديدة إلى اختصار الوقت والحرص عليه؛ أمام التسارع الكبير فيما ينشر في اللغة اليوم، وحاجة الباحثين إلى متابعة ما أمكن منه، كلّ ذلك وغيره يتطلّب إعداد معجم عربي معاصر؛ يواكب النهضة المعاصرة، ويفي بمتطلباتها، ويعين الباحثين، ولا يستهلك وقتاً طويلاً عند الرجوع إليه ويشتمل على جميع الألفاظ، ويعتمد منهجاً دقيقاً في إيراد المعاني وترتيب الألفاظ، ويفيد من التطوّر الثقافي لتسهيل عملية الرجوع إليه(1)»، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، علينا الاحتجاج بالتجارب الناجحة، من مثل التجربة الناجحة لمعجم أكسفورد التاريخي الذي سجّل مفردات اللغة من حيث مبانيها ومعانيها تأريخياً، فقد غطّى مفردات اللغة الإنجليزية تغطية شاملة؛ حيث سجّل تاريخ استعمال الكلمة ونمو معناها وصلاتها، كما سجّل الكلمات المهجورة، وحدّد آخر استعمال لها.

إنّ المعجم التاريخي له صفات حدّدتها تلك اللقاءات العلمية التي قامت من أجل التعريف العلمي للمعجم التاريخي، وكما تعرّفه أدبيات المعاجم التاريخية عند الأمم التي سبقتنا في إنجاز معاجمها التاريخية، فهو يُظهر تطوّر دلالات الكلمات، ويرتّب المادة (المداخل الأساس) ثمّ الفروع (المداخل الفرعية) ويعتمد الجذور في تصنيف المادة. ويقترح محمد فهمي حجازي أنّ كلّ مدخل في المعجم التاريخي يحسن به أن يتضمّن المعلومات التالية:

أ- صيغة الكلمة وتدوينها،

ب - تأصيل الكلمة،

ج - نوعها من حيث أقسام الكلمة،

د - المجال التخصّصي لاستخدام الكلمة،

ه - مكانها التاريخي (بائد، مستعمل، عامي...)،

و - صيغها التعريفية (الجمع، التصغير، النسب... الخ)،

ز - تاريخ أقدم نصّ وردت فيه الكلمة،

ح - دلالات الكلمة من خلال النصوص الموثّقة

---

(1) رئاسة الجمهورية السورية، الموسوعة العربية، علي أبو زيد «المعجم المنشود» ط1. دمشق: 2007، المجلد التاسع عشر، ص 76-77.

ط – شواهد دالة على المعاني في ضوء نصوص من الكتب وترتّب تاريخياً، وتكون قائمة الكتب المشار إليها في آخر المعجم» (1).

كما يظهر المعجم المعاني الحقيقية للألفاظ العربية في صورتها الأولى، وفي مختلف تطوّراتها وأثر الاحتكاكات اللغوية، وعامل الاقتراض من اللغات الأخرى، ويستدعي الوصول إلى كلّ النصوص، وفي مختلف البلدان والبيئات، ويتعرّض إلى كلّ المجالات والمفاهيم، وإلى المشترك والمترادف، وإلى الصيغ المركّبة والمسكوكات، والاستعمال الحقيقي والمجازي، وغيرها من الصوَر البيانية.

3 – **أهدافه**: يبدو لي بأنّ للمعجم التاريخي للغة العربية عدة أهداف، ويمكن تلخيصها في هذه النقاط:

* الإطلاع على كلام العرب وحضارتهم،
* معرفة ما حصل من تطوّر في الدلالات العامة والخاصة لكلّ لفظ،
* معرفة ما هجر من ألفاظ وما استحدث،
* معرفة المصطلحات ودلالاتها عبر الزمان،
* معرفة المباني والمعاني والصيغ والتراكيب والجوانب البلاغية لألفاظ اللغة،
* معرفة الحقول الدلالية لألفاظ اللغة،
* معرفة اللفظ الأصيل والموّلد والأجنبي،
* معرفة زمن استعمال اللفظ، ومن استخدمه، وأين، وفي أي عمل، وعدد مرات تكراره،
* الترسيخ العلمي للغة العربية، ووجود مدوّنتها الكبرى، وتغني عن كلّ المدونات العربية،
* إنجازنا للمعجم التاريخي، يكون أرضية لاستخراج المعاجم الآلية المتخصّصة.
* إفادة بمعلومات تخصّ الكلمة العربية عادية كانت أو مصطلحاً،
* معجم يكشف عن تاريخ ظهور الكلمة، وبأيّ معنى، وما المصدر الذي وردت فيه، وما هي السياقات التي وردت، وما المجال المفهومي الذي تنتمي إليه، وكيف تطوّرت دلالتها،

---

(1) «المعجم التاريخي ومتطلبات المثقف المعاصر» بحث أُلقي في الدورة الثانية والسبعين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 2006.

* إفادة بمعلومات تخصّ الجذور،
* إفادة بمعلومات أجناس الكلام،
* إفادة بمعلومات عن الحروف والصيغ وما له علاقة بالعروض،
* إفادة بمعلومات تخصّ الجانب الحضاري أو العلمي،
* إفادة بكلّ ما له علاقة بالجانب اللغوي...

4 – **إكمال الخطوات المنجزة في مجال المشروع**: لا يجب أن نبخس بضاعة المتقدّمين في ما كتبوه عن المعجم التاريخي للغة العربية، أو كلّ عمل خدم أو يخدم جانباً من جوانب المعجم التاريخي سابقاً ولاحقاً فوجبت الاستفادة من كلّ الأفكار التي قُدّمت منذ أن كان المشروع حلماً أو تصوّراً، فالحضارة تبنى عن طريق وضع لبنة إثر لبنة، فيجب أن نكمل العمل حيث انتهى الأوّلون والمتقدّمون. تقول الروايات بأنّ أفكاراً ظهرت قبل العالم المجمعي Fischer August (1865–1949) حول ضرورة إنجاز المعجم التاريخي، ولكن لفيشر –الأستاذ بجامعة ليبزج– فضل إثارة قضية المعجم التاريخي للغة العربية أمام المؤسّسات العالمية، وهذا أسوة بالمعاجم التاريخية المنجزة في اللغات الأجنبية، وكان هذا قبل انضمامه لعضوية مجمع القاهرة؛ حيث سبق أن «عرض مشروعه على جمعية فقهاء اللغة الألمان في مؤتمرهم بمدينة بازل سنة 1907م، كما عرضه على مؤتمرين استشراقيين بكوبنهاغن سنة 1908م وفي أثينا سنة 1912م، وعندما عرض مشروعه في كوبنهاغن وافقت اللجنة المجتمعة على القرار التالي «ترحب اللجنة الإسلامية لمؤتمر المستشرقين الأممي الخامس عشر بمشروع أ فيشر الذي يرمي إلى تأليف معجم للغة العربية الفصحى يلائم روح العصر، ويعبّر عن موافقتها عليه بالإجماع(1)» كما نشير بأنّ المؤتمر الثاني قد حضره الأمير أحمد فؤاد، وإليه يعود تكوين مجمع فؤاد الأول للغة العربية(2)». ولقد استفاد فيشر من أعمال مستشرقين، ومن نصوص مستقرأة، ومن مؤلفات ومخطوطات عربية قديمة، ومن التصوّر العام للمعجم التاريخي للغة الإنجليزية، ومن المعجم الفرنسي Littré، ومن ذلك بدأ يعدّ عدّته، وخاصة بعدما أصبح مدير القسم العربي الإسلامي لمعهد أبحاث الاستشراف «بدأ في تجسيد فكرته عام 1914م عندما صار مدير القسم الإسلامي لمعهد أبحاث الاستشراق، وقد استعان في جمع مادته ببعض تلاميذه وخاصة برجشترايز Bergstrasser وشخت J. Schacht (جمع الأول لغة القرآن، والثاني لغة صحيح مسلم) وساعده جروهمان A.Grohmann بالألفاظ التي عثر عليها

(1) ع/ إحسان النصّ «مشروع المعجم التاريخي للغة العربية مسيرة وتاريخ» مجلة مجمع اللغة العربية. دمشق: 2007 المجلد الثاني والثمانون، الجزء الأول، ص80.

(2) محمد رشاد الحمزاوي «تاريخ المعجم العربي (متع) في نطاق العربية: المبادرات الرائدة» مجلة المعجمية. تونس: 1990، وقائع ندوة (المعجم العربي التاريخي: قضاياه ووسائل إنجازه) نوفمبر 17.14 نوفمبر 1989.

في أوراق البردي العربية القديمة، وأهداه كرنكو F. Krenkow مجموعة من مفردات اللغة الواردة في الشعر العربي القديم » (1). ومن يومها يجمع المادة، وقد استوفى قسماً منها، وفي سنة 1936م يعرض فكرته على مؤتمر مجمع القاهرة، وأعطى له المجمع الضوء الأخضر لمواصلة مشروعه بكلّ عفوية حتى لقبوا هذا المعجم باسمه في أول الأمر (معجم فيشر الخاص) ولقد بذل فيشر جهداً لوضع معجم عربي على هذا الأساس، وقضى أربعين سنة في جمع مادته وتنسيقها، حيث لقي عمله اهتماماً في جميع البيئات العلمية. وعهد إليه مجمع اللغة العربية بنشر هذا المعجم، ولكن الموت حال بينه وبين إتمام عمله. وقد أحياه بعد ذلك من الألمان الأساتذة: شبيتالر، وكريمر، وأولمان في جامعة توبنغن Tubingen فقاموا بجمع المادة التي تركها فيشر، وغيره من العلماء، واستعانوا بعدد من أهل التخصّص في هذا الميــدان، وخرجت أول كراسة من تلك الأعمال سنة 1957م (من أول حرف الكاف). ولكن عمل هؤلاء الأساتذة لم يكن يسير على منهجية فيشر، فلهم تصوّر مخالف يقرب إلى صيغة المعاجم المتخصّصة لا غير.

لقد أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد وفاة أوجست فيشر جزءاً صغيراً، كما نشر « المقدمة التي كتبها فيشر، وقسماً من حرف الألف إلى مادة (**أبـد**) إلى جانب نشره لنموذج أعدّه في صورة تقرير عن المعاجم العربية المقدّمة، وفيه الدعوة إلى وضع **معجم لغوي تاريخي**، ولقد حدّد تصوّره لما ينبغي أن يكون عليه المعجم التاريخي للغة العربية؛ حيث يشتمل على كلّ كلمة وجدت في اللغة العربية بلا استثناء، وتعرض كلّ كلمة حسب وجهات نظر سبع هي: **التاريخية، الاشتقاقية، التصريفية، التعبيرية النّحوية، البيانية، الأسلوبية**(2). ويلخصّ محمد رشاد الحمزاوي فكرة فيشر من خلال الوجهات السبع بأنّه « ...أراد أن يقدّم تصوّره للنصّ المعجمي التاريخي. ولقد ركّز تصوّره على مفهومي الجمع والوضع، وخصّص للجمع نصيب الأسد. فلقد طرح مسألة التعريف الدلالي في الوجهة التعبيرية وأضاف إليها التعريفات الاشتقاقية. ومن ضمنها التعاريف الصوتية، والصرفية والنّحوية والبيانية والأسلوبية، ممّا يوحي إلينا أنّه أراد أن يلمّ بجميع عناصر النصّ المعجمي في جميع أبعاده، مع التركيز على النواحي المهمّة من كلّ تعريف مثال ذلك الاهتمام بالصيغ الشاذة والاحتجاج بشواهد عدة » (3). وعلى الرغم من أنّ معجم فيشر لم يخرج إلى حيّز الوجود؛ فإنّ اهتمامه بنشر معجم للغة العربية قد حمله على التنقيب في أمّات كتب النّحو العربي، وشروح شواهده لجمع المادة اللازمة

(1) أحمد مختار عمر، أنا واللغة والمجمع، ط1. القاهرة: 2002، عالم الكتب، ص 305.

(2) لمزيد من التفصيل ينظر النموذج في أمانة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وينظر التفصيل في عمل قدّمه حلمي خليل في مجلة المعجمية التونسية حول (وقائع المعجم العربي التاريخي: قضاياه ووسائل إنجازه) تونس: 1990، مجلة جمعية المعجمية، العددان 6.5.

(3) النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي، د ط. تونس: د ت، مؤسّسات بن عبد الله للنشر والتوزيع، ص 239.

لبدء عمله. و« كانت حصيلة ذلك كتابه (الشواهد النّحوية) الذي نشره في سنة 1945م وهو يعدّ أداة طيّبة لدراسة هذه الشواهد »(1). إنّ للعالم أوجست فيشر تكويناً جيّداً في مجال المعجمية، ويبدو أنّه كان ينوي بناء معجمه على منهجية معجم أكسفورد للغة الإنجليزية OED، ومن هنا كان تصوّره يقوم على بناء **المعجم اللغوي التاريخي** للغة العربية، فقد سنّ منهجيات لعلاج المعجم التاريخي وحصرها في **سبع وجهات نظر**، واعتمد كلّ النصوص المكتوبة والنقائش؛ بدءاً من نقيشة النمارة في القرن الرابع الميلادي، وكذلك المخطوطات مهما كانت اختصاصاتها ومبانيها.

ومهما يكن من أمر إطلاق تسمية معجم فيشر **المعجم اللغوي التاريخي**، الذي يراه بعض الباحثين ثابتاً بهذه التسمية، والتي لم نجدها خلال بحثنا، وحيث يرى بعضهم أنّها من بين المثالب التي تسجّل على عمل فيشر، إلى جانب أنّه معجم تاريخي للآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري فقط أي يتعلّق فقط بعصر الفصاحة. ومهما تقوّلت الأقوال حول الفعل العلمي والحضاري الذي قام به فيشر فإنّ ما تركه يعدّ وثيقة هامة لابدّ من الوعي بها. ولا بدّ كذلك أن يؤخذ البعض منها موضع الحسبان في منهج العمل الطموح، ولفيشر الفضل الكبير في أنّه أعطى فكرة تدوين المعجم التاريخي للغة العربية وينبغي وضعها موضع التقدير.

إذاً كانت فكرة إصدار المعجم التاريخي مشروعاً منذ ثلاثينيات القرن الماضي، عندما تأسّس مجمع اللغة العربية سنة 1932، وقد وضع ضمن أهدافه فكرة إنجاز المعجم التاريخي الذي يؤرّخ لكلّ ألفاظ اللغة العربية بدءاً من العصر الجاهلي إلى الآن، فنصّ المرسوم التأسيسي للمجمع في المادة **ب** على «**أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغيّر مدلولاتها**» (2) وهذا تماشياً مع اللغات الحيّة التي عملت على إنجاز معاجمها التاريخية من مثل: معجم أكسفورد للغة الإنجليزية، والمعجم التاريخي للغة الفرنسية، ومعاجم كثيرة للغات... وهذه الفكرة كانت حلم بعض المثقفين العرب الذين رأوا أهمية إنجاز هذا المعجم، وهذا ما علّق عليه رئيس المجمع (محمود حافظ) بقوله: « أمنية قد تبدو بعيدة المنال، ولكنّها عزيزة غالية، كثيراً ما طافت بأخيلتنا وداعبت أحلامنا، وهي التصدّي لإنجاز معجم شامل عملاق في مختلف فروع العلم والمعرفة، تتكاتف في عمله الدول العربية ومجامعها اللغوية وجامعة الدول العربية التي سبق لها أن أسهمت بجهود معجمية في هذا السبيل »(3).

---

(1) مجمع اللغة العربية، المجمعيون في خمس وسبعين عاماً. القاهرة: 2007، ص 576ـ 577.

(2) إبراهيم مدكور، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً. القاهرة: 1962، ص 62.

(3) كلماتي مع الخالدين. القاهرة: 2006، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ص 101.

ورغم هذا الحلم إلا أنّ الفكرة قد تتجسّد إذا كان وراءها طالب، فهذا الأستاذ مراد كامل ينبّه إلى ضرورة وضع معجم تاريخي للغة العربية، وهذا من خلال المقدّمة التي كتبها في كتاب جرجي زيدان (اللغة العربية كائن حيّ) ويقول: «ومن هنا نرى أنّ النقص في دراسة تاريخ اللغة العربية واضح، إذا وازنّا بين ما تناولته كتب اللغة في الواقع، وما كان ينبغي أن تتناوله... فمهمّة العالم اللغوي أن يحصر الألفاظ، ويجمعها كلّ كلمة على حدة، عن أصلها واشتقاقها، وعن درجة قدمها، وعن وجودها في اللغة العربية وحدها، أو اشتراكها فيها مع أخواتها السامية أو بعضها، وعن مصدرها إذا كانت دخيلة أو مبتكرة أو مولّدة... ومن تغيّر شكلها أو معناها، وبهذا يكون لكلّ كلمة في اللغة تاريخ وترجمة لحياتها ويتكوّن المعجم من هذه الكلمات وتواريخها» (1). وإذا كان هذا رأي الأستاذ مراد كامل فهو مصيب في قوله، والذي كان يجب أن يؤخذ مأخذ الجدّ في البداية لكسب الوقت. ولا نعدم الجهد العلمي الذي قام به مجمع اللغة العربية من خلال الدورات الثلاث لدراسة المعجم التاريخي وهي:

* الدورة الواحدة والسبعون،
* الدورة الثانية والسبعون،
* الدورة الثالثة والسبعون.

وما قامت به الجمعية المعجمية التونسية من بحوث هامة في ندوة لها حول: المعجم العربي التاريخي: قضايا ووسائل إنجازه. كما لا نغفل الجهد العربي المتميّز للأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح في مشروع: **الذخيرة اللغوية**، والذي أصبح يسمى (**الذخيرة العربية**) بعد أن نال موافقة جامعة الدول العربية في الدورة السادسة عشرة بالجزائر سنة 2005 (إنترنت عربي) (2). ولا ننسى أنّ مشروع الذخيرة العربية قد وضع موضع التنفيذ في الحيازة، وقد خزّن منه الكثير، والمشكلة فيه أنّ جهده توزّع على كلّ دولة عربية؛ فكلّ منها تقوم بتخزين منتوجها، وكذا تمويل العاملين عليه، ويبدو لي بهذه الطريقة سوف **يضيع دمه بين الدول العربية** كما يقال، لأنّ هذا ما يعيق سرعة إنجاز العمل، وعدم المتابعة. ولا ننسى الآن ما ينجز في كثير من البلاد حول تاريخ اللغة العربية،

---

(1) ينظر مقدمة كتاب جرجي زيدان.

(2) هناك نقاط تلاق بين المشروعين، وكان يجب التنسيق بينهما كي لا تتكرّر الأعمال، ويمكن الإشارة إلى المواصفات العامة للذخيرة العربية: ما يخزّن من شيء نفيس يلتجأ إليه وقت الضرورة، وما يخزّنه العلماء والباحثون من نصوص قديمة وحديثة في ذاكرة الحاسوب، أي فهرسة كامنة شاملة شبكية لكلّ ما أنتجه الفكر العربي من الجاهلية إلى يومنا هذا، فتتيح البحث عن مفردة أو صيغة أو بنية أو تركيب أو عبارة جامدة، أو أيّ شيء يخصّ اللغة في نصّ واحد أو عديد النصوص، بالإضافة إلى العدد الكبير من الخطابات والمحاورات العفوية بالفصحى في شتّى الميادين. وسيُلبى طلبُك في سرعة الضوء؛ للعثور على المعطى العلمي الدقيق والمضبوط وعن السياق، ومدى تكرار الكلمة أو النصّ في نصّ واحد أو عدة نصوص، وهذا كلّه يتمّ بوجود منطاق متطوّر أُعدّ لهذا الغرض، يعمل على الإجابة عن أيّة معلومة مطلوبة؛ حيث تلمس أزرار الكبتار بتقديم سؤال، فيجيب بكلّ دقّة، وفي أسرع ما يمكن.

ومنها المشروع الذي تنجزه فرقة بحث في جامعة إسرائيلية، ثمّ ما ينجز في بلاد الخليج، وما أنتجته وزارة المعارف السعودية، وما تقوم به بعض الشركات في حوسبة بعض المدوّنات مثل شركة صخر للإعلام الآلي وشركة العالمية، وشركة التراث في الأردن، وما يقوم به بعض الأفراد الخواص، مثل مدوّنات شركة نبيل علي، إضافة إلى تلك الندوات العلمية التي أنجزت في بداية الألفية الثالثة؛ ومن ذلك نجد اللجنة الرباعية المشكّلة من: **إبراهيم بن مراد، محمد حسن عبد العزيز، علي القاسمي، أحمد بن محمد الضبيب؛** الذين قدّموا جهوداً كبيرة عبر لقاءات علمية، وتوصّلت هذه اللجنة إلى تقديم الخطوط العامة لهيأة المعجم التاريخي، كما أنّ الأستاذ محمد حسن عبد العزيز قد ألّف كتاباً حول المعجم وسَمَه (المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج) وفيه يحكي قصة حبّه وعشقه ودفاعه عن المعجم التاريخي. فكتابه قصة منافحة منذ مدة عندما كان يوجّه طلابه للتخصص في قضايا المعاجم، وقد ناقش تحت إشراف ثلّة من الباحثين الذين قدّموا مفاتيح كبرى للمعجم التاريخي، وله أفكار هامة يستفاد منها. ولا بدّ من الاستفادة بقوّة من مشروع الخطّة العلمية للمعجم التاريخي للغة العربية التي أعدّها الأستاذ علي القاسمي(1)، بتكليف من اللجنة الرباعية في لقائها بالقاهرة يومي 4-5 مايو 2006، فهو خطّة إجرائية شاملة جامعة مانعة، وبجدر التنويه بها لما لها من شمولية ودقّة علمية.

ومن خلال هذا التأريخ يجب الاسترشاد بتلك الأفكار، ليتواصل العمل بعمق، ولا نبدأ في كلّ مرّة من جديد، أو نعود إلى نقطة الانطلاق، **فنعم للمراجعة، لا للتراجع**. ويحقّ التنويه في هذا الوقت بالحراك العلمي الذي أبداه اتّحاد المجامع اللغوية العربية في ترسيم هيأة المعجم التاريخي للغة العربية. ولا جدال اليوم في أنّ مشروع المعجم التاريخي للغة العربية ضرورة قومية كبرى، ويستدعي الوقت الخروج من التنظير والأماني إلى الملموس، بعدما وقع الإحساس بالحاجة إلى هذا المعجم مع الألفية الثالثة، وخاصة ونحن نملك الوسائل والطاقات البشرية التي بها يمكن الشروع في إنجاز هذا المشروع المعطّل، والآن أصبحنا نملك **هيأة المعجم التاريخي** التي يجب أن تعضدها مؤسّسات أخرى بالتشجيع والتمويل والمساعدة العلمية أو التقنية، كما يتطلّب المساهمة فيها كلّ العلماء من مختلف التخصّصات.

---

(1) عندما نقول علي القاسمي في مجال المعجم نشير بأنّ له دراسات معتبرة في علم المعاجم، ومقالات منشورة في مجلات دولية من مثل: مجلة اللسان العربي، مجلة الجمعية المغربية للدراسات المعجمية، مجلة الجمعية المعجمية التونسية، مجلات المجامع... كما أنجز عملين معجميين هامين، وهما:

1 – علم اللغة وصناعة المعجم، ط 1، 1975.

2 – معجم الاستشهادات 2001 .

5 – رفع الصعوبات: قبل الغوص في أعماق الموضوع بجدر بي الوقوف عند بعض الصعوبات التي تبدو لي بأنّها تحتاج من البداية إلى الرفع النهائي كي لا يلتبس الأمر، ويبدو لي بأنّ رفعها باب من أبواب وضع أرجلنا على الأرض الصُلبة، وباب من أبواب الانشراح والنجاح في العمل، وهي:

1/5 – الاقتناع بأنّ المعجم التاريخي لا يُغني عنه المعجم الكبير: هناك من لم يقتنع بفكرة إنجاز المعجم التاريخي للغة العربية، على أساس أنّ مجمع القاهرة ينجز الآن المعجم الكبير فهو يُغني عن المعجم التاريخي كما يرى الأستاذ ناصر الدين الأسد؛ والذي يقول: إنّ فيشر بفكرته إنجاز معجم للغة العربية لبّه أن يلائم روح العصر، ويفي بالحاجات العلمية للعصر الحاضر، ولم يستعمل (المعجم التاريخي) ومن هنا فإنّ المعجم الذي أراده فيشر هو معجم كبير للغة العربية الفصيحة يفي بالحاجات العلمية للعصر الحاضر، فيريد فيشر معجماً كبيراً لا يفتقر إلى ما تفتقر إليه المعاجم السابقة من مادة لغوية. ويواصل –ناصر الدين الأسد– بأنّ استعماله –فيشر– لكلمة (التاريخي) دون أن يقرنها بما يحدّها، بل جعلها في ثنايا كلام آخر يفهم منه أنّه يقصد جمعاً مستقصياً للألفاظ في محيطها التاريخي التراثي المستعملة في كتب المعارف والعلوم العربية والإسلامية وعم الاقتصار على ما ورد في المعاجم المؤلفة منذ العين إلى المعاجم الحديثة...(1) إنّ الأستاذ ناصر الدين الأسد قد يكون محقاً من وجهة أنّ فيشر أشار إلى تطوّر الكلمة تاريخياً؛ وهذا عبر العصر الجاهلي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وأنّ ما نشره ليس معجماً تاريخياً، بل معجم كبير للغة العربية؛ لأنّه كان محدداً بزمن دقيق. ولكن يجب أن نربط الأمور ببعض القضايا الأخرى؛ ففكرة المجمع المصري لم تكن مثل ما كان قد خطّطه فيشر، بل كان يخطّط لاستكمال بدايات فيشر، والفكرة كانت قائمة بعد وفاة فيشر؛ إلا أنّ الإمكانيات لم تسعف المجمع مواصلة العمل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن نعمّق مفهوم **الوجهة التاريخية** عند فيشر، والتي أنزلها المنزلة الأولى، ففي مقدمة المعجم يوضّحها كما يلي: «فالوجهة التاريخية للكلمة تجاوز كل وجهات النظر هذه في القمة، ذلك لأنّه إذا أخذنا اللغة على أنّها دائمة التطوّر، فلا شكّ أنّ لكلّ كلمة تطوّرها التاريخي الخاص. ويجب أن يوضّح هذا التطوّر التاريخي بمقتضى ما لدينا من وسائل، وهذه الوسائل قاصرة، ونحن –في الواقع– ملزمون بأن نقتصر على استغلال موارد ومصادر كثيراً ما تكون متعارضة وغير وافية، لذلك وجب الحرص والعناية بتقييد كلّ كلمة وعبارة وصلت إلينا فعلاً والانتفاع بها؛ وليس معنى هذا أنّ من الضروري إثبات كلّ الشواهد

(1) ينظر البحث الذي ألقاه في الدورة الثانية والسبعين لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 2006، والموسوم: المعجم الكبير للمجمع يُغني عن المعجم التاريخي اللغوي (بتصرّف).

التي وردت على كلمة ما في المعجم، إذ إنّ هذا قد يؤدّي إلى البلبلة عند إثبات كلمة كثيرة التداول. كما يتطلّب تطويلاً لا موجب له، بل يجب الاقتصار على إثبات الشواهد ذات الطابع الخاص، أعني تلك التي تدلّ بحال من الأحوال على الأطوار التاريخية للكلمة، إلا أنّ التحقّق من استخراج هذه الشواهد ذات الطابع الخاص، لابدّ من إمكان مراجعة كلّ المواضع التي وردت فيها هذه الكلمة، فإنّه بهذا وحده يمكن تحديد قيمة كلّ شاهد لمعرفة الأطوار التاريخية العامة للكلمة وتراكيبها» (1). فواضح جداً أنّ فيشر أشار إلى تطوّر الكلمة وإلى الترتيب التاريخي، رغم المحدّدات التي خصّها في حدود زمانية معيّنة ولكن لا يُغني المعجم الكبير في صورته الحالية عن المعجم التاريخي للغة العربية، ويجب أن نقيس ذلك على معجم أكسفورد للغة الإنجليزية؛ فهذا المعجم شامل يغطي كلّ مفردات اللغة الإنجليزية، مع الإتيان بالشواهد الموثّقة، لذلك بدءا من سنة 1150م حتى صدور آخر طبعة 1970م، فقد سجّل كلّ الألفاظ التي استعملت وبقيت، والتي هجرت، وجّل طرائق هجائها المختلفة عبر القرون، إضافة إلى ما تقدّمه المعاجم من استعمال وبيان مختلف التغيّرات.

5/2- **الأخذ في الحسبان طول النفس في الإنجاز**: يجب أن نعلم مسبقاً بأنّ المدة الزمنية لإنجاز المشروع ستكون طويلة، وسوف تمرّ حكومات وحكومات، ويأتي جيل أو جيلان أو أكثر، وأنّ المدة التقريبية أو الاحتمالية يصعب تحديدها، وخاصة في المراحل التأسيسية التي هي المنطلق، أو باب الدخول في الصناعة المعجمية، ولكن تطوّر اللسانيات، وعلم المعجمية، وصناعة المعاجم، ودخول الآلات العملاقة، من شأنها أن تقصّر المدة وتيسّر عملنا، فليس تدوين المعجم التاريخي معجزة الآن أمام معطياتنا المادية والفكرية والآلية، وخاصة إذا كان العمل على شكل فرق متنوّعة؛ وكلّ فرقة لها مهمّتها المحدودة، وندخل حرفة الصناعة المعجمية، وبذلك نستدرك التأخير، ونعلم أنّ أمماً قضت سنوات وسنوات في تدوين معاجمها التاريخية، ولم تسجّل كلّ تاريخها، بل حدّدت فترة ضيّقة مثل القرن الفلاني لا غير، وهذا ما ينطبق على القاموس التاريخي للغة الفرنسية التي لم تمسح كلّها واستمرّ العمل فيه ستين عاماً، كما أنّ المعجم التاريخي للغة الألمانية دام العمل فيه قرناً. ومن جهة أخرى يجب العلم بأنّ الزمن الحاضر كفيل بربح الوقت، وكسب رهان الإنجاز في وقت لا يطول مثلما عرفته المعاجم الأجنبية، ونحن نعيش عصر التدفّق المعلوماتي، وعصر السرعة، وعصر الآلات العملاقة التي تعمل على تقليص الوقت، ولكن يجب أن نعلم بأنّ هذا التقليص غير مبني على عمر دقيق «وخاصة إذا علمنا أنّ (معجم أكسفورد) الإنجليزي استغرق إنجازه سبعين سنة، وضمّ أكثر من ثلاثة ملايين ونصف شاهد لغوي، وإذا علمنا أنّ المركز القومي الفرنسي في (نانسي) جمع في عشر سنوات

(1) أ فيشر، مقدمة المعجم التاريخي، ص 23.

حوالي مائتين وخمسين مليون شاهد بمعدّات إلكترونية، وإذا علمنا أنّ معجم (روبار الكبير) يحتوي على مائة وعشرين ألف شاهد، وإذا علمنا أنّ المعجم عامة يطعّم باستمرار، فمثلاً بين طبعة معجم (فيهر) الأولى سنة 1958م وطبعته الرابعة سنة 1970م زيدَ رُبعُ المداخل تقريباً، وإذا علمنا أنّ تأليف المعجم يتطلّب معرفة بعلم المفردات أي (المعجمية) Lexicologie ومعرفة بصناعة المعجم أي المعاجمية Lexicographie اتّضح لنا أنّ المعجم عامة أصبح عملاً مؤسّساتياً لا فردياً »(1). وفي هذه النقطة يمكن معارضة الواضعين للقانون بإطلاق التسمية على هذا المشروع اسم (الهيأة) وهذا يتنافى مع طول نفس المشروع، ويحتاج إلى إطلاق تسمية (**المؤسّسة**).

3/5 – رصد كاف وكامل للتمويل: للمشروع نفس طويل، بمعنى أنّه يحتاج إلى تغذية تمويلية أقوى ورغم السخاء الذي قدّمه الأمير سلطان القاسمي، يبدو لي لا يكفي ذلك، بل يحتاج إلى تمويلِ وهبات الأفراد وموازنات الدول وأموال المؤسّسات والمجامع، وأن تَقْتَطِع كلّ دولة عربية جزءاً من موازنتها لضخّه في هذا المشروع، وأن يكون التمويل وافراً ومغدقاً. ولا يعني الإغداق هنا التبذير، بل من الأهمية بمكان أنّ أمثال هذه الأعمال ترصد لها ميزانيات مسبقة تكون في متناول الباحثين والكَتَبَة والمدقّقين والمراجعين، وكلّ من يقوم على أمر هذه المؤسّسة، وهذا عن طريق دفاتر المهام والعقود التي تبرم مع المتعاملين كلّ في اختصاصه.

4/5 – كيفية الحصول على الكميّة الكبيرة من المعطيات والمدوّنات من العصر الجاهلي إلى الآن: إنّ المعجم التاريخي فهرسة كامنة شاملة لكلّ ما أنتجه الفكر العربي أو العالمي باللغة العربية من الجاهلية إلى العصر الحاضر، وهو أوسع من الموسوعات ودوائر المعارف كلّها، فمادته تهفو إلى السعّة، وتضمّ كلّ الألفاظ، والمعالجة يغلب عليها **الطابع الدلالي والتنوّع السياقي في ضوء التتبّع الامتدادي عبر العصور**، ومن هنا فلا بدّ من تصوّر أولي مضبوط عن المدوّنات التي تُدرج في متن المعجم، وقد أبانت الأبحاث الجادة في هذا الشأن بأنّ البداية تكون من سنة 200 قبل الإسلام، أو ما يسمى بالعصر الجاهلي إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وحدّدوه بموت الزَّبيدي 1206 هـ. في هذه **المدة الزمنية الأولى** لا يكون المعجم نمطياً انتقائياً، فلا يفاضل بين المواد، بل يسجّل كلّ مكتوب، وكلّ لفظة عرفتها العربية واستخدمتها منذ عهد نقوشها إلى التاريخ المذكور، فلا يهمل النثر مهما قلّ، ولا يفاضل شعراً على شعر مهما كثر، بل هو مسح عام لكلّ قول مكتوب باللغة الفصحى(2). والأحرى الوصول إلى:

---

(1) أحمد العايد « دائرة المعارف الإسلامية أصل من أصول المعجم العربي التاريخي » مجلة المعجمية. تونس: 1990، العدد الخاص بندوة: وقائع ندوة (المعجم العربي التاريخي: قضاياه ووسائل إنجازه) (5 – 6) ص 56.

(2) لا يعني عدم إدراج العاميات معناه إلغاء وإسقاط جزء هام من الذخيرة، أو أنّ الدارجات دنساً مهجوراً أو لا يعتدّ بها، بل إنّ المرحلة الراهنة تقتضي الاهتمام باللغة العربية الجامعة والأحادية التي هي ديواننا الأول، ومستقبلنا المشترك، وفيها دوّن آباؤنا غُرر مفاخرهم وآدابهم، ولم يبدعوا إلاّ في ظلّ هذه اللغة الفصيحة، وقد يكون الاهتمام ببعض الدارج لردّه إلى فصيحه، أو إلى أصله، وكيف حدث فيه تصرّف وأسباب ذلك الانحراف. وأما إذا وقع الاهتمام بالدارج، فأيّ دارج نعتمده في العالم العربي، والدارج دوارج.

* النقوش الموجودة والتي استطاع البعض تشفيرها، وهي قليلة على كلّ حال،
* الألواح والنقود التي عليها الكتابات الأولى،
* المصادر الأولى منذ بداية عصر التدوين والتي تعود إلى بداية سنة 148 هـ،
* المراجع التي قامت على المصادر بعد ذلك،
* كلّ الدواوين المنتجة في هذه الفترة،
* كلّ المعاجم التي أُنجزت،
* كلّ الموسوعات،
* كلّ دوائر المعارف،
* كلّ إصدارات المراكز العربية والأجنبية عن اللغة العربية،
* كلّ المدوّنات التي سُجلت أو طُبعت،
* كلّ ما خُزّن في الشابكة، أو ما سُجّل على الأقراص،
* كلّ الرصيد اللغوي الوظيفي المغاربي، والرصيد اللغوي العربي،
* كلّ مخزون الذخيرة العربية، ومدوّنات صخر، ومدوّنة مركز جمعة الماجد، ومدوّنة المسبار ومدوّنة موسوعة الشعر العربي، ومدوّنة الورّاق، والتراث، ومدوّنات المعاجم لمختلف المراحل الدراسية، ومدوّنات قيد النشر...
* وأما **المدة الزمنية الثانية**، فتكون من القرن التاسع عشر إلى وقتنا الحاضر، وهذه الفترة غزيرة في الإِنتاج، ومتشعّبة في التخصّصات، ونجد فيها الجبال من المؤلفات، ولا تعامل مادة هذه الفترة معاملة الأولى؛ فهي فترة كثرفيها الإِنتاج وتشعّب، وخاصة الصحف، فيصعب متابعة كلّ إنتاج العصر وفي كلّ اختصاص، ومن هنا يقع الاختيار والانتقاء في كلّ المواد، وهذا لعدة عوامل:
* فترة غير مؤسّسة، فالمادة الأصل في الفترة الأولى، وقد أخذت بالاعتبار دون انتقاء،
* فترة تحتاج إلى عيّنات نوعية تكون هي المرجع والشاهد على لغة العصر الحاضر،
* فترة تأخذ في الاعتبار لغة الصحافة التي أعطت للعربية الدفع القوي من النماء اللغوي،
* فترة تدفّق سيل حاجات الحياة من الحضارة الغربية،
* فترة تحتاج إلى أخذ العينات من الاجتهادات العلمية التي ظهرت في كلّ الدول العربية بعد الرجوع إلى المصادر الأساس والتي يقع الاتّفاق عليها من قبل المجلس العلمي.

5/5 – الرهان كلّ الرهان على وضع مناطق (Logiciels) لعملية الحيازة والمعالجة والاسترجاع: في عصرنا الحاضر لا يجب أن يكون العمل بالجذاذات أو بالطريقة التقليدية، ونحن تغمرنا الآلات الحديثة والمناطق المتطوّرة (البرمجيات). وبات حرياً بأنّ التحكّم في وضع المنطاق القارئ والمدرك للرصيد اللغوي العربي، ويكون عالي السرعة والمعالجة، وبمحرك عربي متطوّر ويستجيب للمعالجة الآلية للنصوص العربية هو أمر ضروري قبل الانطلاق، فكلّ ذلك يسهّل كلّ العمليات ويدرك المصطلحات، ويعرف التغيّر الدلالي، ويسقط المكرور، ويتدرّج في المادة. نحن بحاجة إلى منطاق متطوّر، وإلى أجهزة تستطيع تخزين الكمّ البلاييني من للمعلومات، وتستطيع استعادتها تحت الطلب، وتنظيمها، وعدّها، وإعطاء مدلولها، وما طرأ عليها من تطوّر.

أؤكّد بقوة بأنّ الرهان المعاصر يقف في مدى استغلال هذه التقنيات للتخزين والعدّ والمعالجة التي تتطلّبها عمليات السرعة، أمام الكمّ الفيضاني للمعلومات وللتراث الذي له عمق تاريخي كبير، ولكن لا يعني هذا إلغاء عمل البشر، فالآلات نحتاجها، ولكنّها لا تعوّض العنصر البشري تماماً، بل نحتاج إلى عناصر بشرية كثيرة تكون كفأه في عملها، فهي التي تدقق وتصحّح. وأما نقطة (استغلال التقنيات) فتحتاج إلى لقاء تشاوري بين رؤساء الوحدات، ومجموعة من الحاسوبيين؛ حيث يشرح رؤساء الوحدات:

* معنى المعجم التاريخي: لغة اصطلاحاً،
* عملية التخزين،
* عملية المعالجة،
* عملية الإحصاء،
* عملية تطوّر الألفاظ،
* عملية طرح المكرور،
* عملية الاسترجاع،

أي إنّ المعنيين بأمر الوحدات لهم تصوّر مبدئي عن ميكنة المعجم التاريخي، فالأحرى أن يشرحوا فكرتهم للحاسوبين بغية وضع منطاق حسب الأفكار التي يقع التفاهم حولها، تسهيلاً لعملية التخزين وهي العملية الأولى التي يجب أن يعدّوا إثرها متخصّصين في مجال الحيازة. وعلى الحاسوبيين أن يعملوا على برمجة آلية سواء على مستوى الحيازة اليدوية، أم الحيازة عن طريق الإنترنت، أم باستعمال الأقراص الممغنطة (CD) أم بالماسح الضوئي. وعليهم كذلك أن يجعلوا المناطيق قابلة للتطوير، ومفتوحة على احتمالات لاحقة تعمل على التطوير والتحسين والتصحيح؛ حتى تستجيب بشكل كامل لآليات المعجم التاريخي، هذا من جانب، ومن جانب آخر، لا بدّ أن تقع الاستفادة من الصناعة المعجمية والاستعانة بالتجارب الناجحة.

الجزء التطبيقي

هو الجزء المكمّل للنظري؛ باعتباره تطبيقاً لحيثياته، ويتطلّب هذا الجزء الشروع في الإجراءات وتطبيق المنهج العلمي، خاصة بعد وضوح الرؤية العامة لمفهوم المعجم التاريخي الذي نكرّر القول في صفاته العامة بأنّه: **جمع المدوّنة العربية باستقراء كلّ النصوص استقراءً؛ يتتبّع التطوّر التاريخي**. والأحرى بنا إتباع المنهج التأصيلي التاريخي المقارن للنصوص التي سوف تُنسخ، ولا ننسى المنهج الوصفي؛ حيث يصف كلّ النصوص والوحدات بالنظر إلى سنة ورودها، وتُحذف الاستعمالات المكرّرة، ثمّ تُدوّن المعاني الجديدة فقط، بالاحتفاظ بالأقدم من العصر الجاهلي إلى وقتنا الحالي. كما يدرس المعجم نشأة المادة وعروبتها أو تعريبها، وما يتّصل بها من عوامل النطق، ويرتّبها تأريخياً بحسب ظهور الصيغ، مع تقديم المبني على المعرب، والثنائي على الثلاثي، والثلاثي على الرباعي والرباعي على الخماسي، واللازم على المتعدّي، والمعلوم على المجهول، والمجرّد على المزيد، وكلّ التغيّرات الطارئة من خلال حروف الزيادة... ولا يتجاوز ذكر الأصوات، وما طرأ عليها من تغيّرات كما لا يتجاوز الأساليب والتراكيب الخاصة الاصطلاحية التي اتّخذت دلالات معيّنة، كما يذكر اللفظ الذي استُخدم مرة واحدة ثمّ هُجر/ ما زال يُستعمل؛ بالإشارة إلى مصدره، وموطنه، وقائله، ومعناه وما طرأ عليه من كلّ الجوانب اللغوية والأدبية، ولا يتجاوز المسكوكات، والمركّبات، ودلالاتها وتطوّرها عبر الأزمان؛ حيث يتقصّى المعاني في مختلف العصور والبيئات ولدى كلّ الطبقات...

وأما **الإجراءات** المنصوص علها في العنوان؛ فالمقصود بها الخروج من التنظير والأماني، وما كان حلماً ذات وقت إلى مجال الأجرأة الفعلية التي تؤدّي بنا إلى تجسيد الملموس بفعل خطط واضحة محدّدة بزمن؛ أي ترجمة الحلم إلى سلوك قابل للممارسة. وأما **المنهج** فأقصد به وضع الترتيبات اللازمة ضمن الإجراءات الفعلية ذات الأبعاد والمرامي والأهداف؛ انطلاقاً من منهج علم اللغة الوصفي، بالاستعانة بعلم اللغة التاريخي، والاستهداء بعلم اللغة المقارن، في تدوين المفردات والألفاظ وهذا بوضع طريقة منهاجية يمكن بواسطتها معالجة المعطيات الجزئية؛ وصولاً إلى المعطيات الكلية وبرسم إستراتيجيات ضمن الأبعاد الثلاثة: القصير والمتوسط والبعيد المدة. وتعدّ هذه الإستراتيجية طريقة من طرائق حلّ المشكلات، والهدف من ذلك تمكين المختصّين من التغلّب على كلّ الصعوبات التي سوف تنجرّ عن هذا الإنجاز الحضاري القومي.

1 - الجوانب الإجرائية: يبدو لي بأنّ المعجم التاريخي للغة العربية يحتاج إلى **ثلاث خطوات كبرى** وعملاقة، فإذا استطعنا تجاوزها يمكن أن نقول: إنّ المعجم سينجز في القريب العاجل، ولا يحتاج إلى قرن أو أكثر، وهذه الخطوات هي:

- **الخطوة الأولى**: الوصول إلى تحديد المعالم الكبرى لتطوّر اللغة العربية خلال العصور.

- **الخطوة الثانية**: الوصول إلى وضع قائمة بأسماء النقوش والمخطوطات والمظان والمصادر الموثّقة التي تستقى منها مادة المعجم.

- **الخطوة الثالثة**: الوصول إلى صنع برمجيات حاسوبية (مناطيق) لتخزين ومعالجة وتصنيف وتحليل المدوّن، والإجابة عن أيّ طلب يخطر ببال الباحث في اللغة العربية.

إنّ التركيز في العمل لا يخرج عن هذه الخطوات، وهي الخطوات الأساس التي تجعل المشروع يدخل حيّز التنفيذ. وإذ أؤكّد على مسألة الخطوات الثلاث باعتبارها المنطلق، وخاصة التحكّم الدقيق في إنتاج/ استيراد/ تكييف البرمجيات، فهي الأداة المنهجية التي تيسّر العمل وتقنّنه وتصنّفه، وتعمل على السرعة. ومن هنا أصبح الحاسوب في إنجاز المعجم التاريخي الأداة الهامة في إعداد المادة بصفة عامة، وعدم وجوده لا نستطيع التحكّم في حجم المدوّنة «المشكلة الأساسية في صناعة المعجم التاريخي تتّصل بحجم المدوّنة التي تؤخذ منها الكلمات والاقتباسات، فقد اعتمدت المعاجم التاريخية التي أنجزت مثل معجم أكسفورد الإنجليزي OED كما تعتمد المعاجم التي تنفذ حالياً للغات مختلفة ولمستويات لغوية مختلفة على مدوّنات ضخمة، وصلت في بعض الحالات إلى عدة آلاف من المجلدات، تضمّ مئات الملايين من الكلمات المتتابعة في نصوص الكتب. وقد أصبح الحاسوب أداة ذات كفاءة عالية لتحقيق الطموح العلمي» (1). ويجب تأكيد مسألة حوسبة هذا المعجم؛ حيث يقع التركيز في هذا الوقت حول النظم الحاسوبية والبرمجيات باستدعاء المعنيين بالأمر للعمل على تطوير خدمات الإدخال والإخراج وتعريب التطبيقات الحاسوبية والبرمجيات، وتعريب نظم التشغيل للحواسيب (2). وإنّ السعي لوضع برمجيات تخدم اللغة العربية أساساً؛ أي تشتغل بالحرف العربي فهي الأداة العصرية التي أضحت لا مفرّ منها، فعلى عاتق الحاسوبيين تركيز مجهوداتهم في تعريب التجهيزات على االمطارف ذات العلاقة بالعربية، ثمّ البرمجيات المعتمدة في اللغات المتقدمة، والأخذ في الاعتبار خصائص اللغة العربية، والمشاريع الكثيرة التي قدمت في هذا المجال بشكل جزئي، ومن ثمّ لا يمنعنا من الاشتغال في بعض الأمور الأخرى من مثل:

1/1 - وضع **الرمز المختصر للمعجم**: وأرى ضرورة الإبقاء على مقترح المعجمية التونسية (**متع**).

---

(1) محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي. القاهرة: دت، دار غريب للطبع والنشر والتوزيع، ص 74.

(2) ينظر: مجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس: 1996، عدد خاص بـ (اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات).

2/1 - الاتّفاق على الشعار الذي يحمله في المراسلات: تفتح مناقصة في تقديم العروض، وترصد لجنة علمية لاختيار أفضل عرض يستجيب لأهداف المعجم.

3/1 - إنجاز القانون الأساسي للعاملين: ينظر فيه بحسب القوانين السارية حصراً في دولة المركز، مع المرجعيات الإضافية للمؤسّسات العربية/ الدولية التي تتواجد في دولة المركز. وأرى ان المشروع الذي قدّمه الأستاذ علي القاسمي بخصوص (النظام الأساسي لهيأة المعجم التاريخي للغة العربية) في أبوابه الثلاثة، ومواده الاثني عشر، مقبولاً وصالحاً إلى جانب (مشروع نظام الموظّفين) فإلى حدّ ما فهما معقولان من حيث الإلمام التام بكلّ المعطيات القانونية، ويحتاجان فقط إلى تطعيم من قبل مختصّين في الإدارة والمالية لترجمة بعض النصوص وفق قوانين البلد المضيف حصرياً، وإلى ترجمة المخصّصات المالية إلى أرقام معمول بها في المؤسّسات الأجنبية المتواجدة في الجمهورية المصرية. وعلى العموم فإنّ هذا الأمر ليس بالقضية المركز التي يمكن أن تعيق عملية المعجم، ونحن نعلم أنّ عملية الحسابات ليست في المستوى الذي تتعطّل بها الأشغال.

1/ 4 - فتح بوابة المؤسّسة في الشابكة الدولية لـ(متع): بات حرياً أن تفتح المؤسّسة موقعها الخاص، وتحمل شعارها، وتضع فيه كلّ مستلزمات عملها الجاري إنجازه، وما هو في الطريق ويوضع فيه في البداية:

* الكتاب التعريفي بالمعجم التاريخي للغة العربية (متع).
* كتيب في القواعد الفنية التي تراعى في المعجم.

ويكون هذا تهيئة للاحق من الأعمال التي سوف تضخّ لمن يهمّه أمر هذا المعجم.

وأرى من هذا المنطلق القاعدي بأنّ الأمور الأخرى لاحقة بحكم الوقت فقط، ومن هنا يجدرر بالقائمين على وضع الترتيبات الأولى إعطاء كلّ العناية لهذا الأمر، فهو القاعدة التي يسير عليها المعجم التاريخي في لاحق من خطواته.

5/1 - توفير الاحتياجات الدنيا: أتصوّر في المرحلة الأولى أن يكون المنطلق بوضع القاعدة الأساس للمؤسّسة الفتية، والتي لا تتطلّب إلاّ الحدّ الأدنى، ونعرف أنّ لكلّ بداية عثرات وصعوبات وأصعب الصعوبات في الانطلاق، وما أسهل العمل إذا حصل الانطلاق، وبالانطلاق تظهر الفراغات والأخطاء، ويبحث لها عن حلول، المهمّ أن ننطلق، وعند ذلك لكلّ حدث حديث. وأرى أنّ الحدّ الأدنى يكون بتوفير ما يلي:

* كَتَبَة حاسوبيين للجمع والحيازة،
* حواسيب متطوّرة وعالية الجودة،
* خطّ إنترنت متخصّص،

* خطوط للاتّصالات،
* خبراء لغويين يجمعون بين التمكّن اللغوي والإتقان القوي للإعلام الآلي،
* مكتبة ورقية، مع مكتبة إلكترونية،
* تجهيزات مكتبية أخرى،
* البدء بالحيازة اليدوية، في انتظار إعداد مناطق للحيازة.

2 – وضع الكتاب التعريفي(1) : والهدف منه توصيف عام لـ (متع) وأهدافه وخصائصه، وما سوف يقدّمه للغة العربية، ويمكن أن يجيب الكتاب التعريفي باختصار عن الآتي :

– مقدمة : فكرة عامة عن المعجم التاريخي للغة العربية (متع)،
– أسباب تعثّر المشروع في الماضي وإحياء الفكرة في الوقت الحاضر،
– دواعي تأليف المعجم التاريخي، حدوده وأبعاده.
– ويتمّ التعرّض في هذه المقدّمة إلى تصوّر الثقافة والحياة العربية من خلال اللغة، يتيح الإطلاع على التعابير القديمة، وما عرفته من تطوّر إلى أن وصلت إلى وضعها الراهن، كما يتيح لنا هذا المعجم قراءة تراث اللغة العربية من خلال الممارسات اللغوية. فهو معجم يشتمل على تاريخ المفاهيم والأفكار والمؤسّسات وتطوّر العلوم من 200 في العصر الجاهلي إلى وقتنا الحاضر.
– أهداف المعجم التاريخي،
– لمن يعدّ هذا المعجم،
– الإطار العام للمعجم،
– حجم المعجم،
– مداخل المعجم،
– مراحل الإنجاز،
– شروط العلماء المستكتبين،
– الجهات المشاركة في المعجم،
– آفاق المعجم.

3 – إنجاز كتيب في القواعد الفنية التي تراعى في (متع) : وهذا الكتاب موجّه للعلماء المستكتبين في الحقيقة، ثمّ هو كتاب للمختصّين في المعجم وفي الصناعة المعجمية؛ يسترشدون به منهجياً أثناء تحرير المواد، ولا شكّ أنّه بإطلاعهم على هذا الكتاب يبدون أفكاراً تصحيحية

---

(1) يمكن الاسترشاد في هذه النقطة بالكتاب التعريفي / القواعد الفنية، الذي وضعته اللجنة العلمية لموسوعة أعلام العرب والمسلمين. تونس : 1999.

تؤخذ في الاعتبار في مراجعة النقائص، وفي تصحيح بعض الآراء، ويستهدي به المستكتبون في إنجاز المطلوب منهم ويمكن أن يشمل على الآتي:

- قيام المعجم على الدقّة في المعلومات، والموضوعية في العرض،
- الإفادة المناسبة من الصوَر والجداول واستعمال الرموز والمختصرات وقت الحاجة،
- الإشارة إلى أماكن استعمال علامات الوقف،
- وضع قائمة بالمختصرات(1) / الشارات / الرموز التي تعتمد أثناء الكتابة،
- إنجاز قائمة بالمصادر الأساس للمعجم،
- توضيح طريقة العرض والصياغة،
- ذكر مواصفات اللغة المستخدمة،
- الاتّفاق على المصطلحات العلمية المستعملة في المعجم،
- الإشارة إلى حجم ونوع الجداول والخرائط الموظّفة في المعجم،
- التدقيق ثمّ التدقيق في النقل، وهذا بمراجعة صارمة لكلّ المواد والاقتباسات،
- تحتفظ الكلمة برسمها كما وردت في كلّ اقتباس؛ لأنّها تمثّل جانباً من ثقافة العصر ومعرفته،
- الإشارة إلى طريقة الإحالات والهوامش،
- تحديد عدد الكلمات في المدخل الرئيس، وفي المدخل الفرع، . .

ومن هنا فإنّه يطلب من المستكتبين الغوص في كلّ كلمة من كلمات اللغة؛ من حيث:

- كلّ صوت من أصواتها،
- كلّ صيغة من صيغها،
- كلّ اشتقاق من اشتقاقاتها،
- كلّ تركيب من تراكيبها،
- كلّ أسلوب من أساليبها،
- كلّ مسكوك من مسكوكاتها،
- كلّ مثل من أمثالها . . .

---

(1) إنّ مجمع اللغة العربية بمصر قد اقترح أو أنجز أعمالاً معتبرة في مجال رموز المراجع اللغوية التي يفضّل توظيفها. كما أنّ مجمع اللغة العربية الأردني قد أنجز مدوّنة في المختصرات العلمية. وأميل إلى أنّنا نعتمد في ماله علاقة بمختصرات ورموز وشارات ما وقع الاتّفاق عليه من قبل المجامع.

وهذا عبر مرّ العصور وكرّ الدهور، إضافة إلى:

– تجاوب كلّ كلماتها من حيث التواتر، الشيوع، الفناء، البقاء، التأثر والتأثر،
– تتبّع الكليات دون نسيان التفصيلات والجزئيات،
– تتبّع التغيّرات بما تحويه من نمذجات،
– لا يكتفي بالنماذج إلاّ في العصريات.

4 – **الاستهداء بالمنجزات العلمية السالفة**: مثلما ذكرت سلفاً بأنّه لا ينبغي أن نبني في كلّ مرة بناءً جديداً، فهناك منجزات علمية مضبوطة تحتاج إلى تثمين وتجسيد في هذا المعجم التاريخي، فلا يجب أن نمرّ مرور الكرام على القرارات العلمية في خمسين عاما 1934-1984م، التي أنتجها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، باعتباره مؤسّسة تشريع لغوية، ولذا نستهدي بقراراته في: كتابة الأعلام الأجنبية وفي ترجمة المواليد والأعيان من نبات وحيوان وتعريبها، وفي وضع المصطلحات، وفي الترجمة والتعريب، وفي وضع الرموز للمراجع اللغوية، وفي ترجمة الكواسع والصدور، وفي اختصار صوَر الحروف الطباعية... كما يمكن الاهتداء في ترتيب المداخل وتفرّعاتها والألفاظ المعرّبة والدخيلة بمنهج المعجم الكبير، وفي المختصرات يمكن العودة إلى الاجتهاد النوعي الذي قدمّته الموسوعة العربية الصادرة في سورية، أو ما قدّمه المجمع الأردني من اجتهاد في: مشروع مجمع اللغة العربية الأردني للرموز العلمية والعربية سنة 1985م... والذي يهمّ في هذه النقطة لا يجب أن نخلق ما هو كائن، بل علينا أن نضع هذه الإجراءات التي سبق لها أن وُضعت، ونسترشد بما يخدم لغتنا سواء كانت من مؤسّساتنا أم من مؤسّسات أجنبية، فيجب العمل بالذرائعية التي تخدمنا وترقّي لغتنا، فحيث وُجدت المصلحة فثمّ فائدة اللغة العربية. ولكن أؤكّد أمر الأخذ بالجهود التي قدّمتها المجامع على وجه الخصوص، فإنّها قدّمت اجتهادات وقرارات وتيسيرات، فالأحرى بنا أن ننظر في تطبيقها في هذا العمل القومي، وإلاّ ما الفائدة من ذلك الركام المعرفي الذي يقدّم منذ 1919م.

5 – **كيفية الإنجاز**: يجب أن تعطى الكلمة هنا للمختصين والمعجميين والحاسوبين، وإلى أهل الحرف العلمية الدقيقة التي هي من اختصاص حرفييها، وخاصة في مجال وضع المداخل، وكيف يقع تصنيفها، وكيفية التعامل مع الفروع، إلى جانب المعطيات العلمية الأخرى من مثل: الكلمات الأعجمية تقسيم الكلمات أنواعها، كيفية تأصيلها، المجال التخصصي لها، تاريخ أقدم مسموع لها، نظام كتابتها...

هــذا، وأرى أنّ من الـمراحل الإجرائيــة التي تتطلّب التحضير الجيّد كذلك:
* تكوين فرق من الحاسوبيين المخزّنين للمادة،
* تقسيم العمل إلى فِرَق متخصّصة،
* توحيد منهجية البحث والتخزين،
* تقسيم المادة العلمية إلى عصور،
* إعداد مناطيق متعدّدة؛ تكون كما يلي:
1 – الأول للتخزين.
2 – الثاني: للتدقيق اللغوي.
3 – الثالث: للتصفيف.
4 – الرابع للإخراج.
* تجديد المناطيق باستمرار تلبية للمتطلّبات التي تفرضها المضايقات التقنية،
* اقتناء أجهزة عصرية متطوّرة،
* تنظيم العمل وتخطيطه وتنسيقه وتحديد مدّته،
* تقسيم المادة إلى قسمين: **القسم الأول** يبدأ من العصر الجاهلي في حدود 200 ق س إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. **والقسم الثاني** يبدأ من بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلى الآن.

ويرى الأستــاذ علي القاسمي بأنّ مرحلــة الإنجــاز تتطلّــب المنهجية التالية:
* تقسيم العمل إلى عصور تاريخية للمواد المجمّعة،
* إعداد قائمة بالمصادر والمراجع والمخطوطات والمطبوعات الموثّقة،
* إنشاء مدوّنة محوسبة،
* استخلاص جذور الكلمات ومشتقاتها والتعبيرات التي تدخل فيها المدوّنة اللغوية،
* تكوين قاعدة شواهد موثّقة على مداخل المعجم،
* تحرير مداخل المعجم(1).

وهذه المرحلة تتطلّب الآتي:

1/5 – جمع المصادر: تجمع المصادر كلّها من العصر الجاهلي حتى منتصف القرن السابع الهجري (نهاية القرن الثامن عشر الميلادي في المرحلة الأولى). ثمّ الاتّفاق على المصادر التي تجمع منها المادة والتي تخضع للانتقاء، وتتعلّق بالقرن التاسع عشر الميلادي إلى الآن. ونقف وقفة

(1) علي القاسمي «المعجم التاريخي هل نستطيع أن ننجزه بعد مئة عام؟» موقع google بتاريخ 28 فبراير 2008.

لنقول: إنّ الوصول إلى كلّ المصادر ليس صعباً، فقط يجب علينا توزيع المهام؛ بحيث يمكن ذلك إذا كان كلّ عضو في المجلس العلمي استطاع الوصول إلى جذاذات المكتبات، وعاد إلى استكناه فهارس المصادر المتوفّرة، وإلى استعمال التقنيات المعاصرة في الوصول إلى كلّ المصادر. وهذه العملية بدورها تؤدّي بنا إلى القول بأنّه من الأهمية بمكان البدء بتكوين مكتبة خاصة في مركز اتّحاد المجامع تكون في متناول الكتبة (الجمّاع) والمستكتبين ببلد المؤسّسة، وتكون سنداً علمياً للمدقّقين، إضافة إلى البدء بتأسيس المكتبة الإلكترونية.

وإنّ الغرض من هذا هو تأسيس مدوّنات محوسبة، أو معجمات محوسبة، وخاصة ونحن نعيش تطوّر إمكانات الحواسيب، والتي تتطوّر عبر الأجيال، وتزداد الإفادة منها، باعتبارها أداة فاعلة للبحث والعدّ والاسترجاع، إلى جانب أنّها تعمل على إعداد بيانات، وتجيب عن أسئلة «يقدّم الحاسوب خدمات كبيرة للبحث اللغوي والأدبي من خلال المعاونة في إعداد معجمات المدوّنات CorpuswÖrterbÜcher والمقصود بمعجمات المدوّنات كلّ الأعمال المعجمية التي تقوم على الإعداد المعجمي لمجموع الكلمات الواردة في نصّ محدّد. وإذا كان التراث العربي قد عرف نماذج من هذا النوع تتمثّل –على الرغم من الفروق في التوجّه والمنهج– في معاجم ألفاظ القرآن الكريم، مثل: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ومثل غريب الحديث للهروي، ومثل: المصباح المنير للفيومي وهو في غريب شرح الوجيز للإمام الشافعي في الفقه، فإنّ التوجّه المعاصر إعداد معجمات المدوّنات بأنواعها، له –في المقام الأول– طابع حصري شامل يخدم البحث العلمي، ويمهّد لأعمال تطبيقية، وليس مقصوراً على انتقاء الألفاظ الصعبة أو الغريبة، وهي أعمال تدخل في مجموعة أعمال معالجة البيانات عن طريق الحاسوب»(1). وإنّنا نحتاج في هذه المرحلة إلى تكوين **مدوّنات محوسبة** التي عن طريقها نجمع ذخائر العربية في عصورها الممتدّة وفي بيئاتها المتنوّعة «وممّا يأتي في مقدمة التصانيف إعداد المدوّنات المحوسبة التي تعني بجمع ذخائر العرب من النصوص التي تمثّل اللغة في أحد عصورها، أو بيئة من بيئاتها، أو مستوى من مستوياتها، وهي مقدّمات طيّبة للاستفادة منها في تحديد الكلمات والتراكيب التي يذيع استعمالها بحسب المستويات وتصنيفها، وإرشاد الكتّاب والمؤدّبين من مؤلّفين ومعلمين ومعدّي برامج وإعلانات وغيرها، لغرض إطلاعهم وانتقائهم منها ما يعينهم على مخاطبة الفئات التي يستهدفونها، وييسّر سبل التواصل معها. وكذلك يشكّل النجاح في مجال تأليف المدوّنات المحوسبة مقدّمة لإنجاح إنجاز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، ذاكرة العربية الممتدّة منذ كان حتى الآن والمستمرّة حتى قيام الساعة، ومواصلة مدّه بما يجد

(1) محمود فهمي حجازي، البحث اللغوي. القاهرة: د ت، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 72.

من مفردات وتراكيب جديدة»(1). وبالفعل إنّ مرحلة جمع المصادر يجب أن تكون سريعة، وأن تخضع لتقنية التخزين التي تحصل من قبل التقنيين في البرمجة كي لا يحصل التكرار، وكي لا يكون تضارب بين المصادر التي تخضع للمسح.

2/5 – إنجاز منطاق لتخزين تسميات المصادر ومتعلّقاتها: إنّ الكمّ الكبير من المصادر يحتاج إلى منطاق تدوّن فيه كلّ معلومات المصادر، تسهيلاً لعملية الإسناد وما له علاقة بذلك، وهذا المنطاق يجب أن يستجيب لمواصفات أصالة المصدر، وعدم تكرار نفس المصدر، وحسن الترتيب... كما تتطلّب المرحلة استعمال الماسح الضوئي المتطوّر. ويجب أن نعلم بأنّ مرحلة الإنجاز تتطلّب بقوّة إعداد مناطيق متطوّرة؛ تسهيلاً لعملية المسح والمعالجة والإحصاء، ثمّ سهولة الوصول إلى المادة في صوَرها المطلوبة، والتي بها تقترب المسافة بين المنتج وبين المعالج. **وهي عملية من الأهمية بمكان أن تأخذ الأولوية في هذه المرحلة.**

6 – **مدة الإنجاز**: إذا نظرنا إلى المعاجم العربية القديمة مثل: المحكم، لسان العرب، الصِّحاح، تاج العروس... وإلى الموسوعات ودوائر المعارف والمعاجم الحديثة، نجد تقريباً فرداً واحداً قام على إنجاز تلك المدوّنات الضخمة، وبالوسائل التقليدية البسيطة، ومع ذلك لم نجد تلك المعاجم قد فرّخت في أعشاشها، ولا عاشت سنوات العمر تنتظر الإصدار، وهذا لوجود العوامل التالية:

* التفرّغ الكلي للعمل،
* التشجيع المادي والمعنوي،
* الإخلاص والجدّ،
* النظر إلى القيمة العلمية للمنتج،
* الدعم من أولي الأمر.

واليوم تطرح بقوّة المدة الزمنية التي سوف يستغرقها إنجاز المعجم التاريخي للغة العربية، ومن هنا؛ فإنّه بالنظر إلى بعض المعاجم التاريخية التي لم تأخذ زمناً كبيراً، وعلى سبيل المثال نجد معجم أستراليا التاريخي الذي لم يأخذ وقتاً كبيراً، والمعجم التاريخي للغة العبرية الذي بدأ العمل فيه عام 1959 وتشرف عليه أكاديمية اللغة العبرية، ويغطّي الفترة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى العصر الحاضر، فإنّه لم يأخذ الوقت الكثير، ومعجم الذخيرة اللغوية الفرنسية التي تغطي الفترة 1789ـ1960 الذي استغرق ثمانين سنة، كما أنّ معجم اللغة الهولندية ظهر

(1) صادق عبد الله أبو سليمان «نحو استثمار أفضل للحاسوب في مجالات خدمة اللغة العربية وعلومها» مجلة المجمع الجزائري. الجزائر: 2007، العدد 6، ص 63 – 64.

أول عمل منه عام 1864 واكتمل في 25 مجلداً في ظرف قياسي، ومعجم أكسفورد الذي أخذ سبعين سنة، رغم أنّه تشرف عليه جمعية لغوية وهي: الجمعية الفيلولوجية البريطانية «... قاموس جونسون الشهير الذي ظلّ على مدى عدة أجيال المرجع الأساسي في اللغة الإنجليزية لم يستغرق إعداده أكثر من ستّ سنوات. وكان العاملون في إعداده الدكتور صمويل جونسون وستة مساعدين معظمهم كتبة ومنتقو استشهادات»(1)... ونجد هذه الأعمال الضخمة قد أنجزت بطرائق وإمكانيات جدّ بسيطة، ومع ذلك فإنّها تحكّمت في زمن الإنجاز. ولو عدنا إلى التخطيط الذي قدّمه فيشر لإنجاز المعجم التاريخي، فقد خطّط لظهور العمل الذي يغطي مرحلة النقوش إلى القرن الثالث الهجري بسبع سنوات، ولم تكن له الوسائل الحديثة، ولا مؤسّسة، ولا يتحكّم إلى فرق كثيرة في الجمع والتخزين. ومع هذا أفترض أنّ مؤسّسة المعجم التاريخي سوف تقوم بتخطيط الفترة المحدّدة، كما يلي:

- سبع (7) سنوات من مرحلة النقوش إلى القرن الثالث الهجري.
- سبع (7) سنوات من القرن الرابع الهجري إلى القرن السابع الهجري.
- سبع (7) سنوات من القرن الثامن الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري.
- سبع (7) سنوات من القرن الثالث عشر الهجري إلى الآن.
- المجموع: **28 سنة.**

إنّ ثمانية وعشرين سنة أو أكثر بقليل؛ تكون كافية لإنجاز المعجم التاريخي، وقد تولّد لديّ الإحساس بأنّ **الصدق والنيّة والاهتمام والتفرّغ وتوفير الوسائل** سوف تعيننا على تقليص هذه المدة. ولا يجب أن ننظر إلى منجزاتنا البِكر؛ والتي عادة تستغرق أمداً كبيراً، وهذا ما يخيف بعض الباحثين؛ حيث يعدون زمن ظهور المجلد الأول، ويقيسون عليه توالي المجلدات؛ مثل المعجم الكبير الذي ظهر الجزء الأول من الطبعة التجريبية سنة 1956، والذي احتوى على قسم من حرف الهمزة، وانتهى حرف الهمزة كلّه سنة 1970م. صحيح إنّه استغرق مدة غير عادية، ولكن يجب أن نعلم بأنّ الجزء الرابع (حرف الجيم) والجزء الخامس (حرف الحاء) قد صدرا في سنة واحدة عام 2000م. ولدينا تجربة أخرى بأنّ المجلد الأول من الموسوعة العربية الصادرة في سورية قد استغرق العمل فيه إحدى عشرة سنة، ولكن بعد ذلك توالت المجلدات من 2 إلى 22 في أقل ممّا استغرقه المجلد الأول. ويجب أن نعلم بأنّ البداية هي **التحديد والمنهجية والضبط والدقّة**، وتأخذ في العادة مدداً؛ أي إنّ الفترة الأولى حرجة إلى حدّ ما وتأخذ وقتاً، ثمّ تتوالى المراحل الأخرى بسرعة، وخاصة عندما تتّضح الرؤى والمنهجية وتأخذ الصناعة المعجمية طريقها الصحيح. فيجب أن نتفاءل ونشدّ العزم فقط ولنبدأ.

---

(1) أحمد مختار عمر، أنا واللغة والمجمع، ط1. القاهرة: 2002، عالم الكتب، ص 311.

7 – **مكملات أخرى**: إنّ المعجم التاريخي يتطلّب نفساً طويلاً، كما يتطلّب أحياناً بعض المراجعة والتدقيق للمعلومات أو للشواهد، ومن هنا فإنّ **ميكنة** المعجم ضرورة معاصرة، وهي من متطلّبات الحداثة، حيث تسمح بالمراجعة دون إحداث تأثير على المادة، أو تغيير في المتن، وكلّما ازددنا عملاً ازددنا بصيرة بحقيقته، وباكتشاف ما لم نضعه في الحسبان، ومن هنا فإنّ الضرورة العلمية تقتضي الاجتماع الدوري للمجلس العلمي للمراجعة والمتابعة والتصحيح، والعمل على إيجاد الحلول الملائمة. وإنّه من الأهمية بمكان تقسيم العمل إلى فترات تسهيلاً للتخزين، وتكوين مدوّنة المعجم التاريخي ألآحادي اللغة (متع) من نصوص مكتوبة وفصيحة، انطلاقاً ممّا كان لا ممّا يجب أن يكون، فالمعجم وصفي يبنى على قاعدة حاسوبية تاريخية؛ تراعي التغيّر الدلالي لشساعة هذه اللغة التي تنطلق من العصر الجاهلي، وتضمّ القرآن الكريم بمختلف قراءاته، والأحاديث الصحيحة، وكلّ التفاسير، ثمّ لغة الأمويين والعباسيين، ولغة القرون الوسطى، ولغة الشعراء، ولغة الكتّاب، ولغة النقّاد، وأسلوب اللغويين، ولغة الروائيين، ولغة الصحافيين؛ خاصة الصحافة المعاصرة... مع الإشارة إلى الفصيح والمعنى الحقيقي والمعنى المجازي، والمعرّب، والمنقول، والمولّد... وكلّ هذا يقتضي إعداد مناطيق جبّارة، وأجهزة متطوّرة للتغلّب على التأخير الذي لحقنا، كما يقتضي العمل بكلّ الوسائل المتوفّرة وخاصة الماسح الضوئي المتطوّر؛ والذي يستجيب لتصحيح النصوص الممسوحة باللغة العربية.

يقتضي المعجم بعض الشروط الخاصة والفنية؛ والتي يقتضي ذكرها هنا، وهي:

* يأخذ هذا المعجم ثلاث صوَر، وهي:
  - 1 – نسخ مجلدات ورقية مطبوعة،
  - 2 – صورة محوسبة (أقراص)،
  - 3 – موقع (نسخة) إنترنت.
* وضع مقدمة توضيحية عن:
  - التعريف بالمعجم التاريخي،
  - المنهج المتّبع،
  - دراسة لغوية عن ظاهرة التطوّر،
  - بيانات عن طريقة جمع المدوّنات،
  - بيان تفصيلي عن المداخل الأصول،
  - بيان تفصيلي عن المداخل الفروع،
  - تشفير للمختصرات المعتمدة،
  - بيان عن طريقة التهميش واستعمال المصادر.

* بيانات تفسيرية عن طريقة جمع المادة، وأرى أنّ طريقة فيشر مقبولة إلى حدّ ما، مع إمكانية إضافة ما يراه المجلس العلمي، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى الخطوط العريضة للخطوات السبع لمعجم فيشر، كما وضّحها الأستاذ إحسان النصّ (عضو مجلس الأمناء):

-1- **التاريخية**: وهو أبرز ما ينبغي العناية به؛ لأنّ لكلّ كلمة تطوّرها التاريخي الخاص، ولابدّ من توضيح هذا التطوّر التاريخي.

-2- **الاشتقاقية**: بيان توليد الكلمات والكلمات المعرّبة تردّ إلى أصولها قدر الإمكان.

-3- **التصريفية**: تحديد الصيغ المتغيّرة للكلمة، وتصريف أفعالها، واختيار الصيغة المشهورة في تصريف الفعل أو الاسم.

-4- **التعبيرية**: تعنى بتحقيق الكلمة أو معانيها، والمعنى الأول يؤخذ من اشتقاق الكلمة، ويقدّم المعنى العام على المعنى الخاص، والمعنى الحسّي على العقلي، والمعنى الحقيقي على المجازي، مع مراعاة المعاني الاصطلاحية.

-5- **النّحوية**: تتناول جميع الصلات التي تربط كلمة بأخرى، وترتيب كلمات لها مواضع معيّنة في سياق الكلام، مع مراعاة المضمر أو المحذوف، وتعدّي الفعل أو لزومه.

-6- **البيانية**: تتّجه إلى بيان العلاقات التطوّرية لكلّ كلمة، والتراكيب والتعابير التي لم يطرأ عليها أيّ تغيير، والدواعي البلاغية لوضع الكلمات وترتيبها.

-7- **الأسلوبية**: تعنى بالبنية اللغوية التي استعملت الكلمة أو التعبيرية أو التركيب استعمالاً عاماً، مع مراعاة اختلاف الأساليب، ومنها لغة القرآن، ولغة الحديث وأسلوبا الشعر والنثر، والأسلوب التاريخي، وأسلوب الفنون وغيره» (1).

وهذه الخطوات جدّ هامة، وهي التي تعمل على كيفية دراسة كلّ لفظة، فهي منهج جدّ هام، ومع ذلك تحتاج إلى تطوير، لأنّه استُجدت أفكار بعد فيشر، فأرى ضرورة إدراجها، إضافة إلى أنّ دراسة المادة حسب هذه المقترحات هي نوع من التمثّل المنهجي التاريخي الذي يُطلب في مواصفات المعاجم التاريخية، كما يساعد هذا التوزيع على التحكّم في المادة المجمّعة.

8 - الهيكل العلمي والإداري لمؤسّسة المعجم التاريخي: حسب المواصفات العلمية للمعجم التاريخي، فإنّه يجب تغليب الجانب العلمي على الجانب الإداري، ولذا أرى أنّ الأقسام المقترحة هي أقسام علمية، وهي أساس تصفية المادة العلمية في بدايتها، ثمّ نجد الوحدات الثلاث المقترحة لها الصورة العلمية البحتة كذلك، ولا أرى ضرورة إطلاق تسمية (وحدة) على مصلحة المالية والإدارة العامة وما له علاقة بالمكتبة، فهي إدارة مساندة لجيوش من الحاسوبيين

---

(1) مجمع اللغة العربية السوري، مجلة المجمع. دمشق: 2007، المجلد الثاني والثمانون، الجزء الأول، ص 31-32. وينظر كتاب محمد رشاد الحمزاوي (النظريات المعجمية العربية وسبلها إلى استيعاب الخطاب العربي) ص 237-239.

والأساتذة والمراجعين (المدقّقين) الذين تقع على عاتقهم مسؤولية إنجاز هذا المعجم الذي ننتظره بصبر. كما لا يغيب عن الذهن بأنّ المؤسّسة تحتاج إلى أجهزة وأقسام ومساندين؛ تسهيلاً لأداء العمل بشكل جيّد . وأقترح مبدئياً هذه الهيكلة :

الهيكل العلمي والإداري لمؤسّسة المعجم التاريخي

⇓

الرئيس الشرفي

⇓

رئيس المؤسّسة

⇓

مجلس الأمناء

⇓

الأمين العام

⇓

المجلس العلمي

⇓

(3) رؤساء الوحدات

⇓

1	2	3	4
وحدة الجمع والتخزين	**وحدة** التصحيح	**وحدة** الإخراج الفني	إدارة الوثائق والمكتبة

⇓

إدارة المالية

⇓

الأقسام العلمية

⇓

1 – قسم الحضارة العربية.
2 – قسم العلوم الإنسانية.
3 – قسم العلوم التطبيقية.
4 – قسم العلوم القانونية والاقتصادية.
5 – قسم الآداب واللغات.
6 – قسم العلوم البحتة.
7 – قسم العلوم الطبية.
8 – قسم الرياضة.
9 – قسم علم النفس والتربية.
10 – قسم الفنون.

&ـ **توضيح في الوحدات**: تضمّ الوحدات الثلاث الحاسوبيين الذين يُعدّون خصيصاً لهذا الأمر ويكونون على دراية تامّة بخصائص اللغة العربية من حيث: الصرف والنّحو والبلاغة، والبراعة التامة في الحيازة والبرمجة، وما يلحق ذلك من عمليات تقنيات الحاسوب(1). ويكون على رأس كلّ وحدة أستاذ بدرجة عالية جداً، ومهامه توجيه عمل الوحدة، ويراقب كلّ العمليات التي تنجز أثناء الحيازة.

&/ **1 – وحدة الجمع والتخزين**: وحدة تهتمّ بتخزين المادة من المظان المختلفة، ويتعلّق عملها في الحيازة الأولية التي تأتي من المصادر، وتكون عن طريق التصفيف، أو استعمال الماسح الضوئي.

&/ **2 – وحدة التصحيح**: هي وحدة خاصة تقع عليها مسؤولية التصحيح والتدقيق، وتحتاج هذه الوحدة للتدعيم بأساتذة كبار متخصّصين في علوم اللغة العربية، ويكونون متفرّغين للتدقيق فقط. وفي هذه الوحدة يحصل التدقيق من حيث معلومات:

* عن متن العمل،
* عن منهجية الدراسة،

(1) أوصت اللجنة العلمية المشكّلة من: إبراهيم بن مراد+ أحمد بن محمد الضبيب+ صالح بلعيد، بأنّ مواصفات الجمّاع (الكتبة العاملون في الحيازة) في الوحدة الأولى تكون كما يلي:

1 – أن يكون موظف الوحدة حاصلاً على درجة الباكالوريس أو الليسانس في اللغة العربية وآدابها.

2 – أن يكون حاصلاً على شهادة تدريب في إدخال البيانات واسترجاعها (الحوسبة) أو له خبرة في هذا المجال.

3 – أن يخضع لاختبار يُجرى له في اللغة العربية، وفي استعمال الحاسوب، يكون كتابياً أولاً، ثمّ شفاهياً في مقابلة شخصية.

* عن لغة الدراسة،
* عن أصالة العمل،
* عن الجوانب الفنيّة،
* عن متعلّقات أخرى.

ويشترط في المدقّقين الإلمام الجيّد بفنون المراجعة اللغوية، بدءاً من النقائش والمخطوطات، وما هو محقّق، وما يوجد في الصحائف، وما تحتويه المتون، وما تحمله كتب التراث، والذي تتضمّنه الكتب المعاصرة، والجرائد، إلى جانب إتقان فنّ مراجعة الأبيات الشعرية، وفنّ تحقيق النثر... وكلّ ما لا يسع المصحّح جهله من جوانب فنية. وتقع المسؤولية جسيمة على المدقّقين في أنّهم يدقّقون في مسائل التصحيف، والتحريف، والتعليق، والتخريج، وقضايا عديدة، ومن جوانب شتّى...

&/ **3 – وحدة الإخراج**: هي وحدة فنية، يقع العمل فيها بخصوص الإخراج، وما له علاقة بتوظيف المختصرات، والبيانات، والاستبيانات، والصوَر، وتوظيف الخرائط، والألوان، إلى جانب الجوانب الفنية والجمالية.

&/ **4 – توضيحات في المهام العلمية للأقسام**: إنّ مهام هذه الأقسام تتمثّل في الآتي:

- استقبال المادة الخاصة بها،
- التدقيق في المادة المستقبلة من حيث الاختصاص،
- تحليل المادة ودراستها بدقّة،
- إجراء التعديل المطلوب، أو إبداء الرأي بالقبول، أو بالرفض،
- توجيه المادة المقبولة إلى مصلحة التخزين، وإن طلب التعديل تعود المادة إلى صاحبها للأخذ بالملاحظات.

وأرى في البداية أن ينظر اتّحاد المجامع في تنصيب الأقسام التي تحتكم إلى كمّ من التآليف، على أن يلحق تنصيب الأقسام الأخرى في لاحق من الزمن. وإنّ كثرة الأقسام ضرورة تفرضها المادة المتنوّعة الكثيرة، ويفرضها عامل الزمن، وربح الوقت، ولذا لا نستهين بهذه الكثرة؛ حيث وجدت في معجم الذخيرة الفرنسية أكثر من ستّة عشر قسماً، وفي الموسوعة العربية بسورية تسعة أقسام.

إنّ هذه الهيكلة لا تعني في حال من الأحوال استقلال الوحدات بعضها عن البعض، بل الغرض منها السيطرة القوّية على المادة الكبيرة، وتوزيعها على الأقسام (الاختصاصات) تيسيراً للجمع والدراسة والتدقيق الجيّد لا غير. وإنّ غرضي من هذا التقسيم الهيكلي هو العمل في فريق متعاضد يكمّل بعضه البعض، وسيمرّ العمل وفق الترتيب التالي:

1 - تأتي المادة العلمية عن طريق وحدة الوثائق والمكتبة، أو بواسطة المستكتبين،

2 - يقوم الأمين العام بتوزيع المادة -حسب اختصاصها- على الأقسام،

3 - تُجْرى المراجعة الأولى من قبل القسم المختصّ،

4 - تُوجّه المادة إلى وحدة الجمع والتخزين،

5 - يقوم أساتذة وحدة الجمع والتخزين بتدقيق شكلي في المادة،

6 - تخزّن المادة في صورتها الأولى، ثمّ تسحب وتوجّه لقسم التدقيق اللغوي،

7 - يقع التدقيق مرّة ثالثة للاستدراك / للإضافة / النظر في أخطاء التخزين،

8 - تعود المادة مرّة ثانية إلى وحدة الجمع والتخزين، لإجراء التصحيحات،

9 - توجّه المادة العلمية بعد ذلك إلى وحدة الإخراج الفنّي،

10 - تعرض المادة وهي في صورتها النهائية على المجلس العلمي،

11 - يفحص المجلس العلمي المادة من كلّ جوانبها، ثمّ يؤشّر على صلاحيتها / تصحيحها / تعديلها / رفضها،

12 - توجّه بعدها المواد المقبولة في صورتها النهائية إلى الطبع،

13 -تخرج المادة في صوَرها الثلاث: مجلدات، أقراص، موقع المؤسّسة،

14 - تبقى الصورة الأصل في الحاسوب لاستعمالها لاحقاً في النسخة الآلية (الإنترنت).

وسوف أعلّق قليلاً على هذه الأمور، ببعض المؤكّدات:

* لا بدّ من جبر النواقص قبل عرض العمل على اللجان المختصّة،

* لا بدّ من الدقّة الصارمة لكلّ المواد التي يضمّها المعجم،

* لا بدّ من التحرّز والتحرّج والدقّة المفرطة في تحقيق المواد،

* لا بدّ من الحوار بين العلماء والمعدّين للمواد والمدقّقين،

* لا بدّ من تكثير المراحل التي تمرّ بها المادة، فهي باب من أبواب التصفية والمراجعة والدقّة.

المجامع اللغوية ودورها في نشر تراث العربية
(مجمع اللغة العربية الأردني أ نموذجا)

أ.د. رضوان محمد حسين النجار ج. تلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم [1]

(الحمـد لله رب العالمين)[2]، **الذي أنزل القران الكريم (بلسان عربي مبين)**[3]

فشرف الله تعالى اللغة العربية على سائر لغات العالمين، تشريفه نبينا المصطفى، الأمي العربي، القرشي الهاشمي، على جميع الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى وسلامة عليهم «**لا نفرق بين أحد من رسله**»[4] أجمعين.

الحمد لله العلي العليم الذي جعل لساننا – نحن العرب – لسان القران العظيم.

ولما كانت الحال هي تلك، فان لغة المرء بعامة هي تاريخه وذاته. وللعربي بخاصة علاوة على ذلك هي دينه الحنيف الإسلامي [5]، ولسان كتابه المحفوظ السماوي[6].

ناهيك أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم، بل هي لغة المسلمين، فلا صلاة إلا بألفاظها ولا تلاوة للقران الكريم إلا وفق لسانها.

وفوق هذا وذاك فإن القران الكريم هو المنهل العذب الرئيس لمعطيات اللغة العربية.

وعليه تقع على عواتقنا مسؤولية صون هذا الكتاب السماوي العظيم عبر خدمة لغته الكريمة؛ لغة العرب أجمعين.

وتحقيقـا لهذا الهـدف تكونـت المؤسسات العلمية وبزغت المجامع اللغوية.

وأنشئت الصحف والمجلات الأدبية والدوريات العلمية، ومن بين هذه وبين تلك كانت جهود مجمع اللغة العربية الأردني ومجلته الغراء في حفظ ونشر ذخائر التراث العربي الإسلامي العظيم، حيث تضم بين جنباتها كنوزا من ذاك التراث العلمي الذي تزخر العربية به عبر مراحل التاريخ.

الـمجمع

يعد مجمع اللغة العربية الأردني ركيزة أساسية من ركائز الحفاظ على اللغة العربية وفق تعدد علومها وتنوع مطالبها.

لذا شرع المجمع في العمل العلمي عبر مجلسه ورئيسه فور صدور قرار تكوينه؛ (قانون مجمع اللغة العربية الأردني)[7] في الفاتح من تموز (جويلية) لعام ستة وسبعين وتسعمائة وألف من ميلاد سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام.

وتشرف المجمع وشرف العلامة عبد الكريم خليفة برئاسة هذا المجمع الأغر.

عمل الرئيس الأستاذ عبد الكريم خليفة على انضمام المجمع إلى اتحاد المجامع اللغوية العربية[8] خلال عام واحد من نشأته، آملاً رئيس المجمع الأردني وآملين أن يصبح الجميع مجمعاً موحداً لتكون لغة عربية علمية واحدة عبر امتداد الساحة العربية أرضا ولسانا، وطناً وإنسانا.

وتنص المادة الرابعة من قانون المجمع على أن يعمل المجمع على تحقيق الأهداف التالية:

أ- الحفاظ على سلامة اللغة العربية، وجعلها تواكب متطلبات الآداب والعلوم والفنون الجميلة.

ب- توحيد مصطلحات العلوم والآداب والفنون ووضع المعاجم والمشاركة في ذلك بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم والمؤسسات العلمية واللغوية والثقافية داخل المملكة وخارجها.

ت- إحياء التراث العربي والإسلامي في اللغة والعلوم والآداب والفنون.

أما المادة الخامسة من القانون نفسه فتقول: تحقيقاً للغايات المقصودة من هذا القانون يقوم المجمع بما يلي[9]:

أ- القيام بالدراسات والبحوث المتعلقة باللغة العربية.

ب- تشجيع التأليف والترجمة والنشر وإجراء المسابقات لذلك، وإنشاء مكتبة للمجمع.

ج- ترجمة الروائع العلمية ونشر الكتب المترجمة إلى العربية ومنها.

د- عقد المؤتمرات اللغوية في المملكة وخارجها وإقامة المواسم والندوات الثقافية.

هـ- نشر المصطلحات الجديدة التي يتم توحيدها في اللغة العربية بمختلف وسائل الإعلام وتعميمها على أجهزة الدولة.

و- إصدار مجلة دورية تعرف باسم (مجلة مجمع اللغة العربية).

وقام مجلس المجمع بتشكيل لجان دائمة ومؤقتة لتحقيق أهداف المجلس وخدمة مقاصده وهذه بعض لجانه:

1- لجنة الأصول.

2- لجنة التراث.

3- لجنة المصطلحات.

4- لجنة التأليف والترجمة في المجمع.

5- هيئة تحرير المجلة.

6- لجنة الندوات والمحاضرات.

7- لجنة الإعلام.

8– لجنة المعجميات.

9– لجنة البحوث والدراسات اللغوية.

10– لجنة المعجم التاريخي للغة العربية.

11– ثم لجنة هيئة التحرير العلمي لمشروع معجم ألفاظ الحياة العامة[10]. والأخيرة لجنة مؤقتة تنتهي مع انجاز المشروع.

هاته الأطروحات التنظيرية التي سطرها قرار إنشاء مجمع اللغة العربية الأردني، والذي اخذ علماء المجمع على عاتقهم تنفيذ القانون وإخراج التنظير إلى حيز التطبيق.

هذه الكوكبة من العلماء الذين عاهدوا لغة القران الكريم التواصل معها والحياة إياها، هم رجال أحبوا لغتهم (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) [11].

أما الذين قضوا نحبهم فسنقف معهم بمشيئة الله تعالى خلال صفحات هذا البحث، قائلين الآن : رحم الله الرحيم أولئك الباحثين المجدين الذين أدوا واجبهم رافعين للعلم مجده مؤدين لله حقه.

أما الذين منهم (من ينتظر وما بدلوا تبديلا) فنعيش ومضات مع واحد من علماء المجمع، إنه العلامة الجليل عبد الكريم خليفة : نذر نفسه لخدمة اللغة العربية أديبا وناقدا، مؤلفا وشارحا، محققا ورئيساً.متخذا شعاره: اللغة العربية أساس نهضة امتنا ووحدتنا[12] يقابلك دون انتظار. تعلوه بشاشة وجهٍ وسرور قلب مرحباً بالعربية وأهلها وباحثيها من كل حدب وصوب، وبخاصة القادم من الجزائر، فالجزائر لا زالت وستظل بمشيئة الله تعالى آخذة موقعها في قلب كل عربي.

ينتقل الشيخ الرئيس من كرسي الرئاسة ليجالسك الأريكة التي تجلس عليها.

إنه – بحق– عالي الهمة دون تعالٍ، وسامي الأخلاق دون تباهٍ[13] كان ولا يزال برئاسته المجمع كوكباً في سماء آداب العرب، أحوذيا لامعاً، صانعا ماهرا، يمحص حقائق العربية ويوغل في البحث حيال مكنوناتها، ويضع الأشياء وفق مواضعها.

عمل ولا يزال على إحياء التراث الإسلامي العربي الأصيل خدمة للغة الضاد لسان القران الجليل، مستخرجا نفائس المخطوطات من دفائنها ونشرها على العالمين، لتصبح منارات تتألق ابد الدهر، تنشر الضياء، وتدوي الظلماء، حق لكل منا أن يعلن إعجابه بالمجمع ورئاسته، وأهدافه ومقاصده ومشاريعه وخططه ولجانه. إنها مرحلة التنظير.

ولكل الحق في التساؤل أيضا، أبقيت هذه المشاريع والأهداف واللجان مرسومة على الورق تتزين بها الصفحات. أم أنها خرجت إلى حيز العمل والتنفيذ أي إلى مرحلة التطبيق؟

هل تم تأليف المؤلفات ... وطبع المصنفات وتحقيق المخطوطات؟

هل وضعت المصطلحات وعربت المفردات وصححت الكلمات؟

هل أقيمت المؤتمرات .... وألقيت المحاضرات وعقدت المؤتمرات؟

هل ... وهل ... والعديد من أدوات الاستفهام مع هل؟

أن أسئلة « هل » مع أخواتها الاستفهامية تتطلب وتطلب منا الانتقال من مرحلة التنظير إلى مرحلة التطبيق وذاك ما قام به مجمع اللغة العربية الأردني مع اثنين وثلاثين عاما من عمره المديد بإذن الله العلي المجيد.

وهذا يسوقنا إلى إبراز هذه الأعمال العلمية المجمعية للغة العربية.

جالست أعمال مجمع اللغة العربية الأردني متأملا متفحصاً فوجدت حالي كالغواص على الدرر في قعر اليم.

كلما وقع على جريدة تراءى له ما هو أسمى وأسنى... فيحار، والله، أيها يلتقط .!

هكذا شأن الباحث مع الجهود العلمية لمجمع اللغة العربية في عمان.

تمحورت الوجوه العملية العلمية للمجامع اللغوية بعامة ومجمع اللغة العربية الأردني بخاصة في عدة منها:

أولا : التعريب.

ثانيا: التأليف.

(التأليف اللغوية، والتصانيف الأدبية، والطبع والنشر)

ثالثا: المصطلح.

(المصطلح والتعريب، وتعريب المصطلح).

رابعا: إحياء التراث

(إحياء التراث العربي والإسلامي عبر تحقيق المخطوطات القديمة والحديثة والكشف عن المكتبات المتضمنة للكتب والمخطوطات)

خامسا: الترجمة

(ترجمة الروائع العلمية العالمية، ونشر الكتب المترجمة من اللغة العربية واليها).

سادسا: المؤتمرات والندوات

(المؤتمرات اللغوية والندوات الثقافية والزيارات العلمية والاستضافات الودية الأدبية).

سابعا: التعاون والمشاركات.

ثامنا: المجمع والمجتمع.

تاسعا:المواسم الثقافية.

عاشرا: مجلة المجمع ومكتبته.

1- المجلة :

أ – البحوث والدراسات .

ب- الإعلام والتوعية (التقارير والتعاريف والتعازي) .

ج- الكشافات والفهرسة .

2- المكتبة .

فالمتأمل هذه المجهودات المبذولة عبر هذه الوجوه،لواقع على كثير من تحقيق المخطوطات الهامة للأدب العربي . والعمل على نشرها والقيام بفهارسها التي تساعد الباحث للوقوع على ضالته التي ينشدها .

ثم طبع المعاجم اللغوية لعلماء العربية القدامى المؤسسين .

وأيضا طبع ونشر مجلات المجامع اللغوية، فقد ضمت بين صفحاتها البحوث العديدة، ناهيك عن مجالات الترجمة ونشاطات التعريب .

وإليك التفاصيل ومجالات التطبيق :

أولا : التعريب

أهم ما شغل بال مجمع اللغة العربية الأردني منذ تأسيسه هو موضوع (تعريب التعليم العالي في الجامعات العربية) [14]، حيث أولاه أهمية كبيرة لما له من آثار مهمة في عملية الإبداع، والمحافظة على شخصية الأمة العربية، وإبراز هويتها ومقومات كيانها، كما أنه يعبر عن ضرورة تتمثل في الأصالة العربية وعمق الانتماء الإسلامي، والإخلاص لتراث وحضارة امتنا العربية الإسلامية الماجدة، وذلك لربط الماضي بالحاضر ليكون الأخير داعما للمستقبل لبناء حضارة عربية إسلامية ثابتة الأركان، ممتدة الأصول، قادرة على المشاركة في الحضارة الإنسانية بشكل فعال ومثمر[15] .

يدل مصطلح التعريب بمفهومه الحديث على جعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع مستوياته، وأن تكون اللغة العربية لغة البحث العلمي وتقنياته، ولا يقتصر مفهوم التعريب على التعبير عن جميع أنواع المعرفة باللغة العربية وحسب، بل يتجاوزه إلى تأصيل هذه المعارف وتلك العلوم في الفكر العربي .

وهذا ما يميز مصطلح التعريب عن مصطلح الترجمة، فالترجمة نقل إلى العربية وكفى، على خلاف التعريب الذي يعنى المشاركة المبدعة للمؤسسات العلمية العربية في بناء الحضارة العالمية، والخروج من حالة التبعية الفكرية والثقافية[16] .

وننبه هنا إلى أن التعريب لا يهدف إلى قطع الصلة العلمية باللغات الأجنبية، ولا يتعارض مع مواصلة دراستنا ومعرفتنا باللغات الأخرى.

ولكن مع التعريب يمكن أن نقدم إلى اللغات الأخرى معارفنا العربية بلغتنا، لا أن نظل لاهثين ناقلين اخذين عن علوم اللغات الأجنبية دون أن نقدم لها أمراً ذا بال.

وهكذا يتبين للمرء الفارق بين الترجمة التي تؤخذ عن النص الأجنبي بحروفه، والسير معه القد بالقد: وبين التعريب الذي هو مشاركة عربية بلغة عربية في بناء الحضارة العربية بخاصة والإنسانية بعامة، وعبر التعريب يتم بناء الشخصية العربية ذات التاريخ العربي العريق، والإسلامي العتيد.

ويعيد لهذه اللغة الماجدة، لغة القران الكريم مجدها وعزتها.

والتعريب «يرفع من مستويات التعليم الجامعي والبحث العلمي، ويمنع مصائب ازدواجية اللغة، وغربة البحوث وضعف انتمائها، فما فائدة بحث علمي بالفرنسية أو الانجليزية عن زراعة البندورة (الطماطم) في الأغوار الأردنية ؟ من سيقرؤه ويستفيد منه»[17].

أن أكثر المشتغلين العرب بالعلوم عبر اللغات الأجنبية أو قل المنتمين إلى العرب، فإن هؤلاء المنتمين عرب لا يحسنون التعبير ولا ترقى الأجنبية لديهم إلى مستوى معرفة أهلها أنفسهم.

فهم يستخدمون لغة لا يحسنونها، وبالمقابل يهملون لغتهم التي يمكن أن يحققوا مع طلابهم بها المستوى العلمي الأفضل إذا ما استعملوها لغة للتدريس والبحث العلمي[18].

المجمع وتعريب التعليم العلمي الجامعي

شاء المجمع أن يقطع الطريق على المنادين بتعليم العلوم بلغة أجنبية متذرعين بعدم وجود كتب لهذا الغرض باللغة العربية، بزعم أن اللغة العربية ليست لغة علم وحضارة فتبنى مشروع تعريب الكتب العلمية التي تدرس في كلية العلوم، واختار كلية العلوم لأنها هي الكلية الأم التي تنشأ حولها الكليات العلمية الأخرى، متجاوزاً مرحلة المناداة بالمبادئ والحوار والمناقشة حول قدرة اللغة العربية وأهليتها وتجاربها التاريخية إلى مرحلة التطبيق العملي[19].

شرع المجمع في: ترجمة الكتب العلمية وقد عمد في تنفيذها الآلية التالية[20]:

1. البدء بترجمة الكتب العلمية في حقول: الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والجيولوجيا، وهي من أحدث الكتب العلمية وأعلاها مستوى.

2. تعميم هذه القائمة على جميع الجامعات والمؤسسات العلمية في الوطن العربي، معلناً نية المجمع في العمل على ترجمتها، ليصار إلى ترجمة غيرها من الكتب إن كان هنالك أية جهة تقوم بترجمة بعضها، حرصاً منه على التنسيق وعدم تكرار الجهد.

3. أخذ جميع ما أنتجته المجامع اللغوية في القاهرة ودمشق وبغداد، ومما أنجزته مؤتمرات التعريب والمؤسسات العلمية في الوطن العربي من مصطلحات علمية بعين الاهتمام ليستفاد من هذه التجارب.

4. حرص المجمع على توحيد جميع المصطلحات، فطرح هذه المصطلحات أمام اتحاد المجامع العربية والمؤسسات العلمية في الوطن العربي بغية توحيدها، فوحدة اللغة العربية العلمية قضية أساسية لا يمكن التهاون بها.

أنجز المجمع العديد من التصنيفات عبر مشروع تعريب التعليم الجامعي، وصدرت عن المجمع المنشورات الآتية[21]:

1. كتاب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية، تأليف سووكوفسكي، وصدر في جزأين.
2. كتــاب الجيولوجيا العامة، تأليف روبرت فوستر، وصدر في جزء واحد.
3. كتاب البيولوجيا، تأليف غولدسبي، وصدر في جزأين.
4. كتاب الكيمياء، تأليف فردريك لونغو، وصدر في جزء واحد.
5. كتاب الفيزياء، تأليف فورد، وهو ثلاثة أجزاء.
6. الجبر المجرد، تأليف ويفدسون.
7. مقدمة للتكوين الجنيني، تأليف ستيفن اوبنهايمر.
8. مقدمة للبصريات الكلاسيكية، تأليف جرجين ماير.
9. مبادئ التحليل الرياضي، تأليف ج ج مادوكس.
10. مبادئ المعادلات التفاضلية وتطبيقاتها، تأليف وليم ديريك، وستانلي غروسمان.
11. مقدمــة إلى البصريـــات الكلاسيكية والحديثة، تأليف جيرجين ماير.
12. الالكترونيات الأساسية لطلبة العلوم، تأليف جيميز ج. بروفي.
13. الكيمياء التحليلية، تأليف د.ج بيتريك وس و. ترانك.
14. الكيمياء غير العضوية (ج2) تأليف ج. أي. هيوفي.
15. الكيميــاء الحيويــة للخلية وعلم وظائفهـا، تأليف ادوارد، وك هساك.

لم يتوقف المجمع عن الاستمرار في عملية ترجمة الكتب العلمية وتعريبها، بل تابع مسيرته في هذا الجانب وكان له عدة إصدارات منها (الموجز في ممارسة الجراحة) في أربعة أجزاء، وقد فاز هذا الكتاب في معرض الكتاب العربي الثالث والعشرين عام 1998 الذي أقامته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال أفضل كتاب مترجم إلى اللغة العربية في العلوم[22].

وحرصاً من المجمع على نشر انجازاته، وتعميم الفائدة المرجوة منها في خدمة اللغة العربية، وتوحيد الجهود العربية المبذولة، وعدم تكرارها، عمد المجمع إلى إهداء نسخ من هذه الكتب والانجازات إلى وزارات التعليم العالي، والجامعات، والمؤسسات العلمية في الوطن العربي.

لم يقتصر جهد مجمع اللغة العربية الأردني في مشروعه الرامي إلى تعريب التعليم العلمي الجامعي على ترجمة الموضوعات العلمية فقط، بل عمل على دعم التأليف العلمي الجامعي، وهو الجانب الثاني من مشروعه[23].

ثانيا: التأليف

التآليف الأدبية والتصانيف اللغوية باللغة العربية لها ميزة خاصة، وأهمية بالغة، ففيها تحيا اللغة، وبها تنتج علومها، ومن شأن التأليف باللغة العربية أنه يربط الماضي بالحاضر ويدفع نحو تطوير الأمة، ويساعد في بسط العلوم وامتلاكها، وتنقيتها، وإبداعها، وبذلك يستطيع العرب امتلاك التكنولوجيا الحديثة[24].

وإيماناً من المجمع بأهمية تأليف العلوم باللغة العربية، كلف مجلس المجمع لجنة التأليف والترجمة وضع تعليمات دعم التأليف والترجمة والنشر في المجمع، والتي تم إقرارها بعد ذلك، وانطلاقاً من هذا الاهتمام، رأى مجلس المجمع أن تتوزع لجنة التأليف والترجمة والنشر في المجمع إلى اللجان الآتية:

1. لجنة التأليف والترجمة للعلوم الإنسانية.

2. لجنة التأليف والترجمة للعلوم الصحية.

3. لجنة التأليف والترجمة للعلوم الإنسانية.

4. لجنة التأليف والترجمة للعلوم التطبيقية الهندسية والزراعية.

ومن تآليف المجمع ومنشوراته علاوة على ما ورد خلال البحث من مخطوطات محققة ومن كتب مترجمة ومصطلحات معربة نذكر:

1. مجلة المجمع الأعداد (1-69) من سنة (1978-1985) نفذ منها الأعداد من العدد المزدوج 3-4 ولغاية العدد المزدوج (28-29).
2. رسائل أبي العلاء المعرّي – ثلاثة أجزاء – تحقيق الدكتور عبد الكريم خليفة سنة 1976.
3. محاضرات الندوة الإعلامية المشتركة، سنة 1980م.
4. تعريب رموز وحدات النظام الدولي ومصطلحاتها، ط2، سنة 1981.
5. المقنع في الفلاحة، تأليف ابن حجاج الاشبيلي. تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، بإشراف د. عبد العزيز الدوري، سنة 1982.

6. «المعاجم العربية القديمة والحديثة وتجارب مجامع اللغة العربية في التعريب وخدمة التراث العربي» الموسم الثقافي الأول لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1983م.
7. الموسم الثقافي الثاني لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1984م. «تقنيات اللغة والتراث العربي اللغوي وتيسير النحو التعليمي وتعريب العلوم الطبية».
8. مشروع مجمع اللغة العربية للرموز العلمية العربية، سنة 1984.
9. «التراث العلمي العربي» الموسم الثقافي الثالث لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1985م.
10. تيسير العربية بين القديم والحديث، تأليف الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، سنة 1986.
11. «دور الحاسوب في تعريب العلوم» الموسم الثقافي الرابع لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1986م.
12. قاموس مصطلحات الرياضيات الابتدائية، تأليف الدكتور أحمد سعيدان، سنة 1987م.
13. التراث الطبي والتاريخي، التقنيات الحديثة واللغة العربية الموسم الثقافي الخامس لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1987م.
14. ندوة الازدواجية في اللغة العربية، سنة 1988م.
15. اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، تأليف الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، ط2، سنة 1988م.
16. اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي في الوطن العربي وأساليب النهوض بها الموسم الثقافي السادس لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1988م.
17. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط2، سنة 1988م.
18. مدخل إلى مجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1988م.
19. تعريب العلوم الصحية الموسم الثقافي السابع لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1989م.
20. مصطلحات الدهانات والورنيشات سنة 1989م.
21. تعريب العلوم الهندسية والتقنية. الموسم الثقافي الثامن لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1990م.
22. تعريب التعليم الجامعي في الأردن ضرورة قومية وتنموية. الموسم الثقافي التاسع لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1991م.

23. اللغة العربية ودورها في تأكيد هوية الأمة العربية. الموسم الثقافي العاشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1992م.
24. دور اللغة العربية في بناء المجتمع العربي ونهضة الأمة العربية. الموسم الثقافي الحادي عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1993م.
25. منهجية وضع المصطلح العربي قديماً وحديثاً. الموسم الثقافي الثاني عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1994م.
26. 1994م. الهوية العربية الإسلامية في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي 1948م. الموسم الثقافي الثالث عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1995م.
27. تيسير تعلم اللغة العربية. الموسم الثقافي السادس عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1998م.
28. التقارير السنوية لمجمع اللغة العربية الأردني (1-28) من (1977-2005م).
29. تقويم خطط أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية أكاديمياً وعلمياً. الموسم الثقافي السابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 1999م.
30. تعليم اللغة العربية في مرحلة التعليم العام. الموسم الثقافي الثامن عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2000م.
31. التحديات التي تواجه اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين. الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2001م.
32. احترام اللغة العربية والعناية بها ضرورة وطنية وقومية. الموسم الثقافي العشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2003م.
33. احترام اللغة العربية في وسائل الإعلام العربي، دراسة تحليلية ونقد. الموسم الثقافي الحادي والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2003م.
34. فنون اللغة العربية وتحديات العصر. الموسم الثقافي الثاني والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2004م.
35. اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل. الموسم الثقافي الثالث والعشرون لمجمع اللغة العربية الأردني، سنة 2005م.

ولم يقف دور المجمع عند التأليف وحسب، لكنه قام بتدعيم العديد من المؤلفين تدعيماً مادياً ومعنوياً للحث على طبع ونشر مؤلفاتهم العلمية باللغة العربية[(25)]، ومن هذه التآليف والتصانيف:

1. كتاب (العدسات اللاصقة) للدكتورة سرى سبع العيش.
2. مدخل إلى الصيدلة، تأليف ناجي نجيب.
3. اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، عبد الكريم خليفة.
4. كتاب (الدهون والأمراض) تأليف لامعة جمال الطالباني.
5. كتاب (علم السموم الحديث) تأليف منيب الساكت وزملائه.
6. كتاب الجبر الخطي تأليف محمد هيلات ورضوان الجراح.
7. كتاب الجامع لأساسيات جراحة الكلى والمسالك البولية، تأليف أكرم الدجاني.
8. كتاب قاموس التراكيب المقتطعة، تأليف صادق عثمان الحموز وزملائه.

تأليف الكتب المدرسية

ومن حرص المجمع على التنسيق بينه وبين المؤسسات العلمية والتعليمية في داخل الأردن وخارجه، عمل المجمع على تأليف كتب مبحث اللغة العربية لمرحلة التعليم الأساسي[26] بناء على طلب من وزارة التربية والتعليم.

وقد قام المجمع بهذا العمل العلمي التربوي ضمن ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: تشمل تأليف كتاب لغتنا العربية للصف الأول، وكتاب لغتنا العربية للصف الخامس. وكتاب القواعد للصف التاسع، وكتاب المطالعة والنصوص للصف التاسع، وكتاب التطبيقات اللغوية للصف التاسع، وكتاب التعبير والتلخيص، ودليل المعلم لكتاب لغتنا العربية للصف الخامس.

المرحلة الثانية: وتشمل كتاب لغتنا العربية للصف الثاني، وكتاب لغتنا العربية للصف السادس، وكتب القواعد، والمطالعة والنصوص، والتطبيقات اللغوية، وكتاب التعبير والتلخيص وكلها مقررات للصف العاشر.

المرحلة الثالثة: وتشمل كتب اللغة العربية للصفوف الثالث والرابع والسابع والثامن، ودليل المعلم لكتاب لغتنا العربية للصف الثاني، وكذلك دليل الصف السادس.

وقد رأى مجلس التربية والتعليم أن يجري تعديلات على الخطوط العريضة لمنهاج أدلة المعلم لكتب مرحلة التعليم الأساسي، وفي ضوء هذه التعديلات اضطرت لجان التأليف في المجمع إلى إعادة تأليف الأدلة التالية: دليل اللغة العربية للصفوف / الثالث والرابع والسابع والثامن والعاشر.

وقد استمر التنسيق بين المجمع ووزارة التربية والتعليم منذ عام 1990 ولغاية عام 1995 فقد وفى المجمع بالتزامه مع وزارة التربية والتعليم في تأليف كتب مبحث اللغة العربية للمرحلة الأساسية.

وقد اتبع المؤلفون في تأليف الكتب طريقة الوحدة، إذ يختار المؤلف موضوعاً رئيساً تدور حوله فروع اللغة من قراءة وتدريبات لغوية ومحفوظات وقصائد وأناشيد، وتدريبات وقضايا إملائية، وأخيراً التعبير ليكون مادة للتطبيق مشافهة وكتابة.

حرص فريق التأليف على تنويع النصوص المختارة في موضوع القراءة؛ من آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، وموضوعات وطنية، وموضوعات عن القضية الفلسطينية، وقصص الطرف والنوادر التي تبعث السرور في النفس وتهذب الخلف والرسومات التي تساعد على إيصال المادة، وموضوعات في وصف الطبيعة وقد اختيرت هذه النصوص بحيث تمثل العصور التاريخية، والأدبية العربية، والنصوص التي تعمل على إكساب المهارات المعرفية والتربوية والسلوكية، وقد راعى المؤلفون تنمية مهارة القراءة، بحيث ركزت على النطق السليم والحفظ والإِلقاء بطلاقة، وتنمية مهارة الكتابة تفسيراً وخطاً وأن التدريبات اللغوية والنحوية مزجت بين الطريقة الاستقرائية، والطريقة القياسية، ليعرف الطالب القاعدة الأساسية من خلال معالجة الأمثلة ومن ثمّ يطبق عليها تدريبات متنوعة لتوظيف القاعدة وترسيخها في ذهن الطالب، ثم العودة إلى النص للتطبيق عليها[27].

وهناك العديد من المؤلفات والمنشورات التي سهر المجمع على إعدادها وتأليفها وطبعها ونشرها، ستقع عليها خلال محاور هذا البحث.

ثالثاً: المصطلح

إن بين التعريب والمصطلح صلة وشيجة، وترابطاً محكماً، ذلك أن التعريب الذي يعني فيما يعني أن تكون العربية أداة التفكير والتعبير في كل علم وفن، على الأخص في مجال التعليم والبحث والتأليف، إنما يحتاج إلى المصطلح، أي المقابل العربي للمصطلح الأجنبي، وعلى الأخص العلمي منه، لاستخدامه في الإِفصاح عن المفاهيم الجديدة وتسمية الأشياء المستحدثة[28]. لذا سعى المعربون إلى تعريب المصطلحات ولقد اتخذ هذا التعريب اتجاهين: اتجاهاً على مستوى الأفراد، وآخر على مستوى المؤسسات كالمجامع اللغوية، ومن الأفراد الذين ساهموا في دفع عجلة تعريب المصطلح، كأمين المعلوف، الذي نشر بحثاً في مجلة المقتطف حول المصطلحات العلمية[29]، كما أصدر أحمد عيسى كتاب التهذيب في أصول التعريب[30]، وقد ساهم الأب انستاس الكرملي في هذا الموضوع، وطور حسن حسين فهمي تعريب المصطلح في كتابه: المرجع في تعريب المصطلحات العلمية والفنية والهندسية، وقد عالج فيه الكثير من قضايا تعريب المصطلح، وممن ساهم بشكل واضح في تعريب المصطلح الأمير مصطفى الشهابي في كتابه (المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث).

أما على مستوى المؤسسات فقد كان لمجمع دمشق والقاهرة، والمجمع العلمي العراقي إسهامات عديدة في مجالات تعريب المصطلح، ذلك أن التعريب عندها يقوم على ربط اللغة العربية بالعصر، ومواكبتها لتطور الحياة العلمية، بالقدرة على التعبير على مصطلحاتها ، وقد أنشأت جامعة الدول العربية، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الرباط عام 1961م. ليقف إلى جانب هذه المجامع وينسق معها في هذا المجال.

شارك مجمع اللغة العربية الأردني أشقاءه من المجامع الأخرى في تعريب المصطلحات العلمية، فوضع المقابلات العربية للمصطلحات الأجنبية هدفاً من أهداف المجمع الرئيسية[32].

وقد أقر مجلس المجمع ما يقرب من (21.000) واحد وعشرين ألف مصطلح وهي منشورة على شبكة المعلومات في موقع المجمع[33] موزعة على مجالات مختلفة.

وحرصاً من المجمع على مواكبة التطور في منهجية وضع المصطلح فقد تم عقد ندوة في رحاب المجمع بعنوان: تطوير منهجية وضع المصطلح العربي وبحث سبل نشر المصطلح الموحد وإشاعته[34].

وقد قام المجمع الأردني بوضع وإقرار كثير من المصطلحات العلمية في عدة تخصصات ومنها:

أولاً: المصطلحات العسكرية

نشر المجمع مجموعة من المصطلحات العسكرية في مختلف التخصصات، وذلك بمشاركة خبراء عسكريين ومن هذه المصطلحات[35]:

أ. مصطلحات الصيانة، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1994م.

ب. مصطلحات المشاة، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1994م.

ج. مصطلحات الدروع، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

د. مصطلحات التمويل والنقل، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

هـ. مصطلحات المساحة، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

و. مصطلحات المدفعية، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

ز. مصطلحات سلاح الهندسة، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

ح. مصطلحات اللاسلكي، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1995م.

ط. مصطلحات سلاح الجو والاستخبارات، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1996م.

ثانيا: مصطلحات الأرصاد الجوية، صدرت الطبعة الثانية منه سنة 1981م.

ثالثا: المصطلحات الزراعية، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1981م.

رابعا : مصطلحات الدهانات والورنيشات، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1996م.

خامسا : مصطلحات التمريض، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1996م.

سادسا : مصطلحات الإذاعة والتلفاز والكهرباء العامة، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1996م.

سابعا : مصطلحات التكييف والتبريد والأدوات الصحية، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1998م.

ثامنا : مصطلحات التجارة والاقتصاد والمصارف، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1997م.

تاسعا : مصطلحات الخراطة، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1997م.

عاشرا : مصطلحات الهندسة المدنية والمعمارية / ج1، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1998م.

حادي عشر : مكانيك السيارات، صدرت الطبعة الأولى منه سنة 1998م.

والمجمع مستمر في إضافة مصطلحات جديدة إلى هذه المجالات، ولا يقف عمل المجمع في مجال المصطلحات عند هذا الحد، بل يبقي الباب مفتوحاً أمام الدارسين والباحثين والمعنيين والمهتمين، لإبداء أرائهم وملاحظتهم حول ما يصدره من مصطلحات، فيتلقى التصويبات المقترحة لما أصدره من مصطلحات ويحيلها إلى المختصين بحسب مجال هذه المصطلحات ويرد عليها بحسب ما يراه مناسباً(36).

ومما تفرد به المجمع عن غيره من المجامع أنه منذ إنشائه، وظف اللغة العربية في التعبير عن الحقائق العلمية، وتوظيف هذه المصطلحات العلمية التي أنجزتها المجامع ومؤتمرات التعريب في التعبير عن الحقائق العلمية. كما أنه تمكن من بناء نواة قواميس المصطلحات العلمية التي استخرجت من الكتب التي عربها، بحيث يصدر في كل علم من العلوم نواة قاموس ينمو مع الزمن، فتضاف إليه المصطلحات التي ستجد.

وإذا نظرنا إلى تجربة المجمع وما رافقها أو انبثق عنها نصل إلى أن أي جهد للتعريب يجب أن يكون مؤسسياً بالدرجة الأولى، وأن تكون للمؤسسة التي تتولاه قوة تنفيذية، ومقدرة مالية وأخرى فنية لكي تضمن عدم تجاهل مصطلحاتها، ما دامت تأتي في مستوى جيد متجدد مساير لروح العصر(37).

لقد سعى المجمع لاستصدار قرار سياسي يقضي بتعزيز مكانة اللغة العربية، وجعلها لغة البحث العلمي، والتدريس الجامعي، إذ تقدم بمشروع قانون اللغة العربية إلى رئاسة الوزراء مرتين، وذلك في العامين 1981 و 1984، ولكنه وبكل أسف لم يصدر إلى إقرار هذا القانون لغاية الآن(38).

رابعا : إحياء التراث

نصت الفقرة (الثالثة) من المادة الرابعة من قانون مجمع اللغة العربية الأردني على : إحياء التراث العربي والإسلامي في اللغة والعلوم والأدب والفنون .

وبتوجيه وتكليف من مجمع اللغة العربي الأردني قام الأساتذة المحققون بتحقيق ذخائر المخطوطات التراثية التي لا يزال يعلوها غبار الدفائن والكنوز ومن ذلك :

قام العلامة المجمعي الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة بتحقيق كتاب رسائل أبي العلاء المعري في ثلاثة أجزاء .

وقام آخرون 1982 وهم الأساتذة : جاسر أبو صفية وصلاح جراد، وعبد العزيز الدوري، بتحقيق كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج الاشبيلي .

ولبعضهم أيضاً قيد التحقيق كتاباً : بغية الفلاحين للأشجار المثمرة والرياحين، للملك الأفضل ألرسولي، وكتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الاشبيلي .

ولم يكتف المجمع بالتحقيق للمخطوطات ونفض غبارها، لكنه كلف كثيراً من الأساتذة بمتابعة المخطوطات التي لا تزال في دفائنها والإشارة إليها وإظهارها للمحققين والباحثين، ومن ذلك :

* مخطوطات فضائل بيت المقدس، إعداد كامل العسلي، عام 1981 .
* مخطوطات الحرم الإبراهيمي في الخليل، إعداد محمود عطا الله، عام 1983 .
* مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا، إعداد محمود عطا الله، عام 1983 .
* مخطوطات المكتبة الإسلامية في يافا، إعداد محمود عطا الله، عام 1984 .
* مخطوطـات كلية الدعوة وأصول الدين، إعداد أحمد العي، عام 1986 .

وقد قدمت لجنة التراث في المجمع اقتراحاً يقضي بإنشاء مركز للعناية بالتراث العربي الإسلامي، ويهدف هذا المركز إلى(39) :

1 . العناية بالتراث : جمعاً وتصنيفاً وتحقيقاً وتحليلاً وتيسيراً ونشراً .

2 . نشر الوعي والاهتمام بالتراث .

3 . إعداد الباحثين في التراث .

4 . التعاون مع المؤسسات ذات الأهداف المماثلة كلياً أو جزئياً داخل المملكة وخارجها .

ويسعى المركز إلى تحقيق أهدافه بالوسائل المتاحة ضمن القوانين والأنظمة الناقدة، بالوسائل الآتية :

1 . تشجيع البحث في التراث بما فيه الدراسات التحقيقية والتحليلية والمقارنة .

2 . نشر نصوص تراثية محققة أو غير محققة باللغة الأصلية أو مترجمة إلى لغات أجنبية .

3. نشر الدراسات والبحوث في التراث، ووقائع الندوات والمؤتمرات والمحاضرات بكل وسائل النشر المتاحة مطبوعة أو الكترونية.
4. إصدار المجلات والدوريات العامة والمتخصصة المتعلقة بالتراث.
5. دعوة الباحثين في التراث من داخل الأردن وخارجه للمشاركة في نشاطات المركز.
6. تكوين مكتبة مختصة تعنى بالنصوص التراثية المحققة المنشورة وغير المنشورة.

ومن عناية المجمع بإحياء التراث أنه أعطى أهمية خاصة للتراث وتحقيقه، فقد أدرج عنواناً مستقلاً ومنفصلاً في كل عدد من أعداد مجلته يعنى بكتاب من كتب التراث، جمعاً وتصنيفاً وتحقيقاً وتحليلاً وتيسيراً ونشراً.

وبجدر بالإشارة هنا أن المجمع قد اصدر منذ تأسيسه مجموعة من المنشورات العلمية والثقافية، وهو يحرص على أن تكون منشوراته محققة لأهدافه التي نص عليها قانونه، وقد تنوعت مجالات منشورات المجمع العلمية والثقافية، بين ترجمة أمهات المصادر في العلوم التطبيقية، وإصدار مجلته بواقع عددين كل عام، وإصدار عدد من المصطلحات التي يقرها مجلس المجمع، ونشر كتب المواسم الثقافية التي يقيمها المجمع كل عام، ونشر بعض فهارس المخطوطات الموجودة في المكتبات العامة والخاصة في فلسطين المحتلة، وتحقيق بعض كتب التراث، ونشر بعض المؤلفات التي تعنى بقضايا اللغة العربية[40].

خامسا: الترجمة

لا يعيب أمة من الأمم أن تنقل المعرفة عن غيرها، لأن هذه المعرفة هي ملك الإنسانية كلها، ولم يحدث في التاريخ أن تصدرت أمة لقيادة أمم أخرى كل الوقت، بل هناك دائماً صعود وهبوط. وكان لامتنا دور في هذا الصعود والهبوط، فقد كانت يوماً مصدراً للمعرفة حتى دارت عليها الدوائر، ولعل ما يعيب الأمم حقاً هو ألَا تحاول الأخذ من منارات للمعرفة أينما كانت، وألا تحاول المساهمة فيها، والصعود مرة أخرى إلى درجة أعلى بين الأمم[41] لذلك تسعى جميع الأمم لنقل المعارف من اللغات الأخرى إلى لغتها عن طريق الترجمة ومنها الأمة العربية فقد كان لها باع طويل في مجال الترجمة ونقل العلوم إلى لغتهم.

والترجمة العربية لنص أجنبي تكون أحيانا ترجمة حرفية، فنقرأ الأسلوب فنحس أنه أسلوب أجنبي على الرغم من أنه مكتوب باللغة العربية.

وهناك أسلوب آخر من أساليب الترجمة، وهي الترجمة المعنوية، وهي أن يأتي المترجم أو الناقل إلى تفهم عبارة النص ويحصل معناها في ذهنه بالتعبير عن فحواها بالعربية بجملة تطابقها في المعنى، وإن لم تكن تساويها في عدد الكلمات، وبذلك يكون الناقل بهذه

الطريقة أكثر سداداً لأن المقصود في الترجمة ليست الألفاظ، وإنما الفكرة الدقيقة التي يريدها المؤلف الأصلي(42).

إن موضوع الترجمة يشكل رافداً مهماً للغة العربية، لذا يسعى المجمع دائماً إلى نقل أمهات الفكر العالمي إلى اللغة العربية منطلقاً من أهدافه في ضرورة دعم الترجمة. وقد صدر عن المجمع العديد من الكتب التي تم ترجمتها بدعم من المجمع وأكثرها من المنشورات المتعلقة بالعلوم الرياضية والتطبيقية والحيوية، واذكر منها(43):

1. حساب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية ج 1–ط2، تأليف ايرك و. سووكوفسكي، ترجمة د. أحمد سعيدان، د.أحمد علاونة، د. محمد عرفات النتشة، د. وليد ديب د.ديب حسين، د. حسن العزة، راجعه واشرف على إخراجه د. أحمد سعيدان، 1981م.
2. حساب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية ج2، تأليف ايرك و. سووكوفسكي، ترجمة د. أحمد سعيدان، د. أحمد علاونة، د. محمد عرفات النتشة، د. وليد ديب، د. ديب حسين، د. حسن العزة، راجعه وأشرف على إخراجه د. أحمد سعيدان، 1979م.
3. البيولوجيا ج1، تأليف ريتشارد أ. جولد سبي، ترجمة د. عدنان علاوي، د. حميد الحاج، د. أحمد الديسي، د. ناجي أبو رميلة، د. سامي عبد الحافظ، راجعه وأشرف على إخراجه د. عدنان علاوي، 1980م.
4. البيولوجيا ج2، تأليف ريتشارد أ. جولد سبي، ترجمة د.عدنان علاوي، د. حميد الحاج، د. أحمد الديسي، د.ناجي أبو رميلة، د. سامي عبد الحافظ، راجعه وأشرف على إخراجه د.عدنان علاوي، 1980م.
5. الجبر المجرد بطريقة التعليم الذاتي النشط، تأليف: نيل ديفدسون وفرانس جيوليك، ترجمة د. ديب حسين، مراجعة د. محمد عرفات النتشة، اشرف على إخراجه د. أحمد سعيدان، 1982م.
6. الجيولوجيا العامة، تأليف: روبرت ج. فوستر، ترجمة د. عبد القادر عابد، د. شاكر رسمي المقبل، د. سعد حسن الباشا، راجعه وأشرف على إخراجه د. عبد القادر عابد، 1980م.
7. الكيمياء العامة، تأليف: فريدريك ر. لونجو، ترجمة د. مروان كمال، د. عادل جرار، د. ربحي الزرو، د. سليمان سعسع، د. عدنان أبو صالح، راجعه وأشرف على إخراجه د. اسحق أحمد فرحان، 1981م.

8. الكيمياء الحيوية للخلية وعلم وظائفها، تأليف: ن أ. ادواردز، ك. أ. هسال، ترجمة وإخراج د. الياس بيضون، راجعه د.عدنان علاوي، 1986م.
9. الكيمياء غير العضوية ج1، تأليف: ج. أ ي هيوهي، ترجمة د. حمد الله الهودلي، د. منار فياض، راجعه واشرف على إخراجه د. عادل جرار، 1983م.
10. الكيمياء غير العضوية ج2، تأليف: ج. أ ي هيوهي، ترجمة د. حمد الله الهودلي، د. منار فياض، راجعه واشرف على إخراجه د. عادل جرار، 1983م.
11. الفيزياء الكلاسيكية والحديثة، المجلد الثاني، تأليف كينيث و. فورد، ترجمة د. همام غصيب، د. عيسى شاهين راجعه وأشرف على إخراجه د. همام غصيب، 1981م.
12. الفيزياء الكلاسيكية والحديثة، المجلد الثاني، تأليف كينيث و. فورد، ترجمة د. عمر الشيخ ود. محمود الكوفحي، د.عبد الجواد أبو الهيجاء، راجعه وأشرف على إخراجه د. عمر الشيخ، 1987م.
13. الفيزياء الكلاسيكية والحديثة، المجلد الثالث، تأليف كينيث و. فورد، ترجمة د. عمر حسن الشيخ و د. عيسى سليم شاهين، راجعه وأشرف على إخراجه د. عمر حسن الشيخ، 1985م.
14. مبادئ المعادلات التفاضلية وتطبيقاتها، مساق موجز، تأليف: وليم ر. ديرك، ستانلي غروسمان، ترجمة: د. أحمد سليم سعيدان راجعه د. محمد عرفات النتشة وأشرف على إخراجه السيد كمال عوض الله، 1984م.
15. مبادئ التحليل الرياضي. تأليف: أ. ج. مادوكس، ترجمة د. وليد ديب، راجعه علمياً د. محمد عرفات النتشة، اشرف على إخراجه السيد كمال عوض الله 1984م.
16. مقدمة للتكوين الجنيني، تأليف ستيفن ب. اوبنهايمر، ترجمة د. رمسيس لطفي، 1983م.
17. مقدمة للبصريات الكلاسيكية والحديثة، تأليف جيرجين. ماير ارندت، ترجمة د. عمر حسن الشيخ، راجعه د. أحمد سالم، اشرف على إخراجه د. عمر الشيخ، 1983م.
18. الكيمياء التحليلية، تأليف دونالد ج. بيتر زيك، وكلايد و. فرانك، ترجمة د. عبد المطلب جابر، د. سليمان سعسع، اشرف على إخراجه د. مروان كمال، 1984م.
19. الموجز في ممارسة الجراحة 4 ج، بيلي ولاف، ترجمة اثنين وأربعين من الأطباء الجراحين، وهيئة تحرير علمي، 1997م.

وقد خفت صوت الترجمة في المجامع اللغوية العربية عامة، ذلك أن التدريس لا يزال باللغات الأجنبية في معظم الأقطار العربية، ظناً (إن بعض الظن إثم) من المنتمين إلى العربية أن الانجليزية أو الفرنسية هي لغة العلوم ونسوا وتناسوا اللغة العربية يوم أن كانت لغة العالم في عصورها الزاهرة.

كان آنذاك الرازي من علمائها الأطباء. وأبو فراس الحمداني من شعرائها الفحول والمعتصم من خلفائها الفرسان، وخالد بن الوليد من قادتها البارزين، أما اليوم فأني لها ذلك.

لحق أبناءها اليوم الوهن، فهانوا، وكادوا أن يهينوا اللغة العربية معهم، ولكن أني لهم ذلك! والله سبحانه وتعالى القائل ومن اصدق من الله العليم قيلا (**إنا نحن نزلنا الذكر**) [44] (**بلسان عربي مبين**) [45] (**وإنا له لحافظون**) [46].

سادساً: المؤتمرات والندوات

عقد مجمع اللغة العربية الأردني عدداً من المؤتمرات اللغوية، وأقام العديد من الندوات العلمية، فقد احتضن المجمع المؤتمر السادس للتعريب[47]، وعقد مؤتمر اللغة العربية العالمي الأول عام[48] ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف ميلادية.

وضم مجمع اللغة العربية الأردني بين جنباته كثيراً من الندوات العلمية الثقافية. واذكر منها تاريخياً للمثال لا الحصر[49]:

- ندوة اللغة العربية: آراء وقضايا 1982.
- ندوة الرموز العلمية وأشكال الحروف العربية 1983.
- ندوة الازدواجية في اللغة العربية 1987.
- ندوة عمان «الرموز العلمية وطريقة أدائها باللغة العربية» 1987.
- ندوة منهجية وضع المصطلح العربي وسبل نشر المصطلح الموحد وإشاعته 1993.
- ندوة توحيد تعريب المصطلح الجيولوجي 1994.

* استضاف المجمع ندوة: «إشكالية تعريب المصطلح العلمي، ودور مجامع اللغة العربية وجمعيات الترجمة» التي دعت إليها جمعية المترجمين الأردنيين بتاريخ 21/ 10 / 2000م[50].
* واستقبل المجمع العديد من الزيارات الودية العلمية.

- كزيارة وفد معهد شنغهاي للدراسات الدولية إلى المجمع[51].

سابعا : التعاون والمشاركات

أقام مجمع اللغة العربية الأردني مجالات التعاون مع كثير من مجامع اللغة العربية ومن ذلك :
(التعاون بين مجمع اللغة العربية والمجمع الجزائري للغة العربية)[52] .

وقد أبلغني السيد رئيس المجمع الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة أن المجمع سيعقد بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المؤتمر الحادي عشر للتعريب في عمان بالأردن، احتفاءً بالذكرى الثلاثين لتأسيس المجمع.

وذلك في المدة الواقعة ما بين 12-16 شوال 1429هـ الموافق 12-16 تشرين الأول (أكتوبر) 2008م .

كذلك لم يكن مجمع اللغة العربية الأردني في معزل عن اللقاءات اللغوية، والمشاركات الأدبية، والاجتماعات العلمية.

إنما كان صاحب الحضور المتواصل الدءوب، بل هو السباق دوماً لهذه المشاركات، وإدلاء دلائه في جميع الجوانب ذات العلاقة باللغة العربية وتراثها القديم الطريف، والحديث الظريف.

وأسوق للقارئ الكريم بعضا من هذه المشاركات :

- مشاركة المجمع في الاجتماع الأول للجنة العليا للمصطلحات الطبية بالمركز العربي للوثائق والمطبوعات [53] .
- مشاركة المجمع في حفل افتتاح مجمع اللغة العربية بالسودان في عام 1993 [54] .
- مشاركة المجمع في مؤتمر التعريب السابع في الخرطوم عام 1994 [55] .
- مشاركة المجمع في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة للدورة الرابعة والستين في الفترة الواقعة ما بين التاسع والثالث والعشرين من آذار 1998 [56] .
- وقد شارك المجمع من قبل في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثانية والستين لعام 1996 [57] .
- وفي دورته الحادية والستين لعام 1995 [58] .
- مشاركة المجمع في ندوة تعريب المصطلح الطبي والذي عقدت في تونس [59] .
- مشاركة المجمع في المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق [60] .
- مشاركة المجمع في مؤتمر التعريب السادس وتوصياته بالرباط 1988 [61] .
- مشاركة المجتمع في ندوة قضايا إشكالية الفكر العربي في المعاصر التي عقدت في بغداد بدعوة من المجمع العلمي العراقي [62] .
- مشاركة المجمع في ندوة (دراسة مشروعات معاجم مؤتمر التعريب التاسع المنعقد في تونس [63] .

ثامنا : المجمع والمجتمع

لم يتقوقع مجمع اللغة العربية الأردني داخل قاعاته ومبانيه، لكنه خرج إلى الشارع ليتلاقى مع المجتمع المدني، ويحاوره ويرشده لتحقيق أهداف المجمع في التعريب، وإلغاء التسميات الأجنبية على المحال التجارية العامة.

وقد حقق المجمع في هذا المجال انتصاراً علمياً، وأحال كثيراً من المسميات الأجنبية إلى المسميات العربية– ولم يبق من أصحاب التسميات الأجنبية إلا قلة أبت أن تكون عربية، وأرادت لنفسها أن تكون تابعة لسيدها الأجنبي.

وقد خص المجمع ذلك بباب ضمن أعماله بداية نشأته وفي مجلته بعنوان: «التسميات الأجنبية على المحال التجارية العامة» (64).

تاسعا : المواسم الثقافية

شرع مجمع اللغة العربية الأردني بدءً من العام الثالث والثمانين من القرن الميلادي العشرين في إقامة المواسم الثقافية خلال شهور فصل الربيع من كل عام، وهي شهور آذار (مارس) ونيسان (أبريل) وأيار (مايو) وحزيران (يونيو).

وقد يستمر الموسم شهراً أو أكثر أو أقل، وذلك وفق الظروف المتعلقة بالعلماء المحاضرين وارتباطاتهم العلمية في بلدانهم.

وأيضاً تلك هي حالته في بدء الموسم فربما يكون البدء في آذار (مارس) وربما في نيسان (إبريل) وربما في أيار (مايو). وذلك كله عائد إلى ظروف المجمع.

يضم الموسم الثقافي مجموعة من المحاضرات العلمية، يشارك فيها العديد من أساتيذ اللغة العربية وآدابها وعلومها من جميع أقطار بلاد العرب.

وقد جاوزت هذه المحاضرات حتى تاريخه مائتين وخمسين محاضرة قيمه.

قام بتأديتها والسهر عليها قرابة مائتي محاضر من علماء الأقطار العربية.

وقد جمعت محاضرات جزء من هذه المواسم في كشاف، صدره الأستاذ رئيس المجمع بكلمة قيمة، أبان فيها عن منهج المجمع وإلقاء المحاضرات في هذه المواسم.

ويختار المجمع في كل عام محوراً عاماً تدور حوله مختلف البحوث والندوات، ويستمر الموسم الثقافي في عادة من شهر نيسان (إبريل) إلى شهر حزيران (يونيو) من كل عام.

فتلقى محاضرة في كل أسبوع، إذ يعرض المحاضر الأفكار الرئيسية من بحثه في مدى ساعة، ثم يعقب ذلك مناقشات وأسئلة وتعقيبات.

وقد حرص المجمع أن تكون هذه المحاضرات بحوثاً علمية موثقة يقوم بنشرها في كتاب يحمل اسم الموسم الثقافي، كي يكون مرجعاً علمياً للباحثين » [65].

وهذه نماذج من المحاضرات العلمية التي ألقيت في ته المواسم الثقافية:

في مجال التعريب واللغة العربية:

- دور المؤسسات السياسية والعلمية والإعلامية في التعريب [67].للأستاذ عبد الكريم خليفة
- اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي، وأساليب النهوض بها في الجزائر [68]. الأستاذ مولود قاسم نابت قاسم
- دور عضو هيئة التدريس في تعريب التعليم الجامعي [69].الأستاذ إحسان عباس
- تعريب العلوم الصحية، ضرورة حضارية [70]. الأستاذ أحمد شيخ السروجية.

–المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية [71]. الأستاذ أحمد شفيق الخطيب.

–دور وسائل الإعلام في إشاعة اللغة العربية الفصيحة [72]. للأستاذ احمد العناني.

–أثر اللغة الأجنبية في اللغة العربية في مراحل التعليم الجامعي [73]. الأستاذ محمد أمين عواد.

–اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية [74]. الأستاذ أنور الجندي.

–دور اللغة العربية في توحيد الأمة العربية ونهضتها [75]. الأستاذ عبد العزيز الدوري.

–دور المجامع اللغوية في الحياة العلمية العربية المعاصرة [76]. الأستاذ محمد أحمد سليمان.

في مجال الهوية الإسلامية

–هوية الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الإعلامي للأستاذ محمد الصرايره[77].

–هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحديات السياسية والثقافية والحضارية، [78] للأستاذ عبد الكريم خليفة.

–هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحدي العلمي والتقنيات الحديثة[79]، للأستاذ همام غصيب.

- مناهج الفقهاء وعلماء الأصول في اصطفاء مصطلحاتهم العلمية[80]. الأستاذ محمد فتحي الدريني.

في مجال الاقتصاد:

– الاقتصاد العربي الفلسطيني تحت الاحتلال اليهودي [81]، للأستاذ عبد الفتاح أبو شكر.

التاريخ:

– كتابة التاريخ عند العرب X الفكرة والمنهج [82]، الأستاذ عبد العزيز الدوري.

العمارة الإسلامية:

– العمارة الإسلامية وتخطيط المدن [83] الأستاذ رزق شعبان.

التراث العربي:

– تجربتي مع التراث العربي [84]، الأستاذ عبد السلام هارون.

– تكنولوجيا اللغة والتراث العربي اللغوي الأصيل [85]، الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح.

– دور المصطلحات العلمية التراثية في عملية التعريب المعاصرة[86]، الأستاذ محمد السويسي.

– المعاجم العربية القديمة [87]، الأستاذ إبراهيم السامرائي.

تعلُّم وتعليم وإملاء وترقيم:

– تيسير تعلم الإملاء والترقيم [88]، الأستاذ عدنان الدليمي.

– تيسير تعلم الخط العربي قي الأقطار العربية منذ أواخر العهد العثماني حتى الوقت الحاضر [89]، الأستاذ يوسف ذنون.

المصطلح وعلوم العربية:

–وضع المصطلح العربي في البلاغة والنقد والعروض، للأستاذ احمد مطلوب.

علم الكلام

–وضع المصطلح العربي في الفلسفة وعلم الكلام [91] الأستاذ حسن حنفي.

العلوم الإنسانية

– تعريب العلوم الإنسانية في الجامعات العربية[92]

الأستاذ عبد الكريم خليفة.

الثقافة

– المؤسسات الثقافية العربية (الجمعيات والنوادي والصحافة والأفلام..) في فلسطين تحت الاحتلال اليهودي الأستاذ تيسير جباره.

– طمس المعالم العربية والإسلامية وتهويدها في فلسطين[93] تحت الاحتلال اليهودي . الأستاذ عبد القادر .

الحاسوب

– دور الحاسوب في تعريب العلوم[95] الأستاذ محمود مختار .

الطب

– بين العبادي[96] والرازي[97] في تاريخ تراث العلوم الطبيعية ومصطلحاتها[98] الأستاذ سامي خلف حمارنه .

– وضع المصطلح العربي في التراث العلمي للطب والصيدلة والنبات[99] للأستاذ محمد صالحية .

– تجربة كلية طب الأزهر في تعريب العلوم الصحية[100] .الأستاذ سالم نجم .

التمريض :

– المشافي والتمريض في التراث الطبي الإسلامي [101] الأستاذ أكرم منيب الدجاني .

الرياضيات والهندسة :

– الرياضيات عند العرب [102]، الأستاذ احمد سعيدان .

– التجربة السورية في تعريب العلوم الهندسية [103]، الأستاذ وجيه السمان .

– العلوم والمعارف الهندسية في الحضارة الإسلامية [104]، الأستاذ جلال شوقي احمد شوقي .

الزراعة :

– التركيب والأعشاب في علم الفلاحة عند العرب [105]، الأستاذ محمد زهير البابا .

– تعريب تعليم الزراعة في الوطن العربي بين الواقع والتطلع[106] الأستاذ عبد الكريم خليفة .

عاشرا : مجلة المجمع ومكتبته

أ – البحوث والدراسات

شرع مجمع اللغة العربية الأردني في إصدار مجلة المجمع بدءً من عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية، حيث أصدر عدده الأول، وتواصلت المجلة في الصدور ما بين عدد مفرد وبين عدد مزدوج دون توقف ولا انقطاع حتى بلغت أربعة وسبعين عددا، وتعددت موضوعاتها من بحوث ودراسات وأشعار ستمائة موضوع، وقد شارك في موضوعات هذه المجلة أكثر من مائتين وخمسين باحثا .

وكنت واحدا من هؤلاء الباحثين(107)، وقد تقدم السيد رئيس المجمع الباحثين في مشاركاته العلمية في المجلة(108)، تلاه العلّامة العراقي المرحوم إبراهيم السامرائي(109).

وقد اصدر مجمع اللغة العربية الأردني كشافا لمجلته من العدد الأول الذي صدر سنة 1978م وحتى العدد السبعين الذي صدر في عام 2006م.

وأجتزئ نتفة من البحوث والدراسات التي تضمنتها مجلة المجمع:

* علم المصطلح للأستاذ العلامة عبد الكريم خليفة(112).
* الإدغام والإبدال في أبنية الفعل (دروس من لغة التنزيل) للأستاذ المرحوم العلامة العراقي إبراهيم السامرائي. (113).
* ديوان زمر بن الحارث الكلابي صنعة كاتب هذا البحث : رضوان محمد حسين النجار (114).

وقد تضمن كشاف المجلة العناوين الكاملة للبحوث والدراسات والأشعار، وهو حاضر في المكتبات وبين يدي الباحثين.

ب- الإعلام والتوعية (التقارير والتعاريف والتعازي)

قام المجمع بدوره الإعلامي والتوعوي عبر مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وذلك بنشر التقارير وثبت التعاريف وتقدير العلماء والباحثين عبر نعيهم إلى الجماهير العربية للترحم عليهم والاقتداء بعملهم العلمي الجاد المثمر.

ومن نماذج ذلك:

التقرير الصادر عن مؤتمر التعريب الخامس(115):

* رسالة إبلاغ رئيس المجمع بتأسيس مجمع اللغة العربية الليبي ونشرها في مجلة المجمع(116).
* تعيين الدكتور احمد شيخ سروجيه عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية الأردني(117).
* فوز مجمع اللغة العربية الأردني بأفضل كتاب مترجم إلى العربية (الموجز في ممارسة الجراحة) (118).
* توصيات المؤتمر السنوي لمجمع القاهرة في الدورة السابعة والخمسين لعام 1991م(119).

أقف عند العلماء والباحثين الذين قضوا نحبهم وأصبحوا في ذمة الله تعالى. هؤلاء الذين نعاهم المجمع عبر مجلته إلى العالم اجمع.

فمن واجبنا نحن الباحثين أن نقدر هؤلاء ولذا أثبتت أسماء الذين وردوا ضمن نعي المجمع لهم، حتى يعلم الآخرون من العلماء إخوانهم الذين مضوا قبلهم، ليترحموا عليهم فرحمة الله وسعت كل شيء(120).

وهم هجائيا :

المرحوم إبراهيم السامرائي[121] – إبراهيم مدكور– إحسان عباس– احمد سعيدان – احمد عبد الستار الجواري – إسحاق موسى الحسيني– أكرم زعيتر – ايميلو غاريثا غوفيت – جميل سعيد – حسني سبح – حسني فريز– ذوقان الهنداوي – روكس بن زائد العزيزي– شوقي ضيف – صفاء خلوصي – عبد السلام هارون– عبد الكريم زهور عدي – عبدالله كنون – عدنان الخطيب – علي نصوح الطاهر – عيسى الناعوري– قنديل شاكر – كوركيس عواد – محمد بهجة الأثري– محمد عبد الغني حسن – محمد مهدي علام – محمود إبراهيم – مولود قاسم نايت قاسم– ميخائيل عواد – نوري حموري القيسي .

ج– الكشافات والفهرسة

كلف المجمع المختصين بصنعة الكشافات المتعلقة بالموضوعات، وكذلك الفهرسة للكتب في المكتبات .

وهذا كشاف مجلة مجمع اللغة العربي الأردني، وقد قدم له أمين المكتبة محمد علي العناسوة، بمقدمة مفيدة أقطف منها قوله [122] :

إن «إعداد الكشافات يعتبر أحد أوجه السيطرة المرجعية على هذا الكم الهائل من مصادر المعلومات التي تظهر تباعاً في كل دقيقة، ولذا تسعى المؤسسات العلمية ومحررو الصحف والمجلات جاهدين إلى العمل على إصدار كشافات لما ينشر من كتب ودوريات، سواء بشكل مصنف، أم بشكل هجائي في رؤوس الموضوعات، والهدف من ذلك مواكبة الاتجاهات الحديثة ومواجهة الانفجار المعرفي » [123] .

وقد قام مجمع اللغة العربية الأردني بإصدار عدد من الكشافات والفهارس أذكر من الكشافات تاريخيا وهي :

- كشاف مجلة المجمع من صدور عددها الأول عام 1987 إلى صدورها عام 1982 . وقام بإعداده عمر حمادنة .
- كشاف مجلة المجمع من سنة 1983– 1984 قامت به فاتنة عرسان رشيد
- كشاف مجلة المجمع من العدد الأول حتى العدد الحادي والأربعين 1978– 1992 قام بإعداده محمد علي العناسوة وكذلك الكشافات اللاحقة .
- كشاف المواسم الثقافية لمجمع اللغة العربية الأردني من الموسم الثقافي الأول – الموسم الثقافي السابع عشر 1983– 1999 .
- كشاف مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – الأعداد 1– 70 للسنوات 1978 - 2006 .

واذكر من الفهارس تاريخياً أيضاً :

- فهرس مخطوطات فضائل بيت المقدس إعداد الدكتور كامل العسلي – 1981 .
- فهرس مخطوطات الحرم الإبراهيمي في الخليل إعداد الأستاذ محمود عطا الله – سنة 1983 . وكذلك أعد السيد محمود عطا الله الفهارس الآتية :

* فهرس مخطوطات المكتبة الأحمدية في عكا – سنة 1983
* فهرس مخطوطات مكتبة مسجد الحاج نمر النابلسي – سنة 1983 .
* فهرس مخطوطات المكتبة الإسلامية في يافا – سنة 1984 .
* فهرس مخطوطات كلية الدعوة وأصول الدين إعداد الدكتور أحمد العلمي– سنة 1986 .

المكتبة :

يضم مجمع اللغة العربية الأردني مكتبة ثرية بمقتنياتها المعرفية العلمية . وقد بلغ مجموع محتويات المكتبة المجمعية منذ نشأتها، أربعين ألفاً وثلاثمائة وستة وتسعين كتاباً ودورية ونشرة ورسالة جامعية .

ويعمل المجمع جاهداً على تطوير مكتبته ورفدها بالمصادر والمراجع في اللغة والآداب والتراث والعلوم . عبر رصد الميزانيات المادية السنوية لشراء الكتب، وعبر الاشتراك في كثير من الدوريات العربية والأجنبية .

وأيضاً عبر الإهداءات المكتبية من لدن العلماء أو محبي الخير قبل الوفاة أو بعدها (126) .

وقد قام محمد علي العناسوة عان 1998م بإعداد فهرس المخطوطات المحفوظة في مكتبة مجمع اللغة العربية الأردني .

العقبات والعوائق

واجهت المجامع اللغوية عقبات أعاقتها أحياناً عن أداء كامل مهامها .

ومن ذلك :

- عوائق عائدة إلى الناطقين بالضاد، كثيراً من الأحايين يقف العربي خجلاً أمام لغته، وهو يتكلم العربية، وبدع الألفاظ الأجنبية تعلو بين الحين والآخر لغة لسانه .
- وعوائق عائدة إلى المجامع الغوية نفسها . فهناك :

* الهوة بين الجماهير العربية المثقفة، وبين بعض أعضاء المجامع اللغوية .
* مجلات المجامع اللغوية فيما يتعلق بالكتابة والنشر حكر على أعضائها في أغلب الأحايين .
* مجلات المجامع اللغوية لا تتعدى حدود بلدانها .

* صدور المجلات سنوية أو نصف سنوية، والواجب صدورها فصلية على أبعد مدى، وإن الأفضل صدورها شهرياً.
* عدم وصول مجلات وأعمال المجامع إلى كل يد عربية.
* المجلات الثقافية المضادة للعربية والتعريب أوسع انتشاراً من مجلات المجامع، وأقل تكلفة وأرخص ثمناً وأكثر صدوراً. وهنا يبرز أهمية العامل الماديّ مما يجب على المسؤوليتين في الأقطار العربية إعطاء الأهمية لهذا الجانب الفعال.

وعوائق رئيسة أجنبية يساعدهم فيها المنتسبون إلى الأمة العربية.

ومن العوائق التي تواجهها اللغة العربية ، وينعكس أثرها على نشاطات المجامع اللغوية في الوطن العربي ، ومجمع اللغة العربية الأردني واحد منها أذكر:

1- التعريب:

إن الذين يفترون على اللغة العربية ويدعون أنها ليست لغة علم، فلا شك أنهم في ضلال من أمرهم، فاللغة العربية كانت عبر قرون عديدة لغة العلم والحضارة، عندما كانت الأمة في أوج قوتها. فالأولى بهؤلاء أن يشحذوا هممهم للنهوض بالأمة العربية من جديد، وعندها سيكتشفون أن اللغة العربية هي لغة عصر وعلم، فعدد الجذور في اللغة العربية يزيد على (16000) ستة عشر ألف جذر، بينما في اللغة السكسونية ما يزيد قليلاً على (2000) ألفي جذر، في حين لا تحتوي اللغة اللاتينية إلى على (800) ثمانمائة جزر،[127] ويجب على هؤلاء المناهضين للتعليم بالعربية أن يعوا أن العلم السليم في اللغة السليمة، وأنه إن لم تنهض بنا لغتنا وننهض بها، فلن تنهض بنا لغة الآخر، لذا فعليهم أن يصدقوا الانتماء لهذه اللغة ولهذا الأمة، وان يعربوا أنفسهم أولا، فتعريب الألفاظ لا يفيد إذا ما بقيت العجمة. (هي المسيطرة على العقلية، وإذا ما انسلخ الفرد تدريجياً عن المجموعة التي إليها ينتمي[128] ثم إن التجربة أكبر برهان للرد على هؤلاء المناهضين ، فقد أثبتت التجربة السورية ، صورة حقيقية ناصعة ومشرفة في تعريب التعليم، والإيمان بالانتماء العربي، وبضرورة رفع شأن اللغة العربية.

2- المصطلح:

إن التقدم العلمي والتقني في اليابان وكوريا لم يدفع أيا من البلدين لنسيان تراثه وقيمه وتاريخه ولغته ، بل زاده تمسكاً بها، ومع أنهم انفتحوا على الغرب إلا أنه انفتاح انتقائي ، وهذه حجة عملية على من يريد لنا أن ننسى لغتنا وقيمنا، وان ندخل في متاهات الثنائية اللغوية، أو ضلال الانسلاخ التام من لغتنا [129].

يجب ألا يكون عامل سيل المصطلحات المتدفق دائماً عائقاً بوجه التعريب، فليس من المفروض أن يجد أهل العلم عند المجامع والهيئات المعنية بالتعريب مصطلحاً جاهزاً لكل فكرة علمية دقيقة، أو كشف علمي جديد. وإنما يضع العلماء، هم أنفسهم اللفظ العلمي، وهم يستعينون بأهل اللغة في ذلك كلما دعت الحاجة إليه، ولو لم يكن الأمر كذلك لتأخرت مسيرة العلم في العالم المتقدم كثيراً (130).

إن عدم التوحيد ليس عقبة في درب التعريب، وان هذا مبالغة فليس عدم وحدة المصطلح بذاته هن العائق الحقيقي من ذلك هو ما يفتعله الذين لا يؤمنون بالقضية(131).

وربما يصلح التحدي الصهيوني الذي أحيا لغة ميتة، يحفز العرب بخاصة، والمسلمين بعامة إلى إن يوحدوا جهودهم مخلصين في دفع اللغة العربية، لتكون لغة العلم(132).

3- القرار السياسي:

المصطلح العلمي أداة البحث ولغة التفاهم وليس ثمة علم بدون قوالب لفظية تؤيده،(133) لذلك فنحن نحتاج إلى وجوب الاتفاق على مانعتقده نافعاً ومحققاً لغايات مما هو بين أيدينا من مقترحات عديدة، ووجوب الإلزام الصارم به. ولكون ذلك قضية ليست بيد الأفراد أو المنظمات في بلادنا .... فإن تطبيق مبدأ الالتزام يستوحي إصدار قرار سياسي بالدرجة الأولى، ويتطلب من ساسة الدول العربية وقادتها. دعم ما وصل إليه العلماء واللغويون والمجامع والجامعيون من نتاج، وتطبيق ذلك ليس بشكل مبعثر ومتفرق، ولكن بشكل موحد على الصعيد العربي(134).

وفي مقابل هذا يرى عيسى الناعوري أنه ليس للقرار السياسي في تعجيل تعريب التعليم العلمي الجامعي معنى على الإطلاق، إذ أن القضية، قضية كرامة قومية، وإيمان قومي، إنها من البديهيات التي لا تحتاج إلى أكثر من أن يشعر المسئولون بأنهم عرب، وان الجامعات عربية، وفي بلاد عربية، ويدرس فيها طلاب عرب لا أجانب، وهذا الشعور وحده كاف ليجعل اللغة العربية لغة التدريس لا سواها(135). وهذه حقيقة أن شعر بها كل فرد من موقع عمله وبدأ بها بنفسه، وعمل على تطبيقها، فلا حاجة عندها لقرار سياسي.

وتتساءل الدكتورة فاطمة محمد العليمات عن إمكانية التعريب أم استحالته سائلة وقائلة:

والسؤال الذي يطرح هنا، هل التعريب ممكن أم مستحيل؟

أقول ممكنا، وإذا قلت: كيف؟

أقول ببساطة هو حل المشاكل السابقة على أن نبدأ بالإيمان بالتعريب، ثم تعريب الكتاب، ولنكف عن تعليق قصورنا على شماعات الآخرين، ولنثق بلغتنا، ولنحتذي الآخر في تجارية بدلاً من أن نحتذيه في لغته، ذلك أن كثيراً من الأمم قد تقدمت بالرغم من تمزيق الاستعمار لها.

إن المتأمل في هذا الدعوات يجد أنها دعوات مغرضة تسعلا إلى طمس معالم اللغة العربية، والنيل من كيانها لتحل محلها العامية، لم لا واللغة العربية رمز وحدة الأمة العربية، وعنوان هويتها وتاريخ حضارتها المشرفة، وشعار انتمائها الثقافي.

4- الازدواجية:

إن الازدواجية تنشأ عن مزاحمة العامية للغة الفصحى، والازدواجية غير الثنائية ، إذ إن الثنائية تدل على الوضع اللغوي، في المجتمع الواحد، الذي يستعمل لغتين تختلف كل منهما عن الأخرى كالفرنسية والانجليزية في كندا.

وفي ضوء هذه المعطيات نجد في الوقت الحاضر ظهور بعض الدعوات التي تطالب بإعطاء العامية مساحة للحضور والظهور ومشاركة الفصحى حقها.

إن هذا يشير إلى وجود أعداء حقيقيين للغة العربية يتحدونها ويريدون النيل منها، ومن تحدياتهم ما ورد في تقرير قادة مجموعة الثماني تحت عنوان (تحديث اللغة العربي) في مؤتمرهم الذي عقد عام 2004 بشأن اللغة العربية، وقد قال هؤلاء المؤتمرون المتآمرون: «نحن قادة مجموعة الثماني ندرك أن السلام والتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشرق الأوسط الكبير يمثل تحديات تهمنا» ومما جاء في تقريرهم (136).

1- عدم تطوير اللغة العربية وعدم تحررها من أشكالها القديمة التي ظلت عليها منذ قرون، أدى فعلياً إلى صعوبة كبرى في استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى لهذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكرياً ممن يتحدث بها.

2- إن الإرهابيين الذين يتحدثون اللغة العربية وتتم ترجمة كلماتهم إلى الانجليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث، لأن ترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه مشكلات حقيقية نحن غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية.

3- إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها في الوقت الذي يستطيع أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الانجليزية والفرنسية.

4- العرب يتحدثون اللغات الأوربية مثل أهلها تماماً مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أي ظرف.

5- ندرك أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية وهو ما يجعل من الصعب بناء التواصل معهم أو معرفة دوافعهم النفسية.

6– إن صعوبة التقاء اللغة العربية مع اللغة الانجليزية كانت الدافع الرئيس وراء موجه الكره العربي لأمريكا وإسرائيل والشعور بالنقص والانتقام من الذين يتحدثون الانجليزية والفرنسية.

5– اللغة الأجنبية في اللغة العربية:

من المسلم به إن الإنسان العربي بحاجة إلى قدم راسخة في لغته الأم، ذلك أن اللغة تمثل هويته الدينية والفكرية والحضارية، وفقدان هذه اللغة يعني فقدان تلك الهوية وفقدان صاحبها، ولكن هناك لغات أخرى تزاحم هذه اللغة وتسعى دائما لتقف أمامها لتحول بينها وبين أبنائها، ومما يساعد على هذه المزاحمة بروز الحاجة إلى تعلم هذه اللغات لظروف مختلفة سياسية أو اقتصادية أو غيرها.

وبذا فلا مشكلة للغة العربية من تعليم اللغات الأجنبية في المرحلتين الأساسية العليا والثانوية بعد أن يصيبوا قسطاً من العربية الفصيحة، فقد دلت بعض الدراسات على إن إتقان الفرد للغته الأولى يسهل عليه تعلم اللغة الثانية، أما إذا تم تدريس اللغة الثانية جنباً إلى جنب مع اللغة الأم فإنه سيتعرض إلى الضرر نفسياً وذهنياً، لذلك فمن الخطأ فرض لغة أجنبية أداة للتدريس على التلميذ دون العاشرة، فكأنهم يفرضون عليه أن يعيش غير تاريخه وأن ينتسب إلى أجداد غير أجداده، وان ينتمي إلى غير فصيلته، إلى غير أمته، وان يتصرف بلسانه عكس منطق العفوية التي فطره الله عليها[137].

لم يقتصر تأثير اللغات الأجنبية على اللغة العربية عن طريق التعليم فقط، وإنما اتخذ هذا التأثير أشكالاً أخرى مختلفة، وقد بدأ الأثر منذ اليوم الأول لدخول النفوذ الأجنبي إلى قلب الأمة الإسلامية، إذ أخذ يتعقب اللغة العربية الفصحى في إصرار وموالاة ويطاردها حتى لا يدعها تلتقط أنفاسها، وهو حين يطاردها يحس بالانتقام من شيء أبعد من اللغة العربية، فكان مخططها إيقاف اللغة العربي، [138] فاللغة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالقرآن المقدس.

والحذر كل الحذر من مراكز تعليم اللغة العربية في جامعات فرنسا وبريطانيا وبرلين وغيرها، فالذين ذهبوا إليها شهدوا بأنها تنفر أبناء المسلمين غير العرب من تعليم العربية، وتردد قول المستشرقين والمبشرين في اتهامها بالجمود والعقم وبأنها لغة لا تصلح للحياة إلا لمجتمع بدوي، وأنها لا تساير الحياة الحضارية. [139] لذا فكثير من مستخدمي الأجنبية لا ينبعث موقفهم هذا من اعتقادهم بعجز العربية، بقدر ما هو إعجاب يصل إلى حد الاستسلام للحضارة الغربية التي توفر لهم تعويضاً لنقص يهجسون به، كما يعدون إتقان الأجنبية مميزا طبقياً يدل على المكانة الاجتماعية، فالقوي يعمل على إنتاج المعنى واحتكاره ، واللغة كأي منشط في الحياة تقوى بقوة أبنائها، وتضعف بضعفهم[140].

وقد أشار ابن حزم لهذا الملمح بقوله : «عن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم في مساكنهم ، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم. . . .

وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وذهاب علومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة(141).

ولعل هذا الأثر الخطير للغة الأجنبية على اللغة العربية هو ما دفع مجمع اللغة العربية الأردني إلى اقتراح مشروع قانون اللغة العربية، ورفعه إلى رئاسة الوزراء، ليصار إلى تطبيقه في شتى مناشط الحياة في الأردن، لتعزيز مكانة اللغة العربية في المؤسسات الرسمية والخاصة، وفي المؤسسات العلمية والتعليمية، وهذا المشروع في الحقيقة ينطلق من فلسفة وجود المجمع.

ولقد تضمن هذا المشروع الذي أقره مجلس المجمع بتاريخ 8/ 7/ 1990 المواد التالية(142):

المادة الأولى: يسمى هذا القانون (قانون اللغة العربية لسنة 1991) ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة الثانية: تلتزم الوزارات والدوائر الحكومية والمؤسسات الرسمية العامة والخاصة والبلديات والنقابات والجمعيات والمنظمات والمحلات التجارية وغيرها من المصالح والشركات والمصانع باستخدام اللغة العربية السليمة في تسمياتها وفي وثائقها ومعاملاتها والكتب الصادرة عنها.

المادة الثالثة: تلتزم المؤسسات التعليمية العامة والخاصة في كل مراحل التعليم العام والعالي والجامعي، باستخدام اللغة العربية السليمة لغة للتعليم والبحث العلمي، والحرص على تنشئة الطلبة على حسن التعبير بها لفظاً وكتابة.

المادة الرابعة: تلتزم وسائل النشر والإعلام جميعها، من صحافة وإذاعة وتلفزة باستخدام اللغة العربية السليمة نطقاً وكتابة في برامجها جميعها ومنشوراتها وإعلاناتها.

المادة الخامسة:

أ) **تسمى بأسماء عربية**:

1. المدن والقرى والمواقع.

2. المؤسسات التجارية والمالية والصناعية والعلمية والاجتماعية ومؤسسات الخدمات والترفيه والسياحة وغيرها من المؤسسات، بما في ذلك الشركات الأردنية التي تصنع منتجاتها بترخيص من شركات أجنبية.

3. المصنوعات والمنتجات الأردنية.

ب) يجوز للشركات العالمية التي أصبح لأسمائها أو أسماء منتجاتها أو مرافقها شهرة عالمية أن تحتفظ بالاسم الأجنبي بعد إضافته إلى اسم عربي.

المادة السادسة:

أ- تكتب باللغة العربية السليمة:

1. السجلات والوثائق والعقود والمعاهدات والاتفاقيات

2. البيانات والمعلومات المتعلقة بالمصنوعات والمنتجات الأردنية بما في ذلك المنتجات التي تصنع في المملكة بترخيص من شركات أجنبية.

يجوز أن ترافق ما هو منصوص عليه في الفقرة (أ) من هذه المادة ترجمة بلغة أجنبية على أن تكون العربية هي المعتمدة إلا إذا اتفق على غير ذلك فيما يتعلق بالعقود والاتفاقيات والمعاهدات.

المادة السابعة:

أ- تكتب باللغة العربية :

1- لافتات المؤسسات الأردنية الرسمية وغير الرسمية.

2- رؤوس أوراق المؤسسات الأردنية الرسمية وغير الرسمية ومطبوعاتها داخل الأردن وخارجه.

3- أوراق النقد والمسكوكات والطوابع والميداليات الأردنية.

4- العلامات التجارية التي تسجل في المملكة.

ب- يجوز أن تضاف إلى الكتابة العربية فيما هو منصوص عليه في الفقرة (أ) من المادة ما يقابلها بلغة أجنبية، على أن تكون اللغة العربية اكبر حجماً وأبرز مكاناً.

المادة الثامنة:

على الوزارات والدوائر والمؤسسات أن تستعين بمتمكنين من اللغة العربية كي تستوثق من سلامة العربية في رسائلها ووثائقها.

المادة التاسعة:

يعتمد مجمع اللغة العربية الأردني في وضع المصطلحات العلمية، والفنية وتلتزم برأيه الجهات المختصة.

المادة العاشرة:

يعاقب المخالف لأحكام هذا القانون بالعقوبات التالية:

1- إذا كان المخالف موظفاً ، وارتكب المخالفة في أثناء أدائه واجبات وظيفته فيعاقب، عند تكراره المخالفة على الرغم من التنبيه تحريراً، بإحدى العقوبات الانضباطية المنصوص عليها في التشريعات النافذة.

2– إذا كان المخالف غير موظف، سواء أكان شخصاً طبيعياً أم معنوياً، فينذر بإزالة المخالفة خلال مدة عشرين يوماً من تاريخ تبليغه بالإنذار وعند امتناعه بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دينار، وعند عدم إزالته المخالفة خلال مدة عشرة أيام من تاريخ تبلغه يعاقب بالغلق لحين إزالة المخالفة.

المادة الحادية عشرة:

تعطى الجهات المعنية من المؤسسات العامة والخاصة التي ينطبق عليها هذا القانون مدة سنة لتصحيح أوضاعها وفقاً لأحكام هذا القانون.

المادة الثانية عشرة:

يصدر مجلس الوزراء الأنظمة اللازمة لتنفيذ أحكام هذا القانون.

المادة الثالثة عشرة:

يلغى أي نص تشريعي يتعارض مع أحكام هذا القانون.

المادة الرابعة عشرة:

يجري الالتزام بهذا القانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة الخامسة عشرة:

رئيس الوزراء والوزراء مكلفون بتنفيذ أحكام هذا القانون.

ولكن مع الأسف فإنني قد علمت من رئيس المجمع الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة، أن هذا المشروع بقي في الظلام ، وانه لم ير النور لهذه اللحظة، راجية من الله أن ينفتق عنه هذا الظلام ليخرج إلى النور(143).

خلاصة القول: إن عشاق الأجنبية هم في الأغلب مرضى نفسانيون بحاجة إلى علاج، وإلا كيف يعدون ضربة وصفعة سيدهم الأجنبي على وجوههم وتحبه تقدماً وحضارة. أما عبارة السلام عليكم لم ينطقها العربي المسلم تحية وسلاماً، يعدونها تأخراً وتقهقراً ورجعية.

إن حال نماذج هؤلاء ، حال قوم كليم الله تعالى سيدنا موسى (عليه السلام) حين ساوموه على الإيمان فقالوا (فض الله أفواههم):

(يا موسى لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة) (144)

وأتباع اللغات الأجنبية لن يؤمنوا بالعربية لغة لهم حتى– يستغفر الله– لو رأوه جل وعلا.

لا لشيء إلا لكون العربية لغة الكتاب السماوي العظيم القرآن الكريم، الذي انزله الله جل وعلا على خاتم الأنبياء والمرسلين سيد الأنام؛ سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين).

وصدق الله العظيم في قوله الكريم: «**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**»(145)

وها نحن شرعنا في إتباع ملتهم عبر اللغات العبرية والانجليزية والفرنسية.

واستبدل أولئك العرب المرضى – (**قاتلهم الله أني يؤفكون**)[146] أذ بال الأجنبي (الذي هو أدنى)[146]

وفضلوها على رؤوس العربية وأهلها، أي (**بالذي هو خير**)[148]

وساق هؤلاء المرضى دليلهم: (**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى**)[149]

حقاً: (**تلك أمانيهم**)[150]

ولكن أنى لهم ذلك فلا بد من بقاء اللغة العربية وعلو شأنها دواماً بإذن الله تعالى.

يقول أعداؤها لأحبائها: (**هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**)[151]

فأجبنا أولئك المرضى، ونحن نتلو قول الله تعالى:

(**إنا نحن نزلنا الذكر**)[152]

وبأية لغة : (**بلسان عربي مبين**)[153]

وكيف: (**وإنا له لحافظون**)[154]

وإلى متى : (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين**)[155]

وختام هذا البحث العلمي علينا معرفة أن اللغة العربية عبر تاريخها تستوعب كل العلوم والفنون والمخترعات.

وعلينا واجب دحض آراء الأصوات الكارهة للتعريب والمحذرة من مخاطر وفق ادعاءاتها الواهية.

وعلينا أن نعلم أن اللغة العربية وميزتها وفضلها على جميع لغات العالم والعالمين.

حقاً : (**إنا أنزلناه قرآناً عربياً**).

وحقا: إن الذي ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره في الضاد

وألف ... ألف ... حقا ...

أهواك ياخير اللغات أوأعشق الضاد المبين
أهواك لا التغريب يمنعني ولا الحرف الهجين
لا للتآمر في حماك يريد قتل الياسمين
لا للذين يتبنون الغدر والحقد الدفين
يتآمرون على خطاك وأنت لي فجر اليقين
لغة رسالة ... ما أجل اسم الرسالة والأمين
نفدي الرسالة والرسول بما نسر وما نبين
ما غيرها حفظت شريعة ربنا طول السنين
قالوا: التأخر... قلت أنتم رمزه يا مترفين
إن الحضارة ها هنا الضاد منطقها المبين

(**والحمد لله رب العالمين**)

الإحالات والتعليقات :

1. سورة الفاتحة – الآية الكريمة رقم 1.
2. سورة الفاتحة – الآية الكريمة رقم 2.
3. سورة الشعراء – الآية الكريمة رقم 195.
4. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 285.
5. «ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه».

بعض الآية الكريمة رقم (85) – سورة آل عمران.

6. «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون» الآية الكريمة رقم (59) – سورة الحجر.
7. عبد الكريم خليفة : اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث - منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ص 88.
8. يتكون اتحاد المجامع العربية من قبل مجمع القاهرة – مجمع دمشق – مجمع بغداد.
9. الجريدة الرسمية الأردنية رقم 2634.
10. أنظر قرار : تشكيل لجان مشروع معجم ألفاظ الحياة العامة – مجلة المجمع – س23 –ع 56 (ك 2حزيران) 1999، ص 257- 258.
11. سورة الأحزاب – بعض الآية الكريمة 23.
12. أنظر مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – السنة الثامنة – العددان 25-26 تموز (جويليه) – كانون الأول (ديسمبر) 1984م – ص 7 .
13. راجع مبحثاً عن السيرة العلمية والعملية للسيد رئيس المجمع العلامة عبد الكريم عبد الرحمن خليفة المولود عام 1924 بمدينة السلط الأردنية في كتاب : أثر مجمع اللغة العربية الأردني في قضايا اللغة العربية (رسالة دكتوراه).
14. عبد الكريم خليفة: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني – 1998 م – ص 69.
15. عبد الحميد الفلاح العبادي: (في رحاب المجمع) مجلة المجمع – ع 27 – 1985 –ص 216 نقلاً (بتصرف) عن كتاب: أثر مجمع اللغة العربية الأردني للدكتورة فاطمة العليمات ص 44.
16. عبد الكريم خليفة: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث ص 120 (بتصريف).
17. فاطمة عليمات: أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 49 .
18. كارم السيد غنيم: اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة – القاهرة – مكتبة ابن سينا – 1990 – ص71 (بتصرف).
19. أثر مجمع اللغة العربية – ص 50 وما بعدها.
20. عبد الكريم خليفة: اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث – ص 151 وما بعدها (بتصرف).
21. المصدر السابق – ص 153 وما بعدها.
22. التقرير السنوي الثالث والعشرون – 1999 – ص 22-23.
23. راجع: فاطمة العليمات: أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 54.
24. عبد الرءوف خريوش – حركة التعريب في الأردن –عمان- سنة 2002 – ص 43.
25. راجع: تعليمات دعم التأليف والترجمة والنشر في المجمع. مجلة المجمع- السنة العاشرة – العدد 30 (ك 2 - حزيران)– 1986. ص 252

وأيضاً: إنشاء صندوق لدعم التأليف العلمي. مجملة المجمع – السنة التاسعة – العدد 27-28 (ك 2 - حزيران) 1985 – ص 236.

26.مجلة المجمع – السنة 14 – العدد 39- (تموز – ك 1) 1990- ص 361.

27. العليمات: أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 116 وما قبلها (بتصرف).

28. شحاذة ألخوري، دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب – دمشق 1996 م - ج 2- ص 97.

29. مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية ط 2، دمشق -مطبوعات المجمع العلمي العربي 1995م.

30. أنظر أحمد عيسى، التهذيب في أصول التعريب – ط1 – القاهرة مطبعة مصر 1923م – ص 131- 143.

31. انظر عبد المنعم الكاروري، التعريب في ضوء علم اللغة المعاصرة، الخرطوم – دار الخرطوم للنشر 1986م – ص 279-280.

32. تعريب المصطلحات: مجلة المجمع – س 15 –ع 40 (ك 2 - حزيران) 1991 م – ص 234

وقد خص المجمع : الموسم الثقافي الخامس عشر سنة 1997 م للتعريب في الوطن العربي.

33. التقرير السنوي – 2005 – منشورات المجمع، 26.

34. مجلة اللسان العربية – مصدر سابق – 337.

35. مجلة اللسان العربي- مصدر سابق – 339- 340.

36. أنظر مثلا عبد الرزاق القزاز وأحمد شفيق الخطيب، تصويبات لبعض المصطلحات الزراعية – مجلة المجمع – ع 23 -24 _215 – 1984 وما بعدها.

37. عادل جرار – الموسم الثقافي 15.

38. أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 74.

39. التقرير السنوي – 2005 – 47-48 .

40. أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 121.

41. كارم السيد غنيم – اللغة العربية والصحوة العلمية – مكتبة ابن سينا – 1990م – ص 159.

42. المصدر نفسه – 88.

43. أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 122- 123.

44. سورة الحجر – بعض الآية الكريمة 59.

45. سورة الشعراء – الآية الكريمة 195.

46. سورة الحجر – بعض الآية الكريمة 59.

47. مجلة المجمع – س 12 – ع 24 – (ك 2 – حزيران) 1988 – ص 315 – عن كشاف المجلة رقم 445 – ص 102.

48. المصدر السابق – ص 315. كشاف المجلة رقم 446 – ص 103.

49. راجع – كشاف مجلة المجمع اللغة العربية الأردني – ص 107.

50. أنظر مجلة المجمع – س24 –ع 59 (تموز – ك1 2000 م) – ص 266.

51. مجلة المجمع : س 28 – ع 66 (ك 2 – حزيران) 2004 م – ص 253.

52. مجلة المجمع : س 23 – ع 57 (تموز – ك 1) 1999 م – ص 240 – كشاف المجلة رقم 396 – ص 93.

53. مجلة المجمع : س 24 – ع 59 – (تموز – ك 1) – 2000 م – ص 266.

54. مجلة المجمع : س 17 – ع 44 – (ك2 – حزيران) – 1993 م – ص 384.

55. مجلة المجمع : س 18 – ع 46 – (ك2 – حزيران) – 1994 م – ص 238.

56. مجلة المجمع : س 22 – ع 54 – (ك 2 - حزيران) – 1998 م – ص 247.

57. مجلة المجمع : س 20 – ع 50 – (ك 2 - حزيران) – 1996 م – ص 245.
58. مجلة المجمع : س 19 – ع 48 – (ك 2 - حزيران) 1990 م – ص 349.
59. مجلة المجمع : س 18 – ع 42-43 – (ك 2 – ك1) 1992 م –403.
60. مجلة المجمع : س 28 – ع 67 – (تموز – ك 1) 2004 م – ص 272.
61. مجلة المجمع : س 12 – ع 35 – (تموز – ك 1) 1988 م – ص 395.
62. مجلة المجمع : س 18 – ع 46 – (ك 2- حزيران) 1994 م – ص 242.
63. مجلة المجمع : س 19 – ع 49 – (تموز – ك 1) 1990 م – ص 228.
64. مجلة المجمع : س 2 – ع 3-4 – (ك 2 - نيسان) 1979 م – ص 196-197 وكشاف المجلة رقم 394 - ص 93.
65. كشاف المواسم الثقافية لمجمع اللغة العربية الأردني (الموسم الأول 1983 – الموسم السابع عشر 1999) إعداد : محمد علي العناسوة – عمان – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني 1421 هـ - 2000 م – ص 7.
66. المرجع السابق – ص 9.
67. الموسم الثقافي التاسع (27 نيسان–26 أيار) 1991.
68. الموسم الثقافي السادس (19أذار – 09 نيسان) 1988.
69. الموسم الثقافي الرابع (05 نيسان – 3 أيار) 1986.
70.الموسم الثقافي السابع (13 أيار – 3 حزيران) 1989.
71. الموسم الثقافي الخامس عشر (03 أيار – 07 حزيران) 1997. وقد شارك الأستاذ أحمد شفيق الخطيب في الموسم الثقافي الأول (02 نيسان – 28 أيار) 1983 _ بمحاضره موسومة بعنوان: حول المعجم العربي الحديث.
72. الموسم الثقافي الخامس (21 آذار – 18 نيسان) 1987.
73. الموسم الثقافي السادس (19 آذار – 9 نيسان) 1988.
74. الموسم الثقافي الخامس (21 آذار – 18 نيسان) 1987.
75. الموسم الحادي عشر 1993 م.
76. الموسم الثاني – 1984م.
77. الموسم الثقافي العاشر (18 نيسان -9 أيار) 1992.
78. المصدر السابق عينه.
79. الموسم الثقافي الأول (2 نيسان – 28 أيار) 1983.
80. الموسم الثقافي الثاني عشر (2 نيسان – 7 أيار) 1994.
81. كتاب الموسم الثقافي الثالث عشر (15 نيسان – 20 أيار) 1995- ص 69-118.
82. الموسم الثقافي الخامس (21 آذار -18 نيسان) 1987.
83. الموسم الثقافي الثالث (13 نيسان -11 آيار) 1985.
84. الموسم الثقافي الأول (2 نيسان – 28 أيار) 1983.
85. الموسم الثقافي الثاني (5 أيار -26 أيار) 1984.
86. الموسم الثقافي الحادي عشر (10 نيسان – 8أيار) 1993.
87. الموسم الثقافي الأول (2 نيسان – 28 أيار) 1983م.
88. الموسم الثقافي السادس عشر (25 نيسان – 6 حزيران) 1998.
89. المصدر السابق نفسه.

90. الموسم الثقافي السابع عشر (15 أيار – 05 حزيران) 1999.
91. الموسم الثقافي الثاني عشر (2 نيسان – 7 أيار) 1994.
92. الموسم الثقافي الرابع (5 نيسان – 3 أيار) 1986.
93. الموسم الثقافي الثالث (15 نيسان – 20 أيار) 1985.
94. الموسم الثقافي الثالث عشر (15 نيسان – 20 أيار) 1995.
95. الموسم الثقافي الرابع(5 نيسان – 3 أيار) 1986.
96. ألعبادي أبو زيد حنين بن إسحاق – ت 260 هـ.
97. الرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا – ت 311 هـ .
98. الموسم الثقافي الثالث(13 نيسان – 11 أيار) 1985.
99. الموسم الثقافي الثاني عشر (2 نيسان – 7 أيار) 1994.
100. الموسم الثقافي السابع (13 أيار – 3 حزيران) 1989.
101. الموسم الثقافي الخامس (21 أذار – 18 نيسان) 1987م.
102. الموسم الثقافي الثالث (13 نيسان – 11أيار) 1985.
103. الموسم الثقافي الثامن(12 أيار – 09 حزيران) 1995.
104. الموسم الثقافي الثامن(12 أيار – 09 حزيران) 1995.
105. الموسم الثقافي الرابع (5 نيسان – 3أيار) 1986.
106. المرجع السابق نفسه.
107. كشاف المجلة – الرقم 157 – ص 46.
108. بحوثه – أطال الله عمره- من الرقم 246 حتى الرقم 279 كشاف المجلة، ص 64-70.
109. بحوثه – رحمة الله تعالى- من الرقم 02 حتى الرقم 33 . كشاف المجلة ، ص 15- 21.
110. كشاف مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. إعداد: أمين المكتبة السيد محمد علي العناسوة– عمان – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني – 2007 م – ص 5 .
111. المرجع نفسه و الصفحة عينها.
112. مجلة المجمع – س 11 – ع 32 (ك 2 – حزيران) 1987 م – ص 359.
113. مجلة المجمع – س 20 – ع 50 (ك 2 – حزيران) 1996 م – ص 11- 28.
114. مجلة المجمع – س 11 – ع 32 (تموز – ك 1) 1987 م – ص 215 - 282.
115. مجلة المجمع – س 9 – ع 28-29، (تموز – ك 1) 1985 م – ص 279 وما بعدها.
116. مجلة المجمع – س 18 – ع 46 (ك 2 – حزيران) 1994 م – ص 244.
117. مجلة المجمع – س 10 – ع 30 (ك 2 – حزيران) 1986 م – ص 252.
118. مجلة المجمع – س 23 – ع 56 (ك 2 – حزيران) 1999 م – ص 255.
119. مجلة المجمع – س 15 – ع 40 (ك 2 – حزيران) 1991 م – ص 228.
120. قال الله تعالى: «ورحمتي وسعت كل شئ».
سورة آلا عراف- الآية الكريمة 156.
121. أنظر كشاف المجلة – ص 91 وما بعدها.
122. كشاف مجلة المجمع –ص 6 وما بعدها.

123. العناسوة – كشاف المجلة – ص 8.
124. كشاف المجلة : ص 6.
125. كشاف المجلة : ص 6.
126. راجع (تصريف) : أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 29 30.
127. محمود حافظ اللغة العربية ووسائل النهوض بتا في مصر، ع 87 ، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، 2000 ، 116.
128. محمد سويسي ، خواطر وضع اللغة العربية ، اللسان العربي ، السنة 14 ، 1976، 177.
129. المصدر نفسه، 19.
130. جميل الملائكة، الصعوبات المفتعلة على درب التعريب، ع 30، مجلة المجمع الأردني، 27.
131. جميل الملائكة، مصدر سابق، 29 – 30.
132. عبد المجيد نصير – الموسم التاسع- 1991م.
133. إبراهيم مدكور ، مصدر سابق ، 9.
134. كارم السيد غنيم ، مصدر سابق، 113.
135. عيسى الناعوري، لماذا تتجمد لغتنا وتزدهر لغات الآخرين ، الدوحة، 99، 1984.
136. مرزوق بن صنيتان بن تنباك: الموسم الثقافي الثالث والعشرون سنة 2005، عمان – مجمع اللغة العربية الأردني – ص 84 – نقلاً عن كتاب: أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 148 – 149.
137. كمال يوسف الحاج – فلسفة اللغة – دار النشر للجامعيين – الطبعة الأولى – ص 146.
138. أنور الجندي: اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية – الموسم الثقافي الخامس – سنة 1987 – ص 31 وما بعدها.
139. المرجع نفسه – ص 43.
140. عيسى عودة برهومة: مثل من انتشار الأسماء الأجنبية في اللافتات التجارية في الأردن. – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – 2005 – ص 86.
141. ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام – بيروت – دار الأفاق الجديدة – 1983 – ج 1 – ص 31.
142. مشروع قانون اللغة العربية، ع 39، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، 1990، 345 – 348.
143. فاطمة العليمات – أثر مجمع اللغة العربية الأردني – ص 162 وما قبلها.
144. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 55.
145. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 120.
146. سورة التوبة – بعض الآية الكريمة 30.
147. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 61.
148. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 61.
149. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 111.
150. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 111.
151. سورة البقرة – بعض الآية الكريمة 111.
152. سورة الحجر – بعض الآية الكريمة 09.
153. سورة الشعراء – الآية الكريمة 195.
154. سورة الحجر – بعض الآية الكريمة 09.
155. سورة التكوير – ختام السورة الكريمة – الآية رقم 29.

مكتبة البحث

* **البابا محمد زهير**

- التركيب والأنشاب في علم الفلاحة عند العرب

- الموسم الرابع – عمان -1986م.

* **برهومة، عيسى عودة:**

- اللغة والتواصل الإعلامي مثل من انتشار الأسماء الأجنبية في اللافتات التجارية في الأردن. مجلة المجمع – عمان –عدد 69-سنة 2005.

* **بن تنباك، مرزوق بن صنيتان:**

- الموسم الثالث والعشرون المجمع – عمان – 2005م .

* **جبارة تيسير:**

- المؤسسات الثقافية العربية في فلسطين الموسم الثالث – عمان -1985 م.

* **جرار عادل** المجمع- عمان – 1985م:

- الموسم الخامس عشر. المجمع – عمان 1997 م.

* **الجريدة الرسمية:**

- الجريدة الرسمية للمملكة الأردنية الهاشمية – عمان – ع 2634 -1976م.

* **جزاز عبد الرزاق** (مع آخر):

- تصويبات لبعض المصطلحات الزراعية – مجلة المجمع –ع 23-24 –سنة 1984 م.

* **الجندي، أنور:**

- اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية – الموسم الخامس – عمان -1987 م.

* **الحاج صالح عبد الرحمن:**

- تكنولوجيا اللغة والتراث العربي اللغوي الأصيل – الموسم الثاني – عمان -1984 م.

* **الحاج كمال يوسف:**

- فلسفة اللغة – بيروت – دار النشر للجامعيين – ط1 -1956 م.

* **حافظ محمود:**

- اللغة العربية ووسائل النهوض بها في مصر – مجلة المجمع – القاهرة -2000م – الموسم السادس –عمان - 1988 م.

* **ابن حزم:** (ت 466هـ)

- الإحكام في أصول الأحكام – بيروت دار الآفاق الجديدة -1983 م – الجزء الأول.

* **حمارنة، سامي خلف:**

- بين العبادي والرازي في تاريخ تراث العلوم الطبية – الموسم الثالث –عمان -1985م.

* **حنفي حسن:**

- وضع المصطلح العربي في الفلسفة وعلم الكلام – الموسم الثاني عشر – عمان -1994م.

* **خربوش عبد الرءوف:**

- حركة التعريب في الأردن – عمان -2002 م.

* **الخطيب أحمد شفيق** (مع آخر):
- تصويبات لبعض المصطلحات الزراعية – مجلة المجمع –ع 23-24 – سنة 1984 م.
- حول المعجم العربي الحديث – الموسم الأول – عمان – 1982 م.
- المواصفات المصطلحية وتطبيقاتها في اللغة العربية – الموسم الخامس عشر –عمان -1997 م.

* **خليفة عبد الكريم:**
1. تعريب تعليم الزراعة في الوطن العربي بين الواقع والتطلع – الموسم الرابع – عمان – 1986 م.
2. تعريب العلوم الإنسانية في الجامعات العربية – الموسم الرابع – عمان – 1986 م.
3. دور المؤسسات السياسية والعلمية والإعلامية في التعريب – الموسم التاسع – عمان – 1991 م.
4. علم المصطلح – مجلة المجمع – س11 – ع 32 (ك ح - حزيران) 1987 م.
5. اللغة العربية أساس نهضة أمتنا ووحدتها – مجلة المجمع –ع 25 – سنة 1987 م.
6. اللغة العربية التعريب في العصر الحديث – عمان – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني – 1998 م.
7. هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحديات السياسية والثقافية والحضارية – الموسم العاشر – عمان 1992 م.

* **ألخوري شحاذة:**
- دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب – دمشق – 1996 م.

* **الدجاني أكرم منيب:**
- المشافي والتمريض في التراث الطبي الإسلامي – الموسم الخامس – عمان -1987 م.

* **الدريني محمد فتحي:**
- مناهج الفقهاء وعلماء الأصول في اصطفاء مصطلحاتهم العلمية – الموسم الثاني عشر – عمان – 1994 م.

* **الدليمي عدنان :**
- تيسير تعلم الإملاء والترقيم – الموسم السادس عشر – عمان – 1998 م.

* **الدوري عبد العزيز:**
- دور اللغة العربية في توحيد الأمة العربية ونهضتها – الموسم الحادي عشر - عمان - 1993م.
- كتابة التاريخ عند العرب، الفكرة والمنهج – الموسم الخامس – عمان 1987 م.

* **ذنون يوسف:**
- تيسير تعلم الخط العربي في الأقطار العربية – الموسم السادس عشر – عمان – 1998م.

* **السامرائي إبراهيم:**
- الإدغام والإبدال في أبنية الفعل (من دروس التنزيل) - مجلة المجمع – عمان – 1996م – س20 – ع 50 (ك 2 – حزيران).
- المعاجم العربية القديمة – الموسم الأول – عمان – 1983 م.

* **السروجية أحمد شيخ:**
- تعريب العلوم الصحية ضرورة حضارية – الموسم الخامس عشر – عمان – 1997 م.

* **سعيدان أحمد:**
- الرياضيات عند العرب – الموسم الثالث – عمان – 1985 م.

* **سليمان محمد أحمد :**
- دور المجامع اللغوية في الحياة العلمية العربية المعاصرة – الموسم الثاني – عمان – 1984 م.

* **السمان وجيه:**
- التجربة السورية في تعريب العلوم الهندسية – الموسم الثامن – عمان – 1995 م.

* **السويسي محمد:**
- خواطر حول وضع اللغة العربية – مجلة اللسان العربي– الرباط – السنة 14– 1976 م.
- دور المصطلحات العلمية التراثية في عملية التعريب والمعاصرة – الموسم الحادي عشر – عمان – 1993 م.

* **شاهين عبد الصبور:**
- العربية لغة العلوم والتقنية – دار الإصلاح للنشر – ط1 – 1983م.
- قدرة العربية على استيعاب علوم العصر – 1985م.

* **شعبان رزق:**
- العمارة الإسلامية وتخطيط المدن – الموسم الثالث – عمان – 1985 م.

* **أبو شكر عبد الفتاح:**
- الاقتصاد العربي الفلسطيني تحت الاحتلال اليهودي – الموسم الثالث عشر – عمان – 1995 م.

* **الشهابي مصطفى:**
- المصطلحات العلمية في اللغة العربية – المجمع العلمي العربي – دمشق – الطبعة الثانية -1995م.

* **شوقي جلال شوقي أحمد:**
- الموسم الثامن – عمان – 1990 م.

* **صالحيه محمد :**
- وضع المصطلح العربي في التراث العلمي للطب والصيدلة والنبات – الموسم الثاني عشر – عمان – 1994 م.

* **الصرايره محمد :**
- هوية الأمة الإسلامية في مواجهة التحدي الإعلامي– الموسم العاشر– عمان– 1992 م.

* **الصيادي محمد:**
- التعريب وتنسيقه في الوطن العربي – بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية – الطبعة الثانية – 1982 م.

* **العبادي عبد الحميد الفلاح:**
- في رحاب المجمع – مجلة المجمع – عمان – ع 27 – 1985 م.

* **عباس إحسان:**
- دور عضو هيئة التدريس في تعريب التعليم الجامعي– الموسم الرابع –عمان– 1986 م.

* **عبد القادر حسن:**
- طمس المعالم العربية والإسلامية وتهويدها في فلسطين – الموسم الثالث عشر – عمان – 1995 م.

* **العليمات فاطمة محمد:**
- أثر مجمع اللغة العربية الأردني في قضايا اللغة العربية – عمان – طبع بدعم من وزارة الثقافة – 2008 م.

* **العناسوة محمد علي:**
- كشاف مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – الأعداد (1-70) للسنوات (1978 – 2006م) عمان – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني – 2007 م.
- كشاف المواسم الثقافية لمجمع اللغة العربية الأردني – الموسم الأول – الموسم السابع عشر (1983 – 1999) – عمان – منشورات مجمع اللغة العربية الأردني – 1421هـ/ 2000 م.

* **العناني أحمد:**
- دور وسائل الإعلام في إشاعة اللغة العربية الفصيحة – الموسم الخامس – عمان – 1987 م.

* **عيسى أحمد:**
- التهذيب في أصول التعريب – القاهرة – مطبعة مصر – الطبعة الأولى -1923 م.
عواد محمد أمين:
- أثر اللغة الأجنبية في اللغة العربية في مراحل التعليم الجامعي – الموسم السادس – عمان – 1988 م.
* **غصيب همام:**
- هوية الأمة العربية الإسلامية في مواجهة التحدي العلمي والتقنيات الحديثة – الموسم الأول – عمان – 1983 م.
* **غنيم كارم السيد:**
- اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة – القاهرة – مكتبة ابن سينا – 1990 م.
* **الكاروري عبد المنعم:**
- التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر – الخرطوم – دار الخرطوم للنشر – 1986 م.
* **مجلة اللسان العربي** - الرباط – ع 7 – 1970 م.
* **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني** – عمان – منشورات المجمع – جميع الأعداد.
* **مجمع اللغة العربية الأردني:**
- الرموز العلمية وطريقة أدائها باللغة العربية–اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية– ندوة عمان – 1987 م.
- مشروع قانون اللغة العربية – مجلة المجمع – ع 39 .
- مشروع المعجم العربي الموحد لألفاظ الحياة العامة – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – ع 55 – 1998 م.
- معجم ألفاظ الحياة العامة في الأردن – عمان – الأردن – 2005 م .
- ندوة الازدواجية – مجلة المجمع – ع 32 – 1987 م.
* **مختار محمد:**
- دور الحاسوب في تعريب العلوم – الموسم الرابع – عمان – 1986 م.
* **مدكور إبراهيم**
- لغة العلم المعاصر – مجلة المجمع – ع 30 – 1986 م .
* **مطلوب أحمد:**
- وضع المصطلح العربي في البلاغة والنقد والعروض – الموسم السابع عشر – عمان– 1999 م.
* **الملائكة جميل:**
- الصعوبات المفتعلة على درب التعريب – مجلة المجمع – 30 – 1986م.
* **مولود قاسم نايت بلقاسم:**
- اللغة العربية في مؤسسات التعليم العام والعالي أساليب النهوض بها في الجزائر– الموسم السادس – عمان – 1988 م.
* **الناعوري عيسى:**
- لماذا تتجمد لغتنا وتزدهر لغات الآخرين - الدوحة - 1984 م.
* **النجار رضوان محمد حسين:**
- ديوان زفر بن الحارث الكلابي (جمع ودراسة وتحقيق) – مجلة المجمع – س 11 – ع 33 (تموز – ك 1) – 1987 م .
* **نجم سالم :**
- تجربة كلية طب الأزهر في تعريب العلوم الصحية – الموسم السابع–عمان– 1989م.
* **نصير عبد المجيد:**
- التعريب ضرورة تنموية – الموسم التاسع – عمان – 1991 م.
* **هارون عبد السلام:**
- تجربتي مع التراث العربي – الموسم الأول – عمان – 1983 م.

دور منظمة الصحة العالمية وبرنامجها العربي
في النهوض باللغة العربية

د. قاسم سارة – مصر–

ملخص البحث

سنتعرض في هذه العجالة إلى ما حققه البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية، وهو برنامج عالمي يستضيفه المكتب الإقليمي لشرق المتوسط في المنظمة منذ الثمانينيات من القرن المنصرم، بالتعاون مع اتحاد الأطباء العرب، ومع مجلس وزراء الصحة العرب والمجامع اللغوية في البلدان العربية والاتحادات المهنية الصحية من الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة والممرضات والجامعات ومعاهد التعليم للعلوم الصحية والمجامع اللغوية ومنظمات المجتمع المدني ودور النشر المهتمة بإِحياء اللغة العربية وبإِغناء المصطلحات العلمية وبتوطين التكنولوجيا الصحية في البلدان العربية.

وقد حُدِّدت الوظائف الرئيسية للبرنامج منذ نشأته بتقديم صورة صحيحة وواضحة للقارئ العربي عن منظمة الصحة العالمية وجهودها في النهوض بالوضع الصحي في العالم، من خلال نقل الوثائق الأساسية للمنظمة وعرض أنشطتها باللغة العربية، إلى جانب تلبية احتياجات البلدان من المعلومات المستجدة والموثقة في شتى المجالات الصحية، سواء صدرت عن المقر الرئيسي للمنظمة في جنيف، أم عن المكاتب الإقليمية المنتشرة في أرجاء العالم، أم عن الوكالات الشقيقة أم عن البرامج التقنية المتخصصة بالشؤون الصحية التي تهم البلدان العربية، أم عن الأوساط الأكاديمية في شتى بلدان العالم، وذلك بإِصدار الكتب والدلائل الإرشادية والتدريبية للعاملين الصحيين، والاهتمام بالمعايير والمواصفات القياسية والتسميات والتصنيفات الموحّدة للأمراض وللعوامل المسببة لها، وللمصطلحات، عن طريق متابعة إصدار المعجم الطبي الموحد والمعجمان المتخصصة المستفردة منه، وبناء وتطوير قواعد المعطيات للمصطلحات الصحية، وللتصنيف الدولي للأمراض، وطباعة وتوزيع الكتب العربية المترجمة أو المؤلفة بالعربية ولاسيما سلسلة الكتاب الطبي الجامعي، وإقامة الدورات التدريبية للمحاضرين والمترجمين والمصطلحيين، والتنسيق بينهم من خلال شبكة لتعريب العلوم الصحية وخدمة التراسل الإلكتروني لها.

كما عمل البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية على إرساء الأسس للتعليم الطبي باللغة العربية، واعتماد خطة عمل واضحة تبدأ بتعريب تعليم بعض المقرَّرات التي تمس المجتمع المحلي في البلدان العربية أكثر من غيرها مثل الطب الشرعي، وطب المجتمع، والطب النفسي، والغذاء والتغذية، وتاريخ الطب، والإدارة الصحية، وعلم الأدوية السريري، وطب النساء والتوليد،

وتمريض صحة المجتمع، وبعض المقرَّرات في العلوم الأساسية مثل البيولوجيا، والفيزيولوجيا، والكيمياء الحيوية والعضوية، والتشريح، وعلم الجنين، وعلم النسج، والباثولوجيا، وعلم الوبائيات والإحصاء الصحي، مع الدعوة إلى إتاحة الفرصة للطلاب الذين يدرسون المقرَّرات الدراسية بلغة أجنبية للإجابة عن أسئلة الامتحان باللغة العربية إلى جانب غيرها من اللغات الأجنبية الأخرى، وإلى كتابة الجوانب العملية في المستشفيات التعليمية باللغة العربية. وقد دعم البرنامج العربي خطة الزيارات الاطلاعية لأساتذة كليات الطب من البلدان العربية للجامعات السورية، لمعايشة التدريس باللغة العربية وممارسته فعلياً، كما نجح في إقامة مجتمع للمعارف للمهتمين بتعليم العلوم الصحية باللغة العربية، وإغناء المحتوى العربي لموقع المنظمة على الشابكة (الإنترنت)، وإصدار المطبوعات الإلكترونية وتوزيعها، وواصل تعاونه مع المنظمات الدولية والإقليمية والعربية والوطنية والمحلية لتعزيز التعليم باللغة العربية ونشر الرسائل الصحية بها.

المقدمة

عانت اللغة العربية من الجمود الذي سيطر على الساحة المعرفية في البلدان العربية لقرون عدة، ومع بزوغ بشائر النهضة في مطلع القرن العشرين أصبح التعريب سمة لازمة للناشطين العرب الساعين إلى النهوض بأمتهم للحاق بالركب الحضاري المتسارع الخطى. وتتفاوت المعاني التي تحملها كلمة «**التعريب**» في الأذهان بين مقام وآخر، فقد تضيق لتدل على إبدال اللفظة من حروفها الأعجمية وإلباسها حروفاً عربية مقابلة لها (1)، وقد تتسع لتصبح «التجانس الاجتماعي لفئات الشعب للتعبير الحر بلغتهم..لأن استعمال لغة واحدة يؤدي إلى وحدة الرأي والشعور»(2)، أما في حديثنا هذا فنعني به ما اتفق عليه في مؤتمر التعريب الأول المنعقد في الرباط عام 1961 وهو «إحلال اللغة العربية في التعليم محل اللغات الأجنبية وتوسيع اللغة العربية بإدخال مصطلحات جديدة عليها وإلزام الإدارة بعدم استخدام لغة دون اللغة العربية والعمل على أن تكون لغة التخاطب اللغة العربية وحدها»(3).

وعلاقة التعريب بمنظمة الصحة العالمية علاقة وثيقة(4)، فمنظمة الصحة العالمية وكالة متخصصة ضمن منظومة الأمم المتحدة، ورسالتها التي حددتْها بوضوح ديباجةُ دستورها عام 1948 هو البلوغ بجميع الناس، أفراداً وجماعاتٍ، أرفع مستوى صحي ممكن. ولتحقيق تلك الرسالة تعمل المنظمة على قيادة العمل الصحي الدولي(5) والتنسيق بين البلدان بوضع المعايير الصحية وتوحيد الرواميز والتسميات والتصنيفات والمصطلحات، وفرض استعمالها وإشاعتها(6).

كما تعمل المنظمة على نشر الوعي الصحي وترسيخ الممارسة الطبية المُسْنَدَة بالبَيِّنات، وما يستلزمه ذلك من جمع للمعطيات وتخزينها ومعالجتها وتحليلها واستخلاص النتائج وإتاحتها لمن يحتاج إليها بالطرق والوسائل التي يسهل تناولها وباللغة التي يفهمونها ويتعاملون بها في حياتهم العملية وأنشطتهم اليومية، وإدماج ذلك في مقررات ومناهج التدريس والتعليم الطبي والصحي. وتحرص المنظمة في عملها هذا على احترام ما لكل مجتمع من خصوصية ثقافية وتاريخية لضمان قبول الأفراد والجماعات فيه للرسائل الصحية التي ترسلها المنظمة والعمل بها ونقلها للأجيال اللاحقة وترسيخها بينهم، وتعزيز التعليم والتعلم للعلوم الصحية باللغات الوطنية[7].

ويتبيَّن من هذه المقدمة الموجزة ما للُّغة الوطنية عامة، واللغة العربية خاصة، من أهمية في تحقيق رسالة منظمة الصحة العالمية. واللغة العربية اليوم هي إحدى لغات العمل الثلاث في المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، إلى جانب الإنكليزية والفرنسية، وهي اللغة الرسمية في ثمانية عشر بلداً من بلدان الإقليم الاثنين والعشرين.

شيء من التاريخ:

اللغة العربية في منظومة الأمم المتحدة

وفي منظمة الصحة العالمية

منظمة الصحة العالمية هي السلطة التوجيهية والتنسيقية ضمن منظومة الأمم المتحدة فيما يخص المجال الصحي. وهي مسئولة عن تأدية دور قيادي في معالجة المسائل الصحية العالمية، وتصميم برامج البحوث الصحية، ووضع القواعد والمعايير، وتوضيح الخيارات السياسية المسندة بالبيانات، وتوفير الدعم التقني للبُلْدان، ورصد الاتجاهات الصحية وتقييمها. وللمنظمة مقر رئيسي في جنيف، سويسرا، وستة أقاليم[8]، وأحدها، وهو موضوع بحثنا اليوم، هو إقليم شرق المتوسط الذي أنشئ عام 1949[9]، وشغل الدكتور علي توفيق شوشة باشا منصب أول مدير إقليمي له، وكانت لغتا العمل به الإنكليزية والفرنسية، ثم أضيفت العربية بدءاً منذ عام 1956. أما في المقر الرئيسي للمنظمة، ففي عام 1971 اعتمدت اللغة العربية لغة رسمية في جمعية الصحة العالمية، إلى جانب الأسبانية والإنكليزية والروسية والصينية والفرنسية، ثم أصبحت من عام 1973 إحدى اللغات الرسمية الست في منظومة الأمم المتحدة، وقد تطور القسم العربي في الأمم المتحدة تطوراً مطرداً حتى أصبح يضم اليوم ما يقرب من مئتي مترجم ومصطلحي ولغوي.

وقد أصبحت اللغة العربية عام 1975 لغة عمل في منظمة الصحة العالمية وأصبحت تُستخدم في جمعية الصحة العالمية، والمجلس التنفيذي واللجان الرئيسية والفرعية، كما تُستخدم في التراسُل مع الدول العربية(10)، وبدأ العمل بتعريب وثائق جمعية الصحة العالمية والتقارير الفنية التي تصدرها المنظمة. كما بدأ العمل أيضاً بإعداد معجم للمصطلحات الطبية العربية، واعتماد ترجمة المادة الأولى من دستور المنظمة، وتثبيتها بعد ذلك على واجهة مبنى المقر الرئيسي للمنظمة في جنيف، ثم ترجمة واعتماد نص عربي لدستور المنظمة كنص قانوني له نفس حجية النصوص الخمسة باللغات الأخرى عام 1977(11)، وقد اعتُمد هذا النص من اللجنة الإقليمية لشرق المتوسط ومن المجلس التنفيذي لمنظمة الصحة العالمية ومن جمعية الصحة العالمية الحادية والثلاثين في أيار/مايو 1978 ليصبح النص العربي الرسمي(12).

وفي إطار الجهود المخلصة لتلبية احتياجات ومطالب البلدان العربية المتزايدة عاماً بعد عام من العلوم والمعارف الصحية باللغة العربية، نشأ تعاون وثيق بين المكتب الإقليمي والمقر الرئيسي لمنظمة الصحة العالمية، فأنشئ في المكتب الإقليمي عام 1979 برنامج عربي إقليمي لتعزيز استخدام اللغة العربية في الإقليم كوسيلة للتفاهم والتواصل، ولاسيَّما فيما يتصل بخدمات الرعاية الصحية الأولية وإعداد العاملين الصحيين .

وقد أعطى البرنامج العربي للمنظمة الأولوية لترجمة الدلائل التدريبية والإرشادات العملية ذات الأهمية التطبيقية لأعداد كبيرة من العاملين الصحيين، ولترجمة ما يصدر من المنظمة من دوريات مثل مجلة وقائع منظمة الصحة العالمية ومجلة الصحة العالمية ومجلة دراسات الصحة العامة، وعدد من الكتب المرجعية الدراسية والمواد التعليمية، كما ترجم البرنامج العربي للمنظمة عشرات المنشورات تلبية لطلب الأقطار العربية، هذا بالإضافة إلى عنايته بإعداد المعجم الطبي الموحَّد والمعجميات الطبية المتخصصة.

ثم تحوَّل البرنامج العربي الإقليمي في سنة 1986 إلى « قسم الإعلام الصحي والطبي » الذي لم يلبثأن نُقل إليه البرنامج العربي في المقر الرئيسي للمنظمة ليصبح برنامجاً عالمياً هو: **البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية** يتخذ من المكتب الإقليمي لشرق المتوسط (وهو اليوم في القاهرة، مصر) مقرًّا له، على أن تبقى في المقر الرئيسي خدمات جمعية الصحة العالمية والمجلس التنفيذي والمراسلات المتبادلة مع البلدان العربية الأعضاء وفقاً لنص قرار جمعية الصحة العالمية رقم ج ص ع28-34 الذي سبقت الإشارة إليه، وكان من مزايا هذه الخطوة تيسير التشاور المستمر بين المنظمة والبلدان العربية، وتوافُر خبرات الترجمة التي يمكن حشدها عند اللزوم بتكاليف أقل وفي وقت أقصر، ومراجعة الترجمات وتصحيح التجارب الطباعية في داخل المكتب الإقليمي، الأمر الذي يوفِّر النفقات ويضمن توحيد الأسلوب والمصطلحات، والاستفادة من انخفاض تكاليف الطباعة في الإقليم.

دور البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية في صوغ وتوحيد المصطلحات الصحية وإعداد وتطوير المعجم الطبي الموحد

كانت المصطلحات الطبية والصحية في سبعينات القرن الماضي شحيحة[13]، إلى جانب تعدُّد المقابلات للمصطلح الأجنبي الواحد[14]، فلم يكن يتوافر منها للعاملين في منظمة الصحة العالمية سوى مجموعة مصطلحات المؤتمرات والاجتماعات التي كان قد ترجمها للعربية الدكتور علي توفيق شوشة، عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة[15]، إلى جانب قوائم المصطلحات المتاحة لدى منظمات الأمم المتحدة الأخرى ومجامع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وعمَّان وبغداد، وقد نشطت وحدة اللغة العربية في المنظمة منذ إنشائها في المقر الرئيسي للمنظمة بإعداد بطاقات تجمع فيها ما يُتَّفق عليه من مصطلحات أثناء أعمالها اليومية، حيث لم تكن خدمات الحاسوب متاحة لها في ذلك الوقت، وعندما تجمَّع قدر كاف من المصطلحات طُبعت في ملزمة تم توزيعها على وزارات الصحة في البلدان الأعضاء تحت عنوان المصطلحات المستعملة في منظمة الصحة العالمية، وطُلب إلى الوزارات إبداء رأيها في تلك المصطلحات، حتى يتم الاتفاق على قائمة موحَّدة في نهاية الأمر يلتزم بها الجميع في داخل المنظمة وخارجها، وأدى ذلك إلى تسهيل العمل في وحدة الترجمة، واستمر العمل على ذلك حتى صدور المعجم الطبي الموحد.

وعند الحديث عن المعجم الطبي الموحد لابد من القول بأنه كان لاتحاد الأطباء العرب فضل كبير على المعجم الطبي الموحد، فقد بدأ المعجم بمبادرة من اتحاد الأطباء العرب في ستينات القرن الماضي[16]، ليكون تتويجاً لجهود سلسلة متصلة الحلقات، بدأت منذ العصور الأولى للتدوين ولا تزال مستمرة حتى اليوم، فقد جُمِع فيه ما اطَّرد استعماله من المصطلحات التي وردت في أمهات الكتب الطبية والمعاجم، وما استخدمه وأثبته الأطباء العرب في ممارساتهم وكتاباتهم، وما استعملته المدارس الطبية العثمانية، ثم ما ذهب إليه المدرسون في مدرسة القصر العيني والكلية الإنجيلية السورية التي أصبح اسمها اليوم الجامعة الأمريكية في بيروت، وما هو مستخدم في التدريس في كليات الطب والعلوم الصحية في الوطن العربي حتى اليوم[17].

والمعجم كما وصفه الدكتور عزت مصطفى[18] الذي كان الأمين العام المساعد لاتحاد الأطباء العرب آنذاك هو خطوةٌ متواضعةٌ على درب الوحدة العربيّة الحقيقّية، وحدة الفكر وأداة التفكير، عَزَمَ اتحاد الأطباء العرب أن يقوم بها، وفاءً بحاجةٍ ماسّةٍ لوجود مصطلحات طبيّة عربيّة

موحّدة تُستَعمَلُ في المؤسسات العلميّة في سائر الأقطار العربيّة، يكون التعبيرُ بها عن المعاني والأفكار العلميّة سهلا ميسوراً على أبناء هذه الأمة في كل مكان، ويَتم باستخدامها التفاهمُ العلميُّ على وجهٍ من الدقّة والضبط الذي يلزم لمثل هذه الدراسة، وتلك إحدى غايتَين رمى إليهما «اتحاد الأطباء العرب» من وراء هذا العمل العلمي، أما الغاية الأخرى، فهي الخلاصُ من واقع مؤلم في المؤسسات الثقافية العليا في كثير من بلادنا العربيّة، يتمثّل في اتّخاذها من اللغات الأجنبيّة وسيلةً للتدريس والعمل، وهكذا خطا اتحاد الأطباء العرب في أواخر الستّينات وأوائل السبعينات الخطوةَ الحقيقية الأولى على درب توحيد المُصطَلَح الطبي العربي، فأصدر الطبعة الأولى للمعجم الطبي الموحّد، بعد أن عَملَت بها، سَبعَ سنين دأباً، «**لجنة توحيد المصطلحات الطبية**» التي ألّفها الاتحاد. وقد تقبّل الأطباء العرب في أقطارهم كافةً هذه الطبعة بقبول حَسَن وأنزلوها منزلةً حسنةً، ووضعوها من فورهم موضعَ التداول، فأحلّوا بذلك اللغة الواحدة محل اللغويات المتفرّقة، وبدأ في حقل التعليم الطبي والكتابة الطبية عهدٌ جديد في أقطار العرب.

وهكذا فبعد أن صدرت الطبعة الورقية الأولى للمعجم عن مطبعة المجمع العراقي في بغداد عام 1973، أعيد طبعه بالأفست في القاهرة عام 1977، ثم صدرت الطبعة الثانية مصحّحة ومطبوعة بالأفست عن مطبعة جامعة الموصل عام 1978.

وسرعان ما تبّين لاتحاد الأطباء العرب، أن من الضروري أن يُشفَعَ هذا المعجم الإنكليزي العربي بمعجم فرنسي عربي، فدَعَا الغُيُرَ على مصلحة التعليم الطبي باللغة العربية إلى النهوض بهذا الواجب، وقد لبَّى مجلس وزراء الصحة العرب مشكوراً هذه الدعوة المباركة، وعهد إلى المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق المتوسط أن يتولى إقامة سلسلة من الجلسات الجديدة، لإنشاء المعجم الفرنسي العربي، ولإعادة النظر في الوقت نفسه في الأصل الإنكليزي العربي، بعد أن حَكَمَ التَدَاوُلُ على تعابيره لتعديل ما أظهر الاستعمال جدوى تعديله، ثم لإضافة عديد من المصطلحات التي لم يشتمل عليها المعجم في طبعته الأولى وهي كثيرة ومتنوعة، وذلك أمر أشير إليه في مقدمة الطبعة الأولى للمعجم بأنه «لا بد أن يُصار إلى ملاحقة التطور في العلوم الطبية وما يَجدُّ فيها كل فترة من الزمن تبعاً لما يقضي به التطور والاستعمال وطول الممارسة والنقد البنَّاء»(19).

وكان من محاسن التقدير، أن الدكتور عبد الحسين طابا، المدير الإقليمي لشرق المتوسط، دعا المجموعة الاستشارية للترجمة العربية للاجتماع بالمكتب الإقليمي بالإسكندرية عام 1977، وذلك لتزويده بالمشورة اللازمة لإعداد معجم طبي موحد باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، وضمَّت هذه المجموعة تتألف من أعضاء لجنة توحيد المصطلحات الطبية التي ألَّفها اتحاد الأطباء العرب لإعداد المعجم الطبي الموحّد، والدكتور عادل لطفي ممثلاً عن اتحاد الأطباء العرب؛ بالإضافة

إلى مسئولين من المكتب الإقليمي والمقر الرئيسي للمنظمة. وقد أوصت المجموعة الاستشارية بتشكيل **لجنة العمل الخاصة بالمصطلحات الطبية العربية** التي ستتولى إعداد المعجم الطبي الموحَّد الجديد انطلاقاً من الطبعة التي سبق أن نُشرت من قبل.

وتألفت لجنة العمل الخاصة هذه من السادة: الدكتور حسني سبح (من سورية)، والدكتور سعيد شيبان (من الجزائر)، والدكتور الصديق الجدي (من تونس)، والدكتور عبد اللطيف البدري (من العراق)، والدكتور عبد اللطيف بن شقرون (من المملكة المغربية)، والدكتور محمد أحمد سليمان (من مصر)، والدكتور محمد هيثم الخياط (مقرر اللجنة، من سورية)، والدكتور محمود ألجليلي (من العراق)، والدكتور مروان ألمحاسني (من سورية)، والدكتور عادل لطفي (من مصر)، والدكتور جميل عافوتي (من لبنان)، والدكتور أحمد عبد الستار الجواري (من العراق)، وفُوِّضَ المكتب الإقليمي للمنظمة بأن يدعو بالإضافة إليهم من يراه مناسباً.

وقد سارت اللجنة الجديدة الموسعة على هَدي ما سارت علية اللجنة السابقة[20] وقد استغرق إعداد الطبعة الثالثة للمعجم الطبي الموحد أربع سنوات، عَقَدت اللجنة فيها ثلاثة عشر اجتماعاً في الإسكندرية وبغداد وتونس ودمشق والرباط وعمّان والجزائر وكانت خاتمتها في أواخر كانون الأول(ديسمبر) من سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وألف، ثم صدرت في سويسرا عام 1983.

وتتابع العمل المنهجي في المكتب الإقليمي للمنظمة في خدمة المعجم الطبي الموحد بعد تأسيس وحدة للمصطلحات عام 1998، فصدرتاخراجاتإلكترونية سنوية من المعجم، بدأت أولاها عام 1998، ووزِّعت على أقراص حاسوبية للمهتمين بأمور المصطلح الطبي والصحي، ونُشِرَت على صفحات الشابكة (الإنترنت) على موقع المكتب الإقليمي للمنظمة، وكانت كل إخراجه تتميز عن الإخراجية التي سبقتها بما أُضيف إليها من حصيلة ما يرد من المهتمين بأمور المصطلح الطبي وما أقرَّته المجامع في دمشق والقاهرة وبغداد وعمّان، بعد أن عمل البرنامج العربي للمنظمة مع مجمع اللغة العربية في القاهرة على تجميع هذه المصطلحات التي أصدرها المجمع منذ إنشائه عام 1934 وحتى اليوم، هذا إلى جانب الأخذ بأحسن ما يدلي به مستخدمو المعجم من اقتراحات عبر خدمة التراسل الإلكترونية **لشبكة تعريب المصطلحات الصحية** «أحسن» التي أنشئت في المكتب الإقليمي عام 2003، وعبر المراسلات الخطية والإلكترونية التي ترد إلى وحدة المصطلحات في المكتب الإقليمي، وعبر رصد ما ينشر في الدوريات والكتب حول المصطلحات، ولاسيما مجلة العلوم التي تصدرها مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ترجمةً للمجلة العلمية الأمريكية «Scientific American»، وما انتهى إليه العمل في إعداد معجم «الإفصاح» وهو معجم مُحَوْسَب للموضوعات، يتضمن جُلّ ما في معجم المخصَّص الذي ألَّفه ابن سيده الأندلسي.

وقد ظهرت إخراجات ورقية لبعض المعاجم الموحّدة التخصصية أو الفرعية المستفرَدة من المعجم الطبي الموحّد الأم، فظهر معجم التشريح الموحد عام 2004، ومعجم طب الأسنان الموحد بإصدارتَيْه العربية-الإنكليزية والإنكليزية-العربية، ومعجم الصيدلة الموحد عام 2005، ثم صدرت الطبعة الورقية الرابعة للمعجم الموحّد عن مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان عام 2006.

وتضم قاعدة المعطيات للمعجم الطبي الموحَّد اليوم قرابة مئة وخمسين ألف مصطلح، تتوافر لمعظمها المقابلات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية، والشروح، والصور، والبحث الصرفي في المصطلحات وفي الشروح.

وما هو جدير بالذكر أن الجهود الكبيرة التي بذلت في وضع المصطلح الطبي وتوحيده[21] قد تكللت بوضع منهجية واضحة لصوغ المصطلحات قبل إدراجها في المعجم الطبي الموحد، ولئن بدت بوادر هذه المنهجية متواضعة في الطبعة الأولى والثانية من المعجم، فإنها أصبحت أكثر تبلوراً ووضوحاً في الطبعة الثالثة، ثم أصبحت تامة النضج في الطبعة الرابعة، حتى ذهب بعض الباحثين للزعم أن قيمتها لا تكاد تقل بحال من الأحوال عن قيمة متن المعجم[22]، وقد تصدَّر النص الكامل لهذه المنهجية المعجم الطبي الموحد والمعاجم الفرعية التخصصية المستفرَدة منه.

تعريب التعليم الطبي

ساهمت منظمة الصحة العالمية في الدعوة للتعليم الصحي باللغة الوطنية، ومن منطلقات علمية مُسْنَدَة بالبيانات[23]، واستجابة لقرار اتخذه مجلس وزراء الصحة العرب عام 1987 في دورته الثانية عشرة بالخرطوم[24]، والذي أدى لتشكيل فريق عمل يضم ممثلين للمكتب الإقليمي لشرق المتوسط والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجلس العربي للاختصاصات الطبية والمركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية (والذي أصبح اسمه اليوم مركز تعريب العلوم الصحية، أكمل، ومقره في دولة الكويت)، مهمته وضع خطة تنفيذية واقعية لتعريب التعليم الطبي في الوطن العربي، وتنظيم اجتماع مشترك بين وزراء التعليم العالي العرب ووزراء الصحة العرب للاتفاق على الخطة الزمنية ومراحل تطبيقها للبدء في تعريب التعليم الطبي في كليات الطب العربية، وتشكيل هيئة من وزراء التعليم العالي ووزراء الصحة العرب للإشراف على متابعة تنفيذ المشروع[25].

وفي كانون الثاني/يناير 1988 عقد اتحاد الأطباء العرب مؤتمره الرابع والعشرين بالقاهرة، وقرَّر تأييد قرار مجلس وزراء الصحة العرب المشار إليه بشأن التعريب[26]، وقرَّر اعتبار عام 1988 عام بدء التعريب في كليات الطب والعلوم الصحية في الوطن العربي، ودعا إلى إعلان السنوات العشر التي تبدأ بعام 1988 عقداً عربياً لتعريب الطب والعلوم الصحية، وأكَّد ضرورة اعتماد المعجم الطبي الموحَّد مرجعاً وحيداً لتعريب المصطلحات الطبية والصحية، ومما يذكر أن هذا القرار المفصَّل قد صيغ بالتعاون الوثيق بين اتحاد الأطباء العرب وبين المكتب الإقليمي لشرق المتوسط.

وفي أيار/مايو 1988 قرَّر المكتب التنفيذي لمجلس وزراء الصحة العرب تنظيم ندوة في دمشق حول تعريب التعليم الطبي بالتعاون بين مجلس وزراء الصحة العرب والمكتب الإقليمي لشرق المتوسط، للاطِّلاع على تجربة الجمهورية العربية السورية في مجال تعريب التعليم الصحي، وعُقدت في دمشق بعد ذلك من 5 إلى 7 كانون الأول/ديسمبر 1988، ندوة تعريب التعليم الطبي والصحي في الوطن العربي، وأسفرت عن 11 توصية بإعداد خطة تنفيذية للتعريب تعرض على الاجتماع المقبل لمجلس وزراء الصحة العرب ومؤتمر التعليم العالي الذي سيُعقد في الجماهيرية العربية الليبية خلال شهر آذار/مارس 1989 للمصادقة عليها واتخاذ الإجراءات التنفيذية بشأنها، وفي آذار/مارس 1989 قرَّر مجلس وزراء الصحة العرب المنعقد في الجماهيرية العربية الليبية تشكيل لجنة مشتركة من وزراء الصحة والتعليم العالي وعمداء كليات الطب وطب الأسنان وكليات الصيدلة وكليات العلوم الصحية لتضطلع بمهمة استكمال سَبْر الآراء ووضع وإقرار سياسة تعريب التعليم الصحي، واتخاذ الخطوات التنفيذية الكفيلة بتحقيق التعريب وما يتعلق به من خطط وبرامج ومشروعات، ووضع وإقرار التمويل اللازم لذلك، والإشراف على التنفيذ.

وفي نيسان/أبريل 1989 ناقشت الشعبة الصحية بالمجالس القومية المتخصصة في مصر(27) موضوع تعريب التعليم الطبي مناقشة موسَّعة شارك فيها الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي للمنظمة والدكتور محمد هيثم الخياط، نائب المدير الإقليمي ومدير البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية، وآخرون من المسئولين بالمكتب الإقليمي، إلى جانب عشرات من أساتذة الطب المصريين المؤيدين والمعارضين للتعريب، وأسفرت المناقشات عن عدد من التوصيات ذات الأهمية لمسيرة التعريب في مصر.

وفي المدة من 17 إلى 20 حزيران/يونيو 1990 عقد المكتب الإقليمي لشرق المتوسط مؤتمراً إقليمياً حول تعريب التعليم الطبي في البلدان العربية، وحضر هذا المؤتمر ستة وثلاثون من السادة عمداء وأساتذة العلوم الصحية والطبية في العالم العربي، ومن ممثلي المؤسسات والهيئات العربية المعنية باستعمال العربية في التعليم الصحي والطبي، وكانت أهداف المؤتمر: تدارُس الحالة الراهنة للتعريب في جميع كليات الطب في العالم العربي، وبحث ومناقشة متطلبات عملية التعريب وتحديد الاحتياجات والإمكانيات والتوجُّهات بالتفصيل في كليات الطب مجتمعة، وتأكيد التآزر والتعاون بين جميع المعنيِّين في سبيل إعداد أطباء المستقبل ووضع خطة عمل لأعمال التعريب في السنوات المقبلة يمكن تطبيقها في كل كلية على انفراد. وانطلاقاً من مفهوم هذه الأهداف اتّفق الرأي على أن التطبيق يمكن أن يبدأ على الفور بالإمكانات المتاحة في كل البلدان العربية، قليلة كانت أم كثيرة، ولا يهم أن تكون البداية متواضعة أو متطورة، بحسب ما هو

متاح هنا أو هناك من عزم سياسي، ودعم مالي، واقتناع لدى رجال العلم والتعليم والخدمة الصحية، وانتهى المؤتمر إلى إصدار مجموعة من القرارات وخطة تنفيذية مفصَّلة.

ولعل من أبرز معالم مسيرة التعريب، ذلك القرار المهم الذي اتَّخذته اللجنة الإقليمية لشرق المتوسط عام 1990 (وهي الهيئة الرئاسية في الإقليم)، حول استخدام اللغات الوطنية في التعليم الصحي والطبي[28]»، ففي ذلك القرار أكَّدت اللجنة الإقليمية أهمية استعمال اللغات الوطنية في مختلف أنشطة الإعلام والتعليم والتعلُّم والتثقيف الصحي والطبي في الدول الأعضاء، وتَبَنَّتْ سياسةَ المدير الإقليمي الرامية إلى تعزيز استعمال اللغات الوطنية على أوسع نطاق ممكن في جميع بلدان الإقليم، وشجّعت التعاون المستمر بين المكتب الإقليمي وبين الدول الأعضاء والمؤسسات الوطنية في ترجمة وتوزيع المواد الإعلامية والمنشورات باللغات المحلية وتعزيز استعمالها في أغراض التعليم الصحي والطبي، وشجّعت اللجنة الإقليمية التعاون المستمر بين المكتب الإقليمي والدول العربية الأعضاء والمؤسسات الوطنية من أجل تعزيز البرنامج العربي لمنشورات المنظمة دعماً لاستعمال اللغة العربية في أنشطة الإعلام والتعليم والتعلُّم والتثقيف الصحي والطبي في البلدان العربية، ودَعَت اللجنةُ الإقليميةُ المدير الإقليمي والدولَ الأعضاء، إلى تخصيص خمسة بالمائة من الميزانيات القُطرية المعتمدة لبرنامج تنمية الموارد البشرية من أجل النهوض باستعمال اللغات الوطنية في التعليم الصحي والطبي.

وقد أدَّى تطبيق هذا القرار، مع توافُر الاعتمادات المالية المخصَّصة بموجبه إلى إنجاز عديد من الأنشطة الداعمة لمسيرة التعريب، ومن أهم تلك الأنشطة: إنتاج وترجمة عدد من الكتب المرجعية الطبية ضمن سلسلة الكتاب الطبي الجامعي وسلسلة المنشورات التقنية، وتوفير التدريب في ممارسات التعليم والتعلُّم، وتبادل المعلومات والخبرات بين البلدان المعنيَّة، وتنظيم زيارات متبادلة بين أعضاء الهيئات التدريسية في كليات الطب والعلوم الصحية للاطِّلاع على تجارب التعريب الناجحة في الجامعات السورية، وشراء وتوزيع آلاف من المراجع الطبية العربية، وتقديم مِنَح مالية لدعم الاجتماعات الخاصة بالتعريب ولتمويل أنشطة تتعلق بالتعريب.

وقد شارك مندوبون من المكتب الإقليمي في أعمال المؤتمر الطبي السابع والعشرين الذي عقده اتحاد الأطباء العرب في تونس عام 1991، وفي البحرين[29]، عام 1993 وفي السودان عام 1994، وفي المؤتمرات التي عقدتها الجمعيات والاتحادات والنقابات المهنية في البلدان العربية مثل النقابة العامة للأطباء في مصر عام 1989، والمؤتمر العلمي السنوي لكلية الطب، جامعة الإسكندرية، أيضاً عام 1989، وندوة المجلس القومي للتعليم العالي، الهيئة العليا للتدريس، في السودان،عام 1990، وندوة المؤتمر القومي السابع للجمعية المصرية لطب المجتمع عام 1991، وندوة المجلس العربي للاختصاصات الطبية لعمداء كليات الطب العربية في دمشق عام 1993. بَلْ لا

يكاد يخلو برنامج أي اجتماع للمنظمات والهيئات والاتحادات المهنية العربية من ندوةٍ لمدارسة التعريب وعوائق تعميمه والحلول المقترحة لتطبيقه(30).

ومما سبق نلمس وبوضوح تام أن قضية تعريب التعليم الطبي قد حظيت بقدر وافر من العناية والاهتمام، فقد عُقِدَت لها عشرات المؤتمرات والندوات، وصَدَرت حولها عشرات القرارات والتوصيات التي حددت خطوط السير التي ينبغي سلوكها من أجل الوصول إلى هدف التعريب، وربما كان الأمر يحتاج إلى توحيد الخطط التنفيذية المتعددة في خطة واحدة تلتزم بها جميع الجهات المعنيَّة في جهد موحَّد بدلاً من تلك الجهود الفردية التي لا تحقِّق الغرض المرجو(31).

المجلة الصحية لشرق المتوسط

صدر العدد الأول من **المجلة الصحية لشرق المتوسط** في آب/أغسطس 1995 لتحل محل النشرة الوبائية لشرق المتوسط ومجلة الخدمات الصحية لشرق المتوسط اللتين استمر صدورهما لمدة عشر سنوات، أي منذ 1985. وفي تقديم المجلة الجديدة إلى قرائها أشار السيد الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي، في صدر العدد الأول من المجلد الأول إلى أهمية الاطلاع على التطوُّرات التي تحدث في بيئتنا المحلية وفي العالم، وإلى ضرورة تبادُل المعلومات حول التطوُّرات الجديدة والمشكلات الملحَّة والحلول الناجحة والاتجاهات السائدة في مختلف مجالات الصحة العمومية.

ويُنْشَر في المجلة الصحية لشرق المتوسط مع كل بحث خلاصة وجيزة ووافية باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، ويُفْسَح المجال في كل عدد من أعداد المجلة لنشر مقالات بكلٍّ من اللغتَيْن العربية والفرنسية، وأعداد المجلة توزع بإِخراجه ورقية على المؤسسات المهتمة بالبحوث الصحية في العالم، كما تتاح على موقع المكتب الإقليمي للمنظمة على الشابكة(32).

سلسلة الكتاب الطبي الجامعي

تنص جميع دساتير الدول العربية، وجميع قوانين تنظيم الجامعات في الوطن العربي، على أن لغة التعليم هي اللغة العربية(33). ورغم ذلك فقد تَوَاصَلَ الاعتماد على اللغات الأجنبية في تعليم العلوم الصحية في معظم البلدان العربية. وكان عدم توافر الكتب الدراسية باللغة العربية من أهم الحُجَج التي يتقوَّلها من يتعمَّد التعليم باللغات الأجنبية وإقصاء اللغة العربية (33). ولذلك مَثَّلَتْ **سلسلة الكتاب الطبي الجامعي** محاولة جادة لتلبية احتياجات الطلاب من هذه الكتب، وتفويت الفرصة على من يدَّعي عدم توافر الكتب الدراسية، وهم الذين يعتبرون معارضين استراتيجيين للتعليم باللغة العربية(35).

وقد ضَمَّتْ سلسلةُ الكتاب الطبي الجامعي كتباً مترجَمة عن اللغات الأجنبية وأخرى مؤلَّفة بالعربية، وقد ساهم في إعدادها مجموعات متخصصة من أساتذة كليات الطب في البلدان العربية،

ويتبع البرنامج العربي للمنظمة خطة محكمة لإنتاج كل كتاب، تبدأ باختيار العناوين، ثم دعوة مجموعة من أساتذة كليات الطب المتخصصين بالموضوع إلى اجتماع يحددون فيه ملامح الكتاب الدراسي المنشود، ويوزعون فصوله بينهم، ثم يتبادلون مع زملائهم مراجعة تلك الفصول، ثم تعهد المنظمة بالمخطوطة إلى من يراجعها وينقّحها ويبعث فيها روح الكاتب الواحد.

وقد صدر من سلسلة الكتاب الطبي الجامعي عدد من الكتب المترجمة عن أصول أجنبية نذكر منها كتاب الموجز في الفيزيولوجيا الطبية المنسوب لغايتون وهيل، وعلم الأدوية ألسريري المنسوب لبينيت وبراون، وكتاب البيولوجيا المنسوب إلى كامبل وريس، وكتاب الأسس الباثولوجية للأمراض المنسوب لروبنز وقطران، وكتاب طب النساء المنسوب لستيوارت كامبل وآش مونجا، وكتاب طب التوليد المنسوب لستيوارت كامبل وكريستوف ليز، وكتاب التسميات التشريحية، وكتاب أساسيات علم الوبائيات المنسوب لبونيتا وبيغلهول كجيل شتورم بطبعتيه الأولى والثانية.

ومن الكتب التي قام بتأليفها مجموعة من أساتذة الجامعات العربية وفق المنهجية المذكورة سابقاً؛ كتاب الطب الشرعي بطبعتيه الأولى والثانية، وكتاب الطب النفسي، وكتاب طب المجتمع بطبعتيه الأولى والثانية، وكتاب الغذاء والتغذية بطبعتيه الأولى والثانية، وكتاب التخدير وتاريخه، وكتاب صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي والإسلامي، وكتاب أطلس الباثولوجيا، وكتاب الإدارة الصحية، وكتاب تمريض صحة المجتمع، وكتاب علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية، والكتب الثنائية اللغة في التشريح وعلم الجنين وعلم النسج. ومن المتوقع صدور المزيد من هذه السلسلة قريباً، مثل كتب المكر وبيولوجيا بفروعها المختلفة من طفيليات وفيروسات وجرثوميات ومناعيات، وكتب الكيمياء الحيوية والعضوية.

ومما يبعث الأمل في النفوس أن كل كتاب من هذه الكتب قد ساهم في إعداده فريق من المدرِّسين من عدد من البلدان العربية، تضافرت جهودهم للعمل على إخراج الكتاب بعد أن شاعت بينهم روح واحدة لخدمة قضية التعريب للتعليم الطبي والصحي(36)، ومن الأمثلة على ذلك أن أعضاء الفريق الذي ترجم كتاب علم الأدوية ألسريري ينتمون إلى السودان والجزائر وفلسطين وسورية والسعودية، في حين ساهم في إنتاج ومراجعة كتاب الطب الشرعي فريق ينتمي أفراده إلى أحد عشر بلداً عربياً، وينطبق مثلُ ذلك على ما أُلِّف من الكتب الأخرى في هذه السلسلة.

إغناء المحتوى العربي لموقع المنظمة على الشابكة (الإنترنت)

تعتمد منظمة الصحة العالمية وغيرها من المؤسسات الدولية اعتماداً كبيراً على نشر المعلومات عبر الشابكة أو الإنترنت أو شبكة المعلومات الدولية، وقد أصبح مفهوم التعدد

اللغوي سائداً في المنظمات الدولية كافة، وهو مفهوم يتوخى تحقيق العدالة في إتاحة المعلومات للناس باللغات التي يتكلمون بها، مما يوجب على المنظمات إيلاء أهمية بالغة لإنتاج الإخراجات المتعددة اللغات من النصوص ذات الأهمية في اتخاذ القرارات السياسية، ومن المعلومات التي ينبغي أن تطبقها المجتمعات للوقاية من الأمراض أو لتغيير أنماط الحياة.

وللمقر الرئيسي للمنظمة في جنيف، سويسرا، موقع غني بالمعلومات الصحية القيِّمة والمحدَّثة وذات الأهمية على الصعيد الدولي والإقليمي والمحلي والشخصي، وعنوان هذا الموقع هو : www.who.int. ويتَّضح لمن يزور هذا الموقع منذ الوهلة الأولى أنه متعدد اللغات، ففيه الكثرة الكاثرة من المضمون باللغة الإنكليزية، ونسب متفاوتة منها باللغات الرسمية الخمس الأخرى وهي العربية والفرنسية والروسية والصينية والإسبانية.

أما المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، ومقره القاهرة، مصر، ويضم اثنتين وعشرين دولة من بينها ثماني عشرة دولة عربية، فله موقع على الشابكة عنوانه هو : www.emro.who.int ومضمونه غني جداً باللغةالعربية.

ويهدف موقع المنظمة على الشابكة، وفق ما توضحه رسالة المدير الإقليمي الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري المنشورة على الصفحة الرئيسية للموقع، هو إتاحة سائر منشورات المكتب الإقليمي العلمية والتقنية؛ وزيادة كفاءة إنتاج وتوزيع المعلومات بأقل قدر من النفقات؛ وإيصال المعلومات الواردة من منظمة الصحة العالمية ومن المؤسسات العلمية العالمية إلى الناس، ولاسيَّما قواعد المعطيات المكتبية والفهارس الإقليمية ؛ وتعزيز الوعي بمنظمة الصحة العالمية بصفة عامة وبالمكتب الإقليمي لشرق المتوسط وأنشطته بصفة خاصة، بنشر وقائع الاجتماعات العلمية والتقنية التي ينظمها المكتب الإقليمي، وتقديم المعلومات الإحصائية والمعلومات الخاصة ببلدان الإقليم.

وهكذا أصبح الموقع قِبلَة يتوجه إليها العاملون الصحيون ومتخذو القرارات وأرباب المهن الصحية من أطباء وأطباء أسنان وصيادلة وممرضات وقابلات، إلى جانب العاملين في وسائل الإعلام الجماهيرية، وعامة الناس في أوسع نطاق ممكن.

برنامج تبادل الزيارات بين أساتذة البلدان العربية للتشارك في التجارب والخبرات المستفادة في تدريس العلوم الصحية باللغة العربية

كان **برنامج تبادل الزيارات** من الثمرات اليانعة التي نتجت عن المؤتمرات الطبية العربية المؤيدة لتعريب التعليم الصحي، وحظي بمساندة وزراء الصحة العرب الأعضاء في اللجنة الإقليمية التي أوصت عام 1990 بتخصيص قسط من مساهمات الدول الأعضاء لدعم اللغات الوطنية.

وقد استهدف برنامج تبادل الزيارات في البدء عمداء وأساتذة كليات الطب والعلوم الصحية ممن كانوا يتخوفون من ممارسة التعليم باللغة العربية»[37]، ويعزون ذلك التهيب إلى عدم ألفتهم لمحاضر باللغة العربية، إما لأنهم لم يتعلموا أصلاً بها أو لأنهم ينظرون إليها نظرة تقديس وتبجيل. وقد قدم المكتب الإقليمي لهذا البرنامج الدعم المالي والإداري اللازم، واستعان بخبرات العمداء والمدرسين في الجامعات السورية لتمكين الأساتذة الزائرين من المراقبة الميدانية للدروس تلقى على الطلاب باللغة العربية، ومدى تجاوب الطلاب واستيعابهم لها، وتشجيعهم على إلقاء الدروس باللغة العربية.

وقد نجحت تلك الزيارات نجاحاً باهراً سهَّل على الأساتذة الزائرين تطبيق التعليم باللغة العربية في جامعاتهم التي قدموا منها أو الدفاع عنه عن قناعة وإصرار، ولاسيما أن أغلبهم عاد إلى بلاده محملاً بما راق له حمله من الكتب الدراسية المعتمدة للتدريس في الجامعات السورية باللغة العربية، إلى جانب بناء علاقات حميمة مع المدرسين السوريين.

وفي مقابل ذلك، لبَّى أعضاء هيئات التدريس في الجامعات السورية طلبات دعوة زملائهم من الأقطار العربية للتدريس باللغة العربية. وتكللت هذه التجربة بمزيد من النجاح بإنتاج كتب دراسية باللغة العربية ساهم في إعدادها فريق من الأساتذة السوريين وأصحاب البلد المضيف لهم، وهو أمر أغنى المكتبة العربية وزاد من الثروة المصطلحية وقرَّب من لغة التواصل بين بلدان عربية متعددة.

شبكة تعريب العلوم الصحية (أحسن)

إن **شبكة تعريب العلوم الصحية** هي شبكة معلومات تضم مجموعة من المهتمين بترجمة العلوم الصحية والطبية من المترجمين المحترفين المتفرغين للترجمة، والهواة غير المتفرغين لها، ومن يتعامل مع المواد بلغاتها الأصلية، ومع تلك المواد بعد ترجمتها من ناشرين تقليديين وناشرين على الإنترنت وعلى الأقراص الحاسوبية، وموزعين للمنتجات، والمستخدمين لها من طلبة العلوم الصحية ومدرِّسيها، ومَن يقوم بالتأليف في أحد مجالاتها، والمسئولين عن التعليم بمراحله المختلفة ولاسيما التعليم العالي من عمداء للكليات ومديري الجامعات ووزراء التعليم والثقافة والتربية والصحة.

أما أهداف الشبكة فهي تعزيز التواصل بين المهتمين بترجمة العلوم الصحية والطبية والتعريف بأعمالهم وترويجها والاستفادة منها على أتم وجه، والتنسيق بين الأعمال والمراحل وتوافر المنتجات في الأسواق وإتاحتها لمن يحتاج إليها بأفضل السبل والوسائل المتوفرة، وتجنب إضاعة الجهود والأموال في تكرار إنتاج بعض الأعمال وإهمال بعضها الآخر.

وقد أنشئت الشبكة على هامش الحلقة العملية الأولى لشبكة المترجمين الذين يساهمون في نقل العلوم الطبية والرسائل الصحية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، والتي عُقِدَت في المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، في القاهرة، في آب / أغسطس 2003، ويحرص القائمون على خدمتها في المكتب الإقليمي، على إتاحة بيئة من الحوار والتنسيق بين الأطراف المشاركة في الشبكة، وتوصيل الرسائل والمبادرات التي يرسلها الأعضاء في الشبكة، إلى جانب عقد مؤتمر سنوي يستعرض فيه المشاركون الجهود التي بذلت في العام المنصرم، والنتائج التي أسفرت عنها تلك الجهود، ويتفقون على تنفيذ المزيد منها مما يلبي الاحتياجات الملحَّة.

وتستأثر المساجلات حول المصطلحات ومدى صحتها ومقبوليتها وشيوعها وما يستجدّ منها بقسط وافر من أعمال الشبكة، ولاسيما ما ينصبّ منها في تطوير وتحديث وتدقيق المعجم الطبي الموحد والمعاجم المنبثقة عنه. وثمة الكثير من الرسائل الإعلامية التي تعرض على المشاركين بالشبكة فرص العمل في المنظمات الدولية، والتدريب في المؤسسات المتخصصة، والمشاركة في المؤتمرات، والتعريف بالكتب التي تصدر هنا وهناك مما يهم أعضاء الشبكة. وقد استفاد من البيئة التعليمية التي تتيحها شبكة تعريب العلوم الصحية الكثير من الأعضاء في إعداد كتبهم ونشرها وتوزيعها والتعريف بها(37).

التعاون والتنسيق مع مجامع اللغة العربية

تأسس **المجمع العلمي العربي بدمشق** عام 1919، وبادر أعضاؤه إلى إلقاء المحاضرات العلمية والأدبية وإصلاح اللغة السائدة آنذاك، وإصدار مجلة شهرية تحولت إلى الصدور كل ثلاثة أشهر، ودأب المجمع على نشر المصطلحات العلمية والتعريف بها دون أن يقرَّها أو أن يحققها أعضاؤه، فقد كان المجمع يرى أن هذه الألفاظ، على وجاهة الكثير منها، لا تعبِّر إلا عن رأي أصحابها، لأن المجمع لا يجيز لنفسه إقرارها والتشبُّث بها(39). وقد تحوَّل اسم المجمع بعد ذلك إلى مجمع اللغة العربية بعد استيثاق عرى الوحدة مع مصر، وكان جُلُّ أعضاء المجمع من أساتذة الكليات العلمية من طب وصيدلة وهندسة وزراعة وجيولوجيا.

وقد طرأ تحول واضح في الوقت الحاضر للاهتمام بالمصطلحات العلمية وتنسيقها(40)، فتشكلت لجان متخصصة للعناية بها ومتابعتها، فتكوَّن لدى المجمع رصيد ضخم من المصطلحات العلمية. وقد تعاون البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية ووحدة المصطلحات في المكتب الإقليمي منذ عام 1998 مع مجمع اللغة العربية بدمشق في إضفاء السمات العصرية على العمل الإداري واللغوي في المجمع، بإدخال شبكة داخلية للتواصل بين الأعضاء والإداريين داخل

المجمع، وتوصيل المجمع بالشابكة «الإنترنت»، واكتناز منتجات المجمع بشكل رقمي إلكتروني يتيح إيصال جميع ما صدر عنه من مطبوعات دورية ومخطوطات وكتب تراثية محققة لمن يبحث عنها بأيسر سبيل، ولا يزال(41).

أما **مجمع اللغة العربية في القاهرة** فقد أنشئ بمرسوم صدر عام 1932، ويعده الكثير من الباحثين المجمع العربي الوحيد الذي قصر عمله على اللغة ومصطلحاتها ، وأسس لها لجاناً فرعية متخصصة في الطب، والكيمياء والطبيعة، وعلوم الأحياء والزراعة، والعلوم الرياضية والهندسية، والاقتصاد والقانون، والعلوم الفلسفية والاجتماعية، والتاريخ والجغرافيا. وتستعين اللجان في تأدية أعمالها بخبراء، وتجتمع معهم كل أسبوع للنظر فيما يرد إليها أو ما يعرضه خبراؤها عليها من مصطلحات، وهم يناقشون المصطلحات دون تعصب أو تطرف(42).

وقد كان للبرنامج العربي مع مجمع اللغة العربية في القاهرة تاريخ طويل من التعاون تبلور بإعداد برنامج حاسوبي يكتنز ذخيرته اللغوية، والتي تتضمن جميع المصطلحات العلمية والفنية التي أصدرها مجمع اللغة العربية منذ بدئه العمل عام 1934 وحتى اليوم، إلى جانب القرارات والتوصيات التي اتخذها المجمع في لجانه ومؤتمراته، ومقررات اللجان حول الألفاظ والأساليب، وأصول اللغة، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. ثم ساعد البرنامج العربي للمنظمة على إنشاء موقع للمجمع على الشابكة (الإنترنت).

وقد تَوَاصَلَ التعاون بين **مجمع اللغة العربية الأردني** في عمّان وبين البرنامج العربي للمنظمة، فقد كان الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع على رأس المؤسسين لشبكة تعريب العلوم الصحية، وله مساهمات قيّمة في تعزيز مسيرتها. واستفاد البرنامج العربي للمنظمة أيضاً استفادة كبيرة من المصطلحات التي أعدها **المجمع العلمي العراقي** في بغداد، وأدرج قسطاً وافراً منها في المعجم الطبي الموحد والمعاجم التخصصية الفرعية المستفردة منه.

التعاون والتنسيق مع المؤسسات العربية المهتمة بالتعريب

كان للبرنامج العربي إسهام كبير في التعاون وبناء الشراكات مع المنظمات الدولية والإقليمية والمحلية لتعزيز حضور اللغة العربية وإغنائها في المحافل والمطبوعات وشبكة الإنترنت، ونخص بالذكر **مجلس وزراء الصحة العرب** الذي كان شريكاً فاعلاً في إعداد الطبعة الثالثة من المعجم الطبي الموحد؛ و**مجلس وزراء التعليم العالي العرب** الذي كان مسانداً حاضراً لما اتخذته المؤتمرات المتعاقبة حول التعريب؛ و**المجلس العربي للاختصاصات الطبية** الذي يصدر مجلته باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، ولعل ما فيها من خلاصات باللغة العربية هي من أكثر ما يجتذب الأطباء العرب، و**اتحاد الأطباء العرب** الذي يجعل مناقشة أمر التعريب من الحصص الدائمة الحضور

على جدول أعمال مؤتمره السنوي، وهو أيضاً مساهم فعال في المعجم الطبي الموحد، بل إن المعجم ثمرة مبادرة له كما أسلفنا؛ و**اتحاد الجامعات العربية** الذي رعى موضوع التعريب في مؤتمراته المتعاقبة؛ و**مركز تعريب العلوم الصحية** بالكويت الذي كان ولا يزال شريكاً ورائداً في وضع خطط التعريب وتوفير مستلزماته من كتب دراسية ومصطلحات؛ و**المركز العربي للتعريب والتأليف والترجمة والنشر** بدمشق الذي جمعت بينه وبين البرنامج العربي للمنظمة شراكة قوية أثمرت عدداً من الكتب القيمة؛ و**مكتب تنسيق التعريب** بالرباط الذي كانت مصطلحاته مَعيناً ثَرّاً نَهَلَ منه العاملون في وحدة المصطلحات وفي حقل الترجمة الطبية والصحية؛ و**الهيئة العليا للتعريب بالسودان** التي عملت بالتعاون مع البرنامج العربي للمنظمة على إنشاء مطبعة محلية لطباعة الكتب والمنشورات التعليمية، و**الجمعية المصرية لتعريب العلوم** في القاهرة، و**كليات الطب والعلوم الصحية** في الجامعات والمؤسسات التعليمية العربية، وقد ساهمت في إنجاح برنامج المنظمة لتبادل الزيارات بين أعضاء الهيئات التعليمية العربية؛ و**المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية** في الكويت والتي خصصت وقتاً وتمويلاً لبحث القضايا الصحية المستجدة بمشاركة من الباحثين الصحيين وعلماء الشريعة؛ و**المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة** التي رعت بعض المشروعات التعليمية والتثقيفية باللغة العربية في الإقليم؛ و**معهد المخطوطات العربية** في القاهرة؛ و**المجلس البريطاني** من خلال فرعه في دمشق، سورية، والذي نفذ بالشراكة مع البرنامج العربي دراسة لتقييم وتحسين مهارات التواصل باللغة الإنكليزية بين طلبة ومدرسي كلية الطب في جامعة دمشق؛ ودور النشر الكبرى المهتمة بالتعريب مثل **مكتبة لبنان-ناشرون** ويعود لها الفضل في إنتاج وتوزيع الإخراجية الورقية من الطبعة الرابعة للمعجم الطبي الموحد الأم وطبعات المعاجم المستفردة منه في مواضيع فرعية ومتخصصة، مثل معجم التشريح الموحد ومعجم الصيدلة الموحد ومعجم طب الأسنان الموحد، ثم الإخراجية العربية للطبعة السابعة من كتاب البيولوجيا المنسوب لكامبل وريس؛ و**مكتبة أكاديميا إنترناشيونال** في بيروت، وكان لها الفضل في إنتاج جُلّ الكتب في سلسلة الكتاب الطبي الجامعي؛ و**المركز التقني المعاصر**، وقد تَعَاوَن مع البرنامج العربي للمنظمة في إنتاج بعض العناوين الهامة، ونخص بالذكر منها مكافحة الأمراض السارية، والطبعة الثانية من كتاب الطرائق الأساسية للمختبرات الطبية، والإخراجية العربية لكتاب روبنز وقطران الموسوم بالأسس الباثولوجية للأمراض؛ و**مجموعة خليفة للكمبيوتر** في القاهرة؛ و**شركة أتاسوفت** في لندن. وجميع هذه المكتبات والمؤسسات قدمت للتعريب خدمات جلا وكان بعض ما أنتجته ثمرة تعاون وتشجيع من البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية.

الخاتمة حول استشراف المستقبل

تمتلك اللغة العربية حيويتها الخاصة التي تحميها من التقوقع والسقوط في الجمود والانغلاق، وقد استطاعت أن تواكب العصور التي مرت عليها، وأن تكون لغة كل عصر بكل معطياته، وهي أقدر اللغات على نقل كل ألوان الحداثة، وعلومها، وفلسفاتها، ومصطلحاتهاالمرتبطة بمفاهيمها. وقد أثمر العمل في البرنامج العربي للمنظمة نتائج طيبة أسهمت في توحيد لغة التخاطب بين أرباب المهن الطبية، من خلال العمل الدءوب في المعجم الطبي الموحد، إضافة إلى تقديم صورة عن الوضع الصحي في العالم للقارئ العربي، وإصدار الكتب والدلائل الإرشادية والتدريبية للعاملين الصحيين، وطباعة وتوزيع الكتب الدراسية لطلبة الطب والعلوم الصحية العربية المترجمة أو المؤلَّفة بالعربية، وإقامة الدورات التدريبية للمحاضرين والمترجمين والمصطلحيين. كما أصبحت شبكة تعريب العلوم الصحية التي أنشأها البرنامج العربي لمنظمة الصحة «مِرْبَداً» عصرياً يتبادل من خلاله المهتمون بتدريس العلوم الصحية وجهات النظر ووضع المصطلحات بمجال الطب وسائر العلوم الصحية باللغة العربية، وأصبحت توفر لمجموع العاملين في الدول العربية وسيلة تواصُل ومناقشة لكثير من المصطلحات وتعاريفها، وهو ما ساعد على الانتهاء من إعداد الطبعة الرابعة للمعجم الطبي الموحد الذي بدأ العمل به سنة 1968 بقرار من اتحاد الأطباء العرب، حيث بلغ عدد مصطلحاته في هذه الطبعة 150 ألف مصطلح.

والتحدي الماثل أمام البرنامج العربي لمنظمة الصحة العالمية اليوم هو المحافظة على قوة الدفع لمسيرته، بما يتطلبه ذلك من استمرارية للموارد البشرية والمالية، للنهوض بقضية التعريب وجعلها على رأس أولويات التعليم الجامعي.

المراجع

1– الأستاذ شحادة الخوري، التعريب، مجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر المنبثق عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتبه في دمشق، في العدد الحادي والثلاثين من السنة السادسة عشرة، كانون الأول / ديسمبر 2006، الصفحة 11.

2 – الدكتور صالح بلعيد، تعريب التعليم العالي أولوية الأولويات، وهي دراسة أعدت للندوة السادسة للمسئولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي التي عقدت في عُمان عام 2006، ثم نشرت في مجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر المنبثق عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتبه في دمشق، في العدد الثاني والثلاثين من السنة السابعة عشرة، حزيران / يونيو 2007، الصفحة 63.

3 – الدكتور جابر عصفور، العربي ولغتها العربية، كتاب العربي 27 حول أزمة اللغة العربية، صفحة 31.

4 – الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط، من كلمته في افتتاح المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 01– 8 حزيران / يونيو 2008.

5– الدكتور عبد الحسين طابا، المدير الإقليمي السابق لمنظمة الصحة العالمية لشرق المتوسط، عن تقديمه لكتاب الناس والصحة في الشرق الأوسط، تأليف يان سيمون، ترجمة الدكتور سعيد عبده، نشر المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في شرق البحر المتوسط، 1986، الصفحة 9.

6 –حول المعلومات والاتجاهات الطبية والصحية، يمكن مراجعة التقارير السنوية الصادرة عن المكتب الإقليمي للمنظمة، مثل أعمال منظمة الصحة العالمية في إقليم شرق المتوسط، التقرير السنوي للمدير الإقليمي عن المدة من 1 كانون الأول / يناير إلى 13 كانون الثاني / ديسمبر 2005، الصفحات 35–41. وهي متاحة على موقع المكتب الإقليمي www.emro.who.int

7 – الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط، من مقدمة كتاب علم المصطلح لطلبة كليات الطب والعلوم الصحية، أعد بإشراف الدكتور محمد هيثم الخياط، وساهم فيه الدكتور الشاهد البوشيخي، والدكتور عزالدين البوشيخي، والدكتور مصطفى أوفوشي، والدكتور قاسم طه السارة وأعضاء شبكة تعريب العلوم الصحية «أحسن»، طباعة أكاديميا إنترناشيونال، بيروت، لبنان 2007.

8 – للاطلاع على المزيد من المعلومات حول رسالة المنظمة والمهام المنوطة بها وبرامجها والبنية التنظيمية لها يمكن زيارة موقعها على الإنترنت، وهو موقع متعدد اللغات، أما مضمونه

العربي فعنوانه : /http://www.who.int/about/ar .

9 – الدكتور عبد المنعم محمد علي : مسيرة اللغة العربية في منظمة الصحة العالمية، المحاضرة الرئيسية في الاجتماع الأول لشبكة تعريب العلوم الصحية، المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في القاهرة، 2003، وهي متوافرة بنصها الكامل على موقع المكتب الإقليمي للمنظمة www.emro.who.int :

10 – قرار جمعية الصحة العالمية رقم ج ص ع 28–34 مايو أيار 1975 .

11 – وفقاً للمرجع السابق فقد أسندت رئاسة المجموعة إلى الأستاذ الدكتور مصطفى كامل ياسين (من العراق)، أستاذ القانون الدولي بجامعة جنيف، وكان أعضاء المجموعة الأستاذ عدنان يوسف من (العراق)، رئيس قسم الترجمة العربية بالأمم المتحدة، نيويورك، والأستاذ محمود مراد (من مصر)، أستاذ الترجمة العربية بكلية اللغات والترجمة بجامعة جنيف، والدكتور سيد أبو النجا (من مصر)، رئيس قسم الترجمة الفورية بمقر الأمم المتحدة بجنيف، والأستاذ رفعت لطفي (من مصر)، رئيس قسم الترجمة العربية بمقر الأمم المتحدة بجنيف، والأستاذ محمد يعقوب(من مصر)، رئيس قسم الترجمة بالمكتب الإقليمي لشرق المتوسط، والأستاذ سامي شوبير (من العراق)، المستشار القانوني برئاسة منظمة الصحة العالمية، جنيف، والأستاذ إبراهيم زريقات (من الأردن)، من وحدة اللغة العربية بالمقر الرئيسي للمنظمة، جنيف، والدكتور عبد المنعم محمد علي (من مصر)، رئيس وحدة اللغة العربية بالمقر الرئيسي للمنظمة، جنيف .

12– قطوف من الإنجازات اللغوية والأدبية للأطباء المجمعيين (الدكتور علي توفيق شوشة 1891 – 1964)، الدكتور محمود فوزي المناوي، أزمة التعريب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 2003، الصفحات 363– 364 .

13– الأستاذ أحمد شفيق الخطيب، منهجية وضع المصطلحات وتطبيقاتها، دائرة المعاجم، مكتبة لبنان–ناشرون واتحاد مجامع اللغة العربية، دمشق، تشرين الأول / أكتوبر 1999 .

14– الدكتور محمد علي الزركان، الدعوات المبكرة إلى توحيد المصطلح العلمي العربي من قبل الأفراد والجماعات، مجلة اللسان العربي .

15– الدكتور محمود فوزي المناوي، أزمة التعريب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 2003، الصفحات 263–264 .

16– الدكتور محمد هيثم الخياط، التعريب في سورية، وهي محاضرة ألقيت في ندوة تعريب التعليم العالي والجامعي التي أقامها اتحاد مجامع اللغة العلمية العربية في الرباط (1985) ونشرت في الطبعات المتلاحقة لكتابه « في سبيل العربية » .

17– الدكتور قاسم سارة، المعجم الطبي الموحَّد : تجربة رائدة في وضع المصطلح الطبي وتوحيده ونشره، بحث ألقي في المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق 10–12 تشرين الأول / أكتوبر 2004 .

18– الدكتور عزة مصطفى، مقدمة الطبعة الثالثة للمعجم الطبي الموحد .

19– الدكتور محمد هيثم الخياط، مقدمة الطبعة الثالثة للمعجم الطبي الموحد .

20– الدكتور محمد هيثم الخياط، أربعون عاماً مع المصطلح، من البطاقات إلى الحَوْسَبَة، بحث قُدِّم إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته الثالثة والستين، ونشر في الطبعات المتلاحقة لكتابه «في سبيل العربية».

21– الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط من كلمته في المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 8–10 حزيران / يونيو 2008.

22– الدكتور قاسم سارة، مقبولية الألفاظ المستحدثة، بحث ألقي في المؤتمر الرابع لمجمع اللغة العربية بدمشق 2005.

23– الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية، كلمته في افتتاح المؤتمر الإقليمي الخامس لتعليم العلوم الصحية باللغة العربية، الإسكندرية، مصر، 24–25 تشرين الثاني / نوفمبر 2007.

24– الدكتور خالد منيمنة، المؤتمرات القومية والوطنية التي عقدت حتى الآن حول تعريب التعليم الطبي وتوصياتها وقراراتها، بحث أعد للإلقاء في مؤتمر تعريب التعليم الطبي، دولة الكويت، 1996، موقع المركز العربي لتعريب العلوم الصحية «أكمل»: http://www.acmls.org

25– الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط من كلمته في مؤتمر تعريب تعليم الطب والعلوم الطبية في الوطن العربي، خطوات تطبيقية، جمعية الأطباء البحرينية، 1993، كتيب المؤتمر، الصفحات 17–23.

26– الدكتور عبد الرحمن العوضي، من كلمته في مؤتمر تعريب تعليم الطب والعلوم الطبية في الوطن العربي، خطوات تطبيقية، جمعية الأطباء البحرينية، 1993، كتيب المؤتمر، الصفحات 49–51.

27– الدكتور محمود حافظ، قضية التعريب في مصر، مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، 1997.

28– اللجنة الإقليمية لشرق المتوسط، الدورة السابعة والثلاثون، استعمال اللغات الوطنية في التعليم الطبي والصحي، القرار ش م / ل إ 37 / ق 4 –، 10 تشرين الأول / أكتوبر 1990.

29– وقائع مؤتمر تعريب تعليم الطب والعلوم الطبية في الوطن العربي: خطوات تطبيقية، جمعية الأطباء البحرينية، المنامة، البحرين، 1618شباط / فبراير 1993.

30– الدكتور قاسم سارة، التعريب جهود وآفاق، دار الهجرة بدمشق، 1989، الصفحات 99–145.

31– الدكتور أحمد ديب دشاش، من كلمته في الحصة المخصصة للتعريب في المؤتمر الثاني والأربعون لاتحاد الأطباء العرب، عمّان 2008.

32– http://www.emro.who.int/publications/emhj/1403/Index.htm

33– لدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية لإقليم شرق المتوسط من كلمته في المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 8–10 حزيران / يونيو 2008.

34– الأستاذ شحاذة الخوري، دور المراجع العلمية وأمهات الكتب في سيرورة المصطلحات العلمية وانتشارها، الدراسة التاسعة من الجزء الثالث من كتابه دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دار الطليعة الجديدة، 2007، الصفحة 135.

35– الدكتور محمد توفيق الرخاوي، محاضرته حول تعريب الطب في المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 8–10 حزيران / يونيو 2008.

36– الدكتور دفع الله عبد الله الترابي، حصيلة تعريب العلوم الصحية في الجامعات السودانية، المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 8–10 حزيران / يونيو 2008.

37– الدكتور محمد هيثم الخياط، أهمية الترجمة في نشر العلم ورفع مستوى التعليم، محاضرة في أكاديمية المملكة المغربية، طنجة، 1995، ونشرت في الطبعات المتلاحقة لكتابه «في سبيل العربية».

38– الأستاذ ماهر محمدي ياسين وجمال فتح الله، مقدمات كتاب تكنولوجيا التصوير الطبي بالرنين المغناطيسي، مطابع الدار الهندسية، القاهرة 2007.

39– عمل المجامع والجمعيات في وضع المصطلحات، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، الأمير مصطفى الشهابي، الطبعة الثانية، 1965، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، الصفحات 61–63.

40– الدكتور محمود أحمد السيد، النهوض باللغة العربية بين التوصيات والممارسات، قراءة في توصيات مجمع اللغة العربي بدمشق، مجلة التعريب التي تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر المنبثق عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتبه في دمشق، في العدد الحادي والثلاثين من السنة السادسة عشرة، كانون الأول / ديسمبر 2006، الصفحة 79.

41– الدكتور مروان المحاسني، نائب رئيس مجمع اللغة العربي بدمشق، من كلمته في افتتاح المؤتمر السادس لشبكة تعريب العلوم الصحية التي عقدت تحت رعاية الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية العربية السورية في رحاب مجمع اللغة العربية بدمشق في المدة 8–10 حزيران / يونيو 2008.

42– عمل المجامع والجمعيات في وضع المصطلحات، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث، الأمير مصطفى الشهابي، الطبعة الثانية، 1965، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، الصفحات 69–70.

المحور الخامس

سبل توطين التقانات باللغة العربية

سبل توطين التقانة باللغة العربية
«صناعة تقانة المعلومات أنموذجا»

د. عبد الحميد الفلاح

أمين عام مجمع اللغة العربية (الأردن)

المقدمــة:

إن دراسة هذا الموضوع تقتضي بيان أهمية اللغة العربية في تشكيل بناء الإنسان العربي والمسلم، ولذا أجد نفسي مضطراً للحديث بإيجاز في هذه المقدمة عن الوظائف التي تؤديها اللغة العربية في كثير من جوانب تكوين المجتمع العربي والإسلامي.

ارتبطت اللغة العربية بالعقيدة الإسلامية ارتباطا لا نجد له نظيراً لدى أي لغة من لغات العالم؛ إذ نزل القرآن الكريم بها، وتعهد بحفظها على مّر العصور والدهور، وتحدى الله عز وجل العرب بفصاحة القرآن الكريم وبيانه وإعجازه، ولذا عكف علماء العربية على دراسته، فوضعوا القواعد الكفيلة بحفظ اللسان من اللحن والتحريف والتصحيف. وتباروا في خدمة لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف،واعتبروا عملهم هذا خالصاً لوجه الله تعالى، متمثلين قول الرسول – صلى الله عليه وسلم: «أحبوا العربية لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»[1]، وقول الخليفة عمر بن الخطاب: «تعلموا العربية فإنها تنبت العقل، وتزيد في المروءة»[2].

وقال الثعالبي: «من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب. ومن أحب العربية عُني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها»[3].

وقال ابن تيمية: «فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه الكتاب والحكمة باللسان العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين»[4].

وقال ابن خلدون: «ومعرفتها ضرورية لأهل الشريعة؛ إذ تؤخذ الأحكام كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، وَنَقَلتُها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة».[5].

والهوية بمفهومها الواسع هي «محصلة الميراث الثقافي والاجتماعي والقومي والديني لدى أي جماعة، أو أي شعب، أو أي أمة. ولا تتشكل الهوية من ذلك التراث تلقائياً، ولكن من

إعادة استدعائه وتوظيفه في الحقلين الاجتماعي والتربوي، من خلال إنتاجه بالتربية والتعليم والإعلام وعلاقات التضامن الاجتماعي »[6].

وإذا « كانت بعض الأمم تقوم على وحدة الهدف السياسي أو على وحدة الأرض أو الأصل أو العادات أو التاريخ المشترك فإن قوميتنا تتجلى أكثر ما تتجلى في وحدة اللغة، فاللغة هي رمز للهوية القومية والذاتية الثقافية، وهي رمز للكيان القومي، وعنوان الشخصية »[7].

لا أحد ينكر دور اللغة العربية في توحيد الأمة العربية ونهضتها، فهي الركيزة الأساسية لوحدة الأمة وتحديد هويتها، وإن العناية بها، والإيمان بدورها الفاعل في وحدة الأمة ليمثل الاتجاه إلى إبراز مقومات الأمة العربية، وإثبات هويتها أمام التحديات الخارجية التي تواجهها. ويرى كثير من العلماء والمفكرين أن العربية دليل الهوية، ومن سلم في لغته سلم في وطنه ونفسه، واللغة أساس لاجتماع الكلمة ووحدة الرأي، وهي الرابطة الأولى بين العرب، والجامعة للعرب، فللعرب اليوم جامعة عظيمة من لغة يشرفها الدين والاجتماع، وبقدر محافظة الأمم على لغتها وعنايتها بآدابها تزداد قوى وحدتهم صلابة.[8]

والأمة العربية في كياناتها السياسية المتعددة كان من الممكن أن تنقطع بين شعوبها الروابط والوشائج لولا وجود عوامل موحدة أساسية من أهمها اللغة الموحدة التي يتواصلون بها، وهي اللغة العربية. والمحذور في وقتنا الحاضر الاتجاهات التي تنمي جوانب العاميات المحلية على حساب اللغة العربية الفصيحة، والمناداة بإحلال هذه العاميات محل اللغة العربية. لنصل إلى زمن ليس من السهل أن يتواصل العربي في بلد ما مع أخيه العربي في بلد آخر، فيكون النكوص عن اللغة العربية سبباً في فصم الروابط والوشائح بين أبناء الأمة العربية، وهزة تقوض ركناً مهماً من أركان وحدتها. وهذا وغيره يدعو إلى تعزيز الانتماء إلى اللغة العربية، والتأكيد على دورها الفاعل في المحافظة على هوية الأمة العربية ووحدتها.

اللغة هي أداة الثقافة وحاضنتها، ووسيلة التعبير عنها، قال رينو مايور (Rene Maheur) أحد مديري اليونسكو السابقين: « إن الأمة التي لا تؤمن بنفسها لا وجود لها، وذلك أنه لا يكفي أن يكون لها سفراء ورئيس دولة، وعلم وموظفو جمارك...الخ، فإذا لم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر عن نفسه وخصائصه ومميزاته وطرائقه الخاصة في الحياة فلا وجود له، واستقلاله استقلال سطحي لا يدوم. إن الطريقة الوحيدة لأي شعب من الشعوب لأن يعبر عن وجوده هي الثقافة، والوعي بالطابع الخاص الذي يميزه عن غيره، واللغة هي أداة هذه الثقافة ووسيلتها ».[9]

فالرابطة بين اللغة والثقافة هي رابطة روحية عضوية تلازمية، والفكر السليم العميق يحتاج إلى لغة رائقة تلائمه، وتكون خير معين لنشره وتمثله والأخذ به.

وقال المستشرق الأمريكي وليم باول: «إن اللغة العربية من اللين والمرونة بما يمكنانها من التكيف وفق مقتضيات العصر ، وهي لم تتقهقر فيما مضي أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وهي ستحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي» [10].

وهذا كله يدفع عن العربية وارتباطها بالعقيدة الإسلامية صفة الجمود، وعدم القدرة على مواكبة متطلبات العصر في العلوم والفنون والآداب، أما ما تواجهه العربية من جور أبنائها وظلمهم إياها فلا مجال للحديث عنه في هذا المقام، ونكتفي بما قاله أحد المستشرقين: «ما رأيت لغة في العالم أغنى من اللغة العربية الفصيحة، وما رأيت لغة في العالم مظلومة من أبنائها مثل العربية»[11] .

والعولمة تسعى إلى «إسقاط الحواجز اللغوية كشرط أساسي لدمج بلدان العالم وثقافاته المتعددة في كيان عولمي يتسم بالشفافية اللغوية لتنساب من خلاله المعلومات، ويتفاعل من خلاله الأفراد والجماعات والمؤسسات، وهذا يملي علينا العناية بلغتنا العربية لتلحق بهذا الركب، ولن يتحقق ذلك إلا بتوافر البنى الأساسية اللغوية التي تؤهلها للتفاعل اللغوي الديناميكي مع لغات العالم» .[12]

ومن المؤكد أن هيمنة الثقافة الأمريكية تعني هيمنة اللغة الانجليزية التي أصبحت تهدد لغات كثيرة بالانقراض، حتى وصل الأمر إلى بعض الباحثين الألمان بأن يصفها بأنها «قاتلة اللغات» .[13]

فهل تواجه اللغة العربية خطراً حقيقياً من العولمة يتهددها، ويهمشها، ويبعدها عن دورها الحضاري؟ وهل هذا الخطر كامن في ذاتها ومنظومتها اللغوية أم أنه مفروض عليها من خارجها؟ وهل نحن مستعدون للدفاع عنها، ومدها بالحياة في هذا العصر؟ يجيب الدكتور نبيل علي عن هذه التساؤلات بقوله: «للغة في عصر المعلومات واقتصاد المعرفة موقع الصدارة، وهو ما يفسر، من جانب، لماذا تحتفي معظم الأمم حالياً بلغاتها القومية، وتعيد النظر إليها من الصفر، وتقيم معاهد البحوث المتخصصة لدراسة علاقة هذه اللغة بتكنولوجيا المعلومات، ومن جانب آخر يبرز هذا الوضع الجديد مدى حدة أزمتنا اللغوية تنظيراً وتعليمًا، ومعجمًا ومصطلحًا. ولا شك أن أزمتنا تلك سوف تتفاقم تحت ضغط المطالب الملحة لعصر المعلومات، واتساع الفجوة اللغوية التي تفصل بيننا وبين العالم المتقدم كناتج فرعي لاتساع الفجوة التكنولوجية – المعلوماتية»[14] .

إذا سلمنا بأن اللغة العربية تواجه أزمة حقيقية في عصر التقانة الحديث، تحد من انتشارها، وتبعدها عن المشاركة في ركب الحضارة المعاصرة، وتجعل أهلها يعيشون في عزلة عن هذه الحضارة، لا يتصلون بها، ولا يتواصلون معها، فما السلبيات المترتبة على هذا؟ إن «تقاعسنا في التصدي لهذه الأزمة، إن استمر، ينذر بانزواء اللغة العربية إلى مصاف الدرجة الثانية، حيث

سيعوزها العديد من عناصر البنية الأساسية التي تؤهلها لعضوية (نادي تعدد اللغات العالمي) وتمنحها القدرة، وقدرة ثقافتها بالتالي، على الاحتكاك اللغوي الذي تشير جميع الدلائل إلى تزايد حدته واتساع نطاقه »[15].

يذهب بعض المغرضين والمجانفين للحقيقة إلى أن اللغة العربية عاجزة عن مواكبة متطلبات التقانة الحديثة، فهل هي كذلك؟

يذكر أن دراسة لغوية قد أجريت في اليابان لمعرفة أكثر اللغات العالمية مواءمة صوتية في استخدامات الحاسوب، وقد أثبتت أن اللغة العربية تتصدر هذه اللغات في هذه الناحية، وجاءت اللغة الصينية في آخر القائمة، وهذه الدراسة تؤكد تميز اللغة العربية من ناحية الوضوح الصوتي.[16]

كما أكدت اللغة العربية قدرتها الفائقة على نقل المعرفة في تجربتها الطويلة، حتى قيل في ذات يوم: عجبت لمن يدعي العلم، ويجهل العربية. وتؤكد أيضاً خصائصها اللغوية عالميتها من ناحية « التزامها بالقاعدة الذهنية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي، فالعربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى، على مستوى جميع فروعها اللغوية: كتابة وأصواتاً وحروفاً ونحواً وصرفاً ومعجماً، وتتسم منظومتها بتوازن دقيق، وتآخ محسوب بين فروع اللغة المختلفة ».[17]

أما من حيث المعالجات اللغوية حاسوبياً « فإن العربية لغوياً وحاسوبياً يمكن النظر إليها على أنها لغة عليا تندرج في إطارها كثير من اللغات الأخرى كحالة خاصة من هذه الفئة العليا ».[18]

من خلال ما مر بنا ندرك أن العربية ليست عصية على استخدامات التقانة الحديثة، وليست عاجزة عن مواكبة التطورات والتغيرات المتسارعة في مجال العلم والاقتصاد والسياسة والثقافة والتقانة، وليس العيب فيها وإنما العيب والتقصير في أهلها الذين لم يقوموا على خدمتها كما عنيت كثير من الأمم بلغاتها، واللغة العربية ليست ميتة كما يحلو للبعض أن يصفها، وإنما هي لغة حية متنامية متطورة إذا أحسنا وضعها في مكانها المناسب وتوظيفها في كل أمور حياة أمتنا. وإن مقارنة بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية تؤكد قدرة اللغة العربية على سهولة التعامل مع التقانة الحديثة، وأن الإنجليزية ليست أسهل وأيسر منها في هذا التعامل « فعدد كلمات اللغة الإنجليزية يتراوح بين أربعمئة إلى خمسمئة ألف كلمة مستخدمة بينما يتجاوز عدد الكلمات المستخدمة في اللغة العربية عدة ملايين، ويمكن حصر ما يقارب مئة وأربعة وأربعين جدولاً رياضياً سليماً تتعامل تقريباً مع جميع الأفعال العربية دون استثناء، وتمثل تركيبات السوابق واللواحق في اللغة العربية ثراء لا حدّ له، ويمكن من خلالها التعبير بالكلمة نفسها عن الإفراد

والتثنية وضمائر الفاعل والمفعول والأزمنة والاستفهام . . . ويمثل البناء النحوي للغة العربية عمقاً دلالياً لا نظير له، حيث تقود حركات الإعراب المختلفة إلى حسم العديد من أوجه اللبس حسماً لا يدع مجالاً لسوء الفهم».(19) ومما لاجدال فيه أن اللغات التي لا يعنى أهلها بالإفادة من وسائل التقنية الحديثة، ولا يعملون على تهيئة الأسباب الكاملة لأن تكون قادرة على التعامل المتكامل مع هذه التقنية ستصبح عاجزة عن متطلبات وسائل التواصل والاتصال الحديثة، وهذا يعني إبعادها وتهميشها عن مكانتها بين أبنائها، والتخلي عنها، والاستعانة بلغة أخرى بدلاً منها. ومن المعروف أن الأمة الإسلامية «ابتكرت أسلوب التفكير الجبري الذي أدى دوراً مهماً في نقل المعارف بين الأمم بصفة عامة، وبين مدارس التفكير بعضها ببعض بصفة خاصة».(20) وكانت اللغة العربية أداة تمثيله والتعبير عنه. وهذا يفرض على الأمة العربية البحث بجدية تامة عن السبل الكفيلة لتوطين التقانة باللغة العربية.

والبحث في توطين التقانة يتعلق بعملية حضارية متعددة المناحي والأدوار تقوم بها أمة من الأمم في إطار السعي نحو التقدم والرقي في سلم الحضارة والمعرفة. حيث تشمل هذه المناحي التعليم والبحث العلمي والقوانين والتشريعات. ولابد أن يتوفر لها الرؤية الاستراتيجية والهدف الواضح والإرادة الحرة الجادة للأمة ولصانعي القرار فيها.

والتقانة تستوعب العلوم وتطبيقاتها، لكننا هنا نأتي بنموذج واحد هو تقانة المعلومات لما لهذا النموذج من علاقة وثيقة باللغة. ولأن العمل في توطين تقانة المعلومات ينعكس على جميع أنواع التقانة وعمليات توثيقها وتعليمها وتداولها، وبالتالي توطينها. وقبل ذلك لأن مثل هذه الإجراءات والنشاطات التي تمت خلال عملية السعي لتوطينه تصلح أن تكون أمثلة لغيره من التقانات.

اللغة العربية وصناعة تقانة المعلومات:

مرت صناعة تقانة المعلومات منذ عام 1948م في أجيال خمسة في ضوء التغيير الذي طرأ على العنصر المادي الأساسي (Hardware) المستخدم في بناء وحدة المعالجة المركزية والذاكرة.

بدأ الجيل الأول منذ عام 1948 وامتد إلى بداية عام 1958 م ،واعتمد فيه على الصمام الإلكتروني كوحدة أساسية لتطوير حواسيب ضخمة ذات أوزان عالية وتشغل حيزاً مكانياً كبيراً ،وتستهلك طاقة كهربائية عالية.

وبدأ الجيل الثاني سنة 1958م واستمر حتى سنة 1963م، وفيه حل الترانسستور محل الصمام الإلكتروني، وأصبحت الحواسيب أصغر حجماً وأسرع إنتاجاً وأقل استهلاكاً للكهرباء.

وظهر الجيل الثالث خلال الفترة من 1981-1964م، وحلت فيه شريحة سيلكون واحدة (chip) محل العديد من وحدات الترانسستور والعناصر الالكترونية الدقيقة الأخرى من المقاومات والمكثفات وغيرها، التي اندمجت داخل البنية البلورية لشريحة السيلكون.

أما الجيل الرابع الذي ظهر سنة 1982م فلا يختلف عن سابقه إلا في صناعة الدارات المتكاملة الكبيرة جداً (VLSI : Very Large Scale Integration) التي مكنّ الحصول عليها من زيادة العناصر الإلكترونية ودمجها في رقيقة السيلكون، وقد بلغت عام 1984 (50) ألف وحدة أولية (Bit Chip).

وكانت السيطرة في هذه الأجيال الأربعة لأمريكيا، ووفرت هذه الأجهزة من حيث معداتها طاقة حسابية هائلة لم تتمكن البرامج من استغلالها، وظلت الهوة تتسع بين إمكانات وقدرة البرمجيات في هذه الأجيال. وجاء الجيل الخامس من البرمجيات على يد اليابانيين الذين استغلوا الفجوة بين المعدات الحاسوبية والبرمجيات من خلال مشروع استمر عشر سنوات من 1982-1992م، وفيه احتلت البرمجيات (software) مكان الصدارة من حيث الأهمية بدلاً من المعدات (Hardware).[21]

وقد « سعى مصممو الجيل الخامس إلى تطوير حاسب ذكي قادر على التحليل والتركيب، وعلى الاستنتاج المنطقي، وحل المسائل، وبرهنة النظريات، وفهم النصوص، وتأليف المقالات، وراهنت اليابان بمصيرها في تقنية المعلومات على هندسة المعرفة وأساليب الذكاء الصناعي ».[22]

وبدأ التنافس حاداً بعد هذه المرحلة بين أقطاب ثلاثة: الأمريكي والآسيوي والأوروبي، وتبلور هذا التنافس في مشروعات أساسية ثلاثة تلت مرحلة الجيل الخامس، تمثلت في المشروع الياباني لحوسبة العالم الواقعي (RWC: Real World Computing) والمشروع الأمريكي لتطوير نظم حاسوب واتصالات عالية الأداء (HPCC: High Performance Computing Communication Program)والمشروع الأوروبي،وتمثله المرحلة الثانية لبرنامج البحوث الاستراتيجي في مجال تقانة المعلومات. (ESPRIT II: European Information Technologies Program)

وتسعى هذه المشاريع الثلاثة لدمج الروافد المختلفة لتقانة المعلومات في وحدة سيبرناطقية متكاملة تتميّع فيها الحدود الفاصلة بين المعدات والبرمجيات، وبين نظم الحواسيب ونظم الاتصالات، وهي تسعى أيضاً لجعل العلاقة بين الإنسان والآلة أكثر سلامة وتناغماً »[23].

وتتألف صناعة التقانة الحديثة من رافدين أساسيين، أحدهما مادي والآخر ذهني، ويتمثل المادي في بناء وحدة المعالجة المركزية والذاكرة والسعي إلى المزيد من تصغيرها، وتحويل شرائح السيلكون إلى البروتين أو من اللاعضوي إلى العضوي.

وفي معمارية منظومته من المركزية والتلاحق إلى اللامركزية والتوازي، والعمل جار على تصميم حواسيب تتكون من شبكة كثيفة من الحواسيب التي تعمل بطريقة متوازية. أما ما يخص وسائط التخزين فقد تحولت من الممغنطة إلى الضوئية، وبخاصة الأقراص المبرمجة (DVD) ذات السعة الهائلة.

وتحولت وسائل الإدخال والإخراج من المكتوب والمطبوع إلى المنطوق والمسموع والملموس.

أصبحت تقانة الحاسوب بحاجة ماسة إلى تقانة الاتصالات، والعلاقة بينهما يسودها طابع تبادل المنافع، فإذا كانت تقانة الاتصالات تعترف للحاسوب والإلكترونيات الدقيقة بتطورها التقاني، فإن الحاسوب يعترف لتقانة الاتصالات بدورها الرئيسي الذي تؤديه عالمياً، إذ حررت الاتصالات الحاسوب من أماكنه المحددة إلى فضاءات رحبة عالمياً. وبخاصة فيما يتعلق بنقل المعلومات ونشرها، وانتقال ذلك من المجال الصوتي إلى المجال الرقمي، ومن أسلاك النحاس الضيقة إلى الألياف الضوئية ذات السعة العالية، ومن أحادي الاتجاه إلى ثنائي الاتجاه، ومن الثابت إلى النقال، ومن الشيفرة الانجليزية إلى الشيفرات المتعددة اللغات. (24)

أما بالنسبة للتحكم الأوتوماتي (Automatic Control) فيمكن القول «إن هندسة التحكم هي خط التقاء تقانة المعلومات مع الواقع، فآليات التحكم هي التي تحيل المعلومات التي يغذيها بها الحاسوب إلى قوى ميكانيكية وجهود كهربية ومغناطيسية لتحرك الروافع والمكابس والصمامات والزلاقات والمؤشرات، وتقفل وتفتح البوابات والإشارات، وآليات التحكم هي التي تعدل من أوضاع عناصر النظام الواقع تحت سيطرتها، بحيث يتكيف دينامياً مع المتغيرات التي تطرأ على ظروف التشغيل». (25)

أما الجانب الثاني من صناعة التقانة الحديثة، فهو الجانب الذهني (Software)وقوامه أمران هندسة البرمجيات (Software Engineering) وهندسة المعرفة.(Knowledge Engineering)

وشهدت التقانة تطوراً جلياً في مسيرة صناعتها فبعد أن كانت النظم والبرمجيات(Software) تحت سيادة المعدات (Hardware) أصبح الأمر بالعكس بعد الجيل الخامس، فرجحت كفة البرمجيات بصورة كبيرة حتى أصبحت تعادل 85٪ من ميزانية إنشاء نظم المعلومات مقارنة بالمعدات 15٪، وتحولت البرمجيات من عمل هواة إلى مؤسسات عملاقة يقدر عائدها السنوي بمليارات الدولارات، وكما «يتم تصنيع المنتجات المادية من وحدات جاهزة أو شبه جاهزة، تتجه حالياً صناعة البرمجيات إلى تركيب البرامج من وحدات برمجية سابقة التجهيز، وهو ما يعرف حالياً بـ(Component Ware) (26)

وتحولت قواعد البيانات من البيانات الببلوغرافية إلى قواعد النصوص الكاملة، أي من قواعد البيانات المنمطة (Formated Data Bases) التي تتعامل مع البيانات الرقمية والأبجدية إلى قواعد البيانات المصدرية (Source or Full Text Data Bases) التي تحتفظ بالنصوص الكاملة للوثائق.

وتطورت لغات البرمجة من البرمجة الاصطناعية إلى اللغات الطبيعية. وحلت العناصر الميكروالكترونية (Components Microelectronic) محل العناصر الميكانيكية والكهربية والالكترونية، مما أدى إلى تقليل المكونات والكلفة وتحسين الأداء، ثم إلى البرمجة الميكروية (MicroProgramming) أو اللدنيات (ware Firm) أي وسط بين البرمجيات والمعدات.[27] وتوصل مهندسو المعرفة إلى ما يسمى بالذكاء الاصطناعي، وأن لكل نشاط معرفي نموذجه الحاسوبي.

بعد هذا العرض الموجز لتطور صناعة التقانة بشقيها: المادي (Hardware) والذهني (Software) فإن ما يتبادر إلى الذهن هو هل كان للأمة العربية دور في هذا الشأن؟ وهل تواجه الأمة العربية أزمة تقانة؟ وما سبب هذه الأزمة؟ وهل هي مرتبطة بقدراتها المادية أو بقدراتها وكفاءاتها العلمية؟ وهل بلد صغير مثل تايوان تمكن من تصنيع جهاز حاسوب شخصي (ACER) يصدر منه إلى الولايات المتحدة مليون حاسوب في العام، وبلد آخر مثل سنغافورة، وهي دولة صغيرة أيضاً أصبحت تحتل موقعاً متقدماً في خريطة التطور التقاني[28] وغيرهما أكثر كفاءة مالية وبشرية من الدول العربية؟ وما الدور الذي يمكن للعرب أن يؤدوه في مجال البرمجيات كصناعة معرفية لضمان تراثهم وثقافتهم ولغتهم، وليواكبوا ما يجري عالمياً بالسرعة المطلوبة للمواكبة؟ ولماذا هذا الإهمال للصناعة البرمجية في الوطن العربي؟

لعل الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها مردها إلى غياب الرؤية الاستراتيجية التي لا تسمح بقيام نهضة تقانة شاملة، وإلى عدم الإيمان بأن النجاحات المتميزة ممكنة عندما تبدأ صغيرة، وتنمو ضمن مجموعة من العوامل والمتغيرات في مساحة يمكن السيطرة عليها من خلال النخبة المؤمنة بأهداف المشروع التقاني.

وقد أصبح من المؤكد أن اللغات تلتقي في خصائص لغوية مشتركة، وتتمايز فيما بينها في جوانب من خصائصها وسماتها الخاصة بها، ولقد انصب الاهتمام بصنع أجهزة منذ ظهور التقانة على أن تكون هذه الأجهزة وفق خصائص اللغة الإنجليزية، واتسعت تطبيقاتها، وكثرت البحوث والدراسات اللغوية حولها، وبدأت أمم وشعوب بليّ عنق لغاتها وتطويعها لهذه التقانة التي لم تبن وفق خصائصها وسماتها، وبالتالي واجهت هذه اللغات تحديات فنية وتقنية كثيرة، وأصبحت توصم بالعجز والتقصير وعدم القدرة على مسايرة ما يجد في العصر الحديث، ومن بين هذه اللغات اللغة العربية.

إن جزءاً من الحل لخروج اللغة العربية من الأزمات التقنية التي تعترضها هو إخضاع تقانة المعلومات لخدمة اللغة العربية، وليس العكس، بأن تخضع هذه اللغة قسراً لضغوط ومتطلبات هذه التقانة، ولعل هذا يذكرنا بالنظرة الضيقة عند بعض المنظرين اللغويين عندما طالبوا في

الماضي بتغيير كتابة الحروف العربية بحروف لاتينية تلائم مطالب وحاجات آلات الطباعة وتقانتها آنذاك.[29]

إن صناعة أجهزة تقانة تتلاءم ومتطلبات المنظومة اللغوية العربية في ضوء أسلوب التفكير الرياضي الجبري للعربية يقتضي تضافر الجهود بين علماء الحاسوب وعلماء اللغة؛ لأن عالم الحاسوب وحده غير قادر على حل كل المشكلات اللغوية التي تواجهه في هذا المجال، كما أن عالم اللغة غير قادر على معرفة القضايا الفنية والتقنية التي تواجهه في خدمة اللغة حاسوبياً، إذ «من المعروف عن الحاسوب أنه لا يفهم إلا لغة الأرقام، وهذا يعني بطريقة أدق أن الأجيال المتتالية للحاسوب ولغات البرمجة وشبكات الحاسوب والتكنولوجيا المختلفة المستخدمة لبنائها تعتمد أساساً على نموذج جبري محض.[30] ويستنتج الدكتور محمد بطاز في نهاية بحثه المذكور آنفاً «أن أسلوب التفكير الجبري، ومن ثمّة المدرسة الرياضية العربية لا تزال قائمة وفعالة، بل مواكبة للتطور التكنولوجي المعاصر إذا لم نقل مبدعة في أبرز ميادينه، ألا وهو ميدان الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات. وبما أن اللغة العربية تعتبر التركيبة الحاملة الأساسية (بالمفهوم الجبري) لهذه المدرسة، فإن الخلاصة واضحة فيما يخص الجدل القائم حول قدرة اللغة العربية لاستيعاب علوم وتكنولوجيات العصر».[31] وما على علماء الحاسوب وعلماء اللغة إلا العودة إليها، والإفادة من معطياتها التقنية في بناء أجهزة تقانة حديثة وفق خصائص العربية وسماتها.

وإن لم يكن ذلك فأعتقد أنَّ المؤسسات التقنية الغربية والأمريكية وغيرها إذا طلب إليها صناعة أجهزة تقانة لخدمة العربية بكل مجالات التقانة ستكون قادرة على ذلك، وقد التفت بعضها إلى ذلك حالياً.

وهذا يتطلب أن تعمل الدول العربية مجتمعة على وضع سياسة لغوية موحدة على مستوى الوطن العربي وفق استراتيجية متكاملة متنامية لخدمة هذا التوجه، وتوفير الدعم المالي اللازم لاستمرار الجهود وإجراء البحوث، والتطوير الدائم لمواجهة ما يجد في هذه التقانة.

التنظير اللساني للعربية

لا يمكن إغفال جهود علماء اللغة الأوائل في التنظير اللغوي، فهذه حركة علمية أصيلة تركت آثارها على الدرس اللغوي العربي حتى اليوم. وانقطاع حركة التنظير والتأصيل اللغوي العربي لا يعني إغفال هذا الدور. ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بحصول هذا الانقطاع. ولا بد من الاعتراف كذلك أن علم اللغة الحديث نشأ وتطور بعيداً عن اللغة العربية والعاملين عليها.

مرت الدراسات اللسانية في مجال التنظير اللساني الحديث: مفردات وجملاً ونحواً وصرفاً ودلالة ومعجماً وتحليلاً وتوليداً وصوتاً، وبيان علاقة وثيقة بين التفاعل العلمي واللغة في جميع

فروع العلم والمعرفة من إحصاء ورياضيات ومنطق وعلم نفس وعلم اجتماع وكيمياء وفيزياء وبيولوجيا، إضافة إلى تكنولوجيا المخ والأعصاب بمناهج ونظريات متعددة، وذلك بدءاً من المنهج التاريخي المقارن والمنهج البنيوي والمنهج التوليدي التحليلي، ونظرية الربط العاملي، والمنهج الدلالي والنفسي، والوظيفي والصرفي والمعجمي والمقولي والصوتي وصولاً إلى المنهج النصي(32).

واتخذت هذه المناهج جميعها «من الجملة أساساً لها، ويسعى التنظير اللساني حالياً إلى أن يرقى إلى ما فوق الجملة من خلال ما يعرف بـ «اللسانيات النصّية» (Text Linguistics) وهي ما زالت في مراحلها المبكرة، وترتكز على عدة منطلقات، منها: معنى النص وتوليده ووظيفته التواصلية وعلاقات التناص (inter-textually) التي تربط بين النص وغيره من النصوص. يقول الدكتور نبيل علي: «تتعدد الرؤى في تناول النص، فهناك من يراه من داخله في هيئة شبكة كثيفة من العلاقات التركيبية والمعجمية والمنطقية والمقامية، ومن يراه من منظور مستخدمه، لا بصفة النص كياناً قائماً بذاته، بل بصفته حدثاً اتصالياً يتوقف فهمه على خلفية قارئه، وعلى صلة النص بسياقه الثقافي والاجتماعي، وهو الوضع الذي تعدّ فيه بنية النص بمنزلة انعكاس لبنية العالم، ومرحباً ب «العالم» مرة أخرى في رحاب اللغة، لتتميّع الحدود الفاصلة بين اللغة وعالمها».(33)

وقد تناول علماء اللسانيات هذه المناهج بالدرس والتحليل والنقد والإضافة والتطوير والتطبيق على اللغات للارتقاء بالنحو من نحو خاص يتعامل مع لغة واحدة بعينها إلى ما يسمى بنحو الأنحاء، القائم على العموميات اللغوية التي تشترك فيها جميع اللغات مع إمكان التعامل مع أوجه الاختلاف بينها. وألفت كتب في ذلك، وقدمت بحوث وتطبيقات عدة لا يتسع المجال لعرضها.(34)

وكان لثورة التقانة الحديثة أثرها في تفجير التنظير اللساني لدى علماء اللسانيات في العالم، إذ بذلوا قصارى جهدهم لتوصيف عناصر المنظومة اللغوية ومدى قدرتها على التعامل مع تكنولوجيا المعلومات في كل مجالاتها، وحققوا فيها درجة عالية. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل تبوأت اللسانيات العربية مكانتها اللائقة بها وسط التنظير اللساني الحديث لكثير من اللغات؟ يجيب الدكتور سعد مصلوح عن هذا السؤال بقوله: «إن اللسانيات العربية في خلال نصف القرن المنصرم لم تستطع أن تستوعب المنجز اللساني ولم يترك جيل الرواد الذين تنتمي أفكارهم، في معظمها، إلى مدرسة لندن، أثراً يذكر، أما تلاميذهم فقد عابهم الاكتفاء بالطلاء الخارجي اللساني للترويج للقديم في غلاف الجديد وتشويش المفاهيم اللسانية الحديثة وتحريفها، ومن ثم الخطأ في إقحامها على بيئة العربية بشكل آلي يغفل خصوصيتها».(35)

ويرى الدكتور نهاد الموسى أن العلاقة بين النحو العربي القديم والدرس اللغوي الغربي الحديث علاقة التقاء وليست علاقة انفصام، وأنه يمكن توظيف المناهج اللغوية الحديثة لخدمة نحونا العربي بخاصة ولغتنا العربية بعامة في إطار من التطوير وتبادل المعارف، ووفق خصائص العربية وسماتها، يقول: «ولا ريب أن وضع النحو العربي في إطار جديد يتقابل فيه القديم العربي والحديث الغربي يسعف في تجديد إحساننا بالنحو العربي في مفهوماته ومنطلقاته، وأبعاده بعد طول إلف به في لغته الخاصة ومصطلحه الخاص ومنهجه الداخلي».[36]

ويذهب الدكتور نبيل علي إلى القول: «يقف تنظيرنا اللغوي في حيرة شديدة أمام ظاهرة الانفجار التنظيري متشبثاً بتراث لم يحدثه، ومقاطعاً لفكر لغوي مغاير لا يستوعبه. حتى بدا هذا التراث اللغوي وكأنه الطرف النقيض للنظريات اللغوية الحديثة، على الرغم من كونه غير ذلك، فما أكثر ما نجد فيه من حكمة التنظير اللغوي ما يتفق مع التوجهات اللسانية الحديثة، فالتقدير والحذف والاستتار والعامل والعاملية وإعراب المحل وما شابه تتفق مع كثير من الأسس التي أقام عليها تشومسكي نظرياته النحوية، ونظرية الربط العاملي بصفة خاصة».[37]

إن الدراسة المقارنة بين النظر اللغوي العربي القديم ومناهج النظر اللغوي الحديث تأتي على أمثلة كثيرة، من مثل ما أكده منتاجيو من العلاقة التقابلية بين التركيب والدلالة، إذ نجد أبا سعيد السيرافي النحوي المشهور في القرن الرابع الهجري يقول في مناظرته متى بن يونس: موضحاً العلاقة بين الذهنية والغريزية: «إنك فقير في وضعها وبنائها وفي الترتيب الواقع في غرائز أهلها».[38]

وما ذهب إليه أصحاب النموذج الذهني والغريزة اللغوية التي أقاموه عليها، نجده أيضاً عند عبد القاهر الجرجاني في مثل قوله: ليست الألفاظ منعزلة عن المعاني، فلا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه.[39]

ويطول بنا استعراض النماذج والتمثيل على ذلك، ويمكن لمن يرغب في الاستزادة أن ينظر في كثير من المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع[40].

وفي مجال الإنجاز في الدراسات التنظيرية للعربية يقول الدكتور نبيل علي: «هناك بعض محاولات متناثرة قام بمعظمها دارسون عرب في الجامعات الأمريكية لتطبيق جزئي لعدد محدود من هذه النماذج، وتحديداً النحو التوليدي التحويلي، ولكن أبرز ما تم إنجازه في التنظير للعربية هو ما قام به عبدالقادر الفاسي الفهري في مراحله المبكرة من تطبيق النحو الوظيفي المعجمي على عدة جوانب من نحو العربية.[41] وما أضاف إليه في البناء الموازي فيما يخص تبنيه الصريح لنظرية الربط العاملي وتطبيقه إياها على بعض حالات لبناء الكلمة والجملة العربيتين.[42]

والنموذج شبه المكتمل الذي قام بوضعه المؤلف (نبيل علي) لتطوير نظام إعراب آلي للغة العربية باستخدام نموذج النحو العام للمقولات النحوية GPSG» .[43]

وفي مجال الدراسات اللسانية وتوضيح علاقة اللغة بجميع فروع العلم والمعرفة، ومدى ما تحقق منه لدى اللسانيين العرب، يتساءل نبيل علي بعد استعراضه لشبكة العلاقات العلمية اللغوية: أين نحن من هذا الزخم العلمي؟، منطلقاً في تساؤله هذا من دراسته للنماذج اللسانية الأساسية التي تمخضت عنها الثورة العلمية الحديثة في مجال اللغة» .[44] ويرى أن أمام اللسانيين العرب شوطاً طويلاً للحاق بما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في هذا المجال.

وفي ضوء ما ذكر سابقاً فإننا نعلم بأن هذا لا يعود إلى بنية اللغة العربية وظواهرها اللغوية: الدلالية والصرفية والنحوية والمعجمية والصوتية بل إلى تقصير وإهمال من أهلها يتمثل في ضعف الدراسات اللغوية والإفادة من التطور الهائل الذي حصل في هذا المجال على مستوى عالمي.

أما فيما يخص بنيتها اللغوية فقد ظهر لنا مما سبق ومما توصلت إليه الدراسات اللغوية المقارنة أن كثيراً من أساسيات التنظير اللغوي الحديث قد التقت أولياتها مع ما ورد لدى علماء العربية في القديم في ما ألفوه وتوصلوا إليه، أما في مجال ولوج العربية التقانة الحديثة، والمشكلات التي تواجهها وإمكانيات الحلول لها وما السبل الكفيلة بتوطين التطبيقات الحاسوبية أو البرمجيات؟ وما الطريقة الفاعلة في توطين نظم تشغيل الحواسيب بمختلف أحجامها؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها يمكن أن نحدد احتياجات اللغة العربية لتجاوز المشكلات التي تواجهها في المعالجات اللغوية بالأمور الآتية:

المحلل النحوي

برنامج يعمل على تحليل بنية الجملة من حيث ترتيب عناصرها، والعلاقات التركيبية والوظيفية التي تربط بينها. وبناء على المناهج النحوية التي أشرنا إليها سابقاً فإنه يمكن القول إن تشومسكي حدد نظم قواعد التركيب للغة في أربعة نظم تختلف باختلاف توصيف اللغة وقدرتها على التوليد، وهي:

1- نظام قواعد التركيب غير المقيد، وهو غير صالح للتعبير عن قواعد اللغة الطبيعية، لكونه لا يستطيع تحديد انتماء أو عدم انتماء جملة معينة إلى اللغة، كما أنه غير قادر على وصف الكيفية التي تشتق بوساطتها الجملة المقبولة قواعدياً بصورة تدريجية.

2- نظام قواعد التركيب الحساس للسياق، وتعتمد فيه بعض العناصر في القاعدة على ما يسبقها أو يلحقها من عناصر، وسمي بذلك لأن استبدال الرمز اللاطرفي بآخر طرفي يعتمد على ما يحيط به من رموز، ويعاب عليه صعوبة برمجته.

3- نظام قواعد التركيب المتحرر من السياق، ويمتاز ببساطته وقابليته للبرمجة، وقد نجح في تصميم لغات البرمجة، ويرى بعض الباحثين أنه غير مناسب لتصميم قواعد للغات الطبيعية لكثرة تراكيبها وتغيرها داخل السياق النحوي، ولذا مالوا إلى النحو الحساس للسياق.

4- نظام قواعد التركيب المنتظمة، ويمكن استخدامه في وصف الأرقام والمعرفات في لغة البرمجة، وهو غير ضروري في اللغة الطبيعية لأن المفردات مدخلة في المعجم.[45]

ومن النماذج النحوية التي توصل إليها الباحثون، وهي تختلف في دقة توصيفها للظواهر اللغوية وقدرتها على تفسيرها، النماذج النحوية الآتية:

1- النحو التحليلي، وهو قسمان نحو اعتماديات، ونحو طبقي؛

2- النحو التوليدي، وهو عشرة أنواع: النحو التوليدي التحويلي، ونحو الحالات الإعرابية، ونحو نظرية الربط العاملي، والنحو الوظيفي، والنحو الوظيفي المعجمي، والنحو العلاقي، والنحو التصنيفي، ونحو شبكات الانتقال المعززة، ونحو البنية العاملة للجملة، والنحو الترابطي.

واختلفت الآراء في أي منها يكون هو الأنسب للتحليل النحوي للغة العربية، وتوجه الرأي إلى أن النحو التوليدي التحويلي والنحو الوظيفي المعجمي أنسبها للغة العربية.[46]

ويركز التحليل النحوي في اللغة العربية على مستويين، نظراً لوجود بعض الظواهر النحوية كالاستتار والتقدير والوجوه الإعرابية واللبس لعدم وجود الشكل أو لوجوده جزئياً، وهما:

- التحليل النحوي على مستوى الكلمة المفردة، وفيه يتداخل المحلل النحوي بالمحلل الصرفي، أي تكون مخرجات المحلل الصرفي هي مدخلات مباشرة للمحلل النحوي، وذلك بمعزل عن السياق.

- التحليل النحوي على مستوى الجملة، يعتمد فيه المحلل النحوي على المحلل الصرفي، لتحديد السوابق واللواحق والأوزان. ويحدد المحلل النحوي موقع كل مفردة من الإعراب بالاعتماد على القرائن المعنوية واللفظية من مثل العلاقة الإعرابية، والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام، والأداة، والنغمة.[47]

ويلاحظ أن التداخل واضح في المستويين النحويين للمفردة والجملة بين المحلل الصرفي والمحلل النحوي، وهذا يؤكد أن مستويات التحليل في معالجة اللغة العربية يكمل بعضها بعضاً، ويعتمد بعضها بعضاً للوصول إلى معالجة لغوية دقيقة ومتكاملة. ومن المشكلات التي تواجه التحليل النحوي، خلو النصوص العربية من علامات الشكل، وتتعدد حالات اللبس وتداخلها، ومنها اللبس المعجمي كأن يكون للكلمة أكثر من معنى، واللبس الصرفي وذلك كجمع كثير من المشتقات بين الاسمية والوصفية، واللبس في رجوع الضمير إلى صاحبه،

واللبس الدلالي أي اللبس في المعاني والدلالات التي تكون عليها الكلمات في الجملة والمرونة النحوية من حيث التقديم والتأخير والحذف والإضمار وتعدد الحالات الإعرابية وحالات الجواز والتفضيل وعدم توافر الإحصائيات النحوية التي تساعد المحلل النحوي في تحديد أنواع الجمل وطولها، والتعدي واللزوم في الأفعال، وتوارد المفردات، ومصاحبة الصفات للأسماء. وغير ذلك.

ولا يعني أن هذه المشكلات مستعصية على الحل، بل إنه بالإمكان الوصول إلى حلول مناسبة لها من خلال بذل الجهود وإجراء البحوث والدراسات في ضوء ما تتمتع به العربية من مزايا لغوية، ولكونها لغة مطواعة للحوسبة في صرفها واشتقاقها وقلة شواذها، ووسطيتها بين اللغات.

وقد وضعت دراسات عدة في مجال التحليل النحوي، واختلفت هذه الدراسات في مناهجها، وخلا بعضها من منهج ثابت وواضح، ولعل في جمع شتاتها ومناهجها، وإعادة دراستها في ضوء المناهج الحديثة للنحو اللغوي بعامة، والنحو العربي بخاصة ما يتيح الفرصة للوصول إلى محلل نحوي عربي يعالج جميع ما تحتاج إليه المعالجة النحوية في منظومة اللغة العربية.

المحلل الصرفي:

برنامج حاسوبي يحلل البنية الصرفية لكلمات العربية من حيث جذرها الثلاثي أو الرباعي أو الخماسي، والزيادة التي تطرأ عليها في بدايتها أو نهايتها حروفاً كانت أو ضمائر متصلة، أي السوابق واللواحق، من حيث تجريدها أو زيادتها، وصياغة أمثلة متعددة على هذه الأوزان لغرض تعليمي أو دلالة نصية، وبيان ما يطرأ عليها من إعلال أو إبدال.

ويقدم هذا البرنامج خدمات جلى للبنى اللغوية الأخرى، إذ تمثل فروع العربية كلاً متكاملاً في إطار المنظومة اللغوية، وبعبارة أخرى أن الدراسات الخاصة باللغة العربية والحوسبة مترابط بعضها ببعض، فما هو مستعمل منها في حقل ما يمكن أن يستعمل في حقل آخر، ودراسة الدلالة من السياق يمكن أن يصحح كثيراً من الأخطاء عند تمييز الكتابة العربية أو فهم كلام منطوق بسرعة، ولذا فإن عقد المؤتمرات، وتعاون الباحثين وتعارفهم، ونشر المطبوعات، كل ذلك يغني المعرفة في هذا المجال، ويزيد سرعة الوصول إلى أهداف خدمة اللغة العربية العاجلة منها والآجلة.(48)

فالمحلل الصرفي ضروري في بناء برنامج ضغط النصوص وتشكيلها، وفي برنامج ترجمة النصوص الذي يعتمد أيضاً على المحلل النحوي والمحلل الدلالي، والمحلل المعجمي وله أهميته في برنامج المصحح الإملائي، وفي المسح الضوئي للحروف والتعرف الآلي عليها.

وقد حظي الصرف العربي باهتمام كبير منذ الثمانينيات من المنظرين اللسانيين والمعجميين من أجل وضع الأسس الدقيقة لتمثيل البنية الداخلية للمداخل المعجمية، وتوصيف الآليات المختلفة لتكوين الكلمات: اشتقاقاً وتصريفاً وتركيباً ومزجاً، وذلك بعد أن تعاظم دور المعجم والصرف في أداء المنظومة اللغوية.

ووجدت محاولات عدة لوضع محلل صرفي للغة العربية، ومن هذه الجهود المحلل الصرفي الذي بنته دار حوسبة النص العربي في الأردن.[49] وحوسبة البنية الصرفية للغة العربية للدكتور بوشعيب راغين، والعلاقة الصرفية بين الجذور والأوزان، تصنيف جديد لجذور اللغة العربية، لنزار حبش وأون رامبو، جامعة كولومبيا، الولايات المتحدة، والمحلل الصرفي العربي – تاما، وهو يقدم عدة أساليب للبحث الصرفي والبحث الموسع في الأشكال الصرفية والبحث في المرادفات والبحث متعدد اللغات والبحث بذات الكلمة[50]، والمعالج الصرفي المتعدد الأطوار أو (multi-mode morphological processer) من إنتاج شركة صخر للمعالجة العميقة للكلمة العربية المفردة ،ويستوعب هذا المحلل نطاق الكلمات العربية بالكامل ،الحديث منها والقديم،[51] والباحث العربي (Ksearch) من إنتاج شركة الخوارزمي لبرمجيات اللغة.[52] ومحرك البحث براق، ويحتوي على محلل صرفي للغة العربية روعي فيه أهم خصائصها العربية الاشتقاقية والتشكيل من إنتاج شركه حرف لتقنية المعلومات.[53] وما أنتجه معهد بحوث الحاسب والإلكترونيات، القاعدة الصرفية للغة العربية والمحلل الصرفي المصدري للغة العربية.[54] والمحلل الصرفي من محرك «عربي» الذي يقوم بتحليل الكلمة العربية لاستخراج مشتقاتها.[55] والمحلل الصرفي المطور للغة العربية.[56]

ولسنا في مجال حصر مثل هذه الجهود، ولكن ما قصدنا إليه هو أن العناية والاهتمام بتطوير برمجيات لدعم اللغة العربية، اتسع نطاقها، وتعددت أهدافها وأصبح للشركات العاملة في هذا المجال حضورها، ومن ذلك الاتفاقيتان اللتان وقعتا بين مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية وكل من شركة النظم العربية المتطورة والشركة الدولية لهندسة النظم المحددة، عام «2003» ونصت الاتفاقيتان على أحقية الشركتين باستخدام المحلل الصرفي اللغوي الذي يتم تطويره في معهد بحوث الكمبيوتر والالكترونيات في المدينة، في المنتجات والنظم التي تنتجها أو تسوقها الشركتان، وتنطلق الاتفاقيتان من أهمية المحلل الصرفي في المعالجات اللغوية للعربية، إذ إن عملية التحليل الصرفي تمثل الأساس الذي تبنى عليه تطبيقات معالجة اللغة العربية الطبيعية، وتطبيقات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ورفع كفاءة محركات البحث ونظم الاسترجاع، ونظم الترجمة الآلية ثنائية الاتجاه... ويعتمد المحلل الصرفي اللغوي في عمله على فحص الخواص الصرفية والنحوية لقاعدة ضخمة من المفردات العربية المستقاة من تحليل ذخيرة لغوية ضخمة...

ويتميز المحلل الصرفي المبني على الذخيرة اللغوية بتغطية أكبر، وقدرة سريعة على التوسع، وإمكانية تناقله بين مختلف نظم التشغيل، وهذا المحلل يعتمد على خوارزميات أربع هي: خوارزميات التحليل الصرفي القاموسي، وخوارزميات التحليل الصرفي اللغوي، وخوارزميات التحليل الصرفي التبادلي، وخوارزميات التحليل الصرفي المصدري.[57]

ويؤمل أن تتوصل الشركتان المذكورتان إلى وضع قاعدة الخواص الصرفية والنحوية، والمحلل الصرفي اللغوي، والذخيرة اللغوية والنظام الخبير في برمجيات تتخطى كل المشكلات التي تواجهها اللغة العربية.

وبدأت بعض الجامعات العربية تدرك أهمية المعالجة اللغوية حاسوبياً، وتقيم المعارض لمشروعات طلبتها من أجل إذكاء روح المنافسة، وحفز الهمم على الإبداع والتميز، إذ نظمت جامعة البترا الأردنية معرضاً شاركت فيه (18) جامعة عربية من فلسطين، والأردن، ومصر، واليمن، والكويت، وعرض فيه (50) مشروعاً من تصميم طلبة تكنولوجيا المعلومات في هذه الجامعات، وفاز مشروع محرك «وجود» وهو لا يزال في مرحلة التطوير من تصميم طلبة جامعة بيرزيت في فلسطين، وقد أقيم هذا المعرض في الفترة 23-24/7/2008م.[58]

كما أن بعض الجامعات العربية أدخلت في دراساتها العليا المعالجة اللغوية حاسوبياً، وبخاصة درجة الماجستير، وأدى ذلك إلى وجود أطروحات أكاديمية في هذا المجال.

إن هذه الجهود تبشر بالخير في خدمة العربية، وأنه سيكون بالإمكان التغلب على جميع المشكلات التي تواجه الحاسوبيين واللغويين لتوطين التقانة باللغة العربية في إطار تعاون تقني مشترك بين جميع هذه الجهود أفراداً وشركات ومراكز بحث وجامعات.

المشكِّل الآلي:

الكتابة العربية حالياً هي عملية اختزالية، لا تعنى كثيراً بالحركات أي إنها تفتقد للرموز التي تمثل الصوائت، ولذا فإن القارئ العربي يكمل هذا النقص بإضافة الحركات المناسبة وفق مقدرته اللغوية وما يقتضيه السياق.

إن عدم وجود التشكيل في الكتابة العربية يسبب مشكلات عديدة لكثير من البرمجيات الحاسوبية المعاصرة، ومنها الناطق الآلي، إذ لا يمكن لأي نظام نطق آلي أن يقوم بعمله دون وجود تشكيل للحروف، ومعرفة رموزها. وبالتالي إذا وردت عليه أي كلمة عربية لا يمكن أن يتعرف علامات التشكيل لكل حرف من حروفها. ولهذا لا بد من توافر مشكل آلي ليقوم الناطق الآلي بمهمته وتمثل علامات التشكيل فيما تمثله الصوائت التي لها دور أساسي في الخصائص الفيزيائية لموجات الكلام المنطوق.

إن عملية النطق الآلي دون عملية التشكيل الآلي عملية مستحيلة، ولا تقتصر أهمية التشكيل الآلي على النطق الآلي بل إنها مهمة وأساسية في محركات البحث والنقل الكتابي للأسماء من العربية وإليها، وفي التعرف الآلي على الكلام العربي وغير ذلك.[59-60]

بذلت جهود عدة لوضع مشكل آلي من شركات عدة، وذلك لاستخدامه في النظم الحاسوبية المتعددة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- الشركة الهندسية لتطوير نظم الحاسبات (RDI). وضعت المشكل الآلي للنص العربي RDI ArabDiac c 2-0 وهو مبني على المحلل الصرفي الذي بنته هذه الشركة (RDI Arabmorpho c 3.0)، وتؤكد الشركة أن دقة هذا المشكل تصل إلى ٪95 إلا أنه لم يختبر من جهة مستقلة.[60-61]
- شركة سيموس الفرنسية، وأنتجت نظاماً للتشكيل الآلي للنص العربي، وتصل دقته إلى ٪70 على مستوى الكلمة، وله ثلاث نسخ، واحدة تعمل على جهاز الحاسوب، والثانية تندمج في نظام آخر عبر (API) والثالثة عبر الشبكة العالمية.[61-62]
- الشركة العالمية، وطورت نظاماً للتشكيل الآلي، ترى أنه الأسرع والأدق، وتؤكد أنه يقوم بالتشكيل بسرعة عالية، ودقته تصل إلى ٪98، ويسمح بالخيار بين تشكيل أواخر الكلمات أو عدمه، وهو يمثل جزءاً من برنامج صخر «أدوات المكتب» office tools.[62-63]
- وقامت شركات أخرى بجهود عدة لخدمة برمجيات لها علاقة بالتدقيق الإملائي والنطق الآلي ومعالجة النصوص العربية، من مثل شركة (آي. بي. إم) و (إنفو آراب) و (كولتك) وغيرها.

ومما يؤخذ على منتجات الشركات المذكورة آنفاً في مجال التشكيل الآلي، عدم توفيرها مشكلاً آلياً مستقلاً بذاته، ومن سلبيات برمجياتها أنها لا تفصح عن الكثير من الخصائص والأسس التي بنيت عليها، مما يجعل مجال الاستفادة منها أو تطوير فكرتها غير ممكنة، كما أن هذا النوع من البرمجيات لا يتيح للمتخصصين والمبرمجين إمكانية تطوير شفرته (code) أو تعديلها ليتلاءم مع نظم وبرمجيات وتطبيقات حاسوبية أخرى.[63]

وقام عدد من الباحثين بجهود فردية بهدف تطوير برمجيات للتشكيل الآلي، ومن ذلك التشكيل الآلي الذي وضعه (Gal) عام 2002م، باستخدام نموذج ماركوف الخفيّ (Hmm) في تحليل النصوص العربية المشكلة، وطبقه على القرآن الكريم، ووجد أن ٪70 من الكلمات لها أكثر من معنى واحد إذا لم تشكل، واستخدم نظام الكلمتين المتتاليتين ونظام الكلمة الواحدة، وتبين له دقة مشكله التي وصلت إلى ٪86، وأن ٪8 من نسبة الخطإ تعود إلى كون الكلمات لم تكن موجودة في نص التدريب.

وللوصول إلى مشكل آلي فعال أوصى (Gal) باستخدام محلل صرفي يكون داعماً للتشكيل مثل الذي أنجزته شركة زيروأكس، واستخدام الحروف إضافة إلى الكلمات، واستخدام نظام الثلاث كلمات، ووضع معجم لكلمات ثابتة التشكيل، وزيادة النصوص المشكلة المستخدمة في التدريب . (64)

وهناك محاولات عدة في هذا المجال إلا أنها في أحسن حالاتها لا تتجاوز نسبة دقة التشكيل الصحيح فيها ٪89 . (65)

– وقام فريق من الباحثين من مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، وجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وجامعة الملك سعود، ووزارة الدفاع والطيران السعودية بوضع مشروع نظام حاسوبي لتشكيل النص العربي منذ عام 1427هـ/ 2006م . ويهدف « هذا المشروع إلى دراسة نظام التشكيل في اللغة العربية، ثم كتابة برمجيات تقوم بتشكيل النص العربي آلياً، والتعرف الآلي على الكلام العربي، ومحركات البحث وغيرها . . . وتمكنوا من بناء ثلاثة نظم حاسوبية مختلفة تقوم بالتشكيل الآلي للنص العربي . النظام الأول : نظام التشكيل بأدوات ماركوف الخفية، والنظام الثاني نظام التشكيل بالفيتري، والنظام الثالث : نظام التشكيل المستقل . ويعتبر النظام الثالث إنجازاً يسجل لمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية من حيث فكرته وأداؤه . إذ وصلت نسبة الدقة في تشكيله ٪87 لأي نص عربي ولجميع حروف الكلمة، وتمّ إيداعه في الإدارة العامة كبراءة اختراع في المدينة في 1427/5/15هـ . (66)

ومن ميزات نظام التشكيل الآلي المستقل هذا الاستقلالية عن البرمجيات المقيدة جزئياً أو كلياً، والتعامل مع الحرف العربي مباشرة، والسرعة في الأداء، وصغر الحجم مقارنة بالنظم الأخرى، وارتفاع نسبة التشكيل الصحيح، وعدم استخدامه قواعد أو قوانين نحوية أو صرفية، واستخلاص الوحدات الرباعية لتسلسل الحروف من نص مشكل يدوياً، واختيار تشكيل الحرف بناء على احتمالية وروده في أكثر من تسلسل رباعي مشكل . (67)

إن بناء مشكل نصي عربي شامل وفعال وذي جودة عالية في التدقيق والتصحيح يجب أن يتخطى التحديات التي تواجهه، مثل كتابة النص العربي المعاصر غير المشكل، والأخطاء الإملائية في النصوص الخام المراد معالجتها، وعدم جدوى التعامل مع اللغة العربية بصورة سردية حصرية (مجدولة) نظراً لطبيعتها التوليدية الاشتقاقية الفائقة، وعدم وجود آلية عميقة للتحليل والتركيب الصرفي قائمة على اللبنات البنيوية الأساسية (المورفيمات) وقادرة على تغطية العدد الهائل من الكلمات العربية الممكن توليدها، وأن حوالي ٪35 من ورود الكلمات في النصوص العربية هو لكلمات يعتمد وصفها الصوتي (المنفصل) على بنيتها الصرفية، و٪65 يعتمد على بنيتها الصرفية وموقعها الإعرابي، وأن استخلاص أنسب حل لفقرة أو لجملة أو لعبارة هو عملية

عالية الالتباس فيما تنتجه المحللات الصرفية والمحللات الإعرابية الموسعة للنص العربي من حلول عديدة لكل مفردة في النص موضع الدراسة. وحل مشكلة كتابة الكلمات الأجنبية المكتوبة بحروف عربية التي تشكيلها الصوتي ليس محكوماً بالصوت أو النحو العربيين مثل المفردات العربية، ومعاملة الحرف وترميزه معاملة الشيء الواحد، ويرى الدكتور محمد زكي خضر أنه «على الرغم من الوصول إلى الترميز المتعدد (Multicode) فإن مسألة التشكيل في اللغة العربية لم تعالج بشكل مرض لحد الآن، حيث تعامل حركات التشكيل كحروف مستقلة مما يؤدي إلى صعوبات عديدة» .[68] إن الحل المناسب لهذه المشكلات يتم من خلال التفاعل بين تحليلات النص على كل المستويات: النحوية والصرفية والدلالية والصوتية والترابط النصي. [69]

والمأمول أن تتضافر الجهود والدراسات والبحوث والتجارب في هذا المجال للوصول إلى حل مشكل عربي تصل دقته إلى ٪100.

الـمحلل الـمعجمي:

يعد المعجم العربي العمود الفقري في المعالجة اللغوية حاسوبياً، إذ تعتمده كل المحللات اللغوية: الصرفية والنحوية والدلالية والصوتية والإملائية، ومحركات البحث وغيرها.

ولا يتسع المقام للحديث عن صناعة المعجم وأنواعه العامة والمتخصصة سواء أكانت أحادية اللغة أم ثنائية اللغة أم متعددة اللغات، ومراحله، وآليات وضعه بالتفصيل، وإنما سنوجز القول في ذلك بما يخدم غرضنا في هذا البحث من حيث أسلوب جمع مادته وصياغة محتوى مداخله وترتيبها ومجالاتها.

أما في أسلوب جمع مادته فالدارس لمعاجمنا العربية يجد أنها تعتمد في مادتها على ما جمعه المعجميون معتمدين على ذوقهم اللغوي وقدرتهم المعرفية، غير ناظرين إلى استخدام الذخيرة اللغوية في تتبع المعاني الجديدة للألفاظ، وما يطرأ عليها من تغييرات نتيجة الإزاحة الدلالية في التحول من الوصفية والمصدرية إلى الاسمية وفي التعابير المسكوكة الحديثة وغيرها.

أما من حيث محتواه فقد طغت عليه الخصائص الصرفية وبخاصة الاشتقاق، وأغفل الإشارة إلى مجال الاستخدام، وأما خصائص مداخله التركيبية أو السياقية التي يرد فيها اللفظ، أي نوعية المقولات النحوية التي تتعلق بالفعل وما يشتق منه من صفات ومصادر فتكاد تكون غائبة. ويجد الدارس لمعجمنا فوضى في تعريف المعاني وقصوراً في معايير الإفادة والدقة والاتساق. وهذا يقلل من أهمية المعجم؛ لأن التعريفات فيه تمثل مصدراً مهماً وأساسياً في تحويل مادة المعجم إلى قاعدة معارف يمكن للنظم الآلية أن تفيد منها في الوصول إلى المضمون الدلالي للألفاظ وبنيتها المفهومية.

أما من حيث ترتيب مداخله فما زال ترتيبه حائراً بين الجذر والجذع، ومعيار الترتيب ما سهل ويسر الوصول إلى المدخل المطلوب في جذع الفعل الماضي للمفرد المذكر، وجذع المفرد المذكر فيما يخص الأسماء والصفات.

أما من حيث استيفاء المادة المعجمية فهناك نقص في بعض مجالاتها مثل معاجم الترادف والتضاد ومعاجم التعابير الاصطلاحية، ومعاجم الاستخدام، ومعاجم المراحل العمرية والدراسية.

أما المعجم التاريخي للغة العربية فله أهميته في مجال الصناعة المعجمية، وقد قصرنا في ذلك إذ تراخت الهمم بعد المحاولة التي قام بها العالم الألماني فيشر في الثلاثينيات، وقد تجددت الهمم في الوقت الحاضر بتأسيس هيئة لوضع المعجم التاريخي للغة العربية تحت مظلة اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، وقد شرعت هذه الهيئة ومقرها القاهرة، باتخاذ الخطوات الأولى للبدء بهذا العمل.

كما أننا نجد قصوراً في معجمنا العربي يتمثل في غياب المعاجم الموضوعية ومكانز المفاهيم التي تصنف الألفاظ في مجالات دلالية مثل الرفض والقبول والإنجاز والفشل والوفاق والخلاف... إلخ.[70]. وذلك على غرار ما قام به المرحوم الدكتور أحمد مختار عمر في مكنزه «المكنز الكبير – معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادات».[71]

ويحصر الدكتور نبيل علي قصورنا في تنظيرنا المعجمي في أمور عدة، منها الدراسات التي تتناول الدلالة المعجمية التي تراجعت بعد السبعينيات، وعادت حالياً إلى بؤرة الاهتمام بسبب ما تأكد من دور مهم للمعجم في النظريات النحوية الحديثة وبخاصة نظرية الربط العاملي والنحو الوظيفي المعجمي، إضافة إلى ما تحتاج إليه نظم الفهم الآلي للنصوص من قواعد بيانات معجمية غنية تشمل البيانات الدلالية الخاصة بمعاني الألفاظ والعلاقات التي تربط بينها سواء أكانت أفعالاً أم أسماء أم صفات أم حروفاً. وهذه جميعها تحتاج إلى بحث ودراسة دلالية معجمية عميقة تصنف جوانبها، وتحللها وتفكك معانيها إلى هيئة عناصرها الأولية، وتربط علاقاتها الدلالية ببعضها أو بمعاني غيرها من الكلمات، وتتضمن هذه العلاقات: الترادف والتضمين والاحتواء. ويرى أيضاً أن مساهمة المعجميين العرب في مجال التوجه التفكيكي والعلاقي لا زالت محدودة للغاية. وأن الاشتقاق طغى على آليات تكوين الكلمات الأخرى من تركيب ومزج ونحت، كما طغى الاشتقاق من الجذر الثلاثي على الجذر الرباعي والخماسي. وأن إهمالنا لآليات تكوين الكلمات ترتب عليه إهمال لدراسة العلاقات الدلالية بين أشكال التصاحب اللفظي المختلفة، والعلاقات الدلالية المرتبطة بصيغة الصفة المنسوبة. وأننا بحاجة إلى الإفادة مما تقدمه ظاهرة المجاز من استعارة وكناية وتورية وغيرها من دور مهم في علم الدلالة المعجمية،

والتوسع فيها من خلال الدراسات المعجمية المقارنة من منظور العموميات المعجمية » .[72]

ويؤكد أيضاً « حاجتنا إلى وسائل تكشف عن العلاقات الدلالية بصورة سافرة، وتحديد الأسس النظرية التي تمهد لتطوير أدوات برمجية لاستظهار هذه العلاقات الضمنية، وهي الأدوات التي لا غنى عنها في تصميم النظم الآلية لتحليل مضمون النصوص، وفهمها آلياً » .[73]

ويقيّم الدكتور روحي البعلبكي واقع المعاجم العربية قائلاً : « ولا يسعنا سوى أن نشير إشارة خاطفة إلى التقصير الفادح الذي يشوب معاجمنا العربية التي تكاد تخلو من التعريفات الدقيقة، والدلالات الحاسمة، والإيضاحات الجامعة المانعة والمترادفات الوافية والتعابير الاصطلاحية والألفاظ المركبة، والكلمات الجديدة، والمعاني المستحدثة، والاستعمالات المتجددة، والمصطلحات العلمية، الأمر الذي يدفعنا إلى الدعوة مجدداً إلى نهضة معجمية تحديثية عربية ترقى بالصناعة المعجمية العربية إلى المستوى العالمي المقبول » .[74]

ونظراً لأهمية الدلالة المعجمية في المنظومة اللغوية العربية فقد توجهت الاهتمامات والدراسات إلى هذا الجانب للوصول إلى وضع معجم محوسب للغة العربية وبناء قواعد بيانات معجمية،[75] ومن هذه الدراسات دراسة الدكتورة المهندسة سلوى السيد حمادة من معهد الالكترونيات بمصر وعمر مهديوي باحث في علم اللغة الحاسوبي وهندسة اللغة من المغرب، وجاءت دراستهما بعنوان « المعالجة الدلالية الآلية للغة العربية، نحو بناء قاعدة بيانات معجمية للعلاقات الدلالية بين الكلمات » ونشرت في مجلة العربية .[76] وقد حددا الأدوار التي يجب أن يحققها المعجم المنشود لمعالجة اللغة العربية حاسوبياً، ولأهميتها فإنني أدرجها كما وردت على النحو الآتي :

1– يحافظ على سلامة اللغة، ويجعلها وافية متمشية مع تقدم العلوم، والفنون، مسايرة لحاجات الحياة في العصر الحاضر.

2– يبوب تبويباً هرمياً كُونياً، حيث يتم فيه ذكر المعاني متدرجة من الأصلي إلى الفرعي، ومن الحسي إلى المعنوي، ومن المألوف إلى الغريب، ومن العام إلى الخاص، ومن الموضوعي إلى الذاتي .

3– يحدد جذر اللفظ ومشتقاته، كما يعطي ألوان المعاني، والمدلول الحقيقي، والمدلول المجازي، وأن يحدد المحيط الخاص بكل لفظ كي لا يختلط بما سواه، لأن لكل لفظ حقلاً دلالياً خاصاً به .

4– يشمل جانباً لغوياً يجمع بين القديم والحديث من ألفاظ اللغة، بحيث توضع الألفاظ مرتبة ترتيباً تاريخياً، يكون من السهل لمستخدمها تتبع تطور الألفاظ منذ أقدم العهود حتى تاريخ صدور المعجم . إن هذا التطور سيجلي للمستخدم صورة من صور الحضارة الإنسانية، وهي تدرج مدارج

التقدم والارتقاء. إذن لا بد من التدقيق في كل جزئية تتبع المراحل التي مر بها اللفظ، والأحوال التي اعترته فتضخمت معانيه الواقعية والاصطلاحية.

5– عدم إهمال العلاقة بين الألفاظ والمعاني، لأن هذه العلاقات توضح المفاهيم من جهة، وتغني المعاجم من جهة أخرى.

ولتحقيق المتطلبات السابقة ، يجب أن يحتوي المعجم على الآتي:

1– الشرح والتعريف والتفسير، حيث يشرح معنى اللفظ من خلال سماته الموجودة في حقله الدلالي، وقد يفسر بلفظ أو بعدة ألفاظ.

2– ذكر أصول الألفاظ ، ويشار إلى المجهول منها، وأصول المركب والمزجي والمختصر.

3– سرد المعاني مرتبة على أساس التسلسل التاريخي.

4– الفصل بين المداخل المتماثلة ذات الأصول المختلفة، أو المجالات الدلالية المختلفة، «المشترك اللفظي».

5– إتباع المداخل بفقرة تسرد فيها مترادفات المداخل، وتبين ما قد يكون بينها من فروق لغوية، وربما إن أمكن نضيف أسباب الترادف، وأنواعه إن وجدت.

6– إتباع المداخل بفقرة نسرد فيها الكلمات التي ترتبط بعلاقات (التباين والتعاكس والتخالف والتضاد).

7– إتباع كل معنى مفرد من معاني المدخل بمثل أو أكثر، يوضح ذلك المعنى أو يحدده على نحو يمتنع معه كل لبس ، وتتبين معه أدق الفروق والظلال .

8– إتباع كل المداخل بما يندرج تحتها من عبارات اصطلاحية والتي تدل على معان، لا يمكن أن تدرك من مجرد فهم معنى مفرداتها، مثل «رجع بخفي حنين». هذه العبارات يجب أن يشار إليها في الحقول الدلالية التي تتبعها ، وفي هذا المثال يرد التعبير تحت حقل «الخسارة / الخيبة» كذلك يذكر المصاحب اللفظي مثل (ورقة وقلم).

9– إيراد الألفاظ والعبارات العلمية، أو الدارجة ، وإيضاح مدلولاتها، وضرب الأمثال عليها ، مع التمييز بين ما هو عامي، وفصيح، وفي حالة العامي يوضح اللفظ الفصيح المرادف له ليستخدم بدلاً منه.

10– إيراد الألفاظ الشائع استخدامها الخاطئ، تحت مجالاتها الدلالية، مع تصويبها حتى نتمكن من التخلص من هذه الظاهرة مثال (رَقَم: رَقْم/ جَلَطة: جَلْطَة).

11– عند عمل أي مجال نذكر فيه ما يخصه مع إضافة الجانب الموسوعي الذي يقدم ألواناً من العلوم والمعارف تحت أسماء المصطلحات، والأعلام، والمشاهير من الرجال، والنساء منذ بدء الخليقة حتى الآن. وأيضاً يجب أن يحتوي على إحاطة بشتى المذاهب، والديانات المختلفة،

والنظريات العلمية في شتى المجالات، وجميع أسماء الأشياء، والبيئات، والفترات التاريخية. يتم ذلك من خلال لجان متخصصة بكل فرع من فروع العلوم في مستويات مختلفة من جمع المادة وكتابتها ومراجعتها ثم في مستوى أعلى من المراجعة تقدم التعريفات بشكل أدق وعلى وجه أكمل.

12- يزين المعجم بالصور، والرسوم، والأصوات التي تساعد على الشرح، ونقل المعاني بدقة، وأمانة وهو ما يسمى في مجال الحاسب بالوسائط المتعددة.

ويرى الدكتور نبيل علي أن المعجم العربي بحاجة إلى تطوير مستمر في ضوء المعطيات المعجمية العالمية، لذا فهو يحتاج إلى مراجعة شاملة لمنهجية توليد الكلمات، وزيادة العناية بعلم المعجم، والدراسات المعمقة لبناء قواعد بيانات معجمية للعربية الحديثة تشمل البيانات الصرفية والنحوية والدلالية لبناء معجم على أساس ذخائر النصوص، والإفادة من معاجم المفاهيم في بعض اللغات الأجنبية مثل معجم روجيه الإنجليزي، وبناء معجم للتعابير الاصطلاحية، وتحويل التعريفات في المعجم العربي إلى شبكات دلالية تشترك فيها جهات بحثية عدة، وإيجاد نظام آلي لتوليد المصطلحات الجديدة، وتوحيد الجهود في بنوك المصطلحات، والإفادة من كنوز التراث العربي في إغناء الذخيرة المصطلحية، وتطوير نظام آلي للتحليل المعجمي قادر على استنباط المكونات الدلالية للمفردات، والعلاقات الدلالية لأنواع التصاحبات اللفظية المختلفة.(77)

اللغة العربية والترجمة الحاسوبية:

الترجمة هي نقل معاني نص من لغة إلى أخرى مع مراعاة الدقة والأسلوب ويتطلب الأمر من المترجم أن يتقن اللغة التي يترجم منها واللغة التي يترجم إليها، وبالتالي هي النافذة التي يتم بوساطتها نقل معارف الأمم وثقافاتها وحضاراتها من لغة إلى أخرى. وقد عرفت الحضارات في عصورها المتعددة والمتلاحقة أنواعاً من الترجمات في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية والإبداعات والمخترعات العلمية، وسارت حركة الترجمة هذه وفق حاجات الأمم ومقتضيات تطورها، وكانت في حركتها الأولى تعتمد على الترجمة البشرية اليدوية، ونظراً للتطورات الحضارية المتسارعة في مجالات السياسة والاقتصاد والمعلوماتية واللوجستية والفكر والثقافة والاجتماع، وتفجر ثورة الإنتاج المعرفي، وقلة المترجمين وبطء عملية الترجمة اليدوية وكلفتها المالية فقد دعت الحاجة إلى البحث عن إمكانية إيجاد تقنية تحاكي العقل البشري في التعامل مع هذا كله، فكان الحاسوب الذي بدأ الاهتمام به من قبل علماء بريطانيين منذ عام 1949م، ودعت الحرب العالمية إلى الترجمة الآلية الفورية، وعقد مؤتمر حولها عام 1952م، وأنجزت جامعة جورج تاون بالتعاون مع شركة (IBM) أول مشروع للترجمة الآلية عام 1954م، واستمر الاهتمام حتى ظهرت عدة أنظمة للترجمة الآلية بين الأعوام 1970- 1980م ثم تطورت صناعة الحواسيب

واستخداماتها حتى أصبحت لا تكاد تخلو منه صناعة أو طريقة عمل، وأدت الحاجة أيضاً إلى التفكير الجدي في إدخال الحوسبة إلى الترجمة، فكانت الترجمة ضرورة تقنية وحضارية، واحتاج ذلك إلى تطوير الحواسيب لدرجة تمكنها من التعامل مع اللغات، وإعداد البيانات بصورة تتيح للحاسوب التعامل معها. وتشكل الترجمة أكبر التحديات للحاسوب في مجال اللغات البشرية، وذلك لأن التعامل مع اللغة البشرية يعتمد على الملكة العقلية للبشر.[(78)]

وأدت ثورة اللسانيات الحديثة في منتصف القرن العشرين إلى «الخروج من آلية التقوقع داخل اللغة القومية الواحدة إلى فضاء الظاهرة اللغوية العامة، ومن المناهج التأملية والاستنتاجية والنظرية إلى المناهج التطبيقية والآلية والإحصائية والرياضية والمقارنة، حتى إنه يمكن القول إنه لم يعد هناك أي دراسة لغوية أو صوتية خارج نطاق الآلة والمختبر، إلا في مناطق محدودة جداً من العالم، مثل المنطقة العربية، ولاسيما أقسام اللغة العربية التي لم تدخل الآلية في أبجديتها حتى الآن إلا في حالات محدودة جداً».[(79)]

ويميز المشتغلون في الترجمة الآلية بين نوعين من الترجمة، ترجمة نصوص المعلوماتية، وترجمة النصوص الأدبية، ويجمعون على أن ترجمة نصوص المعلوماتية أيسر من ترجمة النصوص الأدبية، لأسباب منها أن النصوص الأدبية تعتمد دائماً الإبداع الفكري الجمالي الذي يكون «للغة فيه دور أكبر من أنها وعاء لنقل المعلومة، بل إن التعامل مع تراكيب اللغة ذاتها من أهداف مبدع النص، أما الترجمة المعلوماتية فيهدف الكاتب فيها إلى نقل فكرة معينة أو معلومة ليس إلا».[(80)] ومن المؤكد أن الترجمة الآلية لا تستطيع ترجمة النصوص كاملة دون أن يكون للعقل البشري دور فيها، وهي تسعى إلى تقليل الجهد في ذلك بنسبة ما، لأنه من الصعوبة بمكان على الآلة حتى الآن القيام بعمل يتطلب ملكة عقلية لا يمكن برمجتها بشكل دقيق.

وتوصل الحاسوبيون (من رياضيين ولسانيين ومناطقة) في المرحلة الأولى منذ الأربعينيات من استخدام الحاسوب للترجمة الآلية المباشرة، وهو ما يعرف لديهم بـ «نظم الجيل الأول» إلى برامج تترجم كلمة كلمة عبر استخدام القواميس الآلية الثنائية اللغة، ووجدوا أن هذه الأنظمة تفتقر إلى التحليل العميق لمكونات الجمل، وأدركوا أن الترجمة الآلية والتحليل الآلي للغة لا يصبح فعلياً وفعالاً إلا بدراسات لغوية، ففكروا في إدخال قواعد لغوية إلى الحاسوب وقد دعت الحاجة المتزايدة لتهيئة الجو التقني المناسب لكي تؤدي التقانة دورها إلى الاهتمام بمعالجة كل ما يتعلق باللغة من حيث سماتها الدلالية واللغوية والصرفية للمفردات، وبدأ علماء اللغة بالتفكير الجاد في كيفية ترميز اللغة شكلاً باعتمادهم على علوم الرياضيات والمنطق الرياضي من أجل الوصول إلى لغة وسيطة بين لغة المصدر ولغة الهدف أي بين اللغة المترجم منها واللغة المترجم إليها، وبالتالي إيجاد لغة وسيطة واحدة لكل لغات العالم، تكون قادرة على تمثل المعاني بين

أكثر من لغة من خلال نماذج وبنى وسيطة مشتركة تسمح بتصميم النظم متعددة اللغات. وقد «واجه هذا الاتجاه صعوبات هائلة بل استحالة في تعريف اللغة الوسيطة الواحدة، وصعوبات في تعريف اللغة الوسيطة للغات من عائلة واحدة لوجود اختلافات صرفية ونحوية ودلالية بين اللغات من العائلات اللغوية المختلفة»[81]. وعرفت هذه الطريقة بالترجمة الآلية الوسيطية، نظم الجيل الثاني. وتطور الأمر إلى دراسة ما يسمى هندسة اللغة للوصول إلى الأمور الأكثر واقعية وفاعلية للتطبيق، مثل الخلاصة الآلية واستخلاص المعلومات والتحليل الآلي للنصوص وغير ذلك مما تحتاج إليه شبكات المعلومات (الانترنت والإنترانت) والحواسيب الشخصية المتزايدة، وهذا أدى إلى البحث عن الحلول الفاعلة لإيصال المعلومة إلى المستخدمين بأيسر الطرق وأسرعها[82]. وقد عرفت بالترجمة الآلية التحويلية، نظم الجيل الثالث، وهي تستخدم لغتين وسيطتين هما لغة المصدر ولغة الهدف، حيث تعمل على تحويل النص من لغة المصدر (المترجم منها) إلى بنية وسيطة باللغة نفسها، ثم نقل هذه البنية إلى لغة الهدف (المترجم إليها) ثم توليد النص في لغة الهدف انطلاقاً من البنية الوسيطة الهدف. وقد تميزت هذه النظم بأمور منها: «التغلب على استحالة تعريف لغة وسيطة شاملة لكل اللغات تحتفظ بميزة الحيادية والاستقلالية عن هذه اللغات، والتغلب على تعقيدات برمجة التحليل والتوليد التي تتعامل مع بنى وسيطة مجردة وبعيدة عن المميزات المحددة للغات»[83].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في الدراسات اللغوية للوصول إلى بيئة برمجية تلبي طلبات الترجمة الآلية إلا أن الترجمة الآلية طرحت مجموعة من المشاكل اللغوية وخاصة الدلالية والتداولية والتأويلية منها، واقترح نظام لتحليل المادة اللغوية تحليلاً معجمياً وتركيبياً ودلالياً مع القيام بوضع معادلة هذا التحليل في اللغة الهدف (المترجم إليها). وأصبح على الحاسوب أن يتعامل مع عناصر لاستقبال المادة اللغوية وتحليلها وأخرى للتعامل مع القواعد المخزنة في ذاكرته ثم تحويل هذه المادة إلى لغة أخرى. ويتطلب العمل في ذلك زيادة المعرفة في الرياضيات والمنطق وعلم النفس اللغوي والاجتماعي والذكاء الاصطناعي، «ومن المهم أن يوازي علم الألسنية الحديثة التطور التكنولوجي من دراسة الكلمات والجمل البسيطة إلى دراسة الجمل المعقدة ثم النص بشكل عام كوحدة تكاملية مع كل ما يحتويه من مفردات، وكل ما يتعلق بها من علامات الترقيم، ومكان الجمل في النص، ودراسة النص كنص رقمي موجود على الحاسوب ومتحرك[84].

ويرى بعض المتخصصين أن تصميم نظام الترجمة متعدد اللغات يستدعي مترجمين ولغويين ومهندسين كذلك؛ لأنه يجمع بين مفاهيم جديدة في المعالجة المتعددة اللغات والترجمة الآلية وحفظ البيانات المتعلقة بالترجمة، وتمثل الجملة الوحدة الأساسية في عملية الترجمة، كما يقدم هذا النظام مستنداً إلى قواعد، ويعمل مستعيناً بقاعدة بيانات معرفية، فبعدما يقوم

النظام بتحليل الجملة تحليلاً عميقاً، ويحدد مختلف التراكيب وفئات الكلمات يلجأ إلى تحليل الكلمات في سياقها ثم يبني الروابط الدلالية، وينتهي التحليل بتمثيل داخلي للجملة المعنية، أما كيفية توليد النص فتجري حسب اللغة الهدف بالقيام بطرق تحويل القواعد النحوية المبرمجة في قاعدة معرفية خاصة، تعنى بذلك. إن منهج هذا النظام طبعاً مختلف تماماً عن الترجمة اليدوية والحرفية، إذ إن ترجمته عملية يهتدي فيها بتحليل عميق للجمل وبالمعاني الدلالية للكلمات وخاصة التعابير المسكوكة والمستخدمة في مجال اختصاص معين، وضمن معيارية هذا النظام نجد مجموعة من القواميس عبارة عن قواعد بيانات تتعلق بالترجمة، ومحفوظة في ذاكرة الآلة المترجمة لتستخدم فيما يسمى بالترجمة المعاونة بالحاسوب، وهي الأكثر استعمالاً.[85]

وأكـد عـدد من الدراسـات في معالجـة اللغـات آلياً أن صعوبتها مرتبطــة بغنى اللغة العربية الطبيعية صرفاً ونحـواً ودلالـة، ولعل أهم مشاكـل معالجة اللغات حاسوبياً ظاهرة اللبس في الشكل والمعاني المتعددة لبعض المفردات.

في ضوء ما تقدم يتساءل المرء: ما واقع اللغة العربية في مجالات الترجمة الحاسوبية؟ وما سبل توطين التقانات الحديثة في الترجمة الحاسوبية باللغة العربية؟

إذا قارنا ما وصلت إليه كثير من اللغات من مكانة في تقانة الترجمة الحاسوبية بما وصلت إليه العربية نجد أن العربية أقل شأناً منها، وهي تواجه الكثير من المشكلات في الترجمة الآلية أجملها الدكتور محمد زكي خضر بالآتي:

- عدم وجود معجم عربي محوسب
- قلة النصوص المترجمة بين اللغة العربية واللغات الأخرى التي يمكن الإفادة منها في تكوين ذخيرة لغوية مفيدة للترجمة الآلية التي تستند إلى أسس إحصائية.
- قلة الأبحاث اللغوية المتعلقة بالترجمة الآلية من اللغة العربية وإليها، وعدم وجود دعم كاف للبحث في هذا المجال، ومن ذلك البحث في التحليل الإحصائي، والتعرف على الأصوات ومشكلة الكلمات متعددة المعاني، ومشكلة التحليل الصرفي المشترك، ومشكلة فهم المعنى من السياق، ومشكلة الإعراب والنحو، ومشكلة التشكيل.
- عدم وجود تعاون مشترك بين الباحثين في المعالجة الآلية للغة العربية والباحثين في اللغات الشرقية الأخرى كالتركية والفارسية والأوردية والبنغالية والماليزية والسواحيلية.[86]

وإذا أردنا أن نرقى بلغتنا إلى مكانة جيدة بين لغات العالم، والمحافظة عليها لأن تبقى اللغة السادسة في هيئة الأمم المتحدة، فيجب علينا الإفادة مما يأتي:

– الإفادة مما توصلت إليه مراكز البحث والدراسات على مستوى عالمي في مجال أنظمة الترجمة الحاسوبية مثل مشروع (EUROTA)الأوروبي و(CIMOS) والبيزيك (BASIC) وسيستران(Systran) التي تمتلك برمجيات للترجمة مثل بابل فيش (Bable Fish) وسوفتيسيمو(Softissimo) وأفانكيست (Avanquest)وباور ترانسلايتور (Power Translator) ومن محركات البحث على الإنترنت مثل التافيستا (Altavista) ومحرك البحث جوجل (Google) الذي يمتلك نظاماً خاصاً للترجمة.

– توثيق العلاقة بين المؤسسات ومراكز البحث العربية والجامعات العربية ومراكز البحوث المعنية بالترجمة الحاسوبية كمختبر الترجمة الآلية في جامعة السوربون ،ومختبر الترجمة الآلية في جامعة لينجراد ،ومعهد ماساشوتس للتقنية وغيرها على مستوى عالمي ،وترجمة المراجع الجيدة الأجنبية إلى العربية والسعي لجعل اللغة العربية لغة وسيطة للترجمة الآلية بين اللغات الشرقية ،والاطلاع على الدراسات والبحوث المتعلقة بها للإفادة منها في إغناء الدراسات العربية وحلول المشكلات التي تواجه اللغة العربية في مجال الترجمة الحاسوبية.

–اللغة لا تحيا إلا بالاستعمال ،ولذا فعلى جميع مؤسساتنا العلمية والتعليمية والأكاديمية اعتماد اللغة العربية لغة التدريس والبحث العلمي ،بدلاً من أن تكون اللغة الإنجليزية في المشرق العربي ،واللغة الفرنسية في المغرب العربي ،ولا شك أن هذا سيؤدي إلى حركة ترجمة نشطة في كل العلوم والمعارف ،وما دام أن الترجمة الآلية هي أفضل الوسائل لتحقيق ذلك ،فإن العناية والاهتمام بها سيفتح المجالات الواسعة للعربية لولوجها من باب الحاجة أم الاختراع.

– مضاعفة الجهود في مجال الترجمة، فقد كشفت الإحصاءات أن ما يترجمه العالم العربي من كتب قد لا يزيد على خمس ما يترجمه بلد أوروبي صغير مثل اليونان الذي يقل سكانه عن 5٪ من سكان الوطن العربي، ولعل هذا من أهم معيقات تعريب التعليم الجامعي.

– الإسراع في إنجاز المعاجم المصطلحية والمعالجات اللغوية النحوية والصرفية والدلالية العربية، وكل ما تحتاج إليه عملية الترجمة الآلية من دراسات وأبحاث لغوية تساعدها في تأدية عملها على أكمل وجه وأدقه.

– الدول في أوروبا وأمريكيا وآسيا هي التي تتولى دعم أبحاث الترجمة الحاسوبية وحوسبة اللغات القومية، وفي الوطن العربي تتم العملية بمبادرات فردية أو شركات محدودة الموارد، ولا تحظى بدعم مالي يمكنها من القيام ببحوثها ودراساتها، ونظراً لذلك تتوجه العقول العربية المبدعة إلى الشركات الأجنبية لتجري تجاربها على الترجمة الآلية للغة العربية، ولذا فإن الأمر يتطلب أن تعنى الدول العربية من خلال مؤسساتها المختلفة بخدمة اللغة العربية لأن في خدمة اللغة العربية خدمة للأمن القومي والأمن الثقافي والحضاري. ويتضح هذا الأمر من خلال استعراض مشروعات الأنظمة العربية الحديثة في مجال الترجمة الحاسوبية، ومنها:

- نظام المترجم العربي، قد طورته شركة (ATA) في لندن، ولها فرع الآن في مسقط بعُمان.
- نظام «عربترانز» طورته شركة عربية في لندن.
- نظام الناقل العربي، طورته شركة سيموس العربية في باريس، وهو يعد أكثر الأنظمة شهرة وطموحاً، إذ إنه يعمل من خلال أربعة برامج للترجمة بين الإنجليزية والعربية وبين الفرنسية العربية – برامج لكل اتجاه.
- نظام شركة أبتك (Apptek) طورته شركة عربية في واشنطن.
- الوافي، وهو برنامج مختصر من المترجم العربي.
- المسبار، ولعله مشتق من المترجم العربي.
- عجيب، وهو من إنتاج شركة العالمية.
- برنامج ترجمان التونسي.
- نظام سيستران (Systran) وهو برنامج للترجمة من الإنجليزية إلى اللغة العربية.
- نظام وايدنر (Weidner) وقد طور برنامجاً للترجمة من الإنجليزية إلى العربية.
- شركة أبلس (Apls) ولا يزال لديها برامج للترجمة بين عدد من اللغات وتطبق مبدأ الترجمة التحاورية.
- في فرنسا لدى جامعة غرينوبل (Grenoble).
- لدى شركة صخر محرك الترجمة الآلية الخاص بها لدعم موقع htt: / / www.tarjim.com/ وهو يقدم خدمة ترجمة فورية لأي صفحة، وكان مجانياً، وتحول بالأجور.
- برنامج شركة جوجل (google)، وهو يستند إلى الترجمة الإحصائية من ذخيرة لغوية مأخوذة من الإنترنت. وهذا البرنامج يتعلم من أخطائه، فإذا ما ترجم جملة خاطئة وأخبره المستخدم أن الترجمة خاطئة، وأن المفروض أن تكون بشكل آخر، فإنه يخزن هذه المعلومات ويستعملها في المستقبل بشكل أصح.
- هناك عدد من البرامج غزت الأسواق العربية، إلا أن كثيراً منها يفتقر إلى البرمجة المتطورة، مثل الكافي والمترجم الذهبي والمترجم الفوري وغيرها.

والقصد من ذكرها ليس الحصر، وإنما التمثيل بأن هناك برامج وإمكانات فنية في الوسط العربي تحتاج إلى دعم مالي لتطوير أعمالها في مجال حوسبة اللغة العربية يجب ألا نهملها ونغفل عنها، وندعها تموت أو يوظفها غيرنا لخدمة مصالحه وتحقيق أهدافه ومطامعه.

شبكة المعلومات (الإنترنت)

تمثل شبكة المعلومات (الإنترنت) تطوراً مهماً في التقانة الحديثة، كما أنها وسيلة فاعلة في عملية التواصل والاتصال بين الأفراد والشعوب والثقافات والحضارات،وتحظى باهتمامات بالغة الأهمية على الصعيد التقني والصعيد اللغوي، أما على الصعيد التقني فهي وسيلة توفر للمستخدم أفضل الخدمات، وتجيب عن كثير من التساؤلات التي نحتاج إليها في مختلف مكونات البحث العلمي والمعرفة الإنسانية، ومجالات المال والاقتصاد والتجارة والصحافة والمؤتمرات والمكتبات وغير ذلك.

أما على الصعيد اللغوي فعلاقتها باللغة علاقة وثيقة، كون اللغات هي الوسيلة التي تُمَثَّل بوساطتها المعلومات المتوافرة في صفحات المواقع التي يبنيها الأفراد والمؤسسات والدول «والتي تُجرى عليها المعالجات الآلية المتعددة مثل البحث بالاعتماد على المضمون، والتصفية قصد انتقاء المعلومات المفيدة والمخزنة داخل هذه المواقع، وفهرسة الوثائق للتعرف على المفاهيم المستعملة داخلها... وهي ركيزة التخاطب مع الشبكة لطلب الخدمات ولصياغة الأسئلة الموجهة للنظم المتوافرة في الشبكة».[87]

حظيت اللغة الإنجليزية بقصب السبق بين جميع اللغات في أن تكون اللغة الأولى والمتميزة في هذه الشبكة، لأن هذه الشبكة بدأت في الولايات المتحدة منذ عام 1969 لحاجة وزارة الدفاع الأمريكية إليها، وبقيت فيها سنوات عدة قبل أن تنتشر في أنحاء العالم، فكانت جل الصفحات والمواقع إنجليزية، والشبكة لا تتعامل إلا باللغة الإنجليزية لدى مستعمليها. وتوسعت وربطت بها شبكات أخرى من جميع أنحاء العالم، وأضحت اليوم مجموعة كبيرة من الشبكات الحاسوبية ومجموعة من العبارات (gateways) تقوم بوصل الشبكات مستخدمة لذلك بروتوكولات اتصالات مختلفة. ودخلت اللغات بدرجات متفاوتة في هذه الشبكة، حيث توافرت صفحات ومواقع مكتوبة بهذه اللغات، كما توافرت الأنظمة متعددة اللغات مثل محركات البحث وأنظمة البريد الإلكتروني، وأخذت الدول تتسابق في تقديم خدمات كثيرة بلغاتها من خلال ما وفرته من مواقع وصفحات على مواقعها، وازداد الإقبال عليها، وكثر عدد مستعمليها حتى قفز من (50) مليون عام 1996م إلى (400) مليون عام 1999م.

ويلاحظ أن نسبة الارتباط بشبكة الإنترنت لسكان الوطن العربي تبلغ 1٪ وهي من النسب الضعيفة في العالم تليها الهندية والصينية 2٪ والروسية 4٪ والبرتغالية 6٪ واليابانية 20٪ والألمانية 22٪ والإنجليزية 54٪[88] وفي إحصائية جديدة 68٪.

ويقودنا هذا إلى التساؤل عن المكانة التي وصلت إليها اللغة العربية كلغة فاعلة من لغات التخاطب في هذه الشبكة.

إن اللغة العربية تواجه تحدياً خطيراً يتهددها وهي مهمشة في بيئة رجال الأعمال، والنشر العلمي، وتبادل الخبرات التقانية، والتعليم العالي والمؤتمرات العلمية؛ ولذا فإن المحتوى العربي على (الإنترنت) يواجه ضعفاً يحرم كثيراً من أبناء المجتمع العربي من الإفادة مما تقدمه الإنترنت من خدمات، وقد أدركت الدول العربية أهمية تطوير المحتوى الرقمي للعربية في هذه الشبكة، وتعزيزه، وسارعت إلى مبادرات عدة، منها: [89]

1. قام مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي في مكتبة الإسكندرية، بالتعاون مع وزارة الاتصالات المصرية، بإنجازات مهمة لتوثيق التراث المصري. هذا وتعهد مجلس وزراء الاتصالات العرب مشروعاً إقليمياً لتوثيق التراث العربي.

2. قامت حكومة دبي بتطوير الخدمات الحكومية الإلكترونية.

3. أعلنت شركة سعودية ألمانية، في 3 أبريل (نيسان) 2006، أنها ستطلق محرك بحث يُدعى سوافي، يدخل في الحسبان جميع خصائص اللغة العربية.

4. أطلقت وزارة التعليم العالي السورية في عام 2002 مشروع الجامعة الافتراضية، التي تستخدم شبكة الإنترنت للتعليم عن بُعْد. وتنفذ وزارة الاتصالات والتقانة، بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مشروع بوابة إلكترونية للمناطق الريفية لتقديم خدمات لأبناء الريف، تساعدهم في الاستفادة من الإنترنت، وتعينهم في حياتهم اليومية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

5. نُفذ في لبنان مشروع يهدف إلى تعزيز نمو التجارة الإلكترونية، وذلك بوضع إطار قانوني وتنظيمي مناسب لمختلف العمليات التجارية الإلكترونية، ضمن إطار المشاركة الأوربية المتوسطية بمساهمة من المفوضية الأوربية. نتج عن هذا المشروع بوابة إلكترونية للتوعية بالتجارة الإلكترونية، ودليل لمواقع التجارة الإلكترونية في لبنان، ونصوص التشريعات الضرورية لتطبيق التجارة الإلكترونية.

6. أعلنت مجموعة «مكتوب» طرحَ محرك بحث عربي على شبكة الإنترنت، يستعمل قواعد اللغة العربية في عمليات ونتائج البحث، ويفهرس جميع المواقع العربية الموجودة على الإنترنت.

7. مشروع الذخيرة اللغوية العربية الذي تعهدته جامعة الدول العربية، والذي يشارك فيه حالياً معظم الدول العربية. يهتمّ هذا المشروع بتخزين الكلام العربي المكتوب، من شعر ونثر، ودراسات وكتب، وأدبٍ وعلوم، منذ بداية الكتابة العربية إلى يومنا هذا، إضافةً إلى

محركات بحث فعّالة. وإلى جانب هذه الذخيرة اللغوية هناك محاولات تخزين أخرى، منها مدونة اللغة العربية، التي يشرف عليها الدكتور عدنان عيدان، والمدير التنفيذي لشركة ATA لتنفيذ البرامج في لندن. تجاوز حجم هذه المدونة مليار كلمة عربية، وربما يبلغ في المستقبل عشرة مليارات كلمة.

8. هناك مشاريع أخرى عديدة، نذكر منها مشروع الوراق، والبوابة العراقية للأخبار، والنقاش والحوار.

وأطلقت الألسكو عام 2003م مبادرة المحتوى العربية، وتضمنت مهاماً أساسية ومهاماً مساندة، أما المهام الأساسية، فكانت:

- صياغة إستراتيجية عربية لصناعة المحتوى؛
- وضع خطة إجرائية لدفع صناعة المحتوى العربية، وتحديد المشاريع الإستراتيجية؛
- الحصول على مساندة المنظمات الدولية والإقليمية لتمويل الخطة؛
- إقلاع بعض المشاريع الإستراتيجية.

أما المهام المساندة فكانت:

- تكوين منتدى لرواد المحتوى العربي وصناعته؛
- القيام بحملة ترويج وتوعية لأهمية المحتوى العربي وصناعته؛
- حصر الموارد العربية ذات الصلة بالمحتوى؛
- حصر مصادر التمويل.[90]

ومما تجدر الإشارة إليه أن التحرك العملي لتنفيذ هذه المبادرة كان بطيئاً.

وفي دراسة أخرى للإسكوا عام 2005م بينت أن صناعة المحتوى العربية تحتاج إلى بيئة تمكينية، وأهم عناصرها هي:

- اعتماد إستراتيجية واضحة لصناعة المحتوى الرقمي على المستويين الإقليمي والوطني؛
- تهيئة بيئة تشريعية وقانونية ومالية مؤاتية؛
- تأمين النفاذ الشامل إلى الإنترنت ووسائل الاتصالات؛
- إجراء دراسات وبحوث خاصة باللغة العربية والمصطلح العربي؛
- تهيئة البيئة البرمجية المساعدة على تطوير المحتوى الرقمي العربي (بما فيها البرمجيات التطبيقية العربية، ومعالجة اللغة العربية، ومحركات البحث، وأدوات الترجمة الآلية)؛
- تأهيل الأطر البشرية لتطوير المحتوى الرقمي.[91]

ويحتاج تنفيذ هذه البيئة إلى تضافر الجهود والتعاون بين الحكومات العربية وشركات القطاع الخاص والجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات الأهلية والمنظمات الإقليمية.

ولغايات تطوير المحتوى الرقمي العربي على شبكة المعلومات (الإنترنت) فإن الحاجة تدعو إلى العمل على المستوى العربي في الموضوعات المهمة الآتية:

1. محرك بحث فعّال باللغة العربية، يستطيع معالجة الأخطاء الشائعة (هناك محرك بحث لشركة صخر).
2. نظام الأسماء العربية للنطاقات، وكتابة أسماء المواقع على الإنترنت باللغة العربية.
3. محركات للترجمة الآلية بين مختلف اللغات العالمية للتعامل مع الاختلافات في طرق الكتابة بين المشرق العربي ومغربه، (من محركات الترجمة الآلية المتوفرة حالياً: المسبار).

هذا وتعدّ برمجيات المصدر المفتوح أساساً لتطوير تطبيقات المحتوى الرقمي، سواء أكانت على شبكة الإنترنت، أم على الهاتف المحمول، إنّ لهذه البرمجيات مزايا متعددة، منها انخفاض الكلفة، وقابلية التعديل، والتكيّف مع احتياجات المستثمرين ورغباتهم، وأهمية البعد التعليمي للجامعات ومراكز البحوث.(92)

إن الإصطلاح اللغوي المطلوب لما ذكر آنفاً لا بد أن يتم بأقصى سرعة ممكنة حتى لا تتسع الفجوة اللغوية التي تفصل بين العربية ولغات العالم المتقدم، وأن تقانة المعلومات بما توفره من وسائل عديدة في المجال اللغوي تتيح فرصاً عديدة لتخليص العربية من أزمتها الراهنة، واستعادة مجدها القديم، حتى تمارس دورها الحضاري المنوط بها في لم الشمل العربي.

وقد أظهرت الإنترنت سواء على صعيد البحث أو البث مدى حدة هذه الأزمة الطاحنة التي ترسخت حتى كادت تصبح عاهة حضارية شوهاء تلطخ جبين أمتنا العربية.

وهذا يؤكد أن تعريب عناوين الإنترنت (أسماء المواقع المبنية على أسماء النقاطات وعناوين حسابات البريد الرقمي الإلكتروني المنشأة على تلك الأسماء) ضرورة لغوية وثقافية وقومية للحفاظ على اللغة العربية والكيان الثقافي واستقلالية الكينونة الوطنية والذات العربية، ولإتاحة الفرصة للإفادة منها على نطاق واسع في العالم العربي لمختلف شرائحه: أفراداً ومؤسسات رسمية وأكاديمية وتعليمية واقتصادية وتجارية ومدنية وخدمية، وتوثيق العلاقات الثقافية والعلمية والحضارية، وتبادل المعلومات بين المؤسسات والجماعات العربية.

وقد بذلت جهود عدة في هذا المجال، منها مجموعة العمل التي شكلتها منظمة الإسكوا (ADNIT) والمجوعة المتخصصة التابعة لجامعة الدول العربية التي شكلتها اللجنة التحضيرية للقمة

العالمية لمجتمع المعلومات بتونس، ومنظمة ائتلاف أسماء الإنترنت متعددة اللغات (MINC) التي تتمسك بضرورة اعتماد معايير اللغات من جهات موثوقة من بلدان تلك اللغات، والتركيز على محارف الحروف دون الدخول في تفاصيل الخصوصيات اللغوية الأخرى، والائتلاف العربي لأسماء الإنترنت، وهي منظمة طوعية مؤلفة من شركات وأفراد، وتهدف إلى وضع معايير لغوية عربية لعناوين الإنترنت، والبحث عن الحلول المناسبة لحل المشكلات التي تعيق تحقيق هذا الهدف، غير أن أداءها شابه تسرع وغياب المنهجية وعدم الوضوح والبطء في العمل.

ويواجه تعريب عناوين الإنترنت مشكلات تتعلق بطبيعة الكتابة العربية، مثل الشدة وأثرها على المعنى وتشابه الأسماء، والفراغ وانعكاسات وروده بعد الأحرف غير الملتصقة بما بعدها وأثرها على تشابه الأسماء وعدم قبول اللغة ومستخدميها لمسألة (الشارحة أو الفاصلة –) والفواصل الوضعية لعباراتها، وأثر حركات التشكيل على احتمالات تسجيل الاسم الواحد، وأثر اختلاف قواعد الإملاء على مسألة تشابه الأسماء، وتسلل بعض المحارف الهجينة على الكتابة العربية في الإنترنت والهاتف المحمول، مثل وضع رقم 3 بدل حرف ع، ورقم 7 بدل حرف ح،[93] وغيرهما.

واقترحت عدة حلول لذلك، منها: تأجيل عناصر الشكل حالياً، واقتصارها على واجهة التعامل مع المستخدم دون الدخول في عملية التحويل إلى أرقام، وإهمال (الشارحة أو الفاصلة –) وتجنب تعدد أشكال الحروف كالهمزة في أول الكلمة ووسطها والألف المقصورة والياء.

أما بالنسبة لأسماء النطاقات مثل (Com– Gov– ORG– NET– EDU) فقد اقترحت مقابلات عربية لها مثل (شرك – حكم – نظم – شبك – علم) ورموز البلدان مثل (بح مقابل bh) للبحرين، و(جز مقابل dz) للجزائر...

إن هذه الحلول حلول أولية والمؤمل أن تؤسس مؤسسة علمية ذات مهام مماثلة لـ(ICANN) تتولى تنظيم ومراقبة مسائل تعريب هذه العناوين والإفادة من الطروحات والمشروعات التعريبية على مستوى الخبراء في عدة مجالات وفي مختلف البلدان لاعتماد الأدق لغوياً والأسلم قاعدياً. وعلى الحكومات العربية والمؤسسات والشركات ذات العلاقة توفير التمويل اللازم لهذه المؤسسة، ومنحها الصلاحيات اللازمة لتكون جهة ذات مرجعية قانونية عريضة وواسعة التمثيل، وقابلة للبقاء لوضع المعايير المطلوبة، وتقدم باستمرار للغة العربية الضوابط الناظمة. لظهورها الصحيح على الإنترنت، لتواكب باستمرار الجهود العالمية المتسارعة التي تعمل على هذه المسألة. والإفادة من جهود ائتلاف أسماء الإنترنت متعددة اللغات (MINC) وورشة مهندسي الإنترنت (IETF) التي وضعت الخطوط العامة الناظمة لمسألة العنونة بغير الإنجليزية عبر عدة شروط، أهمها الالتزام بمحارف اللغة الواحدة، وعدم المزج بين أكثر من لغتين، وتوفير الحل على جهاز المستخدم عبر برمجية تتولى عملية تحويل الاسم، وقد صادقت منظمة أيكان (ICANN) على مطالبها.

وإننا أمام ظاهرة غريبة في الهاتف المحمول، وهي ظاهرة استخدام لغة هجينة في التراسل بين مستخدميه يتيحها نظام التشغيل المزود به، فالحرف العربي بأشكاله كافة متاح في هذه الأجهزة شأنها شأن الحواسيب وسائر الأجهزة التقنية المعربة. والملاحظ على اللغة التي يستخدمونها أنها ذات رموز وحروف خاصة، ظهرت في الأجهزة المحمولة من خلال تقنية الرسائل القصيرة (SMS).

وبالإضافة إلى اللغة الهجينة التي هي خليط من العربية والإنجليزية التي أصبحت تعرف بما يسمى (العربيزي) من حيث كتابة العربية بحروف لاتينية، واستبدال بعض الأرقام بحروف عربية، وكتابة بعض الكلمات الإنجليزية بحروف عربية مثل (مسّج، مسج، كانسل) وغيرها، واللغة التي تستعمل في الجهاز المحمول لا تخضع لقواعد لغوية متعارف عليها، وتكثر فيها المختصرات للتعبير عن المشاعر بالرموز، مثل: العلامة(C:) للتعبير عن الابتسام، والعلامة (: د) للتعبير عن الحزن، والعلامة (:ُ د) للتعبير عن البكاء إلى غير ذلك، كما أنها يغلب عليها صفة التشفير، ولا يفهم معانيها إلا من يستعملها. ويهدف الذين يستخدمون هذه اللغة (الشات) إلى أمور منها: توفير مساحة من الحرية والخصوصية والسرية حتى لا يعرف غيرهم شيئاً مما يدور بينهم من حوارات. وتوفير الجهد والمال، والتخلص من مشكلات ضبط الكلمة بالحركات والوقوع في الأخطاء الإملائية، إن اختيار الشباب لغة وتقانة خاصة بهم هو تمرد على النظام الاجتماعي، لذا حاولوا ابتداع لون من التقانة لا يستطيع أحد فك رموزها غيرهم.

إن هذه الظاهرة خطيرة جداً على لغة الشباب وثقافتهم، والمحذور منها ظهور لغة موازية يستخدمونها في تواصلهم واتصالهم عبر الإنترنت تهدد مصير لغتهم وثقافتهم وسلوكهم. وتغليب اللهجات العامية على اللغة العربية السليمة وانعدام الرابطة اللغوية بين أبناء الأمة العربية، وضعف الأداء اللغوي السليم، وانفصالهم عن تراث أمتهم وحضارتها.

إننا مطالبون بالتصدي لهذه الظاهرة ودراستها دراسة علمية عميقة، تشخصها، وتبين أسبابها الاجتماعية واللغوية والثقافية والقومية وإيجاد الحلول العلمية والعملية، والإفادة من المعطيات والحلول التي عالجت فيها بعض الدول ما تواجه لغاتها من مثل هذه الانحرافات والظواهر الخارجة عن لغاتها.

إن ما تعانيه العربية حالياً يرجع إلى عجز أهلها لا إلى نقص في تأهيلها، فاللغة العربية مؤهلة ليس فقط لتلبية مطالب مجتمع المعرفة بل أيضاً لتساهم بدور ريادي في مجال المعرفة اللغوية على النطاق الإنساني، وذلك بفضل ما تتسم به منظومتها من توازن دقيق على المستوى الفيلولوجي وتوسطية لغوية فريدة ما بين لغات العالم المختلفة على مستوى الوحدات اللغوية المختلفة: حرفاً وصوتاً ولفظاً وتركيباً.[94]

إن ما مرّ بنا يدعو إلى الإسراع في تعريب أنظمة التشغيل وأوامرها التي تعمل من خلالها الأجهزة التقنية لجعل نظام التشغيل يقبل الحروف العربية كمدخلات ومخرجات في مجال المعالجات اللغوية: النحوية والدلالية والصرفية والمعجمية والصوتية والترجمة الحاسوبية والذكاء الاصطناعي وشبكة المعلومات (الإنترنت) والجهاز المحمول وتشفير الحروف وملفاتها، وتعريب الشاشة الحاسوبية، ولوحة المفاتيح والطابعات.

ونجد في الرؤية إلى تعريب لغات البرمجة اتجاهين: اتجاه يرى أن في تعريبها إضاعة للوقت لأنه بالإمكان عمل تطبيقات عربية دون الحاجة إلى لغات برمجة عربية، وأن التحويل من لغة برمجة ما إلى لغة برمجة عربية أمر سهل، ويؤدي إلى فهم جيد وبخاصة مع اللغات التي تشترك في صفات وخصائص معينة. واتجاه آخر يرى أن استخدام لغة برمجة أجنبية يعني شيئاً من التبعية، وأن الحاجة تدعو إلى برمجة عربية ليكون لدينا حرية في التطوير وفق ما تحتاج إليه العربية؛ وأن في تعريبها حفاظاً على اللغة العربية وتطويرها واحترامها، ودفعها إلى مصاف اللغات العالمية. وقد بذلت جهود عربية في هذا المجال إلا أنه لم يكتب لكثير منها النجاح بسبب عدم رعاية المؤسسات التعليمية الرسمية والخاصة لها، وضعف تسويقها لوجود البديل ومحدودية التواصل بين المطورين، والمبالغة في المحافظة على الملكية، وضعف الصياغة لبعض البرمجيات.

وعلى علماء اللغة والحاسوب العمل الجاد للتغلب على ما تواجهه عملية التعريب هذه من حيث عدد حروف العربية، وشكل كتابتها ونطقها واختلاف أشكالها وحركات ضبطها، وثنائية اللغة عند كتابة الإنجليزية متداخلة في سطورها إلى غير ذلك لتأهيل العربية في التعامل مع التقنية الحديثة بكل يسر وسهولة.

التوصيات

– أن تعمل الجامعات العربية والمؤسسات العلمية ومراكز البحث العلمي وفق سياسة عربية موحدة؛ لأن يكون لها مساهمة فاعلة في الثورة المعلوماتية التي تدعو دائماً إلى تطور التقانة الحديثة، وذلك من خلال العناية بالدراسات اللغوية الحديثة في جميع فروعها ومجالاتها لحل جميع المشكلات التي تواجه اللغة العربية في التقانة الحديثة، والإفادة من الدراسات والأبحاث العالمية في هذا المجال التي بدأت مبكرة جداً عن أبحاث اللغة العربية بحوالي أربعين عاماً، وعلينا ألا تبقى اللسانيات ولسانيات الحاسوب غائبة عن الدراسة والتطبيق في مدارسنا وجامعاتنا ومراكزنا العلمية والتعليمية. وبعبارة أخرى تكوين قيادات بحثية في أقسام اللغة العربية ذات خلفية حاسوبية جيدة، وفي أقسام الحاسوب ذات خلفية جيدة باللغة العربية لكي يكون التواصل والبحث العلمي على أفضل وجه.

– أن تقوم المنظمات القومية بدورها في خدمة اللغة العربية، مثل جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، ومجامع اللغة العربية، وذلك بإنشاء مؤسسة علمية بحثية متخصصة في مجال حوسبة اللغة العربية، ومدّها بالعلماء المتخصصين في مجال التقانة الحديثة والعلماء اللغويين، وتوفير البيئة العلمية البحثية لها ورصد الأموال الكافية للبحث، ولكي تكون المظلة العلمية التي تحتوي الجهود الرسمية والخاصة في مجال معالجة اللغة العربية حاسوبياً على مستوى الوطن العربي.

– أن تعمل الدول العربية مجتمعة على وضع سياسة لغوية موحدة على مستوى الوطن العربي وفق استراتيجية متكاملة متنامية لخدمة اللغة العربية حاسوبياً وتقنياً، وتوفير الدعم المالي اللازم لاستمرار الجهود وإجراء البحوث، والتطوير الدائم لمواجهة ما يجد في هذه التقانة.

– اللغة لا تحيا إلا بالاستعمال، ولذا فعلى جميع مؤسساتنا العلمية والتعليمية والأكاديمية اعتماد اللغة العربية لغة التدريس والبحث العلمي، بدلاً من أن تكون اللغة الإنجليزية في المشرق العربي، واللغة الفرنسية في المغرب العربي، وهذا يتطلب العناية التامة ببرمجيات التعليم باللغة العربية، وأن يكون لها حضورها في مختلف مراحل التعليم العام والجامعي، وهذا يحتاج إلى فريق عمل متكامل من متخصصين في النظريات اللغوية ونظريات التعلم وأساليب التدريس ومن المتخصصين في تقانة التعليم والمعالجات الحاسوبية اللغوية، للتوصل إلى معالجة ما تواجهه أنظمة التشغيل من عرض البيانات وبخاصة النصوص المشكولة، وإدخال البيانات التي تحتاج إلى نوافذ عربية بدلاً من الأجنبية، والتحكم في صفحات العرض المتغيرة من حيث لغة الشرح ولغة العرض ومستوى صعوبتها، وسرعتها وترجمتها، وصوتها، وقراءتها، وقواعدها، وتقييمها، وتحليل الأخطاء، والاختبارات، والتواصل الإلكتروني من خلال النصوص المكتوبة وبخاصة المصدر المفتوح، والمحاكاة، ومعالجة اللغات الطبيعية من خلال الفهم الاصطناعي، والحوار بين المتعلم والبرنامج التعليمي وغير ذلك. ومما تجدر الإشارة إليه أن العقبات التي تمكن الخبراء في هذا المجال من اجتيازها كبيرة، غير أنه لا يزال الأمر يحتاج إلى الكثير من العمل للتغلب على ما بقي منها، مما سيؤدي إلى نهضة تعليمية متطورة معتمدة على التقانة الحديثة في التعليم، وبالتالي فإن التعليم وسيلة مهمة في توطين التقانة باللغة العربية.

– يقع على عاتق أساتذة الجامعات في أقسام اللغة العربية وأقسام الحاسوب وكليات التربية مسؤولة مهمة في توطين التقانة باللغة العربية، وذلك من خلال توجيه طلبة الدراسات العليا لاختيار رسائلهم الجامعية في موضوعات معالجة اللغة العربية حاسوبياً.

– على شركات البرمجيات على مستوى الوطن العربي أن تطور عملها، وأن تعمل على توحيد جهودها في مجال معالجة اللغة العربية حاسوبياً؛ لتتمكن من الوصول إلى برامج حاسوبية ذات مستوى عال في تعليم اللغة العربية بخاصة، وخدمة اللغة العربية تقنياً بعامة.

- إغناء المحتوى الرقمي للغة العربية على شبكة الإنترنت؛ لأن اللغة التي لا تدير أو لا تتدبر العمل في المحتوى الرقمي تنحسر عن الحياة تدريجياً، ومن المؤكد أن الحضارات لا يكتب لها الديمومة والاستمرار إلا بمحافظتها على لغاتها.

- المشكلة الكبيرة في قضية أسماء النطاقات العربية تعود إلى أمرين: عدم اهتمام أهلها بالدفاع عنها وعدم استعدادهم لتمويل الأبحاث والدراسات الخاصة بحل هذه القضية، وندرة وجود اللغة العربية على الإنترنت، ولذا جاء المحتوى الرقمي العربي ضعيفاً وعشوائياً وغير احترافي وغير تفاعلي، ومحركات بحثه العربية غير فعالة، وبواباته العربية نادرة، لا يتجاوز دورها تنسيق المحتوى العربي الرقمي وتصنيفه. والأمر يتطلب وضع إستراتيجيات مدروسة لإغناء المحتوى العربي الرقمي من خلال صناعة عربية للمحتوى الرقمي وليس صناعة محتوى فحسب تتضافر في صناعته جميع الجهات العلمية والتقنية على مستوى الوطن العربي.

- الترجمة بمختلف أشكالها وأنواعها ووسائلها وسيلة مهمة في التواصل الثقافي والحضاري العالمي، وأصبح للترجمة الآلية دورها الأساسي في ذلك، وإذا رغبنا في الوصول إلى ترجمة جيدة فعلينا أن نعنى بالمعينات الحاسوبية للترجمة، وأن نوفرها بلغة عربية من مثل توفير بنوك المصطلحات الآلية والمعاجم الحاسوبية والمحوسبة أحادية اللغة وثنائيتها، والموسوعات المحوسبة، وقواعد معلومات النصوص المترجمة، ومنسق النصوص، والتدقيق الإملائي، والمكانز الدلالية (معاجم المتـرادفات، والتدقيق النحوي والأسلوبي، وبرامج الإملاء الآلي، والبريد الإلكتروني لتصل إلى ما يسمى بمحطة عمل المترجم (station work translator) التي يجد فيها المترجم كل المعينات المذكورة ليختار منها ما يراه مناسباً لمتطلبات عمله.

- والواجب يملي على العلماء اللغويين والحاسوبيين السعي في البحث والابتكار والتطوير في الدراسات اللسانية الحاسوبية الخاصة باللغة العربية، وعدم الاعتماد على الترجمات المنقولة عما يبتكره علماء الغرب وغيرهم ومحاولة إقحامه على اللغة العربية، وتكييفها لتناسبه.[95]

-وأخيراً فإن تعريب أدوات التقانة ونظم التشغيل وبرمجياتها لجعل نظام التشغيل يقبل الحروف العربية كمدخلات ومخرجات في مجال المعالجات النحوية والدلالية والصرفية والمعجمية والصوتية والترجمة الحاسوبية والذكاء الاصطناعي وشبكة الإنترنت ،والجهاز المحمول،وتشفير الحروف وملفاتها ،وتعريب الشاشة الحاسوبية ولوحة المفاتيح والطابعات،ضرورة لغوية وثقافية وقومية للحفاظ على اللغة العربية والكيان الثقافي واستقلالية لغة الكينونة الوطنية والذات العربية، ولإتاحة الفرصة للإفادة مما تقدمه هذه التقانة من فوائد جمة للأمة العربية أفراداً ومؤسسات رسمية وأكاديمية وتعليمية واقتصادية وتجارية ومدنية وخدمية ،وتوثيق العلاقات الثقافية والعلمية وتبادل المعلومات بين المؤسسات والجماعات العربية.

الهوامش

(1) الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي السلفي، 185/11، مطبعة الوطن العربي ، بيروت 1400هـ / 1980م، منافحات في اللغة العربية، صالح بلعيد، ، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، ص 10.

(2) الحموي، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، 22/1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1993م.

(3) الثعالبي، فقه اللغة، تحقيق جمال طلبة، ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1441هـ/1994م، ص25.

(4) المصدر نفسه، ص146.

(5) المصدر نفسه 217/1.

(6) الهوية العربية في عصر العولمة، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، ط1، الشارقة، 2006م، ص13.

(7) مجلة التعريب، العدد (28)، ص16.

(8) عبد العزيز الدوري، الموسم الثقافي الحادي عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1993م، ص24.

(9) عثمان السعدي، العبرنة الشاملة والتحكم بالتكنولوجيا المعاصرة في الكيان الإسرائيلي، جامعة الكويت، نقلاً عن مجلة التعريب العدد (28) ص16، ص5.

(10) محمود السيد، مجلة التعريب، العدد [28].

(11) محمود السيد، مجلة التعريب، العدد 28، ص19، 2005م.

(12) نبيل علي، اللغة العربية وتحديات العصر، بحث منشور في كتاب الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1422هـ/ 2001م، ص78.

(13) بن عيسى باطاهر، الدور الحضاري للعربية في عصر العولمة، ط1، ص13، الشارقة، 1424هـ/ 2001م.

(14) نبيل علي، اللغة العربية وتحديات العصر، ص 79.

(15) المرجع نفسه، ص80.

(16) أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ط1، الرياض، 1422هـ/2001م، ص30.

(17) نبيل علي، اللغة العربية وتحديات العصر، ص92.

(18) المرجع نفسه، ص93.

(19) علاء الدين العجماوي، المعالجة الآلية للغة العربية بين الواقع والتحديات، الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1422هـ /2001م، ص71-72.

(20) محمد بطاز، بناء الأجهزة الحديثة وفق خصائص العربية، بحث شارك فيه بالموسم الثقافي السادس والعشرين لمجمع اللغة العربية عام 2008م، لم ينشر حتى الآن.

(21) نبيل علي، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 200م، ص105.

(22) المرجع نفسه، ص105-106.

(23) المرجع نفسه، ص106.

(24) المرجع نفسه، ص107-108.

(25) المرجع نفسه، ص105.

(26) المرجع نفسه، ص111.

(27) المرجع نفسه، ص112.

(28) المرجع نفسه، ص120-132.

(29) المرجع نفسه، ص109.

(30) محمد بطاز، بحث "بناء الأجهزة الحديثة وفق خصائص العربية".

(31) المرجع نفسه.

(32) الفجوة الرقمية، ص315-330.

(33) المرجع نفسه، ص330.

(34) انظر دليل الباحث إلى اللسانيات الحاسوبية العربية، وليد عناني، وخالد جبر.

(35) سعد مصلوح، اللسانيات العربية المعاصرة والتراث، حصاد الخمسين، كلية الآداب، جامعة الكويت، الفجوة الرقمية، ص332.

(36) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط2، دار البشير، عمان 1408هـ/1987م، ص25.

(37) الفجوة الرقمية، ص

(38) الفجوة الرقمية، ص333.

(39) المرجع نفسه، ص333.

(40) من مثل: نهاد الموسى، المرجع السابق، عبده الراجحي، النحو العربي، بحث في المنهج، ميشال زكريا، بحوث السنية العربية، محمد عبدالمطلب، النحو بين عبدالقاهر وتشومسكي، العدد الأول 84 – مجلة فصول، المجلد الخامس.

(41) عبدالقادر الفاسي الفهري، البناء الموازي، نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، دار توبقال، ط1، 1988م.

(42) عبدالقادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال، الدار البيضاء، 1985م.

(43) الفجوة الرقمية، ص332 يذكر أنه قام بصياغة نحو رياضي للغة العربية بتغطية شبة كاملة لتركيبات الجملة العربية: خبرية وإنشائية، بسيطة ومركبة. وبلغ عدد القواعد ما يقرب من 16 ألف قاعدة، وذلك وفق نموذج (جاز دار) الأحادي البنية.

(44) الفجوة الرقمية، ص332.

(45) http:/www.n7cte.com/motasem/master-thesis/four Chomsky.htm

(46) نبيل علي، الحاسوب والنحو العربي، الموسم الثقافي الرابع عشر، مجمع اللغة العربية الأردني، ص156-158.

(47) http:/www.n7cte.com/motasem/master-thesis/seven-interface-htm

(48) محمد زكي خضر، الموسم الثقافي الرابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، ص186.

(49) مأمون حطاب، التحليل الصرفي للغة العربية باستخدام الحاسوب، الموسم الثقافي الرابع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، 1996، ص56-66.

(50) http/www.mhdsolution.com/testing/products.php?section=tamaArabic

(51) --r.com/Technology-a/morphology/Default(.aspx?sec=Technology&item=morphology.

(52) http/www-alkhawarizny.com/ar/technology.html.

(53) http/www-harf.com/cms.aspx?ContentID=329

(54) معهد بحوث الحاسب والإلكترونيات، http://ceri.kacst.edu-sa/

(55) 94465/print/com.alquds.www//:http

(56) http://forum.amrkhaled.net/old/printthread.php?t=30518

(57) جريدة الشرق الأوسط، الرياض

9123=issueno&203980=did?asp.print/com.alawsat asharq.www/:http

(58) القدس، 2008/8/11، http://www.alquds.com/print/94465

(59) مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، مشروع نظام حاسوبي لتشكيل النص العربي، التقرير النهائي، 1427هـ ص3.

(60) http://www.rdi-eq.com

(61) http://www.cimos.com

(62) http://www.aramedid.com/diaritizer.htm

http://www.Sakhr.com

(63) مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم التقنية، مشروع نظام حاسوبي لتشكيل النص العربي، التقرير النهائي، 1427هـ ص5.

(64) www.Cs.um.edu.mt/--mros/wsl/papers/gal.pdf

(65) انظر مدينة الملك عبدالعزيز، نظام حاسوبي لتشكيل النصوص، 1427هـ ص7.

(66) المرجع نفسه، ص2.

(67) المرجع نفسه، ص27-28.

(68) انظر في تفصيل ذلك، محمد عطية محمد العربي، التشريح البنائي لمشكل آلي عربي. M Ateya@RDI-eq.com

(69) محمد خضر، الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، 1422هـ/2001، ص169-170.

(70) بتصرف عن نبيل علي، الفجوة الرقمية، ص342-346، وانظر محمد زكي خضر، نحو معالجة الدلالة في اللغة العربية عبر قواعد البيانات، دراسة أولية للقرآن الكريم، المؤتمر السابع عشر للحاسب الآلي (المعلوماتية في خدمة ضيوف الرحمن) جامعة الملك عبدالعزيز، المدينة المنورة، صفر 1425هـ/ نيسان 2004م.

(71) انظر أحمد مختار عمر، المكنز الكبير، دار النشر، سطور، 2000م. وصناعة المعجم، القاهرة، 1992م.

(72) الفجوة الرقمية، ص346-351

(73) المرجع نفسه، ص349.

(74) روحي البعلبكي، الترجمة الإلكترونية، آفاق الحاضر والمستقبل.

http://www.alarabimag.com/common/book/afaq013-10htm

(75) محمد غاليم وله عدة مؤلفات وبحوث في هذا المجال، منها، خصائص حاسوبية في بناء الدلالة اللغوية، نماذج من المعجم العربي، الندوة الدولية الأولى عن الحاسب واللغة العربية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية وجمعية الحاسبات السعودية.

وانظر عبدالقادر الفاسي، الفهري، المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.

عبدالمجيد بن حمادو، الجوانب التقييسية للمعاجم الحاسوبية، ورشة عمل خبراء المعجم العربي، الرياض، 7-5 ماي 2008، مراد لوكام، مشروع المعجم الحاسوبي التفاعلي للغة العربية، حول مقترحات إعداد المشروع، الاجتماع الثاني لخبراء المعجم الحاسوبي للغة العربية نيسان 2008م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة العلوم والبحث العلمي.

(76) http://www.arabcin.net/arabiaall/3-2006/3.html

(77) نبيل علي، الفجوة الرقمية، ص388.

(78) محمد الصرايرة، اللغة العربية والترجمة الآلية، ص102، الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان 1422هـ / 2001م.

(79) حسام الخطيب، العربية في عصر المعلوماتية، تحديات عاصفة ومواجهة متواضعة، ص86، مجلة التعريب، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق، العدد (15) 1419/1998.

(80) محمد الصرايرة، اللغة العربية والترجمة الآلية، ص104.

(81) مأمون حطاب، الترجمة الآلية اللغة العربية، قضايا وحلول، بحث غير منشور.

(82) غسان مراد، بتصرف عن مقال "الألسنة المعلوماتية؛ تطوير اللغة في عصر التقنيات الحديثة" جريدة السفير، لبنان 8 حزيران 2004م.

(83) مأمون حطاب، الترجمة الآلية للغة العربية، قضايا وحلول، بحث غير منشور.

(84) المرجع نفسه.

(85) عزالدين غازي، تكنولوجيا اللغة والترجمة الآلية – الحوار المتمدن، العدد 1516، بتاريخ 2006/10/4م، بتصرف عن محمد الحناش، برنامج لساني – حاسوبي للتصرف الآلي على التعابير المسكولة في اللغة العربية، مجلة التواصل اللساني، (ملحق) سلسلة الندوات، المجلد 3 سنة 1996م، ص89.

(86) محمد زكي خضر، اللغة العربية والترجمة الآلية، ص20-21، بحث غير منشور، وسيكون أحد بحوث مؤتمر التعريب الحادي عشر.

(87) عبدالمجيد بن حمادو، الموسم الثقافي التاسع عشر لمجمع اللغة العربية الأردني، ص142، عمان، 1422هـ/2001م.

(88) المرجع نفسه، ص146.

(89) موفق دعبول، المحتوى العربي على الإنترنت، ص4-5.

(90) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، مبادرة المحتوى العربية، الأمم المتحدة، 2003، ICTD/Escwa/E 2003/10 . منصور فرح، الفجوة الرقمية في المجتمع العربي وأثرها على اللغة العربية، بحث ألقي في المؤتمر السنوي الخامس، مجمع اللغة العربية بدمشق، 20-2006/11/22 ص10.

(91) منصور فرح، مرجع سابق، ص11.

(92) موفق دعبول، مرجع سابق، ص9.

(93) عمر بقلة، العرب ومسألة تعريب عناوين الإنترنت، دائرة الإنترنت، جامعة دمشق.

(94) نبيل علي، الفجوة الرقمية، ص311-312.

(95) http:/www.n7cte.com/motasem/master-thesis/one-prel-shakel.htm

اللغة العربية وعلم المعلوماتية والإنترنت

أ. الهادي شريفي*
مخبر المعالجة الآلية للغة العربية – ج. تلمسان – الجزائر

المستخلص

كلّما ظهر اختراع جديد إلا ورميّت لغتنا «بالعقم» والتخلف، وآخر هذه الادعاءات ما قاله البعض عن عدم قابليتها للمعالجة الآليّة باستخدام الحاسوب. وهذا التجني يذكرنا بحملة مشابهة عند ظهور تقنيات الطباعة، ثم التراسل الآلي (شبكات الاتصال). غير أنّ جلّ الحجج التي قدّمت لإثبات العكس؛ كانت من قبل الحميّة القوميّة، التي لا تخلو من العاطفة والاندفاع الحماسي، وكم كان لهذا من تأثير نفسي على أخصائيي الحاسوب المبرمجين، وكيف حدّ من طموحهم، ووضع قيودا لا حدّ لها. ورغم سطحيّة البحوث، إلاّ أنها أثبتت أنّ اللّغة العربية قادرة على خوض غمار عصر تقنيات الاتصال والإعلام بجدارة إلى جانب اللغات العالمية الأخرى شريطة قيام أبنائها بمواكبة البحوث العلمية والتمكّن من النظريات اللسانية الحديثة وتوظيفها في توصيف اللغة.

ولقد قيل قديما «**وخير جليس في الأنام كتاب**»، وبعد التقدّم العلمي في مجال الحوسبة والشبكات، كان لزاما علينا تحوير هذا المثل إلى «**وخير جليس في الأنام كتاب أو حاسوب**» ذلك أنّ هناك من يراهن على أننا مقبلون على تغيير شامل في تعامل الناس مع الكتاب بسبب ما يسمى بالنشر الإلكتروني.

نطرح في هذه الورقة إشكالية الجدال الواقع بين النشر الورقي التقليدي والنشر الإلكتروني الحديث، ومكانة اللغة العربية في هذه الثورة المعرفية، وكيفية استغلالها في مجال التنمية المستدامة في الجزائر والوطن العربي، وبالتالي ضمان نجاح اللغة العربية في مواجهة تحديات العولمة.

سنتطرق في بحثنا إلى تعريف الوثيقة بصفة عامة ثم نحدّد ماهية الوثيقة الالكترونية وما هو التسيير الالكتروني للوثائق، وما هي أهدافه، وفوائده، وما هي الصعوبات التقنية والمادية التي تواجه اللغة العربية في هذا المجال.

ونسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، فما كان فيه من الصواب فمن الله وحده، وما كان فيه من الخطأ فمن لدن أنفسنا.

مقدمة :

إذا كانت الشبكة العالمية قد أظهرت حجم المأساة التي تعاني منها اللغة العربية على أيدي أبنائها، وكانت وسيلة لتفشي لغة الضعفاء منهم، فهي في الوقت نفسه وسيلة لنشر الوعي اللغوي، وللعودة بالعربية إلى عصورها الزاهرة.

فنحن نقدر تلك الخدمات الجليلة التي يقدمها النشر الإلكتروني والشبكة العالمية للغة العربية. لم تعد المكتبة قاعة ورفوفا ترتب عليها الكتب، بل أصبحت فضاء واسعا لا تحده الجدران. ولم يعد البحث عن المراجع يقتصر على مراجعة قصاصات من الورق تسمى الفهارس، بل مداخل البحث الآلي باستخدام الحاسوب بالضغط على أقفال فتصطف قائمة المراجع على شاشة متابعة مرتبة أبجديا. هذا التطور في عالم النشر تحقق بفضل الثورة التي أحدثتها التكنولوجيا الرقمية في مجال المعلومات فألغت الجدران والأسقف واختصرت المسافات وحولت العالم بقاراته الشاسعة إلى قرية صغيرة يمكن للإنسان أن يصل إلى أطرافها في ثواني معدودات.

ونتيجة لهذه الثورة، فإن تسيير الكم الهائل من المعلومات والوثائق قد تطلب بدون شك تغييرا جذريا، وظهر ما يسمى بـ« التسيير الالكتروني للوثائق » المعروفة باللغة الأجنبية بـ« Gestion Electronique des Documents » والتي تختصر في GED .

في هذه الورقة البحثية سنتطرق إلى تعريف الوثيقة بصفة عامة ثم نحدد ماهية الوثيقة الالكترونية وما هو التسيير الالكتروني للوثائق، وما هي أهدافه، وفوائده، وما هي صعوباته التقنية والمادية للنشر الإلكتروني باللغة العربية.

العرض

1- النشر الإلكتروني والشبكة العالمية في خدمة اللغة العربية

إنّ الغالبية العظمى من المواقع العربية تستخدم اللغة العربية الفصحى، وهناك كثير من المواقع التي تعنى بالتراث والأدب، وهناك مواقع مخصصة للدفاع عن اللغة العربية تنشر البحوث القيمة، ومواقع تساهم في توحيد وتعريب المصطلحات، ومواقع تعرض مجانا ذخيرة هائلة من الكتب القيمة الحديثة صدرت باللغات الأجنبية تمت ترجمتها إلى اللغة العربية، ومواقع تتميز بلغتها الراقية وأسلوبها الجذاب، كما أن هناك في سوق البرمجيات أقراص مضغوطة عديدة من الموسوعات في مجالات مختلفة علمية وثقافية ودينية.

يأتي على رأس المواقع التي تقدم خدمات جليلة للنشر الإلكتروني باللغة العربية، موقع تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم www.arabization.org.ma، فهذا الموقع كنز لغوي عربي ثمين، لما يحويه من مواد ونشرات وأبحاث ومعاجم، وأهم خدمة

يؤديها هذا الموقع للغة العربية ولأبنائها هي مساهمته في توحيد ترجمة المصطلحات العلمية الأجنبية إلى اللغة العربية، وفي تقريب المسافات بين العاملين في التعريب، حيث يعرض الموقع خمسين قاموسا ضخما للمصطلحات العربية الموحدة التي اتفقت عليها المجامع اللغوية العربية، يختص كل منها بفرع من فروع العلم، كالطب والهندسة والمعلوماتية وغيرها، ويمكن لزائر الموقع أن يبحث ضمن هذه المعاجم جميعها في صفحة (بنك المصطلحات الموحدة)، وهي خدمة جليلة يؤديها الموقع للباحث عن تعريب المصطلحات، فيمكن إدخال المصطلح بأي من اللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو العربية، والحصول على ما يقابله. ويحوي هذا الموقع أيضا على التفاصيل الكاملة لجميع الندوات والمؤتمرات التي قام بها المكتب منذ تأسيسه، والبحوث التي قدمت فيها، ويحوي أيضا على جميع الأعداد من المجلة الدورية التي يصدرها المكتب، واسمها (مجلة اللسان العربي) وهي مجموعة نفيسة من الأبحاث والمقالات والمواضيع اللغوية العربية التي تركز على القضايا اللغوية الحديثة، ومنها قضايا الترجمة والتعريب والمعالجة الآلية.

لقد أصبحت الشبكة العالمية مجالا لنشر العربية وتراثها وآدابها وعلومها، فهناك العديد من المواقع التي تضع التراث العربي بين أيدي أبناء العربية:

- إن المتصفح العربي يستطيع أن يجد ما يزيد عن مليون صفحة من التراث في موقع الوراق www.alwaraq.com من تطوير المجمع الثقافي في أبو ظبي
- موقع المحدث www.muhaddith.org به عشرات المئات من الكتب الإلكترونية من كتب التراث العربي
- البوابات الإلكترونية العربية خاصة الإخبارية منها والإسلامية، تستخدم اللغة العربية الفصحى السليمة، وهذا يساعد على تطوير اللغة عند المتصفحين،.
- كما أنّ هناك مجال لكي يقوم أي فرد من الأفراد الغيورين على العربية بخدمتها ونصرتها بإنشاء مواقع خاصة أو ما يسمى بالمدونات الإلكترونية Blog، ومن الأمثلة على ذلك موقع صوت العربية www.voiceofarabic.com ، وصاحبه الدكتور عبد العزيز بن حميد الحميد، وهو موقع زاخر ببحوث حديثة حول اللغة العربية وصفحة الأستاذ الدكتور محمد زكي خضر على موقع المشكاة http://www.al-mishkat.com/khedher/، وموقع الدكتور منصور الغامدي www.mghamdi.com/.
- موقع مكتبة المصطفى في صفحته العربية http://al-mostafa.info/data/arabic يعرض الآلاف من الكتب الإلكترونية باللغة العربية التراثية والحديثة في جميع مجالات العلوم والإبداع والمعرفة.

2- الوثيقة التقليدية والوثيقة الإلكترونية

ما هي الوثيقة؟

تعرف المنظمة الدولية للمقاييس (ISO) الوثيقة بأنها : المجموعة المؤلفة من الوسائط المعلوماتية والمعطيات المسجلة عليها بشكل دائم على العموم، قابلة للقراءة من قبل الإنسان أو الآلة. ويفهم من التعريف أن الوثيقة يجب أن تحتفظ بكل خصائصها الجوهرية حتى تكون وثيقة، سواء كانت على وسيط ورقي أو الكتروني ، سواء كانت كتابة أم صورا و رسومات...

ما هي الوثيقة الإلكترونية ؟

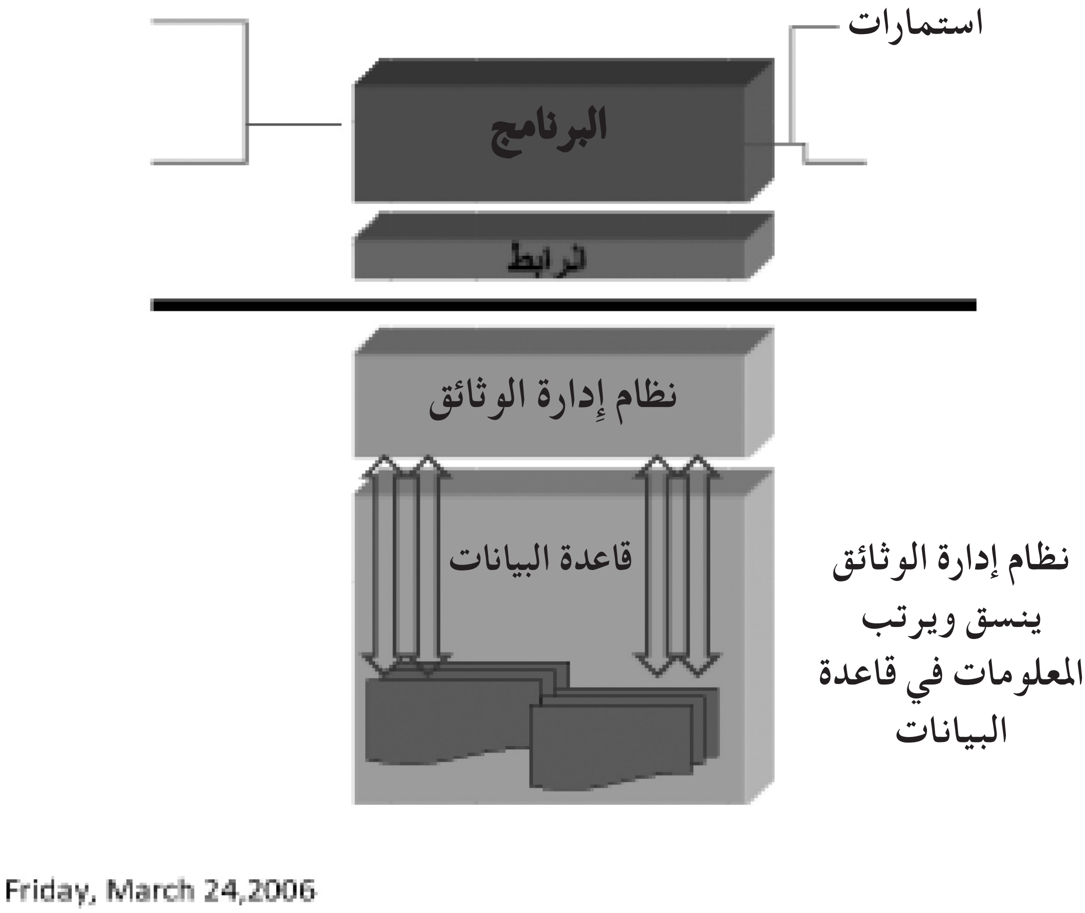
إذا كان الجميع يدرك الوثيقة الورقية ومدلولها، فإن مصطلح الوثيقة الالكترونية جديد، قد يختلف في فهم مدلوله، لذا نورد تعريفها حسب المرجع السابق « مجموع معطيات منظمة في جذاذات (ملفات) Fichiers معلوماتية غير ملموسة، يمكن معالجتها بوساطة الحاسوب، ويمكن أن تكون ملف أصوات (Fichier acoustique) أم نصا الكترونيا ... الخ.

ومن المعلوم أن المكتوب الالكتروني المسجل على الحاسوب نظير للمكتوب على الورق، بيد أن الوثيقة الالكترونية تمكن من فصل خصائص الوثيقة الكلاسيكية، أي تنظيمها(المعطيات الخارجية (Meta-donnés) ومضمونها (المعلومات) وبناؤها، وذلك يمكن من الاستغلال المنفرد لكل خاصية.

التسيير الالكتروني للوثائق : GED

وتسمى أيضا التسيير الالكتروني لمعلومات ووثائق المؤسسة: GEIDE هو نظام آلي (informatisé) لتسيير الوثائق وتصنيفها وتخزينها وحفظها والبحث عنها » مثل تحويل الوثائق الورقية إلى رقمية، أو تسيير حياة الوثائق وتدفقها. ومعنى ذلك أن التسيير الالكتروني للوثائق يقترح حلا لمشاكل تسيير مراحل المصادقة والمراجعة ... وبصورة عامة، يمكن أن نقول أنه نظام تسيير آلي لمرحلة حياة الوثيقة الالكترونية (نص، صوت، صورة، فيديو، ...الخ) منذ نشأته إلى غاية اتلافه، بهدف تيسير الحصول على المعلومات، وتوسيع آفاق نشرها بين أكبر عدد من الناس والهيئات.

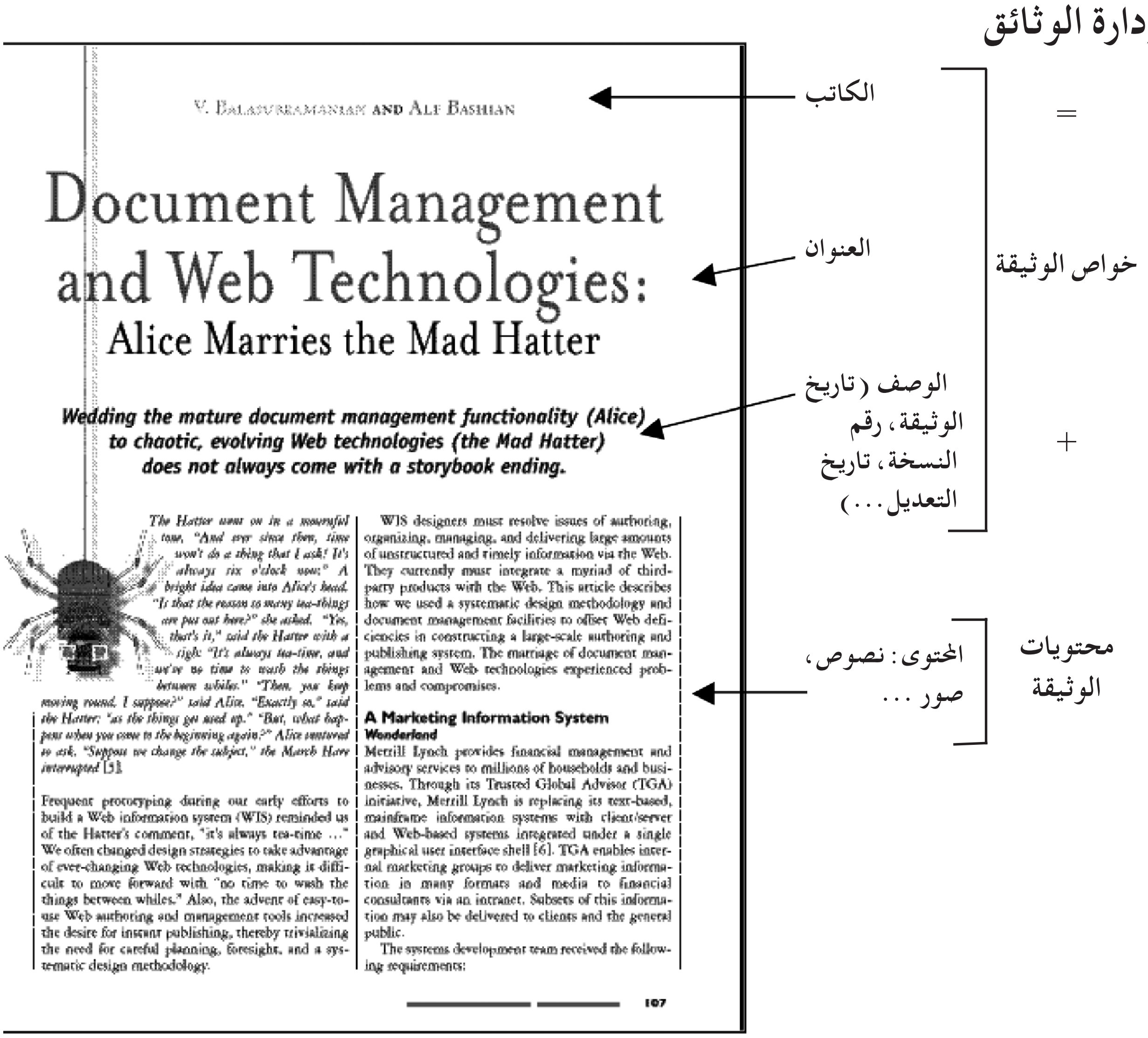
البنية الأساسية للوثيقة الإلكترونية :



الوثيقة إلكترونية لَها خصائصُ متعددة منها :

المحتوى Contains : نَصوص، رُسومات، صور، تسجيل صوتي، فيديو...

التركيب أو الهيكلة (Structures) : العناوين، هوامش، فَقَرات، جداول



V. Balasubramanian and Alf Bashian

Document Management and Web Technologies: Alice Marries the Mad Hatter

Wedding the mature document management functionality (Alice) to chaotic, evolving Web technologies (the Mad Hatter) does not always come with a storybook ending.

The Hatter went on in a mournful tone, "And ever since then, time won't do a thing that I ask! It's always six o'clock now." A bright idea came into Alice's head. "Is that the reason so many tea-things are put out here?" she asked. "Yes, that's it," said the Hatter with a sigh: "It's always tea-time, and we've no time to wash the things between whiles." "Then, you keep moving round, I suppose?" said Alice. "Exactly so," said the Hatter: "as the things get used up." "But, what happens when you come to the beginning again?" Alice ventured to ask. "Suppose we change the subject," the March Hare interrupted [5].

Frequent prototyping during our early efforts to build a Web information system (WIS) reminded us of the Hatter's comment, "it's always tea-time ..." We often changed design strategies to take advantage of ever-changing Web technologies, making it difficult to move forward with "no time to wash the things between whiles." Also, the advent of easy-to-use Web authoring and management tools increased the desire for instant publishing, thereby trivializing the need for careful planning, foresight, and a systematic design methodology.

WIS designers must resolve issues of authoring, organizing, managing, and delivering large amounts of unstructured and timely information via the Web. They currently must integrate a myriad of third-party products with the Web. This article describes how we used a systematic design methodology and document management facilities to offset Web deficiencies in constructing a large-scale authoring and publishing system. The marriage of document management and Web technologies experienced problems and compromises.

A Marketing Information System Wonderland

Merrill Lynch provides financial management and advisory services to millions of households and businesses. Through its Trusted Global Advisor (TGA) initiative, Merrill Lynch is replacing its text-based, mainframe information systems with client/server and Web-based systems integrated under a single graphical user interface shell [6]. TGA enables internal marketing groups to deliver marketing information in many formats and media to financial consultants via an intranet. Subsets of this information may also be delivered to clients and the general public.

The systems development team received the following requirements:

107

3- أهداف التسيير الالكتروني للوثائق:

يتضح مما سبق أن الأهداف الرئيسية للتسيير الالكتروني للوثائق ونشرها يمكن حصرها في:

1- اقتناء الوثائق (Acquisition)

ويكون على عدة أشكال:

● إدماج الوثائق الورقية الموجودة: أي تحويلها إلى وثائق رقمية عن طريق الماسح الضوئي Scanner وبعد التحويل يمكن فرزها باستخدام تكنولوجيا خاصة تدعى RAD، حيث تستخلص معلومات من الصور الرقمية باستخدام تكنولوجيا أخرى تدعى LAD، التي تستخدم تقنية التعرف على الرموز السرية Codes bares ، وعلى حروف الكتابة اللغوية (OCR: Reconnaissance Automatique de l'écriture) .

● إدماج الوثائق الإلكترونية الموجودة: وهي الملفات Fichiers المكتبية، ومن نوع PDF ، والوثائق الناتجة عن أنظمة النشر (PAO) .

● إنتاج الوثائق الالكترونية : ويمكن أن تكون نتيجة إجراء أو عدة إجراءات يقوم بها مختلف الأعوان بفضل برمجية (Logiciel) إعلام آلي جماعي (Group ware ou collecticiel) .

● تبادل الوثائق الالكترونية :ويجري هذا التبادل عندما ترغب هئيتان مشتركتان اقتسام وثائق الكترونية، ويتم ذلك بربط أنظمتها الإعلامية المسماة **EDI** (Echange de données Informatisé). واستخدام مقياس موحد للمعلومات المعيرة.

2- فهرسة الوثائق(Indexation) :

هي وصف الوثيقة ومضمونها قصد تسهيل استغلالها. وينبغي هنا أن نميز نوعين من الفهرسة:

● الفهرسة التصنيفية التي تقدم وصفا شكليا للوثيقة لتسهيل عملية التصنيف والترفيف (النمط، المؤلف، العنوان، المورد، التاريخ...الخ)، والتي تمكن مختلف أدوات البحث من استغلال هذه المعطيات.

● الفهرسة حسب المفهوم التي تهتم بمضمون الوثيقة لتسيير عمليات البحث، ويتعلق الأمر هنا بإحصاء العبارات المتردد استعمالها (أي فهرسة إحصائية) ؛ أو اختيار العبارات الدالة المرتبطة بالوثيقة (ويسمى أيضا بالكلمات المفتاحية) وجعلها في قائمة تدعى تيزووريس (Thésaurus)

3- تخزين الوثائق:

إنها مرحلة هامة، لأنها ركيزة لعمليات البحث والاستغلال وتداول المعلومات لذا من غير المعقول استخدام نظام تسيير دون التفكير في نظام التخزين. ولأداء هذه المهمة، لا بد من التفكير في الإشكاليات الآتية:

● تكييف وسائط التخزين حسب حجم الوثائق المراد تخزينها، حتى نتمكن من توفير وقت معقول للدخول، حسب وتيرة الطلب وأهمية الوثيقة؛

● تنظيم التخزين تنظيما هرميا حسب مضمون الوثائق (نص، فيديو، صورة...) ومصادرها، ونمطها والحال التي توجد عليها؛

● إدراج مدة الحفظ في الحسبان للتمكن من التصفية الدورية للنظام قصد تسهيل عملية التخزين وتغذية المحفوظات (الأرشيف) .

4-**البحث** : وهو أنواع عديدة :

● البحث المعياري :ويكون باستخدام التأليف بين الكلمات المفتاحية التي أعدت في مرحلة الفهرسة؛

● البحث في المضمون:وهو بحث عن عبارات يتضمنها نص الوثيقة. وبصفة عامة، يمكن القول أن الفهرسة ونظام التخزين يؤثران على نجاعة عمليات البحث، فكلما كانت الفهرسة أفضل، كان البحث أسهل وأنجح.

5- الاستعادة أو الاسترجاع (Data Mining)

تشكل الاستعادة إحدى أهم الغايات، لأن أي وسيلة للتسيير الالكتروني للوثائق إن لم توفر مجموعة واسعة من طرائق الاستعادة، فإنها غير مجدية، وهذا ما يجعل الوسيلة مهمة بالنسبة للجانب التعاوني، إذ ينبغي أن يكون في إمكان مختلف المتعاملين تبادل المعلومات، واستعادة أي وثيقة وعرضها على الشاشة، أو طبعها وإرسالها عن طريق البريد الالكتروني، أو إدراجها في جهاز Work Flow (العمل المتدفق) لتصبح من معطيات الدخول، واستقبال وثائق أخرى؛ بالإضافة إلى توفير إمكانية تحسين الوثيقة وإثرائها قصد نشرها على موقع «واب» Web مثلا.

6- الأرشفة :

تشكل الأرشفة الشغل الشاغل لكل العاملين في مجال إعداد أنظمة تسيير المعلومات، لأنها حفظ للتراث المعلوماتي لهيئة أو مؤسسة أو لوطن أو لموقع.

والأرشفة – حسب (Afnor) هي: «مجموعة من العمليات والأدوات والطرائق المسخرة لحفظ المعلومات لمدة متوسطة أو طويلة قصد استعادتها عند الحاجة واستغلالها». والفصل بين المعلومات والوسائط والأنماط يمكن من تحديد ما ينبغي أرشفته وحفظه. ومثال ذلك: خلال عشرية من الزمن، يمكن أن تكون الحاجة حفظ «ملف إلكتروني» بنسخة أصلية واحدة دون أن تغير منها شيئا. بينما إذا كانت المدة أطول، فإن الحفظ يكون للمضمون المعلوماتي ككل ثم نقوم بعد ذلك بحفظها في وسائط أو أشكال أخرى. وأفضل أرشفة – في أي نظام للتسيير الالكتروني – هي تلك التي تضمن الأمور الآتية:

● الأصالة :أي أن الوثيقة المحفوظة يجب أن تكون مطابقة للأصل تمام المطابقة.

● الاستمرارية :وهي أن يمكن نظام التخزين من الاستغلال على المديين القصير والطويل، واستنساخ المعطيات في عدة نسخ ومتنوعة وتخزينها في أماكن مختلفة لتفادي مخاطر فقدانها لأي سبب من الأسباب (خلل كهربائي، حريق، فيضان ....)

● السرية والحصانة:أي اعتماد نظام الإقفال Verrouillage للوثائق المحفوظة ولا يطلع عليه إلا بعض المستعملين.

4- فوائد أنظمة التسيير الالكتروني للوثائق:

لا شك أن نظام التسيير الالكتروني للوثائق -إذا ما أعد إعدادا جيدا- يمنح امتيازات عديدة على مستوى التنظيم وعلى مستوى الإفادة؛ نلخصها في النقاط الآتية:

● النجاعة والفعالية :أثبتت الدراسات الحديثة أن أنظمة التسيير الالكتروني للوثائق تحقق زيادة في نجاعة العمل بنسبة تتراوح بين 10 و% 20، وفي الفعالية التجارية زيادة بنسبة % 10، بالإضافة إلى ربح الوقت في أزمة البحث وتوزيع المعلومات التي تعد بالثواني.

● التكاليف :تنخفض انخفاضا محسوسا حسب المصادر نفسها، لأن فضاء التخزين أقل كلفة بالطريقة الالكترونية؛ كما أن كلفة التصنيف والترتيب والتنظيم تتيح للمؤسسة ربح50 %في أغلب الحالات.

أما تكاليف البحث، فإنها تنخفض بالنصف، بل بالثلثين في بعض الأحيان إذا كان البحث يتعلق بالأرشيف وتنخفض تكاليف التوزيع بنسبة 80 إلى % 90.

● الإدارة الرشيدة :تشكل مركزية المعطيات قوة لنظام التسيير الالكتروني بفضل تخزين المعلومات على موزع وحيد، وإجراء العمليات حسب طلبات المنجز نفسه، وبذلك تسهل مراقبة المداخل، مما يجعل النظام يتمتع بمصداقية أكثر وأمان أكبر باقتصار عملية الإدارة على موزع واحد فقط.

أما نقاط الضعف في مقابل هذه الفوائد كلها فهي:

● تعرض محيط التخزين للتلف :فمهما تمركزت المعطيات، لا ينبغي أن ننسى أنها موجودة على وسائط فيزيائية (قرص مضغوط، قرص بصري (... Disque Optique)

● نظافة المحيط واستقرار الطقس :اللذان تتطلبهما عادة الأدوات الالكترونية كما أن الوتيرة السريعة للتطور التكنولوجي يؤدي أيضا إلى هجران سريع لوسائط التخزين، وهذا ما ستوجب اعتماد نظام متطور حتى لا نضطر إلى تركه مدة قصيرة.

● ارتباط النظام بالشبكات :لا جدوى من استخدام نظام التسيير الالكتروني استخداما محليا (أي دون شبكة) لانعدام عنصر تقاسم وتبادل المعلومات. فالحل إذن في النشر على شبكة داخلية Intranet ، بل من الأفضل على شبكة خارجية Extranet.

وبهذا المنظور فإن نظام التسيير الالكتروني يمثل عائقا، لأن عدم وجود الشبكة معناه عدم وجود المعطيات.

● صعوبات تقنية ومالية :وتتمثل الأولى منهما في صعوبة تحويل الوثائق إلى رقمية، وتتمثل الثانية في ارتفاع تكاليف وضع النظام وتشغيله، خاصة لدى بعض الهيئات التي تمتلك كما كبيرا من الأرشيف بالإضافة إلى التكاليف الباهظة لتأمين المعلومات، لأن الأمر يتطلب في غالب الأحيان الاستعانة بخدمات الغير ذوي الثقة والخبرة العالية.

5- الإطار المعياري لنظام النشر الالكتروني :

يجب أن يدخل نظام النشر والتسيير الالكتروني للوثائق في إطار معياري وأشهر المعايير المتعلقة بمحيط هذا النظام هي :

1- ISO 19005 : ويختص بشكل ملفات الوثائق الالكترونية للحفظ الطويل.

2- ISO 26300 : ويختص بشكل الوثيقة المفتوحة للاستعمال المكتبي.

3- ISO 5836 : ويختص بالمعطيات الخارجية للوثيقة Métadomées d'un document

4- MOREQ : ويختص بنموذج شروط تنظيم الأرشفة الالكترونية.

5- NFZ 42-013 : ويتعلق بخصائص إنجاز واستغلال أنظمة معلوماتية لضمان حفظ الوثائق المخزنة في الأنظمة وسلامتها.

6-بعض المشاريع الرائدة وتجارب الأمم في مجال النشر الإلكتروني وتقنيات المعلومات والمكتبات الرقمية

• **شبكة التراث الأوروبي**: التي تعد خدمة أوروبية للمعلومات تساعد على ؛ تشجيع النفاذ إلى المعلومات الرسمية والمعارف العلمية التي تهم الجمهور (كان عدد البلدان المشاركة فيها 31 بلداً في 2004) إيجاد آليات عمل إلكترونية للتعامل مع التراث؛ تشجيع المحتوى الثقافي الأوروبي واحترام التعدد اللغوي؛ وتطوير أنشطة البحوث والتنمية في المجال الثقافي ببرمجيات مفتوحة المصدر والملكية يمكن الحصول عليها دون مقابل؛ وبناء قاعدة للتعلم الذاتي المستمر.

• **المركز الدولي للوسائط الجديدة (ICNM)** : التابع لمنظمة اليونيسكو، مبادرة عالمية لاختيار الأفضل من حيث المحتوى الإلكتروني والإبداع والترويج له. وهي تهدف إلى سد الفجوة الرقمية وتضييق فجوة المحتوى.

• **الشبكة العالمية للغات**: التابعة **لمؤسسة الشبكات العالمية للغات الرقمية** (UNDL) تهدف إلى إقامة بنية تحتية تقوم على استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في جمع وتخزين وتوزيع المعلومات والمعارف من لغة طبيعية واحدة إلى كثير من اللغات. وهذا برنامج طويل الأجل يتضمن التطوير والتحسين المستمر للموارد اللغوية في الشبكة العالمية للغات ودعم البرمجيات. كما يتضمن البرنامج إنشاء شبكة من أجهزة خدمات اللغات تابعة للشبكة العالمية للغات من خلال الإنترنت، لتمكين السكان في جميع أنحاء العالم من التواصل مع بعضهم البعض بلغاتهم الخاصة.

• **الرابطة السويسرية للحفاظ على التراث المسموع والمرئي (Memoriav)** : تقوم بتنفيذ العديد من المشاريع لحفظ واسترجاع الصور والتسجيلات الصوتية والأفلام وأفلام الفيديو الرقمية المنتجة في سويسرا، أو المتصلة بسويسرا. وبهذه الطريقة، تعتزم رابطة Memoriav تسجيل

الأصول الثقافية المسموعة والمرئية واتخاذ الخطوات الضرورية لحفظها وصيانتها. وسوف تُنشئ الرابطة شبكة بين المؤسسات النشطة في هذا المجال كما ستعمل على تسهيل النفاذ إلى البحوث الخاصة بالمصادر المسموعة والمرئية.

• تعمل وزارة الشؤون الخارجية في **فرنسا** على تدعيم **أنظمة تنمية المعلومات والاتصالات** من أجل التعليم العالي والبحوث في إفريقيا. ويهدف هذا المشروع إلى تشجيع التبادل العلمي والتكنولوجي المستمر للمعلومات في اثني عشر بلداً هي: الجزائر وبنين وبوركينا فاصو وبوروندي والكاميرون وغانا وساحل العاج ومدغشقر ومالي ونيجيريا والسنغال وتونس.

• تعكف حكومة **اليابان** على تنفيذ مجموعة من الإجراءات لسد الفجوة الرقمية، ونقل المنافع المترتبة على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إلى الشعوب، وتشجيع على الترويج لـ **برنامج النطاق العريض في آسيا**، الذي يسعى إلى جعل هذا الإقليم بؤرة عالمية للمعلومات، من خلال نشر منصات النطاق العريض في آسيا لتبادل النشر الإلكتروني للمعلومات والمعارف.

• **والدول العربية، وخاصة الجزائر لا زالت في بداية الطريق**، ولعلّ

أول تجربة في هذا الميدان في الجزائر هو مركز CERIST الذي من بين أهداف إنشائه هو توصيل الجامعات والكليات والمدارس الثانوية والابتدائية بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتجميع ثم إعادة توزيع بطريقة إلكترونية للمعلومات العلمية والتقنية، ثم مشروع **الذخيرة العربية** الذي تعكف عليه جامعة الدول العربية بمكتبها للثقافة العلوم والذي اقترحته الجزائر.

7- واقع وآفاق النشر الإلكتروني باللغة العربية

يعاني العالم العربي من نقص عام في أدوات الضبط الببليوغرافي والنشر بصفة عامة التي تساعد الباحثين على متابعة ما هو منشور حول اهتماماتهم في الدوريات العربية ومعرفة ما نشر من أوعية معلومات مصدرية تقع ضمن حقول تخصصاتهم .

وبالإضافة إلى الدور التعريفي الذي تلعبه أدوات الضبط الببليوغرافي من فهارس وكشافات ونشرات استخلاص وببليوغرافيات في كشف ما هو منشور، فلها دور آخر غير مباشر وهو الإفصاح عن الموضوعات غير المتداولة وغير المبحوث فيها. من هذه الموضوعات النادرة التداول على رغم أهميتها هو موضوع التقنيات المستعملة لتوفير خدمات المعلومات الإلكترونية التي تغطي الصحافة العربية وهي إحدى تقنيات الإعلام الحديث في العالم العربي.

وتسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الخدمات الصحافية الإلكترونية في البلدان العربية والتأثير الذي أحدثه دخول تكنولوجيا النشر المكتبي والنشر الإلكتروني على هذه الصناعة الحديثة عربياً . ثم تتناول خدمتي المعلومات «جهينة» الموجودة على موقع «عجيب»

على الشبكة العالمية وبنك المعلومات الصحافية المتوفر على موقع »محيط « الإلكتروني من خلال ما توفرانه من مصادر معلومات وتتحرى السياسات المتبعة في هذا المجال لناحية طرق اختيار المصادر ولناحية المعايير المتبعة في تقييمها . وتتطرق الدراسة إلى عدد من الأمور المتعلقة بخدمات المعلومات الصحافية وتوفيرها الكترونياً على الانترنيت وعلى أقراص مدمجة مثال التخزين الإلكتروني لهذه النصوص والطرق التي يتبعها موفرو هذه الخدمات في تقديمها للمستفيدين إضافة إلى أساليب البحث والاسترجاع التي توفرها تلك الخدمات.

بداية لا بد من تصويب فهم خاطئ يتعلق بمصطلح تقنيات الإعلام الحديث، وهو مصطلح يستخدم في أكثر من شكل. بعض المتخصصين يطلق على هذه التقنيات اسم وسائل الاتصال الحديثة والبعض الآخر يطلق عليه اسم وسائل الإعلام التفاعليه أو وسائل الإعلام الجديدة. والحقيقة أن هذه التسميات على رغم اختلافها اللفظي إلا أنها تفيد عن مدلول واحد هو تقنيات الإعلام الحديثة ولكن الأمر المستغرب هو الخلط بين مفهوم التقنيات الحديثة والتقنيات التقليدية في الاتصال والإعلام. وما زال مصطلح التقنيات الحديثة يستخدم في عناوين كتب ومقالات تعالج قضايا تتعلق بالتلفاز والراديو والصحيفة المطبوعة.

أ- النشر المكتبي والصحافة العربية :

النشر المكتبي تعبير استخدام في مجال الصحافة اليومية للدلالة على استعمال الحاسوب وبرامجه لإنتاج الصحيفة .

لهذا الاستعمال تأثيرات سواء على مستوى وتيرة العمل في الجريدة وإنتاجها أم على مستوى تخزين المواد المنشورة في الجريدة بهدف إعادة استخدامها عند الحاجة كمصدر من مصادر المعلومات الأولية. قبل الدخول في التفاصيل لا بد من توضيح الفرق بين استخدام الحاسوب كطابعة للمادة الصحفية واستخدامه كمنتج للمادة الصحافية، في الحالة الأولى يقوم المستخدم بطبع النص الصحافي وبالتالي فإن الحاسوب ينفذ دور الطابعة فقط، أما في الحالة الثانية فإن الحاسوب بالإضافة إلى دور الطابعة ينفذ عمليات لها علاقة بتصميم وبإخراج الصحيفة وتوزيع المواد الصحافية من نصوص وصور ورسومات داخل الصفحات .أما أثر استخدام تكنولوجيا النشر المكتبي على الصحف العربية يمكن ملاحظته في أمرين ، الأمر الأول هو التأثير على مستوى أسلوب العمل داخل الصحيفة ، أما الأمر الثاني فهو التأثير على مستوى تخزين النصوص المنشورة واسترجاعها .

ب- النشر على الشبكة العالمية :

يزداد عدد الصحف اليومية والوثائق العربية المتوافرة على الشبكة العالمية يوماً بعد يوم وبذلك يتسع النطاق اللغوي لمفهوم الوثيقة الإلكترونية علماً أن هذا المفهوم لم يتم استيعابه بعد بالقدر الكافي من الناشرين العرب.

توافرت الصحيفة اليومية العربية إلكترونيا لأول مرة عبر الشبكة العالمية في 9 سبتمبر 1995 ونشرت صحيفة الشرق الأوسط في عددها الصادر في 6 سبتمبر من ذلك العام خبراً على صفحتها الأولى أعلنت فيه أنه ابتداءً من 9 سبتمبر 1995 سوف تكون موادها الصحفية اليومية متوافرة الكترونياً للقراء على شكل صور عبر شبكة الانترنيت. الصحيفة العربية الثانية التي توافرت على الشبكة كانت صحيفة النهار التي أصدرت طبعة الكترونية يومية خاصة بالشبكة ابتداءً من الأول من فبراير 1996. ثم تلتها الحياة في الأول من حزيران 1996 والسفير في نهاية العام نفسه. حالياً تتوافر معظم الصحف العربية على الانترنيت بشكل أو بآخر قد يتوافق وقد لا يتوافق مع مفهوم الصحيفة الإلكترونية .

وتعتمد الصحف الإلكترونية العربية المتوافرة عبر الشبكة العالمية في بثها للمادة الصحافية على ثلاث تقنيات هي تقنية العرض كصورة، تقنية بي دي اف (PDF) وتقنية النصوص. هذه التقنيات تختلف فيما بينها على مستوى عرض وتخزين المادة الصحافية ولكنها تجتمع في عدم إمكانية البحث والاسترجاع الآلي لمعلومات معينة من الطبعات اليومية الجارية أو من الطبعات السابقة المتوافرة آلياً إلا في حالات محددة وبذلك فإن الصحيفة اليومية الإلكترونية العربية وإن دخلت ميدان الصحافة الإلكترونية إلا أنها لا تزال تفتقد إلى كثير من المزايا التي تتصف بها الصحيفة الإلكترونية.

بعض الصحف العربية الإلكترونية لا تتوافر بشكل يومي على الانترنيت والبعض الآخر يتيح الكترونيا بعض ما ورد في الطبعة اليومية الورقية، فقط قلة قليلة من الصحف الالكترونية العربية تلتزم بالإصدار اليومي الالكتروني من دون مشاكل أو نقائص .

ويمكن تقسيم ما يمارسه الناشرون العرب على مستوى النشر على الشبكة العالمية إلى ثلاث فئات:

– الفئة الأولى تعتمد سياسة الحد الأدنى المتمثلة في إطلاق نسخ كربونية صماء من الصحيفة المطبوعة بأقل التكاليف ودون دخل يذكر من خلال هذه النسخة الإلكترونية والاكتفاء بالإشارة إلى أن للصحيفة موقعاً على الانترنيت يقوم بدور التواصل ما بين الصحيفة وقرائها أينما كانوا .

– الفئة الثانية : تعتمد بناء مواقع متميزة أقرب ما تكون إلى البوابات الإعلامية الشاملة وهي تطور في مواقعها الموجودة للوصول إلى البوابة الإعلامية .

– الفئة الثالثة تعتمد سياسة الانطلاق من الصحيفة الالكترونية دون وجود صحيفة مطبوعة أصلاً وفي هذا المجال نشير إلى صحيفة إيلاف الالكترونية التي انطلقت في 21 ماي 2001.

ج- مستقبل النشر الالكتروني العربي :

ما زال عدد الوثائق العربية المطبوعة على الورق يفوق بكثير عدد تلك المتوافرة الكترونيا على الشبكة العالمية وعلى أقراص مدمجة ولكن هذا الأمر لن يطول حتى يتقلص الفارق إلى أدنى مستوى لأن الاندماج والترابط بين الوثيقة المطبوعة على ورق ونسختها المتوافرة الكترونيا على الشبكة أمر لا يمكن تجنبه في المستقبل ولا يبالغ من يعتقد أن بعض الوثائق المطبوعة قد ينسحب لصالح توافره الالكتروني على الشبكة الدولية فقط .

ولإلقاء الضوء على ما يمكن أن يحمله المستقبل لصناعة النشر الإلكتروني والعلاقة المقبلة مع النشر التقليدي نشير إلى حقيقتين الأولى هي أن معظم شركات دور النشر العالمية تتجه إلى التنويع في تقديم إنتاجها وذلك بدخول مجالات الراديو والتلفاز والأقراص المدمجة والتوافر من خلال شركات تعنى بتوفير المعلومات الالكترونية ومن خلال المطبوعات والملاحق المتخصصة وإعداد المؤتمرات ومن خلال الانترنيت هذه الظاهرة بدأت تتبلور في الغرب وهي بعيدة عنا في الوقت الراهن ربما بسبب القيود الحكومية على امتلاك وسائل الاتصال والهوة القائمة بين مطوري التقنية المطلوبة ومنتجي المعلومات من صحف يومية ودوريات أخرى، وهذه الظاهرة جزء راسخ من واقع صناعة الاتصال والمعلومات في مجتمعات المعلومات التي اعتمدت مبادئ اقتصاد السوق وإتاحة المعلومات . أما الحقيقة الثانية فهي تتعلق بالمحتوى الذي توفره المطبوعات العربية ومن دون المحتوى الذي يعتمد على المعلومات الحقائقية ويتخذ من نشر المعلومات شعاراً لا تنجح مؤسسات خدمات المعلومات ولا تستمر مواقعها على الشبكة ولهذا فإن شركات الاتصال الكبرى في الغرب تزاوج بين ما تنتجه وسائل اتصالها بأنواعها التقليدية وغير التقليدية لتقوم بأمثل استخدام لذلك المحتوى وهذا ما دفع شركة «أمريكا اون لاين» التي تدير أنجح بوابة الكترونية في أمريكا إلى الاندماج مع شركة «تايم وورنر» وهي واحدة من أكبر شركات النشر والاتصال والترفيه في العالم.

وفيما يخص العالم العربي ومنتجي المعلومات العرب لا بد من قيام تعاون وإيجاد لغة مشتركة بين منتجي المعلومات ومطوري التقنيات والبرمجيات لأن الهوة القائمة بين هاتين الفئتين من عناصر مجتمع المعلومات تؤخر انتشار المحتوى العربي على الشبكة العالمية وتقديمه إلى المستفيدين بوسائط مختلفة. وعلى مستوى التوفير الالكتروني للوثائق المطبوعة وهو من أسباب انطلاق «جهينة» فإن الكثير من المطبوعات الغربية توافرت في شكل الكتروني كأحد

مصادر المعلومات قبل الطفرة الحديثة لاستخدام الشبكة العالمية وعزز ظهور الشبكة ظاهرة إصدار طبعات الكترونية للمطبوعات من مختلف الجنسيات في العالم ومن أولى تلك الصحف صحيفتا «واشنطن بوست» و»لوس انجلوس تايمز» اللتان كانتا متوفرتين للمشتركين مع مواد صحافية أخرى منتقاة من عدد من الصحف الأمريكية عبر خدمة معروفة بخدمة «واشنطن بوست ولوس انجلوس تايمز».

وفي الوطن العربي نكتفي بالإشارة إلى خدمة «جهينة» المتوافرة على موقع «عجيب» وخدمة بنك المعلومات المتوافرة على موقع «محيط.» وهذه البوابات تعمل على رصد قدر الإمكان كل المطبوعات باللغة العربية وتوفرها للمستعملين.

إذا كانت هاتان التجربتان لا تشكلان ابتكاراً على مستوى النوع التقني فإنهما تشكلانه على مستوى المحتوى وخصوصيته العربية .

وهذه المحاولات هي الأولى من نوعها على المستوى العربي لتوفير النصوص الإعلامية العربية على الانترنيت باللغة العربية وسبق ذلك محاولة عربية في بداية الثمانينات لتوفير ملخصات للمطبوعات العربية باللغة الأجنبية ثم توقفت من دون معرفة الأسباب ونهضت بتلك المحاولة في حينها مؤسسة البيان الإماراتية وسمتها بنك المعلومات العربي، كانت متوافرة بواسطة الاتصال المباشر مع تغطية للصحف منذ عام 1983 وعلى ديالوغ حتى عام 1992.

خاتمة:

تتطور الثورة التقنية والحاسوبية اليوم بسرعة جارفة، وصار اللحاق بركب هذه الثورة ضرورة ماسة، وليس ترفا ثقافيا، بل لا بد لكل أمة تريد لنفسها مكانا بين الأمم المتقدمة أن تواكب هذا التطور لئلا تجد نفسها في طور التخلف. ومقالتنا هذه حاولت في طياتها الإجابة عن بعض التساؤلات المرتبطة بهذه القضية:

أين نحن واللغة العربية من هذه الطفرة التقنية؟ أهي في متناول أيدينا؟

كيف يمكن ترقية اللغة العربية عبر هذه الوسائل واللحاق بمن سبقونا؟

حضور اللغة العربية على شبكة الإنترنت
-الواقع والآفاق-

أ. لخضر بولطيف / ج. المسيلة - الجزائر

تزداد أهمية شبكة الإنترنت على المستوى الدولي مع تشعب وتنوع استخداماتها وتنامي عدد المستخدمين لها، ولا تنحصر أهمية الشبكة العالمية في مجال تبادل المعلومات، فهي تؤدي فضلا عن ذلك أدوارا سياسية وإعلامية واقتصادية وثقافية واجتماعية وعلمية غاية في الأهمية.

وحيال ما بات يشكله تضاعف المحتوى الرقمي من تحديات تمس سرعة التدفق، أفضت دراسات قامت بها منذ أمد غير قصير مؤسسات علمية واقتصادية أمريكية إلى البدء في بناء مشروعين كبيرين؛ هما (إنترنت 2: Internet II) و(إنترنت **NGI** الجيل التالي :Next Generation Internet)، وكلاهما يوفر للمستخدمين سرعات هائلة تفوق ألف مرة سرعة إنترنت الحالية بالنسبة لمشروع إنترنت 2، ومائة ألف مرة بالنسبة لمشروع إنترنت الجيل الثاني [1].

وعلى الرغم من المؤشرات العديدة التي ما فتئت تعطي انطباعا متفائلا بأن اللغة العربية بدأت تأخذ حيزا معتبرا على صفحات شبكة الإنترنت، إلا أن دراسة حديثة أعدتها لجنة بالأمم المتحدة أكدت الندرة الشديدة للمحتوى العربي على الشبكة الدولية، حيث لا يتعدى 03 بالمائة من إجمالي المحتوى العالمي. وأشارت الدراسة التي أجرتها لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا «الإسكوا» إلى أن هذا الأمر يشكل تناقضا صارخا مع حجم الإسهامات التي قدمتها الحضارة العربية على امتداد تاريخ الإنسانية[2].

ويتجلى هذا الحضور المحتشم للغة العربية في مقابل سيطرة اللغة الإنجليزية على استخدامات النات، والتي تكاد تهيمن على معظم مواقع الإنترنت في العالم. ونتيجة لذلك بدأ تدفق المعلومات في هذه الشبكة العملاقة يتلوّن بالانجليزية منذ بدء ظهور الإنترنت. ونظام الإنترنت في الأساس يعتمد على الحروف اللاتينية سواء في كتابة عناوين المواقع أم البريد الإلكتروني وسواه من الخدمات ذات الانتشار الواسع[3].

1- بشار عباس، العرب إنترنت: الجوانب الاجتماعية والاقتصادية،
http://www.arabcin.net/arabiaall/studies/arabandinternet.htm

2- تقرير يحذر من ندرة المحتوى العربي على الإنترنت،
http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=133242&pg=1

3- إبراهيم الماجد، سيطرة اللغة الإنجليزية على معظم مواقع الإنترنت في العالم،
http://www.al-jazirah.com.sa/digimag/11062006/gadeia50.htm

ولعله ما يطرح مشكلات من قبيل ما أعربت عنه مؤسسة علمية معنية بالسلامة البيئية (GREEN PEACE) في تواصلها مع مشتركيها، إذ ورد في تقرير لها ما نصه:

« هنا في (غرينبيس) نعمل منذ فترة على عوربة أو تعريب أنظمتنا وخدماتنا الإلكترونية بهدف التواصل مع مستخدمي الإنترنت العرب، من أجل زيادة الوعي والتفاعل البيئيين في عالمنا العربي. ونسعى لأجل ذلك إلى إدخال مبدإ اليمين إلى اليسار في كل خدماتنا الإلكترونية (right to left)، ولكننا رغم جهودنا الحثيثة في هذا المجال، لا زلنا نعاني من مشكلة اللغة العربية مع الإنترنت.

إحدى هذه المشاكل التي تواجهنا دائما هي التواصل باللغة العربية مع لائحتنا البريدية. فمثلا كل أول شهر نرسل رسالة بريدية (HTML) إلى المشتركين في هذه الخدمة بغية إطلاعهم على آخر المستجدات في المجال البيئي.



نموذج عن النشرة الإلكترونية التي نرسلها إلى المشتركين
كما تبدو في مزود خدمة البريد الإلكتروني المجاني Gmail

نعتمد لإرسال هذه النشرة الإلكترونية على خدمات شركة (STORMPOST) التي تؤمّن لنا خدمة لا بأس بها لجهة إرسال النشرات الإلكترونية وإدارتها.

أما مشكلتنا في هذا المجال فهي في عدم قدرة بعض مزودي خدمة البريد الإلكتروني المجاني مثل (Hotmail) على عرض الصفحة كما يعرضها (Gmail). ففي Hotmail تظهر الكتابات العربية كما نرى في النموذج التالي:



نموذج عن النشرة الإلكترونية التي نرسلها إلى المشتركين
كما تبدو في مزود خدمة البريد الإلكتروني المجاني Hotmail

من هنا فإننا بحاجة إلى مساعدة كل من له خبرة في هذا المجال. ونحتاج بالتالي إلى أجوبة على الأسئلة التالية:

– هل يمكن أن نرسل عنوان النشرة بالعربية؟
– أي ترميز للغة (character encoding) يجب أن نستخدم لهذه الغاية؟
– لكن يبقى السؤال الأكبر عن عدد أو نسبة مستخدمي الإنترنت في العالم العربي الذين يستخدمون اللغة العربية في تواصلهم عبر البريد الإلكتروني؟»[1].

1– اللغة العربية في الإنترنت والبريد الإلكتروني،
http://weblog.greenpeace.org/diwan/2007/07/post_35.html

والواقع أن السؤال الأخير الذي حمله التقرير يكشف واحدا من العوائق التي ظلت تحول دون حضور مرموق للغة العربية في شبكة الإنترنت. فإن معظم مستخدمي الإنترنت من العرب (88%) يستعملون الإنجليزية كلغة ثانية، مع ما بينهم من تفاوت في درجة إتقانها، وإن كانت هذه الإحصائية لا تأخذ بعين الاعتبار مستخدمي الشبكة من المغرب العربي الذين تبلغ نسبتهم 8,1% من المستخدمين العرب، فتكون على ذلك نسبة اللغة الإنجليزية كلغة ثانية على الإنترنت في البلدان العربية 80%، ونسبة اللغة الفرنسية 10%، واللغات الأخرى 10%[1].

أما عن توظيف اللغة العربية في أوساط مستخدمي الشبكة من الناطقين بها فتكتنفه الكثير من الشوائب التي تحد من فاعليته وتطمس مضامينه الحضارية.

وبهذا الشأن حذرت دراسة تحت عنوان «ثقافة الشباب العربي» أعدها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة من ظهور «لغة موازية» يستخدمها الشباب العربي في محادثاتهم عبر الإنترنت، تهدد مصير اللغة العربية في الحياة اليومية لهؤلاء الشباب، وتلقي بظلال سلبية على ثقافة وسلوك الشباب العربي بشكل عام.

واستقت الدراسة نتائجها بالاستناد إلى شريحة عشوائية من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 15 و35 عاما، وقد رصدت وجود تأثيرات واضحة للإنترنت على مفردات اللغة المتداولة بين الشباب على المواقع والمدونات الإلكترونية وغرف الحوار والمحادثة.

وأوضح الدكتور علي صلاح محمود الذي أعد الدراسة أن حروف لغة الضاد تحولت إلى رموز وأرقام وباتت الحاء «7»، والهمزة «2»، والعين «3»، وكلمة حوار تكتب «7ewar»، وكلمة سعاد تكتب «so3ad» ... الخ[2].

ويضيف الأستاذ شاكر لعيبي –بهذا الصدد– منحيا على ما اعتبره «تهافت اللغة العربية على شبكة الإنترنت» في قوله: «إنهم يكتبون العربية بالحروف اللاتينية، متوصلين إلى كتابة خاصة جدا لأنها لا تعنى بالحركات وبالتشكيل وبدرجة أقل بحروف العلة، متوصلين كذلك إلى سوء تفاهمات لا تحمد عقباها، وإلى فقر لغوي فظيع بسبب أنهم يتجنبون المعقَّد من الكلمات أو المحتشد بالحركات منها التي يمكنها تغيير المعنى المراد»[3]. ويسوق –بدوره– أمثلة عن هذا النشاز في التعبير انتخبها من أحد المواقع الشبابية:

1– بشار عباس، العرب إنترنت: الجوانب الاجتماعية والاقتصادية،
http://www.arabcin.net/arabiaall/studies/arabandinternet.htm

2– محمود جمعة، مفردات لغة الإنترنت تهدد اللغة العربية،
http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?ArchiveId=1075505

3– شاكر لعيبي، تهافت اللغة العربية على شبكة الإنترنت،
http://www.arabesque_international.com/almajala/ar/kitab540622.

Kelam 3al waraq أي كلام على ورق، و El-ghayeb el-7ather أي الغائب الحاضر، وYa nas 5alooni أي يا ناس خلوني، ... الخ.

ولئن كان نزوع الشباب إلى استحداث لغة تواصل موازية يفسَّر -لدى البعض- بوجود شعور بالاغتراب لديهم، يدفعهم إلى التمرد على النظام الاجتماعي القائم وتكوين عالمهم الخاص بعيدا عن قيود الآباء، أو أنهم يلجؤون إلى هذه اللغة كقناع يضعونه في مواجهة الآخرين، فإن هذه الظاهرة الملفتة على ما تمثله من إزدراء بلغة الضاد فإنها -مع ذلك- لا تصور سوى مشهد محدود من أزمة اللغة العربية على شبكة الإنترنت.

إن من بين أكثر المشكلات إلحاحا فيما يتصل بحضور اللغة العربية والتعاطي بها على الشبكة العالمية مشكلة «المصطلح»، فمن دون شك أن اللغة العربية لا يسعها الصمود إلا بصعوبة أمام التراكم المتفاقم للمصطلحات اللصيقة بمشكلات الاتصال الجديد التي تطرحها اليوم شبكة الإنترنت.

ولكي لا نبقى في إطار العمومي والتجريدي ولكي نعطي الأمثلة الواقعية، وما أكثرها في حقل مصطلحات الإنترنت، فإن مسحاً سريعاً لغالبية المواقع العربية سيضعنا أمام حقيقة وهي أن المشرفين على تلك المواقع تتملكهم الحيرة ويتخبطون بالعجز المطلق وهم يواجهون أمرين[1]:

أولا: إنهم لا يعرفون كيف يترجمون المصطلحات والمفردات حتى مع فرضية معرفتهم لمعانيها الدقيقة. ففي الكثير من المواقع العربية نقرأ التالي: (ووتشات رووم، بنرات، برامج البينت شوب، والاتش تي أم أل، والفجول بيسك، وفوتوشوب، وفلاش، وجافا، كروت أغاني، وسكربتات للتشات، والجافا سكربت، وكوب 2008، موبايل ايجبت، ومحرك بحث وب توب، ومصمم بتقنية الفلاش، وعلي فور كوم، وماسنجر)، أية لغة هذه؟ هل يتعلق الأمر باللغة العربية أم بلغة أخرى نجهلها؟

ثانيا: إننا نتوقف كذلك أمام الضعف اللغوي المطبق الذي تعاني منه تلك المواقع، ليس فحسب لجهة ترجمة المصطلح، ولكن كذلك لجهة السيطرة على لغتها الأم، إذ ترتكب هذه المواقع أخطاء جسيمة، أو تمررها في ثنايا نصوصها، وبعضها يندى لها الجبين، إننا نقرأ -مثلا- في أحد المواقع عبارة (مواقع موختلفة) بالواو وليس بالضمة، ونقرأ في موقع ثان (دايم ياخذون بيظها) وليس بيضها، وفي موقع آخر نرى (مكتباة) بالتاء المدورة وليس مكتبات!!

والواقع لو أن الأمر كان مقتصرا على قضية ترجمة المصطلح التي يعلق عليها الكثيرون الأمل في انتشال اللغة العربية من مأزقها على الشبكة، لكان الأمر متاحا ميسورا، فبين أيدينا

1- شاكر لعيبي، تهافت اللغة العربية على شبكة الإنترنت،

http://www.arabesque-international.com/almajala/ar/kitab540622.html

مقترحات هادفة لتفعيل آلية الترجمة في تعريب اصطلاحات العلوم والمعارف، فلا تخرج المصطلحات التي يمكن أن نواجهها في استعملاتنا اليومية عن ثلاث مجموعات[1]:

أولا : مصطلح قديم استعملته كتب التراث العلمي واللغوي العربي، له لفظ نجهله فيحسن أن نحيي هذا اللفظ وننشره بين الناس، إلا إذا جرت الألسن باصطلاح آخر أفضل منه. ومن هذه المصطلحات الكثير من أسماء النباتات والحيوانات والأمراض وغيرها.

ثانيا: مصطلح جديد شاع استعماله في ثلاث لغات شائعة مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية، فيحسن استعماله كمصطلح عالمي فنأخذه بذاته ونترك اللسان العربي أن يحوّره مع الزمن إلى صيغة ملائمة، وينضوي تحت هذا معظم المصطلحات الطبية الحديثة وأسماء العقاقير والأجهزة العلمية ووحدات القياس مثل المتر، والترمومتر، أجهزة واختراعات واسعة الانتشار مثل تلفزيون، فاكس، تلغراف، تيليكس، . . . وغيرها.

ثالثا: مصطلح جديد لا يحظى بمثل ذلك الاتفاق في اللغات الأكثر شيوعا، نبحث عن لفظ عربي يؤدي معناه، ثم نطرحه للاستعمال والتداول ونرصد مسيرته في المؤلفات، وعلى ألسنة الناس في الشارع والمدرسة والمكتب، فهو بالتأكيد سيتخذ طال الزمن أم قصر، جرسا عربيا.

لكن المشكلة تبدو أوسع من مجرد تجاوز مشكلة ترجمة المصطلحات الأجنبية. فما أكثر البدائل الاصطلاحية التي اقترحتها مجامع اللغة العربية لكن دون أن تجد من يلتفت إليها أو يعنى باستعمالها، لذلك لا غرابة إذا اتفق وأن انبرى من بين القائمين على قطاع الاتصالات في الوطن العربي من ينادي بضرورة استحداث لغة بديلة تكون مساوقة للغة الصحافة، بدعوى توفير العناء عن أجيال الناشئة مما يلقونه من عنت في تعاطيهم مع اللغة التقليدية.

وفي هذا السياق تأتي دعوة رئيس مفوضي هيئة تنظيم قطاع الاتصالات في الأردن الدكتور أحمد حياصات إلى إعادة بناء معاجم لغوية جديدة تكون صالحة لاستعمال الشبكة العنكبوتية، وتعتمد تصنيف عمر المفردة وتاريخ دخولها واختيار المناسب في المعنى والشكل وفرزه لمحتوى الشبكة في لغة بديلة عن التي يجري صبها في الحياة اليومية.

وقال في ورقة عمل قدمها إلى الندوة المنعقدة حول موضوع « اللغة العربية والتقنيات الحديثة » التي نظمها مجمع اللغة العربية الأردني ضمن موسمه الثقافي السادس والعشرين، إنه لا بد من إعادة تشكيل اللغة الجامدة والقديمة وتصنيعها لتقترب من العاميات، وصياغة لغة شاملة أقرب للغة الصحافة، حتى لا تهرب الأجيال من صعوبة اللفظ والرسم والقواعد وازدواجية الاستعمال بين اللفظ والتفكير وطبيعة اللغة الموروثة.

1- عبد الكاظم العبودي، تأملات في الخطاب الجامعي، الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2004، ص67.

ودعا الدكتور حياصات إلى فك القداسة عن تصريف المفردات وإدخال مفردات جديدة، مؤكدا الحاجة لمجامع جديدة موازية تجمع بين علماء اللغة وعلماء الحاسوب ومصممي محتوى الإنترنت، ليكون الطريق سالكا في تطويع اللغة للمضمون وتطويع المضمون الجديد للغة.

ويرى في ورقته التي عنوانها «اللغة العربية والشبكة العنكبوتية.. قضايا وحلول» ضرورة عدم ترك الأجيال في العراء يشتكون لغتهم ويتصالحون عليها أو يتوافقون ويفرضونها بقوة فتصبح أخطاؤهم السارية والمستعملة هي القواعد التي لا تستطيع بعد ذلك عزلهم عنها.

وحسب حياصات فمن الأهمية بمكان إرسال بعثات متخصصة للاطلاع على جهود الشعوب الأخرى في صناعة محتوى الإنترنت من لغاتهم، وكيفية تطوير اليابانية والصينية وغيرهما لمعرفة المشكلات، وكيف استطاعوا أن يواكبوا ويبدعوا ويتفوقوا[1].

وهذه الدعوة على وجاهتها، وعلى ما يمكن أن تثيره من جدل حول مستقبل اللغة العربية على شبكة الإنترنت، إلا أنه من حيث مضمونها لا يمكن عدها فكرة جديدة، فقد شهد العالم العربي منذ أواسط القرن الماضي دعوات مماثلة تنحو إلى إيجاد لغة عربية بديلة تشبه أن تكون «عامية منقحة» أو «فصحى مخففة»، اجتهد المتحمسون لها في وصف سماتها الإملائية والنحوية والصرفية، والتي ستجعل اللغة العربية –في تقديرهم– أقدر على تجاوز عيوبها، وأدعى إلى اكتساب اليسر والمرونة وسرعة الانتشار، مهونين من شتى المحاذير والتحفظات التي سجلها خصومهم[2].

بل لم يتردد بعض الباحثين –حينها– في اقتراح نمط جديد للخط العربي يمكنهم – في تصورهم– أن يكون أكثر انسجاما ومقتضيات التطور العلمي والتكنولوجي، استنادا إلى الخصائص التي يتمتع بها والتي ترشحه لأن يسهم في تذليل كثير من الصعاب التي طالما صادفها الحرف العربي الكلاسيكي على مستوى آليات الطباعة[3].

عدا أن هذه المشاريع والدعوات التي وصفت بالجريئة لم تلق –قديما ولا حديثا– سوى تجاوب ضئيل، ففضلا عن غياب إرادة سياسية تدعمها وترعاها، فإن التخوفات التي ما فتئ خصوم هذا التيار من المحافظين يبدونها لم يكن تجاوزها بالأمر الهين، ولعل في مقدمتها ما يمكن أن يؤدي إليه إدخال تحويرات جذرية على رسم اللغة العربية أو نحوها من قطع الصلة بينها وبين تراثها، بالإضافة إلى أن البدائل المقترحة ستفضي –لا محالة– إلى أنماط متعددة من اللغة العربية، مثلما هو الشأن مع اللغة اللاتينية واللغات الحديثة التي تفرعت عنها.

1– مختصّون يعتبرون الإنترنت أخطر امتحان للغة العربية،

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8BAC4176-450F-B8DA-7127702A17AF.htm.

2– يراجع –على سبيل المثال– الجنيدي خليفة، نحو عربية أفضل، بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت.؛ ومحمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، القاهرة: دار المعارف، 1976.

3– يراجع مشروع البحث المقدم من قبل الباحث الجزائري خالد قطيش، الخط العربي وآفاق تطوره، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986.

ويبقى السؤال المطروح ما هي أهم السبل الكفيلة بالمواءمة بين طبيعة اللغة العربية ومقتضيات التقنيات المعلوماتية على الشبكة المعلوماتية؟

لا شك أن جانبا من الحل المنشود لا يبعد عما دعت إليه الدراسة المعدة من قبل اللجنة الأممية «الإسكوا» من ضرورة أخذ مبادرة إنشاء بوابة المحتوى العربي الرقمي، والتي تتمثل في تعزيز استخدام التكنولوجيا الرقمية في تفعيل المحتوى العربي في مجالات الثقافة والأدب والتاريخ والاجتماع، وذلك في صورة إنشاء قواعد بيانات وفهارس إلكترونية عربية لتسهيل أعمال البحث والاسترجاع، الأمر الذي يسهّل الحصول على مادة المحتوى.

وتأتي هذه الدراسة في الوقت الذي برزت فيه بعض المؤشرات التي توحي بإمكان دعم حضور اللغة العربية على شبكة الإنترنت، لا شك أن أهمها الموافقة على استخدامها في كتابة عناوين المواقع، حيث وافقت هيئة (ICANN) التي تشرف على إدارة عناوين الإنترنت على المستوى العالمي، على كتابة أسماء المواقع بإحدى عشرة لغة غير لاتينية تشمل بشكل خاص اللغة العربية.

وأعلنت الهيئة التي تتخذ من كاليفورنيا مقرا لها أنها ستبدأ تجربة استخدام عناوين لمواقع على شبكة الإنترنت بإحدى عشرة لغة هي: العربية، والفارسية، والصينية المبسطة والتقليدية، والروسية، والهندوسية، واليونانية، والكورية، والعبرية، واليابانية، والتاميلية.

وسيكون بإمكان مئات ملايين مستخدمي الشبكة العالمية بهذه اللغات أن يختبروا على موقع «إيكان» إمكانية كتابة اسم الموقع بلغاتهم الأصلية بدلا من الأحرف اللاتينية.

وأوضح رئيس هيئة «إيكان» على موقع الهيئة أن هذا التغيير يعتبر الأكبر في مجال الإنترنت منذ إنشائها، مشيرا إلى أن اختيار هذه اللغات الـ11 عن غيرها، تم بناء على الطلبات التي وجهت من مستخدمي هذه اللغات إلى الهيئة.

لكن وبسبب التعقيدات التقنية والتوترات السياسية كان لابد من مضي سبع سنوات من العمل والتنسيق قبل أن تتمكن هيئة «إيكان» من بلوغ هذه النتيجة وتنفيذ قرارها بهذا الصدد الذي اتخذته منذ مطلع الألفية الثالثة، وليبدأ استخدام أحرف غير لاتينية في القسم الأول من اسم عنوان الموقع منذ العام 2003. في حين أقدمت اثنتا عشرة دولة من بينها الصين وكوريا وروسيا بوضع عناوين مواقع بلغاتها رافضة انتظار قرار هيئة «إيكان»، بل اتهمت الولايات المتحدة بالاستعمار الرقمي، وأدى هذا الأمر إلى حدوث فوضى في هذا المجال وتشابك مع هيئة «إيكان» التي تديره[1].

1- تقرير يحذر من ندرة المحتوى العربي على الإنترنت،

http://www.moheet.com/show_news.aspx?nid=133242&pg=1

إن السعي لإيجاد وجه عربي للنات هو أمر مشروع وملح على خلفية أن الحروف اللاتينية غير كافية لتمثيل الكلمات العربية، لأنها تعجز أصلا عن تمثيل حروف عربية في منتهى الأهمية كالضاد والطاء والحاء والخاء والعين والغين والهمزة، ويعمل على تجسيد هذا المسعى منظمات دولية في طليعتها: الفريق العربي لأسماء النطاقات في جامعة الدول العربية، وفريق العمل لأسماء النطاقات العربية في لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا «إسكوا»، والائتلاف الدولي لأسماء الإنترنت المتعددة اللغة (MINC)، والائتلاف العربي لأسماء الإنترنت (AINC).

غير أن عدة عوائق لا تزال تحول دون تحقيق النتائج المرجوة، ولعل في مقدمتها عدم اكتراث معظم البلدان الناطقة بالعربية الدفاع عن لغتها، وعدم استعدادها في حالات -غير نادرة- لتمويل الأبحاث والمنظمات التي تعمل بهذا الصدد.

أما عن المقاييس والضوابط التي ينبغي أن يخضع لها تعريب النات فينص المتابعون لقضية تعريب أسماء النطاقات[1]:

أولا: يجب وضع مقاييس موحدة لتعريف مجموعة المحارف العربية المسموح استخدامها في كتابة أسماء النطاقات العربية.

ثانيا: ثمة ضرورة لوضع مقاييس موحدة لهيئة هيكل الأسماء العربية (شجرة أسماء الإنترنت العربية) بما في ذلك تحديد النطاقات العربية العلوية العامة- general TLDs (gTLDs)، والدولية(country code TLDs –ccTLDs).

وتقع مسؤولية دعم هذه المعايير وتوفيرها على المنظمات العربية، وخصوصا منها العاملة في قطاع المعلومات والإنترنت مثل (الائتلاف العربي لأسماء الإنترنت) وجامعة الدول العربية.

ومن المهم وضع المقاييس والتوصيات من قبل جهات محايدة، وعدم تركها للجهات التي تملك مصالح خاصة والتي عادة ما تضع حلولا خاصة وغير مفتوحة. أما جانب تحديد النطاقات العربية والخوادم (Servers) فهو من اختصاص الجهات الرسمية على الإنترنت المسؤولة عن إصدار المقاييس وأنظمة أسماء النطاق الدولي مثل (مجموعة عمل الإنترنت الهندسية (IETF)، وشركة الانترنت للأسماء والأرقام المخصصة (ICANN) المعيّنة من حكومة الولايات المتحدة.

1- إبراهيم الماجد، سيطرة اللغة الإنجليزية على معظم مواقع الإنترنت في العالم،
http://www.al-jazirah.com.sa/digimag/11062006/gadeia50.htm

على الرغم من أن اللغة العربية قد أحرزت في عصرنا الحاضر حضورا متميزا في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية[1]، إلا أن التحديات التي لا تزال تواجهها عل مستوى شبكة الإنترنت تجعل العبء الواقع على عاتق الناطقين بلغة الضاد ثقيلا في سبيل النهوض بها وتأكيد حضورها في الشبكة العالمية، فإذا كانت متطلبات التحديث تستدعي من المثقفين العرب نبذ خيار الانغلاق في وجه الثقافات واللغات الأخرى، إلا أن مخاطر الاختراق الثقافي تحت شعار تحديث الثقافة العربية أو عصرنة اللغة العربية، من شأنها أن تهدد بطمس هويتنا بل وإلغاء كينونتنا، ما يعني أن عملية التحديث ينبغي أن تأخذ بعين الاعتبار خصوصية اللغة العربية والتراث الحضاري الذي تستمد منه، في نطاق معادلة تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل.

1- يراجع مجموعة الأبحاث التي قدمت في إطار يوم دراسي بعنوان: «دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها»، من تنظيم المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر، بتاريخ: 15/07/2002، الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2004.

المعالجة الآلية لضوابط الكتابة العربية

د. مصطفى حركات
ج. الجزائر

1. قضية الكتابة العربية اليوم

أ. أصبحت الكتابة العربية اليوم أداة لتدوين لغات الضاد ولغات أخرى يتكلمها الملايين من الناس، واعتاد عليها القراء، وحل الحاسوب قضاياها المرتبطة بالطباعة وشاع استعمالها عند الأجانب بحيث أن الباحثين منهم عزفوا عن التدوين بواسطة الحروف اللاتينية وأصبحوا يعاملونها كلغة حية على جميع مستوياتها.

ب. الكتابة العربية قريبة جدا من الكتابة الصوتية وذلك لأن التقابل بين المكتوب والمنطوق تقابل أحادي وهي بذلك تفوق العديد من الكتابات الغربية وأخص بالذكر اللغة الفرنسية حيث تعدد الرموز للصوت الواحد واختلاف نطق الحروف جعل إملاءها من بين الأنظمة الأصعب تناولا.

هل يعني هذا أن كتابتنا مثالية لا تشكو من أي عيب؟ الجواب هو بطبيعة الحال: لا.

جـ. يعرف الجميع صعوبات فك الرموز في العربية بالنسبة للمبتدئين وحتى بالنسبة للمتخصصين عندما تكون النصوص قديمة مثل هذا البيت الشعري للأخطل:

يا قل خير الغواني كيف رغن به   فشربــه وشــل فيهن تصريــد

القضية تؤول كلها إلى وضع الشكل وضبط الحروف. الحل بين أيدينا. فلنضبط نصوصنا! ولكن لماذا لا نفعل ذلك؟

د. إن سهولة قراءة الشكل العاري من الضوابط في كثير من الأحيان تجعل التشكيل من ميدان اللغو.

من يحتاج إلى ضوابط لقراءة هذه الجمل؟

- خرج المعلم
- كتبت الدرس
- الجو بارد

2. ملكة القارئ وملكة الحاسوب

تقرأ الجمل البسيطة المذكورة بسهولة لأنها موجهة لقارئ له ملكة ما في العربية. ولكن قارئا مثاليا في الخلو من الملكة، قارئا يعرف الحروف ولا يعرف الكلمات والتراكيب، لن يستطيع أبدا أن يقرأ هذه الجمل.

الحاسوب هو ذلك القارئ المثالي في خلوه من الملكة اللغوية، وإذا أردنا منه أن يقرأ الجمل السابقة فإنه من اللازم علينا أن نعطيه شيئا من هذه الملكة.

وتكمن القراءة هنا في وضع الشكل لأننا لما نضع الأشكال يصبح اقتران المكتوب بالمقروء هينا، والإعلاميون الذين يبحثون في ميداني التعرف على الكلام أو إنتاج الكلام يعرفون هذا جيدا.

يستطيع الحاسوب اليوم أن يقرأ النصوص المكتوبة في العديد من اللغات ولكن الكتابة العادية في العربية، الكتابة الخالية من الضبط تجعل الأمر عسيرا ومستحيلا. وقد أصبحت قراءة الحاسوب بالنسبة للغتنا ملخصة في المعادلة:

قراءة = تشكيل

إذا حللنا قضية التشكيل أو اقتربنا من حلها فإننا سنحل حتما قضية القراءة الآلية.

3. الملكات الثلاث

وبإمكاننا أن نتساءل: ما هي الملكة اللغوية التي يتطلبها نص مثل: خرج المعلم، كي يقرأ، هذه الملكة يمكن تجزئتها إلى ثلاث ملكات:

- ملكة صوتية
- ملكة معجمية–صرفية
- ملكة تركيبية نحوية.

هذه الملكات الثلاث هي الملكات اللازمة لقراءة الجمل السابقة، ويمكننا أن نضيف ملكة رابعة هي الملكة الدلالية البراقمتية . فجملة مثل: **فتح الباب**

لا يمكنها أن تقرأ كما يلي: **فَتَحَ البَابُ**

والمانع ليس نحويا لأن الباب قد يكون مبدئيا فاعلا، وإنما المانع دلالي تداولي، فالباب لا يستطيع أن يفتح شيئا لأنه ينتمي إلى غير العاقل وهذه الفئة من الأسماء لا تستطيع أن تكون فاعلا في هذا السياق.

الملكة الصوتية

نقصد بالملكة الصوتية هنا شيئا خاصا غير ملكة النطق في حد ذاته. وإنما نقصد بهذه العبارة ملكة مرتبطة بالمكتوب. ففي الفرنسية مثلا نطق الحرف المكتوب S هو سين في كل من:

Sa ,juste ,responsable

وهو زاي في كل من:

Maison ,rose ,ruse,

والحرف c هو كاف في col وهو سين في ce .

وتتجلى هذه الملكة في العربية في بعض اقتران المكتوب بالمنطوق على مستوى أولي هو ما نسميه بالملكة الصوتية.

وفي العربية هذه الملكة تتجلى في بعض القواعد الصوتية مثل عدم الابتداء بالساكن الذي يمنع ورود / فْتَحَ / و/ كْتبت / و/ مْنزل / في الفصحى والتقاء الساكنين يمنع ورود: / المعْلْم / أو/ أصْبْحَ / . . .

وهناك قاعدة أخرى ينساها الكثير ولكن يطبقها القارئ بصفة مستمرة وهي عدم تراكم المتحركات في الكلمة الواحدة. فهذه القاعدة هي التي تجعل إسناد / كَتَبَ / إلى الضمير /تُ/ تؤول من /كَتَبَتُ/ إلى /كَتَبْتُ/ وهي التي تقود / است + فعل / إلى /اسْتَفْعَل/ بإسكان الفاء.

عدم رتابة توالي المتحركات هي قاعدة إيقاعية كما أن عدم التقاء الساكنين في العربية قاعدة إيقاعية خاصة بها.

فالقواعد الصوتية للقراءة العربية هي هنا قواعد إيقاعية قبل كل شيء.

وإذا قارنا بين العربية والفرنسية فإننا نرى أن في الفرنسية قواعد القراءة على المستوى الصوتي هي قواعد سياق ففي هذه اللغة الحرف s مثلا هو زاي بين صائتين وهو سين خارج هذا السياق والحرف c هو سين قبل صائت وكاف في باقي السياقات.

وعملية القراءة في الفرنسية هي البحث عن صوت لكل حرف مكتوب أو مجموعة من الحروف. أما في العربية فعملية قراءة النص العاري من الشكل هي إقران صوت برمز غائب.

وهذا البحث عن الغائب هو الذي ربما يجعلنا نشعر أحيانا بالصعوبة في فك الرموز الصعبة.

الملكة المعجمية–الصرفية

لننظر إلى تشكيل جملة مثل : جاء الشتاء

إذا كانت فتحة الجيم حتمية وناتجة عن كون الألف مسبوقة بفتحة فإن فتحة الهمزة ناتجة عن معرفة للكلمة /جاء/ وكذلك الشأن بالنسبة لكسرة /الشتاء/ ... ومعرفة الكلمات هي ملكة معجمية–صرفية.

لو ترجمنا / جاء الشتاء / إلى الفرنسية لتحصلنا على:

L'hiver est arrivé

قراءة الكلمة / est/ يتطلب المعرفة المعجمية لها لأن السياق وحده يجعلها تنطق: t+s+e ولكن الكلمتين / hiver / و/ arrivé/ لا تتطلب أي ملكة معجمية.

ففي الكتابات الصوتية الغربية عموما **الملكة المعجمية المطلوبة من القارئ ضعيفة** أما في العربية فإنها **دائمة اللزوم**. ولا غرابة إذن أن من يحسن القراءة هو من كان معجمه ثريا.

وأحسن دليل على هذا هو بيت الأخطل:

يقلن إذا ما استقبل الصيف وقدة   وحر على الجد الظنون فأنفـــذا

فمن يعرف أن الجد هنا هو بمعنى البئر؟

الملكة التركيبية النحوية

هذه هي الملكة الثالثة المطلوبة من القارئ. وهي تتجلى في حركات الإعراب عموما ولكنها لا تقتصر على ذلك فكلمة / قلن / في البيت السابق تقرأ بكسر القاف لأن / قُلْنَ / فعل يتطلب مفعولا به هو غائب هنا. فالفعل / قلن / هو إذن لازم وهو قال يقيل قيلولة...

فوضع حركة القاف يتطلب المعرفة المعجمية للفعلين: /قال، يقول/ و /قال، يقيل/ والمعرفة النحوية التي تتجلى في غياب المفعول به.

ملكة الحاسوب

من الواضح أن ما يمكننا أن نزود به الحاسوب من ملكات ما زال ضعيفا. وهذا على المستوى الدولي عموما. وذلك لأن اللغة شيء معقد لا يمكن أن نحدد له قواعد رياضية تصفه الوصف الكامل. وأحسن دليل على هذا هو أن الترجمة الآلية التي كانت وسط البحث اللغوي الحديث وصلت إلى طريق مسدود. وقد قال في هذا الشأن عالم لغوي معروف: نحن كنا نعلم من البداية أن الطريق مسدود وأننا في وضع رجل في العصر الحجري يريد أن يذهب إلى القمر!

ولكن الحاسوب اليوم أصبح يملك ذاكرة قوية بحيث أن الملكة الصرفية مثلا لم تصبح بالنسبة له مشكلة...

المساعدة على التشكيل أو تصحيح النص المشكل أصبح الآن ممكنا.

ويقتضي هذا منا أن نتناول كتابتنا بمنطق آخر. ادخل مثلا في محرك بحث مثل قوقل Google، الكلمة {عروض} وأنت تقصد عروض الخليل. فإنك ستلتقي بمواقع عدة مثل العُروض الاقتصادية وعروض الأزياء والرقص لست في حاجة إليها. وهي تأخذ صدارة قد تحول بينك وبين موضوع بحثك.

هذا اللبس ناتج عن تجانس في الكتابة غير وارد في اللغة.

التجانس في المكتوب هو الذي جعل البعض يقول بأننا نقرأ في اللغات الحديثة لنفهم ويلزمنا أن نفهم في العربية كي نقرأ.

هذه المقولة مبالغ فيها. فبساطة لغة الصحافة اليوم، وانغلاق معاجم النصوص العلمية والإدارية على مصطلحاتها، تجعل القراءة سهلة بالنسبة للشخص العادي. ولكن ثراء بعض النصوص الأدبية يتطلب جهدا خاصا.

ومن الناحية التربوية فإنه بإمكاننا أن نشير إلى أمرين:

- القراءة لها من بين الأهداف تقوية الملكة اللغوية ولكن غياب الشكل يجعلها عاجزة على مهمتها على أكمل وجه.
- اهتمام الأجانب بالعربية أصبح واقعا اليوم. والصعوبة الأولى التي تواجه الأجانب هي القراءة وذلك لأنهم يملكون آليات لفك الرموز غير آلياتنا...

ويصبح من أجل ذلك وضع الشكل مستحبا بل ضروريا.

المحور السادس

مستقبل اللغة العربية
ورهانات العصر

مستقبل اللغة العربية
و رهاناتها في ظل العولمة

د . أبو عبد الله غلام الله

وزير الشؤون الدينية والأوقاف –الجزائر–

خطة البحث :

- ظاهرة العولمة و طابع الشمول و التعقيد .
- مخاطر العولمة في مجال اللغة جزء من مخاطر العولمة في مجال تذويب الخصوصيات الحضارية .

الخصائص الذاتية للغة العربية و مؤهلاتها .

مزاعم أعدائها و الرد عليها .

الوضع اللغوي في البلاد العربية عموما و الجزائر خصوصا .

أسلوب المواجهة .

الخلاصة

لاشك أن الحديث عن اللغة العربية و رهانات المستقبل في ظل العولمة وضغوطها يقتضي قبل ذلك الإشارة إلى ما يكتنف هذه الظاهرة نفسها من غموض وتعقيد، بالرغم من أنها قد أخذت من الاهتمام في عشرية واحدة تقريبا ما لم يحظ به النصف الأخير كله من القرن العشرين ؛ و هذا الغموض هو الذي جعل أبحاث المفكرين والخبراء الباحثين في نشأة هذه الظاهرة، ظاهرة العولمة، و تطورها ورصد مجالات تأثيرها ويختلف، ويختلف تبعا لذلك تقييمهم لها و مواقفهم منها ! .

ومهما يكن من أمر هذا الغموض وهذا التعقيد ؛ فإن هناك نوعا من الإجماع على أن مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة بصفة عامة ومطلقة هي الآفاق الرحبة التي تمتد فيها العولمة وتبرز فيها آثارها كنتيجة لهذا الامتداد، في عملية مركبة ومتشابكة ؛ فسواد القيم الليبرالية في الاقتصاد يكمله سواد النظام الديموقراطي الغربي في السياسة، وتحقق التجانس الثقافي في العالم بسواد قيم الثقافة الغربية القائمة على تمجيد العقل وتقديس حرية الإنسان المطلقة .

فالعولمة هي إرهاص عنيف لنهاية الخصوصيات من خلال وسائل تكنولوجية وانتشار ثقافة ذات مرجعية تتمثل في الدولة الأقوى مما يجعل ثقافة العولمة عملية تقويض للثقافة الوطنية(1) .

(1) يحي راضي – العولمة الثقافية – مجلة الواحة عدد 16 – 2000 – ص 258 .

وهذا ما يعبر عنه عابد الجابري صراحة عندما يقول: «إن العولمة هي توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله اقتصاديا وأيديولوجيا، وإذا كان الاستعمار هو أسمى مراحل الرأسمالية التقليدية التي أفرزتها الثورة الصناعية في أوروبا فإن العولمة اليوم تعني ما كان يعنيه الاستعمار بالأمس، فهي أعلى مراحل الرأسمالية الجديدة التي أفرزتها ثورة المعلومات وما يرافقها في مجال الاقتصاد و الإعلام» (1).

فانطلاقا من هذه الحقائق كلها نستطيع أن نقول إن هناك مستويين أو بعدين في التعامل مع العولمة و رصد ضغوطها في مجال من المجالات، كمجال اللغة الذي يعنينا هنا؛ كما أنه ينبغي الفصل بوعي بين هذين البعدين أو المستويين، فهناك مستوى يعكس التطور الطبيعي لهذه الظاهرة و هذا التطور من شأنه أن يؤثر في كافة مجتمعات العالم، مع الاختلاف بطبيعة الحال في درجة التأثير و مجاله تبعا للخصائص المميزة لهذه المجتمعات حضاريا و ثقافيا وسياسيا واقتصاديا .

وهناك المستوى الثاني وهو الجانب الموجه في ظاهرة العولمة، أي الجانب الذي يخضع للتخطيط، بمعنى توظيف ضغوط العولمة وتحدياتها لتحقيق أهداف محددة، سياسية ثقافية وحضارية؛ وهذا المستوى هو الذي يعنينا، نحن المسلمين عموما، ككيان حضاري متميز؛ لأننا نحن المستهدفين من قبل هذه الإرادة المخططة لضرب مقومات شخصيتنا الحضارية، وفي مقدمتها اللغة العربية.

وهنا تبدو الإشارة ضرورية كذلك قبل الدخول في لب موضوع اللغة إلى أن هذه الاستراتيجية الموضوعة لتقويض أو لعولمة مقومات شخصيتنا الحضارية المتميزة عن الغرب، تقوم هي أيضا على جانبين متكاملين؛ جانب تبدو فيه الأهداف المسطرة واضحة ومجال تطبيقها بارز غير خاف لأن هذا الجانب يسعى صراحة إلى إلغاء الخصوصيات المرجعية للآخر، وذلك من خلال التأثير المباشر في مجالات حيوية كالتعليم وحقوق الإنسان عموما وحقوق المرأة والطفل بشكل خاص وكذا المجال السياسي المرتبط بهذه الحقوق ارتباطا وثيقا .

وهناك الجانب الآخر، وهو الأشد خطورة لأن العمل فيه يتم بشكل غير صريح وغير مباشر، والأهداف فيه غير معلنة، وهذا الجانب يمس العقيدة والأخلاق والتاريخ و التراث؛ وبشكل خاص الوعاء الذي يحفظ ذلك كله، أي اللغة؛ لأن القصد هنا هو تجريد تلك المجالات جميعها من حرمتها وقدسيتها للحيلولة دون عطائها وتأثيرها، فتهتز بذلك كله المرجعية الدينية والحضارية، مما يسهل امتداد العولمة.

فهناك إذن حقيقة كبيرة ينبغي استحضارها، أو قاعدة عامة هي أن العولمة وقوانين تأثيراتها تشبه القوانين الطبيعية، فحيثما كان هناك ضغط مرتفع لابد أن يؤثر في المناطق التي يكون فيها

(1) قضايا في الفكر المعاصر – محمد عابد الجابري بيروت 1997 من 137 .

الضغط منخفضا؛ بمعنى، أن المجتمعات التي تحقق مستوى عاليا في الإنتاج والإبداع مع امتلاك وسائل التبليغ والتوزيع من الطبيعي أن تؤثر في المجتمعات التي تعاني فراغا في ذلك كله، لأنها لا تنتج و لا تبدع، وهي في حاجة إلى استهلاك ما عند الغير، إما عن وعي وعن حاجة ماسة حقيقية أو عن مجرد استلاب و انبهار!.

فالعولمة تحدث الفراغ، ثم تعمل من أجل ملئه بما يخدم أهدافها؛ وبالأساليب التي تناسب إستراتيجيتها، ومن ذلك حمل الآخر على الشعور بالنقص والضعف و دفعه إلى تجريح الذات وفقدان الثقة، والانبهار بما عند الغير والرغبة في التشبه به.

وإذن فإن مقاومة هذا الفراغ يبدأ باستعادة الثقة في النفس والإيمان بأن هذا الضعف القائم، ليس قصورا ذاتيا وإنما هو عارض ظرفي وطارئ زائل إذا ما توافرت العزيمة القوية والهمة العالية بمعنى أن الثقة في النفس قد تحول هذا الضعف إلى حافز وعامل من عوامل القوة، كما يرى ذلك المؤرخ الإنجليزي أرنو لد توينبي.

وإذن فإن هناك واقعا جاثما بثقله و ضغوطه، فارضا منطقه الذي لا مناص من أخذه بعين الاعتبار، فالتحمس الملتهب وحده لا يكفي والعاطفة الجياشة مهما تكن صادقة كذلك لا تجدي، بل لا بد من الوعي بالأولويات التي يمليها هذا الواقع الذي يتطلب علاجه تفكيرا وتخطيطا ووقتا وصبرا ومثابرة و تعاونا جادا ووحدة رؤية و التزاما، ويتطلب قبل ذلك كله إيمانا؛ و ثقة في النفس، ولكن الثقة التي تحيي الإرادة وتبعث الأمل وتدفع إلى الحركة والعمل، لا الثقة التي تنفخ في الغرور وتضخيم الذات دون العمل من أجل تحقيقها.

فلا يكفي هنا مثلا أن نردد بأننا واعون بطبيعة العصر الذي يفرض علينا التفتح على الغير و التبادل والتفاعل معه إلى حد الأخذ بقوانينه والاستجابة لعاداته؛ بل لا بد أن نواجه بوعي وثقة واقعنا وأنفسنا ونسأل بشجاعة ومسؤولية، ماذا نقدم نحن لهذا الآخر ؟!.

ماذا أقدم له بلغتي مثلما يقدم هو لي بلغته؟ !لأنني أعترف أنا اليوم أنني أجد في لغة الآخر ما احتاجه من أجل النهوض بواقعي في مختلف مجالات الإبداع العلمي والإنتاج المعرفي، فماذا يمكن أن يجده هذا الآخر في لغتي أنا، مما قد يحتاجونه في حياتهم وسعيهم المتزايد إلى التطور والرقي والتقدم ؟! .

فعندما نتحدث إذن عن مستقبل اللغة العربية ومكانتها بين لغات العالم ومزاعم المخططين من أعدائها لتقويضها، ينبغي أن يكون حديثا متكاملا بمعنى أن يشمل الدعوات المغرضة الخارجية المنسوبة لضغوط العولمة ولمخططات أعدائها، و تشمل في الوقت نفسه تقصير أهلها وسلبيات الواقع الذي تعانيه.

إن الحقيقة الكبرى المسلم بها هي أن اللغة العربية مرشحة للسواد في العالم، لارتباطها بالعقيدة الإسلامية من جهة ولخصائصها الذاتية من جهة ثانية؛ هذا بصفة عامة .

ولأنها كذلك أصبحت في نظر من ابتدعوا الإسلام وفوبيا خطرا على الغرب وعلى حضارة الغرب، و بتوضيح أكثر نقول إن منطق العولمة الممنهجة والمسيرة يقول من تميز عنا حضاريا و ثقافيا ولغويا كان خطرا علينا، و لما كان الكيان الإسلامي الأكثر تميزا عن الغرب وحضارات الغرب أصبح هو العائق الأكبر أمام أهداف العولمة والمستهدف بالدرجة الأولى هي اللغة العربية باعتبارها لغة هذا الدين، والآن إذا ما جئنا لنترصد مختلف الوسائل والأساليب والمزاعم والتهم التي يروج لها أعداء هذه اللغة فإننا نجدها على قسمين، قسم يركز عليها هي كلغة؛ من حيث طبيعتها وخصائصها ومؤهلاتها الذاتية وقسم يركز على أهلها الناطقين بها .

ولعل المتتبع لهذا الموضوع يلحظ من دون شك وباعتزاز وارتياح الوعي المتنامي بهذه المخططات الرامية إلى ضرب اللغة العربية، ودحض حججها الواهية علميا، بفضل ما يعقد من ملتقيات علمية متخصصة، عربيا ودوليا، وما وضع في هذا المجال من بحوث جامعية ودراسات أكاديمية، والتي حصرت هذه المزاعم بصفة عامة في النقاط الآتية؛ أن اللغة العربية فقيرة المصطلحات العلمية مما يجعلها غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي السريع، وأنها لغة تعاني من تضخم في المفردات والمترادفات كتعويض عن الفقر العلمي التي تعانيه وكذا صعوبة قواعد هذه اللغة لتعقد النحو العربي أصلا، واستعصاء شكل هذه اللغة، أي حروفها عن الطباعة مما يحد من انتشارها وتطورها؛ مما يشكك في قدرتها على أن تكون هي لغـة الثقافـة المشتركـة للمجتمع العربي والإسلامي، على اختلاف اللهجات المحلية، على اعتبار أن المسلمين جماعة لغوية واحدة، كما يقول علماء اللغة، وهي أكبر رابطة تستطيع أن تضع كيانا حضاريا متوحدًا متماسكا قويا ومتميزا .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ارتباط العربية بالإسلام هو الذي جعلها تتعرض في تاريخها الطويل للعداء نفسه الذي واجهه الإسلام في مختلف مراحل تطوره، فأعداء اللغة العربية، على اختلاف أساليب تهجمهم كثيرون، لم يكد يخلو منهم عصر أو جيل، ولم يخفف من حدة عداوتهم تلك ما يرون ويسمعون من أبناء جلدتهم من المنصفين للإسلام والعربية من تقدير وثناء وإعجاب! .

وإذا كانت مواقف هؤلاء الخصوم، القدامى والجدد على حد سواء، واحدة، فإن الأساليب المنتهجة هي التي تتجدد وتتطور بطبيعة الحال! . فهم إذا كانوا يتفقون على أن اللغة العربية هي أساس كيان الأمة المحمدية فإن مخططاتهم للنيل منها والتهوين من شأنها وصرف أهلها عنها وترغيبهم في غيرها متنوعة وكثيرة .

يقول الباحث المتخصص في هذا المجال، الأستاذ الدكتور سعيد العربي موضحا إدراك الأعداء لهذا الترابط الوثيق بين العقيدة واللغة وسعيهم لهدمه، « . . . لقد أدرك أعداء الإسلام حكمة وجوب قراءة القرآن في الصلاة، بما يعني أن العربية هي لغة المسلمين جميعا، فأرادوا أن يضاهوها بعملهم هذا

الذي أظهروه أخيرا وهو إيجاد لغة عامة للبشر أجمع سموها لغة «الإسبرنتو» يزعمون أنهم يريدون تقريب التفاهم بين الشعوب الإنسانية؛ و لكن من عرف مبادئ هذه اللغة يفهم أن المطلب هو إحياء اللغة اللاتينية التي كانوا يسمونها لغة العلوم، وهي اللغة الدينية المسيحية، و إنما جعلوا عنوانها لغة البشر كي يوجهوا المسلمين كغيرهم إلى الاهتمام بها وبذل العناية فيها، علما منهم أن للغة تأثيرا كبيرا في التغيرات الفردية وانقلابات الجماعات و الأفراد(1).

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا، أن هذه الحملات المشككة في قدرة اللغة العربية على البقاء تركز على خصائصها الذاتية كلغة و على مؤهلاتها الذاتية، بينما يقتضي المنطق أن يتوجه النظر إلى أهلها لأن اللغة، أية لغة، إنما تقوى وتزدهر بازدهار أهلها وتضعف بضعفهم ! .

يقول الدكتور إبراهيم السامرائي في حديثه عن علاقة اللغة بأهلها من جهة، وعن قدرة اللغة العربية على التعبير والاستيعاب والتطور الذاتي لما تنطوي عليه من عناصر القوة و الحياة من جهة أخرى: «العربية إحدى اللغات الحية وهذا يقتضينا أن نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة ؛ وهي إحدى اللغات السامية، التي اندثرت معالمها وانمحت أصولها، فلم تبق إلا هذه اللغة القديمة؛ ولابد من الاستطراد قليلا فأقول إنها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات وقد يقول قائل: إن العبرانية لغة قائمة وأنا أقول إن هذه العبرانية ليست إلا مادة جديدة أعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم ؛ ولا بدلي من أن أدع هذا الاستطراد الموجز فأعود إلى العربية لأقرر أنها لغة حية و أنها كانت خير وسيلة للإعراب عن حضارات مزدهرة، و آية ذلك أن العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر ألوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة . ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين أقرر أنها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي».

فالحقيقة الكبرى التي نؤمن بها نحن المسلمين جميعا، والتي تظل فوق أية مراجعة أو جدال، أن الله سبحانه قد تكفل بحفظ كتابة الذي أنزله بهذه اللغة؛ فالحرف العربي محفوظ ما في ذلك شك إلى يوم الدين؛ والمسألة إذن لا تتعلق بالعربية كلغة وإنما تتعلق بأهلها المسلمين، عربا وعجما، فهم المدعوون إلى أن يجعلوها – مثلما كانت بالأمس أيام مجدها وريادتها – لغة العلم والمعرفة في العالم .

يقول في هذا المجال أيضًا الدكتور على لغزيري في بحث قدمه في ندوة الرباط حول «اللغة العربية إلى أين ؟!» في نوفمبر 2002: «والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها مع أن القصور الذاتي الذي تحمله وترمى به ليس راجعا إليها بقدر ما هو كامن في أبنائها، لاسيما والإجماع

(1) اللغة العربية – منشورات وزارة الثقافة السورية – 2004 – القسم الأول – ص 263.

حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الإطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لا روس أو معجم لالاند للوقوف على هذه الشهادات » .

وقبل الدكتور لغزيري وأمثاله من العلماء الباحثين المختصين والغيورين على هذه اللغة، نجد جيلا آخر، حمل هذا الهم نفسه وعانى من هذه الظاهرة نفسها، وعبر عن هذه الحقيقة ذاتها بأسلوب مكثف، أمثال مصطفى صادق الرافعي عندما تحدث عن قدرة اللغة العربية على مواكبة وتيرة التطور العلمي والمعرفي ومستجدات المستقبل، فقد قال: « إن تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية في هذه اللغة لن يكون إلا على السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرهم ولا ضرر منه على اللغة العربية فهي قوية متينة تحمل ذلك وتستلحقه وتأتينا به مستعربا وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءت بمثله من قبل، ومادام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا ضرورة من الضرورات لأن في كل تاريخ حي ممرا لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة وتنتهي فيه من جهة »(1) .

فقد أكد هذه الحقيقة مجمع اللغة العربية في دورته الثانية والأربعين المنعقدة بالقاهرة سنة 1976 من خلال البحوث المستفيضة التي قدمت فيه، ومن ذلك مثلا ما جاء في مداخلة الدكتور إبراهيم مذكور حول هذه المسألة، إذ قال: « تساءل الناس منذ ربع قرن أو يزيد عن موقف العربية من اللغات الكبرى فعدها قوم واحدة منها وأنكر ذلك عليها أقوام آخرون، وسبق أن أثبتنا أنها كانت في الماضي ولعدة قرون اللغة الوحيدة للعلم والفلسفة في العالم بأسره، من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي ثم انضمت إليها اللاتينية فأخذت منها واتجهت عن طريقها إلى كنوز الحضارات القديمة، وبرهنا على أنها قادرة على أن تستعيد مجدها، وليس من طبيعتها ما يعوق مطلقا دون أن تؤدي كل متطلبات العلم و الحضارة ؛ ومنذ النصف الأخير من القرن الماضي أخذت تجدد نشاطها و تتدارك ما فاتها، وحظيت أخيرا بإنتاج وفير ومتنوع، وأقامت العربية الدليل على حيويتها وعلى قدرتها على البقاء؛ ولم تجد الهيئات الدولية بدا من أن تعترف بها وتقدرها حق قدرها! » .

فحقيقة أن اللغة العربية ستتبوأ المكانة اللائقة بها في المستقبل لا ينكرها إلا مكابر معاند، لأن هذه الحقيقة تستند – كما قلنا إلى أساسين اثنين، كونها لغة الدين الخاتم الذي سيظهره الله على الدين كله؛ وكونها مهيأة ذاتيا لحمل هذه الرسالة الدينية الحضارية الإنسانية العالمية ؛ وهذه الحقيقة، عبر عنها النزهاء المنصفون من مختلف بقاع العالم، غربا وشرقا، سواء من العلماء المختصين، أم من المفكرين المنظرين أم من الزعماء المستنيرين والمتبصرين ؛ يقول الدكتور أحمد إسماعيلوفيتش، وهو شخصية علمية في يوغوسلافيا «إن الحضارة الإسلامية العربية في يوغوسلافيا قديمة، وهي ليست غربية ولا جديدة على أوروبا

(1) اللغة العربية آراء و مناقشات – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ص 171.

فقبل ضياع الأندلس كانت أوروبا كلها تتجه للعرب وحضارتها وقد أثرت هذه الحضارة في النواحي الفكرية والمادية في أوروبا حتى بعد خروج العرب من الأندلس، وعندما زار الرئيس تيتو القاهرة وكنت حينذاك مديرا للمدرسة اليوغوسلافية في القاهرة وسألني عما إذا كان أبناؤنا يدرسون اللغة العربية فأجبته بالنفي؛ فقال تيتو: لابد من أن تكون ضمن البرنامج لأنني أريد أن يتعلم أبناؤنا اللغة العربية لأنها لغة المستقبل.»(1) !

وأعيد وأشير إذن إلى أن مستقبل اللغة العربية ومؤهلاتها للسواد وللانتشار في العالم قد أخذ حظا وافرا من الدراسة والبحث ،ليس من قبل الباحثين العرب فحسب ،بل من قبل المستشرقين المختصين والدارسين المهتمين والنزهاء المنصفين من الغربيين أنفسهم.

لكن الجانب الذي لم يأخذ بعد قدره – الكافي من الاهتمام، بالرغم من كونه هو الأهم، وهو أولوية الأولويات إنما هو التشريح الشامل لوضع هذه اللغة في واقع المجتمعات العربية والإسلامية، للوقوف على مختلف التناقضات والمفارقات التي يفرزها هذا الواقع بمختلف أبعاده المتفاوتة من مجتمع لآخر، بحسب واقع كل مجتمع وبحسب الخلفية التاريخية لهذا الواقع .

وهذا الجانب العملي، أو الواقعي إن صح هذا التعبير ينقسم إلى قسمين: قسم مشترك عام نجده عند جميع المجتمعات العربية، وقسم خاص، هو وضع اللغة العربية داخل كل مجتمع، عربي، وما يتميز به هذا الوضع الخاص من سلبيات تساعد على انتشار ضغوط العولمة وتخدم من حيث تدري أو لا تدري أهدافها وتسهم في نجاح مخططاتها؛ وللحديث عن هذا القسم بالذات سنأخذ مثالا له الجزائر.

فبالنسبة لما هو مشترك عام بين المجتمعات العربية نستطيع أن نمثل له بواقع الترجمة، باعتبارها ضرورة حضارية، يمكن من خلال التعرف على وضعيتها في مجتمع عربي ما أن ندرك مكانة اللغة العربية في هذا المجتمع!.

إن الترجمة كما هو معروف نشاط إنساني إبداعي نوعي؛ فهي ليست مجرد تقنية لغوية بل هي عملية مترابطة متكاملة تحمل جميع العناصر المكونة للمجتمعين المترجم عنهما ولهما وكذا طبيعة التفاعل الحضاري القائم بينهما؛ فهي بهذا المفهوم عامل أساسي من عوامل الاقتباس و التأثر الإيجابي بما عند الغير؛ و لا داعي هنا للإسهاب في البعد التاريخي لهذه المسألة، لأن جميع العلماء الإصلاحيين النهضويين المستبصرين كان موقفهم من قضية الترجمة واحدا؛ نأخذ على سبيل المثال مؤلفات الطهطاوي التي تعتبر خير مثال لتأكيد ضرورة الأخذ عن الغرب، كما يظهر ذلك في تخليص الإبريز في تلخيص باريس؛ كما نجد الموقف نفسه عند المصلح التونسي المعروف الوزير خير الدين في مؤلفه الشهير «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» فقد دعا هذا المصلح بإلحاح إلى الاقتباس من أوروبا وخاصة «مستحدثاتهم المتعلقة بسياستي الاقتصاد والتنظيم» .

---

(1) مجمع اللغة العربية – الدورة 43 بالقاهرة 1978 – ص 06 .

فمن المعروف لدى الباحثين المهتمين أن الترجمة في القرن التاسع عشر كانت اختيارا قائما على الوعي بمنطق الضرورة وفقه الأولويات، ويمكن القول إن التجارب الرائدة في ذلك لبنان ومصر بصفة خاصة، ثم ما وقع من فتور بعد ذلك بسبب الظروف المتميزة الخاصة بكل مجتمع، وبصفة أخص في فترات الاحتلال؛ لكن الجهود ظلت مع ذلك تبذل، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية وما أصبحت تقوم به بعض الهيئات مثل جامعة الدول العربية، وكذا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وظهور مؤسسات تتمخض لهذه المهمة الحضارية مثل مركز التعريب والترجمة في سوريا والمعهد العالي للترجمة في الجزائر .

وباختصار نقول عن هذا الجانب التاريخي لحركة الترجمة في البلاد العربية إنه في حاجة إلى مزيد من عناية الباحثين ؛ لأن الجهود المبذولة في هذا المجال ما يزال يغلب عليها الطابع الإِحصائي الذي ينصب أكثر على معرفة عدد الكتب المترجمة واللغة المترجم منها والمواضيع المترجمة وكذا الفئات المستهدفة بها وما إلى ذلك !!.

لكن قل أن نجد دراسات مستفيضة متخصصة تنطلق من الواقع المعيش وتوظف هذه التجارب في إطارها التاريخي لفهم هذا الواقع اليوم بكل أبعاده وتناقضاته، من أجل النهوض به وتلبية حاجاته في ظل ضغوط العولمة؛ وانعكاس ذلك كله على وضع اللغة العربية في مختلف مجالات الحياة .

وأكرر هنا وأقول إن ألمهم ليس هو معرفة التفاوت الملحوظ بين بلد عربي و بلد عربي آخر من حيث الكم، أي من حيث عدد الكتب المترجمة، كما أن المهم كذلك ليس مقارنة حجم ما يترجم في البلاد العربية بحجم ما يترجم في البلاد الأوروبية أو في اليابان أو اليونان أو حتى إسرائيل، بل المهم أو الأهم في كل ذلك إنما هو إبراز و تأكيد مدى الترابط العضوي الموجود بين حركة الترجمة وحركة التأليف؛ فضعف التأليف بالعربية أصلا هو نتيجة منطقية وحتمية لضمور حركة الترجمة التي تفتح الآفاق وتثير التساؤلات وتطرح الإِشكاليات فالإطلاع على ما عند الغير يكون بالترجمة، وبعد ذلك فقط تأتي الإِضافة، وهذه الإِضافة بطبيعة الحال تكون باللغة العربية المترجم إليها، وهذا هو بيت القصيد، إذ القضايا مترابطة، فضعف التأليف معناه تأخر عن الواقع بمفهوم تطور هذا الواقع في بعده العلمي التكنولوجي والثقافي المعرفي وفي بعده الاقتصادي، ومعناه في النهاية تخلف حضاري؛ و أول مجال يظهر فيه هذا التخلف الحضاري هو مجال اللغة، عندما تصبح جامدة محنطة غير متجددة ! .

وإذن فالنهوض باللغة و تحريرها من كافة الضغوط التي تعانيها ليس عملا بسيطا بل هو عمل حضاري مركب متداخل كتداخل مقومات الشخصية الحضارية نفسها .

هذه حقيقة؛ وهناك جانب آخر مرتبط بهذه الحقيقة هي أنه زيادة عن ضعف حركة الترجمة عموما كنشاط حضاري في البلاد العربية، فإِننا نجد أن هذا الحجم الضئيل من حيث النوع يركز أكثر على

العلوم الإنسانية؛ وهنا نقول إن العلوم الإنسانية بالرغم من أهميتها، وبالرغم مما لدى العالم الغربي من جديد نافع لنا فيها، فإنها مع ذلك قد تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية، باعتبار أن ما نحتاجه نحن في المقام الأول هي العلوم التكنولوجية، فأين فقه الأولويات في مجال الترجمة ؟!.

وأخيرا ؛ نخلص إلى نقطة جوهرية في هذا المجال، تزيد وضع اللغة اضطرابا وتخلفا، وهي أن المجالات التي تنحسر فيها حركة الترجمة هي المجالات نفسها التي يبرز فيها ضعف اللغة العربية وعجزه، أي مجالات العلوم التكنولوجية، وهي نتيجة حتمية ومنطقية كما رأينا ؛ ثم إن هذه الوضعية المزرية باللغة تدفع حتما إلى وضعية أشد منها تأزما وتعقدا ألا وهي اللجوء إلى الحلول الجاهزة السهلة التي تهدئ ألم الجرح وتسكنه إلى حين، و لكنها لا تعالجه نهائيا ؛ وأعني بذلك اللجوء إلى تدريس هذه العلوم التكنولوجية في المستويات العليا باللغات الأجنبية .

وهكذا يصبح ما كان ضروريا مرحليا أمرا قارا واقعا مستمرا، بل يصبح قناعة واختيارا؛ ولا يخفى ما ينتج عن هذا الخيار من إفقار للغة في مضامينها العلمية وما تعانيه من جراء ذلك من ظلم لأن أخطاء أهلها أصبحت تتحملها هي، وكأنها هي القاصرة العاطلة العاجزة المتخلفة !!.

وللخروج بنظرة حكيمة لهذه المسألة ينبغي أن نعود إلى منهج أسلافنا في أوج عطائهم الحضاري وريادتهم في مجال العلم والمعرفة؛ فمن المعروف أنهم بادروا –بثقة ووعي – إلى ترجمة ما عند غيرهم من الأمم وفق ما يمليه منطق الأولويات؛ ولعل أقوى دليل على ذلك أنهم لم يترجموا الأدب اليوناني أو اللاهوت عموما لأن ذلك من الخصوصيات الحضارية المرتبطة بالعقيدة وقد فهموا ذلك جيدا؛ بل فهموا قبل ذلك حقيقة أولية أكبر، هي أن اللغة هي التي تصنع خدامها من العباقرة الذين يخدمونها لأنهم يؤمنون بها؛ فالجرجاني والزمخشري والخليل وغيرهم كثير، ممن أغنوا اللغة العربية بتطوير علومها بالعربية، كانت لهم مع ذلك نظرتهم السليمة الحكيمة الأصيلة إلى ثقافات الأمم الأخرى وإلى علومها المختلفة نظرة قائمة أصلا على الثقة بالنفس، أي الثقة في القدرة على تحويل ما يفيد مما عند الغير إلى ما يغني العربية وليس العكس .

فالرجوع إلى نهج السلف في التعامل مع الغير بما يخدم اللغة لا بما يضعفها معناه أن نستلهم هذا المنهج لعلاج أوضاعنا الحضارية الراهنة المتميزة عن الأوضاع التي عاشوها هم؛ بمعنى أن نجد حلولا لمشكلاتنا الحضارية بالمنهج نفسه الذي وجدوا هم به حلولا لمشكلاتهم الحضارية؛ وهذه مسألة عامة تسري على كل المجتمعات العربية اليوم؛ ونريد أن نأخذ لذلك مثالا خاصا محددا، هو وضعية اللغة العربية في الجزائر، أين هي من رهانات المستقبل وضغوط العولمة ؟ ! .

ولماذا الجزائر كمثال؟ الإجابة، تتمثل في الخلفية التاريخية المتميزة، وحجم رواسب هذا الماضي الموروث عن أطول فترة احتلال عرفها مجتمع عربي إسلامي واستمرار كثير من هذه السلبيات في كبح الجهود من أجل رفع التحديات التي تواجهها العربية في الجزائر في ظل ضغوط العولمة .

وبداية نقول إن وضع اللغة العربية في الجزائر يتسم بقدر كبير من الغموض والتعقيد، وهذا بالرغم من الجهود الحميدة التي بذلها باحثون جادون في هذا المجال يستحقون كل التقدير والثناء؛ فما تزال هناك هالة من التعقيد والغموض تكتنف هذه القضية عموما وذلك في نظرنا يعود إلى أسباب عديدة؛ بعضها يعود إلى طبيعة الباحث نفسه ومنهجه في البحث والتحليل والرصد والتعليل؛ إن هناك مثلا من هؤلاء الباحثين من يخطئ منذ البداية، عندما يدخل على هذه المسألة المعقدة المركبة، أي وضعية اللغة العربية في الجزائر، وهو ينظر إليها أصلا كما يريدها أن تكون، لا كما هي في الواقع، بمعنى أن ينظر إليها في إطار كل العوامل الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية التي ساهمت في صنع هذه الوضعية أو هذا الواقع، بكل مناخه وتضاريسه وتناقضاته ومفارقاته وإفرازاته ؛ وبخاصة من ذلك كله الخلفية التاريخية الشديدة التميز وفعل رواسب تلك الخلفية بعد الاستقلال كما أشرنا .

فهناك إذن جملة من الحقائق ينبغي أن يستحضرها الباحث الدارس لهذه المسألة المعقدة ؛ وكل حقيقة من هذه الحقائق تحتاج وحدها إلى بحث مستقل مفصل نظرا لأهميتها وارتباطها الوثيق بعوامل موضوعية أخرى لا تقل أهمية ! .

فالعاطفة وحدها مهما تكن ملتهبة صادقة وجياشة لا تجدي، إذا غاب الفكر الراشد المنطلق من الواقع ؛ فالحديث عن تجربة الجزائر الغنية في مجال التعريب ومقارنتها باليابان مثلا أو كوريا أو الفيتنام قد يقود إلى مزيد من تجريح الذات؛ لأن وضع هذه المجتمعات مختلف عن وضع المجتمع الجزائري من زوايا عديدة .

فالجزائر كيان تعرضت مقومات شخصيته الحضارية للاهتزاز، طوال قرن ونصف القرن؛ ولعل الضغوط التي عانتها وتعانيها منذ الاستقلال أشد مما عانته في فترة الاحتلال، لأن الأساليب المعتمدة في تلك الفترة أعنى فترة الاحتلال هي أساليب مباشرة واضحة من جهة، وكيفية مواجهتها كذلك واضحة لأنها تتلخص في موقف واحد هو الرفض، رفض كل ما يمس هذه المقومات، سواء بالترغيب أم بالترهيب، وكذلك كانت الحال ! . (وهذا ما تُلخصه المقولة الشهيرة لابن باديس « والله لو قال لي الاستعمار قل لا إله إلا الله ما قلتها » ؛ فلا ننسى أن الاستعمار الفرنسي كان ذا نزعة صليبية ؛ أراد أن يجعل من الجزائر قطعة من أرض ألغال، مسيحية الدين فرنسية اللغة ! .

ولقد تعاون على ذلك رجال السياسة والجيش ورجال الكنيسة؛ وبرزت هذه النزعة بوضوح في المخطط ألتنصيري الذي وضعه الكاردينال لا فيجري الذي صرح قائلا : « إن إدخال الأهالي إلى الديانة المسيحية واجب مقدس، وإن أول ما يجب فعله معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن » والذي يهمنا هنا، هو أن صرف هؤلاء الأهالي عن قرآنهم يقتضي صرفهم عن اللغة التي نزل بها .

ومن هنا وضعت مخططات لمحاربة اللغة العربية تضافرت على تنفيذها، الإدارة الاستعمارية والكنسية وخدام السياسة من المؤرخين والمفكرين والأدباء والدارسين، الفرنسيين بطبيعة الحال ومن تأثر بهم وسار على نهجهم من الجزائريين وهذا ما تصدت له جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بدفاعها عن الإسلام والعربية، كما هو معروف في شعارها الوطني «الجزائر وطننا الإسلام ديننا والعربية لغتنا»، وتنوعت – كما لا يخفى على أحد – الأساليب المتعبة للقضاء على هذه اللغة، وكان منها محاولة استغلال تعدد النسيج اللغوي في المجتمع الجزائري لضرب الوحدة اللغوية القائمة على لغة القرآن، لقدكتب الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1948 مقالا نشر في العدد 42 من جريدة البصائر يبصر من خلاله بالنوايا الخفية للاستعمار الذي أراد أن يجعل من الأمازيغية ضرة معادية للعربية يقول فيه: «العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي طويلة الأفنان في المستقبل لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم؛ فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي وضرب بأطنابه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح؛ ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس وتنساغ في الألسن واللهوات وتنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى وأن الصلوات بها تبدأ وتختم؛ فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والمشاعر وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا فأصبحت لغة دين ودنيا معا؛ وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام وآدابه وفلسفته وروحانيته، وعرف البربر عن طريقها ما لم يكونوا يعرفون وسعت إليها حكمة يونان تستنجد بها البيان وتستعديها على الزمان!.

فمن قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمهم القول بأنهم قبلوا العربية عفوا لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بضع قرن، فإن تسامح ففي قرن !» .

وباختصار نقول إن وضع اللغة العربية في الجزائر خلال عهد الاحتلال قد أخذ حظه من الدراسة والبحث لأن المسألة – كما قلنا – واضحة ليس فيها غموض ولا تعقيد .

لكن الوضع، بالنسبة لهذه اللغة يختلف اختلافا جذريا مع وضعها بعد الاستقلال، وخصوصا في الظرف الحضاري الأخير من القرن العشرين، الذي بدأت تتشكل فيه ملامح عالم جديد بفعل ضغوط العولمة التي جعلت منه قرية إلكترونية صغيرة، لم يعد فيها للبعيد معنى ولا للمجهول غموض، ولا مكان فيها للعزلة والانطواء، بل أصبح التفتح على الغير حتمية يفرضها منطق هذه العولمة فرضا ! .

فزيادة عن الضغوط الخارجية التي تواجهها اللغة العربية، وإلى جانب استمرار تأثير رواسب الماضي الاستعماري المتميز فإن هناك واقعًا جديدًا بمختلف أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

يشهده المجتمع الجزائري، و ما أفرزه تطور هذا الواقع واقعًا جديدًا من ظواهر زادت وضعية اللغة العربية تعقيدًا (أعني في مستوى الواقع المعيش) لقد أصبح وضعها غريبا لأنه لم يعد مجرد قضية لغة، بل أصبح قضية ثقافة ومنظومة قيم وذهنية وسلوك، بل ومشروع مجتمع مناف لمقومات المجتمع الجزائري الأصيل، هذه المقومات التي بدأت تهتز و تضطرب بقوة في أذهان فئات غير قليلة من المجتمع الجزائري، من ضحايا هذا الاستيلاب اللغوي.

هذه الفئات، تؤمن، وتصرح على ألسنة وأقلام من يمثلها من المثقفين أن اللغة الفرنسية غنيمة حرب، وأنها لغة تفكير وإبداع وحاملة للجديد النافع وناقلة لما عند الغير !! .

ولا يخفى ضعف هذا الموقف وخطأ هذه النظرة وتفاهة هذا المنطق الذي يناقضه الواقع والحقيقة والتاريخ؛ إذ لو كانت الفرنسية في نظر هؤلاء المستميتين في الدفاع عنها والعمل من أجل التمكين لها مجرد لغة، أي وسيلة، وغنيمة حرب كما يحلو لهم أن يرددوا، فلماذا يحاربون اللغة الإنجليزية ويضيقــون عليها، وهــم أدرى النـاس بأنها لغة العلــم والتكنولوجيـا الأولى في العالم ؟ .

الواقع أن الوضعية اللغوية المتميزة التي تشهدها الجزائر للأسباب الموضوعية التاريخية المعروفة قد أفرزت في مستوى المثقفين الجزائريين المتكونين باللغة الفرنسية فئتين متباينتين؛ فئة يمثلها أمثال كاتب ياسين صاحب مقولة الفرنسية غنيمة حرب، وفئة أخرى مقابلة لها يمثلها مالك حداد، ويلخص موقفها من اللغة الفرنسية تعبيره الرائع في إيجازه وكثافته «المنفى» فهو يحس بغربة ذهنية ووجدانية وحضارية داخل اللغة التي تحول بينه و بين التعبير عن هذه الأبعاد المكونة للذات؛ فمالك حداد واع إذن بأنه، هو ومن فرضت عليه مثله هذه اللغة، وحرم من لغته الأصلية، يعيش وضعا شاذا، غريبا، ظرفيا زائلا لأنه غير طبيعي؛ ولذلك عبر عنه بالمنفى !.

بخلاف الذي يرى في «المنفى اللغوي» أمرًا طبيعيا وصحيا؛ إنه لا يكسب شيئا ولا يغنم شيئا، بل هو إنسان ضائع مستلب، مقطوع الأواصر مع تراث مجتمعه الروحي والثقافي والحضاري .

هذه الفئة من الكتاب والمثقفين المستلبين، تجد في عوامل عديدة ما يجعلها تستأنس بهذا «المنفى» بل وتدافع عنه وتحاجج من يعارض موقفها هذا؛ ومن هذه العوامل بطبيعة الحال تزايد انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر في مختلف المجالات الإدارية والثقافية و الفنية والإعلامية .

ولا يخفى على أحد أن فرنسا تشجع ذلك كله وتبذل كل ما في وسعها للإبقاء على هذا الوضع؛ لتظل الجزائر باعتبارها بوابة إفريقيا – امتدادا ثقافيا و حضاريا لها؛ ففرنسا – كما لا يخفى على أحد ليس لها أي امتداد ثقافي حضاري، بعيدا عن الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ؛ فقضية اللغة بالنسبة لها قضية استراتيجية حضارية ومصيرية؛ فليس غربيا إذن أن تهتم وتتابع وضع اللغة في الجزائر بعناية بالغة في جميع المستويات وبخاصة منها مجال التربية والتعليم .

ففي سنة 2000 مثلا، صرح سفير فرنسا في الجزائر وقال إن بلاده «مرتاحة للتعديلات التي عرفتها المنظومة التربوية في الجزائر وخاصة فيما يتعلق بإعادة الاعتبار للغة الفرنسية التي أصبحت تدرس ابتداء من السنة الثانية ابتدائي، وهو الأمر الذي ستدعمه فرنسا و تعمل على تشجيعه ماديا و معنويا، وستسعى لتدعيم مكانة اللغة الفرنسية في الجزائر وذلك بحكم العلاقات التاريخية التي تجمع البلدين».

هذا التوجه، يستغل بطبيعة الحال الوضع اللغوي المضطرب الذي يعيشه المجتمع الجزائري كما قلنا ؛ للعوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي لا تخفى على أحد .

وهذا الوضع مثقل بالمتناقضات التي أفرزتها تلك العوامل جميعا ؛ فاللغة العربية هي اللغة الوطنية و الرسمية بنص الدستور الجزائري في كل صيغة منذ سنة 1963؛ لكن هناك هوة ظلت قائمة تفصل بين ما هو نظري وعما هو معيش مطبق في الواقع؛ أي بين ما نعلن عنه، وما نعمل به .

ففي الواقع نجد أن اللغة الفرنسية في الجزائر تزداد رسوخا وانتشارا على حساب العربية بالرغم من القوانين الصادرة رسميا والقاضية بتعميم استعمالها في كل المجالات إيمانا بأن السيادة لا تكتمل بدون اللغة، لأن اللغة هي الجنسية وهي الشخصية.

ولا شك أن المتتبع لقضية «التعريب» في الجزائر منذ الاستقلال يدرك أن هناك إرادة لترسيخ الوضع الشاذ الذي ورثته عن عهد الاستعمار؛ أي الإبقاء على اللغة الفرنسية لغة الإدارة و الإعلام و الدبلوماسية و التعليم العالي والتكوين؛ مع عناد و إصرا، و إن خالف هذا الوضع التاريخ، والمنطق، و العلم، و الوطنية، و الشرف.

ولا شك كذلك أن هذا المتتبع يقف على الحجج الواهية التي يقدمها أنصار هذا التوجه؛ و التي تتجدد أشكالها بتجدد الظروف و المناسبات، و لكنها تبقى في جوهرها ودوافعها واحدة؛ هي تكريس التبعية الثقافية الحضارية لفرنسا بالتمكين للغتها؛ والتذرع في الظاهر بأن تعميم العربية تنجر عنه مخاطر شتى، في مقدمتها عرقلة النهوض والتقدم وتعريض الوحدة الوطنية للتصدع، والحكم على الأجيال الصاعدة بالجمود والانغلاق وما إلى ذلك من الذرائع التي لا وزن لها ولا سند إلا في أذهان أصحابها؛ لأن صاحب المنطق السليم لا يناقش ولا يجادل في حقيقة مسلمة هي أن سيادة أمة واستقلالها لا يكون لهما معنى إذا لم تتحرر ولم تستقل «لغويا» بعد أن تتحرر سياسيا !.

ولقد تم دحض هذه الحجج الواهية علميا و موضوعيا، فوضعت في ذلك بحوث ودراسات، ونظمت ملتقيات و ألفت كتب من قبل متخصصين جزائريين وطنيين؛ ولنا في هذا المجال رصيد مشرف من الناحية الكمية النظرية، ولكن ذلك كله لم يفد في الواقع كثيرا؛ حيث ما فتئ يؤكد هذا الواقع بأن

اللغة العربية تنحسر مواقعها الاستراتيجية في مختلف المجالات الحساسة من حياتنا الوطنية، بينما يزداد حضور اللغة الفرنسية قوة وكثافة.

فالتذرع بالحرص على نهضة الجزائر و تقدمها في التمسك بالفرنسية يفنده واقع المجتمعات التي عاشت كلها تجربة الصمود والكفاح والتحرر ثم النهوض الحضاري والتقدم ؛ و لعل أقرب مثال لذلك ألمانيا و إسبانيا و اليابان وكوريا فهذه البلدان وغيرها إنما نهضت بلغاتها التي تعتز بها والتي تعبر عن شخصيتها فلم تتبن الإنجليزية مثلا، وتتذرع في تبنيها باستعجال امتلاك التكنولوجية كما يزعم بعضنا نحن بالدعوة إلى التمسك بالفرنسية ثم، لو كانت نهضات الشعوب تتم بمجرد استيراد «لغة» أجنبية متقدمة لوجدنا البلدان الإفريقية والآسيوية التي تبنت الفرنسية والإنجليزية قد خرجت من التخلف والتحقت بفرنسا وإنجلترا ؛ وما لنا نذهب بعيدا وخير مثال لهذه الحقيقة هي الجزائر نفسها ؛ فمن المعروف أن الفرنسية هي التي سيرت الإدارة والاقتصاد والصناعة منذ الاستقلال؛ فما هي مكانة الجزائر في هذه المجالات اليوم؟ !.

الحقيقة التي لا ينكرها إلا متعصب أعمى هي أن تقدم الأمم يكون بلغاتهاوعبقرية أبنائها الذين يبدعون بهذه اللغة ؛ لأن اللغة هي روح الأمة وهي ذاكرتها؛ ولا يمكن لكيان أن يحيا وينهض ويتقدم بذاكرة غيره .

فاللغة العربية تعاني من هذا التناقض القائم بين الادعاء والتطبيق؛ فنظريا ورسميا هي اللغة الوطنية والرسمية، ولكن الواقع يؤكد غير ذلك؛ فالجزائر يراد لها أن تظل رهينة حضارية، مسجونة في لغة أجنبية واحدة هي اللغة الفرنسية محرومة من التمكين للغتها الوطنية وهي في الوقت نفسه غل يشل الجزائر عن الحركة في عصر التفتح والتطور لأنها تظل تدور فقط في فلك ما يرد بهذه اللغة وحدها أي الفرنسية، من دون لغات العالم الأخرى المعروفة بالتقدم العلمي والتكنولوجي .

إن الاستقلال السياسي للأمة لا يستقر له أساس مع الزمن إذا لم يتعزز بالاستقلال اللغوي، لأنه لا حاضر لمن لا ماضي له؛ وماضي الأمم مخزون في الذاكرة الجماعية و الوجدان العام؛ و هذا المخزون لا يمكن أن نضمن له الحياة والتواصل عبر الأجيال إلا بالأداة التي صيغ بها أصلا، أي باللغة العربية، التي تبناها الجزائريون لغة العلم والحضارة منذ الفتح الإسلامي لهذه الربوع .

قلنا إن الجانب المخطط من ظاهرة العولمة يمتد في كل فراغ تعانيه المجتمعات المراد تجريدها من خصوصياتها الثقافية والحضارية التي تمثلها السيادة اللغوية في الأساس .

وإذن فإن الوضع اللغوي المضطرب يغري أهداف العولمة بالتحقق؛ ويشجع المخططين لها على العمل؛ ومن هذه الثغرات التي يستغلها أولئك المخططون الوضع اللغوي المتميز الذي أفرزه تنصيص الدستور الجزائري على أن البعد الثالث للشخصية الجزائرية، بعد الإسلام والعربية، هو البعد الأمازيغي، باعتبار هذا البعد جزءا لا ينفصل عن الشخصية الحضارية للجزائر، إذ هو رافد من روافد الثقافة الوطنية

التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ، و هو لذلك كله عنصر ثراء و غنى، وعامل من عوامل التماسك والوحدة لا عامل من عوامل التفكك والتفرق! .

ولكن هل هذا التصور النظري السليم هو الذي نجده في واقع حياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية؟! أم أن شأن الأمازيغية هو نفسه شأن العربية ؛ كما تقدم، نعلن نظريا عن شيء ونرى في الواقع شيئا آخر ؟!.

إن الرصد الواعي لامتدادات هذه المسألة أي الأمازيغية في واقع حياتنا الوطنية ؛ سياسيا و ثقافيا و اجتماعيا، يكشف بأن هذا البعد الثالث لشخصيتنا الحضارية قد خرج عن إطاره الطبيعي، واكتسب أبعادا انحرفت به عن حقيقته؛ وأصبحت الأمازيغية عنصر فرقة وتشتت و ضعف وعامل اغتراب وانسلاخ من الذات، وذلك بسبب الأهداف المشبوهة التي يخطط لها بعض دعاتها؛ وبعض المتحدثين باسمها، و هم إذا ما اختلفوا في أساليبهم ومناهجهم فإنهم متفقون عموما في النية المبيتة للوصول إلى هذه الأهداف ويمكن أن نحصر بعض هؤلاء الدعاة في أصناف ثلاثة:

الصنف الأول: يمثله دعاة جادون يسخرون لهذه المسألة تخصصات علمية في شتى فروع المعلوم والمعارف الانتروبولوجية والتاريخية واللغوية و ما إلى ذلك؛ ويوفرون من الجهد والوقت والمال ما تحتاجه مختلف الأنشطة الكثيفة المتنوعة المجالات، داخل الوطن وخارجه ؛ فيضعون الدراسات والأبحاث، و ينظمون المؤتمرات ويصدرون الكتب والمجلات .

هذا الصنف من الدعاة للأمازيغية هدفهم الجوهري الوحيد، والذي لا يعلنون عنه في الظاهر هو إبعاد أو فصل الأمازيغية عن البعدين الآخرين للشخصية الجزائرية «الإسلام والعربية» أو إبعادهما عنها؛ ويؤكد هذا المسعى ما يقومون به من أعمال متكاملة، تصب كلها في هذا الاتجاه ؛ وفي مقدمتها الجهود الكثيفة التي تبذل من أجل تجريد و تصفية الأمازيغية من كل الألفاظ العربية التي امتزجت بها منذ قرون .

ومن ذلك أيضا الرفض القاطع المحموم لكتابة الأمازيغية بالحروف العربية والتشبث بالحرف اللاتيني بحجة ضمان انفتاح هذه اللغة مستقبلا على حضارة البحر الأبيض المتوسط، أولا وعلى الغرب المتقدم ثانيا، وعلى العكس من ذلك، الحكم عليها بالجمود والموت إذا ارتبطت بالعربية بحكم الوضع الحضاري المتخلف للعرب.

في الحقيقة والواقع نجد أن الدعوة إلى الأمازيغية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفرنكفونية، ولا يمكن أن تنفصل عنها، والدليل على ذلك أن معظم المتحمسين لها، المؤمنين بها هم من ذوي التكوين بالفرنسية ويعبرون عن أفكارهم وأطروحاتهم بالفرنسية ويغلب عليهم التأثر الشديد بنمط العيش الفرنسي الغريب عن المجتمع الجزائري الأصيل.

الصنف الثاني : وهناك دعاة للأمازيغية ولا يملكون من أساليب الدعوة إلا العناد والعاطفة الجامحة و التعصب و الجهل و ضيق الأفق، فهؤلاء لا يملكون لا العلم و لا المال مثل الصنف الأول، لكنهم يتذرعون ببعث الأمازيغية وإحيائها ونشرها، و هم في قراره أنفسهم لا يؤمنون بها، لأن لغة حديثهم هي الفرنسية التي لا يتصورون عنها بديلا لأنهم لا يعرفون غيرها؛ و لا يتصورون مستقبل أبنائهم بغيرها ؛ فهؤلاء لا يعرفون الأمازيغية أصلا ولا يتحدثون بها في أوساط عائلاتهم مع أبنائهم ولا يهتمون بما تمثله من تراث أو قيم يميزها عم غيرها لأنهم يجهلونها؛ بل إنهم لا يؤمنون حتى بكونها بعدا أصيلا من أبعاد الشخصية الحضارية للجزائر، بعيدة عن فرنسا بعد السماء عن الأرض .

هؤلاء يصرحون ويعلنون بأن الفرنسية لها مكانتها في الجزائر، في الحاضر والمستقبل لأنها لغة اتصال وعلم و تكنولوجيا والذريعة التي يلجأ إليها هؤلاء لكي يموهوا هدفهم هو أنه لابد من وقت لكي تصبح فيه كل من الأمازيغية والعربية لغة علم و تكنولوجيا و إدارة، تصلح للحياة العملية؛ ومعنى هذا المنطق واضح، وهو التمكين للفرنسية كلغة علم واتصال بين الجزائريين، ما دامت الأمازيغية تتطلب سنين من أجل تطويرها وترقيتها، وما دامت العربية مهمشة، بعيدة عن مجال المنافسة الحقيقية للفرنسية ولو كانوا يؤمنون بالامازيغية حقا لخصصوا لها ولو ربع صفحة من صفحات جرائدهم الكثيرة الناطقة بالفرنسية .

والحقيقة أن هدف هؤلاء يذهب بعيدا حيث يرمي إلى تشتيت المجتمع الجزائري وضرب وحدته، باجتثاثه من أصوله وتاريخه وتراثه؛ والخطة واضحة، وهي الدعوة في الظاهر إلى إحياء الأمازيغية وتطويرها والتعليم بها، بينما يعلم هؤلاء أن في الجزائر ما يقارب عشر لهجات متفرعة عن الأمازيغية القديمة المندثرة، ومعنى ذلك استحالة تبني إحدى هذه اللهجات العشر كلغة علم وتربية وتكوين في مستوى الوطن؛ وهو ما يؤدي حتما إلى نتيجة وحيدة هي المخطط لها، ألا و هي بقاء الفرنسية وحدها، لغة التعليم والإدارة و الثقافة في الجزائر .

إن ارتباط الدعوة إلى الأمازيغية بالفرنكفونية يؤكده أكثر من دليل كما قلنا؛ ولكن هؤلاء الدعاة المتعصبين يرفضون المنطق والموضوعية والعلم، بل ويتنكرون حتى للتاريخ الأمازيغي الذي يدعون تقديسه والحرص على بعثه، من ذلك مثلا أن هذه الأمازيغية التي يريدون بعثها لم يتخذها حتى ماسنيسا وخلفاؤه لغة وطنية رسمية ؛ بل اللغة السائدة آنئذ هي اللاتينية واليونانية؛ والدليل أن المثقفين الأمازيغ لم يكتبوا بها بل كتبوا باللاتينية، مثل أبوليوس والقديس أو جسطين؛ وهذا الوضع اللغوي والثقافي هو الذي وجدته العربية عندما دخلت الجزائر خلال الفتح الإسلامي، فانحسر أمام نورها الساطع نفوذ اللاتينية والمسيحية؛ وعاشت في القلوب والضمائر والوجدان قبل أن تعيش في بطون المصنفات العلمية التي وضعها بها العلماء الأمازيغ الأحرار عبر الأجيال و العصور؛ فلم تشهد الجزائر في عهد من عهودها تنافرا أو خصاما ما بين العربية والأمازيغية بشتى فروعها .

الصنف الثالث: وهم أولئك الذين يعلنون إيمانهم بهذه المسألة ويرفعون شعارها ويبدون الاستعداد للإسهام في بعثها و تطويرها و هم في قراره أنفسهم يبطنون خلاف ما يعلنون ؛ فهم لا يؤمنون بها أصلا ولا يرون جدوى من الاهتمام بها والادعاء بأنها قادرة على أن تكون لغة علم وحضارة؛ لأن هؤلاء موقنون أن هذا كله ليس من الأولويات الملحة التي يمليها واقع الجزائر التي تحتاج إلى تعزيز وحدتها و تجنيد طاقات أبنائها والتضحية – إذا اقتضى الأمر حتى ببعض مقوماتها الأساسية – من أجل نهضتها وتقدمها.

والخلاصة أن تحصين اللغة العربية من ضغوط العولمة يبدأ أو لا بتشريح كامل للوضع القائم، كما هو لا كما ينبغي أن يكون، بمعنى أن يكون هذا التشريح شاملا لجميع العوامل الموضوعية التي ساهمت في صنع هذا الوضع اللغوي الشاذ، سواء منها التاريخية أم الاجتماعية أم السياسية أم الاقتصادية أم الحضارية؛ وبعد هذا التشخيص الشامل الدقيق يمكن وضع استراتيجية شاملة هي الأخرى لمواجهة كافة الضغوط أو الأخطار التي تستهدف هذه اللغة؛ لأن هذه الضغوط أو المخاطر أو التحديات تكون حينئذ «خارجية» مباشرة، واضحة؛ لكننا إذا لم نعقد مصالحة كاملة مع ذاتنا ومقومات هذه الذات، وما لم نجدد إيماننا بثوابتنا وعزمنا على التمسك بها، وما لم نوحد رؤيتنا لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا فإن وضعنا اللغوي سيظل مضطربا مهزوزا ومستقبل أجيالنا سيبقى غامضا ومفتوحا على كل الاحتمالات، وستظل مواقفنا من مخاطر العولمة وتقديراتنا لها متباينة بل متناقضة ؛ لأنها لن تكون وليدة رؤية تستند إلى مرجعية واحدة موحدة .

الثقافة واللغة العربيَّة في عصر العولمة

أ. د. أحمد شفيق الخطيب – لبنان

الواقع أنه يتعَذَّر البحثُ في أيٍّ من هذه العناوين الثلاثة دونَ التطرّقِ بشيءٍ من التفصيل الى موضوعِ العُنوانين الآخرين وأبدأ باللغة.

أبو الحَسن عليٌّ بن سِيده يُعَرِّفُ اللغةَ في مُخَصَّصه المشهور بأنها «أصواتٌ يُعَبِّر بها كُلُّ قَومٍ عن أغراضهم». لكنَّها بمفهومها العامِّ أوسَعُ مَدلولاً من ذلك. فهي وسيلةُ الإِنسانِ ليسَ فقطْ للتعبير عن حاجاتِه ورَغَباته، بل هي وسيلتُه لِلتفاهُم والتواصُل والتعبير عن أفكاره وأحاسيسه، ومَواقفِه وإرضاءِ الغَريزة الإجتماعيّة لدَيه. وهي أيضاً وَسيلتُه إلى تنْمِيةِ أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئتِه لِلعطاءِ والإِبداعِ والمُشاركة في تحقيقِ حياةٍ مُتحَضِّرة.

اللغةُ، بمُختلِف مظاهرها، تَجسيدٌ لِكُلِّ مَعارف الإِنسان وخِبْرَته، والكاشِفُ عن مَكْنون نفسِه وعَقله، ودليلُ شخصيَّته وهُويَّته الثقافيّة. فأنتَ تستطيعُ الحُكمَ على ثقافةِ الشخصِ من مَحصولِه اللغوي وعباراته. فالكلامُ ليسَ صَوتاً يصدُر من حَناجرَ، بل فِكرٌ يَستمِدُّ مادّتَه من مَخزون النفسِ والقَلْبِ والعَقل.

ولعَلّه ليسَ صِدْفةً أن تحمِلَ الكلمةُ اليونانيةُ المَعنَيْين الكَلِمَةَ والعَقْل أي اللغةَ والفِكر مِصْداقاً لِمَقْولةِ «اللغةُ ليسَتْ فقط وعاءَ الفِكر بل هي الفِكرُ بِذاته».

يميل البعضُ إلى مُناقشَة إشكاليّةٍ فَحْواها أتتحدَّدُ ثقافةُ الفَرد بلُغَتِه، أم تتحدَّدُ لُغَتُه بِثقافته؟ وواقعُ الحالِ هو أنْهُما مُتَرابطتان تَرابُطَ الجُزْءِ بالكُلّ.

فاللغةُ هي بعضٌ من الثقافة، وأحياناً هي واجِهَةُ الثقافة. فالإِنسانُ لن يتسنَّى له أن يُفكِّر في قِيَم أو مَفاهيمَ أو تُراثٍ أو أن يُكَوِّنَ صُوراً ذِهْنيّةً دَقيقةً عن عَقيدةٍ أو حَضارةٍ أو ثقافةٍ وهو يفتَقِدُ لُغَتَها. ولعَلَّ هذا ما عناهُ أرسْطو في مَقولته المشهورة «ليسَ ثمّةَ تفكيرٌ بدون صُوَرٍ ذِهْنيَّة».

اللغةُ القومية، بِحُكْم مَنْطِقِها وبِناها وتعابيرها وتُراثِها، هي أساسُ الرّوابطِ الفِكريةِ والاجتماعية والحضارية لِلأُمّة فهي في واقعها أبرزُ مَظاهِر الثقافة؛ واللغةُ العربيةُ هي أبرزُ مَظاهر الثقافَة العربية وأكثَرُها تعبيراً بوَصْفِها وعاءَ الوِجدان القومي. فالمناطِقُ الثقافيةُ في الوَطن العربي، كبيرةً كانت أو صغيرةً، مَشرقيةً أم مَغربيّة، رِباطُها القوميُّ والاجتماعيُّ والرُّوحي هو الوَحدةُ اللغوية في الدرجةِ الأولى.

وجديرٌ بالذِّكر أن التُّراثَ العربيَّ كان له شأنُه في تاريخ الثقافةِ الإنسانيَّة فهو ثَمرةُ حَضاراتٍ وثقافاتٍ سادت العالَمَ على مدَى عِدّةِ قُرون كانتِ العربيَّةُ فيها لُغَةَ العِلم والعُلماءِ لا تُنازِعُها تِلكَ المَكانةَ أيُّ لُغةٍ أُخرى. لقد استطاعَت العربيَّةُ استيعابَ جَميعِ العُلومِ التي سبقَتْها وأضافَت إليها عُلوماً ومعارفَ جديدةً بمفاهيمَ ومُصطلحاتٍ جديدة. وفيها كانَتْ تُؤَلَّفُ الكُتبُ، وبها يتحدَّثُ العُلماءُ في ما بينهُم مَهما اختلفتْ أصولُهم. وعنها أخذَتْ شتَّى اللغاتِ مِئاتِ المُصطلحات في الفَلك والكيمياء والطِّب والجُغرافيا والرياضيَّات؛ وتُرجِمَتْ مؤلَّفاتُها في هذه المواد إلى اللغة اللاتينيَّة وظلّتْ تُدَرَّسُ في جامعات أوروبا العريقة في مونْبيلييه وتوبِنْجِن طوالَ عِدّةِ قرون. فقد ظلت مؤلّفات الرازي وابن سينا وجابِر وابن الهيثم المُلْتَنَةُ مراجعَ أساسيّةً حتى عصرِ النهضة الأوروبية.

أواخرَ العَصر العبَّاسي بدأ الوطَنُ العربي يتعرّضُ لِغَزَواتٍ مُتَّتاليةٍ أبرزُها من السّلجوقِيين الأتراك والمُغول، ثمَّ حوالى مُنتصف القرن السَّادسَ عشَر خضعتْ مُعظَم الأراضي العربيةِ لِسُلطة العُثْمانيين؛ ورانَ على المنطقة، بفعل سياسة التَّجْهيلِ العُثمانية، سُباتٌ استمَرَّ عِدّةَ قُرون بدأنا نُفيقُ منه إثْرَ الحربِ العالمية الأولى وتفكُّك الإمبراطورية العثمانية.

لكنّ خَلاصَنا من النِّير العُثماني أوقَعنا، مَشْرِقاً ومَغرباً، في حبائلِ استعمارٍ سياسيّ انتدابي غاشِم ما زِلْنا نُعاني من آثاره قَوميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، فقد تعرَّضتِ اللغةُ العربيَّةُ، كما الوَطنُ العربيُّ، لِسياساتِ التفرْقَة والتقاسُمِ والهَدْم. وارتأى المُستعمِرون أنّ هَدْمَ وَحدةِ العَرب يَقتضي هدمَ اللغة العربية لُغَة العقيدةِ والتراث القومي والثقافةِ المشتركة.

إنَّ تَواجُدَ لُغةٍ فُصْحى للفكر والأدب والعِلم مع لَهَجاتٍ مَحلِّيَّةٍ عامِّيَّةٍ للتعامُل اليومي، هو ظاهِرةٌ طبيعيَّة عَرَفتْها العربيَّةُ مُنذُ قَديمِها الجاهلي في عَنْعَنة تميم وعَجْعَجة قُضاعة وطُمطمانيةِ حِمْيَر وفخْفَخة هَذيل وفشْفَشة تَغْلِب واستنْطاء أهلِ اليمن كما تعرفُها سائرُ اللغاتِ الحيَّة.

وقد استغَلَّ الاستعمارُ هذه الظاهرةَ لمُحاربة الفُصحى، فانطلقَتْ حَمَلاتُ الاستعمار تتَّهِمُ الفُصْحَى بالجُمود وبأنَّها مسؤولةٌ عن التخلُّفِ السّائدِ وَعنْ انعِدامِ قُوّةِ الاختراع؛ وأنْ لا أَملَ في إحياءِ قوةِ الإختراع هذه الا بإتخاذ العامِّيّة بَدلاً منها.

وتعزيزاً لهذه الدعوةِ التي أسْهَم في نشرِها مَندوبونَ ساميُّون ومُوظّفون في قِمَّة المَناصبِ الإدارية، من أمثال پاوْل و؟ولْرس وويلْمور وويلكوكْس وسپيتا، داوَمَ هؤلاء وأمثالُهم على المُحاضرة والكتابةِ باللغة العامِّية حتى إن أحدَهم، ولْهِلم سپيتا، وكان مُديراً لدار الكتب المصرية، ألَّفَ كتاباً في قواعد اللغة العاميَّة، فيما ترجمَ آخَرُ بَعْضاً من أعمال شِكْسپير بها.

ولم يكُن الاستعمارُ في شمالِ إفريقيا أقَلَّ ضَراوةً ليسَ ضِدَّ العربية الفُصحى فقط، بل ضِدَّ اللُغةِ العربيَّةِ عُموماً فألْغَى تدريسَها من برامجِ التعليم الرسمي.

لكنْ حَمْداً للهِ ولِجُهودِ المُخلصين، ظلَّتِ اللغةُ العربية، رُغْمَ كُلِّ ذلك، اللغةَ المَفهومةَ فَهْماً تامًّا، والمُستَخْدَمةَ إجمالاً في سائر انحاءِ الوَطن العربي. فالمُسْتَمِعُ العربيُّ، حيثما كان، يَسْتَطيعُ عَبْرَ قُدْرته السّليقيةِ الفِطْريَّة، أن يفهَمَ ما يَسْمَعُه من جُمَلٍ بالفُصحى وإنْ كانَ هو نفسُه عاجزاً عن إجادةِ التحدُّث بها.

لقد صمَدَتِ العربيَّةُ الفُصْحى أكثَر من أربعَةَ عشَرَ قَرْناً، ولا تزالُ لُغَةً تُجاري، وتحاوِلُ جدِّيًّا أن تُجاري، التقدُّمَ العِلْميَّ والأدَبيَّ والثقافيَّ كَوْنَها لُغَةَ الدِّينِ والتُّراث وأداةَ الخَطابَةِ والعِبادةِ والقضاءِ والأدبيات، نَثْراً وشِعْراً، كما لُغةَ الإعلام، مَسموعاً ومَرْئيًّا؛ وهذا يُعتبَرُ مُعجزَةً في عالَم اللغات.

وطُموحُنا ألاّ يَطولَ الوَقتُ الذي تُصْبح فيه العربيةُ الفُصحى لُغَةَ العِلم والثقافةِ لا في الأوساطِ العِلميةِ والأدَبيّة فقط، بل في شتَّى مَظاهر الحياة الإنسانيّة والفِكريّة والإجتماعية، لُغَةً تُسْهِمُ في الثقافة العالمية وفي النَّهضَة العلمية العالَميّة وتقَدُّمِ المعرِفة الإنسانيَّةِ بشَكلٍ عامّ.

في سياق الثقافة ـ

تقول المعاجم: ثقِفَ يَثْقَف، وثقُف يثقُف: صار حاذقاً

والثّقْف والثقافة: الحِذقُ في إدراك الشيءِ عِلماً أو عملاً؛ وثقَّف الرُّمْحَ قوَّمه وسَوّاه ويُستعار للتأديب والتهذيب.

ولَفْظُ الثقافَة تَنامَى، كما اللُّغةُ، ضِمْنَ السِّياقِ نَفْسِه تقريباً، ليشْمَلَ مَفهوماً أوسَعَ تبَنَّاه المُؤتمرُ الدَّولي للسياسات الثقافيّة في ما أسماه ـ

إعلان مَكْسيكو بشأن الثقافة بالنص التالي:

«الثقافةُ، بمعناها الأوسَع، هي مَجموعُ السِّمات الرُّوحيَّةِ والمادِّيَّةِ والفِكْرية والعاطفيَّة الخاصَّة التي تُمَيِّزُ مُجتمعاً بعَيْنِه، أو فِئةً إجتماعيّةً بِذاتها. يَعْني هي كُلٌّ مُتَكامِلٌ مُعَقَّد whole Complex يشمَلُ اللغةَ والمَعارفَ والأفكارَ والعاداتِ والتقاليدَ والمُعتقداتِ والقوانينَ المَرْعيَّة والمؤسساتِ والأدواتِ والثَّقافاتِ والآدابَ والفُنونَ والسُّلوكَ العامَّ وسائرَ الأشياءِ التي هي جُزءٌ من هذا السُّلوك.

بعضُ أنماطِ الثقافةِ في هذا المَفهوم، كما تَلْحظون، أساسِيٌّ ومُسْتَقِرٌ يَعودُ إلى آلاف السَّنين، ويتعَلَّقُ بِوَظائفَ أساسيّةٍ نَموذَجيَّةٍ لجميع فئاتِ البَشر. وبعضُها ثانَويٌّ طارىءٌ أقَلُّ استِقْراراً وأكثَرُ

قابليَّةً للتبديل والتغيُّر. لكِنْ مَهما تباينَتْ عَناصرُ هذه الأنماط، فإنّها تظَلُّ إجمالاً مُترَابطةً، بحَيْث إنّ أيَّ تَعْيير في عُنْصرٍ منها يَقْتضي بالضرورة تغييراتٍ في العَناصر الأخرى.

الطِّفلُ في النّوع البَشري Homo sapien يأتي إلى هذا العالَم بلا ثَقافة. وهو، بالمُقارنَة مع أنواع الأحياءِ اللاّبشَريّةِ الأُخرى، أقَلُّ امتِلاكاً لِلغرائز. لِذا فلا بُدَّ لهُ مِن تعَلُّم الكثيرِ من العادات والمُنْعَكَسات وأنماطِ الحِماية لِلعيشِ ليسَ فقط في مُجتمعٍ، بل لِلْعَيش في مُجتَمعٍ مُعَيَّن.

فهُو يَكْتسِبُ ثقافتَهَ من حيث نَظْرتُه إلى الأمور، ومَوقفُه من الأحداث، وما يتحَلَّى به من القِيم والأخلاقيات والمُثُل والمُعتقدات إضافةً إلى سُلوكه العامّ وأنشطَته الحياتيّة المُخْتَلفة كُلُّ ذلكَ يكتَسبُه من مَفاهيم الثقافةِ التي يَنْشَأُ في أجوائها وتُحيطُ به من كُلِّ جانب.

ولَنْ تكونَ مُبالِغاً أبداً في تَشْديدك على قُوَّةِ الثقافةِ في تَشْكيلِ الشخصيَّةِ الإنسانيَّة. فهي من القُوَّةِ بِحَيْث تتحكَّمُ في الدوافعِ الجِنْسيَّة وتَحقيقِ العِفَّة قَبْل الزّواج أو حتى العُزوبَةِ الرَّهبانيَّةِ مدَى الحياة. وقد يُشْرِفُ الشخصُ، بدافعِ الثقافةِ على المَوت، ولا يتَناوَلُ طعاماً مُحَرَّماً، أو قد يَنْتَحِرُ بالرصاص أو هاراكيريًا لِمَسح عارٍ يَمَسُّ شَرَفَه.

وقد تكونُ بعضُ مَناحي الثقافَةِ قابِلَةً أو غَيْرَ قابلَةٍ لِلمُقايسة. فبعضُ الثقافات قد تتوافَرُ فيها وسائلُ أفضلُ مَعيشيًّا أو صِحِّيًّا أو إنتاجيًّا ممّا يُبَرِّرُ أحياناً توضيعَ الثقافاتِ في درَجاتٍ مُتفَاوِتة. لكنَّ هذا لا يُمكِنُ أن يَعْنيَ أنّ الإنسانَ في البيئةِ المُصنَّعةِ أو المُمَكْنَنَةِ أسعَدُ وأهْنَأُ مِنهُ في البيئةِ الزِّراعيةِ أو بيئةِ الاعتِماد على الجُهْدِ الإنساني.

في لِقـاءِ الثقافــات تَبْــرزُ قــوةُ الشخصيةِ الثقافيـة للأُمّة على الأخذِ والعَطاء دون امِّحاءٍ أو تبَعِيَّةٍ، ودون تَعالٍ أو انغِلاق. وهذا بَدَهي في مِضمار التواصُلِ الإنسانيّ على صَعيدِ الأفراد كما على صعيدِ الجماعات البشرية.

ويُفترَضُ في الناسِ عندما تَطْرأُ أوضاعٌ ثَقافيَّةٌ جديدةٌ ألاّ يَقْبلوها إلا بعد أن يَتبيّن لهُمْ أن هذا الجديدَ هو حَقٌّ وصِدْق يتجاوَبُ مع القِيم والتُّراثِ والأخلاقيّات المُتعارَفة.

الثقافَةُ الحَقَّةُ لا تُعارِضُ التأثيراتِ الأجنبيَّةَ ولا تَخْشاها، بل تُقَوّي نَفْسَها بتَمثُّلِ خيْرِ ما فيها وتبَنِّيه. وهذا يُذكِّرُنا بإنجازاتِ السَّلَفِ المُتَميِّزة التي، خِلالَ مئة عام بَدْءاً من القرن السابعِ الميلادي، حوّلتِ العربيَّةَ من لُغَةٍ قبَليّةٍ وثقافةٍ قبَليةٍ إلى لُغَةٍ وثقافَةٍ عالميَّةٍ حمَلَتْ مشْعلَ الثقافةِ في العالَم على مَدى 750 عاماً. ولم تكُنْ تلك الثقافةُ عَربيَّةً فقَطْ، ولا حتى إسلاميّةً فقط، فقد

كان الكثيرُ من المَسيحيِّين واليهودِ والصابئة، كما الفُرسُ والهنودُ والسِّريانُ والقوطُ والبربَرُ من حَمَلةِ مَشاعِلها؛ ومعارِفُهُم وثقافاتُهم من أغزَرِ مناهِلها.

ونذكُر أنّ هارون الرشيد، بعد احتلاله عَمُّورية وأنقْرَة طلَب من الحُكّام فيهِما تَسليمَهُ المَخطوطاتِ العِلمية والمَعارفيّةَ من مَكتباتِهم. ومِثْلُه فعَلَ المأمونُ بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قَيصر بيزَنْطية فقد طلَبَ منه تسليمَ أعمال القُدَماء التي لم تكُنْ قد تُرجمتْ إلى العربية، واعتبارَ ذلك بَديلاً عن تعويضاتِ الحَرْب. وكثيراً ما كانَتْ تُرْسَلُ البَعَثاتُ الخاصّةُ من بَغدادَ إلى مُختلِف الأمصار بَحْثاً عن كُنوز العِلْم مُقابِلَ أكياسِ نُقودٍ يتقاضَوْنَها. وكان المُتَعلِّمون في تلك البُلدان يَقومون بدَورِ السّماسرة.

الثقافةُ الحقَّةُ أقوى من القُوّةِ العَسْكريَّة وهي، بخِلاف مَقولةِ العلاَّمة ابن خَلدون، قد تكون في المَغلوب أقوى مِنها في الغالِب. فلما احتلَّت جيوشُ الرومان أثينا، صمدَت الثقافَةُ اليونانيّةُ أمامَ ثقافة الغُزاةِ فاحتلَّت بتفَوُّقِها وزَهائِها المُتَميِّزِ عُقولَ الرُّومانِ حَتّى قِيلَ في ذلك تاريخيًّا: المَغلوب غلَب الغالِب ! The conquered conquered the conqueror

للأسَفِ، الغَزْوُ الثقافي الغَربيُّ الإستعماري الذي داهَمَ مُجتَمعاتِنا انعكَسَ بأشكالٍ شَتَّى من التقليد والتّبعيّة والانهيار والاقتداء، مُعَزّزاً بالنّموذَجِ الأمريكي مُؤَخّراً فأدّى إلى أن نُصْبحَ مُجتمعاتٍ مُسَخَّرةً في خِدْمة الأجنبيِّ مَبْهورينَ بما يَلْبَسُ ويَسْلُكُ ويَستخدِمُ، غافلين عن أساليبه ووَسائله ومَناهجه في سَلْب ثَرَواتنا وتسخير طاقاتِنا لِصالحه، وتحويلِنا إلى أفواهٍ وسَواعدَ مُسْتَباحَةِ الإرادةِ مُهيأةٍ لِتكونَ في خِدمةِ مَشاريعِه الاستعماريّة الاستِثمارية، في جَوٍّ من الوَهْم وَهْم الحريَّةِ المُزَيَّفة والقَناعات المُشَوَّهَة قبائليًّا وَطائفيًّا وإقليميًّا وقُطْريًّا بسياساتٍ أنويَّة تفَرُّديّة غدا وَطنُنا العَربيُّ، على بَركَتِها، اثْنَتَيْن وعِشرينَ دَولةً؛ ونَخْشَى أن يكونَ الحبْلُ على الجَرَّار.

ولو كُنَّا، أفراداً ومُجتمعاتٍ، مُسَلَّحين بثَقافتنا وتُراثنا وقِيَمِنا وقُوانا وأصالَتِنا الحَقَّة، لما كانَتْ حالُ التواكُلِ والتآكُلِ هذِه حالَنا!

العَولمة واللغة والثقافة

لعل جذورَ العولمة تعود بنا الى فترة الغزو الغربي الاستعماري منذ القرن التاسِعَ عشَر، ولا يزالُ مُستمِرًّا، طَوعاً أو كَرهاً، وبأساليبَ مُختلفةٍ تطوّرت حسب الأوضاع والظروف وعلى شتّى المجالات عَسكريًّا وسِياسيًّا واستغلاليًّا واستعباديًّا وحَضاريًّا واقتِصاديًّا، ظاهِراً وباطناً، بحُجَّةِ نشرِ مفاهيمَ ووسائلَ تؤدّي زَعْماً إلى التّقدُّم والإزدهارِ والتحَرُّر.

وفي الواقع، لم تكُنْ تِلكَ النَّزْعةُ من القُوى العُظمى الأوروبيّةِ بخاصةٍ بعد الحربِ العالميّة الأولى وانفِراط الإمبراطوريّة العُثمانية إلا وَسِيلةً للسَّيطرة الاستعمارية الاستثمارية الاستلابية على العالم العَربيّ اِقْتِساماً بريطانيًا فرَنسيًّا شَرْقاً وفَرنْسِيًّا إيطاليًّا إسبانيًّا غَرباً.

واللافتُ أن مُختَلفَ القُوى الإستعمارية، التي هَبَّتْ إلى لَفِّنا في عَوالِمها، ابتدأتْ بالحَرْب على اللغة العربيَّة إنْ كان بتشجيع العاميَّة وإحلالِ الإنكليزية مَكان العربيّة في مُختلِف مَعاهد التعليم الثانوي والعالي في مِصْر، أو بمُحاولة طمْس اللغة العربية ومَحْو مَعالِمها وفرْضِ البدائل بَدْءاً باللغة الفرنسية وانتهاءً بإِحلال اللَّهجاَت المحَليّة، كالأمازيرية البَربرية محلَّ العربيةِ الفصحى، في الجزائر في حين يُقاومون هُمْ بِضَراوة تعليمَ لُغاتِ الأقلِّيات في مُقاطعاتِهم كلْغةِ كورسيكا ولُغاتِ الباسْك وكاتَلان وغيرِها.

ثُمَّ أَلَمْ تَسْمَعوا أخيراً بإنجازاتِ الدِّيمقراطيّة الأميركية الزائفة بإقرارِ تعليم اللُّغتَين الكُرديةِ والسِّريانية في مدارس العراق الرَّسميَّة منذ العام 2002؟

كذلك، أَلَيْسَ من قَبيل الرِّدّة، ما يُحاكُ من مُناوراتٍ بين الفَيْنة والفَيْنَة في كَواليس الأمم المتحدة والمُنظَّمات المختلفة التابعَة لها، كاليونسكو، بهدَف إقصاء اللغة العربيَّة عن جُملة اللغاتِ الرّسميّة المُعتمدة دَوليًا بحُجَّةِ افتِقادِ المُترجمين المَهَرَة؟

التحدِّي اللُّغَوي الثقافي الحضاري الذي يَجبُ أن يضْطَلعَ به أهلُ الفُصْحى، حتى لا تبقّى العربيَّةُ عُرْضَةً لِلتّهميش والإقصاء عن المجالات الثقافية والاجتماعية والتِّقْنِيَّة في قَرْية العَولمة التي أضحاها عالَمُنا اليومَ، هو مُجابَهةُ جُيوش العَولمة والأمْرَكة بما واجَهَت به الحضارَةُ العَبَّاسيَّةُ ثَقافةَ وحضاراتِ الأُمَمِ الأُخرى وَصَهَرَتْهُ في كِيانِها. التحدِّي هو إعادَةُ مَسْرَحَةِ تلكَ التجربةِ العربيّة الحَضارية الرائدة.

تُرى ما الذي يَمْنَع العَربيَّ اليومَ من أن يَسْتَعيد تَواصُلاً واعِياً مع تُراثِه الثقافي ومع مُعْطيات واقِعه وثقافة عَصره، لِيواكبَ التقدُّمَ بأصالةٍ، ولِيَكوِّنَ ذاتَه بعُمق ويُكرِّسَ خُصوصِيَّتَه في ثقافَةٍ تكُونُ رِفداً وإغناءً لِلثقافةِ الإنسانِيّةِ سَيْراً في طريقِ النهضة والتحرُّر والتقدُّم؟

التطوُّرُ المُذْهِلُ الذي نَشْهَدُه في البُلدانِ المُتقَدِّمة مَرَدُّه إلى الإرتقاءِ المُذْهِل في العُلوم والثقافةِ العلميَّةِ، وتَطْبيقاتِها في الصِّناعة والزراعةِ والصِّحة والتواصُل، والبحوثِ المُعَمّقة في تطويرها.

العِلمُ هو الحَلّ. إنّ أجيالَ العلماء المُعاصرين يُدرِكونُ أنه لا يُمكِنُ للشعوب العربية العيشُ الكريم وتحقيقُ الحريةِ والكرَامة والتقدُّم، إلا بالعلِم، وبالثقافة العلمية، وبسُلوك طريق العلم ومَزج العلم بالحياة.

العلمُ هو الحَلّ من يُؤمِنُ بالعلم – يُقاومُ الاستعمارَ بالعِلم،

يُقاومُ الفَسادَ بالعلم،

يقاوم الرَّجعيَّةَ بالعلم،

يَقْوَى بالعِلم، وبالبحوث العلميَّة،

يتجاوَزُ مُستويات الجهل والفقر والمرض والخوف بالعلم وبأساليب العِلم، وبتَطبيقات العلم، وبثقافة العلم، وبعَولَمةِ أجيال العرب الجديدة بالعلم تِقْنيًّا وصناعيًّا وزراعيًّا وَطِبّيًّا وفِيزْيائيًّا وكيميائيًّا والكترونيًّا ونيُوتْرونيا وأبحاثيًّا واجتماعيًّا وسُلوكيًّا، وأخيراً وليسَ آخراً لُغَويًّا. وذلك بِعَضْوَنةِ العِلم والثقافةِ العلمية باللغة العربيَّة.

انّ مستقبلَنا العلمي والحضاري والثقافي مَرهونٌ بأن تُصبحَ اللغةُ العربيةُ جُزْءًا من الحياة اليومية في المدرسة والبيت كما في المصنع والجامعة ومَراكز البحوث، وأن تغدوَ الثقافةُ العِلمية جُزءاً من ثقافةِ الصانع والزَّارع والبنَّاءِ والحدَّاد والنجَّار والعامِلِ كُلٍّ في مجالاتِ عمله.

مَقولَتُنا بالعَولَمة العلمية باللغة القوميَّة ليسَتْ بأيِّ حال ضِدَّ تعزيز تعليم اللغة أو اللغات الأجنبية. فالحاجة إلى إتقانِ لُغَةٍ أجنبيةٍ عالميةٍ مُعاصرة هي اليومَ مَطْلَبٌ تربَوي عَوْلَميٌّ أساسي لِكُل مُثَقَّفٍ عَربيٍّ أو غير عربي.

اللغةُ الانكليزية لُغةُ العَولمة اليوم، حاجةٌ ضروريةٌ للعالم الفنلندي والياباني والكُوري والفرنسي والفيتْنامي وغيرِهم. لكنْ لا الكُوريون ولا اليابانيُّون ولا حتى الفيتناميّون طَرحوا مسألةَ اعتماد اللغةِ الإنكليزية لُغةً لتدريس مواد العلوم ونَشْرِ الثقافةِ العِلْميّةِ في بلادهم.

لدَيْنا أجيالٌ كامِلةٌ من الصُّناع والزُّراع وعامة الناس نَجّارينَ وحدّادين وبنَّائينَ وعمالٍ في شتَّى مَجالات أعمالهم الحياتية؛ وهؤلاء طَبْعاً عاجزون حالِيًّا، وحتّى مُسْتقْبليًّا، عن التفاعُلِ مع لُغة أجنبيَّة وبالتالي سيَبْقَون بَعيدين عن الانفِتاح على الثقافة العالمية، علميةٍ وغيرِ علميَّة، وعن الإنجازات الحَضارية التِّقنيّة والزراعية والصناعية والصِّحِّية والتواصُلية العَولَمية، ما لم تُتَحْ لهُم هذه المُثاقفَةُ باللغة القوميَّة!

وتحضُرني هنا مَقُولةُ الأديب الكبير المَغفور له احمد حسن الزيّات « من المُحال أن تنقُلَ الأمّةَ كلَّها الى العِلم بلُغةٍ أجنبيَّة لكِنْ من المُمكِن أن تنْقُلَ العِلمَ كُلَّه الى الأمة باللغة القوميَّة!

في البلاد العربية طاقاتٌ وقابليّات كامِنةٌ وإمكاناتٌ عَريضةٌ وثَرَواتٌ دَفينة هائلة وهَذه يُفْتَرَضُ إطلاقُها وتسخيرُها في خِدْمَة العَرب وارتقاءِ العَرب وقَويم عَولمة العرب. هذه الإمكاناتُ للأسْف تَنْقُصُها العَولَمَةُ العلمية والعَقليةُ العلمية والأساليبُ العِلمية. بصَراحة، الفِكرُ العلميُّ لا يزال مُتخلِّفاً عندنا تَبَعيًّا بالنقل والاقتِباس والافتِقار الى البَحث العلمي الرّصين استِمراراً في سُلوك الدّرْبِ السَّهْل وتعَوُّدِ السَّيْر في فَلَك الآخرين.

مُستورداتُنا من مُنْجَزات العَولَمة العلمية ومُبتَكراتها التقانيّة الحديثة وَفيرةٌ حتى لتكادَ بَعْضُ هذه المُنْجَزات، في مُجتمعاتنا المليئةِ اقتصاديًّا، تفوقُ ما يتواجَد منها في بلدِ المَنْشَأ.

لكِنّ هذه المُنْجزاتِ، على وَفْرَتِها، لم تَنْقُلْ لنا المعرفةَ المُجَسَّدةَ فيها، ولا أنماطَ البحُوث التطبيقية والمُختبرية التي خَلَّقَتْها، ولا حتى مُجْتمَعات المَعرفة التي تُوَظِّفُ هذه المُبتكَراتِ والإنجازات إيجابيًّا وبفعَاليةٍ مُجديَةٍ في مختلِفِ القِطاعات الصناعيةِ والزِّراعية والإعمارية والإجتماعية التّنْموية بحيث

لا تَبقى أرضٌ عَربيةٌ غيرَ مزروعة،
ولا مياهٌ عربيةٌ مَهدورة،
ولا يدٌ عربيّةٌ عاطِلةً عن العمل،
ولا مَصْنعٌ يُغنينا عن الاستيراد غيْرَ مَبْنيٍّ،
ولا مَعاهدُ وجامعاتٌ بالجُمْلةِ خاويةَ المُختبرات،
ولا مَراكزُ بُحوثٍ خاليةً من البُحوث والباحِثين -

أمثالُ هذه العَولمَاتِ الإيجابيَّة القويمةِ ما زلنا نَفْتَقدُها أو نفتقد مُعظَمَها!

بالمُقابِلِ غزَتْنا العَولَمَةُ برَوافِدَ سَلْبيَّةٍ انعكست عَولمةَ تَحلُّلٍ منَ الأخلاقيات التراثية،

عَولمَةَ صَرَعاتٍ سُلوكيةٍ تَبْعُد كثيراً أو قليلاً عن أنماط السّلوك المَرْضيَّة،

عولَمَةً زَلزلتِ الكثيرَ من قِيَمنا ومَفاهيمنا عبر ما تَعْرِضُه القَنواتُ التلفزيونية، الفضائيةُ بخاصة، من بَرامِجَ على مَدار السّاعة، تتنافى مع قِيَمنا وتُراثِنا ومُعْتقداتِنا، وتقاليدِنا الأصاليَّة.

عَولمَةً تَسْتَبْقي أولادَنا، صِغاراً ومُراهقين وبعضَ الكِبار، مُسَمَّرينَ ساعاتٍ طِوالاً يوميًّا أمام الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) ليسَ شَغَفاً بالمَعلومات، ولا شَوقاً لِمشاهدةِ المُختاراتِ

التثقيفيةِ الجدِّية والتمثيليات الروائعيةِ الخالِدة بل لاستِشْفافِ المَناظرِ المؤذيةِ والموادِّ الإباحيةِ والثقافيّات الخَليعةِ إضافةً إلى تبادُل المُكالمات والرّسائل المشبوهَة وترتيبِ اللقاءَاتِ التي لا يَدْري أحَدٌ كيف تنتهي!

عَولمةً تَنْتَحي إلى ثقافة الأجْنَبي وتَرْسيخ مُرَكَّب النّقص تُجاه كُلِّ ما هو عرَبي حتى إن بعضَ مصانِعنا تَسْتَنكِفُ من كِتابةٍ العَربيّة على مَنْتوجِها الذي تُصَدِّرُه إلى الأسواقِ العربية فتسْتَبْدِلُ بِها لُغَةً أجنبيَّةً أُخرى!

عَولمةً سَلْبيةً عَرْجاء!

الحمدُ للّه أنه لا يزالُ لدينا جُموعٌ من مُواطنينَ، لعلَّهم النماذِجُ القُدْوةُ المُجَسِّدةُ لِفضائلِ العَولمة الإيجابيَّة القَويمة ثقافيًّا وفكريًّا ولُغَويًّا لَبِناتٌ تَصْلُح لِبناءٍ مُتَجدِّد يجمعُ بين تراثنا في أصالَته وفضائله الخُلُقيَّة التي تتجَلَّى في عَراقة المَسيحية والإسلام، مع صَقْلهِ وتَطعيمه بالمُنْتَقَيات العَولمية الإيجابية، مُتَجَنِّبينَ مُخْتلِفَ سَلْبيات العَولمةِ العَرْجاء يَعملون بجِدٍّ وصمتٍ في أداءِ الأمانةِ وتَحمُّل المَسؤولية، ويَرونَ في حماية اللغة العربية والثقافةِ العلمية العربية حِمايةً للأُمة العربية، آنيًّا ومُستقبليًّا، مِن حَملاتِ الغَزْوِ العَولَميّةِ السّلْبيّةِ الجائرة.

العربية ورهانها العولمي لسانيا

عبد الجليل مرتاض – ج. تلمسان

1- عولمة اللغة واللسان؟

1-1 لغتنـا:

لا نريد هنا أن نحيل على التعريفات القديمة لدى فلاسفة ولغويين بشأن لغتنا حتى لا نجد أنفسنا وقد اتَّخذْنا مسارًا لا نعرف له منطلقًا ولا منْتَهًى، ولكن لا أحد يمنع الآخر من إثارة إشكالات حول لغتنا، كلما أَيْقنَّا بأنّا لا نلامس النظريات السطحية، ولا الرؤى الميثولوجية السَّهلَ تَنَاوُلُها، الصَّعْبَ قَبُولُها، حتى لو كنا نشعر أحيانا باستجلائها، وأنها لا تعدم حقائق أولية ما، أدت بعجز الإنسان وقصوره وحيرته إلى إقصائها أو تصنيفها في عالم المعرفة هروبًا من الهزيمة، لأن اللاحقيقة في ذاتها حقيقة.

إن الأبحاث عن أصول اللغة لم تَعُد مُجْدية، ومع ذلك ظلت تشكّل موضوعًا قديمًا جدًا في الدّراسات والافتراضات المتتالية دوريًا، وبحثها الفلاسفة مثلما تقصّاها اللغويون، وأثارها الفقهاء، والتفت إليها علماء النفس والاجتماع والأجناس، وبقي الجدل حولها إلى غاية القرن التاسع عشر، وإلى درجة أن «الجمعية اللّسانية في باريس قرّرت سنة 1886 رفض أية مقالة حول هذا الموضوع الّذي كان يبدو لها أنه قيل فيه كل شيء»(1).

وأما طبيعة النشاط اللغوي «فمعرفتنا بها سيئة، وأما أصلها، فسيبقى دائما أعجوبة، ولن يكون سهل البلوغ إلا عبر الأساطير، وبكلمة واحدة لا نعرف متى بدأ الناس يتكلمون، ولا كيف؟ وكل ما نستطيعه أن نحاول وصف اشتغال الألسن الطبيعية والإحاطة من هنا بالمميزات الشاملة للغة، وصياغة فرضيات حول العمليات المُلْغَزة التي جعلت المخ الإنساني يعمل من أجل أن يُتاح لنا أن نتكلم»(2).

غير أننا نحاول هنا أن نتحدّث عن اللغة Le langage لسانيًا، لا فلسفيًا ولا معرفيًا، واللسانيات الحديثة التي ندرسها منذ عقود تشير إلى أن تعريفات اللغة غالبًا ما يصحبها ارتيابيات، إذ يكفي أن تجمع بعضًا منها لإعطاء إحساس بهذا الاضطراب الفكري أو الذهني «غير أن لسانيًا ينتهي دائمًا لإعطاء تعريفه للغة، لأنّ كل تعريف يعكس المستوى المتناول Atteint في التنيظم لمعرفتنا للأشياء، ووصف وتصنيف الوقائع، وتحديد المجال، والمعايير المستخدمة»(3).

(1) Les voies de langage P'': 294

(2) Pour comprendre la linguistique P'': 15 MARINA YAGUELLO

(3) La linguistique (guide alphabétique) P'': 16

ويشير دارسون لسانيون إلى أن تعريفات اللغة سبق لها أن عرفت منذ بضعة عقود رخاوة على المستوى المعرفي للغة والمتناول من قبل اللسانيات الراهنة، لأنه إذا كانت هذه التعريفات كافية، كان يجب أن تكون لهم مقدرة لصياغة معايير نوعية للألسن البشرية humaines Langues من عدمها تجاه الأشكال التبليغية الأخرى، وخاصة التبليغ الحيواني «سوى أن المؤلّفين الأكثر حداثة لا يريدون أن يذهبوا حول هذه النقطة ذهابًا أبعد من نظرائهم في القرن الثامن عشر الّذين كانوا يقرّرون مبدأ بأن لسانا يفترض تتابعًا لأفكار Pensées تعدمها الحيوانات»(1).

1-2 اللغة نظام من العلامات:

وإذا كانت اللغة عادة ما أضحت تُعرَّف بأنها نظام من العلامات، فإن كل نظام من العلامات مستعمل من قبل الكائنات الحية للتبليغ يجب أن يُسمَّى لغة، وفي هذه الحالة يمكن أن نتكلم عن لغة الحيوان أسوة بلغة الإنسان، غير أننا لا نستطيع أن نبرّر هذا الشعور العامّ بحسب أن الألسن الإنسانية تتميّز أو لا تتميّز عن الأنظمة الأخرى للتبليغ الحيواني، وهكذا كلما حاولنا أن نتعمق في ظاهرة تستعصي عن الاجتهاد وصلنا إلى طريق مسدود حتى لو تعلق الأمر، كما هنا، محاولة تخليص المعايير النوعية لألسن إنسانية تجاه سائر الوسائل الأخرى التي لا يستغني الإنسان، على الرغم من ذلك، من استعمالها إزاء لغته الصوتية.

وإذا كنا نتبصّر بأن اللغة ذلك النظام من العلامات ذو القدرة على أن يكون وسيلة للتبليغ، فإن كل نظام يمكن أن يكون لغة، ولذا فمن الأفضل؛ بل من الأولَى، ونحن نتحدث عن اللغة، ألا نشرك ماهو خارج العلامات اللسانية، وأن نعتقد اعتقادا راسخًا بأن لغتنا، إلى جانب ظواهر أخْرَى، ليست ماهية سرمدية تجريدية، بل وسيلة حياة ضرورية نشأت مع إنسان هذه اللغة وتاريخه وفكره وثقافته.

1-3 تحديدها ومصطلحها:

وقد يشار إلى اللغة Le langage بأنها القابلية أو الاستعداد l'Aptitude الملحوظ لدى الناس للتبليغ بوساطة ألسن Des Langues، أو هي المجموع لكل الألسن البشرية التي تؤخذ بعين الاعتبار في سماتها المشتركة، أو أزيد من ذلك، وخلافًا للأصول في استعمال الفلاسفة، أنها للتبليغ حتى مع أنظمة أخرى تماما مثل الألسنة الطبيعية (وظيفة رمزية)، أو أخيرا تعني كل وجهات النظر وصفية كانت أم تفسيرية، والتي تخصّ المظاهر اللسانية، والنفسية، والاجتماعية، السيميولوجية، والإيديولوجية(2).

---

1 – السابق، ص: 163.

2 – ينظر: G. MOUNIN، Dictionnaire de la linguistique، P": 196.

وإذًا وبمعنى أوسع، فإن اللغة وسيلة للتبليغ المعتمد من مجموعة بشرية ما أو حيوانية (وقالت نَمْلَةٌ : يَا أَيُّها النَّملُ ادْخُلوا مَسَاكِنَكُم . . .) لإرسال مرسلات Des Messages، وهي مرتّبة من وحدات دنيا تُدعى علامات أو إشارات، غير أننا عادة ما نفضّل استعمال « علامة » لما هو لساني بحت، و« إشارة » لما هو غير لساني (قانون المرور، الإشارات البحرية، . . .) .

وعادة ما يعنى مصطلح « لغة » أنظمة من العلامات أو الإشارات « المباشرة » أو الطبيعية، ولكن اللغة الإنسانيّة متمفصلة ازدواجيًا خلافًا للغة الفيلة، والنمل، والنحل، . . .فضلاً عن التّواصلات السيميولوجية التي لا حصر لها، أو يعني هذا المصطلح (لغة) أنظمة « ثانوية » مُعَدَّة انطلاقا من اللغة البشرية المترجمة إلى قانون مختلف يبلغ نهاياته النوعية للتبليغ (قانون المرور، رموز الرسائل البرقية، . . .)(1) .

وتفرض اللغة في معناها النظامي الّذي يتضمن علامات مباشرة أو طبيعية كائنًا بشريًا (متكلمًا Sujet parlent) خليقًا باللغة وممتلكًا كفاءة لسانية، وهي القواعد النحوية للسانه(2)، وتُشْرِكُ (اللغة) ظواهر موصولة بإرسال المرسلة داخل سياق فضائي زمني وثقافي يسمّى مقاما SITUATION »دراسة اللغة تستوجب إذًا جوانب نفسية (يتحدث علماء النفس على نشاط لغوي)، واجتماعية وسلالية Ethnologique، وحتى تحليلية نفسية Psychanalytique، فهذه الظواهر غير اللسانية هي التي تميّز مفهوم اللغة Le langage عن تلك المتصلة بمفهوم « اللسان La langue » أو« السّنن (المواضعة) Le code »، وبالمعنى التربوي، فإن اللغة غالبا ما تكون مرادفة لـ « كلام » في استثنائها الأكثر حصرًا والأقل سوسوريا Saussurienne، « ملكة الكلام »(3) .

4-1 اللغة واللسانيات :

وأما جان دبوا ونظراؤه فجاء في قاموسهم اللّساني أن اللغة Le langage هي القدرة النوعية Capacité Spécifique في الحيّز الفضائي الإنساني للتبليغ من خلال نظام العلامات الصوتية (أو اللسان)، وذلك بفضل إدخال تقنية مادية أو جسمانية معقّدة، وافتراض وجود وظيفة رمزية ومراكز عصبية Centres Nerveux مختصّة وراثيا، وهذا النظام من العلامات الصوتية المستعملة من المجموعة الاجتماعية (أو التجمع اللساني) والمحدّد يكوّن لسانًا خاصًا، وبالنظر إلى المشاكل التي يطرحها هذا النظام، وإلى كون اللغة ذات محلّ لتحاليل مختلفة جدًا، فإنه يطبّق صلات متعددة، العلاقة بين المتكلم Le sujet واللغة، وهو ميدان علم النفس اللغوي، بين اللغة والمجتمع،

---

1 – ينظر : Dictionnaire de didactique، P": 305-306

2 – كل عربي في عاميته متكلم خليق بها (Sujet parlant) .

3 – المرجع السابق، ص : 306 .

وهو مجال علم الاجتماع اللغوي، بين الوظيفة الرمزية والنظام الّذي يؤلّف اللسان، بين اللسان كللّ والأجزاء الّتي تؤلّفه، بين اللسان بوصفه نظامًا شموليًا Universel والألسنة التي يعدّ كلّ منها شكلاً من الأشكال الخاصة، بين اللسان الخاص باعتباره شكلاً مشتركًا بزمرة اجتماعية والتحققات المختلفة لهذا اللسان من المتكلمين Les locuteurs(1)، كل هذا يشكّل المجال للسانيات »(2).

2 – اللسان:

2–1ماهية اللسان:

وأما اللسان فهو كل نظام، « من العلامات الصوتية المتمفصلة ازدواجيا والخاصة بتجمع بشري معيَّن، فبالنّسبة للسانيات أن الألمانية الأدبية، والألمانية السُّوابية Souabe والألزاسية، والبروتونية Le breton، واللغة الهجين لِقْوَادُولُوبْ Guade Loupe أَلْسُنٌ بالطريقة نفسها، وليس لنا أي فائدة لتسمية اللسان La langue أو اللغة Le langage نظاما للتبليغ الإنساني (رسم، موسيقى، سنيما،...) أو الحيواني (نحل، دلفين،...) والتي لم يُبْرَهَن عليها أنها مُبْنَيَنَة Structure كالألسنة الإنسانية الطبيعية »(3).

ويُعرّف DUBOI اللسان بأنه، ووفق المعنى الأكثر شيوعًا، أداة للتبليغ أو نظام من العلامات الصوتية النوعية المتعلقة بأعضاء تجمع واحد، وهكذا نسمّي اللسان الطبيعي ذلك اللسان المستعمل في البلد الأصلي للمتكلم، والّذي كسبه هذا الأخير منذ طفولته خلال تمرُّنه على التواصل اللغوي مع المحيط اللساني الّذي نما فيه « الألسن الحية العديدة هي كلها الألسن المستعملة حاليًا، وبقدر ما هي مستعملة في التبليغ الشفهي لدى بعض الناس مستعملة في التبليغ الكتابي لدُنْ مختلف البلدان، بينما الألسن الميتة ليست في وضع استعمال شفهي ولا خطي، في عملية التبليغ، غير أنها ما زالت تشهد على هذه الألسن،... وداخل لسان بعينه توجد تغيرات Variations ذات شأن كبير ناطقة تزامنيا: فعلى مستويات اللسان نتكلم عن لسان شائع مستقيم Soutenue، تقني، علمي Savante، شعبي خاص بطبقات اجتماعية، وبفرق صغيرة Sous groupes (عائلة، مجموعات مَهْنِيَّة)، وفي هذا الباب نضع الأنماط المختلفة للعامية ARGOT، وبالنسبة للتغيرات الجغرافية نتكلم عن اللهجات واللهجة المحلية Le Patois، ونميّز أخيرا داخل لسان بعينه وسيلتين مختلفتين للتبليغ، وكلتاهما ممهورة DOTE بنظام خاص: اللسان الخطي، واللسان المنطوق »(4).

(1) Dictionnaire de linguistique، P": 274

(2) Dictionnaire de linguistique، P": 196–197 G. Mounin

(3) Dictionnaire de linguistique، P": 196–197 G. Mounin

(4) Dictionnaire de linguistique، P": 276 J. DUBOIS

2-2 اللسان نظام من العلامات :

وتَعتَبرُ مدرسة براغ PRAGUE، بمن في ذلك دي سوسور قبلها، وكذا البنيوية الأمريكية، اللسان نظامًا من العلامات، وبأكثر دقة، كمجموعة من الأنظمة المربوط بعضها ببعض، ليس لعناصرها (أصوات، كلمات، ...) أية قيمة بمعزل عن علاقات مُعَادلَةٍ والتعارض الّذي يربطها، وكل لسان لا يخلو من هذا النظام النحوي الضمني المشترك لدى من يتكلمون هذا اللسان.

ومما أصبح مدركًا لدينا، ومنذ مدة، أن متكلمًا غير سليقي في لغته الأدبية أو العلمية أو المهنية، والّذي لا يعدم نظامًا نحويًا ضمنيًا مشتركا بينه وبين من يمارسون العامية نفسها، إذ لا يوجد قالب لغوي تركيبي واحد خال من هذا النظام، وبما أنه ضِمْنِيّ، فإن التهجين أو التشويه الذي يعتري البنيات الأخرى لهذا القالب التركيبي المشتق اشتقاقا سيئا من الفصحى لا يؤثر في التواصل العامي طالما أنه محال دوما على مرجعية نحوية أصيلة سبقته تداولا نطقا ثم خطًبا، ومن ثم فإن عامياتنا مزعجة، لكنها لا تشكل خطورة بالقدر المبالغ في تصوّره على الفصحى، وإلاّ قوّضتها منذ أمد.

2-3بين اللغة واللسان :

وأما دي سوسور الّذي تعود اللسانيون قاطبة أن يحيلوا عليه منذ زهاء قرن، فإنه يرى أنه لابدّ من أن يأخذ اللّسان La langue مكانه، وأن يُتَّخذ معيارا لكل التظاهرات اللغوية الأخرى، لأنه من بين الثنائيات المتعددة، يبدو اللسان وحده قابلاً لتعريف مستقل ومزوّد الفكر بنقطة ارتكاز مرضية، وعندما يتساءل: ماهو اللسان؟ يجيب بقوله: «بالنّسبة لنا ألاّ نخلطه باللغة Le langage، إنه ليس إلا قسمًا محددًا وجوهريا، صحيح هو في وقت واحد نتاج اجتماعي لملكة اللغة ومجموعة من التواضعات الضرورية المُتبنَّاة من الجسم الاجتماعي للسماح بممارسة هذه الملكة عند الأفراد، واللغة Le langage إذا ما نظرنا إليها ككل، فإنها متعددة الأشكال وشاذة Hétéroclite ومُفَرْشَحَة à cheval(1) على جميع الأصعدة، فهي، أي اللغة، في الوقت ذاته فيزيائية، وفيزيولوجية، ونفسية، وعلاوة على ذلك تنتمي إلى الحقل الفردي والحقل الاجتماعي، ومن الصعب تصنيفها في أي فئة من الوقائع الإنسانية، لأننا لا نعرف كيف نهتدي إلى وحدتها، وعلى العكس من ذلك، فإن اللسان La langue كل في حدّ ذاته ومبدأ للتصنيف، وما إن نعطيه المكانة الأولى من بين وقائع اللغة Le langage حتى ندخل ترتيبا طبيعيا في مجموعة لا تنسجم مع أي تصنيف آخر، وإزاء هذا المبدأ من التصنيف، فإنه يمكننا أن نعارض بأن ممارسة اللغة يقوم على ملكة تكسبنا إياها الطبيعة، في حين أنّ اللسان شيء مكتسب واتفاقي، والّذي يجب أن يكون تابعا للسليقة الطبيعية بدل أن يعلو عليها»(2).

1 – ترجمنا à cheval مُفَرْشَحًا، وهو الفتح بين الرجلين جلوسا أو وقوفًا، ...

(2) Cours de linguistique générale، P": 23-24 SAUSSUR

3-النظام اللساني :

3-1 النظام لسانياً :

وبالنسبة للنظام في معناه العام أنّ بيرو PIROU حدّده سنة 1966 بأنه « مجموعة من العناصر المتعلقة الواحد منها بالآخر والتي تشكّل كلاًّ »(1)، أو هو كلية مُنْبَنِيَة Structuré تفترض علاقات من التبعيّة والتضامن بين العناصر التي تؤلّفه، ويبقى مصطلح النظام لسانيا أقرب إلى مصطلح بنية، لأننا ونحن نتحدث عن البنية نُلحّ على شكل التنظيم نفسه، أو الحقيقة الموضوعية بوصفها مركّبة من أقسام متضامنة ومتعلق بعضها ببعض، ويهدف هذا المفهوم من النظام بمعناه العامّ إلى الدلالة على المجموعة بقدر شكلها المطابق للعقل، فالنظام الفونولوجي –مثلاً– كمجموعة من الفونيمات المترابطة تتضح فونيمات منها بحسب الأخرى.

3-2 اللسان نظام أنظمة ؟

وبمعنى أخص، فإن النظام بمعناه السابق لا يتعارض مع اللسانيات والسيميولوجيا، وهو هنا في خصوصيته يعادل اللسان عند دي سوسور الّذي كان يعرّف اللسان كنظام من العلامات الّذي لا يعرف إلا ترتيبه الخاص، ذلك أنّ الوحدات اللسانية وحرية تصرّفها التوافقي أو التنسيقي تحدَّد « انطلاقا من النظام ومفاهيم التعارض والقيمة الناجمة عن هذا الإدراك الذهني، وبالنسبة للعديد من خلفاء دي سوسور أن اللسان كنظام مكوّن من مجموعة أنظمة فرعية Sous-systèmes والتي بإمكانها أن تستمرّ في مستوى من التحليل (نظام فونولوجي) أو في صنف آخر (نظام فعلي)، ومن ثم يمكن إذًا أن نفهم اللسان كنظام أنظمة »(2).

3-3 ماهية النظام اللساني :

وعمومًا، فإن النظام بالنسبة للسانيات الديسوسورية وغيرها لا يبتعد عن كونه يشكل النواة المحورية يجمعه عناصر مترابطة ومؤثر بعضها في بعض علائقيًا، ولذا يبقى دي سوسور رائدا أوّلَ في تحديد ماهية النظام اللساني، فهو ينطلق من أن الفوارق الصوتية التي تكوّن كلمة هي الحاملة لدلالتها، وليس الصوت في ذاته (في لسان لا توجد إلا الاختلافات) موضحًا ذلك : « اللسان لا يتضمن أفكاراً ولا أصواتا كان وجودها يتقدّم النظام اللساني، بل كل ما في الأمر ثمة اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة عن هذا النظام، وما يوجد من فكرة أو مادة صوتية في علامةٍ ما هو أقل أهمية مما يحيط به في العلامات الأخرى، ولا أدلّ على ذلك أن القيمة

---

(1) Dictionnaire de dis lactique des langues، P": 550

2 – نفسه، ص: 551.

اللسانية في كلمة يمكن تغييرها دون المساس لا بمعناها ولا بصوتها، لكن فقط بسبب أن عبارة أخرى مجاورة ستتحمّل ما وقع من تعديل »(1).

ويرى دي سوسور أنه لكي نقول إن كل شيء في اللسان سَلبي، فهذا لا يكون صحيحا إلا في المدلول والدال وهما معزولان، وما إن نعتبر العلامة في شموليتها حتى نجد أنفسنا أمام شيء لا يكون صحيحا إلا في المدلول والدال وهما معزولان، وما إن نعتبر العلامة في شموليتها حتى نجد أنفسنا أمام شيء إيجابي في ترتيبه مردفا « أن نظامًا لسانيًا سلسلة الفوارق من الأصوات المنسّقة Combinées مع سلسلة فوارق من الأفكار، بيد أن هذا التقابل بين عدد ما من العلامات الصوتية السمعية Acoustiques مع عدد مساوٍ من التقطيعات في كتلة Masse فكرية يؤول إلى توليد نظام من القيم، وهذا النظام هو الّذي يكوّن الرابط الفعلي بين العناصر الصوتية والفيزيائية داخل كل علامة، مع أنّ المدلول والدالّ المأخوذ كل منهما على حدة متبَايِنَيْنِ وسَلْبِيَيْن بصورة محضة نَسَقُهُما واقعة إيجابية، لا، بل إن هذا هو النوع Espèce الوحيد من الوقائع التي ينضوي عليه اللّسان، طالما أنّ خاصة المؤسسة اللسانية إنما تنهض بالحفاظ على التوازي بين هذين الترتيبين من الفوارق » (2).

3-4 النظام والبنية؟

وتضبط بعض المراجع اللسانية البنيوية النظام اللساني ضبطًا شاملاً محيلة على مختلف اللسانيين ونظرياتهم، ومما تراه أن هذا النظام يُفهم إمّا اجتماعيًا كما هو الشأن بالنسبة لدي سوسور، وإمّا مُسْتَبْطَنًا Intériorisé أي يُعبّر عنه بنشاط نفسيّ داخلي من قبل المستعمل للسان، وهو اتجاه شومسكي (3)، ولا تختلف مجمل النظريات التي تبنّت الطروحات الديسوسورية بأن النظام اللساني، وهذه الفكرة المركزية سمحت للسانيات بأن تصير « علمًا للنظام »، وبالإضافة إلى ذلك وهبت البحث اللساني العصري نقطة انطلاق لتحليل أسسها، الخاصة، لأن « أحد مساعي اللسانيات الأوّل كعلم منهجي Systématique تقديم معطيات ملموسة حول الطبيعة والماهية وتعقيد أنظمة فرعية ما بين اللسانيات، ومن المناسب أيضا تناوُل وتقديم الالتحام الداخلي لعناصر نظامية وعلاقاتها الوظيفية بما في ذلك درجات التوازن والتجانس للنظام،... وهل النظام وسيلة نظرية للمعرفة، وتجريد للذّهن الإنساني، أو أزيد من ذلك، هل هو أداة للوصف المستخدم من قبل العالِم؟ وأية علاقة له بين مفهوم « النظام » ومفهوم « بنية »؟ والبنية أهي ماهية Entité غير مادية؟ أو تَشَكّل حقيقة قابلة لأن تُلْمَس وتُكشَف في الظواهر التي تمثلها؟ »(4).

---

(1) C.L.G، P": 192

2 – نفسه، ص: 192.

(3) Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique، P": 48

4 – نفسه، ص: 48.

4 – النظرية الشمولية أو الكونية للغات :

4–1 القالب أو النموذج :

إن كلمة الشكل في القواعد النحوية واللسانيات تشير قبل كلّ شيء إلى القالب أو النموذج أو المثال الذي يُسْبك في ضوء شكله المعهود شكل أو أشكال لا نهائية غير معهودة، والقالب Le moule أو Pattern قريب من القياس L'analogie أو النظير L'analogue، لأن القياس تشابهي ترفع ما جاءنا مرفوعًا، وتَنْصِب ما ورد قبلنا منصوبا، . . . والنظير يدلّ على ما يضارعه مماثلة، ومنه نظرية المتقاربات .

إن القالب يعطي ما يوجد بلا شكل Informe محدود شكلاً محدودًا بلا حدّ أو محيط، وعلى هذا يأخذ « شكل » استعماله النحوي واللّساني معاني متنوعة قابلة للتصنيف تبعًا لزوجية التعارض المُقيَّد به (شكل ≠ مادة، شكل ≠ محتوى، شكل ≠ معنى، شكل ≠ جوهر (أو ماهية) Substance، شكل ≠ وظيفة)، ولذلك أشرنا إلى أن القالب قريب من القياس أو النظر، ولكن استعماله لدى اللسانيين يختلف تقليديًا عن استعماله لدى النحويين القدماء، فالقياس قياس مجهول على معلوم، أو ما لم يستعمل على ما سمع مستعملاً، وهذه العملية لا تتم خارج التركيب، بينما الشكل يقوم على ازدواجية التعارض، وعلى بنية ليس بالضرورة أن تكون تركيبًا .

4–2 الشكل والمادة :

كان أرسطو أشار إلى أن ماهية موضوع مسلّم به ومتميز، وقابل لتحديد هويته تتركب من مادة (فيزيائية مثلا) ومن شكل خاص مفروض على هذه المادة مُعْطٍ للموضوع أو الشيء نتيجة لهويته ودوامه(1) .

غير أن كلمة « مادة Matière) بعد أرسطو بدأت تُفسَّر وتُشْرح بشكل غير محسوس كإشارتها إلى « المحتوى »، « موضوع محتوى »، « الأفكار »، « المعنى » حتى أضحت تقريبا تعادل « التعبير L'expression » لترتبط بمستويات اعتُبرت غير دلالية Non sémantique كالمستوى الصوتي، والفونولوجي، والسانتكسي .

وبالنسبة لأشهر المدارس اللسانية، فإن التوزيعية تقابل الشكل والمعنى ذاهبة إلى أن الأشكال اللسانية القابلة للملاحظة وحدها تتعلّق بالتحليل، بينما المعنى يبقى خارج المجال اللساني، في حين أن الوظيفية تميز الشكل والوظيفة : وتنادي بدراسة وظيفية « واقعية » لا شكلية Formelle Non متعلقة بتشكيل صوري Formalisme، وكان دي سوسور صرّح علنًا بأن اللسـان شكل وليس مــادة « وبعبارة أخرى، اللسان La Langue شكل وليس مادة La Langue est une forme et Non

1 – يراجع : Dictionnaire de dislasletique des langues، P: 235

une substance، وليس إلا أن نقتنع بهذه الحقيقة، لأن كل أخطاء مصطلحاتنا، وكل تصرفاتنا المغلوطة لتعيين أشياء اللسان تصدر عن هذا الافتراض غير الإرادي، وكأنّ مراده أن هناك مادة Substance في الظواهر اللّسانية »(1).

لعله لما يسوّغ لنا إدراكه، ولو من باب سطحي، أن اللساني الفرنسي جورج مونان لم يكن فارغ الذهن ولا مجردًا من البراءة، وهو يشير إلى أن اللغة Le langage التي نتداولها، كما سبق أن ألمحنا، ليست إلا تلك التصرفات والأفعال الإرادية أو اللاإرادية التي نلحظها ونعاينها لدى كل الناس للتبليغ من خلال ألسن أو هي مجموعة كل الألسن الإنسانية المُعْتبرة في سجاياها المشتركة، أو هي أيضا ما يشار بها إلى ملكة التبليغ التي نقتنيها منذ نعومة أظفارنا لا شعوريًا.

وليس غرضنا هنا أن نتعمق في إبراز العلاقة الكامنة من هدمها بين الشكل واللاشكل والمادة ونحو ذلك، وهو موضوع آخر، ولكن ما توصل إليه البحث اللساني الحديث أن شيئا أو غرضا لا يشار إليه بواسطة حقيقته الفيزيائية وحدها، ولا بالملكيات التي يملكها، ولا بانتمائه إلى صنف من أصناف الأشياء، ولا بطابعه الّذي يقبل إحصاء من عدمه، ولا بحضوره أو غيابه في سياق عملية التبليغ، طالما أن لغتنا الصوتية « العلاماتية » ليست في حاجة إلى أن تكون أشياؤها حاضرة للدلالة عليها، ولا حتى إلى وجودها، لأن « النشاط اللساني نشاط رمزي، فاللساني يقوم بخدمة التوصيل إلى الفكر الّذي يتلفظ بتصورات لا بسمات Labels مطبَّقة على الأشياء، فَسمّى Nommer يعود إلى التصنيف والتنظيم للعالم، فالكلمات لها سلطة التنظيم في مفاهيم تصورية: فالكلمة تخلق التصور تمامًا كقدرة التصور على استدعاء الكلمة، إذ كل نشاط جديد، وكل فكرة جديدة، وكل حقيقة جديدة تستدعي تسمية، لكن هذه التسمية هي التي تمنح هذه المسميات الجديدة وجودها،... الكلمات تؤلف نظامًا مستقلاً بمعزل عمّا تشير إليه، والعلامات (بما أن الكلمات علامات) يتعين بعضها بالنظر لبعضها الآخر، بل إن علامة ممكن تأويلها Interprétable دائما من خلال علامات أخرى، إما داخل السَّنن Le code نفسه بوساطة الترادف، وشرح نص Paraphrase، وما تعرِّفه المعاجم، وإما من خلال نَقْل Transposition في سنَنٍ آخر كما هو الحال في ترجمة تدل صعوبتها بعدم وجود علاقة تحافظ على المعنى نفسه في أشكاله المختلفة Univoque بين الكلمات والأشياء »(2).

(1) C. L. G، P": 195

(2) Pour comprendre linguistique، P": 92 MARINA YAGUELL

4-3 اللغة في وضعها الميتا لساني :

ومما توصلت إليه الأبحاث اللسانية والأنتروبولوجية (الأمريكية خاصة) أن ما يدعى ميتال لساني Métalinguistique (أو فوق لساني . . .) كل ما هو أبعد من اللغة، أي الواقع غير اللساني الّذي تحيل إليه اللغة كعالم من المرجعيات الدلالية التي تشير إليها الألفاظ اللغوية والتعيينات أو الدلالات الذاتية وكذا التضمينات (المفاهيم المقترنة بلفظة ما)، وهذه العوالم المحال عليها تشكّل لُبّ محتوى ثقافتنا وحضارتنا المعبّر عنها عبر ما نتواصل به من لغات، ولذا فلا نعجب أيّما عجب إذا ما وجدنا رومان جاكبسون يَعُدّ وظيفة ما فوق لساني إحدى وظائفه السّتّ التي بمقتضاها يتخذ المتلكم السنن Le code الّذي يستعمله كموضوع لخطابه على الأقل في وضع خاصّ (1) .

4-4 الذخيرة العلامية بين اللغات :

ذلك أن عوالم اللغات في وضعها الميتالي لساني تكاد تقول الشيء نفسه بالنسبة لمعانيها، إذ لا يتصور عاقل واعٍ أن ما يحيط بعالم لغة في زمان ومكان متزامنين أو حتى متباينين مختلف اختلافًا جذريًا أو جوهريًا بين لغة يجهل أصحابها لغة أو لغات أخرى، وإذا ما وجد هذا الاختلاف المتنامي فعلاً في مستواه الدلالي العامّ أو الخاص، فلن يكون خارج لغة بذاتها، ولا صلة له بما يتنامى في لغة أو لغات أخرى في وقت واحد أو مختلف، وهنا تكمن إحدى صعوبات الترجمة بل صعوبة شرح نص على مستوى لغة بعينها في غير أوانه .

وإذا كانت اللغات تتشارك أو تشترك كلها في ذخيرة من العلامات، فإن ما يميز إحداها عن الأخرى، أن واحدة منها تعمل على تغيير ما يمكن تغييره أو ما تقدر على ذلك بفضل تطورها التكنولوجي والفني وتنوّعها الإبداعي، والأخرى لا تكاد تتجاوز عقبة المخزون الثابت لتستورد عوض ما كان على أصحابها أن يخلقوه، بسبب ساستها الّذين نسوها فأنستهم أنفسهم، وكأنهم لا يميزون بين اللغة كأداة طيّعة للتعبير عن أي جديد يُبتكر، والمدلولات المستحدثة في غير فضاء لغتهم، أي يسقطون عجزهم وفشلهم على لغتهم الثرية، لكن في عالم نائم من المعاني التي تنتظر منهم مجرّد إشارة للاستيقاظ والفعل .

وسبات عالم المعاني في لغة –كالعربية– لم يُوقَظْ بعدُ ممَّن يدَّعون أنهم يَتَبَنَّوْنَهَا ويقسمون على احترامها، لا يعني أن ما ينطبق على لغة ينطبق على لغة أخرى بدعوى الشمولية اللسانية أو الكونية الشيئيّة، أو بحجة الترجمة من لغة إلى أخرى، لو كان الأمر قريبًا من ذلك فقط لتغير وتطور عالم المعاني النائم في فضاء لحظة تَحَرُّك عالم المعاني اليَقِظ في فضاء آخر، فالعلامات مشتركة فيما بينها وبين نفسها ذاتيا، ولا علاقة لها بصورة مباشرة بلغة تعبّر بها، وأخرى تُضرِبُ عنها، فعالمها المتحرك عالم عامل ومنتج، وعالمهما النائم عالم كامل ومستهلك .

---

1 – ينظر : R. JAKOBSON : Essais de linguistique، P": 220

5-4 فيم تتشابه اللغات ؟

وإذا كنا نميل قطعيا إلى كونية شمولية للتصورات المشتركة التي تتعاطاها ألوف من الألسنة الطبيعية، ومثلما أشار إلى ذلك Dumarsais منذ العقد الثالث من القرن الثامن عشر (1929) : « توجد ملاحظات في القواعد تتناسب مع كل اللغات »(1)، فإن شومسكي يرى أن رؤية مارسي تشكّل ما نسميه قواعد اللغة العامة مثل الملاحظات التي نبديها على الأصوات التي تُنطق، وعلى طبيعة الكلمات، وحول الكيفيات المختلفة التي يجب أن تكون منسَّقة Arrangés لخلق معنى، وبالإضافة إلى ذلك أن هذه الملاحظات العامة لا تخصّ إلاّ لغة خاصة، وهو ما تشكّله القواعد الخصوصية لكل لغة(2).

إن اللسانيين لا يزال ينقصهم الكثير من الوقت والجهد لإثبات تشابه الألسنة في بنياتها الخاصة، ولكنهم توصلوا إلى ملاحظة تشابهات لا يستهان بها فيما يخص التنظيم السطحي لها، مثال ذلك أن كل الألسنة المعروفة تحوي تمفصلاً مزدوجًا على مستوى الوحدة الدالة (المورفيم أو المونيم)، والوحدة الصوتية التمايزية (الفونيم)، وتشمل فونيمات محصورة غالبًا ما تكون أقل من خمسين، فضلاً عن الفئات السانتكسية (اسم، فعل، فاعل، . . .) وعلاقة المسند بالمسند إليه. . .(3) .غير أن الإشارة السابقة لتشابه اللغات في بنياتها الفونولوجية والنحوية والدلالية لا تنهض دليلاً على وجود لغةٍ عالةً على لغة أخرى، كل لغة تفصح عن عالمها الخاص والعام بكيفية لا تفصح بها لغة أخرى في كل حال، فنحن نعبّر بضمير وحيد عن المثنى المؤنث والمذكر، والجمع مذكراً ومؤنثًا، إذ نقول :

ذهبنا

نحن ذهبنا 1) – من يتكلم

ذهبنا

ذهبنا 2) – مثنى أم جمع؟

(1) Dictionnaire de didactique des langues، P": 579

2 – يراجع المرجع أعلاه، ص : 579–580.

3 – ينظر المرجع السابق، ص : 580.

والفرنسية أسوأ من العربية، لأنها لا تعبر إلا بضمير وحيد Nous (نحن)، ولا وجود للمثنى فيها، وهذا يختلف تمامًا مع الواقع الميتا لساني، وهذا خلافًا للغات أخرى كالملغاشية، واللغات الهندية الامريكية، والفليبينية، وبعض اللغات الآسيوية،... (1)، ولغات تميز تمييزا دقيقا بين الجنس كما أوضحت اللسانية مارينا ياغيلو Marina yaguello في أحد أبحاثها (الكلمات والنساء)، ولغات أخرى لا تفعل ذلك بدقة أو لا تميز تمامًا.

وإذا كنا لا ننكر أن اللغات شبكة آمنة من المعاني اليقظة والنائمة، فإنها تتفق في شيء، وتختلف في شيء آخر: تتفق عالمها اللانهائي، وهو العالم المشترك، وفيه تتنافس اللغات عولميا، وتختلف في عالمها اللانهائي، وهو العالم المشترك، وفيه تتنافس اللغات عولميا، وتختلف في عالمها النهائي، وهو العالم المتميز، وفيه تتصارع اللغات محليا وعولميا معًا، والبقاء لما هو مستعمل وعامل، والفناء لما هو جامد أَشَلّ.

4-6 لكل لغة ميتافيزيقيا :

لقد أثبت اللّسانيان الأمريكيان إدوارد سابير E.SAPIR وَوُرْف WHORF أن التقطيع اللساني Le découpage linguistique لا يتزامن مع الواقع، وهذه الفرضية تطرح مَبدَأ أن رؤية المتكلمين للعالم تجد تنفسها محددة تحديدًا كلياً من خلال لسانها وكتب بنيامين لي ورف ذات يوم أن كل لسان « نظام رحب من البُنى مختلف عن نظام الألسنة الأخرى، وهي تنسّق ثقافيًا الأشكال والفصائل التي لا يتصل بها الفرد وحسب، بل يحلل أيضًا الطبيعة، ويستقبل أو يهمل هذا النمط أو ذاك للظواهر والعلاقات التي بوساطتها يعبر عن تصرفه في التفكير، والتي عبْرَها ينشئ تكوينه لمعرفته للعالم وأننا نشرّح الطبيعة تبعًا لخطوط مرسومة سلفًا من خلال ألسنتنا الطبيعية »(2).

ومما فرضه وُرف WHORF أن اللغات المتباينة تعكس العالم الّذي حولنا عكسا مختلفا « بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميزة، وهذه حقائق أكّدها علم اللغة ولا سبيل إلى بعضها، بيد أن الحقائق يمكن تأويلها بطرق متباينة »(3).

1 – يراجع : Pour comprendre linguistique، P": 98

2 – المرجع السابق، ص: 99.

3 – الأصوات والإشارات، ص: 65 أ.كندراتوف

ذهب ورف إلى أبعد من ذلك لمّا زعم أننا أسْرى اللفظ، وأن لكل لغة ميتا فيزيقيا خاصة بها، ولكن ما من شك في أنه كان محقًا حين ذهب إلى أن اللغة تؤثر على تفكيرنا في ظروف معينة، حتى وإن اعترضَ عليه من بعض الدارسين أن التأثير يتعلق بنمط التفكير لا بجوهره.

وانطلاقًا من أن لكل لغة ميتافيزيقيا خاصة بها دون إلغاء التماثلات التحتية للمداليل الأكثر شيوعًا بين اللغات، وإلا ألغينا العالم اللانهائي المشترك بينها، فإن لكل لغة، بوصفها مؤسسة جماعية وتقليدية تربط الخلف بالسلف والماضي بالحاضر، وتصل هذا الأخير بالمستقبل، شُذُوذَها ولا معقوليتها، وكلّ لغة تعبر عن لا تَمَاثُلٍ مُلازم لطبيعة العلامة اللسانية ولكن هذا لا يجعل اللغة أقل من أن تكون نظامًا منصاعًا لِمستوى نوعي ومُمَفصلاً من خلال مجموعة علاقات تحتمل تقعيدات، إن العمل المتمهل واللامنقطع الّذي تَمَّ داخل لغة لا يحدث صدفة، إنه يقوم على علاقات أو تعارضات، والتي هي ضرورية أو غير ضرورية بحيث تعمل على تجديد أو مضاعفة التمييزات المفيدة في كل مستويات التعبير، وأما التنظيم السيمانطيقي للغة فلا يتخلص من هذا الطابع النظامي، ولأن تكون اللغة أداة لتنظيم العالم والمجتمع، فإن هذا يجب أن ينطبق على عالم معتبر كـ«واقعي Réel» على أن يعكس عالمًا «واقعيًا»، سوى أن كل لغة هنا ذات حالة نوعية تصوّر العالم بأسلوبها الخاص، والتمييزات التي تتمظهر بها كل لغة يجب أن تكون معزوّة إلى المنطق الخاص الذي يدعمها، لا ان تكون خاضعة دفعة واحدة D'emblée إلى تقويم شمولي Universelle، وبهذا الخصوص، فإن اللغات القديمة أو الأركية ARCHAÏQUES لم تكن أكثر ولا أقل شذوذية من تلك التي نتكلمها، كل ما لها وحَسْبُ التفرّد الّذي نُعيره إلى الأشياء مألوف قليلا، ومع ذلك فإن فصائلها Leurs catégories الموجّهة بخلاف فصائل لغتنا لها التحامها»(1).

4-7 بين الصوت والمعنى:

إذا رغب راغب في أن تكون له لغة مستقلة لا تعبر إلا عنه، فَلْيَبْحث عن عالم من المعاني لا يتصل إلا بلغته، والعكس غير مردود «ن، وَالقَلَم ومَا يَسْطُرونَ» لا تعني إلى إلا «ن، والقلم وما يسطرون» سواء عُبِّر عنها بالعربية أم بغيرها، إلاَ إذا لم يكن في عالم لغة «نون»، ولا «قلم» ولا... ومن ثم، فإن الاهمية لا تُعْطى للغة التي تستعمل القلم بقدر ما تُعطى لقوم متعلمين وآخرين أمّيّين، لقوم يعرفون كيف يسخّرون هذه الأداة سواء قُدَّتْ من قصب أم معدنٍ راقٍ، وآخرين يتباهَون بشكلها وبهاء لونها ومصدر صنعها دون زيادة ولا نُقْصانٍ، ومثلما الكلبٌ لا ينبح، والذئب لا يعوي،... فإن القلم أيضًا لا يَسْطُرُ.

(1) Problèmes de linguistique générale، P": 82 BENVENISTE

ومما تقدم يشير، وبدون تحفظ، إلى أنّ الصلة بين الصوت والمعنى، بين الدّال والمدلول صلة مواضعة وسَنَن ثقافي معتاد، على الرغم من أن اللغة بالنسبة للمتكلمين تتطابق في منظورهم مع عالم يعتبرونه طبيعيًا، ولم يعد اليوم، ومنذ مدة، بين اللسانيين المحدثين خلاف جوهري في أنه لا توجد صلة طبيعية بين وجهي العلامة بتصور دي سوسور، وما قد يوجد من محاكيات صوتية Les onomatopées في لغة أو كل اللغات المعروفة لا يقوم مبررا على أية صلة طبيعية بين [ق/ل/م] ووظيفته وما قد يلجأ إليه متكلم عفوًا أو قصدا لا يعدو أن يكون حالة عرضية خارج المألوف أو وظائف فوق مقطعية، فأنت إذا أعجبت بصوت السين وصفيره الدال على عزة البحتري وكرامته وأنفته:

صنت نفسي عما يدنّس نفسي وترفّعت عن جَدَا كل جِبْسِ
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسًا منه لتعسى ونُكْسي

فإن هذا الانفعال اللامتوقّع من المتكلّم لا ينهض دليلاً على أن الكلمات التي احتوت السين تحكي أصواتها أصوات الأشياء التي تصفها.

5- رهانات اللغة العربية عَرْبَبِيّا:

5-1 العربية ورهانها بين عهدين:

لطالما تحدث العرب قبل الإسلام بألوف من السنين بلغة لا نحسب أنها نفس اللغة التي وصلتنا بها أشعارهم، وحكمهم وأمثالهم، وثقافتهم، وحضارتهم، وعلومهم، ولكنها لغة على أي حال تطورت عبر الاستعمال والابتكارات والإبداعات، ولو بطريقة شفهية، إلى أن بلغت نقطة أسمى ما يمكن أن تبلغه لغة على وجه الأرض.

والّذي يقف على هذه اللغة في تراثها الأدبي والثقافي وكل مجال من المجالات الدلالية، فضلا عن قواعدها، وأساليبها ونظمها، لا يملك نفسه من الاستغراب تارة، والإعجاب تارة أخرى، ويطرح على نفسه تساؤلات ليس في مقدوره أن يجيب عنها، وهو مقتنع في قرارة نفسه، لتكون الحيرة مآله أو خلاصه الوحيد، وحتى يتخلص من هذا الاحتيار يلتفت إلى آراء منها ماهو قديم، ومنها ماهو حديث، والتي تربط وجود العربية، بوجود ما وصلنا من تراثها الأدبي والعلمي والثقافي الّذي دُوّن مسموعًا بعد سطوع الإسلام بنحو قرن ونصف.

ما العربية التي نتواصل بها اليوم فصيحة أو عامية مشتقة اشتقاقًا مشوّهًا ومُهَجَّنًا من الفصحى إلا امتداد لساني طبيعي تاريخي لتكلم وتخاطب أجدادنا بعد الاختلاط الّذي حدث بين فاتح ومفتوح، وليست هذه اللغة إلا إحدى اللغات السامية، إن لم تكن هي اللغة الأم نفسها للساميات، والتي كانت لغة أدبية راقية سليمة قبل الإسلام، ولما جاءت المرحلة العربية

الجديدة بعد مجيء الإسلام كانت هذه اللغة لغة التنزيل والقضاء والدولة والجيش والإدارة والمعاملات والصكوك، . . .

ورغم أن ثمة تراكيب وألفاظًا بعينها قد زالت بزوال العصر الجاهلي، فإن ما جاء به الإسلام وعوَّضته العربية كان يشكّل أضعاف ما فقد أو هجر أو أهْمِل وحسبك أن تستدلّ بأحد النصوص لِلْفَقْلَغِيّ (فقيه لغة) العربي ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونساكهم وقرابينهم، فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام، حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت، فعفَّى الآخر الأوّل، . . . »(1)، يقول هذا عالم لغة توقيفي.

وحسبك أن تنظر إلى عيّنات من المصطلحات الفقهية، واللسانية، والعلمية، والإدارية، والفلسفية، والعسكرية، . . . لتقف على الرهان الرائد القوي لهذه اللغة تعبيراً عن كل وظيفة من وظائف عصرها الّذي جعل يتمدّن ويتغير ويتأسّس في كل حقل من حقول البحث، وفي كل منحى من مناحي الفكر والاجتماع والحياة.

إن أثر الإسلام في العربية انبرى أمراً بديهيًا لإثرائها وترقيتها وترويضها، ولم تقف عاجزة ولا متردّدة أمام أي مدلول مستحدث منها أو معرّب فيها أو مترجم لاحقًا إليها، في أي مجال علمي وتكنولوجي، بل لم يكن هناك أي مجال يتحدّاها أمام قدرتها وطاقتها الانتقالية الجديدة، وقد وسعت كتاب الله، واستوعبته لفظًا لفظا، وآية آية، . . أم هناك على مرّ العصور وبروز العلوم تكنولوجية جافة أوسع من مداليل القرآن، وأقصى حاجة من حاجات القرآن الّذي تكيّفت معه هذه اللغة بنظم إلهي لتبليغ مضامينه الناس تبليغًا لاَ يقتصر على زمان أو مكان.

إن العربية ورهانها في حياتها الانتقالية الجديدة ما كان لها أن تقف شامخة صلدة أمام ما جدّ من ألوف من المصطلحات الجديدة لولا أنَّ كل مصطلح يطفو إلا ويتقدّم بُرُوزه اصطلاح دلالي نواتي أصيل، وإلا اضطر صانع المصطلح إلى طرائق أخرى خارج اللغة الأصل، لأنه إذ ما وجد مصطلح «في لغة من اللغات تجهل نواة اصطلاحه التي اشتق منها أو قيس عليها دلاليًا بكيفية من الكيفيات، فإن الأمر لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أن ذلك المصطلح المجهولة أو المنعدمة نواته في اللغة التي تبنَّته مصطلح دخيل في هذه اللغة»(2)، فعدم وجود كلمة «قَطِرَان» الّذي يُعنى به أصلاً في العربية ما يتحلّل من شجر الأَبْهَل(3)، والمشتقة من «قَطِر» في لغة كالفرنسية، لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أي كلمة GOUDRON دخيلة فيها عن طريق العربية، وكلُّ ما فُرْنِس فيها من مشتقات:

---

1 – فقه اللغة، ص: 78 وما بعدها، أحمد بن فارس.

2 – مجلة «اللغة العربية»، ص: 203–204 عدد 9، عام 2003.

3 – حَمْل شجر كبير، ورقه كالطّرفاء، وثمره كالنبق، يزعمون أن دخانه يُسْقط الأجِنّة سريعًا، ويُبْرئ من داء الثعلب طِلاءً بخلّ وبالعسل يُنقى القروح الخبيثة، ويطلى بالقطران الإبل «كأنّي مَطلِيٌّ به القَطِران أجرب»، وبهذه اللغة (قتح القاف وكسر الطاء) قرأ السبعة في قوله تعالى: ﴿سَرَابيلهمْ من قَطِرانٍ﴾ وفي عاميتنا بفتح القاف وسكون الطاء.

– GOUDRONER (الفعل) قَطْرَنَ أو طلا بطلاء القطران
– GOUDRONNAGE قطرنة وتَقطْرن.
– ROUTE GOUDRONNEE طريق مقَطْرن.
– OUVRIER GOUDRONNEUR عامل مقَطْرِن
– GOUDRONNEUSE آلة القَطْرَنة (مُقَطْرِنة).

أصْلُهُ عربي، ومن ثم فإن كلمة «القطار» المعروف كلمة عربية لا ارتياب فيها لوجود اصطلاح خلفي نواتي كان يدلّ على عدد من الإبل تسير على نسق واحد، وجَمْعه قُطُرٌ، وهو فِعال بمعنى مفعول مثل كتاب وكتب وبساط وبُسط، وكان هذا النسق من الإبل يطلق عليه مقطور،... ونرجّح أيضا أن كلمات في الفرنسية مثل MALADE (مريض) وMALADIE (مَرَضٌ) وMALADIF (مُعْتل أو مًعرَّض للمرض) وMALDIVEMENT (باعتلال) ذات أصل عربي لعدة أدلة:

1)– لا يُشتقّ من هذه الكلمة ممّرض (INFIRMIER) أو ممرضة (INFIRMIERE).
2)– يرسم صوت الضاد في الفرنسية دلاً، فاسمي «مرتاض» يكتب MORTAD في السجل.
3)– ما كان ينطقه بعض الحجازيين «لامًا» يَلْفظه تميميّون «راء»، فإذا قال الأولون: «لعَمْري» قال الآخرون «رَعَملي»[1]،... وهذه المقارنة تحتاج إلى بحث مستقل، وإلى مختصّين ضليعين في اللغتين.

5–2 رينان يتحامل على الساميات:

وممن تحامل على اللغات السامية، ومنها العربية، رينان الفرنسي، وكان أوْلى به ثمّ أَوْلى أن يصلح متاعب لغته الفرنسية نطقًا ورسمًا وتركيبًا وصوتًا،... لماذا تجاهل هذا المستشرق بأن معرفة لغة من اللغات الشرقية صار أمرا محتمًا على كل أوروبي مثقف، «وأن الأفكار الشرقية ظلت سائدة منذ ظهور المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبي HUMANISME إلى غاية القرن السابع عشر أم يريد أن يَسِمَنا بما وَسَمَهم به أرسطو «إن غير اليونان من الأوروبيين غير مستعدين للحضارة»؟[2] أما كان حريًا به أن يفتح قاموسه الفرنسي الّذي يضم في باطنه مائات من الكلمات العربية «في الأطعمة والأشربة والأكسية والألوان والاصطلاحات المتصلة بقص الشعر ومشطه وتسريحه وصناعة الملابس؟ ألا يعلم مثلاً أن مصطلحات الريّ في اللغة الإسبانية

1 – راجع المزهر، 2/ص: 277.
2 – مجلة «اللغة العربية»، ص: 207 عدد: 9، سنة 2003.

جَارَةِ لغته هي تقريبا كلها باللغة العربية؟»(1)، وهل جهل أم تجاهل رينان بأن «أغلب المفردات العربية الثقافية والاجتماعية والحضارية والفلسفية والعلمية،... التي أخذت طريقها إلى اللغة الفرنسية التي كانت حتى ذلك الوقت في طور النشأة والنّمو عبر اللغة الإسبانية»(2).

لسنا هنا في مجال الرد على هذا المستشرق المتعصب لكل ماهو آريّ لدحض مزاعمه الواهية من كل رؤية موضوعية صادقة، ومع ذلك يجب أن لا نقع في الفخ نفسه، أي هذا لا يمنعنا من الإشارة العابرة هنا «إلى أن اللغات كلها لها خاصية الاشتراك والفضل فيما تأخذه وتعطيه وأن الحضارات الإنسانية وليدة أعمال وإنتاجات عقلية وفكرية متفاعلة ومتلاحقة، فالأرقام العربية التي ماهي في جوهرها إلا معانٍ كاملة ومفيدة لشبكات لا نهائية من المداليل الكامنة في معدوداتها، قدّمت فضلا علميًا لا يُردّ للإنسانية»(3).

5-3 انسياب العربية بين الشعوب:

وبعد أن فرضت اللغة العربية رهانها الداخلي عَرْبَبيًّا أمام إبداعاتها، والتعبير عن مكوناتها الفنية البعيدة، والتي لا ساحل لها، وبعد أن تكيّفت مع نُظم القرآن وأسراره وعجائبه ومعجزاته المادية والتجريدية، وإشاراته الكونية والغيبية والعلمية، بعد كل هذا وغيره، وجدناها تنساب انسيابا بين نفوس وعقول أمم وشعوب أقبلوا عليها حبًا وكرامة، ولغاتهم الطبيعية لم تكن بأقلّ متن لغتهم الجديدة رقيًا ولا حضاريًا، لا لشيء سوى لتشوّقهم العقديّ والروحي لتلاوة كتاب الله مبنى ومعنى دون واسطة ولا ترجمة، وهكذا أقبلت عليها ألسنة تلوكها لوكًا لم نعلم أن أعجميًا اشتكى منها صعوبة، ولا اعترضه في سبيل تعلّمها عقبات، بل كنت تراه يقبل عليها إقبال الفصيل على ضرع أمه، وشيئًا فشيئا أصبح هذا الأعجمي يفوق غير واحد من أربابها وعلمائها والآخذين بناصيتها، ولنا مثال ناصع، لا يقبل الجدل في الشاب العبقري سيبويه الّذي نهض بها نهوضًا لسانيًا أعجز به من تقدمه، وتحدّى به من لحقه.

5-4 بداية التعريب:

كان على اللغة العربية أن تصفّي حسابها عَرْبَبِيًا، وتثبت وجودها الوظيفي في كل قطاعات الدولة العربية الإسلامية ودواليبها قبل أن تلتفت لاستيعاب علوم الأمم التي تعانقت معها روحيًا أو تواصلاً مصلحيًا، وكان لها ما أرادت منذ العهد الإسلامي المبكر، حيث عُرّبت سكة النقود

---

1 – نفسه، ص: 207.

2 – الحضارة العربية في إسبانيا، ص: 115–116 بروفنسال.

3 – مجلة «اللغة العربية»، ص: 208 عدد: 9 عام 2003.

تعريبًا خاليًا من أي تأثير مسيحي(1)، والفضل الأعظم يذكر هنا لعبد الملك بن مروان الّذي أقدم على التعريب في جميع مرافق الدولة، بما فيها النقود التي أمر بإزالة شعار التثليث المسيحي من القراطيس غير عابئ بغضب جستنيان الثاني ولا بهداياه الفاخرة، الأمر الّذي جعل كارل بروكلمان يقرّر أن استئناف البيزنطيين للأعمال الحربية يَعود أحد أسبابه إلى الإصلاح الّذي أحدثه عبد الملك(2).

وكانت اللغة العربية التي تدوّن بها الدواوين قبل عبد الملك، من الدرجة الثانية، غير أن هذا الخليفة بعد تعريبه الدواوين الخمسة رفع من شأنها، وأصبحت لغة من الدرجة الأولى، حيث أصدر أوامره إلى جميع عمّال الأقاليم الشاسعة بتنفيذ مهمة التعريب الشامل، ليشرف هو شخصيا على عملية التعريب في بلاد الشام(3).

5-5 العربية ذاكرة الحضارة الإنسانية:

وكان وعدًا على رهان العربية التي غادرت وكرها البدوي والريفي والصحراوي أن تتقاطع وتتعانق مع لغات حضارية راقية، فعملت على أن تحوّيها وتتآلف معها ومع متكلميها إراديًا، وتتجاوب مع حنينهم وتطلعاتهم، بدل أن تتصارع معها أو تُقْصِيها، مما سهّل لها استيعاب كل الحضارات والثقافات الإنسانية من أقصى آسيا شرقًا إلى أقصى أروبا جنوبًا في ظرف قياسي، لولا صحته والدلالة الحية عليه، لعُدَّ من رجم الغيب ونسج الخيال، ولم تقف مشدوهة أمام ما ترجم إليها من ثقافات متقدمة عريقة وتنوع، بل استوعبت النصوص المترجمة إليها من مختلف اللغات العربية والشرقية، فهضمته، ووسّعته، ورقّتهُ، ونقّحته بزيادات شهدت به الحضارة الحديثة، بل أمست القنطرة الرابطة بين ثقافة توارت أو كادت وثقافة أخرى ولدت، وهي بهذا تستحق أن تكون شبه ذاكرة حضارية جماعية للإنسانية كلها جمعاء، علمًا بأن أحدًا لم يتَبَنَّها بقوة خارجية قاهرة، بل كما ذكر بارتولد (مستشرق روسي) أن انتشار اللغة العربية في الأقوام غير الإسلامية أمر « لا ترغب فيه الحكومة كثيراً، فَمُنع تَكلُّمُ النصارى اللغة العربية، وتعَلُّم أولادهم في مدارس المسلمين، ورغم هذه الحال صار الإسلام دينًا رغب فيه أكثر الشعب، واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها، ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدّمة في ساحة الفكر تقدمًا واضحًا »(4).

1 – ينظر تطور النقود العربية الإسلامية، ص: 22 محمد باقر الحسيني.
2 – انظر تاريخ الشعوب الإسلامية، 1/ص: 162 كارل بروكلمان.
3 – ينظر تعريب النقود والدواوين، ص: 106 د.حسّان علي حلاق.
4 – تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 78–79.

5-6 العربية ورهانها العلمي المتجدّد:

ومنذ عهد العربية المتقدم لم تجتزئ بالتعبير والدلالة على أصول اللغة والفقه والتفسير والمصطلحات الفلسفية والكلامية والأدبية والنقدية والفنية والجمالية،... وما إلى ذلك من مصطلحات إدارية وقضائية وبريدية،... بل تعدّت ذلك إلى حقول علمية صرفة مثل التشريح والأمراض والأدواء والأدويةالمفردة (نباتية أو معدنية أو حيوانية)، والأدوية المركبة، وأوزان الأطباء، ومكاييلهم، ومصطلحات الكيمياء، والحساب والعيارات وأنواع من الصناعة وعلم الجيل (الميكانيكا)،... علمًا بأن العربية كانت مهيّأة قبل الإسلام إلى قدرتها للتعبير دون وهن ولا عجز على ما عبّرت به وعنه، نقول هذا حتى لا يفهم منا أن عربية ما قبل الإسلام كانت «عربية راكدة أو في مأمنٍ من أي تحول دلالي في دالّ بعينه، فعربية ما قبل الإسلام كانت أكثر حرية وحركة من عربية ما بعده، لم تكن مقيدة بكتاب، ولا سنة، ولا شريعة، ولا إدارة، ولا قضايا علمية منضبطة انضباطا، ومقعَّدة تقعيدًا،... ولكنّ مجال تحركها وتحرّرها كان مجالاً أضيف في جاهليتها منه في إسلامها... إن عربية ما قبل الإسلام ظلت تلتزم بتحولها الدلالي المذهل والمحيّر من مدلول إلى مدلول تعبيرا بدالّ واحد...»، ومصطلحات الآبار والمياه التي كان يتداولها العربي تداولاً حيا ملموسًا تقفك على عجب عجاب، لا أحسب أن مصطلحات السقي وحفر الآبار ومداواة المساه وما إليها من أدوات ميكانيكية تشمل عليها احدث لغة حية في هذا المجال الّذي يحتاج فقط إلى الاستعمال.

وإذا أردت أن ترثي راهن اللغة العربية التي آلت إلى الانكسار والانتحار، وهي تعيش العقد الأول من الألفية الثالثة، وألفيتها السابعة تاريخيًا، فَحَسْبُك أن تتصفح بعضًا من كتب «خلق الإنسان» و»خلق الحيوان» ونماذج من كتب «الفرق»، وهي كتب ظهرت في القرن الثاني الهجري!،... لتفقد صوابك ذهولاً وجنونًا كيف أن هذه اللغة غير معمّم استعمالها عَرْبَبِيًّا إداريًا وجامعيًا، ومخبريًا، وصناعيًا، وحتى دبلوماسيًا؟!

5-7 الحرف العربي وتأثيره في لغات عالمية:

ومما هو غريب حقًا أن عربًا دعوا في فترة من الفترات إلى كتابة العربية بحروف لاتينيّة، ولئن فشلت دعواهم فشلاً ذريعًا وتلقائيًا من كل الفئات الشعبية على مستوى الوطن العربي، مثلما أخفقت صيحاتهم إلى استعمال العامية مكان الفصحى تأثراً بما حدث للغات الأروبية التي انقسمت على نفسها إلى لهجات ما لبث أن تطور كل منها لاحقًا في بلد أوروبي على حدة إلى لغة أدبية وعلى أنحاء مختلفة فيما بينها، فإن طوائف وطنية محلية في بعض البلاد العربية تدعو إلى رسم لغتها المحلية التي يختزن قاموسها اللغوي أكثر من خمسين في المائة من

الكلمات العربية، بالرسم اللاتيني، ولكن عناصر ثقافية وطنية من ذات اللغة والمحل تعارض بقوة هذه الأطروحة ذات الجذور الاستعمارية لأغراض لا تحتاج إلى بيان.

إن اللغة العربية أثَّرت في سبع وثلاثين لغة اتّخذت حروفها، رغم تباين هذه اللغة سلالة وفضاء وأعراقًا(1)، بل الشركة التوراة البريطانية والأجنبية التي مركزها في لندرة، طبعت الإنجيل في جميع تلك الألسن بالحروف العربية »(2)، وأكثر هذه السبع والثلاثين اقتباسًا « للكلمات العربية هي الإيرانية والتركية والهندستانية وأشباهها، فإن قاموس كل منها حافل بآلاف من ألفاظ لغتنا، بحيث لا يكاد يمكن العثور على جملة طويلة في تلك الألسن لا تحوي عدة عناصر عربية »(3)، ولنا أن نعرف بضع مائات من الكلمات التي دخلت أكثر لغات أوروبة البالغ عددها ثلاثة وسبعين على الأقل، وهذه اللغات نفسها تقرّبها، ولا يكاد يعرفها إلا فَقْلَغيُّو (فقهاء اللغة) هذه اللغات، لأن عناصر منها تشوهت تشوهًا بعيدًا عن أصلها العربي، ويبلغ هذا التشوه الصوتي درجة متفاوتة بين كل لغة وأخرى، بسبب تباين رجوع هذه اللغات إلى أرومات مختلفة.

5-8 العولمة الفضائية للعربية القديمة:

وإذا سلّمنا تاريخيا بأن العربية القديمة مرتبطة بلغة بدو الآراميين التي تفرعت إلى بابلية وآرامية وسبئية إلى جانب لغات عرب الحجاز بما في ذلك لغة صدر الإسلام(4)، فإن هذه اللغة (الآرامية) صارت حول سنة 500ق.م اللغة الرسمية في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، بل جعل الفرس هذه اللغة لغة دبلوماسية لهم(5)، لأن بعض فقهاء اللغة يقدر مساحة البلاد الناطقة بالآرمية في المدة المحصورة بين سنتي 300ق.م و650 بعد الميلاد بحوالي ستمائة ألف كيلو متر مربع(6)، وهذا عين ما ذهب إليه رينان المتحامل على العربية وأخواتها الساميات من أن الآرمية في القرن السادس قبل الميلاد طمست كل اللغات التي كانت قبلها، وأصبحت وحدها اللغة الأولى خلال أحد عشر قرنًا(7)، وكانت على عهد السلوفيين سائدة في سورية وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب(8).

---

1 – راجع غرائب اللغة العربية، ص: 124 الأب نخلة اليسوعي.

2 – نفسه، ص: 124.

3 – نفسه، ص: 126.

4 – العرب قبل الإسلام، ص: 85، جرجي زيدان.

5 – غرائب اللغة العربية، ص: 170.

6 – فقه اللغة، ص: 51 صبحي الصالح.

7 – فقه اللغة المقارن، ص: 247 إبراهيم السامرائي.

8 – فقه اللغة المقارن، ص: 247.

وبناء على الإشارة السابقة، فإنه مما يبدو «أن وجود الآرامية في هذه الأنحاء الشاسعة من الأمصار لم يكن مرتبطًا بوجود الآرميين أنفسهم، ولكنه يدل على تفاعل سابق بين أهلها ومن اتخذوها لغتهم الرسمية، والأدلة الحديثة نفسها تؤيد هذا، فوجود الفرنسية في بلد ما من العالم اليوم لا يدل على وجود الفرنسيين أنفسهم،... كما يدل في الآن ذاته على مدى تأثير هذه اللغة في جميع بلاد الشرق الأدنى القديم، بما في ذلك الدول ذات الحضارات الخالدة كالشعب الساساني، ولكنها كانت منتشرة في البوادي بقدر ما كانت سائدة في المدن والقرى والبلاطات والسقارات[1]، ومن أجل انتشارها بين البوادي الآراميين، أطلق على من كان يسكن بالحضر من الآراميين اسم الآراميين، وعلى من كان يقطن بالبادية منهم اسم «بدو الآراميين»[2].

5-9 ثراء اللغة العربية وتفاعلها:

وإذا كانت إحدى سنن أية لغة أن تأخذ وتعطي، والعربية ليست بدعا من ذلك، وأن الفقلغيين المقارنين يرجّحون دخول ثلاثة آلاف كلمة أجنبية في اللغة العربية، فإن هذا الدخيل من الكلمات التي تعود مائات منها إلى لغات سامية -أي عربية أصلا أو نسبًا- فإن قواميس اللغة العربية أثرى وأغنى من هذا العدد الدخيل الضائع لكسيكيًا وسط ملايين من التراكيب، وعشرات الآلاف من الكلمات المفردة، فهذا الصحاح «يضم أربعين ألف مادة، والقاموس ستين ألف مادة، والتكلمة ستين ألفًا، واللسان ثمانين ألفًا، والتاج عشرين ومائة ألف مادة»[3]، ولكن لا أحد من نوابغ العرب يحتاج في استعماله إلى أكثر من بضعة ألوف أو آلاف، فعباس محمود العقاد الّذي ألّف أكثر من ستين كتابًا في مختلف الفنون والعلوم الإنسانية والآداب والسير... لم يستعمل أكثر من عشرة آلاف من الكلمات[4].

ونجد الأب رفئيل نخلة اليسوعي العالم الجليل الّذي كانت له صولات وجولات مقارنة بين العربية وغيرها من اللغات العالمية القديمة يُنحي باللائمة على ورثاء لسان العرب المعاصرين الّذين أبدو نفورًا مفرطًا من إغناء العربية باقتباس الكلمات الناقصة فيها من لغات الحجم مشيدًا بالغربيّين الّذين لا يتحرجون في استيراد كلمات وإدخالها في قواميسهم الناقصة منها «أما نحن فقد خفنا خوفًا غير معقول من تشويه لغتنا باقتباسهما، فسمّينا التلغراف برقًا، والتلفون هاتفًا، وهما إسمان مبهمان لا يدلّان على المعنيين المقصودين دلالة واضحة فعسى أن نقتدي برحابة عقل العرب الأقدمين وبغيرتهم الفطنة على لغتهم، فنغنيها، كما فعلوا، بآلاف كلمات أعجمية نفرغها على مثالهم في قوالب، لصيغ العربية بقدر الإمكان»[5].

---

1 – الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة، ص: 34 (رسالة ماجستير 1982 جامعة الجزائر).

2 – راجع مولد اللغة، ص: 43 أحمد رضا.

3 – مقدمة الصحاح، ص: 23–24 أحمد عبد الغفور عطار.

4 – السابق، ص: 25.

5 – غرائب اللغة العربية، ص: 286.

وإذا كنا نفضل ألا ندخل في لَجاجة مع هذا الباحث الكبير بشأن الترجمة والتعريب هنا، وهذا موضوع آخر، فإن الإشكال عندنا نحن معاشر اللسان العربي لا يكمن، في تقديري، في اختلاف القوم بين ترجمة وتعريب، حتى وإن كنت أفضل التعريب قبل الترجمة، بل في انعدام الممارسة الحية، والاستعمال لمثل هذه الكلمات التي يصعب على أحد أن يجزم تعسّفا بأنها ناقصة من قواميسنا أو منعدمة فيها، قد تكون ناقصة أو منعدمة فيها دوالّ لا مداليل، لكن من ذا الذي يغوص في أحشائها ليصيد منها هذه الدّرر من المداليل؟ ما الّذي منعنا من الوضع أو النحت أو القياس أو الاشتقاق أو التعريب ثم الترجمة؟ إن الّذي حرمنا من ذلك فعلا التعبير بعربية لا قديمة كل القدم، ولا حديثة كل الحداثة، عمّا يخترع، ويبدع حولنا من مسميات ومواليد جديدة في كل لحظة من حياتنا، وإذا ما قدّر للمعايير اللسانية الداخلية أن تعجز كلها، فلا أحد يقف دوننا لجوءًا إلى معايير لسانية خارجية للتعامل مع كل كلمة يحتاج لها استعمالنا الضروري لها، ولا أحد يمنعنا أيضا لإخضاعها إلى نواميس اللغة العربية وأصولها وذوق المتكلم العربي فيها.

وإلا، فإن اللغة بقدر ما هي متساوية مع نفسها تساويًا لا يعلو ولا يسفل عنها، فهي لا تُمانِعُ تحت وطأة التسيب والإهمال والهجر،... من أصحابها المحسوبين عليها، من أن تتباين تباينًا أو تتقلص ضآلة تبعًا لاستعمالات أصحابها الضنينة، فيضطر أصحابها إلى اقتراض استعمالات، واستعارة كلمات، ومصيبة اللغة لا تكمن في اقتباس وحدات لغوية أجنبية، بل في استعمالات بعينها حتى لو تضاربت قاعديًا مع أصول اللغة المُقْتَرِضَة.

عمُومًا، ليست هنا كلغة محصّنة من دخول الدخيل فيها، فما دخل لغتنا العربية من كلمات أعجمية لم تصنف العربية بها لا يتعدى مداليل مادية أكثر منها تجريدية أو معنوية أو مجازية، وهو ما كان ينعدم فيها لانعدام عناصر ثقافية وحضارية، فكرية، فالعربي كان يعيش على البداهة والفطرة، وما إن جاء الإسلام، واتسعت الفتوحات واختلط بالأعاجم، حتى وجد نفسه مضطرًا إلى نقل مظاهر حضارية لم يكن له بها عهد في جاهليته، غير أن تلك الكلمات لا تتجاوز حصاة في المحيط الهادي.

وهناك لغات إذا جرّدتها مما غزا وعاءها الأصيل من كلمات أجنبية سُحقت سحقًا من الوجود، مما يدل على هشاشة ثقافة وأصالة أصحابها، فاللغة الألبانية مثلاً لا يوجد فيها إلا 430 كلمة من الكلمات المشتقة من الوعاء الأصيل لها، وأما الكلمات القاموسية الباقية، وعددها 4710، فكلها كلمات دخيلة مقترضة من لغات أخرى، واللغة الكورية التي تفتخر اليوم بكوْرَنتها، وهو افتخار تُحْسد عليه، اقتبست ما يقرب من 75% من جارتها الصينية، واللغة الانجليزية التي صارت معظم ألسنة العالم تلوكها وتجترّ مخزون ذرات كلماتها ليست أصيلة إلا قليلاً في وعائها، إذا اقتبست ما بين 55 و75% من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية(1).

1 – راجع الأصوات والإشارات، ص: 92 أ. كندراتوف.

5-10 العربية تكسب رهانها عولميًا :

ويمكن القول إن اللغة العربية تعَوْلمت دراسة وتعلّما وبحثًا مخبريًا وأدبيًا ولسانيًا وإنسانيا، تعولُما قديمًا وَقَروسطيا ونهضويًا بين غير العرب، إذ بعد سقوط بغداد مشرقا وأفول نجم العرب جنوب أروبا غربًا، ولربما قبل ذلك، التفت الغربيون، وعلى رأسهم علما، الكنيسة، إلى الاعتناء باللغة العربية لأسباب خارجية بيّنة، وما تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية في طليطلة عام 1250م على أنقاض سقوطها عام 1085م إلا رغبة من الإسبان لتدريس اللغة العربية لترجمة المعارف العربية وسائر العلوم التي بحوزتها، ومن أجل الهدف ذاته قرّر مجمع فيينّا الدّينيّ أن يؤسّس كرسيّين على الأقل لتعلم لغات سامية، ومنها العربية في جامعات روما، وبولونيا، وباريس، وإكسفورد، وسلاسكا[1]، وما انتخاب JELBERT DE ORIAC (1003-933)حبرا أعظم كأول بابا فرنسي باسم سلفسترا الثاني إلا لكونه يتقن اللغة العربية وعلوما عربية أخرى، بل كان أوّل من بثّ الأعداد العربية في أوروبة فضلا عمّا له من دراسة بالعربية ككتاب إقليدس[2]، ومنهم أيضًا قسطنطين الإفريقي (1087) وأدلرد أوف باث BATH الذي كان يفتخر بما تعلمه ممن وصفهم بأساتذته العرب على بعض خريجي الجامعات الإفرنجية، وروبرت أوف تشستر الّذي نهض بأول ترجمة للقرآن العربية إلى اللاتينية مستعينًا بثلاثة آخرين[3] مند عام 1143م.

ومنذ عام 1609 نصح يعقوب كريستمان (1613) الذي تعلم العربية من كتاب النحو العربي لبوستل بإنشاء كرسيّ للغة العربية بجامعة هايد لبرج، ولما جاء سكاليجر الّذي يعد صاحب أول منهج استشراقي علمي خالف الرؤى السابقة القائلة بأن من يعرف العبرية يسهل عليه البدء في تعلم العربية موضحًا لمن خالفهم أن التعمق في العربية يحتاج إلى وسائل أخرى.

وزادت العربية انتشارا، وتراثها توسعًا وتعميمًا في أوروبة كلها، بفضل ظهور أول مطبعة عربية (سنة 1580) طبع فيها بادئ ذي بدء الكافية لابن الحاجب، والآجرومية لابن آجروم، إلى جانب مخطوطات عربية أخرى، ولّما ينقض القرن السادس عشر [4].

ولعلنا لسنا في حاجة إلى المزيد من سرد الحقائق العلمية لهذه اللغة في الفضاء الأوروبي بأكمله، ولكنّ ما نحن بحاجة إليه أكثر أن نشير إلى أن اللغة العربية ما خبا نجمها بعد خبوّ سلطان أقوامها إلا ليسطع سطوعا مشرقًا ظلت أوروبة تستنير به قرونا من الزمن، حيث أقبل عليها القوم يتعلمونها، ويعلّمونها، ويؤلّفون ويبدعون بها، ومنهم من أولع بها وَلُوعًا لا يُصَدّق، ولكنه

1 - ينظر في رحاب اللغة العربية، ص: 180-181.

2 - نفسه، ص: 181.

3 - نفسه، ص: 181.

4 - مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 40 ج: 2/ص: 383-384 عام 1965.

لا يكاد يوصف، ومنهم الشاب يوهان يعقوب رايسكه (1774) الّذي دخل حرم مكتبة ليدن وفهرس مخطوطاتها، وواظب على خدمة هذه اللغة خدمات ممتزجة بحب وشغف وإخلاص، ومهما أضفينا عليه من أوصاف، فإنها لا ترقى إلى ما وصفه به أحد أبناء وطنه (يوهان فوك) : « وأخذه شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلّم اللغة العربية، لم يَدر الشاب ما سببه، وعندما ابتدأ بدراسته في جامعة لا يبزج عام 1733 اختار مواضيع تحصيله مستبدّا برأيه، وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير، وتوفق في درس النحو العربي دون الأخذ بمعونة أي معلم ما مستندًا على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط، وسعى أن يشتري كل ما وجد إذ ذاك في أوروبة من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة إلى ضروريات الحياة »[1].

علما بأن هذا العالم الشاب الّذي أتى على مطالعة كل ما كان موجودًا من الآثار العربية المطبوعة منذ عام 1736 ولمَّا يناهز العشرين، قال قولته الفصل: « إن أراد المرء أن يساعد على رواج دراسة العربية فعليه أن لا يدرسها كلاَهُوتيٍّ »[2] رادًا بذلك على من كانوا يشترطون دراسة العبرية مدخلاً لدراسة اللغة العربية، وفاصلا مرة واحدة بين اللغة كعلم لساني من جهة، وما تعبّر عنه من قضايا فلسفية ولا هوتية من جهة أخرى.

وأما رايسكه فيرى أن دراسة لغة سامية غير العربية لم يجلب له ثمارًا إضافية عما هو موجود في العربية، ولما كتب أحد المستشرقين (شولتنس) مقدمة لكتاب النحو العربي الّذي ألّفه أربنيوس عام 1613، اعترض الشاب رايسكه على طريقة تلك المقدمة قائلا: « لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة في كتاب يبحث عن النحو العربي »[3].

وبإلقاء نظرة جغرافية شاملة على العالم القديم الّذي عزز باكتشاف ملحقه الجديد، فإن العربية تموقعت أول ما تموقعت في الوطن العربي التقليدي، وضربت بجرانها في حواضره وأريافه ساعدها ذلك الإقبال الجارف ممن اعتنقوا الإسلام دينًا، أو ممن تعلموها لغة وظيفية خارج هذا الدين، فأسندت إليهم أرقى المناصب العليا في دواليب الدولة العربية الإسلامية، وفَضّلوا على شخصيات تتقنها سليقة، وتعتنق الدين الجديد.

عليك أن تمدّ بصرك على أطالس العالم لتراها في آسية كالهند، وإيران ابتداء من القرن السابع الميلادي، وبالوتشستان في القرن الثامن الميلادي، وتركستان ابتداء من القرن التاسع، ثم أفغانستان التي انتحل أهاليها الإسلام في العصر ذاته، . . . وإذا بها تتوسع وتتمدد في مناطق وجزر نائية أخرى بخطها وألوف من كلماتها، وشدّ عضدها شدًا محكمًا في وقت امَّحَتْ فيه الهيمنة العربية كليًا أو

1 – مجلة فكر وفن، ص: 45.

2 – مجلة فكر وفن، ص: 47.

3 – نفسه، ص: 52.

جزئيًا، التّتر الذين انتحل الأتراك منهم الإسلام، والذين فتحوا مدنًا روسية مهمة منذ عام 1226م، وظلوا مستولين عليها إلى سنة 1380م، . . . وكل لغة من هذه اللغات التي تجاورت الثلاثين كانت تكتب بحظ محلّي ما، ولكنها فضّلت الخط العربي لرسم لغاتها ولهجاتها، وهي تعلم سلفًا أن الحروف العربية لا تستوعب صوتيًا كل متطلبات تلك اللغات، ولكنهم رضوا بها، وأضافوا إليها ما ينقصها من رسوم تترجم النطق المعتاد لأصواتهم الناقصة في الحروف العربية.

هل يمكن القول، ودون مسحة رومانسية، إن اللغة العربية كسبت رهان العولمة اللسانية القديمة؟ لعل ما ألمحنا إليه لا يشكل إلا أمثلة مبتورة ومبعثرة، ولكن ما وقفنا عليه يدفعنا أن نميل إلى القول، وبكل اطمئنان، إن اللغة العربية كسبت فعلاً رهان العولمة القديمة التي تأسّست على تراثها وأصالتها وجذورها هذه العولمة الجديدة ولئن كانت العولمة الجديدة موجّهة ومسيَّسة ووجبات مطبوخة على قدّ الذوق والمقاس اللّذين ترغب فيهما الدول المسمّاة كبرى، فإن العولمة التي قادتها اللغة العربية قرونًا من الزمن من أقصى آسيا شرقًا إلى غرب أوروبا جنوبًا لم تكن قاهرة ولا مجبرة إقليمًا أو شعبًا لاتخاذها لغة أو تبني خطها رسمًا.

إن اللغة العربية ظلت صامدة تقاوم الزمن، وأصحابها أموات أو أشباه أحياء، إذا استثنينا المتون والمنظومات التي حلّت محل غياب عملية الإبداع والخلق والتجديد، وبعد نهوضهم من كبوة طال سباتها وجدت نفسها ثابتة في قمتها، وأَلْفَوْا أنفسهم بعيدًا عنها في الحضيض يتراطنون برطانات هجينة وغريبة عن العربية الطبيعية التي سبق لها أن كسبت رهانها مع كل اللغات والثقافات والحضارات التي تلاقحت معها بقوة لسانية أو طيبة خاطر، حتى أصبح البغدادي لا يفهم المراكشي، والخليجي لا يفهم الشامي، إلا إذا انتقل كل واحد من هؤلاء عن طبعه المحلي الهجين، وإلا احتاجوا –فيما يتواصلون به إلى مترجمين ماهرين لم يُنْجبوا بَعْدُ.

أشرنا إلى ما أشرنا، لأنه في الوقت الّذي اختفت فيه اللغة اللاتينية كلغة شعب وتواصل عام، لتسقط نهائيًا وإلى الأبد بين الأباطرة إبان القرن الثامن عشر؛ أي بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية بثلاثة عشر قرنًا كانت اللغة العربية سائدة في هذه الفترة، ولئن لم تكن لغة دولية بشكل عَلَنيّ، فإنها لم تكن تعدم ذلك ضمنيًا، لأن كتابة المعاهدات السياسية والمعاملات التجارية ذات طابع دولي، وامتد كما أومأنا، نطاق استعمالها « حتى شمل مناطق شاسعة من الفلبين إلى المحيط الأطلسي، ومن آسيا الوسطى إلى أواسط إفريقيا، وأفادت اللغة العربية الشعراء والعلماء والمحاربين والتجار فائدة جمّة، إذ كانت هي اللغة اللاتينيّة بالنسبة لغرب آسيا وإفريقيا، وانحسرت سيادة اللغة العربية كلغة عالمية نتيجة نموّ الوعي القومي ونشوء الأمم، إن لاتينية أوروبا، و »لاتينية « آسيا وإفريقيا ذبلتا كلغتين عالميتين في نفس الفترة التاريخية ولنفس الأسباب، وهي أسباب اجتماعية، وليست لغوية »(1).

1 – الأصوات والإشارات، ص: 139.

6 – عولمة المداليل اللسانية:

6-1 نتعلم لسانًا محلّيًا أو كونيًا؟

سبق أن ألمحنا عرضًا فيما مضى، ونحن نتحدث عن شمولية اللسان البشري، إلى أن نظرية لسانية لا تُماحك نظيرة لها، بأن الوظيفة الأساس للغة هي التبليغ والتواصل في قوالب تحتية تكاد تكون مشتركة بين معظم التخاطبات البشرية المتشابهة في أغراضها وكوامنها وأوامرها ونواهيها وتطلعاتها، وأفراحها وأتراحها، وطموحاتها وغرائزها، . . . بيد أن كل لغة من هذه اللغات تختلف عن نظيرتها في أداء ذلك جميعًا بطرائقها التي تلتصق بها، واختلاف الألسنة يبرز من هنا، لا فيما تعبر عنه، فاختلاف الألسنة مثل اختلاف ألوان الناس، أي الألوان لا تعبر عن الإنسان، فالّذي يعبّر عنه ما يجمع ذوي الألوان المختلفة من إنسانية واحدة، أي المداليل الكونية تكاد تكون مشتركة، لكن أداءها متباين بتباين الأصوات من حيث كثرتها أو قلتها، بل هي متعددة ومتباينة إلى ما لا نهاية.

إننا نتعلم لسانًا كونيًا يشمل كل العلامات الممكنة مع فروق طفيفة، فالمخترعون العباقرة، والأدباء الفطاحل كان بإمكانهم أن يخترعوا ما اخترعوا ويبدعوا ما أبدعوا، حتى لو كانوا يتكلمون لغة غير اللغة التي تم بها اختراعهم بإبداعهم، وذلك بسبب أن «ظاهرة بعينها من ظواهر العالم تتخذ لها اللغات المختلفة مسميات مختلفة. . . فاللغة الروسية مثلها في ذلك مثل اللغة العربية، تتضمن كلمتين مختلفتين للدلالة على «أخ» و«أخت» ولكن لغة المجر لا تمايز بينهما. . . وتجمع لغة أهل الملايو بين الإخوة والأخوات تحت اسم شامل هو «سودارا». . . تدلّ الأسماء عادة على أشياء، وتدل الأفعال على أحداث تقع في الزمن، وهذه قسمة مشتركة بين اللغة الروسية والفرنسية والألمانية والانجليزية ولغات أخرى كثيرة، ونحن نسير على منوال أكثر سكان أوروبة إذ تقسّم العالم إلى مجالين: أشياء وأفعال، بيد أنّ هذه القسمة هي خاصية تتميز بها لغتنا، وليس العالم المحيط بنا، ذلك لأن العالم في حالة من الحركة الأبدية والصيرورة والتغير»(1).

ثم إننا لماذا نعتبر كلمات مثل «قلم» و«مداد» و«ورقة» و«حرف» و«خط» و«بنت» و«أخ»، . . . تمثل أشياء لا أحداثًا؟ لا جواب لأحد يقنعك به خارج المتافيزيقيا، وكل ما في الأمر أن ما نستفسر عنه لا يعدو أن يكون الطريقة التي صنفت بها لغتنا العالمية التحتية، لكن هل بإمكان أحد اليوم أو غدًا أن يُوهَبَ الجرأة أو السلطة القاهرة على تصنيف العالم تصنيفا على نحو مختلف؟ قد يكون الأمر سهلاً للإقدام على ذلك، ولكن ما من أحد يعتنق تصنيفك الجديد،

---

1 – الأصوات والإشارات، ص: 62 – 63.

لأن العالم لا يتغير، إن تغير، إلا بنفسه، وليس من غيره، حتى وإن وجدنا « اللغات المتباينة تعكس العالم الّذي حولنا على نحو مختلف، بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميّزة، وهذه حقائق أكدها علم اللغة، ولا سبيل إلى دحضها، بيد أن الحقائق يمكن تأويلها بطرق متباينة »(1).

يحدث هذا، لأن كل لغة ولها ميتافيزيقيتها الخاصة على نحو باطني يتجلّى في أصحاب اللغة الطبيعيين دون أن تكون لهم القدرة أو حتى التساؤل بشأنه، وهم يتواصلون « إن الناس لا يعيشون فقط في نطاق عالم الأشياء الّذي يحيط بهم، وفي نطاق عالم الحياة الاجتماعية، بل يعيشون أيضًا في نطاق عالم لغة الأم، إنّنا نبني العالم الّذي يحيط بنا وفق « عالم اللغة »، وفي كل لغة، على تعبيره هو، تتضمن بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكام مسبقة ضد وجهات نظر أخرى »(2).

وإذا كان قول اللساني الأمريكي (ورف WHORF) السابق من أنصار الفرضية التي تتصور أن اللغة ذات علاقة سببية CAUSALE صحبة نظام يصوّر لنا العالم، فإن دي سوسور يذهب إلى أن الدالّ الّذي نضفيه على الأشياء أو المسميات ليس حرّ الاختيار بالنظر إلى الفكرة التي سبق أن جسّدها، أي الدال مفروض علينا فرضًا آليًا بالنظر إلى المجموعة اللغوية التي تمثله، حتى وإن كانت هذه الأخيرة لا يمكن لها أن تمارس سيادتها على كلمة واحدة بسبب أنها متعلقة باللغة بما هي عليه، أو لأن الأمور حدثت بهذا النمط وليس بسواه « وحالة لغة ماهي دائمًا نتاج عوامل تاريخية، وهذه العوامل نفسها هي التي تفسر ثبات العلامة، ونعني بذلك مقاومتها لكل تبدّل اعتباطي »(3)، حتى وإن صرّح الرجل يصرّح بأن التفكير لا أثر له في ممارسة لغة ما، طالما أن أفرادها لا يشعرون إلى حد بعيد بقوانينها فإنه يعترف، مع ذلك، بأن المنظومة اللغوية آلية معقدة، ولا يمكن إدراكها بغير التفكير(4).

وإشارة دي سوسور أعلاه تكاد تتفق مع ما حدث في لسانياتنا العربية القديمة، حيث نبغ فيها الأعاجم نبوغًا فاق أصحابها السليقيين في التقعيد والتأليف، لأن هؤلاء العلماء المتعربين كان شعورهم باللغة العربية أكثر حضورًا وتماثلاً منه لدى العلماء الأصلاء في هذه اللغة جبلّة.

1 – الأصوات والإشارات، ص: 65.

2 – نفسه، ص: 66.

3 – محاضرات في الألسنية العامة، ص: 93–94.

4 – نفسه، ص: 95.

واللساني دي سوسور لا يقرّ بحرية اللغة، لأنه لا يكفي في حسبانه أن تكتفي بقول مثل «إنها نتاج للقوى الاجتماعية، بل ينبغي أن نزيد على ذلك أن هذه القوى الاجتماعية تعمل بفعل الزمن وتبعًا له، متذكّرين أنها دائما إرث لهم سابق»(1) ذاهبا، فيما ذهب إليه، إلى أن تضامن أصحابها مع الماضي يجعل حرية أي اختيار تفشل دائما «ومن يزعم تأليف لغة ثانية يأخذ خلفه بها، فإنما يشبه الدجاجة التي تُرْخم على بيضة بطة، فاللغة التي يخلقها ستذهب طوعًا أو كرهًا بالتيار الّذي يجرف اللغات كافة»(2).

وأما العلامة همبولدت HUMBOLDT فكان يرى أن لغتنا هي التعبير عن الشكل الّذي بمقتضاه يرى الفرد العالم ثم ينقله إلى داخل نفسه مؤكّدا على المظهر الاجتماعي للغة التي تعكس عادات الفكر الجارية للشعب الّذي يتكلمها، ومن ثم فإن اللغة شرط لا مناص منه لرؤية العالم من قبل الناس الّذين يستعملونها، وهذه الرؤية تمثل الشكل الداخلي للغة، وأما البنية الصوتية والسانتكسية فليست أكثر من شكل خارجي لها، بل كان ممن أكّد على أن اللغة ضرب من الملكة الفطرية أو قوة «داخلية خاصة بالفكر الإنساني حتى وإن كان الإنسان عاجزًا على سبر أغوارها بسبب أن الإنسان واللغة قد خلقًا معًا مؤيّدا ما ذهب إليه نظيراه الألمانيان فرانزبوب وشليغل من أن الإنسان البدائي دفعته طاقته الفطرية العجيبة الخلاقّة إلى إبداع اللغة دفعة واحدة»(3).

وكان اللغوي الأمريكي إيوارد سابير يرى أن «ثمت قسمات صوتية متمايزة تنتشر على نطاق مساحات واسعة من العالم بغض النظر عن مفردات اللغات المختلفة وأبنيتها»(4)، غير أن كل لغة «تستخلص لنفسها من بين العناصر الصوتية الأصوات التي تحتاج إليها في بناء نسقها من الفونيمات، ونجد أقلّ عدد من الفونيمات في لغات بولينيزيا ولغات من أستراليا الأصليّين، إذ يتراوح عددها ما بين 12 و15 فونيمة، وتشتمل لغة هاوَاي على سبعة أصوات ساكنة فقط وخمسة أصوات متحركة، وتشمل اللغة الروسية على خمسة أصوات متحركة و35 صوتًا ساكنًا، وتتضمن بعض اللغات القوقازية عددا قياسيًا من الفونيمات يزيد على سبعين فونيمة»(5).

ومما أدهش العلماء أن وجود آلاف من الأنساق الفونولوجية تتخلّلها قسمات صوتية متمايزة منتشرة عبر مساحات شاسعة من عالمنا اللغوي بغض النظر عن مفردات اللغة المستعملة وأبنيتها، وتوصّلوا إلى أن اثني عشر عاملاً يكفي لبيان الفروق بين عشرة آلاف فونيمة، أي ثمت اثنا عشر زوجًا من الفوارق أو عوامل التمايز تشترك فيها كل لغات العالم(6).

1 – محاضرات في الألسنية العامة، ص: 96.

2 – نفسه، ص: 99.

3 – ينظر التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص: 114=116.

4 – الأصوات والإشارات، ص: 188.

5 – الأصوات والإشارات، ص: 187.

6 – يراجع المرجع السابق، ص: 188–189.

2-6 العربية والعولمة:

وقد يتساءل متتبع هذا العمل عن علاقة ما أثرناه هنا وفي بدايته عما يسمى باللغة الكلية أو المشتركة في أشيائها ومسمياتها العامة بين الناس، وتساؤله خَامَرنا، ونحن نعرّج على هذه النقطة، إلى درجة أننا كثيرًا ما بقينا نجول بفكرنا في مثل هذه القضايا الشائكة دون أن نجرؤ على تدوينها، وبعد تردّد طويل، رجح يقيننا على شكّنا، وإقدامنا على تردّدنا، ورأينا أن إثارة كل ما يتعلق بالعولمة اللسانية الطبيعية لا يعدّ غريبًا ولا انحرافا عن اللغة العربية ورُهُنها أمام موجة العولمة الشرهة التي بدأت، وخاصة منذ نهاية الثمانينيات، من القرن الماضي، تلتهم الأخضر واليابس، لتتحول مع نهاية هذه العشرية التي تعدّ أسود عشرية في تاريخ البشرية إلى شبح من تلك الأشباح الوهمية التي كانت جداتنا تؤدّب بها المشاكسين منا حتى نستسلم إلى النوم، ودون إزعاج.

يجب ألا نبحث اللغة العربية بمعزل عما يحيط بها، وعما قد تتلاقى فيه كلغة إنسانية فرضت عالميتها الثقافية والعلمية والحضارية ردحًا طويلاً من الزمن، فهي لغة لا تختلف لسانيًا عن أية لغة راهنة اتسع أو تقلّص استعمالها، ولكنها من حيث وظيفتها المادية والروحية، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنها تتميز عن ألوف من هذه اللغات واللهجات لكونها تغطي مساحة أوسع من أية لغة أخرى من حيث تواجدها، لا من حيث كثرة استعمالها.

إن اتحاد الألسنة البشرية في بنياتها التحتية التي تعبر عنها كل لغة ببنية سطحية متباينة لا يغرّنا بالعولمة القول إن لغات تنقرض أو تنكمش، وأخرى تسود بعد فترة وجيزة من الزمن، وربما يسوّل لغير واحد أن يحصر الباقيات الصالحات منها في ست لغات، ومن حسن حظ العربية أنها ستبقى حية ومستعملة بجانب الخمس لغات الأخرى.

ومما قرأته، وأنا أراجع هذا العمل، أن جمعية عالمية أكاديمية تُعْنى بالحفاظ على اللغات والعمل على عدم اندثارها، ذهبت إلى أن «ما بين نصف و90% من لغات العالم قد تندثر بنهاية القرن الحالي»، وقال أحد أعضائها «إنّ الجيل الأخير قد يشهد اندثار معظم لغات القبائل في العالم»، وتسعى هذه الجمعية حاليًا للاحتفاظ بحوالي خمسمائة وألف لغة على الأقل تواصلاً بها مع الأجيال اللاحقة.

وذكرت صحيفة سان فرنسيسكو كرونيكال أن الجمعية ذاتها تضم لغويين عالميين «يتكلمون لغات بلادهم الأصلية، وتعمل تحت إطار «برنامج روزيتا» بالتسيير مع مؤسسة «لونغ نافا وندايشن»، وسوف تحتفظ الجمعية بهذه المعلومات داخل خمس كرات زجاجية» قطر كل كرة سبعة سنتيمترات وزيادة بقليل، بحيث تحتوي على خمسة عشر ألف صفحة دُوِّن فيها معلومات عن اللغات المحتمل انقراضها، وهذه الوسيلة تضمن الحياة لما يزيد عن ألفي عام لهذه اللغات المعرَّضة للاندثار، حسب ما تذهب إليه هذه الجمعية.

3-6 العولمة الثقافية عادلة أم ظالمة؟

والغريب أن الشعوب التي ستتضرّر أكثر من هذا المصطلح الأيقوني الجديد، غدت تبشّر بالعولمة أكثر من صانعي قرارها إما هراء، وإما استسلاما، وإما ضلالاً: «ولا يوجد أي خيار أمام الشعوب بعد أن انهارت السدود، وانمحت الحدود، ومن يقف متردداً أمام بوابة العولمة يُلفظ لفظ النواة، وأبادر إلى القول: إن العولمة ظاهرة إيجابية، وتعدّ خطوة نوعية جديدة في تقدّم المجتمع البشري رغم جوانبها السلبية، ورغم الوعي بأن ضرر النتائج السلبية سيصيب المجتمعات السائرة في طريق النموّ أوّلا بالذات»(1).

وهناك من يعدّ العولمة الإطار المرجعي لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية بعد بروزها خلال عقد التسعينات، وبقدرة قادر تحولت في ظرف قياسي إلى قوة ضاربة، ولا أقول الرئيسة، التي تقود البشرية إلى التنافر، والتناحر، ولربما إلى تكميم الأفواه، ومنع رئاتنا من التنفس، . . . ويبشّر لها باحث آخر بقوله: «وأصبح من الواضح أن معظم التحولات الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية المذهلة والمتسارعة التي يشهدها العالم هي إمّا سبب من أسباب العولمة، أو أنها مجرد نتيجة من نتائجها الضخمة والعميقة، . . . لكن في الوقت الّذي يتجه فيه الكل نحو العولمة، فإن البعض يبدو مندفعًا نحوها بسرعة فائقة، ومن دون تردّد، وبحماس ما بعده حماس، في حين أن البعض الآخر يبدو وكأنه يحبو نحوها ببطء شديد، وبتردّد، وربما يتخوّف، وبخطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء»(2).

إن العولمة الثقافية عوملة استبدادية ففي ثوبها الاستهلاكي الجديد، لا تقوم على التنوع الثقافي إلا كما تقوم على التنوع الاقتصادي، وهما تنوعان غائبان بل منعدمان عندها، ما دامت ترى أن «العولمة الثقافية تعني انتقال تركيز اهتمام ووعي الإنسان من المجال المحلي إلى المجال العالمي، ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي، ففي ظل العولمة الثقافية يزداد الوعي يعالمية العالم وبوحدة البشرية، وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية التي ربما ستحلّ تدريجيا به -وربما المدى البعيد- محلّ الولاءات والانتماءات الوطنية، الإنسانية ستتعوّد النظر إلى ذاتها ككتلة واحدة ذات مصير واحد، وبقاء وفناء واحد، وتشترك مع بعضها البعض في قيم عميقة تتخطى كل الخصوصيات الحضارية والثقافية، ففي ظل العولمة الثقافية يكشف الإنسان بعده العالمي، ويتعرف على هويته الإنسانية أكثر من أي من وقت آخر»(3).

إن نصوصا كثيرة قد حُبِّرت حول ما يسمى بالعولمة، بعضها يتسم بالتشاؤم والنفور، وبعضها الآخر يتصف بالتفاؤل والتبشير، وإذا أردنا أن نكون وسطيين، فإننا لا نسد نوافذنا

---

1 – الحبيب الجنحاني، عالم الفكر، مجلد 28 ع: 2 سنة 1999، ص: 10.

2 – عبد الخالق عبد الله، المرجع السابق، ص: 40.

3 – نفسه، ص: 77.

الوطنية والإقليمية أمام ما يأتينا من أصوات تاريخية، لكن علينا أن نتحفظ تحفّظًا شديدا في الإقدام عليها إقدام الصمّ أو العُمي، سنجد أنفسنا ملزمين بالتعامل معها، غضبنا أم رضينا، لكن دون الارتماء في أحضانها.

إن الشعوب المتخلفة ليس من مصلحتها إذا أرادت أن تحافظ على هويتها وتراثها الفكري والثقافي أن تتحمّس أكثر من مستواها الاقتصادي والتكنولوجي في الإقبال على عالم العولمة الراهنة، وإلا وجدت نفسها ضائعة، ووجودها معرّضا للزوال، ذلك أن العولمة نفسها ستلفظه، لأنها تضيق بكل فئة تشعر بأنها عالة عليها.

إن العولمة واد من أودية جهنم تلتهم ولا تكون بردًا ولا سلامًا على أحد، إنها تقوم على أن تمنحك كلما تضورت جوعًا سمكة، ولكنها لا تعلّمك، ولا تسمح لك بأن تصيد بنفسك، إن العولمة في شكلها الهيمني الراهن تقود العالم إلى هوة مظلمة سحيقة، وإلى ضغائن بين الشعوب والأمم غير المتكافئة، ولن يكون لها خلاص إلا بتوقف الدول المهيمنة المالكة للذرة والمال والاقتصاد والتكنولوجيا والإعلام والفيتو.

لن يسمح عالم الألفية الواحدة والعشرين للعولمة من أن تكون من طرف واحد، على أربابها أن يكونوا إنسانيين إذا أرادوا لعولمتهم أن تكون بردًا وسلامًا على الجميع، على الناس جميعًا أن يتبنّوا العولمة القرآنية ﴿ **يا أيها الناس إنا خلَقْنَاكم من ذَكر وأُنثَى، وجَعلنَاكُم شُعُوبًا وقَبَائل لتَعَارفُوا، إن أَكرَمُكُم عِنْدَ الله أتْقَاكُم** ﴾ هذه هي العولمة المتوازنة الرحيمة العادلة بين شعوب وقبائل، إلى جانب نصوص قرآنية ونبوية أخرى كثيرة تدعو إلى التوحيد بين الناس بغض النظر عن أديانهم وألسنتهم وألوانهم.

6-4 العولمة اللسانية تشابهًا وتباينًا:

إننا فعلا نتوارث قواعد لسانية لا شعورية عبر الأزمنة والأجيال، وهذه القواعد في عمقها الضمني ليست متشابهة، ولكنها ذات قابلية تحتية مشتركة تعبر عن اختلاف بنياتها الصوتية الخارجية، وكان تشومسكي ممن ركّز دائما «على أوجه التشابه الخافية بين لغات العالم بصورة تفوق وجوه الخلاف المكشوفة لنواظرنا، فبرغم كون الأخيرة أوضح ظهورًا، لكنها تتميز بسطحيتها على نقيض التماثلات الأوغل في تسرّبها وانطوائها على الإثارة، والأشد قابلية مع الوقت لأن تلفت الانتباه حال كونها تعزز ما تعتقده بشأن عالمية اللغة»(1).

غير أن مصطلح الشمولية أو العالمية بقدر ما يشير إلى تماثل لساني ضمني ما، يضمر في الآن ذاته معنى الاختلاف، إذ لا يوجد مخلوق يعيش خارج التنوع الّذي يشكل سرّ وجوده

1 – محمد هليل، عالم الفكر، المجل 27 عدد: 01 عام 1998، ص: 147.

المتميز وجوهره، ولذا فإنه في الوقت الّذي «ينهمك عالم اللغويات في سبر غور لغة ما أو عدّة لغات تؤلف عائلة واحدة، بقصداستنباط قواعدها الخاصة، فإن (لايني) يجد سعيا وراء اكتشاف أوجه الشبه الكائنة في خلفية اللغات أو العوائل اللغوية المختلفة، وهذا بالضبط ما يفعله علماء اللغة الجدد حين يعكفون على تحليل العمليات العقلية المتحكمة في لغاتنا المتداولة بحثًا عن القوانين العامة التي يستطاع تطبيقها –كما يأملون– على كل اللغات سواء ما عرف منها أم لم يعرف بعد»(1).

وعلاوة على الاستدلالات المشار إليها آنفًا بشأن العوامل المشتركة بين كل اللغات، فإن ما يستدلّ به اللغويون أيضًا أن جميع اللغات تشترك في فونيمة معينة تؤلّف ما يسمّى العناصر الدنيا للكلام والتي تنشأ عن التركيب الفسيولوجي للفم والحَنْجَرة، ويوردون مقاطع صوتية ساكنة وليّنة مقرّرين أنها مقاطع كونية ودليل من أدلة عموميات اللغة الإنسانية.

5-6 الكونية اللغوية والموسيقية؟

ونجد ليونارد برنشتاين يقيم موازنة بين لغة الموسيقى ونظرية الأصل المشترك وعلم النحو التحويلي، في دراسة ميدانية مثيرة توصل من خلالها، حسَبَهُ، إلى أن أطفالنا يستخدمون في ألعابهم نغمات قليلة بعينها، وأنها متطابقة في ألحانها في جميع القارّات والحضارات «بل وفي أية بقعة من العالم يوجد بها أطفال يتهاوشو، لحنيًا، الأمر الّذي يدعو للاعتقاد بأننا نمثل هنا بإزاء حالة واضحة لواقعة كونية تتميز بشقيها اللغوي والموسيقي، ويهيب بنا أن نتوفر على تعليل «لم هذه الدرجات بالذات؟»... خاصة وأننا معشر الموسيقيين نملك ميزة فريدة تضعنا بموقع يفضل علماء اللغة الّذين لا يَنُونَ يرددون سؤالهم «لِمَ هذه الأصوات بالذات في أحاديث البشر؟» طارحين فرضيات بالغة التعقيد لا تزال قيد الاختبار فضلاً عن كونها محلّ جدل دائم ينطوي إمّا على التأييد أو الإنكار، أقول إن الحظ حالفنا نحن الموسيقيين حين جعل بحوزتنا واقعة كونية ثابتة ومقرّرة سلفًا نطلق عليها اسم الهارمونية»(2) أي تناغمي HARMONIQUE.

ويردف الباحث قوله: إننا إذا ما سلّمنا بهذا المفهوم للطبيعة الموسيقية كلغة انعكاسية METALANGAGE أو ما ورائية محاولين الربط بين المفهوم الموسيقي وبحثنا في علم اللغة التحويلي الّذي نادى به شومسكي، فإننا سنقف على فرضية تطرح نفسها: «ألا يُتصوَّر وجودُ قواعد كونية تحكم المجاز الموسيقي؟ لقد أوضحنا في السابق أن القواعد كلها تتطور على مبادئ متماثلة في جوهرها، وأن العموميات الأساسية تسفر عن بنى عميقة موحدة الأصول تكمن في

---

1 – نفسه، ص: 147.

2 – نفسه، ص: 151.

باطن اللغات المتعددة، وأنه عن طريق العمليات التحويلية يتمّ دفع هذه البنى إلى سطح اللغة العادية ثم بواسطة فقرة مجازية تتحول البنى السطحية إلى شعر؟»[1].

وسواء ما طرحه ليونارد برنشتاين من طروحات تعدّ جديدة بالنسبة للغة الموسيقية وصلتها بالأصل المشترك للسان البشري، حقيقة علمية أم دراسات لا تخلو من تخمينات تعسفية، قد يقبلها عالم الموسيقى، ويردّها عالم اللغة، وقد يقف الاثنان منها وقوف منتظر لعقود آتية لتعزيز ما ذهب إليه برنشتاين أو دحضه، سواء أكان هذا الأمر أم ذاك، فإن ما أثاره الرجل يصبّ في اتجاه العولمة اللسانية الضمنية بين جميع الألسن.

6-6 كيف تُواجَه العولـمة اللسانية؟

هذه الدراسات المتعددة الاختصاصات تراهن على أن العولمة موجودة بالطبع، ولها أرصدة بدائية وحضارية وفكرية يسحب منها الإنسان أشياء مشتركة في زمان ومكان لا سلطان له عليها، وهي ظواهر لا تتسم بأحادية إلا بقدر ما يصل إليه فكر المرء وبُعْدُ تصوّره الأقصى، وإلا فإنها متماثلة تماثلاً غير ذات محيط إلا المحيط الكلي الثابت المتغير.

ولعل الذين يدقون ناقوس الخطر بشأن زوال ألوف من اللغات واللهجات والتكلمات مع نهاية هذه الألفية على أبعد تقدير، لا يأخذون بعين الاعتبار إلا شره هذه العولمة التي لم يؤمن بها حتى الساعة إلا قلة ثقافية وسياسية واقتصادية مهيمنة على النظام العالمي الجديد بكل أشكاله وأبعاده، ومهمشة في الوقت نفسه غالبية الشعوب التي تقاوم من أجل البقاء كليًا لا ينفصم بكل مقوماته الخاصة والعامة.

وإذا كنا لا نؤمن بعولمة شرسة تتخذ من المحلية بساطا تمتد عليه امتدادًا آمنا بدون ثمن، فإننا في الوقت نفسه نجد أنفسنا أمام التطور المذهل للتكنولوجيا ووسائل الاتصال مورَّطين، ولو بشكل غير مباشر، في هذه العولمة المسيَّسة والموجَّهة توجيها لجعل الغنيّ أكثر غنى، والفقير أشد فقرًا، والقوي أزيد قوة، والضعيف أقل سيادة، . . . ولإباحة المتقدم تكنولوجيًا لنفسه ما لا يبيح به لغيره من الأمم والشعوب، وكأَنّ هذا المستبد مندوب عن قوة خارقة لا يعلمها إلا هو ومن في فلكه.

إننا لا نقبل عولمة لسانية على حساب محو وسحق لغاتنا المحلية والإقليمية بما في ذلك الشفهية منها، لأنها تمثل عنصراً تاريخيًا، ومدًّا روحيًا لهويتنا، وتشكل جسراً برزخيًا بيننا وبين من تقدّمونا، وكل محاولة لتحطيم هذا الجسر الواصل بين هويتنا الواحدة زمنيا وتزامنيا، لا تعني إلا إرضاخنا رغم أنوفنا إلى هذه العولمة غير المتكافئة.

---

1 – نفسه، ص: 165.

وإذًا، فوجودنا هكذا وسط عولمة ظالمة متوحشة، يجب أن يكون لنا منعة وقوة وتحصينًا، لا إقبالاً جارفًا عليها، وإذا لم يكن بدّ مما ليس منه بدّ، فلا أقل من أن نقاوم بما نملك من ثقافة نلبسها مثلما لبسها أسلافنا دون تحجر، لكن بتبصّر وحيطة إزاء كل ما يصطدم بها من ثقافات كونية آتية خصوصًا من الشمال.

نحن لا نستطيع أن نعيش بهذه العولمة المزيفة المنصوبة لنا نحن الضعفاء المتخلفين إلى إشعار آخر، شَرْكًا من أشراكها المعسولة ظاهريًا في إعلامها وإنتاجها، المسمومة باطنيًا في حقائقها التي تزدري بها الشعوب وتستغفلها، لكن ما السبيل إلى ولوجها بوجه شاحب أو تجنّبها بأنفة كاذبة؟ «إن ما يبدو منطقيًا وظاهرًا أن وسائل الاتصال والمواصلات المعاصرة تتجه بسرعة نحو تقليص المسافات، وبالتالي التقليل من أهمية الجغرافيا، ومن المنطقي أن يؤدّي إلغاء الجغرافيا إلى التقليل من شأن التاريخ، لكن هذه مجرد افتراضات تبقى مرتهنة لتحرير الحاضر نفسه من الظلم الاجتماعي داخل كل بلد، ومن الهيمنة على الصعيد العالمي»(1).

لا أريد هنا أن أثير قضايا عولمية عامة، وهذا موضوع شائك آخر، له ميدانه، ورجالاته، كل ما أحاول أن أطرحه لا يخرج عن اللغة العربية ورُهُن العولمة سواء رضينا بها واقعًا قائمًا مفروضًا من الخارج أم انغماسًا انهزاميًا فيها، إذا كنا لا نملك نحن العرب إلا الخنوع المخزي لكل مظهر من مظاهر هذه العولمة الزائفة، ومنها الإقبال على اللغات الأجنبية وتدريسها لفلذات أكبادنا ابتداء من أول سنة تربوية مساواة لها باللغة العربية التي لا يبرح المحسوبون عليها تاريخيًا متردّدين تردُّد من كان يُبشَّر بالأنثى، فتراهم متوارين من أصحاب اللغات الأخرى أم يتكلمون بها ويستعملونها على هُونٍ أم يستعملون أو يتمنَّوْن أن يستعملوا لغة غيرها «ألا ساء ما يحكمون».

إن أمة تفكر تفكيراً يقترب من هذا ليست جديرة بالبقاء على ماهي عليه، ولنا عبرة في شعوب تعاطت لغات أجنبية أو رسمت لغتها بغير الرسم العربي الّذي كان بحوزتها، غير أن ما تعاطته من لغات غير لغاتها أو رسم غير الرسم العربي لم يشفع لها، ولا حوّلها من دولة متخلفة إلى دولة متقدمة، بل هي الآن ليست أحسن حالاً من دول تمسكت بكتابة لغتها بالرسم العربي.

إن الرضوخ لعولمة في شكل استعمار ثقافي قديم في ثوب جديد يكون أكثر انقيادًا لها كلما استهَنَّا بمقدساتنا التي تعدّ اللغة تاجًا مرصّعا لها، وكلّما زدنا تنازلاً عن أي مقوم من مقوّماتنا:

من يَهُـــنْ يَسْهُلِ الهَـوَانُ عليه   ما لِجُـــرْحٍ بِمَيِّـتٍ إيـــلاَمُ

---

1 – حميد قهوي، المستقبل العربي، عدد 349، عام 2008، ص: 55.

7-6 لا عولمة بدون امتطاء المحلية:

إن عولمتنا هي محلّيتنا، قريتنا الصغيرة التي ينبغي أن نصنع منها مدينة كبيرة، ومدنيّة عالمية بثقافتها وعلومها وأصالتها، يجب أن نتّخذ من قريتنا بوّابة لعولمة لا مفرَّ منها، ندخلها بلغتنا حتى لا ننصهر فيها انصهار غير قليل من الشعوب والأقلّيات التي غَدَت في خبر كان.

كل مثقف عربي يشعر بهاجس حاضره، وغموض مستقبله يعلم يقينًا أنّ اللغة العربية تعيش أزمة مصطنعة لم يقصد أحد من أبناء جلدتها الإساءة لها، ولكن هكذا، وجدت اللغة العربية نفسها مع مطلع الالفية الثالثة تشكو حالها، وهي تُغْزى في عقر دارها من لغات أجنبية كانت إلى عهد قريب تنهل من قاموسها وثقافتها.

إننا على وعي تامّ بأن الدرس اللغوي الحديث «لم يعد يسمح لباحث في حقل اللغة أن يعجب إعجابًا مفرطًا بلغة من اللغات، حتى ولو كان الشعور الداخلي ينمّ بعكس ذلك، ما دام هذا الإعجاب لا يزيد في قيمة لغة أو ينقص منها شيئًا، وما دامت كل اللغات الإنسانية متشاكلة في قدرتها البنيوية آليًا لأن تكون رهن إشارة مجتمعها المتواصل بها، إلا أنه بالمقابل ينبغي ألاّ نتخذ هذا التصوّر ذريعة لقلب ظهر المجن لإنجازات كل ما له صلة بالماضي وطيّ تراثه كطيّ السجلّ للكتاب، لأنه يستحيل لجيل لاحق أن يبتكر لغة خاصة بعصره ابتكارا مختلفا كليًا عمّا تقدّمه من إنجازات رائده، ماعدا بعض المصطلحات أو الرموز الإشارية الجافّة التي ستلحق في يوم من الأيام برموز اللغة الطبيعية أي حين تَنْسَى كوْنها حدثا أو تاريخًا، وحين يتحوّل الشعور بها عبر أجيال وأزمنة إلى اللاشعور واللاأجيال»(1).

وإذا كانت عربية اليوم تُرى من محدثين عرب وأجانب تعدم القدرة على مواكبة عصره بفعل ما جدّ من حقول دلالية متنوعة في المواصلات والذرة والعلوم والتجارة والاقتصاد، ... ولا تستطيع أن تساير يومها، فضلاً عن غدها إلا بترجمة هذه الكلمات القاموسية الجديدة إليها وهضمها، فإن ثمت مرضًا أو وهمًا آخر يحاط بها يكمن خاصة في تلك الهالات العاطفية الجامحة، الأمر الّذي أضفى عليها أحيانًا صراعًا داخليًا تحول إلى منافح ومنتقد، قد يكون نابعًا من رؤية داخلية متبصرة بعواقب النتائج، أو صادرًا من نفحات شعوبية ضيقة أكل عليها الدهر وشرب.

سبق للعربية، كما أشرنا، أن نهضت في حقب تاريخية طويلة بمهمتها اللسانية والحضارية والإنسانية، يوم كانت سائدة خلال عولمتها القروسطية التي لم تَنْفَد غرائبها، وما غَذَّت به لغات بمائات من المصطلحات الثقافية والفنية والتجارية والعلمية... لا تزال مستعملة فيها حتى يومنا هذا.

---

1 – في رحاب اللغة العربية، ص: 41.

وهذه الإشارة التاريخية للعربية لا تقودنا إلى التبجّج بها، بل مجرد التفكير في إعجاب بها، أو مدح لها، يضرها أكثر مما ينفعها، ونحن نعلم أن عربيتنا الحديثة فقيرة فقرا مدقعًا في مصطلحاتها الحديثة المستعملة عالميا في لغات أخرى، ولكن الذي يتحمّل وِزْرَ هذا الانعدام الغيابات الوظيفية لغياب استعمالها من أبنائها في مجالات حيوية كعالم الإعلام الآلي والاتصال والمعمل والجامعة، . . .

6-8 مشكل العربية داخلي لا عولمي :

إن العربية الراهنة تعيش وضعًا نظريا لا تنافس فيه من اللغات الأخرى، إذ مَنْ مِنَّا يجرؤ على إنكار الجهود المضنية التي بذلت من مجامع، وهيئات في سبيل ترقيتها، لكن وقوفنا على بعض هذه الإصدارات ذات الجوانب التقنية والعلمية بَيَّن لنا أنّ جُلَّها معرَّب أو منحوت نحتًا غير سليم أو مترجم ترجمة بعيدة عما يقابله في اللغة الهدف أو الأصل، وقلّ ما تعثر على مصطلح مشتق من الوعاء الأصيل للغة العربية.

ما من شك في أن لغتنا العربية تزخر بألوف من الكلمات المشحونة بدلالات تقارب غير قليل ما يبتكر من مصنوعات، ولكن الإشكال الّذي تعيشه العربية لا يكمن في انعدام مصطلح أو اختلافه فيها بل في عدم استعماله البتة، إذ لا احد من المجمعيين والأكاديميين العرب ينكر أن ما يستعمل لا يشكل إلا نسبة مضحكة مما يُولَد ويقترح ويُقرَّر في هذا المجمع أو ذاك نتيجة طبيعية لغياب إرادة سياسية عربية قوية لتبنّي هذه اللغة لغة علم وبحث وتعامل شامل ومعاملة بالمثل مع الأجانب.

لا تفرض لغة سلطانها إلا باستعمالها، وليس بالتباهي بجمالها وثرائها، وليست هناك لغة قديمة ولا حديثة محصّنة تحصينا شاملاً من أن تدخلها كلمات من غيرها، فاللغات، وإن تفاوتت في طاقاتها البعيدة والقريبة، متساوية بما في ذلك ما يعرف باللغات الشفهية البدائية.

إننا لا نخشى على اللغة العربية خطرًا يتهددها من عولمة خارجية بقدر ما نخاف عليها من تردّد يحيط بها ويتخلّلها من محلية داخلية، أي اللغة العربية راهنًا مهدّدة من الدّاخل أكثر مما هي مستهدفة من الخارج، تراها تحتضر أمامك بقلوب دامعة، ولا أحد من أهل الحل والعقد يحرّك ساكنًا لحمايتها وزجر المتسبّبين في تحطيمها بالصوت والصورة وعلى المباشر.

انظر إلى هذه الفضائيات العربية الفنية والغنائية والثقافية الخليجية و . . . ماذا يحدث فيها؟ التفت إلى برامج رياضية ودينية وثقافية وتعليمية بأية لغة تُبَلّغ وتُقدّم؟ استمع إلى سفير عربي بأية لغة يتكلم؟ تفحَّص جرائد يومية لتقف على عشرات الأخطاء ذات المستوى الابتدائي، استمع إلى إذ اعتك وما يجري فيها من حوارات ومقابلات، أنصِت إلى مسؤول

سام يمثل سيادة في دولتك بأية لغة هجينة يصرّح، اقرأ هذه البلاغات الإشهارية أو استمع إليها بأية عبارات وتراكيب تُتلى وتذاع، . . .

أقولها وأصرّح بها، والزمن خير حاكم بيننا، إني لا أخاف على اللغة العربية عولمة ايًا كان شرهها وبطشها، بقدر ما أخشى عليها أن تُؤتَى من داخلها تهاونًا وإهمالاً من بني جلدتها، ومن ثم لابد من ميثاق عربي موحّد يحمي العربية في فضائها المحلي والإقليمي على مستوى الوطن العربي، على أن يكون هذا الميثاق ملزمًا له هيئة من ساسة وخبراء تلحق بجامعة الدول العربية، هدفها متابعة وحماية استعمال اللغة العربية عربيًا أولاً ودوليًا ثانيًا.

وحتى لا تتعدّد الفتاوى اللغوية التي لا يُطبّق منها في النهاية فتوى واحدة، ماذا لو اجتزأ العرب بمجمع لغوي عربي مركزي واحد تتفرع عنه مجامع لغوية محلية من جهة يتغذّى منها المجمع اللغوي المرْكزي، ومن جهة أخرى يشرف علميًا على المجامع الفرعية وينسّق بينها؟

وكي يكون المجمع المركزي مدعومًا بصلاحية أوسع، فإنه يستمد شرعيته من «الميثاق العربي لحماية اللغة العربية وترقيتها» التابع سلطة للأمين العام لجامعة الدول العربية.

مكتبة البحث :

1 – المراجع باللغة العربية :

1 – الأصوات والإشارات، أ. كندراتوف، تر: شوقي جلال– الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1972.

2 – تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فلاديمير ويج بارتولد، تر: حمزة طاهر، ط: 4/1966، دار المعارف (مصر).

3 – تاريخ الشعوب الإسلامية ،كارل بروكلمان ،تر :نبيه أمين فارس منير البعليكي ،ط: 3/1961،دار العلم للملايين بيروت.

4 – التحولات الجديدة للسانيات التاريخية ،عبد الجليل مرتاض ،ط ،3/2005 :دار هومة (الجزائر).

5 –تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ،حسّان علي حلاّق ،ط ،2/1986 :دار الكتاب البناني.

6 –تطور النقود العربية الإسلامية ،محمد باقر الحسيني ،ط1/1966 : دار الجاحظ بغداد.

7 – الحضارة العربية في إسبانية ،ليفي بروفتسال ،تر :الطاهر أحمد مكي ،ط،2/1985 : دار المعارف (مصر).

8 – العرب قبل الإسلام ،جرجي زيدان ،منشورات المكتبة الأهلية ،بيروت.

9 – غرائب اللغة العربية،رفائيل نخلة اليسوعي ،ط ،2/1960 :المكتبة الكاثوليكية ،بيروت.

10 – في رحاب اللغة العربية ،عبد الجليل مرتاض ،ط ،2/2007 :ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر).

11 – فقه اللغة صبحي الصالح ،ط ،3/1968 :دار العلم بيروت.

12 – فقه اللغة المقارن ،إبراهيم السامرائي ،ط ،1968 :دار العلم للملايين بيروت.

13 – الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة (رسالة ماجستير 1982 جامعة الجزائر) عبد الجليل مرتاض.

14 – محاضرات في الألسنية العامة ف.دي سوسور تر :يوسف غازي ومجيد النصر ،ط: ،1984دار نعمان للثقافة بيروت.

15 – المزهر ،السيوطي ،تح :محمد أحمد جاد المولى ،علي محمد البجاوي ،محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار إحياء الكتب العربية ،القاهرة.

16 – مقدمة الصحاح ،أحمد عبد الغفور عطار ،ط ،3/1984 :دار العلم للملايين بيروت.

17 – مولد اللغة ،أحمد رضا،ط ،1956 :دار مكتبة الحياة بيروت.

2 – المراجع باللغة الأجنبية:

1– Comprendre la linguistique، BERNARD POTTIER، MARABOUT، Paris، 1975.

2– Cours de linguistique générale، F. de SAUSSURE ENAG/ Edition 1990 Alger.

3– Dictionnaire de didactique des langues، R.GALISSON/ D.COSTE–HACHETTE، Paris، 1976.

4– Dictionnaire de la linguistique، G.MOUNIN presses universitaires de France، Paris، 1974.

5– Dictionnaire de la linguistique، J.DUBOIS et outres LIBRAIRIE LAROUSSE، Paris.

6– ESSAIS de linguistique، R.JAKOBSON، les éditions de minuit، Paris، 1963.

7– Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique، sous la direction de MARCEL de grève et FRANS VAN PASSEL، Editions LABOR، 1973. Bruxelles.

8– La linguistique (GUIDE ALPHABITIQUE) sons la direction d'André MARTINET، Edition DENÖEL France.

9– Les voies du langage، J.COSNIER et autres BORDAS، Paris، 1982.

10– Pour comprendre la linguistique، MARINA YAGUELLO، Editions du SEUIL، 1981.

11– Problèmes de linguistique générale، EMILE BENVENISTE، Editions GALLIMARD، 1986.

3 – الدوريات:

1 – عالم الفكر مجلد ، 27 عدد 01 :سنة 1998 .

2 – عالم الفكر مجلد ،28 عدد: 02 سنة 1999 .

3 – مجلة فكر وفن ،ّالعدد الرابع سنة 1964 يصدرها ألبيرت تايلا .ALBERT THEILLE

4 – مجلة «اللغة العربية»العدد التاسع عام 2003 المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر).

5 – مجلة المجمع العلمي العربي ،مجلد 40 :ج 02:سنة 1966

6 – المستقبل العربي ،عدد 349 :سنة 2008

اللغة العربية وأشكال الهيمنة الجديدة

د. بومدين بوزيد -الجزائر-*

تشكّل اللغة بداية التفكير والعلاقة مع الوجود، أو بتعبير بعض الفلاسفة السّكن الذي نعيش فيه أو الذي نجاوره، كما أنّ فهم الحياة والانطلاق تحويه المفردات والتراكيب والجمل، وقد شكّلت اللغة العربية علاقة مباشرة بالمعيش وبالطبيعة، وبقي وهج الحياة في المفردة وطريقة صرفها وبنائها، وقد كانت عامل إثراء للمخلية والعودة التي حاولها الكندي «ت 267هـ» الفيلسوف العربي الأول إلى اللغة العربية في نحت مفاهيم مقابلة للمصطلح اليوناني تعتبر التجربة الأولى في تجاوز إشكالية نقل المفهوم من عالم لغوي ـ ثقافي أجنبي، ومن حقل دلالي لحقل جديد، كما أنّ التجربة الأولى الحضارية أظهرت القدرة العربية على استيعاب علوم الآخرين وترجمتها ضمن دلالات تنتمي للحقل الثقافي العربي – الإسلامي، وهنا كانت القدرة اللغوية بقدرة الناطقين بها، في عميلة استيعاب المعرفة، مما يؤكد العلاقة بين تطور اللغة والتحصيل المعرفي والحضاري، وأن قوّة أية لغة ليس في معجمها وتركيبها فقط، ولكن في قدرة أهلها على التعايش مع الثقافات الأخرى، وسيطرتهم على المعرفة والواقع، ومن هنا فالبقاء عند مدح اللغة العربية أو رثائها وتعداد خصائصها سوف لن يكون خطّاً دفاعياً مجدياً أمام التطور اللغوي الحاصل في العالم، والذي تصاحبه هيمنة إعلامية ـ لغوية، وإنما في تطوير هذه اللغة واستشراف مستقبلها وتجاوز الصراعية التقليدية التي يتحدث عنها البعض كاللغة العربية والدارجة مثلاً.

إذا حاولنا العودة إلى الصفة الأساسية التي تتميز بها كلّ لغة في أوجّ إبداعها الحضاري هو الحياة والانطلاق والثقة بالنفس، وهو ما ميّز العربي ـ المسلم في كتابته وتفكيره وإبداعه باللغة العربية، وهنا يكون البحث في أصول التفكير والعلاقة مع الطبيعة والله من خلال المفردة وطريقة تركيب الجملة وكيف تطور ذلك وصولاً إلى عصر التدوين وازدهار الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري الذي كان قرن أوّج التطور الحاصل في العلوم العربية النقلية والعقلية، لا لنكتب نصوص فخر باللغة ولكن لنستشفّ التجربة الحياتية للغة العربية، فالعلاقة مع الحياة والتعبير عنها هو الذي يُخصب اللغة ويُفجّر غناها وقد قال غوته: «النظرية رمادية يا صاحبي أما شجرة الحياة فتبقى خضراء مدى الحياة» وقال أيضاً «إن الذي لا يعرف لغة أخرى لا يعرف لغته الأم» فاللغة هي التعبير عن هذه الحياة واخضرارها هو تطورها والإبداع بها.

---

* باحث جامعي ـ جامعة وهران ـ البريد الإلكتروني:

boumzid@gmail.com

إذا كانت اللغة العربية بداية الانطلاق والعلاقة مع الحياة في بيئة حضارية اجتماعية في العصور الذهبية للحضارة الإسلامية، أي أنّ اللغة أبدعت عالماً متميزاً ثم تغيرت العلاقة لتصبح مقيدة بتصورات لغوية ـ فلسفية ـ مذهبية تمنعها من التجديد والاجتهاد وإعادة الانطلاق في العلاقة مع حياة جديدة؟ أم أنّ وسائل الهيمنة الجديدة بدءاً من الهيمنة الاحتلالية واللغوية والثقافية وصولاً اليوم إلى هيمنة وسائل الاتصال والمعرفية الجديدة عامل آخر يعيقها عن التطور والخلق وإنتاج الحياة؟ أم أن العاملين مترابطان ؟ أي كون طبيعة اللغة التي صارت ضدّ ذاتها ومنعتها من التجديد هي الاستجابة الذاتية لهذه الهيمنة الثقافية والنفسية؟

إن الدراسات المعاصرة في مجال اللسانيات وفلسفة العقل التي تستفيد من دراسة الجهاز العصبي وعلاقته باللغة والتفكير والحياة النفسية يؤكد على أن اللغة صانعة العالم « المعيش » أي أنها عملية سحرية ولكنها تخلق في نفس الوقت تنميطًا سلبيًا يقيد التفكير ويشوش العلاقة مع الحياة وهنا نحن أمام عملية تبادلية في الإيجاب والسلب كيف ذلك؟

سنحاول طبعاً أن نتحدث عن إمكانات اللغة العربية في تجاوز النمطية السلبية التي تخلقها هي ذاتها والبحث في كون الوسائط المعرفية والاتصالية ستكون عامل قوّة في تطور اللغة العربية طبعاً إذا توفرت عوامل أخرى مصاحبة لهذا كالإرادة السياسية في جعل اللغة العربية التعبير الحياتي والعلمي لمجتمعاتنا مثلاً ، وسنحاول أن نقرأ ذلك في ضوء اقتصاد المعرفة الذي يقوم أيضاً على إشاعة المعرفة والقيم الإنسانية باللغة التي يتحدث بها المواطنون.

اللغة ليست تعبيراً فقط عن العالم ولكنها تخلقه هنا سحريتها، فنظام الرموز الاتصالية واللغة على وجه الخصوص لها دوران أساسيان متضادان كشفت عنهما العلوم الحديثة التي تعنى بماهية هذه الوسائل ووظائفها وآثارها، وإن تطبيع العرب في القرن العشرين الحادي والعشرين لعلاقتهم باللغة العربية هو السبيل الطبيعي لكي تصبح لغة الضاد لغة العصر والحداثة على اعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية واستعمالها هو الذي يجعلها لغة علم وتكنولوجيا، فقد تكون الهيمنة المادية هي الطريق إلى الهيمنة اللسانية ومن ثمة الثقافية والفكرية وقد يحصل العكس فتكون الهيمنة اللسانية هي البوابة العظمى على باقي مقدرات الشعوب، إن الصراع اللساني والهيمنة السياسية خطران قد تترتب عنهما خرائط جغرافية وسياسية بشرية لم تكن موجودة في السابق أي قبل الصراع[1].

---

(1) عبدالحميد عبدالواحد، اللسان العربي، وإشكالية التلقي، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 69

اللغة والتقنيات الجديدة

إن تقرير الواقع هو الوظيفة الأكثر أهمية للغة، وتقرير الواقع هو تقرير ما هو صادق أو كاذب، فالإنسان يولد ولديه ما يسمى بالغريزة اللغوية، وهذه الغريزة لا يمكن فصلها عن قدرة الإنسان على التفكير وطريقته في اكتساب الخبرات بحسب تشريح الدماغ البشري، فدراسة بيكرتون[1] ربطت الإدراك البشري باللغة، فامتلاك الإنسان للغريزة اللغوية هو الذي مكنه من السيطرة على العالم مقارنة بالحيوانات الأخرى التي لم تتمكن من ذلك نتيجة افتقادها هذه الغريزة.

فهي نظام تمثيلي وليست وسيلة للتواصل فقط كما يعتقد بعض الباحثين وهذا ما يجعلها مصدر الإدراك البشري الفريد لا نتيجة له، إن بنية الإدراك البشري وطبيعته كان لهما الدور الرئيس في هذه السيطرة وهي فرضية تؤكدها شواهد كثيرة من الدراسات التطورية، التي عنت بالسلوك الحيواني بما فيها سلوك الإنسان.

أما أرنست كاسيرر فقد قسّم الأشكال التي يتجلّى فيها الرمز إلى أربعة : اللغة، والأسطورة والدين والفن، الرمز أعمّ من اللغة، فالرمز يحتوي اللغة، واللغة أحد أشكال الرمز، وقال الإنسان حيوان ذو رموز، وظاهرة التفاعل الحضاري يميزها اليوم سرعة الانتشار وقوة الاحتكاك وفقدان التوازن بين الثقافات المتلامسة، ومن هنا قال **إميل بانفينيست**: «إن انطلاق الفكر يرتبط بمقدرة الإنسان وبشروط ثقافته العامة وبتنظيم مجتمعه أكثر من ارتباطه بطبيعة اللغة، وهو ما جعل ماكس فيبر يرى أن الإنسان ينتج رموزاً ثم يتشبث بها، ومن فكرة الهوية تتحول إلى ثبات وجمود.

وهنا نذكر كذلك سعي بعض الإستراتيجيين وعلماء الاجتماع والسياسية إلى استثمار التطورات الحاصلة في مجالين علميين أساسيين: التقنية المعلوماتية والتقنية الحيوية «البيولوجية»، الأولى ترتبط اليوم ليس فقط بالمجال ألأداتي لتكنولوجيا المعلومة ولكن أيضاً باستخدام ما نجم عنها من مجتمعات جديدة تسمى «مجتمعات المعرفة»: أي التي صارت فيها المعرفة الاقتصاد الجديد بدلاً عن الأشكال التقليدية للثروة، أما الثانية فهي تنهل من الأولى وتختلف عنها أيضاً في كونها تقوم على تغيير الجينوم «الجينات» وبالتالي التدخل المباشر في الكائن الحي عبر ما يسمّى الاستنساخ، وكلتا التقنيتين يسعى ممتلكوها لتطوير ما يسمّى بمجتمعات ما بعد الرأسمالية ، في حين يرى فلاسفة تاريخيون أن التقنية الحيوية ستدفعنا نحو مستقبل ما بعد البشري، والقصد هنا أن التطورات ستسمح بإطالة العمر الإنساني وكل الناس في صحة

(1) ديرك بيكرتون، اللغة وسلوك الإدراك، تر:محمد زياد كبه، جامعة الملك سعود، سمة 2002، ص 32.

وعافية وسيزداد التنافس الاجتماعي في قضايا لم تكن سالفاً موجودة وهنا يختفي معنى القيم الإنسانية المشتركة والرغبة والأمل والسعادة، فالسعي مثلاً نحو حرية الآباء في اختيار الأبناء والحرية في استخدام هذه التقنية في الثراء المادي التي توفرها التقنية الحيوية يؤدي إلى عكسها وهي أن نصبح رهائن، ومن هنا يرى بعضهم مقولة تدخل الدولة وهيمنتها ضروري لإبقاء الحرية الحقيقية والدفاع عنها، والحرية هنا التي تنطلق من كون جوهر الطبيعة الإنسانية حر أو أن الطبيعة البشرية الأصلية تقوم على احترام الحريات والحق الطبيعي يلزم عنه الحق في الوصول إلى السلطة والمشاركة فيها، في السبعينات من القرن الماضي كان تصور خوفي عند بعضهم من كون التقنية المعلوماتية الجديدة ستجعل الأنظمة أكثر مراقبة وفتكا واستبدادا بشعوبها ولكن ما وقع كان عكس تمام ذلك، إذ أن هذا التطور سمح للصوت المعارض أن يكون له صداه، وللصورة أن تنتقل عبر العالم إلى أن وصلنا اليوم إلى «المدونات الشعبية» على الويب التي لا تخضع لرقيب ولا حتى للأخلاقيات المهنية المتعلقة بالإعلام أو بغيره من المهن التي ترتبط بها، وهذا ما جعل بعضهم يطلق عليها تسمية « تقنيات الحرية»، أما التقنية الحيوية فهي تشكل هاجس خوف عند بعض المراكز الغربية أحياناً شبيه بهاجس التقدم العلمي النووي وكيف ينبغي التحكم فيها ومراقبتها كونها تتعلق مباشرة بالتغير الذي يصيب الإنسان بيولوجياً ومن المخاطر التي تحدق بالبشرية هو في تغيير الطبيعة البشرية، ولكن من جهة أخرى يستثمرون هذه التقنية الحيوية في زيادة انتصار الليبرالية والدفاع عن الحريات والمساواة، وهنا وجب الإشارة إلى أن الليبرالية مع زيادة تطور العلم والتقنيات الجديدة تسعى لأن تخفّف من الشحنة الإيديولوجية، أي العقائدية وتركز على الحريات الأساسية وقيم المواطنة والديمقراطية، فنظام الحكم الأمريكي وقوانينه الدستورية أقيم منذ 1776 م على الحق الطبيعي للإنسان، في المساواة والعدل، حتى ولو كان تاريخها مرّ بأزمنة خروج عن هذا الحق الطبيعي والدستوري ولكن كانت الرغبة السياسية والشعبية والتاريخية هي المنتصرة اليوم، ولو جئنا للمقارنة فإن التهديدات المحدقة بالغرب المتقدم كالإرهاب البيولوجي وغيره هي تهديدات أساسية عندها وتأخذ الصبغة العالمية كوننا نحن معنيون بها كذلك سواء من حيث كون العالم واحد اليوم وصغير أم من حيث كون الرقابة التي ستزداد على أبحاثنا ومنشآتنا وهي رقابة تمسّ أيضاً الاقتصاد والسياسة، غير أن التهديدات التي نعني منها نحن في بلداننا العربية وهي الهمينة اللغوية وتعرض الهوية للتمزق ومن هنا يكون تدخل الدولة هو حماية الهوية، فالأزمة المالية اليوم التي عصفت بأمريكا وأوربا والعالم وحالة الركود في مؤشرات الأسهم استدعى تدخل الدولة ومراجعة الحرية الليبرالية المطلقة، إننا نحن أمام منزلقات تتعلق بقضايا الهوية واللغة وخسراننا في هذه المجالات هي خسارة في الاقتصاد

والسيادة، فالعلاقة بين الاستقرار الاجتماعي والنجاح في تكوين مواطن صالح واللغة يجعلنا في منأى عن صعوبات التفكك الأسري والاجتماعي مستقبلاً.

كما أن اللغة العربية علم رياضي منطقي، يقوم على فكرتي الثوابت والمتغيرات وقواعد اللغة مرتبطة بقوانين المنطق. وعلينا أن نعود بلغتنا العربية إلى أصالتها، ونكشف عن جوهر المنهج الرياضي الذي تأسّست عليه، وننطلق في دراستنا من هذه الأسس العلمية، فنحقق غايتين رئيستين: أولاهما العودة بالفكر العربي النحوي إلى أصالته، وثانيتهما طرح قضايا النحو بشكلٍ علمي، يزيل عنها عملية التلقين التي أبعدت أبناء العربية عن النحو العربي، صارت نظرتهم إليها نظرة فوقية، أو نظرة عداء؛ لأنّ الإنسان عدو ما يجهل، فإذا انكشفت أمام الراغبين في دراسة اللغة العربية العلاقات المنطقية، وفهموا المنهج الرياضي الذي تأسست عليه، سهل التعبير بها[1].

إن مواجهتنا لتحديات العولمة لا تكون برفض دخول ألفاظ غير عربية إلى لغتنا، لأنّ هذه اللغة أثبتت قدرتها على التطويع والاكتساب، وستبقى قادرة على الجديد المؤسس على أصالة لغوية مصانة بقوانينها النحوية، التي تحفظ لها نظامها، وبناءها وخصوصيتها.

من تحرير الهوية إلى الأمن الثقافي

تعرضت الشعوب العربية إلى تمزيق شامل لم يمسّ أراضيها وثرواتها فقط ولكن هويتها وشخصيتها أيضاً، وقد شكلت المدارس التقليدية والإصلاحية في الجزائر مثلاً دفاعاً متقدماً لحماية اللغة العربية، وهي حماية ظلّت تعتمد المقاومة التقليدية، ولم تتطور هذه الحماية بعد الاستقلال سواء على المستوى تطوير اللغة والبحث بها في مجالات العلوم والتقنيات أم في أن تكون تعبير الفئات النخبوية المسيطرة في المجال السياسي والاقتصادي والإداري، كما أن فقدان إرادة سياسية حقيقية في عملية التعريب وحتى مراجعة مسائل التعريب ومفهومه لم تتمّ إضافة إلى عوامل أخرى أبقت العربية غير محرّرة هو ما يشكل استقلالاً مبتوراً، كما أننا أمام حالة « لا أمن لغوي جديد » أمام هيمنات جديدة في العالم اليوم، هذه الهيمنة تتسم بتسويق السّلعة مع الأذواق والتحكم في المجال الإدراكي للمواطن العربي من خلال اللغة الأجنبية التي تصاحب السّلعة « الاقتصاد » و »الهيمنة السياسية والثقافية ».

هكذا اليوم اللغة ترتبط في مجتمعات المعرفة بالشّكل المادّي وتكون جزءاً من الهيمنة، في مجتمعات الاتصال والثورة الرقمية، العلاقة بين مصادر القوة والتعبير اللغوي ستجعلنا نتجاوز ربط اللغة فقط بالإيديولوجيات والمعتقدات إلى كونها معرفة وجزء من القوة الاقتصادية الجديدة،

---

1) مها خير بك ناصر، اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي، مجلة التراث العربي، العدد 102، 2006، ص 26.

أي أن التبعية اليوم ستكون محدّدة بالتبعية المعرفية وعلى رأسها المسألة اللغوية، اللغة هنا وسيط تجاري وسلعة، هي سلعة واستهلاك فهي التي تحدّد الذوق وتصاحب السلعة وبسط النفوذ السياسي وبالتالي المسألة مركبة وبدل أن نبقى عند إشكاليات الثنائيات في تناول اللغة: كاللغة كعلاقتها بالتفكير أو مثل قضايا الفصحى والعامية، وما يشابهها سنكون أمام اللغة والاقتصاد ، اللغة ومجتمع المعرفة، وسيصير اليوم القرار السياسي في قضايا التعريب وحماية اللغة العربية مسألة تتعلق بالسيادة والخروج من التبعية وحماية الاقتصاد الوطني.

إن المسيرة النهضوية التي انطلقت في القرن التاسع عشر ميلادي تميزت بنهضة علمية، فقد حضر وفد ياباني لمصر في سنة 1834 م لدراسة جعل العربية لغة الطب والعلم والتقنيات[1]، فكانت العلوم الطبية مثلاً تدرس باللغة العربية في قصر العيني بالقاهرة حتى احتلال الجيوش البريطانية لمصر سنة 1892م، وتحول التدريس إلى اللغة الانجليزية ثم كان المشروع الصهيوني استعمار الشعوب العربية ممزقاً لأرضها ومستغلاً لثرواتها وممزقاً لهويتها، ثم تلا ذلك رغم استقلالها الشقاق العربي ـ العربي، واحتلال أمريكا للعراق وللسوق العربية، وزيادة نشاط المنظمة الفرانكفونية ونخبها في بلدان شمال إفريقيا وكان لهذا كلّه الآثار السلبية على اللغة العربية وعلى تطبيق قرارات التعريب في بعض البلدان العربية، طبعاً إضافة إلى كون حالة الخمول والانتكاسات التي أصابت مسيرة النهضة العربية فجهود البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين لم تستمر في تطوير اللغة العربية وبقي ربط اللغة بالتعليم الديني وبمجالها النحوي والصرفي وبتصورات القداسة عاملاً آخر من عوامل الإخفاق في تجديد اللغة العربية والدفع بالنخب نحو الإبداع بها، ومع التطورات الحاصلة اليوم في مجالات تكنولوجيا المعلومة والاتصال وزيادة نفوذ الهيمنة اللغوية تتراجع عملية التعريب في التعليم العالي سواء في المغرب العربي أم الخليج العربي الذي تختار بعض مؤسساته العلمية الإنجليزية كلغة أولى، وتسعى شركات الاتصال وصناعة الأجهزة الهاتفية فرض اللغة الأجنبية سواء في نصوصها الاشهارية أم طابع الاستعمال للجهاز التقني فالهاتف الجوال مفروض استعماله بالحروف اللاتينية[2] فالمواطن المغاربي مجبر على تقديم تهاني العيد والتعزية والتحيات عبر نصوص موجودة مخزنة في هاتفه المحمول باللاتينية أو يستعمل دارجة مكتوبة بأحرف أجنبية، وهو مظهر من مظاهر عولمة جارفة تأثيرها يتعدّى ما يعتقده البعض تأثيرا لغويا عاديا إلى تغيير في الذوق والعواطف والعلاقة مع التاريخ والهوية، كما انّ ذلك يشكّل مسّاً بالسيادة الوطنية حين لا تنصص في عقود الشراكة

(1) عبدالكريم خليفة، قضايا العربية على مدارج القرن الحادي والعشرين، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة، عدد 93، ص 97.

(2) محمود الذوادي، الهاتف الجوّال والحاسوب: ترسيخ التخلف الآخر في المجتمعات المغاربية، مجلة «المستقبل العربي»، عدد 98، أكتوبر 2008، ص 97.

والاستثمار على اعتبار اللغة العربية لغة للإشهار وتزويد الأجهزة التكنولوجية برموز عربية، وهو تساهل مقصود وتفريط تهاوني أحياناً مثل القوانين التي تجبر على كلّ مؤسسة إعلامية أن تصدر إلى جريدة بالعربية إن كانت تصدر نسخة بالفرنسية ولم يطبق هذا القانون مثل قوانين أخرى كاستعمال العربية في جلسات المحاكم، وهنا نتسائل في حيرة فبرغم المقروئية بالعربية للجرائد المرتفعة السحب في الجزائر تبقى النخب الإدارية والاقتصادية مصرّة على التعامل مع المواطن باللغة الفرنسية بل سنكون مستقبلاً أمام مؤسسات جامعية خاصة تنتهج الفرنسية كلغة وحيدة للتعليم في عصر لم تستطع فيه هذه اللغة أو لغات بلدان أوربية أخرى منافسة للإنجليزية في فيض مصطلحاتها العلمية والتقنية وفي سيل الدراسات الجديدة بالآلاف سنوياً كما يضطر اليوم الباحثون الفرنسيون إلى كتابة بحوثهم بالإنجليزية من أجل الاعتراف العالمي والعلمي.

إننا نواجه حملة شرسة من الشركات الأجنبية ومن العقود الرسمية في التعاون العلمي مع فرنسا بالخصوص، وهو ما سيؤدي إلى تنميط الذوق وتنشيط الخيال باللغات الأجنبية وهي مداخل لهيمنة واضحة، وليس صحيحاً أن التعلق بلغة وحيدة أجنبية ينقذنا من سطوة الهيمنة فاللغات وتعلمها والترجمة منها إلى العربية وتطوير هذه اللغة وجعلها اداة رسمية وعلمية هو الذي يحفظ استقلالنا وأمننا الثقافي ويضمن إشاعة المعرفة وتبسيطها للمواطنين وهنا نكون أمام ضمانة لغوية لبناء مجتمع عصري قوي ودولة مؤسسات قويّة.

اللغة العربية في ظل العولمة في التعليم العالي

أ.د. عادل نوفل
مدير المركز العربي للتعريب
والترجمة والتأليف والنشر بدمشق (سوريا)

I–اللغة العربية ،اللغة الأم، والتعليم

تُعد اللغة العربية (اللغة الأُم) من أهم مقومات الهوية القومية . فقد نقلت إلينا عبر الزمن تراث ومفاهيم وقيم الأجيال العربية المتعاقبة. فكانت صورة ناطقة بما كانوا عليه من صفات وأحوال، وبما أبدعوا من روائع المنجزات في ميادين المعرفة والعلم، وبما أرسوا من قيم روحية وخلقية واجتماعية، فهي تمثل ذاكرة الأمة.

فاللغة العربية ليست وسيلة تعبير وتفاهم وأداة لتلقي وإعطاء العلم فحسب، بل هي رابطة اجتماعية فكرية وثقافية، وهي كالجسر تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل، وهي التالي مؤسسة اجتماعية وإنسانية، ولا يتم اجتماع بشري بغير لغة.

وقد أوصت اليونسكو باستعمال اللغة الأُم في التعليم، بعد أن أيقن خبراؤها أن الطالب الذي يتلقى علومه بلغة غير لغته الأُم فسوف يُصاغ فكره وثقافته من خلال اللغة الغريبة التي يتعلم بها. ويوم تكون لغة التعليم غير لغة الثقافة تُصاب الأمة بفصام فكري.

فالتعليم بلغة غير اللغة الأُم يعني الفصل بين التفكير واللسان، وهذا ما سعت إليه سابقاً الدول الاستعمارية في العصرين القديم والحديث، ولاسيما في عصرنا الحاضر عصر العولمة.

ولهذا فقد سعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) منذ نشأتها إلى الإسهام في تعريب التعليم العالي في جامعات الوطن العربي واستعمال اللغة الأُم، اللغة العربية، في كل مراحل التعليم. ولهذا فقد أنشأت الألكسو مكتب **تنسيق التعريب في الرباط**، و**المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق** ليقوما بهذه المهام، إضافة إلى مؤسسات الترجمة والتعريب في الجامعات العربية.

وهكذا فقد حسم العرب أمر الحديث في مسألة استعمال اللغة العربية لغةً للتعليم انطلاقاً من مفهوم أن كل أمة لا تحافظ على لغتها في التعليم الجامعي ستكون تابعة لغيرها من الأمم التي تُستعمل لغتها، وأن كل لغة لا تساهم في إنتاج العلم ومفرداته ستكون مهددة بالانقراض، وكذلك انطلاقاً من مفهوم أن العلم لا يتجذر بذهن الطالب إذا ما دُرِّس بلغة أجنبية غير اللغة الأم، فالرسالة اللغوية بهذه الحالة لا تصل مفهومة، وإن وصلت تصل مشوشة.

ومن هنا فإنه من الأهمية بمكان أن يعيش المسار التعريبي ويتواصل في التعليم العالي والبحث العلمي.

وهكذا فإن التمسك باللغة الأم، اللغة العربية، هو الخندق الأخير للحفاظ على هوية الأمة في عصر العولمة.

II–العولمة ومتطلباتها

لقد صار واضحاً في عصر العولمة الذي نعيش فيه أن التقدم التكنولوجي المتسارع يرتبط ليس فقط برأس المال المادي إنما أيضاً برأس المال البشري الذي أساسه الإنسان، الذي يجب أن يفهم ويستوعب ويتمثل العلوم بلغته الأم لكي يستطيع لاحقاً استنباط الجديد من خلال البحث العلمي.

أما كلمة العولمة Globalization أو Mondialisation بحد ذاتها فقد أُطلق عليها تعاريف عديدة بحسب السياقات التي تتضمنها مثل العولمة المعرفية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتقانية والمعلوماتية وغيرها. فمثلاً يعرّفها جورج لودج بأنها العملية التي من خلالها تصبح شعوب العالم متصلة ببعضها البعض في كل أوجه حياتها ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وبينياً.

إن التقدم الهائل والسريع في وسائل الاتصال والمواصلات ونُظم نقل المعلومات الالكترونية بين الدول التي خرقت الحدود السياسية والجغرافية لهذه الدول واختصرت بُعدي الزمان والمكان بين مناطق العالم المختلفة، قد دفع كثيرًا من المفكرين والعلماء إلى الاعتقاد بأن هذا العالم المتناهي الأطراف تحول في فترة وجيزة إلى قرية كونية واحدة Global Village كل عضو فيها سواء أراد أم أبى عليه أن يؤثر ويتأثر بغيره بطريق مباشر أو غير مباشر. وبناء على ذلك لا تستطيع أية دولة –حكومة أو شعباً– في هذا العالم أياً كانت أن تعيش في عزلة أو انفصال عما يدور من حولها من تغيرات وتطورات فكرية وتكنولوجية في مجالات الحياة المختلفة.

إن هذه الثورة التكنومعلوماتية تتصاحب مع إعادة رسم الخريطة الإيديولوجية والاقتصادية لعالم اليوم والغد. وهنا تكمن سيطرة القوي على الضعيف.

وبالرغم من الايجابيات التي يسوقها البعض لانتشار «ظاهرة العولمة» فإن البعض الآخر يرى أنها تهدد الهوية الثقافية أو القومية لكثير من الدول النامية والصغيرة والتي ظلت محافظة عليها سنوات طويلة.

أما أهم مقومات الهوية الثقافية العربية فهي **اللغة العربية** التي تُعد وسيلة الاتصال والتواصل مع الآخر لاكتساب **المعرفة**.

أما المعرفة فقد أصبحت في زمن العولمة تشكل **قيمة رأسمالية بحد ذاتها**، فهناك ما يُدعى اقتصاد المعرفة ومجتمع المعرفة.

فمن أجل أن يحقق المجتمع العربي المعاصر طموحاته عليه أن يستفيد من كل ايجابيات العولمة ومواجهة كل سلبياتها، ولن يتم ذلك إلا إذا كان منتجاً للعلم وليس مستورداً فقط وذلك من خلال **دورة اكتساب المعرفة** التي تتم حسب أربع مراحل :

II-1- النفاذ إلى مصادر المعرفة

وهذا يشمل البحث عن المعرفة واسترجاعها والتواصل مع من يمتلكون ناصيتها من أهل العلم والخبرة من خلال اللغة الأم أو من خلال اللغات الأخرى (الانجليزية) . وهذا يعني التواصل مع الحضارة العالمية ومعرفة المزيد عن الثقافات المختلفة والاستفادة من خبرات الآخرين في التقدم العلمي والتكنولوجي، ويعني أيضاً أن سهولة الوصول إلى المعلومات وتبادلها، **يتطلب معرفة إحدى اللغات الأجنبية السائدة**، باعتبارها نافذة الفرد العربي على العالم الخارجي.

ومن هنا فإن **امتلاك لغة أجنبية**، إلى **جانب اللغة الأم**، يمكّن أفراد أي مجتمع من الاتصال والتفاهم والتعاون مع العالم الخارجي ومن ثم التجديد والابتكار.

II-2- استيعاب المعرفة وفهمها

إن فهم واستيعاب المعرفة لن يتمّا إلا باللغة الأم. وهنا يأتي دور التعليم الجامعي الذي يجب أن يكون باللغة الأم إذا أردنا النهوض بالمجتمع بشكل جماعي.

وفي هذا الإطار فقد أدرك أجدادنا، في عصر النهضة العربية الأولى، أن قراءة واستيعاب معارف وعلوم الحضارات التي سبقتهم لا يمكن أن يتمّا إلا باللغة الأم. فازدهرت **الترجمة** خلال العصرين الأموي والعباسي وصولاً إلى « **بيت الحكمة** » الذي أنشأه الخليفة العباسي المأمون، وجعله بمثابة مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة. وقد حظي المترجمون آنذاك بمكافآت مجزية (وزن الكتاب المُتَرجَم ذهباً).

II-3- توظيف المعرفة

إن أهم وسائل توظيف المعرفة هي في الإنتاج بكل مجالاته لأجل تحقيق أقصى عائد اقتصادي، وهذا ما تقوم به الشركات العالمية العملاقة في دول العالم المتقدم تكنولوجياً الذي أصبح يتحكم بالعالم اللامتقدم.

II-4- توليد المعرفة

وهو استغلال المعرفة القائمة من أجل توليد معرفة جديدة غير مسبوقة. وهذه المهمة هي التي تقوم بها الجامعات ومراكز البحوث التي أصبحت في غالبيتها خاضعة لشروط الجدوى الاقتصادية لا إلى الدوافع العلمية المحضة.

وتأسيساً على هذا الوصف الموجز لدورة اكتساب المعرفة فإن وسيلة ذلك ستكون اللغة المستخدمة، فهي التي تسرع وتبطّء امتلاك المعرفة من قبل أفراد أي مجتمع وبالتالي سيكون نمو وتطور المجتمع مرتبطاً بهذه المعرفة التي سيكون انعكاسها الرئيسي في منظومة التعليم والتعليم العالي.

III- لغة التعليم الجامعي والعولمة

إن إلقاء نظرة موضوعية على مسألة لغة التعليم الجامعي في العالم العربي، دون مغالاة في إيجابيات أو سلبيات العولمة، ومع الأخذ بالحسبان لمفاعيل هذه العولمة قصيرة وبعيدة المدى التي تنعكس على نمو وتطور المجتمع والدولة، نجد أن هذا التعليم يجب أن يكون باللغة الأم، اللغة العربية، وذلك للفوائد التالية:

III-1- فوائد التعليم باللغة العربية بالنسبة للمُعَلِّم

يوفر التعليم باللغة الأم، اللغة العربية، الفرصة للمعلم لكي يشرح أفكاره بطريقة أفضل وأسرع، فيستعمل الكلمة المناسبة في المكان المناسب، في حين تعجز اللغة الأجنبية عن ذلك. فمثلاً كلمة case الانجليزية تعني بالعربية إما حالة (حالة مرضية) أو قضية (قضية دعوى قضائية). وكلمة time الانجليزية قد تعني الزمن وقد تعني الوقت أيضاً وهناك فرق بينهما.

وفي دراسة أجريت في السودان(1) تبين أن الغالبية العظمى من أعضاء الهيئة التدريسية يستطيعون توصيل المعلومة بلغتهم العربية بطريقة مفهومة وواضحة، وهذا نابع من قدرة المعلم (أو أي شخص) على أن يعبّر عن أفكاره بلغته الأم بطريقة أسهل وأسرع. فبدلاً من أن يجمع المعلم أفكاره باللغة العربية ثم يترجمها في ذهنه إلى اللغة الأجنبية ليتلقاها المتعلم باللغة الأجنبية وهذا يترجمها في ذهنه إلى اللغة العربية، فإن التعليم باللغة العربية يجري فيه نقل المعلومة من المعلم إلى المتعلم مباشرة.

وإضافة للقدرة على إيصال المعلومة الصحيحة الدقيقة، لاحظ الدكتور رؤوف محمود سلام(2) أن الوقت اللازم للقراءة يختلف عند المعلم من لغة إلى أخرى، فقد قرأ هو نفسه منشورات مقالين باللغة العربية في صحيفة الأهرام، ويُنشر لهما ترجمة كاملة باللغة الانجليزية في صحيفة الأهرام الأسبوعية، قرأ المقال الأول بالانجليزية أولاً ثم بالعربية، وقرأ المقال الثاني بالعربية ثم بالانجليزية وحصل على النتائج التالية.

المقال الأول: زمن القراءة: 13 دقيقة (بالانجليزية) 9.3 دقيقة (بالعربية)

المقال الثاني: زمن القراءة: 8.57 دقائق (بالانجليزية) 7.5 دقائق (بالعربية)

وبتحليل النتائج تبين أن هناك اختصاراً للوقت بمعدل 27% في المقال الأول و13% في المقال الثاني أي متوسط الكسب هو 20%.

وهكذا فإذا ما كان التعليم الجامعي باللغة العربية فإنه يستدعي أن تكون المراجع العلمية فيه باللغة العربية وهذا الأمر يمر بعملية الترجمة والتعريب.

وأخيراً فإن فائدة التعليم بالعربية ستوفر الفرصة للمعلم بأن **ينوّع** مصادر معرفته بدلاً من الاقتصار على لغة واحدة.

III-2- فوائد التعليم باللغة العربية بالنسبة للمتعلم

وكما ذكرنا سابقاً في دورة اكتساب المعرفة التي تمر بمرحلة الاستيعاب، فقد أُجريت دراستان حول هذا الموضوع في كل من الجامعة الأمريكية في بيروت(3) والجامعة الأردنية(4) جرت فيهما مقارنة مجموعتين من المتعلمين في مستوىً واحد، إحداها دُرِّست أحد المقررات باللغة العربية، والثانية دُرست المقرر نفسه باللغة الانجليزية، ثم أُجري اختبار للطلاب في هذا لمقرر، فوُجد أن المجموعة التي درست باللغة الانجليزية استوعبت ما يقارب 60% من المادة المدروسة، في حين بلغ الاستيعاب في المجموعة التي درست باللغة العربية نحو 76%.

وإضافة للاستيعاب الأفضل، عندما يتلقى الطالب علومه بلغته الأم، فهناك أيضاً اختصار واضح لوقت المتعلم الذي بغير ذلك سيضطر إلى البحث في المعجمات عن معاني المصطلحات، أو سيضطر إلى التفكير طويلاً بحثاً عن ترجمة لجملة معينة يستودعها في ذهنه حتى يستوعبها.

وقد أفاد طلبة كلية الطب في جامعة الملك فيصل (5) أنهم سيختصرون 50% أو أكثر من وقتهم لو أنهم قرؤوا كتباً أو كتبوا باللغة العربية.

إضافة إلى ذلك فإن التعليم الجامعي باللغة الأم سيخفف من تسرب الطلاب من الجامعات بسبب عدم القدرة على استيعاب العلم بلغة أجنبية، وسيوفر الفرصة أمام الطلاب للاستزادة من العلم من خلال المراجع العلمية المعرَّبة وسيبرِز المتفوقين بأعداد كبيرة حيث ستتاح لهم الفرص لمتابعة الدراسات العليا والبحث العلمي.

III-3- فوائد التعليم باللغة العربية بالنسبة للمجتمع

يوفر التعليم باللغة الأم العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع إذ يمكن من إتاحة الفرصة أمام الجميع بدلاً من اقتصارها على شريحة معينة حين يكون التعليم باللغة الأجنبية.

وكذلك سيوفر التعليم باللغة الأم أموالاً طائلة تُصرف على أساتذة أجانب.

إضافة لذلك فإن التعليم باللغة الأم سيوفر الكتاب المرجعي المُتَرجَم والمُعرَّب الذي يمكن اقتناءه من قبل شرائح كبيرة في المجتمع لانخفاض تكلفته.

III-4- فوائد التعليم باللغة العربية بالنسبة للغة نفسها

في ظل العولمة وثورة المعلومات تتعرض اللغة العربية لحركة تهميش نشطة بفعل الضغوط الناجمة عن طغيان اللغة الانجليزية على الصعيد السياسي والاقتصادي والتكنولوجي والمعلوماتي. وتشارك اللغة العربية في ذلك معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التي تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالي ضد العربية، نظراً إلى الارتباط الوثيق بينهما.

ورغم أن اللغة العربية بمنأى عن ظاهرة الانقراض اللغوي بسبب استيعابها للكلام الإلهي وحملها رسالة القرآن الكريم، إلا أنها تواجه حملة شرسة من خلال قرار منظمة التجارة العالمية بعدم اعتبار اللغة العربية ضمن لغاتها الرسمية وما يعنيه ذلك اقتصادياً وثقافياً وسياسياً.

وبغية مواجهة هذا التهميش سعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من خلال مكتب تنسيق التعريب بالرباط والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق وكذلك المؤسسات العربية الأخرى الجامعية والخاصة العاملة في ميدان الترجمة، إلى التصدي لهذه الحملة وتنشيط حركة الترجمة والتعريب وخاصة فيما يتعلق بالتعليم العالي مما سيغني اللغة العربية بالمصطلحات الجديدة، إذ يقدر عدد المصطلحات الجديدة التي تتولد كل عام بحدود 8000 مصطلح معظمها باللغة الانجليزية.

IV- الترجمة والتعريب وضرورتهما وطنياً وقومياً

إن نهضة العرب الحديثة، إذا أردنا لها النجاح، لا بد أن تنطلق من مفهوم أن عملية الترجمة والتعريب هما حجر الزاوية لمعرفة ما توصّل إليه الآخرون في ميادين المعرفة المختلفة، وذلك بغية استيعابها وتَمثُّلها تمهيداً لتوطينها ومن ثم الإبداع فيها وإضافة الجديد إليها.

فانطلاقاً من واقع أن النهضة العلمية العربية المعاصرة لم تدخل بعد في عصر الإنتاج العلمي والتقاني، تصبح الترجمة للعربية هي الوسيلة الأكثر نجاعة **للاتصال** بالآخر وتخطي الحاجز اللغوي العلمي والتقاني لأجل «الاطلاع» على المنجزات العلمية والثقافية والتقانية لهذا الآخر، **ولنقل** لغة التقانة العلمية من لغات الدول التي كان لها السبق في ذلك. فهي بالنسبة للعرب حالياً ضرورةٌ ملحَّة وحاجة دائمة لفهم وإدراك التطور العلمي والتقاني العالمي الذي يُعبَّر عنه بلغة أهل العلم والتقانة وهم حالياً، مع الأسف، من غير العرب.

أما الترجمة بحد ذاتها فهي إما:

- ترجمة معرفية، إذ أنها تلبي احتياجات جميع شرائح المجتمع من المعرفة وفي جميع مجالات الثقافة والعلوم، أو
- ترجمة وظيفية، إذ أنها تلبي احتياجات شرائح نوعية في المجتمع، وغالباً ما تكون في مجال التعليم العالي وفي التخصصات العلمية.

وهذه الترجمة الوظيفية هي التي يُعَوَّل عليها وطنياً وقومياً في تعريب التعليم العالي وتدريس العلوم باللغة العربية.

V- دواعي الترجمة والتعريب:

V-1- خلق وسائل المعرفة والتواصل العلمي باللغة العربية

لم تزل اللغة العربية أسيرة العلوم الإنسانية، إذ يلاحظ أنها تسجل يومياً قطيعة مع لغة العلوم والتكنولوجيا في عصر أصبحت فيه اللغة هي لغة الإشارات والمختصرات والأزرار المحمولة في آلات تحمل جبلاً من المعلومات العلمية والتقنية، إضافة إلى أن الكتب العلمية التي تصدر يومياً تحمل معها مفردات لغوية جديدة. فبغية خلق وسائل المعرفة والتواصل مع هذه المعلومات تصبح ترجمتها إلى العربية ضرورة مطلقة، بحيث يمكن تعميم تلك المعلومات على الأجيال العربية بمختلف أعمارهم تأسيساً لبناء نهضة علمية شاملة يكون فيها الإنسان المتعلم المؤهل بلغته الأم هو المحرك الأساسي لهذه النهضة.

V-2- تنمية اللغة العربية باستيعاب المستجدات اللغوية العلمية المعاصرة

إن السِّمة الرئيسية لعصر العولمة الذي نعيش فيه حالياً هي أن لا بقاء فيه للخامل، فمثلاً لا حياة للغة غير مُنْتِجَة للعلم، فإذا كان العالم العربي قاصراً في إنتاج العلم ومفرداته اللغوية، فسيبقى الاعتماد على الترجمة قوياً وبالتالي سوف يتزايد تأثير الترجمة في طبيعة اللغة العربية. ولهذا، فإن الترجمة والتعريب يسمحان للعرب والعربية البقاء والعيش في مناخ المعرفة والعلم العالمي المعاصر. فبغير الترجمة والتعريب كيف يمكن تعويض التخلف اللغوي المتعلق بالتقنيات التي لا ينتجها أهل العربية، إذ أنه وبكل تأكيد تزداد اللغة العربية تقدماً بتقدم أهلها وتتخلف بتخلف أهلها أيضاً، والترجمة تقدم مفتاحاً لكي تصبح اللغة العربية **منهج تفكير** إضافةً لكونها **وسيلة اتصال** وبالتالي يمكن أن تصبح منتجة للعلم مثلها مثل اللغات الأخرى المتحكمة في تقنيات العلم.

V-3- تعزيز البحث في الجامعات العربية

يُعدّ البحث العلمي في الجامعات رافعة للتقدّم والازدهار في دول تلك الجامعات. وغني عن القول أن هناك فجوة عميقة بين الجامعات العربية والجامعات الأخرى في الدول المتقدمة على مستوى البحث العلمي، وقد أصبح من غير المقبول حالياً أن تكون جامعاتنا دون بحث علمي جاد.

ولما كان التأسيس للبحث يبدأ من الإنسان، من طالب الجامعة وصولاً إلى أستاذ الجامعة، فإن هذا التأسيس يمر بفهم واستيعاب وتمثّل المعارف العلمية العالمية. فإذا لم تكن **هذه المعارف باللغة الأم للطالب** فلن تتأهل ذهنيته للبحث العلمي على نحو كامل عندما يصبح هذا الطالب باحثاً. ومن هنا يأتي **دور تعريب التعليم العالي الذي يمر بترجمة العلوم العالمية وتعريبها**. فاكتساب المعرفة لا يقتصر على البناء على قاعدة المعرفة الوطنية لتوليد معرفة جديدة من خلال البحث والتطوير، ولكنه يتطلب أيضاً جني المعرفة المتواجدة في أماكن أخرى، من خلال ترجمتها إلى العربية وتشجيع الانسياب الحر للمعلومات والأفكار. فالبحث العلمي يتعزز من خلال تعريب التعليم العالي ومن خلال ترجمة البحوث العلمية المرجعية المتلاحقة في العالم في كل مجالات العلم؛ إذ تشكّل هذه البحوث المرجعية الأساس في انطلاقة البحث العلمي. وفي هذا المجال فإنه من المعروف حالياً أن العلم العربي في الجامعات العربية كله مستورد وبعضه مترجم، وهو كذلك في غالبية جامعات الدول النامية، ويتوجب ترجمته باستمرار لكي يتم استيعابه على نحو أفضل.

وهكذا، فمن خلال الترجمة والتعريب في الجامعات العربية يمكن استيعاب وتمثّل وتوطين العلم على نحو أكبر وأشمل في الوطن العربي واستنباته لاستنباط الجديد فيه.

VI- مقومات الترجمة والتعريب:

VI-1- حيوية اللغة العربية وقدرتها على استيعاب الجديد في كل مجالات العلوم والآداب والفنون

لقد أثبتت اللغة العربية **عالميتها** بعد أن اعتُمدت في منظمة الأمم المتحدة كلغة من لغات هذه المنظمة . وأثبتت اللغة العربية **علميتها** بعد أن استُخدمت بنجاح باهر في التعليم العالي، في كافة العلوم الأساسية والطبية والهندسية...، في الجامعات السورية وفي بعض الجامعات العربية. وأثبتت اللغة العربية **حيويتها** بقدرتها الفائقة على استيعاب كل جديد في مختلف المجالات العلمية والأدبية بعد أن نُقل إليها ألوف الكتب والمؤلفات في العلوم والآداب والفنون على مر العصور.

VI–2– توافر المصطلحات العلمية بالعربية

يُعدّ المصطلح العلمي باللغة العربية الركن الرئيسي في التعريب، خاصة تعريب العلوم. وللمصطلح في العربية تاريخ قديم جديد، فقد استدعت ترجمة علوم القدماء إيجاد مصطلحات عديدة للدلالة على المعاني، وقد تم ذلك بجهود المترجمين والعلماء العرب. وبهذا الشكل فقد نجح «**بيت الحكمة**» في العصر العباسي بنقل معظم الكتب والمؤلفات في الحضارات اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية.

وفي العصر الحديث، في القرن التاسع عشر، دُرِّست العلوم، الطبية بشكل خاص، في القصر **العيني** في مصر وفي الكلية الإنجيلية السورية في بيروت باللغة العربية باستخدام مصطلحات علمية أوجدها العلماء العرب.

وفي نهاية القرن العشرين، بدأ العلماء العرب بوضع معاجم عديدة للمصطلحات العلمية شملت معظم العلوم تقريباً حتى مصطلحات المعلوماتية. وقد أنشأت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جهازاً خاصاً لتنسيق المصطلح هو مكتب تنسيق التعريب في الرباط الذي يجمع المصطلحات المتداولة ويصنفها ثم يقدمها إلى مؤتمرات التعريب لمناقشتها وإقرارها. وقد أصدر حتى الآن حوالي 40 معجماً للمصطلحات في كافة مجالات العلوم.

وكذلك قامت منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع مجلس وزراء الصحة العرب بإصدار المعجم الطبي الموحد الذي يحتوي على قرابة 150 ألف مصطلح تشمل كافة الاختصاصات في العلوم الصحية: الطب البشري وطب الأسنان والصيدلة.

فمن خلال توافر المصطلحات العلمية العربية الواردة في المعاجم المذكورة أعلاه وفي غيرها المُتَّفَق عليها بين أهل الاختصاص، نستطيع أن ندَّعي أن من سيقوم بالترجمة إلى العربية لن يجد كبير عناء في العودة إلى هذه المصطلحات.

VII– تعريب التعليم العالي: التحدي الحضاري والثقافي الكبير

تُعدّ قضية تعريب التعليم العالي في الوطن العربي من القضايا القومية الرئيسة. وتؤكد البحوث والدراسات أن غربة التعليم العالي عن واقعه العربي وضعف ارتباطه بقضايا التنمية، يمكن إرجاعها بالأساس إلى أنه تعليم مستورد من ثقافات أخرى في محتواه ولغته معاً.

وما زالت قضية تعريب التعليم العالي في محتواه ولغته قضية ثانوية لم تأخذ بُعدها القومي، بالرغم من طرحها في العديد من المؤتمرات وعلى المستويات العليا. وبالرغم من خطورة أبعادها ونتائجها، فإن دولة عربية واحدة فقط، –سورية– قد خطت خطوات جادة في طريق تعريب مراحل التعليم كافة، والتعليم العالي منه بخاصة. وبالرغم من المشاكل المعوقات

التي تواجه هذه الجهود بسبب فردية العمل، فإن النتائج ستكون آثارها إيجابية على التعليم السوري، بصفة خاصة والعربي بصفة عامة.

لقد أصبحت اللغة والثقافة العربيتان مهددتين لدى أغلب شرائح المجتمع، إما لأسباب الأمية والفقر وانحسار دور الدولة، أو لأسباب ثورة الاتصالات التي ربطت نخباً بعينها بثقافات خارجية من خلال المدرسة والمربية الأجنبية والإنترنت والأقمار الصناعية. ونحن نراقب تطورات ثورة الاتصال، ونسمع من خبراء اليونسكو أن 95% من واقع 6000 لغة مهددة بالانقراض، ولا نشارك بجدية في النشاط العالمي للمنظمة الأهلية التي تدافع عن التعدد اللغوي. وينتشر التعليم الخاص والأجنبي دون استراتيجية، وتتغير القيم في التعليم ما قبل المدرسي لصالح ثقافات أخرى دون أي شكل من أشكال المقاومة.

ولقد أطلقت جامعة الدول العربية شعار «العربية لغة العلم عام 2000» في سنة 1975، ووضعت في إطار ذلك «**الخطة العربية الشاملة للثقافة**» لتحقيق أهدافها (6).

ولقد دعا المؤتمر الأول للوزراء المسؤولين عن التعليم العالي في الدول العربية إلى وضع السياسات واتخاذ الإجراءات اللازمة لجعل اللغة العربية أداة الفكر ووعاءه في التعليم العالي، وفي البحوث العلمية تدريساً ودراسةً ونشراً مع التأكيد على ما يستلزمه ذلك في بعض الحالات من قرار سياسي يضمن وضع الخطط والوسائل التي يتطلبها تنفيذ التعريب في مرحلة التعليم العالي.

ولا يعني الدفاع عن اللغة العربية كأداة للفكر ووعاء له في التعليم العالي بأي حال من الأحوال استبعاد اللغات الحية عن هذا القطاع، حيث أصبح من الضروري في إطار ثورة المعلوماتية والانترنت تقوية الطالب العربي وإعداده جيداً لاستخدام اللغات الأخرى والتي أصبحت عالمية وضرورية للتعامل مع التطورات العلمية والتقانية الحديثة.

VIII- تعريب العلوم في التجربة السورية

لقد نجحت التجربة السورية في تعريب العلوم من خلال:

1- استخدام مصطلحات متفق عليها في المعجمات الصادرة عن مؤسسات عربية رسمية مثل:

- معجمات مكتب تنسيق التعريب
- المعجم الطبي الموحد ومتفرعاته: الصيدلي الموحد، طب الأسنان الموحد
- الكود العربي الهندسي

2- لم يتم تعريب الحروف أو الرموز اللاتينية في علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء (لم يتم تعريب جدول مانديلييف مثلاً)

3- لم يتم تعريب المعادلات الرياضية والفيزيائية فبقيت كما هي في النصوص العربية.

المراجع:

1- أ.د. دفع الله الترابي – من مشكلات هيئة التدريس في السودان – ندوة المسؤولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي – دمشق 2000

2- أ.د. رؤوف محمود سلام: التعليم الطبي باللغة العربية من منظور التكاليف والعائد – مؤتمر تعربي التعليم الطبي – الكويت 1996

3- أ.د. محمود أبو حرب: التعريب والذاتية الثقافية العربية – ندوة المسؤولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي – دمشق 2000

4- أ.د. محمد سعيدان – دور المجامع العربية في تعريب تعليم الطب – المجلة الطبية الأردنية 1988

5- أ.د. زهير السباعي – دفاع عن تعليم الطب باللغة العربية – مؤتمر تعريب التعليم الطبي – الكويت 1998.

6- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – الاستراتيجية العربية لتطوير التعليم العالي– تونس 2005.

البيبليوغرافيا

1 – المراجع العربية :

– إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركية، 1989.

– آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق 1980.

– محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي، نظرية قريماس (Greimas)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993 .

– سعيد علواش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984 .

– علامات، مجلة ثقافيّة محكمة، العدد 20 مكناس / المغرب، 2003 .

2 – المراجع الأجنبية :

Jean – Marie Floch, Sémiotique, Marketing et communication, sous les signes, les stratégies, PUF, Paris, 2002

A.J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979

A.J. Greimas in Anne Hénault, Les enjeux de la sémiotique, PUF, Paris, 1993

اللغة العربية وسهام العولمة

أ د أحمد بوطرفاية
مدير جامعة قاصدي مرباح – ورقلة

ملخــص :

تنطلق هذه الدراسة، من توضيح الأهمية البالغة التي تكتسيها اللغة بصفة عامة،كأداة للاتصال بين الأفراد والجماعات

وكحامل ومطور للفكر والثقافة، وذلك بتوضيح العلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر والثقافة، وعمليات التأثر المتبادل في هذا المجال، ثم تتعرض للتحديات التي تواجهها اللغة العربية في عصر العولمة في مختلف الميادين، وتقترح بعض السبل الكفيلة بإنقاذ اللغة العربية وجعلها صامدة في مواجهة سهام العولمة، مع التأكيد على دور الإنسان العربي في كل ذلك، لارتباط لغته به، سلبا وإيجابا ،إذ العجز كامن فيه، وليس في اللغة العربية التي تحتاج إليه في عملية النهوض بها وترقيتها، والبحث عن الوسائل المساعدة والفعالة لإيجاد الحلول وتحقيق الغاية والهدف المتمثل في مواكبة اللغة العربية للعصرنة.

العولمة :

* تاريخ المصطلح :

يحدد **أنتوني جيدنز** « Anthony Giddens » في كتابه –الطريق الثالث– تجديد الديمقراطية الاجتماعية »، الصادر سنة 1998، تاريخ العولمة بعشر سنوات سابقة على كتابه، حيث لم تستخدم هذه الكلمة في الأعمال الأكاديمية السابقة لذلك، أو الصحافة الشعبية، غير أنها انتشرت بعد سنة 1988 وتداولتها الألسنة، وصار لا يكتمل خطاب سياسي أو دليل لرجال الأعمال إلا بالإشارة إليها.(1) ويؤكد ذلك **رولاند روبارتسن** حيث يرى أن العولمة ومرادفها التدويل صارت مصطلحا شائعا في جميع المجالات، منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي.(2)

ويرى **صبري حافظ**، أن مصطلح العولمة، هو تعبير –القرية الكونية– « Global Village » الذي صاغه **مارشال ماكلوهان** في أواخر الخمسينات، ويرجعه **رمزي زكي** إلى سنة 1910، حيث يربطه

بتنظيرات الاقتصاد السياسي حول العولمة المالية للمفكـر النمساوي **رودولف هيلفردنج**.[3] وهناك من يرجع بهذا المصطلح إلى أزمنة بعيدة، **كـصادق جلال العظم**، الذي يرى أنـه منذ زمن بعيد ونحن نتداول مفاهيم ومصطلحات وتصورات هامة، مثل الرأسمالية العالمية، الاقتصاد العالمي السوق الدولية النظام الاقتصادي العالمي ...الخ، كما أرجعها **سمير أمين** في كتابه « **إمبراطورية الفوضى** » إلى خمسة قرون سابقة، أي منذ غزو أمريكا، لكنها –كما يرى– أطلـت من جديد في السنوات المنصـرمة وتجلت كظاهرة في المبادلات التجارية والمواصلات المتنوعة.[4]

ويورد **محمود عبد الفضيل** رأي الباحثين الغربيين إذ يرى أن عمليات العولمة ليست جديـدة حيث بدأت هذه الموجة في نهاية القرن التاسع عشر أي سنة 1870، لكنها لـم تستمر بسبب التناقضات، إذ توقفت بسبب حلول الكساد الكبير سنة 1929، و بعد الحرب العالمية الثانية انغمس الغرب في عملية إعادة البناء.[5] غير أن **محمد حافظ دياب**، يربــط مقاربة هذا المصطلح بالصيرورة التاريخية الكامنة وراءه كإرجاعه إلى تكوين إمبراطورية تاريخية، أو الانتصار العالمي لأحد أشكال الدين أو الاستعمار، أو ظهـور الشركات المتعددة الجنسيات، ومع ذلك فان العولمة الراهنة –تبدو في نظره– مختلفة عن أشكالها الأولية حيث تقوم على إطار مؤسسي تملك الولايات المتحدة الأمريكية سيطرة مباشرة عليه، ويمثلـه البنك الدولي للإنشاء والتعمير (IBRD) وصندوق النقد الدولي (IMF)و منظمة التجارة العالمية (WTO)[6] .

ومعنى هذا أن مصطلح « Globalisation » على مستوى الاستخدام المباشـر له لـم يظهر في الكتابات العلمية و الفكرية أو الأدوات الإعلامية إلا في نهاية ثمانينات القرن العشرين.

* مفهوم العولمــة:

يعد مصطلح العولمة من المصطلحات العائمة، رغم انتشاره، ولذلك تكثر الأسئلة حوله و منها: هل العولمة جعل الأنظمة السياسية على نمط سياسي واحد؟ أم فتح الأسواق و إلغاء القيود والحواجـز الاقتصادية بين الدول ؟ أو تصدير ثقافة معينة تسود جميع الثقافات؟... أم هي كل ما تقدم أو أكثر؟ [7].

ولا شك أن الانطلاق من كلمة « Globalisation » يوضح أن مفهوم العولمة هي اكتساب الشيء لطابع العالمية أي جعل نطاق الشيء وتطبيقه عالميا[8]. غير أ ن الملاحظ لمفهوم هذا المصطلح و معنـاه يجده متعددا بتعدد زوايا النظر: كارثة عامة لا تخلو من امتداد غيبي وآخر واقع كالزلزال، و أسطورة لعالم بلا أوهام، و طوق نجاة للبشرية ...الخ. وهذا يدفع بنا إلى اعتماد تعريف إجرائي لمفهوم هذا المصطلح،صادر عن وثيقة للجنة دولية مستقلة، شكلتها الأمم المتحدة، لدراسة حكم الكوكب، في تقريرها الصادر سنة 1995، بعنوان (مجاورتنا الكوكبية)

وهو بالنص كالآتي: (التداخل الواضح لأمور الاقتصـاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك، دون اعتداد يذكر، بالحدود السياسية لدولة ذات سيادة أو انتماء إلى وطن محدد، أو دولة معينة، ودون حاجة إلى إجراءات حكومية) [9].

ومن خلال النص السابق يتضح، أن جوهر العولمة ينحصر في تجاوز السيادة الوطنية وخلق قوة اقتصادية فوق قومية. ومن غير شك، فان هذا الاختلاف في المفاهيم مبني على اختلاف التوجهات الأفكار، و يمكن تقسيم ذلك إلى اتجاهين[10] :

– **اتجاه يرى** أن العولمة هي الدواء الفعال لتحقيق الديمقراطية وتوفير الحياة الكريمة لكل أفراد البشرية وهي أساسية لنشر نتائج العلم والتكنولوجية و لتسهيل التفاعلات بين الشعوب في جميع المجالات: (الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية) بين الشعوب، بل هي ضرورية أيضا للنمو الاقتصادي و بصفة خاصة في بلدان العالم الثالث [11].

– **اتجاه معارض** يرى أنها اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة، وانتقال الأموال والقوى العاملة ضمن إطار من رأسماليات حرية الأسواق، بإخضاع العالم لقوى السوق العالمية و اختراق الحدود القومية و انحسار السيادة الوطنية. وبمعنى آخر هي الدعوة التي تسعى إلى صياغة حياة البشر وفق قيم ومسالك وأنماط غربية، أي سيطرة أمريكا والغرب على العالم و ترسيخ مصالحها المركزية على حساب الأطراف [12].

ويبدو من خلال ما سبق، أن الاتجاهين لا يلتقيان، لأنه يستحيل القضاء على الفئة المناهضة للعولمة طالما هناك اختلاف جوهري بخصوص ماهية الأمور التي تسعد الإنسان، وهذا يمثل جوهر التناقض والصراع الفلسفي بين الأفكار.[13] والواضح أن ما يقع في العالم الآن، وما تفعله أمريكا، يعزز الرأي المعارض للعولمة، التي يفرضها القوي على الضعيف لسلب خيراته، فالعولمة بهذا المفهوم هي نشر القيم الغربية في جميع الميادين وهي بذلك عولمات: عولمة اقتصادية، عولمة سياسية، عولمة فكرية وثقافية واجتماعية. والذي يهمنا في هذا المقام هو العولمة الفكرية والثقافية، لأن اللغة موضوع هذه الدراسة، هي أبرز معالم الجوانب الثقافية، بل هي الحاملة للفكر والثقافة.

*** ماهية اللغـة و أهميتها :**

لا شيء في الوجود سوى العلامة،بها يحدث التواصل وبها يحدث الخلق والإبداع، فالإنسان مدني بالطبع، كما يقول **ابن خلدون**، يختلف عن غيره من الكائنات بحاجته إلى التواصل والمعرفة و فهم الواقع وخلقه باستمرار، وهذا بفضل وعي الإنسان بذاته، وتميزه وانفراده بالتعرف على الطبيعة، مما أكسبه القدرة على اكتشاف العالم وتكوين التصورات والمفاهيم

حوله، إذ يشكل الإنسان مع محيطه نسيجا متداخلا من العلاقات، يتفاعل مع بني جنسه، ومع الطبيعة، في المواقف المختلفة – المدركات والمشاعر – معتمدا في ذلك كله على أنظمة متعددة من العلامات [14].

واللغة أداة تواصل، و هي نظام علامات خاصة بمجموعة لغوية معينة،أي أنها نظام اجتماعي[15].

وقد عرفها **ابن جني** في الخصائص بقوله: (اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم). ولا شك أن اللغة كنظام علاماتي، هي أم العلامات، وهي الأساس في التواصل و التفاهم والإبلاغ، وهذا راجع لما تتميز به من الخصائص، ولما تحتويه من الإمكانات والقدرات، فهي التي تستطيع – من بين أنظمة العلامات الأخرى – أن تتحدث عن نفسها بنفسها، وتعبر بذاتها عن ذاتها، و في الوقت نفسه عن غيرها تصف و تشرح و تفسر و تعلل و تبرهن، ومعنى ذلك أننا نتحدث عن اللغة باللغة،و نتحدث عن غيرها من المعارف و الخبرات باللغة أيضا، بخلاف العلامات الأخرى، كعلامات نظام المرور والرموز الرياضية وغيرها التي تبقى قاصرة تحتاج إلى اللغة دائما لترجمة مضمونها ومدلولاتها.

ومما يزيد في أهمية العلامة اللغوية، و يرفع من قيمتها، أن وظيفتها يمكن أن تؤدى بطريقتين: النطق و الكتابة، فهي تواصل و إبلاغ و حفظ وتسجيل، إضافة، إلى كونها أداة للفكر، وانفتاح التفكير ونموه لا يتم إلا بواسطتها[16]. ولذا فالتطور العلمي يوازيه تطور في مجال اللغة، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعتبرون العلوم أنواعا من اللغات، فاللغة كما وصفها **مارتن هيدجر** (بيت الوجود)، بل هي الكون والوجود اللامتناهي، والتحكم في دواليبها وترقيتها تحكم وترقية للكون الوجود.

* ماهية الثقافـــة:

يعرف، ادوار تايلور، الثقافة بأنها (كل مركب يشتمل على المعرفة و المعتقدات و الفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك، من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان، باعتباره عضوا في مجتمع)[17]. كما يعرفها، ببساطة ووضوح، أحد علماء الاجتماع المحدثين، روبرت بيرستد، بقوله: (الثقافة، ذلك الكل المركب الذي يتألف، من كل ما نفكر فيه أو نقوم به، أو نتملكه، كأعضاء في مجتمع)[18].

ومن خلال التعريفين السابقين، يتضح أن الثقافة مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه بالمجتمع،و بكل ما يحيط به ويستخدمه، أو يقوم به في جميع المجالات الفكرية والمادية، فكل شيء يعد ثقافة، من الثياب إلى الكتاب، ومن الطعام إلى الصورة، الثقافة قائمة في كل مكان.[19]

والمتتبع لتاريخ الشعوب وحضاراتها، يكتشف أنه لا وجود لثقافة من غير مجتمع، كما لا يوجد مجتمع صامد وباق من غير ثقافة، وفي هذا المقام استحضر قول: رولان بارت، في مجال القصة: (لا يوجد شعب، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا في أي مكان، من غير قصة)[20]. لأقول أيضا لا يوجد مجتمع في الماضي ولا في الحاضر من غير ثقافة، والمجتمع اللا ثقافي معدوم بحكم التاريخ.

والثقافة بهذا المفهوم، ليست هي كل ما يتصل بالماضي، أو العادات و السلوكات و التقاليد الموروثة فحسب: بل هي في جوهرها، تتميز بديناميكية المجتمعات في تفاعلها مع محيطها العام، محاولة تغييره أو التأثير فيه، مستخدمة لتحقيق تلك الغاية، جميع أدواتها اللازمة، لتسخيره خدمة لها. ومعنى هذا أنها تنطلق من الحاضر وتأخذ من الماضي ما يدفع بالحاضر إلى مستقبل أحسن، فهي تواصل واستمرار وفي هذا المعنى يقول: **رولان بارت**: (إن الثقافة بلا تاريخ، أو على الأقل إنها من غير قطيعة تكون خاضعة لتكرار غير مضن، الثقافة ليست ما يعود و لكنها أيضا، ما يبقى في موضعه مثل جثة لا تفنى، إنها لعبة غريبة و التاريخ لا يكسرها على الإطلاق)[21].

* علاقة اللغة بالفكر و الثقافة:

إذا انطلقنا من اعتبار اللغة مؤسسة اجتماعية أو نظام اجتماعي، كما يرى **دوسوسير**[22]، فان وظيفتها لا تنحصر في كونها أداة للتواصل و التفاهم: بل تتجاوز ذلك، إلى كونها الحامل و الناقل لمحتويات الفكر والثقافة، والمختزل لذاكرة وتاريخ وتطلعات الشعوب و الأمم.[23]

وبصفتها من أهم النشاطات الإنسانية، فهي منزل الكائن البشري ومرآة فكره، يلجأ إليها لتأكيد وجوده، و ينطلق منها لتحقيق رغباته وآماله وطموحاته[24]. وهذا يؤكد الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر والثقافة.

ومن هذا المنطلق، تعد اللغة أهم المرجعيات في تشييد المعمار الحضاري، و في بناء صرحه الثقافي: إذ هي الأداة الفعالة في تحريك المشاريع الثقافية و الحضارية المعاصرة، فاللغة فكر و إبداع– كما سبقت الإشارة إلى ذلك– و هي أداة التميز و الاختلاف، إذ تعد من أهم الملامح التي تكون هوية الأمة و تميزها عن غيرها من الأمم، إذ هي العنصر الجوهري لكل ثقافة أو حضارة[25].

فهذا الارتباط الشديد و هذه الصلة القوية بين اللغة و الثقافة، يجعل كلا منهما يتأثر بالآخر، سلبا أو إيجابا، ازدهارا و انتشارا، أو نكوصا وانغلاقا. فالتحدي للثقافة يعد تحديا للغة، و العكس صحيح.

واختراق اللغة اختراق للثقافة، ومجمل القول أن اللغة هي السجل، في الماضي والحاضر، لتاريخ الشعوب وهي التي نتطلع بها نحو المستقبل، فهي ديوان ثقافي ونسق رمزي وأساس التنمية الفكرية والمادية ولا شك في أن الشأن الثقافي لكل أمة، هو الذي يحدد بقوة ملامح هويتها[26].

* **واقع اللغة العربية:**

يتضح مما سبق أن الاهتمام بمصير اللغة العربية أمر ضروري: لأنها تمثل الحصن الحصين ضد الذوبان والتلاشي، فعزل اللغة عن مجرى الحياة العامة، يورث الضعف العام في كيان الأمة الناطقة بها فتعجز عن الحفاظ على مقوماتها أو حماية مصالحها وبناء ذاتيتها(27). والمتأمل في واقع اللغة العربية، من المحيط إلى الخليج، يكتشف أن هذه اللغة، تبدو كالغريب في وطنه، بسبب المضايقات التي تتعرض لها والجحود الذي تعاني منه من قبل أطراف نافذة في الدول الناطقة والمعترفة بها دستوريا(28).

وهذا الواقع يجعل اللغة العربية معزولة عن وظيفتها، وهو واقع ينطبق على واقع العرب والمسلمين، يتسم بلوازم الضعف و التخلف في عصرنا الحاضر، ولا غرابة في ذلك، فاللغة مرتبطة بالإنسان رقيا وانحطاطا، ولذا ينبغي أن لا توجه سهام النقد والتعليق إلى اللغة العربية بل الواجب توجيهها إلى الوضع الحضاري والثقافي العام، فالضعف خارج عن إطار اللغة متصل بأسباب كثيرة اقتصادية وسياسية واجتماعية، ومنها أيضا الإنسان العربي مكمن الضعف، إذ لا وجود لإنسان متحضر و لغته متخلفة ولا وجود لإنسان متخلف ولغته متقدمة، فالعيب فينا وليس في اللغة العربية التي تبدو مؤهلة لصياغة الإنسان بالمحمول الثقافي المضمر فيها، وذلك لقدرتها على حمل المعرفة وإنتاجها ونشرها(29). فالعجز كامن فيما يقوم به الإنسان العربي وليس في اللغة التي تحتاج في نموها و تطورها إلى نخبة تؤمن بقدرات اللغة العربية وقابليتها للاكتساب والتطويع (30)، فتقوم بخدمتها ومحاولة النهوض بها.

ولتوضيح ذلك أكثر، يمكن أن نقول: لم تكن اللغة الأجنبية عاملا حاسما في نهضة اليابان الحضارية و ما حققته في المجالين العلمي والتقني(31). و لن تكون عاملا حاسما في تطوير إثيوبيا و إخراجها مما هي فيه، و في هذا المقام، أسترجع حادثة شاهدتها على شاشة التلفزة الجزائرية في بداية التعددية الحزبية حيث سأل منشط الحصة أحد رؤساء الأحزاب عن اللغة العربية أهي السبب في تخلف الأمة العربية ؟ فأجاب: – أجل– وأشاد باللغة الفرنسية والانجليزية، لكن الصحافي عاد فطرح عليه السؤال بمكر ودهاء وماذا تقول في لغة أثيوبيا ؟ فأجاب هي أكثر تخلفا وانحطاطا من لغتنا والمضحك أنه لا يعرف بأن اللغة الرسمية في هذا البلد هي اللغة الانجليزية.

ومن خلال هذه الملامسة للواقع العربي، يتضح أن اللغة العربية بدأ مدها ينحسر بانحسار مد النهضة والتطور الحضاري، وبدخول العرب في متاهات القلق والاضطرابات، بسبب الحروب وعدم الاستقرار وخلخلة البنيات التحتية للمجتمعات العربية، وبناء على ذلك، فما دامت اللغة عاكسة لصورة المجتمع فإن الوضع الراهن للغة العربية يؤكد أن ضعفها واقع لا ينكره عاقل، في جميع المجالات، بسبب ما يمكن أن نسميه (الأزمة الحضارية) بأبعادها السياسية والسيادية والأمنية والفكرية(32).

*** اللغة العربية : تحديات و حلول**

إن التصدي لسهام العولمة أو التيار الجارف لكل شيء، يقتضي منا في بداية الأمر، أن نتأكد من صلابة تمسكنا بانتمائنا إلى اللغة العربية؛ إذ لا يمكن الاعتقاد بعولمة أي شيء، ما لم نتحقق من هويتنا والمكان الذي سننطلق منه، فالضغط على نقطة المركز (الهوية) شرط أساس للتفتح على الآخر والطموح للالتحاق بالركب العالمي أو بما هو عالمي يتوقف في بداية المطاف على معرفة من نكون ؟ و هذا هو السلاح الأول والفعال في هذا المجال، ثم ننطلق بعد ذلك، إلى أهداف و أبعاد أخر، تماما كالحجرة التي ترمى في الماء، فتحدث تموجات انطلاقا من نقطة الارتطام (المركز) فإذا أردنا أن تنتشر موجاتنا فينبغي أن يكون لدينا رابط قوي بنقطة المركز (الهوية) (33) .

ومن غير شك أن كل اللغات تتعرض للاحتكاك فيما بينها، واللغة العربية ليست معزولة أو مستثناة من هذه القاعدة، فهي بالتالي معرضة للتحدي، والتأثير و التأثر . وفي مثل هذه الحالة حسب رأي **ابن خلدون**، يعجب فيها المغلوب بالغالب فيتشبه به : « في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعاداته »(34) . والنظرية السائدة في هذا المجال، أن لغة الغالب تسيطر على لغة المغلوب، وربما تقضي عليها مع مرور الزمن، وكذلك فيما يخص الفكر والثقافة، وهذه قاعدة تصدق على جميع الحالات التي يكون فيها الغالب هو الأقوى حضارة و فكرا وثقافة من المغلوب، فالضعيف تابع للقوي متأثر به، غير أن هذه القاعدة قد تنكسر فيتأثر الغالب بالمغلوب، إذا كان هذا الأخير أقوى منه في المجال الحضاري والثقافي .

ومن هذا المنطلق، نقر بأن اللغة العربية تواجه، في عصرنا الحالي، تحديات كثيرة في جميع المجالات و تتمثل في المصالح المادية الناجمة عن الاتصال بالأجنبي، والتأثير الإعلامي القائم على الصخب والتبشير باللغة الانجليزية والإدعاء بأنها لغة عالمية .

غير أن المتأمل لرقعة هذه اللغة يكتشف العكس ؛ إذ أن جميع الدلائل والقرائن تؤكد بطلان هذا الزعم، فمن خلال دراسة قام بها، **صامويل هاندجتون**، في كتابه (صدام الحضارات) أثبت أن عالمية اللغة الانجليزية وهم كبير، و برهن على صحة رأيه، بانخفاض نسبة الناطقين بها، حيث كانت نسبة الذين يتحدثون بها كلغة أولى سنة 1992 لا تزيد عن **%07.6** في مقابل **%09.8** سنة 1958، و من هنا فاللغة التي تعد أجنبية بالنسبة لـ: **92 %** من سكان الأرض، لا يمكنها أن تكون عالمية(35) .

وبالإضافة إلى ذلك، فإذا أمكن انتشار لسان ما، ومعرفته من قبل بعض الأمم، زيادة على ما يعرفون من لغاتهم القومية، فمن الصعب جدا أن ينتشر بين الشعوب على اختلاف مواطنها، كلغة تستولي على ألسنتها و تطمس آثار لغتها . فاللغات تفكير وإحساس، ومن الصعب اتحاد الأمم في تفكيرها وأحاسيسها، فليس من السهل أن تقبل الأمم بلغة ما وتهجر

لغتها، وحتى إذا فرضنا أن شعوبا أو أمما قبلت بذلك، فان الشعوب الناطقة باللغة العربية حريصة على بقاء لغتها[36]. لارتباطها بالديانة الإسلامية و كونها لغة القرآن الكريم الحافظ للسان العربي.

غير أن الانبهار بكل ما هو أجنبي، و منه اللغة، ظاهرة بارزة، سادت في عصرنا، كما ساد الظن بأن التقدم و التحضر لا يحدثان إلا بإتقان اللغة الأجنبية، والتحدث بها بين العرب أنفسهم، وهذا في الحقيقة راجع إلى الشعور بالنقص و الدونية، وإلى الإحساس المتزايد بالهزيمة النفسية التي يعيشها الإنسان العربي المقهور في داره، وكذلك راجع، إلى الإعجاب المتنامي بصناع الحضارة المعاصرة [37].

فهذا الإعجاب، بطبيعة الحال، أدى ببعض أفراد المجتمع إلى استعمال ألفاظ أجنبية، في معاملاتهم اليومية، على الرغم من عدم وجود الحاجة إليها، حيث تزخر اللغة العربية بما يقابلها، ومثال ذلك كلمة « **Mobile** » التي يقابلها باللغة العربية أربعة ألفاظ :الهاتف الجوال، النقال، المحمول، الخلوي[38]. إلى غير ذلك، من الألفاظ الأجنبية المستعملة في التواصل اليومي، إضافة إلى عناوين ولافتات المحلات التجارية وبعض الجرائد والصحف اليومية، ودور السينما والمسارح. والغريب أن هذا الإعجاب باللفظ الأجنبي يؤدي بكثير من الناس، إلى ترك اللفظ العربي وإهماله، مع سهولته و تيسره مثل كلمة (**هاتف**)التي استقرت وعرفت عند كثير من العرب، وصارت مفهومة عند الكبير والصغير، ومع ذلك فان بعضا منا لازال يستخدم لفظ (**تليفون**) وقد يشتقون منه أفعالا[39]، تلفن يتلفن.

والحقيقة أن الدخيل وجد في اللغة العربية منذ القديم، ومن سمات اللغات أن تقترض من بعضها و تستعير ما تحتاج إليه، و الدخيل في اللغة العربية هو صورة لظاهرة عامة في كل اللغات، فالتبادل الحضاري يشفع في بعض الأحيان بالتبادل اللغوي[40]. وليس معنى هذا أن نترك الحبل على الغارب فنستورد كل شيء من غير أطر وقواعد ضابطة لذلك، إذ الشرط الأساس، في الاقتراض الحاجة الماسة إلى تلك الألفاظ الدخيلة وانعدام ما يعبر عن معانيها في لغتنا، وهذا لحمايتها من كثرة الدخيل الذي يحولها إلى مزيج من اللغات أو إلى خلطة غير واضحة المعالم و الملامح .

وفي هذا المقام، تقع على عاتق المجامع اللغوية العربية، مسؤولية الدفاع على اللغة العربية، و هذا لا يتأتى إلا بالتنسيق المحكم فيما بينها وتقوية التنظير اللغوي، والإكثار من البرامج اللغوية التي تصلح الخطأ وتعلم الفصيح، وتحارب الدخيل الذي لسنا في حاجة ماسة إليه، ثم تنظر فيما استجد من المعاني فتضع لكل معنى لفظا يناسبه[41]. إلى غير ذلك من المهام المنوطة بهذه المجامع اللغوية .

ومما يواجه اللغة العربية في سوق العمل، المغالاة والمبالغة في اشتراط إجادة اللغة الانجليزية (أو الفرنسية في بعض البلدان) كتابة وقراءة وتحدثا، من قبل الشركات الأجنبية، وبعض المؤسسات والشركات الوطنية، إذ أصبح المواطن غريبا لغويا في كثير من المؤسسات والشركات، وفي أماكن النفع والخدمات العمومية، كبعض المستشفيات والفنادق والمطاعم ووكالات السفر والسياحة، حيث يمكن القول أن المواطن أجبر على تعلم اللغة الأجنبية كي يحصل على مطلوبه، وهذا وضع شاذ ؛ إذ المفروض أن تقع مسؤولية تعلم اللغة العربية على عاتق العامل الأجنبي، فهو الذي ينبغي أن يجيد لغة البلاد التي يعمل بها[42].

وفي هذا المجال، يجب أن يجد الإنسان العربي لغته لغة فاعلة في المجتمع مقبولة في الميادين المختلفة كالتجارة و الصناعة ووسائل الإنتاج والتوزيع، لا يرده في ذلك شرط الانجليزية إلا إذا كانت طبيعة عمله تحتاج إلى ذلك في مواقع محددة[43].

وتحقيق هذا الهدف، يتطلب تحسين وضع اللغة العربية في المجتمع و صيانة متنها لمسايرة المستجدات، و تطوير البحث العلمي خاصة المتعلق منه بالبحوث اللسانية، بتداخلاته مع العلوم المعرفية الأخرى، الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والديداكتيكية والحاسوبية [44]. وبهذا يمكن تحقيق العمل للمواطن وتطبيق اتفاق العالم على مفهوم العمل خاصة فيما يتعلق بأمرين: الأول وهو حق العمل والثاني التشغيل الكامل وهذان الأمران ثابتان في المواثيق الدولية من دستور منظمة العمل الدولية 1919 إلى العقد الاجتماعي الأوروبي1996، ويتضمن ذلك ما سنته الدساتير الوطنية بما في ذلك دساتير البلدان العربية وما تضمنته الاتفاقيات الدولية [45].

كما أن هذا الافتتان باللغة الأجنبية، أخذ نصيبه في قطاع التربية و التعليم، وصار الإنسان العربي يحرص على تعليم أطفاله اللغات الأجنبية، وكانت المدارس الخاصة سباقة في ترسيخ هذا الاتجاه بل ذهبت إلى ماهو أخطر من ذلك وصارت تقوم بتدريس المواد العلمية بهذه اللغة الأجنبية، وبهذا تم إقصاء اللغة العربية وإبعادها عن مكانتها الطبيعية، وكذلك الحال، بالنسبة للتعليم الرسمي وما يشتمل عليه من ازدواجية اللغات في مراحله المختلفة في الأقطار العربية (عربية فرنسية) (عربية انجليزية)، وتعليم بعض العلوم إما بالفرنسية أو الانجليزية كالطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء . . . .

وإصلاح هذا الانحراف، يتطلب مشروعا نهضويا، يقوم على توطين العلم والتقنية في البلاد العربية[46]. ولن يتم ذلك إلا من خلال الإصلاح التربوي الحقيقي الذي يجعل العرب يتعلمون بلغتهم ويفكرون بها ويبدعون من خلالها .[47] فتطوير اللغة العربية و جعلها قادرة على الإبداع وحمل المعرفة وإنتاجها أمر ضروري وهو الأساس لبناء المجتمع.

ولا ريب في أن التعليم تطور و كثرت الوسائل التي تقوم بهذه المهمة، فلم يعد التعليم تقليديا مع ازدياد فعالية طرق الاتصال، وأصبحت مراعاة احتياجات العمل ضرورية، إذ تحول التعليم من خدمة عامة إلى خدمة عن طريق السوق يخضع لقوانين العرض والطلب(48). وصار التعليم عن بعد والتعليم المفتوح يعتبران من القوى المحركة للعولمة، و يصنعان مؤسسة أنظمة التعليم الحديثة: المدرسة/ الجامعة على المحك، وهما يؤسسان نواة المجتمع الافتراضي.

كما توجهت الأنظار إلى الجودة و اعتبرت صلب اهتمام عملية التعليم، وصارت نظم التعليم العالمي الحديثة هادفة إلى إرساء التعليم لأجل الاستقلالية وتحقيق الكفاءة العالية في الأداء وذلك يعد استجابة سريعة لتحقيق سرعة التغيرات نحو العولمة والاستقلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي(49).

ومن منطلق كون التعليم حق لكل مواطن، فان المهام المنوطة بالتعليم و برامجه في إطار إستراتيجية التنمية تنحصر فيما يأتي(50):

- ربط التعليم بالإنتاج ودعم التعليم الفني والزراعي والصناعي والتجاري وتطوير فكرة المدرسة الشاملة على ضوء التجارب العالمية.
- تطوير برامج التعليم و التدريب.
- توفير الإمكانات والحوافز اللازمة لضمان التعليم المستمر.
- إدخال التكنولوجيا باعتبارها عنصرا أساسيا في العملية التعليمية.
- تحديث الجامعات بما يواكب تطور العلوم الحديثة .
- الوصول إلى المعدلات العالمية فيما يتعلق بالكيف والكم .

ولا شك أن مسايرة اللغة العربية في مجال تعليمها لهذه المعايير، يخرجها من المأزق الذي تتخبط فيه ويلحقها بالركب الحضاري العالمي.

وفي هذا السياق، يجدر بنا أن نشير و لو باختصار إلى تقرير البنك الدولي (19 مارس 2008) والمعنون بـ: الطريق غير المسلوك: إصلاح التعليم في منطقة الشرق الأوسط و شمال إفريقيا، و فيه:(51) - التأكيد على مهارات حل المشاكل بدلا من أسلوب الحفظ .

- فرص العمل في القطاع العام تشوه أسواق العمل .
- اقتراح حوافز تشجيعية للأداء المتميز للطلاب و المعلمين.

كما تواجه اللغة العربية، بالإضافة إلى ذلك، خطر الازدواجية اللغوية أي العاميات المنتشرة في أرجاء الوطن العربي و الفصحى المشتركة بين هذه البلدان، و الجدير بالذكر أن الفصحى لا يقصد بها اللغة القديمة، فصحى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية، بل يقصد بها الواقع اللغوي الحديث الذي هو استمرار لواقع لغوي سبقه، مع وجود أوجه اختلاف بينهما، شأن الكائن الحي المتطور يفيد من تقدم الزمن به، ومن صلاته بالآخرين.(52)

والمتأمل، يكتشف أن اللغة العربية الفصحى تعيش اليوم في خضم متلاطم من أحراش العامية وتخوض حرب البقاء المشروع، على الرغم مما تواجهه من صور التحدي، ولاسيما عندما يتشبع الناس بالثقافة العامية فيعيشون حالة من الانفصال الثقافي، وحالة من الازدواج اللغوي. والحل الأمثل، في هذا المجال، أن نحاول تقريب الشق الفاصل بين العامية والفصحى، لا على حساب الفصحى، بل برفع العامية إلى مستواها وتلك، غاية دامية المنال، بعد التطور الرائع الذي عرفته وسائل الاتصال، غير أن ذلك لا يتحقق إلا بشرط أن يتولى تسيير واستعمال هذه الوسائل مثقفون و مثقفات، يقودون خطابا تنمويا في هذا السبيل(53). وتكون تنمية اللغة العربية و تحسين استعمالها هدفا أساسا من بين أهدافهم الإعلامية.

ومما يواجه اللغة العربية أيضا، محاولة هيمنة الإعلام الغربي على الساحة العربية وفرض نظرتها للكون والحياة على أفراد هذه الأمة، إذ أن تقنية الاتصال الحالية تسمح للفرد بالانفتاح على مجالات إعلامية وثقافية متعددة، وهذه التعددية الإعلامية من غير شك، تقوم بتشكيل رؤية جديدة لأفراد أمة ما تختلف عما هو مستقر في مجتمعهم .

ومعنى ذلك، أن الإستراتيجية الإعلامية، تمثل المحور الأساس والمؤثر في عصرنا الحالي، كما أنها إحدى أعمدة الحوار بين الأطراف المتعايشة، في هذا الكيان الجديد، ومن امتلك الكلمة أو الكلمة والصورة وأحسن استخدامها، حاز الفوز، ونال أهدافه و غاياته.

ولهذا يجب على القائمين بالاعلام العربي المسموع أو المكتوب أو السمعي – البصري، أن يضطلعوا بالمهام المنوطة بهم وأن يضعوا نصب أعينهم خدمة اللغة وتنميتها وتطويرها إذ لا يشك عاقل في قدرة الإعلام على تحقيق المعجزات في المجال اللغوي وللتدليل على ذلك: المسلسلات المدبلجة وما فعلته بالإنسان العربي و بالطفل العربي الذي صار يردد العبارات العربية الجميلة بطريقة جذابة و مثيرة ومثل هذا، ينبغي أن يكون محفزا لرجال الإعلام و الصحافة وللمنتجين في مجال السينما والمسرح، على الإكثار من الإنتاج الجيد الذي يرقى باللغة العربية إلى المستوى اللائق بها، والذي يجعلها تساير العصر وتدور مع دواليب الحضارة و العصرنة.

ومما يواجه اللغة العربية أيضا، التحدي العلمي والمعرفي، إذ يلاحظ أن المعارف الإنسانية والتقنيات التكنولوجية، تزداد بوتيرة سريعة و مذهلة لا تتوقف لحظة واحدة، في جميع الميادين، و لذا تتوقف مواكبة اللغة العربية لعصرها، على إنتاج المعرفة وتنميتها وإبداع المفاهيم.

وفي ظل هذا التراكم السريع للمعرفة الحديثة و المعلومات المتنوعة يجب على اللغة العربية أن تتهيأ لهذا و أن تكون قادرة على استيعاب معارف العصر و انتاجاته، ولا يتحقق لها ذلك، إلا بمشاركتها في الإبداع و الإنتاج و مساهمتها في الحضارة الإنسانية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، بتأهيلها لحمل المعرفة الإنسانية واتساعها لترجمة مفاهيمها، وكذلك الحال فيما يخص تحديث المعرفة(54)، عبر التعريب والترجمة وصناعة المعاجم المتخصصة وتشجيع البحث العلمي.

فمن المؤكد أن الترجمة تعد من أهم السبل الكفيلة بتنمية المعرفة والتي تعني اليوم نقل نص من لغة إلى لغة أخرى عن طريق الكتابة أو المشافهة.[55] و مع الاعتراف بصعوبة ذلك و بصفة خاصة، في المجالات الأدبية و الفكرية ولذا يقال إن الترجمة أصعب من التأليف، حيث يمتلك المؤلف حرية اختيار المعنى الذي يريد، ويعبر باللفظ الذي ينتقيه، وهذا لا يتوفر للمترجم الذي يتقيد بالنص الذي أمامه[56]. ورغم هذه الصعوبة لا مناص من ولوج عالم الترجمة، لأن الحاجة ماسة إلى ذلك، في مجال التطور اللغوي و تنمية اللغات، وكذلك الحال فيما يخص حاجة الأفراد إلى الترجمة، إذ أصبح مستحيلا على المرء أن يتعلم لغتين أوروبيتين، كالاسبانية والايطالية للاحتكاك بأدبهما فقط، كما استحالت معرفة كل الآداب الأوروبية بلغاتها الأصلية، بل و الأكثر من ذلك، يمكن القول بأن كثيرا من الاختصاصيين في الأدب الفرنسي مثلا أو العربي لا يعرفون حقيقة إلا الفرنسية أو العربية، وكذلك الحال في اللغات الحية

والأدب المقارن، ومعنى هذا أن أغلبهم يتصلون بالأعمال التي تبلغ الشهرة الأوروبية عن طريق الترجمات فقط[57].

ويتضح من خلال ما سبق، أن الترجمة شكلت على الدوام –باعتبارها نشاطا إنسانيا– جسر التواصل و التلاقح بين اللغات المتعددة و الثقافات المختلفة و الحضارات المتمايزة، وأسهمت في التعريف بأنماط الحياة والآداب والفلسفات ؛ إذ هي الوسيلة المثلى في حوار الحضارات، تضطلع بدورها على الاغتناء المتبادل لا على الإلغاء و التفاضل [58].

ولقد حظيت الترجمة باهتمام العرب منذ القديم، و مثلت العامل الأساس في عملية النمو اللغوي حيث ترجم العرب كل ما لم يكن معروفا عندهم، كالمنطق و الفلسفة والطبيعيات والرياضيات، فولدت اللغة و طوعت من قبل المترجمين المهرة، و كانت الانطلاقة الجادة، في عهد **المنصور** الذي شجع المترجم و أجزل له العطاء، ثم ازدهرت في عهد **الرشيد**، وبلغت ذروتها في عصر **المأمون** الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء « **دار الحكمة** » ببغداد واستقدام العلماء و الباحثين الأجانب و تشجيعهم على ترجمة كل المعارف الشائعة آنذاك، من اليونانية والفارسية والهندية[59].

واليوم، تبدو الحاجة أكثر إلحاحا من ذي قبل لتشجيع الترجمة وتطويرها والتحكم في أدواتها نظرا للكم الهائل من المعارف العلمية والأدبية التي تنتج في مختلف بقاع العالم، ومن أجل تحقيق هذه الغاية، أي الاطلاع على كل ما يدور في العالم، نجد الدول المتحضرة تتباهى بعدد الكتب والمقالات المترجمة في كل سنة، وهي قبل ذلك تشجع المترجمين، بتوفير جميع الوسائل، للقيام بمهامهم النبيلة خدمة للغاتهم وتطويرا وتنمية لها، ولذا فإذا أرادت الأمة العربية أن تبقى لغتها حية صامدة، تواكب العصرنة وتتطلع إلى المستقبل، فما عليها إلا أن تقتدي بما يفعله الغرب في هذا المجال.

وخلاصة القول أن مستقبل اللغة العربية مرهون بمستقبل الأمة العربية، فاللغة حتما مرتبطة بأبنائها الناطقين بها، سلبا وإيجابا، والدليل على ذلك، أن اللغة العربية في أيام عزها، و في عصورها الذهبية أمدت العالم بالعلوم والمعارف و أثبتت جدارتها وقدرتها على الانتشار والتوسع والاستيعاب والتواصل الفكري الإنساني، وعلى العكس من ذلك، يعيش الآن الإنسان العربي أزمة حادة على مستوى جميع الأصعدة، فانعكس ذلك سلبا على الواقع اللغوي ونعتت اللغة العربية بالعجز عن مسايرة العصرنة ومواكبة التطورات العلمية المذهلة .

غير أن هذا الوضع لا يمنعنا من النظرة التفاؤلية إلى مستقبل اللغة العربية، وذلك انطلاقا من خصائصها المميزة (صوتية، مورفولوجية، تركيبية، معجمية) والتي جعلت منها لغة حية قادرة على احتواء ما ينتجه الفكر الإنساني، إذ أثبتت عبر تاريخها أنها لغة تطبيع و تطويع، وأداة تعبير و تواصل بين الأفراد و الجماعات، وفي هذا المقام، قدم **أحمد بن محمد الضبيب** بشرى تقول: أن دراسة أجريت في اليابان على اللغات العالمية، تستهدف معرفة أكثرها وضوحا من الناحية الصوتية في استخدامات الحاسب الآلي، أثبتت أن العربية تتصدر هذه اللغات من هذه الناحية .

وانطلاقا كذلك من أصالتها المتجذرة في التاريخ و المرتبطة بالقرآن الكريم و التي تعتبر بمثابة العرين الذي يلجأ إليه الإنسان العربي في الأوقات الصعبة و في أزمنة المحن و الاستعمار، لحماية هويته فهذه الأصالة الثابتة الراسخة يمكن أن تكون بمثابة الدافع و المنطلق إلى التجديد، كما أن المخزون الثقافي والحضاري يمثل قوة كامنة تمنح اللغة العربية الحصانة الثقافية، و يساعدها على إثبات الذات و مواجهة التيارات الجارفة .

أضف إلى ذلك، أن العولمة على افتراض أنها استطاعت أن تسيطر في المجال الاقتصادي و أن تفرض معاييرها و قيمها، فان ذلك لا يتوفر لها و لا تحصل عليه بسهولة في المجال الفكري و الثقافي لارتباطهما بتاريخ الشعوب من جهة، و بالمسار الزمني من جهة ثانية، فمن الصعب، بل من المستحيل أن يتخلى شعب ما، عن تاريخه و هويته، وكذلك من المحال أن نقف ضد تيار الزمن، فاللغات تتطور و تنمو، و لا يمكن حصرها في لغة واحدة، إذ اللغة تتحول إلى لهجات و اللهجة قد تتحول مع مرور الزمن إلى لغات وهكذا ...

فالأكيد أن العولمة ستهزم، في هذا المجال، وستصطدم أمواجها بصخور الشواطئ العاتية، كما هزم الاستعمار الفرنسي الذي استوطن الجزائر لمدة 130 سنة ولم يستطع أن ينال من ثقافة الشعب الجزائري كما أنه لم ينجح في تعميم لغته و جعلها لغة التواصل و التداول في جميع الميادين، و هذا ينطبق على كل ما يتصل بثقافة الشعب الجزائري في جميع المجالات: العادات، التقاليد، المبادلات التجارية...الخ.

ومن هذا المنطلق فإننا لا نخاف على لغتنا من زحف العولمة.

وهذا التفاؤل، ينبغي أن يكون بمثابة الحافز على التفكير الجدي والعمل في مستقبل اللغة من قبل علماء اللغة العربية و الناطقين و العاملين بها في شتى المجالات، فتبذل الجهود وتستعمل جميع الإمكانات والقدرات، وفي هذا المقام علينا أن ننطلق من المحافظة على المكتسبات السابقة حتى لا تتدحرج اللغة العربية و تبتعد عن مكانتها التي حققتها عبر التاريخ ضمن لغات العالم، هذه المكانة تدفعنا إلى بذل المزيد من المجهودات من أجل تطويرها وترقيتـها، فالتصدي لتحقيق حماية اللغة العربية يكون بالدراسات الجادة وبتطوير السياسات اللسانية في الميادين التي تمسها ظاهرة العولمة، و هذا بطبيعة الحال، بعد تحديد الاستراتيجيات الأكثر ملائمة، والتي تعطي للغة العربية الحيوية اللازمة، لكي تتطور وتواكب العصرنة والتطورات التكنولوجية السريعة والمذهلة.

فالتمسك بالهوية والعمل على ترسيخها و تدعيمها بكل الوسائل من أجل تطوير ما يتعلق بها ينبغي أن يوضع كمركز لكـل انشغال، و كذلك، انطلاقا من كون التعليم هو الأساس لنشر المعرفة والإبداع والابتكار، فان ذلك يستلزم تحسين طرق التعليم باللغة العربية، بجعل المنظومة التربوية مكونة للمهارات والخبرات التي تؤهل المتعلم، وتوفر له فرص العمل، وكذلك فيما يخص السياسات الخاصة بوسائل الاتصال، إذ دورها وبصفة خاصة (السمعي-البصري) خطير في مجال التأثير اللغوي، فالكلمة كما يقال سحر مؤثر، لاسيما إذا كانت مسموعة الدال و مفهومة المدلول و مرئية المرجع .

وهذا كله لا ينسينا أهمية التنمية المعرفية ومالها من دور فعال في المحافظة على اللغة العربية، سواء أكان ذلك عن طريق الإبداع والابتكار أم عن طريق الترجمة التي تعد ضرورة ملحة في هذا العصر الذي نعيش فيه انفجارا معرفيا ومعلوماتيا. فالانفتاح على معارف العالم وعدم الانغلاق على الذات، وتعلم اللغات الأجنبية لغاية الاستفادة من التراث الفكري والمعرفي العالمي أمر ضروري، بشرط أن لا تتجاوز حدودها فتصبح لغة للتعليم.

ومعنى هذا أنه، يمكننا أن نستفيد من العولمة، في كل ماهو ايجابي، كإيجاد الوسائل و الآليات التي يمكن استخدامها في خدمة اللغة العربية، و تسخيرها كعون للنهوض و الارتقاء بها، فالتقدم الهائل في وسائل الاتصال و الثورة المعلوماتية و مستجدات الترجمة الآلية، كلها يمكن أن تفيد في مجالاتها .

ومن غير شك، مراعاة هذه الدعائم بجد، و تآزرها مع المخزون الثقافي و الحضاري للغة العربية، ذلك المخزون الذي منحها الحصانة الثقافية و لا يزال، بفضل خصائصها المتميزة وأصالتها المتجذرة في أعماق التاريخ، يكون بمثابة الدرع الواقي من سهام العولمة .

بقي أن أشير في الأخير، إلى ضرورة توفر الإرادة السياسية للرقي باللغة العربية، لأنها هي الأساس و بيدها سلطة القرار، و نأمل أن يطبق ما ورد في (**بيان قمة دمشق**)، حيث جاء في

البند السادس بعد الديباجة تأكيد عزم قادة الدول العربية على :(إيلاء اللغة العربية اهتماما و رعاية خاصة باعتبارها وعاء للفكر و الثقافة العربية، ولارتباطها بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا، لتكون مواكبة للتطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة و المعلومات، و لتصبح أداة تحديث في وجه محاولات التغريب والتشويه الذي تتعرض لها ثقافتنا العربية) (60).

- فهرس المراجع و المواقع :

1- عبد المجيد راش، العولمة: تاريخ المصطلح و مفهومه، ص : 1
http://www.achwazstudies.org/main/hindex.php?option=com_content&task=view&id=1...

2- نفسه، ص : 2
3- نفسه، ص : 1
4- نفسه، ص : 2
5- نفسه، ص : 2
6- نفسه، ص : 3
7- أثر العولمة على مجتمعاتنا العربية، ص : 3
8- نفسه، ص : 5
9- عبد المجيد راش، العولمة: تاريخ المصطلح و مفهومه، ص : 6
http://www.achwazstudies.org/main/hindex.php?option=com_content&task=view&id=1...

10- سها هندية، علوم الاجتماع: العولمة، ص : 2
11- أثر العولمة على مجتمعاتنا العربية، ص : 6،
12- نفسه، ص : 6
13- سها هندية، علوم الاجتماع: العولمة، ص : 2
14- **شلواي عمار، السيمياء المفهوم و الآفاق، مجلة فكر و ابداع، رابطة الأدب الحديث القاهرة، الجزء 35، يونيو 2006، ص : 29.**
15- **Jean Dubois. dictionnaire de Linguistique. Libraire la rousse. 1973. P": 276.277**
16- محمد الخضر حسين، الدراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي ومكتبة دار الفتح، ط1960،2، ص :13
17- **نظرية الثقافة، تأليف مجموعة من الكتاب ترجمة : د.علي سيد الصاوي، عالم المعرفة 223، الكويت، يوليو 1997، ص :9**
18- نفسه، ص : 10-9
19- **رولان بارت، هسهسة اللغة، ترجمة : منذر عياشي، مركز الانماء الحضاري، ط1، 1999، حلب، ص :133**

20– **رولان بارت، مدخل الى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة: منذر عياشي، مركز الانماء الحضاري، ط2، 2002، حلب، ص: 7**
21– **رولان بارت، هسهسة اللغة، ص: 134–133**
22– **F. de Soussure, cours de Linguistique Générale, Payot 1973، p22-23**
23– حميد الأبيض، تحميل اللغة العربية بالمعرفة وطريقها للعولمة، ص: 4
http://www.islamonline.net/servlet/satellitie?=article lea_c&cid=1203759186777&pa
24– مها خير بك ناصر، اللغة العربية و العولمة في ضوء النحو العربي و المنطق الرياضي، ص: 2
25– عبد الله أحمد محمد الغميطي، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 2
26– أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 2
27– اللغة العربية في بيان قمة دمشق، اللغة العربية والعولمة، ص: 1، العربية والعولمة.
28– حميد الأبيض، تحميل اللغة العربية بالمعرفة، ص: 4
http://www.islamonline.net/servlet/satellitie?=article lea_c&cid=1203759186777&pa
29– نفســه، ص: 3
30– مها خير بك ناصر، اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي و المنطق الرياضي، ص: 2
31– عبد الله أحمد محمد الغميطي، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 2
32– اللغة العربية و العولمة، مستقبل اللغة العربية في عالم متغير.
33– langue nationale et mondialisation: enjeux et défis pour le français: actes du siminaire. canada
http://www.cslf.gov.qc.ca/publications/pubf149/f149ch1.html
34– أحمد بن محمد، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 2
35– نفســه، ص: 2
36– **محمد الخضر حسين، الدراسات في العربية و تاريخها، المكتب الإسلامي ومكتبة دار الفتح، ط1960، 2، ص: 14**
37– **أحمد بن محمد**، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 2
38– نفســه، ص: 3
39– أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 3
40– **الدكتور حسن ظاظا، كلام العرب، دار النهظة العربية للطباع والنشر، 1976، ص: 95–63**
41– **محمد الخضر حسين، الدراسات في العربية و تاريخها، المكتب الإسلامي و مكتبة دار الفتح، ط1960، 2، ص: 21**
42– أحمد بن محمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ص: 4
43– نفســه، ص: 4
44– حميد الأبيض، تحميل اللغة العربية بالمعرفة وطريقها للعولمة، ص: 4
http://www.islamonline.net/servlet/satellitie?=article
lea_c&cid=1203759186777&pa

45– **مصطفى عوفي، العولمة وآثارها على قضايا العمل، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد 7، فيفري 2005، ص :110**
46– أحمد بن محمد، اللغة العربية في عصر العولمة، ص :2
47– حميد الأبيض، تحميل اللغة العربية بالمعرفة وطريقها للعولمة، ص :4
http://www.islamonline.net/servlet/satellitie?=article
lea_c&cid=1203759186777&pa
48– عادل بن سليمان، ثقافة الشباب المعاصر ...بين عولمة التعليم و تعليم العولمة، ص :2
49– كريم نعمه النوري، التعليم في عصر العولمة، ص3
50– نفســه، ص :4
51– انظر تقرير البنك الدولي : العولمة تحتم إصلاح التعليم في الشرق الأوسط و شمال افريقيا .
52– **هنري فليش، العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، ترجمة و تحقيق الدكتور عبد الصبور شاهين، دار المشرق ش.م.م.بيروت 1983، ص :10**
53– نفســه، ص :11
54–حميد الأبيض، تحميل اللغة العربية بالمعرفة و طريقها للعولمة، ص :2
http://www.islamonline.net/servlet/satellitie?=article
lea_c&cid=1203759186777&pa
55– **جورج مونان، اللسانيات و الترجمة، ترجمة حسين بن زروق، ديوان المطبوعات الجامعية،ط1 .2000،ص :79**
56– **عمر فروخ عبقرية اللغة العربية، بيروت 1981، ص :286–287**
57– **جورج مونان، ص :133**
58– المصطفى العمراني، الترجمة بين المثاقفة و العولمة، ص :1–2
59– **عبد الجليل المرتاض، العوامل الخارجية لتطور اللغة العربية / اللغة العربية / مجلة يصدرها المجلس الأعلى للغة العربية الجزائر، عدد1، مارس1999،ص :88**
60– اللغة العربية في بيان قمة دمشق، اللغة العربية والعولمة، ص :2

مستقبل اللغة العربية ورهاناتها
في ظل العولمة

أيمن مصطفى حجازي

كبير باحثي مجمع اللغة العربية (مصر)

إن القضايا التي تواجهها اللغة العربية في العصر الحديث، هي قضايا طارئة تفرضها متطلبات العصر من ناحية، وقرون التراجع الحضاري التي مرت بها أمتنا العربية عبر مسارها التاريخي من ناحية أخرى، وليست قضايا لغة تواجه استيعاب ما وصلت إليه المعارف الإنسانية في أول تجربة لها، فقد اجتازت العربية هذه التجربة في تاريخها الطويل عندما كانت اللغة العربية اللغة الأولى للعلم والفكر في العالم أجمع، ولعدة قرون، فكم للغات وللأمم قضاياها، وليست العربية متفردة بذلك من دون اللغات، بل ربما كانت قضاياها أقل عسرًا للمعالجة، إذا ما صدقت النوايا وتوافرت الإرادة في خدمة العربية وإنماء الاعتزاز بها، والإيمان بقدراتها ووضع لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف في مكانة الشرف والاحترام الذي تستحقه.

إن لغتنا العربية تواجه قضايا مهمة في العصر الذي يتصف بتفجر المعرفة في جميع مجالاتها، ويتميّز بهذا التسارع الضخم في تطور العلوم على الأرض، وفى الفضاء الخارجي، وهذه القضايا أهمها يتعلق بتيسير تعليم العربية، ولا تمس إطلاقًا إعرابها ونحوها وصرفها ونظم التراكيب؛ لأن هذه الثوابت التي بدونها تفقد اللغة مقوماتها الأصيلة. فالعربية ثابتة من حيث نطقها ونحوها وصرفها، ولكنها نامية من حيث أساليبها ومفرداتها ودلالات ألفاظها.

هذه الخصائص التي تنفرد بها العربية من بين جميع اللغات في العالم.

لغة المستقبل:

إن مستقبلنا الثقافي والعلمي مرتبطان بقضية تعريب العلم والتعليم، فلا يعقل أن تخوض مجالات العلم الحديث ونواكب تقاناته وننعم بمنجزاته، وتبقى لغتنا غريبة عن أجواء العلم وتقنياته وإبداعه. لقد آن أن تصبح اللغة العلمية جزءًا من حياتنا اليومية في المدرسة والبيت والمصنع والحقل، وإن تغد والثقافة العلمية جزءًا من ثقافة الصانع والزارع والطالب والمعلم والصحافي والأديب وصاحب الاختصاص الفني.

ولاشك أن مستقبل اللغة العربية يرتبط باستخدامها المتزايد والجاد في شبكات المعلومات العالمية، إن تقنيات المعلومات شهدت تحولا من أجل تيسير إتاحة المعلومات عبر الحدود والقارات والحضارات وتقوم حاليًا – في غالب الأحيان – على اللغة الإنجليزية. وهناك جهودًا أوربية قوية تتم لجعل الإتاحة –أيضًا– باللغات الأوربية الكبرى، وفى مقدمتها الألمانية والفرنسية والإسبانية. ولن يمر وقت طويل حتى نجد العربية قد اتخذت مكانها في شبكات المعلومات عبر الحدود. هذا الأمر يتطلب جهودًا كثيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقانات المعلومات وعلى مستوى دراسة المستفيدين حتى نجد الجامعات والوزارات والمجامع في الدول العربية تتعامل باللغة العربية وتصبح العربية من اللغات العالمية الكبرى بوصفها وسيلة لنقل المعلومات بالتقانات المتقدمة.

وهو ما يتطلب أن تصبح اللغة العربية لغة منتجة للعلم، لتتبوأ المكانة الرفيعة بين لغات العالم، ويوم أن كانت العربية في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، لغة للعلم بمدلوله الدقيق الشامل، ارتقت إلى الذروة، وحازت فضل السبق بين اللغات العالمية، حتى صار طالب العلم من أي ملة أو عرق كان يتخذ من العربية وسيلة لاكتساب العلوم والإحاطة بها والتبحر فيها.

ليست العولمة شرًا يُتقى أو خطرًا يدفع، إنما هي ظاهرة لها السلبيات والإيجابيات، إن توافرت شروط التعامل معها والتكيّف مع متغيراتها، أمكن تجاوز تلك السلبيات والتغلب على ما يترتب عليها من مشاكل.

في مقدمة هذه الشروط امتلاك القدرات الذاتية على مستوى اتخاذ القرارات البناءة الفعالة، وذلك للانفتاح على آفاق العصر، للاندماج في تياراته؛ من منطلق الاقتناع بأن حماية الذات وترقيتها، والحفاظ على الهوية والتشبث بخصوصيتها الثقافية والحضارية، رهين بإثبات الحضور في مجال ساحة التفاعل الإنساني وفى مضمار الحوار الثقافي بين الحضارات، فامتلاك القوة الذاتية والقدرات العلمية والتقانية والصناعية والاقتصادية هي الحصانة ضد التأثيرات السلبية والانعكاسات الضارة لنظام العولمة الآخذ في احتواء مواقع الاستقرار الثقافي، واقتحام معاقل الخصوصيات التي تميز الثقافات والحضارات بعضها عن بعض بما يغنى الحضارة الإنسانية ويقويها بالتنوع الثقافي والتعدد الحضاري. فالعولمة هي هذا التشابك الذي نعيشه اليوم معظمه ليس خيارًا، فالسوق المشتركة والعلوم والتقانة، وانتشار الأفكار وتبادل المعلومات عبر شبكة المعلومات الحاسوبية، كل ذلك عمليات متاحة للجميع يتقدم فيها القوي ويفرض تفوقه.

إذن ظاهرة العولمة هي: ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، ام في انتقال رؤوس الأموال، أم في انتشار المعلومات والأفكار، أم في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم؛ كل هذه العناصر يعرفها العالم منذ عدة قرون وبالأخص منذ الكشوف

الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر، فالظاهرة عمرها خمسة قرون وبدايتها وغدها مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بتقدم الاتصال والتجارة منذ اختراع البوصلة وحتى الأقمار الصناعية.

ذلك أن ضرورة مواجهة التحديات التي تحاصر اللغة العربية، ليس اليوم في عصر العولمة، فالدعوة لتطوير اللغة بتيسير النحو وتبسيط قواعده فحسب، ليس معناه أيضا نقل الألفاظ والتعابير الجديدة عن اللغات الأجنبية، إنما المراد هو الارتقاء باللغة لتكون في مستوى تطور الفكر والحياة والمجتمع بحيث تصير منتجة ولا تظل لغة مستهلكة.

فتطوير اللغة العربية ضرورة من ضرورات تطوير الحياة العامة في العالم العربى والإسلامي لأن التجديد إنما يبدأ من اللغة، وبناء المستقبل يقوم على أساس تحديث اللغة حتى تكون لغة عالمية حاسوبية.

فمما لاشك فيه أن اللغات تتطور وتنحط، وتتقدم وتتأخر بحسب درجة الناطقين بها من الرقي الحضاري والتقدم الاجتماعي، ولذلك فهي ليست ظاهرة اجتماعية فحسب، ولكنها مرآة مجلوه لتسجيل درجة الوعي الحضاري لمدى متحدثيها.

ليست اللغة من وجهة ثانية، مجرد ظاهرة اجتماعية كما يتمثلها علماء الاجتماع، إنما هي أداة تعبيرية طيعة حية تبلغ ذروتها حين بعمد الناطقون بها إلى التماس الجمال الفني في تعبيرهم بها، وفي التألق والازدهار والقوة والقدرة على مسايرة ركب التقدم في كافة الميادين.

التفاعل بين العلم والتقانة وبين العناصر الثقافية والتعليمية والحضارية والاجتماعية، هو تفاعل قائم وملموس، كما أن ارتباط سياسة العلم والتقانة بالسياسة الثقافية هو بدوره ارتباط وثيق وملموس، لأنه لا يمر وقت طويل حتى نجد العربية قد اتخذت مكانها في شبكات المعلومات عبر الحدود، وهذا الأمر يتطلب جهودًا كثيرة على المستوى اللغوي، وعلى مستوى تقانات المعلومات وعلى مستوى دراسة المستفيدين حتى نجد الجامعات والوزارات والمجامع اللغوية في الدول العربية تتعامل باللغة العربية، وهذا أحد تحديات المستقبل القريب لتكوين العربية مع اللغات الكبرى بوصفها وسيلة لنقل المعلومات بالتقانات المتقدمة.

نخلص من ذلك إلى التأكيد على حتمية استعمال اللغة العربية كأداة لتبليغ التقانة لتأمين مستقبل لغتنا، ولتأهيلها لتتبوأ المكانة اللائقة بها بين اللغات الحية، وينبغي أن لا نغفل حقيقة أخرى ستساعد ولا شك اللغة العربية على احتلال هذه المكانة في المستقبل، وهذه الحقيقة تتجلى في كون العربية في حاجة إلى مسايرة العصر، حتى تعبر عن فكر عصري، وتساهم في خلق هذا الفكر العصري.

إن العلم يرتكز على اللغة كوسيلة اتصال، وإننا نوسع اللغة إذ نوسع المعرفة العلمية، ولغة العلم هي لغة تواصل، كما أنها أداة تصور العالم أيضًا وتعطي الصورة العلمية للعالم. ومن ثمّ

فإن اتساع اللغة رهنٌ باتساع النشاط المعرفي العلمي في المجتمع بعامة، هذا وإلا ظلت لغة العلم نوعا من الميتافيزيقا بالنسبة للمجتمع.

ازدهار اللغة العربية في هذا العصر، وفى كل العصور، مرهون بازدهار العلوم والتقانة، حتى تصبح العربية لغة البحث العلمي في هذه الحقول جميعًا، فاللغة تنمو وتتطور وتزدهر بنمو الأمة التي تنتمي إليها والناطقة بها وبتطورها وبازدهارها.

إن دور وسائل الإعلام في الفصحى المعاصرة دور كبير يجب أن تحشد له الجهود ليكون هذا الدور إيجابيًا في دعم لغة القرآن الكريم، ويجب أن يعي المسئولون عن تلك الوسائل خطورة الانزلاق إلى العامية التي تفرق ولا تجمع... أمتنا العربية في حاجة إلى التوحد أكثر من أي وقت مضى خاصة في عصر العولمة وما تواجهه اللغات من خطر الإبادة فمن المفترض بداهة أن البشر جميعًا كانوا يتكلمون لغة واحدة في فجر التاريخ، ثم تفرقت هذه اللغة إلى لهجات وألسنة مع الوقت تبعًا لتفرق البشر شعوبًا وقبائل، لكن في عصر العولمة وما ألقته من حواجز فهل من البداهة أيضًا أن يعود البشر جميعًا لاستعمال لغة واحدة فقط في زمن أصبحوا فيه أكثر من ستة مليارات نسمة؟ هذا السؤال يتم طرحه ومجابهة ما ينطوي عليه من تحديات ونحن في زمن العولمة التي تحمل من المتناقضات والمفارقات أكثر مما تحمل من الإجابات والحلول الحاسمة لمشاكل التطور الاجتماعي والثقافي.

وعلى سبيل المثال ففي حين تعمل آليات العولمة وقوانينها على إحياء الأقليات والجماعات الصغيرة التي استوعبت وهضمت حقوقها الثقافية واللغوية فإن العولمة نفسها بآلياتها وتقنياتها ونظمها الثقافية تؤدى عمليًا إلى إبادة مئات اللغات الصغيرة والكبيرة على حد سواء وتدفع التطور العالمي في اتجاه اللغة الواحدة والثقافة الواحدة واللسان الواحد.

وبعبارة أخرى كانت الأقليات والفئات الصغيرة تطمح في عصر حقوق الإنسان وانهيار الدول المركبة، وانحسار مفهوم السيادة القومية المطلقة إلى تنشيط وتطوير ثقافتها وهواياتها الخاصة والمحلية، نلاحظ أن العولمة تؤدى من ناحية ثانية إلى طمس هذه الهويات والخصائص الثقافية، وعلى رأسها جميعًا اللغات التي تمثل بالطبع الوعاء الثقافي والمخزون التاريخي للتقاليد والمزايا والفنون والإبداعات والعناصر المميزة لها.

والمذهل فيما نعيش من تحد لغوي أنه لا يقتصر على لغات الأقليات كالأكراد في تركيا، أو الأمازيغ في شمال أفريقيا أو الباسك في أسبانيا أو الكورسيكيين في فرنسا أو الايرلنديين في بريطانيا أو الشيشان في روسيا بل أن هذا المتحدى يجابه اللغات الحية والكبرى في هذا العصر، كالفرنسية والإسبانية والروسية والصينية واليابانية والعربية.

فإن العولمة وبرمجياتها تفتك بلا رحمة ولا ديمقراطية بكل هذه اللغات، ومن يتأمل قلق الفرنسيين على مستقبل لغتهم التي كانت بالأمس القريب، تعد لغة الأدب والثقافة والفنون الأولى في العالم، لندرك ما يتهدد بقية اللغات لا الفرنسية فقط، فالفرنسيون واعون بالخطر الداهم أظهروا ردود أفعالهم، أما الأمم الأخرى التي لا تظهر ردود أفعال مماثلة فإنها سادرة في سباتها ولا تعلم ما يحدث على المستوى العالمي، ولا نبالغ إذا قلنا أن العرب هم من هذه الأمم السادرة لا يدرك معظمهم حجم التحديات التي تحيق بلغتهم التي كانت في الأصل، وقبل ثورة العولمة والمعلوماتية تتراجع وتتخلف في جميع البلدان العربية تقريبًا بطريقة تهددها بالانكماش والتقلص والتقعر، ثم جاءت الثورة المذكورة لتدمر المزيد من إمكاناتها الفنية وطاقتها الاستيعابية لمعطيات الحضارة الحديثة ومسايرة التقدم الثقافي والعلمي.

وحسب الأرقام الدولية الرسمية فإن 90 % من العناصر التي تتحرك في شبكة المعلومات هي بالانجليزية وحدها و85 % من الاتصالات الدولية عبر الهاتف تتم بالانجليزية أيضًا، وأكثر من 70 % من الأفلام السينمائية والتليفزيونية بالإنجليزية و65 % من برامج الإذاعات في كل العالم بالإنجليزية.

وأمام هذا الهجوم اللغوي الإنجليزي وما يتبعه من عناصر ثقافية وفكرية، فإن دولاً عملاقة كاليابان والصين وفرنسا تتوقف عن استخدام لغاتها في صناعة البرمجيات لأنها لا تستطيع المنافسة وتحولت إلى الإنجليزية.

إن الهجوم اللغوي قد لا يختلف في نتائجه الثقافية عن هجوم نووي لأنه سيبيد آلاف اللغات المحلية التي ازدهرت، ونمت عبر آلاف السنين لتخلق حديقة عالمية متنوعة وغنية بالثقافات واللغات المتعددة ويحول العالم المتزايد حجمًا واتساعًا إلى صحراء ثقافية قاحلة وطابور واحد.

هل يؤدي التقدم الفني والعملي إلى تخلف ثقافي؟ وهل تؤدي ثورات الديمقراطية والعولمة والتجارة الحرة والانفتاح إلى ديكتاتورية ثقافية أشد ضررًا وخطرًا من عصر العصف الثقافي أبان التوسع الاستعماري؟

المواجهة بدأت لا محالة فأين عتادنا نحن العرب في المواجهة غير المتكافئة؟ التراث العربي كان له شأنه في تاريخ الثقافة الإنسانية – فهو ثمرةُ حضارات وثقافات سادت العالم على مدى عدة قرون – كانت العربية فيها لغة العلم والعلماء لا تنازعها تلك المكانة أي لغة أخرى، وقتذاك استطاعت العربية استيعاب جميع العلوم التي سبقتها وأضافت إليها علومًا ومعارف جديدة بمفاهيم ومصطلحات جديدة. وفيها كانت تؤلف الكتب، وبها يتحدث العلماء في ما بينهم مهما اختلفت أصولهم، وعنها أخذَتْ شتى اللغات مئات المصطلحات في الفلك والكيمياء والطب والجغرافيا والرياضيات، وترجمت مؤلفاتها في هذه العلوم إلى اللغة اللاتينية وظلت

تدرس في جامعات أوروبا العريقة مونبيليه وتوبنجن طوال عدة قرون. فقد كانت مؤلفات الرازي وابن سينا وجابر وابن الهيثم المترجمة مراجع أساسية حتى عصر النهضة الأوربية.

ونذكر أن هارون الرشيد، بعد احتلاله عَمُّوريَةَ وأنقْرة طلب من الحكام فيهما تسليمه المخطوطات العلمية والمعرفية من مكتباتهم. ومثله فعل المأمون – بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قيصر بيزنطية – فقد طلب منه تسليم أعمال القدماء التي لم تكن قد ترجمت إلى العربية، واعتبار ذلك بديلاً عن تعويضات الحرب؛ فالثقافة الحقة أقوى من القوة العسكرية – وهي، بخلاف مقولة العلامة ابن خلدون – قد تكون في المغلوب أقوى منها في الغالب، فلما احتلت جيوش الرومان أثينا، صمدت الثقافة اليونانية أمام ثقافة الغزاة فاحتلت بتفوقها وزهائها المتميز عقول الرومان حتى قيل في ذلك تاريخيًا: المغلوب غلب الغالب.

The conquered conquered the conquerer

فالغزو الثقافي الغربي الاستعماري الذي داهم مجتمعاتنا انعكس بأشكالٍ شَتَّى من التقليد والتبعية والانهيار والاقتداء، معززًا بالنموذج الأمريكي مؤخرًا، فأدى إلى أن نصبح مجتمعاتٍ مسخرة في خدمة الأجنبي مبهورين بما يلبس ويَسْلُكُ ويستخدمُ، غافلين عن أساليبه ورسائله ومناهجه في سلب ثرواتنا وتسخير طاقاتِنا لصالحه، وتحويلنا إلى أفواهٍ وسواعد مُسْتَباحَةِ الإرادة مُهيأة لتكون في خدمة مشاريعه الاستعمارية الاستثمارية، في جَوٍّ من الوهم – وهم الحرية المزيفة والقناعات المُشوهة – قبائليًا وطائفيًا وإقليميًا وقطريًا – سياساتٍ أنويه تفر دية غدا وطننا العربي على بركتها اثنتين وعشرين دولة.

ولو كنا أفرادًا ومجتمعات، مسلحين بثقافتنا وتراثنا وقيمنا وقوانا وأصالتنا الحَقَّة، لما كانت حال التواكل والتآكل هذه حالنا.

لعل جذور العولمة تعود بنا إلى فترة الغزو الغربي الاستعماري منذ القرن التاسع عشر ولا يزال مستمرًا، طوعًا أو كَرهًا، وبأساليب مختلفةٍ تطوّرت حسب الأوضاع والظروف وعلى شتى المجالات – عسكريًا وسياسيًا واستغلاليًا واستعباديًا وحضاريًا واقتصاديًا – ظاهرًا وباطنًا، بحجة نشر مفاهيم ووسائل تؤدي زعمًا إلى التقدم والازدهار والتحرر.

وفي الواقع، لم تكن تلكَ النزعة من القوى العظمى الأوربية – بخاصة بعد الحرب العالميّة الأولى وانفراط الإمبراطورية العثمانية – إلا وسيلة للسيطرة الاستعمارية الاستلابية على العالم العربي – أقسامًا بريطانيا فرنسيًا شرقًا – وفرنسيا إيطاليًا إسبانيا غربًا.

فاللافت للنظر أن مختلف القوى الاستعمارية، التي هبت إلى لَفِّنا في عوالمها، واحتواء هويتنا، ابتدأت بالحرب على اللغة العربية – إن كان بتشجيع العامية وإحلال الإنجليزية مكان

العربية في مختلف معاهد التعليم الثانوي والعالي في مصر، أو بمحاولة طمس اللغة العربية ومحو معالمها وفرض البدائل بدءًا باللغة الفرنسية وانتهاءً بإحلال اللهجات المحلية؛ كالأمازيغية البربرية محلَّ العربية الفصحى، في الجزائر – في حين يقاومون هم بضراوة تعليم لغات الأقليات في مقاطعاتهم، كلغة كورسيكا ولغات ألباسك وكاتلان في إسبانيا وغيرها.

ولقد سمعنا أخيرًا بإنجازات الديمقراطية الأمريكية الزائفة تعليم اللغتين الكردية والسريانية في مدارس العراق الرسمية منذ 2002م.

التحدي اللغوي الثقافي الحضاري الذي يجبُ أن يضْطَلَع به أهل الفصحى، حتى لا تبقى العربية عُرْضَةً للتهميش والإقصاء عن المجالات الثقافية والاجتماعية والتقنية في قرية العولمة التي أضحاها عالمُنا اليوم، هو مجابهة جيوش العولمة والأمركة، كما فعلت قديمًا به الحضارة العباسية ثقافة وحضارات الأمم الأخرى وقتذاك وصهرته في كيانها، فالتحدي هو إعادة مسرحة تلك التجربة العربية الحضارية الرائدة.

التطور المذهل الذي نشهده في البلدان المتقدمة مرده إلى الارتقاء المذهل في العلوم والثقافة العلمية، وتطبيقات في الصناعة والزراعة والصحة والتواصل والبحوث المعمقة في تطويرها.

العلم هو الحل، إن أجيال العلماء المعاصرين يدركون أنه لا يمكن للشعوب العربية العيش الكريم وتحقيق الذات الحضارية إلا بالعلم، وبالثقافة العلمية وبسلوك طريق العلم ومزج العلم بالحياة.

تجاوز مستويات الجهل والفقر والمرض والخوف من المستقبل بالعلم – وبأساليب العلم، وتطبيقاته وبثقافة العلم، وبعولمة أجيال العرب الجديدة بالعلم – تقنَّيًا وصناعيًا وزراعيًا وطبيًا وفيزيائيًا وكيميائيًا وإلكترونيًا وأبحاثيًا واجتماعيًا وسلوكيًا، وأخيرًا وليس آخرًا لغويًا، وذلك بعضوية العلم والثقافة العلمية باللغة العربية.

إنّ مستقبلنا العلمي والحضاري والثقافي مرهون بأن تصبح اللغة العربية جزءًا من الحياة اليومية في المدرسة والبيت كما في المصنع والجامعة ومراكز البحوث، وأن تغدو الثقافة العلمية جزءًا من ثقافة الصانع والزارع والبنَّاء والحداد والنجار والعامل، كُلٌّ في مجال عمله؛ مقولتنا بالعولمة العلمية باللغة القومية ليست بأي حال ضد تعزيز تعليم اللغة أو اللغات الأجنبية، فالحاجة إلى إتقان لغة أجنبية عالمية معاصرة هي اليوم مطلب تربوي عَوْلَمِيٌّ أساسي لكل مثقف – عربي أو غير عربي.

اللغة الإنجليزية – لغة العولمة اليوم – حاجة ضرورية للعالم الفنلندي والياباني والكوري والفرنسي والفيتنامي وغيرهم، ولكن – لا الكوريون ولا اليابانيون ولا حتى الفيتناميون طرحوا مسألة اعتماد اللغة الإنجليزية لغة تدريس مواد العلوم ونشر الثقافة العلمية في بلادهم.

لدينا أجيالٌ كاملة من الصناع والزُّراع وعامة الناس – نجارين وحدّادين وبنائين وعمالٍ في شتى مجالات أعمالهم الحياتية، وهؤلاء عاجزون حاليًا ومُستقبليًا عن التفاعل مع لغة أجنبية – وبالتالي سيبقون بعيدين عن الانفتاح على الثقافة العالمية، علمية وغير علمية، وعن الإنجازات الحضارية التقنية والزراعية والصناعية والصحية والتواصلية العولمية ما لم تتح لهم هذه الثقافة باللغة القومية.

وتحضرني هنا مقولة الأديب الكبير المغفور له أحمد حسن الزيات «من المُحال أن تنقل الأمة كلها إلى العلم بلغة أجنبية، لكن من الممكن أن تنقل العلم كله إلى الأمة باللغة القومية».

مستورداتنا من منجزات العولمة العلمية ومبتكراتها التقانية الحديثة وفيرة، حتى لتكاد بعض المنجزات في مجتمعاتنا المليئة اقتصاديًا تفوق ما يتواجد منها في بلد المنشأ.

لكن هذه المنجزات على وفرتها، لم تنقل لنا المعرفة المجسدة فيها، ولا أنماط البحوث التطبيقية والمختبرية التي خلقتها، ولا حتى مجتمعات المعرفة التي توظف هذه المبتكرات والانجازات إيجابيًا وبفعالية مجدية في مختلف القطاعات الصناعية والزراعية والإعمارية والاجتماعية التنموية بحيث لا تبقى أرض عربية غير مزروعة، ولا مياهٌ عربية مهدورة، ولا يد عاطلة عن العمل ولا مصنع يغنينا عن الاستيراد غير مبنى، ولا معاهد وجامعات بالجملة خاوية من المختبرات ولا مراكز بحوث خالية من البحوث والباحثين.

أمثال هذه العولمات الإيجابية القويمة مازلنا نفتقدها أو نفتقد معظمها. بالمقابل غزتنا العولمة بروافد سلبية انعكست عولمة تحلل من الأخلاقيات التراثية.

عولمة صراعات سلوكية تبعد كثيرًا أو قليلاً عن أنماط السلوك المرضية، عولمة زلزلت الكثير من قيمنا ومفاهيمنا عبر ما تعرضه القنوات التلفزيونية، الفضائية بخاصة من برامج على مدار الساعة تتنافى مع قيمنا وتراثنا ومعتقداتنا وتقاليدنا الأصيلة.

عولمة تستبقى أولادنا، صغارًا ومراهقين وبعض الكبار، مُسَمَّرين ساعات طوالاً يوميًا أمام الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) – ليس شغفا بالمعلومات ولا شوقًا للمشاهدة التثقيفية الجِدِّية والتمثيليات الروائعية الخالدة – بل لاستشفاف المناظر المؤذية والمواد الإباحية والثقافات الخليعة – إضافة إلى تبادل المكالمات والرسائل المشبوهة وترتيب اللقاءات التي لا يدري أحَدٌ كيف تنتهي! عَولمة تنتحي إلى ثقافة الأجنبي وترسيخ مركب النقص تُجاه كل ما هو عربي – حتى إن بعض مصانعنا تستنكف من كتابة العربية على منتجها الذي تصدره إلى الأسواق العربية – فستبدل بها لغة أجنبية أخرى. عولمة سلبية عرجاء يجب ألا تسمح الشعوب العربية إن تتخذ احتياطاتها الضرورية للحفاظ على مقومات هويتها، فإن كثيرًا من الشعوب قد تدبرت أمورها واستطاعت أن تتخذ مثل هذه الحصانة مثال ذلك دول الاتحاد الأوربي فكل دولة تتمسك

بلغتها فلا تدرس ولا تعلم ولا تذيع في أجهزة الإعلام إلا بها، وفي ألمانيا لا يمكن أن يعرض أي فيلم أمريكي على التلفاز إلا إذا كان مدبلجا بالألمانية وحتى كوريا تفعل الشيء نفسه، فلابد من وضع سياسة لغوية وتشريعات تمنح هذه اللغة قوة تستطيع بها أن تصد هذه الأخطار الآتية من قِبَلْ العولمة.

لذلك أدعو إلى منهج يجب اعتماده لتجديد اللغة العربية والنهوض بها، وتأهيلها لمواكبة تحديات العولمة، أربع قواعد أوجزها فيما يلي:

1- التعامل مع اللغة على أساس أنها كائن حي قابل للتطور وفق ما يقرره أبناء اللغة، أي أن تطور اللغة يأتي من إرادة الناطقين بها، ويصدر عنهم فهم أصحاب المصلحة في هذا التطوير.

2- إحكام العلاقة بين عملية تطوير اللغة وإصلاحها وتحسينها وتجديدها وبين المتغيرات التي تعيشها المجتمعات العربية، بحيث تكون عملية التطوير استجابةً لتطور المجتمع، ونابعة من واقعه الحياتي.

3- الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفريعاته، والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعًا في إغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني.

4- الاهتمام بالجانب القانوني والتشريعي في عملية التطوير، حرصًا على ضبط مساره والتحكم في نتائجه، من خلال وضع قوانين تصادق عليها الجهات الرسمية المختصة، لفرض هيبة اللغة وإلزام أفراد المجتمع والهيئات والجماعات ووسائل الإعلام باحترامها طبقًا للقانون. أسوة بما هو عليه الأمر في بعض الدول الغربية، ومنها فرنسا على سبيل المثال.

إن الطريق نحو تقوية اللغة العربية وتحصينها، يمرُّ عبر تنفيذ مثل هذه التوصيات التي تعبر عن الإرادة الجماعية للنخب الفكرية والعلمية والثقافية التي تمتلك إلى العلم والمعرفة، الغيرةَ والحماسة وإرادة العمل.

ذلك أن مواجهة الأخطار الناتجة عن تحديات العولمة والمهددة للهوية الثقافية والحضارية لا تتم لاّ بالعمل الملموس انطلاقًا من الواقع، وبأدوات العصر، وبالوسائل التي تتيح للغيورين على اللغة والقائمين على تطويرها والمهتمين المسئولين عن حمايتها والحفاظ على خصوصياتها، أن يستوعب المتغيرات في مجالات العلوم والتقانة والمعلوميات وشتى حقول المعرفة، ليواصلوا تطوير اللغة وتحديثها لمسايرة العصر ومواجهة العولمة.

فاللغة هي أهم الروابط المعنوية التي تربط الفرد بغيره، لأنها واسطة التفاهم بين الناس، وآلة التفكير عند الفرد، وواسطة نقل الأفكار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف؛ فإن الأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها وأصبحت في سبات، تستطيع أن تستعيد وعيها بالعودة إلى تاريخها، فإن الأمة إذا فقدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة، ولا مستقبل لأمة فرطت في لغتها، وليس في المستطاع مواجهة تحديات العولمة بلغة لا تتوافر لها شروط المواجهة.

اللغة العربية وتحديات العولمة

د. عبد الله أبوهيف – لبنان

ملخص:

مهدتُ للبحث بمقدمة تؤطر قضية اللغة العربية وتحديات العولمة وبيّنتُ فيها الإحساس المتفاقم بمخاطر هذه التحديات لدى جمهرة عريضة من علماء اللغة العربية والمعنيين بها، حتى صار هناك صراع واضح بين «العوربة» والعولمة مواجهةً لها وتبصيراً بمعوقاتها ومشكلاتها، وأتبعتُ ذلك بنظرة تاريخية لهذه التحديات التي ارتبطت في آخر الأمر بالمعلوماتية بالدرجة الأولى، وخصصتُ إحدى الرؤى العربية البارزة في وعي هذه التحديات بالمناقشة، وهي للعالم نبيل علي من مصر، ثم عالجت بعض ممهدات العولمة، ولاسيما حاضنتها الاستعمارية كما تتجلى في ظاهرة استعمار العقل استعماراً لغوياً، والفرانكوفونية ومثيلاتها، ومجاوزة ثنائية التعريب والتغريب، ومواجهة فرضية الحتمية اللغوية.

وأفردتُ حيزاً لمعاينة بعض تحديات العولمة على سبيل المثال لا الحصر، لأنها كثيرة، مثل النشر الإلكتروني وأهمية تعريبه، والتفكير العربي بالحاسوب وتطوير استطاعة اللغة العربية المعلوماتية. وأوردتُ في الخاتمة خلاصة البحث.

1ـ تمهيد:

يبدي كثير من علماء اللغة تخوفهم من حاضر اللغة العربية إزاء تحديات العولمة، فهو «يدمي القلب»، عند صالح بلعيد (الجزائر)، **ويعزو هذه الحال إلى مخاطر الهيمنة اللغوية التي تمتلكها لغات حديثة وهجينة،** برأيه، ما لبثت في ظل العولمة أن «تكونت في عصر السرعة، ونالت المكانة العلمية التي أهلتها لذلك، بفضل الفكر العلمي والرياضي الذي سيطر على نخبها وعلى فكرها، وبالتطبيقات التقنية التي مسّت منظومتها الفكرية»[1].

تفاقمت هذه المخاطر لدى الباحثين اللغويين في المعاقل الإسلامية الأكاديمية التقليدية أمثال «رابطة الأدب الإسلامي العالمية»، فكتب سكرتيرها محمد عبدالشافي القوصي (مصر) في بحثه «العربية لغة الوحي والوحدة» **عن العقبات التي تقف حاجزاً في طريق اللغة العربية بتأثير العولمة،** وذكر منها على سبيل المثال **جعل اللغات الأجنبية لغة محاضرةٍ وتدريسها في بعض الكليات والمعاهد العربية، وتهاونت المؤسسات الإعلامية باختلاف ألوانها وطبيعتها في استعمال اللغة العربية إلى أبعد الحدود، بل إن كثيراً من الكبار الإعلاميين يسوغون ما أخطأوا، وتورطوا فيه بأنهم**

ليسوا من رجال اللغة، وكأن الصحة اللغوية مطلوبة فقط من المختصين، ناهيك عن وجود بنوك ومصارف مالية وأنشطة تجارية وعملية وثقافية لا تتعامل إلا باللغات الأجنبية، بالإضافة إلى تسلل موجة عالية من التغريب وتراجع التعريب... الخ[2].

لا يرتبط الإحساس بهذه المخاطر المتفاقمة بانتشار المعلوماتية وتقاناتها فحسب، لأنها نتاج الاستعمار والاحتلال والغزو العسكري الذي آل إلى غزو اقتصادي وفكري وإعلامي وثقافي في أشكال الاستعمار الجديد والتبعية والهيمنة والاستعلاء الغربي والأمريكي مما توجزه العولمة في تجلياتها النهائية، فقد أدرك المعنيون شراسة هذه المخاطر عندما رأوا في التعريب سبيلاً لتدعيم الوجود العربي والوحدة العربية باللغة العربية بالدرجة الأولى، إذ كان التعريب ومايزال سند «استعادة الهوية العربية التي عمل الاستعمار على سلبها بشكل مباشر وقحٍ في بعض أقطار العروبة، متسترٍ متكتمٍ في بعضها الآخر»[3].

رأت عواطف عبدالرحمن (مصر) المتخصصة في قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، أن آليات هذه التبعية تظهر جليةً في الثقافة ولاسيما اللغة، فثمة رؤية «تنظر إلى الاستعمار الثقافي كبناء مستقل بدرجة أو تزيد عن أبنية التبعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع مراعاة عدم انفصاله عنها ووجود علاقة تفاعل دائمة بينه وبين هذه الأبنية ككل»[4].

لقد برزت مبكرةً تأثيرات العولمة أو ما يفضي إليها مثل التراجع عن الهوية القومية ونهاية التاريخ بما هي مقولة فكرية ومعرفية تستند، فيما تستند إليه، إلى مقولة اللغة وعاء للفكر، ولعلنا لا ننسى بواعثها الصادرة عن المخابرات المركزية الأمريكية و«البنتاغون»، كون أبرز منظريها من هؤلاء الموظفين مثل فوكوياما، فانتشرت أفكار العولمة اللغوية، وأولها التشكيك في اللغة العربية، بينما لا ثقافة لأمة إلا بلغتها، وثانيها مصادرة كل إنتاج وطني مهما كانت جودته، وقبول ما يأتي من الغرب دون مناقشة، وتظهر الوقائع برأي بلعيد أن «الخصائص المحلية لا تذوبها العولمة، ولا تنتقص من قيمتها، أو تضعف قدرتها على أداء دورها إن كانت في مستوى العطاء لا التبعية»، مما يستدعي معالجة المواطن التالية حسب تقديره :

1. معالجة قواعدها النحوية بالتركيز على المستعمل منها.

2. معالجة خطها الذي تكتب به.

3. معالجة طرائق تلقينها لأهلها ولغير الناطقين بها.

4. معالجتها علاجاً آلياً بحيث تكون في مستوى اللغات الأخرى الحاملة للرصيد المعرفي من خلال المعلوماتية والشبكات والاتصال والترجمة الآلية ووجود المنطاقيات.

5. تفعيل مؤسساتها العلمية، والرجوع إليها للإفتاء اللغوي حسب المستجدات العصرية مع توحيد الجهود العلمية لهذه المؤسسات.

6. الفصل بين السياسة التي تنتهجها دولها والمتطلبات العلمية الحضارية لهذه الأمة في معركة السباق التقني على المستوى العالمي.

7. الإنفاق وتوحيد الطاقات البشرية والمادية، وهذا مطلوب من الحكومات العربية. وكان عليها أن تعمل على توحيد طاقاتها المادية وعقول أبنائها في الجانب الثقافي والعلمي عن طريق المنظومات التربوية ليحصل التقديس للغة العربية. ولتكن العبرة من اليهود الذين لم يتخلوا عن لغتهم، وبقوا متمسكين بها أمام الزخم الكبير لما تفيض به اللغات الحية. لأنهم يدركون سر الهوية الثقافية، ومن اليابانيين أو الصينيين أو الكوريين، لأنهم واعون بأن الثقافة تعني، مما تعني، وحدة الفكر والذات والهوية(5).

حاول علماء آخرون أن يضعوا العولمة في مقابل ما سموه «العوربة»، مثل تمام حسان (مصر) الذي يرى ظواهر عديدة دالة على امتياز العربية وتفاعلها المستمر المتكافئ مع لغات العالم المتقدم في المجالات جميعها(6).

وقد أيد عبد الفتاح أبو مدين (السعودية) هذه الأطروحة، ودعا إلى تأصيلها في مجالي التربية والإعلام من خلال تحسين أداء الناشئة و«إصلاح ما مسّ ألسنة الداخلين علينا بدون استئذان المتحدثين إلينا، وهم منا، عبر الشاشات والإعلان»(7).

استنتج إبراهيم بدران (الأردن) أن تحديات القرن الحادي والعشرين تتصل في غالبيتها بالعولمة وأدواتها مثل الترجمة الآلية والشابكة (الانترنيت) واقتصاديات التعليم وسواها، وهذا كله باعثٌ لاحتساب هذه التحديات العديدة، و« في مقدمتها تحويل اللغة والنهوض بها إلى مشروع تنموي تستثمر فيه الأموال والجهود، باعتبارها إحدى أدوات التنمية واكتساب المهارات العلمية والمعرفية والتدريبية. وضمن هذا المشروع التنموي يمكن أن تواجه اللغة العربية متطلبات المرونة والتطوير والترقيم والاختصار والترميز التي يقتضيها العصر، وتقتضيها التكنولوجيا الحديثة في المعلومات والحواسيب والاتصالات. وتواجه اللغة تحديات هائلة أمام الانترنت والعولمة وحوسبة التراث واقتصاديات الثقافة والتعليم دون أن يتحول النهوض باللغة العربية إلى مشاريع قومية عربية وقطرية وطنية، فإن القرن الحادي والعشرين وما سيرافقه من تطورات في أدوات الاتصال والعلم والثقافة قد يحمل مفاجآت للغة العربية لا يحسن الاطمئنان إلى نتائجها»(8).

لقد عوّل علماء اللغة العربية دائماً على ترقية اللغة من داخلها، بمعنى أننا ينبغي أن نخدم لغتنا، في العلوم و الفنون و الآداب، و في شؤون حياتنا كافة. ومن ذلك النهوض بمجالات التنمية

اللغوية في المصطلح واللسانيات والنحو والاقتصاد والإدارة والتربية و لغات الوسائط الثقافية والإعلامية والفنون الأدبية المختلفة.

ولعله بعد هذه الملامسات الواقعية أن نشير إلى أن مواجهة اللغة العربية لتحديات العولمة تتطلب العناية بأمرين:

أولاً: أهمية مواجهة تحدي المعلوماتية في سياقها الأشم والأعم: تقنيات المعلومات في امتلاكها وإنتاجها، وفي إدغامها بمناحي الحياة كلها بعد ذلك. ويتطلب ذلك المشاركة في ابتكار تقنيات المعلومات وتصنيعها، لا الاكتفاء باستهلاكها فحسب. وضمن هذا السياق الشامل والعام، يتبدى اختصاص جديد من اختصاصات تقنيات المعلوميات المتعددة: هو هندسة اللغة LANGUAGE ENGINEERING.

ثانياً: الإحاطة بالتسارع العلمي في تقنيات المعلومات التي غدت «طريق المستقبل» بتعبير بيل جيتس، وهي طريق شائكة مفتوحة إلى ما لا نهاية، وإن كان الأهم فيها هو الصورة والأرقام لغة بديلة عن اللغة.

إن تعاضد المعلوماتية مع الاتصالات في ما نسميه «المالتيميديا» يعني الاستعمال المتعدد لوسائل الاتصال، ويعني تطورات تسند تقنيات المعلومات التي أفرزت مجتمعات ملتبسة: الموجة الثالثة، المجتمع ما بعد الصناعي، مجتمع ما بعد الحداثة، مجتمع المعلومات، الثقافة الرقمية. ويرتهن هذا التسارع العلمي بالخيال التقني .

لقد هدد الحاسوب المخيلة، اعتماداً على مخيلة جاهزة محسوبة مبرمجة، مثلما هدد الحاسوب عادات القراءة والكتابة وطقوسها في الحرية وانتفاء الشروط الكهربائية أو شروط الأداء وسواها، إلى مداهمة الحاسوب لهذه العادات من داخلها، ولاسيما التعامل مع اللغة وما تؤدي إليه: التنميط وفقدان الروح. وثمة مخاطر أخرى محدقة تؤثر في اللغة، هي أمراض الحاسوب التي تقارب الجائحات والأوبئة في اتساعها وتسللها إلى حد المحو الكامل للذاكرة والمخيلة معاً. ولن ننسى في هذا المجال تلك المحنة التي سببها « فيروس تشرنوبل « الذي أتلف مئات الألوف من الأجهزة في الصين. ناهيك عن انتهاك الحرية والحرية الشخصية في استعمال اللغة وما تؤول إليها.

على أنني سأعالج هذه التحديات بعد هذا التمهيد وفق الخطوات التالية:

1. نظرة تاريخية لتحديات العولمة، والتوقف عند رؤية أحد العلماء العرب البارزين لها.

2. اللغة العربية وبعض ممهدات العولمة، ومناقشة حاضنتها الاستعمارية، كما تتجلى في ظاهرة استعمار العقل استعماراً لغوياً، و«الفرانكوفونية» ومثيلاتها، ومجاوزة ثنائية التعريب والتغريب، ومواجهة فرضية الحتمية اللغوية.

3. اللغة العربية وبعض تحديات العولمة مثل النشر الحوسبي وقضية التفكير بالحاسوب.

2- نظرة تاريخية ورؤية عربية:

تفصح المنظورات التاريخية والمقارنة من الأصالة إلى الحداثة عن مزايا الرؤى العربية المناهضة لتحديات المعلوماتية، وهذا ما نشير إليه في مسألتين أساسيتين هما ضرورة التعريب والمعالجة اللغوية الآلية :

2-1- اللغة العربية وتحديات المعلوماتية:

تبدلت النظرة إلى اللغة العربية تبدلاً كبيراً خلال العقدين الفائتين بتأثير ثورة المعلومات، **بل جاوز التبدل إلى التأثير العميق في خصائص منظومة اللغة العربية وعلائقها الداخلية والتعبيرية والوظيفية في الكتابة الإبداعية، وفي نقدها الذي مال إلى المناهج الحديثة وطرائقها البحثية**، وقد ساهم التفجر المعلوماتي في تكونها من الحاسوب، إلى «المالتي ميديا»، إلى الشوابك، وهي شبكة معلوماتية كونية وإقليمية ومحلية جعلت التواصل المعرفي ومناهجه وتقاناته وإجراءات مختلفة عما كانت عليه قبل هذين العقدين، وصار الحديث عن الكتاب الإلكتروني باستعمال الكتابة الحاسوبية وقابليات التأليف والتوثيق وثراء تعدد الوسائط، في متناول اليد، ويضاف إلى ذلك أن الحاسوب يتدخل إلى حدّ كبير في تنظيم عمل المخيلة الإبداعية، وفي انتظام منهجية محددة للعمل المعرفي في آن واحد، انطلاقاً مما يسمى النص «المفرع» أو النص «الممنهل» «Hypertext»، وهو لغة الكتابة على الشابكة، أو نظام نقل النصوص للشابكات .

يظهر هذا التبدل العمق في اللغة العربية في تأملنا لتطور استجابة اللغة العربية لهذا التفجر المعلوماتي، منذ الدورة السابقة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي (الرباط 1989)، فقد تفاقمت الحساسية العربية إزاء التحديات التي تواجه اللغة العربية، فحملت الدورة شعاراً شديد الدلالة هو «اللغة العربية هويتنا القومية». وقد طبعت هذه الأبحاث في كتاب «من قضايا اللغة العربية المعاصرة» (تونس1990).

إن مواجهة تحديات العولمة إزاء اللغة العربية هي الأنفع في حمايتها، وقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) إلى ندوة أخرى لمناقشة التحديات التي تواجه اللغة العربية وهي تستقبل القرن الحادي والعشرين، ضمن محاور «الخطة الشاملة للثقافة العربية»، وهي «العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين» (البحرين 1995). وتوزعت الندوة إلى معالجة العربية والمصطلح، والعربية والعالمية، والعربية والتعريب. «فإن في العناية بالمصطلح وقضاياه عناية باللغة العربية بوصفها لغة علمية وحضارية، ذلك أن التحديات التي تواجه العربية في هذا المجال كبيرة:

فإنها في حاجة إلى مواكبة التطور العلمي والمصطلحي الهائل الذي يشهده العالم اليوم، ولا يمكن لها ذلك إلا إذا أصبحت قادرة على أن تعتمد على نفسها غنية بالمصطلحات العلمية والفنية الموحدة المقيسة. وفي الاهتمام بالتعريب وقضاياه تهيئة لإنشاء العلم العربي الخالص والبحث عن الطرائق التي تقرّب العلم من الذهن العربي بلغته، وترسيخ لجذوره في البيئة العربية»[9].

من الملحوظ، أن البحوث جميعها لم تقترب من تحدي المعلوماتية الذي يواجه اللغة العربية، أو هي واجهته قبل ذلك. ولعل هذا الإغفال جعل القائمين على «الأليكسو» أن يعنوا بقضية تعريب الحاسوب في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية» (تونس1996)، «ذلك أنه مما تقدم بات من الأكيد أن يتكلم الحاسوب باللغة العربية، أي أن يصبح قادراً على التعامل مع الحرف العربي (يقصد الأصوات) مدخلات ومخرجات ومعالجة، إلا أن هذا المجال الحيوي يواجه بعض المشكلات والصعوبات التي تعوق مسيرته والارتقاء به إلى المستوى المطلوب»[10].

تلازمت مواجهة تحديات العولمة إزاء اللغة العربية مع ضرورة تحديث المعلوماتية فيها، مثلما أوضحت إدارة الثقافة في «الأليكسو» أنهم نظروا «إلى هذه الإشكالية من واجهتين: فمن الجانب اللغوي تتمحور هذه الإشكالية حول الحرف العربي على مستوى الخزن والمعالجة والإدخال والإخراج، كما تهم الكلمة والجملة، وبصفة أعم معالجة اللغة العربية على مستوى الجذور والتراكيب، أما من الجانب التقني والفني، فالإشكالية تتمثل في توفر أجهزة ومعدات تتعامل مع الحرف العربي بصفة طبيعية، ونظم تأخذ بعين الاعتبار خاصيات اللغة العربية بما في ذلك من حروف وقواعد معالجة الكلمة والجملة، لنصل إلى مشكل المصطلحات وضرورة وضع مواصفات ومقاييس لكل ذلك»[11].

لعل هذه المحاولة أول تصد جدي وشامل وعام لقضية اللغة العربية والمعلوماتية، وهو ما توضحه عنوانات بحوث الكتاب: نبذة تاريخية عن استخدام اللغة العربية في المعلوماتية، أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية: الكلمة-الجملة، المعالجة الآلية للكلام المنطوق: التعرف والتأليف، تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات، المواصفات والمقاييس لتعريب المعلوماتية، ميادين استخدام اللغة العربية في المعلوماتية: التوثيق والمكتبات والتعليم والتعريب، البعد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لاستعمال اللغة العربية في المعلوماتية. أي أن ثمة نظرة جديدة وتعاملاً جديداً للغة العربية في البحث العلمي، لابدّ من أخذهما بالحسبان، فقد توصل الباحثون العرب إلى نتائج هامة تتعلق بالمعالجة الآلية للبيانات العربية، منها: طرق تخزين البيانات واسترجاعها - المعاجم العربية لإصلاح التهجئة - برامج تدقيق الإملاء الصرفية والنحوية - المحلل الصرفي - برامج تحليل الإعراب النحوي - برامج التحليل الدلالي - برامج توليد الكلمة في اللغة العربية.

ثم صدر مؤلف من «قضايا فكرية» عن «لغتنا العربية في معركة الحضارة» (القاهرة 1997)، والبارز في مقالاته وأبحاثه المكتوبة بأقلام نخبة من المفكرين والعلماء والأدباء والنقاد، ثلاثة أمور، **الأول توكيد مكانة اللغة العربية في تدعيم أبحاث الهوية، والثاني هو مقدرتها على التجدد والأصالة، وفي صلب ذلك مواجهتها للتحدي الاتصالي والمعلوماتي، والثالث هو استجابتها البطيئة والقاصرة والتخلف على الرغم مما تحقق لها من تجديد وتطوير وتطويع نسبي لمقتضيات العصر وحاجات التطور المجتمعي العربي بجوانبه الإبداعية والتنموية والإنتاجية جميعها.**

كانت شهادة خليل النعيمي (سورية)، وهو روائي وطبيب وجراح. درس الطب والفلسفة في جامعة دمشق، ويعمل حالياً في مستشفيات باريس، في منتهى الأهمية عن ثراء اللغة العربية واستجابتها الدائمة للتجدد والتأصيل، مما يفسر سيرورتها وبقاءها واحتضانها للغة العلوم والمعلوماتية:

«أما الصبغيات (الكروموزوم)، والمعلوماتية (الأنفورماتيك)، والعصب الودي (السمبتاوي)، والبطين (فالتريكول)، وهو بطين القلب التشريحي، والشغاف (بيريكارد) وهو الذي يحيط بالقلب، ويحميه، أي شيء أكثر تعبيراً عن هذه المهمة من الشغاف؟. ولابد أن كلمة الشغف، اشتقاقاتها جاءت من هذه الإحاطة الحميمة، وغير هذه من التعابير والكلمات المعربة التي درسناها في جامعة دمشق، وهي التي باستطاعتها أن تضفي بعداً جديداً على اللغة، وتعبّر، في الوقت نفسه، عن طاقة هذه اللغة على التجدد والتطور»(12).

وتحدث النعيمي عن فضل اللغة عليه كاتباً وطبيباً جراحاً، لأن «اللغة بلا علم هي لغة خرساء»، ولأن التعريب ليس دائماً تخريباً، «إنه، على العكس سلاح إضافي بالنسبة للطبيب العربي مثلاً، و«لغة الدراسة ولغة الممارسة هي نفسها، وإذا ما قرر أن يتخصص، فإنه بالتأكيد سيكون قادراً على تخطي عوائق تعلم لغة جديدة»(13).

إنني أعتقد مثل النعيمي، وهو رجل علم وأدب، **أنّ تعريب المعلوماتية وإنتاجها أول السبل لمواجهة هذه التحديات الضاغطة علينا جميعاً.**

2-2- رؤية عربية لتحديات المعلوماتية أمام اللغة العربية:

لقد آل الموقف من اللغة العربية وتحديات المعلوماتية إلى حساسية متفاقمة إزاء القصور المعرفي والإنتاجي العربي في هذا السبيل، ولعل الأبرز في معالجة هذه القضية هو نبيل علي (مصر) الذي وضع بحوثاً متعددة لمجاوزة الراهن ولمواجهة المشكلات المعرفية والتقنية الناجمة عن هذا التحدي، وسأتوقف عند جهوده ولاسيما كتابه الهام «الثقافة العربية وعصر المعلومات:

رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي » (الكويت2001) الذي يُعد انعطافة نوعية في التصدي لهذا الشاغل الرئيس .

كان بحثه « نحو نظرة أشمل للغة » (المنشور ضمن المؤلف المشترك « قضايا فكرية » القاهرة1997)، تصدياً مبكراً ودقيقاً للغة العربية والمعلوماتية، وهو صاحب أول مؤلفين باللغة العربية عن هذه القضية الشائكة والهامة: « اللغة العربية والحاسوب » (1988)، و« العرب وعصر المعلومات » (1994) . وقد عالج نبيل علي اللغة ضمن المحاور التالية:

1 . الدور الأكثر خطورة التي تلعبه اللغة في مجتمع المعلومات .

2 . الموقع الأكثر أهمية الذي تحتله اللغة حالياً على خريطة المعرفة الإنسانية .

3 . الإشكالية الأكثر تعقيداً التي تصاغ في قالبها قضية اللغة .

4 . التوجهات الأكثر تعدداً لتناول إشكالية اللغة وأمور معالجتها آلياً بواسطة الكمبيوتر[14] .

وتوقف نبيل علي عند النهج الحاسوبي في دفع عجلة التنظير اللغوي إلى آفاق جديدة، وذلك انطلاقاً من منظور هندسة المعرفة وإقامة النماذج لتمثيل الأداء الكلي لمنظومة اللغة، فقد ظهرت، وما زالت تظهر، عدة نظريات نحوية، وهي تمثل النتاج الوفير للتفاعل الشديد بين الاستعمال النحوي والاستعمال الدلالي من جانب، وبين اللغويين وعلماء الحاسوب من جانب آخر. **ولاحظ أن النماذج اللغوية والنحوية العربية المقترحة تختلف من حيث دقتها في توصيف الظواهر اللغوية وقدرتها على تفسيرها، ولاشك في أن اختيار أمثلتها لنمذجة اللغة العربية، هو أمر يتطلب بحثاً متعمقاً في خصائص تلك النماذج باعتبار خصائص النحو العربي المذكورة .** وبيّن في ختام بحثه مدى تخلف دراسة اللغة العربية، بالنظر إلى تطور المعلوماتية، في أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية من خلال القائمة التي أوردها للمواد التي تدرس في هذه الأقسام، وهو بيان يدعو إلى الشجن والأمل بمجاوزته في الوقت نفسه، وقد وضع نبيل علي سبلاً للمجاوزة في كتابه « العرب وعصر المعلومات »، فعالج خصائص منظومة اللغة العربية من منظور معلوماتي، ومراحل تطور دراسة اللغة، والعلاقة بين تقانات المعلومات واللغة العربية، وتقانات المعلومات كأداة للغة العربية .

وضع نبيل علي الملح على الجرح، على أن السبيل متاح لمجاوزة الراهن غير المرضي، باللجوء إلى المجالات التالية:

1 . تكنولوجيا المعلومات كأداة للإحصاء اللغوي .

2 . استخدام تكنولوجيا المعلومات في معالجة الكتابة العربية .

3 . تكنولوجيا المعلومات كأداة للصرف العربي .

4 . تكنولوجيا المعلومات كأداة للنحو العربي .

5 . استخدام تكنولوجيا المعلومات في الفهم الأتوماتي للسياق اللغوي .
6 . تكنولوجيا المعلومات في تحليل النتاج الأدبي وأساليب الكتاب .
7 . تكنولوجيا المعلومات كأداة لمكننة المعجم العربي .
8 . تكنولوجيا المعلومات كأداة لدعم العمل المصطلحي .
9 . تكنولوجيا المعلومات في مجال الترجمة الآلية .
10 . توليد الكلام العربي وفهمه آليا (15) .

غير أن الجهد الأهم لنبيل علي هو كتابه الأخير المشار إليه آنفاً الذي يكمّل فيه جهده السابق في **إشاعة نظم المعلومات باللغة العربية وفي أنساق الثقافة العربية : برمجة وتصميماً وإدارة وبحثاً**، ولربما كان هذا المفكر اليوم في موقعه، على الرغم من أنني تخلصت مبكراً من أوهامي حول الإمكانية العربية التي ماتزال مهدورة، فهو نائب « مدير المركز العربي للكومبيوتر »، و« مدير الشبكة القومية للمعلومات » في مصر .

رأى علي أن التنمية المعلوماتية هي قضية ثقافية في المقام الأول، أي أنها تحد ضاغط على الثقافة العربية والمثقفين العرب، فمانزال بحاجة إلى منظور عربي لثقافة المعلومات، إذ كنا حتى وقت قريب منشغلين بتحديات الثقافتين أو الثقافة الأدبية والثقافة العلمية مما أثاره C. B. Snow، ثم دوهمت الثقافة العربية بتحديات أعظم هي تقانات المعلومات، ومنها ما اصطلح على تسميته « تكنجة المعرفة » أو « تكنجة الأدب » بفضل التفجر المعلوماتي الهائل، ولاسيما تطبيقاته في « الذكاء الاصطناعي » و« النص المفرّع » وسواهما، ولا يخفى أن هذه القضايا اللغوية تتطلب التعريب بالدرجة الأولى .

قام الكتاب على حوار شائق وممتع بين إطارين متداخلين، الأول هو الثقافة بوصفها محوراً لعملية التنمية الاجتماعية، وتقانات المعلومات بوصفها محوراً لعملية التنمية العلمية ـ (التقنية) ، فعرض ملامح المشهد العالمي الثقافي ـ المعلوماتي متبوعاً بنظيره العربي، وطرح منظومة تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي، وطرح منظومته الثقافة من منظور معلوماتي . ثم تناول فروع منظومة الثقافة بالتفصيل : ثقافة اللغة، وثقافة التربية، وثقافة الإعلام، وثقافة الإبداع الفني، ومنظومة القيم والمعتقدات .

أثار نبيل علي في كتابه الأسئلة الرئيسة حول العرب وحوار الثقافة والتقانة تمهيداً لمعالجة قضايا الثقافة العربية وفروعها من منظور عربي معلوماتي، واختار فصل ثقافة اللغة نموذجاً لاستعراض طريقته في المعالجة مكتفياً بالعنوانات الرئيسة، لأن تفريعات المؤلف كثيرة ومفتعلة غالباً :

1ـ نحو نظرة أشمل للغة، ويدرس فيها: اللغة ذلك الشائع المجهول، وتعاظم اللغة في عصر المعلومات، مشيراً إلى تقاعسنا اللغوي و عالمية العربية وتحديات العولمة.

2ـ علاقة اللغة بفصائل المعرفة، ويدرس فيها: موقع اللغة في خريطة المعرفة، واللغة من الخضوع إلى الإخضاع، وعلاقة اللغة بالفلسفة، وعلاقة اللغة بالعلوم، وبالفنون، وبالهندسة.

3ـ اللغة في إطار منظومة الثقافة.

4ـ منظومة اللغة..الخ[16].

حفل الكتاب بمعالجة مبتكرة عامة وتفريعية لعناصر كل قضية على حدة، كأن يورد منظوراً عربياً للعناصر الداخلية لمنظومة اللغة: نظام القواعد العربية ـ نظام المعجم العربي ـ معالجة اللغة العربية آلياً، وهذا ما يجعل الكتاب اجتهاداً مهماً في مواجهة تحدي المعلوماتية للثقافة العربية على الرغم من استغراقه في الافتراضات النظرية، وعلى الرغم من حاجته إلى الاشتغال التطبيقي ضمن أفراد وفرق عمل.

3- اللغة العربية وبعض ممهدات العولمة:

بات واضحاً أن ممهدات العولمة مرتبطة بالاستعمار والاستهدافات والهيمنة على العرب والمسلمين، ومنها محاربة اللغة العربية، كما هي الحال في استعمار العقل والثقافة واللغة، وإشاعة اللغات غير العربية كالفرانكفونية وسواها :

3-1- استعمار العقل، استعمار اللغة:

نتج عن تحديات العولمة، مخاطر كثيرة لابدّ من احتساب شروط مواجهة فعالة لها، ولاسيما مخاطر التبعية والتغريب والتنميط والغزو، وهي تعبيرات متداخلة تشير إلى تحول الاستعمار التقليدي المباشر بالأسلحة التقليدية المعروفة، إلى استعمار حديث غير مباشر، هو الأخطر، بالأسلحة المعرفية التي تتطور بسرعة ماحقة، وهو ما سماه الأديب الإفريقي نغوجي وأثيونغو «استعمار العقل»، وهو يبدأ من اللغة، لأن الخلل اللغوي والثقافي، باستعمال اللغات الإمبريالية أو الاستعمارية وثقافاتها هو خلل علاقة مع المستعمر أو الإمبريالي المهيمن والغاشم، وهذه اللغات والثقافات هي أدوات للعولمة، أشد نفاذاً وتأثيراً.

سأنطلق من تجربة هذا المبدع الإفريقي الذي أرقته طويلاً معضلة الأصالة، فحرص على هويته القومية والوطنية باستعمال لغته الإفريقية، فأهدى كتابه، امتناناً لكل أولئك الذين يكتبون بلغاتهم الإفريقية، ولكل الذين صانوا، على مرّ السنين، كرامة الآداب والثقافة والفلسفة والكنوز الأخرى التي حملتها اللغات الإفريقية، أي أنه عدّ الكتابة باللغة القومية أو الوطنية الأم تعبيراً عن التشبث بالكرامة.

كتب نغوجي واثيونغو (غالباً باسم جيمس نغوجي، وهو اسم متغرب مستلب) أعمالاً روائية ومسرحية وقصصية كثيرة مهمة باللغة الإنجليزية، وعمل فترة طويلة رئيساً لقسم الأدب بجامعة نيروبي في عاصمة بلاده: كينيا. وقد ترجمت إلى العربية أكثر من ثمانية كتب له في القاهرة والكويت ودمشق وبيروت، وفي عام 1977 أدرك أن التخلي عن الكتابة بلغته الإفريقية يعني استمرار استعمار العقل، فرأى أن يودع الكتابة بالإنجليزية خطوة في طريق طويلة لتصفية استعمار العقل، فصرح آنذاك:

«في عام 1977 نشرت «**تويجات الدم**». وقلت وداعاً للغة الإنجليزية، واسطة لكتابة مسرحياتي ورواياتي وقصصي القصيرة.. أما هذا الكتاب فهو وداعي للإنجليزية باعتبارها واسطة لأي من كتاباتي»[17].

وهكذا وضع واثيونغو يده على المعضلة أو الخلل المركزي في هذه التجربة. وهو خلل لغوي، في ظاهره، عميق وشارخ للذات في جوهره، أقصد استعمال لغات غير إفريقية، بالنسبة للكاتب الإفريقي بعامة، إذ يوضح أن هذه المعضلة جزء من نقاش مستمر على امتداد القارة حول مصير إفريقيا. والمروع أيضاً في هذه المعضلة، وهذا ما يريده الغرب ويشجع على انتشاره، على أن استعمال الكتابة بلغة غير قومية أو وطنية لا ينفصل عن شؤون القارة الإفريقية وشجونها، شأن الأطراف الجنوبية جميعها حول المركز الأميركي والأوربي الشمالي، كأن يوضع المسلم ضد المسيحي، أو «الكاثوليكي» ضد «البروتستاني»، حين يصعب تصنيف الناس في «قبائل». ويضيف واثيونغو بأسى:

«حتى الأدب نفسه يجري تقويمه، أحياناً، بموجب الأصول «القبلية» للمؤلف، أو التكوين والأصل «القبليين» لشخصيات هذه الرواية أو تلك المسرحية. هذا التفسير المبتذل للحقائق الإفريقية شجّعه الإعلام الغربي الذي يريد أن يُزيغ الناس عن رؤية أن الاستعمار ما يزال السبب الأساس للعديد من معضلات إفريقيا. وقد وقع، لسوء الحظ، عدد من المثقفين الأفارقة ضحايا لهذه الخطة، وإلى حدٍ لم يعد فيه بعضهم قادراً على الشفاء، ولا على معرفة الأصول الاستعمارية ذات قاعدة «فرق تسد» في تفسير الاختلافات الثقافية والصدامات السياسية تفسيراً يستند إلى الأصول الإثنية للمختلفين».

كانت المقاربة مختلفة، فالحقائق الإفريقية «متأثرة بالصراع الكبير بين قوتين متضادتين في إفريقيا اليوم: تراث استعماري من ناحية، وتراث مقاوم من الناحية الأخرى. التراث الاستعماري في إفريقيا اليوم تحافظ عليه البرجوازية العالمية مستخدمة الشركات متعددة الجنسيات، وبالطبع، الطبقات الحاكمة الملوحة بالعلم الوطني. وتنعكس التبعية الاقتصادية والسياسية لهذه البرجوازية الإفريقية النيو-كولونيالية، في ثقافتها، ثقافة القردية والببغاوية، المفروضة على شعب متململ،

بجزمات الشرطة، والأسلاك الشائكة، ورجال الدين والقضاء ذوي العباءات . إن الحصيلة النهائية لكل هذه الضربات، مهما كان وزنها وحجمها ونطاقها ومكانها وزمانها، هي التي تشكل التراث الوطني »[18] .

إن جوهر تجربة واثيونغو، علامة على تجربة إفريقية واسعة وشاملة، هي أن اللغة القومية والوطنية لا تنفصل عن الهوية، وإن نفي اللغة من شأنه أن يجعل **التقليد الأجنبي المعولم** مهيمناً على الأطراف المستلبة بتخليها عن **تقليدها القومي في اللغة، في الثقافة والمعتقد والتاريخ والمعرفة والعمران الإنساني والاجتماعي**. ولعل تشخيص الأمر يتبدى واضحاً في مثل هذه الإشارة:

« قبل الاستقلال، كان التعليم في كينيا، أداة للسياسة الكولونيالية يقصد منها تعليم شعب كينيا قبول دوره باعتباره مستعمراً. لذا فإن النظام التعليمي غداة الاستقلال كان إرثاً من الكولونيالية، ومن هنا تركزت المناهج الأدبية على دراسة تراث أدبي إنجليزي يقوم بتدريسه معلمون إنجليز. إن وضعاً مثل هذا يعني أن الأطفال الكينيين يجري تغريبهم عن خبرتهم الخاصة، وعن هويتهم في بلد إفريقي مستقل »[19] .

ثمة إشارة دالة في علاقة كينيا مع تراث الحضارة العربية تظهر أن القطيعة اللغوية تشكل في المآل الأخير قطيعة معرفية وتاريخية شاملة، كما في هذه الوثيقة من مؤتمر نيروبي حول «تدريس الأدب الإفريقي في المدارس الكينية» المنعقد عام 1974 :

« إن الحضارة العربية التي يبلغ عمرها قروناً كان لها تأثير هائل في أدب شمـــال إفريقيا الحديثة، وفي أجزاء عديدة من القارة. وقد حرّم مربـونا الاعتراف بهذا التأثيـر، وأهملوا أدب شمـــال إفريقيا والعالم العربي »[20] .

تفيد هذه التجربة أن النضال اللغوي القومي والوطني نضال من أجل الهوية الثقافية في مواجهة هيمنة الشمال المعولم. ولا يخفى أن النقد الأقسى للخطاب الكولونيالي صادر عن المركز نفسه، من إدوار سعيد إلى عشرات النقاد والمثقفين الذين ولدوا في المستعمرات أو العالم الثالث أو الدول التابعة، ثم طوروا مناهجهم في الجامعات والمؤسسات الغربية أمثال غاياتري شاكرا، وفورتي سبيفاك، وهومي بابا، وإعجاز أحمد، وقمقم ساري، وعقل بلغرامي، وبيتيا باري، وما جوهر نقد الخطاب الكولونيالي إلا استجوابه و « تدقيق الوسائل التي أتاحت لأوربا فرض وصيانة خطابها في سياق إخضاعها لثلاثة أرباع البشر يقطنون العالم الراهن». ولا شك في أن نفي الخصوصيات اللغوية في مقدمة هذه الوسائل.

هل ثمة من يماري بعد ذلك أن مخاطر العولمة تمتد من اللغة بالأساس إلى نفي الخصوصيات الثقافية والتراث الثقافي القومي.

3-2- اللغة العربية والفرانكوفونية ومثيلاتها :

إن مواجهة تحديات العولمة تقتضي التأمل الموضوعي للفرانكوفونية في سياقاتها الجديدة : اللغة الفرنسية تستوعب الفعاليات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية الأخرى.

باديء ذي بدء، لا أصادر على المطلوب بالقول : **إن الفرانكوفونية خطر كلّها على استعمال اللغة العربية في مناحي الحياة كافة، فثمة منافع لا يمكن إغفالها في التفاعل الثقافي مع تراث الإنسانية الفكري والعلمي والأدبي والفني مما كانت اللغة الفرنسية أداته الفضلى خلال أكثر من خمسة قرون إلى جانب اللغات الأوربية الصاعدة في تلك الفترة مثل الإنجليزية والألمانية والإسبانية، بل إن حشداً من الأدباء العرب اختاروا الكتابة بالفرنسية من غالبية الأقطار العربية**، وتوّج القائمة الروائي السعودي أحمد أبو دحمان بروايته «الحزام» (2000).

إن إحصاءً أولياً للأدباء العرب الفرانكوفونيين لا يصدق للوهلة الأولى، مثل قوت القلوب الدمرداشية، والبيرقصيري، وأندريه شديد، وأحمد راسم، وجورج حنين، ويوسف يعقوب، ويعقوب آرتين، وسيلين أكسلوس، وجان أركاش، وفوزية أسعد، ورامول بارم، وروبير بلوم، وفرانسوا بونجان، واجوستينو جون سياتيفو، وألبير جوزيوفيشي، وجيهان فراوي، وسيريل ديبو، وأليك سكوفي، وماريوس شميل، وألبير عدس، وتوفيق العقاد، وواصف بطرس غالي، ونيللي فوشيه زنانيري، وجان موسكانيللي، وجويس منصور، وسليمة تيه، ورمسيس يونان وغيرهم من مصر، وجورج شحادة، وأمين معلوف، وفؤاد أبو زايد، وألفريد أبو سليمان، وجومانة أحدب، وبلانش آمون، وإيفلين بطرس، وجاك ثابت، وبول جماتي، وفرج الله حايك، وفيكتور حكيم، وإدمون سعير، وميشال شيحه، وخليل غانم، وميشيل غريب، وشكري قرداحي، وهكتور قلت، وشارل كورم، وشارل كوري، وشكري غانم وغيرهم من لبنان. وهناك عشرات الأسماء من سورية وفلسطين والأردن ومن المهاجر، وهؤلاء المشارقة يفوقون المغاربة عدداً في المغرب وتونس والجزائر وموريتانيا.

هناك العديد من أضرار التخلي عن اللغة العربية في الثقافة والفكر والإبداع والفن، كلما تكاثرت الكتابة بلغات خارجية، ولننظر على سبيل المثال في كتاب محمود قاسم بالعربية، وعنوانه «الأدب العربي المكتوب بالفرنسية» (الصادر بالقاهرة عام 1996)، وهو لا يغطي إلا مساحة محدودة من الكتابة العربية بالفرنسية، فقد أبدى هذا الباحث ملاحظة في محلها هي أن هذا الأدب قد احتضنه الفرنسيون، وقدموا عنه الكثير من الدراسات، بينما ندرت مثيلاتها في الوطن العربي، وأشار في الوقت نفسه إلى معضلة من معضلاته هي تحدي لغة من يكتب عنهم هذا الأديب أو ذاك، إذ كتب غالبية هؤلاء حوارهم بالعامية العربية ثم ترجموه

إلى الفرنسية، «قد اتضحت هذه الظاهرة في روايات من طراز «نوم الخلاص» و«اليوم السادس» لأندريه شديد. حيث أن أبطالها يسكنون البيئات الشعبية. ويستخدمون مصطلحات شعبية في المقام الأول. وتبدو هذه الكلمات واضحة لدى متابعتها. ولاشك في أن من قام بترجمة مثل هذه الروايات سوف يقع في حيرة أمام ترجمتها إما بالفصحى أو العامية. وقد حدث هذا لمترجم رواية «نوم الخلاص» المنشورة في روايات الهلال عام 1991. والغريب أن القاريء لم يستسغ هذه اللغة، باعتبار أنه أمام أدب مترجم. ولذا، فإن كاتب هذه السطور قد وقع في نفس الحيرة وهو يترجم روايات «شحاذون ومعتزون» و«منزل الموت الأكيد» و«العنف والسخرية» لألبير قصيري إلى اللغة العربية. واختار اللغة العربية البسيطة خاصة عند ترجمة الحوار، على الرغم من أنه يعرف أن في هذا قصوراً واضحاً»[21].

إن الكتابة بالفرنسية لا تشكل خطراً بذاتها على العربية ما لم تندغم بأبعاد سياسية، وتثير في تضاعيف هذه الأبعاد مخاطر مثل الهيمنة، والتغريب، وجلد الذات القومية بتأثيمها والاستعلاء عليها ونفي الهوية وغيرها من العقابيل الناغلة في الروح.

لقد تحسست فرنسا تراجع استعمال الفرنسية في البلدان الفرانكوفونية، فضاعفت اهتمامها بتعليم الفرنسية ونشرها وعمليات الإنتاج العلمي والفكري والأدبي والفني والتعليمي بها، ونظمت لها الجوائز والتظاهرات والدورات والحلقات الدراسية والبعثات، ليس لطلاب تعليم الفرنسية فحسب، بل للمترجمين والباحثين والأكاديميين على نفقة الحكومة الفرنسية، ثم بلغ الاهتمام ذروته عندما تحولت الفرانكوفونية إلى مجموعة سياسية مع مؤتمر القمة السابع للفرانكوفونية (هانوي 14/11/1997)، تطلعاً لأن تكون الفرنسية لغة رئيسة للإنتاج العلمي والفكري والاجتماعي والسياسي، وأذكر في هذا المجال بعض مواد إعلان هانوي النهائي لدلالتها القاطعة في هذا السياق:

- **نعمل على تكثيف جهودنا في التشاور، في الإعلام، وفي التدريب، من أجل بث الحيوية في تعاوننا ومساندة جهود بلادنا من أجل تنمية مستديمة، مرتكزين على استثمار وتقاسم مكتسباتنا العلمية والتقنية**، خاصة في العمل على تطبيق مخطط عمل «مونتريال» المكرس للتقنيات الجديدة في الإعلام والاتصالات.
- **نقرر تسويق التبادل الثقافي في الفرانكوفونية بكل أشكاله وتسهيل تنقل المبدعين وتدريبهم**، وتأمين تبادل أعمالهم ووصولهم إلى المساعدات والمؤسسات الفنية والثقافية في كل الدول.
- **نعترف بضرورة الإسراع في تقوية البعد الاقتصادي للفرانكوفونية من أجل جعلها مكملة للإمكانيات الثقافية والسياسية، وأكثر فاعلية للإجابة عن متطلبات التنمية لشعوبنا**، كما يشير إلى ذلك عنوان قمة هانوي: «تقوية التعاون والتضامن الفرانكوفوني من أجل السلام والتنمية الاقتصادية والاجتماعية».

- **ندعو كل الدول، المنظمات والمساهمين من العائلة الفرانكوفونية إلى الاستفادة من الطاقة الغنية التي يقدمها تعاوننا المتعدد الأطراف في مجال الموارد الإنسانية، في خدمة النمو، وإلى دمج المجتمع الأهلي في هذه المسيرة، خاصة الشباب والنساء.**
- **نقرر إضافة الإمكانيات الاقتصادية التقنية والإنسانية الضرورية، على التعاون الفرانكوفوني المتعدد الأطراف بواسطة تطبيق مخطط العمل الذي نعتمده اليوم .**

سبق انعقاد قمة هانوي اهتمام كبير وانشغال عميق باعث على الحيرة لدى الفرنسيين في مآل التراجع الواضح للفرنسية في العالم، فصدرت آنذاك عدة كتب لمجموعات من المؤلفين الفرنسيين والفرانكوفونيين، لعل أبرزها «أية فرانكوفونية للقرن الحادي والعشرين» (منشورات كارتالا ـ باريس 1997)، ولا يخفى النزوع الاستشرافي لتطوير الفرانكوفونية في بحوث هذا الكتاب، أما أبرز العقبات عندهم فهي أن المجتمع الفرنسي يشهد، كباقي المجتمعات، مثاقفة أميركية هوجاء، جعلت البعض يشير إلى أن اللغة الفرنسية في الآفاق المقبلة ستصبح في عداد الديناصورات.

من الواضح أن منظمة الفرانكوفونية تسعى جاهدة، لاستعادة هيمنة الفرنسية لغة أولى ورئيسة في البلدان الفرانكوفونية، ونجاحها، فيما أرى، دونه أهوال وأهوال، وهو جلي في المشرق العربي، أما البلدان المغاربية فتؤشر إلى المآل إياه، ومثاله الجزائر، فقد تدنى عدد القراء بالفرنسية إلى حدود غير مرضية بالنسبة للمفرنسين، وهذا مثال واحد بسيط (لا يصل عدد قراء الجرائد الفرنسية كلها في الجزائر إلى عدد قراء جريدة «الخبر» وحدها).

إن فحوى هذا المآل الخاسر بالتدريج هو أن الفرنسية تواجه تحديات العولمة والمعلوماتية مثل غيرها من اللغات الحية الأخرى أمام الإنجليزية، ولا تختلف في هذا السياق عن العربية، مما يؤدي إلى تفضيل البعد «البراغماتي» في استخدام اللغة لدى الكثيرين، ويعود بأهل اللغة إلى التفكير الجذري والحقيقي بهويتهم اللغوية والثقافية وفعاليتها الراهنة والمستقبلية.

إنهم يخدمون لغاتهم، بينما نهمل لغتنا جهلاً أو تجاهلاً. وثمة مثيلات للفرانكفونية لا سبيل إلى تعدادها وتبيان موضعها في المعضلات الراهنة والقادمة.

3-3- التعريب والتغريب:

صار التعريب قبل أكثر من عقدين من الزمن حقيقة حية، وصار مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي (مقره الرباط، وهو أحد مؤسسات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وأصدر مجلة هامة هي «اللسان العربي»المحتجبة) فعالاً في تعزيز البعد الحضاري والسياسي والفني للتعريب، بما هو توحيد المناهج الفكرية والعلمية والانتماء إلى كيان حضاري واحد تعوقه عوائق اللهجات

أو اللغات الأجنبية، بتعبير محمد المنجي الصيادي (تونس)، وهو صاحب أهم دراسة عربية عن « التعريب وتنسيقه في الوطن العربي » (مركز دراسات الوحدة العربية بيروت1980) . وقد حددت تلك الدراسة الرائدة منهجية المصطلحات العلمية في إشكالية تعريبها و حدود التعريب ومفهومه، و مسوغات إنشاء مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي وكيفيته الإدراية والعملية التي تتجه إلى المجالات التالية : التنسيق بين المعاجم، التعريب والأبحاث في الألسنية، التعريب والأبحاث في علم الدلالة، التعريب والأبحاث في علم النحو، التعريب وقضايا اللهجات، التعريب والعلاقات بين الدين واللغة والأدب، التعريب والقضايا الحضارية، اللغة العربية في العالم ووضعية الدراسات العربية والاسلامية في الحواضر العالمية.

ألقى الصيادي نفسه محاضرة ذات دلالة كبيرة في التعريب ومآله الراهن والمستقبلي في ندوة « التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية » (مركز الدراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1982)، ورأى فيها خصائص للتعريب في المغرب الذي يواجه وضعية شديدة الخصوصية بالنسبة لبلدان المشرق، « تفيد نقل كل ما هو أجنبي إلى العربية »، أي أن التعريب المغربي يشكل قضية شاملة تتعلق بنسب متفاوته بالهوية الوطنية والتراث والشخصية والأصالة العربية الإسلامية التي تنتسب إليها أقطار المغرب العربي، كما أنه يتضمن ظاهرة التفتح على الحضارة الأجنبية، ولا سيما الثقافة الفرنسية، طلباً للاثراء الفكري . وتتسع هذه القاعدة المعممة للتعريب الفاعل إلى خطة كبرى تستهدف بالازدواجية الاستعمارية . ونحن نفضل تسمية هذا الواقع اللغوي الذي ما زالت تعيشه نسبياً أقطار المغرب « الثنائية اللغوية » في التعليم والإدارة والمجتمع، علماً وإثباتاً لواقع المواجهة القائمة بين العربية والفرنسية . ولنصطلح على تسمية الاختلاط الموجود بين الفصحى والعامية « الإزدواجية العربية » . « ولا يفوتنا أن نلاحظ في هذا الباب التفاعل القائم بين مظهري اللغة العربية، وكذلك التفاعل المتواصل بين العربية الفصحى وبعض اللغات الأجنبية خاصة الانكليزية (والامريكية) والفرنسية، سواء أكان في اقتباس الكلمات الحضارية والعلمية، أم في انتقال التراكيب وأساليب الكتابة إلى المعاني المحدثة »[22] .

يلاحظ أن التعريب وضع في مواجه التغريب منذ بداية الوعي بهذه القضية على أنها مظهر أيضاً من مظاهر الغزو الثقافي الأجنبي، وبغض النظر عن الاختلاط في فهم البعد السياسي للتعريب في البلدان المغاربية الذي يدغم التعريب بمحاولات التعتيم على حضارة طمسها الإسلام قبل قدومه، وأقصاها العرب قبل «عوربة» المنطقة، فإن مخاطر التغريب أشد وأقسى من الاطمئنان إلى التعريب، ويشير التشخيص المبكر للصيادي إلى معضلة ناجمة عن التعريب الجزئي، مما هو حاصل في البلدان المغاربية، فقد ألبست قضية التعريب أبعاداً سياسية ليست لها تتصل باللغة الفرنسية أو الأمازيغية، لأن واقع الحال لا يضع التعريب في مواجهة العربية للغات الأخرى، فليست العربية صراعاً مع وجود لغات أخرى :

« وعلى هذا، يمكن إدراك الجهود المبذولة من أجل إعادة بناء الهوية الثقافية على أسس وطنية وقومية عربية، وأحسن ما تجسم فيها التعريب .وهي ما زالت تطمح إلى القضاء على بنى التبعية التقليدية القائمة بين الدولة الأجنبية والدولة الباحثة عن أسباب الرقي والثراء الفكري. فنشأت ونمت في ضوء هذا الوضع جدلية بين الاتجاهين، اتجاه جماهيري عروبي واتجاه نخبوي. وطني انتقائي يميل إلى المحافظة على الأوضاع القائمة في التعليم والإدارة ويعيش في محيط اجتماعي شبه مغلق على الواقع المحلي و« متفتح » على الحضارة الأوروبية بلغتها الفرنسية دون غيرها من الخيارات الحضارية الموجودة في العالم، وذلك ترسيخاً لمصالحه المكتسبة وتكريساً لطموحاته المقبلة. ويتمخض عن هذا السلوك الانفرادي العازل غير السوي نفسانياً، التخلي عن القيم الأصيلة في المدى القريب، وتفسخ الشخصية الوطنية والقومية في المدى البعيد. لكن حتميات التربية ووقائعها المعيشية يومياً حتمت الإبقاء على اللغة الأجنبية ولو بصورة انتقالية إلى أن تتحقق الآمال المعقودة على منجزات التعريب الجزئي، ترقباً لتنفيذ التعريب الشامل الذي يبدو مطباً عسير المنال في الوقت الحاضر »(23).

لقد جعل التعريب الشامل، كما لا حظنا في تجربة الجزائر مع دستور 1988، يستثير ضغائن هؤلاء المسيسين لقضية التعريب على أنها تهديد لوجودهم، بينما تتيح النظرة « البراجماتية » مزيداً من التعايش اللغوي القائم على التعددية، فليس التعدد اللغوي معادلاً لتعدد فئوي أو سبيلاً للهيمنة القومية والوطنية، فالمسألة أعقد من ذلك بكثير، وإنني أتفق مع القائلين بأن « أبعاد التعريب أعمق من مجرد الوقوف عند قضية المصطلحات ووضوحها وتوحيدها وربط ذلك بوجوب احترام مستوى التعليم العربي، والرفع من المحصول العلمي والحضاري للطالب العربي. ومبتغانا هو فك حلقة التبعية الثقافية المجحفة، والتأكيد بأنها تكتسي صبغة وقتية. ذلك أن مبدأ هذه التبعية لا يمكن أن يكون عاماً شاملاً، بل له صبغة نسبية مرتبطة بالوضع السياسي لكل قطر عربي. ولا يمكن لمجتمع أن يخضع برمته للنهل من الثقافة الأجنبية، مهما توخت من أساليب تشويقية للوصول إلى عقله ووجدانه، لأن الثقافة مجموعة من القيم الحضارية لا تستساغ إذا كانت غريبة عن المقبل عليها. وينطلق البحث في مفهوم التبعية من افتراض وجود ظواهر منها مغروسة بين أفراد أو جموع تلقوها واستوعبوها بدرجات متفاوتة. ويأتي التعريب درعاً واقياً من التفكك الثقافي، لأنه يرمي إلى غرس عروبة الفكر والمحيط، فيكون سباقاً متجهاً إلى الجموع الغفيرة من المواطنين العرب (برامج إذاعية وتلفزية ذات أبعاد عربية مثلاً). ويطمح التعريب إلى استرداد الهوية القومية، فيشكل بذلك المعركة الأخيرة للتحرر الوطني والقومي من وجهة الفكر والوعي. وتحتل العربية الدور الحاسم كأداة معقلنة ممنطقة توحد بين الأقاليم العربية، وتعمل للقضاء على الشذوذ السلوكي لأفراد من النخبة ينتمون لقيم حضارية أجنبية تتنافى وحتميات النهوض العربي »(24).

لطالما ردد المعترضون على التعريب ضيق العربية عن قابليات المواكبة المصطلحية والعلمية والتقنية للتطور العلمي والتقني الهائل، غير أن تجربة سورية، على سبيل المثال، منذ عشرينيات القرن العشرين تشير إلى صوابية تعريب العلوم والمعارف والتقنيات والاتصالات وصلاحيتها المستمرة في التعليم الجامعي والعالي وفي مناحي الحياة كافة، مثلما تشير تجربة مصر مع انتشار الانجليزية، ولبنان مع انتشار الفرنسية والانجليزية، وسورية مع انتشار الروسية إلى أن اللغات الحية ورواج استخدامها العلمي والتقني يدعم التعريب من نواح أخرى.

ولا يخفى أن تجربة الجزائر في مواصلة التعريب وتعميم استعمال اللغة العربية (القانون رقم 91–05 مؤرخ في 30 جمادى الثانية عام1411هـ الموافق 16 يناير سنة 1991 والمعدل والمتمم بالأمر 96–30 المؤرخ في 10 شعبان عام 1417 هـ الموافق 21 ديسمبر 1996)، قد لقي معارضة صامتة ما لبثت أن أعلنت عدائية خلال العام الذي تلا اليوم المقرر لتتويج استكمال عملية تعميم استعمال اللغة العربية، وهو يوم 5 يوليو2000، ومنها المظاهرات المدوية والدامية خلال شهور أيار وحزيران وتموز 2001، وهي في جوهرها معارضة عدائية سياسية لبست لبوس معركة التعريب، ويؤيد ذلك الشجن القومي العميق الضارب الجذور كما تظهره في الوقت نفسه سلسلة القوانين المؤيدة لوجوب تعميم استعمال اللغة العربية في قوانين الجمهورية الجزائرية[25] .

هل علينا بعد ذلك أن ندعو لأن تكون سياسة التعريب أبعد من نشر اللغة العربية والعلوم الحديثة بين العرب بتعريب تقنيات المعلومات وتيسير انتشارها وتداولها باللغة العربية؟

3–4– حول فرضية الحتمية اللغوية:

يندرج تحديث المعلوماتية في العولمة، بمعنى الوعي الجديد بعلاقتنا بالآخر الغربي، منتج التكنولوجيا والمعلوماتية والمتحكم في هذه المنتجات باستعمالاتها المختلفة. ولما كانت العولمة إطاراً كونياً لاستخدام الثروة والقوة بوساطة التحكم بهذه المنتجات كونها أسلحة تفوق الأسلحة التقليدية والذرية: «التكنولوجيا»، المال والاقتصاد، فإنها تندغم في مفهوم الاختراق القومي والوطني ومفهوم السيادة فيها، ويتضمن ذلك أيضاً اختراقاً للمنظومات المعرفية بوصفها سلطاناً أقوى: اللغة، الثقافة، التاريخ، المعتقدات، الموروثات الشعبية. إنها سلطة المعرفة المسلحة بالتفجر المعلومياتي والاتصالي.

أشير إلى بعض مخاطر العولمة على النطاق اللغوي، فاللغة شديدة الاتصال بالأنساق الثقافية التي تعبر عن جوهر التقليد القومي بحمولته الذهنية والعقائدية والتاريخية والاتصالية، ولا يعني ذلك خضوعاً لما يسمى بالحتمية اللغوية، بل هو سيرورة للخصوصيات اللغوية، وهي أبعد من مجرد الأداة. وناقش هذه القضية الشائكة عبد الله حامد حمد (السعودية) مفنداً دعواها الباطلة التي تمتد إلى أبعد

من حدود اللغة والثقافة إلى توظيف دعاوي يجعل بعض اللغات أدنى من سواها، بل هناك من يسيّد اللغات المهيمنة بتأثير سلطات معرفية مدعمة باختراقات القوة للخصوصيات الثقافية القومية والوطنية، وقد سعى هذا الباحث إلى تقويم فرضية الحتمية اللغوية، وأبدى بعض المفاهيم والحجج النافية لإطلاقيتها في رؤية اللغة بين الثبات والتغير، مثل صعوبة أن تكون الرؤية الواحدة محصورة بلغة واحدة، أو أن الصمّ بفكرون من دون لغة، أو أن تغير اللغة لا يرتب تغيراً في الفكر، أو أن الترجمة ممكنة بين اللغات . .إلخ .

لا يخفى أن مناقشة فرضية الحتمية اللغوية لا تتحدد بالنظرة الميكانيكية التي تجعل من النظام اللغوي نظاماً فكرياً ، فاللغة بذاتها لا تعطي وحدها صورة للعالم ، ولكنها شديدة التأثير على تكوّن النسق الثقافي ، ولاسيما خصائصه المعرفية والعقائدية والاتصالية ، أي أن الحتمية اللغوية مستهجنة ، وتؤدي إلى القبول بنفي الخصوصيات الثقافية لاستنادها إلى خصوصيات لغوية ضاربة الجذور في التاريخ الإنساني والاجتماعي والثقافي، وفي الوقت نفسه، فإن الحتمية اللغوية تتعارض مع رحابة الاحتمالية التي تراعي التواشج بين عناصر الثبات وعناصر التغير في الأنظمة اللغوية .

لقد جاوزت النظريات اللغوية والمعرفية الحديثة فرضية الحتمية اللغوية ، بل إن هاتين النظريتين الحديثتين شكلتا ثورة فكرية تمخض عنهما «أفكار ومفاهيم جديدة عن اللغة فيما يتعلق بتعريفها وتنظيم مكوناتها واكتسابها ومعرفتها ، ودور العوامل الفطرية في ذلك، وعلاقات اللغات ببعضها البعض . وثورة أخرى في علم النفس تمخض عنها هجر أفكار ومفاهيم قديمة، وطرحت أخرى جديدة متعلقة بالمعرفة Cognition، وكذلك دور العوامل الذهنية الداخلية والخارجية في عملية التفكير . هاتان الثورتان هزتا أركان فرضية الحتمية اللغوية . فاللغة التي تحدث عنها « وورف » ذات المفهوم الضيق والسطحي لم تعد هكذا اليوم . فهناك اليوم ما يعرف باللغة الداخلية Internalized . بالإضافة إلى ذلك، فإن التفكير بتعريفه التقليدي والسلوكي لم يعد قائماً . بل ما تؤكده الدراسات اللغوية والمعرفية هو أن العقل البشري مقسم إلى وحدات مستقلة Modules or Faculties »[26] .

ولعلي لا أوافق القائلين بعد ذلك بأن فرضية الحتمية اللغوية ، على سبيل الإطلاق ، تنفي دور اللغة في صياغة الفكر ، لأن الخصوصيات الثقافية تتبادل التأثير مع الخصوصيات المعرفية واللغوية ، أي أن اللغة جاوزت حدّ الأداة إلى كونها وشيجة تعبير فكرية وعقائدية وتاريخية .

لقد اتخذ دعاة العولمة من الحتمية اللغوية رهاناً على التشكيك بجدوى استعمال اللغات القومية والوطنية، وتقوم هذه النظرة على عنصرية واضحة تُتهم فيها اللغات العريقة بالمحدودية والفقر، وأنها لا تواكب العصر ومعارفه وتقاناته . **وترتكز هذه النظرة الدونية للغات الأخرى على وهن طبيعة اللغة العربية مثالاً ، وضعف قابليتها للتكنجة اللغوية والأدبية والثقافية ، بينما أثبتت اختبارات فرضية الحتمية اللغوية على اللغة أنها أكثر من إطار لصوغ الفكر ، وعندما ننظر في بعض المسائل الدالة**

ندرك عقم هذه الفرضية مثل علاقة اللغة بالفكر، فاللغة العربية لغة الوحي والتقليد الثقافي العربي برمته، على أن عناصر الثبات فيها ليست عقبة أمام عناصر التغير الطارئة أو الوافدة، وبالقدر الذي نخدم فيه لغتنا، فإنها قابلة لخدمة تطور المعرفة «و**تكنجة**» الأدب والمعلومات. وثمة مسألة أخرى دالة على ذلك هي سعة اللغة العربية وعمقها الدلالي والاتصالي في النهوض بالأنساق الثقافية القومية، وأشير في هذا الصدد إلى ثراء المستويات اللغوية، من مستوى الحقيقة، إلى تعدد مستويات المجاز، وتعدد المستويات الاصطلاحية، وتعدد مستويات التوظيف الاستعمالي في فكر أو علم أو أدب أو فنّ. وينتج عن وهن فرضية الحتمية اللغوية في مجالات اللغة العربية خصائصها القومية الراسخة كالمرونة والشفافية والحفرية المعرفية (ثراء الدلالة وثراء الاستعمال) مما يجعل من سعتها علامة، وليس مجرد أداة فحسب، على الأنساق الثقافية القومية.

ثمة مسألة ثالثة مثبطة لفرضية الحتمية اللغوية هي أن الإنجاز البحثي اللغوي الحديث قد غيّر كثيراً في النظرة إلى طبيعة اللغات الحية، وكما برهن نعوم تشومسكي في كتابة «مظاهر النظرية النحوية»، فإن النظرية القديمة القائلة «لا علم إلا بالكليات»، تنطبق الآن على كلّ لغة حية، فهناك كليات لغوية هي تعبير، في الوقت نفسه، عن الكليات الثقافية، وتفيد هذه النظرة أن التركيبة الداخلية للغة الحية متشابهة فيما يخص قواعدها التوليدية وقواعدها التحويلية، بينما تبدو التركيبة الخارجية وحدها مجانبة للمعنى، لأن المعنى كامن في علاقات التركيبة الداخلية للغة، ولا يخفى أن للغة العربية نظاماً داخلياً شديد الصرامة والمنطقية والعلمية في قواعده التي تمتد فيما بعد إلى الفقه والمنهج المعرفي والنسق الثقافي برمته.

إن هذا كلّه، يجعل العولمة خطراً على اللغة، حين يُضيّق استعمال اللغة إلى مجرد أداة أو إطار استعمال، لا ضير من استبدالها بلغة أخرى، ثم ما تلبث أن تُعزل عن النظام اللغوي وما يتصل به من أنظمة معرفية وأنساق ثقافية هي التعبير الأمثل عن التقليد الثقافي القومي والوطني.

4- اللغة العربية وبعض تحديات العولمة:

4-1- عن نعمة الكتاب الحوسبي ونقمته في الوطن العربي:

لم يعد هناك خيار في التعامل مع الكتاب الحوسبي؟ **ثمة من يرى أن الكتاب الحوسبي كابوس الناشرين التقليديين، فقد أثار العديد من الكُتّاب والروائيين بنشرهم الحوسبي واحتلال مواقع على «الشابكة» أسئلة مشوبة بمخاطر متنوعة، وفي الوقت الذي يتحدى فيه روائي أمريكي، مثل ستيفن كنج، أوساط النشر التقليدي، فإن مخاوف كثيرة لدى الناشرين الحوسبيين تتبدى في أن الكتب الحوسبية لا تلقى رواجاً بالنظر إلى تكلفتها العالية ومحدودية شاشاتها الصغيرة**، ويفيد هذا الحال أن استخدام الكتب الحوسبية حالياً قليل مع إمكانات السوق. وقد أظهر بحث «لمؤسسة

جوبتير» الأمريكية أن عدد الكتب الحوسبية المستخدمة حالياً (منذ يناير 2001) في الولايات المتحدة يبلغ مائة ألف كتاب، ولكنها تنبأت بأن العدد سيبلغ مليون وتسعمائة ألف بحلول العام 2005 عندما تنخفض الأسعار وتتحسن المحتويات. إن الاشتراط الكامن في لفظة «عندما» باعث على القلق والحذر والترقب.

قد عُقد في يناير 1998 أول مؤتمر أوربي للنشر الحوسبي على خطوط «الشابكة»، ووضعوا استراتيجية لتكامل وسائل النشر التقليدي والحوسبي، على أن ثمة مشكلة حقيقية ظلت قائمة أمام المؤتمرين هي مشكلات حماية حقوق النشر والملكية الفكرية وطرق وضع الشيفرات والرموز لحماية الشبكات الداخلية للعاملين في هذه الميادين.

لا يقتصر النشر الحوسبي على تقانات جديدة لبث الكتاب أو المواد المقروءة على وجه العموم، بل تعداها إلى الإبداع بأجناسه المختلفة، فقد عقد مبدعون وأكاديميون أميركيون في مطلع عام 1996 في مدينة بوفالو التابعة لولاية نيويورك مؤتمراً لمناقشة قضايا الكتاب الحوسبي ووسائل تطويره. وكان المثير والمقلق في انعقاد هذا المؤتمر هو تصريحات منظميه التي يتنبأون فيها بقرب تراجع الكتاب المطبوع لصالح الكتاب الحوسبي، بل تكهن هؤلاء بقرب اختفاء الشكل المألوف للكتاب من جراء مزاحمة الكتاب الحوسبي الذي صار حقيقة واقعة في بعض الدول المتقدمة تقنياً على حد تعبير هؤلاء المنظمين للمؤتمر.

كان أحدهم، وهو «الشاعر الحوسبي» (لاحظوا التسمية) لويس بيكونو جليرز، رئيس مركز الشعر الحوسبي الأميركي، صرح أن مجرد قبول الأوساط الأكاديمية والإبداعية لحضور هذا المؤتمر دليل على الجدية والاهتمام بالكتاب الحوسبي، الذي يقدم خدمات لايستطيعها الكتاب العادي، فالكتاب الحوسبي –حسب قوله– يعطي القاريء إمكانية الاتصال بالمعجم، ومشاهدة صورة الشاعر، وعقد مقارنات مع قصائد مشابهة على صفحة حوسبية واحدة. أما الرواية فسوف تكون قراءتها أكثر متعة على الشاشة نظراً للإمكانيات التي يتيحها الحاسوب، إذ تسمح كلماته الملونة والمؤطرة، بالقفز بين الجمل والعبارات الضرورية دون حاجة للوقوف عند الجمل التي تستخدم على سبيل الحشو، ولاتنتمي أصلاً إلى الكتابة المصفاة والمقطرة. **والطريف في الأمر أن المؤتمر المذكور خصص موضوعاته لدراسة آفاق تطور القصيدة الحوسبية والرواية غير المطبوعة.**

حضرت بالقاهرة ندوة عربية بعنوان «أدب الطفل العربي وآفاق المستقبل» بمشاركة خبراء ومختصين من أحد عشر دولة عربية، وكان موضوع الكتاب الحوسبي أحد أهم الموضوعات الساخنة التي عالجتها الندوة، وقد أثير الموضوع على أنه قضية مستقبلية خطيرة تواجه ثقافة الأطفال في الوطن العربي، فدعا كثيرون في الندوة، وعلى رأسهم الدكتور محمد عبداللطيف إلى شكل جديد للكتاب، اسمه الكتاب الحوسبي، من خلال بحثه إلى الندوة في الجلسة

الختامية التي ترأستها، وخصصت لإخراج كتب الأطفال وتقاناتها الحديثة، وساهم فيها عدد من الخبراء والباحثين أمثال الدكتور مصطفى الرزاز، والفنانة فريدة عويس، والدكتور محمد أبو الخير (مصر) والدكتورة طيبة الشذر (الكويت)، والمربية أنيسة محمد (اليمن) .

لقد كان رأيي أن الكتاب الحوسبي أو تعميم استعمال الحوسبة، ومن بعده «الشابكة»، وأثناء ذلك «المالتي ميديا»، وهي الاستعمال المتعدد بتقانات متعددة للوسائط الاتصالية، دون ترشيد، سيؤثر سلبياً على تنمية ثقافة الأطفال، وسيشكل خطراً على نماء الطفل نفسه معرفياً وجمالياً، فقد كان الكتاب المطبوع، ومايزال، المصدر المعرفي الأول، وماتزال الفنون، ومنها وسائل الاتصال بالجماهير، مثل المسرح والسينما والتلفزة والإذاعة، تعتمد على الكلمة، وهي إداة الإبداع الأولى، ويعسر أخذها من غير الكتاب .

لاشك في أن الشكوى والتذمر من مثل هذه المخاطر قد تواترت كثيراً في الموقف التربوي والثقافي في الدول الصناعية المتقدمة تقنياً كاليابان وأمريكا على وجه الخصوص، فترددت صيحات الحذر من انتشار استعمال الكتاب الحوسبي على عقول الأطفال والناشئة وتبلد مشاعرهم وعواطفهم، ناهيك عن سرقة وقتهم قبل سرقة مداركهم وسط الاسترخاء والكسل الذهني .

غير أن التحذير من هذه المخاطر لا يعني إغلاق الأبواب أمام هذه الأشكال المعرفية والترويحية الجديدة مما يتيحه التطور العلمي الهائل للحوسبة في مجال الاتصالات الذي تحول، كما يرى الكثيرون، من مجرد حاسب يقوم بالعمليات الحسابية المنطقية إلى أداة تضم إمكانات عرض النص والصوت والصورة والرسوم المتحركة والفيديو الرقمي، وهو ما اصطلح على تسميته بالوسائط المتعددة (المالتي ميديا) التي تعني المزج، بتعبير آخر، بين سمات الحوسبة والتلفزيون في تناسق وتناغم على أقراص الليزر CD-ROM، وكان وراء هذا التطور العلمي ما يسمى بالثورة الرقمية. وقد واكب هذا التطور زيادة في سرعة أجهزة الحوسبة حتى تستطيع التعامل مع الكم الهائل من الأرقام الناتجة عن تحويل الصوت والصورة والفيديو إلى لغة الحوسبة، فازدادت سرعتها كما زادت ذاكرتها .

ويضيف عبد اللطيف في بحثه المشار إليه تعريفاً بالكتاب الحوسبي وترغيباً به، إن أجزاء الموسوعات الضخمة أصبحت مجرد قرص صغير تتوالى صفحاته على شاشة الحوسبة، فقد أحدث ظهور قرص الليزر ثورة في عالم الحوسبة، إذ جعل منه أداة فعالة في النشر الحوسبي، حيث تبلغ سعة القرص الواحد 650 ميغا بايت، وهي سعة تتيح تخزين نحو 650 ألف صفحة بما يعادل 2000 كتاب تقريباً، أو 20 ساعة من التسجيلات الصوتية تصل بإمكانات الضغط إلى 80 ساعة، أو 5 ساعات فيديو تصل بإمكانات الضغط إلى 15 ساعة، وقد يضمّ قرص الليزر خليطاً من هذه

العناصر كلها. وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف بالصفحة الحوسبية أي التي تحتوي على نص وصوت وصورة، بالإضافة إلى ميزة التفاعل بينها، وبين المستخدم، ومن ثم فالكتاب الحوسبي المنفذ بالوسائط المتعددة، أصبح يضم عدداً من الصفحات الحوسبية، وأصبحت الفرصة متاحة أمامنا الآن لتحويل الكتاب من مجرد صفحات ورقية إلى كتاب ينبض بالحياة، فتسمع وتشاهد عبر شاشة الحوسبة النص والصوت والصورة والفيديو الرقمي والرسوم والموسيقى والمؤثرات الصوتية والتدريبات والأنشطة والألعاب.

يلاحظ دعاة انتشار الكتاب الحوسبي صعوبات كلفته الباهظة، لأن عملية إنتاج كتاب حوسبي بالوسائط المتعددة تشبه إلى حد كبير إنتاج شريط سينمائي، كونها تستغرق الكثير من الوقت والمال والجهد، وتكون النفقة أكبر لدى إضافة المبرمج الذي يضيف التفاعلية بين عناصر الوسائط المتعددة كّلها.

هل أصبحت صورة الكتاب الحوسبي قريبة من الذهن؟ إن المولعين بهذه التقانات يستنكرون أيضاً الحديث عن مخاطر الكتاب الحوسبي، إلا إننا مضطرون إلى التحذير باستمرار، ليس من هذه المخاطر، بل من مخاطر وسائل الاتصال والإعلام التقليدية كالإذاعة والتلفزيون مالم تتكامل مع أجهزة الثقافة والتعليم احتراماً للحق بالثقافة الرفيعة والتكوين الإنساني النبيل، **لأن وسائل الاتصال والإعلام، دون ترشيد استعمالها، تهدد المخيلة، وتبدد الفاعلية، وتبلد الإحساس، وتشوش العاطفة.**

4–2– أهمية تعريب الكتاب الحوسبي العربي:

لا أريد أن أبدي التشاؤم وحده من هيمنة وسائل الاتصال والإعلام على تغطية كل شيء بغطائها وطبيعة خطابها، فليست ثمار ثورة الاتصالات نقمة كلّها، ولكني أدعو إلى ترشيدها وتكاملها مع أجهزة الثقافة والإعلام، بدءاً من معرفتها وفهمها ومعرفة استعمالها إلى ضرورة توظيفها في خدمة التعليم والثقافة، ولايكفي التنسيق وحده هنا، بل يتعداه إلى التكامل المجدي الذي يجعل من ثمار الاتصالات نعمة تخدم التقدم العلمي والثقافي بإطاره الأعم والأشمل والأعمق، فلا يقتصر المرء في تثقيفه على الترويح وقضاء الوقت وتسطيح المعرفة وإلغاء الخيال الإبداعي.

ثمة مزايا للكتاب الحوسبي، مثل استخدام الصوت والصورة بأنواعهما بالإضافة إلى النص في عرض المادة التعليمية والتثقيفية، والتفاعل بين المستخدم والكتاب الحوسبي، ولكنه تفاعل ذو اتجاه واحد ينتج عن اتقان مزج التقانات التي ينهض عليها مفهوم الوسائط المتعددة، وتنمية المهارات الأساسية مثل تعلم القراءة والكتابة والنطق والرسم والتلوين، والتدريب بمساعدة الحوسبة لتعلم اللغات والعلوم والرياضيات، وتنمية القراءات المبكرة، والجاذبية والتشويق في عرض المواد الترفيهية كلعب الأشكال المقطعة والألعاب الضوئية، وهذه المزايا جميعها تتصل بفترة تعلم استعمال «المالتي

ميديا» وأقراص الليزر، وقلة هم الذين يستطيعون أن يبرمجوا، أو أن يتدخلوا في البرامج، أما الأكثرية فستكون تحت رحمة الاستعمال السهل في وضعية استرخاء ذهني وجسدي.

إن «المالتي ميديا» والأقراص الليزرية خاضعة لبرمجتها، ولاتساعد على الفضول لدى مستعمليها كلّهم، وهنا يكمن جانب من جوانب خطرها، وثمة مزية يشار إليها، على سبيل المثال لمزايا عملية وتقنية أخرى، هي أنها تتيح في مجال قصص الأطفال، فرصة تقديم عدة نهايات مختلفة للقصة الواحدة، ومن ثم تكون أكثر تأثيراً وتشويقاً، بل إن كتّاب الرواية أنفسهم الآن يشركون قراءهم في تأليف رواياتهم عن طريق النشر الحوسبي . وعلينا أن نذكر أن هذه النهايات مبرمجة، أي مكتوبة حوسبياً شأن ما يبرمج مسبقاً. والمعول دائماً هو ترشيد الاستعمال، لئلا تطغى على الثقافة الحقة والنماء الأخلاقي والإدراكي والمعرفي والنفسي الذي ينطلق أساساً من المخيلة والبصيرة والواعية، وهي جميعاً تحتاج إلى تربية وتنمية.

من المفيد، أن نتجه دائماً إلى الإنسان حماية له من خلل العلاقة مع ثورة الاتصالات والثورة العلمية ـ التقنية، ولعل هذه المخاطر تتفاقم مع عيوب النشر الحوسبي، وأولها كما أشرنا، التكلفة المرتفعة للإنتاج، وحاجته إلى أجهزة متعددة، وسرعة تطور هذه الأجهزة وبرامجها، وتعدد شركات إنتاجها وعمرها الزمني الذي قد يجعلها في فترة قصيرة غير مجدية.. الخ.

وإذا تأملنا بعض جوانب مشكلات النشر الحوسبي، فإننا سنواجه صعوبات اقتصادية ورقابية وتسويقية أشد، وقد ورد ذكر بعضها على ألسنة الناشرين الحوسبيين، وفي مقدمتهم رئيس جمعية النشر الحوسبي بمصر، مثل:

- عدم وضوح العلاقة بين الناشرين وبين شركات البرمجيات.
- الفئات العالية لعناصر الجمارك وضرائب المبيعات وضرورة الحصول على موافقة الرقابة على المصنفات الفنية.
- عدم تواجد نظام قياسي لتشغيل الوسائط المتعددة.
- خدمة مابعد البيع (الدعم الفني) لمواجهة المشكلات التي قد تظهر أثناء تشغيل الكتاب الحوسبي على أجهزة الكمبيوتر المختلفة.
- ضعف خبرات النشر الحوسبي العربية... الخ.

ثمة مشكلة أخطر في الإطار نفسه يتحسسها المشتغلون بالنشر الحوسبي والمنتفعون من مزاياه، وهي أنك لاتستطيع أن تنقل الكهرباء معك إلى الخلاء على سبيل المثال، ولست مضطراً إلى الأجهزة الكثيرة، بينما تكتفي بالكتاب المطبوع في أية وضعية، وتقرأه في أي مكان.

وفي أمريكا نفسها، علق بعضهم على مؤتمر قضايا الكتاب الحوسبي ووسائل تطويره قائلاً: إن الكتاب الحوسبي سيحدث ثغرة في المعرفة الإنسانية، ويلغي قسماً من الذاكرة البشرية التي تتوارث الأجيال معارفها منذ قرون طويلة بوساطة الكتاب المطبوع.

وألمح بعضهم إلى وجود حلف غير مقدس بين منتجي (التقنية) وبعض وسائل الإعلام التي لم تعد تبالي بالتطور المنطقي للمعرفة الذي يحتاجه البشر لدعم منطقهم الذاتي والحفاظ على توازنهم النفسي وتحديد مواقفهم من قضايا الوجود. ويعتقد آخرون أن الأدب المطبوع في الكتب هو وحده القادر على صقل النفوس وتغذية الوجدان.

إن الكتاب الحوسبي في سبيله لاستبدال الذاكرة الإنسانية بذاكرة الأجهزة، ولابد من التبصير بمشكلات استعماله قبل انتشاره. وليس المقصود من هذا الحديث كله أن نعادي ثمار ثورة الاتصالات، ولكن مثل هذا التبصير من شأنه أن يجعل الكتاب الحوسبي نافعاً في خدمة الثقافة الرفيعة الحقة.

لا يشكل النشر الحوسبي خطراً على العربية، ثقافةً ولغةً، لدى تعريبه والإسهام الحقيقي في إنتاج هذه المعرفة الجديدة، العلمية ـ التقنية التي جعلت الكتاب حقاً بلا ورق، وبلا حدود، بل أضافت إلى هذه التحديات ارتهان الإبداع نفسه نحو هذه المعرفة الجديدة.

4-3- اللغة العربية وقضية التفكير بالحاسوب:

إن النظر في تحديات المعلوماتية أمام اللغة العربية يستدعي مواجهة قضية التفكير بالحاسوب، كتابة وتثقيفاً واستعمالات تقنية في المهن والأعمال الكثيرة التي يقوم بها الحاسوب. وثمة من يبادر إلى القول إننا ربحنا أشياء مثل السرعة والتخزين والخيارات الآنية ولكننا خسرنا أشياء مثل التدقيق والتأمل والمراجعة الأسلوبية. غير أن القضية أعقد من ذلك بكثير، لأن القضية متعددة الوجوه والإشكاليات من النطق إلى الكتابة إلى الإيصال إلى الابتكار والإبداع مما يتعلق بطبيعة اللغة نفسها وبخصائص اللغة العربية في استخداماتها المعلوماتية، وقد ثبت بالممارسة طواعية اللغة العربية لتقانات المعلوماتية سواء في أساليب معالجة الكلمة والجملة، أم في المعالجة الآلية للكلام المنطوق، أم في تعامل الأجهزة والمعدات مع الحرف العربي، والأهم قابلية اللغة العربية واستطاعتها المثلى لاحتواء النظم الحاسوبية والبرمجيات، مثلما ثبت أيضاً سعة ميادين استخدام اللغة العربية في المعلوماتية كالتوثيق والتخزين والتعليم والتعريب والإبداع والاتصال، فحُلت المشكلات المتصلة بالحرف العربي، وصارت المعدات والأجهزة متوافرة نسبياً، ولاسيما أعمارها ومدى انتشارها الإقليمي والمقدرة على الإنفاق المتواصل عليها لمجاوزة صعوبات إنجاز برمجيات ونظم متداخلة ومتطورة، على أن أمراً آخر لابدّ من مراعاته وتقديره وهو أن النظم الأساسية ونظم

التشغيل في مجملها أصبحت متاحة باستعمال الحرف العربي، وساعد على ذلك اتساع سوق المعلوماتية العربي مما جعل شركة «ميكروسوفت» تتيح للتداول المستمر عدة نظم معلوماتية مكروية تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات اللغة العربية، حتى غدا ميسوراً استخدام اللغة العربية في ميادين الابتكار والإبداع والاتصال عن طريق الذكاء الاصطناعي وتطويع الخيال المعلوماتي وتقاناته لحاجات استعمال اللغة العربية.

يذكر محمد بن ساسي (تونس) إشكاليات متعددة لابد للمعنيين باستخدام اللغة العربية في المعلوماتية أن يواجهوها، شأن المشتغلين باللغات الأخرى، بالنظر إلى التقدم الهائل والمتسارع لتقانات المعلوماتية وإمكاناتها الجبارة مثل «الإشكالية التي كانت متمحورة حول الحرف العربي فأصبحت الآن متمركزة حول اللغة ككل من مصطلحات إلى معالجة الكلمات والجمل (استخراج الجذور - تطبيق الأوزان - وضع خوارزميات للغة) من ناحية، وتوفير تطبيقات تلبي حاجة المستفيد من ناحية ثانية. كما أن التقييس لم يؤدّ دوره إلا في بعض الحالات النادرة، فالمواصفات العربية لم تطبق في غالبيتها، لأن الأقطار العربية لم تتخذ الإجراءات العملية لتطبيقها، ولم تقم بالعمل التحسيسي اللازم. وثمة أيضاً ضعف المصطلحات وفقدانها الذي أصبح عائقاً مهماً أمام تعريب المعلوميات ونشرها والاستفادة منها على أحسن الوجوه»[27].

إن ثمة جهوداً كبيرة مبذولة اليوم بين علماء العربية والمعلوماتية لمواجهة مثل هذه الإشكاليات، وأشير، على سبيل المثال، إلى جهد توصيف العربية، مثلما فعل نهاد الموسى (الأردن)، تمهيداً لإدغام اللغة العربية وقواعدها وخصائصها في المعلوماتية، إذ «يتوجه الوصف بكلّ ما ينظمه من عرض النظام اللغوي إلى الإنسان بما ركب في العقل الإنساني من قابلية لاستدخال هذا النظام بقواعده ومعطياته وآليات عمله في معالجة ذلك وبرمجته. وهي قابلية كامنة في العقل الإنساني تزوّده بحدس قادر على ملء ثغرات الوصف»[28].

مبلغ القول، حسب الموسى، أن الوصف للإنسان وأن التوصيف للحاسوب، فللإنسان حدس، وليس للحاسوب حدس، وللإنسان فهم وليس للحاسوب، حتى الآن، فهم. ويفيد هذا الرأي أن توصيف اللغة (من أجل استخدامها في الحاسوب مثلاً) يتخذ بعدين آخرين: كمياً ومنهجياً. أما الكمي فيتعلق بالذاكرة الحافظة؛ ذلك أن ذاكرة الحاسوب تفوق الذاكرة الفردية من هذه الجهة؛ إذ يمكنه استيعاب معجمات اللغة ونصوصها بل تراثها جميعها، فإذا رتب له المرء مفاتيح ذلك أمكنه استدعاء كل ما شاء من المعطيات التي يشتمل عليها بأسرع وأوسع مما تطيقه الذاكرة الفردية[29].

لو تأملنا فضاءات استخدام اللغة العربية في نظم تشغيل المعلوماتية لهالتنا النتيجة على الرغم من أن مجهودات التعريب ، حسب محمد بن أحمد (تونس)، لم تكن في مستوى هذه الأهمية الوظيفية، ويمكن تفسير هذا العزوف بصعوبة الموضوع وبضرورة تشريك أو إقناع مصنعي الحواسيب بهذه الضرورة، فمازال موقف الشركات المصنعة للحواسيب متوسطة الحجم وكبيرته يعتمد على إقرار ضرورة تشغيل الحواسيب في محيط ثقافي مغاير للمحيط الذي شهد نشأتها دون الاقتناع بضرورة استنباط نظام تشغيل يكون عربي التصميم والتطوير والاستفادة.

أي أن مجهودات شركات تصنيع الحواسيب خيّرت الاعتماد على قدرتها الذاتية بالتعاون في بعض الأحيان مع خبرات عربية عاملة تحت لوائها لإصدار نسخ عربية، أو بصفة أدق نسخ من نظم التشغيل قادرة على التعامل مع الحرف العربي تحصيلاً ومعالجةً واسترجاعاً وعرضاً على الشاشات والطابعات على اختلاف أنواعها.

بالرغم من تعدّد المعوقات فإن عزيمة تطويع تقانة المعلوميات في مختلف أبوابها كانت وراء عدد من التجارب لأقلمة نظم التشغيل، وإن توجهت معظم هذه التجارب إلى نظم تشغيل الحواسيب العائلية والحواسيب الشخصية.

لقد باتت تجارب تشغيل المعلوماتية باللغة العربية معروفة، وغدت منطلقاً للتطوير القائم والمستمر من حيث المنهجية والغائية، ولعله من المفيد أن نشير لبعض هذه التجارب:

فالتجربة الأولى تمت بالكويت من خلال مشروع الأستاذ عبدالرحمن الشارخ وشركته «العالمية» التي صنعت حاسوبا عائليا «صخر» يعمل بنظام MSX الياباني والذي تمت كتابته بالعربية مما جعل حواسيب من صنف «صخر» تشتغل في محيط عربي أصيل.

أما التجربة الثانية فهي التي انطلقت ضمن شركة «أليس ALIS» التي بعثها الأستاذ بشير حليمي الجزائري المنشأ بكندا والتي حاولت تصميم نظام عربي ARABIC DOS موائم لنظام MS-DOS المطوّر من طرف بيت البرمجيات الأمريكية MICROSOFT لصاحبها Bill Gates قبل أن تتفق الشركتان على إدماج النسخة العربية ضمن قائمة النسخ المتوفرة بعديد اللغات في نظام التغشيل MS-DOS.

أما التجربة الثالثة فهي التي حاول من خلالها بعض الخبراء العرب من توفير نظام اليونيكس UNIX بالعربية تماشياً مع ما لاحظوه من أهمية متزايدة لهذا النظام، ولسعة استغلاله سواء على الحواسيب الصغرية أم المتوسطة أم الكبرى(30).

ولعلنا بعد ذلك نجاوز الاهتمام بقضية التفكير بالحاسوب إلى المضي عميقاً في تطوير استخدام اللغة العربية واستطاعتها المعلوماتية.

5- خاتمة:

ليست تحديات العولمة ثابتة أو موصوفة، بل هي نتاج التغير الحضاري والعلمي الذي آل إلى احتكار مصادره المؤثرة في عمليات إنتاج القوة الجديدة، قوة الهيمنة والاستعلاء والتكبر نحو المزيد من سيطرة المركز الغربي والأمريكي مركز إنتاج هذه القوة، ونحو المزيد من تهميش أطراف العالم الثالث، وإلغاء عناصر هويتها القومية، ومن أبرزها اللغة.

لقد مهدت لقضية تحديات العولمة إزاء اللغة العربية بآراء متعددة حول مخاطرها الواضحة، ثم أوردتُ نظرة تاريخية لتطور هذه التحديات، وأشرتُ إلى إحدى الرؤى العربية البارزة في مواجهتها، وفصّلت القول في بعض ممهدات العولمة مثل اندغام استعمار العقل باستعمار اللغة والفرانكوفونية ومثيلاتها والتعريب والتغريب وفرضية الحتمية اللغوية، وعالجتُ بعض هذه التحديات مثل النشر الحوسبي وأهمية تعريبه، والتفكير العربي بالحاسوب وتطوير استطاعة اللغة العربية المعلوماتية.

6- الهوامش والإحالات:

1 – بلعيد، صالح: «اللغة العربية والعولمة» في مجلة «اللغة العربية» (الجزائر)، العدد4، 2001، ص115.
2 – القوصي، محمد عبدالشافي: «العربية لغة الوحي والوحدة»، كتيب «المجلة العربية» (الرياض)، العدد 52، ربيع الآخر 1422، يوليو 2001، ص30.
3 – عدة مؤلفين: «التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982، ص13.
4 – عبدالرحمن، عواطف: «قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، العدد 78، حزيران 1984، ص48.
5 – صالح بلعيد، مصدر سابق، ص121 وص129–130.
6 – حسان، تمام: «اللغة العربية بين العوربة والعولمة»، في كتاب «مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية»، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2001، ص194.
7– أبو مدين، عبدالفتاح: «العربية بين العوربة والعولمة» في الكتاب السابق نفسه، ص225–226.
8 – بدران، إبراهيم: «اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين»، في الكتاب السابق نفسه، ص358–359.
9 – عدة مؤلفين: «العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين»، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، ص6.
10– عدة مؤلفين: «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، ص5.
11– المصدر السابق نفسه، ص6.
12– النعيمي، خليل: «فضل اللغة: تجربة ذاتية في تدريس الطب بالعربية» في «قضايا فكرية» (القاهرة)، عدد خاص عن «لغتنا العربية في معركة الحضارة»، 1997، ص175.
13– المصدر السابق نفسه، ص177.
14– علي، نبيل: «نحو نظرة أشمل للغة» في المصدر السابق نفسه، ص298.
15– علي، نبيل: «العرب وعصر المعلومات»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، 1994، ص369–380.
16– علي، نبيل: «الثقافة العربية وعصر المعلومات»، سلسلة «عالم المعرفة» (الكويت)، 2001، ص227–228.
17– واثيونغو، نغوجي: «تصفية استعمار العقل» (ترجمة سعدي يوسف)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987، الغلاف الأخير.
18– المصدر السابق نفسه، ص18.
19– المصدر السابق نفسه، ص146.
20– المصدر السابق نفسه، ص147.
21– قاسم، محمود: «الأدب العربي المكتوب بالفرنسية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص16–17.
22– الصيادي، محمد المنجي: «التعريب في الوطن العربي» في كتاب «التعريب ودوره...» مصدر سابق، ص34.

23- المصدر السابق نفسه، ص35 .

24- المصدر السابق نفسه، ص40-41 .

25- كاشا، بشير : «وجوب تعميم استعمال اللغة العربية في قوانين الجمهورية الجزائرية» في مجلة «اللغة العربية»، مصدر سابق، ص230-265 .

26- حمد، عبدالله حامد : «فرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية» في مجلة «عالم الفكر» (الكويت)، المجلد 28، العدد 3، يناير-مارس 2000، ص23-24 .

27-بن ساسي، محمد : «استخدام اللغة العربية في مجال المعلوماتية : نبذة تاريخية» في كتاب «استخدام اللغة العربية في المعلوماتية»، مصدر سابق، ص20 .

28- الموسى، نهاد : «التوصيف : مقاربة في حوسبة العولمة»، في كتاب «مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية»، مصدر سابق، ص390 .

29- المصدر السابق نفسه، ص404-405 .

30- بن أحمد، محمد : «اللغة العربية والنظم الحاسوبية والبرمجيات» في كتاب «استخدام اللغة العربية . . .»، مصدر سابق، ص125 .

رهانات اللغة العربية في ظل العولمة

أ. د. عبد القادر فيدوح

جامعة البحرين – الجزائر

تحاول هذه الدراسة أن تقف عند جملة من الأسئلة الجوهرية المتصلة باللغة العربية وعلاقتها بالهوية الوطنية، والأمة العربية، وتصل أبعادها المختلفة إلى ارتباطها بالمكون الحضاري في حدود تواصلنا مع الآخر، بدرجات متفوتة.

وبيْن معظم لغات العالم، الحية، تثير إشكالية اللغة العربية في مجتمعاتنا العربية حيزا معتبرا من الجدل حول إمكانية وجود علاقة هذه اللغة بالنشاط **الإبداعي / العلمي**، في وقت تحتاج فيه الأمة العربية بوجه عام إلى الدخول في خانة الإبداع الكشفي، التكنولوجي، والإسهام في صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة. وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية في البناء الاجتماعي للأمة العربية في الألفية الثالثة ؟ ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة متداولة بين مجتمعنا؟. وقد يكون أجدى في هذا المقام أن نبحث عن المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية . وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة في بيانها ؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر؟.

إن تنمية القدرة اللغوية في **أبسط أداء لها** هي تحسين مستوى التعبير، ولعلنا ندرك خطورة هذه البداهة عندما نستشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا وهو خالٍ، وفارغ من أي رصيد لغوي سليم.

وبالنظر إلى لكنة القول، وعجمة اللسان التي استبدلوا بها سلامة اللغة ـ على الأقل ـ في وضوح نطقها في العهد القريب جدا فإن ما يروَّج له من تداول لفظي في لحن القول، وتلكؤ اللسان، لا يُظهِر ما يُخفي صدر القائل؛ لعجزه عن التعبير وعن مكوناته، أضف إلى ذلك أن ما نجده في تأنق كلام بعض إعلاميينا، وتنطعهم بالكلام الدارج ـ وحتى بعض المسؤولين ـ على مساحة وسائل الإعلام المتعددة ما يفسر مقتهم للغة العربية، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم؛ الأمر الذي انعكس سلبا على جيلنا المتخذ من مسئولينا ومثقفينا وإعلاميينا قدوة بالنظر إلى لسان واقع الحال.

أمام هذا الخطر المحدق لابد من إيجاد سبل تحرك تفعيل اللغة العربية في وطن وضع في مبادئه العامة ضوابط تحكم المجتمع الجزائري المنصوص عليها في الدستور بخاصة المادة، الثانية التي تنص على أن الإسلام دين الدولة، وفي المادة الثالثة التي تنص على أن « اللغة العربية هي اللغة الوطنية الرسمية (1).

(1) تم تعديل الدستور بموجب قانون رقم 02–03 مؤرخ في 27 محرم عام 1423 الموافق 10 أبريل سنة 2002، يتضمن تعديل الدستور. المادة 3 مكرر: تمازيغت هي كذلك لغة وطنية. تعمل الدولة لترقيتها و تطويرها بكل تنوعاتها اللسانية عبر التراب الوطني ». (1)

تحديات صارخة :

يعد الحديث عن اللغة العربية المتعثرة في المجتمع الجزائري ـ في واقع الحال، بالنسبة إلى كافة الوطن العربي ـ سابقة خطيرة ينبغي تداركها، وهي ظاهرة لم تشهدها الجزائر حتى إبّان الاحتلال الذي حاول طمس أثر اللغة العربية من ذاكرة الثقافة الجزائرية.

وإذا كانت اللغة العربية في السنوات الأخيرة تشهد تراجعا مثيرا ولافتا، نظرا إلى حدة خطورته، فإننا نخشى أن يمتد هذا التراجع ليصبح مرضا ـ لسانيا ـ مزمنا يصعب علاجه . ولعل سبب تخوفنا يكمن في الفزع من التأثير السلبي على صياغة أفكار جيلنا الواعد، وعلى سلوكه المعرفي والأخلاقي، ومن أجل ذلك يفتَرض أن يكون لدى مسئولينا المبادرة الحاسمة في اتخاذ ما يلزم بغرض التصدي لهذا الهاجس المرعب والمخيف على مكونات ثقافتنا وهويتنا.

وفي اعتقاد الكثير من الباحثين التربويين ومنظري المعارف والعلوم أن أي شخص لا يمكنه أن يرتقي من نقص في مهارة التعبير، والتوسع والتمكن منها، إلا بالوصول إلى مطلوب اللغة، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تشخيص اللغة لدى الفرد يكمن في توسع بُعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلوم، وتقريب المقصود، بسرعة يصعب فيها على غير المتعلم، أو المتمكن من الكفاية اللغوية، إدراك الأشياء، في حين يسهل على المتعلم كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر ؛ الأمر الذي يسهم في نمو معارفه وأفكاره في الحياة العملية والعلمية .

كما أن الكفاية اللغوية تعتبر حصانة لحسن الطوّية، وضمان من أي ضرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري ـ على وجه التحديد ـ بوصفه لبّ الجوانب الأمنية الأخرى، وخالصها، وخيارها في شتى المجالات سواء منها الثقافية، أم الاجتماعية، أم السياسية، أم الاقتصادية إلى غير ذلك من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي.

ومن هذا المنظور يكون من بابٍ أولى الوقوف بحزم أمام تفشي ظاهرة لغة الشارع الهابطة التي تشيع في أوساط شريحة عريضة من مجتمعنا، حتى باتت تدخل الأوساط الرسمية سواء عبر وسائل الإعلام، أم في المحافل الرسمية ،كما باتت تنافس اللغات الثلاث الأخرى المستعملة، وهي اللغة العربية، واللغة الأمازيغية، واللغة الفرنسية. وقد يكون من تفشي هذه الظاهرة الغريبة ـ سواء عن قصد أم عن غير قصد ـ هو إفساد الذوق اللغوي المعهود، بفعل سياقاتها المنحرفة التي يتكلم بها شبابنا برطانة، وبلهجة ملتوية، قد يصعب فهمها أحيانا حتى في المنطقة نفسها، كونها مركبة من معظم اللغات كالفرنسية، ولإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية، وقد لا نستغرب إذا تأكدنا من توظيف كثير من الكلمات الصينية مؤخرا، والحبل على الجرار . كل ذلك من شأنه أن يجعل الفرد غير محصن، مما قد يتسبب في زعزعة الحياة والاستقرار الأمني، أو السياسي، أو الاقتصادي، والإضرار بالتركيبة الاجتماعية والثقافية، ولنا في ذلك تجربة مريرة

شهدها وطننا الغالي في العشرية السوداء من السنوات التسعين نهاية الألفية الثانية،كل ذلك بسبب التلوث اللغوي الذي أثمر تلوثا فكريا، حين رُفعت الأقلام وطويت الصحف، وأحضِرت الوسائل غير المبررة التي استوجبت الخرق، وتجاوز المعقول، حتى أصبح كل واحد منا في حكم قول الشاعر:

لعَمْرُك ما أَدْري وإني لأَوْجَلُ   على أينـا تغـدو المنية أول

فتسرع الفعل الأرعن، والقول الأهوج، وعمَّ الهوس عقول الكثيرين. وقد ذكرنا في مناسبات عديدة **أن إمساك قلم بيد ضمان لإبعاد هذه اليد عن وسيلة جارحة** التي من شأنها أن تؤدي إلى التشدد في جميع مراميه ومقاصده، من أي اتجـاه كان يسعى إلى زعزعة الاستقرار وإثارة الفتنة.

ومن هنا ندعو مسئولينا، مستغيثين بصرخة عمورية، تدوي في أرجاء وطننا الحبيب، طلبا للنجدة من قرار سياسي شبيه بقرار المعتصم الذي لبى نجدة «**وامعتصماه**»، ولتكن هذه صرخة كل مواطن غيور على وطنيته لإنقاذه من تفشي الجرح اللغوي النازف؛ لنرد لأبنائنا الفرحة المقرونة بطلاقة اللسان المعبرة عن مكنونات صدورهم، ونستنهض همتهم لتحقيق وعد الشهداء، ولنزرع فيهم الإيمان بلغتنا الجميلة التي تشوهها رياح الشمال، وتضرم فيها النار، ولم تتركها هذه الرياح في إلهاب نارها، وتزويدها بالحطب، كلما خمدت، وسكن لهيبها؛ الأمر الذي أوصلنا إلى مفترق الطرق. ومن وراء هذه الكلمات المعبرة عن صوتنا الشجي ندعو مسئولينا، أيضا، إلى اللجوء إلى إحكام العقل في خلق رؤية إستراتيجية واضحة المعالم لتحصين أبنائنا بالثراء المعرفي والزاد اللغوي للمساهمة في الحفاظ على سلامة التفكير السديد، وإبعادهم عن الزيف اللغوي الفاضح.

أما أن يكون بعض من مسئولينا يتهربون من تحمل مسئولياتهم الوطنية، والعَقَدِية؛ لانغماسهم في غمرة الحياة السياسية، أو بدوافع أخرى مجهولة الهوية، فإن ذلك ما يدعو إلى الدهشة، خاصة عندما نجد في اعتذاراتهم من طلب نجدة اللغة العربية، قولهم أن هناك أولويات اجتماعية، أو سياسية، أو أمنية، أو ما شابه ذلك، وأكثر من هذا وذاك قد يكون التهرب بدواعي واهية، مفادها أن لغتنا لم تعد قادرة على مواكبة العصر، أو لعدم توافرها على الشروط المتماشية مع الابتكارات العلمية (!...)، ولعل في هذا «**عذرا أقبح من ذنب**» وكأننا بهم يعالجون بالخطأ خطأ أكبر منه، بعد أن طغى بهم دَمُهُم إلى التشدق بالوهم، على حساب المصلحة الوطنية، واعتقادا منهم أن تقربهم من الآخر شفاعة لهم، وفي هذه الحال نعتقد جازمين أن كل من يحكم على عجز اللغة العربية في عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف، فإن نظره قاصر إلى حد بعيد؛ إذ العجز والقصور ليس في اللغة ولكن في أصحاب اللغة؛ لأن اللغة بأهلها، تموت بموتهم

وتحيا بحياتهم . ونحن الذين نقدم الزَّاد للغة، وليست اللغة هي التي تقدم لنا الزَّاد، وبالتالي فالقضيَّة قضيَّة أصحاب اللغة، ومن ثم فإن المسألة هي في جفاف العقل العربِي وجموده، كونه تعود على التَّعالم، واستسهال الأمور باللامبالاة، والاكتراث بالعلم والمعرفة، وهو ما أفْقَدَنَا الرضا في كل شيء، ووُضِعْنَا وراء تجاهل مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ظننا أننا جهلاء فعلا، مع أن الحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق، بدليل مجرد هجرة أدمغتنا تبدو على محياها روح الإبداع، وتشرق على وجوههم ابتسامة التفاعل مع المطالب، وتتحرر عقولهم من كل قيد، وتعطي أياديهم كل ما تملك، وتساهم في صنع التحديث الحضاري. فأين هذا من ذاك؟ وما الذي غير الوضع؟ وأسئلة كثيرة تنتظر إجابات وافية(!...) ...؟ .

اللغة العربية بين المعمول والمأمول :

تواجه اللغة العربية في قضاياها المعاصرة تهديدات عديدة لم تعد قاصرة على عامة الناس، بل أصبحت همَّ المتخصص في دراستها، كالأديب، والإعلامي، والملعلم، والطالب الجامعي، ... إلخ . أضف إلى ذلك أنها أصبحت تشغل بال جميع الشرائح الاجتماعية في معاناتها من ازدواجية التعبير، في الغالب الأعم، وتأثير ذلك على مستقبل اللسان العربي الذي أصبح بدوره متخَبِّطا بعشوائية بين اللغة المعمولة، المستعجمة، واللغة المأمولة، المجهولة الهوية، التي نجهل مستقبلها، بعد أن فقدت اللغةُ المحافظةَ على الأدنى من الضوابط، ووصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط والتراجع.

وتمر الهوية العربية بوجه عام، واللغة العربية على وجه الخصوص، بأزمة خانقة، ورِدّة في المبادئ، وهي أزمة لم تشهدها الأمة العربية في تاريخها، على النحو الذي يجسده منعطفها الأخير في هذه الآونة، وإذا لم نتدارك الخطأ بالصواب في حينه سوف نسجل وصمة عار على جبين كل من عاش في هذه المدة، التي يمكن أن نطلق عليها «**مرحلة الاستخذاء والخضوع**»، أو على كل من أسهم بشكل ما في انهيار مجد الحضارة العربية وإذلالها؛ الأمر الذي انعكس سلبا على براءة براعمنا ـ في مجتمعاتنا العربية ـ المورَّثة [بفتح الراء وتشديدها] تبعات اليأس، ومعاوِل هدم الهوية من سياسة مكر الماكرين في الوطن العربي الذين كرَّسوا سياسة الهروب إلى الأمام، والتملص من المسئولية، واستحباب الضلالة على الهدي، فكان من ثمرات ذلك الهوان خلق جيل سمي بجيل الفشل، حيث فقد البوصلة، وتحالف مع اليأس، فلم يعد يدري إلا ما هو سلبي، بعد أن سُدَّت في وجهه الآفاق التي جعلت منه مشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا في تحقيق الآمال، على الرغم من انتماء كثير منهم، وولائهم للوطنية.

والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة البدء، والتحليق، وتدارك الأمر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكن أن نتقي بها التسرع في الحكم على اللغة العربية من بعض الناعقين، والناعرين، والمرتعدين من شدة التخوف من التحكم فيها، كونها في نظرهم لغة التخلف . ولو أنهم أعطوا لفطنة بصيرتهم قليلا من التأمل، ولحاشية إدراكهم نصيبا من المسئولية، وفرصة من التروي، ومَلِيًّا من التفكير بالعودة إلى الهوية ؛ لانبعث منهم رأي ثاقب، وعقل راجح، بعد المزيد من الرصانة والتأمل، ولأدركوا أنه مهما تقربوا من الآخر ـ أيا كان ـ لن يشفع لهم بانتمائهم إليه، امتثالا لقوله تعالى : { **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**} (البقرة **آية** 120) .

إن أخطر ما يدعو إليه هؤلاء الأعمياء هو العمل على استبدال اللغة الأجنبية باللغة العربية في مسارها الوظيفي في حياتنا الاجتماعية ضمن المساقات العلمية والإدارية، وفي شتى المؤسسات التعليمية، والمدنية، والاقتصادية، والإعلامية إلى غير ذلك من المسارات التي رأوا فيها المنقذ من الضلال (! . .) غير أنه في اعتقادنا، كما هو الشأن لدى الكثير من الغيورين على هويتنا أن كل من يصر على إبعاد اللغة العربية من خارطة الذاكرة العربية هو قاصر النظر، وعاجز عن خلق المبادرة، وتقاصرت مواقفه، وتضاءلت أنفته، وقلت نخوته، واهتزت مروءته تجاه حضارته ووطنه .

لقد اكتوينا ـ في الجزائر بخاصة ـ بحمى الشعارات الجوفاء التي تحمل، مناصرة، لافتات التعريب الادعائية بما ليس يراد له، تلك الحملات التي استغلها البعض بدافع تنظيم جودة اللغة العربية، حتى أصبحت كلمةَ حق يراد بها باطل، حيث وُظِّف حقُّها في الاسم، بينما وُظِّف باطلُها في المسمى الذي كان يراد منه التشويه من قبل بعض الفئات، ومن دون أن تكون لدى الجهة المخلصة لتلك الحملة الكفاية لإنضاج الفكرة، وطرحها بشكل مدروس، أو إيجاد محاولة جادة لوضع التعريب على النهج السليم، المراد له، كبديل فعلي وعملي للغة الأجنبية التي تربعت على عرش التسيير الإداري والساحة الثقافية منذ ما يزيد عن 150 سنة، بعد أن اعتمد أنصار هذه اللغة على السير قدما في تثبيت هذا التوجه، وكأننا بهم يستندون إلى الركيزة الأساسية ـ لتحقيق أمن اللغة الفرنسية ـ التي أطلقها لويس التاسع في أثناء حملته على مصر لاستعادة شرف الصليبيين والتي وقع فيها أسيرا، وبعد أن أطلق سراحه مقابل فدية قال قولته الشهيرة والمجسدة إلى يومنا هذا في كافة مستعمرات فرنسا : « **لقد تكسرت الرماح والسيوف فلنبدأ حرب الكلمة** » وها نحن نسير على خطة لويس التاسع بخطى وقع الحافر على الحافر؛ لنتمم له مسيرته وفاءً لأمنيته(! . . .) ولا غرابة في ذلك، وبعد أن استتب أمن فرنسا في الجزائر أصدر [شوتان] وزير داخلية فرنسا عام 1938 مرسوماً يعلن فيه « **أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ومحظور تعليمها أو العمل بها** » .

وأمام هذه الحال، وفي مواقف عديدة تصب في التوجه نفسه، كيف السبيل إلى الخروج من عنق الزجاجة، حيث انهيار روح الأمة العربية ـ بوجه عام ـ وإرثها الحضاري الزاخر، وفقدان لثقافتها الغنية، وطمس لهويتها الشامخة. وهل ندرك معنى: أن لغة الآخر إذا استبدلت باللغة الأم وانحدرت إلى الحضيض «**أسرعَ إليها الفناء**»؟ أم أننا في حكم مقولة ابن خلدون التي نظرت إلى «أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيّه، ونِحلته، وسائر أحواله». **أَ هذا هو موقعنا في الوجود؟ أَهكذا يراد لنا أن نكون؟**. وفي المقابل ما هو الدور الذي قام به نظام تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي بوجه عام، واللغة الفرنسية بخاصة في الجزائر منذ وجودها حتى يومنا هذا؟ وما هي النهضة التي قامت بها هذه اللغات بعد أن كرسنا لها الأموال الطائلة؟ وهل حقيقة اللغة العربية جامدة؟ وإلى أي مدى نجحنا في إنقاذها من هذا الجمود؟ وكيف نضمن لها النجاح حتى تغدو لغة مأمولة علميا؟

ومن المؤسف أن نقول: إن آلية التفكير في الوطن العربي مازالت تتعفر في وحل العجز المنهجي، وأن القدرة على غربلة الأمور بالنظر العقلي أبعد ما تكون عن التفكير العربي، والإفادة من طرائق البحث العلمي أصْعَبُ في استثمارها. وبالجملة فإن الذاكرة العربية في تضادٍّ مع الوعي المتشبع بروح العصر، هذا الوعي القادر على تَمَثُّل المستجدات، وتكيفها مع مقومات ثقافته. وحتى في حال إيجاد فئة تسعى إلى تفعيل اللغة العربية، فإنها تحاول العودة بنا إلى الوسائل القديمة، والقفز بنا إلى الوراء بدعوى تقديس اللغة، كونها توقيفية، من دون امتلاك القدرة على دعائم التطور الحضاري والوسائل التربوية الجديدة، وكأننا بهذه الفئة تستنزف طاقتها رغبة في تحقيق انتصارات وهمية، ضاربة عرض الحائط الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة التحديات، وليس ذلك على اللغة العربية بعزيز إذا كان القرار حاسما من المعنيين بالأمر، وفي حال أوكدوا العهد بينهم وبين هويتهم.

إن هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية المعمول وأفقها المأمول، ولعل الفرق بين الموقفين يكمن في هذه الفجوة التي هي داء الحقيقة، كونها لا تحمل هدفا، وأن دعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة، وكأننا بأنصار هذه الدعوة المغرضة ـ التي تحمل مقاصد خلْفها ميول وأهواء ـ لا يرون أبعد من أنوفهم، بعد أن أعرضوا عن الحق وأقبلوا على الباطل، فتصوروا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تستورد كما تستورد البضاعة الاستهلاكية، وأن اللغة الأجنبية هي النموذج المثال، ومن دونها نعيش في تخلف، بينما هم في حقيقة الأمر، نعتقد أنهم، يحلقون خارج السرب، وخارج نسيج النسق الثقافي المتجذر؛ لأن واقع الثقافة أكبر من جَذْر اللغة العربية واستئصالها، وأكبر من اكتساب لغة أجنبية لا تحمل سمات المجتمع، ولا تطبع خواصه. من هنا كان الصراع بين المتغربين بانتهاجهم

مسلك اللغة الأجنبية سبيلا، وبين الواقع المتشبع برصيده اللغوي الأثيل؛ الأمر الذي خلق واقعين متضادين كل منهما يصارع طواحين الهواء ـ كصراع دون كيشوت الذي لم يحصد من وراء صراعه أي جدوى، ومع ذلك كان يحاول أن يستمر في النزال ـ فتشتت السبل من وراء هذين الواقعين : واقع متغرب في تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب، في تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية التليدة، وضاع الطرف الثالث، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «**فضاء الصوت الصامت**»، وعلى الرغم من صمته إلا أن بصيرته كانت تحمل راية تفعيل اللغة العربية بحسب مستجدات الحياة العصرية في أدائها، وجعلها قابلة للتحاور مع العلوم والمعارف، وإذا كان هذا الطرف ـ الثالث ـ قد وجد صعوبة في خلق بديل، قوامه تفاعل اللغة العربية مع متطلبات الحياة، فإن الطرفين الأولين ظلا يتعفران في مرتع حظيرة يتجاذبهما صراع الثيران ـ سقط في هذا الصراع مسعى اللغة العربية تحت الحوافر، حيث رأى كل طرف في موقفه التِمَاعاً، بينما هو صراع قادنا إلى خط الانحدار، فظل الصراع وضل الهدف، وكأن المواجهة بينهما «أشبه بتلك المعارك التي كنا نألفها جميعا في المراحل المبكرة من أعمارنا، حين يقف أحد الطفلين على عتبة البيت الكبير الذي يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمامه ويواجه طفلا غريبا عن الحي، فيستطيع بصيحة واحدة أن يتسنفر عشيرته كلها لنصرته، على حين يقف الآخر مترددا في استخدام ما يملك من قدرات؛ لأن الأرض التي تدور حولها المعركة ليست أرضه.»(1) وهذا هو حال اللغة الأجنبية أنَّى كانت، شأنها شأن هذا الطفل الغريب عن الحي . وليست اللغة العربية أكثر حظا من اللغة الأجنية في مثل هذا الموقف حين نستنفر لحمايتها شأن استنفار عشيرة صاحب الحي لنصرته؛ إذ النصرة والحماية لا تتأتيان بالحَمِيَّة والتعصب والفظاظة، وإنما بالاهتمام المتنامي بموضوع كيفية الجودة هو سبيل القصد المنهجي.

اللغة العربية في ميزان العولمة

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، كما يكثر الحديث عن دورها المعرفي في ظل العولمة، وهل حقيقة ما يروج من أن دور اللغة العريبة ينحسر في امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية ؟ وإلى أي مدى تكون أقرب من العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات .

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحسرنا على دورها، وتلهفنا على مجدها، بعد أن كان لها موقع الصدارة في يوم الفتوحات، بما أتيح لها من دور فاعل في الوجود الحضاري .

(1) ينظر، عبد العظيم الديب : التبعية الثقافية، وسائلها ومظاهرها، ضمن كتاب ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل ، جامعة قطر، 1993، ص 338 .

وإن الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفة بوجه عام ،وفي حال إمكان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة في النهوض بالحركة العلمية، نصل إلى أن اللغة العربية لا تشكل الواجهة الحقيقية لمسار الاكتشافات العلمية، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك عن وجود عوامل من شأنها أن تسهم في شيء اسمه «**علم**» في المعمورة العربية. ولكن، أين الخطأ هنا؟ في اللغة أم في راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم - أنَّى كان موقعه - بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام في حال وجود العزيمة ،وأملنا في ذلك كبير، ولكن :

على قَدْر أَهْلِ العزْم تأتي العزائِمُ　　　وتأتي على قدر الكرام المكارم

وفي خضم الرهانات المزايِدة [بكسر الياء] للذهاب بلغة ما إلى أبعد من الثانية في اكتشافاتها، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، في ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمرار بقائها مرهون بعزيمة أهلها، وبإسهامهم في صنع مقومات الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها، ولم نسهم في تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب في تحجيمها، وتلجيمها على الرغم من حمايتها من القرآن، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس همتنا، وتتهاون قدرتنا، وتقصر إرادتنا فنسهم - بوعي أو من دون وعي منا - في موتها على حد ما قاله أدونيس «ورغم أن القرآن الكريم يحفظها، إلا أن عدم الجدية في قراءة القرآن، يجعل موت اللغة العربية فرضية يجب النظر فيها[1]، من هذا المنظور يجب التأمل بجدية في مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين في مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات العالمية يعد أكثر خطورة على اللغات الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامية .

(1) في محاضرة ألقاها بالمجمع الثقافي ضمن فعاليات «معرض أبوظبي الدولي للكتاب» ينظر، http://www.alarabiya.net/

وقد يبدو للرائي أن هناك اهتماما متزايدا من قبل المعنيين، في المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية في الوطن العربي، غير أن هذا الاهتمام في خلفيته ـ بحسب منطق اللامعقول ـ يبدو هَرَمًا معكوسا، أو في شكل هندسي مخروط، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركزية في جوهرها بموضوع التعريب، بينما تعكس نهاية هذا المخروط نقطة رأسية ضيقة، تعكس نتيجةً مقصودة، عديمة الأهمية، ومفرّغة من ثمينها النفيس، ومن معدنها، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى « جعجعة بلا طحين » ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على « ليلانا » مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز الثقافة العربية التليدة.

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا في جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة في مضامينها وأهدافها، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة بخروقات العولمة المموِّهة للحقائق، والمفسِدة للمرجعيات، « وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح، فإن العولمة الثقافية ـ على العكس من ذلك ـ ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية. كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، والعالم أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال »،[1] نظرا إلى ما ينتابها من شكوك في محاولة الهيمنة على العالم، كونها موضع الريبة والقلق والاضطراب.

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا ـ العَقَقَة ـ أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منها:

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية.
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية في ظل العولمة.
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها.
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، فانقطع بها حبل التواصل.
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول في الألفية الثالثة.
- عدم الإسهام في مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة.

أمام كل هذه المثبطات ـ وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا ـ يبدو على أنصار النموذج الغربي، في حَرْفيته، الرغبة منهم في إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب في اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، في وقت كان مناصروهم « **ملكيين أكثر من الملك** »، ومهما تنطعوا في لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا

---

(1) عبد الخالق عبد الله: العولمة ـ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ـ عالم الفكر 2/28 أكتوبر، ديسمبر، 1999، ص 74.

وترويض وجودنا، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج في أيدٍ متقنة. لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم، سواء في أثناء حقبة وجود المستعمر في أوطاننا، أم عندما خرجوا، بعد تفطنهم أن بقاءهم في هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك حين نصح فرنسا : «**إذا أردتم أن تبقوا في الجزائر فاخرجوا منها**» ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة في تطابقها مع بعض الشرائح في مجتمعنا من الذين استقوَوا أبرياء الذمة، سواء في الجزائر أم في باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال.

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة في أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية، بوصفها لغة وظيفية تمارس في مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، بينما هم في واقع الأمر إنما يدافعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم في التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية على معزة الهوية. من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ، الذي كنا نراهن به على الوعد الناجع، سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة ـ أو بالأحرى لهجة ـ ثالثة جعلت من حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس معجما له، يستقي من هذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت ونَمَت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداعٍ للحيرة ،حتى أصبحت دارجة في المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات على الرغم من كونها هجينة وساقطة، وكأن اللغة العربية أصبحت في خبر كان، ولم تعد تفي بالغرض، وتجاوزتها الأحداث بحسب تصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين، ولسانهم المعتل، ولعل في قول الشاعر ما ينطبق عليهم :

لا تُسابقْ في حَلْبة العِزِّ ذا العِلم   فمــا للهجين شــأنُ الجـــوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسائل المدمرة للهوية الوطنية ـ حيثما كانت ـ في جميع أنحاء المعمورة، من شأنه أن يضعف لغتنا التي صمدت في وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية في مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فإن الدراسات العلمية، والتجارب الجادة، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقدرة متبصرة، أثبتت أن محركات البحث في الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة، وأن آلية هذه المحرِّكات في يد أصحابها، وليست في اللغة، وفي مثل هذه الحال ماذا يفعل اللسان إذا كانت الجثة هامدة. ولنا في ذلك أمثلة عديدة ـ كما سيأتي الحديث تباعا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا ـ مثل اللغة الفنلندية، والدنماركية ،والعبرية التي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية. والقائمة طويلة، عريضة، من

اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها، كونهم تبنوا سياسة لغوية حكيمة، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الصيني «كونفوشيوس» عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم في وضوح الأمور وجلائها، كونها مصدر الصواب في كل شيء، بعد أن سئل عمّا يوّد أن يفعله إذا حكم البلاد. فأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال: **أصّححُ أسماء الأشياء**. وما علاقة تصحيح الأسماء بالحكم الصالح؟! أجاب كونفشيوس: **عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غير صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعندما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُصاب بالضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون**[1]. ولعل في رسالة كونفوشيوس ما يفيد الأهمية القصوى التي يمكن أن تكون عليه اللغة في تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا في حق مستقبل أجيالنا وهويتنا.

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربية ناصية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات في محيط استعمالها، كما نجعل منها لغة تسهم في توطين العلوم والمعارف الجديدة، وفي هذا ما يشكل مدخلا لثورة « فكرية على من يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي في النحو والصرف، واختصار النحو في الإعراب، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي والمعرفي، وجعلها وعاء فارغا بلا محتوى. واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم، وأكبر من أن تحصر في هذا الاطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل ومستويات اللغة: فصحى وعامية، واللغة والعلم، واللغة في عصر العولمة [2]. واللغة بهذا الشكل مسئولية القرار الحكيم قبل أن تكون مسؤولية الجميع بخاصة المدرسة التي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل.

اللغة العربية وثورة المعرفة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات ـ قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة ـ تغييرات جذرية في تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا] والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الاندماج في هذه الثورات، أو الإسهام في بلورتها؛ الأمر الذي جعل

---

(1) ينظر الرابط: http://www.almosul.org.

(2) فاروق شوشة: إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية.

الأمة العربية ـ بخاصة ونحن على إطلالة الألفية الثالثة ـ نعيش في ركح زاوية حادة، في انتظار زحزحتنا إلى الهامش لنكون خارج الحدَث.

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية، إلى هذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض في تجربة المشاركة في صنع هذه الثورات، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد على تأخرنا، في جميع المجالات، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حل إشكال صعب فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية، أو هذيان الاستحالة ـ على حد رأي مالك بن نبي ـ عندما نرى « الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين، وهي في الحقيقة غير ذلك لعدم تمكننا من أدائها، لفقده الوسائل التعبيرية والمنهجية، والكفاية القادرة على حلها، أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة من أي محتوى فكري ».

وفي خضم هذه الأجواء العفنة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لم نحسم طرق تدريسها، والاهتمام بها في جميع المؤسسات حتى تصبح آهلة للتعايش مع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفية والرقائق الإلكترونية، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا، ومنا، في الخارطة العربية، وجعل الخطاب سائدا في جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، من أدنى مستويات التوظيف إلى أعلى هرمه. ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخر، وذلك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعة، والعمل الجاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية ـ كما جاء في رأي مالك بن نبي ـ « كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد، فهو يحاول أن يستعيد توازنه » [1].

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب، بقدر ما تمس، هذه التحديات، كيان المجتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة الشغف بالاقتداء بالآخر [الغالب] في جميع مواصفاته، متناسين مقولة ابن خلدون: « أن الأمة إذا غلبت، وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ». وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة.

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا، وارتباط روحنا بها، وهذا في تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، في بناء شخصيتنا. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك ؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية في ظل اكتساح جرَّافة اللغة الإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء ؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية في ظل العولمة، وتكنولوجيا المعلومات؟

(1) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار. ص 217.

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات، من أهمها:

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة.
- قدرة الاستيعاب.
- اكتساب الخبرة، من عوائد المهارة اللغوية، ومن الاستنتاج والتعمق في التحليل، والتبصر في التفكير. ولو كان ذلك كذلك، في السنوات التسعين في الجزائر، لتروَّى شبابنا في الأمر وتريث في انفعاله، ولتبيَّنه وصيَّره، وما كان ليحدث ما حدث.
- القدرة على التركيز.
- رفع المستوى السلوكي والأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم في التفرقة بين الصواب والخطإ.
- تعزيز المهارة.
- تنمية القدرة الذهنية.
- ارتفاع مستوى آداب الجودة.
- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل في نسقنا الثقافي.

ومن الثوابت في الدراسات العلمية أن أية معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي. وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، أضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة، وما ينتج من ثمارها، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ في القول. وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المودة . ولو افترضنا الطرح العكسي، فليس لنا إلا النظر في المرآة العاكسة لما حدث في العشرية السوداء قبيل انثناء القرن العشرين حيث دفعنا الثمن غاليا في الجزائر ـ لولا السياسة الرشيدة في بداية الألفية الثالثة ـ ،لاستفحل الأمر، على الرغم من أن أصداءه ما زالت كَلْمَى، وأوجاعه أدْمَى؛ كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع، وانحسار القراة، والتشبع بالمعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة في خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور في فلكه من ارتدادات جارحة. ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران، لأن التلميذ في مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق في الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا ـ الآلة ـ الفتاكة؛ لذا فهو ـ بحسب رأي أحد الباحثين ـ أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإرادة. فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية، أو طيور جارحة؟

إن الهدف **التربوي /التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مصلحة الحياة اليومية الاستهلاكية في جميع مكوناتها؛ لأن هذا الهدف ـ المتبع حتى الآن ـ لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية، أو الداعية إلى التبصربالقدر الكافي، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربوية(1)، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم في العدد المتزايد في الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لم تحصن الجهود بطرق منهجية ،أكثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت: «**لا يكفي أن يكون لديك فكر جيد، ولكن المهم أن يطبق جيدا**».

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيدا ؟ وقبل ذلك كيف لنا أن نقرب لغتنا من هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صراعات، وتحولات سوداوية المسوغات في نتائجها. وهذا ما لم يستسغه الخطاب الوطني الغيور على لغته العربية التي تمثله، كون تلك المسوغات فتحت مجراها على التحايل، والتشويه، والزيف. والحال أن اللغة العربية في ظل صراعات دون كيشوت بحاجة إلى سياسة رشيدة، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاري. وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل .

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هو: كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر، مثل اللغة الأردية، واللغة التركية التي استبدلت حروفها في عهد أتاتورك [1881 – 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي انتعشت بذويها، ونهضوا بها، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منها:

- اللغة الصينية المتناغمة مع متطلبات العولمة، وأصبحت تهدد الغرب في عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميزة.
- اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية على عراقتها.كما أن حروفها مقتبسة من الحرف العربي وهي اللغة الرسمية في باكستان بمسوغاتها النووية.

---

(1) وقد كنا أحد الذين أسهموا في التكوين بتجربتنا البسيطة التي قاربت الأربعين سنة، ونتحسَّر على ما آلت إليه المدرسة الجزائرية التي تراجعت إلى الخلف، حيث بداية الاستقلال، رغم قلة الموارد، والتجربة آنذاك، إلا أن النتائج أثمرت كل علماء الجزائر الذين هاجروا البلد، وشتان ما بين الأمس واليوم. بعد أن جنى الآخر ثمار ما زرعته الجزائرعندما هاجرها معظمهم. فراحت ثمرة التكوين هَبَاءً مُنْبَثّاً، بدوافع متعددة

• **اللغة الكورية** المسماة بـ« الهانكول » ويعود تأسيس حروفها إلى العالم اللغوي « جو شيج يونج » (1913)، ولها ما لها في الساحة التكنولوجية اليوم.

• **اللغة الفارسية** التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب في تقنياته العلمية، بعد أن باتت تقض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم في **نظر الغرب**.

• **اللغة الفنلندية** التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد في العالم باقتنائه هاتف نوكيا المصنع في فنلندا، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلة المتحدثين بها.

• **اللغة الدانماركية**: والتي لا يزيد سكانها عن خمسة ملايين نسمة، تميزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة في العالم سواء أكانت عالية الحسب والمقام، أم قليلة الخير وميسورة الحال.

• **اللغة العبرية**: وهي مثال بيِّن وواضح، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائها، ومدى دورها في التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول **إفي لارنر**، الناطق باسم عضو الكنيست: « لا يوجد عندي أي شك بأن المجتمع الإسرائيلي إذا أراد الحفاظ على طابعه اليهودي عليه أن يعزز منزلة اللغة العبرية ». وأكد **لارنر** لوكالة فرانس برس: « **كمجتمع ودولة، فإن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة أجيال بدأت قبل الآلاف من السنين** »[1]. ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة « معاريف » الناطقة بالعبرية : « أن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة على الواجهات، أو لافتات المتاجر، باللغة العبرية الواضحة، وإلا فان الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم وأصحاب المؤسسات التي تخالف هذه التعليمات ». وأضافت « معاريف »: أن « الكنيست يعارض كتابة اللافتات بالإنجليزية »، ويهدد بسحب تراخيص الاعمال المخالفة »[2].

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة، عن قتامة الوضع عندنا في الوطن العربي، أليس من حق برارعمنا أن تحمِّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربية، ومن تضليل مكانتها، والدور المنوط بها؟. ثم، أين هو دور المؤسسات المدنية منذ أنشئت، وحيثما كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط في تعزيز مكانتها في البحث عن المناصب العليا؟ متناسية دورها في الحفاظ على ثوابت الأمة، واللغة الوطنية هي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا. وإذا كانت قناعتهم بأن

---

(1) علي الطالقاني : في دائرة الاستهداف... اللغة العربية مخاوف من اندثارها، الرابط :
www.annabaa.org/nbanews/65/518.htm – 52k

(2) المرجع السابق

اللغة الأجنبية هي الحل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ أن كانوا يدافعون عنها؟ وماذا قدمت هذه اللغة للمستقبل الذي كان قبل خمسين سنة أوَانا لمستقبل مشرئب؟ أم أن لكل شيء أوانه المخيَّب؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار في انتظار هذا الأوان الزاهي الذي يرزح تحت رحمة حرف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تأتي أو لا تأتي ،بعد أن كان آباؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه في متناولهم، أو على الأقل في متناول أبنائهم. فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد]، ولا الأوان أفاد، ولا المستقبل ازدهر، ولا اشرأبت إليه الآفاق، ولا أفاد شيء في أوانه، ولا في غير أوانه، وتهنا وتاهت بنا السبيل بين الأوان والهوان، فأصبحنا في موضع هوْنٍ على هوْنٍ، وليتها دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أُرِيدَ لنا أن نرتقي إلى الصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق، كوننا لا نستحق ما فعله الجهلاء باللغة العربية، وجهابذة اللغة الأجنبية الذين رأوا في ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهم في ضلال من أمرهم المشين.

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فالأمر مردود عليهم، كون هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، وليس في ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها، شريطة أن تتداول اللغة الوطنية وفق الأسس العلمية، والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق منتوجاتنا العلمية والفكرية والثقافية ؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب والأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها في غياب الاهتمام باللغة الوطنية، وليس غريبا أن نقول : من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده في الحياة على مر العصور. وفقدان وعي الهوية، والانتماء، دليل على الارتماء في قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات.

وفي مثل هذه الحال ليس لنا إلا أن نؤكد أن التمكن من اللغة العربية هو الحاجة العليا لزرع الوطنية «ونحن اليوم، والأمة العربية تقرع أبواب القرن الحادي والعشرين، وقد أثخنتها الجراح، وأثقلتها الحروب المصطنعة والهزائم المصممة، والاستسلام المهين أمام العدو، لنجد من واجبنا أن نعيد النظر في السياسات اللغوية في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية . وليس ذلك لأنها تحدد هويتنا الحضارية فحسب، ولكن باعتبارها العنصر الأساس للتقدم العلمي والمشاركة المبدعة في بناء الحضارة الحديثة . وإن هذا الدور الفكري والعلمي الرائد الذي قامت به العربية في تاريخها الزاهر ولعدة قرون، هو الدور الذي تدعى إليه في هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأمم، وتحررها من ربقة التبعية الفكرية وتنقذ كياناتها المتهافتة من الضياع والاندثار»(1) .

(1) عبد الكريم خليفة :اللغة العربية والإبداع الفكري والعلمي في العصر الحديث، الرابط : .www.arabicacademy.org

وأمام تعاجم اللغة العربية على ألسنتنا، وتراطن كلامنا، وتلعثم نطقنا بلسان محبوس، فإننا نستغرب فوق ذلك أن يبتدع شبابنا عربية هجينة، فاقت كل تصور، تسمى بعربية الدردشة، وهي طريقة كتابة العربية بحروف لاتينية في الرسائل القصيرة عبر وسيلتي الشبكة العنكبوتية [الأنترنت] أو عبر الهواتف المحمولة، والكل يعرف هذه الإشكالية، ولا أحد يحرك ساكنا، والكل يتفرج بصمت مُطبَق على خطورة ما آلت إليه اللغة العربية التي صارت عسيرة في دارها، بدءا من ربِّ البيت الذي لم يَرْعَ أبناءه امتثالا لمقولة الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ويا للعجب من نتائج تمخُّضِ هذا الرقص، خاصة إذا كان الراقص طفلا ـ من دون وعي منه، أو أجبر على المشاركة بفعل إيقاع الرقص ـ كيف سيكون غدا في أثناء تحمل المسئولية المنوطة به، أيا كان نوعها، وما ذنب هذا البرعم الواعد في تحمل تبعات هؤلاء المهرة في الرقص المثير والفاضح، وأمام مسئولي أبناء الغد القريب (! . . .) وهل يعتبر لوم هؤلاء المحترفين، في الرقص، تجنيا عليهم، أم على اللغة العربية؟

وحتى لا ندور في حلقة مفرغة لفزعٍ، وذعرٍ، ما يحيق بلغتنا الجميلة من أذى من أولي الضرر بها، نظرا إلى هول ما نرى، على حدِّ قول الشاعر:

يا هولَ ما أبصرَتْ عيني وما سمعَتْ   أُذني فلا أبصرَتْ عيني ولا أذني

في خضم ذلك نكتفي بإعطاء وجهة نظرنا في البديل الممكن، بحسب تجربتنا في حق وجاهة اللغة العربية ومكانتها المرموقة، والمغتصَبَة قهرا وظلما. وعلى الرغم من أن هناك حلولا مطروحة من وجاهة مفكرينا، يمكن العودة إليها في مضانها، إلا أننا ارتأينا أن نَسُوق تجربتنا في هذه الإمكانات، وهي على النحو الآتي :

• مراجعة نظم التعليم في مدارسنا بما تستوجبه الطرائق الحديثة تمشيا مع التطورات العلمية المستجدة.

• إعطاء الأهمية القصوى في المراحل الأولى من التعليم لتدريس مواد : [المحادثة، والتعبير، والإنشاء] بوصفها زادا لغويا رصينا تمكن التلميذ، الجيل الواعد، من التعبير بطلاقة عن مشاعره وطموحاته، والتي ستنعكس إيجابا على وجوده بعد تحمله المسئوليات العليا، ناهيك عن المسئوليات الأقل، فالأكثر أقلية، والمتدرجة إلى مسئوليته الأسرية.

• التركيز على الجانب الوظيفي في تعلم اللغة العربية.

• إدخال مفردات العصر عن طريق النحت والاشتقاق، أو عن طريق الترجمة السليمة، أو الاقتباس في حال أن تكون المفردة مصطلحا شائعا.

• الاهتمام بلغة الأطفال، والإعلاء من شأن أدبهم، والكتابة لهم بلغة ميسرة، يراعى فيها الجانب الوظيفي.

• توسيع خبرات المؤهلين وتعميقها، والكف عن تأهيل ذوي المعدلات المتدنية في مستياتهم العلمية، وتشجيع المتميزين للالتحاق بالتأهيل بالمكافآت المادية والمعنوية.

• حث مؤسسات المجتمع المدني على التعامل مع اللغة الواضحة.

• إبعاد دعاة العامية من وسائل الإعلام.

• مراقبة الوسائل الإشهارية المستخمدة في جميع الأماكن ووسائل الإعلام بما يخدم سلامة اللغة، خاصة ونحن نعيش عصر الصورة، التي أصبحت تشكل تأثيرا بالغ الأهمية، وسرعة فائقة في التأثير السلبي على أبنائنا.

• محاولة تقريب اللغة العربية ـ تدريجيا ـ من الأسواق التجارية، وفرض جباية على كل من يلصق لافتة باللهجة الدارجة، أو باللغة الأجنبية من دون أن يقابلها ما يعبرعنها باللغة العربية على المَحال التجارية أو المؤسسات، أو التظاهرات، ومراجعة مضامين هذه اللافتات.

• زرع حب اللغة الأم في القلب بدل وجود هذا الحب على الشفتين، وعند الضرورة.

• خلق مشروع حقيقي لتبسيط تعلم اللغة العربية، على غرار المشاريع الحديثة التي توظفها المؤسسات التعليمية العريقية لغير الناطقين بلغتهم تحت مسمى «بورصة تعليم اللغات»، كما هو الشأن في آخر ما استجد من طرق لتعلم اللغات الحية مثل المشروع الذي بدأ الترويج له مؤخرا تحت اسم: **التاندم بارتنر** [1] (**Tandem**) مختصرا من اسم
(Tandem-Sprachlernmethod)

• الاهتمام بإدراج اللغة العربية في تعلم المواد العلمية ـ في جميع المجالات ـ ضمن مناهج الجامعات ومراكز التكوين.

وإذا لم نسرع في وضع حد لأهمال اللغة العربية سوف يصيبها ما أصاب اللغة اللاتينية ـ مثلا ـ والتي تغيرت بمرور الزمن، وتوزعت إلى عدد من اللغات كالفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، فتصبح عندنا ـ لا قدر الله، بفضل وعده ـ لغة جزائرية، ولغة مصرية، ولغة سورية، ولغة خليجية،...إلخ، هذا إذا صح لنا أن نمتلك القدرة على ذلك، وليس لنا أمام هذا الوضع إلا «**النفخ على الجمرة كي لا تنطفئ**»، وإلا سوف نسهم في اندثارها كما اندثرت اللغة البابلية،

---

(1) وتقوم هذه المبادرة على أساس اشتراك طرفين يتقنان لغات مختلفة في تعليم بعضهما ببعض سواء عن طريق التواصل المباشر، أو الرسائل العادية، أو الإلكترونية، أو حتى بوساطة برامج المحادثة المباشرة على شبكة الانترنت.

والكنعانية، والأشورية ...إلخ . وإذا كان اندثار لغة ما ينتج من إهمالها من ذويها؛ الأمر الذي يجعلها تعوَّض بلغة أخرى، فهل تستفيق نخوة العروبة، وشهامة المسئولين، وعزة نفس الغيورين على اللغة العربية، وأنفة المتحمسين، وإباء المترفعين من ذوي الاستعلاء، وتراجع الحاقدين، وجدية المؤهِلين [بكسر الهاء] وإخلاص المعلمين، وكرامة القائمين عليها، وحرص أولياء الأمور، ومن غير هؤلاء كثير، أن ينقذوا أبناء الغد القريب؛ للتعبير عن طموحاتهم بلغة واضحة، وكتابة أسطر سليمة، على الأقل، حتى يكونوا في مستوى المسئولية في حينها. أين نحن من هؤلاء ؟ وهل نترك صرخة اللغة العربية ـ على لسان حافظ إبراهيم تذهب سُدىً حين استغاثت :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي   وناديت قومي فاحتسبت حياتي

ولدت ولما لــم أجــد لعرائسي   رجــالا وأكفــاء وأدت بنـاتي

وكيف نسمح لأنفسنا أن توأد لغتنا ونبكيها مثل النساء لم نحافظ عليها » كما حافظ الرجال على لغاتهم، وبعد ذلك أين مروءة الرجال في زماننا، وإين نخوة العروبة في واقعنا . ولكن، لعل مجيبا يجيب عن سؤال البحث عن الرجل الواعد، كما قال صلاح عبد الصبور :

يا ... ... اصبر

دنيانا أجمل مما تذكر

اصبر .... سيجئ..

سيهلّ على الدنيا يوماً ركبه

مجد اللغة العربية وراهنها

أ. ونوغي إسماعيل
ج فرحات عباس – الجزائر

ملخص

يتحدث المقال عن تحديات اللغة العربية في الوطن العربي على وجه العموم من حيث تاريخها العريق وما مثلته من قوة وتمكّن، وصمود أمام مجموعة كبيرة من الأزمات التي تعرضت لها عبر سنين عديدة، وهي اليوم تقف أمام أكبر التحديات وأعقدها؛ تنكّر بعض أهلها لها في مواطن عديدة من ناحية، ومحاربة الأجانب الأعداءِ لها من ناحية أخرى، واستعمال اللغة العربية الآن الاستعمال الأوفى في أهم جوانب الحياة ضرورة قصوى؛ في الاقتصاد والاجتماع والسياسة ومجالات أخرى وخاصة قطاع التعليم، وذلك بوضع مخطط لغوي عربي يحفظ اللغة العربية من جميع الأخطار الداخلية والخارجية.

Résumé

Cet article propose les défis de la langue arabe dans les pays arabes d'une façon générale a travers son vétéran passé et sa force et son pouvoir، et sa résistances devant un grand nombre de dilemmes à travers plusieurs années ، aujourd'hui elle rencontre les grands défis très compliqués، travestissement de ses quelques dignes ، d'une part، et la belligérante des étrangers d'autre part ، pour l'instant l'utilisation parfaite de la langue arabe est indispensable، dans des divers domaines de la vie، économie، sociale ، politique et autre domaines et surtout section d'enseignement ، cela a l'aide d'un plan linguistique arabe qui protègera la langue arabe de tous les dangers intérieurs et extérieurs.

منطلق :

إنّ الحديث عن اللغة العربية الفصحى لذو شجون، ليس لأننا ننتمي إلى هذه اللغة العريقة في الأصالة والتمكّن، ولا لأننا نتحدث بها ونعبّر بواسطتها، أو نكتب بها، ولا لأنها اللغة الرسمية لبلادنا وشعبنا، ولا لأنها لغة أمّة بأكملها منذ مئات السنين، ولكن لما يحاصر هذه اللغة الصامدة عبر العصور من أزمات تلو الأزمات ؛ من استدمار يسعى بكل الوسائل والإمكانات لطمس اللغة العربية ونسخ آثارها، والاجتهاد في مقابل ذلك على ترسيخ لغته ولهجاته، اعتقادا منه بأن هذا الفعل سيمدد بقاءه في البلاد المحتلة، وسيطيل سيطرته عليها، ومن تنكّر بعض أهلها، إذ يرون فيها عجزا وضعفا وقصورا عن مواكبة التطور، وغير صالحة للسير في ركب التقدم والازدهار.

إذا كان الحط من مستوانا، والنيل من معتقداتنا، ورمي لغتنا العربية بالعقم والضعف والقصور وعدم مواكبتها مستجدات العصر... صفات ينعتنا بها غير الناطقين باللغة العربية منذ عهد عهيد، فهو أمر ليس غريبا علينا، ولا على أي عاقل، لأن هذا الأمر قديم، ولا يحمل ما يثير الغرابة والدهشة، ولكن الذي يستثير الحافظة، ويوقظ الإحساس بالأسف أن يكون الذي ينعتنا بذلك واحد من إخواننا أو أقاربنا أو طلابنا، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر يزيد تعقيدا ولا ينبئ بخير، وسيكون هذا الشيء عرقلة وتثبيطا في سبيل تطوير اللغة العربية، وإخراجها وأهلها من غيابات تلك التهم الباطلة.

ولقد ذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله في معرض حديثه عن احتكاك المثقفين العرب المباشر بالأجانب بعضا من تأثرهم بصورة واضحة بالثقافة الغربية ونمط الحياة هناك، فذكر في مقال له بهذا الصدد مجموعة من الكتّاب الذين ألفوا كتبا مستظهرين إعجابهم بما اطلعوا عليه في فرنسا وانجلترا وغيرها؛ منها كتاب (المرآة) لحمدان خوجة، وكتاب (تخليص الإبريز) لرفاعة الطهطاوي وغيرها حيث قال: « ومن آثار هذا الاتصال ظهور فئة تشكك في قدرة اللغة العربية على مسايرة العصر ومواكبة التطور، وتحث العرب على اليقظة والاجتهاد ونبذ الجمود» [1].

أمام هذه الحقيقة المؤلمة وددت أن أسهم بتوفيق من الله عز وجل بما تيسر في إزالة بعض الغموض الذي يعتري كثيرا من إخواننا وطلابنا، وأضع يدي على مواطن القوة الكامنة في اللغة العربية، والتي يغفل عنها كثير من الناس في المعمورة. فاللغة العربية حملت في طياتها حضارات عريقة في التاريخ البشري منذ آلاف السنين، ولا نغض الطرف عن أنها اللغة الوحيدة المنفردة التي هي لسان القرآن الكريم. هذا الكتاب السماوي الخالد الذي :« نزل بلسان عربي مبين فكان للغة العربية مزية لا تتأتّى لغيرها من اللغات، وكما أثر القرآن الكريم في الأمة العربية، في أخلاقها وعقيدتها وشتّى نواحي حياتها، فقد أثر أيضا في اللغة العربية تأثيرا بالغا..» [2].

ومهما نقول عن فضل القرآن الكريم على اللغة العربية، فلا يمكن أن نحقق تعليقا نهائيا على ذلك.

اللغة العربية في عهدها الأول:

من الإنصاف أن نشير إلى بعض المواضيع التي ساعدت اللغة العربية فيها على التألق والثبات والدوام والخلود .. وحملت بمفرداتها وتراكيبها تراثا يزخر بشتى المعارف والحقائق، والفنون والآداب..

لا أرغب في هذا المجال أن أرجع اللغة العربية إلى تاريخ نشأتها الأول منذ آدم عليه السلام، لأنّ هذه المسألة خاض فيها المؤرخون وعلماء الآثار، ولكن سأقصر حديثي عن العصر

الذهبي للغة العربية، أو الزمن الذي اكتمل فيه نموها ونضجها، حيث صارت أداة كاملة ناضجة صالحة للتعبير عن الحياة والوجدان.

لقد تكونت اللغة العربية بجوار اللهجات القبلية العربية المختلفة التي تنطق بها كل قبيلة، وكان استعمالها يسيرا سلسا، لا يعسر فهمها على سائر القبائل المغايرة ؛ إنها اللغة **المثالية** الخالية من العيوب والنقائص وهي كذلك لغة المجتمعات الأدبية، ولغة الشعر والخطابة، ولقد تلاحمت فيها جميع اللهجات والتعابير العربية، وتشكلت من أحسن ما في تلك اللغات من عناصر ووحدات، كما تخلّصت من جميع العيوب والهنات التي اتصفت بها سائر اللهجات العربية الأخرى، فبرزت اللغة العربية أحسن بروز في القرآن الكريم وفيما وصل إلينا من أدب العصر القديم الرفيع ؛ نثره و شعره ...

أمّا أسباب تكوين هذه اللغة الأدبية فكثيرة منها: الظروف التي هيأها أهل اللغة العربية للغتهم حتى وصلت إلى المنزلة التي وصلت إليها، فكانت هي لغة التخاطب اليومي والتواصل المستمر المقرون بالحياة، كما كانت الناقل الأمين لأشياء ووسائل وأسباب تلك الحياة على بساطتها، إضافة إلى أنها كانت قاعدة صلبة لدى الناثرين والشعراء يتنافسون في اختيار المفردات الواضحة، والتراكيب السلسة، ومؤرخو الأدب القديم يشيرون إلى ذلك، و قد كانت تقوم أسواق في العصر الجاهلي يلتقي فيها الشعراء والخطباء، وكانت سوق عكاظ هي أهم الأسواق آنذاك: « كان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع يتوخى الشاعر أو الخطيب الألفاظ العامة والأساليب العالية في لغة مثالية موحدة تروق كل سامع، ولا ينفرها أو يستغربها أحد . فكان من ثمّ للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثالية، وتغليب لغة قريش على سائر اللغات... » (3).

وحديثنا عن الأسواق، يجرنا إلى الأماكن أو القبائل التي كانت تعقد فيها تلك الأسواق، وكانت لقبيلة قريش تلك الخاصية، في كونها كانت جامعة للقبائل العربية بما حباها الله سبحانه وتعالى من فضل، إذ جعل فيها مقام الكعبة الشريفة التي يفد إليها الحجاج من كل فجّ عميق، فليس من العجب أن يكون لقريش الحظ الأوفر في توحيد اللغة العربية وجمع لهجاتها في بوتقة واحدة، لتستخلص اللغة العربية الكاملة الشاملة لسان كلّ عربي من أي قبيلة كانت وقد تهذّبت اللغة العربية واستقام استعمالها بما أخذته من لغات القبائل الوافدة على بلادها، من الألفاظ الخفيفة على اللسان والعذبة في السمع، والمؤدية للمعنى المقصود.

لا ننسى ذلك التأثير والتأثّر المتبادل بين اللغة العربية ولغات الأمم المتاخمة الأخرى إذ أنّ تركيب اللغة العربية لم يكن قاصرا على لهجات عربية فحسب، بل ساهم فيه كذلك قسط من لغات غير عربية، ولكن بصورته الإيجابية التي أضفت على اللغة العربية مسحة من التكيف مع الإنسان في كل المعمورة وقال حنا الفاخوري في هذا المجال :

«لم ينحصر العرب في جزيرتهم بمعزل عن تأثير الحضارات المتاخمة، بل كانوا أبدا في احتكاك مع من جاورهم، فأضيفت إلى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية، وحضارة مصر وفارس والروم والحبشة عن طريق التجارة أو طريق التنافس بين الحيرة وغسان، والفرس والروم من ورائهما . كانت اللغة تواصل تطورها مكملة ما ينقصها بما تأخذه من لغات تلك الحضارات الواسعة النطاق»[4]. وهكذا وصلت اللغة العربية في العصر الأدبي القديم إلى أرقى المراتب، وأعلى المنازل، وقد تزودت بمحاسن لغات أخرى عديدة وحضارات كثيرة متعاقبة، تستطيع التعبير عن كل شيء مهما بعُدَ أو دنا، وتستطيع التعبير عن خفايا النفوس وما يعتلج في الصدور، كما صارت لها القدرة الكاملة على تصوير المشاهد والمناظر و التصورات والخواطر، وما إن ظهر القرآن الكريم؛ الكتاب السماوي المقدس فيها، حتى ثبّتها ووطّد أركانها، وأرسى قواعدها، وعمل على حفظها بالرغم من تقلبات الأيام وحدثان الزمان.

ومن صفات اللغة العربية البارزة أنها دقيقة، اشتقاقية، واسعة الدلالات والمعاني، فيها ضروب من النحت والقلب و الحذف والترادف، والإعلال والإبدال، وأنواع من المجاز والإيجاز والكناية والاستعارة وما أشبه ذلك من ضروب التعبير والتدليل والاستقراء والتحليل...

وفضل اللغة العربية غير مقتصر على الأمة العربية فحسب، بل على البشرية أجمعين لأن الدين الإسلامي لم يقصد أمّة أو شعبا بعينه، وإنما عنى الإنسان في كل شبر من هذا الكون، يقول الله تعالى : [**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**] .[سورة الأنبياء، الآية / 125.] وهذا باعتراف العلماء العرب وغيرهم من مفكري غير العرب والمسلمين، مثل ما قال المستشرق الكبير(كارل بروكلمان) :

«تمتاز لغة الشعر العربي بثروة واسعة في الصور النحوية (الإعراب)، وتعدّ أرقى اللغات تطورا من حيث تركيبات الجمل ودقة التعبير، أما المفردات فهي غنية غنى يسترعي الانتباه، ولا بدع فهي تصب فيها الجداول من شتّى القبائل» [5].

في هذا القول يشير إلى الشعر العربي القديم، وقد أحاط بدراسته والبحث في أغراضه وعباراته وتراكيبه، فوصوله إلى حكمه الأخير كان عن قناعة وإيمان، واعترافه انصب على اللغة العربية من حيث هي اللغة الجامعة لمجموعة من الاستعمالات العربية لدى مجموعة من القبائل العربية، ولكنه لو أضاف إلى حديثه عن الشعر العربي رأيا في القرآن الكريم لاتخذ الأمر منحى آخر إذ أنّ القرآن الكريم هو الذي صار اللسان العربي المبين الذي أعجز الشعراء والخطباء ولغة الشعر والخطابة التي تحدث عنها (بروكلمان).

وإذا عدنا إلى الحديث عن العلماء العرب في القديم فلا بد أن نشيد بما قدموه من دراسات واهتمامات باللغة العربية، في جميع أشكال البحث والدراسة، بل قاموا بأكثر مما كان يتوقع منهم من محاولات في شتى الميادين الدراسية والعلمية للغة العربية في المجال النحوي والصرفي

والنحوي والصوتي والمعجمي والدلالي.. ومن أجل ذلك يقول الأستاذ حلمي خليل : (لقد قام علماء العربية القدماء بواجبهم في دراسة العربية وتحليلها بما أتاحه عصرهم من علم، ونحن لم نفعل ذلك، رغم ما أتاحه عصرنا من أساليب ومناهج علمية في دراسة اللغة، لم يتح للقدماء ما يقترب منها أو يشبهها) [6].

فليس من السهل الإحاطة بالإعمال الجليلة التي قام بها أسلافنا في كل مجالات علوم اللغة العربية ومستوياتها، وليس في المقدور أن نحصي النتائج التي توصلوا إليها عبر العصور المتعاقبة، فقد كانت دراساتهم متطورة، يتبع بعضها بعضا، كل ميسّر للظروف المحيطة به، ومهيأ لما بلغ إليه علمه وعثر عليه من أعمال الذين سبقوه، والأمثلة في هذا المنوال كثيرة ومتنوعة، فأبو الأسود الدؤلي (ت:69هـ) مثلا، إليه يرجع المؤرخون نشأة النحو العربي، إذ هو الذي وضع اللبنات الأولى لقواعد اللغة العربية، كما ترجع بذور الدراسات الصوتية الأولى لما قام به مع كاتبه بوضع نقط الإعراب في المصحف الشريف وقوله المعروف: (إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن رأيت من غير ذلك غنة فضع بدل النقطة نقطتين) [7]، ومن أعماله البدائية انبنت الدراسات اللاحقة عند الذين جاؤوا من بعده، كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175 هـ)، وسيبويه (ت: 180 هـ)، ولم تقتصر جهودهم على مستوى لغوي معين، بقدر ما كانت أبحاثهم شاملة لمستويات لغوية عربية كثيرة ومختلفة، وإذا قلنا إنّ دراساتهم انتهجت المنهج العلمي فإنما سبب ذلك اعتمادهم أسلوب القرآن الكريم وصيغه وتراكيبه وقراءاته . . .

وللأستاذ صالح بلعيد وجهة نظر جديرة بالوقوف عندها، وهي حديثه عن المنهج العلمي الصحيح الذي توخاه العلماء العرب القدماء، حين عرض في سياق تناوله مسألة النهوض باللغة العربية وترقيتها، إذ قال: (ويتطلب البحث العلمي ما يلي :

- الكشف عن مصادر بحثه.
- تطبيق تجربته المدروسة.
- الخروج من دراسته بتفسير محدد للأهداف .
- نقل هذا التفسير من خلال عرض مكتوب بلغة علمية دقيقة.

هكذا كان الحال عند العرب الأوائل، فأبدع جابر بن حيان باستعمال المنهج، كما اعتد ابن الهيثم بالتجربة والاستقراء، وخرج ابن سيناء بنظريات علمية محددة، ونقل الرازي والزهراوي كل بلغة علمية رصينة، فمن مآثرهم العلمية تأسيسهم منهجية البحث العلمي التي قامت على المنهج التجريبي الاستقرائي) [8].

فإذا كنا ننسب إلى الدراسات الحديثة توخي الدقة والموضوعية في طرْق شتى الموضوعات والأبحاث العلمية في مجالات اللغة وغيرها، فإنه لا مناصّ من وصف علمائنا الذين خلوا من قبلنا بذلك، ورأي الأستاذ صالح بلعيد الأخير، ورأي علماء آخرين، خير شاهد على ذلك . ولو لم يكن هناك دقّة في مجهودات علمائنا السابقين لما انتقل تأثيرهم العلمي والفكري والمنهجي إلى العلماء العرب الذين جاؤوا من بعدهم، بل امتد التأثير نفسه إلى علماء ليسوا عربا، ورأي الأستاذ الأخير إنما هو شامل لمجموعة من الأبحاث العلمية والطبية والفيزيائية، التي أنجزها العلماء العرب في القديم وفي العصور التالية، ولكن لا يقف الأمر عند هذا الحدّ، ولننظر علاوة على ذلك إلى ما قاله الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح في هذا المجال :

(من أوائل العلماء الأوروبيين الذين تأثروا بالنحو العربي مباشرة . . .نذكر اللغوي الاسباني (Sanctius) ويعرف بأنه كان واسع الاطلاع ولا سيما فيما يخص النحو العربي . وفي كتابه الأساسي المسمى ب : (Mi Nerva) في نحو اللغة اللاتينية قد أحاط حقيقة بكل المفاهيم الأساسية التي اطّلع عليها في كتب النحو العربية التي راجت في زمانه وخاصة التقسيم الثلاثي للكلم وتبنى هذا التقسيم من النحاة الفرنسيين (Buffier و Dangeau) .[9] فالتأثير العربي على البحث الغربي إنما اتخذ منحى آخر تمثل في الاستعمال اللغوي من حيث وظائف الكلمات والحروف في التراكيب الكثيرة والمتنوعة .

ما هو المانع إذا قلنا إن كثيرا من الشبه ظاهر في آراء العلماء الغربيين، ووجهات نظر علمائنا العرب القدامى؟ ولقد سبقني إلى الحديث في هذه المسألة علماء كثر، عرب وغيرهم، وإذا تناولنا هذه القضية على سبيل التمثيل والحصر، نذكر ما ذكره الأستاذ صالح بلعيد في سياق حديثه عن عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي : (إنّ فضل الخليل بن أحمد الفراهيدي على الدرس اللساني في العالم لهو فضل كبير، ويبدو أنه امتلك رؤية لسانية يتكامل فيها النظر في مستويات العربية (ألا توجد علاقة بين مقول الخليل في المستعمل والمهمل ومقول دي سوسير (De Saussure) في اللغة (Langue) والكلام (Parole) ؟

ذلك أن(Langue) ترمز إلى جميع صور الكلمات المخزونة في عقول جميع الأفراد، أي الجزء الاجتماعي المؤلف للغة، وأما (Parole) فهو الجزء الأدائي المستخدم عند المتكلمين) .

ويمكن أن نربط ذلك بفكرة تشومسكي بأن النظام اللغوي المفترض عند الخليل يقابله (Compétence) عند تشومسكي، والمستعمل يقابله (Performance)

أي الأداء اللغوي أو الممارسة العملية بحسب ما تتيحه المعرفة المختزنة من قواعد ؛ أي استعمال ما استوعبه واختزنه من عناصر المعرفة اللغوية من أصوات ومفردات وقواعد في مواقف الحياة المتنوعة)[10] .

كما ذكر الأستاذ منقور عبد الجليل مثل ذلك في هذا المجال :(أثرت طريقة الخليل في وضع المعجم في الصناعة المعجمية بعده فقد ألّف على سمته كثير من اللغويين معاجمهم مثل معجم البارع لأبي علي القالي (ت :356هـ)، ومعجم تهذيب اللغة للأزهري (ت :370هـ)، ومعجم المحكم لابن سيّده (ت :458هـ) .وكذلك طريقة الخليل في شرح المعنى لا زالت معتمدة في المعاجم الحديثة.)[11]، أليست هذه الأشياء وغيرها كثير من تراثنا العربي مما لا يسمح المقام بذكرها جميعها، مخبرة عن أهمية الأبحاث العربية المختلفة، وفضلها على العلماء المحدثين، سواء أكانوا عربا أم غير عرب ؟

راهن اللغة العربية:

إنّ الحديث عن راهن اللغة العربية، يوحي لدى البعض أن هذه اللغة صارت عاجزة عن التعبير عن مستجدات العصر، وباتت غير قادرة على نقل التكيفات الجديدة، وأضحت قاصرة على منافسة اللغات العالمية الأخرى التي يروجون لها، وغير ذلك من الأقاويل التي نسمعها متناثرة هنا وهناك ... إنّ الأمر أبعد من ذلك، إذ لو دقق الناظر في أحوال لغات الأمم الكثيرة والمختلفة لعثر على أن اللغة العربية تتصف بما لم تتصف به غيرها من اللغات ؛ بالثبات والاستقرار والصمود، لذلك عندما نتحدث عن اللغة العربية في هذا المجال يتراءى لنا أنّ هذه اللغة المتميزة لم تخضع للتغير والتحول والتبدل الذي أثّر في اللغات الأجنبية الأخرى، مثل ما حدث في اللغة الإنجليزية على سبيل المثال .

(وعلى الرغم من أنّ التطور سنةٌ جارية في كل اللغات، وأكثر مظاهر هذا التطور يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها « اللغوية – الصرفية – النحوية – الدلالية « وما تطوّر منها كان في إطار المعاني الأصلية وعلى صلة بها. والمحافظة على الأصل الدلالي مع تطور الزمن له فائدة لا يستهان بها، فتواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة وتراث الأمة أمر من الأهمية بمكان، ويزداد إدراكنا لأهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التغير السريع الذي يلاحق اللغة الانجليزية ـ لغة الحضارة المعاصرة ـ فنصوص الانجليزية القديمة التي مرّ عليها قرابة ثلاثة قرون أصبحت عصية على الفهم بالنسبة للانجليزي المعاصر)[12] .فمن الواضح أن استقرار الكلمات العربية من حيث الجانب الصوتي و الدلالي منذ قرون كثيرة ليوحي بتلك اللحمة بين جيل اليوم والأجيال الغابرة، وهذا أمر يزيد من عظمة اللغة العربية وقد تكفل الله عز وجل بحفظها كما حفظ القرآن الكريم حين قال :[**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**] [سورة الحجر، الآية/9]. وما من لغة في العالم إلا مسّها التغيير، فحدثت تلك الفجوة بين أجيالهم، وصار من الصعب عليهم التواصل مع بعضهم البعض، مثلما حدث في انجلترا، إذ أنّ هذا الأمر دفع علماء اللغة الإنجليزية إلى إعادة صياغة النّصوص الأدبيّة المهمّة

مثل نصوص (شكسبير) من الإنجليزية القديمة (Old English) التي صارت ذات كلمات معقدة وصعبة الفهم، إلى لغة إنجليزية حديثة (Modern English) . فالذي دفع أولئك إلى ذلك العمل إنما هو إيمانهم بعجز الجيل الجديد عن فهم نصوص كاتبهم الشهير(ويليام شكسبير) الذي ينتمي إلى الجيل الماضي . بينما لو نحن جئنا إلى الفرد العربي المعاصر وعرضنا عليه آيات من الذكر الحكيم، فإنه بالتأكيد لا يشعر معها بغرابة تماما، ويكفي النظر على سبيل المثال إلى قول الله عز وجل في الآية الكريمة: [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** .] [سورة البقرة، الآية / 282]. فنلاحظ ونحن نقرأ هذه الآية سهولة واضحة في الكلمات والمعاني التي تنطوي عليها، بدءا بمخاطبة المؤمنين : [**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** ....]، إلى قوله تعالى: [... **وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**] وكلما سار القارئ مع هذه الجمل والتراكيب كلما فهم المقصود و بلغ المراد، والقرآن الكريم كله على هذا المنوال، اللهم إلا ما ورد فيه من بعض الكلمات التي تبدو غريبة، ولكن سرعان ما نجد معناها في تفاسير القرآن الكريم وفي أبسط القواميس والمناجد العربية الكثيرة والمختلفة الشروح. وكذلك لو عرضنا حديثا من أحاديث رسول الله (صلعم) على العربي المعاصر فإننا نرى الأمر نفسه، والموقف ذاته مع القرآن الكريم ؛ فقد روى مسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله (صلعم) قال: (إنّ الله (عز وجل) تجاوز لأمتي عمّا حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به) . وروى مسلم عن أبي هريرة قال: (جاءِ أناسٌ من أصحابِ النبيِّ (صلعم) فسألوه فقالوا: إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به ! قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال: ذلك صريحُ الإيمان)[13] . والمقصود ب : (يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به) استعظام الاعتقاد ببعض الكلام في النفس والخوف من النطق به . فكلمات الحديثين الشريفين سهلة ميسورة لا نجد فيها ما يستدعي تكلف الذهن والفكر في فهم معانيها، وما يزيد من يسرها وألفتها أنها لغتنا الحاضرة التي نتداولها بيننا، سواء في كلامنا أم في كتاباتنا... ولا نرى تغييرا لموقف العربي المعاصر نفسه إذا سمع كلام العرب الجاهلي؛ منثوره ومنظومه، وما من غرابة في ذلك ما

دام القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هو من أفضل التراكيب التي نطقت بها العرب في القديم . يقول الشاعر الجاهلي امرؤ القيس (ت : 540 م) وهو المرتب في المنزلة الأولى من الطبقة الأولى من شعراء العصر الجاهلي :

(رأيتُ المنايا خبطَ عشواء من تُصب تمتْــه ومن تُخطئ يعمـر فيهـرم

رأيْتُ سِفاه الشيخ لا حلم بعــده وأن الفتى بعد السفاهـــة يحلم

وأعلمُ ما في اليـوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غد عمي

ومنْ لم يُصانــع في أمور كثيــرة يُضرّس بأنْياب ويُوطــأ بمنسم

ومنْ يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتّقي الشتم يُشتمي) (14)

وقارئ الأبيات الأخيرة يستفيد من الحكمة التي اكتسبها امرؤ القيس في حياته، فلا بدّ أن يكون قد خبر الحياة وظروفها، ومعاناتها، وتعلم فيها الأفعال والأخلاق التي كانت سائدة في ذلك العصر، كسِفاه الشيخ الذي لا حلم بعده، وحلم الفتى بعد سفاهته، وعلى الرغم من مرور أربعة عشر قرنا من الزمان بل أكثر من ذلك، فإنّ الإنسان العربي لا يكاد يجد صعوبة في فهم الكلمات والتراكيب ولا يشعر بغرابة في الألفاظ .

ويقول الشاعر حافظ إبراهيم (ولد :1871م – ت1932م) على لسان اللغة العربية :

رموْني بعقم في الشبابِ وليتني عقمْت فلم أجزعْ لقول عداتي

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ فهلْ سألوا الغواصَ عنْ صدفاتي ؟

يتحدث حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية، وكأنها لغة غريبة في وطنها الذي نشأت فيه منذ زمن بعيد، ثم يشبهها بالبحر الذي لا نهاية له في شساعته وقوته وعمقه، ولكن الخلل والعيب والنقصان في الذين اتّهموها بالعجز والقصور، ورموها بالعقم والتحجر، ولكن الذي يطلع على قيمتها النفيسة، الغالية، ويعرف منزلتها الرفيعة، العالية إنما هو الغواص الذي يحسن فنّ الغوص والسباحة .

لذلك إذا تحدثنا عن راهن اللغة العربية ففي اعتقادنا أنّ راهنها متعلق بماضيها ولا يمكن بأي حال من الأحوال الفصل بينهما، والشواهد القليلة الأخيرة سند صالح لذلك، وإن التدقيق في اللغة العربية المعاصرة يكشف لنا بعض الألفاظ والكلمات التي فارقت اللغة العربية الأم، ولكن تبقى تلك الأم الفصحى حية مادام وجودها مرتبطا بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

من جراء هذا تبقى اللغة العربية الفصحى صالحة لمواجهة التحديات، ولها القدرة على التصدي لحل المشكلات التي استعصت على كثير من اللغات في المعمورة، ولكن مع ذلك لا بد من اجتهاد أهلها للنهوض بها وعدم الاستهانة بها في كثير من المناسبات . ولا مناص من الإرشاد

إلى بعض الجهود التي يبذلها العلماء والمفكرون والباحثون في مجال اللسانيات القديمة والحديثة والذين وضعوا أيديهم على مواطن القصور في استعمالنا للغة العربية، فقد تحملوا مسؤولية الذود عن هذه اللغة التي يرون فيها الصلاح والفلاح، وهم بأبحاثهم تلك يؤكدون على أنّ هذه اللغة هي التي تصلح لنا، وهي القادرة على التعبير عن أحوالنا، وظروفنا . . . فلابد من استعادة هيبتها والمحافظة عليها .

في المحافظة على اللغة العربية :

إنّ المحافظة على اللغة العربية سلوك حميد لا يقوم به إلا أهله، فهي لغتنا التي تحمل تراثنا، ومقوماتنا، فلا ننتظر أبدا أن يحافظ عليها أقوام ليسوا عربا، ولا مسلمين، ولا تربطهم بهذه اللغة صلة، بل العكس من ذلك، الذي نشهده اليوم هو الحرب الضروس التي لا تهمد نيرانها على اللغة العربية، فهم يتهمونها بالقصور والتحجر والعجز وفقدان الصلاحية، وعدم القدرة على مواكبة التطور والأحداث المستجدة . . . ولهذا فإنّ الحريصين على المحافظة على اللغة العربية في القطر العربي كله وفي غيره، لم يغفلوا عن هذه الاتهامات وراحوا يواجهونها ويتصدون لها بتأنّ وروية وعقلانية، وبالعمل المنظم، والتخطيط المحكم، بألسنتهم في المؤتمرات والندوات والملتقيات، وبكتاباتهم في الكتب والجرائد والمجلات . . .

ولئن نرى بعض القصور في التعامل مع اللغة العربية عند أهلها وذويها، فهناك كذلك من دلّ عليه وحذّر من عواقبه . فما هي الصيغة التي اتخذها العلماء العرب في المحافظة على اللغة العربية ؟ .

لقد تشكّلت الجمعيات الأهلية لحماية ورعاية اللغة العربية، مثل : – جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية – مما يدل على إحساس قوي وعميق وحقيقي بالخطر الذي يتهدد اللغة العربية، وبأنه حان الوقت لكي تتضافر كل الجهود من أجل تحقيق الهدف المنشود والمتمثل في (أن تكون اللغة العربية لغة التعبير لأنشطة الحياة العلمية والعملية والتعليمية والإعلامية والثقافية والترويحية)[15] (جمعية لسان العرب لرعاية اللغة العربية، دليل المؤتمر السنوي السابع . القاهرة : 30–28 أكتوبر 2000م) كما جاء من ضمن أهداف جمعية حماية اللغة العربية في الشارقة – الإمارات العربية المتحدة – (غرس الاعتزاز باللغة العربية في نفوس أبنائها باعتبارها لغة القرآن الكريم، وحث الهيئات والمؤسسات العامة والخاصة على تعزيز استخدام اللغة العربية وجعلها هي الأساس في التعامل والتخاطب والإعلان) [16] .

(الملتقى الأول لحماية اللغة العربية – معا نحمي اللغة العربية – الشارقة 21–23 – 10 –2001م) .

ولابد من الإشارة إلى ما عقد من المؤتمرات والندوات والاجتماعات على امتداد الوطن العربي من أجل معالجة (مشكلة تعليم اللغة العربية) بدأت عام 1947م وبلغت في مجموعها أكثر من خمسة وعشرين . .وما تزال تعقد إلى الآن . و لا ريب في أن سبب ذلك إنما هو الانتباه لخطورة التعليم في حياة الأفراد والشعوب، بما فيها الأمّة العربية.

والحديث عن التعليم يقود إلى التركيز على عناصره الأساسية، وهي الأستاذ أو المعلم والطالب أو التلميذ والمادّة التدريسية، وهو موضوع يحتاج إلى جهد خاص ، ومقام آخر، وإنما الذي يجدر التركيز عليه هو كيف نحافظ على اللغة العربية عن طريق التعليم ووسائله ، إذ من بين ما يغفل عنه الكثير هو تساهل كثير من المعلمين إن لم نقل جميعهم في التعامل مع اللغة العربية، لأنّ استعمالهم لها إن وُجد، فلا يكون إلا في الصف، ومنهم من يتحدث إلى التلاميذ بالعاميّة، ولا يخفى علينا ما لهذه المسألة ـ التي تبدو هيّنة ـ من الخطورة على اللغة العربية الفصحى، وقد انتبه الأستاذُ حسن ملا عثمان إلى المسألة نفسها في قوله: (وهناك ظاهرة أخرى ـ في مجال تدريس اللغة العربية ـ يجب العناية بها والاهتمام بها وإعطاؤها ما تستحقه من مراعاة وانتباه، وهي الحفاظ على التحدث باللغة الفصحى مع الطلاب في شرح الدرس، والتعامل معهم في المناقشة والاستجواب، وتنفيذ هذه المسألة يعدّ واجبا على كل مدرس. . .إن تساهل المدرس في التحدث في درسه باللهجة العامية يسهم في تحقيق الخطوة الأولى في إفساد اللغة وإضعاف مكانتها من حيث كونها رابطة أصيلة في توحيد الصف العربي والحفاظ على التراث العربي الذي يعدّ أقدم أساس في هذا التراث)[17].

ولا ننسى الانعكاسات السلبية التي تخلفها العامية في حياة الأمة العربية، لأنّ الأمر لن يبقى مقتصرا على اللغة العربية في حد ذاتها، كلغة كأي اللغات، وإنما سيمس ذلك بطريقة أو بأخرى القرآن الكريم، ولذلك نبّه الأستاذ حسن ملا إلى ذلك فيما يلي:(ومن ناحية ثانية يعدّ نشر اللّهجات العامية وسيلة غير مباشرة لمحاربة الإسلام عن طريق إفساد لغته التي هي لغة الإسلام الرسمية"– لغة القرآن الذي هو دستور الإسلام وقانونه الأساسي – في العقيدة والتشريع والتربية والنظام، لأنّ التشكيك في جانب من جوانب هذا الدستور أو إحداث أي ضعف أو خلل فيه يؤثر تأثيرا كبيرا في كيان رسالة الإسلام ونظامه الخالد) [18].

ووضع محاولة أولى في المحافظة على اللغة العربية بتجنب استعمال غيرها من اللغات بما في ذلك اللهجات، نادى الأستاذ عبد الله الدنان بضرورة الاهتمام بالطفل قبل مباشرته التعلم فيما قبل السنة السادسة من عمره، فمن هنا يبدأ استعمال اللغة العربية، قال: (إمكانية تعليم اللغة العربية الفصحى للأطفال قبل السادسة من العمر وذلك باستغلال القدرة الفطرية للأطفال على تعلم اللغات . . . وإذا بدأت مرحلة التعليم لا بد من زيادة حصص اللغة العربية في المنهج الدراسي، كما يجب أن تكون اللغة العربية لغة التواصل الشفهي طوال اليوم المدرسي. . .)[19]

صار الاهتمام بترقية اللغة العربية مسؤولية عامة في الندوات والخطابات الرسمية والتعليم في كل قطاعاته وفي جميع التخصصات، وتجندت لهذا هيئات ومؤسسات كثيرة، منها «مركز البحوث التقنية لتطوير اللغة العربية ببوزريعة» وقال الأستاذ صالح بلعيد في معرض حديثه عن عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي منوّها بدور المركز المذكور (يعمل « مركز البحوث التقنية لتطوير اللغة العربية ببوزريعة «على إخراجها للدفع بمضمون اللغة العربية إلى مقامها الذي تستهله ضمن اللغات العالمية الكبرى . وهذا بالعودة إلى أصولها، وشحذ تلك الأصول بما استجد من بحوث علمية متطورة في اللغات الأجنبية . . .)[20] .

والدعوة اليوم صارخة بوجوب النظر في اللغة العربية على أنها لغة العصر الحديث، و لا مناصّ منْ التركيز على آلياتها والإِمْعان فيها كلغة جديرة بتحمل مضامين حياتنا، كما يجب أن يكون لنا تصور منطقي بأنّ البحث في الآليات الداخلية للغة العربية لهو الضرورة الأولى، لتصبح العربية لغة الحوار والمنطق والرقمنة ومسايرة الزمن، ويصير مضمونها عاكسا لواقعنا، ولو أننا ما زلنا نستعمل في بعض المجالات لغة أدبية عقيمة من العلمية، إلا أنه في إمكاننا البحث بالقوة المطلوبة، والطاقة اللازمة لتجديد آلياتها. ويقترح الأستاذ حلمي خليل ما يلي: (إنّ الأخذ بمبْدإ التّخطيط اللّغوي قد يكون الخطوة الأولى على بداية الطّريق لحل مشكلات حياتنا اللغوية وهي مشكلات جديرة بأن تكون في مقدّمة مشكلاتنا القومية والسياسية والاجتماعية، بل لعلّي لا أكون مسرفا إذا قلت إنها مشكلات خليقة بأن تهزّ كيان الأمة العربية هزّا، سواء اليوم أو غدا)[21] .

إنّ مشكلة اللغة العربية في الوطن العربي من أولى المشكلات والمسائل التي تتطلب حزما وعزما، فهي تتعدى المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وكل المشكلات باتت هيّنة إذا كانت اللغة العربية هي أمها، إنّها الأساس الذي تنبني عليه الأمم والحضارات وتتوطد به الدعائم و الأركان .

ولكن هل نملك سياسة لغوية محددة المعالم لوقاية اللغة العربية ؟ هل أعددنا مخططا يحمي لغتنا العربية من هذا الزحف الجارف للغات الأجنبية الذي يهاجم اللغة العربية في عقر دارها ؟ خاصة في مجال التعليم إذ ما زالت الجامعات العربية تدرس العلوم المختلفة بغير اللغة العربية. ثم ماذا عن مناهج التعليم في الوطن العربي الذي لا يزال يقوم على التلقين والتحفيظ، من دون أن يعلّم المهارات وتقنيات التعبير والحياة ؟. .

إنّ مدح اللغة العربية والثناء عليها، والإعجاب بها، والإشادة بها، وغير ذلك مما له علاقة بالمشاعر والأحاسيس، لا نظن أنّ ذلك سيصلح من شأنها وشأننا، وإنما ينفع ذلك بمعيّة وضع مخطط لغوي عربي سليم، يركّز على تعليم اللغة العربية في مراحل التعليم كلها .

حواشي وإحالات :

القرآن الكريم

1 أبو القاسم سعد الله، مقال: التثاقف السياسي والفكري، مجلة مجمع اللغة العربية، بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين «القسم الثاني» العدد السادس والتسعون صفر1423هـ – مايو 2002م. ص/ 78.

2 محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة:2001م، ص/23.

3 حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، دت، دط، ص /24 .

4 المرجع السابق، ص/24.

5 المرجع السابق، ص/25.

6 حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، دولة مصر العربية، دط، 1420هـ – 2000م. ص/12.

7 عبده الراجحي، فقه اللغة العربية في الكتب العربية، دار النهضة العربية، ص/130.

8 صالح بلعيد، في النهوض باللغة العربية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الجزائر: 2008 م، ص/ 16– 17.

9 عبد الرحمان الحاج صالح، مقال: تأثير النظريات العلمية واللغوية المتبادل بين الشرق والغرب : إيجابياته وسلبياته عنصر : مفاهيم لغوية عربية اقتبسها العلماء الغربيون في القرنين السادس عشر والتاسع عشر، مجلة مجمع اللغة العربية، بحوث مؤتمر الدورة الثامنة والستين «القسم الثاني» العدد السادس والتسعون صفر1423هـ ـ مايو 2002م. ص/ 123.

10 صالح بلعيد، الخليل بن أحمد عبقري العرب، وزارة التعليم والبحث العلمي مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، كراسات المركز – العدد الأول، الرستمية، الجزائر: 2006م، ص/35 ـ 36.

11 منقور عبد الجليل، مقال: الخليل بن أحمد الفراهيدي ومعجمه «العيْن»،مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع اللغوي للغة العربية، الأبيار، الجزائر العدد الثالث، السنة الثانية، جمادى الأولى 1427هـ ـ جوان 2006م، ص/ 63.

12 محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، ص/23– 24.

13 السيد سابق، فقه السنة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1403هـ– 1983م، بيروت– لبنان، المجلد الثاني، ص/385.
14 جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ـ بيروت ـ لبنان : 1416هـ– 1996م، المجلد الأول، ص/29.
15 عبد الله الدنان، مقال: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة تطبيقاتها وانتشارها، مجمع اللغة العربية بدمشق، المؤتمر السنوي السادس، لغة الطفل العربي والواقع المعاصر، دمشق : 24–26 شوال 1428هـ ـ 5–7 تشرين الثاني 2007 م. ص/8.
16 المقال السابق، الصفحة نفسها .
17 حسن ملا عثمان، طرق تدريس اللغة العربية في المدارس المتوسطة والثانوية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع العليا، الطبعة الثانية، الرياض، المملكة العربية السعودية 1423هـ– 2002م، ص/ 10.
18 المرجع السابق، ص/11.
19 عبد الله الدنان، مقال: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة تطبيقاتها وانتشارها، ص/9 .
20 صالح بلعيد، الخليل بن أحمد عبقري العرب، ص/7.
21 حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص/13.

العربية، وظيفتها ومقامها
في عصر العولمة والمد الإِعلامي

د . رشيد حليم

ج. الطارف – الجزائر

الملخص

تعيش اللغة العربية حاضرا مريرا، وتتعرض في هذا العصر الحديث إلى حركة تهميش عزل، وتعاني في ظل هذا المد العالمي للمعلومات تدهورا لغوياخطيرا ينأى بها عن التواصل المعرفي و الثقافي، ويبعدها عن تبوإ مكانتها اللائقة على خارطة التواصل العالمي .

و في

هذا الصدد، تأتي مقالتنا الموسومة ب : « العربية وظيفتها ومقامها في عصر العولمة والمد الإِعلامي » لتجيب عن انشغالات معرفية منها :

1 – مفهوم العولمة (من منظور عربي)

2 – العربية والعولمة

3 – دور العربية في مجتمع المعلومات

مقدمة :

العولمة ظاهرة كونية ذات امتداد عميق في جذور الماضي، انبثقت علىصورتها الحديثة بفضل الإنتاج الغزير للوسائل الاقتصادية و ما بنته من استراتيجيات غايتها الهيمنة على مقدرات الشعوب واستغلال مواردها، فتوسع مدارها حتى اكتسحت الواقع العالمي، وأخذت تتحكم في مصيره، حاضره ومستقبله .

اتخذ خطاب العولمة مرتكزات مهمة لبسط نفوذه، ولعل أقوى تلك المرتكزات وأكثرها تحديا، التفوق العلمي والتكنولوجي وما لحقه من استعلاء مبرمج لثقافة رواده، وتفضل معظّم لمادة صياغتها، ولغة تنظيرها.

لقد شمل حديث العولمة مفاهيم غربية بالدرجة الأولى، صنعتها رغبة السيطرة على مظاهر الوجود ومكتسبات البشرية العينية والمعنوية. واستنزاف خيراتها لصالح مجموعات خاصة منفردة، تصنع القرار الدولي، وتنفذه بلغة القوة، غير أن مقاصد الهيمنة التي برمج لها الساسة.

والأنتلجنسيا الغربية عموما والأمريكية خصوصا لا تهتم بأوجه النشاط البشري، وضروب الاقتصاد ومجالاته ،و شؤون السياسة فحسب، بل إن المنظرين لهذا التوجه القطبي المنفرد بالزعامة الدولية لا تغنيهم هذه الشؤون دون إتمامها بما هو أجدر، إنهم يحاولون تجاوز هذا السطح إلى ما هو أعمق، وهو المحتوى الحقيقي الذي إن مكّن لهم رجحت غلبتهم، ورفع لواء سلطانهم مثبتا على الدوام، إنه الميدان الثقافي، وما شمل من عناصر الهوية أعظمها: الدين واللغة .

لقد ظل هذان المقومان الحصن المنيع أمام حركات الاستعباد والاستبداد التي نفذها المستدمرون طوال قرون خلت، ولذلك بني بعض الاستراتيجيين مخططاتهم على تفكيك الخصوصيات البشرية في الميدان الثقافي، حيث هدفوا إلى تهديم الهويات الثقافية لكثير من الأمم، وتغيوا الانقضاض على موروثها الحضاري، أو على الأقل تغيير أنساقهم الثقافية[1]، أو إعادة بنائها وفق منظور لا يتخطى المفاهيم الفلسفية للمجتمع الغربي، والهدف تمكينهم من ترسيخ تلك القيم النموذجية التي رأى مفكروها ضرورة أن تسود كل العالم، وبالتالي صناعة نماذج إلامن الإنسان الغربي، كما يعتقد الفيلسوف الشهير فوكوياما حين يزعم بأن التاريخ وصل إلى نهايته، وأن الزمان قد ا ستدار ،وأن الرجل الأمريكي بما يحمل من ثقافة وقيم هو آخر ما سوف تشهده البشرية، نتيجة للقيم العالمية التي يحملها، ويكدّ في نشرها.

وإذا أيدنا الرأي الذي يتحدث عن عولمة شاملة لا تخص جانبا دون آخر، أو قطاعا دون غيره، حيث تتجاوز مفاهيم العولمة ميادين النشاط الإنساني وإنما تتعداها إلى عولمة المعرفة، وعولمة التعليم، وما يشكله من محتويات و مناهج، بل يذهب بعض المبشرين بسلطان العولمة، إلى القول بأن عولمة التربية– التي هي بؤرة تنشئة الفرد– وعولمة وسائل التعليم، ومنها اللغة، أو تكييف الملامح المميزة للأفراد والمجتمعات من حيث مكتسباتهم الروحية، والعقائدية والقولبة هو أسمى الأهداف التي ينشدها الباحثون المنظرون لمفاهيم ومقولات النظام العالمي الحديث، الذي يتأسس في هذا الجانب –خصيصا –على إلغاء هوية الآخر ، خاصة ممن كانت له مقدرات عظيمة، ومقومات كبيرة ،، شأن ذلك، شأن العالم العربي .

وفي ظل هذا البناء المفهومي الجديد للواقع الإنساني ، يواجه العالم العربي تحديات متعددة المجالات ، تخص وجوده مباشرة، ورهانات تعني مقدسات أفراده. وفي هذه الحركية التكنولوجية المذهلة التي مايزت المجتمعات وصنفتها وفق معايير التخلف والرقي، وأبلغ مقومات الرقي هو

التطور الحاصل في وسائل الإعلام، وتدفق المعلومات، وصناعة أدواتها ، وقد صاحب ذلك نزعة التمكين اللغوي والمعرفي .

إن وجود الإنسان – منذ الأزل – مرتبط باللغة، فالعقل الإنساني لا يُفكِّرُ إلا بها ولا يترجم معارفه وأفكاره إلا بواسطتها ، فالنشاط البشري بأسره لا تقوم له قائمة دون لغة .

ولقد استعظم دور اللغة في ظل عصر المعلومات، واستحدثت لها مجالات جديدة، إلى جانب غرضها التقليدي، في التبادل الخطابي بين الإنسان والإنسان في ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة وغيرها، فأصبحت هذه الأداة التواصلية ركيزة أساسية في الأفكار المحاورة للغات المبرمجة، حيث أصبح للغة دور الوسيط الضالع في الحوار ونقل المعلومات بين الإنسان المفكر والآلة[2] ممثلة في جهاز الكمبيوتر .

والعربية – مثل كثير من اللغات – تمثل خصوصية إ إنسانية توحد ساكني رقعة جغرافية ممتدة في أكثر من قارة[3]، إضافة إلى هذه الاقليات العربية التي تتحدث العربية في أنحاء العالم، وكذلك المسلمون من أصول عرقية مختلفة في إفريقيا وأسيا الذين يتحدثون العربية من أجل العبادة وقراءة القرآن، وهذا الانتشار الواسع في أنحاء العالم بوأ العربية على الصعيد الدولي مكانة هامة جعلتها إلى جانب اللغات العالمية الشهيرة مثل الإنجليزية والإسبانية والفرنسية والصينية مرسمه بمنظمة الأمم المتحدة[4] وذلك منذ الأول من يناير 1974 م.

غير أن الانتشار المكاني(الجغرافي) الواسع للعربية لم يعادله انتشار نوعي آخر ،يحوي التطور الهائل الذي واكب التطور السريع في مجالات الخدمات التقنية وفي مجالات الاقتصاد وغيرها،وبدا واضحا مظهر الانكماش اللغوي الذي أقعد العربية عن مسايرة المظاهر المتنوعة الثي أفرزتها العولمة. ومن ثم كان هذا الاستفهام عن حال العربية في ظل القطبية الواحدة ؟والتساؤل عن مظاهر التأثير للعولمة الثقافية على لغةالقرآن، وما هي السبل التي تدفع بها لغتنا هذه التحديات؟

1-مفهوم العولمة:

عرفت البشرية عبر مساراتها التاريخية حركات اجتماعية وسياسية مختلفة عرفت في عصور ماقبل المسيح حضارات بلاد الصين والهند وبلاد الرافدين، وشهدت في القرون الوسطى حضارة المسلمين التي نمت بفضل مكوناتها الفكرية العظيمة، وامتد قبسها إلى الجنوب الغربي من أوربا، و أخيرا قامت نهضة متميزة غزت بمفاهيم الثورة الصناعية التي فجرتها أوربا في مطلع القرن الثامن عشر دولا كثيرة، وسعت إلى تأسيس عالـم جديد، هذه الظاهرة الوجودية

الحداثية : أطلق عليها مصطلح : la Mondialisation ونقل هذا المصطلح إلى العربية باسم العولمة. وهي وإن كانت نزعة سياسية معاصرة مثيرة للمخاوف والقلق في ظاهرها، فهي حركة ذات شكل أخطبوطي تسعى إلى الالتفاف حول جميع المجالات الحيوية للإنسان لتضمه إليها .

ولقد تولدت هذه الظاهرة،(Phénomène) بفعل مؤيدات متعددة، أشهرها : التطور التقني المتسارع في مجال المعلوماتية (informtique) والنقل والاتصال .(moyens de communications Les) إضافة إلى تطور وسائل الإنتاج الاقتصادي، وتنوع مجالاته،

ورغبة الدول العظمى في الرخاء الاجتماعي ,و ما صاحبه من رغبة في الهيمنة السياسية والثقافية.

ولقد تضافرت هذه الآليات كلها لتشكيل منظومة مهيمنة على البلدان، عابرة للقوميات والأوطان تهدف إلى صياغة جديدة لتسيير شؤون المجتمعات وفق رؤية أحادية .

ونتيجة لاحتواء العولمة على التنوع الحاصل في المجال الحيوي، فمن الصعب إيجاد مفهوم أنموذجي شامل و متفق عليه يحيط بدال العولمة و يستوفي معانيه، و على آية حال نحاول أن نظهر ما أبان عنه بعض المفكرين العرب في استقصائهم لهذا المصطلح .

أ – يشير مفهوم العولمة من الناحية اللغوية إلى أمرين :

1 – هي من لفظ « عالَم » بفتح اللام، وهو الخلق كله و أصنافه وهو ما احتواه بطن الفلك

ووجه الأرض، و هو جمع لا واحد له من لفظه، لأن عالَمًا جمع أشياء مختلفة، فإن جُعل عالم اسما لواحد صار جمعا لأشياء متفقة (5) وقيل يجمع على « عالمون » ولا يجمع شيء على « فاعل» بالواو والنون إلا هذا اللفظ(6)، وقيل جمع لفظة العالم وهو الخلق، على العوالم (7)

وقال الزجاج (ت 311 هـ) في تفسير قوله تعالى (**ربُّ العالَمين**) (8)معناه كل ما خلق الله تعالى(9)وهو رب كل شئ، وقد شمل جميع ما وجد في الكون من موجودات مادية و معنوية(10) .

2 – العولمة مصدر، يفيد الإحاطة والتوسع، وهو لفظ محدث لم تعرفه المعاجم العربية القديمة، ذلك أن الاشتقاق من المكان والجوهر والزمان والأعيان مختلف فيه، والعولمة من لفظ العالم أو من المصدر الصناعي **العالمية** وهو منقول عن اللغات الغربية، من الفرنسية universalité, universalisme وجائز أن يعرب إلى الكونية ما دام اللفظ الفرنسي من univers وهو الكون. وفي تعريف العولمة يقول محمد الجابري : هي رغبة إنسانية تكشف عن طموح إلى الارتفاع بالمحلية أو الخصوصية إلى مستوى عالمي إنساني، فالعولمة احتواء للعالم، وكانت العولمة تفتحا على ما هو عالمي و كوني(11) .

3- العولمة من منظور عربي

العولمة حدث تاريخي هام، وهي اتجاه واقعي حتم على كثير من الشعوب أن تحيا فيه، فهي واقع ليس لشعوب الأرض خيار آخر، وهذا الإجبار في الواقع المعيش عوّض حديث التفاؤل عن التعاون في قرية كونية إلى الحديث عن واقع ذي مستقبل مشبوه و قد سموه: الاستعمار المعاكس : reverse colonization أو كما يبين أحد المفكرين عندما يؤكد أن العولمة هي أن يكون العالم في حالة نهب كوني .

وقد حاول بعض المفكرين العرب تفسير ظاهرة العولمة وإبراز ما تهدف إليه من غايات، ومن جملة تلك المواقف نسجل ثلاثة اتجاهات رئيسية :

أ – موقف يشرح مصطلح العولمةو يفكك منصوصها إلىمفاهيم مختصرة فيقول :

- العولمة ثورة سيكولوجية و تكنولوجية، و معلوماتية عالمية .
- العولمة تجليات للظواهر الاقتصادية العالمية .
- العولمة انتصار ساحق للقيم الأمريكية و هيمنتها [12].

ب – الموقف الثاني، يرى في ظاهرة العولمة على أنها عملية تاريخية تنطوي على ترابط وتداخل بين سياسات الدول واقتصادياتها ووحدات النظام الدولي، فلها جوانب متعددة، (اقتصادية وسياسية وثقافية) نتيجة لانسياب رؤوس الأموال والسلع والخدمات والمعلومات عبر شبكة من الاتصالات الفضائية التي أوجدت ثورة في التقدم و التطور التكنولوجي [13].

ج – الموقف المرجح : يؤكد صاحب هذا الاتجاه بأن العولمة هي مبادئ و قيم وأفكار تحمل في طياتها الهيمنة والسيطرة. فهي تحمل مفهوما براغماتيا هدفه السيطرة على العالم بوجه جديد[14].

وحمادى القول في هذا التنظير العربي للعولمة، نقول إنها مرحلة من مراحل التطور البشري، وحلقة تاريخية قديمة جديدة نمت بفضل عوامل متنوعة، وقد قسمت النخب العربية إلى فئتين:

– فئة المتفائلين الذين يرون في هذا الحدث فرصة عظيمة تمكن العالم العربي من الخروج من دائرة التخلف، و إيجاد الحلول لمشاكله الاقتصادية والاجتماعية .

– فئة المتشائمين الرافضين لهذا الحدث الجديد، لأنه غير مضمون الجوانب خاصة أنه يسعى إلى تقويض الخصوصيات القومية، وتسطيح ثقافتها ولغتها، ويؤسس لتنشئة أخرى مطابقة للأنموذج الرأسمالي المتوحش.

2 – أثار العولمة على اللغة العربية :

اللغة عنصر مهم من عناصر الثقافة إضافة إلى عنصري الشخصية والهوية، ويكاد مصطلح الثقافة ينطوي على هذه العناصر الثلاثة مجتمعة، كما يؤكد المرحوم مالك بن نبي حين يعرف الثقافة على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته(15).

من هنا تأتي أهمية ترابط العناصر الثقافية في تشكيل خصوصيات المجتمع، وخصوصيات تركيبية أفراده، فكل فكرة أو معتقد إلاو يصدر عن أصول مرسخة، مما يبين خطورة المساس بأي عنصر من هذه العناصر وأن التأثير عليها سلبا ينجر عنه نتائج ثقافية واجتماعية خطيرة، أفظعها ما سمي بالغزو الثقافي أو التبعية الثقافية والإعلامية الذي خبرته المجتمعات العربية أثناء عهود الاستدمار خلال القرون الماضية .

بعد الحرب الكونية الثانية ابتكر أصحاب نظرية النهب الكوني آليات جديدة في محاولة منهم القضاء على الهرم الثقافي وأساليبه عند كثير من الشعوب المستضعفة، –خاصة العربية– ودحر القيم الدينية واستلاب الأفكار القابلة للاستمرار، والتي لا ترتصف إلى جانب قواعد العولمة، وقد سُخرت القنوات الإعلامية وآليات الثقافة التي بحوزتها من أجل بلوغ هذه المرامي، في ظل عدم التكافؤ الذي هو لصالح منتج الثقافة ومُصدّرها باعتبارها ثقافة فريدة كما يقول هنتغتون .

وفي ظل العولمة تتعرض العربية إلى حركة تهميش وإزاحة بفعل الضغوط الناجمة عن طغيان اللغة الانجليزية على المستويات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية بالإضافة إلى ما يشبه حرب العولمة على الإسلام، و بالتالي على العربية .ويسعى المستشرقون وبعض أبناء العربية لإضعاف اللغة العربية، والتهوين من شأن مشكلة الفروق اللهجية بين الأقطار العريبة وإغفال أنموذج الفصحى المرتبط بالقرآن الكريم الذي يفهمه كل العرب الذي يدل على اتفاقهم على لغة واحدة تعينهم على وضع تكتل لغوي ثقافي، بدلا من الاستسلام للتغريب في ظل هيمنة الانجليزية على الكمبيوتر وشبكة الاتصال الدولية (الانترنت) .

ومما نسجله من آثار سلبية للعولمة على اللغة العربية، ما نذكره :

- حاولت العولمة التأثير على الثقافات الأخرى من خلال توسع نمط الاستهلاك الغربي . كما عملت من خلال آليات الإنتاج الثقافي الذي فاقت به الدول الضعيفة على حصر ثقافة شعوبها، وكانت الثقافة العربية إحدى ضحاياها، فسعت إلى إضعافها و تهميشها،

وكل تأثير سلبي على الثقافة هو خلخلة لموقع الأداة التي بها يتم الإبداع و التواصل، فحيدت العقل المبدع وأداة إنتاجه العلمي و الثقافي (ومثاله تدريس العلوم التجريبة باللغة الغربية، و كتابة المصطلحات بوساطتها . .)

- فرض الأنموذج الغربي عامة و الأمريكي خاصة أسلوبا في الحياة والتصور من خلال ما تبرزه وسائل الإعلام المختلفة، حيث تملك ما يزيد عن 90 % من سوق الانتاج العالمي فيها مما انعكس سلبا على روح الإبداع و الابتكار الذاتي لدى الفرد العربي، وكذا ضعضعة الشعور بعزة الانتماء العرقي أو اللغوي عنده. حتى ادعى بعض ممن جهل العربية من أبنائها بقصورها، والحق أن التقاعس اللغوي إنما يتحمله الجميع (ساسة و مفكرون) .
- خلق أزمة هوية خاصة في البلدان التي تعاني تنوعا عرقيا واختلافا طائفيا، إذ جعلت أجهزة الإعلام ومحطات البث الكبرى تلتفت إلى الاقليات السكانية وتتنبه إلى خصوصياتها الثقافية وتاريخها و محاولة لبعث لغاتها، وهذا و إن كان له جانبا إيجابيا عند بعض الأقليات، ففي الوطن العربي يخفى من ورائه تحطيم الوحدة السياسية والفكرية واللغوية لبلدانه وأفراد شعوبه .
- شكلت العولمة سيادة لغوية، حيث فرضت اللغة الانجليزية لتهيمن على العالم اقتصاديا وسياسيا و عسكريا، و سيتبع هذا سيادة القيم الخاصة للثقافة الأنجلو سكسونية، ومن ثمة إزاحة اللغات بما فيها العربية وثقافتها عن موقع الجذب والتأثير.
- فرض اللغة الانجليزية على شبكة الاتصال الدولية (انترنت) بما تحمله من فيضان للمعلومات المختلفة، مما أثار فزع الدول التي لا تنطق بالانجليزية و منها كثيرمن الدول العربية ، لأن الأمر لا يقف عند حدود اللغة فقط، بل يتعداها إلى سيادة الثقافة المتصلة بها(17)

لا شك في أن العربية بشهادة كثير من العلماء، تتسم بملامح وسمات لغوية تؤهلها لاستيعاب كل التغييرات المستحدثة والتباينات المختلفة و بذلك فهي مهيئة من داخلها لأن تصبح لغة عالمية .

وقد نجحت العربية في هذا الدور في عصور الازدهار و الفتوحات و كانت أداة فعالة لنقل المعارف و العلوم، حتى قيل في المثال : عجبت لمن يدعي العلم و يجهل العربية، و قد سبق ابن جني (ت 392 هـ) كثيرا من علماء العربية في الحديث عن مواصفات العربية التي تؤهلها إلى أن تكون كذلك، و قد عدد صفاتها و مزاياها اللغوية في أبواب متفرقة من كتابه الخصائص(18) .

وقد خاطب العلماء وأشهدهم على رفعة العربية قائلا : ولو كان لهم أنس بهذه اللغة الشريفة أو تصرف فيها، أو مزاولة لها، لحمتهم السعادة بها، ما أصارتهم الشقوة إليه بالبعد عنها(19) .

ومن أهم الخصائص المعرفية التي ترشح العربية لاتخاذ مكانة عالمية، و مجابهة التحديات العالمية هي جمعها بين كثير من خصائص اللغات الأخرى.

3 – دور العربية في بناء مجتمع المعلومات :

إذا حاولنا بسط القول عن دور العربية في عصر العولمة و المعلومات الذي نعيش حاضره، فإننا نشهد على التقاعس اللغوي الذي تعانيه لغة العرب من هزال يبعدها عن التواصل مع الثقافات الأخرى و ينأى بها عن لزوم موقعها على خارطة المعلومات الدولية.

و من مظاهر الخمول حسبك أن تنظر في وسائل الإعلام، وتنظر في واقع التعليم[20]وواقع البحث فيه.

ومن التحديات التي تواجه العربية، غياب الإرادة القومية في الاصلاح اللغوي، رغم وجود مجامع لغوية، و مؤسسات علمية قومية، كالمنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، فإن هذه المؤسسات تعاني من ضعف التمويل، و تعاني من سلطة القرار الفوقي، فهي لا تملك سلطة التشريع اللغوي و لا تمتلك سلطة تطبيقيه، و كل ما لديها قرارات سرعان ما توضع على الأرفف أو في جبانة الأرشيف .

وعلى النقيض من هذه الحال المؤلمة تسعى الأمم المتطورة إلى حماية لغاتها – رغم صعوبتها – على الخريطة الجيو لغوية، فنجد الصين واليابان تسعى كل واحدة منهما إلى مواجهة الهيمنة الأمريكية على الانترنت، وكانت البداية في بعث مشروع الجيل الخامس من الحواسيب الذي أطلقته اليابان في بداية الثمانينات كرد فعل تكنولوجي يهدف إلى كسر سيادة الانجليزية، و قوبلت في سعيها هذا بعقبات سياسية و اقتصادية من جانب أمريكا لعرقلة هذا المشروع، إلا أن اليابان لم تستسلم لهذه الضغوط، و ركزت على تكنولوجيا الترجمة الآلية مستغلة تفوقها، و لا شك في أن نجاح مشروع الترجمة الآلية و الجيل الخامس سيكسر حاجز القطب اللغوي الأوحد و سيمكنك و أنت عربي أن تفتح جهاز الإعلام الألي فيقوم الجهاز بتحويل كل الكلام المكتوب بالانجليزية إلى لغتك التي تتحدث بها .

والمعلوم أن اللغة في ظل عصر الكمبيوتر و المعلوماتية قد وجدت لنفسها أدوارا جديدة، فاللغة عنصر جوهري و أساس في تداول الأفكار للغات المبرمجة و فيما يصاغ على ساحة الذكاء الاصطناعي، خاصة في الأجيال المتأخرة من الكمبيوترات ،حيث ينتظر أن تؤسس اللغة مجالا آخر تتوسط فيه بين الانسان و الكمبيوتر الذكي، المفكر . و هنا يتعاظم الدور المحوري للغة في تأسيس علاقة علمية بين الانسان و الآلة في كل مستويات تطورها .

والمعلوم أيضا، أن تقنيات الحاسوب قد اتخذت الانجليزية أساسا لها وفرضت قيودا على اللغات الأخرى، و كلما اتسعت مجالات التباين بين الانجليزية و غيرها من اللغات، ازدادت حدة هذه القيود، ومن هنا اجتمعت الصعوبات أمام بناء حاسوب عربي، أو على الأقل تعريب الحاسوب وأصبح حاجز اللغة من أشق الحواجز على المستخدم العربي.

ولقد نجح المفكرون العرب في تعريب جزء من الحاسوب على مستوى اللغة المكتوبة، و لكن ما زال أمر اللغة المنطوقة يحتاج إلى شوط طويل في التعريب، ثم إن تغذية الحاسوب فيما عرب فيه لم تكتمل بالشكل المطلوب في إطار المعجمية الحديثة و المستويات الدلالية و الصرفية و النحوية للغة العربية، و تحتاج إلىجهد مشترك بين اللغويين و الحاسوبيين لإنجازها .

و يمكن الاستفادة من النظم الحديثة للحاسوب و تطويعها لخدمة العربية في أغراض متعددة، نذكر منها :

أ – استخدامه في المعجم الآلي، وذلك :

–العمل على تخزين أكبر كم من المواد اللغوية و ما يتعلق بها من شروح في أقراص بسيطة، صغيرة الحجم، سهلة التناول .

–تحويل معاجم المعاني إلى مجموعة أقراص مثل معاجم المخصص لابن سيده و هو في المعاني، واستغلالها في وضع المسميات العلمية، وغيرها.

–ضبط مجالات دلالية عامة و أخرى فرعية و توزيع الثروة اللغوية على المجالات الدلالية بتحديد و وضوح .

–نقل المؤلفات السابقة المتخصصة في أقراص مثل كتب الأصمعي، ورسائل الجاحظ و غيرها أو المعرب للجواليقي .

2 – في التحليل و التركيب :(التعليم)

–على المستوى الصرفي و النحوي :

–وضع أقراص خاصة بفروع التشكيل الصرفي، لتسهيل تدريسها.

– تحليل الكلمات إلى مقاطع صرفية و وحدات صوتية (سواء في الإدغام أم الإعلال..)

– وضع اقراص مصغرة لكل مجال من مجالات النحو، المرفوعات، المنصوبات، المجرورات .

– إعراب الجمل و توليدها آليا على طريقة المنهج الشكلي الوصفي التوزيعي أو التفسيري (تشومسكي)

الخاتمة:

لا شك في أن العربية هي الجوهرة اللغوية النفيسة في الميراث الثقافي الإسلامي، فهي في نظر الجميع تمثل الكمال في أوجه و ذروته، و لقد تعرضت في مسيراتها إلى هزات عنيفة لكنها لم تقعدها عن سنة التطور.

وأعظم ما يواجه العربية اليوم هي ما يعرف بهيمنة اللغات الغربية خاصة الأنجليزية على مجريات الواقع العالمي فيما يعرف بنظام العولمة الذي تسربت مفاهيمه الثقافية واللغوية إلى أبناء العرب عامتهم وخاصتهم .

لقد أثرت هذه الظاهرة على الوطن العربي في مجالات عديدة فلم تسلم خصوصياته الثقافية

واللغوية منها، حيث تمكنّتًّ العولمة اللغوية من إزاحة العربية وثقافتها من نادي المعلومات العالمي لضعف إنتاج مفكريها من رصيد علمي أمام التدفق المذهل الذي تطلقه الانجليزية خاصة.

في ظل هذا الواقع المرير نؤكد على تكامل الأمن العربي ولعل الأمن اللغوي جزء مهم منه، و هو لا يتأتى إلا بالحفاظ على لغتنا الخالدة وحمايتها من طوفان التغريب الذي لن يقتصر على اللغة كأداة تواصل بل سيمتد إلى مكونات هويتنا وأنماط التفكير عندنا والجذور التي ننتمي إليها .

إن مواجهة العربية لنظام العولمة في الحاضر غير متكافئ، وسيدفعنا إلى حالة أخطر قد يسلب فيها حق تعليم العربية أو حظر بعض فصولها بدعاوى مختلفة و لذلك لزم على الجميع – ساسة ومفكرون – التصدي لهذا القصور والإسراع في وضع وسائل النهوض بالعربية في أيدي المتخصصين و السهر على تنفيذها .

إن البداية لمواجهة العربية للعولمة هو تحقيق حركة إصلاحية جادة و مستمرة بنقل الدرس اللغوي في المستويات التعليمية المختلفة من المعرفة النظرية و الحديث عن اللغة إلى الممارسة العملية للعربية في جميع القطاعات .

الإحالات و المراجع

1 – من التصنيفات الحديثة لحقائق ثقافة أي مجتمع من الناس الأقسام الرئيسية التالية، و قد تم ترتيب القضية الخاصة باللغة في أول المراتب لعظمة هذا المكون الثقافي .

- الكلام، اللغات و طرق الكتابة.
- السمات المادية،مثل عادات الأكل و الملابس.
- المظاهر الفنية، الرسم و الموسيقى.
- الأساطير و الخرافات و الميثولوجيا .
- المزاولات الدينية و تشمل الطقوس و العبادات.
- نظام الأسرة، و نظام الزواج.
- الملكية نحو كيفيات التجارة و أشكالها .
- الأشكال السياسية للحكومات .
- الحرب، و وسائلها و أدواتها.

ينظر حسين الحاج حسن، علم الاجتماع الأدبي، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، ط2، بيروت 1986 ص 248 – 249 .

2 – محمد محمد داود، العربية و علم اللغة الحديث، طبعة دار غريب، القاهرة 2001، ص 279

3– يمتد الوطن العربي بين قارتي آسيا وأفريقيا بين خطي طول :10غربا، 60 شرقا وبين خطي عرض3 جنوبا، 37 شمالا، ويجمع حوالي ثلاث وعشرين دولة، ويبلغ تعداد سكانه حوالي 250 مليون نسمة.

4 – Finegan Edward ،Language in structure and USE ، 2ED

– America ، harcourt Brace college publishers 1999, P 297

5 – في البنية الصرفية: عالم هو اسم جمع.

6 – صيغة «عالمون» ملحق بجمع المذكر السالم، نحو هؤلاء عالمون، خبر مرفوع بالواو ، ورأيت عالمين، منصوب بالياء.

7 – ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار صادر، ط 1، بيروت 1990 ج 12 ص 420، مادة (علم).

8 – الفاتحة 1 / 2.

9 – معاني القرآن و إعرابه، شرح و تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، طبعة عالم الكتب ط 1، بيروت 1988، ج 1 ص 46 .

10 – و منها عالم الانسان، و عالم الحيوان و عالم الطير و الحشرات، و عالم الأدب، و عالم الكتب و غيرها .

11– نور الدين زمام، عولمة الثقافة، المستحيل والممكن، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة ع1، نوفمبر 2001 ص 137 .

12 – السيد يس : العولمة رؤية ابستمولوجية، العولمة والعلوم السياسية، منشورات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ،جامعة القاهرة، ص 39، 45 .

13 – علي الدين هلال، أثر العولمة على السياسة، العولمة و العلوم السياسية، منشورات كلية الاقتصاد و العلوم السياسية، جامعة القاهرة ص 52 و ما بعدها .

14 – الجابري، محمد عابد، في مفهوم العولمة، المستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت عام 1988 .

15 – مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر ط 2 بيروت ص 37 .

16 – مفهوم الغزو الثقافي بمنظار حداثي : هو اعتداء رأسمالي على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها، من أجل استغلالها اقتصاديا، كما يمكن أن نصنفها بأنها غزو دين لدين، وإحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى، ينظر أمين جلال، العولمة، سلسلة أقرأ ع 636، دار المعارف ط 2 القاهرة 1998 .

17 – محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث ص 280 .

18 – الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، طبعة دار الكتاب العربي ينظر، ج 1 ص 40، (للغة مأخوذة قياسا) .

19 – م ن، ج 3 ص 246 .

20 – يكفي النظر إلى واقع الترجمة في الوطن العربي، إضافة إلى واقع نقل المصطلح الأجنبي، فنجدد دويلة مثل إسرائيل تحرم و تمنع استخدام المصطلح الأجنبي في حالة توفر مقابل له بالعبرية .

من الجزائر:
1 – أ. د. محمد العربي ولد خليفة (رئيس المجلس)
2 – د. أبو عبد الله غلام الله (وزير الشؤون الدينية والأوقاف)
3 – د. محيي الدين عميمور (وزير سابق، عضو مجلس الأمة)
4 – أ. د. عبد الرحمان حاج صالح (رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري)
5 – اللواء / محمد علاق (ضابط سام متقاعد)
6 – العميد / الهاشمي هجرس (ضابط سام متقاعد)
7 – د. أحمد بن نعمان (كاتب وباحث)
8 – أ. د. صالح بلعيد (جامعة تيزي وزو)
9 – أ. د. بوزيد بومدين (جامعة وهران)
10 – أ.د. عبد الجليل مرتاض (جامعة تلمسان)
11 – أ. د. رشيد بن مالك (مدير مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية – الجزائر)
12 – أ.د. عبد الكريم بكري (جامعة وهران)
13 – أ. د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام (جامعة باتنة)
14 – أ. د. أحمد بوطرفاية (جامعة ورقلة)
15 – د. سرير إلهام مرتاض (جامعة تلمسان)
16 – أ. د. عبد الرزاق عبيد (جامعة الجزائر)
17 – د. عبد القادر فضيل (إطار سام متقاعد)
18 – د. الهادي شريفي (جامعة تلمسان)
19 – أ. د. مصطفى حركات (جامعة الجزائر)
20 – أ. ونوغي اسماعيل (جامعة سطيف)
21 – د. رشيد حليم (جامعة الطارف)
22 – أ. لخضر بولطيف (جامعة المسيلة)
23 – جميلة راجا (جامعة تيزي وزو)
24 – د. أحمد بن عزوز (جامعة وهران)
25 – محمد بن هندة (جامعي)
26 – أ. صليحة خلوفي (جامعة تيزي وزو)
27 – أ. فريدة بن فضة (جامعة تيزي وزو)
28 – أ. أعراب ويزة (جامعة تيزي وزو)

من المغرب:
29 – أ. د. محمد خرماش
30 – أ. د. محمد الينبعي
31 – د. محمد غاليم
32 – د. محمد القاسمي

من تونس:
33 – أ. د. عبد اللطيف عبيد

من ليبيا:
34 – أ. مهدي مفتاح امبيرش

من الأردن:
35 – أ. د. وليد العناتي
36 – أ. د. محمد العناسوة
37 – أ. د. محمد زكي خضر
38 – أ. د. نهاد الموسى
39 – أ. د. عبد الحميد الفلاح

من فلسطين:
40 – أ. د. رضوان محمد حسين النجار
41 – أ. د. مهدي أسعد عرار (جامعة بير زيت)

من مصر
42 – أ. د. قاسم سارة
43 – أ. د. أيمن مصطفى حجازي

من الكويت:
44 – د. محمد يعقوب الشراح

من سوريا:
45 – د. ممدوح محمد خسارة (جامعي)
46 – د. طلعت الرفاعي
47 – د. عادل نوفل

من لبنان:
48 – أ. د. أحمد شفيق الخطيب
49 – أ. د. سالم المعوش

من البحرين:
50 – عبد القادر فيدوح

من العراق:
51 – أ. د. علي القاسمي

ساهم في هذا العدد

الجزائر

أ.د. محمد العربي ولد خليفة

د. أبو عبد الله غلام الله

د. محي الدين عميمور

أ.د. عبد الرحمان الحاج صالح

اللواء محمد علاق

العميد الهاشمي هجرس

د. أحمد بن نعمان

أ.د. صالح بلعيد

أ.د. بوزيد بومدين

أ.د. عبد الجليل مرتاض

أ.د. رشيد بن مالك

أ.د. عبد الكريم بكري

أ.د. محمد بن ناصر قاسم بوحجام

أ.د. أحمد بو طرفاية

د. سرير إلهام مرتاض

أ.د. عبد الرزاق عبيد

د. عبد القادر فضيل

د. الهادي شريفي

أ.د. مصطفى حركات

أ. اسماعيل ونوغي

د. رشيد حليم

أ. لخضر بولطيف

جميلة راجا

المغرب

أ.د. محمد خرماش

أ.د. محمد الينبعي

د. محمد غاليم

د. محمد اليملاحي

د. محمد القاسمي

تونس

أ.د. عبد اللطيف عبيد

الأردن

أ.د. وليد العناتي

أ.د. محمد العناسوة

أ.د. محمد زكي خضر

أ.د. نهاد الموسى

أ.د. عبد الحميد الفلاح

فلسطين

أ.د. محمد حسين النجار

مصر

أ.د. قاسم ساره

أ.د. أيمن مصطفى حجازي

الكويت

د. محمد يعقوب الشراح

سوريا

د. ممدوح محمد خسارة

د. طلعت الرفاعي

د. عادل نوفل

لبنان

أ.د. أحمد شفيق الخطيب

أ.د. سالم المعوش

أ.د. عبد الله أبوهيف

البحرين

د. عبد القادر فيدوح

العراق

أ.د. علي القاسمي

إنجاز دار الأمـــة - 2009

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت، الجزائر

الهاتف: 25 / 24 07 23 021 الفاكس: 07 07 23 021

ص.ب.: 575 الجزائر - ديدوش مراد

ردمك 978-996167270-9

9 789961 672709